قال الزجاج : ( الطائفة ) فى اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة . انتهى .

وإيقاع الجمع على الواحد معروف فى كلام العرب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ )

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أبعاض الشيء الواحد . والمراد الاتحاد فى الحقيقة والصفة . فـ ( من ) اتصالية .

قال الزمخشريّ : أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم فى قولهم ( ويحلفون بالله إنهم لمنكم ) وتقرير قوله ( وما هم منكم ) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله : « يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ » كالكفر والمعاصي « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » كالإيمان والطاعات « وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ » أى بخلا بالمبرّات ، والإنفاق فى سبيل الله ، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يُعْطِي يمد يده ، بخلاف من يمنع « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » أى أغفلوا ذكره وطاعته ، فتركهم من رحمته وفضله .

قال الشهاب : معنى ( نَسُوا اللَّهَ ) أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم .

قال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى الفسق ، الذى هو التمرد فى الكفر ، والانسلاخ عن كل خير . وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله به المنافقين حين بالغ فى ذمهم . وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول (كسلت) لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله[1] (كُسَالَى) فما ظنك بالفسق ؟ أفاده الزمخشرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ )

« وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ » أى عقاباً وجزاء « وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ )

« كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أنتم مثل الذين أو فعلتم مثلهم ، أى ممن أنعم عليهم

(١) [ ٤ / النساء / ١٤٢ ] و [ ٩ / التوبة / ٥٤ ] .

ثم عذبوا، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد « كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً » في أنفسهم « وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا » أي تفيدهم مزيد قوة ، ومنافع جمة « وَأَوْلَادًا » أي تفيدهم مزيد قوة لا تفوت بفوات المال ، ومنافع أخر « فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ » أي انتفعوا بنصيبهم ، ثم أعطاكم أيها المنافقون أقل مما أعطاهم « فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » أي دخلتم في الباطل ، كالخوض الذى خاضوه ، أو كالفوج الذى خاضوا « أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أي لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ، أما في الآخرة فظاهر ، وأما في الدنيا فما لهم من الذل والهوان وغير ذلك « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أي الذين خسروا الدارين.

روى ابن جريج عن أبي هريرة قال(1) : قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ! لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فمن ؟ وفي رواية قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم القرآن : كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . . . الآية ( قال أبو هريرة: الخَلَاقُ : الدين) قالوا : يا رسول الله ! كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟ وهذا الحديث له شاهد في الصحيح ـ أفاده ابن كثير ـ.

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : أي فائدة في قوله ( فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ )؟ وقوله ( كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ ) مغن عنه ، كما أغنى قوله ( كَالَّذِي خَاضُوا ) عن

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ، بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء العاشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وشاهده في الصحيح ما أخرجه البخاري في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٤ ـ باب قول النبي ﷺ « لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم » ، الحديث رقم ٢٥٨٩ .

أن يقال : وخاضوا لخضتم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الراضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله . وأما ( وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ) فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن ، باستناده إليه ، عن تلك التقدمة .

ثم وعظ تعالى المنافقين بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

« أَلَمْ يَأْتِهِمْ » أى بطريق التواتر « نَبَأُ » أى خبر « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو إهلاكهم بعد تنعيمهم لكفرهم « قَوْمِ نُوحٍ » أنعم عليهم بنعم ، منها تطويل أعمارهم ، ثم أهلكوا بالطوفان « وَعَادٍ » قوم هود ، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم ، ثم أهلكوا بالريح « وَثَمُودَ » قوم صالح ، أنعم عليهم بنعم ، منها القصور ، ثم أهلكوا بالرجفة « وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ » أهلكوا بالهدم ـ كذا فى ( التنوير ) .

وقال المهايمى :أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل فى أنفه « وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ » قوم شعيب ، أنعم عليهم بنعم ، منها التجارة ، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم « وَالْمُؤْتَفِكَاتِ » قريات قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أى انقلبت بهم ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل .

وقوله تعالى « أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » استئناف لبيان نبئهم . أن جاءتهم بالآيات الدالة على رسالتهم « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى بإهلاكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة، بإرسال الرسل ، وإزاحة العلل . والفاء للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام . أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى ، فما ظلمهم بذلك « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بالكفر والتكذيب، وترك شكره تعالى ، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله ، فاستحقوا ذلك العذاب .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ )

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فى مقابلة قوله فى المنافقين(١) ( بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ) « يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى فلا يزالون يذكرونه تعالى ، فهو فى مقابلة ما سبق من قوله(١) ( نَسُوا اللَّهَ ) « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » بمقابلة قوله(١) ( وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ) « وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل أمر ونهى ، وهو بمقابلة وصف المنافقين ، بكمال الفسق والخروج عن الطاعة « أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٦٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ )

« وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً » أى منازل حسنة تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش « فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى إقامة وثبات. ويقال ( عَدْنٍ ) علم لموضع معين فى الجنة ، لآثارٍ فيه ، ولما كان ( وَمَسَاكِنَ ) معطوفاً على ( جَنَّاتٍ ) قيل : إن المتعاطفين إما أن يتغايرا بالذات ، فيكونوا وُعِدُوا بشيئين ، وهما الجنات بمعنى البساتين ومساكن فى الجنة ، فلكل أحد جنة ومسكن . أو الجنات المقصود بها غير عدن ، وهى لعامة المؤمنين ، و(عَدْنٍ) للنبيين عليهم الصلاة والسلام والشهداء والصديقين. وإما أن يتحدا ذاتاً . ويتغايرا صفة ، فينزل التغاير الثانى منزلة الأول ، ويعطف عليه ، فكل منهما عام ، ولكن الأول باعتبار اشتمالها على الأنهار والبساتين ، والثانى باعتبار الدور والمنازل .

قال القاضى : فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التى يعرفونها لتميل إليه طباعهم ، أول ما يقرع أسماعهم ، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى من شوائب الكدورات التى لا تخلو عن شىء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين ، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر ، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة ، وبه ينياط نيل كل شرف وسيادة ، ولعل عدم نظمه فى

سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود ، ولأنه مستمر في الدارين. أفاده أبو السعود .

وإيثار رضوان الله على ماذكر ، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك .

وقد روى الإمام مالك والشيخان[1] عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: ياأهل الجنة افيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب؛ وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وروى المحامليّ والبزار عن جابر ، رفعه: إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عزوجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا ! ما هو خير مما أعطيتنا ؟ قال: رضواني أكبر .

« ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أي لا ما يعدّه الناس فوزاً من حظوظ الدنيا .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ )

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » قيل : مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف . قال في ( العناية ) ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين ، وهم غير مظهرين للكفر ، ونحن مأمورون بالظاهر ، فلذا فسر الآيةَ السلفُ بما يدفع ذلك ، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء كان بالقتال أو بغيره ، وهو إن كان حقيقة فظاهر ، وإلا

---

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار : حديث رقم ٢٤٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٩ (طبعتنا) .

حمل على عموم المجاز، فجهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج، وإزالة الشبه ونحوه . أو بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجبها ، كما روى عن الحسن فى الآية . وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً ، وأجيب بأنها فى زمنه ﷺ أكثر ما صدرت عنهم . انتهى .

قال ابن العربى[1] : هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصى بمنافق ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامنا ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

وقال ابن كثير : روى عن علىّ رضى الله عنه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين[2] : ( فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ) ؛ وسيف للكفار أهل الكتاب[3] : ( قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ) الآية ـ ؛ وسيف للمنافقين[4] : ( جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ) وسيف للبغاة[5] : ( فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي . . . ) الآية ـ وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . انتهى .

وفى ( الإكليل ) استدل بالآية من قال بقتل المنافقين . انتهى .

« وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » أى اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

---

(١) أحكام القرآن : ص ٩٦٦ من القسم الثانى ، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى .

(٢) [ ٩ / التوبة / ٥ ] . (٣) [ ٩ / التوبة / ٢٩ ] .

(٤) [ ٩ / التوبة / ٧٣ ] و [ ٦٦ / التحريم / ٩ ] . (٥) [ ٤٩ / الحجرات / ٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ )

« يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا » أى فيك شيئاً يسوءك « وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ » قال قتادة(1) : نزلت فى عبدالله بن أبىّ ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهنىّ وأنصارىّ ، فعلا الجهنىّ على الأنصارىّ ، فقال عبدالله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ! والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : ( سمّن كلبك يأكلك ) . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبىّ ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

وروى الأموىّ فى مغازيه عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت ـ وكان ممن تخلف من المنافقين ـ لما سمع ما ينزل فيهم قال : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول، لنحن شرٌّ من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، وكان فى حجره ، فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلىّ ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم علىّ أن يصله شىء تكرهه ، ولقد قلت مقالة ، فإن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتمتها لتهلكنى ، ولإحداها أهون علىّ من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، أتى رسول الله ﷺ ، فحلف بالله ما قالها ، فأنزل الله عز وجل فيه ( يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ... ) الآية ـ فوقفه رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، ونزع فأحسن النزوع .

(1) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء العاشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وهاتان الروايتان وغيرهما مما روى هنا ، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل ، وإن لم يتمكنا تعيين شيء منها في هذه الآية .

وقوله تعالى : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » قال ابن كثير : قيل أنزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته ، لما رفع كلمته المتقدمة إلى النبيّ صلوات الله عليه. وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبيّ ﷺ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي ، في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلا . قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية . قال الإمام أحمد في مسنده[1] : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ،ويسوق به عمّار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، غشوا عمارا ، وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول ﷺ لحذيفة : قُدْ قُدْ . حتى هبط رسول الله ﷺ . فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ، ورجع عمار ! فقال : يا عمار ! هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدرى ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه . قال : فسابّ عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا . فقال : إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعدّد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا مناديَ رسول الله ﷺ ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . « وَمَا نَقَمُوا » أي ما أنكروا وما عابوا « إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » فإنهم كانوا قبل مقدمه ﷺ المدينة في ضنك من العيش ، فأثروا بالغنائم ، وقتل للجلاس

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٥٣ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ).

مولى ، فأمر له النبيّ ﷺ بديته فاستغنى . والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبيّ ﷺ ما همّوا به ، ولا ذنب إلا تفضله عليهم ، فهو على حد قولهم : مالى عندك ذنب إلا أنى أحسنت إليك ، وقول ابن قيس الرقيّات(١) :

ما نَقِمَ الناسُ من أُميَّةَ إلا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إنْ غَضِبُوا

وقول النابغة(٢) :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويقال : نقم من فلان الإحسان ( كعلم ) إذا جعله ممـا يؤديه إلى كفر النعمة . كما فى ( التاج )ـ ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله: « فَإِنْ يَتُوبُوا » أى من الكفر والنفاق « يَكُ خَيْراً لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والهم والغم « وَالْآخِرَةِ » أى بالنار وغيرها « وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ » أى يشفع لهم فى دفع العذاب « وَلَا نَصِيرٍ » أى فيدفعه بقوته .

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ونصه فيه : ما نقموا من بنى أمية إلا ... الخ .

قال شارح الشواهد: هو لابن قيس الرُّقيَّات . يعنى أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحاً، وهو الحلم عند الغضب ، وذلك أصل الشرف والسيادة .

والبيت من قصيدة مطلعها :

عـاد له من كثيرةَ الطربُ ... فعينه بالدموعِ تنسكبُ

يمدح بها عبدالملك بن مروان ( انظر: ص٤٠ ج٦ ) فى: رغبة الآمل من كتاب الكامل.

(٢) من شواهد الكشاف . قال شارحه : هـو للنابغة الذبيانىّ من قصيدته المشهورة التى أولها :

كِليني لهمٍّ يا أميـةُ ناصبِ ... وليـلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

وفلول السيف كناية عن كمال الشجاعة ، فكونه من العيب محال .

ثم بيّن تعالى بعض مَنْ نقم لإغناء الله تعالى إياه بما آتاه من فضله ، ممن نكث فى يمينه ، وتولى عن التوبة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » أى حلف به « لَئِنْ أَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى بإعطاء كل ذى حق حقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( فَلَمَّا ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ )

« فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا » أى من العهد « وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ )

« فَأَعْقَبَهُمْ » أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك ، أو فأورثهم البخل « نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ » أى من التصدق والصلاح « وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » فى العهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ )

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين « وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى ما غاب عن العباد .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ فى ( لباب النقول ) : أخرج الطبرانيّ وابن مردويه وابن أبى حاتم والبيهقيّ فى ( الدلائل ) بسند ضعيف عن أبى أمامة ؛ أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله! ادع الله أن يرزقنى مالًا . قال : ويحك يا ثعلبة ! قليل تؤدى شكره ، خير من كثير لا تطيقه . قال : والله لئن آتانى الله مالًا لأوتين كل ذى حق حقه . فدعا له ، فاتخذ غنمًا ، فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعى المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ، ثم نمت ، فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعات . ثم أنزل الله على رسوله[1] ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) ، فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتابًا ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتم فمروا بى ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله ( وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ) إلى قوله ( يَكْذِبُونَ ) الحديث .

وأخرج ابن جرير[2] وابن مردويه من طريق العوفيّ عن ابن عباس نحوه ، وفيه أنه جاء بعدُ إلى النبيّ ﷺ بصدقته فقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه . فقال : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ، وكذا عمر وعثمان ، ثم إنه هلك فى أيام عثمان .

قال الشهاب : مجىء ثعلبة وحثوه التراب ، ليس للتوبة من نفاقه ، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين . وقوله صلوات الله عليه : هذا عملك ، أى جزاء عملك ، وهو عدم إعطائه المصدقين ، مع مقالته الشنعاء .

---

(١) [ ٩ / التوبة / ١٠٣ ] . (٢) انظر تفسير ابن جرير ص ١٨٩ من الجزء العاشر ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

قال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق ؟ أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترئ الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وردّ سماة النبيّ ﷺ ، ويكون لطفاً فى ترك البخل والنفاق .

الثانى ـ قال بعض المفسرين من الزيدية : ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام :

منها ـ أن الوفاء بالوعد واجب ، إذا تعلق العهد بواجب . والعهد إن حمل على اليمين بالله ، فذلك ظاهر ، وإن حمل على النذر ، ففى ذلك تأكيد لما أوجب الله .

ومنها ـ أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحةٍ ، أى يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجهَ الذى حصل فى قصة ثعلبة . انتهى .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق ، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان . وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله : ( فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ) واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا فلله علىّ كذا ، أنه يلزمه . وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه . كما فعل بمن نزلت الآية فيه . انتهى .

الرابع ـ قال الرازىّ : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد ، يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به . ومذهب الحسن البصرىّ رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية ، وبقوله عليه السلام[1] : ( ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ).

---

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ ـ ١١٠ ( طبعتنا ) .

الخامس ـ دل قوله تعالى : ( إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ) على أن ذلك المعاهد مات منافقاً . قال الرازيّ : وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له ، فإنه روى أن ثعلبة أتى النبيّ ﷺ بصدقته فقال : إن الله تعالى منعني أن أقبل صدقتك . وبقي على تلك الحالة . وما قَبِلَ أحدٌ من الخلفاء رضي الله عنهم صدقته حتى مات . فكان إخباراً عن غيب ، فكان معجزاً .

السادس ـ الضمير في ( يلقونه ) للفظ الجلالة ، والمراد بـ ( اليوم ) يوم القيامة . وله نظائر كثيرة في التنزيل . وأغرب بعض المفسرين حيث قال : الضمير في ( يلقونه ) إما لله ، والمراد باليوم وقت الموت ، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف ، وهو الجزاء . انتهى .

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاء مناسباً لحالهم من وقوفهم للحساب مع حجبهم عنه تعالى ، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته ، تقدس اسمه . وإذا أضيف إلى المؤمنين ، كما في قوله تعالى (١) : ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ) ، كان لُقْيا مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى . وذلك لِمَا أفصحت عنه آيات أخر من حال الفريقين ، مما يتنزل مثل ذلك عليها . فمن وقف في بعض الآيات على لفظة ، وأخذ يستنبط منها ، ولم يراع من استعملت فيه ، وأطلقت عليه ، كان ذلك جموداً وتعصباً ، لا أخذاً بيد الحق . نقول ذلك ردًّا لقول الجبائيّ : إن اللقاء في هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى ، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى ، فلا يفيدها أيضاً في قوله تعالى : ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ) . وللرازيّ معه مناقشة من طريق أخرى . وما ذكرناه أمتن . والله أعلم .

السابع ـ قال الرازيّ : ( السر ) ما ينطوي عليه صدورهم ، و ( النجوى ) ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجو ، وهو الكلام الخفيّ ، كأن المتناجيَيْن مَنَعَا إدخال غيرهما معهما ، وتباعدا من غيرهما .

ثم بين تعالى من مساوئ المنافقين نوعاً آخر ، وهو لمزهم المتصدقين بقوله سبحانه :

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ » أى يعيبون « الْمُطَّوِّعِينَ » أى المتبرعين « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ » فيزعمون أنهم تصدقوا رياءً « وَالَّذِينَ » أى ويلمزون الذين « لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » أى لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلًا ، وهو مقدار طاقتهم « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ » أى يهزؤون بهم ، ويقولون إن الله غنيّ عن صدقتهم « سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » أى جازاهم على سخرهم « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى البخاريّ[1] فى صحيحه عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة ، كنا نحامل[2] فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا : مرائى . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنيّ عن صدقة هذا ، فنزلت : ( الَّذِينَ يَلْمِزُونَ . . . ) الآية ـ ورواه مسلم[3] أيضاً .

وروى الإمام أحمد[4] عن أبى السليل عن رجل حدثه عن أبيه أوعمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من يتصدق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة ؟ فجاء رجل لم أر رجلًا أشدّ منه سواداً ، ولا أصغر منه ولا أدمّ ، بناقة لم أر أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهى خيرمنه ! فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ! بل هو خير منك ومنها ( ثلاث مرات ) . ثم قال : ويل لأصحاب الإبل إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٤ كتاب الزكاة ، ١٠ ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث رقم ٧٥٥ (٢) أى نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة . (٣) أخرجه مسلم فى: ١٢ ـ كتاب الزكاة، حديث ٧٢ ( طبعتنا ) . (٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ) .

قال ابن إسحاق(١) : كان المطّوّعون من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف ، وعاصم بن عدىّ أخا بنى عجلان . وذلك أن رسول الله ﷺ رغّب فى الصدقة ، وحضّ عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عدىّ وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذى تصدق بجهده أبا عقيل ، أخا بنى أنيف ، أتى بصاع من تمر ، فأفرغها فى الصدقة فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنىّ عن صاع أبى عقيل .

وروى الحافظ البزار فى مسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثاً . فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ! عندى أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما لربى ، وألفين لعيالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت . وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ! أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربى ، وصاع لعيالى . قال ، فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله الآية . وقوله عليه الصلاة والسلام ( أريد أن أبعث بعثاً ) أى لغزو الروم ، وذلك فى غزوة تبوك .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية تحريم اللمز والسخرية بالمؤمنين ، انتهى .

الثانى ـ فى ( الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ) وجوه من الإعراب : خبر مبتدأ بتقدير ( هُمُ الَّذِينَ ) أو مفعول أعنى أو أذم الذين ، أو مجرور بدل من ضمير ( سِرَّهُم ) ، وجوّز أيضاً أن يكون

---

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة رقم ٩٢٦ ( طبعة جوتنجن ) وصفحة ١٩٦ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

مبتدأ خبره ( سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ) ، وقيل : ( فَيَسْخَرُونَ ) ، ودخلت ( الفاء ) لما فى ( الَّذِينَ ) من الشبه بالشرط . وأما ( الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ) . . . الخ فقيل : معطوف على ( الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ) وقيل : ( عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) ، والأحسن أنه معطوف على ( المطوعين ) .

قال فى ( الفتح ) : ويكون من عطف الخاص على العام ، والنكتة فيه التنويه بالخاص ، لأن السخرية من المقلّ أشدّ من المكثر غالباً .

الثالث ـ قال فى ( الفتح ) : قراءة الجمهور ( الْمُطَّوِّعِينَ ) بتشديد الطاء والواو . وأصله المتطوعين ، أدغمت التاء فى الطاء . انتهى . أى لقرب المخرج . والتطوع التنفّل ، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب . و ( الجهد ) ، قال الليث : هو شيء قليل يعيش به المقلّ ، وبضم الجيم قرأ الجمهور . وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح ، فقيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : المفتوح بمعنى المشقة ، والمضموم بمعنى الطاقة . وقيل: المضموم قليل يعاش به ، والمفتوح: العمل . والمختار أنهما بمعنى ، وهو الطاقة وما تبلغه القوة . قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغيرهم . والهزء والسخرية بمعنى .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ )

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين « أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى فإنهما فى حقهما سواء . ثم بيّن استحالة المغفرة لهم وإن بولغ فى الاستغفار بقوله تعالى : « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ » أى عدم الغفران لهم « بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن حدوده .

## تنبيهات :

الأول ـ جملة قوله تعالى ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ) الخ، إنشائية لفظاً، خبرية معنى . والمراد التسوية بين الاستغفار لهم، وتركه، في استحالة المغفرة . وتصويره بصورة الأمر، للمبالغة في بيان استوائهما . كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال ، بأن يستغفر تارة ، ويترك أخرى ، ليظهر له جلية الأمر ، كما مر في قوله تعالى[1] ( قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ) ، وقد وردت بصيغة الخبر في سورة « المنافقون » في قوله تعالى[2] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ) .

الثاني ـ قال الزمخشري : ( السبعون ) جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير . قال علي ابن[3] أبي طالب عليه السلام :

لأُصَبِّحَنَّ العاصَ وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النَّوَاصي .

أي فذكرها للمبالغة في حسم مادة الاستغفار لهم ، جريا على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتحديد ، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقال أبو السعود : شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير ، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنها العدد بأسره . وقيل : هي أكمل الأعداد ، لجمعها معانيها ، ولأن الستة أول عدد تامّ ، لتعادل أجزائها الصحيحة ، إذ نصفها ثلاثة ، وثلثها

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٥٣ ] . (٢) [ ٦٣ / المنافقون / ٥ و٦ ] .

(٣) استشهد به في الكشاف قال شارح الشواهد : أي لأسقين الصَّبوح . والعاص ، إن روي بالكسر ، فعلى الوصف بالعصيان ، وإن روي بالفتح فكأنه أريد القبيلة ، وهو عمرو بن العاص . و( سبعين ) ثاني مفعولي ( لأصبحن ) . والمراد الفرسان العاقدي نواصي الخيل من عادة العرب أن تستعمل مثل هذا العدد للكثرة ...

اثنان ، وسدسها واحد ، وجملتها ستة ، وهى مع الواحد سبعة ، فكانت كاملة؛ إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال . ثم السبعون غاية الكمال ، إذ الآحاد غايتها العشرات . والسبعمائة غاية الغايات ـ انتهى ـ .

الثالث ـ روى البخارىّ[1] وغيره أن النبىّ ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبىّ : إنما خيّرنى الله فقال : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الآية وسأزيده على السبعين . فظاهر هذا أن ( أو ) للتخيير ، وأن السبعين له حدٌّ يخالفه حكم ما وراءه ، وهو من الإشكال بمكان . ولذا قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف خفى على رسول الله ﷺ ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ؟ والذى يفهم من هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله : ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا . . . ) الآية - فبين الصارف عن المغفرة لهم ، حتى قال : قد رخص لى ربى فسأزيد على السبعين . ثم أجاب الزمخشرىّ بقوله : قلت لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام[2] : ( وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ )وفى إظهار النبىّ صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . انتهى .

قال الشراح : يعنى أنه أوقع فى خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير ، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة ، كما جعل إبراهيم ﷺ جزاء من عصانى أى لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام ، قوله ( فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) دون أن يقول : ( شديد العقاب ) فخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم ، وحثًّا على الاتباع . وفهمُ المعنى الحقيقىّ من

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ باب قوله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ، حديث ٧٢٢ .

(٢) [ ١٤ / إبراهيم / ٣٦ ] .

لفظ اشتهر مجازه ، لا ينافى فصاحته ، ومعرفته باللسان ، فإنه لا خطأ فيه ، ولا بعد ، إذ هو الأصل . ورجحه عنده شغفه بهدايتهم ، ورأفته بهم ، واستعطاف من عداهم .

قال الناصر : وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار ، ولم يصححه ، وتغالى قوم فى قبوله ، حتى إنهم اتخذوه عمدة فى مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفى الغفران بالسبعين ، ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم . وقيل : لما سوى الله بين الاستغفار وعدمه ، ورتب عليه عدم القبول ، ولم ينه عنه ، فهم أنه خير ومرخص فيه ، وهذا مراده ﷺ ، لا أنه فهم التخيير من ( أو ) ، حتى ينافى التسوية بينهما ، المرتب عليها عدم المغفرة ، وذلك تطييباً لخاطرهم ، وأنه لم يأل جهدا فى الرأفة بهم .

قال الشهاب : والتحقيق أن المراد التسوية فى عدم الفائدة ، وهى لا تنافى التخيير ، فإن ثبت فهو بطريق الاقتضاء ، لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما ، فلابد من أحدهما . فقد يكون فى الإثبات كقوله تعالى[1] ( سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ) لأنه مأمور بالتبليغ ، وقد يكون فى النفى كما هنا ، وفى قوله[2] : ( سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ... ) الآية ـ فهو محتاج إلى البيان . ولذا قال النبيّ ﷺ : (إنه رخص لى) ولعله رخص له فى ابن أبيّ لحكمة ، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : روى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ) قال النبيّ ﷺ : لأزيدنّ على السبعين ، فأنزل الله تعالى « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ثم قال: ويحتمل أن تكون الآيتان مما نزلتا فى ذلك انتهى.

ثم أشار تعالى إلى نوع آخر من مساوئ المنافقين وهو جعلهم الفرح مكان الحزن ، والكراهة مكان الرضا بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٦ ] . (٢) [ ٦٣ / المنافقون / ٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ )

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ » المخلفون : هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم فى التخلف كما قلنا ، أو لأنه خلفهم فى المدينة فى غزوة تبوك . وإيثار (الْمُخَلَّفُونَ) على ( المتخلفون ) ، لأنه ﷺ منع بعضهم من الخروج ، فغلب على غيرهم . أو المراد من خلفهم كسلهم أو نفاقهم . أو لأن الشيطان أغراهم بذلك ، وحملهم عليه . وقوله تعالى: ( بِمَقْعَدِهِمْ ) متعلق بـ ( فرح ) ، أى بقعودهم عن غزوة تبوك . فـ ( مقعد ) على هذا مصدر ميمىّ ، أو هو اسم مكان ، والمراد به المدينة . وقوله ( خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ) أى خلفه ، وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا . فـ (خلاف) ظرف بمعنى خلف وبعد . يقال: فلان أقام خلاف الحىّ أى بعدهم ، ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ ( خلف رسول الله ) ، فانتصابه على أنه ظرف لـ ( مقعدهم ) ، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك .

قال الشهاب : واستعمال ( خلاف ) بمعنى ( خلف ) لأن جهة الخلف خلاف الأمام ، وجوز أن يكون ( الخلاف ) بمعنى ( المخالفة ) ، فهو مصدر ( خالف ) ، كالقتال . ويعضده قراءة من قرأ ( خُلف رسول الله ) بضم الخاء ، وفى نصبه وجهان :

الأول ـ أنه مفعول له ، والعامل إما ( فرح ) أى فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود . وإما ( مقعدهم ) أى فرحوا بقعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام ، فهو علة إما للفرح أو للقعود .

والثانى ـ أنه حال، والعامل أحد المذكورين، أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقعود، أو فرحوا بالقعود مخالفين له .

وقوله تعالى : ( وَكَرِهُوا ) الخ أى لما فى قلوبهم من مرض النفاق .

قال أبو السعود : وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : ( وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو ) إيذاناً بأن الجهاد فى سبيل الله ، مع كونه من أجلّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التى يجب أن يتنافس بها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله ﷺ .

قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى ( وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ) تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض ( أى الراحة والتنعم بالمآكل والمشارب ) وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه ؟ وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيقان .

قال الشهاب : ووجه التعريض ظاهر ، لأن المراد كرهوه ، لا كالمؤمنين الذين أحبوه .

وقوله تعالى : « وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ » أى قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد فى الحر ، فإنه لا يستطاع شدته . وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، وذلك تثبيطاً لهم على التخلف ، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد . أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ، ونهياً عن المعروف ، وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود . فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهية الجهاد ، ونهى الغير عن ذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى : « قُلْ » أى ردًّا عليهم وتجهيلًا لهم « نَارُ جَهَنَّمَ » أى التى ستدخلونها

عما فعلتم « أَشَدُّ حَرًّا » أى مما تحذرون من الحرّ المعهود ، وتحذّرون الناس منه ، فما لكم لا تحذرونها ، وتعرضون أنفسكم لها ، بإيثار القعود على النفير .

وقوله تعالى : « لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » اعتراض تذييليّ من جهته تعالى ، غير داخل تحت القول المأمور به ، مؤكد لمضمونه . وجواب ( لو ) إما مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هى؛ أو أن مآلهم إليها ـ لما فعلوا ما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزام . وإما غير منوىّ ، على أن ( لو ) لمجرد التمنى المنبئ عن امتناع تحقق مدخولها . أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقه ، كما فى قوله تعالى[1] ( قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) كذا فى ( أبى السعود ) ـ .

## تنبيهان :

الأول ـ قال الزمخشرىّ : قوله تعالى ( قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ . . )الخ ، استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل . ولبعضهم[2] :

مَسَرَّةُ أحقابٍ تَلَقَّيْتَ بَعْدَهَا ... مساءةَ يوم ، أريُها[3] شِبْهُ الصَّابِ

فكيف بأَنْ تلقَ مَسَرَّةَ ساعة ... وَرَاءَ تقضّيها مَسَاءَةُ أَحْقَابِ

ـ انتهى ـ .

(١) [ ١٠ / يونس / ١٠١ ] . (٢) استشهد به فى الكشاف .

قال الشارح : قوله ( مسرة أحقاب ) مبتدأ ، خبره ( أَرْيُهَا شِبْهُ الصَّاب ) والأحقاب: الأزمان الكثيرة ، واحدها : حُقُب . والأَرْيُ : العسل . والشبه : المثل . والصاب : نبت مرّ ، وقيل : الحنظل . يقول : مسرة أزمان كثيرة ، ترى بعدها مساءة يوم ، هى فى الحقيقة مثل الصاب مرارةً . فكيف بأن تلق مسرة ساعة وتقع ، بسبب تلك المسرّة ، فى مشقة الأبد ؟

(٣) الأرى ما لزق بأسفل القدر والعسل . والصاب : شجر مرّ ( قاموس ) .

أى فهم كما قال الآخر :

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال آخر :

عمرك بالحِمية أفنيته   خوفاً من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقى   من المعاصى حَذَرَ النارِ

الثانى ـ روى الإمام مالك[1] والشيخان عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : نار بنى آدم التى يوقدون بها ، جزء من سبعين جزءاً ـ زاد الإمام أحمد : من نار جهنم .

وروى الشيخان[2] عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لَمَنْ له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى الْمِرجل . لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً .

ثم أخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل ، والبكاء الطويل ، المؤدى إليه أعمالهم السيئة ، التى من جملتها ما ذكر من الفرح ، بقوله سبحانه .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٥٧ ـ كتاب جهنم ، حديث رقم ١ ( طبعتنا ) .
وأخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٠ ـ باب صفة النار وأنها مخلوقة ، حديث رقم ١٥٤٥ .
وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٣٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٦٥ .
وأخرجه مسلم فى : ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٣ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا » أى ضحكاً قليلًا ، أو زماناً قليلًا ، غايته مدة حياتهم «وَلْيَبْكُوا كَثِيراً » أى بكاء، أو زماناً كثيراً ، بعد الموت، أبد الآباد « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى بفرحهم بمخالفة الله ورسوله ، من الكفر والمعاصى العظائم .

## لطائف :

الأولى ـ سرّ إخراج حالهم الدنيوىّ والأخروىّ على صيغة الأمر ، الدالة على تحتم وقوع المخبر به ، فإن أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به . فإن قيل : إنهم ذكروا أنه يعبر عن الأمر بالخبر للمبالغة ، لاقتضائه تحقق المأمور به ، فالخبر آكد ، فما باله عكس هنا ؟ فالجواب : لامنافاة بينهما ، لأن لكل مقام مقالاً ، والنكت لاتتزاحم ، فإذا عبر عن الأمر بالخبر ، لإفادة أن المأمور ، لشدة امتثاله ، كأنه وقع منه ذلك ، وتحقق قبل الأمر ـ كان أبلغ . وإذا عبر عن الخبر بالأمر كأنه لإفادة لزومه ووجوبه ، فكأنه مأمور به ـ أفاد ذلك مبالغة من جهة أخرى .

الثانية ـ الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله : ( بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) دلالة على الاستمرار التجددىّ ما داموا فى الدنيا .

الثالثة ـ ( جزاءً ) مفعول له للفعل الثانى . أى ليبكوا جزاء . أو مصدر حذف ناصبه . أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاءً .

ولما جلّى سبحانه ما جلى من أمرهم ، فرّع عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ )

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ » أى ردّك من غزوة تبوك « إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ » أى من المنافقين المتخلفين فى المدينة « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ » معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، دفعاً للعار السابق « فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى نخذلكم الله ، وسقطتم عن نظره ، بل غضب عليكم ، وألزمكم العار « فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » أى من النساء والصبيان دائماً .

## لطائف :

قوله تعالى : ( لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ) إخبار فى معنى النهى للمبالغة ، وذكر القتال لأنه المقصود من الخروج . فلو اقتصر على أحدهما كفى إسقاطاً لهم عن مقام الصحبة ، ومقام الجهاد ، أو عن ديوان الغزاة ، وديوان المجاهدين ، وإظهاراً لكراهة صحبتهم ، وعدم الحاجة إلى عدّهم من الجند . أو ذكر الثانى للتأكيد ، لأنه أصرح فى المراد ، والأول لمطابقته لسؤاله كقوله :

* أَقُولُ لَهُ ارْحَلْ لَا تُقِيمَنَّ عِنْدَنَا *

فهو أدل على الكراهة لهم ـ أفاده الشهاب ـ .

قال أبو السعود : فكان محوُ أساميهم من دفتر المجاهدين ، ولزّهم فى قَرَن الخالفين ، عقوبة لهم أىّ عقوبة . ثم قال : وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث ، هو الأكثر الدائر على الألسنة . فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول : هى كبرى امرأة ، أو أُولى مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ )

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا » قال المهايمىّ : لأنها شفاعة ، ولا شفاعة فى حقهم « وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ » أى لا تقف عليه للدفن أو الزيارة والدعاء . قال الشهاب : القبر مكان وضع الميت ، ويكون بمعنى الدفن ، وجوّز هنا : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » فى الحياة فى الباطن « وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن الإيمان الظاهر ، الذى كانوا به فى حكم المؤمنين .

تنبيهات :

الأول ـ روى الشيخان(١) فى سبب نزول الآية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما توفى عبد الله بن أبىّ ، جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيّرنى الله فقال(٢) : ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل آية ( وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم . . . ) الخ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٣ ـ باب قوله : وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ، حديث رقم ٦٧٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٥ ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٩ / التوبة / ٨٠ ] .

قال الحافظ أبو نعيم : وقع فى رواية فى قول عمر : ( أتصلى عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ ولم يبيّن محل النهى . فوقع بيانه فى رواية أبى ضمرة عن العمرىّ : وهو أن مراده بالصلاة عليهم الاستغفار لهم ، ولفظه ( وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ) انتهى. يعنى فى قوله تعالى(١): ( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ) فإنها نزلت فى قصة أبى طالب حين قال ﷺ : لأستغفرنّ لك ، ما لم أُنْهَ عنك. وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، ووفاة عبد الله بن أبىّ فى ذى القعدة سنة تسع بعد قدوم النبىّ ﷺ من تبوك . كذا فى ( فتح البارى ) .

ووقع فى مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه . قال عمر : لما توفى عبد الله ابن أبىّ دُعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه ، تحولتُ حتى قمتُ فى صدره فقلت : يا رسول الله ! أعلى عدوّ الله: عبد الله ابن أبىّ القائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ يعدّد أيامه ـ قال : ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : أَخِّرْ عنى يا عمر . إنى خيرت فاخترت . قد قيل لى : ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . ) الآية ـ لو أعلم أنى لو زدت على السبعين ، غُفِرَ له ، لزدت. قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه . قال: فعجبت من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ! ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ( وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ) الآية ـ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل .

---

(١) [ ٩ / التوبة / ١١٣ ] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٦ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٩٥ ( طبعة المعارف ) تحقيق شيخنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

ورواه البخاري [١] والترمذي [٢] أيضا .

وروى الإمام أحمد [٣] عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبي ، أتى ابنه النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنك إن لم تأته لم نزل نعيّر به ، فأتاه النبي ﷺ ، فوجده قد أدخل في حفرته فقال : أفلاَ قبلَ أن تدخلوه ؟ فأخرج من حفرته ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه [٤] . ورواه النسائي . وروى [٥] نحوه البخاري والبزار في مسنده ، وزاد : فأنزل الله الآية . زاد [٦] ابن إسحاق في المغازي بسنده قال : فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله ، ولا قام على قبره .

وقد روى [٧] الإمام أحمد عن أبي قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن أُثنِيَ عليها خير قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك ، قال لأهلها : شأنكم بها . ولم يصل عليها .

الثاني ـ إنما منع ﷺ من الصلاة على أحدهم إذا مات ، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له . والكافر ليس بأهل لذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ١٢ـ باب قوله : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً... ، حديث رقم ٧٢٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٢ ـ حدثنا عبد بن حميد ، و١٣ ـ حدثنا محمد بن بشار . (٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبي ) . (٤) أخرجه النسائي في : ٢١ ـ كتاب الجنائز ، ٩٢ ـ باب إخراج الميت من اللحد بعد أن يوضع فيه . (٥) أخرجه البخاري في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٢٣ ـ باب الكفن في القميص الذي يكف ، أو لا يكف ، ومن كفّن بغير قميص ، حديث رقم ٦٧٦ . (٦) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٩٢٧ ( طبعة جوتنجن ) وصفحة ١٩٧ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبي ) . (٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) .

الثالث ـ قال: السيوطيّ في ( الإكليل ) : في قوله تعالى( وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ... ) الآية ـ تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، وأن دفنه جائز : ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ، ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له ، والاستغفار . انتهى .

قال عثمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسْأل ـ انفرد بإخراجه أبو داود (١) ـ .

الرابع ـ قال الحافظ ابن حجر في ( الفتح ) : ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين ، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم: قال الواقديّ : انبأنا معمر عن الزهري قال : قال حذيفة : قال لي رسول الله ﷺ : إني مُسِرٌّ إليك سرًّا ، فلا تذكره لأحد . إني نهيت أن أصلّي على فلان وفلان ، رهطٍ ذوي عدد من المنافقين . قال ، فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى معه ، وإلا لم يصلِّ عليه .

ومن طريق أخرى ، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً . وقال حذيفة مرة : إنه لم يبق منهم غير رجل واحد . ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك ، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر ، بخلاف من سواهم ، فإنهم تابوا . انتهى .

ثم بين تعالى أن دوام غضبه عليهم لا ينافي إعطاءهم الأموال والأولاد ، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ )

« وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ » أي لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها ، ليدل على

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ ـ كتاب الجنائز ، ٦٩ ـ باب الاستغفار عند القبر للميت ، حديث رقم ٣٢٢١ .

رضاه عنهم ، بل الانتقام منهم ، قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا » أى بالمشقة فى تحصيلها وحفظها والحزن عليها « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ )أى فيموتون كافرين غافلين عن التدبر فى العواقب . وقد تقدمت الآية فى هذه السورة مع تغاير فى ألفاظها.

قال الزمخشرى : أعيد قوله ( وَلَا تُعْجِبْكَ ) ، لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بالٍ من المخاطب لا ينساه ، ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم ، يفتقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه . وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه . انتهى .

وقال الفارسى : ليست للتأكيد ، لأن تيك فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقد تغاير نطقها ، فهنا : ( وَلَا ) ، بالواو لمناسبة عطف نهى على نهى قبله فى قوله : ( وَلَا تُصَلِّ... )الخ فناسب الواو . وهناك بالفاء لمناسبة التعقيب لقوله قبله : ( وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) أى للإنفاق . فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهى عن الإعجاب المتعقب له . وهنا : وأولادهم ، دون ( لا ) ، لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادة (لا)، لأنه نهى كل واحدٍ واحدٍ ، فدل مجموع الآيتين على النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين . وهنا ( أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ) وهناك ( لِيُعَذِّبَهُمْ ) بلام التعليل . وحذف المفعول . أى إنما يريد اختبارهم بالأموال والأولاد وهنا المراد التعذيب ، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً ، وهناك ( فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) ، وهنا ( فِي الدُّنْيَا ) ، تنبيهاً على أن حياتهم كلا حياة فيها ، وناسب ذكرها بعد الموت ، فكأنهم أموات أبداً . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ )

[٨٧] ( رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ )

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » .

« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » إنكار وذم للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه ، مع وجود الطَّول الذى هو الفضل والسعة ، وإخبار بسوء صنيعهم ، إذ رضوا بالعار والقعود مع الخوالف ، لحفظ البيوت ، وهن النساء . وذلك لإيثارهم حب المال على حب الله ، وأنه بسبب ذلك « طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها ، « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » ، أى ما فى حب الله والتقرب إليه بالجهاد من الفوز والسعادة ، وما فى التخلف من الشقاء والهلاك .

## فوائـــد

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها ، فى قوله : ( وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ) كما يقع ( القرآن ) و ( الكتاب ) على كله وعلى بعضه . وقيل : هى ( براءة ) ، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد . انتهى .

وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد .

قال الشهاب : وهذا أولى وأفيد ، لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما مرّ .

وقد قيل : إن ( إذا ) تفيد التكرار بقرينة المقام لا بالوضع ، وفيه كلام مبسوط فى محله .

الثانية ـ إنما خص ذوى الطَّول ، لأنهم المذمومون ، وهم من له قدرة مالية ، ويعلم منه البدنية أيضاً بالقياس .

الثالثة ـ الخوالف : جمع ( خالفة ) ، وهى المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال ، والمراد ذمهم وإلحاقهم بالنساء ، كما قال[1] :

كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيولِ

والخالفة تكون بمعنى من لا خير فيه ، والتاء فيه للنقل للاسمية ، فإن أريد هٰهنا ، فالمقصود من لا فائدة فيه للجهاد . وجمع على فواعل على الوجهين : أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلتأنيث لفظه ، لأن ( فاعلا ) لا يجمع على ( فواعل ) فى العقلاء الذكور ، إلا شذوذا ، كنواكس . أفاده الشهاب .

ثم بيّن تعالى ما للمؤمنين من الثناء الحسن ، والمثوبة الحسنى ضد أولئك ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ )

« لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ » أى فى سبيل الله ، لغلبة حب الله عليهم ، على حب الأموال والأنفس « وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ » أى منافع الدارين ، النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى العقبى « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالمطلوب .

---

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . انظر الكامل للمبرد ص ٩٨٦ ( طبعة الحلبى ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

ثم بيّن تعالى أحوال منافقى الأعراب ، إثر بيان منافقى أهل المدينة ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » أى فى ترك الجهاد ، وهم أحياء ممن حول المدينة . و ( الْمُعَذِّرُونَ ) فيه قراءتان ، التشديد والتخفيف ، والمشددة لها تفسيران : أحدهما ـ من ( عذّر فى الأمر ) إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ ، فتكلف العذر ، فعذره باطل .

والثانى ـ من ( اعتذر ) ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلا وحقا . وأصله ، عليهما ، ( معتذرون ) نقلت فتحة التاء إلى العين ، وقلبت التاء ذالا ، وأدغمت فيها .

وأما التخفيف فهى من ( أعذر ) إذا كان له عذر ، وهم صادقون على هذا .

وقوله تعالى : « وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى دعوى الإيمان ، وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ، ولم يعتذروا ، بل قعدوا من قلة المبالاة بالله ورسوله .

ثم أوعدهم تعالى بقوله : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الضمير فى ( مِنْهُمْ ) إما للأعراب مطلقا ، فالذين كفروا منافقوهم ، أو أعمّ ؛ وإما للمعذرين ، فإن

منهم من اعتذر لكسله ، لا لكفره وجوّز أن يكون المعنى بالذين كفروا منهم ، المصرّون على الكفر .

ثم بيّن تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ماهو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وما هو عارض عنّ له بسبب مرض شغله عن الخروج فى سبيل الله ، أو بسبب أعجزه عن التجهز للحرب ، وبدأ بالأول فقال سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ » وهم العاجزون مع الصحة ، عن العدوّ ، وتحمل المشاق ، كالشيخ والصبي والمرأة والنحيف « وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ » أى العاجزين بأمر عرض لهم ، كالعمى والعرج والزمانة « وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ » أى ولا على الأقوياء والأصحاء الفقراء والعاجزين عن الإنفاق فى السفر والسلاح « حَرَجٌ » أى إثم فى القعود . و( الحرج ) أصل معناه الضيق ، ثم استعمل للذنب ، وهو المراد « إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » أى أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا ، ولم يثيروا الفتن ، وأوصلوا الخيرات للجاهدين ، وقاموا بمصالح بيوتهم .

وقوله تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » استئناف مقرر لمضمون ما سبق . أى ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، و ( مِنْ ) مزيدة للتأكيد ، ووضع ( الْمُحْسِنِينَ ) موضع الضمير ، للدلالة على انتظامهم ، بنصحهم لله ورسوله ، فى سلك المحسنين ، أو تعليل لنفى الحرج عنهم ، أى ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهم من جملتهم أفاده أبو السعود .

قال الشهاب : ( ليس على محسن سبيل ) ، كلام جارٍ مجرى المثل . وهو إما عامّ ، ويدخل فيه من ذكر ، أو مخصوص بهؤلاء . فالإحسان : النصح لله والرسول ، والإثم المنفيّ إثم التخلف ، فيكون تأكيدا لما قبله بعينه على أبلغ وجه ، وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه ، أى لا يمرّ به العاتب ، ويجوز في أرضه ، فما أبعد العتاب عنه ! فتفطن للبلاغة القرآنية كما قيل :

سُقْيًا لأيامنا الّتى سَلَفَتْ    إذ لا يَمُرُّ العذولُ فى بَلَدِى

وقوله تعالى : « وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر ، مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة ، وإن كان تخلفهم بعذر ـ أفاده أبو السعود . أى لأن المرء لا يخلو من تفريط ما ، فلا يقال إنه نفى عنهم الإثم أولًا ، فما الاحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب ؟ أفاده الشهاب .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ) .

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » عطف على ( الْمُحْسِنِينَ ) ، أو على ( الضُّعَفَاءِ ) أى لتعطيهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك « قُلْتَ » أى لهم « لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » أى إلى الجهاد . وقوله تعالى « تَوَلَّوْا » جواب ( إذا ) أى خرجوا من عندك « وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » أى فى الحملان ، فهؤلاء وإن كانت لهم قدرة على تحمل المشاق ، فما عليهم من سبيل أيضاً .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في ( الإكليل ) : في قوله تعالى ( لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . . ) الخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض ، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً . انتهى .

وقال بعض الزيدية: هذه الآية الكريمة قاضية بنفي الحرج ، وهو الإثم ، على ترك الجهاد لهذه الأعذار ، بشرط النصيحة لله ولرسوله ، أي بأن يريد لهم ما يريد لنفسه ـ عن أبي مسلم ـ.

الثاني ـ قال الحاكم : في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب ، وأنه يدخل في ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة .

الثالث ـ قال ابن الفرس : يستدل بقوله تعالى ( مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ) على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمنها. وقال بعض الزيدية : يدل على أن المستودَع والوصيّ والملتقط لا ضمان عليهم مع عدم التفريط ، وأنه لا يجب عليهم الرد ، بخلاف المستعير .

الرابع ـ دل قوله تعالى : ( وَلَا عَلَى الَّذِينَ . . . ) الخ على أن العادم للنفقة ، الطالب للإعانة ، إذا لم تحصل له ، فلا حرج عليه. وفيه إشارة إلى أن المعونة إذا بذلت له من الإمام، لزمه الخروج .

الخامس ـ دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة ، وإن كان معذوراً .

السادس ـ قوله تعالى : ( تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ) أبلغ من ( يفيض دمعها ) ، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض . و ( من ) للبيان . كقولك : أفديك من رجل . ومحلّ الجار والمجرور النصب على التمييز ـ أفاده الزمخشريّ ـ .

السابع ـ روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب ( براءة ) فإني لواضع القلم على أذني ، إذ أمرنا بالقتال . فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : ( لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . . ) الآية ـ .

وروى العوفيّ عن ابن عباس فى هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مغفل بن مُقَرِّن المزنيّ ، فقالوا : يا رسول الله ! احملنا . فقال لهم : والله ! لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملًا ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم فى كتابه ، فقال : ( لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ) .

وروى الإمام أحمد(١) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجالًا ، ما قطعتم واديًا ، ولا سلكتم طريقًا ، إلا أشركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض ـ ورواه مسلم(٢) .

ثم رد تعالى الملامة على المستأذنين فى القعود وهم أغنياء ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

« إِنَّمَا السَّبِيلُ » أى بالعتاب والعقاب « عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ » أى قادرون على تحصيل الأهبة « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ » أى من النساء والصبيان وسائر أصناف العاجزين . أى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف . قال المهايميّ : وهذا الرضا ، كما هو سبب العتاب ، فهو أيضًا سبب العقاب ، لأنه لما كان عن قلة مبالاتهم بالله ، غضب الله عليهم « وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى ما يترتب عليه من المصائب الدينية والدنيوية ، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٥٩ ( طبعتنا ) .

لطيفة :

قال الشهاب : اعلم أن قولهم ( لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ ) معناه : لاحرج ولا عتاب ، وأنه بمعنى لا عاتب يمر عليه ، فضلًا عن العتاب ، وإذا تمدى بـ ( إلى ) كقوله[1] :

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَىٰ أُمِّ سَالِمٍ سبيل ؟ فَأَمَّا الصبرُ عَنْهَا فَلَاصَبْرُ

فبمعنى الوصول كما قال[2] :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

ونحوه ، فتنبه لمواطن استعماله ، فإنه من مهمات الفصاحة ـ انتهى ـ .

ثم أخبر تعالى عما سيتصدون له عند القفول من تلك الغزوة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى سدًّا للسبيل عليهم فى التخلف « قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا » أى لظهور كذبكم ، إذ لم يمنعكم فقر ولا مرض ، ولا يفيدكم الاعتذار « لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ » أى لن نصدق قولكم . وقوله تعالى : « قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ »

(١) البيت من شواهد الكتاب ( ج ١ ص ١٩٣ ) ونصه فيه :

ألا ليت شعرى هل إلى أم مَعْمَرٍ سبيلٌ ، فأما الصبرُ عنها فلا صَبْرَا

قال الشنتمرىّ : الشاهد فيه نصب ( الصبر ) على المفعول له . والتقدير : مهما ذكرت الصبر ، ومن أجله فلا صبرَ لى . ولو رفع بالابتداء لكان حسنا ( كرواية المؤلف ) وكان يكون التقدير : فأما الصبر عنها فلا صبر لى به . أى لا أحتمله .

(٢) انظر القصة فى ص ١٤٠ من الجزء الخامس من كتاب ( رغبة الآمل من كتاب الكامل )

تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى من أسراركم ونفاقكم وفسادكم ماينافى التصديق « وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » أى من الرجوع عن الكفر ، أو اثبات عليه ، علما يتعلق به الجزاء « ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضعُ المظهر موضع المضمر ، لتشديد الوعيد ، وأنه تعالى مطلع على سرهم وعلنهم ، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قال فى ( النبراس ) : المراد بالغيب ماغاب عن العباد ، أو مالم يعلمه العباد ، أوما يكون . وبالشهادة ما علمه العباد أو ما كان « فَيُنَبِّئُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا . قبل إعلامهم به . وذكره لهم للتوبيخ .

قال أبو السعود : المراد بالتنبئة بذلك ، المجازاة به . وإيثارها عليها ، لمراعاة ماسبق من قوله تعالى : ( قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ ... ) الخ . فإن المنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم . وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم ، وإنما يعلمونها حينئذ .

ثم أخبر تعالى عما سيؤكدون به معاذيرهم من أيمانهم الفاجرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

« سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ » أى فلاتوبخوهم ولاتعاتبوهم « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ » أى فأعطوهم طلبتهم « إِنَّهُمْ رِجْسٌ » تعليل لترك معاتبتهم ، يعنى أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، وإنما يُعاتَب الأديمُ ذو البَشَرَةِ (١) . والمؤمن

(١) لسان العرب مجلد ٤ صفحة ٦٠ ( طبعة بيروت ) .

قال أبو حنيفة : معناه أن يعاد إلى الدباغ . يقول : إنما يعاتَبُ من يُرْجَى ، ومن له مُسْكَة عقل .

يوبَّخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ـ أفاده الزمخشريّ ـ .

وقال الشهاب : يعني أنهم يتركون ، ويجتنب عنهم كما تجتنب النجاسة ، وهم طلبوا إعراض الصفح ، فأعطوا إعراض مقت .

وقوله تعالى : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلّتهم التي لا يمكن تطهيرها ، لكونهم من أهل النار . فاللوم يغريهم ولا يجديهم . والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل . أو تعليل ثان . يعني وكَفَتْهُمُ النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تتكلفوا عتابهم .

وقوله تعالى : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ )

« يَحْلِفُونَ لَكُمْ » بدل مما سبق ، وعدم ذكر المحلوف به لظهوره ، أي يحلفون به تعالى « لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ » أي باعتقاد طهارة ضمائرهم وإخلاصهم « فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فيه تبعيد عن الرضا عنهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عمن لا يرضى الله تعالى عنه ، مما لا يكاد يصدر عن المؤمن .

ثم أشار تعالى إلى أن منافقي الأعراب أشد رجساً فلا يغتر بحلفهم ، وإن لم يكذبهم الوحي ، فقال :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« الْأَعْرَابُ » وهم أهل البدو « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » أي من أهل الحضر ، لجفائهم

وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم فى بعد من مشاهدة العلماء ، ومعرفة الكتاب والسنة « وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ » أى وأحق بجهل حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر « حَكِيمٌ » أى فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ، مخطئهم ومصيبهم ، من عقابه وثوابه .

## لطائف :

الأولى ـ قال الشهاب : العرب ، هذا الجيل المعروف مطلقاً ، والأعراب سكان البادية منهم ، فهو أعم . وقيل : العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من العرب ، أو مواليهم ، فهما متباينان ، ويفرق بين جمعه وواحده بالياء فيهما .

الثانية ـ ما ذكر فى الآية من أجدرية جهل الأعراب من بُعدهم عن سماع الشرائع ، وملابسة أهل الحق ، يشير إلى ذم سكان البادية ، وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد[1] ، وأصحاب السنن ، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : من سكن البادية جفا . وتتمته : ومن اتّبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن. وقوله ﷺ[2]: إن الجفاء والقسوة فى الفدادين. قال ثعلب : الفدادون أصحاب الوبر ، لغلظ أصواتهم ، وهم أصحاب البادية ويقال : من صحب الفدادين ، فلا دنيا نال ولا دين . مأخوذ من ( الفديد ) وهو رفع الصوت أو شدته .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٥٧ من الجزء الأول ( طبعة الحلبى ) والحديث رقم ٣٣٦٢ ( طبعة المعارف ) .

وأخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٤ ـ باب فى اتباع الصيد ، حديث رقم ٢٨٥٩ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٦٩ ـ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد ، ٢٤ ـ باب اتباع الصيد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، ص ٢٥٨ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) .

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى ، لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى[1] : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ) . ولما أهدى ذلك الأعرابىّ تلك الهدية لرسول الله ﷺ ، فردّ عليه أضعافها حتى رضى قال : لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من قرشىّ أو ثقفىّ أو أنصارىّ أو دوسىّ ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب ، لما فى طباع الأعراب من الجفاء .

الثالثة ـ روى الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابىّ إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) ، فقال الأعرابىّ : والله ! إن حديثك ليعجبنى وإن يدك لتريبنى ! فقال زيد : ما يريبك من يدى ، إنها الشمال ؟ فقال الأعرابىّ : والله ! ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله ( الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ) .

ثم أشار تعالى إلى فريق آخر من منافقى الأعراب ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٨] ( وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ )

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا » أى يعدّ مايصرفه فى سبيل الله ، ويتصدق به صورةً ، غرامة وخسراناً ، لأنه لاينفق إلا تقية من المسلمين ورياء . لالوجه الله عز وجل ، وابتغاء المثوبة عنده ، والغرامة والمغرم والغُرم ( بالضم ) : ماينفقه المرء من ماله وليس يلزمه ، ضرراً محضاً وخسرانا . وقال الراغب : الغرم ماينوب الإنسان فى ماله من

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٠٩ ] .

ضرر لغير جناية منه « وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ » أي ينتظر بكم دوائر الدهر ــ جمع (دائرة) وهي النكبة والمصيبة التي تحيط بالمرء ــ فتربص الدوائر ، انتظار المصائب ، لينقلب أمر المسلمين ويتبدل ، فيتخلصوا مما عدّوه مغرماً « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » اعتراض بالدعاء عليهم ، بنحو ما يتربصونه ، أو إخبار عن وقوع مايتربصون عليهم .

قال الشهاب : ( الدائرة ) اسم للنائبة ، وهي بحسب الأصل مصدر ، كالعافية والكاذبة. أو اسم فاعل بمعنى عقبة دائرة . والعقبة أصلها اعتقاب الراكبين وتناوبهما . ويقال : للدهر عُقَب ونُوَب ودُوَل ، أي مرة لهم ومرة عليهم . و ( السوء ) يقرأ بضم السين وهو الضرر ، وهو مصدر في الحقيقة . يقال : سؤته سوءا ومساءة ومسائية . ويقرأ بفتح السين وهو الفساد والرداءة ــ قاله أبو البقاء ــ « وَاللهُ سَمِيعٌ » أي لما يقولونه عند الإنفاق مما لا خير فيه « عَلِيمٌ » أي بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التي منها تربصهم الدوائر . وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى .

ثم نوّه تعالى بمؤمني الأعراب الصادقين ، بقوله سبحانه :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ » امتثالا لأمره ، وترجيحا لحبّه ، وقطعاً لحب ماسواه . و( قُرُبَاتٍ ) مفعول ثان لـ( يَتَّخِذُ ) ، وجمعها باعتبار أنواعها ، أو أفرادها .

قال الشهاب : القُربة ( بالضم ) ما يتقرب به إلى الله ، ونفس التقرب . فعلى الثاني

يكون معنى اتخاذها تقرباً اتخاذَها سبباً له ، على التجوّز فى النسبة أو التقدير . و( عِنْدَ اللهِ ) صفة ا(قُرُبَاتٍ) أو ظرف لـ( يَتَّخِذُ ) (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أى سبب دعواته بالرحمة المكملة لقصوره . وكان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم . ومنه قوله ﷺ [1] : اللهم صل على آل أبى أوفى «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ» الضمير لما ينفق ، والتأنيث باعتبار الخبر ، والتنكير للتفخيم . أى قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات ، يكملها الله بدعوة الرسول ، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله : « سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ » أى جنته « إِنَّ اللهَ غَفُورٌ » يستوعب الخلّ « رَحِيمٌ » يقبل جهد المقلّ .

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى : ( أَلَا إِنَّهَا ) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقا لرجائه ، على طريق الاستئناف ، مع حرفى التنبيه والتحقيق ، المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه . وكذلك ( سَيُدْخِلُهُمُ ) وما فى ( السين ) من تحقيق الوعد . وما أدلّ هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها ! انتهى .

وفى ( الانتصاف ) : النكتة فى إشعار ( السين ) بالتحقيق أن معنى الكلام معها ( أفعل كذا ، وإن أبطأ الأمر ) أى لا بد من فعله . قال الشهاب : وفيه تأمل .

ولما بيّن تعالى فضيلة مؤمنى الأعراب بما تقدم ، تأثره ببيان من هم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٢ ـ باب هل يصلّى على غير النبىّ ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » أى ممن تقدم بالهجرة والنصرة . وقيل : عنى بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين ، أو من شهد بدراً ،أو من أسلم قبل الهجرة وبالثانى أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية ، وكانو سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير ، فعلمهم القرآن. واختار الرازيّ الوجه الأول . قال : والصحيح عندى أنهم السابقون فى الهجرة وفى النصرة ، والذى يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ، ولم يبين أنهم سابقون فماذا، فبقى اللفظ مجملا ، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارا ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه «السابقون الأولون» فى الهجرة والنصرة ، إزالة للإجمال عن اللفظ . وأيضا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة ، من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولا ، صار قدوة لغيره فى هذه الطاعة ، وكان ذلك مقوّياً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره . وكذلك السبق فى النصرة ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة فازوا بمنصب عظيم .

وقرئ ( الأنصارُ ) بالرفع ، عطفاً على « السابقون » .

« وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » لأن الهجرة أمر شاقّ على النفس ، لمفارقة الأهل والعشيرة. والنصرة منقبة شريفة،

لأنها إعلاء كلمة الله ، ونصر رسوله وأصحابه . والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم ـ قاله المهايميّ ـ « وَرَضُوا عَنْهُ » بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان ، وما آتاهم من الثواب والكرامة « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم ، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم ، ولغرسهم جنات القرب فى قلوبهم ، وإجرائهم أنهار المعارف فى قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان ـ قاله المهايميّ .

وقرأ ابن كثير ( مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ) كما هو فى سائر المواضع .

« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده ، إلى يوم القيامة ، والعمل بمقتضاه ، واختيار الباقى على الفانى « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

## تنبيهات :

الأول ـ قال فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة ، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم .

الثانى ـ قيل : المراد بـ ( السابقين الأولين ) جميع المهاجرين والأنصار ، فـ ( من ) بيانية لتقدمهم على من عداهم . وقيل : بعضهم ـ وهم قدماء الصحابة ـ و ( من ) تبعيضية . وقد اختار كثيرون الثانى ، واختلفوا فى تعيينهم على ما ذكرناه أولا . ورأى آخرون الأول . روى عن حميد بن زياد قال : قلت : يوماً لمحمد بن كعب القرظيّ : ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم ؟ وأردت الفتن ـ فقال لى : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم . قلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ؟ فقال : سبحان الله ! ألا تقرأ قوله تعالى ( وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ . . . الآية ) فأوجب للجميع الجنة والرضوان ، وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة ولا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءا .

أى لقوله تعالى[1] ( وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ . . . ) الآية .

الثالث ـ قال الشهاب: تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر فى قصة السقيفة[2]، ومنه علم فضل أبى بكر رضى الله عنه على من عداه ، لأنه أول من هاجر معه ﷺ.

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ )

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ » يعنى حول بلدتكم ، وهى المدينة « مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ » أى مرنوا ومهروا فيه . وقوله عز شأنه « لَا تَعْلَمُهُمْ » دليل لمرانتهم عليه ، ومهارتهم فيه ، أى يخفون عليك ، مع علوّ كعبك فى الفطنة وصدق الفراسة ، لفرط تأنقهم وتصنعهم فى مراعاة التقية ، والتحامى عن مواقع التهم .

قال فى ( الانتصاف ) وكأن قوله تعالى ( مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه ﷺ لما لهم من الخبرة فى النفاق والضراوة به . انتهى .

وقوله تعالى « نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » تقرير لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص .

وقوله تعالى « سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ » للمفسرين فى المرتين

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١٠ ] . (٢) انظر قصة السقيفة فى البخاريّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣١ ـ باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت حديث رقم ١٢١٤

وجوه : إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار أو الفضيحة وعذاب القبر . أو أخذ الزكاة ، لما أنهم يعدّونها مغرماً بحتاً ، ونهك الأبدان ، وإتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب .

وقال محمد بن إسحاق[١] : هو ـ فيما بلغني عنهم ـ ما هم فيه من أمر الإسلام ، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذى يُرَدُّون إليه ، عذاب الآخرة ، ويخلدون فيه .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير . كما فى قوله تعالى[٢] : ( فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ) أى كرة بعد أخرى ، لقوله تعالى[٣] : ( أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ . . . ) الآية .

تنبيه :

لا ينافى قوله تعالى : ( لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) قوله تعالى[٤] : ( وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ) ، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعْرَفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب ، على التعيين . وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحا ومساء . وشاهد هذا بالصحة ، مارواه الإمام أحمد[٥] عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة . فقال: لتأتينكم أجوركم ، ولو كنتم

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٨ ( طبعة جوتنجن ) والصفحة ١٩٨ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) وتفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١١ من الجزء الحادى عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) . (٢) [ ٦٧ / الملك / ٣ ] . (٣) [ ٩ / التوبة [ ١٢٦ ] .

(٤) [ ٤٧ / محمد عليه السلام / ٣٠ ] . (٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٨٢ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

فى جحر ثعلب . وأصغى إلىّ رسول الله ﷺ برأسه فقال : إن فى أصحابى منافقين ، أى يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له .

وروى ابن عساكر عن أبى الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبىّ ﷺ ، فقال : الإيمان هاهنا، وأشار بيده ، إلى لسانه ، والنفاق هاهنا ، وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلا . فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً، وارزقه حبى وحب من يحبنى ، وصيّر أمره إلى خير . فقال : يا رسول الله ! إنه كان لى أصحاب من المنافقين، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصرّ على دينه فالله أولى به ، ولا تخرقنّ على أحد ستراً ــ ورواه الحاكم أيضاً ــ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى هذه الآية قال : ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدرى ! لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ! قال نبىّ الله نوح عليه السلام(١) : ( وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) ، وقال نبىّ الله(٢) شعيب عليه السلام : ( بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ). وقال تعالى لنبيه ﷺ ( لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) .

لطيفة :

قوله تعالى: ( وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ) عطف على ( مِمَّنْ حَوْلَكُمْ ) عطف مفرد على مفرد. وقوله تعالى : ( مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، مسوقة لبيان علوّهم فى النفاق . إثر بيان اتصافهم به ، وإما صفة للمبتدأ المذكور ، فصل بينها وبينه بما عطف على خبره . وإما صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه ، وهو مبتدأ خبره ( مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ) والجملة عطف على الجملة السابقة . أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ــ . أفاده أبو السعود ــ .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١١٢ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٨٦ ] .

ولما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة ، رغبة عنها وتكذيباً وشكًّا ، بيّن حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال عز شأنه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » أي أقروا بها ، وهي تخلفهم عن الغزو ، وإيثار الدعة عليه ، والرضا بسوء جوار المنافقين . أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة ، كغيرهم « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا » كالندم وما سبق من طاعتهم « وَءَاخَرَ سَيِّئًا » كالتخلف عن الجهاد « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أي يقبل توبتهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .

تنبيهـــات :

الأول ـ أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفيّ عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه. ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك ، وقالوا : نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء ، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد ! والله ! لنوثقن أنفسنا بالسواري ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها : ففعلوا ، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثقون بالسواري ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم . فقال : لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، فأنزل الله ( وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ) ، فلما نزلت أطلقهم وعذرهم ،

وبقى الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم ، لم يذكروا بشىء ، وهم الذين قال الله فيهم : ( وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ... ) الآية ـ فجعل أناس يقولون : هلكوا؛ إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يتوب عليهم ، حتى نزلت[1] ( وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... )

وأخرج ابن جرير[2] من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس نحوه ، وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا ، فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ... )[3] الآية .

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .

وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت فى سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسوارى ، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة .

وأخرج أبو الشيخ وابن منده فى ( الصحابة ) من طريق الثورىّ عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ فى تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسوارى . وجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! خذ هذا الذى حبسنا عنك . فقال: لا أحلهم حتى يكون قتال ، فنزل القرآن : « وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ... ) الآية ـ إسناده قوىّ ، كذا فى ( اللباب ) ـ .

قال ابن كثير : هذه الآية ، وإن كانت نزلت فى أناس معينين ، إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين . وقد قال مجاهد : إنها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة ( إنه الذبح ) وأشار بيده إلى حلقه ، ثم نقل ما تقدم .

---

(١) [ ٩ / التوبة / ١١٨ ] . (٢) انظر تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١٢ من الجزء الحادى عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) . (٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٣ ] .

الثانى ـ روى البخارى[1] فى التفسير فى هذه الآية ، عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لنا : أتانى الليلة آتيان ، فابتعثانى ، فانتهيا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ، ولَبِن فضة ، فتلقانا رجال ، شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم :

اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى : هـذه جنة عدن ، وهذاك منزلك . قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، تجاوز الله عنهم .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس فى قولك ( خلطت الماء باللبن ) ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً ، واللبن مخلوطا به ؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

وناقشه الناصر فى ( الانتصاف ) فقال : التحقيق فى هذا أنك إذا قلت ( خلطت الماء باللبن ) فالمصرح به فى هذا الكلام أن الماء مخلوط ، واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوماً ، لا تصريحاً ، كون الماء مخلوطًا به ، واللبن مخلوطًا . وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطًا . وأما ما خلط به كل واحد منهما ، فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به ، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره . فقول الزمخشرىّ :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٥ ـ باب وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، حديث رقم ٥٠١ .

إن قولك ( خلطت الماء واللبن ) يفيد ما يفيده مع الباء ، وزيادة ـ ليس كذلك . فالظاهر في الآية ـ والله أعلم ـ أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل عملوا صالحاً وآخر سيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط ، فعبر عنهما معاً به ـ انتهى ـ .

قال النحرير : يريد الزمخشريّ أن ( الواو ) كالصريح في خلط كلٍّ بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : ( خلطت الماء باللبن ) ، و ( خلطت اللبن بالماء ) ، بخلاف الباء ، فإن مدلولها لفظاً ليس إلا خلط المـاء مثلاً باللبن . وأما خلط اللبن بالماء ، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل ـ انتهى ـ .

وهو متجه ولا حاجة للتضمين المذكور .

ثم قال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون من قولهم ( بعت الشاء شاة ودرهما ) بمعنى شاة بدرهم ، أي فـ ( الواو ) بمعنى الباء ، ونقل ذلك عن سيبويه . وقالوا : إنه استعارة ، لأن ( الباء ) للإلصاق ، و ( الواو ) للجمع ، وهما من وادٍ واحد . وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور : أصله شاة بدرهم أي كل شاة بدرهم ، وهو بدل من الشاء ، أي مع درهم ، ثم كثر ، فأبدلوا من ( باء المصاحبة ) ( واواً ) ، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله ، كقولهم : كل رجل وضيعته .

قال الشهاب : وهو تـكلف ، ولذا قالوا : إنه تفسير معنى ، لا إعراب ـ انتهى ـ .

قال الواحديّ : العرب تقول : خلطت الماء باللبن ، وخلطت الماء واللبن ، كما تقول : جمعت زيداً وعمْرًا ، و ( الواو ) في الآية أحسن من ( الباء ) ، لأنه أريد معنى الجمع ، لا حقيقة الخلط . ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسـيِّء كما يختلط الماء باللبن ، لـكن قد يجمع بينهما ـ انتهى ـ .

وفي الآية نوع من البديع يسمى ( الاحتباك ) ، وهو مشهور ، لأن المعنى : خلطوا عملًا صالحاً بسـيِّء وآخر سيئاً بصالح .

الرابع ـ قال الرازيّ : هاهنا سؤال ، وهو أن كلمة ( عسى ) شك ، وهو في حق الله تعالى محال . وجوابه من وجوه :

الأول ـ قال المفسرون : كلمة ( عسى ) من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى : ( فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ) ، وفعل ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام . والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً ، فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة ( عسى ) أو (لعل ) تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً ، وأن يكلفني بشيء ، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطوّل . فذكر كلمة ( عسى ) ، الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثاني : أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق ، لأنه أبعد من الاتكال والإهمال .

الخامس ـ قال القاشانيّ : الاعتراف بالذنب هو إبقاء نور الاستعداد ، ولين الشكيمة ، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه ، لأنه ملك الرجوع والتوبة . ودليلُ رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة ، وانفتاح عين القلب ؛ إذ لو ارتكمت الظلمة ، ورسخت الرذيلة ، ما استقبحه ، ولم يره ذنباً ، بل رآه فعلاً حسناً ، لمناسبته لحاله ، فإذا عرف أنه ذنب . ففيه خير .

ثم أمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأخذ من أموالهم التي تقدموا إليه ، أن يتصدق بها عنهم كفارة لذنوبهم ، كما تقدم في الروايات قبل ، بقوله عز وجل :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ )

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أي بعضها « صَدَقَةً » قال المهايميّ : لتصدق توبتهم إذ « تُطَهِّرُهُمْ »

أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف . وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه «وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» أى عن سائر الأخلاق الذميمة التى حصلت عن المال . قال الزمخشرى : التزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة فى المال «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ» أى واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحّم «إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» اى تسكن نفوسهم إليها ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم .

وقال قتادة : ( سكن ) أى : وقار . وقال ابن عباس : رحمة لهم . وقد روى (١) الإمام أحمد عن حذيفة أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا للرجل ، أصابته وأصابت ولده وولد ولده . وفى رواية : إن صلاة النبيّ ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده .

والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» أى يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم «عَلِيمٌ» أى بما فى ضمائرهم من الندم والغم ، لما فرط منهم .

## تنبيهات :

الأول ـ ( تطهرهم ) قرئ مجزوماً على أنه جواب للأمر . وأما بالرفع ، فعلى أنه حال من ضمير المخاطب فى (خذ) . أو صفة لـ ( صدقة) والتاء للخطاب أو للصدقة . والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده ، أى : بها . وقرئ تُطْهِرهم ـ من أطهره بمعنى طهّره ـ ولم يقرأ (وتزكيهم) إلا بإثبات الياء ، وهو خبر لمحذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيهم بها ، هذا على قراءة (تطهرهم ) بالجزم . وأما على قراءة الرفع فـ ( تزكيهم) عطف على ( تطهرهم ) حالاً أو صفة .

الثانى ـ قرئ ( صلاتك ) بالتوحيد ، و ( صلواتك ) بالجمع ، مراعاة لتعدد المدعوّ لهم . وقال الشهاب : جمع (صلاة ) لأنها اسم جنس ، والتوحيد لذلك ، أو لأنها مصدر فى الأصل .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

الثالث ـ قال الشهاب : السكن :السكون ، ومايسكن إليه من الأهل والوطن ، فإن كان المراد الأول ، فجعلها نفس السكن والاطمئنان مبالغة ، وهو الظاهر . وإن كان الثانى فهو مجاز بتشبيه دعائه ، فى الالتجاء إليه بالسكن . انتهى .

قال أبو البقاء : سكن بمعنى مسكون إليهـا ، فلذلك لم يؤنثه ، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض .

الرابع ـ قيل : المأمور به فى الآية الزكاة . و ( من ) تبعيضية ، وكانوا أرادوا التصدق بجميع مالهم ، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم ، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين ، فترتبط الآية بما قبلها وقيل : ليست هذه الصدقة المفروضة ، بل هم لما تابوا ، بذلوا جميع مالهم كفارة للذنب الصادر منهم ، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث ، وهذا مروىّ عن الحسن ، وهو المختار عندهم . ونقل الرازىّ أن أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء ، إذ هى حجتهم فى إيجاب الزكاة ، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكروه يوجب ألا تنتظم الآية مع سابقها ولاحقها .

وأقول : لاريب فى ارتباط الآية بما قبلها ، كما أفصحت عنه الرواية السابقة . وخصوصُ سببها لا يمنع عموم لفظها ، كما هو القاعدة فى مثل ذلك . ولذا رد الصدّيق رضى الله عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية ؛ أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات الله عليه ، لأنه المأمور بالأخذ ، وبالصلاة على المتصدقين ، فغيره لا يقوم مقامه ـ وأمر بقتالهم ، فوافقته الصحابة ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ . فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام ، ومثله نائبه . وهؤلاء المتأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنمـا أوجبها الله تعالى سدًّا لحاجة المعدم ، وتفريجًا لكربة الغارم ، وتحريرًا لرقاب المستعبَدين ، وتيسيرًا لأبناء السبيل ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ، على من فضلوا عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمـة فى نفوس

هؤلاء على أولئك البائسين . فالإمام لا خصوصية لذاته فيها ، بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه، فينفقها في سبلها المذكورة .

الخامس ـ استدل بقوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) على ندب الدعاء للمتصدق . قال الشافعيّ رحمه الله : السنة للإمام ، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق، ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهورا ، وبارك لك فيما أبقيت . وقال آخرون : يقول : اللهم ! صلّ على فلان. ويدل عليه ما روى عن عبدالله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة قال : كان النبيّ ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال : اللهم ! صلّ عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم ! صلّ على آل أبي أوفى . أخرجاه في الصحيحين (١) .

قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله ! صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك .

أقول : وبهذين الحديثين يردّ على من زعم أن المراد بـ ( صَلِّ عَلَيْهِمْ ) الصلاة على الموتى حكاه السيوطيّ في ( الإكليل ) .

السادس ـ دلت الآية ، كالحديثين ، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً . قال الرازيّ : روى الكعبيّ في ( تفسيره ) أن عليًّا رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجّى : عليك الصلاة والسلام . ومن الناس من أنكر ذلك .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد ، إلا في حق النبيّ ﷺ . ثم قال الرازيّ : إن أصحابنا يمنعون من ذكر ( صلوات الله عليه ) ، و ( عليه الصلاة والسلام ) ، إلا في حق الرسول . والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٢ ـ باب هل يصلّى على غير النبي ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ ( طبعتنا ) .

واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازه فيمن يؤدى الزكاة ، فكيف يمنع فى حق علىّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله ؟ قال : ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال : سلام عليكم ، يقال له : وعليكم السلام ، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز فى حق جمهور المسلمين ، فأولى آل البيت ـ انتهى ـ .

وأقول : إن المنع من ذلك أدبىّ لا شرعىّ ، لأنه صار ، فى العرف ، دعاءً خاصاً به ﷺ ، وشعاراً له ، كالعلَم بالغلبة ، فغيره لا يطلق عليه ، إلا تبعية له ، أدباً لفظياً .

السابع ـ قال الرازىّ : فى سر كون صلاته عليه السلام سكنا لهم : أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير ، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت أسرارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ )

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وإخبار بأن كل من تاب إليه ، تاب عليه . ومن تصدق ، تقبل منه .

تنبيهات :

الأول ـ الضمير فى ( يَعْلَمُوا ) للمتوب عليهم . فيكون ذكر قبول توبتهم ، مع أنه تقدم ما يشير إليه ، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم ، وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم . وتقريراً لذلك ، وتوطيناً لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم ، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه ، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ، عليه الصلاة والسلام .

قال أبو مسلم: المقصود من الاستفهام التقرير في النفس . ومن عادة العرب ، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه ، أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ـ انتهى ـ .

ويجوز عود الضمير لغيرهم من المنافقين . فالاستفهام توبيخ وتقريع لهم على عدم التوبة وترغيب فيها ، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها . وقرئ بالتاء . وهو ، على الأول ، التفات، وعلى الثاني بتقدير ( قل ) ، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً ، للتمكن والتخصيص .

الثاني ـ الضمير أعني ( هو ) إما للتأكيد ، أو له مع التخصيص . بمعنى أن الله يقبل التوبة لا غيره ، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة ، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك ، والخبر المضارع من مواقعه . وقيل : معنى التخصيص في ( هو ) أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوه بها ، ووجهوها إليه ، لأن كثرة رجوعهم إليه ، صلوات الله عليه ، مظنة لتوهم ذلك .

الثالث ـ تعدية القبول بـ( عن ) لتضمنه معنى التجاوز ، والعفو عن ذنوبهم التي تابوا عنها . وقيل : ( عن ) هنا بمعنى ( من ) كما يقال : أخذت هذا منك وعنك .

الرابع ـ الأخذ هنا استعارة للقبول والإثابة ، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عوّض عنه . وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلاً . وقيل : في نسبة الأخذ إلى الرسول ﷺ في قوله ( خُذْ ) ثم إلى ذاته تعالى ـ إشارة إلى أن أخذ الرسول ﷺ ، قائم مقام أخذ الله ، تعظيماً لشأن نبيه ، كقوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ )(١) .

---

(١) [ ٤٨ / الفتح / ١٠ ] .

الخامس ـ جملة ( وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » تأكيد لما عطف عليه ، وزيادة تقرير لما يقرره ، مع زيادة معنى ليس فيه. كما أفادته صيغة المبالغة التى تفيد تكرر ذلك منه أى ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة ، وأن ذلك سنة مستمرة له ، وشأن دائم ؟

لطيفة :

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن حوشب قال : غزا الناس فى زمن معاوية ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فغلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم، وأتى الأميرَ، فأبى أن يقبلها منه ،وقال : قد تفرق الناس ، ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يأتى الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك . فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع ، فمرّ بعبدالله ابن الشاعر السَّكسكىّ ، فقال له : مايبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له : أو مطيعى أنت ؟ فقال : نعم . فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : اقبل منى خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية ، فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل . فقال معاوية : لأن أكونَ أفتيت بها، أحب إلىّ من كل شىء أملكه . أحسن الرجل . انتهى .

فى هذه الرواية إثبات ولد لخالد، وفى ظنى أن صاحب ( أسد الغابة ) ذكر أنه لم يعقب، فليحقق .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )

« وَقُلِ » أى لأهل التوبة والتزكية ، والصلاة ، لا تكتفوا بها بل « اعْمَلُوا » جميع

ما تؤمرون به «فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ» أى فيزيدكم قرباً على قرب «وَرَسُولُهُ» فيزيدكم صلوات « وَالْمُؤْمِنُونَ » فيتبعونكم ، فيحصل لكم أجرهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ـ هكذا قاله المهايمى ـ وهو قوىّ فى الارتباط .

وقال أبو مسلم : إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، كما قال(١) ( وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ... ) الآية ـ والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والمقصود التنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة ، عند حضور الأولين والآخرين ، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره ، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين .

قال ابن كثير : وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال تعالى(٢) ( يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ) . وقال تعالى(٣) : ( يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ) . وقال تعالى(٤) : ( وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ) . وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا ، كما روى الإمام أحمد(٥) عن أبى سعيد مرفوعاً : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوّة ، لأخرج الله عمله للناس كائناً من كان . وروى أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ ـ كما فى مسند أحمد(٦) والطيالسىّ ـ .

« وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى بالموت « فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى بالمجازاة عليه .

قال أبو السعود : فى وضع الظاهر موضع المضمر ( أى حيث لم يقل : إليه ) من تهويل

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٤٣ ] . (٢) [ ٦٩ / الحاقة / ١٨ ] .
(٣) [ ٨٦ / الطارق / ٩ ] . (٤) [ ١٠٠ / العاديات / ١٠ ] .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ )
(٦) انظر الصفحة ١٦٥ من الجزء الثالث من المسند ( طبعة الحلبىّ ) عن أنس .

الأمر ، وتربية المهابة ـ ما لا يخفى . ووجه تقديم ( الغيب ) في الذكر لسعة عالمه ، وزيادة خطره على الشهادة ـ غنيّ عن البيان .

وعن ابن عباس : الغيب ما يسرونه من الأعمال ، والشهادة ما يظهرونه . كقوله تعالى[1] : ( يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) ، فالتقدم حينئذ لتحقق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة ، على أبلغ وجه وآكده . أو للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن ، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو ، أو مبادئه القريبة ، أو البعيدة ، مضمر قبل ذلك في القلب . فتعلقُ علمه تعالى به في حالته الأولى ، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية .

وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ( وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« وَءَاخَرُونَ » يعني من المتخلفين « مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ » أي مؤخرون أمرهم ، انتظاراً لحكمه تعالى فيهم، لتردّد حالهم بين أمرين « إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ » لتخلفهم عن غزوة تبوك « وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » يتجاوز عنهم « وَاللهُ عَلِيمٌ » أي بأحوالهم « حَكِيمٌ » أي فيما يحكم عليهم .

## تنبيهات :

الأول ـ قرئ في السبعة ( مُرْجَؤُونَ ) بهمزة مضمومة ، بعدها واو ساكنة . وقرئ ( مُرْجَوْنَ ) بدون همزة . كما قرئ ( تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ) بهما ، وهما لغتان ، يقال : أرجأته وأرجيته ، كأعطيته . ويحتمل أن تكون الياء بدلًا من الهمزة ، كقولهم : قرأت وقريت ،

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٧٧ ] و [ ١١ / هود / ٥ ] و [ ١٦ / النحل / ٢٣ ] .

وتوضأت وتوضيت ، وهو فى كلامهم كثير . وعلى كونه لغة أصلية فهو يائى . وقيل : إنه واوىّ كذا فى ( العناية ) ـ .

الثانى ـ روى عن الحسن أنه عنى بهذه الآية قوم من المنافقين . وكذا قال الأصم : إنهم منافقون أرجأهم الله ، فلم يخبر عنهم ما علمه منهم ، وحذرهم بهذه الآية ، إن لم يتوبوا ، أن ينزّل فيهم قرآنا ، فقال : ( إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ) .

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : إنهم الثلاثة الذى خلفوا ، أى عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا فى غزوة تبوك فى جملة من قعد ، كسلًا وميلًا إلى الدعة وطيب الثمار والظلال ، لا شكًّا ونفاقاً ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله تعالى[1] : ( لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... ) إلى قوله : ( وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... ) الآية ـ .

قال فى ( العناية ) : وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم ، والجهادُ فرض كفاية ، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرضَ عين ، لأنهم بايعوا النبىّ ﷺ عليه . ألا ترى قول راجزهم فى[2] الخندق :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وهؤلاء من أجلّهم ، فكان تخلفهم كبيرة .

الثالث ـ ( إما ) فى الآية ، إما للشك بالنسبة إلى المخاطب ، أو للإبهام بالنسبة إليه أيضاً ، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم . والمعنى : ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء

---

(١) [ ٩/التوبة/١١٧ ] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٣٣ ـ باب التحريض على القتال ، حديث ١٣٥٨ عن أنس .

والخوف . والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيئته ، أو للتنويع ، أى أمرهم دائر بين هذين الأمرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ )

« وَالَّذِينَ » أى ومن المنافقين الذين « اتَّخَذُوا » أى بنوا « مَسْجِداً ضِرَاراً » أى مضارّة لأهل مسجد قباء « وَكُفْرًا » أى تقوية للكفر الذى يضمرونه « وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى الذين كانوا يجتمعون بمسجد قباء اجتماعاً واحداً يؤدون أجلّ الأعمال ، وهى الصلاة التى يقصدبها تقوية الإسلام بجمع قلوب أهله على الخيرات ، ورفع الاختلاف من بينهم « وَإِرْصَادًا » أى إعداداً وترقباً وانتظاراً « لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ » أى كفر بالله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول الله ﷺ ( فاسقاً ) . وكانوا أعدوه له ليصلى فيه ، ويظهر على رسول الله ﷺ ـ كما سنفصله « وَلَيَحْلِفُنَّ » أى بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم السيئة « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ » أى ما أردنا ، ببناء المسجد ، إلا الخصلة الحسنى ، أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة ، وذكر الله ، والتوسعة على المصلين « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى حلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ )

« لَا تَقُمْ فِيهِ » أى لا تصلّ فى مسجد الشقاق « أَبَدًا » أى فى وقت من الأوقات ، لكونه موضع غضب الله ، ولذلك أمر بهدمه وإحراقه كما يأتى . وإطلاق ( القائم ) على المصلّى والمتهجد معروف ، كما فى قولهم : فلان يقوم الليل . وفى الحديث[1] ( من قام رمضان إيمانا واحتسابا ) . « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ » أى بنيت قواعده على طاعة الله وذكره ، وقصد التحفظ من معاصى الله ، بفعل الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهو مسجد قباء « مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ » أى من أيام وجوده « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ » أى تصلى « فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » أى المبالغين فى الطهارة الظاهرة والباطنة .

ثم أشار إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ )

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ » أى مخافة منه « وَرِضْوَانٍ » أى طلب رضوان منه « خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا » أى طرف « جُرُفٍ » بضم الراء

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٧ ـ باب تطوّع قيام رمضان من الإيمان ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وسكونها أى مهواة « هَارٍ » أى مشرف على السقوط « فَانْهَارَ بِهِ » أى سقط معه « فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٠] ( لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ » أى لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم ، ولا يضمحلّ أثره « إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » أى قِطَعاً ، وتتفرق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وتمزيقها بالموت ، أو بعذاب النار. وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم « وَاللهُ عَلِيمٌ » أى بنياتهم « حَكِيمٌ » أى فيما أمر بهدم بنيانهم ، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة .

تنبيهات :

الأول ـ قال الزمخشريّ : فى مصاحف أهل المدينة والشام ( الَّذِينَ اتَّخَذُوا ) بغير ( واو )، لأنها قصة على حيالها ، وفى سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم .

الثانى ـ سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ،

شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة يمالئهم على حرب النبي ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام (أُحُد) ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً ، يا فاسق ، يا عدو الله ! ونالوا منه وسبّوه . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرّد . فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هـذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من (أُحُد) ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والريب يمدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه . وكان أمرهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه ، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك . فأتوه فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ، إن شاء الله تعالى ، أتيناكم ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذي أَوَانٍ ـ موضع على ساعة من المدينة ـ أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي أو أخاه عامراً ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه . فخرجا سريعين ، حتى أتيـا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدّان ، حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم ما نزل ـ ذكره ابن كثير ، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه ـ .

وروى أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قبـاء أتوا عمر بن الخطاب فى خلافته ، فسألوه أن يأذن لمُجَمِّع بن جارية أن يؤمهم فى مسجدهم فقال : لا ، ونعمة عين ! أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين ! لا تعجل علىّ ، فوالله ! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون ، فصليت بهم ، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ، ولم أعـلم ما فى نفوسهم . فعذره عمر ، فصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء .

الثالث ـ ما قدمنـاه من أن المسجد فى الآية هو مسجد قباء ، لأن السياق فى معرضه ، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذاك ، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمع كلمة المؤمنين . ولما فى الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه ، كان رسول الله ﷺ يزوره راكباً وماشياً ، ويصلى فيه ركعتين ـ كما فى الصحيح [1] ـ .

وقد روى عن عويم بن ساعدة الأنصارىّ أن النبىّ ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا ، يا رسول الله ! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء ـ رواه الإمام أحمد [2] وأبو داود والطبرانىّ ، واللفظ له ـ .

وقد روى أن النبىّ ﷺ سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجده ـ رواه الإمام أحمد [3] ومسلم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٤ ـ باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً ، حديث رقم ٦٤٧ عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) . عن أبى سعيد الخدرىّ .

ورواه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ ( طبعتنا ) .

قال ابن كثير : ولا منافاة . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ـ انتهى ـ .

ومرجعه إلى أن هـذا الوصف ، وإن كان يصدق عليهما ـ إلا أن الأحرى به بعد ، هو المسجد النبويّ ، أى فالحديث ليس فى معرض تعيين ما فى الآية ، بل فى بيان الأحق بهـذا الوصف الآن .

وقال السهرورديّ : كل منهمـا مراد ، لأن كلاًّ منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه .

والسر فى إجابته ﷺ السؤال عن ذلك ، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء ، والتنويه بمزية هذا عن ذاك .

الرابع ـ قال السهيليّ ، نور الله مرقده : فى الآية ـ يعنى قوله تعالى : من أول يوم ـ من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضى الله عنه حين شاورهم فى التاريخ ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة ، لأنه الوقت الذى عزّ فيـه الإسلام ، والحين الذى أَمِنَ فيه النبيّ ﷺ ، وبنيت المساجد ، وعُبد الله كما يحب ، فوافق رأيُهم هـذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى ( مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ) أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذى يؤرخ به الآن . فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية ، فهو الظن بهم ، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما فى القرآن من الإشارات . وإن كان ذلك على رأى واجتهاد ، فقد علمـه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم ، أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم . وليس هاهنا إضافة فى المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال ، فتدبره ، ففيه معتبرٌ لمن ادّكر ، وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واستبصر .

الخامس ـ ( التأسيس ) وضع الأساس ، وهو أصل البناء ، وأوله ، وبه إحكامه ، فى

الآية شبَّه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنياً مضمراً فى النفس ، بما يعتمد عليه أصل البناء . و ( أسس بنيانه ) تخييل ، فهو مستعمل فى معناه الحقيقىّ ، أو هو مجاز بناء على جوازه . فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه،أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة، بحال من بنى بناء محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به . أو ( البنيان ) استعارة أصلية ، و ( التأسيس ) ترشيح أو تبعية : و ( الشفا ) : الحرف والشفير . و( جُرُف الوادى ):جانبه الذى يتحفر أصله بالماء ، وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً . و(الهار ) : الهائر ، وهو المتصدع الذى أشفى على التهدم والسقوط . قيل : هو مقلوب ، وأصله ( هاور ) أو ( هاير ) . وقيل : حذفت عينه اعتباطاً ، فوزنه ( فال ) . والإعراب على رائه كباب . وقيل : لا قلب فيه ولا حذف ، ووزنه فى الأصل ( فعِل ) بكسر العين ، كـكتف ، وهو هَورٌ أوهيرٌ ، ومعناه ساقط أو مشرف على السقوط . وفاعل (انهار) إما ضمير البنيان ، وضمير ( به ) للمؤسس ، أى سقط بنيان البانى بما عليه . أو لـ ( الشفا ) ، وضمير ( به ) للبنيان . والظاهر فى التقابل أن يقال : أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسخط من الله ، ولذا قال فى الكشاف : المعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية،وهى الحق ، الذى هو تقوى اللهورضوانه، خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها ، وأقلها بقاء ( وهو الباطل والنفاق) الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمساك . وضع ( شفا الجرف ) فى مقابلة ( التقوى ) ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى . يعنى أنه شبه الباطل بـ ( شفا جرف هار ) فى قلة الثبات، فاستعير للباطل بقرينة مقابلته للتقوى ، والتقوى حق، ومُنَافِى الحق هوالباطل. وقوله ( فانهار ) ترشيح ، وباؤه للتعدية ، أو للمصاحبة . فـ ( شفا جرف هار ) استعارة تصريحية تحقيقية ، والتقابل باعتبار المعنى المجازىّ المراد منها .

فإن قلت : لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل ، وبالثانى على طريق الاستعارة والتمثيل ؟

قلت : التفنن في الطريق رعايةً لحق البلاغة ، وعدولاً عن الظاهر ، مبالغةٌ في الطرفين . إذ جعل أوائك مبنياً على تقوى ورضوان ، هو أعظم من كل ثواب ، وحال هؤلاء على فساد أشرف بهم على أشد نكال وعذاب . ولو أتى به على مقتضى الظاهر لم يفده ، ما فيه من التهويل .

وقولنا : ( فانهار ترشيح ) أوضحه الكشاف بقوله : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل ، قيل : ( فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ) على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، فانهار به ذلك الجرف ، فهوى في قعرها .

السادس ــ دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة وسبل بعضها . نقله بعض المفسرين .

قال الزمخشري : قيل : كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ــ فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر ، فقيل له : مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلي فيه ، فإنه بني على ضرار ، وكل مسجد بني على ضرار ، أو رياء وسمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضرارا .

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضارّ أحدهما صاحبه ــ انتهى ــ .

وقال الإمام ابن القيم في ( زاد المعاد ) في فوائد غزوة تبوك :

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه . وهو مسجد يصلى فيه ، ويذكر اسم الله فيه . لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوى للمنافقين . وكل مكان هذا شأنه ، فواجب

على الإمام تعطيله ، إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هـذا شأن مسجد الضرار ، فشاهد الشرك التي تدعو سدنتُها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله ، أحق بذلك وأوجب . وكذلك محال المعاصي والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفيّ وسماه ( فويسقاً ) ، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية . وهمّ (١) رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة ، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك ـ انتهى ـ .

ثم قال ابن القيّم : ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة ، كما لم يصح وقف هذا المسجد . وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر ، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد ـ نص على ذلك الإمام أحمد وغيره ـ فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق ، فلو وضعا معاً لم يجز . ولا يصح هـذا الوقف ، ولا يجوز ، ولا تصحّ الصلاة في هذا المسجد ، لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك (٢) ، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً ، أو أوقد عليه سراجاً .

قال ابن القيّم : فهذا دين الإسلام الذي بعث به رسوله ونبيه ، وغربته بين الناس كما ترى . انتهى .

السابع ـ قال بعض المفسرين اليمانين : في الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة ، يعني التأسيس على التقوى . وفيها : أن نية القربة في عمارة المسجد شرط ، لأن

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاريّ في صحيحه في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٢٩ ـ باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث رقم ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاريّ في صحيحه في : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث رقم ٢٨٥ و ٢٨٦ عن عائشة وعبد الله بن عباس .

النية هي التي تميز الأفعال . وفيها : أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار ـ ذكر ذلك الحاكم ، لأنه قال تعالى ( لا تقم فيه أبداً ) وأراد بـ ( القيام ) الصلاة .

الثامن ـ قال ابن كثير : في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد روى الإمام أحمد [1] أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال : إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء . فدلّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ، ويعين على إتمامها وإكمالها ، والقيام بمشروعاتها .

التاسع ـ ذهب أبو العاليـة والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية ، الطهارة من الذنوب ، والتوبة منها ، والتطهر من الشرك .

قال الرازيّ : وهذا القول متعيّن ، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى ، واستحقاق ثوابه ومدحه ، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارّة المسلمين ، والكفر بالله ، والتفريق بين المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم ، وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي انتهى .

أقول : لا تسلم دعوى التعيّن ، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة : بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد [2] وابن خزيمة في صحيحه أن النبيّ ﷺ قال لأهل قباء : قد أثنى الله عليكم في الطهور ، فماذا تصنعون ؟ فقالوا : نستنجي بالماء .

---

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث ، فمن وقف عليه فليرشدني إليه ، مشكورًا مأجورًا .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٦ من الجزء السادس ( طبعة الحلبيّ ) عن محمد بن عبد الله بن سلام .

وروى البزّار عن ابن عباس قال : هـــذه الآية فى أهل قباء ، سألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء . فإن صح ذلك كان المرادَ من الآية . وتـكون حثًّا على الطهارة المذكورة ، ومدحاً لها . وكون ذويها على الضد من صفات أولئك ، يستفاد من عموم هذا ، ومن قوله تعالى ( لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ... ) الآية .

العاشر ـ قال القاشانىّ : لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملـكوت، وتسخيره ، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيآتها تأثـــير فيما يباشرها من الأعمال ، فـكل ما فعل بنية صادقة لله تعالى عن هيأة نورانية ، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء ، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن هيأة مظلمة ، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم . ألا ترى الـكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت متبركة لـكونها مبنية على يدى نبىّ من أنبياء الله ، بنية صادقة ، ونفس شريفة صافية ، عن كمال إخلاص لله تعالى ؟ ونحن نشاهد أثر ذلك فى أعمال الناس ، ونجد أثر الصفاء والجمعية فى بعض المواضع والبقاع ، والـكدورة والتفرقة فى بعضها . وما هو إلا لذلك ، فلهذا قال ( لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ... ) الآية ـ لأن الهيآت الجسمانية مؤثرة فى النفوس ، كما أن الهيآت النفسانية مؤثرة فى الأجسام ، فإذا كان موضع القيام مبنيًّا على التقوى وصفاء النفس ، تأثرت النفس باجتماع الهمة ، وصفاء الوقت ، وطيب الحال ، وذوق الوجدان . وإذا كان مبنيًّا على الرياء والضرار ، تأثرت بالـكدورة والتفرقة والقبض . وفيه إشعار بأن زكاء نفس البانى ، وصدق نيته ، مؤثر فى البناء . وأن تبرّك المـكان ، وكونه مبنيًّا على الخير ، يقتضى أن يكون فيه أهل الخير والصلاح ، ممن يناسب حاله حال بانيه، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله ( وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ )

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بمحبة الأموال والأنفس، استنزلهم لفرط عنايته بهم ، عن مقام محبة الأموال والأنفس ، بالتجارة المربحة ، والمعاملة المرغوبة ، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ، فعوض لهم خيرا مما أخذ منهم . فالآية ترغيب فى الجهاد ببيان فضيلته ، إثر بيان حال المتخلفين عنه .

قال أبو السعود : ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة، بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع ، الذى هو العمدة والمقصد فى العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم . والثمن ، الذى هو الوسيلة فى الصفقة ، الجنة . ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : ( إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ) ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل ( بالجنة ) بل ( بأن لهم الجنة ) مبالغة فى تقرر وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم. وكأنه قيل : ( بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم ).

وفى ( الكشاف ) و ( العناية ) ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية ، لأنه أبرزه فى صورة عقد عاقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته ، ونصر دينه،وجعله مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقا ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئته أقوى من نقد غيره . وأشار إلى مافيه من الربح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء ، وأتى بقوله ( يقاتلون . . . ) الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله[1] ﷺ ( الجنة تحت ظلال السيوف ) ثم أمضاه بقوله:(وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) . ولما فى هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام، لم يلتفتوا إلى جعل ( اشترى ) وحده استعارة أو مجازا عن الاستبدال ، وإن ذكروه فى غير هذا الموضع ، لأن قوله ( فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ) يقتضي أنه شراء وبيع ، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل . ومنهم من جوز أن يكون معنى ( اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ) بصرفها فى العمل الصالح ، ( وَأَمْوَالَهُمْ ) بالبذل فيها. وجعل قوله ( يُقَاتِلُونَ ) مستأنفا لذكر بعض ما شمله الكلام ، اهتماما به . انتهى .

وقوله تعالى : ( وَعْدًا عَلَيْهِ ) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا . وذكر كونه فى التوراة وما عطف عليها ، تأكيد له ، وإخبار بأنه منزل على الرسل فى الكتب الكبار . وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة فى شرع من قبلنا . وقد بقى فى التوراة والإنجيل الموجودين ، على تحريفهما ، مايشير إلى الجهاد والحث عليه،نقلها عنهما من ردّ على الكتابيين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام ، فانظره فى الكتب المتداولة فى ذلك .

ثم وصف تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٢٢ـ باب الجنة تحت بارقة السيوف، حديث رقم ١٣٤٦ عن عبد الله بن أبى أوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٢] (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« التَّائِبُونَ » أى عن المعاصى ، ورفعه على المدح ، أى هم التائبون ، كما دل عليه قراءة ( التائبين ) بالياء إلى قوله و ( الحافظين ) نصبا على المدح ، أو جراً صفة للمؤمنين . وجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، أى التائبون من المعاصى حقيقة ، الجامعون لهذه الخصال «الْعَابِدُونَ» أى الذين عبدوا الله وحده،وأخلصوا له العبادة، وحرصوا عليها «الْحَامِدُونَ» لله على نعمائه ، أو على ما نابهم من السراء والضراء « السَّائِحُونَ » أى الصائمون ، أو الضاربون فى الأرض تدبراً واعتباراً . وسننبه عليه ، « الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ » أى المصلون « الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ »أى فى تحليله وتحريمه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » الموصوفين بالنعوت المذكورة. ووضع ( المؤمنين ) موضع ضميرهم ، للتنبيه على أنّ ملاك الأمر هو الإيمان ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم، أو للعلم به، لقوله فى آية الأحزاب[١]: وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا ) .

تنبيهات :

الأول ـ ما قدمناه من تفسير (السائحين) بالصائمين . قال الزجاج : هو قول أهل التفسير واللغة جميعاً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، وكذا ابن جرير[٢] .قال ابن كثير[٣] : ووقفه أصح.

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٧ ] . (٢) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الحادى عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) . (٣) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة رقم ٣٩٢ من الجزء الثانى ( طبعة عام ١٩٣٧ ) .

وعن ابن عباس : كل ما ذكر الله فى القرآن من السياحة ، فهو الصيام .

وعن الحسن : السائحون الصائمون شهر رمضان .

قال الشهاب : استعيرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات ،كما أن السياحة تمنع عنها فى الأكثر .

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم أن السائحين : السائرون فى الأرض، وهو مأخوذ من (السيح) سيح الماء الجارى، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً . وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين فى الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية فى بيان صفات المجاهدين، فينبغى أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات . وروى مثله ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن أنه قال : هم المهاجرون .وعن عكرمة أنهم المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير : جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى [1] أبو داود من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ! ائذن لى فى السياحة . فقال النبى ﷺ : سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لاتفق مع كل ما روى عن السلف فيها، لأن الجهاد فى سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس فى عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه فى الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر . هـذا على إرادة التوفيق بين المأثورات . أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ،أعنى الضرب فى الأرض خاصة، الذى عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم ، لـكان بمفرده كافياً فى المعنى ، مشيراً إلى وصف عظيم ، وهـذا ما حدا بأبى مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق فى تأويل الآية .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ٦ـ باب النهى عن السياحة، حديث رقم ٢٤٨٦ .

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة فى تأييده ، يجدر بالمحقق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها:
قال : الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيراً بأن يضحى قسما من حياته فى السياحة والتسيار، لأجل اكتشاف الآثار ، والوقوف على أخبار الأمم البائدة ، ليكون ذلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد . ولا أريد أن أحشر للقارئ تلك الآيات ، فإن ذلك يؤدى إلى التطويل ، بل أريد أن أجتزىء منها بما يكفل ثبوت الدعوى ، وذلك فى قوله تعالى : ( السَّائِحُونَ . . . ) فى هذه الآية ، ولم يقع لفظ ( سائحون ) فى القرآن الكريم إلا هذه المرة الفذة . ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير ، فمنهم من قال هم الصائمون، ومنهم من قال غيره . والصحيح أن ( السائحون ) معناه السائرون ، مأخوذاً من السيح وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهاب فيها ، وهذه المادة تشعر بالانتشار . يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر . والسيح أيضاً الماء الجارى الذاهب بالأرض . ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح ، لأنه بأمياعه ينتشر فى وعائه . وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها ، وعلى معانيها الحقيقية ، اللهم ما لم يمنع مانع عقلىّ ، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة . وعليه فيجب حمل لفظ ( السائحون ) على معناه الظاهر الحقيقىّ ، وهو السائرون الذاهبون فى الديار ، لأجل الوقوف على الآثار ، توصلاً للعظة بها والاعتبار ، ولغير ذلك من الفوائد التى عرفها التاريخ . وكذلك عهدنا بالمعنى المجازىّ أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقىّ ، فى حال أن الأمر هنا بالعكس ، لكثرة القرائن التى تطالب بإرادة المعنى الحقيقىّ دون المجازىّ . وذلك مثل آية ( سِيرُوا ) (1) ،

---

(1) وردت لفظة ( سِيرُوا ) فى الكتاب الكريم فى خمسة مواضع . وهاكم بيان موضع كل منها :
[ ٦ / الأنعام / ١١ ] و [ ٢٧ / النمل / ٦٩ ] و [ ٢٩ / العنكبوت / ٢٠ ] و [ ٣٠ / الروم / ٤٢ ] و [ ٣٤ / سبأ / ١٨ ] .

( أَوَلَمْ يَسِيرُوا )[١]، ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا )[٢]، ( فَسِيرُوا )[٣] ، ( وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ )[٤] ، ( وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ ... )[٥] الآية ـ فهذه الآيات هى قرائن نيّرة تؤذن بأن السيح معناه السير . فإنها وإن تكن من مادة أخرى ، إلا أن معناها يلاقى معنى السيح . على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية ( فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ )[٦] فكلمة ( سيحوا ) هنا تفسر ( السَّائِحُونَ ) فى الآية هذه ، وهم يقولون : خير ما فسرته بالوارد . وبالجملة ، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل للأمة ، وتدبير على فتور هممها ، وضعف نشاطها ، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة ، ورؤية عمران المسكونة ، الأمر الذى هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين ، وفيه ستر لنور الكتاب الذى هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهدا فى السير والسياحة ، وأن ينقب فى البلاد أى تنقيب وسيأتى تتمة لهذا فى تفسير آية[٧] ( سَائِحَاتٍ ) فى سورة التحريم إن شاء الله تعالى .

قال الرازىّ: للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضرّ والبؤس،

---

(١) وردت ( أَوَلَمْ يَسِيرُوا ) فى الكتاب الكريم فى ثلاثة موضع . وها كم بيان كل موضع منها :

[ ٣٠ / الروم ٩ ] و [ ٣٥ / فاطر / ٤٤ ] و [ ٤٠ / غافر / ٢١ ] .

(٢) وردت ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا ) فى الكتاب الكريم فى أربعة موضع . وها كم بيان كل موضع منها :

[ ١٢ / يوسف / ١٠٩ ]و[ ٢٢ / الحج /٤٦ ]و[ ٤٠ / غافر / ٨٢ ]و[٤٧/محمد/١٠].

(٣) وردت لفظة( فَسِيرُوا ) فى الكتاب الكريم فى موضعين اثنين، وها كم بيان موضعهما :

[ ٣ / آل عمران / ١٣٧ ] و[ ١٦ / النحل / ٣٦ ] .

(٤) [ ٧٣ / المزمل / ٢٠ ] . (٥) [ ٤ / النساء / ١٠٠ ] .

(٦) [ ٩ / التوبة / ٢ ] . (٧) [ ٦٦ / التحريم / ٥ ] .

فلا بد له من الصبر عليها ، وقد يلقى أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كلٍّ ماليس عند الآخر. وقد يلقى الأكابر من الناس ، فيحقر نفسه فى مقابلتهم . وقد يصل إلى المرادات الكثيرة ، فينتفع بها . وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين . انتهى .

وقال بعضهم : لا يعزب عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بنى الإنسان على السفر فى محكم كتابه العزيز ، وندد على من ارتدى منهم رداء الكسل ، وأوقع نفسه فى وهدة الخمول ، وتلذذ بالتقاعد عن جوْب البلاد ، وقطع الوهاد ، فقال تعالى[1] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ) وقال[2] ﷺ : سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا .

وقد تكلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظما ونثرا . ومن أجلّ فوائده زيادة علمه ، وانتفاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه . ومنها ، وهو أعظمها ، رضا ربه ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده ، وأحب[3] عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده . وكذلك باتعاظه بأحوال الناس ، واعتباره بأمورهم ، واطلاعه فى ساحته على الأسرار المكنونة ، والحكم التى دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات . فمن وقف على سر الخالق زاد فى تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه ؛ وليس بخاف ما وقع للأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، من التنقلات والأسفار ، فى القرى والأمصار ، للنظر والاعتبار . ا هـ .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) عن أبى هريرة . (٣) لم أقف على نص هذا الحديث . وإنما أخرج السيوطىّ فى ( الجامع الصغير ) قوله : إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده . وقال : حم ، فى زوائد كتاب الزهد ، عن الحسن البصرىّ ، مرسلا .

الثانى ـ قال القاضى : إنما جعل ذكر الركوع والسجود ، كناية عن الصلاة، لأن سائر أشكال المصلّى موافق للعادة ، وهو قيامه وقعوده، والذى يخرج عن العادة فى ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلى وغيره . ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى ، والركوع وسطها، والسجود غايتها. فخص الركوع والسجود بالذكر؛ لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية ، تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم . ذكره الرازىّ .

الثالث ـ ذكروا فى سر العطف فى موضعين من هذه النعوت وجوها :

فأما الأول : أعنى قوله تعالى ( وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) فقالوا : سر العطف فيه إما الدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة ، وصفة واحدة ، لأن بينهما تلازما فى الذهن والخارج ؛ لأن الأوامر تتضمن النواهى ومنافاةً بحسب الظاهر ، لأن أحدهما طلب فعل ، والآخر طلب ترك ، فكانا بين كمال الاتصال والانقطاع المقتضى للعطف ، بخلاف ما قبلهما . أو لأنه ، لما عدد صفاتهم ، عطف هذين ليدل على أنهما شىء واحد ، وخصلة واحدة ، والممدود مجموعهما ، كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين . أو العطف لما بينهما من التقابل ، أو لدفع الإيهام ، وهذا معنى قول ( المغنى ) الظاهر أن العطف فى هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهى ، من حيث هما أمر ونهى ، متقابلان بخلاف بقية الصفات . أو لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو ترك المعروف . والناهى عن المنكر آمر بالمعروف. فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين ، وأنه لا يكفى فيه ما يحصل فى ضمن الآخر .

وأما الثانى : أعنى قوله تعالى : ( وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ) فقيل : سر العطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع ، من حيث أن السبعة هو العدد التامّ ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ، ولذلك تسمى ( واو الثمانية ) ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ

( سبعة ) لاستعماله فى التكثير ، لا ممدوده . والقول بواو الثمانية ذكروه فى قوله تعالى(١) : ( سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ) وضعّفه فى ( المغنى ) .

وقيل : سر العطف التنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها، لأنه شامل لما قبله وغيره . ومثله يؤتى به معطوفا، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء، فلمغايرته لما قبله، بالإجمال والتفصيل ، والعموم ، والخصوص ، عطف عليه .

وقيل : بقوة الجامع بالتلازم ، لأن من حصل الأوصاف السابقة ، فقد حفظ حدود الله .

وقيل : المراد بحفظ الحدود ظاهره ، وهى إقامة الحد ، كالقصاص على من استحقه . والصفات الأولى إلى قوله ( الآمرون ) صفات محمودة للشخص فى نفسه ، وهذه له باعتبار غيره، فلذا تغاير تعبير الصنفين ، فترك العاطف فى القسم الأول ، وعطف فى الثانى. ولما كان لا بد من اجتماع الأول فى شىء واحد ، ترك فيها العطف لشدة الاتصال ، بخلاف هذه، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به . وهذا هو الداعى لإعراب ( التائبون ) مبتدأ موصوفا بما بعده ، و ( الآمرون ) خبره . فكأنه قيل : الكاملون فى أنفسهم المكملون لغيرهم . وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملا حتى يكون كاملا فى نفسه، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف ، والله أعلم بمراده . كذا فى ( العناية ) و ( حواشى المغنى ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] ( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ )

[١١٤] ( وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ )

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ٢٢ ] .

« مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » لما بين تعالى فى أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً . حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شركهم وكفرهم ، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة ، حتى مع الأقرباء ، لأن قرابتهم ، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم ، فلا تفيدهم قبول نور الاستغفار ( إِنَّ[1] اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ) فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده . ثم ذكر تعالى أن السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له ، بقوله[2] : ( سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ) ، وقوله[3] : ( لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ) ، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » ذلك « تَبَرَّأَ مِنْهُ » أى من أبيه بالكلية ، فضلًا عن الاستغفار له . وبيّن تعالى الحامل لإبراهيم على الاستغفار ، بأنه فرط ترحّمه وصبره بقوله : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ » أى كثير التأوه من فرط الرحمة ، ورقة القلب ، « حَلِيمٌ » أى صبور على ما يعترضه من الإيذاء ، ولذلك حلم عن أبيه ، مع توعده له بقوله[4] : ( لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ) ، واستغفر له بقوله[5] : ( سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ) وذلك قبل التبين ، فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك .

وفى الآية تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين ، بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ من أبيه بعد التبين ، وهو فى كمال رقة القلب والحلم ، فلابد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً .

---

(١) [ ٤ / النساء / ٤٨ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٤٧ ] . (٣) [ ٦٠ / الممتحنة / ٤ ] .
(٤) [ ١٩ / مريم / ٤٦ ] . (٥) [ ١٩ / مريم / ٤٧ ] .

## تنبيهات :

الأول ـ ساق المفسرون هاهنا روايات عديدة فى نزول الآية . ولما رآها بعضهم متنافية، حاول الجمع بينها بتعدد النزول . ولا تنافى ، لما قدمناه من أن قولهم ( نزلت فى كذا ) قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناوله . وقد يراد به ( أن كذا كان سبباً لنزولها ) وما هنا من الأول . ونظائره كثيرة فى التنزيل ، وقد نبهنا عليه مراراً ، لا سيما فى المقدمة . فاحفظه .

الثانى ـ قال عطاء بن أبى رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى ، لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، ثم قرأ الآية . وهذا فقه جيّد .

الثالث ـ قال بعض اليمانيين : استدل بالآية على أن من تأوه فى الصلاة لم تبطل . وهذا يحكى عن أبى جعفر : إذا قال ( آه ) لم تبطل صلاته ، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك . ومذهب الأئمة بطلانها ، سواء قال ( آه ) أو ( أوه ) ، لأن ذلك من كلام الناس ، ولم يذكر تعالى أن تأوه إبراهيم كان فى الصلاة . انتهى .

الرابع ـ قال فى ( العناية ) : ( أوّاه ) فعّال للمبالغة من ( التأوّه ) وقياس فعله أن يكون ثلاثيا ، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه . وحكى قطرب له فعلا ثلاثيا وهو ( آهَ يؤُوهُ ) كقام يقوم ، أوْهًا . وأنكر عليه غيره بأنه لا يقال إلا أوّه وتأوّه ، قال[1] :

إذا ما قمتُ أَرْحَلُهَا بليـــل ... تأوّهُ آهةَ الرّجُلِ الْحَزِينِ

---

(١) قائله المثقّب العبدىّ ، من مفضليته رقم ٧٦ التى مطلعها :

أفاطمُ قبل بَيْنِك متّعيِنِى ... ومنعُكِ ما سألتُ كأن تَبِينِى

ومعنى ( أرحلها ) فى البيت أى أضع عليها الرحْل .

وقد استشهد به فى اللسان ، بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت ).

والتأوه قول ( آه ) ونحوه مما يقوله الحزين، فلذا كنى به عن الحزن ، ورقة القلب . انتهى .

و ( أوّه ) بفتح الواو المشدّدة ساكنة الهاء ، وأواه ، وأوه بسكون الواو والحركات الثلاث قال[1] :

فَأَوْهِ على زيارةِ أمّ عمـــرو فـكيف مع المدا ، ومع الوُشاةِ ؟

وربما قلبوا الواو ألفاً ، فقالوا : آهِ من كذا قال[2] :

آهِ من تَيَّاكِ آهَـا تَرَكَتْ قلبي مُتَاهـا

و ( آهٍ ) بكسر الهاء منونة. وحكى أيضاً آها وواها. وفيها لغات أخرى أوصلها(التاج) إلى اثنتين وعشرين لغة ، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتحزن ، مبنيّات على ما لزم آخرها إلا ( آها ) فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر ، كأنه قيل : أتأسف تأسفاً .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ( وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )

« وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » هذا من تتمة ما تقدم من تأكد مباينة المشركين ، والبراءة منهم ، وترك الاستغفار لهم ، وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة ، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون ، ودلالته إياهم على الصراط السويّ ، فضلّوا عنه ، فأضلهم الله ، واستحقوا عقابه .

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٤٧٢ من المجلد الثالث عشر ( طبعة بيروت ) ولم يذكر قائله . (٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر ( طبعة بيروت ) ولم يذكر قائله .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تعليل لما سبق ، أي أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح مالا يستقل العقل بمعرفته ، فبين لهم ذلك ، كما فعل هنا .

وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى:

[١١٦] ( إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ )

« إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم ، وإرشاد للمؤمنين بأن يتوكلوا على ربهم ، ولا يرهبوا من أولئك ، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم ، وتنبيه على لزوم امتثال أمره ، والانقياد لحكمه ، والتوجه إليه وحده ، إذ لا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى .

تنبيه :

وقف كثير من المفسرين بالآية هنا ،أعني قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا .. ) الآية ـ على ما روى في الآية قبلها ؛ من نزولها في استغفار وقع من المؤمنين للمشركين ، فربطوا هذه الآية بتلك ، على الرواية المذكورة ، ونزّلوها على المؤمنين ، فقالوا : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ) أي ليحكم عليهم باستغفارهم للمشركين بالضلال بعد إذ هداهم بالنبوة والإيمان ، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه ، فيتركوا ، فأما إذا لم يبين فلا ضلال ، إلى آخر ما قالوه ...

وما أبعده من تفسير وتأويل والرازي ذكره وجهاً ، وأشفعه بما اعتمدناه ، وهو الحق .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ( لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ )

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس فى أيام غزوة تبوك ، مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق لها طوعاً أو كرهاً ، والمرغب فيها أو عنها ، والمتخلف نفاقاً أو كسلًا ، وأنبأ عما لحق كلاًّ من الوعد والوعيد ، وميز الصادقين من غيرهم ـ ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلًا للدعة. وهم صادقون فى إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم ، فقبلها ، ثم أنزل توبتهم فى هذه الآية ، وصدرها بتوبته على رسوله ، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويها لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبيّ والمهاجرين والأنصار ، كل على حسبه ، وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ، ليظهر فضيلة الصلاح . والوصف بالمدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح الصفة ، وهذا من لطائف البلاغة ، وهو كما قال حسان رضى الله عنه[(١)] :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِمَقَالَتِي ... لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدِ

وفى الآية بيان فضل المهاجرين والأنصار .

---

(١) هذا البيت ليس فى ديوان حسان المطبوع فى ليدن عام ١٩١٠ ولا فى شرح البرقوقىّ المطبوع فى مصر عام ١٩٢٩ .

قال الحاكم : ودلت على فضل عثمان ، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه .
وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ، ووصفهم باتّباعه ، فوجب القطع بموالاتهم .

وقوله تعالى : ( فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ) أي في وقتها والساعة تستعمل في معنى الزمان المطلق ، كما تستعمل الغداة والعشية واليوم . والعسرة حالهم في غزوة تبوك . كانوا في عسرة من الظَّهْر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفي عسرة من الزاد ، حتى إن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم ، يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها الآخر ، ثم يشرب عليها : وفي عسرة من شدة لَهَبَان الحرّ ومن الجدب . وفي عسرة من الماء ، حتى بلغ بأحدهم العطاش أن نحر بعيره ، فعصر فرثه فشربه ، وجعل ما بقي على كبده .

وقد حكى القالي في ( أماليه ) أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل الفلوات التي لا ماء فيها ، سقوا الإبل على أتمّ أظمائها[1] ثم قطعوا مشافرها ، أو خزموها لئلا ترعى ، فإذا احتاجوا إلى الماء ، افتظوا كروشها ، فشربوا ثميلها ، وهو كثير في الأشعار . كذا في ( العناية ) .

ونقل الرازيّ عن أبي مسلم أنه يجوز أن يكون المراد بـ ( ساعة العسرة ) جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول ، وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها . وقد ذكر تعالى بعضها في كتابه كقوله سبحانه[2] : ( وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ) . وقوله[3] ( وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ ... ) الآية ـ والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الأوقات الشديدة ، والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم . انتهى .

---

(١) ( أظمائها ) الأظماء مفردها ( ظِمء ) وهو حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد .
وفظّه وافتظّه : شق عنه الكرش أو عصره منها .

والثميلة : البقية تبقى من العلف والشراب في بطن البعير وغيره . فكل بقية ثميلة ( لسان العرب ) ولم أعثر على موقعها في ( الأمالي ) . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٠ ] .

(٣) [ ٣ / آل عمران / ١٥٢ ] .

أقول : هذا الاحتمال ، وإن كان مما يسعه اللفظ الكريم ، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية وسباقها ، القاصران على غزوة تبوك . ولم يتفق فى غيرها عسر فى الخروج ، واتباعه عليه السلام ، بل وقع أحيانا فى مصاف القتال . وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها ( غزوة العسرة ) ، ومن خرج فيها ( جيش العسرة ) .

وقوله تعالى : « مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » أى عن الحق ، أو الثبات على الاتباع ، للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم . وفى تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى: « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » تأكيد ظاهر ، واعتناء بشأنها ، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق الثانى ، فلا تكرار .

قال بعضهم : ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب ، تفضلا منه ، وتطييباً لقلوبهم . ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم . ثم أتبعه بقوله : « إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » تأكيدا لذلك .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ )

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » أى تركوا وأخروا عن قبول التوبة فى الحال ، كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبىّ ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بتوبتهم .

وقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى مع سعتها ، وهو مثل الحيرة فى أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه ، قلقا وجزعا مما هم فيه ، إذ لم يمكنهم

الذهاب لأحد ، لمنع النبيّ ﷺ من مجالستهم ومحادثتهم . و ( إذا ) يجوز كونها شرطية جوابها مقدر ، وأن تكون ظرفية غاية لما قبلها « وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ » أي قلوبهم من فرط الوحشة والجفوة والغمّ ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك لأنهم لازموا بيوتهم ، وهُجروا نحوا من خمسين ليلة ، وفيه ترقّ من ضيق الأرض إلى ضيقهم في أنفسهم ، وهو في غاية البلاغة « وَظَنُّوا » أي علموا « أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ » أي لا مفرّ من غضب الله « إِلَّا إِلَيْهِ » أي إلى استغفاره « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » أي ليستقيموا على توبتهم ، ويستمروا عليها ، أو ليعدّوا من جملة التائبين . أو المعنى : قبل توبتهم ليتوبوا في المستقبل ، إذا صدرت منهم هفوة ، ولا يقنطوا من كرمه « إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » أي في إيمانهم ومعاهدتهم لله ولرسوله على الطاعة . من قوله تعالى(١) : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ » أوهم الثلاثة ، أي كونوا مثلهم في صدقهم وخلوص نيتهم .

## تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام أحمد(٢) والشيخان حديث كعب وصاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية : قال الزهريّ : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ـ وكان قائد كعب من بنيه ، حين عمي ـ قال : سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٢٣ ] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبيّ ) .

وأخرجه البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٧٩ ـ باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث رقم ١٣٢٢ .

وأخرجه مسلم في : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٣ ، ٥٤ ( طبعتنا ) .

فى غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط ، إلا فى غزاة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ، ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدرٌ أذكر فى الناس منها وأشهر . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة . والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما فى تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها ، إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدوًّا كثيراً ، فجَلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر ـ أى أميل ـ فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألحقه ، فغدوت بعدُ لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ـ وليتنى فعلت ـ ثم لم يقدّر ذلك لى. فكنت إذا خرجت فى الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلًا ممن عذره الله عز وجل . ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال ( وهو جالس فى القوم بتبوك ) : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة: حبسه يا رسول الله بُرداه ، والنظر فى عطفيه ! فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت. والله ! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ! فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني بثي ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطاته غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأى من أهلي . فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً ، زاح عني الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه . فأصبح رسول الله ﷺ ـ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ـ فلما فعل ذلك، جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : تعال ! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظَهْراً ؟ فقلت : يا رسول الله ! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن أخرج من سخطه بعذر . لقد أُعطيتُ جدلًا ، ولكني ، والله لقد علمت ، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ، ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ . ولئن حدثتك بصدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل . والله ما كان لي عذر ، والله! ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك ! فقمت ، وقام إليّ رجال من بني سلمة ، واتبعوني ، فقالوا لي : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك .

قال: فوالله ! مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامريّ، وهلال ابن أمية الواقفيّ ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لي فيهما أسوة .

قال : فمضيت حين ذكروها لى .

فقال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، أيها الثلاثة ، من بين من تخلف . فاجتنبنا الناسُ ، وتغيروا لنا،حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول فى نفسى : أَحَرَّكَ شفتيه بردّ السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال علىّ ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ ؛ فسلمت عليه ، فوالله ! ماردّ علىّ السلام . فقلت له: ياأبا قتادة ! أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال : فسكت. قال : فعدت له فنشدته فسكت،فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينا أنا أمشى بسوق المدينة ، إذا أنا بنبطى[١] من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاء فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه :

( أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك بدار هوان ولا مضيعة[٢] ، فالحق بنا نواسك ) .

قال : فقلت ــ حين قرأته ــ : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته به . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول :

(١) النبطى واحد ( الأنباط ) وهم الفلاحون والزارعون من العجم والروم .

(٢) المضيعة مفعلة من ( الضياع ) .

يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر مايشاء ! قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية ، رسولَ الله ﷺ فقالت : يارسول الله ! إن هلالا شيخ ضعيف ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لايقربك ! قالت : وإنه ، والله ! مابه من حركة إلى شيء ، وإنه والله ! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . قال . فقلت : والله ! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها إذا استأذنته ، وأنا رجل شابّ . قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح ،صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا،فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ! قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون ، وركض إليّ رجلٌ فرسا ،وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه .

والله ! ما أملك يومئذ غيرهما ـ واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئونني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحني وهنأني ـ والله ! ماقام إليّ رجل من المهاجرين غيره ـ قال :

فكان كعب لا ينساها لطلحة : قال كعب . فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( وهو يبرق وجهه من السرور ) : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ! قال ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: لا ، بل من عند الله . قال،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ! إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال ، فوالله ! ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

قال ، وأنزل الله « لَقَدْ تَابَ اللهُ . . . » إلى آخر الآيات .

قال كعب : فوالله ! ما أنعم عليّ من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كَذَبْتُهُ ، فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه ، حين أنزل الوحي ، شرّ ما قال لأحد . فقال الله تعالى[1] : «سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ) .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلّفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال تعالى : ( وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ) وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه .

(١) [ ٩ / التوبة / ٩٥ و ٩٦ ] .

وفى رواية : ونهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن كلامى ، وكلام صاحبىّ ، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبثت كذلك حتى طال علىّ الأمر ، فما من شىء أهمّ إلىّ من أن أموت ، فلا يصلّ علىّ النبىّ ﷺ . أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمنى أحد منهم ، ولا يصلّى علىّ ، ولا يسلّم علىّ .

قال : وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث الأخير من الليـــل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى ، معتنية بأمرى . فقال رسول الله ﷺ :يا أم سلمة تِيب على كعب بن مالك . قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال : إذاً يحطمكم الناس فيمنعونـكم النوم سائر الليل . حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر ، آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا ـ أخرجه البخارىّ ومسلم ـ .

قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .

الثانى ـ قال بعض المفسرين : فى الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة ، وعلى قطع ما يلهى عن الطاعة .

الثالث ـ فى الآية دلالة على التحريض على الصدق .

قال القاشانىّ : فى قوله تعالى هنا ( يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ) أى فى جميع الرذائل بالاجتناب عنها ، خاصة رذيلة الـكذب . وذلك معنى قوله ( وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ) فإن الـكذب أسوأ الرذائل وأقبحها ، لـكونه ينافى المروءة . وقدقيل: ( لا مروءة لـكذوب ) إذ المراد من الـكلام الذى يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم ، فإذا كان الخبر غير مطابق ، لم تحصل فائدة النطق ، وحصل منه اعتقاد غير مطابق ، وذلك من خواص الشيطنة فالـكاذب شيطان . وكما أن الـكذب أقبح الرذائل ، فالصدق أحسن الفضائل ، وأصل كل حسنة ، ومادة كل خصلة محمودة ، وملاك كل خير وسعادة ، به يحصل كل كمال .

وأصله الصدق فى عهد الله تعالى الذى هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه ، كما قال[١] : ( رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ) فى عقد العزيمة ، ووعد الخليقة . كما قال فى إسماعيل[٢] : ( إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ) . وإذا روعى فى المواطن كلها ، حتى الخاطر والفكر والنية والقول والعمل ، صدقت المنامات والواردات ، والأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات ، كأنه أصل شجرة الكمال ، وبذر ثمرة الأحوال . انتهى .

ولما أوجب تعالى الكون مع الصادقين ، أشار تعالى إلى أن النفْر مع رسول الله ﷺ واجب كفاية ، فلا يجوز تخلف الجميع ، ولا يلزم النفْر للناس كافة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ( مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ » أى المتيسر لهم ملازمة رسول الله ﷺ وصحابته « وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ » أى عند توجهه إلى الغزو « وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ » أى لا يضنوا بأنفسهم عما يصيب نفسه . أى لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه فى الشدائد .

قال الزمخشرىّ : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٢٣ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٥٤ ] .

رغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت ، مع كرامتها وعزتها ، للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزنا ، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية . انتهى .

روى أن أبا ذر رضى الله عنه[1] ، أبطأ به بعيره ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده : كن أبا ذر ! فقال الناس : هو ذاك ! فقال : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وروى أن أبا خيثمة[2] الأنصارىّ رضى الله عنه ، بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب ، والماء البارد . فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ فى الضح[3] والريح ، ما هذا بخير ! فقام فرحّل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرّ كالريح . فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب[4] ؛ فقال : كن أبا خيثمة ! فكانه ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

قال السهيلىّ فى ( الروض ) : كن أبا ذر ، كن أبا خيثمة ، لفظه لفظ الأمر ، ومعناه كما تقول : أسلم ، أى سلمك الله ـ انتهى ـ .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٩٠١ ( طبعة جوتنجن ) والصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٨٩٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٣) الضح : بفتح الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة : ضوء الشمس وحرّها . (٤) أى يرفع شخصه للناظر .

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسىّ . وذكره المطرزىّ فى قول الحريرىّ : كن أبا زيد .

وفى شعر ابن هلال :

ومعذّر قال الإلهُ لحسنه : كُنْ فتنةً للعالمين فكانها

ولم يزيدوا فى بيانه على هذا . وهو تركيب بديع غريب . ومعناه ساقه الله إلينا، وجعله إياه ، ليكون هو القادم علينا . فأقيم فيه العلة مقام المعلول فى الجملة الدعائية الإنشائية ، على حد قوله فى الحديث(١) : أَبْلِ ، وأَخْلِقْ . أى عمرك الله، ومتعك الله بلباسك لتبلى وتخلق. وقولهم : اسلم . أى سلمك الله لتسلم . ثم لما أقيم مقامه أبقى مسنداً إلى فاعله ، وإن كان المطلوب منه هو الله ، وهو قريب من قولهم ( لا أرينَّك هاهنا ) أى لا تجلس حتى أراك . وهو تمثيل أو كناية . كذا فى ( العناية ) .

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما دل عليه قوله ( مَا كَانَ ) من النهى عن التخلف أو وجوب المشابهة « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ » أى شىء من العطش « وَلَا نَصَبٌ » أى تعب من السير لا سيما مع العطش « وَلَا مَخْمَصَةٌ » أى مجاعة تضعفهم عن السير « فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً » أى لا يدوسون مكاناً « يَغِيظُ الْكُفَّارَ » أى الذين هم أعداء الله . وإغضابُ العدوّ يفيد رضا عدوّه « وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا » أى قتلاً أو هزيمة أو أسراً « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى على إحسانهم . وهو تعليل لـ ( كُتِبَ ) ، وتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان ، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى .

---

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٨٨ ـ باب من تكلم بالفارسية والرطانة ، والحديث رقم ١٤٥٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] ( وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ )

« وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً » أى لا يشق مثلها « وَلَا كَبِيرَةً » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى غزوة تبوك ، وهو ألف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا » فى مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل . اسم فاعل من ( ودى ) إذا سال ، فهو السيل نفسه ، ثم شاع فى محله ، ثم صار حقيقة فى مطلق الأرض ، وجمعه ( أودية ) كناد ، بمجلس ، جمعه ( أندية ) ، وناج جمعه ( أنجية ) ولا رابع لها فى كلام العرب « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ » أى أثبت لهم به عمل صالح « لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى ليجزيهم على كل عمل لهم ، كاملٍ أو قاصرٍ ، جزاء أحسن أعمالهم . أى فإذا مالوا بأنفسهم فاتهم ذلك ، وكانت المؤاخذة عليهم أشد.

ولما بين تعالى ، فيما تقدم ، خطر التخلف عن الرسول فى الجهاد ، وشدّد الوعيد على المتخلفين التاركين للنفير ، دفع ما يتوهم من وجوب النفر على الجميع ، وفيه ما فيه من الحرج ، والإخلال بأمر المعاش ، بأن وجوبه كفائى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ )

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » أى ما صح لهم ذلك ولا استقام ، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس « فَلَوْلَا نَفَرَ » أى فحين لم يمكن نفير الكافة ، ولم يكن مصلحة ، فهلا نفر « مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » أى من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة منهم

يكفونهم النفير « لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ » أي ليتعلموا أمر الدين من النبيّ ﷺ « وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ » أي يعلموهم ويخبروهم ما أمروا به ، وما نهوا عنه « إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » أي من غزوتهم « لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » أي فيصلحون أعمالهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في ( الإكليل ) : في الآية أن الجهاد فرض كفاية ، وأن التفقه في الدين ، ونشر العلم ، وتعليم الجاهلين كذلك . وفيها الرحلة في طلب العلم . واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة نفر يسير ، بل قال مجاهد : إنها تطلق على الواحد . انتهى .

وقال الجصّاص في ( الأحكام ) : في الآية دلالة على لزوم خبر الواحد في الديانات التي لا تلزم العامة ، ولا تعمّ الحاجة إليها ، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم فحوى الدلالة عليه من وجهين :

أحدها ـ أن الإنذار يقتضي فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً .

والثاني ـ أمره إيانا بالحذر عند إنذار الطائفة ، لأن معنى قوله :( لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ) ليحذروا . وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة تقع على الواحد ، فدلالتها ظاهرة . انتهى .

وفي القاموس : أن الطائفة من الشيء القطعة منه ، أو الواحدة ، فصاعداً ، أو إلى الألف ، أو أقلها رجلان ، أو رجل . فيكون بمعنى ( النفس الطائفة ) .

قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع ، فجمع ( طائف ) وإذا أريد به الواحد ، فيصح أن يكون جمعاً ، وكُني به عن الواحد ، وأن يجعل كـ ( راوية ) و ( علّامة ) ونحو ذلك .

الثاني ـ إن قيل : كان الظاهر في الآية ( ليتفقهوا في الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفقهون ) فلِمَ وضع موضع ( التعليم ) الإنذار ، وموضع ( يفقهون ) يحذرون ؟

يجاب . بأن ذلك آذن بالغرض منه ، وهو اكتساب خشية الله ، والحذر من بأسه .

قال الغزاليّ رحمه الله: كان اسم الفقه في العصر الأول ، اسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدة الأعمال ، والإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب . ويدل عليه هذه الآية . كذا في ( العناية ) .

قال الزمخشريّ في الآية : وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه ، إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم . لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة ، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّ داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسةً لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه . وتهالكه على أن يكون موطأً العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل(١) : ( لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ) . انتهى .

الثالث ـ قال القاشانيّ في الآية : يجب على كل مستعد من جماعةٍ ، سلوك طريق طلب العلم ، إذ لا يمكن لجميعهم . أما ظاهراً فلفوات المصالح ، وأما باطناً فلعدم الاستعداد . ثم قال: والتفقه في الدين هو من علوم القلب ، لا من علوم الكسب ، إذ ليس كل من يكتسب العلم يتفقه ، كما قال(٢) : ( وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ) والأكنة هي الغشاوات الطبيعية ، والحجب النفسانية . فمن أراد التفقه فلينفر في سبيل الله ، وليسلك طريق التزكية والتصفية ، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه . فالمراد من التفقه علم راسخ في القلب ، ضارب بعروقه في النفس ، ظاهر أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب ما يخالف ذلك العلم ، وإلا لم يكن عالما . ألا ترى كيف سلب الله الفقه عمن لم تكن رهبة

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٨٣ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٢٥ ] و [ ١٧ / الإسراء / ٤٦ ] .

الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله[1] : ( لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ) ، لكون رهبة الله لازمة للعلم ، كما قال[2] : ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ) وسلب العلم عمن لم يعمل به في قوله[3] : ( هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ) ، وإذا تفقهوا ، وظهر علمهم على جوارحهم ، أثر في غيرهم ، وتأثروا منه ، لارتوائهم به ، وترشحهم منه ، كما كان حال رسول الله ﷺ ، فلزم الإنذار الذي هو غايته . انتهى .

ولما أمر تعالى ، في صدر السورة ، بالبراءة من مشركي العرب وقتالهم ، ثم شرح أحوال المنافقين ومخازيهم ، أشار إلى خاتمتها بما يطابق فاتحتها بذلك ، فقال سبحانه :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ » أي يقربون منكم ، وهم مشركو جزيرة العرب ، كما قلنا .

وقوله تعالى : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » قالوا إنها كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال ، وشدة العداوة ، والعنف في القتل والأسر . وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة ، والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه ، حتى يجدهم الكفار متصفين بها ، فهي على حد قولهم : لا أرينك ههنا . والغلظة هي ضد الرقة ، مثلثة الغين ، وبها قرئ . لكن السبعة ، على الكسر « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أي بالنصرة والمعونة .

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١٣ ] . (٢) [ ٣٥ / فاطر / ٢٨ ] . (٣) [ ٣٩ / الزمر / ٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] ( وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ )

« وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ » أى طائفة من القرآن المعجز المحيط بجملة من الحجج ورفع الشبه « فَمِنْهُمْ » أى من المنافقين « مَنْ يَقُولُ » بعضهم لبعض « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ » أى السورة « إِيمَانًا » إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين ، واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحى والعمل به « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا » لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر ، لكثرة الدلائل ، ورفع الشبه « وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] ( وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ )

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى كفر وسوء عقيدة « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » أى كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها « وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » أى واستحكم ذلك الكفر فيهم ، بسبب الزيادة إلى موتهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] ( أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ )

« أَوَلَا يَرَوْنَ » يعنى المنافقين « أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ » أى يبتلون بإظهار مكرهم وخيانتهم ،

أو بنقض عهدهم « فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ » أى من صنيعهم ونقض عَهْدِهِم « وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى يتعظون بأنها آيات قاطعة ، وكون الابتلاء بسبب مخالفتها.

ثم بيّن أحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى ، إثر بيان مقالتهم، وهم غائبون عنه بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] ( وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ )

« وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » قال الزمخشريّ: يعنى تغامزوا بالعيون إنكارا للوحى ، وسخرية به ، قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم .أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا . يقولون : هل يراكم من أحد « ثُمَّ انْصَرَفُوا » أى عن محفل الوحى خوفاً من الافتضاح « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام . والجملة إخبارية أو دعائية « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا .

## تنبيهات :

الأول - دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر . وسواء قلنا بدخول الأعمال فى مسمى الإيمان ، وهو الحق ، أوْ لاَ ، وأنه مجرد التصديق القلبيّ ، فالزيادة مما يقبلها قطعاً ، والأول بديهيّ ، والثانى مثله ، إذ ليس إيمان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة رضى الله عنهم ، كإيمان غيرهم وهذا مما لا يُرتاب فيه .

الثانى - ذكر تعالى من مخازى المنافقين نوعين : عدم اعتبارهم بالابتلاء ، وتمكن الكفر

منهم ، وازدياده فى وقت يقتضى زيادة الإيمان ، وهو تكرير التنزيل . ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم ، وعدم نفع العظات فيهم ، ختم مخازيهم بذلك ، لأنه نتيجتها . وقدم عليه ما يصيبهم من الابتلاء ، لأن فيه ردعاً عظيما لو تذكروا .

وقد تلطف القاشانىّ فى إيضاح ذلك ، وجود التقرير فيه ، وعبارته :

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه . وقد ورد فى الحديث (١) : ( البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه ) ، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد ، يكسر سورة نفسه وقواها ، ويقمع صفاتها وهواها ، فيلين القلب ، ويبرز من حجابها ، وينزعج من الركون إلى الدنيا ولذاتها ، وينقبض منها ويشمئز ، فيتوجه إلى الله . وأقل درجاته أنه إذا اطّلع على أن لا مفر منه إلا إليه ، ولم يجد مهربا ومحيصا من البلاء سواه ، تضرع إليه وتذلل بين يديه ، كما قال (٢) : ( وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ) ( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ) (٣) وبالجملة يوجب رقة الحجاب أو ارتفاعه ، فليغتنم وقته وليتعوّذ ، وليتخذ ملكة يعود إليها أبدا حتى يستقر التيقظ والتذكر ، وتتسهل التوبة والحضور ، فلا يتعوذ الغفلة عند الخلاص فتغلب ، وتتقوى النفس عند الأمان ، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان ، كما قال (٤) : ( فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ) ( فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ) (٥) انتهى :

الثالث ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : أخذ ابن عباس من قوله ( ثم انصرفوا ) كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ ومرجع هذا إلى أدب لفظىّ ، باجتناب ما يوهم ، أو ما نُهِىَ به على العصاة .

---

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [ ٣١ / لقمان ٣٢ ] .
(٣) [ ١٠ / يونس / ١٢ ] . (٤) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٥ ] .
(٥) [ ١٠ / يونس / ١٢ ] .

وقد عقد الإمام ابن القيم في ( زاد المعاد ) فصلا في هدى النبيّ ﷺ في حفظ المنطق ، واختيار الألفاظ ، فليراجع .

ثم بيّن تعالى ما امتن به على المؤمنين من بعثة خاتم النبيين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ )

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أي رسول عظيم من جنسكم ، ومن نسبكم ، عربيّ قرشيّ مثلكم ، كما قال إبراهيم عليه السلام[١] : ( رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ) . وقال تعالى[٢] : ( لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ) .

وكلّم[٣] جعفرُ بن أبي طالب النجاشي ، والمغيرةُ بن شعبة رسولَ كسرى ، فقالا : إن الله بعث فينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته ... الحديث .

ثم ذكر تعالى مايتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » أى شديد عليه شاق ، لكونه بعضاً منكم ، عنتُكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع في العذاب « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » أى على هدايتكم ، كي لا يخرج أحد منكم عن اتباعه ، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به « بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ » إذ يدعوهم لما ينجيهم من العقاب بالتحذير عن الذنوب والمعاصي ، لفرط رأفته « رَحِيمٌ » إذ يفيض عليهم العلوم والمعارف والكمالات المقربة بالتعليم والترغيب فيها ، برحمته[٣] .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٩ ] . (٢) ٣ / آل عمران / ١٦٤ ] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ ( طبعة جوتنجن ) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبيّ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] ( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ )

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بك ، وناصبوك « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » أى فاستعن به ، وفوض إليه، فهو كافيك وناصرك عليهم .

وقال القاشانىّ : أى لا حاجة لى بكم ، ولا باستعانتكم ، كما لا حاجة الإنسان إلى العضو المألوم المتعفّن الذى يجب قطعه عقلا . أى الله كافينى فلا مؤثر غيره ، ولا ناصر إلا هو كما قال : « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فوضت أمرى إليه ، وبه وثقت « وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » أى المحيط بكل شىء ، يأتى منه حكمه وأمره إلى الكل . وتخصيصه لكونه أعظم المخلوقات ، فيدخل ما دونه ، وقرىء ( العظيم ) بالرفع ، على أنه صفة الرب جل وعزّ .

---

تم ما علقناه على سورة التوبة صباح الاثنين فى ٢٤ رجب سنة ١٣٢٢هـ
فى سدة جامع السنانية بدمشق الشام

اللهم يسر لنا بفضلك الإتمام . والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين
إلى يوم الدين .

ويليه الجزء التاسع وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد.

---

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ

[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ — ١٩١٤ م

## الجزء التاسع

وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

( خادم الكتاب والسنة )

محمد فؤاد عبد الباقي

---

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث » المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠ - سورة يونس

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله[١] « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب ـ قاله المهايميّ ـ .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى[٢] : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ . . . » الآيتين . وقوله[٣] : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكيّ ، والباقي مدنيّ ـ حكاه ابن الفرس والسخاويّ في ( جمال القراء ) ـ .

وآياتها مائة وتسعة .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] . (٢) [ ١٠ /يونس / ٩٤،٩٥ ] .

(٣) [ ١٠ / يونس / ٤٠ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓر ، تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ )

« الٓر » مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ ( الٓر ). والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت فى حكم الحاضر ، كما يقال : هـذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة « تِلْكَ » إشارة إليها ، أما على تقدير كون ( الٓر ) مسرودة على نمط التعديد ، فقد نزّل حضور مادتها ، التى هى الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنـه قيل : هذه الـكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ، ومحله الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

« ءايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » ، وعلى تقدير كون ( الٓر ) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هى آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتهامنه ، وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الـكاملة .

والمراد بـ ( الـكتاب ) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل الـكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه فى علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك .

و ( الحـكيم ) أى ذو الحـكمة ، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحـكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الـكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستعارة المـكنيّة المبنية على تشبيه الـكتاب بالحـكيم الناطق بالحـكمة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ )

« أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب فى الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ماجاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق ( اليد ) على النعمة ، و ( العين ) على الجاسوس ، و ( الرأس ) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوىّ إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتبتين . أو ( القدم ) بمعنى المقام ، كـ ( مَقْعَدِ صِدْقٍ )[1] بإطلاق الحالّ وإرادة المحلّ ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله ( قدمٌ صدقٌ ) أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال فى ( الانتصاف ) : ولم يرد فى سابقة السوء تسميتها (قدماً ) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب فى الحقيقة .

« قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتعجبون « إِنَّ هَـٰذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقرئ ( لَسَاحِرٌ ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه. وهو دليل عجزهم واعترافهم ، وإن كانوا كاذبين فى تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المفحَم .

ثم بيّن تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ٥٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال البخارى[١] فى صحيحه فى الردّ على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكييف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات. و ( الأيام ) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمرَ الخلق كله . و « مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لعظمته وعز جلاله، وردعلى من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وحّدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تتفكّرون أدنى تفكّر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه .

---

(١) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ )

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه . فاستعدوا للقائه « وَعْدَ اللهِ حَقًّا » أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ » أى من النطفة « ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى بعد الموت « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ » أى بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم ، أو بإيمانهم ، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أى من ماء حارّ قد انتهى حره « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » وجيع يخلص ألمه إلى قلوبهم « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غيّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجعله حقا مقررا لهم ، كما تفيده ( اللام ) وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة . والعقاب واقع بالعرَض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى النيرين ، إثر الاستدلال بما مرّ من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للعالمين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ» الضمير لهما ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازله معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» أى حساب الشهور والأيام ، مما نيط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

« إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالغ حكمته . وخص ( المتقين ) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العاقبة .

تنبيه :

فى هذه الآيات إشارة إلى أن الذى أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وأحسن كل شىء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان ـ يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبلغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٧ ] ( إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ )

[ ٨ ] أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

[ ٩ ] ( إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ )

[١٠] ( دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى مأواهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها، وانسياق النفس إليها، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ » أى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . « دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن ( اللهم ) نداء ، ومعناه : اللهم إنا نسبحك ، كقول القانت : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى . ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية[1] ( وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى ما يحيي به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كما فى قوله تعالى[2] : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ) أو تحية الله عز وجل لهم ، كما فى قوله تعالى ( سَلَامٌ قَوْلًا مِّنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ ) . و ( التحية ) التكرمة بالحالة الجلية . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و ( السلام ) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ » أى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن ( وبحمدك ) ، بقوله : ( وَآخِرُ ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من النعوت الجليلة ، تذكيراً بعسماها . والآية تدل على سمو هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا[3] : ( وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ) ، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازىّ لما استسعد أهل الجنة بذكر ( سبحانك اللهم وبحمدك ) ، وعاينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمخافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتمامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء .

ولما بيّن تعالى وعيده الشديد ، أتبعه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٤٨ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٢٣ ] .
(٣) [ ٣٦ / يس / ٥٨ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاءه تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون(١) : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلا مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » أى لأميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة :

زعم الزمخشرىّ أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد ـ غير ضرورىّ فى العربية ، والشواهد كثيرة.

وجوز الرازىّ أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق .

ولعل الأليق أن ( استعجالهم ) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازا ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى(٢) (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ )

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا) واللام بمعنى ( على ) أى على جنبه ، أى مضطجعا « أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى، « كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد ، علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إثر كشف كرباتهم ، وتحذير من مثل صنيعهم .

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبأ الأقدمين ليتقوه ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ )

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر « وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزاهم بالإهلاك المعروف فيهم . « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبىّ ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبىّ ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : ائت بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : ( قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ) : أى ليس ذلك إلىّ ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولًا ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعا ، ربما يعدّ من قبيل المجاراة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : ( إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . اهـ .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الاقتراح ؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترائه على الله ـ انتهى ـ .

ولما بيّن بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته ، أشار إلى تحقيق حقية القرآن ، وكونه من عنده تعالى بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

قُل « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم » .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمىّ لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ، يبهر كلّ كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شىء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، وألصقهم به .

«وَلَاأَدْرَاكُمْ بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » أى من قبل نزوله ، لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق بنحوه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ، فتتهمونى باختراعه . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا من مثلى .

قال الزمخشرىّ : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم ( ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا ) من إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك ولا ههنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائناً من كان ، كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى ، لا أتعرض لأحدقط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه شائبه شبهة ، فضلًا عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطّرد فى هذا العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهى الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحى مبين ، تنزيل من رب العلمين ـ انتهى ـ .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول [(١)] هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سأله من صفة النبيّ ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشيّ ملك الحبشة(١) : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

وعن ابن المسيّب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ )

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكاريّ معناه الجحد . أي لا أحد أظلم ممن تقوّل على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن،وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أي لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى(٢) ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعدُه صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والنكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول ( طبعة الحلبيّ ) والحديث رقم ١٧٤٠ ( طبعة المعارف ) . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٩٣ ] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب ـ وكان صديقاً له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ ـ فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ فى هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال . وما هى ؟ فقال[1] : وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل علىّ مثله ! فقال: وماهو ؟ فقال : ياوبر ياوبر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أنى أعلم أنك لكذاب !

وقال عبد الله بن سلام[2]: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال حسان[3] :

لو لم تكن فيه آيات مبينة  كانت بديهته تأتيك بالخبر

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أى الأوثان التى هى جماد

---

(١) [ ١٠٣ / العصر / ١ ـ ٣ ] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ١٧٤ ـ باب ما جاء فى قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ ( طبعتنا ) . (٣) ليس فى ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرّ ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له ـ وهو العالم المحيط بجميع المعلومات ـ لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .

فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : ( فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) تأكيد لنفيه ، لأن مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ـ كذا فى الكشاف ـ « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع، فطرة وتشريعاً، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة، ليهلك[1] من هلك عن بيّنة ، ويحيي من حيّ عن بيّنة «وَلَوْلَا

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٤٢ ] .

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » أي بتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أي عاجلاً فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء المحق ، وإهلاك المبطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ )

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أي من الآيات التي اقترحوها تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة في الآيات . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أي هو المختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لي ولا لأحد به . يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أي فيما يقضيه الله تعالى في عاقبة تعنتكم ، فإن العاقبة للمتقين . وقد قال تعالى في آية أخرى [1] ( وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ) . وقال تعالى [2] ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ) . وقال تعالى [3] ( وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ) أي فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا لمقترحهم ، لفرط عنادهم . ولا يخفى أن القرآن الكريم لما قام به الدليل القاهر على صدق نبوته ، عليه السلام ، لإعجازه ، كان طلب آية أخرى سواه من مقترحهم ـ مما لا حاجة له في صحة نبوته ، وتقرير رسالته . فمثلها يكون مفوضاً إلى مشيئته تعالى ، فترد إلى غيبه ، وسواء أنزلت أوْ لَا ، فقد ثبتت نبوته ، ووضحت رسالته ، صلوات الله عليه .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٥٩ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ٩٦و٩٧ ] .
(٣) [ ٦ / الأنعام / ٧ ] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيرا إلى أنهم لا يُذعنون ولو أجيبوا لمقترحهم، بما يعهد منهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضرهم ، إلى الإشراك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ )

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم « إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا » أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شركهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالمخادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلى أمره بعد : « قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا » أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . « إِنَّ رُسُلَنَا » أى الذين يحفظون أعمالكم « يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ » أى مكركم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة، فضلًا عن العليم الخبير .

ثم بين تعالى نوعا من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ )

« هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ » أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة الهبوب ، موافقة المرغوب « وَفَرِحُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوُا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى العابدين لك شكراً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) .

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان أو هو الخبر لـ ( بغيكم ) و( على ) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر لمحذوف ، أى تتمتعكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البغى .

ثم بيّن تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هى للسببية ، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ، أى التف بعضه ببعض ، والأول أظهر « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلأ والحشيش « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها «وَازَّيَّنَتْ» أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصود من أصله « كَأَنْ لَمْ تَغْنَ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مَثَلٌ فى الوقت القريب « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانىّ : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهيأة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى الرذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة [١] . فلهذا قال : ( عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٨ ـ باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ، ولذّات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسّية التى مثلها فى سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذى مثل به ، من تزيّن الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها ببعض الآفات سريعا قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية ، والعذاب الأليم الدائم .

وفى الحديث(١) : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذى يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : قلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة، وذلك لمبارزتهما الله تعالى فى هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه ، ومخالفتهما إياه فى حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغّب فى الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أى من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مرّ ، فقال سبحانه :

---

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ ( طبعتنا ) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٢٣ ـ باب البغى ، حديث رقم ٤٢١٢ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

[٢٦] ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

« وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فعرفوا مكر الدنيا والشهوات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فعبدوه كأنهم يرونه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى[1]: ( وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ) . وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبىّ صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأُبَىّ . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد[2] عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ... ) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم[3] .

(١) [ ٤/النساء/١٧٣ ]و[ ٢٤/النور/ ٣٨ ]و[ ٣٥/فاطر/ ٣٠ ]و[٤٢/الشورى/ ٢٦ ].
(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .
(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ ( طبعتنا ) .

« وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ » أى لايغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات « وَلاَ ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .

قال الناصر : وفى تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ، فإن فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ، وذلة البعد .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيهم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست « وُجُوهُهُمْ قِطَعاً » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك لارتكابهم الهيأة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الردية والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والخزى بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانىّ : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لانقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصَل .

ومعنى قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصَل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانىّ كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل: ينطقها (اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) (١) ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٢١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ )

« فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انا « لَغَافِلِينَ » أى الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ )

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام المدهش ، حين قطع المواصلة ، وإنكار الشركاء العبادة « تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتعاين أثره من قبح وحسن ، وردّ وقبول ، كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ، ليكتنه حاله . وهذا كقوله تعالى[١] : ( يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) وقوله[٢] ( يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ).

« وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى جزاءهم بالعدل والقسط « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانيّهم الباطلة . أى ظهر ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم ، أحوج ما يكونون إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد عليهم أتم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٣ ] . (٢) [ ٨٦ / الطارق / ٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ )

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها « أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى(١) : ( قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، ( وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شىء ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ )

« فَذَٰلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقية ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركة « فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [ ٦٧ / الملك / ٢٣ ] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] ( كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ )

« كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه. وقوله ( أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب ، و ( أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) تعليل بمعنى ( لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) ـ أفاده الزمخشرىّ ـ أى كقوله تعالى[1] ( قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ) وقوله تعالى[2]: ( أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ) قيل: ( الَّذِينَ فَسَقُوا ) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشعار بالعلية ، و ( الفسق ) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصريح بما علم ضمناً من ( الذين فسقوا ) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان .

ثم احتجّ أيضاً على حقيّة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٤] ( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ )

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالا ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٧١ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ١٩ ] .

فى أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة فى سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيذاناً بظهور برهانها ، للأدلة القائمة عليها سمعاً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعنادا لا يلتفت إليه ، وإشعاراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدما ، يستلزم الاعتراف به الاعتراف بها . ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، فقيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضا ، إفحاما إثر إفحام ، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل ، وإيتاء العقل ، وتمكين النظر فى آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى ـ « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمَّنْ لَا يَهِدِّي » أى إلا أن يهديه الله تعالى ـ نزل منزلة من يعقل لإفحامهم ـ وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيوانا مكلفا ، فيهديه . وقد قرئ ( أَمَّنْ لَا يَهَدِّي ) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى ( يهتدى ) . والعرب تقول : يهدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أىّ شىء لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ؟ !

..................

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ )

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل لخيالات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد بـ ( الأكثر ) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . و ( شيئاً ) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ ( يغنى ) ، و ( مِنَ الْحَقِّ ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) (١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : ( رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ )(٢) . وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال : ( سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٧٨ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٥٠ ]

فسوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى )[١] . وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً ، لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله[٢]: ( أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى[٣] : ( وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) ، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتكون آلة فى اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أولمس شيء من الكيفيات الملموسة. أما الأحوال الروحانية، والمعارف الإلهية. فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن الكون والفساد . فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانته تعالى وحده . والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍّ فقد بينا أنهما أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها فى الدعوة إلى الحق ، ولا فى الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات فى النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها فى شيء من ذلك، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام فى هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيّة هذا الوحى المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزَل عليه ، ودلائلها فى آيات الله الكونية ، والمنبئة عن عظيم قدرته ، وجليل عنايته ، بهداية بريته ، فقال تعالى :

---

(١) [ ٨٧ / الأعلى / ١ـ٣ ] . (٢) [١٧ / النمل/ ٦٤ ] . (٣) [ ١٦ / النحل /٧٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٧] ( وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ )

« وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ » لامتناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التى بها عموم الإعجاز « وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبى ﷺ. و ( تصديق ) منصوب على أنه خبر ( كان ) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقَ الخ . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوفٍ ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يتعين كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله[1] ( كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ) كما قال علىّ رضى الله عنه[2] : فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار أخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل أيقولون . فـ ( أم ) منقطعة مقدرة بـ ( بل والهمزة ) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومعادلها

---

(١) [ ٤ / النساء / ٢٤ ] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بعد ما بيّنا من حقيقته أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ » أى إن كان الأمركما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا فى النظم « وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم من خلقــه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله ـ إن صدقتم فى أنى اختلقته ـ فإنه لا يقــدر عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتنصيص على براءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المضادّة والمشاقّة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه ، فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩](بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل. أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجؤوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما فى تضاعيفه من الشواهــد الدالة على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم . كالناشىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

فى أول وهلة ، واشمأز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير ( بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ) الإيذان بكمال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به ـ كذا فى الكشاف وأبى السعود ـ .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح فى الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال فى ( تنوير الاقتباس ) : أى عاقبة ما وعدهم فى القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانىّ : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه فى مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر فى معانيها .

« فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكهم بسبب تكذيبهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] ( وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ )

[٤٢] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به فى نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب « وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فتبرأ منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ » أبرزهم فى عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتوهين : أى أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوىّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

« وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أتحب هداية من كان كذلك؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن ، أما مع الحمق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لعدله لا يفعل ذلك . « وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ )

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ )

[٤٧] ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

« وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل ذلك « فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحـال « ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوئ الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى فبلّغهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ، فأُنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانىّ فى قوله تعالى ( قُضِيَ بَيْنَهُمْ ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإنابته ، وإهلاك من ضل وتعذيبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده ـ انتهى ـ .

فالآية على هذا كقوله تعالى [١] : ( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى [٢] : ( وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )

[٤٩] ( قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبيّ صلوات الله عليه . قيل : «قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه . وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميما . والمعنى لا أملك شيئاً ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لكن ما شاء الله كائن ، فالاستثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول يأباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والصلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وَبَسَطَ تقريره .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٥ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٩ ] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما فى هذه الآية ، وقوله (١) : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) قال : والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل. اهـ. وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانىّ : درّجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : ( لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . . ) الآية ـ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَاتًا » أى ليلا « أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شئ منه بمرغوب البتة .

لطائف :

الأولى ـ ( أرأيت ) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى ( أخبرنى ) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشيء سبباً لمعرفته ، ومعرفته سببا للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

(١) [ ١١ / هود / ١٠٧ ] .

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان ـ كذا فى ( العناية ) .

الثانية ـ سر إيثار ( بياتاً ) على ( ليلا ) مع ظهور التقابل فيه ، الإشعار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذى يبيت فيه العدوّ ، ويتوقع فيه ، ويغتنم فرصة غفلته . وليس فى مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما فى النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء، أو زمان قيلولة . كما فى قوله[1] ( بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و ( البيات ) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيتوتة .

الثالثة ـ قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود ( ما ) هنا فى الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكما وسخرية، فقال فى جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرًّا بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لى به حق؟ ثم شرع فى الجواب الصحيح،ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم ـ أفاده الطيبى ـ .

الرابعة ـ سر إيثار ( مَا ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ) على ( مَا ذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله ـ كذا فى ( الكشاف ) ـ .

قال فى ( الانتصاف ) : وفى هذا النوع البليغ نكتتان :

إحداها : وضع الظاهر مكان المضمر .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٤ ] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .

وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ).

« أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما، تحت القول المأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد ، وإيذاناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات ـ أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : «آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب (آلْآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ) ؟ وذلك إنكارا للتأخير ، وتوبيخا عليه . وسر وضع ( تستعجلون ) موضع ( تكذبون ) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضارا لمقالتهم فهو أبلغ من ( تكذبون ) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكروه ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقته ، يدل عليه آية[١] : ( وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ... )الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعاينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيبوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] .

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكارا للتأخير ـ والله أعلم ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ )

[٥٣] ( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ )

« ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أي أشركوا « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » في الآخرة « إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أي تقولون وتعملون في الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أي يستخبرونك « أَحَقٌّ هُوَ » أي الوعد بعذاب الخلد ، أوادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أي بفائتين العذاب . فهو لاحقٌ بكم لا محالة . من ( أعجزه ) الشيء إذا فاته . ويصح كونه من ( أعجزه ) بمعنى وجده عاجزاً . أي : ما أنتم بواجدي العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

## لطائف :

الأولى ـ دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية ـ إنما أمر بالقسم لاستمالتهم ، وللجري على ماهو المألوف في المحاورة ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كساه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل[1] ( إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ) .

(١) [ ٨٦ / الطارق / ١٣و١٤ ] .

الثالثة ـ لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا ببرهان حقيقي ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابي[1] الذي قدم على النبي ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذي بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه: اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة ـ رواه البخاريّ في أوئل كتاب العلم ـ.

الرابعة ـ قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ[2] : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) وفي التغابن[3] ( زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) ـ انتهى ـ.

وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في ( زاد المعاد ) قال :

وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر بن داود الظاهريّ ولا يسميه بالفقيه ـ فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليمين على أبي بكر ابن داود ، فتهيأ للحلف ، فقال له القاضي إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعني عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

---

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره في صحيح البخاريّ في : ٣ ـ كتاب العلم ، ٦ ـ باب ما جاء في العلم وقوله تعالى : وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [ ٣٤ / سبأ / ٣ ] . (٣) [ ٦٤ / التغابن / ٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ » أى بالشرك بالله، أو التعدى على الغير ، أو مطلقاً « مَا فِي الْأَرْضِ » أى من الأموال « لَافْتَدَتْ بِهِ » أى لجعلته فدية لها من العذاب « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ » أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير ( أسروا ) للنفوس ، المدلول عليها بـ ( كل نفس ) . والعدول إلى صيغة الجمع ، لتهويل الخطب ، بكون الخطب بطريق الاجتماع « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » أى عاينوه « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

[٥٦] ( هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى تزكية لنفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة فى العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والغل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والتنوّر بنور التوحيد « وهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ )

« قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِۦ » يعنى الإسلام « فَبِذَٰلِكَ » أى فبمجيئهما « فَلْيَفْرَحُوا۟ » أى لا بالأمور الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع، « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينتفع بجميعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة فى جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدلالتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط فى الحقيقة ( فليفرحوا ) و ( بذلك ) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته ) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبيين الحرام من الحلال على ألسنة الرسل، لئلا يفتروا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ » أي ماخلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أي أنزله تعالى رزقاً حلالا كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم [1] : (هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) (مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) [2] « قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ » في الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أي تختلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أي فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » في إنزال الوحي وتعليم الحلال والحرام « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أي هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم في مطالب النفس الخسيسة، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٣٨ ] . (٢) ٦ / الأنعام / ١٣٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ )

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التنزيل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى نملة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شيء كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ )

[٦٣] ( الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ )

[٦٤] ( لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ )

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولىّ . وهو فى الأصل ضد العدوّ ، بمعنى المحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى [١] : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٦ ] .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وبمعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى[١] : ( اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) وقوله[٢] : ( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . . . ) الآية ـ وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفزع الأكبر ، كما فى قوله تعالى[٣] : ( لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف ، كأنه قيل : مَن أولئك وماسبب فوزهم بذاك الإكرام؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » ( الْبُشْرَىٰ ) مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات أخر كقوله تعالى[٤] :( الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا .. إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ )، وقوله تعالى[٥] :( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للعهد . كقوله سبحانه[٦] ( يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَٰلِكَ » أى بشراكم ، وهى

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥٧ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٥٥ ] . (٣) [ ٢١/الأنبياء/١٠٣ ] .
(٤) [ ٩/التوبة/٢٠و٢١ ] . (٥) [ ٤١/فصلت/٣٠ ] . (٦) [ ٥٧ / الحديد / ١٢ ] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطلب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بيّن تعالى فى كتابه ، ورسولُه فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقيّ الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقتبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الوليّ والأولياء . قال رحمه الله :

إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخاريّ وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال[1] : يقول الله : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب[2]... الحديث ـ وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى وليا لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر[3] : وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب . أى : آخذ ثأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب ثأره. وهذا، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع .

والولاية ضد العداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل العداوة البغض والبعد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ١٦ ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ ( طبعتنا ) . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ . (٣) هذا الحديث لم أهتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذى بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون وليًّا لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى [١] (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . . . ) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأنزل تعالى [٢] : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولىّ الله ، وليس وليًّا لله ، بل عدوّ له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون فى الظاهر بالشهادتين ، ويعتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ،مثل ألا يقروا باطناً برسالته عليه السلام ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها. وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يعتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله [٣] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) .

---

(١) [ ٥ / المائدة/ ١٨ ] . (٢) [ ٨/ الأنفال/ ٣٤] . (٣) [ ١٠/ يونس /٦٢و٦٣].

ولا بد فى الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، فى تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه . فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ماشرعه الله ورسوله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل فى الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولىّ لله تعالى . كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبّادهم ، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من مشركى العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة فى دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدوّ لله ، وإن ظن طائفة أنه ولىّ لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفى أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسل ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى[١] : ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبعين للرسل ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون فى أعمالهم ما هو إثم وفجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع فى العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين ، واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان . وفى صحيح مسلم[٣] : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله ، بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله فى عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المتقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٢١ ـ ٢٢٣ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ . ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ ( طبعتنا ) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حبًّا تاماً ، كما قال تعالى[1] : ( وَلَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ) يعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون وليًّا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيًّا ، لهذه الآية ـ فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًّا لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يُرْسِل إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبيّ ﷺ قال[2] : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبيّ حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضى الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . ولكن الصبيّ المميّز تصح عباداته، ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذى رفع عنه القلم، فلا يصحّ شىء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء، لأمور الدنيا. كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعىّ، ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبىّ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠.

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٦ـ كتاب الحدود ، ٢٢ ـ باب لا يرجم المجنون والمجنونة، وقال علىّ لعمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبيّ حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ ( فى ترجمة الباب ) .

المميز فإن له أقوالا معتبرة فى مواضع ، بالنص والإجماع ، وفى مواضع فيها نزاع وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون وليًّا لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولىّ لله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًّا لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبىّ ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلًا عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التى هى شرط فى ولاية الله . ومن كان يجن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان فى حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله، ويؤدى الفرائض ، ويجتنب المحارم، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه ، الذى أتى به فى حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذى ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه فى حال جنونه .

فعلى هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولىّ لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر ؛ وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولىّ لله ، ولكن إن كان له حالة فى إفاقته كان فيها مؤمنا بالله متقيا ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له فى حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

# فصل

وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء . بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون فى التجار والصناع والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية) ، نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد ) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة ، وقيل إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل : صفى ، أو صفائى ، أو صُفى ، ولم يقل صوفى . وصار أيضا اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس: أيما أفضل : مسمى الصوفى

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغنيّ الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب فى هذا كله ما قاله تبارك وتعالى(١) : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ) . وفى الصحيح(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه سئل : أىّ الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفى السنن(٣) عن النبيّ ﷺ أنه قال : لا فضل لعربىّ على عجمىّ ، ولا لعجمىّ على عربىّ ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال(٤) : إن الله تعالى أذهب عنكم عُبِّيَّة(٥) الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقىّ ، وفاجر شقىّ .

# فصل

وليس من شرط ولىّ الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبّسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١٣ ] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ ( طبعتنا ) .

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث فى السنن . ولكن وجدته فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١١١ ـ باب فى التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العبية بضم العين وكسرها . الكبر والفخر والنخوة . اهـ قاموس.

وما استكرهوا عليه ولم يؤثم النبيّ ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفورا له . ولهذا لما كان وليّ الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله مَن هو وليّ الله ، إلا أن يكون نبيًّا ، بل ولا يجوز لوليّ الله أن يعتمد على ما يلقى إليه فى قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قَبِلَهُ وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد فى شخص أنه وليّ الله وافقه فى كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع فى كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفى الصحيحين[1] عن النبيّ ﷺ أنه قال : قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن كان فى أمتى أحد ، فعمر منهم . وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدَّث الذى يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبيّ المعصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضى الله عنه يشاور الصحابة ويناظرهم ويرجع إليهم فى بعض الأمور ، وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدَّث ملهم

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشيّ العدويّ رضى الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبى هريرة.
وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة ( طبعتنا ).

مخاطب فينبغى لكم أن تقبلوا منى ولا تعارضونى . فأىّ من ادعى له أصحابه أنه ولىّ الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة ـ فهو وَهُمْ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس. فعمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هـــذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورىّ : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى(١) : ( وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، وشرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التى يحبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحمّامات والحشوش التى تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التى هى خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التى يحبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواضع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغانى والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن ـ انتهى ملخصا ـ

(١) [ ٢٤ / النور / ٥٤ ] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعته بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره، فرحم الله جامعه ، وجزاه خيراً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ )

« وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسلية للنبي ﷺ عما كان يسمعه من تآمرهم في إيصال مكروه له ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه أي : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر الفناء وترى أعمالهم وأقوالهم، وما يهددونك به كالهباء فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد ولا حول . فقوله تعالى [١] ( إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ) تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، كأنه قيل : مالي لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أي الغلبة والقهر في ملكته وسلطانه ، لا يملك أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم ( كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) [٢] ( إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ) [٣] . وقوله ( هُوَ السَّمِيعُ ) أي لأقوالهم فيك ، فيجازيهم ( الْعَلِيمُ ) أي لما ينبغي أن يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ )

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أي كلهم تحت ملكته وتصرفه وقهره ، لا يقدرون على شيء بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [ ٤ / النساء / ١٣٩ ] . (٢) [ ٥٨ / المجادلة ٢١ ] . (٣) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صلوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفى ( ما ) من قوله ( وما يتبع ) وجهان :

أحدهما ـ أنها نافية ، و( شركاء ) مفعول (يتبع) ومفعول ( يدعون ) محذوف لظهوره. أي ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء فى الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم ، فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون ( شركاء ) مفعول (يدعون)، ومفعول ( يتبع ) محذوف ، لانفهامه ، من قوله ( إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ) . أى ما يتبعون يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى ـ أنها استفهامية ، منصوبة بـ ( يتبع )،و ( شركاء ) مفعول (يدعون) . أى : أيّ شيء يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكته فما يتبعون من دون الله ليس بشيء ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه فى ظنهم ، ويتخيلونه فى خيالهم ، وماهم إلّا يُقدِّرُون وجودَ شيء لا وجود له فى الحقيقة .

ثم نبه تعالى على انفراده بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحده سبحانه باستحقاق العبادة ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ )

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من نَصَبِكم وكلالكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم . قيل : الآية من باب الاحتباك، والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم ، فحذف من كل من الجانبين ماذكر فى الآخر ، اكتفاء بالمذكور عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازىّ ، كقوله : * ما ليل المحب بنائم *

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الجعل المذكور « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرها، سماعَ تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف يماثله شيء ؟ ومَنْ له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إما للتقوّى به،أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستندلهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل لجاهل .

تنبيـه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى ( مفتاح دار السعادة ) : إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً.

قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ( إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » ، يعنى ماعندكم من حجة بما قلتم،إن هو إلا قول على الله بلا علم . وقوله تعالى[1]: ( إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) [ ٥٣ / النجم / ٢٣ ] .

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ) ، يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : ( أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ) ، يعنى حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : ( مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حجتى وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سمى عِلْم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العِلْم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له ـ انتهى ـ .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشرىّ : لما نفى عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السعود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهى جهالة ، وأن العقائد لابد لها من برهان قطعىّ ، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ )

[٧٠] ( مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ )

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلا . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية ، بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ )

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بعين عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلعلهم يكفّون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكانى ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مددا

طوالا،ألف سنة إلا خمسين عاما أو قيامى بالدعوة إلى الله،من رؤيتـكم ذاتى بقلة الأموال والأعوان ، ومنع عزتـكم بهما عن الانقياد لى « وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ » أى بحججه وبراهينه ، أو تخويفى بعذابه « فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ » أى اعتمدت فى دفع ما قصدتمونى به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أى شأنـكم فى إهلاكى « وَشُرَكَاءَكُمْ » يعنى آلهتهم . وهو تهـكم بهم ، أو نظراءهم فى الشرك . و(الواو) بمعنى مع . أو معطوف على ( أمركم ) بحذف المضاف، أى : وأمر شركائـكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن ( أجمع ) يتعلق بالمعانى . يقال : ( أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستورا . من ( غمه ، إذا ستره ) بل مكشوفا تجاهروننى به « ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ » أى أدوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تُنْظِرُونِ » أى ولا تمهلونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ )

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتـكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جُعْلٍ على عظتـكم ، أى فلا باعث لـكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ » أى ماثوابى على التذكير إلا عليه تعالى،يثيبنى به،آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المستسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ )

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَنَجَّيْنَاهُ » أى من الغرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ » أى خلفاء عن المغرقين وعمّار الأرض « وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ » أى منتهى أمرهم . والمراد بـ ( المنذرين ) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسلية له .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ )

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعوّدهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فحالهم بعدها ، كحالهم قبلها . هذا على أن ضمير ( كانوا ) و( كذبوا ) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير ( كانوا ) لقوم الرسل ، و ( كذّبوا ) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ )

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا » يعني التسع « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى آثام عظام .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعني الآيات المزيحة للشك «قَالُوا» يعني من فرط التمرد « إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

«قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ» أى على وجه لم يترك لكم شبهة، مقالتكم الحمق ، من أنه سحر، فحذف المحكى المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هَـٰذَا » استفهام إنكار من قول موسى لا من قولهم . فهو مستأنف، لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس ( أَسِحْرٌ هَـٰذَا ) مقولهم ، لأنهم بتّوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ ـ كذا قيل ـ .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم، والهمزة وسطت مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ ( جَاءَكُمْ ) بادئ بدء . وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قَبْلُ ( إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ ) حكاية لقولهم الذى بتّوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر فى ( الانتصاف ) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية ـ يعني قراءة آالسحر ـ على الاستفهام ، ففيها ـ والله أعلم ـ إرشاد إلى أن قول موسى أولاً : ( أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا) حكاية لقولهم، ويكون

( أَسِحْرٌ هَٰذَا ) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبتّ من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أأنتِ أمّ سالم * أبلغ فى البت من قوله مخبراً ( أنت أم سالم ) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : ( إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ )، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى،ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : ( أَسِحْرٌ هَٰذَا ) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بما له؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبتّ القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوّة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية،فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى.

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام ( أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آالسحر ( على قراءة الاستفهام ) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداهما واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ( ما جئتم به السحر ) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزمخشرىّ على تأويل القول بالتعييب،أو إضمار مفعول ( تقولون ) استشكالُ وقوع الاستفهام ، محكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين .

قال الناصر : فشدّ بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق النكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق، لأنه لما استلزم كونُ الحق سحراً ، كونَ من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ )

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِى الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ )

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته،ودفعاً لتعزز موسى « ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ )

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ » أى من أصناف السحر. قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشُّبه لتُحل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] ( فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ )

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيّهم وحبالهم ليضاهوا معجزة موسى بعصاه « قَالَ مُوسَىٰ

مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ » أى هو السحر ، لا ما جئتكم به مما سميتموه سحراً « إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ » أى سيمحقه بالكلية بمعجزتى ، فلا يبقى له أثر « إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ )

« وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يثبته ويقويه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ )

« فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع أخر ، أى (١) ( فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ) الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون، وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرًّا . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ » أى يعذبهم « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أى مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبادعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ )

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى تطميناً لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللهِ

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٤٥ ] .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أمركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافيكم ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ )(١) وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى مخلصين وجوهكم له .

قال القاشانىّ : جعل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن كمل إيمانكم ويقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛ وإن أريد ( الإسلام ) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملزوما له . وحينئذ يكون معناه : إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن كرهت هذا الشجر فاقلعه إن قدرت ـ انتهى ـ .

وقال الكرخىّ : قوله تعالى : ( إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ) أى منقادين لأمره . فقوله : ( فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو ( إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ) شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول. ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدما ، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً . مثاله: قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً. فمجموع قوله: (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيداً ) والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حالَ ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق . فقوله تعالى : ( إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ ... )الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل. والأمر كذلك، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام،

(١) [ ٦٥ / الطلاق / ٣ ] .

وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل فى القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالنجاة من الظلمة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ )

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضى : وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى له أن يتوكل أولا ، لتجاب دعوته .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ )

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذا بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم فى شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فى بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفى ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة فى الدنيا ، والجنة فى العقبى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ )

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى فى إذهاب عزة فرعون « رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً » أى ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلى « وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عليك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : ( لِيُضِلُّوا ) متعلق بـ ( ءَاتَيْتَ ) ، وأعيد ( رَبَّنَا ) توكيداً . و ( لام ) ( لِيُضِلُّوا ) لام العاقبة والصيرورة . أى : آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جعل اللام للعلة استدراجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك ـ توسع فى غير متسع ، ونبوٌّ عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ فى الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدى دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال ، لتحق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيدا لقوله : « رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك . وأصل ( الطمس ) محو الأثر والتغيير « وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى يعاينوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك . وقوله : ( فَلَا يُؤْمِنُوا ) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجىء منهم شىء . كما دعا نوح عليه السلام

فقال(١) : ( رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التى شركه فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٩] ( قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ )

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تعجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستعجال، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه :

ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءهما فى إهلاك فرعون وقومه.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ )

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ » يرجو النجاة من الغرق « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضربه الله وقومه بالآيات التسع ، كما

---

(١) [ ٧١ / نوح / ٢٦ و ٢٧ ] .

تقدم في سورة ( الأعراف ) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم ليردهم ، فأدركهم وهم نازلون عندالبحر ، فرهب الإسرائيليون من مقدمه ، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مدّ موسى يده على البحر،فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون ومن معه . ولما أحس بالغرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، فقيل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ )

« آلْآنَ » أي تؤمن وتسلم لتنجوا من الغرق « وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ » أي كفرت بالله من قبل الغرق ، « وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » أي بالضلال والإضلال ، والظلم والعتوّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ )

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطىء البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطىء (بالتنجية) التي هي الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ » من الأمم الكافرة « ءَايَةً » أي عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أي لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الخفاجيّ فى ( العناية ) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية[1]: « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » . وأما ما وقع فى ( الفصوص ) من صحة إيمانه ، وأن قوله ( ءَامَنتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ ) إيمان بموسى عليه السلام ـ فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدوانىّ رحمه الله . وله رسالة فيه طالعتها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت فى ( تاريخ حلب ) للفاضل الحلبىّ أنها ليست له ، وإنما هى لرجل يسمى محمد بن هلال النحوىّ . وقد ردها القزوينىّ ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل خامل الذكر ، لما قدم مكة بال فى زمزم ليشتهر بين الناس ، كما فى المثل ( خالف تعرف ) وفى ( فتاوى ابن حجر رحمه الله ) أن بعض فقهائنا كفّر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل. إن المراد بفرعون ( فى كلامه ) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله فى كتابه ( الفتح المبين فى رد اعتراض المعترض على محيي الدين ) خاتمة فى بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محيي الدين رضى الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته. والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عليه من النقل عنه. نعم، بحث فى صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث فى الدليل لا غير ، وما كان هذا قولا بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجاة فرعون وإيمانه على أصلين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول ـ فى بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [ ٤٠ / غافر / ٨٥ ] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخيّ ، كحال المحتضر لا غير ، فى هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيويًّا أو أخرويًّا . فالإيمان فى أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا العارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوىّ لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك فى الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوىّ لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى ـ من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلابد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى[١] : ( وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ) وكما قال[٢] : ( قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ) فكذبهم تعالى فى دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى[٣] : ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . فنفيًا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخروىّ لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقوعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الحبر فى شأن فرعون فى ( الفتوحات المكية ) وفى ( الفصوص ) : فالذى ذكره فى ( الفتوحات ) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال فى هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، نخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبّدون فيها . وأشار إلى كفره فى موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو[٤] : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

---

(١) [ ٢/البقرة / ١٤ ] . (٢) [ ٤٩ / الحجرات/١٤ ] . (٣) [ ١٠/يونس/٩٦و٩٧ ] .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ ( طبعتنا ) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله[1]: ( أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .

بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعيا ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنىّ يعطى خلافه؛ قال تعالى ( فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ . . . ) الآية ـ فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجناب الإلهى ، والأخيرة تممه، والإيمان بموسى حيث قال : ( وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلما إلا من جمع بين الإيمان بالله ورسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات ) و ( الفصوص ) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوىّ ، لا عند احتضاره ، والإيمانُ عند رؤية العذاب الدنيوىّ لا يعد يأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوىّ إن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنىّ بحثاً ، لا جازماً بهما ـ انتهى ملخصاً ـ .

(١) [ ٧٩ / النازعات / ٢٤ ] .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إثر نعمة إنجائهم من عدوّهم وإهلاكه ، وإخلالهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

« وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ » أضيف المكان إلى الصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصدق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى[1] : ( مُدْخَلَ صِدْقٍ ) و ( مُخْرَجَ صِدْقٍ ) إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للغرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهي المنّ والسلوى في التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أي ما تفرقوا على مذاهب شتى في أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي ، الذي يتلونه . أي : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بيّن الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، في النعي عليهم اختلافهم ، قوله تعالى[2] : ( وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ) . وقوله جل ذكره[3] ( وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف في الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أي فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك .

---

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٨٠ ] . (٢) [ ٩٨ / البينة / ٤ ] . (٣) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ )

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل « فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ » أى التوراة « مِنْ قَبْلِكَ » فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك « لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك · ( إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمتساويين ) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ماقص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم ، بصحة ماأنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تعريضاً بالمشركين . أو تهييج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه[1] ( وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) . وقد روى أنه ﷺ قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل ـ أخرجه عبد الرازق وابن جرير[2] عن قتادة ـ أو الخطاب له ﷺ ، والمراد غيره ، على حد : ( إياك أعنى واسمعى يا جارة ) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٦٠ ] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الحادى عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعل في النفوس . أو الخطاب لكل من يسمع . أي : إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعدُ[1] : ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي . . . ) فكأنه أشار إلى أن المذكور في أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعدُ صراحةً . وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها ، بمفاتحة العلماء المنبهين على الحق .

وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ )

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهييج والإلهاب والتثبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهي عن كل شيء ، إن كان لمن تلبس به فمعناه تركه ، وإن كان لغيره فمعناه الثبات على عدمه ، والا يصدر منه في المستقبل كما هنا ـ انتهى ـ أو يأتي الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ )

[٩٧] ( وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ )

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أي قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال[2] : ( وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ) .

« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أي كدأب آل فرعون وأضرابهم . أي : وعند رؤية العذاب يرتفع التكاليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ١٠٤ ] . (٢) [ ٣٢ / السجدة / ١٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ )

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكنّ قومه « لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة فى معنى النفى ، لتضمن حرف التحضيض معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الأشوريين ، بانيها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الأشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبّروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية ( يونان ) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتنقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأصحر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرَهم قولُ يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذى أُنذروا به ، فقذف الله فى قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح،وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شراباً ، وألا ترعى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا فى صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيّهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتى فى ( سورة الصافات ) زيادة فى نبأ يونس عما هنا .

## تنبيهات :

الأول ـ روى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود، ونحو هذا . وليس فى التنزيل بيان لهذا ، ولا فى صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ ( كشفنا ) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبىّ : معنى ( كشفنا عنهم عذاب الخزى ) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى ـ فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلاقوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أوا كثرهم ، كما قال تعالى(١) : ( وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ) .

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] .

وفى الحديث الصحيح[1] : عرض علىّ الأنبياء ، فجعل النبىّ يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبىّ معه الرجل ، والنبىّ معه الرجلان ، والنبىّ ليس معه أحد ) .

الثالث ـ أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك فى كتاب الله : ( إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا . . . ) الآية ـ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . اقرؤوا إن شئتم : ( إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ... ) الآية ـ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً ، فى قوله تعالى :( إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا ) قال عليه السلام : دَعَوْا ـ كذا فى الإكليل ـ .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ )

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أى بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعاً » أى مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أى : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التى بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أى على مالم يشأ الله منهم « حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى[2] : ( لَيْسَ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ـ كتاب الطب ، ٤٢ـ باب من لم يرْقِ ، حديث ١٦٠٥ ومسلم فى : ١ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٢ / البقرة / ٢٧٢ ] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ) . وفيه تسلية له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى[١] : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) ( فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ )[٢] ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ )

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ )

« قُلِ انْظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطىّ : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عمن لا يؤمن . و ( ما ) استفهامية أو نافية .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٣ ] . (٢) [ ٣٥ / فاطر / ٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ )

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائعه تعالى فيهم ، كما يقال ( أيام العرب ) لوقائعها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال ( المغرب ) للصلاة الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبتكم ، « إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ )

« ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا المرسلة إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ )

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس ـ أعنى الناس ـ مصدراً بحرف التنبيه ، تعميما للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيّته أوضح من الشمس فى رائعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر . وفى تخصيص التوفى بالذكر ، متعلقا بهم ـ ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شىء أشد عليهم من الموت . « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ )

« وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً » أى مائلا عن الأديان الباطلة .

## لطيفتان :

الأولى ـ إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية ـ جملة ( وأن أقم ) عطف على ( أن أكون ) . وجاز حكاية صلة ( أن ) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفىّ بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلا مقدراً . أى وأوحى إلىّ أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون ( أن ) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . وردّ بأن الجملة المفسّرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه لملاحظة المحكىّ ، والأمر المذكور معه ـ كذا فى ( العناية ) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهييج وحث له على عبادة الله تعالى ، ومنع لغيره ، كما تقدم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ( وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ )

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إن عبدته « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبده « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبدته « فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى الضارّين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه [١] ( إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ )

« وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذى لا شعور به . وكذلك إن أراد بخير ، لم يردّ أحد ما يريده من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق ، إذاً ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

## لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، للإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريده يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٣ ] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر فى كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله فى الأخرى ، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبوالسعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل ( يصيب به ) إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير ، كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمّن روعاتكم . ورواه عن أبى هريرة بمثله .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ )

« قُلْ » أى لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرتهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجىء الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق ، فما نفع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه عليه السلام ، من جلب نفع أو ضر ، كما يلوح به إسناد المجىء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته ــ أفاده أبو السعود ــ .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكول إلىّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير ـ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ » أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١ - سورة هود

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتمييزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهايمي : سميت به لقوله[١] : ( إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) الدال على توحيد الأفعال، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .

وهي مكية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : ( فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ )[٢] ( أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ )[٣] ، ( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ )[٤] .

وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : قد شيبتني ( هود ) و ( الواقعة ) و ( المرسلات ) و ( عمّ يتساءلون ) و ( إذا الشمس كورت ) .

ورواه هو والترمذيّ عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيبتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيبتني هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

---

(١) [ ١١ / هود / ٥٦ ] .
(٢) [ ١١ / هود / ١٢ ] .
(٣) [ ١١ / هود / ١٧ ] .
(٤) [ ١١ / هود / ١١٤ ] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ )

« الر » تقدم الكلام على مثلها فى أول سورة البقرة فليتذكر .

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ » أى نظمت نظماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دائمة على حالها لا تتبدل ولا تتغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة « ثُمَّ فُصِّلَتْ » أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بيّن ولخّص .

قيل : ( ثم ) هنا للتراخى فى الحكم ، أى الرتبة أو التراخى بين الإخبارين ، لا للتراخى فى الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد ، لا تنفك إحداهما عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن ( ثم ) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم فى اقتضائها إياه ، كما حكاه فى ( المغنى ) .

« مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إحكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغى فى النظام الحكمىّ فى تقديرها وتوقيتها وترتيبها ـ قاله القاشانىّ ـ .

قال الزمخشرىّ : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بيّنها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

« أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشانىّ : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا تشركوا بالله فى عبادته ، وخصوه بالعبادة .

وقال الزمخشرىّ : « أَلَّا » مفعول له ، أى لئلا . أو ( أن ) مفسرة ، لأن فى تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إننى أنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقابَ الشركِ وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته.

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣] ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

« وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو المعنى : ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله[١] : ( ثُمَّ اسْتَقَامُوا ) .

« يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطوّل نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله[٢] ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويعط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِن تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

---

(١) [ ٤١ / فصلت/ ٣٠ ] و [ ٤٦ / الأحقاف ١٣ ] . (٢) [ ١٦ / النحل/٩٧ ].

قال القاشانيّ : ( كبير ) أي شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أي يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى في صفة قادريته ، فيقهركم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )

[٥] ( أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ )

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بيّن تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً ، إثر الإشارة إلى توليهم بقلبهم ، بقوله : « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أي يزورّون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أي في قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أي يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أي بما في ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركي مكة من كراهتهم لاستماع كلامه تعالى ، ما قاله تعالى عن قوم نوح[1] ( وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً » . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية ـ والله أعلم ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ )

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أي ما تعيش به . وإنما جيء بـ(على)

(١) [ ٧١ / نوح / ٧ ] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصُّلْب « وَمُسْتَوْدَعَهَا » أى بعد الموت، أو فى الرحم « كُلٌّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .

ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ )

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض ـ كذا فى الكشاف ـ .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .

روى الإمام أحمد(١) عن أبى رزين ـ واسمه لقيط بن عامر العقيلىّ ـ قال: قلت يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ).

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذيّ [١] وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقيّ في كتاب (الأسماء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيته مقيدا كذلك، ومعناه السحاب الرقيق ، أي فوق سحاب ، مدبراً له ، وعاليا عليه . كما قال تعالى [٢] : ( ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ) . يعنى مَنْ فوق السماء . وقوله . ( ما فوقه هواء ) أي ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله ( وما تحته هواء ) أي ما تحت السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عمى عن الخلق ، فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أي : ليس فوق العمى ، الذي هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصا .

وقال ابن الأثير : العماء في اللغة: السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفي الحديث حذف، أي أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفِطَن .

وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء ! .

قال الأزهريّ : فنحن نؤمن به ولا نكيّف صفته .

وقوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أي أخلصه ، متعلق بـ ( خلق ) أي : خلقهن لحكمة بالغة ، وهي أن يجعلهن مساكن لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ ـ حدثنا أحمد ابن منيع . (٢) [ ٦٧ / الملك / ١٦ ] .

فيعبدوه وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا ـ بمعاملة المختبر مع المختبَر ، ليعلم حاله ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، ( ليبلوكم ) موضع ( ليعاملكم ) . ويصحّ أن يكون مجازاً مرسلا ، لتلازم العلم والاختبار . أي : خلق ذلك ليعلم ، أي . ليظهر تعلق علمه الأزليّ بذلك .

قال القاشانيّ : جعل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أي : خلقناهم لنعلم العلم التفصيليّ التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أيّكم أحسن عملا ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم ـ انتهى ـ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى[1] : ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ) . وقوله[2] : ( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ) . وقوله سبحانه[3] : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ).

وقوله تعالى « وَلَئِنْ قُلْتَ » أي لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أي محيون « مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا » أي القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذكره « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أي مثله في الخديعة والبطلان .

---

(١) [ ٣٨ / ص / ٢٧ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ١١٥و١١٦ ] .
(٣) [ ٥١ /الذاريات/ ٥٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ )

« وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » أي جماعة من الأوقات محصورة . والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا ببدر ، أو هلاك المستهزئين الذين ماتوا قبل بدر « لَيَقُولُنَّ » أي استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أي عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أي دار ونزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون .

لطيفة :

( الأمة ) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة . فيراد بها الأمد ، كما هنا وقوله في يوسف[١] : ( وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) . والإمام المقتدى به ، كقوله[٢] : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ) . والملة والدين كآية[٣] : ( إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ) . والجماعة كآية[٤] : ( وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ) . وقوله تعالى[٥] : ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ) ـ أفاده ابن كثير ـ .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ١٢٠ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٢و٢٣ ] . (٤) [٢٨/ القصص / ٢٣ ] .
(٥) [١٦ / النحل / ٣٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾

« وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ » أى قنوط عن عَوْدِهَا، قطوع رجاءه من فضله تعالى، من غير صبر ولا تسليم لقضائه، « كَفُورٌ » عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله، كأنه لم ير خيراً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب التى ساءتنى « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أشِر بطِر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

« إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء ، إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقِها ولاحقِها « أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم بتلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيه :

قال القاشانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلًا عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة ، ولا بسميه

وتصرفه فى الكسب ، ولا بقوته وقدرته فى الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينساه فينساه الله بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره فإن أتاه رحمة من صحة أو نعمة ، شكره أولا برؤية ذلك منه . وشهود المنعم فى صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح باستعمالها فى مراضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى[1] : ( لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفّروا أقصاها بقلة الشكر ثم إن نزعها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذى نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق فى تربيته إياه ، بل أرأف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلا وآجلا ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القانط من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأى سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : ( إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ) استثناء من ( الإنسان ) أى هذا النوع يؤوس كفور ، فرح فخور ، فى الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، فى حالة الضراء والنعماء والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالى أيهما أمتطى . انتهى .

---

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ )

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أي بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أي مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتمادياً في العناد على وجه الاقتراح « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أي هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لابد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإلقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الاقتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أي فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكِلْ أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

## لطائف :

الأولى ـ قال القاشاني : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعناد والاستهزاء ، ضاق صدره ، ولم ينبسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبولُ المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كرباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيّج قوته ونشاطه بقوله : ( إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كِل الهداية إليه .

الثانية ـ لا يخفى أن ( لعل ) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع مالا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهييج داعيته .

وقيل : ( لعل ) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالمعنى: لا تترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث[1] : لعلنا أعجلناك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشاآت قائمة به ـ تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالمعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه ـ كذا فى العناية ـ .

الثالثة ـ إنما عدل عن ( ضيّق ) الصفة المشبهة إلى ( ضائق ) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحوّل إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمّا اللئيمُ فسامِنٌ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها

وظاهر كلام أبى حيّان أنه مقيس. وقيل إنه لمشابهة ( تارك ) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة ـ كذا فى العناية ـ .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٤ ـ باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين ، حديث ١٤٤ ـ عن أبى سعيد الخدرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى ( أم ) وجهان منقطعة مقدرة بـ ( بل والهمزة الإنكارية ) أى : بل أيقولون . ومتصلة والتقدير : أيكتفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا » أى للاستعانة « مَنِ اسْتَطَعْتُم » أى من الإنس والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » متعلق بـ ( ادعوا ) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيّما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ )

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحجة القاطعة ؟

## لطائف :

الأولى ـ قيل : تُحُدُّوا أولا بعشر سور، فلما عجزوا تُحُدُّوا بسورة، وذهب المبرد إلى أن الأمر بالعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولا هو التحدى بسورة مثله فى البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها ، وهى الأنواع التسعة المنظومة فى قول بعضهم :

ألا إنما القرآنُ تسعـــةُ أحرفٍ    سأنبيكَها فى بيت شعر بلامَلَلْ
حلال ، حرامٌ ، مُحْـكَمٌ مُتَشَابِهٌ    بَشِيرٌ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلْ

فلما عجزوا عن ذلك ، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، ويشهد له توصيفها بـ ( مفتريات ) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد ، وإبطال الشرك ، فتعين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهى السورة الفذة . والتحدى بعشر وقع بعد تعنتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غير القرآن ، لزعمهم أنه مفترى . فمقامه يناسبه التكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم، فلا يعسر الإتيان بكثير مثله ـ كذا فى العناية ـ .

الثانية : ضمير ( لكم ) للنبى ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوله والمؤمنين ، لأنهم أتباعه فى الأمر بالتحدى ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه ، عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه فى الجهاد . وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان ، والطمأنينة فى الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : ( فاعلموا . . . ) الخ. وجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهته عليه السلام ، داخلا تحت الأمر بالتحدى ، والضمير فى ( لم يستجيبوا ) لـ ( من استطعتم ) أى : فإن لم يستجب لكم سائر من تجأرون إليهم فى مهماتكم إلى

المعاونة ، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القُوى والقُدَر ـ كذا فى أبى السعود ـ .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة ـ وهم الكفار ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا » أى وحبط فى الآخرة ما صنعوه ، أى لم يكن لهم ثواب عليه . وجوز تعلق الظرف بـ ( صنعوا ) والضمير للدنيا ، كما عاد عليه فى قوله[١] : ( نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) ؛ « وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى كان عملهم فى نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لغرض صحيح .

ونظير هذه الآية قوله تعالى[٢] : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

---

(١) [ ١١ / هود / ١٥ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٨ ـ ٢٠ ] .

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » . وقوله تعالى[1] : ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ).

لطيفة :

فى إعراب « باطل » وجهان :

الأول ـ كونه خبراً مقدماً ، و( ما كانوا ) مبتدأ مؤخراً : و( ما ) مصدرية أو موصولة، والـكلام من عطف الجمل .

والثانى ـ كونه عطفاً على الأخبار قبله أى: أولئك باطل ما كانوا يعملون . و ( مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) فاعل بـ ( باطل ) ورجح هذا بقراءة زيد بن علىّ رضى الله عنهما : ( وَبَطَلَ ) ماضياً معطوفاً على ( حَبِطَ ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، فى مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ )

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » أى برهان نيّر ، عظيم الشأن ، يدل على حقيّة ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أى يتبعه « شَاهِدٌ مِنْهُ » أى من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت ( البينة ) أيضاً بالإسلام، سماه بينة لغاية ظهوره، إذ هو دين الفطرة، قبل تدنيسها برجس الوثنية و( الشاهدُ ) بالقرآن،

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٢٠ ] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَىٰ » وهو التوراة . أى : ويتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى ، مقرراً لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَاماً » أى مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم الشرائع . « أُولَٰئِكَ » أى من كان على بينة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ، « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامّهم من المتحزبين على رسول الله صلوات الله عليه « فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

## لطائف :

الأولى : ( مَنْ ) فى قوله تعالى : ( أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ) مبتدأ حذف خبره ، لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم ـ كذا قال أبو السعود ـ.

وفى ( شرح الكشاف ) أن التقدير : أمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ، فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقربونهم . والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلًا عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى(١) : ( أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ، لَا يَسْتَوُونَ ) .

الثانية : قرئ ( كتابَ موسى ) بالنصب عطفاً على الضمير فى ( يتلوه ) أى يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وشهادتهم على أنه حق لامفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و( يتلو ) من التلاوة ، فتكون الآية كقوله تعالى(٢) . ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) ـ والله أعلم ـ .

---

(١) [ ٣٢ / السجدة / ١٨ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٠ ] .

الثالثة ـ ( الأحزاب ) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق ( الأحزاب ) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبيّ قبله . وهو إطلاق شرعيّ . وعليه حمل الأكثر الآية ، لكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفى صحيح مسلم(١) عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعريّ رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهوديّ أو نصرانيّ ، ثم لايؤمن بى ، إلادخل النار . قال سعيد : كنت لاأسمع بحديث من النبيّ ﷺ على وجهه ، إلاوجدت مصداقه فى القرآن، فبلغنى هذا الحديث، فجعلت أقول : أين مصداقه فى كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية ( وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ) قال : الملل كلها .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ )

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » كقوله للملائكة ( بَنَاتُ اللهِ )، وللأصنام ( شُفَعَاءُ عِنْدَ اللهِ ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أى يساقون إليه سوق العبيد المفترين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبيين والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ، لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفترى ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، ٧٠ ـ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ ( طبعتنا ) .

فإن من يعلم حال من يفترى على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ فى يونس فى قوله تعالى(١) : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

« الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كلّ من يقدرون على صده « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلبونها معوجّة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾

« أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم فى الدنيا، « وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى يمنعونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصامّهم عن الحق ، وبغضهم له ، « وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ » لتعاميهم عن آيات الله، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله(٢) : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ . . . ﴾ الآية.

(١) [ ٢٠ / طه / ٦٩ ] . (٢) [ ٦٧ / الملك / ١٠ ] .
(٣) [ ١٦ / النحل / ٨٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المال عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاق فى غيرِ واجبِ

« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تُجْدِهم شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقًّا ، أولا محالة «أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خشعوا له وحده ، « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ » مثل للكافر « وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مثل للمؤمنين « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالا وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى [(١)] ( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ) ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلأت الأرض من شركهم وشرورهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى بأنى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إنى لكم نذير مبين ، أبيّن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ )

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » ( الباء ) مقدرة هنا للتعدية . و ( لا ) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهى عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ )

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا نَرَاكَ إِلَّا

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٢٤ ] .

بَشَرًا مِثْلَنَا » أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليئون بأمور الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، لكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، المتحير بالهوى ، الذى هو عقل المعاش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلعين على مراتب الاستعدادت والكمالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يعلمه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها .

« وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » أى فقراؤنا الأدنون منا ؛ إذ المرتبة الرفعة عندهم بالمال والجاه ، ليس إلا . كما قال تعالى : ( يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ) .

وقوله تعالى : « بَادِىَ الرَّأْىِ » أى بديهة الرأى ، لأنهم ضعاف العقول، عاجزون عن كسب المعاش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجابهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة المعنوية ، لقصر تصرفه على كسب المعاش ، والوقوف على حده . وأما أتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب همم بعيدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها .

تنبيه :

( بادى ) قرأه أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فمعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أولَ وهلة .

وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو ، كعلا يعلو . والمعنى: ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تُؤُمِّل لعرف باطنه ، وهو فى المعنى كالأول . وعلى كليهما، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك)

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجّوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدها ـ أن المتبعين أراذل ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثاني ـ أنهم مع ذلك لم يتروّوا في اتّباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به ـ انتهى ـ .

أي وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأدنون ، ولو كانو أغنياء . وفي الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى[1] : ( وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ) . ولما سأل[2] هرقل ، ملكُ الروم ، أبا سفيان عن نعوت النبيّ ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثاني : فإن البدار لاعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتّباعه حالتئذ لكل ذي فطنة ، ولا يتردد إلا غبيّ أو عيّ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أي تقدّم يؤهلكم للنبوة . واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشريّ : كان الأشرف عندهم من لـه جاه ومال ، كما ترى أكثر المتّسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زلّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يضعه . فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعِثوا مرغِّبين في طلب الآخرة ،

---

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] . (٢) انظر صحيح البخاريّ : ١ ـ كتاب بدء الوحي ، ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصغّرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها . فما أبعدَ حالهم عليهم السلام من الاتّصاف عما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله !

وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أي فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ )

قَالَ » أي نوح « يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أي أخبروني « إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ » أي برهان « مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً » أي هداية خاصة كشفيّة « مِنْ عِنْدِهِ » أي فوق طور العقل من العلوم اللدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » أي لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليقة عن الحقيقة « أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » يعني أنكرهكم على قبولها ، ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ،ولاتختارونها ، و( لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ )(١)، فالاستفهام للإنكار ، أي لا نقدر على ذلك ، والذي في وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقيها فزكّوا نفوسكم ، واتركوا إنكاركم . وفي طيّ جوابه عليه السلام حثّ على تدبرها ، وردّ عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ )

« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أي على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥٦ ] .

اللَّهِ » قال القاشانىّ : أى الغرض عنـدكم من كل أمر ، محصورٌ فى حصول المعاش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنبهوا لغرضى ، وأنتم عقلاء بزعمكم .

ثم لما بيّن أن لا وجه لكراهة دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسّة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القربة والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدوّ لله مناوئ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكايتهم ، وهـذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم فى الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته فى كل شىء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ، لذهاب عقولكم فى الدنيا . أو تسفهون وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى[1] : ( وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ) ؟

ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [٣٠] ( وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ )

« وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردهم تعززكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعـلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنىّ عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٣ ] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تتعظون فتنزجروا عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاه ، متعلقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما طلبوا طرد من عدّوه من الأراذل . وهي نظير قوله تعالى(١) : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوثر بالوحي والرسالة فلا يدعي ما ليس له ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ )

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أي رزقه وأمواله «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » أي أنا أدعي الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ » أي تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا » أي في الدنيا والآخرة، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندي ما عند الله ، لا المال « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي من الخير ، مني ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه ـ

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٢ ] .

قاله القاشانيّ ـ وحمل غيره هذا على تفويض مافى أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبتّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة . « إِنِّى إِذًا » أى إذا قلت ذلك « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لبخس حقهم ، وحطّ قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمانَ القلبيّ ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ )

« قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أى أطلته، أو أتيته بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ )

« قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ » يعنى أنه ليس موكولاً إلىّ ، وإنما يتولاه الله الذى كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بالهرب أو بدفعه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »

أى أىّ شىء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمّركم « هُوَ رَبُّكُمْ » أى مالك أمركم « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ )

« أَمْ يَقُولُونَ » أى قوم نوح « افْتَرَاهُ » أى النصح ، فهو من تتمة نبأ نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة،يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لنبأ نوح ، جيء به معترضاً فى تضاعيفه، تحقيقاً له ، وتأكيدا لوقوعه ، وتشويقا للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقى منها الأهم وهو نتيجته. « قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى » أى إثم كسب ذنبى « وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ )

« وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ » أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إياهم « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ » أى لا تحزن « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم،وحان وقت الانتقام منهم . وقيل: المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلا لشفقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ )

« وَاصْنَعِ الْفُلْكَ » أى للتخلص من عذابهم « بِأَعْيُنِنَا » أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عزّ وجل حفاظاً وحراساً ، يكلأونه بأعينهم من التعدى من الكفرة ، ومن الزيغ فى الصنعة « وَوَحْيِنَا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا. قيل: لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع العذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى(١) « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ )

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة . وقيل : تقديره وأخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمعالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ )

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجعله محلا للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، يدوم معه الخزى .

وقوله تعالى :

---

(١) [ ١١ / هود / ٧٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومه . و ( حَتَّىٰ ) غاية لقوله ( وَيَصْنَعُ ) وما بينهما حال من الضمير فيه ، و ( سَخِرُوا مِنْهُ ) جواب ( كُلَّمَا ) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو الكانون الذى يخبز فيه ، أو تنوير الفجر ـ أقوال حكاها اللغويون والمفسرون ـ زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : ( حمى الوطيس ) والوطيس التنور ، وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ، وإن حاول الرازىّ رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهمار الماء ونبوعه . وهذا الإيجاز فى مجازه الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى[1]: ( فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ... ) الآيات ـ ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط . وجلىّ أن الأمر كان أعم ـ والله أعلم ـ .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم والطيور وما يدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكراً وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ ( كُلِّ ) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما ـ أن مفعول ( احْمِلْ ) ( اثْنَيْنِ ) و ( مِنْ ) حال .

والثانى ـ أن ( مِنْ ) زائدة ، والمفعول ( كُلّ ) ، و ( اثْنَيْنِ ) توكيد . ويقرأ مِنْ

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ١١و١٢ ] .

كُلٍّ ( بالتنوين ، فـ ( زَوْجَيْنِ ) مفعول ( احْمِلْ ) ، و ( اثْنَيْنِ ) توكيد له ، و ( مِنَ ) متعلقة بـ ( احْمِلْ ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أي من يتصل بك في دينك وسيرتك من أقاربك، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أي وجب عليه « الْقَوْلُ » أي بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أي احمله معك فيها.

قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد في ( ءَامَنَ ) محافظة على لفظ ( مَنْ ) للإذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله ، عزّ قائلا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« وَقَالَ » أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أي السفينة « بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » قال الزمخشري : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين. فالكلام الواحد أن يتصل ( بِسْمِ اللهِ ) بـ ( ارْكَبُوا ) حالاً من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران، كالإجراء والإرسال، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم: ( خفوق النجم ) و ( مقدم الحاج ) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما في ( بِسْمِ اللهِ ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون ( بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أي : بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله[1] : ثم اسم السلام عليكما . ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أي بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : ( جملة

---

(١) تمام البيت :

إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكُمَا ... ومن يَبْكِ حَوْلًا كامِلًا فَقَدِ اعْتَذَرْ

وقائله لبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضبة ) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تكون فى موضع الحال من ضمير ( الفلك ) كأنه قيل : اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله[١]: ( فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ـ انتهى ـ .

## تنبيهات :

الأول ـ قرأ الإخوان ـ حمزة والكسائىّ وحفص ـ ( مَجْرَاهَا ) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم ( مرساها ) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفىّ ( مَرْسَاهَا ) بفتح الميم أيضاً . وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجرورى المحل ، صفتين لله .

الثانى ـ ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التى للتأنيث ، أو للإلحاق ، أماله حمزة والكسائىّ وأبو عمرو ، ووافقهم حفص فى إمالة ( مَجْرَاهَا ) هنا ، ولم يُمِلْ غيره .

الثالث ـ أخذ بعضهم من الوجه الأول فى ( بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ) أعنى تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجرى والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى فى سورة المؤمنون[٢]: ( فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ) . وقوله تعالى[٣] : ( وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا . ) الآية ـ وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٧٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٢٨ و٢٩ ] .

(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣ ] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنجاء ، أى لولا مغفرته ورحمته لغرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تعليل لـ ( ارْكَبُوا ) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ )

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ » متصل بمحذوف ، دل عليه ( ارْكَبُوا ) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشامخة بخمسة عشر ذراعا ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .

« وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ » أى فى متنحى عن أبيه « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانعزال ، الهالكين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ )

« قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلّا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو ( إلا ) منقطعة ، أى لكن من رحمه فهو المعصوم .

قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لكن المرحوم يعصم ، على الأول . ولكن الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزمخشرىّ خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفى التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة . والكل جائز وبعضها أقرب من بعض ـ انتهى ـ .

« وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلًا بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه فوقه « فَكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمُغْرَقِينَ » أى الهالكين بالغرق .

وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ، غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد ( كان ) دون ( صار ) مبالغة فى كونه منهم ـ أفاده أبو السعود ـ . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بإنجاء من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتناقص وتتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال ، استقرت السفينة على الجودىّ ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .

و ( بُعْدًا ) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدوا بعداً . يقال : بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء كـ ( جَدْعًا ) و ( تَعْسًا ) و ( اللام ) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ ( قيل ) أى قيل لأجلهم هذا القول .

والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلّيته للهلاك ، ولتذكر ما سبق من قوله : (وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ) .

تنبيه :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسعهم مجالاً فى مضمار معارفها ، الإمام السكاكىّ ، فقد أطال وأطاب فى كتابه ( المفتاح ) وتلطف فى التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الألباب بعَرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة فى بحث ( البلاغة والفصاحة ) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أدْوَر على ألسنة الفصحاء ، أكثر فى الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك . ثم إن ساعدك الذوق ، أدركتَ منها ما قد أدرك من تُحُدُّوا بها ، وهى قوله ، علت كلمته : ( وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ . . . إلى . . الظَّالِمِينَ ) .

والنظر فى هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نَرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن نقضى أمر نوح ، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوّى السفينة على الجودىّ فاستوت . وأبقينا الظَّلَمَة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد (١) بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لكمال هيبته ، العصيان ، وتشبيه تكوين المراد (٢) بالأمر الجزم النافذ فى تكوّن المقصود، تصويراً لاقتداره العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فعظمت مهابته فى نفوسهم ، وضربت سرادقها فى أفنية ضمائرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً . لا تَلَقِّىَ لإشارته

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما فى لفظ ( المشترك ) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لكمال خوفه من الآمر ، العصيانُ ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . اهـ ( سيد ) قدس سره .

(٢) أراد بلفظ ( المراد) هنا معناه الظاهر . أعنى ما أريد من المراد منه ، وهو الذى عبر عنه بالبلع والإقلاع. ولتخالف معنى (المراد) فى الموضعين أعاد الظاهر، وهذا التشبيه الثانى مصحح لا يراد صيغة الأمر . اهـ ( سيد ) .

بغير الإمضاء والانقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هـذا[١] نظم الـكلام ، فقال جل وعلا : ( وَقِيلَ ) ، على سبيل المجاز ـ أى المرسل ـ عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى: يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور. ثم استعار لغؤور[٢] الماء فى الأرض البلع ، الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفىّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالـكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء فى الإنبات للزروع والأشجار ، تقوّىَ الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة ( ابْلَعِي ) لـكونها موضوعة للاستعمال فى الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم[٣] ذكره ، وخاطب فى الأمر ترشيحاً لاستعارة النـــداء . ثم قال : ( مَاءَكِ ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك. واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب فى الأمر قائلًا : ( أَقْلِعِي ) ، لمثل ما تقدم فى ( ابْلَعِي ) . ثم قال : ( وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا ) ، فلم يصرح بِمَنْ غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوّى السفينة . وقال : ( بُعْدًا ) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء فى صدر الآية ، سلوكاً فى كل واحد من ذلك سبيل الـكناية ، أن[٤] تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذى قدرة

(١) يعنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : ( ثم استعار لغؤور المـاء فى الأرض البلع ) ، جعله فى الـكشاف مستعاراً للنشَف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن النشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء . وهذا من دقائق الزمخشرىّ عليه الرحمة .

(٣) يعنى الثانى وهو تشبيه تـكوين المراد بالأمر الجزم .

(٤) بيان لسبيل الـكناية أو تعليل لـ ( سلوكا ) بتقدير اللام .

لا يُكتنه . قهّار لا يغالب . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره ـ جلت عظمته ـ قائلَ يا أرض ويا سماء ، ولا غائض مثل ما غاض ، ولا قاضى مثل ذلك الأمر الهائل ، وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها، بتسوية غيره وإقراره . ثم ختم الكلام بالتعريض[١]، تنبيهاً لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ، ظلماً لأنفسهم لا غير ، خَتْمَ إظهارٍ ، لمكان السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت إلا لظلمهم[٢] .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير ( يا ) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرضِ ! بالكسر لإمداد التهاون[٣] ، ولم يقل : يا أيتها الأرض ! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما فى ( أيتها ) من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ ( الأرض ) دون سائر أسمائها ، لكونه أخف وأدور[٤] . واختير لفظ السماء[٥] لمثل ما تقدم فى الأرض ، مع قصد المطابقة[٦] . واختير لفظ (ابلعى) على (ابتلعى) لكونه أخصر ، ولمجىء خط التجانس بينه وبين (أقلعى) أوفر . وقيل : ( ماءك ) بالإفراد دون الجمع، لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها

---

(١) أى التعريض بدعاء الهلاك على قوم نوح . اه .

(٢) أى كما يشعر به تعليق الحكم بوصف يناسبه . اه .

(٣) أى لأن إضافة الأرض إلى نفسه تقتضى تشريفاً للأرض ، وتكريماً لها ، فتركها إمداد للتهاون . اه ( سيد ) . (٤) أى فى الاستعمال من الغبراء والمقلة . اه . ( سيد ) .

(٥) أى من الخضراء والمظلة . اه .

(٦) لأنها بهذا الاسم أشهر مقابلة للأرض . اه . ( سيد ) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في إفراد ( الأرض ) و ( السماء ) . وإنما لم يقل : ( ابلعي ) بدون المفعول ، أنْ لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذي هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع ( أَقْلِعِي ) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو ـ أي الاختصار ـ الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلعي فأقلعت . واختير ( غيضَ ) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر ، وقيل ( الماء ) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل: سويت على الجوديّ ، بمعنى أقرّت ، على نحو : ( قيل ) و ( غيض ) و ( قضي ) في البناء للمفعول ، اعتباراً[١] لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ )مع قصد الاختصار في اللفظ . ثم قيل : ( بُعْدًا لِلْقَوْمِ ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد[٢] مع الاختصار ، وهو نزول ( بُعْدًا ) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهي استعمال اللام مع ( بُعْدًا ) الدال على معنى أن البُعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل :( يَا أَرْضُ ابْلَعِي،وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي! ) دون أن يقال: ابلعي يا أرض ،وأقلعي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة ،من تقديم التنبيه، ليمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أي اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعني الجريان ، منسوباً إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل . اهـ ( سيد ) .

(٢) أي لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح [١] . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها [٢] ، وبنزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . الا ترى أصل الكلام ( قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، ويا سماء أقلعى عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، فغاض ) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : ( وَقُضِيَ الْأَمْرُ ) ، أى أنجز الموعود من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله ( وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ) [٣] . ثم ختمت القصة بما ختمت [٤] . هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة [٥] .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العَذَبات [٦] ، سلسة على الأَسَلات [٧] ، كلٌّ منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

---

(١) أى ترشيح المكنية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد). (٢) أى من الأرض ، حيث فار تنورها انتهى.
(٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى . (٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى
(٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى ( سيد ) . (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان.
(٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

فى الرقة . ولله در شأن التنزيل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ماذكرت ، فلعل ماتركت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمى المعانى والبيان ، وأن لا علم فى باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذى يوفى كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له فى مظان التأويل ماءه ورونقه؛ وَلَكَمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيمت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها فى مآخذ مردودة ، وحملوها على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآى من مآخذهم فى عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ـ انتهى كلام السكاكيّ ـ .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً فى تفسيره المسمى بـ(النهر) للطائفها ، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها ( النهر المورود فى تفسير آية هود ) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهى : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتراس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق، والإيجاز ، والتسهيم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ )

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوّة، وتعطف الرحم والقرابة ، على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعدك بإنجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : ( إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ )

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود إنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً ، لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر .

قال القاشانىّ : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القرابة الدينية ، واللحمة المعنوية ، والاتصال الحقيقىّ لا الصورىّ . كما قال أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه : ألا وإن ولىّ محمد ، من أطاع الله ، وإن بعدت لحمته . ألا وإن عدوّ محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لحمته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بيّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه فى الفساد والغىّ ، كأنّ نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فمن لا صلاح له ، لا نجاة له . وهذا سر إيثار ( غَيْرُ صَالِحٍ ) على ( عمل فاسد ) .

وقد قرأ يعقوب والكسائىّ ( عَمِلَ ) بلفظ الماضى ، والباقون بلفظ المصدر ، بجعله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بيّنا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تلتمس منى ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهى إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلًا ، إما لأنه لا يهم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياى مالم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام ، عند ذلك التأديب الإلٰهىّ ، والعتاب الربانىّ ، وتعوّذ بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ )

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أى ما فرط منى « وَتَرْحَمْنِي » أى بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاب عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابنه المذكور لصلبه . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امرأته ، ربيبه . وأيده بعضهم بقراءة علىّ : ( ونادى نوح ابنها ) ـ والله أعلم ـ .

ثم أنبأ تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرست السفينة على الجودىّ ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَمٌ » أى ومنهم أمم « سَنُمَتِّعُهُمْ » أى فى الحياة الدنيا لاحتجابهم بها « ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثرون على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جانح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقيّ الدين المقريزيّ فى ( الخطط ) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد ( كيومرت ) الذى هو عندهم (الإنسان الأول) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحقّ ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح[1] : ( وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ) اهـ .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٧٧ ] .

ونحوه فى الكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذى كان فى زمن نوح وبدعوته ، ذهب بعمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلك الذين ركبوا معه فى السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة ـ انتهى ـ .

قال بعضهم ( فى تقرير عموم الطوفان ، مبرهناً عليه ) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة فى طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد فى أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى فى قمم الجبال ، ويرى فى السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف فى الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الائتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادةً على ما كان ، بأمر الخالق تعالى ـ انتهى ـ .

وقد سئل مفتى مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرخ، ومريد الاطلاع، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ، أو صاحب الرأى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها، ولا يتخذ دليلا قطعيًا على معتقد دينىّ . أما مسألة عموم الطوفان فى نفسها، فهى موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر فى طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عامًّا لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا فى البحر ، فظهورها فى رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًّا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عامًّا ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يعتقد بالدين ، ألا ينفى شيئًا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقلىّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصولُ إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير فى طبقات الأرض ، وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، نقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينىّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عامًّا ، إذ لم يكن العمران قائمًا إلا بقوم نوح ، فكان عامًّا لهم ، وإن كان من جهةٍ خاصًّا بهم ، إذ ليس ثَمَّ غيرُهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أممًا ، بل هو واحد تمضى عليه السنون ، بل القرون ، ونموّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلًا قليلًا . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافًا وآلافًا ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران فى تلك الأيام ، فتلك قضيـــة من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التى وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذى سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت فى غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والـكواسر لتلك المظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام ، تعلم أن الطوفان خاصّ عامّ : خاصّ بمـكان ، عامّ سائر المـكان ـ والله أعلم(١) ـ. وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ )

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام « مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها؛ إذ لم يخالط غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فـكيف بواحد منهم ؟! « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة،وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولمن كذبك ، نحو ما قيض لنوح ولقومه ـ كذا فى الـكشاف ـ « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدىّ ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ )

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله ( نوحاً ) . أى : وأرسلنا إلى عـاد . و ( أخاهم ) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : ( ياأخا العرب ) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ »

(١) ترك المؤلف رحمه الله بعد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلث الصفحة ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتعمقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

« يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع. «أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تتفكرون ، إذ تردّون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شىء أنفى للتهمة من ذلك ، أو تتدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ )

« وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدرّ ، أى الأمطار . منصوب على الحال من ( السماء ) . ولم يؤنث ، مع أنه من مؤنث ، إما لأن المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب ـ أفاده السمين ـ « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استمالهم إلى الإيمان ، ورغّبهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراصاً على التقوّى بما ذكر ، لثراء مالهم ،

وترهيب أعدائهم، وقد كانوا مثلاً في القوة ، كما قالوا[١] : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) « وَلَا تَتَوَلَّوْا » أى تعرضوا عما أدعوكم إليه « مُجْرِمِينَ » أى مصرّين على إجرامكم وآثامكم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » أى بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم، وعمى بصيرتهم عن إدراك البرهان ، لمكان الغشاوات الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه بالضرورة « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا » أى عبادتها « عَنْ قَوْلِكَ » حال من ضمير ( تارکی ) أى تركا صادرا عن قولك . أو (عن) للتعليل، كهى فى قوله[٢] (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ) أى لأجلها ، فتتعلق ( بتارکی ) . والأول أبلغ ، لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيده ( الباء واللام ) . وهذا كقولهم فى الأعراف[٣] ( أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ) .

« وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى مصدقين . إقناط له من الإجابة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

[٥٥] (مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)

« إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ » أى مسّك « بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ » أى بجنون ، لسبّك

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ١٥ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ١١٤ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ٧٠ ] .

إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تتكلم بما تتكلم .

قال الزمخشريُ : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌ على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم .

« قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ » أي عليَّ « وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزمخشريّ : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقته بربه ، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه [1] : ( ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أني لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أني لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أَمَرَهُمْ بالاحتشاد والتعاون في إيصال الكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقوله : « فَكِيدُونِي جَمِيعاً » أي أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ » يعني إن صح ما لوحتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضرّ ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أعجل ما تفعلون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردًا بين الجم الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقّرهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدي لأسباب المعازّة والمعارّة ، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [ ١٠ / يونس/ ٧١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

« إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلىّ بسوء ، لتوكلى على الله « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .

قال القاشانىّ : بيّن وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولا بأن ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن يربّ يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ، عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز منه ـ انتهى ـ .

والناصية : منبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية للحالّ باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .

وفى العناية : وقولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تعليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم علىّ ، إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى ( العناية ) : هو تمثيل واستعارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادّة لحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله[١] : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تتولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ» استئناف بالوعيد لهم. أى: فيهلككم، ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالته عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شيء. « إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حاكم مستولٍ على كل شيء ، فلا يمكن أن يضره شيء.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح العقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» . وقد بيّن في غير آية،منها قوله[٢] : (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(١) [ ٨٩ / الفجر / ١٤ ] . (٢) [ ٦٩ / الحاقة / ٦و٧ ] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثانى بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتحريض لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثانى من عذاب الآخرة ، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم ، فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ )

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتنزيلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهى للبعيد المحسوس . وتعدى الجحود بالباء حملا له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن ( كفر ) جرى مجرى ( جحد ) . فتعدى بنفسه فى قوله[1] : ( كَفَرُوا رَبَّهُمْ ) . وقيل : ( كفر ) كـ ( شكر ) يتعدّى بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن ( جحد ) كذلك .

والمعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التى فى الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع ( الرسل ) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد[2] ( لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ )ـ كذا فى ( العناية ) وأبى السعود ـ.

---

(١) [ ١١ / هود / ٦٠ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٣٦ ] .

« وَاتَّبَعُوا » أى أطاعوا فى الشرك « أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جعلت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم . يعنى: أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذعبدوا غيره ـ وتقدم تعدية ( كفر ) ـ « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم، والمقت، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه، وإعادة ( عادٍ ) للمبالغة فى تهويل حالهم، والحث على الاعتبار بنبئهم . و( قوم هود ) عطف بيان لـ( عاد ) فائدته النسبة بذكره عليه السلام، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها[1] ( وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ). وقبل ذلك(حفيظ ) و(غليظ)، وغير ذلك مما هو على وزن ( فعيل ) المناسب لـ ( فعول ) فى القوافى ـ والله أعلم ـ .

(١) [ ١١ / هود / ٥٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ » عطف على ما سبق بيانه من قوله :(وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى ثمود، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى كوّنكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، وموادّ النطف التى خلق نسله منها، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمّركم فيها، أو جعلكم عمّارها، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف(١) : (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ، « فَاسْتَغْفِرُوهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف) .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٧٤ ] .

« أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٍ » أى موقع فى الريبة، وهى قلق النفس ، وانتفاء الطمأنينة :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ )

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى حجـة ظاهرة ، وبرهان وبصيرة « مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة ، « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى ينجينى من عذابه ، « إِنْ عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة معكم فى أهوائكم ، « فَمَا تَزِيدُونَنِي » أى باستتباعكم إياى ، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجعلونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدوننى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ )

« وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ » الإضافة للتشريف ، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة والخلق « لَكُمْ ءَايَةً » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم ، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله ، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية ، فقال سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ )

« فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » أى مردود .

قال فى ( الإكليل ) : استدل به فى إمهال الخصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن لـ ( المثلاثة ) نظراً فى الشرع ، ولهذا شرعت فى ( الخيار ) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ )

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبين « نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شيء ، والغالب عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ )

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أى من جهة السماء ، فرجفوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ )

« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى فى مساكنهم « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ » أى فأهلكهم. «أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ» أى هلاكا ولعنة ، لبعدهم عن صراطه. وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم فى الأعراف[1] بما يغنى عن إعادته هنا ، فليراجع .

ثم أشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أنباء هذه السورة بقوله سبحانه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدّموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَاماً » أى سلمنا عليك سلاما ، «قَالَ سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله :« فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوىّ ، أوسمين يقطر وَدَكه ، لقوله[2] : ( بِعِجْلٍ سَمِينٍ ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل ( لبث ) إما ضمير ( إبراهيم ) ، و ( أَنْ جَاءَ ) مقدر بحرف جر متعلق به ، أى : ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن ( أن جاء ) . وإما ( أن جاء ) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها أنها بمعنى ( الذى ) . وهى فيهما مبتدأ ، و ( أن جاء ) خبره على حذف مضاف . أى : فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

---

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ ( الجزء السابع ) .

(٢) [ ٥١ / الذاريات / ٢٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٠] ( فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ )

« فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضيف إذا همّ بفتك لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . «قَالُوا» أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية(١) ( قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأنا ملائكة ، ولم ننزل بالعذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ » أى لإهلاكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ)

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنهما حكيا بعد أن ولدا وسُمِّيا بذلك . وفى توجيه البشارة إليها هنا، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى، كآية(٢) ( فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ) (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ )(٣) إيذان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والمقام أمسّ بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوّح به تعجبها فى قوله تعالى :

(١) [ ١٥ / الحجر / ٥٢و٥٣ ] .    (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٠١ ] .
(٣) [ ٥١ / الذاريات / ٢٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قَالَتْ يَاوَيْلَتَا ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ )

« قَالَتْ يَاوَيْلَتَا » أى ياعجبى . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يَدْهَمُ النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء المتكلم ، ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

« أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنّة ـ والأفصح ترك الهاء معها ـ وسمع من بعض العرب (عجوزة) ـ حكاه يونس ـ « وَهَٰذَا بَعْلِي » أى زوجى إبراهيم « شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا » أى التولّد من هرِمين « لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تَجْرِ به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ )

« قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى أتستبعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشرىّ : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها مايزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوّة ، وأن تسبّح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة، صلوات الله عليهم، فى قولهم: «رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : ( إياكِ والتعجب ) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم ـ انتهى ـ .

فالجملة خبرية ، وجوّز كونها دعائية . و ( أهـلَ البيت ) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .

« إِنَّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للمحامد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجبَ الحمد المحسن إليها بما أحسن، وتمجده؛ إذ شرفها بما شرّف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ )

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ » أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استعطافاً لدفعه .

روى أنه قال : أتهلك البارّ مع الأثيم ، أتهلكها وفيهم خمسون بارًّا ؟ حاشا لك !

فقيل له : إن وجد فيهم خمسون بارًّا فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

فقيل: أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أوعشرة ، فقيل له: لا نهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجينّه .

و ( يُجَادِلُنَا ) جواب ( لمّا ) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن ( لمّا ) كـ ( لَوْ ) تقلب المضارع ماضياً ، كما أنّ ( إنْ ) تقلب الماضى مستقبلًا. أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ )

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ )

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » أى الجدال « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال، ولا بدعاء ، ولا بغيرها .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فُسِّرَتْ بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية، وهى[1]: ( فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ . . . )الخ وفُسِّرَتْ بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول المبشِّر على المبشَّر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشَّر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشر به .

وحكى الأصمّ أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين.

ومنها :أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الردّ أفضل ، لقول إبراهيم: ( سَلَامٌ ) بالرفع ، كما تقدم سره انتهى .

(١) [ ١١ / هود / ٧١ ] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ـ أى في خدمة أضياف إبراهيم . قال في ( الوجيز ) : وكنّ لا يحتجبن ، كعادة العرب ونازلة البوادى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب في القول ، وأن صوتها ليس بعورة . كذا في ( الإكليل ) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً في آية[1] : ( فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ )

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان مقيما في ( بلوط ممْرا ) التي بـ( حَبْرُونَ ) ، المدينة المعروفة اليوم بـ ( الخليل ) ؛ «سِيءَ بِهِمْ » أى ساءه مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرْدٍ ، حسانِ الوجوه ، فخاف أن يقصدهم قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضاق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به ذرعاً ، أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهريّ : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدك إليه فلم تنله . وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطيق طاقته ، فضُرِبَ مثلًا للذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهريّ : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

---

(١) [ ١١ / هود / ٨١ ] و [ ١٥ / الحجر / ٦٥ ] .

فى سيره ذرعاً ، على قدر سعة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .

و ( ذرعاً ) تمييز ، لأنه خرج مفسِّراً محوّلا . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله[1] :

وَإنْ بَاتَ وَحْشاً ليلةً لم يَضِقْ بِهَا ذِرَاعاً ولم يُصْبِحْ لَهَا وَهْوَ خَاشِعُ

« وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ )

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً . وقرئ مبنيا للفاعل . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش ويكثرونها ،

---

(١) قائله هو حُمَيد بن ثور الهلالىّ . من قصيدة مطلعها :

تَرَى ربةُ البَهْمِ الفِرارَ عشيَّةً إذا ما عدا فى بَهْمِهَا وهو ضَائِعُ

البَهْم جمع بَهمَة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . يريد : هى ترى الهرب إذارأت الذئب . وعدا ، يعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهوخاضع . وحشا : جائعا ، لا طعام له . وقوله ( ذراعا ) هو مثل قولهم : ضاق بالأمر ذرعا وذراعا ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . أى مدّ يده إليه فلم ينله .

مرنوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفّهم حياء. فالجملة معترضة لتأكيد ماقبلها . وقيل: إنها بيان لوجه ضيق صدره أى : لما عرف لوط عادتهم فى عمل الفواحش قبل ذلك «قَالَ » أى لوط « يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يقى أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، أى فتزوجوهن. أو كان ذلك مبالغة فى تواضعه لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً فى أن يستحيوا منه ، ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه ـ هذا ملخص ما فى ( الكشاف )ـ ومن تابعه ـ وظاهر أنه ، عليه السلام، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجه ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوّق ورغّب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه ـ مبالغة فى الاعتناء بحمايتهم ، وقياما بالواجب فى مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . وليعلم أنْ لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات فى حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : ( هن أطهر لكم ) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية الذمام . وبالجملة فهو ترغيب بمُحَال الوقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهرا ـ والله أعلم ـ وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تناهى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبثا .

« وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينونى وتفضحونى فى شأنهم ، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره، فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة. و(تخزون) مجزوم بحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ بإثباتها على الأصل .

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » أى فيرعوى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ )

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا نريدهن . وفى تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت ـ إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واثقاً وجازماً بعدم رغبتهم فيهن . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهاداً بعلمه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٠] ( قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ )

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أى بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة،لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل فى الشدة والمنعة. أى : لفعلت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله فى ( الملل ) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ[1] : ( رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ) إنكارٌ على لوط عليه السلام . ولا تخالفَ بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام فى طلب قوة من

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٥ ـ باب: وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... الخ ونصه . عن أبى هريرة أن النبيّ ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إنْ كان لَيأوِى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى [١] : ( وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ) ، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلّغ كلام ربه تعالى ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ماأنكر ذلك رسول الله ﷺ ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبىّ من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن بربّ أراه المعجزات ، وهو دائباً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] ( قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ )

« قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحَر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَأَسْرِ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى ( الإكليل ) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥١ ] .

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتعجل فى السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع فى الإسراء ، للتباعد عن موقع العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ )

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا « جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا » أى فقلبت تلك المدن وبنيتها بسكانها جميعاً . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، كقوله[1] : (حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) ، « مَنْضُودٍ » أى يرسل بعضه فى إثر بعض متتابعاً .

قال المهايمىّ : اتصل بعضه ببعض ، ليرجموا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم ورَيْنهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ )

« مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ » معلّمة عنده «وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة «مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بِبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملابسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يمرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بحرماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ( البحر الميت ) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ( بحر الزفت ) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقرّه إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ( بحيرة لوط ) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [ ٥١ / الذاريات / ٣٣ ] .

قال أبو السعود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف مذكر ، أى بشيء بعيد ، أو لأنه على زنة المصدر كـ ( الزفير ) و ( الصهيل ) . والمصادر ، يستوى فى الوصف بها ، المذكر والمؤنث .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أى وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ماقبله . و ( مدين ) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من ( معان ) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها . « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » أى لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى نعمة وثروة فى رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع فى وجودكم . يعنى : فلا تتعرضوا لزوال ذلك عنكم بما تأتونه مما تُنهَوْنَ عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ » أى مهلك ، أو لا يشذ منه أحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ )

« وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى العدل.

قال الزمخشريّ : فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله :(أَوْفُوا)؟

قلت : نهوا أولاً عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نعياً على المنهىّ ، وتعييراً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذى هو حسن فى العقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبعث عليه . وجىء به مقيداً ( بالقسط ) أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب. لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجهُ حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق،كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون فى المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير[1] :

أفى كلِّ أسواقِ العراق إتَاوَةٌ ... وفى كلِّ ما باع امرؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ

ألا تَسْتَحِي منا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي ... مَحَارِمَنَا . لا تَتَّقِي الدمَ بالدمِ

وروى ( مكس درهم ) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم فى الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شىء يباع ، شيئاً . كما تفعل السماسرة ،

(١) هذان البيتان ليسا فى (ديوان زهير) واستشهد فى (لسان العرب) فى مادة (ا ت و) بالبيت الأول ونسبه إلى حُنَىّ بن جابر التغلبىّ .

وأخطأ صاحب ( اللسان ) فى اسم الشاعر. وإنما هو : جابر بن حُنَىّ التغلبىّ ، صاحب المفضلية ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والتاسع عشر .

وروايتهما : وفى كلّ . . . . . . . مَكْسُ دِرْهَمِ

. . . . . . لا يَبُوْؤُ الدَّمُ بالدَّمِ

( لا يبوْؤ ) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كفءاً له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ المرصفىّ اسمه كذلك فى ( رغبة الآمل ) بالجزء الخامس ص ٢٢٣ وكان المبرّد فى ( الكامل ) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حيىّ التغلبىّ .

أو كانوا يعكسون الناس ، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك ـ كذا فى ( الكشاف ) و ( شرحه ) .

قال القاشانىّ : لما رأى شعيب، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجبت ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماديهم فى الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال ـ نهاهم عن ذلك ، وقال : إنى أراكم بخير فى استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإنى أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة، واعتزلوا عن الشرك، والظلم ، الذى هو جماع الرذائل، وأم الفوائل .

« وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تعملوا فيها بالفساد . يعمّ أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّ عن الإيمان ونحوها .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ )

« بَقِيَّتُ اللهِ » أى ثوابه الباقى على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام، أو ما تفضل عليكم من الربح بعدوفائهما « خَيْرٌ لَكُمْ » أى فى دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن يبارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول .

وقال القاشانىّ : أى إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فمايبقى لكم عند الله من الكمالات والسعادات الأخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التى تشقون بها ، وتشقّون على أنفسكم فى كسبها وتحصيلها، ثم تتركونها بالموت، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبال التبعات والعذاب اللازم ، لما فى نفوسكم من رواسخ الهيئآت .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة. وإنما أنا مبلغ نذير .

---

القوله فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْأَنْ نَفعلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ )

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء والتهكم بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلىّ ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : ( أصلاتك ) بالإفراد ـ قاله القاضي ـ .

«أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَانَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام(١) : ( قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ) . أو قالوا ذلك تهكماً به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بتهكمهم قبله والأدقّ هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عقّب به ، وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ )

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي » أى أخبرونى إن كنت على برهان يقينىّ مما أتانى ربى من العلم والنبوة « وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً » أى مالًا حلالًا

(١) [ ١١ / هود / ٦٢ ] .

مكتسباً بلا بخس وتطفيف ، أو حكمة ونبوّة ، وكمالاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لى أن أخون الوحى ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتزكية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف، والنهى عن دين الآباء . وحذف جواب (أرأيتم) لما دل عليه فى مثله ، كما مرّ فى نبأ نوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » أى وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه ـ أفاده القاضى ـ .

وفى ( التاج ): يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشانىّ : أى ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذى أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أى إصلاح نفوسكم بالتزكية ، والتهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ » أى وما كونى موفقاً للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى أعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى السراء والضراء .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٩] ( وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ )

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى » أى لا يكسبنكم عداوتى « أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الغرق والريح والصيحة « وَمَا

قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » فإن منازلهم قريبة منكم، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ )

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ )

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : ما أدرى ماتقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا ينفعهم كثير منه . و(الكثير) مراد به الكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحَم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل مالا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذة والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا :

« وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً » أى لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءا « وَلَوْلَا رَهْطُكَ » أى قومك وأنهم على ملتنا « لَرَجَمْنَاكَ » أى قتلناك برمى الأحجار، أو شر قتلة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » أى لا تعز علينا ولا تكرم ، حتى نكرمك ونمنعك من الرجم.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ، إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ » أى من أمره ووحيه ودينه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى نسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر ، لا يعبأ به . و ( الظهرىّ ) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما قالوا : ( إمسىّ ) بالكسر فى النسبة إلى ( أمس ) . و ( دُهرىّ )، بالضم ، فى النسبه إلى( الدهر) « إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى غاية تمكنكم واستطاعتكم، أو على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّى عَامِلٌ » أى على مكانتى التى كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابرة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ » أى منتظر لهلاككم . وفى زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

قال الزمخشريّ : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى ( سَوْفَ تَعْلَمُونَ ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفيّ تقديريّ بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، للتفنن فى البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف . اه - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ فى التهويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ )

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما فى قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله[١] ( وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ) ، وقوله[٢] ( إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى.

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أى بالعذاب « فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ )

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى يقيموا « فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم فى المنزل ، نظراءهم فى الكفر، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [ ١١ / هود / ٦٥ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٨١ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » وهو العصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ )

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشرىّ : هذا تجهيل لمتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمرشد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غىّ وضلال .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ )

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » أى يوردهم . وإيثار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعونَ بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعَه بالواردة ، والنارَ بالماء الذى يردونه .

ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد ـ وهو النصيب من الماء ـ إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد الكبد ، والنار على الضد من ذلك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ )

« وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة، فهى تابعة لهم ، أين كانوا . فـ ( يوم ) معطوف على محل ( فى ) هذه ، لا ابتداء كلام .

« بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى بئس العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ )

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ » أى المهلكة « نَقُصُّهُ عَلَيْكَ » أى بالوحى « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى ومنها عافى الأثر كالزرع المحصود .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَـٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبه من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » أى إهلاك وتخسير .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ )

« وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فيه

إشمار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى فى أخذ الظالمين ، التى لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظَلَمَ نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ )

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما قُصَّ فى هذه السورة ، أو فى أخذ الظالمين « لَآيَةً » أى لعبرة « لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ )

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ » أى لمدة محدودة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ )

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى[(١)] : ( لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ )

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفَس مع صوت ممدود ، والشهيق : ردّه . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يعلو معه النفس غالباً . أو شبّه صراخهم بأصوات الحمير .

---

(١) [ ٧٨ / النبأ / ٣٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » أى غير مقطوع ، ولـكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفى التوقيت بـ ( السموات والأرض ) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع ، كقول العرب : ( ما أقام ثبير )، و ( ما لاح كوكب ) و ( ماطما البحر ) ونحوها : لا تعليق قرارهم فى الدارين بدوام هـذه السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأبيد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها، إذ لا بد لأهلها من مظلّ ومقلّ. قال تعالى[(١)] : ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ ) وقوله[(٢)] : « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ) .

فإن قلت : مامعنى الاستثناء بالمشيئة، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء؟

فالجواب : ما قدمناه فى قوله تعالى[(٣)] : ( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) يعنى أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن، للدلالة على الثبوت والاستمرار.

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٨ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٧٤ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨٨ ] .

والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .

وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعنى أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكول إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذى ندب الشارع إلى استعماله فى كل كلام كقوله : ( لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ )(1) فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .

ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة ، وما أعدّ لهم من عذابه قال :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ )

« فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ » أى فى شك من عبادتهم ، فى أنها ضلال مؤدّ إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم . وفيه تسلية له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ » أى فهم سواء فى الاشراك ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم ، فسيحلّ بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهى عن المرية . « وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ » أى من العذاب ، كما وفى لآبائهم « غَيْرَ مَنْقُوصٍ » .

---

(1) [ ٤٨ / الفتح / ٢٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ )

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتُلِفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى[١] : ( وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ) « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )

« وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فلا يخفى عليه شىء منه ، وسيجزيهم عليه . والتنوين فى ( كُلًّا ) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تنبيه :

فى هذه الآية قراآت : قرئ ( إن ) و ( لما ) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف ( إن ) وتشديد ( لما ) ، وبعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : ففيها إعمال ( إن ) المخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى ( لما ) لأمر الابتداء ، داخلة فى خبر ( إنْ ) . و ( ما ) إما موصولة بمعنى ( الذين ) واقعة على من يعقل ، واللام فى (ليوفينهم) جواب قسم مضمر . أى : وإنْ كُلًّا للذين ، والله ! ليوفينهم. وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة ( ما ) . أى : وإن كُلًّا لخلق ، أو

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٣ ] .

لفريق ، والله ! ليوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان، واتفقا فى اللفظ ، فصل بينهما بـ ( ما ) ، فهى زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هى الفارقة بين المخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيداً .

وأما الثانية: وهى تشديدهما ، فـ(إن ) على حالها، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و(لمّا) بمعنى ( إلّا ) أو جازمة بمعنى ( لم ) ومجزومها محذوف . أى : لما يهملوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها.

وأما الثالثة : وهى تخفيف ( إن ) وتشديد (لما ) ، فـ( إن ) مخففة عاملة كما تقدم ، و(لما) بمعنى (إلّا ) أو جازمة أيضاً . أو (إنْ) نافيه بمنزلة ( ما ) و (لما) بمعنى ( إلا ) و( كُلاًّ) منصوب بمضمر ، أى : وما أرى كُلاًّ إلا .

وأما الرابعة : وهى تشديد ( إن ) وتخفيف ( لما ) فواضحة . فـ ( إن ) هى المشددة عملت عملها.

والكلام فى ( اللام) و (ما ) مثل ما تقدم أوّلا من الوجوه الأربعة فى (اللام) والثلاثة فى ( ما ) .

وثمّت قراءات أخر فلتراجع فى ( السمين ) وغيره .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] ( فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ )

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » أى فى القرآن ، و ( الكاف ) للتشبيه ، أو بمعنى ( على ) « وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أى من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا »أى تجاوزوا حدود الله « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغى ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] ( وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ )

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » أى لا تمنعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادّة المشركين المحادّين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة فى الصدّ عن سبيل الله ، لأن ذلك ينافى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ مايتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينغمس فى حمأته ؟

تنبيه :

قال بعض المفسرين اليمانين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟

فروى عن ابن عباس والأصمّ أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شىء من دينكم .

وقيل : ترضوا بأعمالهم ـ عن أبى العالية ـ .

وقيل : تلحقوا بالمشركين ـ عن قتادة ـ .

وقيل : تداهنوا الظلمة ـ عن السدّىّ وابن زيد ـ .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمةُ أولى .

قال الزمخشرىّ : النهى يتناول الانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيّى بزيهم، ومدّ العين

إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : ( وَلَا تَرْكَنُوا ) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : ( إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشي عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ ! انتهى .

قال اليمانى : قد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استعانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء شرورهم فلا حرج فى ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيناسهم وإقرارهم فلا . انتهى ـ .

وأقول : كل هذا مبنى على عموم الآية ، وأما إن كانت فى مشركى مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً ـ والله أعلم ـ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ )

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » أى غدوة وعشية « وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ » أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . من ( أزلفه ) إذا قربه ، وازدلف إليه . وصلاة الغدوة: الفجر . وصلاة العشية: الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال عشى ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء ـ كذا فى الكشاف ـ .

والآية كقوله تعالى [١]: ( أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ )

---

(١) [ ١٧ / الإسراء ٧٨ ] .

فى جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغا غاية اللطف فى بلاغة الإيجاز . وانتصاب ( طرفى النهار ) على الظرف لإضافته إليه . و ( زلفا ) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كرغيف ورغف .

وقرئ بإسكان اللام، إما بالتخفيف، فيكون فيها ماتقدم ، أو على أن السكون على أصله، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ ( زلفى ) كحبلى ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بعطفه على ( طرفى النهار ) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على ( الصلاة ) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أى اقترب .
و ( من الليل ) صفة زلفا ـ كذا فى العناية ـ .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أى التى من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أى التى قلما يخلو منها البشر ، أى يكفرنها . « ذَٰلِكَ » أى إقامة الصلوات فى الأوقات المذكورة ، « ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ » أى ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبىّ ﷺ فقال : يارسول الله ! إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هـذا . فاقض فىّ ما شئت ! فقال له عمر رضى الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يردّ النبىّ ﷺ شيئاً . فقام الرجل، فانطلق فأتبعه النبىّ ﷺ رجلا فدعاه، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)الخ.

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة ـ أخرجه البخاري[١] وغيره ـ .

وفى رواية عن أبى أمامة[٢] قال له ﷺ : أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تعد . وقرأ الآية .

وفى رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لما وقع ، لأنها كانت سبباً فى النزول ـ كما بيناه غير مرة ـ .

وفى الصحيح[٣] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا . ورواه البخاري أيضاً عن جابر ، ورُوِى نحوه عن عثمان وسلمان .

وللإمام أحمد[٥] عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

---

(١) أورده البخاري ، موجزاً ، فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٦ ـ باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذى ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم فى صحيحه فى ٤٩ ـ كتاب التوبة ، ٧ ـ باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه البخاري فى ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ ـ باب الصلوات الخمس كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) .

وله عن أبى ذر[١] مرفوعاً ( إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها ) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال ( هى أفضل الحسنات ) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البرّ .

لطيفة :

أشار القاشانىّ عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس فى أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يَرِدُ عليه من الهيآت الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والكدورة بالصفاء ـ فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يَرِد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغُرور ، وداراً للعين الغَرور ، التى تدخل بها الظلمة لِيُذْهِبَ النورُ الوارد آثارَ ظلماتها ، ويكسح غبارَ كدوراتها . وهذا معنى قوله : ( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) :

وقد ورد فى الحديث[٢] ( إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر ) وأمر بإقامتها طرفى النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيأة النورية ، فى أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

(٢) أجرجه مسلم فى . ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل فى آخره ماحصل فى سائر الأوقات من التفرقة والـكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها فى الليل ، وهى تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحانىّ ، وتحجزها عن شأنها الخاص بها ، الذى هو مطالعة عـالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لعمارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتـكدرها بالغشاوة ـ احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : ( وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْـلِ ) . انتهى . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ( وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَاصْـبِرْ » أى على مشاقّ ما أُمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو عـلى الصلاة كقوله(١) : ( وَاصْطَـبِرْ عَلَيْهَا ) ولا مانع من شموله للـكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى فى أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس . قال أبو السعود : وإنما عبر عن ذلك بنفى الإضاعة ، لبيـان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة ، مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب فى ( العناية ) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبىّ ﷺ ، وإن كانت عامة فى المعنى ، وفى المنهيات جمعت للأمـة .

وقوله تعالى :

---

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ( فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ )

« فَلَوْلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكنّ قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى .

لطيفة :

( البقية ) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من الرأى والعقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالذبيحة . وأطلق على الفضل ( بقية ) استعارة من البقية التى يصطفيها المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : ( فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا ) ، و ( فلان من بقية القوم ) أى من خيارهم . وجوّز كون ( البقية ) مصدراً بمعنى ( البقوى ) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سخطه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ما صاروا منعّمين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشىء . و ( الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشرىّ على الثانى ، لأنهم المقصود بالنمى قبله ، حيث قال : أراد بـ (الذين ظلموا) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنىء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

«وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» أى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى ، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ )

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » أى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و ( بظلم ) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أى استحال فى الحكمة أن يهلك القرى ظالما لها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون ، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومسامحته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : ( يبقى الملك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم ) وهذا ، وإن كان صحيحا ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولا ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً ـ يقضى بحمل ( الظلم ) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الاتعاظ ، غير مصرّين على ما هم عليه من الشرك ونحوه ـ كذا أشار له أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ )

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى مجتمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » أى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] ( إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ )

« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » أى لكنّ ناسا رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا فى المذهب والمقصد ، ووافقوا فى السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

وقوله تعالى : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » فى المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه ( مختلفين ) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمرة الاختلاف ، من كون فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، خلقهم . واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى (١) : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من ( رحم ) لتأويلها بـ ( أن والفعل ) أو كونها بمعنى الخير . وتكون الإشارة لاثنين ، كما فى قوله (٢) ( عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزوّ إلى ابن عباس رضى الله عنهما . وإن كان الضمير لـ (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق ــ كذا فى العناية ــ .

وأشار القاشانىّ إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستعد كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمرا وصنعة ، ويستتب بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يتعيش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

(١) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٦٨ ] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هـذه : « لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من ( الْجِنَّةِ النَّاسِ ) عصاتهما ، والتعريف للعهد ، والقرينة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ (أَجْمَعِينَ ) حينئذ ظاهر ، وإن لم يحمل على العهد ، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه ، موكولًا إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ ( أَجْمَعِينَ ) تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شىء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعـام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ ( أجمعين ) إذ فيه ردّ على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار ـ كذا فى العناية ـ.

ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم ـ أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ( وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ )

«وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» أى نقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسل من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و ( كلاًّ ) مفعول ( لنقصّ ) و ( من أنباء ) بيان له . و ( ما نثبت ) بدل من ( كلاًّ ) أو خبر محذوف.

« وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتصّة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأممَ ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجعلوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] ( وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ )

« وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يتعظون ولا يتذكرون « اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ماجاءنا والاتعاظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ )

« وَانتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنتَظِرُونَ » أى ما وُعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعدَه . ونصر عبده ، فله الحمد وحدَه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] ( وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ )

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبى ﷺ ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحتية فى قراء الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت وهم . أى فيجازى كلاًّ بما يستحقه ـ والله أعلم ـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٢ – سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .

قال الشهاب : لما ختمت السورة التى قبلها بقوله[٢] : ( وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبائهم . وقد ذكر أولًا ما لقى الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر فى هذه ما لقى يوسف من إخوته ، ليعلم ماقاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبىّ ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و ( يوسف ) اسم عبرانىّ ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه ( راحيل ) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولداً سمته ( يوسف ) وقالت : يزيدنى به ربى ولداً آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقىّ فى ( الدلائل ) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

---

(١) [ ١١ / هود / ١٢٠ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ )

« الٓر » تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التمديد ، والإشارة فى قوله : « تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى آيات السورة ، نزّل ما بعده ، لكونه مترقباً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة فى ( تلك ) إليها . والمراد بـ ( الكتاب ) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و ( المبين ) بمعنى الظاهر أمرُها وإعجازُها ، إن أُخذ من ( بان ) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أُخذ من المتعدى فالمفعول مقدّر ، أى أنها من عند الله تعالى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ )

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » أى الكتاب المنعوت بما ذكر « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لكى تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى[1] : ( وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ) . أو لتستعملوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيحاء . أو ( لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) بإنزاله عربيا ، ماتضمن من المعانى والأسرار ، التى لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات. وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل له الشرف من كل الوجوه .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أي أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمعه حكماً وعبراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أي بإيحائنا إليك « هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » أي عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ ﷺ . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه .

قال القاشانيّ : هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيّلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . ( يا أبت ) أصله يا أبي ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرها لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان ( يا أبتا ) فحذف الألف ، وبقي الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعويض . وقوله : ( رأيتهم ) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله(١) : ( أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ) . وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود .

قال المهايمي : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أر من تعرض لهيأة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اهـ .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ )

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعذوبة المصغر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أي فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلا عظيما متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أي ظاهر العداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشاني : هذا النهي من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلا ،

---

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٣٥ ] .

حتى يقع العلم به كما هو، فيقع فى النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوبا . ويسمى هذا النوع من الإلهام، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) . قال الكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربىّ : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب فى بعض الأوقات إخفاء فضيلة، تحرزا من الحسود. وهذا داخل فى قولنا : إن الحسن إذا كان سببا للقبيح قبح. ومنه آية الأنعام[1]: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إنى لأكتمُ من علمى جـواهِرَهُ　　　كى لَا يَرَى الحقَّ ذُوجهلٍ فَيَفْتَتِنَا

الأبياتُ المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالىّ فى ( منهاج العابدين ) والديلمىّ فى كتاب ( التصفية ) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى .

ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٠٨ ] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانيّ فى ( إيثار الحق ) : مما زاد الحق غموضاً وخفاءً خوف العارفين ، مع قلّتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقيّة عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبلُ فى الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة ( المؤمن ) . وصح أمر عمّار به ، وتقريره عليه ، ونزلت فيه[1] : ( إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ) . وقد صح عن أبى هريره[2] أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثثتهُ لكم ، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ لقطع هذا البلعوم . قال الغزالىّ فى خطبة ( المقصد الأسنى ) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعامى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، يصطفيك للنبوة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير المنامات ، وإنما سمى التعبير تأويلاً ، لأنه جعل المرئىّ آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث مَلَك أو نفس أو شيطان.

(١) [ ١٦ / النحل / ١٠٦ ] .     (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » أى بماسيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه، وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتباء « حَكِيمٌ » فى صنعه .

## تنبيهات :

الأول ـ قال أبو السعود : كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله: ( وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى مايبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة. وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاقىّ منها ، مما هو أنفسىّ كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبىّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجرى أحكامه .

الثانى ـ استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : ( يا ابن فلان ) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث ـ قال المهايمىّ : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بِمَيْنِهِ ، ومدح الشخص فى وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ؛ وأن لكل حادث تأويلا عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال ، إذ تصور المخيلة معانى معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعانى ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

## بحث فى الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهانىّ فى كتابه ( الذريعة ) فى بحث ( الفراسة ) ما مثاله :

ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظّم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال [1] لنبيه ﷺ : ( وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ) . وقال [2] ( إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ . . . ) الآية ـ وقال [3] فى قصة إبراهيم : ( يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ) وقوله [4] : ( يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ) .

والرؤيا هى فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهى ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموّج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ،

---

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٦٠ ] . (٢) [ ٨ / الأنفال / ٤٣ ] .
(٣) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٤ ] .

ويفرق بين طبقات النـاس ، إذ كان فيهم من لا تصحّ له رؤيا ، وفيهم من تصحّ رؤياه . ثم من صحّ له ذلك ، منهم من يُرَشّح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحـكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظًّا من النبوّة . وقد قال عليه الصلاة والسلام(١) : ( الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحرّيه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ورب نزر الحظ من الحـكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، فى ذاتها الروحانية ، لمحة من صور الواقعات . فإنها عند ما تـكون روحانية تـكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ماتتشوّف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغـير جلىّ بالمحاكاة ، والمثال فى الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبـــير . وقد يكون الاقتباس قويًّا يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستـكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلًا محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتـكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شىء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائـكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستـكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، حديث ٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن . ومنه خاصّ ، كالذى للأولياء . ومنه عامّ للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعـــداد فيهم متكرراً فى حالات الوحى ، وهى عند ما يعرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حـال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرويا بأنها ( جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ) ـ وفى رواية ( ثلاثة وأربعين ) ، وفى رواية ( سبعين ) وليس العدد فى جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه ، وهو للتكثير عنـد العرب ، وما ذهب إليه بعضهم فى رواية ( ستة وأربعين ) من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ـ فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبى ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولًا ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعـــداد القريب الخـاص بصنف الأنبياء الفطرىّ لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عامًّـا فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذى هو جبلّىّ لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال[١] : ( لم يبق من النبوة إلا المبشرات ) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال ( الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانىّ الجسمانىّ ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب ـ على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره ـ وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنيـة ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارىّ ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التـكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الـكثيف . ولمَّا لطف هذا الروح الحيوانىّ من بين المواد البدنية ، صار محلاًّ لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بمـا يدركها من التعب والـكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لهـا طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الـكاملة . وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانىّ من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتـكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانىّ ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفّت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثـل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تـكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتهـا الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحانىّ ، لأنها مفطورة عليه . وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة . والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى ـ أضغاث أحلام .

وفى الصحيح أن النبىّ ﷺ قال[1]: ( الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملَك، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلىّ من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملَك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان، لأنها كلها باطل، والشيطان ينبوع الباطل.

هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيمها من النوم . وهى خواص للنفس الإنسانية ، موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ، ولابد . وإذا جاز ذلك فى عالم النوم ، فلا يمتنع فى غيره من الأحوال، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة فى كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث ( علم تعبير الرؤيا ) أن التعبير لها كان موجوداً فى السلف ، كما هو فى الخلف، وأن يوسف الصديق، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع فى القرآن، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبىّ ﷺ ، وعن أبى بكر رضى الله عنه . والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقلىّ ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوّره ، فإنما يصوّره فى الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشىء . ومن المرئىّ ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير، لجلائها ووضوحها، أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تتمة سابقة ، انظرها ثمة .

---

(١) أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢٦ ـ باب القيد فى المنام ، حديث ٢٥٣٩ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ )

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « ءَايَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوّته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقّ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانىّ : أى آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أوّلًا: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ، فيعلمون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشرّ ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم، الذى هو الانتقال الذهنىّ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوّى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ )

« إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بَنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال ـ عشرة فصاعداً ـ سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل فى الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد فى منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

« إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ذهاب عن طريق الصواب فى ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من المخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامينَ لكونه شقيقه وأصغرهم. ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ )

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً » من مقول قولهم المحكىّ قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا فى كيده ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعدُ ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء. وتنكير ( أرضاً )وإخلاؤها من الوصف، للإبهام . أى فى أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : « يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ » جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه يدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف، فيشتغل بهم. «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه « قَوْمًا صَالِحِينَ » أى تائبين إلى الله عما جنيتم ، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم .

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير ، الذي لاذنب له،وبالكبير الفاني ، ذي الحق والحرمة والفضل ،والده، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم!

الثاني ـ قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوّة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر . ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى[1]: (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ) وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم . والله أعلم .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أي صريحاً ورَضِيَ به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أي لأن القتل من الكبائر التي يخاف معها سدّ باب الصلاح . وإنما أظهره في مكان الإضمار استجلاباً لشفقتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ » أي في غوره . و (الجب): البئر التي لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أي بعض الأقوام الذين يسيرون

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٣٦ ] .

فى الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سدّ باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرّين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب ( رَؤُوبين ) .

ولما تواطأوا على رأيه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ )

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم تخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب، والسعى والنشاط، حيث يكون الخضر والمياه والزروع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملاله القاطع لنشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ )

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشرىّ : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقته إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثانى : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه، برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل . فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى ـ أى فيما حكى عنهم بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

« قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى جماعة أقوياء ، يمكننا أن ننزعه من يد الذئب « إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ » أى هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه « وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا » أى أعلمناه بإلقاء فى روعه ، أو بواسطة ملَك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك.

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متعلق بـ ( أوحينا ) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء فى ( لتنبئنهم ) ، أى : لتحدثنهم بذلك، وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلوّ شأنك، كما سيأتى فى قوله تعالى[1] : ( فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدُ ، يأكلون ويلهون إلى المساء .

وجواب ( لما ) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل: الجواب ( أوحينا ) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ )

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته القاطع عنه متمناه ، لتنقطع محبته عنه، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلىّ . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا، ببكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ )

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى فى العدْو والرمى بالنصْل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٨ ] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا » أى ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرها ليحفظه « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » أى كما حذرتَ .

وقوله تعالى: « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تلطف عظيم فى تقرير ما يحاولونه. يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا فى هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً ـ نقله ابن العربىّ ـ .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء على التصرف ـ كذا فى الإكليل ـ .

قال بعض اليمانين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفَسَقَة . وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون فى معنى القمار ، فلا يجوز .

الثانى: أن لا يكون فى معناه، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالمناضلة بالقسىّ ، والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . ففى ذلك قولان للشافعية . رجح الجوازُ ، إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه ﷺ [1] صارع يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت [2] : سابقت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقته فى المرة الأولى ، فلما بدنتُ سبَقنى وقال : هذه بتلك .

وفى الحديث [3] : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه. انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٢١ ـ باب فى العمائم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة فى: ٩ـ كتاب النكاح، ٥٠ـ باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم ١٩٧٩ ( طبعتنا ) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبة بن عامر ، فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٣ ـ باب فى الرمى ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ )

« وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » بيان لما تآمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قميصه الموشى ، وغمسوه فى دم مَعزٍ كانوا ذبحوه . و ( كذب ) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و ( على ) ظرف لـ ( جاءوا ) مشعر بتضمنه معنى ( افتروا ) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغيب يوسف ، وتفريقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقوّاه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : ( وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ) ، وكثيراً ما تتفق الأعذار الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى ( الإكليل ) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : ( بَلْ سَوَّلَتْ . . . ) الآية .

لطائف :

قال المهايمىّ : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلًا ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلا يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبيًّا ، يُخلق أولًا على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغني من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمي البصر .

و( التسويل ) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » ( صبر ) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفا ، أي فشأني صبر جميل . أوفصبر جميل أجمل. والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذاعرضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية .

« وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أي المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ـ كذا قدروه ـ وحقق أبو السعود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علَمٌ في الكذب . قال سبحانه[1] : ( سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ) وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى[2] : ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه ـ يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى .

قال الرازيّ : لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهي قوية . والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إعانته تعالى،

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٨٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ١٨و٨٣ ] .

لم تحصل الغلبة . فقوله : ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) يجرى مجرى قوله : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ) . وقوله : ( وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ ) يجرى مجرى قوله : ( وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) . انتهى .

ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف فى الجب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَابُشْرَى هَـٰذَا غُلَامٌ ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ )

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ » أى أرسلها فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ » وقرئ ( يَابُشْرَايَ ) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى . ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و ( الغلام ) : الطارّ الشارب . أو من ولادته إلى أن يشبّ . والتنوين للتعظيم .

« وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . فـ ( بضاعة ) حال . وفى ( الفرائد ) : أنه ضمّن ( أَسَرُّوهُ ) معنى ( جَعَلُوهُ ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو مفعول له . أى : لأجل التجارة . و ( البضاعة ) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة : « وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠] ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ )

« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

فى ( أَسَرُّوهُ )و (شَرَوْهُ ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روىأنهم كانوا تجارامن بلدة مدين، فلما أصعدواردُهم يوسف ، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوهلقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهمـا من الفضة ، ثم أتوا بيوسف إلى مصر . و ( دراهم ) بدل من الثمن . و ( المعدود ) ، كناية عن القليل ، لأن الكثير يوزن عندهم . و ( الزهـد ) فيه بمعنى الرغبة عنه .

فوائد :

قال فى ( الإكليل ) ، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط ، فأخذوا منهـا أن اللقيط يؤخذ ولا يترك . ومن قوله : ( هذا غلام ) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذاقوله ( وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله : ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ) أن اللقيط يحكم بحريته . وأن ثمن الحرّ حرام . قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً ، وهو لا يملك ، إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

قال بعض الزيدية ، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية ، كما أن ظاهره الإسلام . اهـ .

قال المهايمىّ : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن فى خاطره . وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهوّنه . وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة ، وبالعكس . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسّر له من اشتراه فى مصر ، فاعتنى به ، وأوصى أهله ، وتوسّم فيه الخير والصلاح . ومعنى ( أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ) اجعلى مقامه حسناً مرضيا . و(المثوى) محل الثواء ،وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرّة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام فى بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه . فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيّما على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة فى زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة فى أرض مصر ، ووجاهة فى أهلها ، ومحبة فى قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمنَعُ عما يشاء ، ولا يُنازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعما أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ )

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك العبودية . ومعنى ( بَلَغَ أَشُدَّهُ ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول: بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و ( الحكم ) إما الحكمة، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس.

قال الزمخشرىّ : وفى قوله تعالى : ( وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ) تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متقياً فى عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه .

وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته ، آتاه الله الحكمة فى اكتهاله .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ )

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ما جرى على يوسف فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، من مراودتها له وإبائه .

والمراودة : المطالبة. أى : طلبت منه أن يواقعها. وتعديتُها بـ ( عن ) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر . وإيراد الموصول دون امرأة العزيز، لتقرير المراودة ، فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على مالا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ـ كما سيأتى ـ.

و( هَيْتَ ) قرئ كـ ( لَيْتَ وقِيلَ وحَيْثُ ) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ، وفتح التاء وضمها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى ( تعال ) . واللام لتبيين المفعول أى المخاطب . ونقل عن الفرّاء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .

قال ابن الأبيارىّ : هذا وِفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم فى ( القسطاس ) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللهِ » منصوب على المصدر. أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيننى إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما اؤتمنت عليه ، وضرًّا لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .

قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السّوء.

وقوله : ( إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها ، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتىّ الذى تكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف يمكن أن أسىء إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و ( رَبِّي ) خبر ( إِنَّ ) ، و ( أَحْسَنَ مَثْوَايَ ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، فى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلًا .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ) تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و ( الفلاح ) الظفر ، أو البقاء فى الخير . ومعنى ( أفلح ) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ ( الظالمين ) كل من ظلم ، كائناً من كان ، فيدخل فى ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والعصاة لأمر الله تعالى ، دخولًا أوليًّا . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم، وللمزنيّ بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى ـ أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية ـ أن السيد والمالك يسمى ( رَبًّا ) .

الثالثة ـ أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال: التشريك غير مفيد فى كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب. وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخلّ بالمكافأة عليه ، كان ظالماً. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ )

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » ( الهم ) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إمضائه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم همان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان[1] وأهل السنن عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبرانىّ عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) أى بمخالطته ، أى قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مباديها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها ( هَيْتَ لَكَ ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

ومعنى قوله ( وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها كما همت به ، لتوفر الدواعى . ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٦ ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١و٢٠٢ ( طبعتنا ) .

قال أبو حيّان : ونظيره ( قارفتَ الإثم لولا أن الله عصمك ) . ولا نقول : إن جواب ( لولا ) يتقدم عليها ، وإن لم يقم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف فى الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلًا . وقيل : جواب ( لولا ) لغشيها ونحوه . فمعنى ( الهم ) حينئذ ما قاله الإمام الرازى : من أنه خطور الشىء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم فى الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالًا ، تتهيأ للشاب النامى القوى ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . ( فالهم ) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤيةُ البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همه بها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلًا جبليًّا ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصدًا اختياريًّا . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه ـ عليه السلام ـ تسجيلًا محكمًا ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلَزّا فى قَرَنٍ واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو همّ كل منهما بالآخر . وصُدّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمىّ ، وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل : ( لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النيّر ، على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب ( لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميلة الجبلّى ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلّية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلّية، لكانوا إما ملائكة أوعالماً آخر . وَلَمَا كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعنّين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملًا ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسىّ .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرىّ .

هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصوفين ، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أنزه تآليفى عن نقلها ، بردّها ، وكلها ـ كما قال العلامة أبو السعود ـ خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لاكها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزمخشريّ ، فجوّد الكلام فى ردها ، فلينظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .

و( السوء ): المنكر والفجور والمكروه . ( والفحشاء ) : ما تناهى قبحه

قال أبو السعود : وفى قوله تعالى ( لِنَصْرِفَ عَنْهُ . . . ) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقيل : لنصرفه عن السوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة . فتأمل .

و ( المخلصين ) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل: إن كل من له دخل فى هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد الله تعالى بقوله ( لِنَصْرِفَ ... ) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله: ( هِيَ رَاوَدَتْنِي )ونحوه ، وشهدت امرأة العزيز بقولها : ( وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ) ، وسيدها بقوله : ( إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) وإبليس بقوله : ( لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ) فتضمن إخباره بأنه لم يغوه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى . عفا الله عنهم !

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ... ) الخ ، وقوله : ( كَذَٰلِكَ )الخ ، اعتراف جئ به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب ، أى قصد كلٌّ سبْقَ الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى لتمنعه من الخروج ووحّد (الباب) هنا مع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البرانىّ الذى منه المخلص.

« وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبته من خلفه فانقدّ ، أى انشق قميصه .

« وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادفا بعلها ثمت قادماً .

« قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة لساحتها ، وإغراءً عليه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ )

« قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّه منه أمارة الدفع عن نفسها به ، أو تعثره فى مقادم قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ )

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أمارة إدباره عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدّه من قُبل ، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها ـ والله أعلم ـ

هى التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله[1] : ( وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التى خشى أن تتطرق إليه فى حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثانى وهو صدقه هو الواقع ، فلا يضره تأخيره فى الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال: (بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتى ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

« فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعنى بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً فى النفس ، ولهن فيه نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُّقَطَة والسرقة والوديعة ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

« يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا » نودى بحذف حرف النداء ، لقربه وكمال تفطنه للحديث.

(١) [ ٤٠ / غافر / ٢٨ ] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

« وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برئ منه .

« إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليباً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلًا حليماً ، إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا القدار .

قال ابن كثير: أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال: إنه كان قليل الغيرة.

قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيّان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجدب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها ـ أثراً فى أخلاق البشر وأبدانهم ـ انظر المقدمة الرابعة والخامسة من ( مقدمة ابن خلدون ) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ـ وهى مصر ـ بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ )

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من ( العز ) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و ( الشَّغاف ) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ )

« فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتيابهن ، وسوء قالتهن . استعير ( المكر ) لـ(الغيبة) لشبهها له فى الإخفاء . أو ( المكر ) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكراً بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيأت ، « لَهُنَّ مُتَّكَأً » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشرى : قصدت بتلك الهيأة ـ وهى قعودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن ـ أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتكىء إذا بهت لشىء وقعت يده على يده ، فتبكتهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى :

« فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمنه ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز فى الطباع ألا أحسن من الملك ، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان . ولذلك يشبه ، كل متناه فى الحسن والقبح ، بهما .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ )

« قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالباً للعصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشرىّ : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمّ والبرهان . انتهى .

« وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ » أى ليعاقبنّ بالسجن والحبس « وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ )

« قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ » أى من مواتاتها ، لأنه مشقة قليلة ،

تعقبها راحات أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ» يعني : ما أردن مني « أَصْبُ إِلَيْهِنَّ » أي أمِلْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية « وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أي بسبب ارتكاب ما يدعونني اليه من القبيح .

قال أبو السعود : هـذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، في قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت . لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن . انتهى .

قال القاشانيّ : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ )

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أي أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أي أيده بالتأييد القدسيّ ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» أي لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أي بما يصلحهم .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ )

« ثُمَّ بَدَا لَهُمْ » أي ظهر للعزيز وأهله ، «مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ» أي الشواهد على براءته ، « لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أي إلى مدة يرون رأيهم فيها .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصّا علىّ ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت فى المنام كأنّ بين يدىّ وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون فى يدى ، فأخذت العنب ، وعصرته فى الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال حُوّارى ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسى .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رأياه سهل التأويل ، لوجود مثاله فى المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانىّ لمن يصطفيه بالنبوّة ، وهذا معنى قوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ )

« قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام مايبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدانه كذلك . وحقيقة ( التأويل ) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما : ( نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحى والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سمعاه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآئِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ )

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآئِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحى والإلهام،أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين. أو كلام مستأنف ، ذكر تمهيداً للدعوة ، وإظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، والوثوق به . والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأسا ، كما يفصح عنه قوله : ( مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا ، فضلًا عن الوقوع . وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام . والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه يثبت بالطريق الأولى . أو المراد نفى الوقوع منهم لعصمتهم . وتكرير ( هُمْ ) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيد كفرهم بالآخرة . وزيادة ( من ) فى المفعول ، أعنى ( مِن شَىْءٍ ) لتأكيد العموم ، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء،قليلًا أو حقيراً ، صنماً أو ملكاً أوجنياً أو غير ذلك .

وقوله : ( ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ) يعنى عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة،ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .

ولما ذكر ،عليه السلام، ماهو عليه من الدين القويم ، تلطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام ، فضرب لهما مثلًا يتضح به الحق حق اتضاح بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَءَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبيّ فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولًا به . أى : أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوّتهم ، وهى قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع فى أن معرفة الله بصفاته ، حسنة فى نفسها ، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن . انتهى .

وفى قوله : ( أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت فى العلوم والسلطة ، كذلك فى عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها « إِنِ الْحُكْمُ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها ، لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة ، « ذَٰلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالها عن تعبير رؤياهما ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوهما إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ، وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزمخشرىّ : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترص ذلك ، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفتاه واحد منهم ، أن يقـدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولًا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليـه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته فى العلم ، فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضُه أن يقتبس منه ، وينتفع به فى الدين ـ لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتهما إليه ، وبيانه لهما مرتبة علمه ، شرع فى تفسـير ما استفسراه . ولـكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتـكرير الخطاب فقال :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويعلق على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . يعنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنـه بـ ( الأمر ) ، وعن طلب تأويله بـ ( الاستفتاء ) تهويلًا لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشـكلة الحـكم ، المبهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما فى ذلك ، لما أنهما بصدده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقى : (اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و ( الظن ) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للعنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المعروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادىّ أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى[١] : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى[٢] : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) . وفى الحديث[٣] : ( والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ) . وجلىّ أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشرىّ ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل ـ يعنى يوسف ـ الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى ـ فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جدًّا ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [ ٥ / المائدة / ٢ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٥٢ ] و [ ٦١ / الصف / ١٤ ] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ ( طبعتنا ) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلا عن الحسن وقتادة . قال: وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، فى غير هـــذا الموطن . ـ والله أعلم ـ انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » يعنى : فشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها.

ولأهل اللغة أقوال فى (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، يعنى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ )

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى لملئه : « إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالـكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً أخر يابسات دقيقة، أى نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطـــاب للأشراف من قومه ، وكان دعا ، إثر استيقاظـــه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ )

« قَالُوا » أى الملأ للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع ( ضغث ) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِمَ ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وتريها فى المنام . و( الأحلام ) جمع ( حلم ) ، وهو ما يراه النائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشيء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث [١] : الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشتىّ : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى ( الأحلام ) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ » يحتمل أن يريدوا بـ ( الأحلام ) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول يصيّره من وادى :

* على لا حبٍ لا يُهتدى بمناره *

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ١٠ ـ باب من رأى النبىّ ﷺ فى المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين . وقول الملك لهم أولاً : ( إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ) دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصورمطابقاً لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أَوْ لَا . وقول الفتى : ( أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ )إلى قوله( لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ) دليل أيضاً على ذلك ـ والله أعلم ـ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ )

« وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا »أى من صاحبي السجن ، وهوالساقى: « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى تذكر بعد مدة . وكان تذكره ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسى ، ولذلك لم يقل: أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أى فابعثونى إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر، وما لحق من قوله:

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ )

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أى أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة فى الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أوّل ، لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال « أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى فى

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفى قوله : ( أَفْتِنَا ) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وأنه فى ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبتّ الكلام ، بل قال (لعلى) و ( لعلهم ) مجاراة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

* لعل المنايا دون ما تمدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه ـ أشار إليه أبو السعود ـ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ )

[٤٨] ( ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ )

[٤٩] ( ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ )

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدتُّمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفعتم لهن من الحبوب

المتروكة فى سنابلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى فى الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئىّ فى المنام ، والمعبر به ،وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلىّ ـ أى يؤكل فيها ـ كما فى : ( نهاره صائم ) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ » أى تحرزون وتخبئون للزراعة .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدة ، وأكل الغلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يمطرون من الغيث ، أو يغاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوهما .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر ( العصر ) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب ، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أُخَرَ غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارة له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى ( يَعْصِرُونَ ) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ .

قال الزمخشرىّ : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

تنبيه .

قال فى ( الإكليل ) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ،وأن قولنا ( الرؤيا لأول عابر ) ليس عامًّا فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفى قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك فى تعبير الرؤيا والفتوى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملاً ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشرى : إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلّماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ماخلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها . قال عليه السلام (١) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

مواقف التّهم . ومنه قال[1] رسول الله ﷺ للمارّين به فى معتـكفه ، وعنده بعض نسائه : هى فلانة ، اتقاء للتّهمة .

وعن النبيّ ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، واللهُ يغفر له ، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى . ولقـــد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ( ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّـكَ ) ، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق فى مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى فى المسند والصحيحين[2] مختصراً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ـ مدحه النبيّ ﷺ على هذه الأناة ، وكان فى طىّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعى متوافرة على الخروج منه ، فَلَأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجدر ـ أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقى منها ما لقى ، من مقاساة

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٣٣ ـ كتاب الاعتـكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبيّ ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) :
وأخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١١ ـ باب قوله عز وجل : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .
وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ ( طبعتنا ) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة المداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى، ولم يصرح بمراودتهن له،وقولهن ( أطع مولاتك ) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » يعنى ما كدنه به . وفى إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لـكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تتميم لقوله : ( اسأل ) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيـه الوعيد لهن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( قَالَ مَا خَطْبُـكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ )

« قَالَ مَا خَطْبُـكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ » استئناف مبنى على السؤال ، كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن ـ أى شأنـكن ـ إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعنى : هل وجدتن منه ميلاً إليـكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ » أى قبيح . بالَغْن فى نفى جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة ( من ) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فى قوله : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .

قال الزمخشرى : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة، والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن، بأنه لم يتعلق بشىء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه. وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى ـ * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٢] ( ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ )

« ذَٰلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذى اعترفت به على نفسى « لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .

« وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يسدّده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسى مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته . أو تعنى : أنى ما أبرئ نفسى من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالعصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : ( ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ ... ) الآية ـ على أنه حكاية قول امرأة العزيز ـ قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردىّ فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سواه . والمعنى : ذلك التثبت والتأنى والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

( وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أي : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانته ، وبالعزيز في خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن مافيه من الأمانة ليس به وحده،وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : ( وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ) أي لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المساوئ .

هذا خلاصة ما قرروه على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك ـ والله أعلم ـ .

## لطائف :

الأولى ـ محل قوله : ( بِالْغَيْبِ ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى ـ وأنا غائب أو غائبة عنه ، أو وهوغائب عني خفيّ عن عيني . أو هو ظرف ، أي بمكان الغيب ، وهوالخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية ـ قيل : معنى ( لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ) أي : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهي واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لايهديهم في كيدهم ، كقوله تعالى(١):(يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي في قولهم .

(١) [ ٩ / التوبة / ٣٠ ] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالثة ـ قال فى ( الإكليل ) : ( وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ) أصل فى التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : لقدلفقت المبطلة روايات مصنوعة ـ ثم ساقها ـ وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق فى التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة ـ رأيت لابن القيم فى ( الجواب الكافى ) فى عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعى من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة فى مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة: إنها أضعاف مايذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعى ، وزوال المانع ، وكان الداعى ههنا فى غاية القوة وذلك لوجوه :

أحدها ـ ما ركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان الى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد .

الثانى ـ أن يوسف عليه السلام كان شابًّا ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى .

الثالث ـ أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع ـ أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى لغيره فى وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس ـ أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس ـ أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلفـــاً فى الحب أن مُنِعَت ... أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إبائها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع ـ أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن ـ أنه فى دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة .

التاسع ـ أنه لا يخشى أن تنمى عليه هى ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر ـ أنه كان مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأُنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعنى : قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السواد بيننا .

الحادى عشر ـ أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن ، وشكت

حالها إليهن، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال[1] : ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) .

الثانى عشر ـ أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة ، وداعى السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر ـ إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف[2] : ( أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ) ، وللمرأة[2] : ( اسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعى فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال[1] : ( رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتنّ به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ )

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى » أى أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه، وكرم

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٣ ] .  (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٩ ] .

نفسه ، وسعة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته ـ وجوّز أن يكون فاعل ( كَلَّمَهُ ) يوسف عليه السلام ـ « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شيء.

روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبّر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصته، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهبطاً للإمداد الربانىّ ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرّفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشى ، وقد أقمتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعه فى إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به فى شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يمضى أمر ، ولا ينفذ شأن فى مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوّجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة ـ والله أعلم ـ .

قال بعضهم : إن من أمعن النظر فى قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقىّ الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده ويُنجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشرًّا ، ولا للتنكيل به ألماً وضرا ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ـ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نقتفى أثره عند طروء التجارب، وملاذا نعوذ به فى المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت فى مواقف العثار ، وننهج منهاجه فى التقوى وطيب الإزار ، فننال فى الدنيا سعة المجد ، ونفوز فى الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ )

« قَالَ » أى يوسف للملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى ولّنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشرىّ . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالقضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته ، وفى أن المتولى أمرا ، شرطه أن يكون عالما به ، خبيرا ، ذكىّ الفطنة ـ كذا فى ( الإكليل ) .

قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جعله على

خزائن الأرض ، إيذانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنيّ عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : ( إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ) ، وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة فى ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات . . . الخ .

ولم أر الآن مستنده فى كون الأهرام كانت مجمع الغلات، ولم أقف عليه فى كلام غيره.

و ( الأهرام ) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتحتين ، وهى مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقى منها الآن ثلاثة فى الجيزة، بعيدة أميالا عن القاهرة، معدودة من غرائب الدنيا. دعيتُ لرؤياها أيام رحلتى للديار المصرية عام ١٣٢١ ﻫ وقد استقرّ رأى المتأخرين فى تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن لملوكهم.

ففى كتاب ( الأثر الجليل لقدماء وادى النيل ) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية آثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك ( خوفو )، والثانى للملك (خفرع ) والثالث للملك ( منقرع ) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « يَتَبَوَّأُ مِنْهَا » أى ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجوّل فى قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال: « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملًا .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

« وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن مايدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والمُلك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » إشارة إلى ماوقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركاتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول، ولما مضت هذه السبع ،دخلت السنون المجدبة، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، فأخذ الناس ، من سائر البلاد،فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها. وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب، لتناول القحط بلادهم ـ فلسطين ـ فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ، وعدم استشعارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متنكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد. قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، هلك منا واحد .قال: فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لابد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلىّ،ليتحقق صدقكم. ثم أخذ شمعونَ ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يعطوا زاداً للطريق ، وهذا ماأشير إليه فى قوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

«وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ» بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها،أى أوقر ركائبهم بالطعام والميرة. « قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ » أى أتمه « وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى المضيِّفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » أى فيما تستقبلون ، «وَلَا تَقْرَبُونِ » أى ولا تقربونى بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ )

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله ـ قاله أبو السعود ـ « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أي ذلك. يعنون المراودة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أي لخدامه الكيالين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعني ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أي اجعلوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أي لكي يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ » أي وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أي حسبما أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعي إلى الرجوع .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أي أنذرنا بمنعه بعد هذا، إن لم نأت بأخينا ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ » أي نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ ( يكتل ) بالتحتية أي أخونا لنفسه مع اكتيالنا، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أي من أن يناله مكروه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم[1] : ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) ثم خنتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى ، هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ )

« وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته ، فرأى فضته فى فم متاعه فقال لإخوته : قد ردّت دراهمى وهاهى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإنزالنا عنده ، وردّ الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٢ ]

استنزاله عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نـكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا. وقرئ على الخطاب . أى : أىّ شىء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟

« هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنـكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلًا من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : ( ماره ) أتاه بطعام ومنه : ( ما عنده خير ولا مير ) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شىء مما تخافه « وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » أى سهل على هـذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شىء يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتـكثر بمكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الـكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للـكل .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَـكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ )

« قَالَ » أى لهم أبوهم « لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَـكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّـنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويميناً به ، لتردنّه علىّ « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ »أى

تغلبوا كلكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : ( أحاط به العدوّ ) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّاءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاته تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًّا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم : ( البلاء موكل بالمنطق ) فإن يعقوب عليه السلام قال أولًا فى حق يوسف[1] : ( وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : ( إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ )

« وَقَالَ » أى أبوهم : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يمسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزيّ متحد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٣ ] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع فى التنبه ، واتباع البصر . وقيل : نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة ـ وسيأتى بيانه ـ .

« وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئا مما قضى عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزّ قائلا[1]: ( وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ) وقال[2]: ( خُذُوا حِذْرَكُمْ ) . بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ، وهرب منه إليه . « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شىء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ».

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٨] ( وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى ذلك الدخول « يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا » أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحى ، ونصب الأدلة ، حيث لم يعتقد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد الجملة بـ ( إن ) و ( اللام ) وتنكير العلم ،وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

(١) [ ٢ / البقرة / ١٩٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٧١و١٠٢ ] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلوّ مرتبة علمه وفخامته ، مالا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ. « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى ( الملل ) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ، إشفاقاً عليهم ، إما من إصابة العين ، وإمامن تعرض عدوّ ، أو مستريب بإجماعهم ،أو ببعض ما يخوّفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك، لا يغنى عنهم من الله شيئاً يريده عز وجل بهم . ولـكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا[1] : ( إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا يغنى شيئاً ، كما كان عليه السلام[2] يحب الفأل الحسن .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية ـ على ماروى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ أن العين حق[3] ، وأن الحذر لا يردّ القدر . ومع ذلك لابد من ملاحظة الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استحباب البعد عن مضارّ العباد ، والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا يغنى الحذر عنه . ثم قال : وفى ( التهذيب ) أن أبا علىّ أنـكر الضرر بالعين ، وهو مروىّ عن جماعة من المتـكلمين .

وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ١١ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٤ ـ باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ـ كتاب الطب ، ٣٦ـ باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلف من أين أتت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اختص ببعض الأشيــاء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها فى بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل فى جسم آخر شيئاً إلا بمماسّته ، أو ما فى حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعله ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله العادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هـذا الحاكم ، وهو الذى ذكره الزمخشرىّ والأمير الحسين ، وهو قول أبى هاشم ، ذكره عنهمـا فى ( التهذيب ) انتهى .

وقد أوضحه الرازىّ بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخىّ : إنه لا يمتنع أن تـكون العيـن حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهـد الشىء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له فى تـكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشىء حتى لا يبقى قلب ذلك المـكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعدل عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعنده تتغيّن المصلحة . ولـما كانت هذه العادة مطّردة ، لاجرم قيل :العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيّم فى ( زاد المعاد ) هـذا البحث بما يشفى ويكفى ، فى ( بحث هديه ﷺ فى علاج العين ) بعد إيراده ما روى فى الصحيحين وغيرهما من حقيّة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ،قال :

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالهـــا وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفـــع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا فى

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالمعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسامّ جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلا. وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم. وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواصّ وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه . ويستحيي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيّناً، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره . وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأفعى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوّها انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر فى طمس البصر . كما قال ﷺ [١] فى الأبتر وذى الطفيتين من الحيات : إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل . ومنها ما يؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشىء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية » وقد قال الله تعالى لنبيه [٢] : ( وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ) وقال [٣] : ( قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ) . فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرمى الحسّى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشىء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانىّ . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرِف

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٢ ـ باب فى قتل الحيات ، حديث ٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [ ٦٨ / القلم / ٥١ ] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ ـ ٥ ] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيّم ، عليه الرحمة .

وقال الرازيّ : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانيًّا محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذى يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشى عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشى عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل فى قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدًّا، فمبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفسانيّ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان، فثبت أنه لا يمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فعنده لا يبقى فى وقوعه شك وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية بإصابة العين، كلام حق. لا يمكن ردّه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إما على الطعام، أو فى المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإنزالهم فى بيته ، وحلولهم فى كرامته وضيافته ، وحضورهم معه فى غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه ـ كما ذكر فى الآية ـ ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتيانه ، إذ جهز إخوته ، أن يضعوا سقايته فى رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه فى ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسعى فى إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ )

[٧٢] ( قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ )

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ » ؟

« قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى ( أذّن ) نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذّن أكثر الإعلامَ ، ومنه ( المؤذن ) لكثرة ذلك منه . و(العير) : الإبل التى عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجىء ، وهو اسم جمع للإبل، لا واحد له ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة ( عير ) . و ( الصواع ) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، ومافيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربىّ : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر أقل منه .

وقوله تعالى : ( وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » أصل فى الجعالة .

وقوله : ( وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ )

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كرّتَىْ مجيئهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ )

[٧٥] ( قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ )

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء سرقته، أخذ من وجد فى رحله رقيقاً . وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون ( جزاؤه ) مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هى خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو .

« كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقة ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ )

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين، نفياً للتهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » أى دبرنا لتحصيل غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه فى قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور

فطنته ، وكمال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر ( ديناً ) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعني : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » أي بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إيثار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أي من أولئك المرفوعين « عَلِيمٌ » أي فوقه أرفع درجة منه .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ )

« قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به . أي : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .

« فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » أي منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البريء .

« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أي من أمر يوسف .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لما تعين أخذ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم ، طفقوا يعطفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، فخذ أحدنا بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد فى الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفى ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشفّ عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبعرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بوثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ برضاة أبويه .

وقولهم : ( إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ) أى إلينا ، فأتم إحسانك بهذه التتمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ )

« قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ )

« فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس . كما دل عليه ( السين والتاء ) فإنهما يزادان فى المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : ( إنا إذا لظالمون ) . و ( خلصوا ) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن النـاس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم . و ( نجيًّا ) حال من فاعل ( خلصوا ) أي : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجيّ ( فعيل ) بمعنى ( مفاعل ) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله [1] : ( وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ) أي مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أي مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على ( فعيل ) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحد لأنه بزنة المصادر ، كالصهيل والوجيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصـل ، يشمل القليل والكثير . وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشريّ : وأحسن منه ـ أي من تأويل ( نَجِيًّا ) بذوي نجوى أو فوجا نجيًّا أي مناجياً ـ أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة :

ذكر القاضي عياض في ( الشفا ) في ( بحث إعجاز القرآن ) : أن أعرابياً سمـع رجلا يقرأ : فلمـا استيأسوا منه خلصوا نجيًّا ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هــذا الـكلام .

وقال الثعالبيّ في كتاب ( الإيجاز والإعجاز ) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

(١) [ ١٩ / مريم / ٥٢ ] .

جوامع الكلم، ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيماء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن ، وليتأمل علوّه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره ، فى إخوة يوسف (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا)، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معانى القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، ( روبين )، « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ » أى عهداً وثيقاً فى ردّ أخيكم ، وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أى قصرتم فى شأنه و ( ما ) إما مزيدة ، و ( من ) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و ( من قبل ) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول ( تعلموا ) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم[1] ( وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ) ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )[2] .

« فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسببٍ ما .

« وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

(١) [ ١٢ / يوسف / ١١ ] (٢) [ ١٢ / يوسف / ٦٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ )

« ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » أى : نُسِبَ إلى سرقة صواع الملك ، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » أى ما شهدنا عليه بالسرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به ـ كذا فى الإكليل ـ ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به فى مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ )

« وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يعنون مصر . أى : أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة . « وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فيما أخبرناك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ )

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً » معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أى زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدْرَى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ، لو لا فتواكم وتعليمكم .

قال الناصر : هذا من الزمخشريّ إسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلا يقول : هم فى الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء ، وأما فى هذه الوقعة الثانية ، فلم يتعمدوا فى حق بنيامين سوءا ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً ( بل سولت لكم أنفسكم أمرا ) كما قال لهم أولا ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلابد من زيدِ بسط فى الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِنٌ باتهامه لما أسلفوه فى حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد نفى التهمة وتقويها ، وهى أخذ الملك له فى السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم. وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى[1] : ( مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول فى حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع فى رحل من يوجد فى رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم. وهذا فى شرعنا لا يثبت السرقة عليه ـ والله أعلم ـ .

وقوله : ( بل سولت لكم أنفسكم أمرا ) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول. اهـ.

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » أى بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحالى وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المعجل تعجيل الفرج .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ )

« وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض « عَنْهُمْ » أىعن بنيه كراهة لماجاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ! و ( الألف ) بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و ( الأسف ) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزاهما . والرزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثراً ـ لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غضًّا طريًّا عنده ، كما قيل[1] :

* ولم تُنْسِنِى أوفى المصيباتِ بَعْدَهُ * وَكُل جَدِيدٍ يُذَكِّرُ بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقاً بحياتهما ـ دون حياته .

---

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

| | |
|---|---|
| نَعَى الركبُ ( أَوْفَى ) حين آبت ركابُهُمْ | لعمرى لقد جاءوا بشرٍّ فأوجعوا |
| نَعَوْا باسق الأخلاق لا يُخلِفُونه | تكاد الجبال الصمّ منه تَصَدَّعُ |
| فعزيت عن ( أَوْفَى ) بـ( غَيْلانَ ) بَعْدَهُ | عزاءً وجفْنُ العين بالماء مُتْرَعُ |
| ولم تُنْسِنى ( أَوْفَى ) المصيباتُ بَعْدَهُ | ولكنّ نَكْءَ القَرْح بالقَرْح أَوْجَعُ |

وقائلها هشام،أخوذى الرّمة وغيلان هو ذوالرّمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد ( طبعة الحلبىّ ) .

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ » وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشريّ : إذا كثر الاستعبار محقت العَبرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر.

« فَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعيل ) بمعنى ( مفعول) كقوله[1] (وَهُوَ مَكْظُومٌ ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكه إلى أحد قط . فهو بمعنى ( فاعل ) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف جاز لنبيّ الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال[2] : إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له فى ذلك ؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

---

(١) [ ٦٨ / القلم / ٤٨ ] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٤٤ـ باب قول النبي ﷺ ( إنّا بك لمحزونون ) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، ١٥ ـ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ )

« قَالُوا » أى أولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا » أى مريضاً مشفياً على الهلاك ، « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف. واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكدوه . و ( تفتأ ) مضارع فتئ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفى ملفوظاً أو منوياً ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله (1) :

فقلتُ يمينَ اللهِ أَبْرَحُ قاعداً ولو قطَعوا رأسى لديكِ وَأَوْصَالى

أى : لا أبرح . ومعنى ( تفتأ ) : لا تزال ولا تبرح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ )

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، فخلّونى وشكايتى .

« وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ » أى لمن شكا إليه من إزالة الشكوى، ومزيد الرحمة « مَا لَا تَعْلَمُونَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوّى رجاءهم، وأمرهم أن يرحلوا لمصر، ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

---

(١) قائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أيها الطللُ البالِي وهل يَعِمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالى؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ )

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرّفوا من نبئهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » ـ لم يقل ( منه ) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس ـ « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الرّوْح ، بعد مضيّ المدة فى الشدة ، وسنته فى إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيّما فى حق من أحسن الظن به .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ )

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولانفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى : الشدة من الجدب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاره . استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاباً لرأفته وحنانه . وأصل معنى ( التزجية ) : الدفع والرمى، فكنوا به عن القليل الذى يدفع، رغبة عنه، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : بردّ أخينا ، أو بالإيفاء ، أو بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن المثوبة .

## تنبيهات

الأول ـ فى الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ، ببعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة ـ كما قدمنا ـ ومن ثم ، رقّ لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه ، كما يأتى ـ .

الثانى ـ يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث ـ استدل بعضهم بقوله تعالى : ( فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ) على أن أجرة الكيال على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى : ( وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء ـ كذا فى الإكليل ـ وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف. وسيأتى فى التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس ـ فى قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) حثٌّ على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسِن يجزى أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسَن إليه .

ثم بيّن تعالى رأفة يوسف بتعرفه إليهم بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ )

« قَالَ » أى يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أى شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيتَ

وهل تعرف من خالفتَ ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى [1] : ( وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ).

## لطائف :

الأولى ـ أبدى المهايمي مناسبة بديعة في قول يوسف لهم : ( هَلْ عَلِمْتُمْ ) إثر قولهم : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) أنه يعطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوي ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تنكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية ـ قيل : من تلطفه بهم قوله : ( إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ) ، كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يُلْفُوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال [2] : ( فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة ـ قال الزمخشري : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والثكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« قَالُوا » أي : استغراباً وتعجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَإِنَّكَ لَأَنْتَ

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٥ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٠ ] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ » أي : الذى فعلتم به مافعلتم ، « وَهَٰذَا أَخِي » أي من أبوىّ .

قال أبو السعود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخيما لشأن أخيه ، وتكملة لما أفاده قوله : ( هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ) حسبما يفيده قوله :

« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منّ الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ، والأنس بعد الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أى ربه فى جميع أحواله ، « وَيَصْبِرْ » أى : على الضراء ، وعن المعاصى ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أىأجرهم . وفى وضع الظاهر موضع الضمير ، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر ، موصوفون بالإحسان .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ )

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى فضّلك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة المحسنين، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أى : وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين الذنب ، لم نتق ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ، ولذلك :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أى : لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى : وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ، إذ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاى عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى : فكأنه لا خطأ منكم . و ( اليوم ) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى ( عليكم ) من معنى الاستقرار ،والمعنى : ولا أثرّ بكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ؟ ! فتمبيره بـ ( اليوم ) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره ، فبَعْدَهُ بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى ( الدرر ) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليومَ يرحَمُنَا من كان يَغْبِطُنَا ... واليوم نَتْبَعُ من كانوا لنا تَبَعَا

ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : ( يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ) .

وقوله : ( وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى بالعفو والرحمة لهم ، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق ( اليوم ) بـ ( يغفر ) . والجملة خبرية سيقت بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .

والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفى له الودّ ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ، ويوردنا مورد الثبور ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ثم قال لهم يوسف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ )

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »

أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلةمن حلله التى كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون فى مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و ( الإلقاء على وجهه ) بمعنى المبالغة فى تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمّه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم فى صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جوّد الكلام فى ذلك الحكيم داود الأنطاكىّ فى ( تذكرته ) فى مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفى ( الكنوز ) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازىّ عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحى ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

ولعل الرازىّ عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ولا يخفى أن أسلوب التنزيل فى كناياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .

وقد جوز فى قوله : ( يَأْتِ بَصِيرًا ) أن يكون معناه يصير بصيراً ، أو يجىء إلىّ بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ ( بصيراً ) حال . قيل : ينصره قوله : ( وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادهما فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بعثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقى خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلمّ إلى ، فتقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقى خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا يأسفوا على ما خلّفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدراهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحبهم عجلات لأطفالهم ونسائهم ، وأوصاهم ألا يتخاصموا فى الطريق ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لرَوْح الله : « إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ» الريح : الرائحة ، توجد فى النسيم . أى : لأتنسم رائحته مقبلة إلىّ . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله فى روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس فى نهاية الشدة زهر الفرَج ، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة فى كلامهم : وفى حديثٍ عند الطبرانىّ : ريح الولد من ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبذا ريحُ الوَلَدْ ريحُ الخُزَامى فى البَلَدْ

وقوله : ( لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ) بمعنى إلا أنكم تفندون. أو لولاه لصدقتمونى . و( فنّده) نسبه إلى الفَنَد بفتحتين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال فى ( العناية ) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقلة فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ مَا الْهوَى فكن حَجَرًا من يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعّف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ )

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لفى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ، إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ )

« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » أى المخبر بما يسرّه من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسُه على وجهه ، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوّز كون ( إِنِّى أَعْلَمُ ) كلاماً مبتدأ . والمقول ( لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ) إن كان الخطاب لبنيه . أو ( إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ )

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : ( إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدهم بذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ )

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المهايمىّ : صرّحوا بالذنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربَّى بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : فى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه أخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف فى السنة ، ومنه شرع الاستغفار فى السحر ، وعقب الصلوات، وقضاء الحج. وكان الدعاء فى السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب للإجابة مما عداه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ )

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العَجَل التى بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر ـ وروى أنهم كانوا سبعين نفساً ـ وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض ( جاسان ) فينزلوها . ثم خرج يوسف فى مركبته ، فتلقى أباه فى ( جاسان ) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلًا. والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه، واعتناقهما واصطحابه لهما فى مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهى نفساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الخالة منزلة الأم ، لكونها مثلها فى زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله[1] ( وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أى من القحط وأصناف المكاره .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَاأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ )

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » أى أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » أى سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا » أى السجود « تَأْوِيلُ » أى تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أى

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٣٣ ] .

التى رأيتها أيام الصبا ، وهى سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع فى الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجانى من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لى مفوضاً إلىّ خزائن الأرض . وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، ونخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر . وفيه إشارة إلى النعمة فى الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان فى حبس الرشيد :

وَمحلةٍ شمل المكارهُ أهلَها ... وتقلّدوا مشنوءةَ الأسماءِ
دارٌ يُهابُ بها اللئامُ وتُتَّقَى ... وتَقِلُّ فيها هيبةُ الكرماءِ
ويقول عِلْجٌ ما أرادَ ، ولا ترى ... حرًّا يقول برقة وحياءِ
ورقّ عن مسِّ الملاحة وجهُهُ ... فيصونه بالصمت والإغضاءِ

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا من الدنيا ونَحْنُ مِنَ أهلِها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتَى
إِذَا جَاءَنا السجّان يوماً لحاجةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا : جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علىّ بن الجهم :

قالوا : حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى ... حبسى . وأىُّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ ؟
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألَفُ غابَهُ ... كِبْرًا وأوباشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
والبدرُ يُدْرِكُهُ المحاقُ فَتَنْجَلِي ... أيَّامُهُ وكأنه مُتَجَدِّدُ
ولكل حالٍ مُعْقِبٌ وَلَرُبَّمَا ... أَجْلَى لك المكروهُ عَمَّا تَحْمَدُ
والسجنُ ، ما لم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ ... شَنْعَاء ، نعم المنزل المتوَرَّدُ
بيت يُجَدِّدُ للكريمِ كَرَامَةً ... فيزار فيه ولا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل فى تسلية المسجونين قول البحترىّ :

أمـا فى رسول الله يوسفَ أسوةٌ　　لمثلك محبوسًا على الجَوْرِ والإفْكِ
أقامَ جميلَ الصَّبْرِ فى السجن برهةً　　فآلَ بِهِ الصبرُ الجميلُ إلى المُـلْكِ

ـ نقله الثعالبىّ فى ( اللطائف واليواقيت ) ـ .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ » أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه . وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً .

« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ » بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأقضيته .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ )

« رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيما ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما، « أَنْتَ وَلِيِّي » أى مالك أمورى، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى من النبيين والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما أتم عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ، وألحقه بالصالحين . فليس فيه تمنّ للموت ، وطلب التوفى منجزا كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان (١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستعتب : ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وفي رواية : وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي .

## تنبيهان

الأول ـ في فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانيين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشييع ، ومنه ما روى في تشييع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته ـ كما مر ـ أن من نسب رجلا إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش ـ وهو السرير الرفيع ـ جواز اتخاذه ، ورفع الغير ، تعظيما للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير (٢) :

أرض الحِراثةِ لو أتاها جَرْوَلٌ ... أعني الحُطَيْئَةَ لاغتدى حَرَّاثا

ما جئتها من أي وجهٍ جئتها ... إلا حسبتَ بيوتها أجداثا

---

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٠ ـ باب الدعاء بالموت والحياة ، حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم في . ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعتنا) .

والإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبي ) .

(٢) البيتان لأبي تمام ونصهما كما في الديوان :

لم آتها من أيّ وجه جئتُها ... الا حسبتُ بيوتها أجداثا

بلد الفلاحة لو أتاها جرول ... أعني الحطيئةَ لاغتدى حراثا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطئه . ومطلعها :

قِفْ بالطول الدارسات عُلاثا ... أمستْ حبالُ قطينهن رِثاثا

انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول ( طبعة المعارف ) .

وفى الحديث (١) : ( من بدا جفا ) أى : من حل البادية . وفى آخر (٢) : ( إنّ الجفا والقسوة فى الفدادين ) . ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن . ا هـ زيادة .

الثانى ـ قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدوم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكلمه حصة ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض فى مصر ، وهى أرض رعمسيس ، أى عين شمس ، وملكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فمثلهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه ـ كما أوصاهم يوسف ـ : نحن وآباؤنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا فى أرض مصر بجاسان ، فتملكوا فيها ، ونموا وكثروا جدًّا . وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل احملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتعش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناى رَزقنيهما الله هاهنا . فقال : أَدْنِهما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعالهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أرانى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسفَ بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائه فى المغارة التى فى حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٥ ـ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث ونصه : ألا إن القسوة وغلظ القلوب .. الخ

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ ( طبعتنا ) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، وليأة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملًا بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون فى موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه فى المغارة ـ كما أوصى ـ ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التى كتبها الله لآبائهم . ثم توفى يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه فى تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين، والله أعلم بالحقائق . وإنما لم يذكر هذا ، القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يبن على قانون التاريخ ، فليس فيه شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هى الآيات والعبر ، تجلت فى سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتى الإشارة إليه فى قوله تعالى(1) : ( لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ) ، وقوله(2) : ( وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ) . ومضى فى المقدمة بسط هذا البحث ، فراجعه . وسنذكر إن شاء الله فى آخر السورة شيئاً . من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ )

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ماسبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة

---

(١) [ ١٢/ يوسف/ ١١١ ] . (٢) [ ١١ /هود / ١٢٠ ] .

كماله فى جميع ما لايتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ.

وقوله تعالى : « وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل على كونه نبأً غيبيًّا ووحياً سماويًّا . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحى ، لأنك لم تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم فى البئر ، وهم يمكرون به، إذحثوه على الخروج جمعهم ، يبغون له الغوائل ، وبأبيهم فى استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاةوالسلام فى مشهد إجماعهم ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة، وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله تعالى( وَهُمْ يَمْكُرُونَ ) . والخطاب ـ وإن كان لرسول الله ﷺ ـ لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكّون فى ذلك فيدفع شكهم. وفيه أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه . يعنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى . ومثله قوله تعالى[1] : ( وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ) . وقوله[2] : ( وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ) انتهى .

وقوله تعالى :

(١) [ ٣/ آل عمران / ٤٤ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٤٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ )

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ »أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسل ، لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . يعنى : قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى[١] : ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ) .

قال الرازىّ : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبىّ عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظَنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم ، قيل له : ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى[٢] : ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ )

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ )

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ » أى على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، يعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة . يعنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمراشد القويمة ، وأنت لا تطلب فى تلاوته عليهم مالاً ، ولا جعلاً . فلو كانوا عقلاء لقبلوا، ولم يتمردوا .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٨و٦٧ و ١٠٣و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و١٧٤ و ١٩٠ ] .
(٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٦ ] .

قال بعض اليمانين : فى الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ )

«وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أى : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، فى السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفى الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازىّ : يعنى أنه لا عجب إذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لابد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهى قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم ، فلابد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام الكوكبية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها فى حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهى عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهى أقسام :

أحدها ـ الآثار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح

وثانيها ـ المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

ثالثها النبات وخاصية الخشب والورق والثمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص ، وخاصية مخصوصة .

ورابعها ـ اختلاف أحول الحيوانات فى أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .

وخامسها ـ تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد ، وقهروا العباد ، ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقى الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشرى لا يفى بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر فى الكتاب العزيز مجملا . انتهى .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أى : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللهِ » أى فى إقرارهم بوجوده وخالقيته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى : بعبادتهم لغيره ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا ، وبقولهم باتخاذه تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً .

تنبيه :

كما تدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفيّ ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رئاء الناس ، وهو مشرك بعمله . يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى ـ ولكن لا يخلص له فى عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .

وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبيّ ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى[1] : ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور ، فلا يقبل منه .

وروى مسلم[2] وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد[3] عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبيّ ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .

ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه[4] : ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا . . . ) الآية ـ وقال أصحاب هذا الشرك

---

(١) [ ٩٨ / البينة / ٥ ] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ ( طبعتنا ). (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ) . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٦٥ ] .

لآلهتهم ، وقد جمعتهم الجحيم[١] : (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به فى الحب والتألّه ، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوّى من خلق من التراب ، برب الأرباب ؟ وكيف يسوّى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنىّ بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أقبح من هذا وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيّم فى (الجواب الكافى)

قال الحافظ ابن كثير : وثمّ شرك خفىّ لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وفى الحديث[٢] : من حلف بغير الله فقد أشرك ـ رواه الترمذىّ عن ابن عمر وحسّنه.

وفى الحديث الذى رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤] وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨ ] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١٨ ـ كتاب النذور والأيمان ، ٩ ـ باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٧ ـ باب فى تعليق التمائم ، حديث رقم ٣٨٨٣ .

من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنق خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط؟ قالت : قلت : خيط رقى لي فيه! فأخذه فقطعه ، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . قالت: قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تقرف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهوديّ يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفّ عنها ، كان يكفيك أن تقولي كما قال النبيّ ﷺ: أذهبِ الباسْ ، ربّ النـاسْ ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد (١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمـة فقط أشرك !

وأخرج أيضاً (٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردته الطِّـيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك .

وبماذكر يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجود مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذه من الشفعاء ، ومايعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلا ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفيّ . وعلى هذا ، فالشرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ولرسوله ، فلهما أن يوقعا أي اسم شاءا على أي مسمى شاءا . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ ).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني ( طبعة الحلبيّ ). والحديث رقم ٧٠٤٥ ( طبعة المعارف ) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك فى عبادته تعالى ، وفى خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً، فضلًا عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذ العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنيّ بالذات . ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلًا وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلًا وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير، بمن لا شبيه له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التى قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هـذا تمام العبودية . وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع ، وقبحُه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسنى . إذا عرف هـذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما فى جانب التشبه به ، فمن تعاظم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفا ، ورجاء ، والتجاء ، واستعانة ، فقد تشبه به ، ونازعه فى ربوبيته والهيته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفى الصحيح [١] عنه ﷺ قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفى الصحيح [٢] عنه صلى الله عليه وسلم . أغيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه فى الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتتمة هذا البحث فى ( الجواب الكافى ) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١١٤ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقمى ٢٠ و ٢١ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ » أى: عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى: بإتيانها . وهذا كقوله تعالى[١] : ( أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ) وقوله[٢] : ( أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلى ، أى طريقى ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّثان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفته بصفات كماله ، و نعوت جلاله « عَلَىٰ بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمياء . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللهِ » أى : وأنزهه

(١) [ ١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ ] .

وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك أو ندّ أو كفء أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أي : على دينهم .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السمين ( أَدْعُو إِلَى اللهِ ) يجوز أن يكون مستأنفا ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالا من الياء . و ( على بصيرة ) حال من فاعل ( أَدْعُو ) . أي : أدعو كائنا على بصيرة. وقوله : ( وَمَنِ اتَّبَعَنِي ) عطف على فاعل ( أَدْعُو ) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أي : ومن اتبعني يدعو أيضاً . ويجوز أن يكون ( عَلَى بَصِيرَةٍ ) خبراً مقدما، و ( أَنَا )مبتدأ مؤخراً ، و (مَنِ اتَّبَعَنِي) عطف عليه ومفعول ( أَدْعُو) إما منويّ ، أي الناس ، أو منسيّ .

الثاني ـ دل قوله تعالى ( عَلَى بَصِيرَةٍ ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ـ انظر ( رسالة التوحيد ) فى تتمة ذلك ـ .

الثالث ـ دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازيّ : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله. وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها. ويزيد بياناً للأمور التى يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملا ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعمّ الهلاك ، ويعظم البلاء . وقلما تختبر عامياً ـ وأكثر الناس عامة ـ إلا وجدته جاهلا بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التى لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلا بالكل ، وجد جاهلا بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علما مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلا فعلت ذلك بأيسر مؤونة، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم فى بيان الأمر الذى جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه فى صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغى للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته فى غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويعم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى لا ملائكة

من أهل السماء. ردّ لقول المشركين[١] : ( لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ). وهذا كقوله[٢] تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) . وقوله[٣] : ( وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ) وقوله[٤] : ( قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ) الآية .

واحتج بقوله تعالى : ( إِلَّا رِجَالًا ) على أنه لم ينتظم فى سلك النبوّة امرأة .

والقرى : جمع قرية ، وهى على ما فى ( القاموس ) : المصر الجامع . وفى ( كفاية المتحفظ ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قرارًا ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لا أنهم من أهل البوادى الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون فى البوادى . ولهذا قال تعالى[٥] : ( الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . . ) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور .

وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى[٦] : ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . . . ) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ١٤ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان/ ٢٠ ] . (٣) [ ٢١ / الأنبياء / ٨ ]
(٤) [ ٤٦ / الأحقاف / ٩ ] . (٥) [ ٩ / التوبة / ٩٧ ] . (٦) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] .

قال ابن كثير : أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى (١) : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فتعلموا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بيّن تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتيهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاةوالسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] ( حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ )

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا. يعنى: الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» يقرأ ( كُذِّبُوا ) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم. ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى ( ظَنُّوا ) ـ على ما اختاروه ـ للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله تعالى (٢) : ( وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ )وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا لكلامه وجوهاً :

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢١٤ ] .

قال الزمخشرىّ : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهجس فى القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة فى التراخى والإمهال ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة فى التراخى بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابىّ : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكْذَبُ بالوحى ، ولا تشك فى صدق الخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر، وشدة استنجاز ما وعدوا به ـ توهموا أن الذى جاءهم من الوحى كان حسباناً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط فى تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذى بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتى بالوحى . والمراد بـ ( الكذب ) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد ( وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا ) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل ( وظنوا ) الرسل .

وقال أبو نصر القشيرىّ : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل، فصرفوه عن أنفسهم. أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذىّ الحكيم : وجهه: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدىّ عن ابن الأنبارىّ أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معوّل عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل توُوِّل عليه .

قال ابن حجر : وعجبٌ لابن الأنبارىّ فى جزمه بأنه لا يصح ثم للزمخشرى فى توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أى : فرواه البخارىّ[1] فى تفسير البقرة بلفظ: ذَهَبَ بها هناك ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيلىّ عنه : كانوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخارىّ[2] أن عائشة كانت تقرأ ( كذّبوا ) مشدودة ، وتتأوّلها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها ( كذبوا ) مخففة ، فقالت : معاذ الله !

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر فى أنها أنكرت القراءة بالتخفيف، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه فى ذلك، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القرّاء: عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائىّ . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى عبد الرحمن السلمىّ والحسن البصرىّ ومحمد بن كعب القرظىّ فى آخرين .

وقوله تعالى : « فَنُجِّىَ مَنْ نَّشَاءُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ ( فننجى ) بالتخفيف والتشديد . وقرئ ( فنجا ) .

« وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا » أى عذابنا . « عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء وأممهم . ورجّح الزمخشريّ الثانى بقراءة ( قِصصهم ) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ فى ( أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ )(١) . وسنذكر وجوه العبر منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ » أى : يختلق . « وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة، بدليل وجود أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهى وإن اختلفت قليلاً فى بعض التفاصيل والجزئيات ، عما يرويه الناس ، إلا أنها توافقها فى الجملة ، وتصدقها فى الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن النبيّ اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم، ومروية فى كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبيّ صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل فى شىء ما ، كلا ! إذ لو صح

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤٤ ] .

هذا لما قال تعالى [(١)] : ( إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ،وتبين لهم حقه من باطله. فلامنافاة بين تصديق القرآن لقصصهم فى الجملة ، ومخالفته لها فى بعض الجزئيات ـ كما قلنا ـ ويجوز أن يكون المراد بقوله: « تصديق الذى بين يديه » تصديق الحق الذى عندهم ، لا كلّ الذى عندهم ، وإلا لدخل فى ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها، مماجاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أى . تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغيّ إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبتغى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهُدًى » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون به ، ويعملون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعَقْدٌ وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

## خاتمة فى مباحث مهمة

الأول ـ فيما قيل فى وجوه العبر فى هذا القصص .

قال فى ( اللباب ) : الاعتبار والعبرة: الحالة التى يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكر . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجبّ بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد ﷺ، وإعلاء كلمته، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

(١) [ ٢٧ / النمل / ٧٦ ] .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، جمة الفائدة ؛ وجليلة العائدة ، تحدو بكل امرئ أبيّ إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر فى حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سريرته ، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة ، ولا سيّما فضيلة العفة والطهارة ، التى ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية. فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسنم ذروة المجد فى هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة فى الآخرة . انتهى.

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هذه السورة من جملة ما قص على النبىّ ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبت المشار إليه فى قوله تعالى[1] : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ . . .﴾ الآية . وإنما أفردت على حدتها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم فى سورة واحدة ، لمفارقة مضمونها تلك القصص. ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره ، وشتات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجبّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضرّ ، وقلة ذات اليد[2] ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ...﴾ الآية. ثم تداركهم الله بإلفهم ، وجمع شملهم ، وردّ بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزغ به الشيطان. وخلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبراءته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم انجرّ فى أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وشهادتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [ ١١ / هود / ١٢٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٨٨ ] .

ما أنجز في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ماذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وماجرى في أممهم ، فلهذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طيّ ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله[1] تعالى: ( وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ... ) إلى قوله : ( أَمْناً ) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم[2] : ( وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص ـ والله أعلم ـ .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلمته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمّل ذلك ! ويوضحه ختم السورة بقوله : ( حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . . ) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه ـ كذا في تفسير البرهان للبقاعيّ ملخصاً ـ .

وجاء في كتاب ( النظام والإسلام ) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله :

طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقي الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شعري ! ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [ ٢٤ / النور / ٥٥ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٠٣ ] .

المؤرخين . القصص فى كل أمة ، عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعية أم حقيقية ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب ( كليلة ودمنة ) ، وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الإسلام ، ككتاب ( فاكهة الخلفاء ) ، و ( مقامات الحريرىّ ) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهى ـ لا جرم ـ أعلى منالًا ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكمّل الخاصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها فى أنفسها ، لوقوع مواردها ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت فى سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر؟! ومالنا ولها إذن ؟ ! تالله إن هذا لهو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم ، وماسطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصّون فى خرافتهم ، فتلك سبيل حائد عن الجادّة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول [1] : ( سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبيّن الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) .

(١) [ ١٨ / الكهف / ٢٢ ] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلا على البرهان . تأمّل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولامعوّل عليها . فلا ترى قصة إلاوفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذّ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصدّيق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمرة . الا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له فى الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأمّلون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمّل فى قصة الإخوة ، وحديث القميص والجبّ والذئب والدم ، لتعلم ما نشاهده كلّ يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسيّ والخلق المرضيّ ، والجلال الظاهر على ملامحه. فيعيبونه بما يشينه فى نفسه أو عرضه أو خلقه، دلالة على أن هذه سنّة فى الكون لا تغادر نبيًّا ، ولا حكيماً ، ولا عالماً مهما حسنت أخلاقه، وجمل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها      إلّا عداوة مَن عاداك من حسد

جرت تلك السنّة فى الأناسيّ : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين ،وعادوا من آذاه ! ثم انظر فى حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عفّ مع الشباب، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه فى الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتّسم بالفضيلة ، فتوازى جماله الباطنيّ والظاهريّ . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع فى الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح ، التى تضمّنتها تلك القصّة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل فى كلام الحكماء ـ أولهم وآخرهم ـ

تجد إجماعهم على أنّ سياسة أخلاق النفس أوّلًا فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله !

بايع الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ الخليفة الأول ، فأخذ قماشاً وذراعاً وذهب إلى السوق فى الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضعت أهلى ، فأنا للمسلمين أضيَعُ ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر فى شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين ـ إذا ولّوا رجلًا إدارة بلادهم ـ أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبيّ يوسف الصدّيق كيف ذكرت فى الكتب السماوية ، ورتبت فى القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبنى الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة فى عنفوان الشباب مع الصديق . وليت شعرى ! كيف حفظَ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء فى وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم ، وعَبَدَ اللهَ وحده ، ونسى ما يراه من أبى الهول وأبيس والأرباب المتفرقة .. ؟ ! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كلّ جانب ، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون فى أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف فى أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ، فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كلّ جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله ، وبثّ عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم(١) : ( قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ... ) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] .

لمذهبهم ، وبغضه لأصنام المصريين ، ونحوهم ، فقال[1] : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ . . . ﴾ الآية . ثم أخذ يذكّرهم أنّ تفرّق وجهة الأمة ضلال فى السياسة، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال[2] : ﴿ يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تَسُدْ أمة فى الوجود إلّا برجالٍ يوحّدون وجهتها أيًّا كانت فيؤمّون مقصداً واحداً ! والتفصيل لا يخفى على أولى الألباب . . !

وفى ( آراء أهل المدينة الفاضلة ) للفارابى اثنتا عشرة جامعة بكلٍّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر. ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران ـ سياسة النفس والعشيرة ـ أخرج من السجن معظماً مبجلًا وترقى من تعليم الصعلوك فى السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يريهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبّر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف، وأرشدهم إلى خزن البُروسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هى المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكياسة فى علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إمّا بوحىٍ وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليمٍ وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكابر ، كما فى حديث[3] هرقل مع أبى سفيان ، وتعليم الصدّيق من فى السجن. فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣٩ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب الوحى ، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبى سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال فى سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة فى ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التى تتغير بها الأخلاق، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص!

وهذه قصة يوسف ـ الذى تربى فى مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة ـ جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصًا بالآخرة، بل فى الدارين[1] : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) .

هذه هى الأخلاق الفاضلة ، ذكرت فى التنزيل نموذجاً، فى غضون هذه السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيّعوا الزمن فى أصلها وموردها فى التاريخ كما يجمد المفسّر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر فى أولها[2] ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسّكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصغ إلى ما فى هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقا ، ولنزدك بيانا !

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينتظم أمر الأمة إلّا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق معهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًّا فله أربعون خصلة ذكروها. كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيساً فاضلا

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء فى سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدًى لاختيار الأكفاء فى مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هى أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر فى القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين ـ العاشقين للفضائل ـ على نفائس الكتاب العظيم ، وحبًّا فى نظرهم فى القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت مالم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنّى به ومجرّد اللهو واللعب .!

أهم ما شرطه الحكماء فى رئيس المدينة الفاضلة :

١ ـ العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية ( كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ )(١) .

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه ( قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ )(٢) .

٣ ـ وضع اللّين فى موضعه، والشدّة فى موضعها ( وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَلَا تَقْرَبُونِ )(٣) ، والصدر للين والعجز للشدة .

٤ ـ ثقته بنفسه ( اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ )(٤) .

٥ ـ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم ( وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ )(٥) .

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٢٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٧ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ٥٩و٦٠ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٥٥ ] .
(٥) [ ١٢ / يوسف / ٥٨ ] .

٦ – جودة المصوِّرة والقوة المخيِّلة حتى تأتى بالأشياء تامة الوضوح ( إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ )(١) .

٧ – استعداده للعلم ، وحبّه له،وتمكّنه منه ( وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ )(٢) ، ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ )(٣)،( رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ )(٤) .

٨ – شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : ( يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ... )(٥) الآية ، وحادثهما فى أمور دينهما ودنياها ، فالأول بقوله : ( لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ )(٦) ، والثانى بقوله : ( إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ... )(٧) الآية،وشهدا له بقولهما: ( إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )(٨) .

٩ – العفو مع القدرة (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )(٩) .

١٠ – إكرام العشيرة ( وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ )(١٠) .

١١ – قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣٨ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ٢٢ ]. (٤) [ ١٢ / يوسف / ١٠١ ] .
(٥) [ ١٢ / يوسف / ٣٩ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] .
(٧) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] . (٨) [ ١٢ / يوسف / ٣٦ ] .
(٩) [ ١٢ / يوسف / ٩٢ ] . (١٠) [ ١٢ / يوسف / ٩٣ ] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلّا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة ( فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ )[(١)] .

**١٢ ـ** حسن التدبير ( فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوه فِي سُنْبُلِهِ ... )[(٢)] الآية .

ثم تأمل فى اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان ( وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ... )[(٣)] الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ . . . . )[(٤)] الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم ( قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ )[(٥)] الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ )[(٦)] ، امتدح على حسن خطته فى السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم . وهذه ـ وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر ـ فهى أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء !

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعرى كيف يقول الله بعدها ( نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ )[(٧)] ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٧ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ٦٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .
(٥) [ ١٢ / يوسف / ٧٤ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .
(٧) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

وضوحها وبساطتها لذوى النظر السطحيّ والبُلْه الغُفَّل ، ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدبير هـذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ )(١) . وهذه : ـ وايم الله ـ هى بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف فى الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولا للبيوت من أبوابها ؛ ولـكن بينهم وبين هذا النبيّ بون بعيد . . . ! فانظر كيف تمطى هذه القصة هـذه الأمور العجيبة !

لعمرى ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحـكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحـكمة والوعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله فى أول السورة ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ )(٢) ، ويقول فى آخرها : ( ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ )(٣) ويقول : ( : قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ )(٤) ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغى له أن ييأس من روح الله فقال : ( حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . . )(٥) الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . . )(٦) الآية . وهذه ترشدك ـ إن كنت من ذوى الهمة العالية ـ أن

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ١٠٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ١٠٨ ] .
(٥) [ ١٢ / يوسف / ١١٠ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ١١١ ] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تعجل بالرآسة حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبيّ عليه السلام أياما وأياما ، ولبس للحوادث أثوابا وأثوابا ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارئ : سبحان من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبُح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر فى السموات والأرض فيعرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا فى السموات والأرض مما ذرأ المبدع فى الكون ، وتلا القرآن ـ وهو كلام مبدع الكون ـ وتلطف فى تصوير المعانى ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلا عن العامة ! فما للعامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبيّنون ؟ وما للناس لا يكادون يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاطاً لهمم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة ـ على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب فى هذه القصص فأعرض ! وجلىّ أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفى كل واحدة منها ما ليس فى الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء فى شجرة الحنظل مرًّا . فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة ، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها ،

ولـكن هذا أرقى مما قبله ـ فقد سار فى الطريق وهى الألفاظ ، ولـكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدَّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحثَ فيه ! وآخرون يسممون الآيات فيمرضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثـل هؤلاء فى سيرهم إلا كمثل رجل أوتى آلة بخارية ليسقى بهـا الحرث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفـكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب المـاء ؟ وإلى أى مسافة يرتفع ، وماالعلة فيه، ومن أين يأتى الفحم الحجرىّ ، وفى أى الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جـل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم ! وهذا ـ لعمر الله ـ انتـكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

## المبحث الثانى

احتج من جوز المعصية على الأنبياء ـ وهم الـكرّاميّة والباقلانىّ ـ بما جرى من إخوة يوسف وبيعهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخـــذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله فى ( الملل والنحل ) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاءَ قط ـ فى أنهم أنبياء ـ نصٌّ لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجمـاع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضى الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، قال عزوجل[1]: ( وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ

(١) [ ٤٠ / غافر / ٣٤ ] .

بِهِ . . إلى قوله ـ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن المظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين ـ أباهم وأخاهم ـ قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا ـ من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء ـ قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهم أنه قال لهم : ( أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً )[1] ولا يجوز البتة أن يقوله لنبيّ من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ! ؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكاناً ! وقد عقّ ابن نوحٍ أباه بأكثر مما عقّ به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحلّ لمسلم أن يُدخل فى الأنبياء مَنْ لم يأت نصّ ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوّته ! ولا فرق بين التصديق بنبوّة من ليس نبيًّا ، وبين التكذيب بنبوّة من صحّت نبوّته منهم ! فإن ذكروا فى ذلك ماروى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : ( إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبيّ بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء ! ) فهذه غفلة شديدة وزلّة عالمٍ ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها ـ أنه لو كان ماذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم فى المهد كما نُبّئ عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحي الحكم صبيًّا ؛ فعلى هذا القول لعلّ إبراهيم كان نبيًّا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا ..!

وثالثها : أن ولد نوح كان كافراً بنصّ القرآن: عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا ، وحاشا لله من هذا ..!

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بدّ أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكلّ من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٧ ] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . .. أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفى هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه ـ مالا خفاء به. وبالله تعالى التوفيق . . !

ثم قال ابن حزم .

وذكروا ـ يعنى الكرّامية ومن وافقهم ـ أيضاً أَخْذَ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيحاشَه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدّة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقاسى به من الوجد عليه، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلّا عشر ليال ! وبإدخاله صواع الملك فى وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف[1] ( أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى[2] ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذى كان معه فى السجن[3] ( اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ )

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم فى شئ منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك فى أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم فى مملكة أخرى، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذى أوتى العلم والمعرفة بالتأويل ـ إلّا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّ بخلاف ما ذكرنا. ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنّهم ـ أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل ـ فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب فى أرض كنعان من عمل فلسطين ، فى قومٍ رحّالين خصاصين فى لسان

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٤ ] .

(٣) [ ١٢ / يوسف / ٤٢ ] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بعد فراقه أباه بما فعل ، ولا حيّ هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبئهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذى ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملّة واحدة ، ولسانا واحدا وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبُرُد ناهضة وراجعة ، فظنّ كلّ بيضاء شحمة[1] ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كما قدمنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذى كان عمّ الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانتظر وعد ربّه تعالى الذى وعده حين ألقوه فى الجبّ فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى فى رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذى كان قد أدخله فى وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال[2] : ( نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ) وهو فى ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفى حقٍّ لاستنقاذ الله تعالى بحسن تدبيره ، ولعل الملك أو بعض خواصّه قد آمن به إلّا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مرية فى أن ذلك كان مباحًا فى شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى[3] : ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً فى شريعتهما بل كان فعلًا حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل ( ما كلّ بيضاء شحمةً ، ولا كل سوداء تمرةً ) انظر : أمثال الميدانى ، بالصفحة ١٥٦ من الجزء الثانى ( المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ )

(٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٢ ] . (٣) [ ٥ / المائدة / ٤٨ ] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلّا أن الذى لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل وإنما كان سجود كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذى كان معه فى السجن[١] ( اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ) فما علمنا الرغبة فى الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس فى قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عزّ وجلّ . لكنه رغّب هذا الذى كان معه فى السجن فى فعل الخير وحضّه عليه ! وهذا فرضٌ من وجهين : أحدهما وجوب السعى فى كفّ الظلم عنه ، والثانى : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى[٢] ( فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ) فالضمير الذى فى ( أنساه ) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذى كان معه فى السجن ، أى : أن الشيطان أنساه أن يُذَكِّرَ ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجلّ لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عزّ وجلّ[٣] ( وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) فصحّ يقيناً أن الذّكّر بعد أمة هو الذى أنساه الشيطان ذكر ربّه حتى تذكّر . وحتى لو صحّ أن الضمير من ( أنساه ) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان فى ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء ! وأما قوله[٤] ( هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) فليس كما ظنّ من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال: (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة ) ومعاذ الله من هذا أن يظنّ برجل من صالحى المسلمين أو مستوريهم! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة فى قول أحدٍ إلّا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم فى تلك الرواية إنما هى بلا شك عمّن دون ابن عباس ، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذْ إنّما أخذه عمن لا يدرى من هو ، ولا شك فى أنه شىء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤٢ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٢ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] . (٤) [ ٢٢ / يوسف / ٢٤ ] .

كما قال تعالى[١] ( وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ) وكما يقول القائل: لقد هممت بك، لـكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها. وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ماظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص. والوجه الثاني : أن الـكلام تمّ عند قوله ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال ( وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) وهذا ظاهر الآية بلا تـكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوّة وعصمة الله عزّوجلّ إياه . ولولا البرهان لـكان يهم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك. وقد خشى النبيّ ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأنصاريين حين لقيهما: هذه صفية[٢] ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى[٣] ( كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ) ! فنسأل من خالفنا عن الهمّ بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلابدّ أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذ هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهمّ بيقين ! وأيضاً فإنها قالت[٤] ( مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ) وأنـكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق[٥] ( إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) فصحّ أنها كذبت بنص القرآن ، وإذ كذبت بنصّ القرآن فما أراد بها قط سوءًا ، فما همّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لـكانت من الصادقين ، وهذا بيّن جدًّا ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال[٦] ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ) فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برمّته لأنه كما قيل :

( وما محاسن شيء كله حسن .. !! )

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥ ]. (٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٣ ـ كتاب الاعتـكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتـكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث ١٠٣١. (٣) [ ١٢/يوسف/٢٤]. (٤) [ ١٢/يوسف/٣٥] . (٥) [ ١٢/يوسف/٢٦]. (٦) [ ١٢/يوسف/٣٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٣ - سورة الرعد

سمّيت به لما فيها من قوله عز وجلّ[١] ( وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ) الدالّ على الصفات السلبية والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن ـ قاله المهايميّ .

وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنيـة إلّا قوله[٢] ( وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . ) الآية . ويقال : من أوّلها إلى آخر[٣] ( وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ) مدنىّ وباقيها مكىّ . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .

(١) [ ١٣ / الرعد / ١٣ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] . (٣) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓر، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الٓمٓر » اسم للسورة ، ومحله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فـ ( تلك ) مبتدأ كما إذا جعل ( المر ) مسروداً على نمط التعديد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « ءَايَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب العجيب الكامل الغنىّ عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذ . وقوله تعالى « وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكماله « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنىّ للمفعول ، والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزَل التابعة لشأن جلالة المنزِل وتشريف المنزَل إليه ، والإيماء إلى وجه الخبر ـ ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

فى ( الَّذِى أُنْزِلَ ) وجهان : أحدهما هو فى موضع رفع ، و ( الْحَقُّ ) خبره ، أو الخبر ( مِنْ رَبِّكَ ) و ( الْحَقُّ ) خبرُ محذوفٍ ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالعطف على ( الْكِتَابِ ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو فى الصفة ، و( الْحَقُّ ) خبرُ محذوفٍ ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو فى الصفات. وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق، أى الجمع والاتصال. لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة، وتفيد أنّ اتصافه به أمر ثابت. وقوله تعالى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى[1] ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ )

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بقدرته رفع السموات ، أى خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أى أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إمّا استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ ترانى * أو صفة لـ ( عَمَدٍ ) جىء بها إيهاماً؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجّح ابن كثير

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٠٣ ] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى[١] ( وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) والأكمل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمَرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفليّ . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى[٢] ( وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ) وقد بيّن ذلك في قوله تعالى[٣] ( إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ) ( وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ )[٤] والاقتصار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى[٥] ( وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلويّ والسفليّ ويصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن عن شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » يعني : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعوته الجليلة . أى يبيّنها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » أى : لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبّر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء ؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٦٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٣٨ ] (٣) [ ٨١ / التكوير / ١ ] .
(٤) [ ٨٢ / الانفطار / ٢ ] . (٥) [ ٧ / الأعراف / ٥٤ ] .

## لطائف

الأولى ـ جُوِّزَ فى قوله تعالى ( اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر ( يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ) . ورجّح فى ( الكشف ) الأول ، بأن قوله الآتى[1] ( وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات. وفى المقابل الخبرية متعينة ، فكذا هذا ليتوافقا . والجملة مقررة لقوله[2] ( وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جعله وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبرا مفصلا ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : ( لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ) . فالمعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية ـ قال القاضى : قوله تعالى ( رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ ... الخ ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها فى حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لابدّ وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسمانى ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة ـ ( يدبّر ) و ( يفصّل ) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنفان . أو الأول حال من ضمير ( سخّر ) والثانى من ضمير ( يدبّر ) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة .

ولما قرر الشواهد العلوية ، أردفها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى:

---

(١) [ ١٣ / الرعد / ٣ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسعة ممتدّة فى الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطيح الأرض وأنها غير كريّة بالفعل . وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها وردّ بأنه ثبت كريّتها بأدلةٍ عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطرٍ منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريّتها إلّا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَاراً » متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبستانىّ والجبلىّ ...

قال المهايمىّ : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضارّ متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف، وبالآخر الربيع « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى : فى مدّ الأرض وما بعده « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى لآيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بدّ له من قادرٍ حكيم ! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة المنعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبّر ذلك لمعايشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

## لطائف :

الأولى ـ قال الرازىّ : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض. وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة. ثم إنها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . فى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله(1) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ .

الثانية ـ أشار الرازىّ إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولًا من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة ـ فى قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً ـ بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول ـ فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشى . وعدّ هذا فى تضاعيف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً ـ باعتبار أن ظهوره فى الأرض ـ

(1) [ ٧٧ / المرسلات / ٢٧ ] .

فإن الليل إنما هو ظلها . وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلًا . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .

وقرئ ( يغشّى ) من التغشية ـ أفاده أبو السعود .

ثم بيّن تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أي : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيّبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادرٍ مدبرٍ مريد حكيمٍ في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهي نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفي ( القاموس ) النخلتان ، فما زاد في الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو . ويضمّ أو عامّ في جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر في الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتيّة والفوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أي : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » فتتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحبّ . والمجرور إما ظرف لـ ( نفضل ) أو حال من بعضها ، أي : نفضل بعضها مأكولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أي : الذي فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَر على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها حدائق ذات بهجة ـ قادرٌ على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون في القياس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبيّ ﷺ ، أى : إن تعجب من شيء فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما عدّد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرةٍ يصغر عندها كل عظيم ـ أيقن بأن مَنْ قدر على إنشائها ولم يعى بخلقها ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره. فـكان إنـكارهم أعجوبة من الأعاجيب . وجوز أن يكون خطـاباً لـكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا مَنْ نظر فى هذه الآيات ، وعلم قدرة مَن هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر، مع هذا، قدرته على البعث، وهو أهون من هذه !

قال أبو السعود : والأنسب بقوله[١] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .

وقوله تعالى « أُولَٰئِكَ » أى المنكرون لقدرته على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ » أى : تمادوا فى الـكفر ؛ فإن من أنـكر قدرته تعالى فقد أنـكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً، وفيه تـكذيب لخبره ولرسله عليهم السلام «وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» أى : السلاسل فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلّوا أفـكارهم عن النظر فى هذه الأمور كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحـكيم . « وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

---

(١) [ ١٣ / الرعد / ٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أنّ سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فمالهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التى يضرب بها المثل فى الشدة . والجملة حالية أومستأنفة. و(المثلات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مَثُلَة ـ كسمرة وسمرات ـ وهى العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة كقوله ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ) ، أو هى مأخوذة من المثال بمعنى القصاص . يقال : أمثلته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها. وقرئ بفتح الميم وسكون المثلثة، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » من الناس مَن حمل المغفرة على المتعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلّا حيث دلّ الدليل على التقييد فى غير الموحِّد فإن ظلمه ـ أعنى شركه ـ لا يغفر . . وما عدا الشرك فغفرانه فى المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوىّ . وهو السّتر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه[١] : ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازيّ في دعواه ( إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولاستعمال القرآن . وللزومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة ) ولا يخفاك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراده الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولاستعمال القرآن ، تحكّم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّلوه . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد اللزوم وتهويل خطبه ـ فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالتلازم صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ... ) الخ . فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطّنْ ولا تكن أسير التقليد ..!

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه ، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه: « وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » أي : لمن شاء ، كما قال تعالى[٢] : ( فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ) . وقال تعالى[٣] : ( إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) وقال سبحانه[٤] : ( نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٤٥ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٤٧ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٦٧ ] . (٤) [ ١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ )

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًّا لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخرّ لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لهـا رأسا ولم يعدّوها من جنس الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ، وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلّا البلاغ،لا إجابة المقترحات ! « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى: نبىّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التى تناسب زمنه كقوله تعالى[١] : ( وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعاً من الرسل . فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله،عليهم السلام؛أو المعنى: لكل قوم هاد عظيم الشأن ،قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه ، فما عليك إلّا إنذارهم لاهدايتهم . وإبقاؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود . فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى[٢]:( لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ)؛ أو المعنى : ( لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) قائد يهديهم إلى الرشد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٢٤ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٧٢ ] .

لا يفيد إنزالها هداية ! قال تعالى (١) : ( وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ) ( وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ) (٢) مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! ( سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ) (٣) .

قال الشهاب : وجوّز عطف ( هادٍ ) على ( منذر ) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته. وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر ، أي :وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ )

[٩] ( عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ )

« اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجتهم فلعلّهم يهتدون بأنه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فعّال لما تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن ( الهادى ) بمعنى ( الداعى إلى الحق ) .

وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله ( هَادٍ ) أو مقررة مؤكدة لذلك ـ كذا في ( العناية ) .

وأشار الرازىّ إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقتراحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلّا عنادًا ، فلذا لم يجابوا

---

(١) [ ١٧ / الإسراء/ ٥٩ ] .(٢) [ ٦ الأنعام/١٠٩ ] .(٣) [ ٣٣/ الأحزاب/٦٢ ] .

إليه . وإما متصلة بقوله ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ) يعني : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ ( ما ) في قوله تعالى ( مَا تَحْمِلُ ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة .

« وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أى : تأخذه زائدًا .

قال الزمخشرىّ : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشتمل على واحد . وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة فى بطن أمه ، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًّا ومخدجًا . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر . وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقلّ ويكثر .

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أى : بقدر وحدّ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى [1] : ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) وقوله [2] ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ) وذلك أنه تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهيأ لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضى ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهده الحس «الْكَبِيرُ » أى العظيم الشأن الذى كل شيء دونه « الْمُتَعَالِ » أى المستعلى على كل شيء بقدرته . أو المنزّه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القرّاء على حذف ياء ( الْمُتَعَالِ ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما على الأصل .

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ٤٩ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ )

« سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى: طالب الخفاء فى مختبأ بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سربه ، أى فى طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن ( سواء ) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان ( سارب ) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن ( سارب) معطوف على ( من هو )لا على (مستخفٍ) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و ( الثانى ) أنه عطف على ( مستخف ) . إلا أن ( من ) فى معنى الاثنين كقوله[١] :

* نكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَان *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين ( من ) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية؛ والمعنى :ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذفُ الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَعَشَّ . فإن واثقتَنِى لا تَخُوننى نَكُنْ مِثلَ مَنْ ، ياذئبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وأطْلَسَ عَسَّالٍ وما كان صاحباً دعـوتُ بنارى مَوْهِناً فأتَانِى

تكرر الموصول فى الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى[١] (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفى دخيلا فى غير موضعه . لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة فى صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفى موقع ؛ وإنما صحب فى الأول الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضى الله عنه[٢] :

فَمَنْ يَهْجُو رسول اللهِ منكم ... ويمدحُهُ وينصرُه سَوَاء !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر فى (الانتصاف) وهو وجيه جدًّا . وأما تضعيف غيره له ، بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النحاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن اجتماعهما منكر ـ فهو المنكر . لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم فى كل فنٍّ ومحجّة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها ـ من التعصّب واللجاج ، والغفلة عن مقام التنزيل فى الاحتجاج !

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقِّبَاتٌ » أى : لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

---

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٩ ] . (٢) من قصيدته التى يهجو بها أبا سفيان . ومطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلُهَا خَلَاء

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بريد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعمـــاله ، ما قدم وأخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شرًّا ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ ( من ) تعليلية أو بمعنى باء السببيّة . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى ( الصحيح )[1] : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون .

وفى الحديث الآخر[2] : إن معكم من لا يفارقكم إلّا عند الخلاء ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرموهم !

و ( المعقبات ) جمع معقبة من ( عقّب ) مبالغة فى ( عقَب ) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الفاعل، لا للتعدية . لأن ثلاثيّه متعدّ بنفسه . وأصل معنى ( العقب ) مؤخر الرِّجْل . ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب: عقبه إذا تلاه . نحو دَبَرَهُ وَقَفَاهُ وقيل: هو من( اعتقب )أدغمت التاء فى القاف؛ وردّوه بأن التاء لا تدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف: إن القاف والكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرهما . والتاء فى ( معقبة ) واحدة ( المعقبات ) للمبالغة لا للتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ ـ باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافظة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ ( طبعتنا ) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يدىّ من أصول السنّة .

أو هى صفة جماعة وطائفة . و ( مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ) ظرف مستقر صفة ( مُعَقِّبَاتٌ ) أو ظرف لغو متعلق بها . و ( مِنْ ) لابتداء الغاية أو حال من الضمير الذى فى الظرف الواقع خبراً . والـكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله ( وَمِنْ خَلْفِهِ ). ويجوز أن يكون ظرفاً لـ ( يَحْفَظُونَهُ ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، أى تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون ( يَحْفَظُونَهُ ) صفة لـ ( مُعَقِّبَاتٌ ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

## تنبيهات :

الأول ـ ما قدمناه فى معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذى له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشرىّ : أى يحفظونه فى توهمه وتقديره، من أمر الله . أى من قضاياه ونوازله. أو على التهـكم به .

قال الرازىّ : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهانىّ . والمعنى : أنه يستوى فى علم الله تعالى السرّ والجهر ، والمستخفى بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت اللهَ أمره ، ومن سار نهـــاراً بالمعقبات ـ وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه ـ لم ينجه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بدّ أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخلِّص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والـكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المـكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يعوّلوا فى دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد : ( وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . . ) الآية .

الثاني : قدمنا أنّ الضمير في ( لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ) لمن أسرّ أوجهر . . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده ( لمنْ ) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داعٍ . وقيل : الضمير ( لمن ) الأخير ، وقيل : للنبيّ لأنه معلوم من السياق .

الثالث ـ أشار الرازيّ في معنى الآية الأشهر إلى سرّ اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخّصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يعتقد جلالة الملائكة وعلوّ مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظّمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردعُ أكمل . !

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أي : من العافية والنعمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » أي : من الأعمال الصالحة أو ملكاتها ، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أي : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أي : فلا ردّ لقضائه فيهم « وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ » أي : يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ـ أفاده أبو السعود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسنته القويمة ، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرّق كلمتهم ، ويوهي قوّتهم ، ويسلط عدوّهم !

وفى حديث قدسىّ عند ابن أبى حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحوّلون منها إلى معصية الله ، إلّا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .

ولابن أبى شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت، كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلّا تحوّلت لهم عما يكرهون من عذابى، إلى مايحبون من رحمتى.

وقال القاشانىّ : لابدّ فى تغيير النعم إلى النقم ، من استحقاق جلىٍّ أو خفىٍّ .

وعن بعض السلف : إن الفارة مزّقت خُفِّى . وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله علىّ ! وتمثّل بقول الشاعر [١] :

* لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلِى *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام فى ذلك ، الإمامُ مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث الدين الإسلامىّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالَم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلٰهية التى قدّرها الله فى علمه الأزلىّ . لا يغيّرها شىء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل ينبغى أن يحيي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبىّ ﷺ [٢] : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

---

(١) هذا مطلع الحماسية الأولى وعجزه :

* بَنُو اللَّقِيطَةِ من ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا *

وقائله بعض شعراء بلعنبر ، واسمه قُرَيْط بن أُنَيْف .

قال المرزوقىّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيًّا لم تُغِرْ بنو اللقيطة على إبلى .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ١٦ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب الصدقة فى الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ) وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد. لا يقضى فيه إلّا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها. ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزؤن بها. ففصل بين الأمرين ( الأشخاص والأمم ) فصلًا لا مجال معه للخلط بينهما .

فأما النعم التى يمتّعُ الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ماأعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى! وكثيراً ماامتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبّروا عن إخلاصهم فى التسليم بقوله : ( إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) ! فلا غضب زيدٍ ، ولا رضا عمروٍ ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا، ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهمّ إلّا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم . وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب . والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

---

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم فى : ١٠ ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب ذكر عذاب القبر فى صلاة الخسوف ، حديث رقم ٨ ( طبعتنا ) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البرّ ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة[1] ( وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيهـــا . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل[2] الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون[3] ( وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر[4] ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) ( سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا )[5] . . ! وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه[6] . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . . !

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٤٥ ] . (٢) الصواب فى استعمال الاستبدال والتبدّل ، أن تقرن الباء بالمبدّل منه ( حاشية الطبعة الرابعة عشرة ) . (٣) [ ١٧ / الإسراء / ١٦ ] .

(٤) [١٣ / الرعد / ١١ ] . (٥) [٣٣/ الأحزاب/٦٢ ] .

(٦) جاء فى (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذى رواه البخارىّ ؛ أن عمر بن الخطاب، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ .

قال الشوكانىّ : وقد بيّن الزبير بن بكّار، فى الأنساب، صفة مادعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ .

انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ، الطبعة الثانية ) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماضٍ فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً ..!

ولما خوّف تعالى العباد بإنزال مالا مردّ له ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله . فقال سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ )

[١٣] ( وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ )

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً » أى من الصواعق « وَطَمَعاً » أى بالمطر أن يحيي النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أى: يضجون بـ ( سبحان الله والحمد لله ) فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازيًّا للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى دلالته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقته والتجوّز فى التسبيح والتحميد. إذ شبه دلالته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظىّ . ودلالته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازىّ: الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص. والتسبيح والتقديس ومايجرى مجراهما، ليس إلّا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً. وهو معنى قوله تعالى[1] ( وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أي : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أي : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » يعني الكفرة المخاطبين في قوله تعالى ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ) وقد التفت إلى الغيبة إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين . أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى ، و ( هم ) أي الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم، يجادلون في شأنه تعالى، بإنكار البعث واستعجال العذاب، استهزاء واقتراح الآيات . فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ) أفاده أبو السعود .

أي : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية. وأنتم تجادلون فيه و ( الجدال ) أشد الخصومة، من ( الجدل ) بالسكون ـ وهو فتل الحبل ونحوه، لأنه يقوى به وتشتد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أي : والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة والمكايدة لأعدائه . يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من ( محَلَهُ ) إذا كاده وعرّضه للهلاك ، ومنه ( تمحّل لكذا ) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبيه :

ذكر في العلم الطبيعيّ : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموّجات السحب

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٤٤ ] .

ومصادمتها لبعضها : فيحصل فى الهواء اهتزاز قوىّ ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب، يطول سماعنا الصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة، فقد تمت نتائج الصاعقة. فمتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمِن ضررها . فإن لم يمض بينهما شىء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق فى آن واحد، أمكن أن يصاب بالصاعقة فى مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهربائية إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هى البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعقت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازىّ الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت فى العلم الطبيعىّ بما يدفع المنافاة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالعاقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ )

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره. لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .

وفيها إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى، فى عدم النفع والجدوى بقوله: « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى: الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مدّ يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمأه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، جمادٌ لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ! والغرض نفى الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم ، أخيب ما يكون أحد فى سعيه لما هو مضطر إليه فضلًا عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آلهتهم ـ حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار فى عدم الشعور فضلًا عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك فى الخسران ـ بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة ظمأ وشدة خسران! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلىّ فى الأصل ، أبرز فى معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة فى التخسير والتحسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر، أى: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير فى ( هو ) للماء و ( بالغه ) للفم ، وقيل : الأول للباسط والثانى للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما فى قوله[1] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أناملُهُ

« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم « إِلَّا فِى ضَلَالٍ » أى : فى ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ )

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملإ الأعلى والأسفل ، طائعين وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والفىء

---

(١) رواية البيت هكذا :

. . . . . . . . . . ثناها لقبضٍ لم تُطِعْهُ أناملُهْ

انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ ( طبعة بيروت ) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى ( طبعة المعارف ) .

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أجلْ أيها الربعُ الذى خفَّ آهلُهُ لقد أدركت فيك النوى ما تحاولُهُ

يمدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال! وقوله « بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى ( فى ) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأبيد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو بقال التخصيص لأن امتدادها وتقلصها فيهما أظهر . هذا ماجرى عليه الأكثر فى معنى ( السجود ) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسلاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى ( تنوير الاقتباس ) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجعل ( طوعاً وكرهاً ) نشراً على ترتيب اللف . قال ( طوعاً ) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و ( كرها ) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال ( طوعاً ) لأهل الإخلاص و ( كرهاً ) لأهل النفاق . ثم قال : ( وظلالهم ) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى ( وَكَرْهاً ) يخصون السجود به سبحانه. قال تعالى[1] ( فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى. كما قاله ابن الأنبارىّ . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها. وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

---

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٥ ] .

وهذه الآية كقوله تعالى[١] ( وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وقوله[٢] : ( أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ... ) لآية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة ـ كذا في ( اللباب ) .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ )

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي خالقهما « قُلِ اللهُ » أمرٌ بالجواب من قِبَلِهِ عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعينه للجواب ، فهو والخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أي : إلزاماً لهم وتبكيتاً « أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أي : أبعد أن علمتموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشريّ .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أي : لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم! فإذن عبادتهم محض العبث والسفه ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لما بيّن ضلالهم وفساد

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ٨٣ ] .   (٢) [ ١٦ / النحل / ٤٨ ] .

رأيهم فى الحجة المذكورة، بيّن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير ، والجهل بمثلها كالظلمات ، والعلم بها كالنور ! وكما أن كلّ أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله: « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ(شركاء) داخلة فى حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفى قوله تعالى : ( خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ) فى سياق الإنكار ، تهكّم بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى فى الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء فى قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار تأكيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق ، فلا يكون له شريك فى العبادة! «وَهُوَ الْوَاحِدُ» أى . المتوحد بالربوبية «الْقَهَّارُ» الذى لا يغالَب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ )

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها فى الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : فحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عاليا على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك فى النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالأوانى وآلات الحرب والحرث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكير « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما، أى : إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما ، مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقذوفا مرميا به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعا به « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

## تنبيهات

الأول ـ قدمنا أن هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما . فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به فى صوغ الحلىّ منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة ، وأن ذلك ماكث فى الأرض باقٍ بقاء ظاهرا . يثبت الماء فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ؛ وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبدالسيل وخبث المعدن . فإنه ـ وإن علا وارتفع وانتفخ ـ إلا أنه أخيرا يضمحلّ ؛

وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنهـا فى الآخرة تبطل وتضمحلّ وتزول ، ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شىء من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثانى ـ قوله تعالى ( بِقَدَرِهَا ) صفة ( أودية ) ، أو متعلق بـ(سالت ) أو ( أنزل ) . وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علىّ والأشهب وأبو عمرو ، فى رواية ، بسكونها.

الثالث ـ قوله تعالى ( احْتَمَل ) بمعنى حمل ، فالمزيد بمعنى المجرد ـ كذا قيل . ويظهر لى: أن إيثاره عليه لزيادةٍ فى معناه ، وقوة فى مبناه !

الرابع ـ الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبـال أو تلال أو آكام . والإسنـاد إليه مجاز عقلىّ ، كما فى ( جرى النهر ) .

قال السمين : وإنما نـكّر الأودية وعرّف السيل ، لأن المطر ينزل فى البقاع على المناوبة فيسيل فى بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو ( فسالت ) ، وهو لو ذكر لـكان نـكرة . فلما أعيد أُعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلا فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبى حيان حيث قال: عرّف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل . والذى يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نـكرة ، إلّا أنه إذا عاد فى الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نـكرة . وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو :من كذب كان شرًّا له ، أى الـكذب . ولو جاء هنا مضمراً لـكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت). وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعرّف عين ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تـكلف ـ كما قيل ـ لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر. سواء كان حقيقيًّا أو مجازيًّا ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكروه أغلبيّ لا مختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

* أخت الغزالة إشراقاً وملتفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله ( أودية ) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس ـ قوله تعالى ( وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد ) مبتدأ قدم عليه خبره ، و ( مِن ) فى ( ممّا ) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض أى : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخلّ بالتمثيل. وقوله ( فِي النَّارِ ) صفة مؤسسة ؛ لأن الوقد عليه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إشعار بالمبالغة فى الاعتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ ..) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به، المشعر بأنه كالحطب الخسيس ، وصوّره بحالة هى أحط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرب مثلًا للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله ( ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ) فوفّى كلًّا من المقامين حقه .

السادس ـ قدمنا أن قوله تعالى ( كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ) على حذف مضاف ، أى مثلهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به. كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ! .

السابع : بدأ بالزبد فى البيان فى قوله ( فَأَمَّا الزَّبَدُ ) وهو متأخر فى الكلام السابق ، لأن فى التقسيم يبدأ بالمؤخر كما فى قوله[1] ( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ . . . ) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أوّلا ، وغيره باقٍ متأخر فى الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصّله الطيبىّ ـ كذا فى ( العناية )

الثامن ـ قوله تعالى ( كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله ( كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ) إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول ، أو بجعل ذلك إشارة إليهما ـ كذا فى أبى السعود .

التاسع ـ أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية فى التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْن ـ نارىّ ومائىّ ـ وهو قوله[2] ( مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ . . . ) الآية ، ثم قال[3] ( أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . ) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مَثَلَيْن أحدهما قوله[4] ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ... ) الآية ، والسراب إنما يكون فى شدة الحرّ ؛ ولهذا جاء فى ( الصحيحين )[5] : ( فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون؟ أى ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال: ألا تَرِدُونَ ؟ فيَرِدُونَ

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٠٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٧ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ١٩ ] . (٤) [ ٢٤ / النور / ٣٩ ] .
(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ باب إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .
وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ ( طبعتنا ) .

النار، فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً ) . ثم قال تعالى فى المثل الآخر [١] ( أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ . . . ) الآية . وفى ( الصحيحين ) [٢] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا . وأصابت طائفة منها أخرى. إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ! فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفى ( مسند الإمام أحمد ) [٣] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلى ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلمّ عن النار ! فتغلبونى فَتَقَحَّمُونَ فيها . . . وأخرجاه فى ( الصحيحين ) [٤] أيضاً . فهذا مثل نارىّ . انتهى .

ولمّا بيّن سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيبًا وترهيبًا ، بقوله :

---

(١) [ ٢٤ / النور / ٤٠ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلَّم ، حديث ٦٨.
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) .
والحديث رقم ٧٣١٨ ( طبعة المعارف ) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٦ ـ باب الانتهاء عن المعاصى ، حديث رقم ١٦١٠ .
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ )

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله، والمثوبةُ الحسنى كما قال تعالى[١] : ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ )فالحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال، ليتخلّصوا عما بهم. وفيه من تهويل مايلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى: المستقر . وفى قوله ( وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانفهامها من مقابلتها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ )

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدّق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقبيح حاله فعبّر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْبَابِ » أى : العقول المبرّأة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٢٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠] ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ » أى : مما كلفهم بـه « وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أى : ماوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهوتعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحامهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذبّ عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكفّ الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يعملون له أو يخافون وعيده فلايعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى[1] : ( ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... )الآية، أويتبعون

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٩٦ ] .

السيئة الحسنة لتمحوها « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » أى: عاقبة الدنيا وهى الجنة لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للعهد .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ )

[٢٤] ( سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ )

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحّد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

وأصله للزجّاج حيث قال : بيّن تعالى أنّ الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلّا بالأعمال الصالحة .

وقرئ ـ شاذًّا ـ بضم لام ( صَلُح ) . قال الزمخشرىّ : والفتح أفصح .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بيّن تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ )

« وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » أي : عذاب جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى [١] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتنكير (متاع) للتقليل كما في آية [٢] (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال [٣] : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم [٤] : (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يمهل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب مِنْ مِثْلِهِ ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . . ! ولكنهم قوم

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٧٧ ] .
(٣) [ ٨٧ / الأعلى / ١٦ و١٧ ] . (٤) [ ٢١ / الأنبياء / ٥ ] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاغ الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : ( قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أي يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله، ويدعه منهمكاً فيه. لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة، والعناد، والغلوّ في الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : ( وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ) أي: أقبل إلى الحق وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابةِ الدخولُ في نوبة الخير. وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة ، كما في الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها، والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتوّ والعناد . وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .

وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ )

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » بدل من ( من أناب ) أي : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أي تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أي : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاءً منه؛ وقدر بعضهم مضافاً . أي بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

( بذكر الله ) القرآن، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى (١) : ( وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ) وقال سبحانه : (٢) : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) لأنه آية بيّنة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله (٣) : ( لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ) أى : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين. قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ )

« الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ » الموصول إما مبتدأ (وطوبى لهم ) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمحذوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجملة ( طوبى لهم ) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشريّ : ( طوبى ) مصدر من ( طاب ) كبشرى وزلفى ، ومعنى ( طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحلها النصب أو الرفع . كقولك طيباً لك وطيب لك ، وسلاما لك وسلام لك . والقراءة فى قوله ( وحسن مآب ) بالرفع والنصب تدلك على محليها ، واللام فى ( لهم ) للبيان مثلها فى ( سقياً لك ) ، والواو فى ( طوبى ) منقلبة عن ياء ، لضمة ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبًى لهم بالتنوين .

قال القاسى : ومن نوّن ( طوبى ) جعله مصدراً بغير ألف كسقيا وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى ( لسان العرب ) عن قتادة ؛ أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطَّوْدَ بالقُرى ... ورِسْلًا بيَقْطِينِ العراقِ وفُومِهَا

الرسل اللبن ، والطود : الجبل ، والفوم : الخبز والحنطة ـ كذا فى ( تاج العروس ) .

(١) [ ٢١ / الأنبياء/٥٠ ] . (٢) [ ١٥ الحجر/٩ ] . (٣) [ ١٠/يونس ٢٠ ].

[٣٠] ( كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ )

« كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى: لتبلغهم هذا الوحى العظيم والذكر الحكيم، كما بلّغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى : يكفرون بالبليغ الرحمة، الذى وسعت رحمته كل شىء والعدول إلى المظهر الدال على الرحمة، إشارة إلى أن الإرسال ناشىء منها ، كما قال تعالى(١) ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ) وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحى الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية(٢) أن يكتبوا ( بسم الله الرحمن الرحيم ) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم؟ كما فى الصحيح. وقد قال تعالى(٣) ( قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ) . وفى ( صحيح مسلم )(٤) عن ابن عمر مرفوعا : ( أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحى وتفضيله على ما سواه بقوله :

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٧ ] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و٨٨٢ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان، وهو حديث طويل جامع، فلا يفتك الاطلاع عليه . ففيه غنم كبير . (٣) [ ١٧ / الإسراء / ١١٠ ] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ )

« وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا » أى قرآنًا مّا « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإنزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارّها ، وزعزعت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شققت حتى تتصدع وتصير قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى : لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية فى الهداية والتذكير، ونهاية فى الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلىّ ولم يعدوه من قبيل الآيات . فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب ( لما آمنوا به ) كقوله :(١)( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ . . . ) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ )وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بعضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى ( كلم ) لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته ( لو ) من معنى النفى ، أى : لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان هذا القرآنَ .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١١ ] .

ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ماشرح . أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى أبى السعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » أى: أفلم يعلم ويتبيّن كقوله[١] :

أَلَمْ يَيْأَسِ الأقوامُ أَنِّى أنا ابْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أَرْضِ العَشيرَةِ نائِيَا

وقوله[٢] :

أقول لهم بالشِّعْب إذ يَيْسِرُونَنى ... ألم تَيْأَسُوا أَنِّى ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

أى : ألم تعلموا ! وييسروننى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأسروننى من (الأسر) . أى : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم، لأن الأمر له. ولكن قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه. وعدم بيانه لتهويله أو استهجانه. والقارعة : الداهية التى تقرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .
ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و٢٩١ ( طبعتنا ) .
(٢) انظر مجاز القرآن، لأبى عبيدة، الصفحة رقم ٣٣٢ من الجزء الأول، والبيت رقم ٣٨٣.
وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبى الثانية ).
وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلُّ » أى : تلك القارعة « قَرِيباً » أى : مكانا قريباً « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها « حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ » أى : فتح مكة « إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (١) : ( فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ) وفى الآيةوجه آخر، وهو حمل ( الذين كفروا ) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، تصيبهم القوارع فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣): ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ )

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : أمهلتهم وتركتهم ملاوةً من الزمن،فى أمن ودَعَةٍ ، كما يملى للبهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

---

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٧ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٧ ] .
(٣) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ، لأن القائم على الشىء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه ـ إذا علمه فلم يخف عليه شىء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ـ وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله: « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكيت لهم إثر تبكيت، أى: سموهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لا حقيقة لهم ! أوصفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ؟

وقال الرازىّ : إنما يقال ذلك فى الأمر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أخسّ من يسمّى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أولم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شىء مما كان ومما يكون ، فهم لا حقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفى أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

مجيء النفي على هذا السَّنَن المتلوّ بديعٌ لا تكتنفه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلّى بهذا التصريف البديع لكان :وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء. فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أي : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنجيّ كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى (١) : ( ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ) . ( مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ) (٢) وعن الضحاك : إنّ الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله (٣) :

وذلك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظَاهِرُ . .

تنبيه :

قال الزمخشريّ : هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها ، منادٍ على نفسه بلسان طلق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى ( أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ) لما كان كافياً في هدم قاعدة الإشراك مع السابق واللاحق وماضمن من زيادات النكت، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذيلًا بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروعي فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلًا عن المسمى على الكناية الإيمائية . ثم بولغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية التلويحية استدلالًا بنفي العلم عن نفي المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئهال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السرّ والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفي جعل اتخاذهم شركا.

(١) [ ٩ / التوبة / ٣٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٠ ] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا مَن هو قائله ، ولم أهتد إليه فيما بين يديّ من الكتب. فمن داره فليثبته هنا مشكورًا مأجورًا .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباءً له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لذى عينين وماتلك التسمية إلّا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حقّ التأمّل ، اعترف بأنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، الذى تقف دون أستار أسراره أفهام البشر . . . !

وقوله تعالى : « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم. كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينتفعون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناسَ « وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ،أويخذله « فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ )

« لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »وهو ما نالهم على أيدى المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضلّة . فإنّ نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداءٌ دوىّ لا برء له إلّا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمّاً وكيفاً « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصى « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ».

فى الآية وجوه من الإعراب :

( الأول ) : أن ( مثل ) مبتدأ خبره محذوف ، أى: فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة ، وجملة ( تجرى ) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانيا أو حال من ضمير ( وعد ) أى : وعدها مقدرا جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل . وقُدِّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين مايفسره، أو ما هو كالمفسّر له .

( الثانى ) : أن خبره ( تجرى ) ـ على طريقة قولك : صفة زيد أسمر ـ قيل : هو غير مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث الضمير العائد على المثل حملاً على المعنى .

( الثالث ) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وقوله ( وظلها ) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] ( وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ )

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعانى والدلائل وكشف الشبهات مالم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبيّ ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التى لا يمترى فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التى لا تحصى كما قال تعالى(١) : ( الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى بقية أهل الكتاب والمشركين « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم، وجوّز أن يراد ( بالموصول ) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا. و بـ( الأحزاب ) المشركون،خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد .ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو »أى: لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبِ » أى : مرجعى للجزاء ، لا إلى غيره .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٧] ( وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ )

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » أى: حاكمًا بالحق،أو حكمة عربيّة «وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢١ ] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِـــنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ » أى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلّا فـكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان ـ كذا فى ( الكشاف ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٨] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهوردٌّ لقولهم: لو كان نبيًّا لكان من جنس الملائكة كما قالوا[١] : ( مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ) ، وإعلامٌ ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم لِمَ لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له[٢] : ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ). « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنَ اللهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير تغيّرٍ وتبدّلٍ وتقدمٍ وتأخرٍ . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معيّن أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحكمة . فالشرائع معينة عندالله بحسب الأوقات، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسولٌ من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٧ ] .    (٢) [ ١٨ / الكهف / ١١٠ ] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره . وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ )

« يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَيُثْبِتُ » أى بَدَلَهُ ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ «وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازىّ : العرب تسمى كلّ ما يجرى مجرى الأصل للشىء أُمًّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وام القرى لمكة . وكل مدينة فهى أمّ لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلًا لجميع الكتب . روى علىّ بن أبى طلحة[٢] عن ابن عباس فى الآية يقول : يبدل الله مايشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله ( وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ) يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى ( مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ... ) الآية .

تنبيه :

تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى : ( يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ) فقالوا : إنها عامة فى كل شىء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يمحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازىّ : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ).

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير(١) عن عمر وابن مسعود . وليس فى الصحيح شىء منها .

ظهَر لى* فى دمّر فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلبٍ ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ،فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظن ظانّ أنه يستدل بها فى بحثٍ آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لك مثلًا قوله تعالى ( يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ) فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلّق ، ومحو ما فى اللوح الذى يسمونه ( لوح المحو والإثبات ) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمأنًّا .

مع أنّ هذه الآية ، لو تمعّن فيها القارئ ، لعلم أنها فى معنى غير مايتوهمون . وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ ، فى أوائل البعثة ، أن يأتى بآية كآية موسى وعيسى. توهماً أن ذلك هو أقصى مايدل على نبوة النبىّ فى كل زمان ومكان. فأعلمهم الله تعالى أنّ دور تلك الآيات الحسّيّة انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعدّ البشر للتنبّه إلى الآية العقلية، وهى آية الاعتبار والتبصّر. وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها. وقد أثبت تعالى غيرها ممّا هو أجلى وأوضح وأدلّ على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : ( وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧و١٦٨من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ )...

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ )

« وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى: من إنزال العذاب فى حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحى « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى : حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيّان: جواب الشرط الأول ( فذلك شافيك ) والثانى ( فلالوم عليك ) وقوله تعالى ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ... ) الخ دليل عليهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ )

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى: أرض الكفرة . ننقصها عليهم بإظهار دين الإسلام فى أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس: أى : أو لم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده ، ونظيره قوله تعالى[1] : ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ )

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

وقوله[١] : ( سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ ... ) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعنى لم يؤخر عذابهم لإهمالهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما فى أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبىّ صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلًا وتنبيهاً عن سِنَةِ الغفلة . ومعنى ( نأتى الأرض ) يأتيها أمرنا وعذابنا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم. فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبيه :

يذكرون ـ ها هنا ـ رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهرىّ حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق[٢] :

وَاسْأَلْ بِنَا وَبِكُمْ إذا وَرَدَتْ مِنًى ... أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، مَنْ يَتْبَعُ

يريد أشراف كل قبيلة . فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث فى الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة، وذل بعد عزّ، ونقص بعد كمال! وإذا كان هذا مشاهدا محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفاك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلا لخطب موت العلماء بسبب

(١) [ ٤١ / فصلت / ٥٣ ] .

(٢) فى الديوان ( صفحة ٥٢٦ ) من يسمعُ عوضاً عن ( من يتبع ) .

ومطلع القصيدة :

بَنِى نَهْشَلٍ ... (see below)

أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها ، فموتهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها    متى يمتْ عالم منها يمتْ طَرَفُ
كالأرض تحيي إذا ما الغيثُ حلّ بها    وإنْ أبَى عَادَ فى أكْنَافِهَا التَّلَفُ

ولذا قال الأزهرىّ كما فى ( لسان العرب ) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ، ( وننقصها من أطرافها) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا مَنْ فسر( نقصها من أطرافها) فتوحَ الأرضين . وأما من جعل ( نقصها من أطرافها ) موتَ علمائها فهو من غير هذا، قال: والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالعز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى وهى جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علوّ شأن حكمه تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ـ كما تقول : جاء زيد لا عمامة على رأسه ، أى حاسراً . و ( المعقب ) من يكرّ على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفّيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ )

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أي مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يومئ إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أي فيوفيها جزاءها المعدّ لها على ما كسبت من فنون المعاصي التي منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أي العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى[1] : ( وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ... ) الآية .

القول في تأويل تعالى :

[٤٣] ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ )

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتي ، من الحجج القاطعة والبينات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة ( وهو فعل والشهادة قول ) على سبيل الاستعارة ، لأنه يغني عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعمّ من القول والفعل . على

(١) [ ٢٧ / النمل / ٥٠ ـ ٥٢ ] .

أن المراد من تلك الحجج هى آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهى كلامه تعالى ، وقد قال تعالى[١] : ( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي ) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبىّ ﷺ ونعته فى كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى[٢] : ( الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ) وقال تعالى[٣] : ( أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) .

ويروى عن مجاهد أنه عنى بـ ( مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المكية ربما وجد فيه مدنىّ وبالعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهانىّ فى ( دلائل النبوة ) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

---

تم الجزء التاسع ، ويليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

(١٤ـ سورة إبراهيم و ١٥ـ سورة الحجر و ١٦ ـ سورة النحل و١٧ـ سورة الإسراء)

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٥٣ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٥٧ ] .
(٣) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٧ ] .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

## الجزء العاشر

وفيه تفسير:

١٤ ـ سورة إبراهيم، و١٥ ـ سورة الحجر، و١٦ ـ سورة النحل، و١٧ ـ سورة الإسراء

---

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٤ ـ سورة إبراهيم

سمّيت به لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كالحج وجعل الـكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبوّة نبيّنا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايميّ .

وهي مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى[1] « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّـهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿الٓر ، كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾

« الٓر كِتَٰبٌ » خبر لـ ( الٓر ) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبرًا لمضمر، أو مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى : « أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ » صفة له « لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى : من الضلال إلى الهدى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى : أمره . وقوله تعالى : « إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » بدل من قوله ( إِلَى ٱلنُّورِ ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل: إلى أى نور؟ فقيل: إِلَىٰ صِرَٰطِ ... الخ . و (ٱلْعَزِيزِ) الذى لا يغالَب ولا يمانع بل هو القاهر القادر. و (ٱلْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

«ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان لـ ( ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ) « وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ » أى : بما أنزلناه إليك « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ )

« ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » بتعويق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة، أو يبغون لها اعوجاجاً، أى يطلبون أن يروا فيها عوجًا قادحًا ، على الحذف والإيصال «أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ» أى : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل، والبعد فى الحقيقة للضالّ نفسه، وصف به فعله للمبالغة، بجعل الضلال نفسه ضالًّا . وفى إيثار الظرف على ( أولئك ضالّون ضلالًا بعيـداً ) دلالة على تمكّنهم فيه، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

«وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» أى: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به كما قال[١] ( وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ) . ( فإن قلت ): لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً ( قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا )[٢] بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة.

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٥٨ ] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قلت) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم فى تعلّم لفظه وتعلّم معانيه، وما يتشعّب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القُرَب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلًّا بصفة الإعجاز فى كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التى هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى ( بلسان قومه ) بلغة قومه ـ كذا فى ( الكشاف ) .

وقال بعض المحققين: يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبىّ ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعِدّها لتهذيب الأمم الأخرى. كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هى المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل فى ذلك العالم المظلم ـ فقد وجب أن التهذيب الإلٰهىّ ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيأ لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، ولله فى خلقه شؤون ا هـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أنّ اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفيّة لم تعلم إلّا بعد مجىء الرسول ، والآية صريحة فى علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى لمباشرته أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة، كأنه قيل : فبيّنوه، فأضلّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنىّ عن الذكر والبيان « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى : فلا يغالَب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل فى قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ) بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ » أى : أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعماؤه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلًا لها . وقيل : هى أعمّ من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى، فيما أراه، لاختصاص كل آية بمقام، والتأسيس خير من التأكيد. وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربىّ: هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءَهُ . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أوأفاض عليهم من النعم، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد ( لكلّ مؤمنٍ ) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصبّار) على (الشكور) لتقدم متعلق الصبر ـ أعنى الإيمان ـ على متعلق الشكر ـ أعنى النعماء ـ وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ، وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » أى : يبغونكم إياه « وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ » أى: المولودين صغارًا « وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ » أى: يبقونهن فى الحياة « وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبتُه إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيلَ : كونُ قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر. وأما استحياء النساء، وهن البنات أى استبقاؤهن، فلأنهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهُنّ دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أَرَى  بقاءُ البناتِ وموتُ البنينا

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و ( البلاء ) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشرىّ : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، قال تعالى[1] : (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ) . وقال زهير :

* فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو *  انتهى .

ولذا جوّز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنقمة .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٥ ] .

لطيفة :

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء ( وَيُذَبِّحُونَ ) هنا بالواو ، وفي سورة البقرة[١] ( يُذَبِّحُونَ ) وفي الأعراف[٢] ( يُقَتِّلُونَ ) بدونها . والقصة واحدة ـ بأنه حيث طرح الواو وقصد تفسير العذاب وبيانه، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال. وحيث عطف ـ كما هنا ـ لم يقصد ذلك. والعذاب، إن كان المراد منه الجنس، فالتذبيح، لكونه أشدّ أنواعه، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، فهما متغايران والمحلّ محلّ العطف. وجوّز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهر ـ بمنزلة المغاير، فلذا عطف .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ )

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أي : آذن وأعلم إعلاماً بليغاً ـ من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِن شَكَرْتُمْ » أي : نعمه ، بصرفها إلى ما خُلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أي : من النعم « وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشدّ النقم .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٤٩ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٤١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

« وَقَالَ مُوسَىٰٓ » أى : لقومه « إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » أى : غنىٌّ عن شكر عباده ، المحمود بأجلّ المحامد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب ( إنْ ) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلّا عليكم . فإن الله لغنىّ عن شكر الشاكرين .

وفى ( صحيح مسلم )(١) عن أبى ذرّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . ياعبادى لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحدٍ فسألونى فأعطيت كل إنسان مَسْأَلَتَه ، ما نقص ذلك مما عندى إلّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ » ، فسبحانه من غنىٍّ حميد . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذة من كفر « نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

---

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، ١٥ ـ باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٥٥ ( طبعتنا ) من حديث طويل عظيم جدًّا فاقرأه .

أى : مع كثرتهم « وَعَادٍ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم «وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذٍ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف ( الذين ) على قوم نوح ) ، و ( لا يعلمهم . . . ) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمّ الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعتبروا بها؟ إنّ فى ذلك لمعتبرًا . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله(٢) : (عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفّوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٣ / آل عمران / ١١٩ ] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و ( فى ) بمعنى ( إلى ) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بالغ فى منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم ( إِنَّا كَفَرْنَا ) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقرّرونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل: وهو أقوى الوجوه المتقدمة. لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب . وفى تصديرهم الجملة بـ(أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى ـ أعنى المعنى المجازىّ ـ وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندى يد إذا أولاه معروفاً ؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى[1] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) . فالبينات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نِعَمٌ وأيادٍ ، وأيضاً العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أياد ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدى ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدى . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى[2] : ( إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًّا فى الأفواه . انتهى .

---

(١) [ ٤٨ / الفتح / ١٠ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ١٥ ] .

وفى ( الرازىّ ) تتمة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال فى ( العناية ) : فإن قلت : قولهم ( إِنَّا كَفَرْنَا ) جزم بالكفر لا سيما وقد أكّد بـ ( إن ) ، فقولهم ( وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأيًّا ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافى الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلًا . انتهى .

أى : فلا ينافى شكّهم فى ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٍ » بمعنى موقع فى الريبة ، من ( أرابه ) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من ( أراب ) : صار ذا ريبةٍ وهى صفة مؤكدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ )

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى : وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أفى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورىّ فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموٰات والأرض ـ أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق ـ فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلابدّ لهما من صانع وهو الله لا إلٰه إلّا هو خالق كل شيء وإلٰهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلٰهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلّا هو وحده لاشريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولـكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم من الله زلفى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفتـه تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنـكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنـكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلًا ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الـكفرة بأن يقولوا : ( أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مُرِيبٍ مِنَ ٱللَّـهِ ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَـكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ» أى: يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولـكم ( مما تدعوننا إليـه ) . ولام ( ليغفر ) متعلقة بـ ( يدعو ) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعـالى وتقدّس ، أو للتعدية أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و ( من ) إمّا تبعيضيّة أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين ( يغفر ) معنى (يخلص) .

وادعى الزمخشريّ مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الـكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد .

قال فى ( الـكشف ) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى التفرقة بين الخطابين بالتصريح

بمغفرة الكل وإبقاء البعض فى حق الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتكلوا على الإيمان .

وقوله تعالى : « وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمّى « قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقترحه تدل على فضلكم علينا بالنبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

«قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ »أى: بالرسالة والنبوّة «وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى: بأمره وإرادته، وهو لم يرد ذلك، لقوله[1]: (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ) .

«وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرى: أمرٌ منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا وأمرُوها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله فى الصبر على معاندتكم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ » ومعناه : وأىّ عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٥٩ ] .

« وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا » أى : أرشد كلاً منّا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمىّ ، مظهرين لكمال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيّئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ )

[١٤] ( وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ )

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ».

« وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ » يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفى من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكونن أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد ـ كما قال الرازىّ ـ أن أهل الحقّ فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ ( العود ) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبلُ . أجيب : بأن ( عاد ) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسل ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسل ، وبشارة حقة . كما قال تعالى(١) : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ) وقال تعالى(٢) : ( وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في ( ذلك ) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله ( لِمَنْ خَافَ . . . ) الخ أي : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله(٣) ( وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ). و ( المقام ) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أومصدر ميميّ ، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالي . وياء المتكلم في ( وعيدِ ) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين: أثبت الياءَ ـ هنا وفي (ق) في موضعين(٤) : (كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ )(٥) ( فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ) ـ وصلًا ، وحذفها وقفاً ـ ورشٌ عن نافع . وحذفها الباقون وصلًا ووقفاً .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ )

«وَٱسْتَفْتَحُوا۟» أي : سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم.

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٣٧ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٢٨ ] و ٢٨ / القصص / ٨٣ ] .
(٤) [ ٥٠ / ق / ١٤ ] . (٥) [ ٥٠ / ق / ٤٥ ] .

من (الفتاحة) وهى الحكومة كقوله[1] : ( رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ) ؛ فالضمير للرسل ، وقيل : للكفرة ، وقيل : للفريقين. فإنهم سألوا أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل. وقوله: «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى : فنصروا وعند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : ( وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فَنَصَرَ الرسلَ وأَنْجَزَ لَهُمُ الوعد ، وخاب أعداؤهم . و ( الجبار ) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و ( العنيد ) المعاند للحقّ ، كخليط بمعنى مخالط .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ )

«مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ» جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ )

« يَتَجَرَّعُهُۥ » أى : يتكلف تجرعه لقهره عليه «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ» لخبثه «وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأهوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(١) [ ٧ / الأعراف / ٨٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ)

«مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التى فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتى كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها ـ كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان ، فى حبوطها ـ لكونها على غير تقوى وإيمان ـ برماد طيرته الريح العاصف . وقوله تعالى ( لَّا يَقْدِرُونَ ... ) الخ مستأنف فذلكة للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ، أى : لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شىء منها ، أى لا يرون له أثرا من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير فى الريح ، على شىء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات هائلة ، للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم . وفى توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

( واشتد به ) من ( شدّ ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدة) بمعنى القوة أى : قويت بملابسة حمله . و ( العصف ) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على الإسناد المجازىّ كـ ( نهاره صائم ) . وخبر ( مثل ) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة ( أعمالهم كرماد ) مستأنفة جوابا لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو ( أعمالهم ) بدل من ( مثل ) و ( كرماد ) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى(١) : (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) وقوله تعالى(٢) : (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٣ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١١٧ ] .

حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

وقوله تعالى[١] : ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ، لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ )

[٢٠] ( وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ )

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته. أو لكل أحد من الكفرة لقوله ( يذهبكم ) ، والرؤية رؤية القلب .

وفى الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سيقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس. أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ومافيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهـذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها[٢] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ) وقال تعالى[٣] : ( أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٦٤ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ٣٣ ] .

(٣) [ ٣٦ / يس / ٧٧ـ٨١ ] .

مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ) .

الوجه الثانى : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى[1] : ( وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ) وقوله[2] : ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ) .

وقوله تعالى : « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله[3] : ( رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ) وقوله[4] : ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ) وقوله[5] : ( مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ )

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا» أى: اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض،

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨]. (٢) [٤ / النساء / ١٣٣]. (٣) [٣ / آل عمران/ ١٩١].
(٤) [ ٣٨ / ص / ٢٧ ] . (٥) [ ١٠ / يونس / ٥ ] .

وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ » وهم الأتباع «لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ » أى : على الرسل وهم قادتهم ـ توبيخاً لهم ـ « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ» أى : بعض الإغناء . « قَالُواْ » أى : المستكبرون «لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ »إحالة ، لضلالهم وإضلالهم ،على مقامه سبحانه، أولو هدانا بإهتدائنا، ولكن زغنا فأزاغنا كما قال تعالى[1]: (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ)«سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ » أى: مَنجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى[2] : ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها لآية[3] : (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط، كما ادّعاه. وربما كان قوله ( وَبَرَزُواْ ) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِندَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِى ٱلنَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة. والمراد بـ ( ٱلنَّارِ ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأىّ عذاب !

---

(١) [ ٦١ / الصف / ٥ ] .    (٢) [ ٣٤ / سبأ / ٣١ ] .
(٣) [ ٤٠ / غافر / ٤٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ، مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ » وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » أى : على ألسنة رسله بأن فى اتباعهم النجاة والسلامة، أى: فوفى به وأنجز « وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » أى : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا بعث ولا جزاء . ولئن كان، فالأصنام شفعاؤكم. ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله ( فَأَخْلَفْتُكُمْ ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه، أو مشاكلة. وفى الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولًا ( فوفى به ) لدلالة قوله بعدُ ( فَأَخْلَفْتُكُمْ ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً ( وعد الباطل ) لدلالة ( وَعْدَ الْحَقِّ ) .

« وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ » أى حجة وبرهان « إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » أى : أسرعتم لطاعتى بمجرد ذلك ، أى وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه « فَلَا تَلُومُونِي » أى : بوعدى إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر « وَلُومُوا أَنفُسَكُم » أى : حيث استجبتم لى باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشانىّ : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنوّر بنوره، أسلم وأطاع وصار محقًّا عالمًا بأن الحجة لله فى دعوته للخلق إلى الحق، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الحطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم ـ واهية فارغة عن الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقٌّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلّا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلّا لمن قبلَ الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى ( الإكليل ) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هـذا إبطال التقليد فى الاعتقاد. قال : وهو انتزاع حسن. لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه، ولم يطلبوا منه برهاناً. فحكى الله قوله تقبيحاً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ» أى : بمغيثكم ومنجيكم من العذاب «وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ» أى : مما أنافيه . قال ابن الأعرابىّ : الصارخ: المستغيث ، والمصْرِخ : المغيث، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه، وهومدّ الصوت. «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ»أى: كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم ـ أى فى الدنيا ـ يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى[١]: (وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ) وقوله[٢]( وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ) وقوله[٣] : ( كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ) . « إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ابتداء كلام منه تعالى ، أو تتمة كلام الشيطان .

قال الزمخشرىّ: وإنما حكى اللهعزّ وعلا ماسيقوله فى ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لمالابدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا مايخلصهم منه وينجّيهم .

ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وماصاروا إليه من الخزى والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ١٤ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ٦ ] . (٣) [ ١٩ / مريم / ٨٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ)

« وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى : الطاعات « جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ » أى: من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن «خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» متعلق بـ ( أدخل ) أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ » أى : تحييهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى[1] : «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ»وقوله[2](وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم ) .

ولما بيّن تعالى ما أعدّ للمشركين والمؤمنين من المآل الأخرويّ ، ضرب مثلًا للشرك والإيمان ـ بأن مآل الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومآل الأول إلى الدمار والاندحار ـ فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ)

[٢٥] (تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ »يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها «وَفَرْعُهَا» أى أعلاها ورأسها « فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا»

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٧٣ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤ ] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ م بِإِذْنِ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية « مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِن قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به ـ أعنى الشجرة ـ أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب الممثل له . فمنها : كونها طيبة. أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولاريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله. ولا تخفى مطابقة هذا المثَّل به للممثل له ـ أعنى الحق ـ وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلهما ، صرح بهما فذلكة له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ، وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ، وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ)

« يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و ( بالقول ) جوّزوا تعلقه بـ ( يثبت ) و ( آمنوا ). والمعنى على الأول: ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم فى سؤال القبر به ، وعلى الثانى فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عمّا لا يليق بجنابه . و ( فى الحياة ) متعلق بـ ( يثبت أو بالثابت ) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشرىّ وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به فى الدنيا ، أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلّوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيّرهم أهوال الحشر. وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : ( المسلم إذا سُئِل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى ( يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . . ) الآية ، رواه الشيخان[1] وأهل السنن .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم فى: ٥١ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا ).

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .

وقال فى أصحاب المثل الثانى :

« وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبّتَ المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ )

[٢٩] ( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ )

[٣٠] ( وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ، قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ )

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أتتهم نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسولٍ من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفراً عظيماً وغمصاً لها « وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ ٱلْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديداً لأولئك الضالّين المضلين « تَمَتَّعُواْ » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣١] ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾

«قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ » وهو يوم القيامة « لَّا بَيْعٌ فِيهِ » أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفتدى به « وَلَا خِلَٰلٌ » أى : مخالّة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدى به ، كما قال تعالى[1] : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

قال الزمخشريّ : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قِبَل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات فيعطون بدلًا ليأخذوا مثله ، وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجرّوا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعُثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن ( من ) متعلقة ) بـ ( أنفقوا ) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلًّا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما ـ من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق فى سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٣ ] .

ذلك فى الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به. ولا يبعدأن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالّات . كما فى قوله تعالى[1] : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى، وأمر المؤمنين بإقامةمراسم الطاعة شكرًا لنعمه، شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلّين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» أى المزن «مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ» أى تعيشون به « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ » أى السفن « لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » أى بإرادته « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » أى فتجرى حيث تشاءون من شرب وسقى وسواها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ » أى يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما

---

(١) [ ٦٢ / الجمعة / ١١ ] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفة ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به . فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشانىّ : ( مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ) بألسنة استعداداتكم . فإن كل شىء يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » لعدم تناهيها « إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أوحق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن المنعم عليه بها ، واحتجابه بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » أى اذكر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ماسلف من تعجبه عليه السلام ببيان فنٍّ آخر من جناياتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرّفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرمًا آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أندادًا وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « ءَامِناً » أى ذا أمن . أو آمناً أهله . « وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ » أى بعِّدنى وإياهم « أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ، فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ، وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ » أى كنّ سبباً فى إضلالهم . كما يقال : فتنتهم الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإنما صدره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَن تَبِعَنِى » أى على ملتى وكان حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى » أى نخالف ملتى « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الغنىّ عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

« رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولدمنه

« بِوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِى زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى لكى يأتوا بعبادتك مقوّمة فى ذلك الموضع. وهو متعلق بـ ( أَسْكَنتُ ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقيموا الصلاة عندبيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك. وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً . فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى فتجلبها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى: نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ )

« رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » لأن الكل خلقه ( أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ )(١).

قال الزمخشرىّ : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، منا. وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذللًا لعزتك ، وافتقارًا إلى ماعندك، واستعجالًا لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتملق العبد بين يدى سيده رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

---

(١) [ ٦٧ / الملك / ١٤ ] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح. فأراد أن يذكّره فقال: مثلك لا يذكّر استقصارًا ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولـكنّ ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتـكلم فيها . انتهى .

وجُوِّز فى قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْـكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّـهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْـكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصــلاة بعد ذهابى « إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ » أى مجيبه .

قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر حال الـكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ،من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفرُ بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجلّ النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ)

«رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » أى عبادتى . كذا فى ( التنوير ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ )

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم . قرئ ( ولوالدِى ) . بالإفراد . وكأنّ هذا قبل تبين أمره له عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ )

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه ، إذا أنظرهم وأجّلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم . بل هو يحصيه عليهم ويعدّه عليهم عدًّا . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى بإمهالهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يعجل عقوبتهم « لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرّ أعينهم فى أماكنها ولا تطرف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ )

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعِى الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى(١) ( مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ) وقوله(٢) ( يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ) .

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ٨ ] . (٢) ٧٠ / المعارج / ٤٣ ] .

« مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطرفون. ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى لا قوة فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشرىّ : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان هواء ، إذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضا : قلبه هواء . والمعنى: أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء . من هول ذلك اليوم وشدته وخوف مايقع فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ، أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ )

قوله « وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ » أى رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا « إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من الزمان قريب « نُّجِبْ دَعْوَتَكَ » أى إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : أولم تكونوا تحلفون « مِّن قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء. كقوله تعالى[1] ( وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ) .

---

(١) [ ١٦ / النحل /٣٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ » كعاد وثمود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُوا۟ » أى بالنبىّ صلوات الله عليه « مَكْرَهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ » أى مُسَوًّى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها ، لتناهى شدّته .

وجوّز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها. والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أن الجبال مثل ( أى استعارة تمثيلية ) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً . وينصره قراءة ابن مسعود : ( وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ ) . وقرئ ( لَتَزُولُ ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ )

« فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ » أى من نصرهم المبين فى قوله تعالى[١] ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ) ( كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ )[٢] . ( وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ )[٣] الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنىّ بالوعد هنا عذابهم الأخروىّ المتقدم فى قوله تعالى[٤] ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين فى مثل الآية الأخيرة والأولين، فى معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوثر تقديم المفعول الثانى، أعنى (وعده)، على الأول وهو ( رسله ) للإيذان بالعناية به . فإن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على ألسنة الرسل . فالمهمّ فى التهديد ذكر الوعيد . كذا فى ( الانتصاف ) .

وفى ( الكشف ) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وماذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما فى قوله[٥] ( رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ) . « إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ » أى غالب لايماكر « ذُو ٱنتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ، وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ )

« يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوّى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السموات

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] . (٢) [ ٥٨ / المجادلة / ٢١ ] .
(٣) [ ٢٤ / النور / ٥٥ ] . (٤) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٢ ]. (٥) [ ٢٠ / طه / ٢٥ ].

بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و ( يوم ) بدل من ( يوم يأتيهم ) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ ( اذكر ) أو ( لايخلف وعده ) .

« وَبَرَزُواْ » أى الخلائق أو الظالمون من أجداثهم « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من ( يوم يأتيهم العذاب ) فإن الأمر إذا كان لواحد غلّاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ )

« وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » جمع ( مقرّن ) وهو من جمع فى قَرَن (بفتحتين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى[1] : ( ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ) . وقال[2] : ( وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ) أو: قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى[3] : ( لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَد (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل . والقيدُ هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجارّ متعلق بـ ( مُقَرَّنِينَ ) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ٧ ] .
(٣) [ ١٩ / مريم / ٦٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

« سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره مايوجد منظرًا عند العرب. وهو الإبل الجربى التى تطلى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود منتن الريح .

قال الزمخشريّ : تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النـــارين . وكلّ ما وعده الله وأوعد به فى الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لايقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم: ماروواه الإمام أحمد(١) ومسلم(٢) عن أبى مالك الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركوهن : الفخر بالأحساب . والطعن فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت. والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلغاء الخوارزمىّ أنفذها لمن شكا إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة. كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة. وعلة تدل على تضييع واجب النفس من التعهد.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس(طبعةالحلبىّ).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ ( طبعتنا ).

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المُنّة فى التوقى . أسير فى يد الحرص والتشهى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء. ينظر إلى الناس بعين المريب. ويتستر عنهم كتستر المعيب. تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكلته العيون . وأقل مايصيبه أنه يحرم آلة المطاعم وهى يداه . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتها . ومن عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان. وتجعله أمّيًّا بعد أن كان غير أمّىّ . وأعجميّا وليس بأعجمىّ . تنفر عن نفسه نفسُه . وتهرب من فراشه عرسُه . ويتباعد عنه أقرب الناس منه . ثم هى رُبْع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذكَ الله من أشياءَ أربعةٍ : الموتُ والعشقُ والإفلاسُ والجَرَبُ

وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .

قال أبو تمام[١] :

لما رأت أختَها بالأمس قد خَرِبَتْ كانَ الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان ( طبعة بيروت ) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول ( طبعة المعارف ) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدق إنباءً من الكُتُبِ فى حَدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزىّ ، شارح الديوان :

الهاء فى ( أختها ) راجعة على عَمُّوريَّة . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خَرِبَتْ ، وهى أخت عمورِيَّة ، أعدتها بالجَرَب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد[١] :

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافِهِمْ وبقيتُ فى خلْف كجِلْدِ الأَجْرَبِ

فجعله رأس الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ » أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال[٢] ( تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزمخشرىّ وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ )

« لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام . أو عامّ للبرة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله ( وَبَرَزُوا۟ ) وما بينهما اعتراض أو بـ ( ترى ) « إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم . كقوله[٣] ( مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله[٤] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ). وقوله تعالى :

---

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضِّ اللُّبانةَ لَا أَبَا لَكَ واذهبِ والحق بأسرتِك الكرامِ الغُيَّبِ

يرثى بها أخاه لأمه ، أربد .

يقال : خلَف خير ، وخَلْف سوء .

(٢) [ ١٠٤ / الهمزة / ٧ ] . (٣) [ ٣١ / لقمان / ٢٨ ] . (٤) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« هَـٰذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ » أى ليخوّفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو. وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أُنذِروا به ، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشرىّ : (وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٥ ـ سورة الحجر

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[(١)] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ) إلى قوله ( مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايمىّ ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٨٠ ] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الر ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ )

« الر » تقدم الكلام فى مثله « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى ( الر ) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغىّ . من ( أبان ) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمْر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من ( أبان ) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ )

« رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ » . تبشير للنبىّ ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين ( لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً )(١) وفيه تثبيت للنبىّ ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جىء بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب فى قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [ ٥٧ / الحديد / ١٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ )

« ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أملَ استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيرًا فى المآل « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشرىّ : فيه تنبيه .

ثم بيّن تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ )

« وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدّر ليتأمّل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقدم الإنذار وتكرّره على سمعهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ )

« مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار . ثم أخبر تعالى عن عتوّهم فى كفرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ )

« وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكما. أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ)

[٨] (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ)

« لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ » أى هلّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقولهم(١) : (لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا) . وقول فرعون(٢) : (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَـٰٓئِكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنّة الإلهية، وهو العذاب « وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ » أى مؤخّرين . كقوله تعالى(٣) : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليةٍ وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ » أى مِن كل مَنْ بغى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبحر هداه يجرى ، وظلال حقّيته فى علومه تمتد على الآفاق ،

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٧ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٥٣ ] .

(٣) [ ٢٥ / الفرقان / ٢١و٢٢ ] .

ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين[١] ( يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ) وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ )

[١١] ( وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أي رسلًا « مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ » أي فرقهم وطوائفهم. جمع ( شيعة ) وهي الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و ( الأولين ) نعت لمحذوف . أي الأمم. أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف. « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أي كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ )

[١٣] ( لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ )

« كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ » أي الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أي الكافرين . وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أي بالذكر . حال من ضمير ( نسلكه ) أي مكذَّباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزمخشريّ : كما لو أنزلتَ بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام . تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوّز في ضمير ( نسلكه ) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [ ٦١ / الصف / ٨ ] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تكملة للتسلية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أي قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بيّن تعالى أنهم لايتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التي تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ )

[١٥] ( لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ )

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم » أي على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ » أي فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أي يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا » أي حيِّرت أوحبست من الإبصار ، ومانراه شيء نتخايله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر في ( الانتصاف ) : المراد ، والله أعلم ، يعني من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها . كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علمٍ وفهمٍ (١) ( لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم مافهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم في مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم) الآية . أي هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك في قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم

(١) [ ٨ / الأنفال / ٤٢ ] .

أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب فى السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهارا .

وإلى ذلك الإشارة بقوله ( فَظَلُّواْ ) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هـذا الإيضاح العظيم المكشوف ( إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ) وسحرنا محمد. وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم فى التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدد والإصرار ، لاغير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ )

[١٧] ( وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ )

[١٨] ( إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ )

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثنى عشر التى تنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج فى الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها. فإن النجوم هيا كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّـٰهَا » أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّـٰظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها. أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته «وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ » أى اختلس « ٱلسَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَأَتْبَعَهُۥ » أى تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُّبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ » أى جبالًا ثوابت «وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى فى (الدرر)[١] : أن العرب استعملته بهذا المعنى. كقول عمر ابن أبى ربيعة .

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ يُوزَنُ وَزْنَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ)

[٢١] (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة «وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ» أى من الأنعام والدواب وما أشبهها. قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحّدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى ( ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبىّ ) .
والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارىّ . وفيه :
( ينعت الناعتون ) عوضاً عن ( تشتهيه النفوس ) .

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ » أى وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبّه اقتداره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدّة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى ( نُنَزِّلُهُۥٓ ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ )

[٢٣] ( وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ )

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل بالماء . وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابته الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله المهايميّ . فاللواقح ، عليه ، جمع ( مقلح ) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بِجَرْيِ مائها فيه أو تنميته ليثمر ويزهو . وجوّز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجىء بالمزن الممطرة ، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ ( العقيم ) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ » أى بقادرين على إيجاده وإنزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مرّ . أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه ينابيع فى الأرض وجعله عذباً ورحم العباد بسقياه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقى : وارث ، استعارة من ( وارث الميت ) لأنه يبقى بعد فنائه . ومنه قوله[1] صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى ( الكشاف ) .

(١) لم أقف على هذا الحديث .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ( وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ )

[٢٥] ( وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ )

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ . أومن تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لايخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وفى تكرير قوله ( وَلَقَدْ عَلِمْنَا ) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم «إِنَّهُۥ حَكِيمٌ »أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة(١) ( سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ )

[٢٧] ( وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ )

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ » يعنى آدمَ « مِن صَلْصَـٰلٍ » أى طين يابس مصوِّت «مِّنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصوَّر من ( سنة الوجه ) وهى صورته . أومصبوب، من (سنّ الماء) صبّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان. كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيّره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه « وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ » أى من قبل الإنسان .

« مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحرّ .

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٣٩ ] .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول الموادّ للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ » أي عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ » أي تحية له وتعظيماً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ».

يعني : وقد خلقتني من نار فأنا خير منه . كما صرح به في آية غيرها . وفي تكرير قوله : (مِن صَلْصَٰلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كابحاً من جماح غوايته ، وشدة تمرده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعزين « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة . أو شيطان يرجم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء. وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ » أى المعاصى « فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » أي حق نهجه ومراعاته لااعوجاج فيه . وهو أن لاسلطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ )

[٤٣] ( وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ )

[٤٤] ( لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ )

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ » أي قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ » أي المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » قال المهايمىّ : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، لغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ » أي الغواة « جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » أي حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ )

[٤٦] ( ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ )

[٤٧] ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ )

[٤٨] ( لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ )

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا » أي يقال لهم ادخلوها « بِسَلَٰمٍ » أي سالمين أو مسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أي من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ

غِلٍّ » أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَٰنًا » حال من فاعل (ٱدْخُلُوهَا) أو الضمير فى ( آمنين ) « عَلَىٰ سُرُرٍ » أى مراتب عالية « مُّتَقَٰبِلِينَ » لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُّتَقَٰبِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ )

[٥٠] ( وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ )

[٥١] ( وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ )

[٥٢] ( إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ )

« نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً « وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ » أى لمن لم يتب من كفره. والجملة فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . « وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ » أى عن نبئه . والضيف كالزَّور ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشاف : عطف ( وَنَبِّئْهُمْ ) على ( نَبِّئْ عِبَادِىٓ ) ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخطَ الله وانتقامَه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ)

[٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

[٥٥] (قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ)

[٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ)

«قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ» أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » قال الزمخشرىّ : هى ( ما ) الاستفهامية دخلها معنى التعجب. كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشرونى. أو أراد إنكم تبشروننى بما هو غير متصوَّر فى العادة . فبأى شيء تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة بشيء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شيء .

«قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ» أى الآيسين من ذلك. « قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ، ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجراها الله تعالى. والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٥٨] (قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٥٩] (إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٦٠] (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروع « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أى الباقين مع الكفرة ، لتهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازىّ من باب قول خواصّ الملك ( دبرنا كذا وأمرنا بكذا ) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان ( قدرنا ) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو فى علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكىّ عن الملائكة . قال فى ( الانتصاف ) وهو الظاهر لاستغنائه عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ )

[٦٢] ( قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ )

[٦٣] ( قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ )

[٦٤] ( وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ )

« فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ » أى لاأعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايمىّ : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم. كما فصل فى سورة هود « قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرّون به ، ويكذّبونك « وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

[٦٦] ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

[٦٧] ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ » أى كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه « وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

[٦٩] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾

[٧٠] ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

[٧١] ﴿ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾

[٧٢] ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[٧٣] ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾

[٧٤] ( فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ )

[٧٥] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ )

[٧٦] ( وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ )

[٧٧] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ )

« قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ*قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهى عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرّض له . فأوعدوه وقالوا[1] : ( لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ) أفاده الزمخشرىّ .

« قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ » تقدم الكلام عليه فى سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبىّ ﷺ ، اعترض به تعبأ من شدة غفلتهم وتكريما للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ » أى غفلتهم التى ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه، النصيحة المبقية لهم، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين فى وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة المحرّكة للأرض « عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا » قال المهايمىّ لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر، لرجمهم على لواطهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق فى الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٦٧ ] .

مدينة قوم لوط المدمَّرة « لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » أى ثابت يسلكه الناس، لم يندرس بعدُ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزمخشرىّ : وهو تنبيه لقريش، كقوله[1] (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لعبرة لهم .

## تنبيهان :

الأول ـ قال ابن القيّم : فى ( أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا ـ أن هذا، يعنى قوله تعالى ( لَعَمْرُكَ ) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الربّ عز وجل بحياته . وهذه مزية لاتعرف لغيره.

ولم يوفق الزمخشرىّ لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة. فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : ( لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ( لعمرك ) أى حياتك . قال: وما أقسم الله تعالى بحياة نبيّ غيره . والعَمر والعُمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم. ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٣٧ و ١٣٨ ] .

قال ابن القيّم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سُكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى وسُكْر مُدَامَةٍ ومتى إفاقةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟

الثانى ـ قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) .قال السيوطىّ فى (الإكليل): هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذىّ من حديث أبى سعيد مرفوعاً[(١)] : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانىّ فى كتاب (الذريعة) حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هى صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله[(٢)] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله[(٣)] (تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ) وقوله[(٤)] (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فَرَسَ السبعُ الشاةَ) فكأنّ الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحى . وإياه عنى النبىّ ﷺ بقوله[(٥)] (المؤمن

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبى سعيد الخدرىّ ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروّع والمحدَّث . وقال عليه الصلاة والسلام[١] ( إن يكن فى هذه الأمة محدَّث ، فهو عمر ) .

وقيل فى قوله تعالى[٢] : ( وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل[٣] : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام. ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام[٤] ( الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، اطّلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومَن قوى فيه نورُ الروح المذكور فى قوله تعالى[٥] : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ) كان ممن وصفه بقوله[٦] ( أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهدا ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام[٧] فى المتلاعنيْن ( إن أمرهما بيّن ، لولا حكم الله ) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشىّ ، العدوىّ ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [ ٤٢ / الشورى / ٥١ ] . (٣) [ ٢٦/الشعراء / ١٩٣و ١٩٤ ].

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [ ١٥ / الحجر / ٢٩ ] و [ ٣٨ / ص / ٧٢ ] .

(٦) [١١/هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارىّ عن ابن عباس فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣١ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لو كنت راجما بغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ )

[٧٩] ( فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ )

[٨٠] ( وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[٨١] ( وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ )

« وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ » ( إِنْ ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام. كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار، فظلموا بأنواع من الظلم، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه. « فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ » أى بعذاب الظلة ، وهى سحابة أظلتهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم « وَإِنَّهُمَا » يعنى قرى قوم لوط والأيكة « لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » أى طريق واضح. وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال(١) ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ) .

« وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ » يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام .

ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامىّ .

« وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيّهم . كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

(١) [ ١١ / هود / ٨٩ ] .

( لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ )[١] فلما عتوا وعقروها ، قال[٢] ( تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ )

[٨٣] ( فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ )

[٨٤] ( فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

[٨٥] ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ )

[٨٦] ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ )

[٨٧] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ )

«وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ» أى من حوادث الدهر « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع. وفى سورة الأعراف[٣] ( فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

« فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه، فمادفعت عنهم تلك الأموال لما جاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لاتقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٦٥ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ٧٨ ].

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ » أى فيجزى كلًّا بما كانوا يعملون « فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله[١] ( فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة. فإنه الخلّاق الذى لايعجزه خلق شىء ، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرق فى سائر أقطار الأرض كقوله تعالى[٢] ( أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ) .

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ » قال الرازىّ : إنه تعالى لما صبّره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز .

( والسبع المثانى ) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى[٣] ( كِتَٰباً مُّتَشَٰبِهاً مَّثَانِىَ ) والواو فى قوله : ( وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ) لعطف الصفة كقول الشاعر[٤] :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابن الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبة فى المُزْدَحَمْ

و ( السبع ) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و ( المثانى ) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز . أو مثن على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

---

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٨٩ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٨١ ] . (٣) [ ٣٩ / الزمر / ٢٣ ] .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها ، لا أنها هى المَعْنِيَّة . كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث[(١)] ( الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ) عند الشيخين ، فمعناه أنها من السبع ، لعطف قوله ( والقرآن العظيم الذى أوتيته ) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هو لا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى ( تفسير الفاتحة ) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللأثَرِىّ الواقف مع ظاهر ما صح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هى الفاتحة لظاهر الحديث ـ أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ )

[٨٩] ( وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ )

[٩٠] ( كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ )

« لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ » يعنى: قد أوتيت النعمة العظمى،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١ ـ سورة الفاتحة ، ١ ـ باب ما جاء فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن المعلّى .

التي كل نعمة وإن عظمت ، فهي إليها حقيرة . وهي القرآن العظيم . فعليك أن تستغني ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيالها. فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه ( بالمتاع ) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أي لعدم إيمانهم ، المرجوّ بسببه تقوّي ضعفاء المسلمين بهم « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أي تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أي المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أي مثل ماأنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ماأنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فالاقتسام من ( القسم ) لامن القسمة .

وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ )

[٩٢] ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ )

[٩٣] ( عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ )

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ » أي أجزاء جمع ( عضة ) يعني كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أي من التقسيم فنجازيهم عليه. وجوز تعلق ( كَمَا ) بقوله:

( لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ) أى لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون ( كما ) رأس آية و ( المقتسمون ) حينئذ ، إما مَن تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإنزال عليهم إنزال الهداية التى أبَوْها ، وجوّز جعل الموصول مفعولا أول للنذير ، أو لما دلّ عليه من أنذر . أى النذير . أو أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوّز جعل ( كما ) متعلقاً بقوله تعالى ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] ( فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ )

[٩٥] ( إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ )

[٩٦] ( ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ )

« فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » أمر من ( الصدع ) بمعنى الإظهار والجهر ، من ( انصداع الفجر ) .أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أى: افرق بين الحق والباطل «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» أى الذين يرومون صدك عن التبليغ، فلا تبال بهم «إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ » أى حفظناك مِنْ شرّهم ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ،له صلوات الله عليه، لينهض بالصدع نهضةَ من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى[1]: ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ) .

---

(١) [ ٥ / المائدة / ٦٧ ] .

« ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ » وصفهم بذلك، تسلية له عليه الصلاة والسلام، وتهوينا للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أي عاقبة أمرهم . وقد جوّز في الموصول أن يكون صفة ( للمستهزئين ) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعا بتقدير ( هم ) . وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم، كما روى ابن إسحق عن عروة: أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم : من بني أسد أبو زمعة، كان النبيّ ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال: اللهم! أعم بصره وأثكله ولده . ومن بني زهرة الأسود . ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بني سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى[1]: (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة ؛ إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله إلى جنبه . فمر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه . ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود[2] : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلي في ظل الكعبة .

---

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤ ] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٩ـ باب إذا ألقى على ظهر المصلّي قذر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ ـ باب مالقى النبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ ( طبعتنا ) .

وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً فى ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبى جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : فلقد رأيتهم قتلى فى قليب بدر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ )

[٩٨] ( فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ )

[٩٩] ( وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ )

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون. لأن الجبلّة البشرية والمزاج الإنسانىّ يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى[١] : ( وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ـ ) وقال[٢] : ( أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ) ومعلوم أن فى الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الربانىّ بالنصر والمعونة . لقوله[٣] : ( إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ). وقوله[٤]: ( فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ) وقوله[٥] ( إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ) .

---

(٣) [ ٢ البقرة / ٤٥ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٢٨ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ١٥٣ ] و [ ٨ / الأنفال / ٤٦ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٥٢ ].
(٥) [ ١٦ / النحل / ١٢٨ ] .

وقدروى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلا لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعني الأمر بالتسبيح والحمد. والمراد من ( الساجدين ) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن اللحوق بكل حيّ مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه. والمعنى دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا. كقوله تعالى في سورة مريم[1] (وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ) .

وقيل : المراد بـ( اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن. إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدلّ له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ) وما في الصحيح[3] عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك ، أبا السائب !فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله! فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير .

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٣١ ] . (٢) [ ٧٤ / المدثر / ٤٣ ـ ٤٧ ] .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ـ كتاب الجنائز، ٣ ـ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ، الحديث رقم ٦٦٦ ( والحديث من إفراد البخاريّ ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية الكريمة وهى قوله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما فى صحيح البخارىّ[١] عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صلِّ قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً. فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ ـ باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ ( والحديث من أفراد البخارىّ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٦ - سورة النحل

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[١] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده ، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . بحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعانى المثمرة ، وعلى التصرفات العالية . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية . وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهايمىّ .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهمّ . ليتفطن الغرض الذى يرمى إليه . كـ(الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعىّ وما يَنْجم عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة . و(النحل). و(العنكبوت). و(النمل). للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتى طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته فى هذه السورة .

وهى مكية . واستثنى ابن عباس آخرها. وعن الشعبىّ إلا قوله تعالى[٢] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبىّ : إلا قوله تعالى[٣] (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ) الآيات . وآيها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٨]. (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦]. (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

«أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تقرر فى غير ما آية، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ، استهزاء وتكذيباً بالوعد . فقيل لهم (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير عنه بـ(أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوّه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع. أو عن إتيان مباديه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله تعالى[١] : (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله[٢] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) وقوله[٣] : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ . وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ)

«يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] . (٢) [٥٤ / القمر / ١ ] . (٣) [٢٩/ العنكبوت/ ٥٣].

لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاتَّقُونِ » ردٌّ لاستبعادهم النبوة ، بأن ذلك سنة له تعالى. ولذا ذكر صيغة الاستقبال كقوله تعالى(١) (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ) وقوله(٢) (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ)والروح هو الوحي، الذي من جملته القرآن. لقوله تعالى(٣) (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة . فإنه يحي القلوب الميتة بالجهل و(مِنْ أَمْرِهِۦ ) بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق بـ ( ينزل ) . و ( من ) للسببية و ( أَنْ أَنذِرُوٓاْ ) بدل من الروح . أى أخبروهم بالتوحيد والتقوى . فقوله ( فَاتَّقُونِ ) من جملة المنذر به . أو هو خطاب للمستعجلين ، على طريقة الالتفات . والفاء فصيحة أى إذا كانت سنته تعالى ذلك ، فاتقون ، بما ينافيه من الإشراك وفروعه ، من الاستعجال .

قال الزمخشريّ : ثم دل على وحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ومايصلحه ، ومالا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجر أثقاله وسائر حاجاته . وخلق مالا يعلمون من أصناف خلائقه. ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ١٥ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٧٥ ] .
(٣) [ ٤٢ / الشورى / ٥٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

[٤] ( خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ )

[٥] ( وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ )

[٦] ( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ )

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ » أى مهينة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُّبِينٌ » أى مخاصم لخالقه مجادل ، يجحد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنمـا خلق ليكون عبدا لا ضدا « وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى سورة الأنعام .

قال الزمخشرىّ : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى مايدفء أى يسخن به من صوف أووبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنَٰفِعُ » أى من نسلها ودرّها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ » أى زينة « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردّونها من مراعيها إلى مراحها ( بضم الميم ) وهو مقرّها فى دور أهلها بالعشىّ « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشرىّ : منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها . لأن الرعيان ، إذا روحوها بالعشىّ ، وسرحوها بالغداة ، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيهـا الثغاء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه[1] ( لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً )[2] ( يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ) .

(١) [ ١٦ / النحل / ٨ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٢٦ ] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .

ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ )

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ )

«وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ» أى أحمالكم «إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ» بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان فى معنى ( المشقة ) أى لم تكونوا بالغيه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» أى حيث سخرها لمنافعكم . ثم أشار إلى ما هو أتم فى دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على ( الأنعام ) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل ( لتركبوها ) فهى مفعول له أو مصدر لمحذوف . أى وتتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع موقع الحال من فاعل ( تركبوها ) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزينا بها . وسر التصريح باللام فى المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلىّ فى الأصناف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا فى ( الانتصاف ) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعـــام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا ، لـكان ذكرُهُ والامتنانُ به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوّزون لأكلها ، بأنه لا حجة فى التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافى غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عامَ خيبر. وقد قدمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل. فلو سلمنا أن هذه الآية متمسَّـكاً للقائلين بالتحريم ، لـكانت السنّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال. وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث. منها ما فى الصحيحين[1] وغيرهما، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة والترمذىّ[2] وصححه والنسائىّ[3] وغيرهم من جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيـــل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ ـ باب النحر والذبح ، حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم فى: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٢٣ ـ كتاب الأطعمة، ٥ـ باب ماجاء فى أكل لحوم الخيل.

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ ـ باب الإذن فى أكل لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً فى الصحيحين[(١)] من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود[(٢)] والنسائىّ[(٣)] وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففى إسناده صالح بن يحيي . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحلّ . على أنه يمكن أن يكون متقدما على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا فى ( فتح البيان ) .

وفى ( الإكليل ) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردًّا على الحنفية فى قولهم بوجوب الزكاة فيها . أى الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من المخلوقات فى القفار والبحار . وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ، وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ )

« وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ » .

فى الآية فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسّية ،

---

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٤ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر، حديث ١٩٠٩ وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٥ ـ باب فى أكل لحوم الخيل ، حديث رقم ٣٧٨٨ .

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ ـ باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نبّه على الطرق المعنوية الدينية . وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية الدينية . كقوله تعالى[١] : ( وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ) وقال تعالى[٢] ( يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ) .

ولما ذكر تعالى ، في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه. فبيّن أن الحق منها موصلة إليه . فقال ( وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ) . كقوله تعالى[٣] : ( وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ) وقال[٤] ( هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ) انتهى. وقوله سبحانه : ( إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ) .

الثانية ـ قال أبو السعود : ( القصد ) مصدر بمعنى الفاعل . يقال سبيل قصد وقاصد . أي مستقيم. على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه . أي : حقٌّ عليه سبحانه وتعالى ، بموجب رحمته ووعده المحتوم ، بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق، الذي هو التوحيد. بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه. أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل . قاله أبو البقاء. أي عليه ، عز وجل، تقويمها وتعديلها . أي : جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق . لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفة عنه ، بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج ( سبحان من صغّر البعوض. وكبّر الفيل ) وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدله . وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها لا حبٌ يهتدى بمناره . وعلم يستضاء بناره . وأرسل

(١) [ ٢ / البقرة / ١٩٧ ] . (٢) [ ٧/ الأعراف / ٢٦ ] .
(٣) [ ٦ / الأنعام / ١٥٣ ] . (٣) [ ١٥ / الحجر / ٤١ ] .

رسلًا مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هـذا الوحى الناطق بحقيقة الحق . الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى مَعالم الهدى . المنحّية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة ـ الضمير فى (وَمِنْهَا جَآئِرٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التى لا يكاد يحصى عددها، المندرج كلها تحت الجائر. كقوله تعالى[1] : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) .

قال أبو السعود، بعدما تقدم : أى: وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد ـ وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مخلّ بحكمته ، حيث يستدعى تسوية المحسن والمسيء ، والمطيع والعاصى ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى : (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولكن لم يشأه . لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعيه إليها . ولا حكمة فى تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ، التى بها نيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلىّ ، بعد الحيوان ، النباتُ ، تأثر ما مرّ من الإنعام بالأنعام والدواب ، التى يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة نفسها . فقال سبحانه :

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٥٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أي المزن « مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أي ومنه يحصل شجر. والمراد به ماينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أي ترعون أنعامكم « يُنۢبِتُ » أي الله عز وجل « لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ » أي الذى فيه قوت الإنسان « وَٱلزَّيْتُونَ » أي الذى فيه إدامه « وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ » أي اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ «وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ» أي يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أي في إنزال الماء وإنبات ما فصّل « لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أي دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه[1] « أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » .

قال أبو السعود ـ وأصله للرازيّ في شرح كون ماذكر حجة ـ : فإن من تفكر في أنّ الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذفيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [ ٢٧ / النمل / ٦٠ ] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل ـ علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لايمكن أن يشبهه شيء ، فى شيء من صفات الكمال . فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء فى أخص صفاته ، التى هى الألوهية واستحقاق العبادة. تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكر . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

«وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ» أى لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ » لإصلاح مانيط بهما صلاحه من المكونات « وَٱلنُّجُومُ » ليهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. وقوله تعالى: «مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ» حال من الجميع. على معنى جعلها مسخرات. لأن فى التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص.

فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فـ( سخر ) بمعنى ( نفع ) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن ( مسخرات ) مصدر ميمىّ ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادىّ . لأن الإحداث لايدل على الاستمرار. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدها. ورفع مابعدها على الابتداء والخبر . وقرئ (وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وماقبله بالنصب « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى تسخير ما ذكر « لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ولما نبه تعالى على معالم السموٰات ، نبه على ماخلق فى الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى ( وَٱلنُّجُومُ ) رفعاً ونصباً، على أنه مفعول ( لجعل ) أى وما خلق « لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخيره البحر ، وتعداد النعم به ، إثْرَ امتنانه بنعم البر ، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشرىّ : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأنَّ ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لاينبغى أن يتناول إلا طريًّا . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شىء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبىّ . وهذا لاينافى تقديده وأكله مخلّلا ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر فى سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكر فى باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، فى خلقه إياه، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما فى الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً » كاللؤلؤ والمرجان « تَلْبَسُونَهَا » أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم فى الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يتزينّ بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى ( تلبسون ) تتمتعون وتلتذون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث، لحقه فيه بالتجمل. فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له. فعبّر عن حظه فى لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال[1] :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول ، أن النساء

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازىّ . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ( ج ١ ص ١٢٦ ) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كالمعنى . انتهى .

وناقش صاحب ( فتح البيان ) ما قدروه فى الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : ( تَلْبَسُونَهَا ) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله ( تَلْبَسُونَهَا ) بقولهم : تلبسها نساؤهم . لأنهن من جملتهم ، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم . وليس فى الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤًا أو مرجانا . انتهى .

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بحنث الحالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حليا) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة فى حلى النساء . فأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر . أنه سئل : هل فى حلىّ النساء صدقة ؟ قال : لا . هى كما قال : ( حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ) . انتهى .

قال فى (فتح البيان) : وفى هذا الاستدلال نظر . والذى ينبغى التعويل عليه: أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد فى الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد فى الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى ٱلْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاخِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع ( ماخرة ) بمعنى جارية . وأصل معنى ( المخر ) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ » عطف على محذوف . أى لتنتفعوا بذلك ( لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، فى مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلًا . مع أنها فى تضاعيف المهالك . وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جبالًا ثوابت « أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » أى تضطرب « وَأَنْهَارًا » أى جعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُلًا » أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى فى الجبال. كما قال تعالى[١] (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بها إلى مآربكم « وَعَلَامَاتٍ » أى دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح، برًّا وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أى فى الظلام برًّا وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم ( بالنجم ) للفاصلة . وتقديم الضمير للتقوِّى . وهذا أولى من دعوى الزمخشرىّ ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب فى الآيات السابقة عامًّا فكذا يكون فى لاحقها .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : هــذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[١٨] ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« أَفَمَن يَخْلُقُ » أى كل شىء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَن لَّا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو مايعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته، مالا يقدر على خلق شىء من ذلك ، بل على إيجاد شىء ما .

وزعم الزمخشرىّ ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : ( أفمن لا يخلق كمن يخلق ) ثم تكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى[1] ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ فجدد به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لايفتقر إلى شىء سوى التذكر .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لايحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشرىّ .

ولحظ ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أى فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقىّ . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ماتقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [ ٣ / آل عمران / ٣٦ ] .

لها على طريقة قوله تعالى(١) ( وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) ولعلّ فصل ما بينهما بقوله(٢) ( أَفَمَن يَخْلُقُ ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر، إثْرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التى هى أدلة الوحدانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ )

[٢٠] ( وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ )

[٢١] ( أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ )

«وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسيجزيكم عليه « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى فأنّى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أوالمعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لايقدرون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل(٣) عليه السلام : ( أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله « أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ » أى هى جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله ( غَيْرُ أَحْيَآءٍ ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان، والنطف التى ينشئها الله تعالى حيواناً. فلذا احترز عنه بقوله ( غَيْرُ أَحْيَآءٍ ) أى لايعتريها الحياة أصلًا . فهى أموات على الإطلاق، حالًا ومآلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى تلك الأصنام المعبودة « أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى يكون

(١) [ ١٦ / النحل / ٨ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ١٧ ] .
(٣) [ ٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦ ] .

بعثها . وقد رُوى ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم . تهكما بحالها . لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٢] ( إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ )

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ )

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمدعى، وتمحيص للنتيجة ، غب إقامة الدليل. كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ » أى لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله[١] : ( أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ) وقال تعالى[٢] : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقوله تعالى «وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى[٣] : ( إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ) .

---

(١) [ ٣٨ / صٓ / ٥ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٤٥ ] .
(٣) [ ٤٠ / غافر / ٦٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[٢٥] ( لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ )

« وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدها منها . كما قال تعالى(١) : ( وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ) « لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلوهم . كقوله تعالى(٢) (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله ( لِيَحْمِلُوٓاْ ) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما حقيقة ، على معنى أنه قدّر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحتم عليهم . فيتم الكلام عند قوله : ( أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ) كذا فى ( العناية ) . وقوله تعالى ( بِغَيْرِ عِلْمٍ ) قال الزمخشرىّ : حال من المفعول . أى : من لايعلم أنهم ضُلّال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل . فجهله لايعذره « أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٥ ] .　　(٢) [ ٢٩ / العنكبوت / ١٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ )

« قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى بأنبيائهم « فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسُسِهِ ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم و ( الإتيان ) يتجوز به عن ( الإهلاك ) كقوله تعالى(١) ( فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ) ويقال أُتِىَ فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أمنه . وأَتى عليه الدهرُ : أهلكه وأفناه . ومنه الأُتُوُّ . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتوٌّ أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز فى الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالمحكىّ عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفى إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمّدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جبًّا ، وقع فيه منكبًّا . وقوله ( مِن فَوْقِهِمْ ) متعلق بـ ( خر ) . و ( من ) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد . لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم فى ملكه وإن لم يقع عليه « وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ )

«ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ» أى يذلّهم ويهينهم بعذاب الخزى، لقوله تعالى[1]: (رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ) «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ» أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذْ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة ، بنـاءً على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليهـا بقوله ( يُخْزِيهِمْ ) . أى مالهم لايحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ماتقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله[2] : ( أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ) وقيل: حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم. «قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ» وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاقّونهم « إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، مالايضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) هذا شماتة بهم، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٩٢ ] .   (٢) [ ٦ / الأنعام / ٢٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

«ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ، بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ» هذا إخبار عن حال المشركين الظالمى أنفسهم بتبديل فطرة الله ، عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم ، بأنهم يلقون السلم ، أى ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء فى الأجسام . فاستعمل فى إظهار الانقياد ، إشعارًا بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشىء الملقى بين يدى القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ) منصوب بقول مضمر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه ، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الآخرى[(١)] (فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[(٢)] . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)[(٣)] . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا) أى مقدرًا خلودكم .

قال ابن كثير : وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم . وينال أجسادهم ، فى قبورها ،

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٨٦ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٢٣ ] .

(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ١٨ ] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كما قال تعالى[1] ( ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ) وقوله ( فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ) أى بِئْسَ المقيل والمقام لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبّر ، للإشمار بعلّيته لثوائهم فيها . ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا فى جواب ( مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ) هو ( أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ) فجحدوا رحمته وكفروا نعمته ـ تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا۟ خَيْرًا ، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ )

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ » وهم المؤمنون « مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا » أى أنزل خيرًا ، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله ، مكافأة فى الدنيا بإحسانهم . ولهم فى الآخرة ما هو خير منها . فقوله ( فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ) متعلق بـ ( حَسَنَةٌ ) كتعلقه بـ ( أَحْسَنُوا۟ ) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى[2] ( مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ) وقوله[3] ( فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ) وقال تعالى[4] ( وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

(١) [ ٤٠ / غافر / ٤٦ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] .
(٣) [ ٣ / آل عمران / ١٤٨ ] . (٤) [ ٣ / آل عمران / ١٩٨ ] .

لِّلْأَبْرَارِ ) وقال[١] ( وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ، كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ )

[٣٢] ( ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ » كقوله تعالى[٢] : ( وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ) « كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، فى مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها فى نعيم برزخىّ إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى[٣] : ( إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تقريع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

---

(١) [ ٨٧ / الأعلى / ١٧ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٧١ ] .
(٣) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

[٣٤] ( فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ )

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال « كَذَٰلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى فتمادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِم » أى أحاط بهم « مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدتْهم به الرسُل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ )

[٣٦] ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ، فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ )

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ، فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيبا للرسول صلوات الله عليه، وطعنا في الرسالة. وذلك قولهم (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ) أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مما لم ينزل الله به سلطانا ثم أعلم تعالى مشاكلتهم لمن تقدمهم ، بقوله ( كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ) أي من الشرك والتحريم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال الله تعالى رادًّا عليهم شبهتهم (فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي ، وبعث في كل أمة ، أي في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا . وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ماسواه (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ) وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ( لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ )؟

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٥ ] .

فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . ( فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّـهُ ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضا ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من ( منهاج السنة ) مما يتعلق بالآية، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضا. فإن الآية من معارك الأفهام. فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه. فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعلل بالقدر وقال: حتى يقدّر الله ذلك ، أو يقدّرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِىَ عن فعل ما حرّم الله قال : اللهُ قضاه علىَّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتجُّ به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلمُ القلوبُ بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به ـ لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون[1] (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)[2] (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخرَ أو حرج فى ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ـ لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للَّوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغى فعله (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظنًّا (وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم فى نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم فى نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدّره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد فى الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون فى القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض فى سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضاً ويعادى بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضا على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حقّ ربهم ومخالفة

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٤٨ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٤٩ ] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفى الصحيحين[1] عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعذّبهم .

فالاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون ( إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ) وهم إنما يحتجون به فى ترك حق ربهم ومخالفة أمره، لا فى ترك ما يرونه حقاً لهم ولا فى مخالفة أمرهم. ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفرّون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلا . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغىّ لكثير من الناس. ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهى ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات فى أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذى يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص . وهم متبعون أهواءهم فى الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى[2] ( فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين فى سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى[3] : ( وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٢٠ / طه / ١٢٣ ] . (٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٠ ] .

يَخْرُصُونَ ، وقال فى سورة الأنعام(١) ( قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ) إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى(٢) : ( لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ) ثم أثبت القدر بقوله: ( فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما حق . وقال فى النحل(٣) ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ) فبيّن سبحانه وتعالى ـ أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففى فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب. كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم(٤) أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر فى الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويبغض الفواحش ، فيحبّ أن يمدح بالعدل والإحسان . وألّا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبيّن لهم وأزاح علتهم ، ثم تعدَّوْا حدودَه وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدَّر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبيّن أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

(١) [ ٦/ الأنعام/ ١٤٩ ] . (٢) [ ٤/ النساء/ ١٦٥ ] . (٣) [ ١٦/ النحل/ ٣٥ ] .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا شخص أغير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٩ ـ كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ ( طبعتنا ) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن ولىّ أمر أعطى قوماً مالًا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه فى البرية ليس عنده أحد وباتوا فى مكان بعيد منه ، وكان ولىّ الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لُقَطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا ـ لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب علىّ ، ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قائمة . ولم يكن يدعى فيهم ظالما . وإن كان لم يُعِنْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة فى إرسال الأولين والآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى، حَكَمٌ عدل فى كل ما جعله . ولا يخرج شىء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرّطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلًا حكماً فى خلق هذا وخلق هذا، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يعدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ، لعدم اتباع الحق الذى بيّنه العلم. فإن الإنسان حىّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبىّ ﷺ [1] : (أصدق الأسماء . الحارث وهمّام ) فالحارث الكاسب العامل . والهمّام الكثير الهمّ . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال فى الجامع الصغير : الشيرازىّ فى ( الألقاب والكنى ) والطبرانىّ فى الكبير ) عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور. فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب. والحيّ مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذ تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوّر قد يكون علماً وقد يكون ظنًّا وخرصاً . فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعا للظن وماتهوى نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لَدَدٍ وتفريج ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد فى باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقرًّا بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تكلم بغير علم . ومن تكلم بغير علم كان مبطلًا فى كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فإما أن يكون جاهلًا ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قدعرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه. فتبيّن أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم(١) ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّـهِ ) . انتهى .

وله تتمة سابغة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانيّ فى هذه الآية : إنَّمَا قَالُوا ذَٰلِكَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا عن فرط الجهل وإلزاما للموحدين بناءً على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لايمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من فى العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفى القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركا ، قال الله تعالى (٢) ( وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٥٠ ] . (٢) [ ٦ /الأنعام / ١٠٧ ] .

مَآ أَشْرَكُواْ) وقوله تعالى[1] (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعناد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مامثاله :فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبّر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند المليّين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهىّ عنده . ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم[2] (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصّبر ، لوقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التكلم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول ( واعتمادى على الله فيما أقول ) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٣٥ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٤٨ ] .

وقال فى موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدَر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو ( لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ )[1] فلايسوغ لأحدٍ منا، وهو يدّعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ )

[٣٨] ( وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث بقوله: « وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ » أى جاهدين فيها فـ(جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ) أى إنه يبعثهم ، فيبتّون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حقّ ، فيكذبونه ـ وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه ومالا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٦/ الأنعام / ١٤٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ)

[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله «وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ» أى فى أباطيلهم. لاسيما فى أيمانهم بعدم البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة[١] ( هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) ثم بيّن عظيم قدرته ، وأنه لايعجزه شىء مّا بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيوجد على ماشاء تكوينه كقوله تعالى[٢] ( وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ) وقوله[٣] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ).

قال الزمخشرىّ : ( قَوْلُنَا ) مبتدأ و ( أَن نَّقُولَ) خبره و ( كُن فَيَكُونَ ) من ( كان ) التامة التى بمعنى الحدوث والوجود. أى إذا أردنا وجودشىء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك ، لايتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لايمتنع عليه . وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل . ولاقولَ ثَمَّ . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إنّ ( كن ) إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال . وإن كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ، فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلّان ، رجاء ثوابه وابتغاء مرضاته ، بقوله :

---

(١) [ ٥٢ / الطور / ١٤ ] . (٢) [ ٥٤ / القمر / ٥٠ ] . (٣) [ ٣١ / لقمان / ٢٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ )

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ » أى مخلصين لوجهه، أو فى حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا سوى صغار أبنائهم، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية. وقوله تعالى « مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ » أى أوذوا وأريد فتنتهم عن الدين «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالغلبة على من ظلمهم ، وإيراثهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالميهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ )

[٤٣] ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

[٤٤] ( بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ )

« ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ » أى على ما أوذوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لاظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إيحاء الله لرسوله ، واصطفائه برسالته ، قيل في درء شبهتهم « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله[1] ( إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ) أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعاميّ . وفي ذلك بحث طويل في ( إيقاظ الهمم ) للفُلَّاني فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طرف منه في ( فتح البيان ) .

وقوله تعالى : « بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ » أي بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجارّ متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أي أرسلناهم. أو بـ(ما أرسلنا ) . أو بـ(نوحي) أو بـ(لاتعلمون) ، على أن الشرط للتبكيت والإلزام «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ» أي القرآن المذكّر والموقظ من سنة الغفلة « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أي مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ )

« أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أي المكرات السيئات التي قُصَّتْ عنهم . فهي

(١) [ ٣٦ / يس / ٦٩ ] .

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ(مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهةٍ لايعلمون بها ، كما لايشعر الممكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٤٨] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ)

«أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ» أى سعيهم فى المعايش واشتغالهم بها «فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ» أى لايعجزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك ومخافةٍ له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقّص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » أى جسم قائم له ظلّ « يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ » أى عن جانبى كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سُجَّدًا لِّلَّهِ » أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَٰخِرُونَ » أى صاغرون. وغلب فى جمعها من يعقل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعتبر ماذكر فيه ، ويجعل مابعده جاريا على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ فى سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه فى جهة واحدة . وهو فى العشىّ على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغايتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق ( سجداً ) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير ( ظلاله ) وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف . و ( عَنِ ٱلْيَمِينِ ) متعلق بـ( يتفيؤ ) أو حال . كذا فى ( العناية ) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿سجدة﴾ [٤٩] ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ )

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ » أى الملائكة ، مع علوّ شأنهم « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته والسجود له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ )

« يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » أى من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله ( مِّن فَوْقِهِمْ ) على ثبوت الفوقية والعلوّ ، له تعالى . وقد صنف فى ذلك الحافظ الذهبىّ كتاب ( العلوّ ) وابن القيم كتاب ( الجيوش الإسلامية ) وغيرهما . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد فى ( مناهج الدولة ) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علوّ بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ)

« وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ » . إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنّى نص فى معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى فى نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلِمَ ذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثانى صرّح به للدلالة على أنه المقصود الذى سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله[١] :

فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإنَّ الحربَ أَوَّلُهَا الكَلَامُ

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاثنينيّة تنافى الألوهية . فهو فى معنى قوله[٢] (لَوْ كَانَ

---

(١) قائله نصر بن سيّار . من أربعة أبيات، يحسن الوقوف عليها، ومعرفة سبب قولها. قال ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثانى .

كان يزيد بن عمر بن هُبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيّار . فكان لا يعدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثر ذلك على نصر ، قال :

أرى خَلَلَ الرماد وَمِيضَ جمر ... ويوشِكُ أن يكون له ضِرَامُ

والبيت . . .

فإن لم يُطفِهَا عُقَلَاءُ قوم ... يكون وَقُودَهَا جُثَثٌ وهامُ

فقلت من التعجب : ليت شعرى ! ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيامُ

(٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٢ ] .

فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ) فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التى هى من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : ( وَقَالَ ٱللَّهُ ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ) أو على قوله (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ) وقيل : إنه معطوف على ( مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ) على أسلوب[1] * عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * .

---

(١) وعجز البيت :

* حتى غدَتْ هَمَّالةً عيناها *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب ( منتهى الأرب ) :

لم أقف لهـذا الشاهد على نسبة إلى قائل معيَّن . ويروى صدره عجُزا فى بيت آخر ، هكذا :

لَمَّا حططتُ الرحلَ عنها وارداً عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً باردَا

الشاهد فيه قوله ( وماءً ) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل فى المعطوف عليه ، لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعلماء ثلاثة أراء فى تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها ـ أن قوله : (وماءً) لا يجوز أن يكون مفعولا معه، كما لا يجوز أن يكون معطوفا على ماقبله عطف مفرد على مفرد. بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذى ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا فى ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ) ولم يسمعوا ماقال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه . وفى قوله ( فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ) التفات عن الغيبة، مبالغة فى الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ )

[٥٣] ( وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ )

[٥٤] ( ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ )

[٥٥] ( لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ، فَتَمَتَّعُواْ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ )

« وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » معطوف على قوله ( إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ) أوعلى الخبر، أومستأنف . «وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا» أى العبادةلازمة له وحده. ولزومها له ينافى خوف الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله[1] : ( أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ) .

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ» أى لاتتضرعون إلا إليه ، لعلمكم أنه لايقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجؤار : رفع الصوت . يقال : جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [ ٣ / آل عمران / ٨٣ ] .

والاستعانة فى رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :
« لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم. واللام للعاقبة والصيرورة
« فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .
وللقاشانىّ وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله فى
شيء . ثم بيّن تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ )

[٥٧] ( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ )

«وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ». أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد «نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ»
أى من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا إليها « تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى :
من أنها آلهة يُتقرب إليها . ومرّ نظير الآية فى سورة الأنعام فى قوله سبحانه[١] (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ
مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا) الآية، فانظر تفصيلها ثمّت «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ
سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين
هم عباد الرحمن بنات الله، فنسبوا له تعالى ولدا ولا ولد له. واجترءوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة
أدنى القسمين له من الأولاد، وهو البنات. وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور،
أى يختارونهم لأنفسهم ويأنفون من البنات. وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله(سُبْحَـٰنَهُۥ)
أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراءتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ،
ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه[٢] ( أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٣٦ ] . (٢) [ ٥٣ / النجم / ٢١و٢٢ ] .

قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ) وقال تعالى(١) ( أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفظاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ )

[٥٩] ( يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ، أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ، أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ )

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا » أى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كناية أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها مايوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ » أى من أجله وخوف التعيير به. ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثا نفسه متفكراً فى أن يتركه على هوان وذلّ ، لايورّثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حيًّا « أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يجعلون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٥١ـ١٥٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم «مَثَلُ السَّوْءِ» أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنىّ عن العالمين . والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئ المتقدمة « مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِن دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين « وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى »

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى المسمى «لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ* وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مالهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله[1] ( وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ) يعنى جَمْعَ هؤلاء بين عمل السوء وتمنّى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدّدت ، مكتوبا ( تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ. أجل. كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ)الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى ( وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : ( عينها تصف السحر ) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء .

قال أبو العلاء المعرّى[2] :

سَرَى بَرْقُ المَعَرَّةِ بعد وَهْنٍ ... فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٥٠ ] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلَاصِ كشفتِ حالَا ... ومِنْ عندِ الظَّلَامِ طلبت مالَا

( بعد وهن ) أى بعد طائفة من الليل . و ( معرّة النعمان ) بالشام . و ( رامة ) موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ » أى معجّلون إليها ومقدّمون . من ( الفرط ) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته فى طلب الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيّون فى النار . من ( أفرطته ) بمعنى تركته ونسيته ، على ما حكاه الفراء . كقوله تعالى[1] : ( فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) وقرأ نافع ( مُفْرِطُونَ ) بكسر الراء . اسم فاعل من ( أفرط ) إذا تجاوز أى متجاوزو الحدّ فى معاصى الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من ( فرّط فى كذا ) إذا قصر . ويقرب من الآية ما قص عنهم فى قوله تعالى[2] (وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ) وقال تعالى[3] ( وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ).

ثم ذكر تعالى نعمته فى إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليتأسى صلوات الله عليه بهم بقوله سبحانه :

---

= معرّة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول ( طبعة بولاق عام ١٢٨٦ هـ ) .

(١) [ ٧/ الأعراف / ٥١ ] . (٢) [ ٤١ / فصلت / ٥٠ ] .

(٣) [ ١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ » أى من الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ » أى قرينهم، يُغْويهم. أوالمراد باليوم يوم القيامة . والولىّ بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة فى نفيه ، وتهكم، على حدّ (عتابه السيف) « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » أى فالقرآنُ هو الفرقانُ الفاصل بين الحق والباطل ، وكل ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته فى آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثْرَ قدرته فى إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله من وحيه وهداه ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ)

« وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ » أى

بالنبات والزرع، بعد جدبها ويبسها «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالته «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» أى سهل المرور فى حلقهم .

بيّن تعالى آيته فى الأنعام بما ذكر ، ليستدل به على واحدانيته وانفراده بالألوهية . وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقَلْبُ الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبديله دماً فى جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة. وإنما ذكّر الضمير فى بطونه هنا، وأنثه فى سورة المؤمنين ، لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة، ومنّته فى المشروب منها والمطعوم. و(السَّكَرُ) مصدر سمى به الخمر. فهو بمعنى السُّكْر كالرَّشَدِ وَالرُّشْدِ. قال الفراء: السَّكَر الخمر نفسها . والرزق الحسن الزبيبُ والتمر وما أشبههما، ولا يقال : الخمر محرمة، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام؟ لأنّ هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازىّ بجواب ثان .

وهو : أنه لاحاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما فى هـذه الأشياء من المنافع . وخاطب المشركين بها . والخمر من أشربتهم . فهى منفعة فى حقهم .

قال : ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر ، فوجب أن لا يكون السَّكَر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفى ( فتح البيان ) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على مالا يسكر من الأنبذة ، وعلى ماذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما فى ( الكشاف ) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هـذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا فى قوله تعالى : ( لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) فإنه أشرف مافى الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، دلائل قاهرة وبينات باهرة ، على أن لهذا العالم إلٰها واحداً قادرا مختاراً حكيما ـ أرشد إلى آيته الساطعة فى النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحى الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لايزيد بعضها على بعض ، ممـا لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوى إليها فى ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت النـاس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع ( عرش ) وهو البيت الذى يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت فى غير هـذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتهـا ما كان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافى لايتعهدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد فى الخلايا. ومن بديع الإلهام فيها اتخاذهاالبيوت قبل المرعى. فهى تتخذها أوّلا . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى من كل ثمرة تشتهيها ، حـلوها ومرها . فالعموم عرفىّ ، أو لفظ ( كُل ) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لايلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر ( مِنَ ) فى قوله تعالى ( مِنَ ٱلْجِبَالِ ) الخ ، على ( فى ) دلالة على معنى التبعيض. وأن لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها. نبه عليه الزمخشرىّ .

قال الناصر : ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه فى تبعيض (من ) المتعلقة باتخاذ البيوت. بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجرْ عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت، والإطلاق لها فى تناول الثمرات. كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شىء شئت. فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار فى المواضع النائية فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعّر عليك ولا تضلين فيها . و ( ذللا ) جمع ذلول ، حال من ( السبل ) أى مذللة ذللها الله لكِ وسهلها. فهى تسلك من هذا الجوّ العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ » أى فمنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النَّور أو مزاجها « فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية فى بعض الأمراض . وله دخل فى أكثر ما به الشفاء والمعاجين . وقلّ

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرته بالنسبة إليه . وفى الصحيحين[1] عن أبى سعيد الخدرىّ ، رضى الله عنه ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : اسقه عسلا . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلًا ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلًا فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يارسول‌الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلًا . فذهب فسقاه عسلًا فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلًا وهو حارّ تحللت فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالًا ، فاعتقد الأعرابىّ أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفى ( العناية ) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابىّ فانظرها .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه، وانفراده بألوهيته. وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضابا، وتلفظه شرابا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤ ـ باب الدواء بالعسل ، وقول الله تعالى : ( فيه شفاء للناس ) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ ( طبعتنا ) .

قال الحجة الغزالى ( فى الإحياء ) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقدار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ماسخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة - لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيرا فى نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية فى الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير ومايقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لاتبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة . ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لاتبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفا به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . ليهنأ عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفى طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضا فى الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك اللسوع . وإذا أهلك شىء منها داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارج . وفى طبعه أيضا النظافة . فلذلك يخرج رجيعه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذى يعمله فى الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلّ العسل فى الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفا على نفسه من نفاده لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل فى الخلايا . قالوا : وكيف النحل فى الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يسلخ جلده كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة، ويضره السوس. ودواؤه أن يطرح له فى كل خلية كف ملح . وأن يفتح فى كل شهر مرة . ويدخن بأخثاء البقر . وفى طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا فى ( حياة الحيوان ) .

وذكر الإمام الغزالىّ أيضا فى كتاب ( الحكمة فى خلق المخلوقات ) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق. لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجًّا، افترق النحل خلفهما . ثم إنها أُلهمت أن ترعى رطوبات مِن على الأزهار . فيستحيل فى أجوافها عسلا . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وملاذ العباد . وفيه من أقوات فضلاتٌ عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم . فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع فى أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح . فانظر فى هذه الذبابة، هل فى علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أوعندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسد فيها! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها فى ترتيب بيوتها من الحكمة فى بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ماذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك. وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب . والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة . والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ، فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ » أى أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ » أى أضعفه وأردئه وهو الهرم. وقوله تعالى «لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا» اللام للصيرورة والعاقبة. أى فيصيرُ ، إن كان عالما ، جاهلًا. فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال فى (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسى يعلم الشيء ثم ينساه، فلا يعلم بعد ماعلم. أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل، والمعنى لايترقى فى إدراك عقله وفهمه ؛ لأن الشاب فى الترقى ، والشيخ فى التوقف والنقصان .

وفى (الكشاف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية فى النسيان. وأن يعلم شيئا ثم

يسرع فى نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لئلا يعلم زيادةعلم على علمه الأول. و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية. وجوز فيهالتنازع بين ( يعلم ) و ( علم ) وكون مفعول ( علم ) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً مابعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ » أى بمعطيهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم؟ كما قال فى الأخرى[1] ( ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ) الآية.

« أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ماأنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

---

(١) [ ٣٠ / الروم / ٢٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ، أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ )

[٧٣] ( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ )

[٧٤] ( فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أو فى تحريم ما أحل لهم «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا» أى من مطر أو نبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً. وإن جعل اسماً للمرزوق فـ( شيئاً ) بدل منه بمعنى قليلًا . و ( من السموات ) متعلق بـ( يملك ) على كون الرزق مصدراً . أو هو صفة لـ( رزقاً ) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أو لا استطاعة لهم أصلًا . أو الضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون، فكيف بالجماد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالًا . والضرب للمثل فيه معنى الجعل . والأمثال جمع ( مثل ) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مَثَل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم فى النهى عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفى لفظة ( الأمثال ) لمن لا مثال له ، نعىٌ عظيم على سوء فعلهم . كذا فى ( شرح الكشاف ) .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهى. أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لاتعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلىّ وهو الإشراك ، عقبه بالكشف لذى البصيرة ، عن حالهم فى تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » يعنى أن مثل هؤلاء فى إشراكهم ، مثلُ مَن سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّ مالك يتصرف فى ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله: ( وَمَن رَّزَقْنَٰهُ ) الخ على ( مالكاً ) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكيره الإنفاق منه فى السر والجهر ، ليكون عاملا بأمر الله فيه .

وقوله تعالى ( ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ) أى على ماهدى أولياءه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لايستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هـذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لايعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ )

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا » أى مثلاً آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطيق المفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ » أى ثقيل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لَا يَأْتِ بنجحه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثّهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ماذكر من نفعه العام « عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لايتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهرىّ : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذى عبدوه وهو لايقدر على شيء ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحمله إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان. فقال الله تعالى: هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لاتسووا بين الصنم الكلّ وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشريّ بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التى هى أموات لاتضر ولاتنفع . انتهى .

وناقش الرازىّ فى حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف فى الثانى بأنه على صراط مستقيم، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال فى جوابه بأن الأوصاف الأُوَل ، وإن كانت ظاهرة فى الإنسان ( والأصل فى الإطلاق مايتبادر وهو الحقيقة ) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن. لأن الآيات فى بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لايصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص. وأما الوصف فى قوله ( عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) فكقوله تعالى(1) : ( إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيّم فى ( أعلام الموقعين ) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال، فى بحث أمثال القرآن ، فى هذين المثلين ما صورته :

فالمثل الأول . يعنى قوله تعالى ( ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شىء . ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه ملأى لايغيضها نفقة . سحّاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لاتقدر على شىء ، فكيف يجعلونها شركاء إلىّ ويعبدونها من دونى ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن فى الخير الذى عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(1) [ ١١ / هود / ٥٦ ] .

عاجز لايقدر على شيء. لأنه لاخير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر فى بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم فى إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله[1] : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّـهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّـهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : ( ضَرَبَ ٱللَّـهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ) ومن لوازم هــذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والـكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منبها على إرادته . لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً فى كلام ابن عباس وغيره من السلف فى فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله .

وأما المثل الثانى ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضا. فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبىّ واللسانىّ ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حىٌّ قادر متـكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الـكمال والحمد. فإن أمره بالعدل، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه. وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعىّ الدينىّ والأمر القدرىّ الـكونىّ . وكلاهما عدل لاجور فيه بوجه. كما فى الحديث الصحيح[2] : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك عدل فىَّ قضاؤك . فقضاؤه

(١) [ ١٦ / النحل/ ٧٣ و ٧٤ ] .(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٣٧١٢ ( طبعة المعارف ) .

هو أمره الكونى[١] ( إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان فى المقضىّ المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقضىّ . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب[٢] : ( إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) وقوله ( مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ) نظير قوله ( نَاصِيَتِى بِيَدِكَ ) وقوله ( إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) نظير قوله (عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ). فالأول ملكه. والثانى حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد. وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق فى أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التى لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة .فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبرىّ[٣] : وقوله : ( إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والمسىء بإساءته . لا يظلم أحدا منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبى نجيح عنه ( إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه.

---

(١) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٥٦ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثانى عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقالت فرقة : هى مثل قوله[١] ( إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

وقالت فرقة : فى الكلام حذف تقديره : إن ربى يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أنَّ هذا معنى الآية التى أريد بها، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر. وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم. وإن أرادوا أنَّ حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شىء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شىء تحت قدرته وقهره فى ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية. وقد فرق شعيب بين قوله[٢] : ( مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ) وبين قوله[٢] : ( إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) فهما معنيان مستقلان .

فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه.

وقال جرير[٣] يمدح عمر بن عبد العزيز :

أميرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوجَّ الموارِدُ مستقيمِ

وقد قال تعالى[٤] : ( مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) .

---

(١) [ ٨٩ / الفجر / ١٤ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٥٦ ] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلُمْتِ وما رَفَقْتِ بأن تَلُومِى وقلتِ مقالةَ الخَطِلِ الظَّلُومِ

يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [ ٦ / الأنعام / ٣٩ ] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم مافى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم مايوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عرية منهما. فأشار إلى الأول بقوله ( وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) أى يختص به علم ماغاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة. فإن علمه غائب عن أهلهما، لم يطلع عليه أحد منهم، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ) و ( الساعة ) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و(اللمح) النظر بسرعة. أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ( أو هوأقرب ) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لايخفى . وقوله : ( إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لاتتناهى ، وأن مايذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

[٧٩] ( أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا » عطف على قوله تعالى : ( وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ) منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى ( وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ) وقوله تعالى ( وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ) وقوله تعالى ( وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ) أفاده أبو السعود . و ( شَيْـًٔا ) منصوب على المصدرية . أو مفعول ( تعلمون ) والنفي منصبّ عليه . أي لا تعلمون شيئاً أصلا من حق المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ » أي فتدركون به الأصوات « وَٱلْأَبْصَٰرَ » فتحسون المرئيات « وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أي العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أي لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشي على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ » أي مذللات « فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ » أي ما يمسكهن في الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزاليّ في الحكمة في خلق المخلوقات ، في حكمة الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله ؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك ، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به .

نخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له فى ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت فى موطن على الأرض وهى خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه. وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جدًّا ليستغنى به عن الريش فى الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه فى رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء. فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش فى موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذلو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى فى البرارى ولا فى البحائر حتى ينكبّ على صدره . وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق، ليزداد مطلبه عليه سهولة. ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائره ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق فى الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران .وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يغتذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هى فى العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله. وهو مقام الأسنان فى غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل فى سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالا له . وجعل فى ريشه من الحكمة، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته. وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته فى طيرانه . فلولاه لمـا مالت به الأجنحة فى حال الطيران يميناً وشمالاً . فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذى يعدل بها سيرها. وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحبّ العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق فى أجواف الطير. ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه فى جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بهـا وتعوّق عن النهوض للطيران. أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعـالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيتـه ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليـه لمـا لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا » أى بيوتاً أخرى وهى الخيـام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنهـا من جلودها . أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونهـا خفيفة المحمل وقت ترحالـكم ووقت نزولـكم فى مراحلـكم . لا يثقل عليـكم ضربها . أو هى خفيفة عليـكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى . لأن ظهور المنة فى خفتها إنما يتحقق فى حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل « وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا » أى وجعل لـكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ » الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتـــاع مايتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى . ومعنى ( إِلَىٰ حِينٍ ) أى إلى أن تقضوا منـــه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى . أو إلى أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا فى ( الإكليل ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ )

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ » أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها « ظِلَٰلًا » أى أفياء تستظلون بها من حر الشمس « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا » أى بيوتاً ومعاقل وحصوناً تستترون بهـــا « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أوْ لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قُطَّان الحجاز وهم الأصل فى هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً فى قوله[1] : ( لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ) وهو وجه الاقتصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ » كالدروع من الحديد والزرد ونحوها . التى يتقى بها سلاح العدوّ فى الحرب « كَذَالِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُو عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شىء قليل . وقرئ ( تَسْلَمُونَ ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ )

[٨٣] ( يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ )

[٨٤] ( وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ )

« فَإِن تَوَلَّوْاْ » أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ » أى التى عددت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا « وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ » .

(١) [ ١٦ / النحل / ٥ ]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم فى معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيّها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها «ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله[1] : ( هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أى لا يطلب منهم العتبى . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . ( والعتبى ) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى مايرضى العاتب . يقال: استعتبه أعطاه العتبى بالرجوع إلى مسرته. والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ )

[٨٦] ( وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ )

« وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يؤخرون «وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ» يعنى أوثانهم التى عبدوها «قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ » أى أربابا أو نعبدها « فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

---

(١) [ ٧٧ / المرسلات / ٣٥ و ٣٦ ] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أوينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام. وهذه الآية كقوله تعالى[١] : ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ) وقال تعالى[٢] ( وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ )

« وَأَلْقَوْاْ » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ » أى الاستسلام لحكمه بعد إبائهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » .

أى مِنْ أَنَّ لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى[٣] : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب: ( كما قال القاشانىّ ) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهىّ ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شراشر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم.

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٥و٦ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٨١و٨٢ ] .
(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ١٨ ] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ )

[٨٩] ( وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ )

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى[١] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى[٢] : ( لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمنى كونهم ترابًا ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى[٣] ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ

(١) [ ٦ / الأنعام / ٢٦ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٣٨ ] .
(٣) [ ٤ / النساء / ٤١و٤٢ ] .

لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا) . وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » مستأنف . أو حال بتقدير ( قد ).

قال الرازىّ : وجه تعلق هذا الكلام بماقبله ، أنه تعالى لما قال ( وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ) بيّن أنه أزاح علتهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير فى وجه ذلك : إن المراد، والله أعلم، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة ( فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ )(١) ، ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ )(٢) ، ( يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ، قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)(٣) وقال تعالى(٤) ( إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و ( التبيان ) من المصادر التى بنيت على هــذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبييناً لكل علم نافع من خبرما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ( وَهُدًى ) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله ( وَرَحْمَةً ) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

(١) [ ٧ / الأعراف / ٦ ] . (٢) [ ١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣ ] .
(٣) [ ٥ / المائدة / ١٠٩ ] . (٤) [ ٢٨ / القصص / ٨٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ » أى فيما نزله تبياناً لكل شىء « بِٱلْعَدْلِ » وهو القسط والتسوية فى الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه « وَٱلْإِحْسَٰنِ » أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه «وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ» أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه « وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ » أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى « وَٱلْمُنكَرِ » أى كل ما أنكره الشرع « وَٱلْبَغْىِ » أى العدوان على الناس « يَعِظُكُمْ » أى بما يأمركم وينهاكم « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أى تتعظون بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود[١] : إن أجمع آية فى القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية .
وروى الإمام أحمد[٢] : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبىّ ﷺ وهو جالس بفناء بيته. فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكثم بن صيفىّ قال لقومه[٣]: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٩٢٢ ( طبعة المعارف ) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير ( طبعة ١٩٣٧ ).

عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساء ولاتكونوا فيه أذناباً . وعن عكرمة ؛ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليـد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخى ! أعد علىّ . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وماهو بقول البشر .

وقد نقل أن بنى أمية كانوا يسبّون عليًّا ، كرم الله وجهه ، فى خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم مآثره .

قال الناصر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغى فيها، وبين الحديث الوارد فى أن المناصب لعلىّ باغ. حيث يقول عليه الصلاة والسلام[1] لعمار ( وكان من حزب علىّ ) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع علىٍّ يوم صفين . انتهى .

ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى، وكونها أجمع آية لاندراج ماذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ )

« وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٣ ـ باب التعاون فى بناء المسجد ، حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٧٠ ( طبعتنا ) .

روى ابن جرير عن بريدة قال[1] : نزلت فى بيعة النبىّ ﷺ . كان مَنْ أسلم بايع النبىّ على الإسلام ، فأُمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كالمبايعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحِلْف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيدوالتأكيد)، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو فى قوله ( وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ) للحال من فاعل ( تَنقُضُوا۟ ) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى ( كَفِيلًا ) شهيداً رقيباً . و ( الجعل ) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقى ( الكفيل ) على ظاهره ، وجعل تمثيلًا لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال ( من ظلم فقد أقام كفيلا بظلمه ) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب ـ لكان معنى بليغاً جدًّا . وقوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الأيمان . وجلىّ أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ماثبت عن النبىّ ﷺ فى الصحيحين[2] أنه قال : إنى ، والله ! إن شاء الله ، لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هوخير وتحللتها . ( وفى رواية : وكفَّرت عن يمينى ) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٧ـ١٠ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ )

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » تأكيد لوجوب الوفاء وتحريم النقض. أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها، بعدأن أحكمته وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .

ففى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل ، داخل فى زمرة النساء. بل فى أدناهن ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» حال من الضمير فى (ولا تكونوا) أى لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم مُتخذين أيمانكم مفسدة بينكم «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش، هى أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز الحق من المبطل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجىّ ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ، من إبطال الدور . لأن الله تعـالى ذم من أعاد على الشىء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى ( الإكليل ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لااستفسار وتفهم . وهو المنفىّ فى غير هذه الآية. أو فى موقف دون موقف كما مر. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ )

« وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » تصريح بالنهى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهىّ عنه، تأكيداً عليهم ومبالغة فى قبح المنهىّ « فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدتُّمْ » أى بصدودكم عن الوفاء ، أو بصدكم غيركم « عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير ( قدم ) للإيذان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟. وأشار فى ( البحر ) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله[1] : ( وَأَعْتَدَتْ

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣١ ] .

لَهُنَّ مُتَّكَأً ) أى لكل واحدة منهن متكئاً . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد ( قَدَمٌ ) مراعاةً لهذا المعنى . ثم قال ( وَتَذُوقُواْ ) مراعاة للفظ الجمع .

قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافى النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ )

« وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يَعِدُونهم ويمنّونهم، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

« مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم » أى على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » هـذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايمىّ : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعسارُه . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه؛ إذ يزداد حرصًا وخوف فوات. ويجزون بالأحسن فى الآخرة. فلا يقال لهم: أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا. بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى. انتهى.

وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ».

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أُمِر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجيء إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه. وقد بينت آية[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أن هذه عادة الشيطان ، إثر ما يتلوه كل نبيّ على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أي تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكاره ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ،فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أي اللعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالكواكب . والضمير في ( بِهِ ) لربهم والباء للتعدية. أو للشيطان والباء للسببية .أي بسببه وغروره ووسوسته. ورجح باتحاد الضمائر فيه. وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٥٢ ] .

تنبيه :

فى الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها فى غيره ﷺ التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » .

التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى. والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكما بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما، من الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية .وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطرىّ . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبىٍّ أُمِّىٍّ لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المكىّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه. وللبحث تفصيل فى موضع آخر. وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى(١) (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى(٢) (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردًّا للحق ، وعناداً للهدى ، وتوليا للشيطان ، وتعبّدا لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) واعتراض قوله ( وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ) لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله ( قُلْ نَزَّلَهُۥ ) أى القرآن المدلول عليه بالآية ( رُوحُ ٱلْقُدُسِ ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال ( حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق ) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخيّر والخبر السيء والرجل الصادق. وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والمقدس المطهّر من الأدناس البشرية. وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى ( مِن رَّبِّكَ ) للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية. وقوله ( بِٱلْحَقِّ ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره، وقوله تعالى ( لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى: ( وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ) تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٠٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ، لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ، لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ » .

يخبر تعالى عن المشركين فى قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذى يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلا أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ فى الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبيّ صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيذان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذى ينسبون إليه التعليم أعجمىّ غير بيّن . وهذا القرآن الكريم لسان عربىّ مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمىّ أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلا أن ينطق به ، فضلًا أن يكون معلماً له ! وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[١٠٥] ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تهديدلهم على كفرهم بالقرآن، بعدما أماط شبهتهم وردّ طعنهم فيه. وقوله تعالى: « إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ » ردّ لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لا هو . يعني إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه عنه، وقوله تعالى « وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون، ويدخل فيهم قريش دخولًا أوليًّا . أي الكاذبون في الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى مافي الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه. وقد كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملًا وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم . بحيث لا يُدْعَىٰ بينهم إلا بـ(الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم[1] أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة ( إنَّمَا ) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد في النهاية .

وروى[2] أن النبيّ ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازيّ . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ١ ـ كتاب بدء الوحي ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، والحديث طويل ينبغي الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٥٦ ـ كتاب ما يكره من الكلام، حديث ١٩ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[١٠٧] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[١٠٨] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

[١٠٩] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

« مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

لما بيّن تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، فى المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ماللردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلام قوىٍّ وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إيثارا لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولا . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجليّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازيّ : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشترى بطاعاته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه . فلهذا قال : ( لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

## تنبيهات :

الأول : ( مَن ) فى قوله تعالى ( مَن كَفَرَ ) موصول مبتدأ خبره ( فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ) وقوله ( إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله ( وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبيّن لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن المكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفى طلاق المكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلّا ما استثنى . أفاده السيوطىّ فى ( الإكليل ) .

الثالث : روى عن ابن عباس[1] ؛ أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفر بالنبىّ ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذرًا . قال ابن جرير[2] : أخذ المشركون عمارًا فَعَذَّبوه . حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبىّ ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنًّا بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فَعُدْ .

وقال ابن إسحاق[3] : إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضى الله عنه عبدًا لبعض بنى جُمَح . يخرجه أمية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى . فيقول ( وهو فى ذلك البلاء ) : أحدٌ . أحدٌ حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، رضى الله عنهم ،إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبرًا آل ياسر، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام .

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ ( طبعة جوتنجن ) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالسًا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزّى إلٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له : هذا الجُعل إلٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداءً منهم ، مما يبلغون من جَهْده .

وقد ذكر ابن هشام[1] فى ( السيرة ) فى بحث ( عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة ) غرائب فى هذا الباب ، فانظره .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم، وهم يفعلون به الأفاعيل، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاريّ ، لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهميّ ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم. فجاءوا به إلى ملكهم. فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى. فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذًا أقتلك . فقال: أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن ) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .

ثم أمر بقِدْرٍ فأُحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة . تلقى فى هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لى ، بعدد كل شعرة فى جسدى ، نفس تعذب هذا العذاب فى الله .

وفى بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً. ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لى. ولكن لم أكن لأُشمّتك فىّ . فقال له الملك : فقبّل رأسى وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين. قال، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده. فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبدأ . فقام فقبل رأسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ)

«ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ» .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد. أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة، أى إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجارّ فى قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر ا (إنّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُواْ)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله ( جَـٰهَدُواْ ) فى بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا فى سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال فى الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

« يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا » منصوب بـ ( رحيم ) أو بـ ( اذكر ) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى ( تُجَـٰدِلُ ) أى تحاجّ وتسعى فى خلاصها . لا يهمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شىء مَا « وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » فى ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] ( وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ )

[١١٣] ( وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ )

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ » اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة ، أنذرهم بنقمته فى الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى ( وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ) أى جعل القرية التى هـذه حالها مَثَلًا لـكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فـكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نقمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولًا أوليًّا ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدرة بهـذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن ( ضَرَبَ ) معنى ( جعل ) و ( مَثَلًا ) مفعول ثانٍ و ( قَرْيَةً ) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير ( قرية ) مع كونها مفعولًا أول ، لئلا يحول المفعول الثانى بينهـا وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن الـكل مخلّ بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقبًا لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم مايدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل. فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضـل تمـكن . والمراد بالقرية أهلها مجازا ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها ( ءَامِنَـةً مُّطْمَئِنَّةً ) أنه لايزعجها خوف ، و ( الرغد ) الواسع . و ( الأنعم ) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : ( فَأَذَٰقَهَا ٱللَّـهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم، باللباس الغاشى للابس. فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هـذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لايخاف. كما قال تعالى[1] (وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

(١) [ ٢٨ / القصص / ٥٧ ] .

شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال هٰهنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هنيئاً سهلاً (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى(١) : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال : (فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شىء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافه . فدعا(٢) عليهم بسبعٍ كسبع يوسف . فأصابتهم سنة أذهبت كل شىء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَٱلْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم فى قوله(٣) : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...) الآية ، وقوله تعالى(٤) : (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَّسُولًا) ، وقوله(٥) : (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩ ] . (٢) أخرجه البخارىّ ، تعليقاً ، فى : ٨٠ كتاب الدعوات ، ٥٨ ـ باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [ ٣ آل عمران / ١٦٤ ] . (٤) [ ٦٥ الطلاق / ١٠ ] .

(٥) [ ٢ / البقرة / ١٥١ ] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين فى تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلا ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

« فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أى من الحرث والأنعام « حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنِ ٱضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعدّ قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فلا يؤاخذه بذلك .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

[١١٧] ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لاتقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم ، بالحل والحرمة فى قولكم ( مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . فـ ( الكذب ) مفعول ( تقولوا ) وقوله: ( هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ) بدل من ( الكذب ) واللام صلة للقول . كما يقال : لاتقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه. أو ( هَٰذَا حَلَٰلٌ ) مفعول ( تقولوا ) و ( الكذب ) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و ( ما ) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : ( لِّتَفْتَرُواْ ) بدل من التعليل الأول . أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب، أى لأجل قول تنطق بهألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرارمع قوله : ( لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم ، لتمرنهم على الكذب ، اجترءوا على الكذب على الله ، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه. وعلى هذا الوجه ـ كون الكذب مفعول (تصف) ـ ففى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجعله عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، فـ ( تصف ) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب. فالتعريف في الكَذِبِ للجنس. كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعرّى[1] :

سَرَى بَرقُ المَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الكَلَالَا

ونحوه ( نهاره صائم ) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و ( وجهها يصف الجمال ) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذى يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرّفه ، كقوله :

أضحتْ يمينُكَ من جودٍ مصوّرةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

فهو من الإسناد المجازىّ. أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال. فهو استعارة مكنيّة. كأنه يقول : ما بى هو الجمال بعينه. ومثله وارد فى كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما فى ( شروح الكشاف ) .

وما فى الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت. أفاده فى (العناية). واللام فى (لِتَفْتَرُواْ) لام الصيروة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصدهم لذلك غير بعيد . وفى قوله تعالى: ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يمتد به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . أما فى الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال[2]: ( نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعىّ

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ ( هذا الجزء ) .

(٢) [ ٣١ / لقمان / ٢٤ ] .

أو حلل شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآيةفى سورة النحل . فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا.

قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنةرسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المُؤْثرين للرأى المقدّمين له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبرانىّ عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول الله له : كذبت .

قال ابن العربىّ : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هـذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه. ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا، ونحو ذلك .

ولماذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ، بيّن ما كان حرمه على اليهودفى شريعتهم مما ليس فيه أيضاً شىء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافترائهم بأن ما حظروه لا سند له فى شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ » أى

فى سورة الأنعام فى قوله تعالى[١] : (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ . . .) الآية «وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ» أى فيما حرّمنا عليهم «وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فاستحقوا ذلك . كقوله[٢] (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه فى تفسيرها مما يجىء هنا ، فتذكر . قالوا : فى الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلّا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله فى قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ» أى العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا» أى التوبة «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته فى التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لمقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ، ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أى إماما يقتدى به، كقوله تعالى[٣] : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمةً من الأمم ، لاستجماعه كمالات لا توجد فى غيره «قَانِتًا لِّلَّهِ» أى خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفاً» أى مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ» أى قائما بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٤٦ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ١٦٠ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ١٢٤ ] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى[1] ( وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به « ٱجْتَبَـٰهُ » أى اختاره واصطفاه للنبوّة « وَهَدَىٰـهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، على شرع مرضىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ )

[١٢٣] ( ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ )

« وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً » أى من الذكر الجميل. كما قال[2] ( وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال[3] ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية « وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ » أى فى عالم الأرواح « لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ » أى المتمكنين فى مقـام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

« ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » أى بعد هـذه الكرامات والحسنات التى أعطيناهُ إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لاتتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانىّ.

وفى ( الإكليل ) استدل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [ ٥٣ / النجم / ٣٧ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٥٠ ] .

(٣) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٨و١٠٩ ] .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فى ( ثُمَّ ) هذه مافيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجلّ ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قِبَلِ أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان. ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علوّ المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلًّا مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وههنا ماهو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبيّ ﷺ الأمىّ ، الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوًّا أمره بذلك فى القرآن العظيم . ففى ذلك تعظيم لهما جميعاً. لكن نصيب النبيّ ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر. على مامهدناه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] ( إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

« إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابّهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لحله .

قال القاشانىّ : أى مافرض عليك ، إنما فرض عليهم. فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ )

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين وحسن الخطاب، من غير عنف. فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهبهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهَبْ نفسك، على مَنْ ضَلَّ منهم، حسرات، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلًّا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلّىّ . فما شرعه لك فى الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : ( وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ» أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم فى الفتوة، وعرق راسخ فى الفضل والكرم والمروءة ، فاتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ، وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه ( لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ) ألا تراه كيف أكده بالقسم واللام فى جوابه ، وترك المضمر إلى المظهر حيث ما قال ( لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ) بل قال ( لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر . فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتكدر بظهور صفة النفس. وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه. فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس. وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسىء بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها . فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجانى . أفاده القاشانىّ .

## تنبيهات :

الأول : فى ( الإكليل ) : قال ابن العربىّ : فى الآية جواز المماثلة فى القصاص . خلافاً لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين والنخعىّ ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعىّ : سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له فى يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية . ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهدوإبراهيم والحسن البصرىّ وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق .

الثانى ـ قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد ، حين قتل حمزة رضى الله عنه ومُثِّل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلنّ بثلاثين رجلًا منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسمّ . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولًا عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، حين استشهد. فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثِّلَ به. فقال: رحمة الله عليك . إن كنتَ لَما علمتُ، لوصولًا للرحم فعولًا للخيرات . والله لولا حزنٌ من بعدك عليك ، لسرّنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ( أو كلمة نحوها ) . أما والله ! على ذلك لأمثلنّ بسبعين كمثلتك. فنزلت هذه الآية . فكفّر رسول الله ﷺ . يعنى عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف. لأن صالحًا ( أحد رواته ) هو ابن بشير المرىّ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخارىّ : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أُبىّ بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلًا ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد أَمَّن الأسود والأبيض إلافلانًا وفلانًا ـ ناسًا سمّاهم ـ فنزلت الآية. فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول ـ فى مقدمة التفسير ـ يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة ـ ولا إلى ردّ ماروى من هذه الآثار. إذ به يتضح عدم التنافى . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما فى قوله تعالى[1] ( وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ) ثم قال[1] ( فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ) الآية . وقال[2] ( وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ) ثم قال[2] ( فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ ) انتهى .

ثم أكّد تعالى الأمر بالصبر، ليقوى الثبات والاحتمال، لكل ما يلاقيه فى سبيل الحق، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] ( وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ )

[١٢٨] ( إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ )

« وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ » أى بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ » أى على الكافرين، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكايد « إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ». تعليل لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم. قال ابن كثير:

---

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٤٠ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٤٥ ] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى[١] ( إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ) وقوله لموسى وهرون[٢] ( لَا تَخَافَآ ، إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى[٣] ( وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ) وقوله[٤] ( مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ) .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولًا أوليًا. وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه. عبَّر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكُن بك صابِرِينَ فإنَّمَا　　　صبرُ الرَّعيةِ عندَ صَبْرِ الرَّاسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجرُكَ بَعْدَهُ　　　واللهُ خيرٌ مِنْكَ للعبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزّانى أحد أحسن من تعزيته .

وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لى . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ١٢ ] .　(٢) [ ٢٠ / طه / ٤٦ ] .

(٣) [ ٥٧ / الحديد / ٤ ] .　(٤) [ ٥٨ / المجادلة / ٧ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٧ – سورة الإسراء

وتسمى سورة بنى إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف فى كونها مكية. نعم استثنى بعضهم منها: (١)(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ )وآية(٢)(وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية(٣) (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ) الآية وقوله(٤) ( وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ... ) الآية ، وقوله(٥)(إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ) لما ذكروه فى أسباب نزولها . ويأتى البحث فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

---

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٨٥ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٧٣ ] .
(٣) [ ١٧ / الإسراء / ٨٨]. (٤) [١٧/ الإسراء/ ٦٠] . (٥) [١٧/الإسراء/١٠٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ )

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » .

يمجد تعالى نفسه بقوله ( سُبْحَٰنَ ) وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لايقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى (ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ) أى سيّره منه ليلا . و ( أسرى ) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهمزة ( أسرى) ليست للتعدية . ولذا عدى بالباء. وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة فى ( أسرى ) لإفادة السرعة فى السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرامه . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر فى (الانتصاف) قال : ونظيره فى إفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى[(1)] ( لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوحدانية هى المقصودة فى قوله ( إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ) ولو اقتصر على قوله ( إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٥١ ] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان فى بعض الليل أخذا من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أرقت الليل ، وأنت تريد ساعة منـــه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هو المراد من البعضية. وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة. وأصله من الواو . أسرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وهو غريب. وفى تخصيص الليل إعلام بفضله لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد ( بعبده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ. وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ، من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره ـ ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيّم فى ( طريق الهجرتين) : أكمل الخلق أكملهم عبودية . وأعظمهم شهودا . لِفقْرِهِ وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ: أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنّما أنا عبد . وكان يقول[1] : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ، حديث رقم ١٢١٤ .

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال ( سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ) وقال[١] ( وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ) وقال[٢] (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفى حديث الشفاعة : أنَّ المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمى حراماً ، كبلده، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلئه . وقوله سبحانه ( إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده ( والأقصا ) بمعنى الأبعد . سمى بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى ( ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ) أى جوانبه ببركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبدَ الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجه إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوّه الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرُب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشدّ الرحال[٣] بعد المسجدين إلا إليه ،

---

(١) [ ٧٢ / الجن / ١٩ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣ ] .

(٣) حديث لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الخ . أخرجه البخارىّ فى : =

ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلاعليه . انتهى . ومن فضائله مارواه الإمام أحمد[1] والنسائى والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملـكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ـ يعنى بيت المقدس ـ خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازىّ فى ( عرائس البيان ) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الـكبرى من أنوار تجليه تعـالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طورسينا وطورزيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى فى تلك الجبال ، مواضع كشوف الحق . لذلك قال ( بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ) . انتهى .

والالتفات فى ( بَٰرَكۡنَا ) لتعظيم ماذكر. لأن فعل العظيم يكون عظيما . لاسيما إذا عبّر عنه بصيغة التعظيم . والنـكتة العامة تنشيط السامعين.

---

= ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٦ـ باب مسجد بيت المقدس، حديث ٣٧٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ ( طبعتنا ) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمـد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٦٦٤٤ ( طبعة المعارف ) .

وأخرجه النسائىّ فى: ٨ـ كتاب المساجد ، ٦ـ باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه.

وقوله تعالى ( لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ) إشارة إلى حكمة الإسراء. أى لكى نُرِى محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل ، مسيرةَ شهر ، ومشاهدةُ بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر فى قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان. وقد تعترض الشبهة والوساوس فى العقليات . لأنه لا يشك أحد فى نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يرى رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من ( التأويلات ) لأبى منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق[1] : كان فى مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصْنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

## تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلا . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والـكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهريّ وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النوويّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه. وقال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة .

وفي ( إنسان العيون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة. وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنيّ المقدسيّ قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : في ( زاد المعاد ) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هـذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) . وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين: مره قبل الوحي لقوله في حديث شريك ( وذلك قبل أن يوحى إليه ) ومرة بعـد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث. ومنهم من قال: بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ومرتين بعده. وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات، جعلوهمرة أخرى. فـكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذي عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمـكة بعد البعثة . ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضي عياض، عليه الرحمة ، في (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلىأنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي . وإلى هـذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن ( والمشهور عنــه خلافه ) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى[1] ( وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ ) وما حكوا عن عائشة : مافقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله ( بينا أنا نائم ) . وقول أنس : ( وهو نائم فى المسجد الحرام ) وذكر القصة . ثم قال فى آخرها : ( فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام ) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة. وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك بن صعصعة وأبى حبة البدرىّ وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيّب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة. وهو قول الطبرىّ وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبىّ وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ فى المدح.

ثم اختلفت هاتان الفرقتان: هل صلى ببيت المقدس أم لا؟ ففى حديث أنس وغيره صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضي عياض: والحق فى هذا والصحيح، إن شاء الله، أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلا عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان مناماً لقال ( بروح عبده ) ولم يقل ( بعبده ) وقوله[2] ( مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ) ولو كان

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٦٠ ] . (٢) [ ٥٣ / النجم / ١٧ ] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لاينكر. بل لم يكن ذلك منهم إلا وقدعلموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر فى الحديث، من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس فى رواية أنس ( أوفى السماء ) على ماروى غيره. وذكر مجىء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه فى فرض الصلاة ومراجعته مع موسى فى ذلك .

وفى بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعنى جبريل ، بيدى ، فعرج بى إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس: هى رؤيا عين رآها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لارؤيا منام .

وعن الحسن فيه بَيْنَا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل فهمزنى بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئا . فعدت لمضجعى . ذكر ذلك ثلاثا ، فقال فى الثالثة: فأخذ بعضدى فجرنى إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسولُ الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بيّن فى أنه بجسمه .

وعن أبى بكر ( من رواية شداد بن أوس عنه ) أنه قال للنبىّ ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يارسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة ـ وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذرّ رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ : فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدى فعرج بى .

وعن أنس: أتيت فانطلقوا بى إلى زمزم. وعن أبى هريرة: لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى . فسألتنى عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضى عياض (فى إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله ( وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ) فسماها (رؤيا) . قلنا : قوله ( سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ) يرده لأنه لا يقال فى النوم ( أسرى ) .

وقوله ( فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس فى الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت فى قصة الحديبية وما وقع فى نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سمّاها فى الحديث مناماً ، وقوله فى حديث آخر : بين النائم واليقظان. وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت ــ فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلها إلا ما يدل عليه ( ثم استيقظت وأنا فى المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان فى بعضه . وقد يكون قوله ( استيقظت وأنا فى المسجد الحرام) لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملإ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الـكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه. ولـكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون فى وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له فى هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله فى رواية عبد بن حميد عن همام : ( بينا أنا نائم وربما قال مضطجع ) وفى رواية هدبة عنـــه ( بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع ) . وقوله فى الرواية الأخرى ( بين النائم واليقظان ) فيـكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ودنو الرّب ، الواقعة فى هذا الحديث ، إنما هى من رواية شريك عن أنس . فهى منـكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال فى الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم فى ( زاد المعاد ) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذى صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل: كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناما . وقيل بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع فى حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل هو غلط ، وقيل : الوحى هنا مقيد وليس بالوحى المطلق الذى هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه فى شأن الإسراء ، فأسرى به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصريّ نحو ذلك. ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدى الله عز وجل. فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذى كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ فى مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حيّ لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومَن سواه، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك فى حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت فى الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، ورآه فى السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة. كما أنه ﷺ فى أرفع مكان فى الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبدنه فى ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هـذا ، فلينظر إلى الشمس فى علوّ محلها وتعلقها وتأثيرها فى الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هـذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن. وهذه النار تكون فى محلها ، وحرارتها تؤثر فى الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذى بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فقلْ للعيون الرُّمْدِ إياكِ أنْ تَرَىْ سنا الشَّمسِ فاستغشِى ظَلَامَ اللّيَالِيَا

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدى فى ( حواشى البيضاوىّ ) : والمعراج بروحه فى اليقظة ـ وهو الذى أشار إليه ابن القيم ـ خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوى له: بأنه نوع مراقبة وانسلاخ، والذى ذهب إليه الصوفية ساقط. لأنه فوقه بكثير . بل غـيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذى فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيّم من أنه إسراء بالروح ـ فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظـيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازيًّا . والحقيقة أنه كشف روحانىّ . وقد قرروا فى عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات. وحصول الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد فى جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما فى الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفى ( العقائد النسفية وحواشيها ): الخرق والالتئام على السموات جائز. لأن الأجسام كلها متماثلة فى تركبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلٍّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام. وكذا الأجسام الفلكية. والله تعالى قادر على الممكنات كلها. فيكون قادراً على الخرق فى السموات ، لأنه ممكن فيها . وفى الرازىّ براهين أخر . فانظرها .

جاء فى كتاب ( إظهار الحق ) أن بعض أهل الكتاب مارى فى المعراج ، فبُكِّتَ بأن صعود الجسم العنصرىّ إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم فى ( أخنوخ ) . وأنه نقل حيًّا إلى السماء لئلا يرى الموت . كما فى الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرّحت فى صعود ( إليا ) فى الفصل الثانى من سفر الملوك . وفى إنجيل مرقس فى الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّه به فى قوله تعالى[1] ( وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ) وإيليا نبىٌّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبَسْطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع فى مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن فى بطاح أريحا . شاهده خليفته اليشاع النبىّ بعده . كذا فى تاريخ الكتاب المقدس، و ( إيليا ) هو إلياس ، و (اليشاع) هو اليسع المذكوران فى القرآن المجيد. وقد نوّه بالأول فى سورة الصافات بقوله تعالى[2] ( وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ... ) الآيات

السادس ـ قيل : إن المسجد الأقصى فى زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ . وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقى كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس . انظر ( تاريخ أبى الفدا ) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد فى حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

(١) [ ١٩ / مريم / ٥٧ ] . (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٢٣ـ١٢٦ ] .

لـكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الـكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمى مسجداً بهذا الاعتبار. أو يقال: إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى مايؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : فى التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليـلة القدر ، إن أراد به أن تـكون الليلة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه فى ليلة القدر. فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها. فـكيف ولم يقم دليـل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينها ؟ بل النقول فى ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة، التى يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت فى الصحيحين[١] عن النبى ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفى الصحيحين[٢] عنه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ١ ـ باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، الحديث رقم ١٧٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ ـ باب تحرّى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ ( طبعتنا ) .

تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان . وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر. فإنه نزل فيها القرآن .

وإن أراد أن الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبىّ ﷺ، وحصل له فيها مالم يحصل له فى غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح. وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة فى مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدِّر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التى أنعم عليه. والكلام فى مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التى لا تعرف إلا بوحى. ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم.

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها. لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها. ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت. وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ. ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية. بل غار حراء الذى ابتدئ فيه بنزول الوحى ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذى أنزل فيه الوحى بعبادة ولا غيرها. ولا خص المكان الذى ابتدئ فيه الوحى ولا الزمان بشىء . ومَنْ خصّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات. كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه . فقال : ماهذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء فى حق النبىّ ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء. فهذه

الليلة فى حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء فى حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى . نقله الشمس ابن القيم ( فى زاد المعاد ) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم فى ( زاد المعاد ) . اختلف الصحابة : هل رأى النبيّ ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصحّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصحّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا : إن قوله تعالى[(١)] : ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) إنما هو جبريل . وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنَّى أراه. أى حال بينى وبين رؤيته النور. كما قال فى لفظ آخر: رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا. ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بدّ . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعينى رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه، ومرة قال : رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعينى رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك. وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى[(٢)] ( مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ) ثم قال[(٣)] ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل. رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد فى قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ١٣و١٤ ] . (٢) [ ٥٣ / النجم / ١١ ] .
(٣) [ ٥٣ / النجم / ١٣ ] .

التاسع : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه ( التنوير فى مولد السراج المنير ) ـ بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس ـ وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلىّ وابن مسعود وأبى ذرّ ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبىّ بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبى حبَّةَ وأبى ليلى الأنصاريَّيْن وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومىّ وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع فى المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازىّ عن بعض المعتزلة رده لجمل فيه ـ ساقها ـ صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها فى الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فاتهم بسبب ذلك خير كثير . وليس فى الأحاديث الصحيحة ما يناقض المعقول أو الواقع ، بوجهٍ ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد بقى ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم ـ سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدىّ وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلًا فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثورىّ والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبى ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة ( الدرّ المنثور ) للحافظ السيوطىّ .

وأما طرقه فى الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس فى أحاديث المعراج أصحّ منه . ورواه الزهرىّ عنه عن أبى ذر . ورواه شريك بن أبى نمر وثابت البنانىّ عنه عن النبىّ ﷺ بلا واسطة . وفى سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾

[٣] ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

« وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه. فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازيّ : لما ذكر الله تعالى فى الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر فى هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه. وقال الشهاب فى ( العناية ) : عقبت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه . لأنه صح ثمة التكليم ، وشرّف باسم الكليم مدمجاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه. وإن شئت فوازن بين ( أسرى بعبده ) . و ( آتينا موسى ) . وبين ( هدى لبنى إسرائيل ) . و( يهدى للتى هى أقوم ) . و ( الواو ) استئنافية أو عاطفة على جملة (سبحان الذى أسرى) الخ لا على (أسرى)، لبعده وتكلفه . وضمير (وجعلناه ) للكتاب أو لموسى و (لبنى إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ( جعلناه ) ، وهى تعليلية .

وقوله : ( أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا )أى وليًّا ومعبوداً تكلون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبيّ أرسله ، أن يعبده وحده لا شريك له ، وقد قرئ ( أَلَّا يَتَّخِذُوا۟ )

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١ ] .

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لئلا يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن ( أَنْ ) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .

الثانى : أن ( أن ) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن ( لا ) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . و(فعيل ) بمعنى مفعول . و ( دون ) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعيضية . وقوله : ( ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهييج وتنبيه على المنة . والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيماء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ(الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه. وقوله ( عَبْدًا شَكُورًا ) أى لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

[٥] ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

« وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها. والإفساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية ( قضينا ) بـ ( إلى ) تضمينه معنى أنفذنا . أى أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله ( لَتُفْسِدُنَّ ) جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : ( وَقَضَيْنَآ ) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم ( قضاء الله لأفعلن كذا ) فيُجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و ( مرتين ) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر ( لتفسدن ) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن تثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتتعظمُنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذة على أولى المفسدتين « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ » ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مَقْضِيًّا لا صارف له .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا )

[٧] ( إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا )

[٨] ( عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا )

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هـذه المؤاخذة الشديدة ، رددنا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطًا . جمع ( نفر ) أو اسم جمع له . وأصله مَن ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير ( وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا )أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب ( إذا ) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عديت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر فى الوجه . كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيل : الوجوه بمعنى الرؤساء . وهو تكلف . واختير هذا على ( لِيَسُوءُوكُمْ ) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله ( وَلِيُتَبِّرُوا ) . انتهى .

وقوله تعالى «وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ» أى الأقصى « كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا » أى يدمروا « مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » أى عظيماً فظيعاً ، والتتبير : التدمير . وكل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ » أى إذا أخلصتم للإنابة ، وأحسنتم الأعمال ، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم ، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال « وَإِنْ عُدتُّمْ » أى بعد هذه التوبة والإنابة إلى الاستكبار « عُدْنَا » أى إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا .

« وَجَعَلْنَا » أى يوم القيامة « جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبساً وسجناً يحصرهم فى العذاب والحرمان عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان ـ ( حصيراً ) ـ اسماً للمكان فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصراً أى محيطاً بهم ، وفعيل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقته . فإما لأنه على النسب . كلابن وتامر . أو لحمله على ( فعيل ) بمعنى ( مفعول ) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقىّ أو لتأويلها بمذكر . انتهى .

وقيل : حصيراً ، أى بساطا كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى[1] : ( لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٤١ ] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم فى فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة، وقع من الاختلال فى عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فموجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيتَ المقدس وسلب كنوز هيكلها ( المسجد الأقصى ) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يربعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم فى الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله فى الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام فى مملكته عجلين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكهنة. وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللهما من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لايلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أَشُّور ، ففتح السامرة ـ بلدهم ـ وسباهم إلى أَشُّور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك أَشُّور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كاهنا من اليهود ليقيم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر ( بختنصر ) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبي الأول .

ثم قام، بعد ذلك الملك الشرير، ابنُه. فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسما من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثاني بعد ثماني سنين من الأول .

ثم قام فيهم ملك أَشَرُّ ممن تقدم ـ وهو آخر ملوكهم ـ وفي أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس ، وأسره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبى كل شعب يهوذا ، ماعدا مساكين الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هذه المملكة . وكانت إقامتهم في بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق في خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيين على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتملكوا بيت المقدس . وهدم تيطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم ، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده. وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة. وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم ، إلى أن سارت هيلانة ، أم قسطنطين ، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر ، الذي يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبنى في قبلته مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبنى قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة فى كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنـه ، وفى تفسيرنا لألفاظها كفاية فى فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ماجريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ماحرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفاعيلهم التى أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا فى سورة يوسف ؛ أنه ليس فى القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات فى العبر تجلت فى سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها. وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعـالى[1] ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ) .

ثم بيّن تعالى مزية التنزيل الكريم التى فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [٩] ( إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا )

« إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » أى للحـالة التى هى أقوم الحالات وأسدّها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشريّ : وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف . لما فى إبهام الموصوف بحذفه ، من فخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أى يبشر المخلصين فى إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ، ويجتنبون السيئات ؛ أن لهم فى الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١١١ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

«وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ» أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدىّ إثر بيان حال الهادى . وإظهار لما بينهما من التباين . والمراد بالإنسان الجنس، أُسند إليه حال بعض أفراده. أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه . فالمعنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لاخير فوقه من الأجر الكبير. ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الأليم، وهو ـ أى بعض منه وهو الكافر ـ يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال(١) (اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومَنْ قال(٢) (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى عنهم ـ وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله (وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده. عجولا يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيانه ، كما عند الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر. وكان الإنسان بحسب جبلّته عجولًا ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه مايعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً. وكان

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٧٠ ] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لايتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية فى القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التى كل منها برهان نيِّرٌ لاريب فيه . ومنهاج بَيِّنٌ لايضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ » أى جعلناهما ، بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر، علامتين تدلان على أن لهما خالقا حكيما. « فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ » أى بجعلها مظلمة « وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة. والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التى هى الليل، والآية التى هى النهار . وإما حقيقية. وآية الليل والنهار نيِّراهُمَا . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور فى نفسه، أو نقص مااستفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . وبجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات. ذات أشعة تبصر بها الأشياء؛ فالإسناد فى ( مبصرة ) مجازىّ إلى السبب العادىّ ، أو تجوز بعلاقة السبب. وقوله تعالى « لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ(جعلنا) أى لتطلبوا فى النهار رزقاً منه سبحانه، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما فى ضمن السنين من الأشهر والليالى والأيام ، أو الحساب الجارى فى المعاملات ، كالبيوع والإجارات . وفى العبادات ، أى لتعرف مضىّ الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطيّ فى ( الإكليل ) : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفى الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : «وَكُلَّ شَيْءٍ» أى مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم «فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلًا» أى بيناه فى القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى[(١)] «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» فظهر كونه هادياً للتى هى أقوم ظهورا بيّنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَكُلَّ إِنسَنٍ أَلْزَمْنَهُ طَٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ، وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا )

[١٤] ( اقْرَأْ كِتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا )

[١٥] ( مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا )

« وَكُلَّ إِنسَنٍ أَلْزَمْنَهُ طَٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ » أى ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشرًّا ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق فى العنق ، لا ينفكّ عنه بحال .

قال الطبرى[(٢)] : المعنى : وكل إنسان ألزمناه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ،، فى عنقه لا يفارقه . وإنما قوله (أَلْزَمْنَهُ طَٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ) مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها . اهـ .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٨٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو ، إلى غير ذلك من الأحوال التى كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، سمّى الخير والشر بالطائر ، تسمية للشىء باسم لازمه .

قال الطبرى[1] : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره فى عنقه ، نحساً كان ذلك الذى ألزمه من الطائر وشقاءً يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن. وإنما أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين . فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببنى آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمةسائر الأبدان إلى الأعناق. كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا : ذلك بما كسبت يداه . وإن كان الذى جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذلك . قوله ( أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ) وحاصله ــ كما قاله الرازى ــ أن قوله : ( فى عُنُقِهِۦ ) كناية عن اللزوم. كما يقال (جعلت هذا فى عنقك) أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال ( قلدتك كذا وطوقتك كذا ) أى صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه ( قلده السلطان كذا ) أى صارت الولاية ، فى لزومها له ، فى موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال ( فلان يقلد فلاناً ) أى يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجُ لَهُۥ » أى نظهر له « يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى البعث للجزاء على الأعمال « كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا » أى يجده مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أى شهيداً بما عملت .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

قال القاشانيّ : ( كِتَـٰبًا ) هيكلا مصورًا يصوّر أعماله ( يَلْقَـٰهُ مَنشُورًا ) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لامطويًّا كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له (اقْرَأْ كِتَـٰبَكَ) أى اقرأه قراءة المأمور الممتثل لأمر آمرٍ مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية . سواء كان قارئًا أو غير قارئٍ . لأن الأعمال هناك ممثّلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لاعلى سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأمىّ ( كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازمًا إياها ، نصب عينها ، مفصلا لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى «مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ » قال أبو السعود : فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديًا لأقوم الطرائق، ولزوم الأعمال لأصحابها. أى من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عمانهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى « وَمَن ضَلَّ » أى عن الطريقة التى يهديه إليها « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقوله «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » مؤكد لماقبله للاهتمام به.

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل ( وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى[(١)] ( مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا) .وقوله تعالى[(٢)] (لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ )من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنته، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع، جزاء شفاعته ، لاجزاء

---

(١) [ ٤ / النساء / ٨٥ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٢٥ ] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين. وما يحمله المضلون، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنّتنا المبنية على الحكم البالغة ، أن نعذّب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعمّ من الدنيوىّ والأخروىّ ، لقوله تعالى[1] (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى[2] (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ✽ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله[3] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ) وقال تعالى[4] (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لايعذب قوماً عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

---

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣٤ ] . (٢) [ ٦٧ / الملك / ٨و٩ ] .

(٣) [ ٣٩ / الزمر / ٧١ ] . (٤) [ ٣٥ / فاطر / ٣٧ ] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بيّنة . ولا يعذب أحـداً إلا بذنبه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَإِذَآ أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا )

« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنمـا كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوىّ لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قوماً عذاب استئصال ( أمرنا مترفيها ) يعنى متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (ففسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته ( فحق عليها القول ) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعـد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج . (فدمرناها تدميراً) أى نخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف. وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا. كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ماقدمنا بيانه. وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقى تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم آكد . وإنمـا حذف مفعول ( أمرنا ) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى إليه . وفى إيثار ( القرية ) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدوّ . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : ( تَدْمِيراً ) أى كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع .

قال القاشانىّ : إن لـكل شيء فى الدنيا زوالًا . وزواله بحصول استعداد يقتضى ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته ، فـكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيهـا عن الجادة المستقيمة التى هى صراط الله وهى الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلابد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولا بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشراً بنعمة الله ، واستعمالًا لها فيما لاينبغى . وذلك بأمر من الله وقدرٍ منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْۢ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا )

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْۢ بَعْدِ نُوحٍ » أى وكثيراً ما أهلـكنا من الأمم الـكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصّت أنباؤُهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص . و ( القرون ) جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلـكت فلم يبق منها أحد . وخص ( نوح ) ولم يقل ( من بعد آدم ) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .

« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيراً » أى لايخفى عليه شيء منها . فيدرك سرها وعلنها وسيجازى عليها .

والآية تدل ـ كما قال الزمخشرىّ : ـ على أن الذنوب هى أسباب الهلـكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتمّ ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا )

[١٩] ( وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا )

« مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد . أى مانشاؤه من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذموماً على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصياً فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة فى معنى قوله (وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمناً وخيراً . وفى قوله تعالى : ( وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ) أى مايحق ويليق بها من الأعمال الصالحة، تبيين لقوله: ( وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب المنهىّ عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا )

[٢١] ( ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا )

[٢٢] ( لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا )

« كُلًّا نُّمِدُّ » أى كل واحد من الفريقين. وقوله : « هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ » بدل من ( كلا ) « مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات ، وتفترق بهما بعد الورود المصادرُ . ففريقُ مريدى العاجلة، إلى جهنم مصدرهم. وفريقُ مريدى الآخرة، إلى الجنة مآبهم « وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنعه من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكا فى عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك ، مخذولًا من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك ( وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ )(١) .

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر أمرا مقطوعا به «أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا . قال القاشانىّ : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيرا ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنىّ عن ذلك . فأهم الواجبات بعد التوحيد ، إذًا ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا» فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرهما مالا يخفى . و( إِمَّا ) هى ( إن ) الشرطية زيدت عليها ( ما ) تأكيداً لها . و (أَحَدُهُمَآ) فاعل (يبلغن) و ( كِلَاهُمَا) عطف عليه . ومعنى ( عِندَكَ ) هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كَلًّا على ولدهما ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره مايستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: ( أف ) فضلا عما يزيد عليه . أفاده الزمخشرىّ .

وقوله ( وَلَا تَنْهَرْهُمَا ) أى تزجرها عما لا يعجبك ، بغلظة ( وَقُل لَّهُمَا ) بدل التأفيف والنهر ( قَوْلًا كَرِيمًا ) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله ( وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ) تذلل لها وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبيها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخييلا ، والخفض ترشيحاً . و ( خفضه ) ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية . أو استعارة تصريحية فى المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر ) وخفضه مجاز. كما يقال (ليّن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان. لأنه صفة مبيّنة. أى جناحك الذليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلا لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و ( مِن ) من قوله تعالى ( مِنَ الرَّحْمَةِ ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقارُ المرء إلى من كان مفتقراً له ، غايةٌ فى الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجيّ :

يا من أتى يسأل عن فاقتى ، ما حال من يسأل من سائله ؟
ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى ( وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك، كما تعطفا علىّ فى صغرى، فرحمانى وربيانى صغيراً حتى استقللت بنفسى، واستغنيت عنهما.

قال الزمخشريّ : أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها ، وادْعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك. والكاف للتعليل. أى لأجل تربيتهما لى .

قال الطيبيّ : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله[1] ( مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ) . وهو وجه حسن .

(١) [ ٥١ / الذاريات / ٢٣ ] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه فى أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية المأثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما ، جملة ضمنتها لكتابى ( الأوراد المأثورة ) . لا أزال أدعو لهما بها فى السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٥] ( رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا )

[٢٦] ( وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا )

[٢٧] ( إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا )

« رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ » أى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق « إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ »أى قاصدين للصلاح والبرّ دون العقوق « فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ » أى التوابين الرجّاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا» أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضمر البرّ . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز ـ كما قال الزمخشرىّ ـ أن يكون هذا عامًّا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجانى على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصّى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أى من صلته وحسن المعاشرة، والبرّ له بالإنفاق عليه .

قال المهايمىّ : لم يقل ( القريب ) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل. والإضافة ، لما كانت لأدنى الملابسة، صدق ( ذو القربى ) على كل من له قرابة ما . « وَٱلْمِسْكِينَ » أى الفقير من الأباعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ويدخل فيه مايعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة . فإن ذلك كله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإنفاق فى محرم أو مكروه ، أو على من لا يستحق، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غيرك. أفاده المهايمىّ. وفى (الكشاف): كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف .

« إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ » أى أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشرّ من الشيطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهى عنه عن التبذير، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم. وقوله « وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » من تتمة التعليل. قال أبو السعود: أى مبالغاً فى كفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوَى ، إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصى ، والإفساد فى الأرض، وإضلال الناس ، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به . وتخصيص هذا الوصف بالذكر ، من بين سائر أوصافه القبيحة ، للإيذان بأن التبذير ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها ، من باب الكفران ، المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوّه . فإن

كفران نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعى إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله فى سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا )

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا » أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الردّ ، لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولًا ليناً سهلًا ، وعدهم وعداً جميلًا .

قال فى (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض لأجل السعى لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الأمر بالقول اللّين عند عدم وجود مايعطى منه . وفسّره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايمىّ إلى أن الآية فى منعهم خوفا من أن يصرفوه فيما لاينبغى . قال : أى وإن تحقق إعراضك عمن تريد الإحسان إليهم ، طلب رحمة من ربك فى المنع عنهم لئلا يقعوا فى التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم فى الدفع قولا سهلًا عليهم ، إحساناً إليهم بدل العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والنظم الكريم يحتمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُوماً » يلومك الفقراء والقرابة « مَّحْسُورًا » أى نادماً ، من ( الحسرة ) . أو منقطعا بك لا شىء عندك من ( حسره السفر ) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهيين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلولة لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدّها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى ( فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُورًا ) من باب اللف والنشر المرتب . قال : أى فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغنون عنك كما قال زهير[١] فى المعلقة .

ومَنْ كانَ ذَا مالٍ فيبخَلْ بمالِهِ      على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

---

(١) الرواية فى ( المعلقات ) و ( شرح ديوان زهير ) هكذا :

* ومَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية ( من شرح الديوان ) : وفى شرح الأعلم :

ومَنْ يَكُ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بمَالِهِ *

وهو البيت الخمسون من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ      بحَوْمانةِ الدرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلاشيء تنفقه ، فتكون كالحسير . وهى الدابة التى عجزت عن السير ، فوقفت ضعفا وعجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا )

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسعه ويضيّقه ، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى خبيراً ببواطنهم ، بصيراً بظواهرهم .

قال المهايمىّ: ولما وجب إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل، لحفظ أرواحهم، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا )

« وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهى لهم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من قتلهم أولادهم. وهو وأْدهم بناتهم. أى دفنهن فى الحياة . كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهى الإملاق والفقر ، بالإنفاق عليهم إذا كبروا . فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله ( نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ) أى نحن المختصون بإعطاء رزقهم فى الصغر والكبر ، وقوله تعالى ( وَإِيَّاكُمْ ) أى الآن بإغنائكم . وقوله تعالى « إِنَّ قَتْلَهُمْ » أى للإملاق الحاضر والخشية فى المستقبل « كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا » أى لإفضائه إلى تخريب العالم . وأى خطء أكبر من ذلك .

تنبيه :

دل قوله تعالى (خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ) على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف العار كما زعموا . قال المبرّد فى ( الكامل ) : كانت العرب فى الجاهلية تئد البنات. ولم يكن هذا فى جميعها . إنما كان فى تميم بن مرّ ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات، فقال (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ) وقال[١] (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ) فهذا خبر بيّن أنّ ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى؛ أن تميماً منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبى الذرارىّ . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقيا . فأناب القوم وسألوه النساء. فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهن اختار أباها إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شىء يعتلّ به من وأد، ويقول: فعلناه أنفة ، وقد أكذب ذلك بما أنزل الله تعالى فى القرآن.

وقال ابن عباس رحمه الله ( فى تأويل هذه الآية ) : وكانوا لا يورّثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطء كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً » أى فعلة قبيحة متناهية فى القبح . توجب

(١) [ ٦٠ / الممتحنة / ١٢ ] .

النفرة عن صاحبه ، والتفرقة بين الناس « وَسَآءَ سَبِيلًا » أى بئس طريقا طريقه. فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايمىّ : ( سَآءَ سَبِيلًا ) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التنفير والتفرقة ، فقال تعالى مجده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ، إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا )

« وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ » أى قتلها وهى نفس الإنسان « إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ ( لا تقتلوا ) أو حال من فاعل ( لا تقتلوا ) أو من مفعوله . وجوز تعلقه بـ (حرّم). أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قوداً بنفس «وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا» أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لوليّه ، الذى بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . ( سُلْطَٰنًا ) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه . أو حجة يثب بها عليه ، وحينئذ فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتلُ واحد ، كعادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : ( إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ) تعليل للنهى . والضمير للولىّ . يعنى : حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص ، فلا يستزد على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ، وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ، إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا)

« وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى لاتتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتثميره وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن. أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا. والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها « إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا » أى مطلوباً. يطلب من المعاهد الثبات عليه، وعدم إضاعته. أو: صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا )

« وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه « وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوىّ ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلا ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوىّ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ، إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا )

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا )

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ » أى لاتتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من ( قفا أثره ) إذا تبعه .

قال الزمخشرىّ : والمراد النهى عن أن يقول الرجل مالايعلم ، وإن يعمل بما لايعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولًا ظاهراً ، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده . انتهى.

ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحريم والتحليل. و كشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وماشا كلها « إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » أى كان صاحبها مسئولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايمىّ : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وأخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لايخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً » أى مختالًا . أى مشية المعجب المتكبر. إذ لايفيدك قوة ولا علوًّا، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك، كما يفعله المختال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالمختال ، وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفى هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية، كفاية فى الانزجار عنها. ولقد حفظ الله عوامّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدّ طرفا من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبختر فى مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون . وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يُقرَأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولى التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا )

[٣٩] (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا )

« كُلُّ ذَٰلِكَ » أى المنهىّ عنه من قوله ( وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايمىّ : أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك. وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذميم مكروه . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإتلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد مخلّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق. وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئاً . « ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايمىّ : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

ءاخَرَ » كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها . ومَنْ عَدِمَهُ لم ينفعه علومه وحكمه .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراك أوَّلا حيث قيل ( فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولًا » ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل « فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً » أى بالجهل العظيم « مَّدْحُورًا » أى مبعدا مطروداً من الرحمة . وفى إيراد الإلقاء، مبنيًّا للمفعول، جرى على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعلٌ له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ، فيطرحها فى التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا )

« أَ فَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً » .

خطاب للذين قالوا من مشركى العرب ( الملائكة بنات الله ) . والهمزة للإنكار . قال الزمخشرىّ: والمعنى: أفخصكم ربكم، على وجه الخلوص والصفاء، بأفضل الأولاد وهم الذكور، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات . وقوله تعالى : ( إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً ) أى بإضافة الأولاد إليه ، وهى خاصة المحدثات . ثم بإيثاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا )

[٤٢] ( قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا )

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبينا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُواْ » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى «قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين ( الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى ) : لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليهوتشفع لديه، لـكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه . ولا حاجة لـكم إلى معبود يكون واسطة بينـكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانىّ تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى ( لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ) أى لطلبوا إليـه سبيلا بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى[1]: ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ) وهذا الوجه قدمه الزمخشرىّ على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا )

[٤٤] ( تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا )

« سُبْحَـٰنَهُۥ » فإنه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم، من حيث لا يحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون. بل هو أمر يعتقدونه رأساً. انتهى . ومعنى ( سُبْحَـٰنَهُۥ ) أى تنزه عن الولد والشريك تنزها حقيقاً به « وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعاظم عن ذلك تعاظماً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، ممـا يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب: وذكرُ العلوّ ، بعدعنوانه بـ(ذى العرش) ، فى أعلى مراتب البلاغة. وقوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى تُنزِّه الله، وتقدسُه وتجلُّه السمواتُ والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون. وتشهد جميعها له بالوحدانية فى إلهيته وربوبيته ، كما قال[1] ( تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ) وقوله تعالى:( وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام والحصا، مِمَّا خرج فى الصحيحين والمسانيد، مما هو مشهور.

(١) [ ١٩ / مريم / ٩٠و٩١ ] .

واختاره الراغب فى ( مفرداته ) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : ( وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) ودلالة قوله : ( وَمَن فِيهِنَّ ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره ( يسبح له من فى السموات ويسجد له من فى الأرض ) لأن هذا من نفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : ( وَمَن فِيهِنَّ ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازىّ ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كـ ( نطقت الحال ) . فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا : والخطاب فى قوله تعالى ( وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) للمشركين . أى لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ فى رد القول الأول واختيار الثانى ، الإمام ابن حزم فى كتابه ( الملل والنحل ) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب .

قال رحمه الله فى الرد على من قال : ( إن فى البهائم رسلًا ) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى[1] ( يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق ـ الذى هو التصرف فى العلوم ومعرفة الأشياء على ما هى عليه ، والتصرف فى الصناعات على اختلافها ـ الإنسانَ خاصة . وأضفنا إليهم، بالخبر الصادق، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى ( وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ) ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه .

(١) [ ٢ / البقرة / ١٧٩ ] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلًا لكلماته ، مالم يأت نص فى أحدهما ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذبا عليه وعلى نبيّه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان ( غير الإنس والجن والملائكة ) . لانطق له . نعنى أنه لا تصرف له فى العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهداً بالحس معلوما بالضرورة ، لاينكره إلا وقح مكابر لحسّه ، وبيّنا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزا . وكان هذا إيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة ـ فوجب أنه بخلاف ما يسمى فى الشريعة واللغة نطقاً وقولًا وتسبيحاً وسجودا . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبرا أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذى به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول ( سبحان الله وبحمده ) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والحشرات والألوان لاتقول ( سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء ) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذ لا شك فى هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذى ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذ لا شك فى هذا فإن التسبيح فى أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذ قد صح هذا ، فإن كل شىء فى العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذى هو صفة الحدوث . وليس فى العالم شئ إلا وهو دالّ ( بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لايشبهه ) على أن الله تعالى منزه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى ( وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهرىّ شيء لا يشك فى أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله ( سبحان الله وبحمده ) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبها لشيء مما خلق . وهذا يقينىّ لا شك فيه .

فصح بما ذكرنا أن لفظة ( التسبيح ) هى من الأسماء المشتركة ، وهى التى تقع على نوعين فصاعدا . انتهى كلامه .

ومحصله نفى أن يكون للجمادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود فى الإنسان . وهو حق لا شبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفى أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه . فيرجع الخلاف لفظيًّا . وقد وافق العلم الحديث الآن ـ كما قاله بعض الفضلاء ـ على أن فى الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التى تميز الأحياء . وأن ما فيه فى الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هى عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة فى جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيماوية مختلفة . وبالجملة ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء فى ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم فى النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَّسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش: إن ( مفعولا ) يرد بمعنى ( فاعل ) كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم . كما أن ( فاعلا ) يرد بمعنى ( مفعول ) كماء دافق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا )

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع ( كنان ) «أَن يَفْقَهُوهُ» أى كراهة أن يفقهوه « وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا » أى صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك مايتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم مايتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هـذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الـكريم ، ومجّ أسماعهم له ، جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال ، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال . وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه، إلا لمانع قويّ يعترى المشاعر فيبطلها . تنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ » أى غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم «وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا» أى هرباً من استماع التوحيد. قال القاشانيّ : لتشتّت أهوائهم ، وتفرق هممهم فى عبادة متعبداتهم ، من أصنام الجسمانيات والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالـكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون، رؤساء قريش ، بقوله متوعدا لهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا )

[٤٨] ( ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا )

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا» أى سُحِر ، فجُنّ فاختلط كلامه « ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ » أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون « فَضَلُّواْ » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلًا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخبطون بمـا لا يرتاب فى بطلانه أحد . كالمتحير فى أمره لا يدرى ماذا يصنع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا )

[٥٠] ( قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا )

[٥١] ( أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ، قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا )

[٥٢] ( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا )

« وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا » وهو ما بلى وتفتت « أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ » أى يعظم فى نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياؤه . فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم . فكيف ، إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاء « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضى : استعار لهما الدعاء والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرها . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء . انتهى.

وقيل : إنهما حقيقة كما فى آية[1] ( يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ) وفى قوله

---

(١) [ ٥٠ / قٓ / ٤١ ] .

( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ) وجوه للمعربين . ككونه بدلًا من ( قريباً ) على أنه ظرف . أو منصوب بـ ( يكون ) أو بمقدر كـ( اذكر ) أو ( تبعثون ) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبثكم فى القبور والمضاجع . لذهولكم عن ذلك الزمان . أو فى الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا )

[٥٤] ( رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا )

« وَقُل لِّعِبَادِي » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقريب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُوا » فى النصيحة ، الكلمة « الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى فلا يخاشنوا أحدا ولا يغلظوا بالقول « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والمراء ، لتقع بينهم المضارّة « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِيناً» وقوله تعالى «رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنيبوا إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولًا إليك إليك أمرهم . تقسرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا )

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شىء فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفى لرسالته ، ويختار لنبوّته ، ويعلمه أهْلًا لها . وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن فى السموات والْأَرْضِ وأحوالهم . فآتى موسى التوراة وكلمه ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد آتى محمداً القرآن ففضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى «وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا» أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب، ففضلناه به . قيل: الآية ردٌّ عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبيًّا، دون من يعدّونه عظيماً بينهم فى الغنى والجاه. وذكر من فى السموات لإبطال قولهم[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ) وذكر من فى الأرض لرد قولهم[2] (لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ). وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبيّ ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من[3] ( أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن فى نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ مابلغ فى الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره. وإذ كان ذلك اختصاصاً ربانيًّا ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، مَن علم أنه أرجحهم عقلا ، وأكملهم فضلًا ، لختم نبوته ، وهداية بريته، بمنهاجه وشرعته. وقوله تعالى:

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢١ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٣١ ] .
(٣) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

« قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا* أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله مِن خلقه ، ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لايقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبرى[١] عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال. ونظير هذه الآية فى النهى عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء، قوله سبحانه[٢] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ* وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ٧٩و٨٠ ] .

أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ) وفى قوله تعالى : ( وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥ ) إشارة إلى أن العبادة لاتتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : ( مَحْذُورًا ) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياذاً بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا )

« وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا، كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حَتَمَ وقَضَى ؛ أنه مامن قرية يتمرد أهلها على نبيّهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم، كما قال تعالى[١]: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) وقال تعالى[٢] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى[٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا )

« وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ » أى التى يقترحها قريش: « إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا

---

(١) [ ١١ / هود / ١٠١ ] . (٢) [ ٦٥ / الطلاق / ٩ ]. (٣) [ ٦٥ / الطلاق / ٨ ].

ٱلْأَوَّلُونَ » أى إلّا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم . كعاد وثمود . وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك . فاستوجبوا الاستئصال . على ما مضت به السنّة الإلٰهية . وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة ، فقال : « وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ » أى أعطينا قوم صالح الناقة بسؤالهم « مُبْصِرَةً » أى بينة، تبصر الغيْرَ برهانَها « فَظَلَمُواْ بِهَا » أى فكفروا بها وظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم «وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفاً » أى وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً للناس، ليعلموا السنّة الإلٰهية مع العاتين، فيتذكروا ويتوبوا .

روى الإمام أحمد[١] عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحّى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأنى بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ ... » . الآية. ورواه النسائىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا )

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ » أى علما ، فلا يخفى عليه شىء من كفرهم

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٣٣٣ ( طبعة المعارف ) .

وتكذيبهم . ومنه ماجرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة، من الجحود والهزء واللغو. كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعني مارآه النبيّ ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبيّ ﷺ للناس، أنكر بعضهم ذلك وكذّبوا. وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين. فكانت فتنة، أي اختباراً وامتحاناً. وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناما ، لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى ( إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ) يرده. لأن رؤيا المنام لايفتتن بها أحد ولا يكذّب . وجاء في اللغة ( الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً ) وهو معنى حقيقيّ لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلًا . وقد ذكر السهيليّ؛ أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة. وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارٍ على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلًا . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبريّ[1] عن الحسن في الآية هذه ؛ قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاءً إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يامحمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم[2] : الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البريّ عن ابن عباس . قال : يقال: إن رسول الله ﷺ أُرِيَ أنه دخل مكة هو وأصحابه. وهو يومئذ بالمدينة. فعجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة. قبل الأجل : فرده المشركون . فقالت أناس : قد رُدَّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها. فكانت رجعتهُ فتنتَهم. وذلك عام الحديبية. ثم دخل مكة في العام المقبل. وأنزل الله عزّ وجل ( لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ، لأنه كان إذ ذاك بمكة . فعلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما فى (الإتقان). والطبرىّ رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : ( نزلت الآية فى كذا )، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ» عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة فى سورة الصافات فى قوله تعالى[1] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ... ) الآيات ، وفتنتهم فيها ما رواه الطبرىّ[2] عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا ــ يعنى النبىّ صلوات الله عليه أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفى رواية ؛ أن أبا جهل قال : أيخوفنى بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : تزقموا ، فما نعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلعنها فى القرآن ، لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز فى الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذى لأنها تغلى فى البطون كغلى الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى « وَنُخَوِّفُهُمْ » أى بذلك وبنظائره من الآيات « فَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التخويف « إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا » أى تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٦٢ــ٦٥ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال المهايميّ : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجلّ مَن أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة فى إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيوىّ . لـكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان. وأنه وحزبه، لعتوهم وتمردهم عن الحق ، فى النار ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا )

[٦٢] ( قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا )

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ » أى تحية وتكريماً « فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً » كما قال فى الآية الأخرى[(١)] ( أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ) « قَالَ » أى جراءة على الرب وكفراً به « أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ » أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىّ بأن أمرتنى بالسجود له، لِمَ كرمته علىّ ؟ أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته علىّ « لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا » أى لأعمّنهم وأهلـكنّهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

---

(١) [ ٣٨ / ص / ٧٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا )

[٦٤] ( وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا )

[٦٥] ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا )

« قَالَ ٱذْهَبْ » أي امض لشأنك الذى اخترته « فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا » أي جزاء مكملًا « وَٱسْتَفْزِزْ » أي استخف وأزعج « مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم » أي أن تستفزه فتخدعه « بِصَوْتِكَ » أي بدعائك إلى الفساد . وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أي صح عليهم . من الجلبة ( بفتحات ) وهى الصياح . و ( الخيل ) الخيالة أى ركبان الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . ( والرّجل ) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار ـ بكسر الميم، الكثير الغارة وهى الحرب والنهب ـ أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم. وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم ـ أى فالكلام استعارة تمثيلية مركبة . استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيره لهم . وجوز أن يكون التجوز في المفردات تجوزا بصوته عن دعائه إلى الشر بالوسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ » أي بحمله إياهم على إنفاقها في المعاصي وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى « وَٱلْأَوْلَٰدِ » أي بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ، وَوَأْدِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدْهُمْ » أي المواعيد الباطلة والأمانيّ الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة «وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزيين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِي » أي المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ » أي تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أي كفيلا لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون في أمورهم إلا إليه ، وهو كافيهم .

وقد أشار القاشانيّ إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف. وعبارته: تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أي استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة . ومن كان قويّ الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) وإلا فإن كان منغمسا في الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه في الأمور الدنيوية، شاركه في أمواله وأولاده، بأن يحرّضه على إشراكهم بالله في المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم، والتكاثر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانيّ الكاذبة . ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينغمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته، أجلب عليه بخيله ورجله. أي مكر به بأنواع الحيل. وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له في تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش. وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكا، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى.

ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى يُسَيِّر لكم السفن فى البحر « لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ » أى من رزقه. والآية صريحة فى ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكير لبعض النعم التى هى من دلائل التوحيد ، وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضرّ ، تكملة لما مرّ من قوله ( فَلَا يَمْلِكُونَ ...) الآية ، وذلك قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » أى ذهب عن أوهامكم وَخَوَاطِرِكُمْ كل من تدعونه وتعبدونه ، إلّا إياه وحده . فإنكم لاتذكرون سواه . فطرةً فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوّه ، والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ » أى من الغرق: « إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » أى عن التوحيد: « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا » أى بأنعم الله . والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا أعرض الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا)

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ » أى يغوّره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق : « ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ » أى يقوّى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ » أى ريحاً شديدة لاتمر بشىء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا » أى مطالباً بما فعلنا. مثل من يطالب على مُغْرِقٍ سوانا . وهذا كقوله[١] : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ » أى بالنطق والتميز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على مافى الأرض والتمتع به « وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

(٣) [ ٩١ / الشمس / ١٥ ] .

بالسير فى طلبها فيهما، وتحصيلها « وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ » أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات « وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » أى عظيما. فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده.

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه. قيل وهم الذوات المقدسة من الملإ الأعلى، أعنى الملائكة.

قال القاشانىّ : وأما أفضلية بعض الناس، كالأنبياء على الملائكة المقربين، فليست من جهة كونهم بنى آدم. بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله[1] : ( إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلـٰهية التامة. وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل[2] :

وإنى وإن كنتُ ابنَ آدم صورةً فلى فيه معنى شاهدٌ بأُبُوَّتِى

وذهب قوم إلى تأويل ( الكثير ) بـ( الكل ) كما أوّل ( القليل ) بمعنى ( العدم ) فى قوله تعالى[3] : ( فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا. أى جميع المخلوقات.

قال القاشانىّ : على أن تكون ( من ) للبيان والمبالغة فى تعظيمه، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف. أى كثير وأى كثير، وهو جميع

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ].

(٢) قائله عمر بن الفارض من تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك. ومطلعها :

سَقَتْنِى حُمَيَّا الحبِّ راحة مُقْلَتِى وكأسى محيًّا مَنْ عن الحسن جَلَّتِ

(٣) [ ٢ / البقرة / ٨٨ ].

مخلوقاتنا . لدلالة (مَن) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة فى كتب الكلام .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

[٧٢] (وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدّم فى الدين أو كتاب أو دين. فيقال : ياأتباع فلان ! ياأهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم. فيقال : ياأصحاب كتاب الخير! ويا أصحاب كتاب الشر! قالوا: وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبيّ ﷺ.

وقال القاشانىّ : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبيّ آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلى محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير، رحمه الله، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال، لقوله تعالى(١)(وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ) وقال تعالى(٢)(وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..)الآية، وقال تعالى(٣)(وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

---

(١) [٣٦/ يس /١٢] . (٢) [١٨/الكهف/ ٤٩] ، (٣) [٤٥/ الجاثية٢٨ ، ٢٩].

وما رجحه رحمه الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغى الاهتمام به فى معانى الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوتِيَ » أى من هؤلاء المدعوّين « كِتَابَهُۥ » أى كتاب أعماله « بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ » أى فرحا وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما فى شق النواة ، أو ما تفتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء . فإن الفتيل مثل فى القلة ، كقوله تعالى[1] ( وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ) .

«وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا» أى ومن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا . لأن له فى هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو فى مقام الكسب باقى الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات ، لفساد حاسته . مجازٌ فى عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون ( أعمى ) الثانى أفعل تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعل تفضيل كالأحمق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقرؤه . ومن كان فى الدنيا أعمى غير مبصر فى نفسه، ولا ناظر فى معاده، فهو فى الآخرة كذلك ، غير مبصر فى كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان فى الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٦٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ، وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا )

[٧٤] ( وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا )

«وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ، وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره . وقد روى أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا ننحنى فى الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فإن خشيت أن يسمع العرب ( لِمَ أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا ) ؟ فقل : الله أمرنى بذلك .

وروى أن قريشاً قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا. وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرىّ : يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر . وأن تكون غير ذلك. ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أىّ ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتى ما يجب التسليم له ، ببيان ما عنى بذلك منه .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك . ودخلت ( أن ) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك . ويصرفوك عن القرآن أى عن حكمه . وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : ( لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ) أى غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قُلِ اللَّهُ أَمَرَنِى بِذَلِكَ

( وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلا ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال ( وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ ) أى على الحق بعصمتنا إياك ( لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ) أى تميل إليهم ( شَيْـًٔا قَلِيلًا ) وقوله (شَيْـًٔا ) عبارة عن المصدر ، أى ركونا قليلا .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم ( اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ) . ثم توعده فى ذلك أشد التوعد ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا )

«إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ» أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، ودل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف فى كثير من الآيات. كقوله تعالى[1] (رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ) وقال[2] ( لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ) .

والسبب فى تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم. فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر. ونظيره قوله تعالى[3] ( يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ) .

## تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله ( بعد ذكره ما روى فى سبب نزولها مما قدمناه ) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون :

(١) [ ٣٨/ص ٦١ ] . (٢) [ ٧/ الأعراف / ٣٨ ] .
(٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٠ ] .

إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك . فأنزل الله تعالى[١] : ( قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله[٢] : (وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة . فأنزل الله تعالى[٣] ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله[٤] : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة فى تفسير هذه الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثانى : قال القاضى : معنى قوله تعالى : ( وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ . . . ) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتيالهم . لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهمّ بإجابتهم ، مع قوة الداعى إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشرىّ : فى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بيّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها . فهى جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظرُ فيها الخشيةَ وازدياد التصلب فى دين الله .

الرابع : جاء فى ( حواشى جامع البيان ) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجليلة فى هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوماً. فإنها شعائر

---

(١) [ ١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢ ] . (٢) [ ٦٨ / القلم / ٩ ] .
(٣) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] . (٤) [ ٦ / الأنعام / ٥٢ ] .

الكفر والشرك . وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبد من دون الله . والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات ـ على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد ـ رجل كان يلتّ لهم السويق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها والشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها. وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مسّ آلهتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا . وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزية كل الرزية ما ابتلى به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإنا لله وإنا إليه راجعون . بل كثير منهم، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه، حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك . أو بمعتقدك الوليّ الفلانيّ تلكأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال ( ثالث ثلاثة ) فيا علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أيّ رزء للإسلام أشد من الكفر؟ وأيّ بلاء لهذا الدين أضرّ عليه من عبادة غير الله ؟ وأيّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأيّ منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البيّن واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا )

[٧٧] ( سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا )

« وَإِن كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بمعاداتهم من مكة « لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ » أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زماناً قليلًا « سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنَّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم ، إهلاكهم . سواء كان بالاستئصال، أوْ لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرافهم وسبى سراتهم . ولهذا قال تعالى ( سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى[1] ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ) .

وقوله تعالى :

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبلُ ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأييده عليهم . ونظيره قوله تعالى[1] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ) وقوله[2] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وقوله[3] (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ) هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ ٱلَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآنًا لأنه ركنها . كما سميت ركوعًا وسجودًا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهمّ . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحًا، وفى غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة . والأكثرون على أن قوله تعالى (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ)

---

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ١٣٠ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ٤٥ ] .

منصوب بالعطف على ( الصلاة ) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوّز بعض النحاة نصبه على الإغراء . أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

## تنبيهات :

الأول : هـــذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركا بين الظهر والعصر . والغسق مشتركا بين المغرب والعشاء. فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين، وكذا بين الأخيرين . فالجواب: هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها. وأما فى غيرها فلا. وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه .

وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام. ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى.

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس .

جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله :وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . مالم يتخذه عادة. واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان[1] وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبيّ ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثانى : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس ، ومنها قوله تعالى[2]: ( وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر فى النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر . والوتر تصلى بالليل وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم[3]: صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة . وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا فى هذا الموضوع ، ولفظ ( النهار ) يراد به من طلوع الفجر ، ويراد به من طلوع الشمس . لكن قوله ( وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة فى أول الطلوع منهىّ عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أولا تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثانى

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ ـ باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٣٥٣ ( عن ابن عباس ) .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ ( طبعتنا ).

(٢) [ ١١ / هود / ١١٤ ] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى: ١٩ ـ كتاب التهجد، ١٠ ـ باب كيف كان صلاة النبي ﷺ ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا).

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة فى هذا الوقت صلاة فى الطرف الثانى وأشرك بينهما فيه . ثم قال ( وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ ) فأجمل المغرب والعشاء فى (زلف من الليل) . وهى ساعات من الليل . فالمواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى(١) ( لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ، مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء. فمن الظهيرة إلى مابعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على المواقيت فى آيات أخر كقوله تعالى(٢) ( فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ) فتبين أن له التسبيح والحمد فى السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر، والعشىّ يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى(٣) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وفى الآية الأخرى(٤): (قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ) فقبل طلوع الشمس هى صلاة الفجر . وقبل غروبها هى العصر. وبذلك فسّرها النبىّ ﷺ فى الحديث(٥) المتفق على صحته عن جرير بن عبدالله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال:

---

(١) [ ٢٤/ النور/ ٥٨ ]. (٢) [ ٣٠/ الروم/ ١٧و١٨ ]. (٣) [ ٢٠ / طه / ١٣٠ ].

(٤) [ ٥٠ / قٓ / ٣٩و٤٠ ] . (٥) أخرجه البخارىّ فى: ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ ( طبعتنا ) .

( إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ).وقوله تعالى ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ ) ( وَمِنْ ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ ) مطلق فى آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقى الدين ابن تيمية فى فتواه فى ( المواقيت الكبرى ) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التى أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعذر . فالوقت فى حال الرفاهية خمسة أوقات كما فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] ( وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شىء مثله . ووقت العصر ما لم تصفر الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس ) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبى هريرة فى السنن . ولم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المواقيت حديث من قوله إلا هذا . وسائر ما روى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما فى هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء فى آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجماهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شىء مثله . سوى الفىء الذى زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إلى أن يصير ظل كل شىء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبى حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شىء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ ( طبعتنا ) .

للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثانى منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر فى إحدى الروايتين عن أحمد. وهو منقول عن مالك والشافعيّ مع خلاف فى مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو[1] ، مما عمل به النبي ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبي يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليـه . ولـكن الصواب المقطوع به ، الذى تواترت به السنن واتفق عليـــه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبيّ ﷺ ، لاصحيح ولا ضعيف . ولـكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمَّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الـكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذى أوّله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهى ثلاثة: من الزوال إلى الغروب. ومن الغروب إلى الفجر. ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدها تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبيّ ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها فى سفرة تبوك . إذا ارتحل بعـد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب فى المطر. فهذا جمع تقديم. والثانى جمع تأخير، العصر فيها إلى الغروب. لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح :[2] من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر. ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ ـ باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبى هريرة) . وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٥ ( طبعتنا ) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر . مع قوله ﷺ فى الحديث الصحيح[١] : ( وقت العصر مالم تصفرّ الشمس ) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ فى أشهر قولى العلماء بقوله تعالى[٢] ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعىّ ، وأحمد فى أشهر الروايتين عنه. وقيل : يخير حال القتال فى التأخير والصلاة فى الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى عنه . وقيل: بل يؤخرها . وهو قول أبى حنيفة أيضاً. ففى الحديث الصحيح[٣] عنه ﷺ أنه قال ( تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعا ، لايذكر الله فيها إلا قليلا) فوصف صلاة المنافق بالتأخير إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله. بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك . كالحائض إذا طهرت . والمجنون يفيق. والنائم يستيقظ . والناسى يذكر . ودل تقديم العصر يوم عرفة على أنها تفعل فى موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هذا الحديث على أنها يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بيّن بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل كل شيء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ، وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبى هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (فى الحائض إذا طهرت قبل غروب الشمس ) : تصلى الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

---

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٨ ] . (٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا ) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابىّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعىّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثانى عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن ـ يعنى الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل ـ والذين ينازعون الجمهور فى الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر فى قوله(1) ( قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبىّ ﷺ لم يصلّ قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحادهم المعروفين يُعْرَف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق فى الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق فى آناء الليل وفى غسق الليل . ومطلق فى الطرف الأول وفى الطرف الثانى ، فدل على جواز الصلاة فى هذا وهذا ، لو قُدّر أن النبىّ ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما فى الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى(2)(ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ )مطلق. فهو الفرض. والطمأنينة إنما جاء بها خبرُ واحدٍ . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون فى الفاتحة : إن القرآن مطلق فى إيجاب قراءة ماتيسر منه، مع أن النبىّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلّوا إلا بالفاتحة . ومع قوله: ( لا صلاة إلا بأمّ القرآن )(3) . و( إن كل صلاة لم يقرأ فيها

(١) [ ٨٧ / الأعلى / ١٤ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٧٧ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ ( عن عُبَادة بن الصامت ) .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ( طبعتنا ) .

بأمّ القرآن فهى خداج . فهى خداج . فهى خداج )[١] . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبرُ واحدٍ فلا يقيد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق فى الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبيّ ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع فى الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذى هو من أخبار الآحاد . مع مافيه من الإجمال، كقوله[٢] لمّا بين المواقيت الخمسة ( الوقت ما بين هذين ) وقوله[٣] ( ما بين هذين وقت ) دلالته على وجوب الصلاة فى هـذا الوقت دون دلالة قوله : ( لا صلاة إلّا بأمّ الـكتاب ) وقوله ( من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الـكتاب فهى خداج ) وكذلك قوله[٤] ﷺ فى الحديث الصحيح ( سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها. ثم اجعلوا صلاتـكم معهم نافلة ) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها فى الوقت عند الرفاهية بقوله ﷺ ( فصلوا الصلاة لوقتها ) وهو الوقت الذى بيّنه لهم. والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنمـا كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن الأمراء ، أنقاتلهم ؟ قال : ( لا . ما صلوا ) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما فى الوقت المشترك فهو ثابت بالسنة فى مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبيّن أن الوقت المشترك وقت فى حال العذر . كقول عمر بن الخطاب ( الجمع بين

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعتنا) عن أبى هريرة.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ ( طبعتنا ). عن أبى موسى . (٣) أخرجه مسلم فى: ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧ ( طبعتنا ) عن بُرَيدة . (٤) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٣٩ ( طبعتنا ) عن أبى ذرّ .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر ) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز . وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة ( فيمن طهرت فى آخر النهار ): إنها تصلى الظهر والعصر. ( وفيمن طهرت فى آخر الليل ) : إنها تصلى المغرب والعشاء. وهو قول الثلاثة: مالك والشافعىّ وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت فى بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع، فقد جمع فى قوله بين أصلين ضعيفين: بين إباحة ماحرمه الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتفويت العشاء إلى النصف الثانى أيضا ، لايجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة فى هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء فى وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لايجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصليها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا )

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ » أمرٌ له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفى « مِنْ » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ ( تهجد ) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثانى أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه ( فتهجد ) . أى قم من الليل أى فى بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم، و(تفعّل) يأتى للسلب كـ(تأثّم وتحرّج)، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهرىّ : المعروف فى كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه. كما يقال للعابد ( متحنث ) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلا . وكذا عن ابن الأعرابىّ قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير فى ( به ) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من ( من ) والباء بمعنى ( فى ) أى تهجد فى ذلك البعض . وقوله تعالى ( نَافِلَةً لَّكَ ) أى عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشرىّ : وضع ( نافلة ) موضع ( تهجدا ) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقدم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » أى يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى، للفصل بين الخلائق الذى يحمده فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة[1] . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير[2] ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذى وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدىّ على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته ـ على ما نقلها الرازىّ ـ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٧ ـ سورة الإسراء ، حديث رقم ٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه:
الأول أن البعث ضد الإجلاس ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .
الثانى أنه تعالى قال ( مَقَامًا مَّحْمُودًا ) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .
الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ، لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .
الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال والحمق يقولون ( فى كل أهل الجنة ) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هـذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .
الخامس أنه إذا قيل: السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم . ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدىّ .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير [1] حتى يمسك من جماح يراعه ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم . وهاك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم):
وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة ـ ثم قال ـ وهـذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ماقاله مجاهد من أن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحته . لا من جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا فى معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم: الله عز وجل وجل بائن من خلقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التى خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماسًّا ، وجب أن يكون لها مباينا. إذ لا فعّال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها، قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز فى قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين ـ فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذ كان من قولهم إن بينونته من عرشه وبينونته من أرضه بمعنى واحد، فى أنه بائن منهما كليهما، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى: كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء، لا شىء يماسه ولا شىء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شىء يماسه ولا شىء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه ( إذ كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، فى أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه ) .

وقالت فرقة أخرى: كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شىء يماسه ولا شىء يباينه. ثم أحدث الأشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماسًّا، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شىء يرزقه رزقاً ولا شىء يحرمه ذلك. ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا: فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لا شىء يماسه ولا يباينه. وخلق الأشياء فماسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه. فهو مماسّ ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه: فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذ كان من قولهم: أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش، ولا فى إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف ـ على قول قائل هذه المقالة ـ بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى ( مباين ومباين ) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول فى معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال فى قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإنا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه «حدثنى» عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحي ابن كثير عن الجريرى ، عن سيف السدوسىّ عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدى الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أفجائز عندك أن يُقعده عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعده ، والله للعرش مباين ، أوْلا مماسّ ولا مباين ، وبأىّ ذلك قال ، كان منه دخولاً فى بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التى حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول فى ذلك إلا الأقوال الثلاثة التى حكيناها . وغير محال فى قول منها ما قال مجاهد فى ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضا عن إيرادات الواحدىّ الخمسة ، التى أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إيراده الأول ، فإن مجاهدا لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك فى اللغة .

وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتا لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد فى الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف ـ فى الشاهد ـ لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن المرفوع ذو مقام يفوق به الكل .

وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بعث لإصلاح المهمات فى الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبيّ فى كتابه (العلوّ لله العظيم) للإمام الدارقطنيّ فى ترجمته ، قولَه :

حديث الشفاعة فى أحمدٍ إلى أحمدِ المصطفى نُسْنِدُهْ
وأما حديثٌ بإقعاده على العرش أيضا فلانَجْحَدُهْ
أَمِرُّوا الحديثَ على وجههِ ولا تُدخلوا فيه ما يُفسِدُهْ

وقال الذهبيّ فى كتابه المنوه به، فى ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله: وقال المروذيّ : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا ( عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش ـ ذكر الإمام أحمدُ محمدَ بن مصعب فقال: قد كتبت عنه . وأىّ رجل هو ! قال الذهبيّ : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت فى ذلك نص ، بل فى الباب حديث واهٍ . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروذيّ وقعد بالغ فى الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرقَ قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبى سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبى يحي القتات وجابر ابن يزيد. وممن أفتى فى ذلك العصر ، بأنهذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض، أبو داود السجستانىّ صاحب السنن وإبراهيم الحربىّ وخلْق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هـذا الحديث . وهو عندى رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد فى قوله (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا )

قال : يقعده على العرش . فحدثت به أبى رحمه الله فقال لم يُقدَّرْ لى أن أسمعه من ابن فضيل : بحيث إن المروذىّ روى حكايةً بنزولٍ، عن إبراهيم بن عرفة. وسمعت ابن عمير يقول: سمعت أحمد ابن حنبل يقول : هذا قد تلقته العلماء بالقبول . وقال المروذىّ: قال أبو داود السجستانىّ : ثنا ابن أبى صفوان الثقفىّ . ثنا يحيى بن أبى كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقة، ثنا الجريرىّ . ثنا سيف السدوسىّ عن عبد الله بن سلام، قال : إذا كان يوم القيامة جئ بنبيكم ﷺ حتى يجلس بين يدى الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره . (أعنى قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش فى تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلّال قال فى كتاب ( السنة ) من جمعه : أخبرنى الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن علىّ السراج ، قال : رأيت النبىّ ﷺ فى النوم فقلت : إن فلاناً الترمذىّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول : بل يقعدك . فأقبل علىّ شبه المغضب وهو يقول: بلى، والله ! بلى، والله ! يقعدنى على العرش. فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدّث قال ( فيما نقله عنه القاضى أبو يعلى الفراء ) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً ﷺ على العرش ، واستفتانى ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبىّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلوّ بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة فى العلوّ . بل يحاول بعض الطغام أن يرد . قوله تعالى[1] ( ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ) انتهى . وقوله تعالى:

---

(١) [ ٢٠ / طه [ ٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

« وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلًا حسنًا مرضيًّا بلا آفة « وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخرجًا حسنًا مرضيًّا من غير آفة الميـل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا » أى عزًّا ناصرًا للإسلام على الـكفر ، مظهرًا له عليه .

وقد رأى المهايمىّ ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها. ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتخليتى عن الرياء والعجب ، وتصفيتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنة لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِي) عنها ( مُخْرَجَ صِدْقٍ ) فلا تستعملنى فيما يحبطها علىَّ ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت علىَّ شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فـكرى ، ( سُلْطَـٰنًا ) أى حجة ( نَّصِيرًا ) ينصرنى على ما ذكر . ليبقى علىَّ عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الـكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه .

« وَقُلْ » أى استبشارًا بقرب الظفر والنصر ، وترهيبًا للمشركين « جَآءَ ٱلْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجولته « إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا » أى مضمحلًّا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات، مع سباقها أعني قوله تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ) يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيّه بأن يبتهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجَره على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعوّ ، ومشيئة الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ) إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأُكبّت على وجوهها . وقال (جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال في (الإكليل) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

ثم بيّن تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشفي أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أي وننزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعه . فيدخلهم الجنة وينجّيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خسارًا . أي إهلاكا. لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهي ، كفروا به ، فزادهم خسارًا إلى ما كانوا فيه قبلُ ، ورجسًا إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخييلية . بتشبيه الكفر بالمرض. و(مِن) بيانية . قدمت على المبيّن وهو ( ما ) اعتناء .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسّية لهذه الآية . بحمل قوله ( شِفَآءٌ ) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنييه ، وممن قرر ذلك الرازيّ . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية. وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات في الإلـٰهيات والنبوّات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحانيّ . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال المحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء، آثارا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد ـ فَلَأَنْ تكونَ قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا ـ كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بحديث[1] ( من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى ) . وأما كونه رحمة للمؤمنين، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم في (زادالمعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه ﷺ، في حرف القاف: (قرآن): قال الله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (مِنْ ) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض. وقال تعالى[2] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهّل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوي به ، ووضعه على دائه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ـ لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدواء كلامَ رب الأرض والسماء ، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحِمْية منه ، لمن رزقه الله فهماً في كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال في (حرف الكاف): ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [ ١٠ / يونس / ٥٧ ] .

وذكر ، قبلُ ، فى فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا فى بحث الرقى . وذكر أيضا أن من الأدوية التى تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والالتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير فى الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسيّة . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوّعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرّفها على مايشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التى يعانيها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاونا على دفع الداء وقهره . فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ـ أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا فى كتاب ( إغاثة اللهفان ) فى بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبغى مراجعته ، ليزداد المريد علما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا)

«وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا» إشارة إلى السبب فى وقوع هؤلاء الضالين فى أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرٍّ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافى عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة الله تعالى فى كلتا الحالتين . ويتيقن فى الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفى الثانية ؛ أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن المنعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا . ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة . كقوله تعالى[(١)] : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشرىّ : (وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) تأكيدٌ للإعراض . لأن الإعراض عن الشىء أن يُوَلّيه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

(١) [ ١١ / هود / ٩ـ١١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا )

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم ( طريق ذو شواكل ) وهى الطرق التى تتشعب منه لتشاكلها . أى تشابهها فى الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيهما بحسب أعمالهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ، قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا )

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ » قال القاشانىّ : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره « قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين ، الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون ، لقصور إدراككم وعلمكم عنه « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم المحسوسات . وذلك شىء نزر حقير بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم ـ هذا ماقاله القاشانىّ ـ وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدَث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاقتصار فى الجواب على قوله : ( قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ) كما اقتصر موسى فى جواب قول فرعون ( وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ )[1] على قوله[2] ( رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) إعلاماً بأن إدراكه بالكُنْهِ على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شىء بمفارقته يموت الإنسان . وبملازمته له يبقى . كما أومأ إليه قوله تعالى : ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ) أى علماً قليلًا تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالىّ .

قال الشهاب : والسؤال ـ على هذا ـ عن حقيقتها . والجواب إجمالىّ بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما فى قوله[3] : ( يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هـذا المقدار . فالمراد بـ ( الأمر ) على هذا التفسير ( قول كن ) ولذا قالوا لمثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبوالسعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه[4] : ( إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينىّ من غير تحصلٍ من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولًا آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمىّ لا الإيجادىّ ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما فى الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فـ ( من ) بيانية أو تبعيضية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركا للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شىء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٣ ] .
(٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٤ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ١٨٩ ] .
(٤) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة فى بحث الروح بدعة فى الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما فى الآية . فالاشتغال بالتفتيش عنه غلوّ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون فى بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوّته ﷺ ، أو لأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضمروا على أنه إذا أجاب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم نرده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيها من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب فى محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملاً على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرموزاً ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصاً على طريقة الحكماء . إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبله ولا يصدق به فى صفة البارى . فكيف يصدق به فى حق الروح الإنسانىّ . بل قال بعض المدققين : إن فى الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعاته الكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة ـ وهو ما ذكرناه أولا ـ وفى الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له فى النزاع ، إذا فُصِلَ ، مطمع . وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له : فيكون قوله ( قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ) على أن السؤال عن حقيقتها ـ مطابقاً . إلا أنه إجمالىّ . أى من الممكنات التى يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقى عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلىّ . وأيًّا ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لا سبيل إلى معرفته لقيل : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) كما قيل فى الساعة، أو نحو ذلك. بل لو لم يكن السبيل لمعرفته، ولو بوجه ما، متيسّرًا لكثير من الناس، لم يكن لأمره بالتفكر فيها . والتبصر فى أمرها ، للاستدلال بها عليه، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذى هو الغاية القصوى والثمرة العظمى ـ من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى[١] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ) وقوله[٢] (وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا فى البحث عنها، أُثِرَت عنهم أقوال شتى. وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذى يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله فى كتابه ( الملل والنحل ) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرّة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرّفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناهما واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال[٣] ( هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ) وقال تعالى[٤] ( ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ) وقال تعالى[٥] ( كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ) فصح أن النفس هى الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى[٦] ( إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ) وقال تعالى[٧] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ) . وقال تعالى[٨] ( وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ

(١) [ ٣٠ / الروم / ٨ ] . (٢) [ ٥١ / الذاريات / ٢١ ] .
(٣) [ ١٠ / يونس / ٣٠ ] . (٤) [ ٤٠ / غافر / ١٧ ] .
(٥) [ ٥٢ / الطور / ٢١ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٥٣ ] .
(٧) [ ٤٠ / غافر / ٤٦ ] . (٨) [ ٢ / البقرة / ١٥٤ ] .

فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ ، بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ) وقال تعالى(١) ( وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ، بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب. ومنها مارزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة. ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين فى سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء . فصحّ أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان. ولا شك فى أن العرَض لا يلقى العذاب ولا يحسّ ، فليست عرَضا . وصح أنها تنتقل فى الأماكن قائمة بنفسها ، وهـذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورةً ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ(٢) ( إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة ) وقوله ﷺ(٣) ، إنه ( رأى نَسَمَ بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره ) فصح أن الأنفس مرئيّة فى أماكنها ، وقوله عليه السلام(٤) ( إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا ) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام .

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى )

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٩ و ١٧٠ ] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٢١ ( طبعتنا ) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذى أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ١ ـ باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء ، حديث ٢٣٥ ( عن أبى ذر ) . (٤) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣١ ـ باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبى هريرة ( طبعتنا ) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحما ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمِرًا له بالكون ( كن فكان ) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضا على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، فى بحث عذاب القبر : والذى نقول به فى مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتعداه . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال[1] : ( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ) وقال تعالى[2] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهى الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام[3] ( إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ) ـ وهى العاقلة ، الحساسة ـ وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها ـ وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها فى الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرّها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة ( ثُمَّ ) التى توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنىّ ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى[4] : ( أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٧٢ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١١ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبى هريرة ( طبعتنا ) . (٤) [ ٧٥ / القيامة / ٣٧و٣٨ ] .

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ) وقال عز وجل[١] : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ) الآية وكذلك أخبر رسول الله[٢] ﷺ ؛ أنه ( يجمع خلق ابن آدم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ) فيبلوهم الله عز وجل فى الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر ، وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزىّ عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذى قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى أجسادها ثم برجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهى الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال فى : ( تفسير سورة الإخلاص ) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة فى الملائكة . هل هى متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هى عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ١٢ ـ ١٤ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه. فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال: الروح الكائن فى الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفَس . والنفَس ريح ينبثّ به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسامّ . وهذا قول الإسفرائينيّ وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجرى فى تجاويف الأعضاء . وأبو المعالى خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتُها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هى البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفَس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هى جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم فى الملائكة. فالمتكلمون منهم يقولون: جسم. والمتفلسفة يقولون: جوهر عقليّ ليس بجسم. وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات، هو مأخوذ من نفس الإنسان. فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت، وتتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسماً ولا قائما بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير . والعقلُ لا تعلق له بالأجسام أصلًا . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً ـ لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أوغِلَظُه . والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسما بالمعنى اللغوىّ ، فما أصاب فى ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسيّة إليه . وماقيل إنه هنا وهناك . وما قَبِل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقة ، من أنهالايشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه ـ هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنماتعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مماتتصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لاتعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أمورا كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته ـ من أفسدالكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لايلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل فى الأوعية لابطونها ولاظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بدن الآكل. فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها فى البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون فى بعض البدن دون بعض . فى الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقا بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هى مع هذا فى البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلّ منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبّرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن مايضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التى هى بعض عبيده ، توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهى مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية . والإنسان ، فى نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر فى بدنه . فهذا الصعود الذى توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية . وحركتها إلى العلوّ حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين فى الروح ما مثاله : إن نظرية الروحيين التى يستدلون عليها فى أوربا بالحسّ فى هذه الأيام، هى أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى . لايصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطينىّ ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسرّ الإلهى المسمى روحاً . ولعل فى هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضى الله عنه عن الروح ( هى صورة كالجسد ) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص، إلى عالم غير هذا العلم. ولكنهما لاينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا فى كل جهة . ولكنا لانراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لذَلِكَ . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة ( رونتجن ) مع أنها موجود كما تدل عليه الآلة التى صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها فى علم الطب وأفادت العلم الطبيعىّ فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص. به يرون الأرواح رائحة غادية ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، رؤية حقيقية . انتهى . ملخصاً .

تنبيه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان .

قال ابن القيم فى كتاب ( الروح ) : وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها فى الآيةليست أرواح بنى آدم. بل هوالروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملَك عظيم. وقدثبت فى الصحيح[1] عن عبد الله قال : بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لاتسألوه عسى أن يخبر فيه بشىء تكرهونه. وقال بعضهم: نسأله . فقام رجل فقال : ياأبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت. فلما تجلى عنه قال : ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...) الآية، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لايعرف إلا بالوحى . وذلك هو الروح الذى عند الله لايعلمها الناس. وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب . وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٧ ـ باب قول الله تعالى : وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . حديث رقم ١٠٦ .

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السدّىّ عن أبى مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبىّ ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبىّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أظلّ زمانُ نبىٍّ يخرج ، وهو على ماتصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبىٌّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذّاب . سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم . فإن قال لكم : هى من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لايحتج به . فإنه من تفسير السدىّ عن أبى مالك . وفيه أشياء منكرة . وسياق هذه القصة فى السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السدّىّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبىّ ﷺ على ملأ من اليهود . وأنا أمشى معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه. فنزلت ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ) يعنى اليهود ( قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى .. ) الآية . وكذلك هى فى قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نجد مثله فى التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحي بن زكريا بن أبى زائدة ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: أتت اليهود إلى النبىّ ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبىّ ﷺ بشىء . فأنزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السدّى ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود. ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة، لم يسكت

النبي ﷺ ، وليبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح فى القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحى ، كقوله تعالى(١) : ( وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ) وقوله(٢) ( يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ) وسمى الوحى روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثانى : القوة والثبات والنصرة التى يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال(٣) : ( أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ) .

الثالث : جبريل كقوله تعالى(٤) : ( نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ) وقال تعالى(٥) : ( قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ) وهو روح القدس ، قال تعالى(٦) : ( قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ) .

الرابع : الروح التى سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة فى قوله تعالى(٧) : ( يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ ) وإنها الروح المذكورة فى قوله(٨) : ( تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى(٩) : ( إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٥٢ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ١٥ ] .
(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ٢٢ ] . (٤) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤ ] .
(٥) [ ٢ / البقرة / ٩٧ ] . (٦) [ ١٦ / النحل / ١٠٢ ] .
(٧) [ ٧٨ / النبأ / ٣٨ ] . (٨) [ ٩٧ / القدر / ٤ ] .
(٩) [ ٤ / النساء / ١٧١ ] .

رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ )أما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى[1] (يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ )وقال[2] ( وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ) وقال[3] : ( إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ) وقال[4] : ( أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ) وقال[5] : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ) وقال[6] : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ) .

وأما فى السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله فى الصحيح المتقدمة ، تقتضى فيما يظهر ببادئ الرأى ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ) انتهى .

وقد روى ابن جرير[7] عن قتادة : أن الروح فى الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذى أراه متعينا فى الآية ، لسابقها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحى بالقرآن، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية فى سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنّة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمى تعالى الوحى بالقرآن روحاً : قال تعالى[8] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

---

(١) [ ٨٩/ الفجر/ ٢٧ ] . (٢) [ ٧٥ / القيامة/ ٢ ] . (٣) [ ١٢/ يوسف / ٥٣ ] .
(٤) [ ٦/ الأنعام/٩٣ ]. (٥) [ ٩١/ الشمس/٧ و٨ ]. (٦) [٣/ آل عمران/١٨٥ ] .
(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .
(٨) [ ٤٢ / الشورى / ٥٢ ] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ) وقال[1] تعالى : ( يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يتعنتون فى السؤال عنـه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى[2] : ( وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ ) وقوله تعالى[3] : ( عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد فى صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف، فضلاً عن الوحى وخصائص النبوة، للأمّية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو فى جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً .

وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرىٌ مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعانى ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا)

« وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيما لشأنه ، ووصفاً له بما هو فى حيز الصلة ، وإعلاما بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [ ٤٠/غافر/ ١٥ ] . (٢) [ ١٠/ يونس/ ٥٣ ] . (٣) [٧٨/ النبأ/ ١ـ٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا )

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة مِنْ ربك تركته غير مُشاء الذهاب به بل تولت حفظه .

قال الزمخشرىّ : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرها . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإيحاء والتعليم الربانىّ ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانىّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا )

« قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معيناً . وفى تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا )

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا » أى رددنا وكررنا وبينّا « لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ »

أى من كل معنى ، هو كالمثل فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفراً ، كما قال سبحانه « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات ، فعلَ المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا )

[٩١] ( أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا )

[٩٢] ( أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا )

[٩٣] ( أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا )

« وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا » أى تشقق لنا من أرض مكة عيوناً « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا » وإنما قدموا فى عنتهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يَرِدُونَ بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير(١) فيما رواه ، إنهم قالوا للنبيّ ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً . ولا أقل مالاً . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا فى الاقتراح فقالوا: «أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا» أى كفيلا بما تقول، شاهداً بصحته «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ» أى ذهب : «أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» أى وحده «حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ» أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى» أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم «هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا» أى كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشىء منها .

تنبيه :

لايخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه، وبحكمته وجلاله. وبيان ذلك ـ كما فى كتاب ( لسان الصدق ) ـ أن ما قترحه قريش فيها ( منه ) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو جلت عظمته . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز فى شىء . مع أن مثله لاتثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناساقد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء ( ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : ( أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ) فإن إنزال السماء

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بحذافيره . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ماهو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلا وهو قولهم : ( أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ) فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : ( أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ) فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون ( ومنه ) ماوعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهوقولهم : ( أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ) فيه ـ على ماذكر فى الرواية ـ من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولى فآمنوا به . والصعود فى السماء لا مزية فيه، لأنهم قالوا: ( وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ) فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى مختص بالأنبياء ، والكفارُ عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه فى الآيات معجزاً . وإنما هى أمور مستحيلة فى نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلا . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم: وايم الله! لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. وقد قال تعالى(١): ( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ) فكان الأولى فى جوابهم عما اقترحوه ، هو ماأجاب به ﷺ من قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) أى تنزه ربى عن فعل مااقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. علىّ أن أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتى مما أوحاه إلىّ . وذلك ماتحديتكم بالإتيان

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١١ ] .

بسورة مثله فى الهداية والإصلاح . كما أمرنى ربى . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوّه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ» أى الذين حكى تعنتهم «أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا» أى إلّا تعجبهم من بعثة إنسانٍ رسولا . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى[1] : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) والآيات فى ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقرا لملائكته ، لكانت رسلهم منهم ، جرياً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)

« قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ » أى على أقدامهم كما يمشى الإنس « مُطْمَئِنِّينَ » أى ساكنين فى الأرض قارّين « لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا » أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المراشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

(١) [ ١٠ / يونس / ٢ ] .

فيكم رسلا منكم . كما قال تعالى[١] : ( كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

فى الآية إشارة إلى حاجة من يستقر فى الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة البارى تعالى وعنايته بذلك ، فمنّ على الخلق بالرسل وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة ، وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا )

« قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى على أنى بلغت ماأرسلت به إليكم ، وإنكم كذبتم وعاندتم . وقرر الرازىّ أن المعنىّ بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أى كفى بما أكرمنى به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً على صدقى . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول ملكا ، تحكم فاسد . اه .

وناقشه أبو السعود بأن ماقرره لايساعده قوله تعالى ( بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ) وما بعده من التعليل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة. وقوله تعالى: « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى عالما بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٥١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا )

« وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أي إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ » أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء المعاندين « فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ » أي أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة في (لَهُمْ) حملًا على معنى (مَنْ) وأوثر في ما قبله الإفراد ، حملًا على اللفظ . وسر الاختلاف في المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّالِ « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ) أي يسحبون عليها كقوله[١] ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ) .

وقال القاشانيّ : أي ناكسي الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التي كانوا عليها في الدنيا . كقوله ( كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تُبْعَثُونَ ) إذ ( الوجه ) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أي على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أي كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ـ فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم[٢] ( وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ ) ـ كذا في ( الكشاف ) « مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ » أي سكن لهيبها ، بأن أكلت جُلُودَهُمْ ولحومهم « زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا » أي توقدا . بأن نبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

(١) [ ٥٤ / القمر / ٤٨ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٧٢ ] .

قال الزمخشريّ : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها . ثم يعيدها . لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

« ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أي لَمُحْيَوْنَ خلقاً جديداً ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحمنا وبقينا عِظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ » أي يعلموا « أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أي يوم القيامة . يُنشئهُمْ نشأة أخرى ويعيدهم كما بدأهم . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السمٰوات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خَلْقاً منهن . كما قال(١) : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هي أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا

(١) [ ٧٩ / النازعات / ٢٧ ] .

لَّا رَيْبَ فِيهِ » أى جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها. كما قال تعالى[1] : ( وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ) ، « فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ » أى بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل: « إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً وتمادياً فى باطلهم وضلالهم.

لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة ـ جملة وجعل الخ ـ معطوفة على جملة ( أَوَلَمْ يَرَوْا ) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهى مؤولة بخبرية ـ كما فى ( شرح الكشاف ) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة ( وَجَعَلَ لَهُمْ ) أى لإعادتهم ( أَجَلًا ) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلًا ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثًا. فلا بد أن يجزى بما عمله فى هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظًا ومعنى و ( لَّا رَيْبَ فِيهِ ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغى إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : ( يَخْلُقَ ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا )

« قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ » أى رزقه وسائر نعمه على خلقه : « إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ » أى لبخلتم بها مخافة نفادها بالإنفاق . مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً . لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا » أى بخيلا .

---

(١) [ ١١ / هود/ ١٠٤ ] .

## تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التى لا يبلغها الوهم، كما قاله الزمخشرىّ .

الثانى : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيق سبحانه؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثانى لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل، إما دنيوىّ كعوض مالىّ ، أو معنوىّ كثناء جميل، أو خدمة واستمتاع، كما فى النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالىّ كان مبادلة لا مباذلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَـدِّنَا فى زماننا عن حَدِيثِ المَكَارِمِ
مَنْ كَفَى الناس شَرَّهُ فهو فى جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفّقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . كما قال تعالى[١] ( إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز.

الثالث : ذكر هـذه الآية إثْرَ ما قبلها ، لتقرير انفراده تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض، كى تنجلى لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملأى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقيةِ ما يدعوهم إليه .

وذكر هذا المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليـه الإنسان، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلَّى بينه وبين ما تتقاضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله ، ممـا يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [ ٧٠ / المعارج / ١٩ ـ ٢٢ ] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضننتم بها . مما يدلكم على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُون لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى[1] ( أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ) أى لو أن لهم نصيبًا فى ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء فى الصحيحين[2] : ( يَدُ اللهِ مَلأَى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض فإنه لم يغض مافى يمينه ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا )

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها فى سورة الأعراف فى قوله تعالى ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ.. )الآية ، «فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى عنها : فإنهم يعلمونها، مما لديهم من التوراة. فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله ( مَسْحُورًا ) بمعنى سُحِرْتَ فخولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصا ثعباناً . وعلى الأول هو كقوله[3] ( إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ) .

(١) [ ٤ / النساء / ٥٣ ] .
(٢) أخرجه البخارىّ فى:٩٧ ـ كتاب التوحيد، ١٩ ـ باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبى هريرة .
وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ ( طبعتنا ) .
(٣) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا )

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ » أى بيّنات مكشوفات لا سحر ولا تخيّل . ولكنك معاند مكابر . ونحوه[1] ( وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ) ( والبصائر ) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بيّنة . أو المراد الحجج ، بجعلها كأنها بصائر العقول . وتكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا )

[١٠٤] ( وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا )

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » أى يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فرقا منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و ( الأرض ) أرض مصر . أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكناها وهى فلسطين ، وقوله تعالى « فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا » أى فحاق به مكره . لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق « وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد إغراقه « لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ » وهى أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها .

(١) [ ٢٧ / النمل / ١٤ ] .

قال ابن كثير : فى هذا بشارة للنبيّ ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى[١] (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال[٢] ( كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ) وقوله تعالى ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ ) أى قيام الساعة « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا» أى جمعا مختلطين أنتم وعدوّكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبيّن اشتماله على ما يلائم الفطر ويطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا )

[١٠٦] ( وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا )

« وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ » أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنّا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى[٣] ( لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ) « وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ » أى متلبسا بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى[٤] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ) « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ » أى نزلناه مفرقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٧٦ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٥٩ ] .
(٣) [ ٤ / النساء / ١٦٦ ] . (٤) [ ٤١ / فصلت / ٤٢ ] .

بمعنى « لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا » أى من لدنّا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ) ﴿سجدة﴾

[١٠٨] ( وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا )

[١٠٩] ( وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا )

« قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزمخشرىّ : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ماالوحى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىّ العربىّ الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيما لأمره ، ولإنجازه ماوعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله ( إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ) .

فإن قلت ( إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلًا لقوله ( ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ) ، وأن يكون تعليلا لـ (قل) على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطييب نفسه . كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء. وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه، الذقن . فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام فى ( خَرّ لذقنه ولوجهه ) قال : نخر صريعاً لليدين وللفم ؟ قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين ، وخرورهم فى حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخشع . فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التى وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذمّ منها من مَقتَهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدّ الإمام الغزالىّ فى ( الإحياء ) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة. قال رسول الله ﷺ[1] (اتلوا القرآن وابكوا. فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى. فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطىّ فى ( الإكليل ) أن الشافعىّ استدل بقوله تعالى ( وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ) الآية ، على استحباب هذا الذكر فى سجود التلاوة . وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه فى: ٥ ـ كتاب الإقامة، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن. حديث ١٣٣٧ (طبعتنا) عن سعد بن أبى وقاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا )

[١١١] (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا )

«قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ» ردٌّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن ، وإذنٌ بتسميته بذلك . أى سموه بهذا الاسم أو بهذا . و (أوْ) للتخيير . «أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ» أى أىَّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله ( فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ) للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه . إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين . فأُقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية كآية[1] ( وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ) « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » أى بقراءة صلاتك . بتقدير مضاف ، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها . كما تسمى الصلاة ركعة « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » أى تُسِرّ وتخفى « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » أى بين الجهر والمخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوساطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان[2] أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٨٠ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٧ سورة الإسراء، ١٤ ـ باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس. وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط فى صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته .

ثم بيّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال ، بقوله تعالى « وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لم يكن علةً لموجود من جنسه ، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكنا بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ » أى من يساويه فى قوة القهر والمملكة من الشريك فى الملك . وإلا لكانا مشتركين فى وجوب الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لابدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة . فلزم تركبهما ، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضا فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما إلٰها . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلا معا . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ، رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشانىّ .

« وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » أى ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعتزازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا » أى عظمه عن أن يلحقه شىء من هذه النقائص تعظيماً جليلًا .

---

تمّ ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت فى ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ فى سدّة جامع السنانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

---

تم الجزء العاشر ، ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيه تفسير :

( ١٨ ـ سورة الكهف ، و ١٩ ـ سورة مريم ، و ٢٠ ـ سورة طه ، و ٢١ ـ سورة الأنبياء ) .

---

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٦٢ / ١٩٦٩

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل


تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م


## الجزء الحادي عشر

وفيه تفسير :

١٨ ـ سورة الكهف ، و ١٩ ـ سورة مريم ،
و ٢٠ ـ سورة طه ، و ٢١ ـ سورة لأنبياء

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

## محمد فؤاد عبد الباقي


عيسى البابى الحلبى وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٨ – سُورَةُ الكَهْفِ

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلىّ عن الأعداء ، والإغناء الكلىّ عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية ، وقيل[1] إلا أولها إلى قوله ( جُرُزًا ) وقوله[2] ( وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ . . . ) الآية[3] و ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ) إلى آخر السورة . واختار الدانىّ أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى فى فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ١ـ٨ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ٢٨ ] .
(٣) [ ١٨ / الكهف / ١٠٧ـ١١٠ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا )

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ » قدّمنا أن كثيراً ماتفتح السور وتختم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال ( لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ )(١) وتعليما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذى بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى. وفى إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العليّة ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه. فإنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد ، والداعى إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شيء فى معناه يماثله . وفى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزّل والمنزّل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم فى سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام . وتعريفُ الكتاب للعهد . أى الكتاب الكامل الغنىّ عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا » أى شيئاً من العوج ، باختلال فى نظمه وتناف فى معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيلاً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [ ٢٨ / القصص / ٧٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)

[٣] (مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّماً » أى قيماً بمصالح العباد وما لابد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بعد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قيماً على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهياً فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفى العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبئ عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره ( جعله ) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانىّ أن الضمير فى ( لَّهُ ) وما بعده لقوله ( عَبْدِهِ ) قال: أى لم يجعل لعبده زيغاً وميلاً . وجعله قيّماً ، يعنى مستقيما ، كما أُمِرَ بقوله[1] ( فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ) أو قيّماً بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على الكمال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما فُرِغ من تقويم نفسه وتزكيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأُمِرَ بتقويمها وتزكيتها . ولهذا المعنى سمى إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القيّميّة أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .

والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و ( البأس ) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله ( مِّن لَّدُنْهُ ) إشارة إلى زيادة هَوْله. ولذلك عظمه بالتنكير . متعلق بـ (أَنزَلَ) أو بعامل ( قَيِّماً) « وَيُبَشِّرَ

(١) [ ١١ / هود/ ١١٢ ] .

« ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى به . وقال القاشانىّ: أى الموحدين، لكونهم فى مقابلة المشركين، الذين قالوا اتخذ الله ولداً . وقوله تعالى « ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى من الخيرات والفضائل « أَنَّ لَهُمْ » أى بأن لهم ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة « أَجْرًا حَسَنًا » وهو الجنة « مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا )

« وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب فى قولهم ( الملائكة بنات الله ) والنصارى فى ( دعواهم المسيح ابن الله ) وخصهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً بهم، استعظاماً لكفرهم . وتركُ إجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ( وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة ، فى الكفر على أقبح الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا )

«مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ» أى مالهم بالولد، أو باتخاذه، أو بالقول، من علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء. لا عن علم يقين ، ويقين. ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أى ما أكبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ » وذلك لأن الولد مستحيل لا معنى له . إذ العلم اليقينىّ يشهد أن الوجود الواجبىّ أحدىّ الذات ، لا يماثله الوجود الممكن . والولد هو المماثل لوالده فى النوع ، المكافئ له فى القوة. وجملة ( تخرج من أفواههم) صفة لـ(كَلِمَةً ) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم. قال الشهاب: لأن المعنى : كبر خروجها . أى عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إن

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » أى قولًا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلًا . وذلك لتطابق الدليل القطعىّ ، والوجدان الذوقىّ على إحالته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦] ( فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا )

« فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ » أى مهلكٌ « نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه. أو متأسفاً عليهم. و(الأسف) فرط الحزن والغضب. وفى (العناية) : لعل للترجى. وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه. وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو آسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقته أحبته . فهمّ بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك ـ كما قال القاشانىّ ـ أن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم من لوازم محبة الله ونتائجه . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله لقوله[1] ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ) وكلما كانت محبته للحق أقوى، كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه . بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقىّ . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا )

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضاى ، وأقدر على مخالفتها لموافقتى .

---

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا )

« وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستوياً لانبات فيه . بعد ما كان يبهج النظار ، لا شىء فيه يختلف ، رُبًى ووهاداً . أى نفنيها وما عليها ولا نبالى . وفى الآية تسلية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفنيها ، ولا حيف ولا نقص . أوْ لا تحزن فإنا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا )

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و ( مِن ءَايَٰتِنَا ) حال منه و ( أَمْ ) للاستفهام التقريرىّ بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلُها منقطعة مقدرة بـ ( بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار ) ـ أى إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى ـ فيه بُعْدٌ . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلّا لتقرير التعجب منها . و ( الكهف ) الغار الواسع فى الجبل . و ( الرقيم ) اسم كلبهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا )

« إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ » أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُواْ رَبَّنَآ » أي من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً » أي من خزائنك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] ( فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا )

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أي أنمناهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير، ولا دعوة الداعي الخبير ، في الكهف سنين ذوات عدد . أي كثيرة أو معدودة. قال الشهاب : ( ضربنا ) مستعار استعارة تبعية لمعنى أنمناهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إمّا من ( ضربت القفل على الباب ) أو ( ضربت الخباء على ساكنه ) شبِّه ، لاستغراقه في نومه حتى لا ينتبه بمنبه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا )

« ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ » أي أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا » أي لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أي إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدوّ ، فيتمّ لهم رشدهم في شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى )

« نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع فى تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و(الحق) الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيمانا يقينيا علميًّا على طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك «وَزِدْنَاهُمْ هُدًى» أى بترجيح جانب الله على جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية ــ وهم الشباب ــ أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد يروى عن هؤلاء الفتية روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتيةُ المنوه بهم . وخلعوا الوثنية التى عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم . فاستخفوا عنه فى الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، . فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ،فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذى كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ ( فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ) وكان ورِق ذلك الزمان لدولة أهله. فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر ما رأى. ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا؟ هذا من ورِق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريهم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسنذكر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم .

وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أي قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسّرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا۟ » أي بين يديه غير مبالين به . و (إذ) ظرف لـ(ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشدّ المعروف . أي استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القلق والخوف يزعج به القلب من محله، كما قال تعالى[1] : (وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمرٍ ،

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٠ ] .

بالحيوان المربوط فى محلٍّ . وعدَّى ( ربط ) بـ ( على ) وهو متعدٍّ بنفسه ، لتنزيله منزلة اللازم « فَقَالُواْ رَبُّنَا » الذى نعبده « رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَن نَّدْعُوَاْ » أى نعبد « مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ، لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا )

« هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفى الإشارة تحقير لهم « لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم » أى على عبادتهم أو إلٰهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانىّ : دليل على فساد التقليد ، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلٰهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال(١) : ( إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشىء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له فى الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون فى حق الله ، لافترائهم عليه بأن فى رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضًا بقولهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا )

« وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ » أى وإذ اعتزلتم القوم ،

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ٢٣ ] .

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذي لا يطلعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من السكون فيه ، فواتَ الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ما دعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ » أي ما يغني عن الطعام والشراب، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية « وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مِّرْفَقًا » أي ما تنتفعون به . قال المهايميّ : يرفق بنفوسكم فيعطيها من لذات عبادته ما ينسيها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالية عن الأذيات كلها . وجَزْمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبيه :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطُهد المرء في دينه وأريد على الشرك . وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمامُ الغزاليّ حيث قال في ( إحيائه ): وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أي ولا ريب في مشروعيته فرارًا من الفتن .

فقول السيوطي في ( الإكليل ) : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان ـ كلام مجمل لابد من التفصيل فيه . وأي عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسبُ، فافهم ولا تَغْلُ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ،

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا )

« وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت » أى صعدت عند طلوعها « تَّزَاوَرُ » أى تميل « عَن كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ ٱلْيَمِينِ » أى يمين الكهف «وَإِذَا غَرَبَت » أى هبطت للغروب « تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس. وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال. فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله. فيقع شعاعها على جانبيه. يحلل عفونته ويعدل هواءه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم. قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع. أى قطع الاتصال بهم لئلا تغير أبدانهم . وقولُ الفارسىّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد ـ مردود، بأنه لم يسمع له ثلاثىّ.

وفى ( الروض الآنف ) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من ( القرض ) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم فيه، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أى إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه « فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا » أى ناصرًا يلى أمره فيحفظه من الضلال « مُّرْشِدًا » أى يهديه إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ، لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا )

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يامخاطب ، أيقاظاً لا نفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

ينامُ بإحدى مقلتيه وَيتّقِى    بأخرى الرزايا فهو يقظانُ نائمُ

و ( أَيْقَاظًا ) جمع يَقِظ ويقظان . و ( رُقُودٌ ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول ـ مردود بما نص عليه النحاة كما صرّح به فى ( المفصّل ) و (والتسهيل) « وَنُقَلِّبُهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ » أى لئلا تتلف الأرض أجسادهم « وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، قال ابن كثير : وهذا فائدة صحبة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلبٍ ، ليهابوهم مع هيبةٍ ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » أى خوفا يملأ صدرك، لما ألبسوا من الهيبة. فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك ـ كما قال ابن كثير ـ لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ » أى وكما أنمناهم تلك النومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيآتهم وأحوالهم شيئاً ، ادّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً. قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين. وقوله تعالى « لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ » أى ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرِّموا به . أفاده الزمخشريّ .

وبه يتبيّن أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لَحَظَ أن الغرض من فعله تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهارٍ ، واستيقاظهم كان فى آخر نهار. ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايميّ : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ، ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم . فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالوليّ يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشريّ : جواب مبنيٌّ على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون خطأً .

« قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بعدة لبثهم.

كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة ، أو بإلهام من الله ، أن المدة متطاولة ، وأن مقدارها مبهم . فأحالوا تعيينها على ربهم . « فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ » أي المأخوذة للتزود. و ( الورِق ) الفضة « إِلَى ٱلْمَدِينَةِ » أي التي فررتم عنها « فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا » أي أطيب . « فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أي في المبايعة واختيار الطعام . أوفى أمره بالتخفى ، حتى لا يشعر بحالكم ودينكم « وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا )

« إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ » يطلعوا على مكانكم « يَرْجُمُوكُمْ » أي يقتلوكم بالحجارة « أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ » أي يدخلوكم فيها بالإكراه العنيف «وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا» أي إذا صرتم إلى ملتهم. قال القاشانيّ: ظهور العوامّ، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين ، ورجمهم أهل الحق ، ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ـ ظاهر . كما كان في أوائل البعثة النبوية .

## لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف وصلوا قولهم ( فَٱبْعَثُوٓاْ ) بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك . لا طريق لكم في علمه . فخذوا في شيء آخر مما يهمكم . انتهى .

ورأى المهايميّ أن قولهم ( فَٱبْعَثُوٓاْ ) من تتمة حديث المدة. قصد به تفحصها. كأنهم لما أحالوا تعيينها على الله تعالى بقولهم ( رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ) قالوا هذه الإحالة لا تمنع من طلب العلم بالمدة . ولو في ضمن أمرٍ آخر ، فاطلبوه في ضمن حاجةٍ لنا. وهي أن تبعثوا أحدكم

بورقكم هذه لئلا نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به، فيفضي إلى الهلاك .

الثانية ـ قال في ( الإكليل ) : قوله تعالى ( فَابْعَثُوٓاْ ) الآية ، أصل في الوكالة والنيابة.

قال ابن العربيّ : وهي أقوى آية في ذلك .

قال الكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة ـ دلّ قوله تعالى عنهم ( فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ) على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبًّا الاعتناء بجودته وتزكيته ، كما فصّل في قوانين الصحة .

الرابعة ـ قال الرازيّ : (الرجم) بمعنى القتل، كثير في التنزيل كقوله[1] (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ) وقوله[2] ( أَن تَرْجُمُونِ ) وأصله الرمي ، أي بالرجام وهي الحجارة . ولا يبعد إرادة الحقيقة في موارده كلها ، زيادة في التهويل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا )

« وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ » أي كما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد « لِيَعْلَمُوٓاْ

(١) [ ١١ / هود / ٩١ ] . (٢) [ ٤٤ / الدخان / ٢٠ ] .

أَنَّ وَعْدَ ٱللَّـهِ حَقٌّ » أى ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، أن وعد الله بالبعث حق. لأن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث « وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ » أى الموعود فيها بالبعث « لَا رَيْبَ فِيهَآ » إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة . ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم ، بقوله سبحانه « إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا » أى على باب كهفهم بنيانا عظيما. كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم و ( إِذْ ) على ما يظهر لى ، ظرف لـ (اذكر) مقدرًا . والجملة مستأنفة لبيان ختم نبئهم بما جرى بعد مماتهم ، إثر ما أوجز من نبئهم بعد بعثهم والإعثار عليهم . وجعلهُ ظرفاً لـ ( أَعْثَرْنَا ) أو لغيره مما ذكروا ــ ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى

وقوله تعالى ( فَقَالُواْ ) تفسير للمتنازع فيه . وقوله تعالى ، « رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جملة معترضة . إما من الله ، ردًّا على الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده ﷺ من أهل الكتاب، أو هى من كلام المتنازعين فى عهدهم. كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا فى أحوالهم ومدة لبثهم . فلما لم يهتدوا أحالوا حقيقة نبئهم إليه تعالى « قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ » أى من المتنازعين ، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » أى نصلى فيه ، تبركا بهم وبمكانهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكى فى القائلين ذلك قولان ( أحدهما ) أنهم المسلمون منهم ( والثانى ) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر. لأن النبيّ ﷺ قال[1] : ( لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ) يحذّر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٥ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعتنا).

وعجيب من تردده فى كونهم غير محمودين ، مع إيراده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلـهىّ والمقت الربانى . والسبب فى ذلك أن البناء على قبر النبىّ والولىّ مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس فى قوله تعالى(١) ( وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ) قال : هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادى عليه الرحمة ، فى كتابه ( الصارم المنكى ) بعد إيراده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا فى زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام فى زيارة القبور . وتلقّاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبىّ ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج. ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله ربه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

---

(١) [ ٧١ / نوح / ٢٣ ] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيما . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرج ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، ونزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم ـ كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظّم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظَّم ويبغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه فى الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فتعظيم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقدَّم على ماجاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما مايحبه المعظَّم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم فى الحقيقة . والثانى ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلىّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبىّ ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفى المسند[1] بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يامحمد! ياسيدنا! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ ( عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبدالله ، عبدُ الله ورسولُه . ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عزّ وجلّ ) . وقال ﷺ [2] : ( لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله ) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال[3] : ( إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣١ ـ باب رجم الحبلى فى الزنى إذا أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة فى آخر حجة حجها .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ ( طبعتنا ) .

يقومون على ملوكهم ) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تتمة مهمة فانظره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون فى قصتهم على عهد النبيّ ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظنًّا خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا » أى لا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالىّ ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال[1] (وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [ ١٦ / النحل / ١٢٥ ] .

فى معرفة ذلك لايترتب عليه كبير فائدة . قيل : المهاراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة المحاجّة مطلقاً . والمهاراة المحاجة فيما فيه مرية أى تردد ، لأنها من ( مريت الناقة ) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبأهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجما بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ماعنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لامرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجما بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو فى قوله ( وَثَامِنُهُمْ ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر. وأنه لاعدد وراءه. كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدّة . وأقول : لايخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز. كما لايخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه فى الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية. فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شىء . وجوابُ بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية ـ بعيدٌ غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب فى القول .

ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتعين للوصفية . لجواز كونها حالًا من النكرة، لأن اقترانها بالواو مسوّغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى ( قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ) فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهانا ظاهرا على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، ردّ العلم إليه تعالى . وإشارةً إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بيّن وبرهان نيّر . وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده ( مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ) فإن فيه ( دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إما نبيّ ، أو من كان في مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسدّ من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هـذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة ـ فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبيّ ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازيّ نقل عن القاضي أنه قال : إن كان ـ ابن عباس ـ قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لي الآن .

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة ، وقفت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه في آخر الآيات فيهم . فسنح لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال في (قاعدة له في التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام ـ مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغي في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته. إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما. ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال فى مثل هذا ( قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فلهذا قال ( فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا ) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل فى هذ المقام .

الثانى ـ قال الرازىّ : ذكروا فى فائدة الواو فى قوله ( وَثَامِنُهُمْ ) وجوهاً :

الأول ـ ما ذكروه أنه يدل على أن هـذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها ـ أن السبعة عند العرب أصل فى المبالغة فى العدد. وإذا كان كذلك، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف، فقالوا: وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون. قالوا: ويدل عليه نظيره فى ثلاث آيات، وهى قوله[1] : (وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله[2] : ( حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله[3] : ( ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ) لأن قوله : ( وَأَبْكَارًا ) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . ( واو الثمانية ) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [ ٩ / التوبة / ١١٢ ] .(٢) [ ٣٩ / الزمر / ٧٣ ] .(٣) [ ٦٦ / التحريم/ ٥ ] .

قال القفّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى[١]: ( هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف) : الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واوا لثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواوَ في قوله في الجنة ( وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واوا تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك ( وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ) وهو الثامن من قوله ( ٱلتَّٰٓئِبُونَ ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي ( ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله[٢]( يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ )وكقوله[٣] ( وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ )وربما عدّ بعضهم من ذلك ، الواوَ في قوله:( ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولوذهبت تحذفها فتقول ( ثَيِّبَٰتٍ أَبْكَارًا ) لم يستدّ الكلام. فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى في ( الإكليل عن مجاهد في قوله تعالى : ( فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدّيّ : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلاحجة ظاهرة . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ٢٣ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٧١ ] .
(٣) [ ٣١ / لقمان/١٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا )

[٢٤] ( إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا )

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » فى هــذه الآية وجوه من المعانى . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك فى القول ، فتـكون قائلا بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشىء لا تعلم إلا بإذنه فيه أى إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل ، إنى فاعل ذلك غداً إلا قائلا معه إن شاء الله تبرؤا من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتـكون فاعلًا بمشيئته . ولئلا يلزم الـكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لاتقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتًّا له . لأنه[1] ( وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَـكْسِبُ غَدًا ) فلا ينبغى الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى ( إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ) أى أن تقـول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : ( وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ) وعلى هــذه الوجوه كلها فـ ( لَا تَقُولَنَّ ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ فى كتاب ( الحيوان ) : إنما ألزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليبقى عادة المتألى ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى، وعلى أن يكون عبده ذا كراً لله. لأنه عبد مدبَّر، ومقلَّب ميسَّر، ومصرَّف مسخَّر.

وبقى وجه آخر. وهو أن المعنى لاتقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لـكل ما يعزم عليه ويقوله . كقوله تعالى[2]

(١) [ ٣١ / لقمان / ٣٤ ] . (٢) [ ٧٦ / الإنسان / ٣٠ ] .

(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر بادئ الرأى كما قاله فى (الانتصاف) وفى هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمرٍ ما فى نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر فى غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم . فلما نهى عنه أخبر بأن كل شىء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولًا أوليًا . أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله ، إذ شاء الله أن تقوله . فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب ، إثْرَ ما يومئ إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتائهم ، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسى ، أى نسى ما وصّى به . وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه .

فدعوى الناصر فى (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض ، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونًا بمشيئته تعالى ـ قصرٌ للآية على أحد معانيها ، وذهاب إلى ما هو المشهور فى تأويلها ، وعدم تعمن فى مثل هذا المعنى الدقيق ، بل وفى بقية المعانى الأخر التى اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضا . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا» أى خيرًا ومنفعة. والإشارة ، للنبأ المتحاوَر فيه .

## تنبيهات :

الأول ـ روى أنه صلوات الله عليه سُئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين ، فقال : أجيبكم عنها غدًا ولم يستثن. فاحتبس الوحى خمسة عشر يومًا ، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية . وقد زيف هذه الروايةَ القاضى ـ كما حكاه الرازىّ ـ من أوجه . والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول . كما ساقه عنه ابن كثير وغيره ، والله أعلم .

الثانى ـ يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى » الآية ، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبغى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه ، وابتغاء الرشاد فيه ، حتى يتكلف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها .

الثالث ـ اعترضت هذه الآداب أعني من قوله تعالى ( فَلَا تُمَارِ ) إلى هنا قبل تتميم نبئهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع ـ روى عن ابن عباس في قوله تعالى : ( وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثن ، وذلك ( كما قال القرطبي ) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في ( الانتصاف ) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكي عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي ( حصول المأمول ) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في ( مستدرك الحاكم ) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثني إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المديني وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضي الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيم في ( مدارج السالكين ) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن ، فله أن يستثني عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه. والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكر، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود[١] وغيره ( والله ! لأغزونّ قريشاً ) ثم سكت ثم قال ( إن شاء الله ) . ومنها حديث[٢] ( ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ) فقال العباس ( إلا الإذخر ) . وهو فى الصحيح . ومنها قوله[٣] ﷺ فى صلح الحديبية ( إلا سهل ابن بيضاء ) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا )

[٢٦] ( قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ، لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا )

« وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ » حكاية لقول أهل الكتاب فى عهده ﷺ ، فى مدة لبثهم نائمين فى كهفهم الذى التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه ( قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضى الله عنه ( وَقَالُوا۟ وَلَبِثُوا۟ ) قيل : وعليه فيكون ضمير ( وَٱزْدَادُوا۟ ) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٧ ـ باب الاستثناء فى اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٧ ـ باب الإذخر والحشيش فى القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ ( طبعتنا ) .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة. ولا يخفى ركاكة ما ذكر، فإن الضمير للفتية.ووجه العدول موافقة رؤوس الآى المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخصرية تدقيق نحوىّ لاتنهض بعثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأباها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربى يجد بينهما فى الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب، واعتبار القمرية ، بيانا للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين ـ دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية، فلذلك قال : ( وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً ) لنقف على تحديد ماعنوه، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعى لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جلية بنفسها فى دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية، وبأى منها قالوا: فقد رد عليهم بقوله : ( قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ » أى بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ماليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما ، أى أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ » أى ماأبصره لكل موجود ! وأسمعه لكل مسموع لايخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشرىّ : جاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حد ماعليه إدراك السامعين والمبصرين،لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرما ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال فى ( الإكليل ) : استدل بقوله تعالى ( أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ) المنتخبُ على جواز إطلاق صيغة التعجب فى صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعنى

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما فى الآية . وقد يقال بالوقف . ينبغى التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُم » أى أهل السموات والأرض فى خلقه « مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ » أى يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ » أى قضائه « أَحَدًا » أى من مكوناته العلوية والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتدبيرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .

قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من قبيل المسموع ، فهو أسمع. أو من قبيل المبصر ، فهو أبصر. انتهى. وهو لطيف جدًّا. وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

« وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ » أى بتبليغ مافيه . ومنه ما أوحى إليك من نبأ الفتية ، فإنه الحق الذى لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشانىّ : يجوز أن تكون ( من ) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذى منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى « لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ » أى لا مغيّر لها ولا محرّف ولا مزيل .

قال القاشانىّ : ( كلماته ) التى هى أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها . فأشار إلى أن النسخ إنما هو فى الفروع لا الأصول .

والأظهر فى معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله[1] ( لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ) وأما هو سبحانه فهو فعّال لما يريد « وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ) أى ملجأً .

(١) [ ١٣ / الرعد / ٤١ ] .

وذهب ابن جرير[1] فى تفسير هـذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنّ تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ) يقول لامغير لما أوعد بكلماته التى أنزلها عليك، أهلَ معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك . وقوله ( وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ) يقول وإن أنت لم تتل ماأوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتمّ به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلًا تئل إليه ، ومعدلًا تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لايقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر فى تواريخ المسيحيين، وعيد سنوىّ يقام تذكاراً لهم ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم فى الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التى كانت عليها اليونان. وقد رأيت فى كتاب ( الكنز الثمين فى أخبار القديسين ) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان ( فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس ) نقتطف منها مايأتى ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لايعرف أصلًا ، كما قرأته فى بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة: هؤلاء الشهداءالسبعة كانوا إخوة بالجسد. وأسماؤهم: مكسيميانوس ومالخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة ( ٢٥٢ ) مسيحية . فى زمن الاضطهاد القاسى الذى صنعه ضد المسيحيين، الملك داكيوس.

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقد أجلّهم المسيحيون كشهداء حقيقين. فيقام لهم فى الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهادهم ثمة، فى اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأعجوبة التى بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة فى المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية فى سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة فى التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان فى زمن الملك داكيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم فى مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال: فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتؤون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية فى تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان فى مدينة أفسس .وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت فى المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم فى المغارة المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التى كان يتكبدها المسيحيون فى ذاك الاضطهاد الوحشىّ .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك فى ٤ آب سنة ٤٤٧ فى زمن ولاية الملك ( ثاوضوسيوش الصغير ) .

ثم قال: ودرج على أفواه الشعوب؛ أن هؤلاء الفتية، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك ،لم يموتوا ضمنها ، لا موتاً طبيعيا ولا قسريًّا . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتى سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعىّ سنة ( ٤٤٧ ) .

ثم قال: وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلَى ، بعد أن دفنوا فى ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً ، بواسطة خارقة مَّا ،

ونقلت من مدفنهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيّدوا حقيّة إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب ( الكنز الثمين ) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى ( تاريخ الكنيسة ) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلّمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء ) ليست بأكثر ثقة. التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ أكاذيب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته، واقتلعه من جذوره ، القرآنُ الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى[1] ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف. وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذى بأيدينا. وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ٥٠ ] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوىّ والمقام المحمدىّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ، فُرُطًا)

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ» أى احبسها وثبتها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة . أو وجدناه غافلا عنه . وذلك لئلا يؤديك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ، فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به مضيّعاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهىّ عن إطاعتهم ، بالموصول ، للإيذان بعلّية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير[1] : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبىّ ﷺ جالساً مع خبّاب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفى رواية ابن زيد[١] : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية ( وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ) . وروى مسلم[٢] عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبيّ ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبيّ ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان ( نسيت اسميهما ) فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع . فحدَّث نفسه . فأنزل الله عزّ وجل ( وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاريّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ، بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا )

« وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلىّ منه تعالى « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ » إمّا من تمام القول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلىّ حق لاريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم ، وجوداً وعدماً ـ ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ ( طبعتنا ) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود. وفى ( العناية ) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته. فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله[1] ( أَسِيئِى بنا أو أَحْسِنِى لا مَلُومَةً ) وهذا رد عليهم فى دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالى به حتى نطردهم لذلك ، بعد ماتبين الحق وظهر. وقوله تعالى : « إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا » وعيد شديد، وتأكيد للتهديدوتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر. أو لما يفهم من ظاهر التخيير، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه. فإن إعداد جزائه من دواعى الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدىّ . أى قل لهم ذلك ( إنا أعتدنا للظالمين ) أى هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم بـ( الظالمين ) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوزٌ عن الحد ووضع للشىء فى غير موضعه . أفاده أبو السعود. وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها. وهى الخيمة. شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار فى الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط للمنع من الوصول إليه . شُبه ما يحيط بهم من جهنم بها . يقال بيت مسردَق ، ذو سرادق « وَإِن يَسْتَغِيثُواْ » أى من الظمأ لاحتراق أفئدتهم « يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ » أى كالحديد المذاب وكعكر الزيت، وقال القاشانىّ: من جنس الغسَّاق والغِسْلين ، أى المياه المتعفنة التى تسيل من أبدان أهل النار ، مسودّة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة. ويؤيده قوله تعالى[2] ( وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُو ) « يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ » أى إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثيّر عزّة . وعجزه: لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ .(٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَآءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد. وذكره لمشاكلة قوله ( وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله[1].

إنى أَرِقْتُ فبتُّ الليلَ مرتفقاً   كأن عَيْنى فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والصاب: شجر مرّ يحرق ماؤه العينَ . ومذبوح: مشقوق. وفى كتاب ( تنزيل الآيات ) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً، أى متكئاً على مرفق يده. وهو هيئة المتحزنين المتحسّرين. فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم، بل هو على حقيقته. كما يكون للتنعّم يكون للتحزن. وتعقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخدّ للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرّجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا )

[٣١] ( أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ، نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلىّ . وهو فى اللسان فى مادة ( ص و ب ) .
وروايته هناك ( مشتجراً ) بدل ( مرتفقاً ) .
وفى الديوان ١/١٠٤ ( نام الخلىّ ) عوضاً عن ( إِنِّى أَرِقْتُ ) .

ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ » وهو ما رقّ من الديباج « وَإِسْتَبْرَقٍ » وهو ما كثف منه « مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السرر على هيئـة المتنعمين « نِعْمَ ٱلثَّوَابُ » أى الجنات المذكورة « وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » أى متـكأً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية[١] ( إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ) وآية[٢] ( حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا )

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى للمؤمن والـكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى لحصل منهما الفواكه والأقوات ، فـكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ، وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا )

« كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا » أى ثمرها كاملة « وَلَمْ تَظْلِم » أى لم تنقص « مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا » أى فيما بينهما « نَهَرًا » أى يسقى الأشجار والزروع ، ويزيد فى بهجة مرآها ، تتميما لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا )

« وَكَانَ لَهُۥ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المـال غير الجنتين . من

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٦٦ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ٧٦ ] .

( ثمّرَ ماله ) إذا كثّره « فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أي يراجعه الكلام، تعييرًا له بالفقر ، ونخراً عليه بالمال والجاه « أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أي أنصاراً وحشماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا )

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ » أى بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها . كما يدل عليه السياق ومحاورته له . وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر ، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها ، وإما لاتصال إحداها بالأخرى ، وإما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة . وقيل: الإضافة تأتى لمعنى اللام . فالمراد بها العموم والاستغراق . أى كل ما هو جنة له يتمتع بها . فيفيد ما أفادته التثنية معزيادة . وهى الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بما يوجب سلب النعمة ، وهو الكفر والعجب . وفى ( العناية ) ظُلْمُهُ لها إما بمعنى تنقيصها وضررها، لتعريض نعمته للزوال ونفسه للهلاك، أو بمعنى وضع الشيء فى غير موضعه. لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكى ، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً . والكفر بإنكار البعث كما يدل عليه قوله « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ » أى تهلك وتفنى « هَٰذِهِۦٓ » أى الجنة « أَبَدًا » لاعتقاده أبدية الدهر ، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعره . ولذا قال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا )

« وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى كائنة آتية ، وقوله « وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا » إقسام منه على أنه ، إن رد إلى ربه ، على سبيل الفرض والتقدير ، كما يزعم صاحبه ، ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعًا وتمنيًا على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده . وإنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله[١] : ( إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ )[٢] ( لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ) و ( مُنقَلَبًا ) أى مرجعًا وعاقبة . أفاده الزمخشرىّ .

قال المهايمىّ : فكفر بالقول بقدم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال ( لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ) والقول بقدم العالم ينفى اختيار الصانع وإرادته . وبإنكار حشر الأجساد ينفى قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفى الحكمة الإلهية . ثم بيّن تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظًا له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا )

« قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ » أى الذى عيّره بالفقر، تعييراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أى يراجعه كلام التعيير على الكفر ، محاورته كلام التعيير على الفقر ، فى ضمن النكر عليه « أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ » أى بجعل التراب نباتًا ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا » أى عدّلك وكملك إنسانًا ذكراً بالغًا مبلغ الرجال .

قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعليّة ما فى حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله تعالى عز من قائل[٣] : ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ) الآية ، وكما قال تعالى[٤] ( كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ) الآية . قال ابن كثير : أى كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء

(١) [ ٥١ / فصلت / ٥٠ ] .　　(٢) [ ١٩ / مريم / ٧٧ ] .

(٣) [ ٢٢ / الحج / ٥ ] .　　(٤) [ ٢ / البقرة / ٢٨ ] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابته . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء.
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا )

« لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر ( لَّٰكِنَّا ) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وبإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها فصار ( لكن ) ثم ألحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على ( أنا ) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل ( لكن أنا ) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين ( لكن ) المشددة . قال الزمخشريّ : ونحوه قول القائل[(١)] :

وتَرْمِينَنى بِالطرفِ أىْ أنْتَ مُذْنِبٌ     وتقلينني لكنَّ إيَّاكِ لَا أَقْلِى

أى لكن أنا لا أقليك . ويقرب منه قول الآخر[(٢)] :

ولو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى     ولكنّ زَنجىٌّ عظيمُ المَشَافِرِ

أى ولكنك . وقوله تعالى :

---

(١) الأضداد لابن الأنباريّ ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحويّ . والله أعلم » .
الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبريّ (طبعة المعارف) .

(٢) أنشده سيبويه فى كتابه ١/٢٨٢ .
وقائله الفرزدق .
وأنشده فى اللسان فى مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكن زنجيًّا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا )

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا )

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا )

« وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشرىّ. يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل، على أنها خبر مبتدأ محذوف. تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شىء شاء الله كان) ونظيرها فى حذف الجواب ( لو ) فى قوله[1] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ) والمعنى: ـهلا قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده . إذ لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده ، إلا بالله تعالى. والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ » أى فى الدنيا أيضاً « خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً » أى تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، لملاستها

(١) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى ( إِن تَرَنِ ) وقوله ( أَن يُؤْتِيَنِ ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يثبتها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا )

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ » أى بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشرىّ : ( أحيط به ) عبارة عن إهلاكه . وأصله من ( من أحاط به العدو ) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى[1] ( إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ) .

ومثله قولهم : ( أتى عليه ) إذا أهلكه . من ( أتى عليهم العدو ) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية. شبه إهلاك جنتيه بما فيهما، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضاً، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا» أى فعيّر نفسه أكثر من تعييره صاحبه وتعيير صاحبه إياه . قال الزمخشرىّ : تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بعض الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدّى تعديته بـ ( على ) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفا لغوًا . ويجوز كونه ظرفاً مستقرًّا متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [ ١٢ / يوسف / ٦٦ ] .

ـ كما قال الراغب ـ الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
و ( العروش ) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء . فإذا سقط سقط ماعليه . يعنى أن كرومها المعروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم، بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على ( يقلب ) « يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا» أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتِىَ من جهة شركه وطغيانه . فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

« وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ » أى منعة وقوم « يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى يقدرون على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى ممتنعا بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

« هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك. ( الولاية ) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله ( وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشفى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه المؤمن ، وصدّق قوله : ( فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه . فلا ينقص لمؤمنٍ درجة ، لدناءته فى الدنيا ، ولا يترك لكافرٍ عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ ( الولاية ) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لايغلب ولا يمتنع منه. أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى اللهَ ويؤمن به كلُّ مضطر. يعني أن[١] (يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) كلمة ألجئ إليها فقالها، جزعا مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى[٢] : ( فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون[٣] «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ* ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ) أو ( هنالك ) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله[٤] : ( لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ) ويناسبه قوله[٥] : ( هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ) . و ( هنالك ) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و ( الولاية ) مبتدأ مؤخر . والوقف على ( منتصراً ) . وجوز بعضهم كون ( هنالك ) معمولًا لـ( منتصراً ) وإن الوقف عليه. أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة. أى وما كان منتصراً فى ذلك الموطن الزى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جدًّا ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربيةً . وما كل جائز عربيـة رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشرىّ ومن تابعه . و ( الحق ) قرئ بالرفع صفة ( للولاية ) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بعامل مقدر. وبالجر صفة للفظ الجلالة . ( عقبا ) قرئ بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالعُسْر والعُسُر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيـه

(١) [ ١٨/ الكهف/ ٤٢ ] . (٢)[٤٠/ غافر/ ٨٤]. (٣) [ ١٠/ يونس/ ٩٠و٩١ ] .
(٤) [ ٤٠ / غافر / ١٦ ] . (٥) [ ١٨ / الكهف / ٤٤ ] .

كانا موجودين ولهما قصة . ولا دليل فى ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوّز فى هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقدعنى بأحد الرجلين فى التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر فى الآخرة أعلى[1] (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)

« وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه فى زهرتها وسرعة زوالها « كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتفّ بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنوْر والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزّهْو « هَشِيمًا » أى جافًّا يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النموّ . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المُثُل وأبدعها ، ضرب كثيراً فى التنزيل ، كقوله تعالى فى سورة

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٢١ ] .

يونس[١] : ( إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . . ) الآية . وفى الزمر[٢] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ . . . ) الآية . وفى الحديد[٣] : ( ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ . . . ) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا )

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » وذلك لإعانتهما فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروىّ ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أى والأعمال التى تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، فى الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانىّ والنعيم الأبدىّ ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمسّ . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٢٤ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٢١ ] . (٣) [ ٥٧ / الحديد / ٢٠ ] .

(٢) إفراد ( الزينة ) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر فى الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية، لأن زينتها مختصة بها.

(٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة، لاسيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة[1] ( مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ) ـ للإيذان بأن بقاءها أمر محقق لاحاجة إلى بيانه . بل لفظ ( الباقيات ) اسم لها لاوصف. ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة. كذا يستفاد من أبى السعود، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير ( الباقيات الصالحات ) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرّج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده .

ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا )

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ » أى اذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها فى الجوّ . كما

(١) [ ١٦ / النحل / ٩٦ ] .

ينبئ عنه قوله تعالى[1] : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) أونسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثاً « وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً » لبروز ماتحت الجبال ، أى ظهوره، بنسفهاوبروز ماعداه بزوال الجبال والكثب. حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً، لابناء ولا شجر ولا معلم ولا ماسوى ذلك « وَحَشَرْنَـٰهُمْ » أى جمعناهم إلى موقف الحساب « فَلَمْ نُغَادِرْ » أى نترك « مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا صغيرا ولا كبيراً . كما قال[2] (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) وقال[3] (ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا)

«وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا» أى مصطفّين مترتبين فى المواقف، لايحجب بعضهم بعضاً، كل فى رتبته ، قاله القاشانىّ .

وقال أبو السعود : ( صَفًّا ) أى غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرّض فيه لوحدة الصف وتعدّده .

قال الزمخشرىّ : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين . يري جماعتهم كما يرى كل واحد. لايحجب أحدٌ أحداً « لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ » أى بلا مال ولا بنين . أو لقد بعثنا كم كما أنشأنا كم . والكلام على إضمار القول . أى وقلنا . تقريعاً للمنكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد « بَلْ زَعَمْتُمْ » أى بإنكاركم البعث « أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا » أى وقتاً لإنجاز ما وعدنا كم من البعث

(١) [ ٢٧/ النمل/٨٨ ] . (٢) [ ٥٦/ الواقعة/٤٩و٥٠ ] . (٣) [ ١١/هود/١٠٣ ] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقاليّ ، لا إبطاليّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا فى أعمارنا . قال القاشانيّ : يدعون الهلكة التى هلكوا بها، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة «مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا » أى أىُّ شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيرًا ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب فى إحصائه كل المعاصى ، وعدّه مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه فى شىء منها .

قال البقاعىّ عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة ( يعنى فى الرسم العثمانى ) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا » أى مكتوباً فى الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى[١] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال[٢] (يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد فى عقابه. ثم أشار

(١) [ ٣ / آل عمران / ٣٠ ] . (٢) [ ٧٥ / القيامة / ١٣ ] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا )

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ » أي العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أي خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ » أي فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدوّ يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ » أي الواضعين الشيء في غير موضعه « بَدَلًا » بئس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، في سورة يس(١) (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا )

« مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

(١) [ ٣٦ / يس / ٥٩ـ٦٢ ] .

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك، من خباثة المحتد والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ » أى وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفىُ الإشهاد كناية عن نفى الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر ـ أبلغُ. إذ من لم يشهد فأنَّى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكا ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » أى وما كنت متخذهم أعوانا لخلق ما ذكر، بل تفردتُ بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المضلون ، فلا يكونون أربابا . وإنما وضع ( المضلين) موضع الضمير ، ذمًّا لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى(١) ( قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ) الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا )

«وَيَوْمَ يَقُولُ» أى الحق تعالى « نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا، أنهم شركاء لينقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريعاً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » أى فلم

(١) [ ٣٤ / سبأ / ٢٢ و ٢٣ ] .

يعينوهم ، لعجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفى إيراده، مع ظهوره، تهكم بهم وإيذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم » أى بين الكفار وآلهتهم « مَّوْبِقاً » أى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه ( لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً ) ويؤيد هذا قوله تعالى[1] ( وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ) قال ابن كثير : وأما إنْ جعل الضمير فى قوله ( بَيْنَهُم ) عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو ( إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به ) ـ فهو كقوله تعالى[2] ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ) وقال[3] ( يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ) وقال تعالى[4] ( وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ) وقال تعالى[5] ( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ) إلى قوله ( وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا )

« وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم ، وذمًّا لهم بذلك « فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢ ] (٢) [ ٣٠ / الروم / ١٤ ] .
(٣) [ ٣٠ / الروم / ٤٣ ] . (٤) [ ٣٦ / يس / ٥٩ ] .
(٥) [ ١٠ / يونس / ٢٨ ـ ٣٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى نوّعنا فى هذا القرآن، الجامع للمهمات وأنواع السّعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل، ينبه على مراقى السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

« وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شاكلهم « أَن يُؤْمِنُوٓا۟ » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النيّر « وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ » أى عن المعاصى السالفة « إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى طلب إتيانها، أو انتظار إتيانها، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و ( القبل ) بضمتين بمعنى العيان كما فى قراءة ( قِبلا ) بكسر القاف وفتح الباء . أو ( قُبُلًا ) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع ( قبيل ) وقرئ بفتحتين أى مستقبلًا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا )

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أي وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشر من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أي ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل ( الإدحاض ) إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .

قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره .

ثم أنشد لنفسه :

أتانا بوَحْلٍ لإنكارِهِ ... لِيُزْلِقَ أقدامَ هذى الحُجَجْ

« وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا » أي وإنذارهم . أو والذى أنذروا به من العقاب « هُزُوًا » أي استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا )

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أي ما عمله من الكفر والمعاصى ، وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ » أي جعلنا عليها حجباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أي يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أي وجعلنا فيها ثقلا يمنعهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى[١] : ( فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ) .

« وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اهتداء ، البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا )

« وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى[٢] : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ) وقوله[٣] : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ) و ( رَبُّكَ ) مبتدأ و ( ٱلْغَفُورُ ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل ( لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ) والموعد المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والكل لاحق بهم . و ( الموئل ) الملجأ والمنجى . أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا )

« وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ »

---

(١) [ ٦١ / الصف / ٥ ] . (٢) [ ٣٥ / فاطر / ٤٥ ] . (٣) [ ١٣ / الرعد / ٦ ] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » أى وقتاً معيَّناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يغتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يخفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا )

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا» أى اذكر وقت قول موسى لفتاه، لا أبرح، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المهايمىّ أى اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولستُ أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوّة. وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحبا له ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا )

« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقد أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه « فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة المطلوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا )

« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى مجمع بينها، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا » أى ما نتغدى به « لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا )

«قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ» أى خبر الحوت. وإسناد النسيان إليهما، أولا، إما بمعنى نسيان طلبه، والذهول عن تفقده، لعدم الحاجة إليه. وإما للتغليب، بناء على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى(1): « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أى لك . و ( أن أذكره ) بدل من الهاء فى ( أنسانيه ) أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصلا ،

(1) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٢ ] .

والباقون بكسرها « وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا » أى أمراً عجيباً ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا )

« قَالَ » أى موسى « ذَٰلِكَ » أى المكان الذى اتخذ فيه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغِ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أمارة المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد الغين، وصلا لا وقفاً. وبإثباتها فى الحالين. وبحذفها كذلك « فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لئلا يفوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا )

فَوَجَدَا » أى فأتيا الموضع المنسىّ فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ » التنكير للتفخيم، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر. وسنتكلم على جملة من نبئه، بعونه تعالى، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى آتيناه رحمة لدنية، اختصصناه بها « وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلا آثرناه . وهو علم لدنّىّ يكون بتأييد ربانىّ . وسنذكر إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنّىّ فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا )

«قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ» أى أصحبك « عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علما ذا رشد. أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجهل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا )

[٦٨] ( وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا )

« قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل معتذراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا » أى من أمور ستراها ، إن صحبتنى ، ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا )

« قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أى لا أخالفك فى شىء.

قال الزمخشرىّ : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبىّ المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين . وأنه لابد ، لما يستسمج ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا )

« قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى لا تفاتحنى بالسؤال عن شيء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا )

« فَانطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيماً من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا )

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط . يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر علىّ فيها . لأنك لم تحط بها خبرا . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا )

« قَالَ » أى موسى « لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذة به تُفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا » أى لا تحمل علىّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسراً ، لئلا يلجئنى إلى تركه. أى لا تعسّر علىّ متابعتك ، بل يسّرها علىّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا )

« فَانطَلَقَا » أى بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى أنها لم تقتل نفساً فتقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا » أى منكراً . أو أنكر من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا )

« قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكار بالشرط الأول. ونكتة زيادة ( لَكَ ) هو ـ كما قال الزمخشرىّ ـ زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى ( المثل السائر ) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا )

« قَالَ » أى موسى « إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا » أى بعد هذه المرة « فَلَا تُصَٰحِبْنِى

قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا » أى وجدت من جهتى عذرًا . إذْ أعذرتَ إلىّ مرة بعد مرة ، فخالفتُك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا )

« فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف فى تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر فى ( الفتح ) : الخلاف فيها كالخلاف فى مجمع البحرين . ولا يوثق بشىء منه « ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموها الطعام الذى هو حق ضيافتهما عليهم . وقرئ (يُضِيفوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به، وأضافه وضيَّفه : أنزله ليطعمه فى منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ » أى ينهدم بقرب . من ( انقض الطائر ) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة المداناة والمشارفة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هى مجاز لغوىّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشرىّ ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُۥ » أى عمّره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عملك جعلاً حتى تنتعش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا )

« قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَاحِبْنِى) أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

صَبْرًا » أى بمآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبعاقبته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شرّه ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال ( بتأويل مافعلتُ ) أو ( بتأويل مارأيتَ ) ونحوهما، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا )

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر ، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصباً . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا )

[٨١] ( فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا )

« وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ » أى لو تركناه « أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَآ » أى بقتله « أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا )

« وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا » ليتصرفا فيــه « رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى تفضل بها عليهما . و ( رحمة ) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ ( أراد ) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُۥ » أى ما رأيت منى « عَنْ أَمْرِى » أى عن اجتهادى ورأيى ، وإنما فعلته بأمر الله تعـالى « ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى مآله وعاقبته. قال أبوالسعود ( ذَٰلِكَ ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها فى الفخامة . و ( تَسْطِع ) مخفف ( تستطع ) بحذف التاء .

## تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآيات أنه لابأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لاينافى التوكل. ونسبة النسيان، ونحوه من الأمور المكروهة، إلى الشيطان، مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم المشيئة فى الأمر، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (للثلاث) اعتباراً فى التكرار ونحوه . وأنه لابأس بطلب الغريب الطعام والضيافة. وأن صنع الجميل لايترك ولو مع اللئام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال. وأن المسكين لايخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لايكفيه. وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم. وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه. وأنه تجب عمارة مايخاف منه، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال فى الأرض . انتهى .

وقال البيضاوىّ : ومن فوائد هذه القصة أن لايعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار مالم يستحسنه ، فلعل فيه سرًّا لايعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للمعلم ، ويراعي الأدب فى المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية ـ كما فى ( فتح البارى ) ـ استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجشم المشاق فى ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ . وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناسى . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة. وقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية. وفيها حسن الأدب مع الله وأن لايضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه، لقول الخضر عن السفينة ( فأردت أن أعيبها ) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله[1] ﷺ ( والخير بيديك والشر ليس إليك ) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله: ( أَهْلَ قَرْيَةٍ ) ثم قوله : ( لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من حديث طويل ( طبعتنا ) .

الثانى ـ ذكر الناصر فى ( الانتصاف ) : شذرات من لطائف بعض الآى المذكورة . فنأثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد فى الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذى حدّه الله تعالى له . فلعل الحكمة فى إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافر فى طاعةٍ وطلب علمٍ ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه. وتلك سنة الله الجارية فى حق من صحت له نية فى عبادة من العبادات، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيّناً، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمُر بها الناس ، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلًا وآجلًا . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار، الالتهابُ والحمّية للحق ، أنه قال حين خرق السفينة ( أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ) ، ولم يقل ( لتغرقنا ) فنسى نفسه واشتغل بغيره ، فى الحالة التى كل أحد فيها يقول ( نفسى نفسى ) لايلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزمخشرىّ ( فإن قلت قوله : ( فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ) مسبب عن خوف الغصب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ ( قلت ) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك . ( زيد ظنى مقيم ) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب فى إعابتها كونها لمساكين. ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك فى غصب السفن . وهذا هو حد الترتيب فى التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعـد . فلا يحتاج إلى جعله مقدماً ، والنية تأخيره . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآى ، والمخالفة بينها فى الأسلوب عجباً . ألا تراه فى الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : ( فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ) وأسنده فى الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه فى قوله : ( فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ) ، ( فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد ( ثم عبت ) فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه . وأما إسناد الثانى إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك ( أمرنا بكذا أو دبرنا كذا ) وإنما يعنون ( أمرَ الملكُ ودبَّرَ ) ويدل على ذلك قوله فى الثالثة : ( فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث ـ قال الخفاجىّ : فى إعادة لفظ ( الأهل ) هنا ، يعنى فى قوله تعالى : ( اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ) إثر قوله ( أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلاح الصفدىّ سائلاً عنه السبكىّ فى قصيدة منها :

رأيت كتابَ الله أعظمَ معجزٍ ... لأفضل مَن يُهْدَى به الثقلانِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظ وبسط معانى
ولكننى فى (الكهف) أبصرت آية ... بها الفكر ، فى طول الزمان عنانى
وما هى إلا ( استطعما أهلها ) فقد ... نرى ( استطعماهم ) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء فى وضع ظاهر ... مكان ضمير ؟ إن ذاك لِشانِ

يعنى أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ ( أهل ) ولم يقل ( استطعماها ) لأنه صفة القرية .

أو ( استطعماهم ) لأنه صفة ( أهل ) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذى تحرر فيه أنه ذكر ( الأهل ) أولا ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز فى القرية ، كقوله[١] : ( وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو ( أتيت عرفات ) ولمن فيه نحو ( أتيت بغداد ) فلو لم يذكر كان فيه التباس مخلّ . فليس ماهنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما ( الأهل ) الثانى فأعيد لأنه غير الأول. وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه. لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فردا فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فُهِمَ غير المراد . أما لو قيل : ( استطعماهم ) فظاهر . وأما لو قيل ( استطعماها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب، كما أثبتوه فى محله. وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة فى الوصول إلى بعض منها . كما يقال : ( زيد فى البلد ) أو ( فى الدار ) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله[٢] :

ليت الغرابَ غداة ينعبُ بيننا  كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لـكراهة اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع ـ أبدى بعضهم سرًّا للتعبير أولا ( بتستطع ) ثم أخيراً ( بتسطع ) بحذف التاء قال: لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل مالم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل، قال ( تسطع ) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا . فقال : (سأنبئكَ بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال[٣] : ( فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ) وهو الصعود إلى أعلاه ، ( وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ) وهو أشق من ذلك .

---

(١) [ ١٢ / يوسف [ ٨٢ ] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاجِ  فانظر بتوضِحَ ، باكرُ الأحداجِ

وفيه هناك ( ينعب بالنوى ) عوضاً عن ( ينعب بيننا ) . (٣) [ ١٨/ الـكهف/ ٩٧ ] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ مالقيه ببيان سببه ـ فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما ألطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك .

الخامس ـ قال الإمام السبكيّ رحمه الله : مافعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به . لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لايجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجزله ذلك . وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروريّ : كيف قتله وقد نهى النبيّ ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ماعلمه عالم موسى ، فلك أن تقتل ) فإنما قصد به ابن عباس المحاجّة والإحالة على مالم يكن قطعاً ، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لايوصف بكفر حقيقيّ ولا إيمان حقيقيّ . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبيّ . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في ( الفتح ) : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لايعارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر ( وأما الغلام فكان كافراً ) هو باعتبار مايؤول إليه أمره أن لوعاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لايعلمه إلا الله . ولله أن يحكم فى خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال ( بغير نفس ) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لاتفيده . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطارّ الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشبّ ، والكهل أيضاً. ومن الأخير قول موسى فى قصة الإسراء عن النبيّ[1] صلى الله عليه وسلم ( أبكى لأن غلاما بعث بعدى ) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاريّ[2] : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما فذبحه قال موسى: أقتلت نفسا لم تعمل بالحنث . ولكن لا نصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالىّ ـ تابعى صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه ـ إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما فى البخاريّ[3] . ووقع فى رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائىّ) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ،فقال بعضهم : ياأبا عباس ! إن نوفا يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذى طلب العلم إنما هو موسى بن منسا. أى ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام. فقال ابن عباس: أسمعت ذلك منه ياسعيد؟ قلت: نعم. قال: كذب نوف. وفى رواية البخاريّ: كذب عدو الله. وإنما قال ذلك مبالغة فى الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٤ ـ باب مايستحب للعالم إذا سئل أى الناس أعلم ، فيكل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبىّ بن كعب . (٣) انظر التخريج السابق .

قال الرازىّ : كان ليوسف ولدان إفرائيم . ومنسا . فولد إفرائيم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولىّ عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هـذا العلم ليتعلم . والخضرُ هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود. واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميّزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارىّ[1] ، ما حدثه به أُبَىُّ بن كعب ورفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا. أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ) هو الخضر . قالوا : سمى بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزارىّ فى صاحب موسى . فقال ابن عباس: هو خضر ، فمرّ بهما أُبَىُّ بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيّه . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك ؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى ( ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبيًّا وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قابيل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك. وكله مما ليس فيه أثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبيٌّ بقوله تعالى ( وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الواسطة . وقيل : كان وليًّا . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصِّديقيّة فهو مقام برزخيّ ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أُنسئَ للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

قال النوويّ في (التهذيب) قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به، والأخذ عنه، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر .

وقال البخاريّ وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبيّ ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميعُ ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه ؟؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة، واستند إلى ماوقع من ذكرها في صحيح البخاريّ

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٨ ـ سورة الكهف ، ٤ ـ باب قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبيّ بن كعب .

وجامع الترمذيّ . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان فى ( تفسيره ) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبى الفضل المرسىّ . لأنه لو كان حيا لزمه المجىء إلى النبي ﷺ والإيمان به واتّباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حيّا ماوسعه إلا اتباعى . وبذلك جزم ابن المناوىّ وإبراهيم الحربىّ وأبو طاهر العبادىّ. وممن جزم بأنه غير موجود الآن، أبويعلى الحنبلىّ وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربىّ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزىّ. واستدل على ذلك بأدلة. منها قوله تعالى[1] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ماروى فى ذلك. والأحاديثُ المرفوعة فى ذلك واهية. والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لايخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ) .

قال صاحب ( فتح البيان ) : والحق ما ذكرناه عن البخارىّ وأضرابه فى ذلك . ولا حجة فى قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد فى ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفى الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضى غيرهما عليهما . ومن قال إنه نبىّ أو مرسل أو حىٌّ باق ، لم يأت بحجة نيّرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[2] . انتهى .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٤ ] . (٢) منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله بن معبّر ابن حُرّاق .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان: المجلد الخامس ص ٣٢٣ ( طبعة بيروت ) .

وقال تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترائي الجن للإنس في بعض البلاد ، مامثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى(١) (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنيٌّ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال ( إنني ) وكان ذلك جنياً لبّس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذى كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حيًّا على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتي إلى النبيّ ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبيّ أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه. كما قال الله تعالى(٢) (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ) قال ابن عباس رضي الله عنه : لم يبعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبيّ ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرًا، من أن يلبّس الشيطان عليهم. ولكن لبّس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبيّ ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميته خرج ، وجاء إليه ، وكلمه في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع ـ دل قوله تعالى ( وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ) ، على أن من العلم علماً غيبيًّا وهو المسمى بالعلم اللدنّي . فالآية أصل فيه. وقد ألف حجة الإسلام الغزاليّ، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم . ردّ على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولا طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جوّد الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [ ٧٢ / سورة الجن / ٦ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٨١ ] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانىّ يحصل من طريقين: أحدهما من التعليم الإنسانىّ والثانى من التعليم الربانىّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانىّ ، فطريق معهود مسلوك محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلّم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر فى الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئىّ . والتفكر استفادة النفس من النفس الكلىّ . والنفس الكلىّ أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة . كالبذر فى الأرض والجوهر فى قعر البحر ، أو فى قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشىء الذى بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبّه بنفس العالم وتتقرب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزارع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذى هو بالقوة كالبذر . والذى هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم فى طول المدة . ويحمل التعب فى طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ، ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر . ثم قال قدس سره : والطريق الثانى وهو التعليم الربانىّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحى وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتتمسك بجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليًّا ، وينظر إليها نظراً إلهيًّا ، ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلىّ قلماً وينقش فيها علومه. ويصير العقل الكلىّ كالمعلم والنفس القدسىّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصداق هـذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ(١) : ( وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد فى قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام. فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالما . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا(٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال(٣) : ( أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ) أو صغر حالهم عند آدم وقلّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، فغرقوا فى بحر العجز(٤) : (قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) فقال تعالى(٥) :( يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبىّ المتولد عن الوحى ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحى فى عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول(٦) : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى ) وقال لقومه(٧) : ( أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله ) وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الربانىّ ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنسانىّ فقال تعالى(٨) : ( عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) .

---

(١) [ ٤ / النساء / ١١٣ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ٣١ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ٣٢ ] .
(٥) [ ٢ / البقرة / ٣٣ ] . (٦) قال فى (أسنى المطالب): سنده ضعيف ومعناه صحيح.
(٧) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [ ٥٣ / النجم / ٥ ] .

والوجه الثانى ـ هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس الكلىّ للنفس الجزئىّ على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحى. فإن الوحى هو تصريح الأمر الغيبىّ. والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علماً نبوياً . والذى عن الإلهام يسمى علما لدنيًّا. والعلم اللدّنى هو الذى لاواسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصولة فى جوهر النفس الكلىّ الأوّلىّ الذى هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل الكلىّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارئ تعالى من النفس الكلىّ. والنفس الكلىّ أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات. فمن إفاضة العقل الكلىّ يتولد الإلهام. فالوحى حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالولى دون النبىّ . وكذلك الإلهام دون الوحى. فهو ضعيف بنسبة الوحى ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهامُ علم الأنبياء والأولياء . فإنّ علم الوحى خاص بالرسل موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هى قبول النفس القدسىّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدنىّ يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال[1] : ( وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ) .

ثم قال عليه الرحمة: فإذا أراد الله بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكلىّ الذى هو اللوح. فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معانى تلك المكونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [ ١٨ الكهف / ٦٥ ] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنىّ . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيما . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى[١] : و ( يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ) من عباده ( وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ) وهم الواصلون مرتبة العلم اللدنىّ ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلًا ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلًا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدنىّ هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى[٢] : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها ـ تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها . والثانى ـ الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبيّ ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال[٣] : ( من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم ) . والثالث ـ التفكر . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكر ، ينفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذى يتصرف فى ماله بشرط التجارة ، ينفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع فى مهالك الخسران . فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب فى قلبه فيصير عالمًا كاملًا عاقلًا ملهمًا مؤيداً . كما قال ﷺ[٤] : ( تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة ) انتهى ملخصاً .

وفى خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأباها العقل

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٦٩ ] . (٢) [ ٩١ / الشمس / ٧ ] .

(٣) قال فى ( كشف الخفاء ) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال فى ( كشف الخفاء ) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهانى بلفظ ( فكر ساعة ) وقال : إنه من كلام سرى السقطىّ .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها فى هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا )

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونىّ وسنذكر وجه تلقيبه بذلك « قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله علىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا )

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( فَأَتْبَعَ سَبَبًا )

[٨٦] ( حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا )

« فَأَتْبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . فقيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد . وقيل : ( أَتْبَعَ ) بالقطع يتعدى لاثنين . والتقدير : فأتبع سبباً سبباً آخر . أو فأتبع أمره سبباً كقوله[1] : ( وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ) .

(١) [ ٢٨ / القصص / ٤٢ ] .

وقال أبو عبيدة : اتبع ( بالوصل ) فى السير وأتبع ( بالقطع ) معناه اللحاق كقوله[1] : ( فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث فى الطلب و (بالوصل) مجرد الانتقال . والفاء فى قوله : ( فأتبع ) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله ، لقوله « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة وهو الطين الأسود ، وقرئ ( حامية ) أى حارّة . وقد تكون جامعة للوصفين و ( وَجَدَ ) يكون بمعنى ( رأى ) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة فى شأنهم ، بقوله : « قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ » أى بالقتل وغيره « وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » بالعفو . ثم بيّن تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا)

« قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ » أى بالبغى والفساد فى الأرض بالشرك والضلال والإضلال « فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ » أى فى الآخرة « فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً لم يعهد مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ » أى فى الدارين « جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٠ ] .

والإضافة. وهومبتدأ ، أومرفوع بالظرف أى فله جزاء الخصلة الحسنى. ويقرأ بالرفع والتنوين و ( ٱلْحُسْنَىٰ ) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزاءً . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزيًّا بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزى بها جزاءً ، أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا )

[٩٠] ( حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا )

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المبانى والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا )

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف لـ ( وجد ) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول ( بلغ ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطّعت بهم الأرض . وفى التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العَدَد والعُدَد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما « وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من ورائهما أمة من الناس « لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

« قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جعلا نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والمُلك ، أجلُّ مما تريدون بذله. فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » أى بعَمَلَةٍ وصنّاع وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ، حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا )

[٩٧] ( فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا )

[٩٨] ( قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا )

« ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبى الجبلين «قَالَ ٱنفُخُواْ » أى فى الأكوار والحديد «حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإحماء « قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مُذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد «فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ » أى يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَـٰذَا» أى السد «رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى » على القاطنين عنده . لأمنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم، لسد الطريق عليهم« فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى »بدحره وخرابه «جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ» بالمد أى أرضا مستوية، وقرئ ( دكًّا )أى مدكوكا مسوًّى بالأرض. « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » أى كائنا لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

## تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات، ومايستنبط من تلك الآيات. وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ فَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لماله من خفىّ الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل. وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ماقص عن الإسكندر من ضربه فى الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة فى مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذى لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغى أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذراً فى الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغى أن ينشط ويمثل فى مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان فى حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو فى ريعان الشباب وقوة الفتاء. فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم. ولم يقف فى وجهه عدد ولا عُدد. وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقىّ إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغى له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسىء بقدر إساءته . فإنما حكى عن الإسكندر من قوله[1] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية فى العدل وغاية الإنصاف .

(١) [ ١٨ / الكهف / ٨٧ ] .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه فى الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العــدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين فى بنـاء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد فى أخذ أجرة ، فى مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، ففى ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته . كما تأبّى الإسكندر تفضلاً وتـكرماً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام. كقول الإسكندر فى مقام تعففه عن أموالهم، والشفقة عليهم[1] (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) كقول سليمان[2] (فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التى فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنـكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون فى الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم، صدقاً فى العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال. فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال فى الأعمال ومشاركتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتعاب، ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم فى قوله[3] (ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال[3] (هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى) .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧/ النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف/٩٨].

ومنها : الإعلام بالدور الأخروىّ ، وانقضاء هذا الطور الأولىّ ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى والنعيم السرمدىّ . ولذا قال ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه فى هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جليًّا حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلوّ الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشرىّ ، لاسيما فى زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمما متباينة . كما كان يرمى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيّش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدونىّ اليونانى . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولا طفلًا مرضَماً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيقه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعى المهات ، وسرت بجسمه قوى الشبيبة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيما ظافرا بمنتهى أمله .

التنبيه الثانى ـ فى ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيلبس ، وقال ابن القيم فى ( إغاثة اللهفان ) فى الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونىّ وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما فى الدين أعظم تباين . فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدونىّ ، فكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركا يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع فى ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليبس بانى الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركا يعبد الأصنام، فغير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء فى ترجمته ـ كما فى طبقات الأطباء وغيرها ـ أنه كان لا يعظم الأصنام التى كانت تعبد فى ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك. فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يبتلى أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم فى عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فثوّروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما فى ( طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة ) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافى أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه. كالنجاشىّ ملك الحبشة .فإنه جاهر بالإيمان بالنبى ﷺ . وشعبهُ وأهلُ مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكماء قبله . فإن الممعن فى تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضى صاعد : كان فيثاغورس ـ أستاذ

سقراط ـ يقول ببقاء النفس و كونها، فيما بعد ، فى ثواب أو عقاب.على رأى الحكماء الإلهيين. فتأمل قوله ( على رأى الحكماء الإلهيين ) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازىّ : ( إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالًا قويًّا . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه ) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر مَّا يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه. وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرًّا فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه ( أعنى أرسطاطاليس ) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لا سترة فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالًا . وللرازىّ فرص يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها ـ سامحه الله ـ فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبيه الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا . يعنى جانبيها شرقها وغربها . أو لأنه كان له قرنان أى ضفيرتان. أو لأنه ملك الروم وفارس. قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع فى توراتهم فى نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : ( فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان ) ثم قوله : ( وبينما كنت متأملًا إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه ) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : ( خرج من المغرب ) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التى هى إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب ( ذو القرنين ) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم. بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التى سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبيه الرابع ـ قال الرازىّ : اختلفوا فى ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبيًّا . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول ـ قوله : ( إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ) والأولى حمله على التمكين فى الدين . والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة .

الثانى ـ قوله : ( وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ) ومن جملة الأشياء النبوة . فمقتضى العموم فى قوله : ( وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ) هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .

الثالث ـ قوله تعالى : ( قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ) والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبيًّا .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبيًّا . انتهى .

ثم قال الرازىّ بعدُ : يدلّ قوله تعالى ( قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ) على أنه تعالى تكلم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبيًّا . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء ـ فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيص وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : ( قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ) فقدمنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم . لا أنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لكان مخبراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل فى الإطلاق الحقيقة . لأنا نقول به ، مالم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر فى بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين ـ ذهاباً فى النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً. فتكون نبوته من القسم الثانى وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء فى الحديث تسمية صاحبه[1] محدَّثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً فى الإسلام، إلا أنه كان معروفاً قبله فى العباد الأخيار.

التنبيه الخامس ـ حكى فى قوله تعالى : ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ) قولان فى أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجّح الأول من وجهين :

أولهما ـ أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدراً . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة. فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسُرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة فى كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

(١) يشير إلى الحديث النبوىّ الشريف الذى أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة فى: ٦٠ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبىّ ﷺ أنه قال: إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما ـ أن عنوان ( ذو القرنين ) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

التنبيه السادس ـ قالوا: المراد بـ(العين الحمئة) البحر المحيط. وتسميته عينا لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهى لا تفارق فلكها .

وللإمام ابن حزم عليه الرحمة ـ رأى آخر فى الآية. ذكره فى كتاب ( الملل ) فى بحث كروية الأرض قال : ذو القرنين هو كان فى العين الحمئة الحامية كما تقول ( رأيتك فى البحر ) تريد أنك إذا رأيته كنت أنت فى البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشتوىّ إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفىّ إذا كانت من رأس السرطان ـ مرئىّ مشاهد. ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازى من الأرض كلها بالبرهان الهندسىّ أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيّف . وهذه المساحة لا يقع عليها فى اللغة اسم ( عين ) البتة. لا سيما أن تكون ( عيناً حمئة ) حامية. وباللغة العربية خوطبنا. فلما تيقنا أنها ( عين ) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير فى الجهة التى مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة. وانقطع له إمكان المشى بعدها لاعتراض البحار له هنالك. وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعاً. ومن هذه صفته، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض، بمقدار مكان المغارب كلها، لو كان مغيبها فى عين من الأرض. كما يظن أهل الجهل. ولا بد من أن يلقَى خَطُّ بصره من حدبة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمادى ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين هى البحر. فلا يجوز أن يسمى البحر فى اللغة (عينا حمئة) ولا حامية. وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح فى الفلك . وأنها إنما هى من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذى لا يتناقض . فلو غابت فى عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أو فى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو فى العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر فى المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبيه السابع ـ قال الرازىّ : الأظهر أن موضع السدّين فى ناحية الشمال. وقيل: جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان فى منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبرىّ فى ( تاريخه ) أن صاحب أذربيجان، أيام فتحها، وجه إنسانا إليه من ناحية الخَزَر. فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد فى كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى فى المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه. فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه فى الربع الشمالىّ الغربىّ من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازىّ .

وقال الإمام ابن حزم فى ( الملل والنحل ) جزء أول صحيفة ( ١٢٠ ) فى تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التى أهبط منها آدم فى الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر فى القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف فى أقصى الشمال

فى آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج فى كتب اليهود التى يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليسُ فى كتابه فى (الحيوان) عند كلامه على الغرانيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس فى كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان فى جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسيّ وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس. فهيهات خبر من خبر. وحتى لو خفى مكان يأجوج ومأجوج والسد، فلم يعرف فى شىء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو فى الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التى يوجد فيها النبات والتناسل. واعلموا أن كل ما كان فى عنصر الإمكان، فأدخله مدخل فى عنصر الامتناع بلا برهان ـ فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهل . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن فى المحال الممتنع الذى تكذبه الحواس والعيان أو بديهة العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء. انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً مايحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضى حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى فى زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد فى القرآن مايدل على بقائه إلى يوم القيامة. أما قوله تعالى: (هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لايمكن أن يقاوم مشيئة الله القوىّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جماء دكًّا فى لمح البصر. فراد ذى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشىء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة فى أى وقت كان ، وكان هذا السدّ موجوداً ، دكه الله دكا. وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده. وكالثورات البركانية كما قلنا. وليس فى الآية ما ينافى ذلك. وأما قوله تعالى : ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ) فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم فى الأرض ، كما يخرج الشىء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ ( الفتح ) مجازاً شائع فى اللغة . ومنه قولك ( فتحوا البلاد ) وقوله تعالى[1] ( فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لاأبواب لهم . بل هم من كل حدب ينسلون. والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغَزْو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرىّ . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض، بعد أن انتشروا فيها، من الإفساد والنهب والقتل والسبى . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتى دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ( السُّد ) وبه موضع يسمى ( باب الحديد ) وهو أثر سدّ حديدىّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب ( بجبل قاف ) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه فى نهاية الأرض . وذلك بحسب ماعرفوه منها . ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء فى ( صفوة الاعتبار ) أن السور الذى وصلوا إليه أيام الواثق من بنى العباس، هو

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ٤٤ ] .

سور الصين الذى هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلًا ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفى أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب فى جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد فى الآية، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولا شك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد فى الممالك . كما فى عهد جنكزخان ، وما عثاه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء فى الجغرافية العمومية ، فى المقالة السابعة والأربعين فى تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن فى تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال: وهناك حكاية مشهورة بين أهالى ( كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدودا بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن ـ قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة

والتعريف . ويجوز همزها وترك همزها . وقيل: هماعربيان. فـ(يأجوج) يفعول مثل يربوع . (ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهما من (أجّ الظليم) إذا أسرع . أومن (أجت النار) إذا التهبت . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث ـ أى للقبيلة كمجوس . فالكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . وعلى العجمة، لا يتأتى تصريفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربيًّا ، كما فى (تذكرة أبى على).

قال الرازىّ : واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بـ(جبل قاف ، فى إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق) فعربهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق فى روسيا وآسيا .

التنبيه التاسع ـ توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن فى مصنفاته من الرواة ، فى تخريج ماروى عن يأجوج ومأجوج. وكله إما من الإسرائيليات أوالمنكرات أو الموضوعات. ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربعمائة ألف أمة . لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدىّ فى (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال: موضوع منكر، ومحمد بن إسحاق العكاشىّ كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً، فى سير ذى القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه فى ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها . انتهى .

فجزى الله البخاريّ أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشتراطه الصحة فى المرويات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله : ( أن راوى الضعاف غاش آثم مضلّ ) وبالله المستعان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا )

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » أى نفخ فيه للبعث فى النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ فى الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحثُ وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم الغيب ، أى الأمور المغيّبة عنا ، التى لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا )

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذْ جمعنا الخلائق كافة « لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً « عَرْضاً » أى فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفى عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ فى تعجيل الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) أبلغ من (وكانوا صمًّا) لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع . أفاده الزمخشريّ . وفى توصيفهم بالجملتين نكتة أخرى، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية عن الأولى ، كما زعم ، وذلك ـ كما حققه الشهاب ـ إن قوله تعالى : ( لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ) لما أفاد أنهم كفاقدى حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوهما ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى ( الذين ) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جيء به لذمهم بما فى حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به فى الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا )

« أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ» هذا رجوع إلى

طليعة السورة فى قوله تعالى[١] : (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر فى البديع ، جىء بالاستفهام الإنكارىّ ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم. ومفعول (حسب) الثانى محذوف. أى أفحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم؟[٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا[٣] (سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) «إِنَّآ أَعْتَدْنَا» أى هيأنا « جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا » أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و(النزُلُ) ما يقام للنزيل أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر ، جهنم عدة . وفى إيراد ( النزل ) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا)

[١٠٤] (ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا)

[١٠٦] (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا »

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٨٢ ]. (٣) [ ٣٤ / سبأ / ٤١ ] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسلهم « وَلِقَآئِهِۦ » أى بالبعث والحساب والجزاء « فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْناً » أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة « ذَٰلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو ( ذلك ) مبتدأ ، والجملة خبره ، والعائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو ( جزاؤهم ) خبر و ( جهنم ) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنكال . ثم بين ما لمقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا )

[١٠٨] ( خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحولاً ، لبلوغهم الكمال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله. فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدىّ ، لا يختارون عن مقامهم متحوّلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا )

« قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى » أى لكتابتها « لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ » أى مع

كثرته ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى » أى لكونها غير متناهية ، فلا تنفد نفاد المتناهي .

قال أبو السعود : وفي إضافة ( الكلمات ) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين ، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهارُ (البحر) و(الكلمات) في موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا » أي بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن ، جيء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى[1] : «وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .

تنبيه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لا نهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حيّ وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٧ ] .

منفصل عنه. والكلابية يقولون: هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة، ولا يكون بمشيئته. والأشعرية يقولون: إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد. وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. مبتدعة مبنية على أصل واحد. وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية. فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته. وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل. والقرآن الكريم يدل على بطلانه فى أكثر من مائة موضع. وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها فى هذا الباب. والصواب فى هذا الباب وغيره، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها؟ أنه سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته. وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى. وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك. وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم. وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته. ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته. ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته. وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال، باطلة. وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات والصفات، باطلة. هذا ما أفاده تقى الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان.

وقال أيضا فى قوله تعالى (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى) الآية: كلمات الله لا نهاية لها. وهذا تسلسل، جائز كالتسلسل فى المستقبل. فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له. فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا)

«قُلْ» أى لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب «إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ» أى خصصت بالوحى وتميزت عنكم به. (فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟

لِقَآءَ رَبِّهِۦ » أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا » أى فى نفسه، لائقاً بذلك المرجوّ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا» أى من خلقه إشراكاً جلياً. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكاً خفياً . كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه.

قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبيـــة ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلًا وتركًا .

ودلت الآية ـ كما قال ابن كثير ـ على أن للعمل المتقبَّل ركنين : كونه موافقاً شرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر، ثبت فى السنة ، وصح فيهـا حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلىّ ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٩ – سورة مريم

سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق . وقال المهايمىّ : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة[١] وآية[٢] ( وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ) .

وقد روى محمد بن إسحق[٣] ، فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشىّ وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٥٨ ] . (٢) [ ١٩ / مريم / ٧١ ] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ ( طبعة جوتنجن ) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( كهيعص )

[٢] ( ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ )

[٣] ( إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا )

« كهيعص » سلف فى أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا ( كهيعص ) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هذا المتلوّ ذكرها . و ( زكريا ) والد يحي عليهما السلام . بدل من ( عبده ) أو عطف بيان له . قال المهايميّ : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً فى باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . وذكرُها لنا كبير هبة لنا، فى تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته. « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا » ظرف لـ ( رحمة ) أو بدل اشتمال من ( زكريا ) والنداء فى الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل فى الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا )

« قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » أى ضعف . قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر العَظْم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد مافيه وأصلبه . فإذا وهن كان ماوراءه أوهن . ووحّده ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده . وقرئ ( وَهِنَ ) بكسر الهاء وضمها « وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً » قال الزمخشرىّ : شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ ـ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هـذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين : أولاهما تصريحية تبعية فى (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيضّ فى المسودّ باشتعال النار ، كما قال ابن دريد فى ( مقصورته ) .

إمَّا تَرَىْ رَأْسِيَ حَاكَى لَوْنُهُ  طرَّةَ صبحٍ تَحْتَ أذيالِ الدجا
واشتعل المبيضُّ فى مسودِّهِ  مثلَ اشتعالِ النَّارِ فى جَزْلِ الغضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، فى بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخييلية ، وعليه المحققون من أهل المعانى . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبه حال الشيب بحال النار ، فى بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت لم أعوّد منـك إلا الإجابة فى الدعاء ، ولم تردّنى قط . وهـذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعى

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عوّد عبده بالإجابة دهراً طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبداً . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحبّ فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استحباب الخضوع فى الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله ( وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله ( وَلَمْ أَكُن ) الخ كما قدمنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا )

[٦] ( يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا )

« وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَآءِى » أى الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى فى القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثاً ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِن لَّدُنكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنويه به لكونه مضافاً إلى الله تعالى ، وصادراً من عنده . و ( آل يعقوب ) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام . « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيًّا عندك قولا وفعلًا .

ثم بيّن تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا )

« يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا » أى مثلًا وشبيهاً . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهمّ بمعصية قط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا )

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا » أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :

* ومن العناء رياضة الهرم *

قاله الراغب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا )

« قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا » أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ طلب أولًا ، وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً، ويرتدع المبطلون . وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخراً ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنىّ عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمرآن ، استعظاماً لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله . مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له. وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أي : أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أي يكون الولد وأنتما كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا )

« قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً » أي علامة تدلني على تحقق المسئول ووقوع الحمل، ليطمئن قلبي « قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أي: أن لاتقدر على تكليمهم، حال كونك سويا ، بلا مرض في بدنك ، ولا في لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالي » هنا ، و ( الأيام ) في آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهاعن الآخر. والنكتة في الاكتفاء بـ (الليالي)هنا وبـ (الأيام) ثَمَّ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول. وتلك مدنية. والليالي عندهم سابقة على الأيام. لأن شهورهم وسنيهم قمرية، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، في التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] ( فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا )

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ »أي مصلاه أوغرفته« فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ »أي أشار إليهم رمزاً « أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أي صلوا لله طرفي النهار . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٢] (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ، وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا)

« يَٰيَحْيَىٰ » استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم[1] بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه. أى : قلنا (يايحيى) « خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ » أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . « وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا » أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد فى الخير ، وهو صبىّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا)

« وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا » أى وآتيناه حناناً : وهو التحنن والتعطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه « وَزَكَوٰةً » أى طهارة من الذنوب، وعصمة بليغة منها «وَكَانَ تَقِيًّا* وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا » أى متكبرا عاقاً لهما ، أو عاصياً لربه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

« وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ » أى من الله «يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» أى ليستقبل النعيم الأبدىّ . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات. وفيه معنى التحية والتشريف.

---

(١) [ ٥ / المائدة / ٤٤ ] .

وفى ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة فى العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ انْتَبَذَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقىّ بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فتصور لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوىّ الخلق ، كامل الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

« قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ » أى أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها فى خلوتها ، وظنها أنه يريدها على نفسها . وفى ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالى بالاستعاذة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإنى عائذة به . أو فلا تتعرض لى . وإنما ذكّرته بالله تعالى ، لأن المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . نخوفته أولًا بالله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)

« قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ماتوهمت . فإنى رسول ربك

الذى استعذت به ، بعثنى إليك « لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا » أى لأكون سبباً فى هبته . و ( الزكىّ ) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا )

«قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا وقالت : كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجدنى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟

قال الزمخشرىّ : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله تعالى[١] ( مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ )[٢] ( أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ) والزنى ليس كذلك . إنما يقال فيه (فجر بها ، وخبث بها) وما أشبه ذلك . وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب. وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله[٣] ( وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ) لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها. وقيل: جعل المس ثَمَّ ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و ( البغىُّ ) الفاجرة التى تبغى الرجال . ووزنه ( فعول ) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا )

«قَالَ» أى الملك « كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ » أى

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣٧ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٤٣ ] و [ ٥ / المائدة / ٦ ] .

(٣) [ ٣ / آل عمران / ٤٧ ] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه «وَرَحْمَةً مِّنَّا» أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله « وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » من تتمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ فى فرجها . كما قال تعالى[١]: (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال[٢] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا» أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها ، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها ، عن الله تعالى ، ماقال ، مما تقدم ، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ فى جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)

« فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

---

(١) [ ٦٦ / التحريم / ١٢ ] .  (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٩١ ] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و ( أجاء ) ـ قال الزمخشريّ ـ منقول من ( جاء ) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ ( المخاض ) بكسر الميم وكلاهما مصدر ( مخضت المرأة ) إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج « قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا » أى الحمل « وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا » أى شيئاً تافها ، شأنه أن ينسى ولا يعتد به . منسيًّا لايخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة، وبضد ماقرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام ـ قال الزمخشريّ ـ لأنه مقام دحض ، قلما تثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به ـ عيبا يعاب به ويعنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا )

« فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل: هو عيسى ، وقرئ ( مَنْ ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلًا رفيعا ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا )

«وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا» أى حضر أوان اجتنائه. قال الزمخشريّ: فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلّى بالسرىّ والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا )

« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً »أى بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ، الموهوب بالعناية. قال الزمخشرىّ: أى جمعنالك فى السرىّ والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً) أى وطيبي نفسا ولا تغتمى . وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أى من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، الذين لايفهمون قولك ولايصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألوك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » أى لا تكلميهم فى أمرك شيئاً . ولاتماديهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرتْ بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع فى براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أى صمتاً . وقوله ( فَلَنْ أُكَلِّمَ ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ، قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا )

« فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا» أىعظيما منكراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا )

« يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد التوبيخ ، وتقرير لكون ما جاءت به فريا . و ( هارون ) هو النبيّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله فى الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى ( المشابه ) كثيرا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا )

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، قَالُوا۟ »منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا» ولم يعهد تكليم عاقل لصبيّ فى المهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا )

[٣١] (وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا )

« قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولا تحقيقاً للحق فى شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، ردًّا على من يزعم ربوبيته ونبوّته « ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى الإنجيل « وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ » أى كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربى لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ماسبق فى القضاء المحتوم، أو جعل الآتى، لا محالة ، كأنه وجد « وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا » أى أمرنى بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا )

[٣٣] ( وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا )

[٣٤] ( ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ )

[٣٥] ( مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ )

[٣٦] ( وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ )

« وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا » أى مستكبراً عن طاعته وأمره « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ » أى الذى فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة « عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانىّ . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه « قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » أى : ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ وهذا كقوله تعالى[(١)] ( إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ) ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه « وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ٥٩و٦٠ ] .

## تنبيهات فى فوائد هذه القصة

الأول ـ لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكيًّا طاهراً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم فى إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما فى آل عمران، وههنا ، وفى سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و( مريم ) هى بنت عمران . من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها فى سورة آل عمران . وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت فى كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم فى سورة آل عمران .

الثانى ـ استدل بقوله تعالى(١) : ( فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ) من قال بنبوة مريم . واستُدل بقوله تعالى عنها(٢) . ( يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا ) على جواز تمنى الموت لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى(٣) . ( وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ) على التسبب فى الرزق، وتكلف الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أَنَّ اللهَ قال لمريمٍ ... وهُزِّى إليك الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرطَبْ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ ... إليها . ولكن كلُّ شىء لَهُ سَبَبْ

وفى الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : ( فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ) بعدَ ( فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ) على أن الحالف ( لا يتكلم أو لا يكلم فلانا ) لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشرى، قال :

(١) [ ١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [ ١٩ / مريم / ٢٣ ] . (٣) ١٩ / مريم / ٢٥ ] .

ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . وفى قوله تعالى ( مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ) معنى قولهم فى المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

الثالث ـ نقل الرازىّ عن القاضى فى قوله تعالى(١) : ( وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ ) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيي . ولابد فى الأنبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هى هذه الأحوال الثلاثة : وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات فى كل الأحوال .

الرابع ـ قال القاشانىّ : وإنما تمثل لها بشراً سوىّ الخلق حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيال فى الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع فى المنام من الاحتلام وتنقذف نطفتها فى الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مرّ أن الوحى قريب من المنامات الصادقة ، لهدء القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما فى النوم . فكل مايرى فى الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة فى اصطلاحنا ( قلباً ) والاتصالات التى لها بالأرواح القدسية ، يسرى فى النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة . لأنه ثبت فى العلوم الطبيعية أن منىّ الذكر فى تكوّن الولد، بمنزلة الإنفحة فى الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن، أى العقد من منىّ الذكر والانعقاد من منى الأنثى . لا على معنى أن منىّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنىّ الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة فى منى الذكر أقوى . والمنعقدة فى منىّ الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً . ولم ينعقد منىّ الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

(١) [ ١٩ / مريم / ٣٣ ] .

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حارًّا ، كان المنيّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قويًّا فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى الكلية اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منيّ الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الوالد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، ويغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحانيّ ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : ( وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ) فى اللوح مقدراً فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأنت إليه بقوله : ( إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ) فدنا منها فنفخ فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا . كالغلمة مثلا والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإنزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعليّ لوجوده كما قال : ( لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس ـ التمثّل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر .

قال إمام الحرمين : تمثّل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعدُ .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى فى الجسد حيًّا . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلًا ، بل بعادة أجراها الله تعالى فى بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح فى الجنة .

وقال البلقينىّ : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتى جبريل بشكله الأصلىّ . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلًا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلًا ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسًا لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائى فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر فى فتح البارى .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحط بكنهه. فالخوض فيه عبث ينتهى خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذى لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك فى مواضع عديدة .

السادس ـ قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فحرفه اليهود إلى (عيسو) تهكما فحوله العرب إلى (عيسى) تشبها باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنىّ على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى اختلف قول أهل الكتاب فى عيسى، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى فى أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنّه «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى بالذين كفروا، المختلفين. عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم . وفى ( مَشْهَدِ ) ستة أوجه . لأنه مصدر ميمىّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من ( الشهود ) أى الحضور أو ( الشهادة ) . وهذا معنى قول الزمخشرىّ : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل: معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه. فعظمه لعظم مافيه أيضاً . كقوله[1] (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ) وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صما عمياً . والآية كقوله تعالى[2] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ »

(١) [ ١٨ / الكهف / ٥ ] . (٢) [ ٣٢ / السجدة / ١٢ ] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشريّ : أوقع الظاهر أعنى ( الظالمين ) موقع الضمير، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر، حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أوِّل التعجب فى الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام مالا يدرى سببه . ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهى كقوله تعالى(١) ( فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ) أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين فى تأويل ما يشترك فى الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقةُ السلف المحققين إثباتُ ماورد به السمع مع نفى التشبيه. إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق. فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذى يجب أن يكون عليه جل جلاله. فما يقدر فى حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون فى حقه تعالى مستلزماً لذلك. كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا، يستلزم من النقص والحاجة، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزه فى وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتىّ لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ، الغَنى له أمر ذاتىّ لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حىّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [ ٥٠ / ق / ٢٢ ] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا. فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه فى حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون فى حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ماقرره الإمام تقىّ الدين بن تيمية فى خلال بعض فتاويه. وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ، وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ )

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ )

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه « وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ » أى وهم اليوم مستغرقون فى غفلة عما يفعل بهم فى الآخرة « وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون به اليوم وسيعاينونه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا فى توحيده الخالص ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا )

[٤٢] ( إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا )

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا » بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه « نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ » أى مُتَلَطِّفاً فى دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام « يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا » أى أى فلا يدفع ضرًّا ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل. لئلا يركب متن المكابرة والعناد. ولا ينكب، بالكاية، عن محجة الرشاد . حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلًا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم . مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام، والإنعام العام. الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب . ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل ، لداعية صحيحة وغرض صحيح . والشيء لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيرا ، قادرا على النفع والضر ، مطيقاً بإيصال الخير والشر ، لكن كان ممكنا ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته . وإن كان أشرف الخلائق. لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة . فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا » أى معتدلًا لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق ، وكذا فى باب الأخلاق والأعمال . قال المهايميّ : أى وإن كان حق الابن اتباع الأب فى العرف ، لكنه باطل . لأن الحق اتباع الصواب .

قال الزمخشريّ : ثنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفاً . فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ . فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير، وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا )

« يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا » .

ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة ، مستجلب لضرر عظيم ، فإنه فى الحقيقة عبادة الشيطان . لما أنه الآمر به والمسوّل له، وقوله : (إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ) الخ تعليل لموجب النهى وتأكيد له، ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم . ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص . والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير. والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته، لأنه ملاكها . والتعرض لعنوان الرحمانية ، لإظهار كمال شناعة عصيانه . أفاده أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا )

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ » لكونك عصيته وواليت عدوّه ، فيقطع رحمته عنك ، كما قطعها عن الشيطان « فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا » أى مقارناً له ومشاركاً معه فى عذابه .

قال الزمخشرىّ : ربّع عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال . ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرّح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال (أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب . وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب . وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يَـٰٓأَبَتِ) توسلًا إليه واستعطافاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا )

« قَالَ » أى أبوه ، مصرًّا على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ » أى: أمعرض ومنصرف أنت عنها. وإنما قدم الخبر على المبتدأ، لأنه كان أهم عنده. وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب. كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلًا عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمنك بالحجارة « وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا » أى تباعد عنى زمانًا طويلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا )

« قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا » أى مبالغًا فى اللطف بى. وفى جوابه بقوله عليه السلام ( سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى[(١)] ( وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ) أى لا أصيبك بمكروه بعدُ . ولكن سأدعو ربى أن يغفر لك . كما قال[(٢)] ( وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ) قال الزمخشرىّ : وفى الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى ( الإكليل ) : استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٦٣ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٨٦ ] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام. وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق فى قوله(١) ( رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك. حتى أنزل الله تعالى(٢) ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ) إلى قوله ( إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ) يعنى إلا فى هذا القول ، فلا تتأسّوا به . ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى(٣) (مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا )

« وَأَعْتَزِلُكُمْ » أى أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشرىّ : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله ﷺ(٤) : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى(٥)( فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ )

---

(١) [ ١٤/ إبراهيم/ ٤١ ]. (٢) [٦٠/ الممتحنة/ ٤]. (٣) [ ٩/ التوبة/ ١١٣و١١٤].

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٦ ـ حدثنا هناد، عن النعمان بن بشير . (٥) [ ١٩ / مريم / ٤٩ ].

« وَٱدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده وحده « عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا » أى خائباً ضائع السعى . وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة ( عَسَىٰٓ ) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا )

« فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٠] ( وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا )

« وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا » أى ما عُرف فيهم من النبوّة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» أى ثناءً حسناً . عبّر بـ(اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبّر بـ ( اليد ) عما يطلق باليد وهى العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا )

[٥٢] ( وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا )

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتحه . أى أخلصه الله ، أى اصطفاه ، كما قال[١] ( إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ) « وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ » أى من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها فوجدها ثمة . فنودى عندها « وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا » أى مناجياً ، أى كليما . إذ كلمه بلا واسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا )

« وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره فى أداء الرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٥] ( وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا )

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلًا . وقوله « إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ » تعليل للأمر . وإيراده عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء ، تشريفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح ، فوفّى به حيث قال[٢] ( سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ) وهذا أعظم ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرّحت به الأخبار. «وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ »أى كان يبدأ أهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس ( وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٤٤ ] . (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٢ ] .

ٱلْأَقْرَبِينَ )(١) ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ )(٢) ( قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا )(٣) ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الدينيّ أولى. أفاده الزمخشريّ . «وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » أى لا تصافه بالنعوت الجليلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا )

[٥٧] ( وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا )

«وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوّة والزلفى عند الله تعالى . فالعلوّ معنوىّ . أو رفعه بجسده حيًّا إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وكن فِى مَكانٍ إِذَا مَا سَقَطْتَ     تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِى عَافِيَهْ

انتهى. ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين(٤) عن أنس فى حديث المعراج؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة. وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢١٤ ] .(٢) [ ٢٠ / طه / ١٣٢ ] .(٣) [ ٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سجدة)

« أُوْلَٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين فى السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل . وقوله تعالى : « ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم » أى بفنون النعم الدينية والدنيوية « مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ » أى هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا » أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علوّ الرتبة . وسموّ الزلفى عنده تعالى . وفى الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير(١) وابن أبى حاتم : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال : هذا السجود فأين البُكِىّ .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سينالهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ » أى فأتوا بما ينافى البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك فى المعاصى التى هى بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى شرًّا . قال الزمخشرىّ : كل شر عند العرب غىّ ، وكل خير رشاد . قال المرقش[1] :

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ ... ومن يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغىّ لائما

أى من يفعل خيراً، يحمد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال ، وبالغىّ الفقر . أى ومن يفتقر . ومنه[2] القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهى . ولأمّ المخطئ الهبَلُ

أى الثكل. ويجوز أن يكون المعنى جزاء غىّ. كقوله تعالى[3] (يَلْقَ أَثَامًا) أى شرًّا وعقاباً . فأطلق عليه كما أطلق الغىّ على مجازاته المسببة عنه ، مجازا . أو (غَيًّا) ضلالًا عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

---

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من المفضلية السادسة والخمسين . ومطلعها :

ألَا يا اسلمى . لا صُرْمَ لى اليومَ فاطِماَ ... ولا أبدًا ، ما دامَ وصلُكِ دائما

(٢) قائله القطامىّ . أجد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّهَا الطَّلَلُ ... وإنْ بَلِيتَ ، وإن طالَتْ بِكَ الطِّوَلُ

وطال طولك ، أى عمرك . (٣) [ ٢٥ / الفرقان / ٦٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا )

[٦١] ( جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا )

« إِلَّا مَن تَابَ » أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات « وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار . أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم، أفاده أبو السعود « إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا » أى لا يخلفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا )

[٦٣] ( تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا )

« لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا » أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشريّ رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله[١] سبحانه : ( وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ) ( وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ )[٢] نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٧٢ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٥ ] .

ومعنى ( إِلَّا سَلَـٰمًا ) أى تسليماً . وهو تسليم الملائـكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال[1] : ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، المسرودة فى مواضع شتى من آى القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم ـ عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردًّا لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على مازعمه هؤلاء الخلف. فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا )

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »أى ينسى شيئاً ما، بل لا يفيض علماً ولاينزل ملـكا إلا لحـكمة يستمد لها الحال، أى فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك . وفى إعادة اسم ( الرب ) المعرب عن التبليغ إلى الـكمال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلة الحـكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا )

«رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أى من التوابع والنجيمات والسحب وغيره ذلك.

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦ ] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه فى البقرة ، من أن السموات عنى بها الكواكب، والأرض كوكب منها .

قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ » أى اثبت لها على الدوام. وقوله «هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا» أى مثلا وكفوًا ، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك. والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أى إذا صح أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقّها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا )

« وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أى يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج حيًّا بعد ما لبثت فى القبر مدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا )

« أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا » أى قبل جعله ترابًا ونطفة . وكان عدمًا صرفًا لا وجود له فى الأعيان . فلا تبعد إعادته .

قال أبو السعود : وفى الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور . وهو السرّ فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أى ما أعجب الإنسان فى إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذى أعطى العقل لينظر فى العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا )

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع ( جاث ) . من ( جثا ) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى[1] ( وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا )

« ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى النار، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن، الذى رحمه بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل، (عِتِيًّا) أى جراءة، بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاته به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا )

«ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا» وهم المنتزعون. فإنهم أولى الشيع. إذ ضلوا وأضلوا، لأجل لذّات الدنيا وشهواتها. فصاروا أولى بالصلىّ بها. فيخصّون بعذاب مضاعف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا )

« وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يَرِدُها. « كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

---

(١) [ ٤٥ / الجاثية / ٢٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا )

« ثُمَّ » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشرىّ : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثوّ حواليها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجاثيهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا )

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً وواردا ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً[١] عنهم : ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ) وقال قوم نوح[٢] ( أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ) وقال تعالى[٣] : ( وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ) . وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ١١ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ١١١ ] .
(٣) [ ٦ / الأنعام / ٥٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا )

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا » أى متاعاً « وَرِءْيًا » أى منظراً وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى[١] عن قوم فرعون المغرقين ( كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ) و( رِءْيًا ) فِعل بمعنى مفعول كالطّحن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا )

« قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبلُ ، ومن شاكلهم، (فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ) أى يمدّ له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبئ عنه قوله تعالى[٢] : ( أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى[٣] : (إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال. أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بيّن سبحانه غاية المد بقوله :

«حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا » أى فئة وأنصاراً .

---

(١) [٤٤/ الدخان/ ٢٥و٢٦] . (٢) [٣٥/ فاطر/ ٣٧] . (٣) [٣/ آل عمران/ ١٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا )

« وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ » أى الأعمال التى تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » أى مرجعا . وتكرير ( الخير ) لمزيد الاعتناء ببيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا )

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ » أى فى الآخرة « مَالًا وَوَلَدًا » أى انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب ، ما أكفره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا )

« أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » أى بذلك، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا )

[٨٠] ( وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا )

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمؤاخذة به « وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا » بمضاعفته له ، جزاء لاستهزائه « وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ » أى ننزع عنه ما آتيناه من مال وولد ،

فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فما يجدى عليه تمنّيه وتألّيه .

وقد روى البخارىّ(١) : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت قينا ـ حدّادًا ـ فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال . فذرنى حتى أموت، ثم أبعث فسوف أوتى مالًا وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا )

«وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» أى ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عزّ وجلّ ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا )

« كَلَّا » أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا « سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » أى ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أى يريدون إهلاكهم، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى(٢) ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ) . وقال تعالى(٣): ( وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢٩ ـ باب ذكر القين والحداد ، حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [ ٤٦/ الأحقاف / ٥و٦] . (٣) [ ١٦/ النحل / ٨٦ ] .

فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ) قيل : المراد بالآلهة من عُبِدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا )

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى بأن سلّطناهم عليهم ومكّناهم من إضلالهم . أو قيضناهم لهم يغلبون عليهم « تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهيجاً شديداً .

قال الزمخشرىّ: الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه، وانهماكهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسوّل لهم. فهذه الآية كالتذييل لماقبلها وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٤] ( فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا )

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم .و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهىّ عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » تعليل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى(١) (وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ) .

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٣٥ ] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقلته لتقضّيه وفنائه ، كما قال المأمون ( ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما نفد ) ولا ينافى هذا ما مرّ من أنه يمد لمن كان فى الضلالة. أى يطوّل. لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم. وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله. ولله در القائل :

إن الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ لايمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
وكيف يفرحُ بالدنيـــا ولذتِها فتى يُعَدّ عليه اللفظُ والنَفَسُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا )

« يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزورِ والزائرِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا )

«وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا» أى عطاشا. وفى ذكرهم بالسَّوْق إشعار بإهانتهم واستخفافهم. كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد: الذهاب إلى الماء، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا )

« لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقـــدم ذكرها فى قوله(١) ( وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ) ردٌّ على عابديهم فى دعواهم

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٨١ ] .

أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون ( العهد ) بمعنى الإذن والأمر. يقال: أخذت الإذن فى كذا واتخذته بمعنى. من باب ( عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لايشفع إلاالمأمور بالشفاعة، المأذون له فيها. وتعضده مواضع فى التنزيل(١) « وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ )(٢) (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ)(٣) (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ) ونحو هذه الآية قوله تعالى(٤) ( وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) ولما قررتعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام، وذكرخلقه من مريم بلا أب، عطف عليه حكاية جنايتهم من دعوى البنوّة له، مهولا لأمرها. وكذاجناية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابنا أو بنتا له ، تعالى وتقدّس ـ عطف قصته على قصته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا )

[٨٩] ( لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا )

«وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا* لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا» أى عظيما منكراً. وفى ردمقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ٢٦ ] . (٢) [ ٣٤ / سبأ / ٢٣ ] .

(٣) [ ٢٠ / طه / ١٠٩ ] . (٤) [ ٤٣ / الزخرف / ٨٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٠] ( تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا )

[٩١] ( أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا )

[٩٢] ( وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا )

[٩٣] ( إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا )

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشقّقن « وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن » أى لأن « دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانىّ الأحدىّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحىّ الذى له مزاج . وما له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والذل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا )

[٩٥] ( وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا )

« لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الأتباع والأنصار ، وعمن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوئ الكفرة ، تأثره بمحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا » أى يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تكسب الود . كذا قالوا فى تأويله. وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون. قال: والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهما يحبون وجعلت له وده. ومن كلامهم: وددت لو كان كذا . أى أحببت. فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم: وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها ـ كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين؟ وثانيها ـ أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها ـ أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازىّ التمويه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا )

« فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، بالجنة «وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا» أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش. فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق (واللدد) شدة الخصومة . والباء فى قوله ( بِلِسَانِكَ ) بمعنى (على) . أى على لغتك . أو ضمن (التيسير) معنى (الإنزال) أى يسرنا القرآن، منزلين له بلغتك، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه.

قال الزمخشرىّ :هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلّغ هذا المنزل، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أى فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازىّ : بيّن به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوّة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسَّر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيء وهو اللدد . لأن الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ » أى قوم لُدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ » أى تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أى صوتاً خفيًّا. والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٠ – سورة طه

وهى مكية . وقيل : إلّا قوله تعالى[1] ( فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ) الآية . وقوله[2] ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ) الآية ، وآياتها مائة وخمس وثلاثون .

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣٠ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( طه )

[٢] ( مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ )

[٣] ( إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ )

« طه » قدمنا أن الحق فى هـذه الحروف التى افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففى عجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى فى ( الكافية الشافية ) بقوله :

| | |
|---|---|
| وانظر إلى السور التى افتتحت بأحـ | ـرفها ترى سرًّا عظيم الشان |
| لم يأت قط بسورة إلا أتى | فى إثرها خبر عن القرآن |
| إذ كان إخباراً به عنها . وفى | هـذا الشفاء لطالب الإيمان |
| ويدل أن كلامه هو نفسها | لا غيرها ، والحق ذو تبيان |
| فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ | أعراف ثم كذا إلى لقمان |
| مع تلوها أيضاً ومع حمٓ مع | يسٓ وافهم مقتضى الفرقان |

« مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ » أى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و ( الشقاء ) فى معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : « إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ » أى تذكيراً له . أى ( مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ) لتتعب بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ماعليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لامحالة . وقد جرت السنة الإلهية

فى خطاب الرسول فى مواضع من التنزيل ، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، كقوله تعالى[١] : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾[٢] ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾[٣] وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفى ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾

[٥] ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

« تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ » قرئ بالرفع على المدح. أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول. وقوله « عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير[٤] . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والسلطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلًا .

وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً .

قال ابن كثير : والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيقىّ موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٢ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ٦ ] .

(٣) [ ٣ / آل عمران / ١٧٦ ] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس عشر من تفسير الطبرىّ ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ )

« لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ » .

بيان لشمول قهره وملكته للكل . أى كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره . لاتوجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى )

« وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى » .

بيان لكمال لطفه . أى علمه نافذ فى الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر. فكذلك إن تجهر وإن تخفت، فيعلمه بجهر وخفت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ )

« ٱللَّهُ » أى ذلك المُنزِل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الفضلى ، لدلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التى هى النهاية فى الحسن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ )

[١٠] ( إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى )

« وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذى انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبيّ لاسيما أشهرهم نبأ، وهو موسى عليه السلام. فقد خوطب بقوله تعالى(١) (إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) وبه ختم تعالى نبأه فى هذه السورة بقوله(٢) (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أو تقرير لسعة علمه المبين فى قوله تعالى(٣) (وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ) الخ لقوله بعدُ (وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)(٤) أو لهما معا. أو لحمله، صلوات الله عليه ، على التأسى بموسى فى الصبر والثبات. لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر، وكانت العاقبة له. وقد أشير فى طليعة نبأ موسى عليه السلام، إلى كيفية ابتداء الوحى إليه ، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم. وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ، بعد ماطالت غيبته عنها ومعه زوجته. فأضلّ الطريق. وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال فى برد وشتاء. وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، كما قصه تعالى بقوله « إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا » أى أبصرتها إبصاراً بيّناً لا شبهة فيه « لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسةٍ تصطلون بها : « أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى » أى هاديا يدلنى على الطريق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ)

[١٢] (إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى)

« فَلَمَّآ أَتَىٰهَا » أى النار « نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » أى فيجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه، كما يراعى أدب القيام عند الملوك ( وطُوًى ) اسم للوادى .

---

(١) [ ٢٠ / طه / ١٤ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٩٨ ] .
(٣) [ ٢٠ / طه / ٧ ] . (٤) [ ٢٠ / طه / ٩٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ )

[١٤] ( إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ )

[١٥] ( إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ )

« وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » أى اصطفيتك للنبوة « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ » أى للذى يوحى . أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي »أى خصنى بالعبادة « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى ( لِذِكْرِيٓ ) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لاترائى بها، ولا تقصد بها غرضاً آخر . أو لتكون ذاكراً لى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ » أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار منها. واللام متعلقة بـ (آتية) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفى (كاد) معنى القرب من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها ـ أن (كاد) منه تعالى واجب. والمعنى أنا أخفيها عن الخلق. كقوله[1] (عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ) أى هو قريب .

ثانيها ـ قال أبو مسلم : (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله[2]: ( كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ )

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٥١ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

ومن أمثالهم المتداولة ( لا أفعل ذلك ولا أكاد ) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير ( أَكَادُ ) بـ ( أريد ) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جنى فى ( المحتسب ) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله[1] .

كادتْ وكدتُ وتلك خيرُ إرادةٍ لو عاد من لَهْوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

بمعنى أرادت . لقوله ( تلك خير إرادة ).

ثالثها ــ أن ( أَكَادُ ) صلة فى الكلام . قال زيد الخيل[2] .

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحُهُ فما إنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها ــ أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالا ولا أقول هى آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن فى إجمال ذكرها حكمة، وهى اللطف بالمؤمنين، لحثهم على الأعمال الصالحة، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم . وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ )

« فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك النظر والاستدلال . « فَتَرْدَىٰ » أى فتهلك .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شىء أطمّ على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث. فلا يهولنك وفور دهمائهم، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك. واعلم أنهم، وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسمّ قائله . وفيه ( لو كان ) عوضا عن ( لو عاد ) .

(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث ( طبعة بيروت ) .

واتباعه . لا البرهان وتدابره . وفى هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ)

[١٨] (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ)

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ » شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفى الاستفهام إيقاظ له وتنبيه على ما سيبدو له من عجائب الصنع « قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا » أى أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفتُ على رأس القطيع وعند الطفرة « وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجات أخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ)

[٢٠] (فَأَلْقَـٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

[٢١] (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ)

« قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَـٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ )

[٢٣] ( لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى )

«وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ» أى إبطك «تَخْرُجْ بَيْضَآءَ» أى نيِّرة «مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ» أى قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه . واعتمد الزمخشرىّ ؛ أن قوله تعالى ( مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ) كناية عن البرص . كما كُنى عن العورة بالسوأة ، قال : والبرص أبغض شىء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه مجّاجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا ألطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى .

« ءَايَةً أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرا بعد التحدى والمناظرة ، لنريك أولا بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ( ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ )

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة . فُصِل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى جاوز الحد فى التكبّر والعتوّ ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلابد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقليـة ، التى صدقتها المعجزات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي )

[٢٦] ( وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي )

[٢٧] ( وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي )

[٢٨] ( يَفْقَهُوا قَوْلِي )

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون فى القتيل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطغى الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمَدَّ بمنطق فصيح ، لما فى لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال[1] ( وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ) وقول فرعون[2] ( وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رِدْءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي )

[٣٠] ( هَارُونَ أَخِي )

[٣١] ( اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي )

« وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي » أى قوِّ به ظهرى .

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٣٤ ] .    (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٥٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى)

[٣٣] (كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)

[٣٤] (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)

[٣٥] (إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا)

« وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالمًا بأحوالنا ، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ)

[٣٧] (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ)

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فَلَأَنْ ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » أى فى وقت آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ )

[٣٩] ( أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ )

« إِذْ أَوْحَيْنَآ » أى ألقينا بطريق الإلهام « إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ » أى الصندوق « فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أى البحر، متوكلةً على خالقه « فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى » لدعواه الألوهية « وَعَدُوٌّ لَّهُۥ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشرىّ : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته ـ أن لا تخطئ جرية اليم، الوصولَ به إلى الساحل ، وإلقاءه إليه ـ سلك فى ذلك سبيل المجاز. وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك، ليطيع الأمر ويمتثل رسمه . فقيل ( فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ) أى على سبيل الاستعارة بالكناية . بتشبيه اليم بمأمور منقاد . وإثبات الأمر تخييل ، وقوله تعالى « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » أى : واقعة منى ، زرعتها فى قلب من يراك. ولذلك أحبك فرعون «وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ » أى ولتربَّى بيد العدوّ على نظرى بالحفظ والعناية . فـ( على عينى ) استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى. قيل : و(على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى منى ، فى الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ، فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ)

«إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ» أى يضمن حضانته ورضاعته.

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها كما قال تعالى[1] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) فجاءت أخته فقالت[2] (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العدوّ « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه منن زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى ما منّ عليه بالنجاة من القتل الذى لا يدفع بتلبيس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » أى من آل فرعون ، وهو القبطىّ الذى استغاثه عليه الإسرائيلىّ ، إذ وكزه موسى فقضى عليه. أى : فاغتممت للقصاص «فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ »أى غم القتل بأن صرفناعنك ما تخشاه. وذلك أنه عليه السلام فرّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[3] «وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا» أى ابتليناك ابتلاء. على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلنا لك فرجاً ومخرجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكفىّ المؤونة فى عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيّهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ » أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلمك وأستنبئك فى وقت بعينه قد وقّته لذلك. فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى ( يَا مُوسَىٰ ) تشريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولًا . وقوله تعالى :

(١) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٢) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٣) [٢٨/ القصص/ ٢٥].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى )

[٤٢] ( ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى )

« وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى » تذكير لقوله تعالى ( وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنيعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جعله محلًّا لإكرامه باختياره وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبيًّا مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى ( وَفَتَنَّـٰكَ ) ونظيريه السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام، فإنه أدخل فى تحقيق معنى (الاصطناع) و ( الاستخلاص ) . ثم بيّن ماهو المقصود بـ( الاصطناع ) بقوله سبحانه « ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى » أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى » أى لا تفترا ولا تقصّرا فى ذكرى بما يليق بى من النعوت الجليلة، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ )

[٤٤] ( فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ )

«ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» أى عقابى. فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى[1] ( فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ) وبمثل ذلك

(١) [ ٧٩ / النازعات / ١٨و١٩ ] .

أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله[1] : ( ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ) وظاهر أن الرجاء في ( لعله ) إنما هو منهما ، لا من الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضي : أي باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما . فإن الراجي ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة في إرسالها والمبالغة عليهما في الاجتهاد ـ مع علمه بأنه لا يؤمن ـ إلزام الحجة ، وقطع المعذرة ، وإظهار ماحدث في تضاعيف ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ )

[٤٦] ( قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ )

« قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا » أي يبادرنا بالعقوبة «أَوْ أَن يَطْغَىٰ» أي يزداد طغياناً بالعناد، في دفع حججنا، ثم يأمر بقتلنا. أو بالتخطي إلى أن يقول في شأنك مالا ينبغي ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثاني الزمخشريّ . وأفاد ؛ أن في المجيء به هكذا على الإطلاق، وعلى سبيل الرمز، باباً من حسن الأدب، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة: «قَالَ لَا تَخَافَا » أي من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَا » أي بالحفظ والنصرة «أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» أي ما يجري بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ. فالمفعول محذوف للقرينة ، أو نزل منزلة اللازم تتميماً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدوّ .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ١٢٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ )

« فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بإطلاقهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تُعَذِّبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على ألطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ )

« إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ » أى من ربنا « أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ )

[٥٠] ( قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ )

« قَالَ » أى فرعون « فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ » أى منح كل شىء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواه بها وعدّله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهـذه الآية فى معناها كآية(١) ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ) وآية(٢) ( وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ )

[٥٢] ( قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى )

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهـذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعـلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتـكذيب ، بالعناد واللجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب فى اللوح المحفوظ ، محصىّ غير منسىّ . ويجوز أن يكون ( فِى كِتَـٰبٍ ) تمثيلًا لتمـكنه وتقريره فى علم الله عز وجل ، بما استحفظه العالم وقيده بالـكتبة . قال فى العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه فى جريدته ، حتى لا يذهب أصلًا ، فيـكون قوله ( لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ) ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزه عنه . فـ ( الـكتاب ) على هذا بمعناه اللغوىّ . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

(١) [ ٩١ / الشمس / ٧و٨ ] . (٢) [ ٩٠ / البلد / ١٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى فراشاً « وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشريّ قوله تعالى ( فَأَخْرَجْنَا ) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . يصرّف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون ( عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ) ثم قوله ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ) إلى قوله ( فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون من باب قول خواص الملك ( أمرنا وعمرنا ) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله ( وَلَا يَنسَى ) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب. وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وُقَيْفَة عند قوله ( وَلَا يَنسَى ) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجها آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة. فقال ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ) فلما حكاه الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته. لأن الحاكى هو المحكىّ فى كلام موسى . فمرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشريّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ )

[٥٥] ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ )

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ » حال من ضمير ( فَأَخْرَجْنَا ) على إرادة القول « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا » أي من الأرض « خَلَقْنَاكُمْ » أي خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائط « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أي بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » أي بردّهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتوّ فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ )

[٥٧] ( قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ )

[٥٨] ( فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى )

« وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا » أي من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى » أي مستوياً واضحاً يجمعنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى)

[٦٠] (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ)

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ)

[٦٢] (فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ)

[٦٣] (قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ)

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عذرهم « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى «فَيُسْحِتَكُم» أى يستأصلكم « بِعَذَابٍ » أى هائل لغضبه عليكم « وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ * فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ * قَالُوٓا۟ » أى بطريق التناجى والإسرار « إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ » أى بمذهبكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، بجعله عبدا لغيره ، واستقرارهما فى مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذى يريدان إعجازكم به . و ( ٱلْمُثْلَىٰ ) تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

فى قوله تعالى ( إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ) قراءات .

الأولى ـ ( إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَٰحِرَٰنِ ) بتشديد النون من ( إِنَّ ) و ( هَٰذَيْنِ ) بالياء وهى قراءة أبى عمرو ، وهى جارية على السَّنَنِ المشهور فى عمل ( إِنَّ ) .

والثانية ـ ( إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ) بتخفيف (إنّ ) وإهمالها عن العمل، كما هو الأكثر فيها إذا خففت . وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى ( إِلَّا ) و ( إِنْ ) قبلها نافية ، واستدلوا على مجىء اللام للاستثناء بقوله(١) :

أمسى أبانُ ذليلًا بعد عِزَّتِهِ وما أبانُ لَمِنْ أعلاجِ سُودَانِ

والثالثة ـ ( إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ) بتشديد ( إنَّ ) و ( هذان ) بالألف . وخرّجت على أوجه :

أحدها ـ موافقة لغة من يأتى فى المثنى بالألف فى أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وَزُبَيْد وكنانة وآخرون . قال قائلهم(٢) :

* تزَوَّدَ مِنَّا بين أُذْنَاهُ طَعْنَةً *

---

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من ( شذور الذهب لابن هشام ) وعجز البيت :

* دَعَتْهُ إلى هابِى الترابِ عَقِيمُ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بَلغَا فى الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

ثانيها ـ إنَّ ( إنَّ ) بمعنى ( نعم ) حكاه المبرد . واستدل بقول الراجز(٢) :

يا عمر الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّهْ اكسُ بُنَيَّاتِى وَأُمَّهُنَّهْ

وَقُلْ لَهُنَّ : إنَّ أَنَّ إِنَّهْ أُقْسِمُ باللهِ لَتَفْعَلَنَّـهْ

وقول(٣) عبدالله بن قيس الرُّقيَّات :

وَيقُلْنَ شيب قد عــلا كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إِنَّهْ

وردَّ على المبرد أبو على الفارسىّ ، بأنه لم يتقدم ما يجاب بـ( نعم ) وأجاب الشمـّنى ، بأن التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب للاستخبار الضمنىّ . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس فى الاستخبار عن كونهما ساحرين، بل هم جزموا بالسحر فقالوا(٤) : (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ) ثم أسروا النجوى فيما يغلبان به موسى . إلا أن يقال: محطّ الجواب قوله (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ)الخ، وما قبـله توطئة . وقد رد فى ( المغنى ) هذا التخريج ؛ بأن مجىء ( نعم ) شاذ حتى نفاه بعضهم . ومنعه الدمامينىّ ؛ بأن سيبويه والحذّاق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام فى ( لَسَاحِرَانِ ) لام الابتداء ، زحلقت للخبر . وأبى البصريون دخولها على الخبر . وزعموا أنها فى مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع ( إن ) التى بمعنى ( نعم ) لشبهها بالمؤكدة لفظاً .

وأقول : فيه تـكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

---

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) .

(٢) لم أهتد إليه الآن ، وخصوصا الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) . (٤) [ ٢٠ / طه / ٥٧ ] .

وثالثها ـ أنه لما كان الإعراب لايظهر فى الواحد ، وهو ( هذا ) جعل كذلك فى التثنية، ليكون المثنى كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هـذا القول الإمام العلامة تقىّ الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمـه الله تعالى ، وزعم أن بناء المثنى ، إذا كان مفرده مبنياً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفطن لذلك غـير واحـد من حـذاق النحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدها ـ أن السبعة أجمعوا على الياء فى قوله تعالى [1] : ( إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ ) مع أن هاتين تثنية ( هاتا ) وهو مبنىّ .

والثانى ـ أن ( الذى ) مبنى وقد قالوا فى تثنيته ( ٱلَّذَيْنِ ) فى الجر والنصب . وهى لغة القرآن ، كقوله تعـالى [2] : ( رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء ( هاتين ) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة ( ابنتىّ ) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء فى ( إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف فى ( هذان ) للألف فى ( ساحران ) . وأجاب عن الثـانى بالفرق بين ( اللـذان ) و ( هذان ) بأن ( اللّذان ) تثنية اسم ثلاثىّ ، فهو شبيه ( بالزيدان ) و ( هذان ) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق فى البناء لشبهه بالحروف . قال رحمـه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ ( إنّ هذان ) لحن وإن عثمان رضى الله عنه قال ( إن فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها ) وهذا خبر باطل لايصح من وجوه .

أحدها ـ إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنـكار أدنى المنكرات، فـكيف يقرّون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته ؟

والثانى ـ أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقبـاح فى الـكلام ، فـكيف لايستقبحون بقاءه فى المصحف ؟

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٢٧ ] .　　(٢) [ ٤١ / فصلت / ٢٩ ] .

والثالث ـ أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الـكريم يقف عليه العربيّ والعجميّ .

والرابع ـ أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب ( التابوت ) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ : عَتّى حِين ، على لغة هذيل ، أنـكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقيّ الدين ملخصاً .

هـــذا حاصل ما في ( المغني ) و ( الشذور ) و ( حواشيهما ) وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ )

« فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أي إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ماذكر من الإخراج، والإذهاب، فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى «ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا » أي مصطفين، ليكون أهيب في صدور الرائين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أي فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه « ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ » أي علا وغلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ )

[٦٦] ( قَالَ بَلْ أَلْقُواْ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ )

« قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُواْ

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ » أى التى ألقوها « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ » أى حيّات تسعى على بطونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ )

[٦٨] ( قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ )

[٦٩] ( وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ، إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ )

« فَأَوْجَسَ » أى أحس « فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ » وذلك لما جُبِلَ عليه الإنسان من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات. كما أن له من عصاه حيّة « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ » أى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ » فى مقابلة آية ربانية « وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ » أى لا يفوز بمطلوبه ، أىَّ مكانٍ جاء لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ )

[٧١] ( قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ )

« فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا » أى فألقى موسى عصاه فتلقفت ماصنعوا فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ، لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ

وَمُوسَىٰ قَالَ » أي فرعون « ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أي فاتفقتم معه ليكون لكم الملك « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أي من جانبين متخالفين « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ » أي التي هي أقوى الأخشاب وأخشنها « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ » يعني أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه ، أو من تخليده في العذاب ( وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ) فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف ، ولم يصلبه في جذوع النخل ، ولم يبقه مصلوبا ، قاله المهايمي . وضعّفه الزمخشريّ بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام ، بدليل قوله ( ءَامَنتُمْ لَهُۥ ) أي لموسى . واللام مع الإيمان ، في كتاب الله ، لغير الله تعالى كقوله تعالى ( يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ) وقصده إظهار اقتداره وبطشه ، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ، فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ )

« قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ » أي نختارك بالإيمان والاتباع « عَلَىٰ مَا جَآءَنَا » أي من الله على يد موسى « مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا » أي وعلى الذي خلقنا . واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله ( ءَامَنتُمْ لَهُۥ ) وقيل هو قسم محذوف الجواب « فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ » أي اصنع ما أنت صانعه . وهذا جواب عن تهديده بقوله ( لَأُقَطِّعَنَّ ) الخ « إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ » أي فيها وهي لا بقاء لها ، ولا سلطان لك بعدها . وإنما البغية الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ، وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ )

« إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ » أى ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ )

« إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فينقضى عذابه « وَلَا يَحْيَىٰ » أى حياة طيبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ )

« وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ » أى المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ )

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ » أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من ( الكشاف ) و ( حواشيه للناصر ) .

الأولى ـ فى تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى ـ صلوات الله عليه ـ اختيار إلقائهم ، أوّلا ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بينة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا ، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا، بعدُ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم .

الثانية ـ جوز فى إيثار قوله تعالى ( مَا فِي يَمِينِكَ ) على ( عَصَاكَ ) وجهان : أحدها ـ أن يكون تعظيما لها . أى لاتحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وثانيهما ـ أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم . وألق العُوَيْد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك. فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها. وإنما المقصود بتحقيرها فى جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى .لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهى حقيرة فى جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق فى علوّ المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها فى طرفة عين .

واعلم أنه لابد من نكتة تناسب الأمرين ـ التعظيم والتحقير ـ وتلك ، والله أعلم ،

هى إرادة المذكور مبهما . لأن ( مَا فِى يَمِينِكَ ) أبهم مِنْ ( عَصَاكَ ) وللعرب مذهب فى التنكير والإبهام ، والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يغنى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه فى إسعاده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ) ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى ( فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ) ؟ انتهى .

ولأبى حيان نكتة أخرى . وهى ما فى اليمين من الإشعار باليمن والبركة . ولا يقال جاء فى سورة الأعراف ( أَلْقِ عَصَاكَ ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجىّ: فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربىّ أو مرادفٍ له ، يجرى فيه ما يجرى فيه . والأول خلاف الواقع . والثانى دونه خرط القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثانى ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا فى اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتعين الثانى . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل فى آيات أخر ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ )

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى» أى سر بهم من مصر ليلاً « فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » أى يابساً . فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله « لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا » أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك « وَلَا تَخْشَىٰ » أى غرقاً من بين يديك ، ووحلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ )

[٧٩] ( وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ )

« فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ » لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قلتهم كما قال[1] ( إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم ، ونزلوا فى الطريق الذى سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى « فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ » أى أوردهم الهلاك ، بعتوّه وعناده فى الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٥٤و٥٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ )

[٨١] ( كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى، وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ )

« يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب . يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم، بإغراقهم، وأنتم تنظرون. « وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ » أى بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه . واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل فى ( نابلس ) ويسمونه ( جبل الطور ) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ ( عيبال ) ولهم عيد سنوىّ فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشرىّ : وإنما عدّى المواعدة إليهم ، لأنها لابستهم واتصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و ( جانب ) مفعول فيه ، أو مفعول به على الاتساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلوى من الطيور الجيد لحمها « وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ » أى فيما رزقناكم ، بأن يتعدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ » أى هلك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ )

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ » أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وعمل صالحا بجوارحه ، ثم اهتدى ، أى استقام وثبت على الهدى المذكور . وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . ونحوه قوله تعالى[1] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان ، ببيان المخرج له منه ، كى لا ييأس . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ )

« وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ » أى أىُّ شىء عجّل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور ، على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ )

« قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى » أى قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » أى عنى ، بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك . واعتنائى بالوفاء بعهدك . وزيادة ( رَبِّ ) لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً فى قبول العذر . أفاده أبو السعود .

(١) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] و [ ٤٦ / الأحقاف / ١٣ ] .

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول ( طلبُ زيادة رضاك أو الشوقُ إلى كلامك ) فالجوابُ . أن هـذا من الغفلة عن سرِّ الإنـكار . وذلك لأن الإنـكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصبّ على القيد . كما عرف فى أمثاله. فالسؤال فى المعنى عن الانفصال الذى يتضمنه ( أعجلك ) المتعدى بـ ( عن ) . وإنـكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب ( هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ) . وقوله ( وَعَجِلْتُ ) الخ تتميم . وقيل الجواب إنما هو قوله ( وَعَجِلْتُ ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغى تأخُّرُ رئيس القوم عنهم فى المسير، ليـكون نظره محيطا بطائفته، ونافذا فيهم ، ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لا يحصل فى تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لوطا، فقال[1] ( وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ) فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هـذا الأمر مبادرة إلى رضاء الله عز وجل ، ومسارعة إلى الميعـاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ )

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ » يعنى اليهودىّ الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلًا يتخذوه إلها ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و ( السامرى ) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودىّ . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى ( نابلس ) قليلة العدد تخالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦٥ ] .

وقد تضمنت هذه الجملة ـ أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة ـ الأمر ـ برجوعه لقومه ، وإصلاحه مافسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى)

« فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى حزيناً « قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإنزال التوراة علىَّ ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ » أى زمان الإنجاز ، أو مجيئى « أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى » أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ)

[٨٨] (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ)

« قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشرىّ : أى ما أخلفنا موعدك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخلينا وراءنا، لما أخلفناه. ولكن غلبنا من جهة السامرىّ وكيده « وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أَوْزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ »

أى من حلىّ القبط ، قوم فرعون ، وهو حلىّ نسائهم « فَقَذَفْنَـٰهَا » أى فى النار لسبكها « فَـكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ » أى كان إلقاؤه « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلىّ المذابة « عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حيًّا ، وخار كما يخور العجل . وقيل: لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازىّ .

وقوله « فَقَالُواْ » أى السامرىّ ومن افتتنوا به « هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ » أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنـكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفها، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشتبه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا )

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ » أى العجل « إِلَيْهِمْ قَوْلًا » أى لا يردد لهم جوابا « وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى دفع ضرّ ولا جلب نفع ، أى فـكيف يتخذ إلٰها ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى )

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ » أى ضللتم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُواْ أَمْرِى » فى عبادته سبحانه ، ونبذ العجل .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ )

[٩٢] ( قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ )

[٩٣] ( أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى )

« قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ » أى موسى « يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ » أى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر . و (لا) مزيدة . أو المعنى ماحملك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض . فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله . أو مامنعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى» وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح ماراه فاسداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى )

« قَالَ » أى هرون « يَبْنَؤُمَّ » بكسر الميم وفتحها . أراد ( أمى ) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ » أى بشعره . وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرانيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ )

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ » أى ثم أقبل على السامرى وقال له منكراً : ما شأنك فيما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى )

[٩٧] ( قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ، وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا )

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ » أى فطنت لما لم يفطنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أى فى الحلىّ المذاب حتى حَىَّ « وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى » أى حسَّنته وزينته « قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ » أى لعذابك « مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا » أى لنطيّرنّه رماداً فى البحر ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

## تنبيهات

الأول ـ اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم عن الباطل ، أوّلا بقوله ( إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله ( وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى ( فَٱتَّبِعُونِى ) ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله ( وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ) وهذا هو الترتيب الجيّد . لأنه لا بد قبل كل شىء فى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هى الأصل . ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازىّ .

وقد برأ الله تعالى بهذه الآيات البينات، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة،

من أنه هو السامري الذى اتخذ العجل وأمر بعبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى ـ عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول فى قوله تعالى ( فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته. ثم اختلفوا : أن السامرىّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً فى: أن السامرىّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه فى صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه. وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الـكريم. ولذا قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام. وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره، إذا كان يمتثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرىّ باللوم ، والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم فى باب العجل ، فقال ( بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقذفته ، أى طرحته . فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) وإن لم يؤمنوا بالإنزال . انتهى .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦ ] .

قال الرازيّ : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :

أحدها ـ أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكر، حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه . فإطلاق لفظ ( الرسول ) لإرادة جبريل عليه السلام، كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها ـ أنه لابد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها ـ أنه لابد من التعسف في بيان أن السامريّ كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لِتُرَابِ حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذي رباه ، فبعيد . لأن السامريّ، إن عرف جبريل حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبيّ صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟ وإن كان ماعرفه حال البلوغ، فأيّ منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له حال الطفولية، في حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبيه الثالث في قوله تعالى ( لَا مِسَاسَ ) وجوه :

أحدها ـ إني لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ .

وثانيها ـ المراد المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد ، عقوبة له .

ثالثها ـ ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز في حمله ( ما أريد مسى النساءَ ) فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنسه ، فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرها بقوله[1] ( ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ) أي لأن المسّ يكنى به عن النكاح كما في آية[2] ( مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ) والله أعلم .

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٧ ] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامريّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩٨] (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)

« إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ » أي المستحق للعبادة والتعظيم « ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » أي أحاط علمه كل شيء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويهاً بشأنه ، وزيادة في معجزاته ، وتكثيرًا للاعتبار والاستبصار في آياته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩٩] (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا)

« كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا » أي كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسمي القرآن ( ذِكْرًا ) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والمواعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازيّ : وقد سمى تعالى كل كتبه ( ذكراً ) فقال[1] ( فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ) .

ثم ، كما بيّن تعالى نعمته بذلك ، بيّن شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٤٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٠] (مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا)

[١٠١] (خَـٰلِدِينَ فِيهِ ، وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا)

« مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا » أى إثماً . يعنى عقوبة ثقيلة. شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على المعاقَب وصعوبة احتمالها « خَـٰلِدِينَ فِيهِ » أى فى احتماله المستمر « وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ، وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

[١٠٣] (يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)

« يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق[1] (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ المسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه . الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية[2] (وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف بصره ، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو كقوله تعالى[3] (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ) نقله الرازىّ . والأول أظهر.

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٨ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٠٦ ] .

(٣) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٢ ] .

« يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ » أي يتساررون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين « إِن لَّبِثْتُمْ » أي في الدنيا « إِلَّا عَشْرًا » أي عشر ليال. قال الزمخشري: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسّفون عليها ويصفونها بالقصر . لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضّت . والذاهب ، وإن طالت مدته ، قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطال الله بقاءك ( كفى بالانتهاء قصرًا ) . وإما لاستطالتهم الآخرة ، وأنها أبد سرمد ، يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقالّ لبث أهلها فيها ، بالقياس إلى لبثهم في الآخرة . وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقالًّا منهم ، في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا )

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أي أعدلهم رأيًا « إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى(١) ( قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ) انتهى .

قال أبو السعود : ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، استرجاع منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلّ على شدة الهول . أي: ولكونه منتهى الأعداد القليلة. وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ، وإلى تقضّي الغائب الذي كأنْ لم يكن. ولا ينافي هذا ما جاء في آية(٢) ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ * يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل ، فتصدق باليوم . كما أن المراد باليوم مطلق الوقت . ولذلك نكر ، تقليلًا له وتحقيرًا .

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ١١٢و١١٣ ] .     (٢) [ ٣٠ / الروم / ٥٥ ] .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال ( عَشْرًا ) أو ( يَوْمًا ) أو ( سَاعَةً ) حقيقة اختلافهم فى مدة اللبث ، ولا الشك فى تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عبّر عن قلّته بما ذكر . فتفنن فى الحكاية ، وأتى فى كل مقام بما يليق به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا )

[١٠٦] ( فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا )

[١٠٧] ( لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا )

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ » أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول « فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا » أى يزيلها عن مقارّها . فيسيّرها مقذوفة فى الفضاء . وقد تمرّ على الرءوس مرّ السحاب . حتى تتساوى مع سطح الأرض . كما قال « فَيَذَرُهَا » أى فيذر مقارّها ومراكزها . أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال « قَاعًا » أى سهلًا مستويًا « صَفْصَفًا » أى أملس « لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا » أى نتوءًا يسيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا )

« يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ » أى يُجيبون الداعي إلى المحشر ، فينقلبون من كل صوب إليه « لَا عِوَجَ لَهُۥ » أى لا يعوج له مدعوّ ، ولا ينحرف عنه . بل يستوون إليه ، متبعين لصوته ، سائرين بسيره .

فى شروح ( الكشاف ) : هذا كما يقال ( لا عصيان له ) أى لا يعصى . و ( لا ظلم له ) أى لا يظلم . وضمير ( له ) للداعى . وقيل : للمصدر . أى لا عوج لذلك الاتباع « وَخَشَعَتِ

ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ » أى انخفضت لهيبته ولهــول الفزع « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » أى صوتاً خفيًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا )

« يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا » أى قبِل قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحـد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنمـا يكون الـكلام ضرباً من التـكريم ، لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا )

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا » أى بمعلوماته ، أو بذاته العلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا )

« وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ » أى ذلت وخضعت خضوع العناة ، أى الأسارى . لأنها فى أسر مملـكته وذلّ قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .

ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به الـكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أى خسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] ( وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا )

« وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] ( وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا )

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحًا وتلويحًا ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى الكفر والمعاصى بالفعل « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى اتعاظًا واعتبارًا ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ( فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا )

« فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ » أى تناهى فى العلوّ والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يقدر أمره فى ملكه الذى يعلو كل شيء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ » أى: بل أنصت. فإذا فرغ المَلَك من قراءته فاقرأه بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقّنه جبريل الوحىَ ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنّى عليه ريثما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ .

وهذا ـ كما قال الزمخشريّ ـ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جميلًا ما كان عندى، فزدنى علماً إلى علم. فإن لك فى كل شيء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شيء إلا فى العلم .

ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من اتّباعهم كل هدى يأتيهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان، العدوّ لهم ولأبيهم قبلهم. وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٥] (وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا)

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هـذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسِىَ » أى العهد « وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا » أى تصميما فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

[١١٧] (فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٦ـ١٩ ] .

إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ » أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ( إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ )

[١١٩] ( وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ )

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » أى لا تتصوّن من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجدّ فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها . والعدولُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم .من المآكل والمشارب، وتمتعاً بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها، ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها :ولو قرن كلًّا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندىّ الأول[١] :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ولم أَتبطَّنْ كاعِباً ذَاتَ خَلخَالِ

ولم أسبأ الزِّقَّ الروىّ ولم أَقُلْ لخيلىَ : كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله ( لخيلى كرى كرة ) وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدّد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .

على أن فى هذه الآية سرًّا لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل . ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لانتثر سلك رؤوس الآى . وأحسنْ به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذى سمّاه (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل الخفىّ . ومما قيل فى وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأوليْن ، أعنى الشبع والكسوة أصلان . وأن الأخيرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل ( إِنَّ لَكَ ) و ( أَنَّكَ ) وأيضاً روعى مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام لحما . وأما الظمأ والضحى فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن كل بما يشا كله ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ( فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ )

[١٢١] ( فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ )

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ » أى من أكل

(١) البيتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالِى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالِى؟

منها خلد ولم يمت « وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا » أى يلزقان « مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى فحصل لهما هذا الخزى ، بدل عزّ الملك المخلد. وهذه الأوراق الفانية، بدل نفائس الملابس الخالدة « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ » أى بارتكاب النهى ، وترك العزم فى حفظ العهد « فَغَوَىٰ » أى عن المأمور به . حيث اغترّ بقول العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ )

[١٢٣] ( قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ )

« ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى اصطفاه ووفّقه للإنابة « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ » أى بعد قبول توبته « اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أى انزلا من الجنة إلى الأرض « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى متعادين .

قال المهايمىّ : فالمرأة عدوّة الزوج ، فى إلجائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوّها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوىّ . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى » أى من كتاب ورسول . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أى لا فى الدنيا ولا الآخرة . قال أبوالسعود : ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله ( هُدَايَ ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ)

[١٢٥] (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا)

[١٢٦] (قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ)

[١٢٧] (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ)

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه فى معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، من شقائه فى الدنيا والآخرة. وهذا الشقاء بقسميه، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذى بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمرَ ربه . وفى الآية مسائل :

الأولى ـ قال الرازىّ فى قوله تعالى ( عَن ذِكْرِى ) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيّم فى ( مفتاح دار السعادة ) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . كـ (قيامى وقراءتى ) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء، لا إضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكراً. قال تعالى(١) ( وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ) وقال تعالى(٢) ( ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ) . وقال تعالى(٣) ( وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ) . وقال تعالى(٤) ( إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ) . وقال تعالى(٥) ( إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ) ، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل(٦) ( غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم. ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى(٧) ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ) الآية .

الثانية ـ قرئ ( ضَنكًا ) بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا ... فَالْتَزَمُوا الإفرادَ والتذكِيرَا

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضَنُكَ ككرم، ضنكا وضناكة وضنوكة ، ضاق . وقال السمين : ( ضنكا ) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور ( ضنكا ) بالتنوين وصلاً ، وإبداله ألفاً وقفاً ، كسائر المعربات . وقرأت فرقة ( ضنكى ) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : فإما أن تكون بدلاً من التنوين، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأنيث بني المصدر على ( فعلى ) نحو دعوى .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٠ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٥٨ ] .
(٣) [ ٦٨ / القلم / ٥٢ ] . (٤) [ ٤١ / فصلت / ٤١ ] .
(٥) [ ٣٦ / يس / ١١ ] . (٦) [ ٤٠ / غافر / ٣ ] . (٧) [ ٤٠ / غافر / ٢و٣ ] .

الثالثة ـ ذكروا فى هذه المعيشة الضنك التى للكافر أقوالا : إنها فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة أو فى الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروىّ . قال ابن كثير : أى ضنكاً فى الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره . بل صدره ضيّق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وحيرة وشك . فلا يزال فى ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء والذات والمآرب . فالضنك المعنىّ بها ، إذن هو الضنك الحيوىّ والقلق الدنيوىّ ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيّم الذى هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو فى ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب فى ذلك إلا من كابر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذى تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدى به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمى هدًى ونوراً وشفاءً ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى فى اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة فى المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود فى المأكل والمشرب . وحجر فى المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يَلمسون ولا يُلمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء فى التشريعات وتشعبها فى الأهواء إلى شعب تتباين فى العبادات .

وهذه النصرانية ، الذى أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضىّ عصر الحواريين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيدفى اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس مالا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال ( ما جئت لأهدم الناموس ـ التوراة ـ بل لأتممه ) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقادا وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدى الكهنة حلًّا وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحىّ ذاق جوهر الدين المسيحىّ حقًّا . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفى نقيض، فأنّى لا يضيق ذرعه ولاتضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصارى بالمسلمين فى الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ماقلد جيدهم مننا لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة فى حظرها على المعارف والفنون، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزابا . ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراهم فى عيشة ضنك يسعون لأرقى مماهم عليه ، علما بأن الدخائل والبدع فى دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقىّ إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أويشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين ، وهما تنتميان إلى كتابين منزلين .. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التى لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالًا وعرضاً . فأهلها فى شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء، الطائفة المسماة بالماديين . وهم الدهريون والطبيعيون. فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأى واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيّله له رغائبه وشهواته . قال بعضهم: هؤلاء الذين يحصرون دينهم فى أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيما فى أعماله، إذا سئلوا:

ما هو الدين الطبيعىّ الذى تعترفون به ؟ فيجيبون إنمـا هو الذى يرشد إليه العقل عريًّا عن الوحى . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ،ضعيف متغيّر قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه فى الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غدًا أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفرًا مما يضادّ أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيما فى أعماله ؟ وما هى القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكلٌّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصينىّ مثلا يرى نفسه مستقيما ولو باع أو قتل أولاده . والهندىّ يرى هذه الاستقامة فى نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثنىّ يرى نفسه مستقيما، ولو ارتـكب الفحشاء تـكرمة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا فى موادّ ما يشرعون . ولم يهتدوا لجادّة الاستقامة الحقة. فأنّى يمكن لعامة الناس أن يكون لـكل منهم دين طبيعىّ يقلبه كيف شاء ، ويجعله كشىء مرن ، يمده إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمى شريعة ثابتة عامة ، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجاراة ، أنه يوجد من كان ميّالا طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبًّا للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتـكاب المعاصى والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهى ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلـكية لهـا . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينـة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان ، ما يجده فى نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظريًّا . حتى لا يمكنه أن يجرّد نفسه . مثلا ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى فى الشر ، أن يجرّد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليـــه بأيّ نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا فى ألواح لحمية . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت فى بعض موادها . والحرية التى منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهى دمار لنظام العالم ، وجائحة للأدب ، وآفة لما غرس البارئ فى عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هـــذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنسانىّ ، والإجحاف بالشرائع الأدبيـــة . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، واطّرح العذار فى مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هـذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانىّ والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بعـد الله ذمة بين الملأ ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّ بالملوك ، ولاعدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضرورىّ بالذات لقيام الألفة البشريه ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظنن أحد أن العالم يدوم أويبقى فيه شىء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيّـدين بشريعة إلهية، تصدّ الفاجر عن الفجور . فـكما أن الهواء ضرورىّ للحياة الطبيعية ، فـكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فـكذا لا انتظام ولا هيئة فى العالم دون الشريعة . انتهى .

وقال إمام مدقق ، فى بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينـة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولـكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولايلتذون بملذة . كأن لهم فى لذة ألماً ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لاتزايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدى الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافى للناس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرىّ على أن النفس تائقة لأمر ما، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيدان ، ولا مغازلة الغيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . ماهو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شىء من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة، ليهتدى إلى وَضَحِ المحجة . فإن تبصر فى أمره، واكتنه حقيقة سره، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل فى النوع الإنسانىّ خصيصة من أجلّ خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائعه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . فيرى نواميس رقيّها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعتها . ويتبصر فى أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفى الآثار التى تركوها ، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والإحساسات ، وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضى والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويعثر بتعضيد العلم والبدائه ، على الديانة التى يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وباقية ببقاء النوع الإنسانىّ ، وهى شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة ـ رأيت للإمام ابن القيّم، رحمه الله ، كلاماً على هذه الآية فى كتابيه : (الجواب الكافى) و (مفتاح دار السعادة ) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال فى ( الجواب الكافى ) فى فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصى : ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره. فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأوصاف النعم . ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب، والأمانىّ الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى عسكر الأموات . فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى الدنيا وفى البرزخ ويوم المعاد. ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولاتطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين. ومن لم تقر عينه بالله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى[1] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح، الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين. ونظيرهذا قوله تعالى[2] (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ) ونظيرها قوله تعالى[3] (وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هوالنعيم على الحقيقة . ولا نسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٣٠ ] .
(٣) [ ١١ / هود / ٣ ] .

طيّب . وقال آخر : إن فى الدنيا جنة، هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد[١] أشار النبيّ ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : ( إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال[٢]: ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ) ولا تظن أن قوله تعالى[٣] ( إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة . وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال[٤] (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) وقال حاكياً عنه أنه قال[٥] ( يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تزاحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ وفى جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصريّ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٠ ـ كتاب الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٥ ـ باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازنىّ .

(٣) [ ٨٢ / الانفطار / ١٣و١٤ ] . (٤) [ ٣٧ / الصافات / ٨٣و٨٤ ] .

(٥) [ ٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩ ] .

وقال رحمه الله فى ( مفتاح دار السعادة ) : فسَّر غير واحد من السلف قوله تعالى ( فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ) أى تترك فى العذاب كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار. ونظيره قوله تعالى فى حق آل فرعون[1] ( ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ) فهذا فى البرزخ ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ) فهذا فى القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ) فقول الملائكة ( ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت. ونظيره قوله تعالى[3] ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ) فهذه الإذاقة فى البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله ( يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفى الصحيح[4] ، عن البراء بن عازب فى قوله[5] ( يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ) قال : نزلت فى عذاب القبر . والأحاديث فى عذاب

(١) [ ٤٠ / غافر / ٤٦ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٩٣ ] .

(٣) [ ٨ / الأنفال / ٥٠ ] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .

(٥) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٧ ] .

القبر تـكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكا، وتـكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال[١] تعالى (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه[٢] (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله. فـكان عقوبة هذا الإعراض، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه. وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال[٣] ( يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحى الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى[٤] ( وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) ؟ قيل : لا عذر لهـذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أتى من تفريطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

(١) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] .      (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٨ ] .      (٤) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٧ ] .

الحجة عليه كما قال تعالى[١] (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال تعالى[٢] (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) وقال تعالى فى أهل النار[٣] (وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ) وقال تعالى[٤] (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ) وهذا كثير فى القرآن .

الخامسة ـ قال ابن القيم : اختلف فى قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ) هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر ؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى[٥] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله[٦] (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) وقوله[٧] (يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ) وقوله[٨] (لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية فى الآخرة لقوله[٩] وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ) وقوله[١٠] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) وقوله[١١] (وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٥ ] .
(٢) [ ٤ / النساء / ١٦٥ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٧٦ ] .
(٤) [ ٣٩ / الزمر / ٥٦ـ٥٩ ] .
(٥) [ ١٩ / مريم / ٣٨ ] .
(٦) [ ٥٠ / ق / ٢٢ ] .
(٧) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٢ ] .
(٨) [ ١٠٢ / التكاثر / ٦و٧ ] .
(٩) [ ٤٢ / الشورى / ٤٥ ] .
(١٠) [ ٥٢ / الطور / ١٣ـ١٥ ] .
(١١) [ ١٨ / الكهف / ٥٣ ] .

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله ( قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ) وهو لم يكن بصيراً فى كفره قط ، بل قدتبين له حينئذ أنه كان فى الدنيا فى عمى عن الحق . فكيف يقول ( وقد كنت بصيراً ) وكيف يجاب بقوله ( كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ) ؟ بل هـذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذى بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه فى العذاب ، كما ترك الذكر فى الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره فى الآخرة. وعلى تركه ذكره، تركه فى العذاب. وقال تعالى[1] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ) وقد قيل فى هـذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وصم عن الهدى. كما قيل فى هذه الآية[2] قوله (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ) قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم ، المضادّ للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق .فهو عمى عن رؤية مايسرهم وسماعه. وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسرهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروىّ عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى[3] ( ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ) فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيُبْصَرُون بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧ ] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤] .(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهـذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لاحجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمْيٌ عنها، بل هم عُمْيٌ عن الهدى كما كانوا فى الدنيا. فإن العبد يموت على ماعاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهـذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد فى الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم[١] ( إنكم محشورون إلىّ حفاة عراة ) وكقوله تعالى[٢] ( وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ) وكقوله تعـالى[٣] ( وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنـة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا[٤] ( يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ) ثم قال تعالى[٥] ( ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ... ) الآية وهذا الحشر الثانى . وعلى هذا فهم مابين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثانى، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثانى يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً[٦] (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ) . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذالله إبراهيم خليلا ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس .

(٢) [ ٨١ / التكوير / ٥ ] .

(٣) [ ١٨ / الكهف / ٤٧ ] .

(٤) [ ٣٧ / الصافات / ٢٠و٢١ ] .

(٥) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ] .

(٦) [ ٤ / النساء / ٨٢ ] .

السادسة ـ قوله تعالى ( وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك[1] ( فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلًا فى هذا الوعيد الخاص. وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى. فإنه قد وردت السنة بالنهى الأكيد والوعيد الشديد فى ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال[2] ( مامن رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقى الله يوم يلقاه ، وهو أجذم ) ؟

السابعة ـ قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ...) الآية، أى وهكذا نجزى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضنك العيش فى الدنيا . لكونه دائما . ثم أشار تعالى إلى تقرير ماتقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ( أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ )

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسل « يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلّبون فى بلاد عاد وثمود ولوط ويعاينون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » أى العقول السليمة . كما قال تعالى[3] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥١ ] . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) . (٣) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] .

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] ( وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى )

« وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله ( أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . . ) الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشانىّ : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب فى الدنيا، لكون نبيّهم نبىّ الرحمة. وقوله سبحانه[1] (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ) .

وقال الزمخشرىّ : الكلمة السابقة هى العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة . و ( اللزام ) إما مصدر ( لازم ) كالخصام، وصف به مبالغة . أواسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب، واسمُ الآلة يوصف به مبالغة أيضاً، كقولهم : مِسْعَرُ حَرْبٍ، ولِزَازُ خَصْمٍ بمعنى مُلِحّ على خصمه . من ( لزّ ) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع ( لازم ) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى ( وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ) عطف على ( كلمة ) أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه، للإشعار باستقلال كل منهما، بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٣ ] .

وقد جوز عطفه على المستكن فى ( كان ) العائد إلى الأخذ العاجل، المفهوم من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] ( فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ )

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أى إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال ، فاصبر على مايقولون من كلمات الكفر . فالفاء سببية. والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة .

وفى التسبيح المأمور به وجهان :

الأول ـ أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة ( سبحان الله وبحمده ) . وعليه فسرُّ تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثانى ـ أنه الصلاة وهو الأقرب لآية(١) ( وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى: صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، قبل طلوع الشمس، يعنى صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعنى صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها ( وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ) أى من ساعاته ، يعنى المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بمزيد الفضل . وذلك

(١) [ ٢ / البقرة / ٤٥ ] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرِّجْلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى ( وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ، إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ ( ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار .

وقال الرازيّ : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت: وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى ( لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ) أى رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك ، ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى[1] ( عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ) وقوله تعالى[2] ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغى الرغبة فيه ، وإن ما أوتيه أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ )

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ » أى أصنافاً من الكفرة

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٧٩ ] . (٢) [ ٩٣ / الضحى / ٥ ] .

« زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من ( أَزْوَٰجًا ) أو بـ ( مَتَّعْنَا ) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فانٍ وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : ( لِنَفْتِنَهُمْ ) متعلق بـ ( مَتَّعْنَا ) جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا ، إثر إظهار بهجته حالًا . أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » أى ثوابه الأخروىّ خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى[1] ( ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تذبل وتفنى . وفى التعبير بـ ( الزهرة ) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية ماقاله الزمخشرىّ رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه ، وإعجابا به وتمنيا أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا[2] ( يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان[3] بـ ( وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ) .

وفيه : أن النظر غير الممدود معفوّ عنه . وذلك مثل نظر من بَادَهَ الشيء بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئا أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه ، قيل : ولا تمدنّ عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وعُدَد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٨٠ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٧٩ ] .

(٣) [ ٢٨ / القصص / ٨٠ ] .

فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ )

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ » يعنى ( بأهله ) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الآمر بها نفع مّا ، لتعاليه وتنزهه بقوله « لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ » أى لا نسألك مالاً . بل نكلفك عملا ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلا . ومعنى: نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه . قاله ابن جرير[١] .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى[٢] : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ) وقال بعض المفسرين: معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفىّ من عندنا، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به. وقد قال تعالى[٣] : فى وصف المتقين ( رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦و٥٧ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٣٧ ] .

تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ) إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . ( رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً )(١) .

وقوله تعالى « وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » أى والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] ( وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ، أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ )

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى(٢) ( وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . . ) الآية .

وقوله تعالى « أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكناهم لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير(٣) .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور . مع أن الآتى بها أمىّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف ففنّده .

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٠١ ] .     (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٩٠و٩١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وفيه إشعار بكفاية التنزيل فى الإعجاز والبرهان كما قال تعالى[١] فى سورة العنكبوت (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته إلى التصديق برسالة النبى ﷺ هو الخارق الذى تواتر خبره ولم ينقطع أثره . وهو الدليل وحده. وماعداه مما ورد فى الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد فى مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله ، وفضلٌ من التأكيد لمن سلمه من أهله . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين ، هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أمىّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوماً للمعوج كافلًا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا أشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على مالم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ، أن يعارضوه بشىء من مثله ، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف ، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به ، إلى أن ألجاؤهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى جوانبها . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم ، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لايصلح دليلًا على المدعى، فعليهم أن يأتوا به، قال تعالى[٢] (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ) وقال[٣]

(١) [ ٢٩/ العنكبوت/ ٥٠و٥١ ].(٢) [ ٢/ البقرة / ٢٣ ].(٣) [ ٤/ النساء/ ٨٢].

( أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّـهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم. فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها . ونشر ماانطوى فى أثنائها . وله منها حظه الذى لاينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها . ولـكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها . أمامعجزة موت حىّ بلاسبب معروف للموت، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنـده العقل ويجمد لديه الفهم . وإنمـا يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضئ عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات.

وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكوّن الأكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفـكر ، ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتى للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هـذا ، ولا ننـكر أنه قدمضى على النوع الإنسانىّ زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية . وكان يكفيه فى الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً مّا . وكان الله سبحانه وتعـالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن، حيث بلغ العقل أشده، والنوع الإنسانىّ رشده، فلا تجدى فيه معجزة ، ولا تنفع فيه غريبـة . لأن الشـكوك قد كثرت مع كثرة الموادّ العلمية. فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أوّلا ، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن طائفة الاسبيريت

الروحيين فى أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات، مع أن القوم لا يدّعون النبوة، ولا يزعمون الرسالة. نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها فى نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون فى قولهم إننا فى زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلىّ والدليل العلمىّ . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق، ببدائه العقل، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى منته فى إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

[١٣٥] (قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ)

« وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ » أى من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ» أى بالعذاب الدنيوىّ «وَنَخْزَىٰ» أى بالعذاب الأخروىّ. أى ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها.

فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء «قُلْ» أى لأولئك الكفرة المتمردين «كُلٌّ» أى منا ومنكم «مُّتَرَبِّصٌ» أى منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم «فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ» أى عن قرب «مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ» أى المستقيم «وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ» أى من الزيغ والضلالة . أى هل هو النبيّ وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقّق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد فى الأولى والآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢١ – سورة الأنبياء

سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهى مكية . واستثنى منها بعضهم آية[1] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) وهى مائة واثنتا عشرة آية . وروى البخارىّ عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى .

قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذى ولد عندك ، وهو نقيض الطارف .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ )

« ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخروىّ وهو عذابهم « وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذّبون به . وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى[١] ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ) وقال تعالى[٢] ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) ولا يخفى ما فى عموم ( الناس ) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فنى العنوان مارهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيوىّ والأخروىّ لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم، كما أشير إليه فى آية[٣] ( فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ) ووعد به النبيّ وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرويّ ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ )

---

(١) [ ٧٠ / المعارج / ٦و٧ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٧ ] .
(٣) [ ٥ / المائدة / ٥٢ ] .

« مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقريع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكمل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيه ، أن تخشع له القلوب وتستخذى له الأنفس .

قال الزمخشريّ : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون. فما يزيدهم استماع الآى والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التى هى أحق الحق وأجد الجد ، إلا لعبا وتلهيا واستسخاراً . و ( الذكر ) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثا لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً، أنه موجدلتلك الحروف والأصوات فى الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبىّ عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدالّ والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلّا للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية ، التى هى الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلّغوها إلى أممهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التى هى تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرٌ ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته في كتابه ( مطابقة المنقول للمعقول ) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم. والحدوث في لغة العرب العام ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً، وماتقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن. كقوله تعالى[1] ( كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ) وقوله تعالى[2] عن إخوة يوسف ( تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ) وقوله تعالى[3] (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ) وقوله تعالى عن إبراهيم[4] ( أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ) انتهى .

وقال العارف ابن عربيّ في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من ( فتوحاته ) في هذه الآية: المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثة تعلق السمع بها. فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات. فله الحدوث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذن الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسما ( إِنَّهُۥ ) يعني القرآن[5] : ( لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) فأضاف الكلام إلى الواسطة

---

(١) [ ٣٦ / يس / ٣٩ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٩٥ ] .
(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ١١ ] . (٤) [ ٢٦ / الشعراء / ٧٥و٧٦ ] .
(٥) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٠ ] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله(١) : ( فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السماعين بعد المشرقين . فإن الذى يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالمذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية فى ( منهاج السنة ) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعيّن قديماً .

وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذى دل عليه الشرع والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويجئ ـ فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى فى الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول(٢) ( فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ ) وقال(٣) (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال

ثم قال رحمه الله : قالوا ـ يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعىّ وأحمد وغيرهما ـ وبالجملة فكل مايحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما ردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [ ٩ / التوبة / ٦ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٨ ] . (٣) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . ولفظ ( الحوادث ) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزه عن ذلك . ولكن يقوم به ماشاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلما ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهي وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزليًّا لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلما . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلًّا للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم « أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ » أى تنقـادون له وتتبعونه . وقوله « وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » حال مؤكدة للإنـكار والاستبعاد . قال الزمخشرىّ رحمـه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملـكا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنـكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحـكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« قَالَ رَبِّي » حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم. وقرئ ( قُلْ ) على الأمر له صلوات الله عليه « يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ » أى لما أسروه « الْعَلِيمُ » أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم فى فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ماتقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ)

« بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ » أى أخلاط رآها فى النوم « بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ » أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاحقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج ، لايزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ » أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون. أى حتى نُؤْمِنَ له. ثم أشار تعالى إلى كذبهم فى دعوى الإيمان بمجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

« مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات. أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ماسألوا، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقىّ النوع البشرىّ فى العهد النبوىّ ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية. فتذكر

ثم أوضح جواب شبهتهم فى منافاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء «فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ» أى العلماء بالتوراة والإنجيل «إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفى الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجّ الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازىّ : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعامىّ أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر ـ فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بيّن تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ )

« وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى[1] ( وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ) وفى هذا التعريف الربانىّ عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيّدين به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم. فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشى بالأسواق، وهو المأذون فيه. ومن إجابة الدعوة، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها. ومحافظة على السمعة حموا جانبها.

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٠ ] .

فتباً لهم من قوم مبتدعين ، يعبــدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا لله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار !

وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى(١) (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل . تنزل عليهم الملائـكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنــه . وكونهم بشراً من تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ)

« ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم(٢) (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ) « فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه « وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن، محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحديثكم الذى تذكرون به فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى(٣) (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ) وقيل : معنى (ذِكْرُكُمْ) موعظتكم

(١) [٢١/ الأنبياء/٣٤] . (٢) [٥٨/ المجادلة/١٢] . (٣) [٤٣/ الزخرف/٤٤] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) إنكار توبيخيّ ، فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له، بقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ( وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ )

[١٢] ( فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ )

[١٣] ( لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ )

«وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ » أى عذابنا النازل بهم « إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ » أى يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءًا بلسان الحال أو المقال «لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» أى من التنعم والتلذذ و ( فى ) ظرفية أو سببية « وَمَسَٰكِنِكُمْ » أى التى كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ » أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ )

[١٥] ( فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ )

[١٦] ( وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ )

« قَالُواْ » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰـهُمْ » أى تلك الكلمة وهى ( يا ويلنا ) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق «حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا» أى كنبات محصود « خَـٰمِدِينَ » أى هالكين بإخماد نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشريّ عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للّهو واللّعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لاتعد والمرافق التى لا تحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة . وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم، ومتفرعاتها. عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه. وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم. أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع، خالية عن الحكم والمصالح. وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل ( لَـٰعِبِينَ ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه. ودليلًا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى(١) ( وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) وقوله تعالى (٢) ( وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) . وقوله تعالى :

(١) [ ١١ / هود / ٧ ] . (٢) [٥١/الذاريات/ ٥٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ )

« لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ » استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة. فيستحيل اتخاذنا له قطعاً. وقوله تعالى « إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إنّ ( إن ) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ )

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُۥ » أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل ( القذف ) الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولمحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسر الشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلا لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه ، برمى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز. لأن من رمى فدمغ تزهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى ( إذا ) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفى الآية إيماء إلى علوّ الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثانى فانٍ « وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تتنزه عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلًا ونهاراً ، وبراءتهم من البُنُوَّة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ )

«وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أى ملكاً وتدبيراً « وَمَنْ عِندَهُۥ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعْيون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ )

« يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة ـ فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ )

« أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟

قال الزمخشريّ رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث . ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم[2]؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم . فكيف يدّعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .

قلت: الأمر كما ذكرت. ولكنهم بادعائهم لها الإلٰهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار. لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنشار من جملة المقدورات . انتهى.

قال في ( الانتصاف ) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في الإنكار.

ثم قال الزمخشريّ : وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلٰهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . انتهى.

لطيفة:

سر قوله تعالى ( مِنَ ٱلْأَرْضِ ) هو التحقير ، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أي الآلهة التي من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضيّ مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٧٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ )

« لَوْ كَانَ فِيهِمَآ » أى يتصرف فى السموات والأرض « ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ » أى غيره « لَفَسَدَتَا » أى لبطلتا بما فيهما جميعاً ، واختل نظامهما المشاهد ، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون)(١) (وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قال أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة ؛ أن الإلٰهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجادا وإعداماً وإحياءً وإماتة . فبقاؤهما على ماهما عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقى بمعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تعدد الإله ، فإن توافق الكل فى المراد ، تطاردت عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى ( المقاصد ) أنه لو وجد إلٰهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أوْ لَا . وكلاهما محال . أما الأول فلأنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين . أَوْ لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلٰهين الموصوفين بكمال القدرة على ما هو المفروض ، ولاستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما ، كحركة جسم وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع . وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٩١ ] .

التكوّن ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخران فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العاديّ . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانيّ ، والمشار إليه فى الآية إقناعيّ . ولا يفيد العلم اليقينيّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب ،وممن فصل ذلك التفتازانيّ فى ( شرح العقائد النسفية ) قادحا لما أشار إليه نفسه فى (شرح المقاصد) من كون الآية برهاناً، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام،أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعددُ التمانعَ بالفعل بل بالإمكان.والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادهما . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلًا . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلٰهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالعادة القاضية التى لم يوجد أخرمها قط فى ملكين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلٌّ الانفرادَ بالملك والعلوّ على الآخر وقهره ، فكيف بالإلٰهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله ( وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ) ؟ وهذا إذا تؤمل لا تكاد النفس تخطر نقيضه بالبال، فضلا عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر.

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعى . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى. وقد شنع عليه فى مقالته المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرمانى فى الانتقاد .

قال العلامة المرجانى : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفى فى كتابه ( التبصرة ) وتابعه صاحب ( الكشف ) حيث شنع على أبى هاشم الجبائى تشنيعاً بليغاً . حتى نسبه إلى الكفر بقدحه فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لاتقف عند حد . ولاتزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولاتضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله ( التوحيد ) إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة فى الصفة،أى أنه لايساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بينّا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات مايساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلايساويه فيمايتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجودومايتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة،لأن الصفةإنماتتعين وتنال تحققها الخاص بها، بتعين مايثبت لهبالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتى ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كماسبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كلٍّ صادراً على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات . فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته. ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى. فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإراداتهم ، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات . لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فـ(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ) لكن الفساد ممتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لاشريك له فى وجوده ولا فى أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالىّ فى كتاب ( الاقتصاد فى الاعتقاد ) فى بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لاأبين منها فى برهان التوحيد، وأنه لامزيد على بيان القرآن. قال الكلنبوىّ: الفساد المذكور فى هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكونهما فى الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهى بعبارتها تنفى آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدلالتها تنفى تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما. والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لايقدر على شيء البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ )

« لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ » أى هو الحاكم الذى لامعقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْئَلُونَ » الضمير للعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله[1] ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .

قال الزمخشريّ : إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لايسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيبًا وإجلالا ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم، أولى بأن لايسئل عن أفعاله ، مع ماعلم واستقر فى العقول من أن مايفعله كله مفعول بحكمة، ولايجوز عليه خطأ، ثم قال (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون . فماأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ فى كل شيء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى[2] ( وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ) .

تنبيه

قال الإمام الغزالىّ فى ( المضنون به على غير أهله ) : وأما معنى قول الله تعالى ( لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ) وقوله تعالى[3] : ( لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلانًا وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار، كما يسأل التلميذ أستاذه. والله تعالى لايتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام. وهو المعنىّ بقوله (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) إذ لا يقال ( لِمَ ) قولَ إلزام . فأما أن لايستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله ( لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ )

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٨٨ ] .
(٣) [ ٢٠ / طه / ١٢٥ ] .

« أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » كرره استعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ » أى دليلكم على ماتفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى « هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلىّ ، ذكر أمتى أى عظتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجّة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبىّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ » وقرئ ( يُوحَىٰٓ ) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ » . كما قال[١] ( وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ) وقال[٢] ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٤٥ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٣٦ ] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتريه بعض المشركين من أن الملائكة بناته ، تعالى علوّاً كبيراً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ )

[٢٧] ( لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ )

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى مقربون « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين « وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ )

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علما[1] ( وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهايمى : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرون على أدنى وجوه معارضته . لأنهم لا يشفعون

(١) [ ٢ البقرة / ٢٥٥ ] .

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله[١] ( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ) كقوله[٢] ( مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ) وقوله[٣] ( وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ )

« وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ » الضمير فى ( منهم ) للملائكة . لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال[٤] ( وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ) قصد بذلك تفظيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله ( كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلٰهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] . (٢) [ ٢ / البقرة/ ٢٥٥ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ/ ٢٣ ].
(٤) [ ٦ / الأنعام / ٨٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ )

« أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع فى آياته الكونية ، الدالة على وحدته فى ألوهيته، التى عمى عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تمطر ولا تنبت ( فَفَتَقْنَاهُمَا ) أى بالمطر والنبات. فالفتق والرتق استعارة. ونظيره قوله تعالى[١] ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ) و ( الرجع ) لغة هو الماء و ( الصدع ) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشقها . وقوله تعالى[٢] ( فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ) أى كيف انفردنا فى إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته[٣] ( أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ) أى من المزن بعد أن لم يكن[٤] ( ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقًّا مرئيًّا مشهوداً ، كما تراه فى الأرض بعد الرىّ . أو شقًّا بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى[٥] ( فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وكقوله[٦] ( قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ ( الفتق ) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ ( الرتق ) .

قال الرازىّ : وتحقيقه أن العدم نفى محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة. بل

(١) [ ٨٦/ الطارق / ١١و١٢ ]. (٢) [ ٨٠ / عبس / ٢٤ ] .
(٣) [ ٨٠ / عبس / ٢٥ ] . (٤) [ ٨٠ / عبس / ٢٦ ] .
(٥) [ ٦ / الأنعام / ١٤ ] . (٦) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٦ ] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن. جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى ( كَانَتَا رَتْقًا ) أى شيئاً واحداً . ومعنى ( فَفَتَقْنَٰهُمَا ) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهى مثلها فى المادة و كيفية الخلق و كونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهى مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اهـ كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول فى تفسير الآية لقوله تعالى بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية فى قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ) بصرية . وعلى قول أبى مسلم وما بعده ، علمية . على حد قوله تعالى لنبيّه صلوات الله عليه[1] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى ( وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ) صيّرنا كل شىء حىّ بسبب من الماء ، لا يحيا دونه. فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنَّور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف فى آيات شتى . كقوله تعالى[2] ( وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ) وخص بعضهم الشىء بالحيوان ، لآية[3]

(١) [ ١٠٥ / الفيل / ١ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ١٩ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٤٥ ]

( وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة ، وأبلغ في الخطاب ، وألطف في المعنى .

وقوله تعالى ( أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور مايوجبه حتما من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )

« وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ » أي جبالا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِهِمْ » أي لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير في (فيها) للأرض. وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثاني اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى ( وَسُبُلًا ) بدل من ( فِجَاجًا ) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أي إلى مصالحهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٢] ( وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ )

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا » أي على الأرض كالقبة عليها «مَّحْفُوظًا» أي عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى[1] ( وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا ) « وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمروسائر النيرات، ومسارها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ماأودعها مما لايعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرئ ( عن آيتها ) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ )

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَٱلنَّهَارَ » ليتحركوا لمعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسابح فى الماء . و ( الفلك ) فى اللغة كل شيء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية[2] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اهـ . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٧٨ / النبأ / ١٢ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ١٥و١٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ )

«وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ» نزلت حين قالوا ( نتربص به ريب المنون ) فكانوا يقدّرون أنه سيموت، فيشمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد فى الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله[1] ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحىٍّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليًّا ، أو نبيًّا أو رسولًا . انتهى .

وتقدم بسط ذلك فى سورة الكهف فتذكر . وفى معنى الآية قول عروة الصحابىّ[2] رضى الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ ... كَلَاكِلَهُ أناخَ بآخرينَا
فقل للشَّامتينَ بنا : أفيقُوا ... سيلقى الشامِتُونَ كما لقِينَا

وقول الشافعىّ :

تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فقل للَّذِى يَبْغى خلافَ الَّذِى مضى : ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا ، وَكَأَنْ قَدِ

---

(١) [ ٢٥ / الحجر / ٩ ] . (٢) قال صاحب ( رغبة الآمل ، من كتاب الكامل ): قائلهما هو فَرْوَةُ بن مُسَيْك المُرَادِىّ انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ )

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ » أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، ومايجب فيه الشكر من النعم « فِتْنَةً » أى اختباراً. وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظه « وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » أى فنجازيكم على حسب مايوجد منكم من الصبر أوالشكر. قال الزمخشرىّ : وإنما سمى ذلك ابتلاء ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه فى صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفى الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريرا لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] ( وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ )

« وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ » عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبى جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيظ لسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى(١) (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وإضافة ذكر ( للرحمن ) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن. هم كافرون، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ )

« خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى[١] ( وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك ( خلق زيد من الكرم ) تنزيلًا لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ماطبع هو منه من الأركان ، إيذانًا بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعًا عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن ( عجلته ) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى » أى نقماتى فى الدنيا كوقعة بدر . وفى الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الموعود من العذاب الأخروىّ ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا لتعيين وقته « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشرىّ : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجلتهم لجهلهم بغبته ، بقوله تعالى :

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٠] (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

« لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ » أى لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » أى بدفع أحد عنهم . وجواب (لو) محذوف أى: لما استعجلوا . وقيل (لو) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيّرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردّها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤١] (وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ،على وضع السبب موضع المسبب، إيذاناً بكمال الملابسة بينهما، أو عين استهزائهم ،إن أريد بذلك العذاب الأخروىّ، بناءً على تجسم الأعمال.

فإن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز فى النشأة الأخرى بصور جوهرية، مناسبة لها فى الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ، بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ)

« قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم » أى يحفظكم « بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم ( الليل ) لما أن الدواهى فيه أكثر وقوعا وأشد وقعاً . وفى لفظ ( الرحمن ) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم . وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايمىّ : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومَن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يغترون فى ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعها عن ذلك « بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ » أى لا يخطرونه ببالهم، فضلا أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسْأَلوا عن الكالئ « أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجلى ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دُوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هى به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التى يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهى لا تستطيع نصر أنفسها ولا هى بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده

ابن جرير[١] . فـ ( فيصحبون ) بمعنى يجارون يقال ( صحبك الله ) أى أجارك وسلمك، كما فى ( الأساس ) . قال[٢] ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكيٌّ عنها ( أنا لك جار من فلان وصاحب ) بمعنى أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] ( بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ، أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ )

« بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ » إضراب عما توهموا، ببيان أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعّموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لا تأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ » أى ننقص أرض الكفر فنخربها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف. أفاده[٣] ابن جرير. وهذا كقوله تعالى[٤] ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ »

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٧ ] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقدرأوا قهرنا مَن أحللنا بساحته بأسَنا فى أطراف الأرض ؟

وفى التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ )

« قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ » أى تنزيل الله الذى يوحيه إلىّ من عنده وأخوفكم به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون، لأن ذلك ليس إلىّ، على مافيه من الحكمة فى هذهالبعثة التى بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم وعنادهم، بأنهذا الإنذار لايجديهم، بقولهتعالى «وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ» أى فهم لايصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر مافى وحىالله من المواعظ والذكرى، فيتذكرونها ويعتبرون فينزجرون إذا تلى عليهم، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه، فعل الأصم الذى لايسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله ( إِذَا مَا يُنذَرُونَ ) مع أنهم لايسمعون نذارة ولا بشارة، إما لأن المقام مقام إنذار، أو لأن من لايسمع إذا خوف، كيف يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ )

« وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى ولئن أصابهم أدنى شىء من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى التصامّ والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

فى صدر الآية مبالغات. ذكر المس. ومافى النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء . والبناء الدال على المرة . والتنكير . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ)

« وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أى نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوىّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة . كأنها فى نفسها قسط. أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (فى) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِن كَانَ » العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا »أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل . للوزن . وأنث لإضافته إلى الحبة «وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ» أى وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سيء ، منا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ )

[٤٩] ( ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ )

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع فى قصص الأنبياء ، تسلية له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى[1] ( وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ) إلى قوله ( ٱلْمُسْرِفِينَ ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم. وتصديره بالتوكيد القسمىّ لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه. والمراد بـ(الفرقان ) التوراة وكذا بـ(الضياء ) و(الذكر) . أى وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل. وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس . وتخصيص ( المتقين ) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . «ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم. وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون فى الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم، قد فرّطوا فى الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] ( وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ، أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ )

« وَهَـٰذَا » أى القرآنُ الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كايتاء

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٧ ـ ٩ ] .

التوراة . وفى الاستفهام الإنكاريّ توبيخ لهم بأنه لا ينبغى لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم ( لَهُ ) للفاصلة أو للحصر. لأنهم معترفون بغيره مما فى أيدى أهل الكتاب.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ )

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهّلناه لخلتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ )

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحقيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ )

[٥٤] ( قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

« قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوًى متّبَع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ ( فى ) الظرفية دلالة على تمكنهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من ( ضالين ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ)

« قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ » قال الزمخشرىّ رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتماثيل. وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلالته صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم[١] (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَّبُّكُمْ ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ) أى المبرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاطل منها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ)

« وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم » لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٧١ ] .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لاتتحلم إلى هذا الحدّ . فهو عجّزهم فى الدفع عن أنفسهم . فتوقعُ عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه فى ذلك . فضلاً عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ» أى لجرأته على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتعظيم . أو لإفراطه فى التجذيذ والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ)

[٦١] (قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضرا ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ)

«قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله «فَسْـَٔلُوهُمْ» أى يجيبوكم «إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ» أى والأظهر عجزهم الكلىّ المانع من القول بإلهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضىّ يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيتهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى[1] (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٤٩ ] .

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه، قصدا إلى تحقيق ذلك . وجلّي أن مراده عليه السلام ، على كلٍّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله ( فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام ( إن كانوا يسمعون أو يعقلون ) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأنّ عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ )

« فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكر والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لاينطق ولايضر ولا ينفع، لا مَن كسرها ، فَلِمَ تنسبوه إلى الظلم بقولكم ( إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ) ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ )

« ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياءً من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ » أى ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

[٦٧] (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى قبح صنيعكم فى عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر فى الكشاف فى قوله تعالى ( ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ) أربعة أوجه. وحاصلها كما فى العناية ـ أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة فى تظليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة فى تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها فى معرض الألوهية . فقوله ( لَقَدْ عَلِمْتَ ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله ( أَفَتَعْبُدُونَ ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق فى قولهم ( لَقَدْ عَلِمْتَ ) لأنه نفى لقدرتها واعتراف بأنها لاتصلح للألوهية، وسمى (نكسا) وإن كان حقًّا، لأنه ماأفادهم مع الإصرار. ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة فى إطراقهم خجلا وقولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ ) لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم. أو النكس مبالغة فى الحيرة وانقطاع الحجة . و (أف) صوت إذا صوت بهعلم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما فى كتب اللغة. قال الزمخشرىّ: أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم. ولما عجزوا عن المحاجّة أخذوا فى المضارّة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من المحقّ . ولم يبق له مفزع إلا مناصبته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)

« قَالُواْ حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به « وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة، فلا يليق به غيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ)

« قُلْنَا » أى تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به « يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ » أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه ، بل كونى غير ضارة . وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما فى قوله[١] (كُونُواْ قِرَدَةً) ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع ، وتخييلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم : المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً، كقوله[٢] (أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) أى فيكونه . فإن النار جماد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

**تنبيه :**

قال الرازىّ : لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها ـ أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحرّ والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شيء قدير.

وثانيها ـ أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه . كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار .

(١) [ ٢ / البقرة / ٦٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

وثالثها ـ أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه .

قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله ( يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا ) أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ )

[٧١] ( وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ )

« وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشرىّ : غالبوه بالجدال فغلّبه الله ولقنه بالمبكّت . وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقوّاه « وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنىّ والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم. ثم بين بركته تعالى على إبراهيم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ )

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ » أى بدعوته[1] (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) « وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » أى زيادة وفضلًا من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ )

« وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله(١) ( وَمِن ذُرِّيَّتِى ) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذننا . قال الزمخشرىّ : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدىّ أميل « وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ )

[٧٥] ( وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ، إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ )

« وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله « وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ » أى من عذابها « ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ »

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٤ ] .

يعنى اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطىّ منكساً من مكان عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ » أى فى أهلها « إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ )

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ » أى دعا ربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله[1] ( أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ) [2]( رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ) « فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ )

« وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتبعاً للانتصار والانتقام من قومه « ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيّهم .

(١) [ ٥٤ / القمر / ١٠ ] .     (٢) [ ٧١ / نوح / ٢٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ )

« وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلًا « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ )

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحكومة، المفهومين من السياق «سُلَيْمَانَ» أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لاقضاء أبيه. روى[١] عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرفوعاً. والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » أى وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلما كثيراً ، لالسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داوُد عليه السلام حكما شرعيًّا .

(١) انظر ابن كثير ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

## تنبيهات :

الأول ـ استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله فى هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بيّن فى الأصول. وردّ بأن مفهوم قوله ( فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام، يدل على أنه المصيب للحق عند الله. ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى. والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه، دل على أن كلا منهما مصيب. وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داوُد عليه السلام، لجواز كون كلٍّ مصيباً. ولكن هذا أرفق وذاك أوفق، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير. فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا فى ( العناية ) .

وجاء فى ( فتح البيان ) ما مثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبا فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين(١) وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبيّ ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين. وإلا لزم توقف حكمه عزوجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف فيها اجتهاد المجتهدين، بالحلّ والحرمة، حلالا وحراما فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد، له اجتهاد فى تلك

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ـ ٢١ ـ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ١٥ ( طبعتنا ) .

الحادثة، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين . واللازم باطل فالملزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق فى كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان، لما ظهر له أنه الصواب .

قال الحسن : لولا هذه الآية، لرأيت الحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثانى ـ دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان بوحى لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى[1] ( عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ )فعاتبه على ماوقع منه . ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . ومنه ماصح عنه صلوات الله عليه من قوله [2] ( لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدْى ) ومثل ذلك لايكون فيما عمله بالوحى، ونظائر ذلك كثيرة فى الكتاب والسنة . وأيضا، فالاستنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب .

قال الرازىّ : إذا غلب على ظن نبىٍّ أن الحكم فى الأصل معلل بمعنى، ثم علم أوظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الأصل . وعنده مقدمة يقينية، وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا، إما أن يقدم على الفعل والترك معا، وهو محال، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال، لاستحالة الخلوّ عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٤٣ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج، ٨١ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، حديث ٨٢٦، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج، حديث رقم ١٤١ ( طبعتنا ) .

باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس ـ وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس . وهى قائمة أيضا فى حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : استدل بها على جواز الاجتهاد فى الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثنى عليهما . وقد تقدم أولا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمين أرباب المواشى ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفش لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن شريح والزهرىّ وقتادة . ومن عمم الضمان فسره بالرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان فى هذه الواقعة . إذ لم يرد فى شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى[١] ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلا لى . فقال شريح : نهاراً أم ليلًا ؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلًا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه[٢] الإمام أحمد وأبو داود[٣] وابن ماجة[٤] من حديث الليث بن سعد عن الزهرىّ عن حرام بن محيّصة ، أن ناقة البراء بن عازب

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٩٠ ـ باب المواشى تفسد زرع قوم ، حديث رقم ٣٥٧٠ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٣ ـ باب الحكم فيما أفسدت المواشى ، حديث رقم ٢٣٣٢ ( طبعتنا ) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاه الحسن ، فبكى . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار . ورجل مال به الهوى فهو فى النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة . فقال الحسن البصريّ : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى ( وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . . ) الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذمّ داود .

ثم قال ( يعني الحسن ) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثا : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا[1] ( يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ )وقال[2] ( فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ) وقال[3] ( وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ) .

ثم قال ابن كثير : وقد ثبت فى صحيح[4] البخاريّ عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ ( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ) فهذا الحديث يردّ نصًّا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار .

وفى السنن[5] : ( القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . رجل علم الحق

(١) [ ٣٨ / ص / ٢٦ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٤٤ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ٤١ ] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ٢ ـ باب فى القاضي يخطئ ، حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدة .

وأخرجه ابن ماجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ، حديث رقم ٢٣١٥ ( طبعتنا ) .

وقضى به فهو فى الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار ) .

ثم بيّن سبحانه ماخص كلًّا من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ » أى سخرنا الجبال والطير يقدسن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخْلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه ( الزبور ) وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مرّ[1] النبىّ ﷺ على أبى موسى الأشعرىّ وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيّب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا .

وقال أبو عثمان الهندىّ : ماسمعت صوت صنج ولا بربط ولامزمار مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل فى الإعجاز . لأنها جماد . والتذييل بقوله ( وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ) إشارة إلى أنه ليس ببدع فى جانب القدرة الإلٰهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيباً . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة (ص)[2] ( وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣١ ـ باب حسن الصوت بالقراءة ، حديث رقم ٢٠٩٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا )

(٢) [ ٣٨ / ص / ١٧ ـ ١٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ )

« وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع الملبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفائح ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى(١) ( وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ) أى لا توسع الحلقة فتقلق المسمار . ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة . ولهـذا قال « لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى المعامع حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيماء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ )

« وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا »،وهى بيت المقدس «وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ» أى ماتقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى(٢) ( فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ) .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال(٣) ( غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [ ٣٤ / سبأ / ١٠و١١ ] . (٢) [ ٣٨ / ص / ٣٦ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ / ١٢ ] .

أن تكون رخاء فى نفسها ، وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال فى ( الانتصاف ) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافى منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت فى خفتها وفى سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت فى عظم خلقها كالثعبان ، ففى كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ )

« وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ » أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى(١) ( يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ ) « وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ » أى مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

الشياطين المذكورون ، إما مردة الإنس وأشداؤهم ، وإما مردة الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائىّ : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لايقدرون على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد فى عظمهم، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [ ٣٤ / سبأ / ١٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ )

[٨٤] ( فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ )

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ » .

أى اذكر أيوب وماأصابه من البلاء ودعاءه ربه فى كشف مانزل به، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه فى رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر، وأن عاقبة العسر اليسر. وأن لك الأسوة بمثل هذا النبيّ الصبور، فيما ينزل أحياناً بك من ضرّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاءً . كما فى الحديث[1] ( أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ) .

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لايدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء فى هذا العالم لايترتبان على صالح الأعمال وسيئها. لأن الدنيا ليست دار جزاء. وإن عاقبة الصدق فى الصبر، هى توفية الأجر ومضاعفة البر. وقدروى أن أيوب عليه السلام، لما امتحن بما فقدمعه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعانى من قروح جسده آلاما، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف مافقده . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلًا أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى ( وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٤ ـ كتاب الزهد، ٥٧ ـ باب ماجاء فى الصبر على البلاء، عن سعد.

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تمار من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته ، وبنزول مرض شديد به ، عدم معه الراحة ولذة الحياة ، غرائب . إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها . لما داخلها من المزيج ، وتوسع بها في الدخيل ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش . ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم ، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصّل .

تنبيه .

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنيًّا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت. ومن جبل سعير بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾

[٨٦] ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » أي على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب ، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى ، ففيهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا » أي في النبوة أو في نعمة الآخرة «إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ » أي الكاملين في الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره فى سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبىّ .

وقال آخرون : إنما كان رجلا صالحاً ، وكان ملكاً عادلا وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[٨٨] ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

« وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ » أى اذكر ذا النون يعنى صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت فى نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على مايقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة هٰهنا وفى سورة ( الصافات ) وفى سورة ( ن ) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى ـ من أرض الموصل ، كرسىّ سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . نخشى أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل فى سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر ، أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يفد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقذفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهيأ الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى[1] ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ )

## تنبيهات :

الأول ـ يونس عليه السلام يسمى في التوراة ( يونان ) وهو عبراني . ويقال إنه من جت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نُبِّئَ قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني ـ أكثر المفسرين ( كما حكاه الرازي ) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإباقه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولا ، أن يترك ولا يقاص . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولًا الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبي كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في ( مغاضباً ) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضي بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد ( مفاعلة ) وقد استدل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول الكرامية في المرجئة ( كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد )

(١) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] .

وقول الباقلانيّ من الأشعرية: ( على ماحكاه ابن حزم فى الملل ) . وأما الجمهور المانعون من ذلك، فلهم فى هذه الآية وأشباهها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم فى هـذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله ( بعد أن حكى مذهب الـكرامية المذكور ) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجاريّة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبيّ معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذى ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول: إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لايقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلا ، بل ينبههم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا فى هـذا . فإننا غـير مؤاخذين بما سهونا فيه ، ولا بماقصدنا به وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال ( فى الـكلام على يونس عليه السلام ) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم يغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلا على الله الـكذب ، وزائداً فى القرآن ماليس فيـه . هذا لا يحـل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فـكيف أن يفعل ذلك نبيٌّ من الأنبياء ؟ فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عز وجل . وأما قوله تعالى ( فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذى لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فـكيف بنبيّ مفضل على الناس فى العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبيّ يظن أن الله تعالى الذى أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك فى أن من نسب هذا للنبيّ ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فـكيف إلى يونس بن متى الذى يقول فيه

رسول الله ﷺ[١] ( لاتفضلونى على يونس بن متى ) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وصح أن معنى قوله ( فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى[٢] ( وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لايضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عزوجل ، محمدا ﷺ عن أن يكون كصاحب[٣] الحوت، فنعم، نهاه الله عزوجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها، للبث معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشىء فى غير موضعه . فلما وضع النبىّ صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدرى أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوهها توسعاً يميت رونق التركيب ونصاعة بلاغته. ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آيه تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاما . وبلاغة وانتظاما . فلا ترى فى كلمه إلا المختارات لطفا ، ولا فى جمله إلا الفخميات تركيبا ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كناياته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب، وقوة العتب وذلك لعزة الجناب الإلٰهىّ والمقام الربانىّ . فالعربىّ البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠، عن ابن عباس، ونصه : ماينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس بن متى . (٢) [ ٨٩ / الفجر / ١٦ ] . (٣) [ ٦٨ / القلم / ٤٨ ] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه بإباقه غاضب مولاه ، غضباً لايماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . ويفلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع فى شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدَّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحَالًا . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذى له فى خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم ( بالزفا ) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى فى الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت ، ولبث مالكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع فى قوله ( فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ) إما على حقيقته ، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو هو مجاز ، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزمخشريّ ونظره بآية(١) ( ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ ) .

الخامس : قوله تعالى ( فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ) أى دعاؤه ( وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل ( فنجيناه ) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام(٢) ( فَكَشَفْنَا ) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [ ٢ / البقرة / ١٧ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٨٤ ] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب فى استجابته . وردّ بأن ( الفاء ) فى قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيريّ . والتفنن طريقة مسلوكة فى علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب فى سر الإتيان بالفاء ثمة، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف فى السؤال . فلما أجمل فى الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنبا . كما أشار إليه بقوله ( مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ) فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعده تفسيرا له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله ( وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ) أى إذا كانوا فى غموم ، وأخلصوا فى أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى فى الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذيّ ( دعوة[1] ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط ، إلا استجاب له ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ )

« وَزَكَرِيَّآ » أى واذكر خبره « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبيّا ، ولا يتركه فرداً وحيدا بلا وارث، وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم وفى سورة آل عمران أيضا. وقوله «وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ»

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ ) والحديث رقم ١٤٦٢ ( طبعة المعارف ) .

وأخرجه الترمذيّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨١ ـ باب حدثنا محمد بن يحيي .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزاليّ فى ( شرح الأسماء الحسنى ) : الوارث هو الذى ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقى بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ)

« فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ » أى دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ » أى أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له. وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ » تعليل لما فصّل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أى كانوا يبادرون فى كل باب من الخير . وإيثارُ ( فى ) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير . لأن ( إلى ) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أى ذوى رغب ورهب ، أو راغبين فى الثواب راجين للإجابة « وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ » أى مخبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)

« وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى اذكر نبأ التى أحصنته إحصاناً كليـا ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت[١] (وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ) والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها، وتنزيهها عمـا زعموه فى حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا » أى نفخنا

(١) [ ٣ / آل عمران / ٤٧ ] و [ ١٩ / مريم / ٢٠ ] .

الروح في عيسى فيها . أي أحييناه في جوفها . فنزّل نفخ الروح في عيسى، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أي أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أي بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذي نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ » أي نبأها « ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ » أي في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه . وتثمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هلا قيل ( ءَايَتَيْنِ ) كما قال[1] ( وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ) ؟ قلت : لأن حالها بمجموعهما آية واحدة. وهي ولادتها إياه من غير فحل. انتهى. وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ )

« إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ » أي ملة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لاشريك له «أُمَّتُكُمْ» أي ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَٰحِدَةً » أي غير مختلفة . بل هي ملة واحدة . أي أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد. كما قال تعالى[2] ( إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ) «وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ» أي لا إله لكم غيري « فَٱعْبُدُونِ » أي ولا تشركوا بي شيئاً .

---

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٢ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما فى قوله(١) ( إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ » أى على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين فى هذه الآية ، وفى آية(٢) ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ) وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هى فى قوله تعالى(٣) ( وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ) أى جماعة . وكما فى قوله(٤) ( وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هى بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السنين كما فى قوله تعالى(٥) (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ) وفى قوله ( وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به، كما فى قوله(٧) (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله(٨) ( كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) وهذا المعنى الأخير لايخرج عن معنى الجماعة ، على ماذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله فى تفسير آية(٩) ( كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ) .

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] .
(٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥١و٥٢ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨١ ] .
(٤) [ ٣ / آل عمران / ١٠٤ ] .
(٥) [ ١١ / هود / ٨ ] .
(٦) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] .
(٧) [ ١٦ / النحل / ١٢٠ ] .
(٨) [ ٣ / آل عمران / ١١٠ ] .
(٩) [ ٢ / البقرة / ٢١٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ )

« وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ » أى تفرق النـاس فى دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : والأصل ( وتقطعتم ) إلا أن الـكلام صرف إلى الغيبـة على طريقة الالتفات . كأنه ينعى عليهم ماأفسدوه، إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتـكب هؤلاء فى دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقتسمونه. فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلًا لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزابا شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ )

« فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا فى دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه فى أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله ، مصدق وعده ووعيده، متبرئ من الأندادوالآلهة، فلا كفران لسعيه، بل يشكر الله عمله هذا، ويثيبه ثواب أهل طاعته. وقوله تعالى(وَإِنَّا لَهُۥ) أى لسعيه المشكور ( كَٰتِبُونَ ) أى مثبتوه فى صحيفة أعماله، ولا نضيعه .

تنبيه :

الـكفران مصدر من ( كفر فلان النعمة كُفرا وكفراناً ) وأوثر ( لا كفران ) على ( لا نـكفر ) للمبالغة . لأن نفى الجنس مستلزم له وأبلغ فى التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعي لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى[١] ( وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحوق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ )

« وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أي وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله[٢] تعالى ( أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ) وقوله[٣] ( فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ) وزيادة ( لا ) هنا لتأكيد معنى النفي من ( حرام ) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهي حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها ، و ( لا ) فيها على بابها . وهي مع ( حرام ) من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القريه المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ماتقدم أنه لا كفران لسعي أحدٍ . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآي أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا النظير . وفيه مايخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٧/ الإسراء/ ١٩ ] . (٢) [ ٣٦/ يس/ ٣١ ] . (٣) [ ٣٦/ يس/ ٥٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ )

« حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة مِنْ أَجْنَاسٍ شتى « وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ، متجندين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ )

« وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر « فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ، قائلين « يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ » أى لأنفسنا، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ )

[٩٩] ( لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ )

[١٠٠] ( لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ )

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى ما يرمى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : لِمَ قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب. ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أي ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أي من الهول وشدة العذاب . ثم بيّن تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ )

[١٠٢] ( لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ )

[١٠٣] ( لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ )

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ » أي الخصلة الحسنى، وهي السعادة أو التوفيق « أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم في غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أي صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم « وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أي للحشر كما قال تعالى ( وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ) « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أي تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أي في الدنيا ، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٧ / النمل / ٨٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ، وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ )

[١٠٥] ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ )

[١٠٦] ( إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ )

[١٠٧] ( وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ )

« يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ » أى اذكره . أو ظرف لـ ( لا يحزنهم ) أو لـ ( تتلقاهم ) . والطىّ ضد النشر. وقوله « كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب. واللام فى ( للكتب ) لام التبيين . ولذلك قرئ ( الكتاب ) بالإفراد . أو بمعنى ( من ) وفيه قرب من الأول ، أو ( الكتب ) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها . فاللام بمعنى ( على ) وهو ما اختاره ابن جرير[١] .

تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبيّ صلوات الله عليه ، كما رواه أبو داود والنسائىّ وغيرهما ، فأثر منكر لا يصح .

قال ابن كثير[٢] : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبى داود . منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزىّ .

وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير[٣] وقال : لا يعرف فى الصحابة أحد اسمه السجل .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وكُتّابُ النبيّ صلوات الله عليه ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

وأما من ذكره في أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية(١) (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطي السماء كناية عن انكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أي منجزين إياه. ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز النبي عنه ، وإيراثه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أي العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و(الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد به كل كتاب منزل . والذكر ـ قالوا ـ التوراة أو أم الكتاب. يعني اللوح الذي كتب فيه كل شيء قبل الخلق، والله أعلم. وقوله تعالى « إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. أو إلى العبرة في إيراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) أي يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » أي وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطريّ ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية . وجوز كون ( رحمة ) مفعولاً له . أي للرحمة، فهو نبيّ الرحمة.

---

(٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٧ ] .

تنبيه :

قال الرازيّ : إنه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا . أما فى الدين فلأنه بعث والناس فى جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب. فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريناً له. قال الله تعالى(١) ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ) إلى قوله تعالى ( وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ) وأما فى الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة فى بعثته صلوات الله عليه ، فى ( الشذرة ) التى جمعتها فى سيرته الزكية ، فى بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبر منة الله به على العالمين، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل، وإخافة للسبل ،وانتشار من الأهواء، وتفرق من الملل، مابين مشبه لله بخلقه، وملحد فى اسمه، ومشير إلى غيره، كفر بواح،وشرك صراح،وفساد عام، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق،وشن للغارات،ووأد للبنات وأكل للدماء والميتات، وقطع للأرحام،وإعلان بالسفاح، وتحريف للكتب المنزلة،واعتقاد لأضاليل المتكهنة ، وتأليه للأحبار والرهبان، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور، ظلمات بعضها فوق بعض، وطامات طبقت أكناف الأرض،استمرت الأمم على هذه الحال، الأجيال الطوال، حتى دعا داعى الفلاح، وأذن الله تعالى بالإصلاح. فأحدث بعد ذلك أمراً، وجعل بعد عسر يسراً . فإن النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالت تولّت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولًا ليعتقهم من أسر الأوثان ،

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] .

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق .
قال تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى[1] ( لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ )

[١٠٩] (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ، وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ )

[١١٠] (إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ )

[١١١] (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ )

[١١٢] ( قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ )

« قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ » أى ما يوحى إلىّ ، إلّا استئثاره تعالى بالوحدانية فى الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه فى جنبه. فهو قصر دعائىّ « فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ » أى منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِن تَوَلَّوْاْ » أى عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » أى أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجنى ثمرات سعادتها فى الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه كما قال « وَإِنْ أَدْرِىٓ » أى وما أدرى « أَقَرِيبٌ

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٤ ] .

أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ » أى من الفتح عليكم ، وإيراث أرضكم غيركم ، ولحوق الذل والصغار بعصيانكم « إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ » أى فسيجزيكم على ذلك « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ » أى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة فى افتتانكم . أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . و(الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب ، أو هو بمعناه الأصلىّ . فهو استعارة مصرحة . وقوله تعالى « وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ » أى تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير « قَٰلَ »وقرئ ( قُل ) « رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ » أى افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى[1] ( رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ) « وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد فى الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

قال الرازىّ : قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله (قل رب احكم بالحق) لأنه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان لهم الغاية . وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه . فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم. فإذا أبوا إلا التمادى فى كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره. وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب. وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق .

---

تم الجزء الحادى عشر ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر، وفيه تفسير سور: ٢٢ـ سورة الحج ، و ٢٣ ـ سورة المؤمنون و ٢٤ ـ سورة النور و ٢٥ ـ سورة الفرقان

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٨٩ ] .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٧/ ١٩٧٠

كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

## الجزء الثاني عشر

وفيه تفسير :
٢٢ ـ سورة الحج ، ٢٣ ـ سورة المؤمنون ، و٢٤ ـ سورة النور و٢٥ ـ سورة الفرقان

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
( خادم الكتاب والسنة )
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

### الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب «قواعد التحديث» المؤلف، رضي الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية، التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسميّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

## كلمة

مصلح العصر الإمام

### السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْي السلف، والارتقاء المدنيّ الذي يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

### الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث » للمؤلف رضي الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً، في خزانته الواسعة، مخطوطاً كان أو مطبوعاً، خالياً من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان، رحمه الله آية في المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٢ - سورة الحج

سميت به لاشتمالها على أصل وجوبه والمقصود من أركانه ، وهو الطواف ، إذ الإحرام نية ، والوقوف بعرفات من استعداده ، والسعي من تتمته ، والحلق خروج عنه . وذكر فيها منافعه وتعظيم شعائره وغير ذلك ، مما يشير إلى فوائده وأسراره . أفاده المهايمي .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس : أنها مكية سوى ثلاث آيات[1] (هَـٰذَانِ خَصْمَانِ) إلى تمام الآيات الثلاث ، فإنهن نزلن بالمدينة . وفي آثار أخرى أنها كلها مدنية ، كما في الإتقان . وآياتها ثمان وسبعون آية .

(١) [ ٢٢ / الحج / ١٩ ـ ٢٢ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّـكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ )

« يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّـكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ » يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاهُ التى هى من جوامع الـكلم ، فى فعل المأمورات واجتناب المنهيات .

قال المهايمىّ : أى احفظوا تربيته عليكم ، بصرف نعمه إلى ما خلقها لأجله ، لئلا تقعوا فى الـكفران الموجب لانقلاب التربية عليكم ، بالانتقام منكم . انتهى .

أى فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المـالـكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمـير المخاطبين ، لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً . أى احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم ، وقوله تعالى ( إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ) تعليل لموجب الأمر ، بذكر بعض عقوباته الهائلة . فإن ملاحظة عظمها وهولها ، وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، من الأحوال والأهوال ، التى لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى ، مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمتـه لا محـالة . و ( الزلزلة ) التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التـكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارّها ويخرجها عن مراكزها . وإضافتُها للساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً ، كأنها هى التى تزلزل . أو إلى ظرفه . وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى [١] ( إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ) وفى التعبير عنهـا بـ(الشىء ) ، إيذان بأن العقـول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبـارة لا تحيط بها إلا عـلى وجه الإبهـام . أفاده أبو السعود .

وقد وصف عظمها فى كثير من السور والآيات . كسورة التـكوير وسورة الانفطـار

(١) [ ٩٩ / الزلزلة / ١ ] .

وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها . وقد أشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] ( يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ )

« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » أي عن إرضاعها . أو عن الذي أرضعته وهو الطفل « وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » أي ما في بطنها لغير تمام « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ » أي كأنهم سكارى « وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ » أي على التحقيق « وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » أي ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذي أذهب عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . قاله الزمخشريّ .

لطيفة :

قال الناصر في ( الانتصاف ) : العلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك ( زيد حمار ) إذا وصفته بالبلادة . ثم يصدق أن تقول ( وما هو بحمار ) فتنفى عنه الحقيقة . فكذلك الآية . بعد أن أثبت السكر المجازيّ نفى الحقيقيّ أبلغ نفى مؤكّد بالباء . والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ، ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله ( وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ) راجع إلى قوله ( وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ) وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازيّ . كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر ، وهو السكر المعهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى . انتهى .

ثم أشير لحال المنكرين للساعة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ )

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يخاصم فى شأنه تعالى بغير علم . فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار ترابا ، ونحو ذلك من الأباطيل « وَيَتَّبِعُ » أى فى جداله « كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » أى عات متمرد . كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق . ثم أشار لوصف آخر لهذا الشيطان المتبع ، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ )

« كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى قضى على الشيطان أنه يضل من تولاه بأن اتخذه وليا ، وتبعه ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة . وسوقُه إياه إليه ، بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن .

تنبيه :

قيل : نزلت الآية فى النضر بن الحارث ، وكان جدِلاً .

قال الزمخشرىّ : وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم ، ولا يعض فيه بضرس قاطع . وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل . انتهى .

ثم بين تعالى الحجة القاطعة لما يجادلون فيه ، بقوله :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ » أي من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى . أو من وقوعه « فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أي خلقنا أول آبائكم ، أو أول موادّكم ، وهو المنيّ ، من تراب . إذ خلق من أغذية متولدة منه . وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب « ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » أي تولدت من الأغذية الترابية « ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ » أي قطعة من الدم جامدة « ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ » أي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ « مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » أي مصورة وغير مصورة . والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء . ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً « لِنُبَيِّنَ لَكُمْ » أي بهذا التدريج ، قدرتنا وحكمتنا ، وأن ما قبل التغير والفساد والتكوّن مرة ، قبلها أخرى . وأن من قدر على تغييره وتصويره أولا ، قدر على ذلك ثانياً . « وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى » وهو وقت الوضع .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان حالهم ، بعد تمام خلقهم . وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المعلل بالتبيين ، مع كونهما من متماته ، ومن مبادئ التبيين أيضاً . لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات ، التي من جملتها البعث

المبحوث عنه ، أجلى وأظهر . أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى .

« ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ » أى كمال قوتكم وعقلكم . قال أبو السعود علة لـ( نُخْرِجُكُمْ ) معطوفة على علة أخرى مناسبة لها . كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً . ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والتمييز «وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ» أى بعد بلوغ الأشد أو قبله « وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ » وهو الهرم والخرف . والأرذل الأردأ « لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا» أى من بعد علم كثير ، شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله . واللام لام العاقبة .

قال البيضاوىّ : والآية - يعنى ثم نخرجكم الخ - استدلال ثان على إمكان البعث ، بما يعترى الإنسان فى أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة . فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره .

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث ، بقوله «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» أى ميتة يابسة « فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ »أى المطر «اهْتَزَّتْ» أى تحركت بالنبات «وَرَبَتْ» أى انتفخت وعلت ، لما يتداخلها من الماء ويعلو من نباتها « وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف « بَهِيجٍ » أى حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة ، لظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، يكررها الله تعالى فى كتابه الكريم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )

[٧] ( وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ )

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى ذلك الذى ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه فى أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق

وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء . فهى من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يعبد باطل ، لايقدر على شئ من ذلك «وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ» أى يقدر على إحيائها ، إذ أحيى النطفة والأرض الميتة « وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فإن القدرة التى جعل بها هـذه الأشياء العجيبة ، لا يمتنع عليها شئ « وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » أىْ لاقتضاء الحـكمة إياها . فهى فى وضوح دلائلها التـكوينية ، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى إتيانها « وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » أى من الأموات، أحياء إلى موقف الحساب .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٨ ] ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ، بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ )

[ ٩ ] ( ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ )

[١٠] ( ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ )

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ » أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضرورىّ ، ولا باستدلال ونظر صحيح ، يهدى إلى المعرفة . ولا بوحى مظهر للحق . أى بل بمجرد الرأى والهوى . وهذه الآية فى حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الـكفر المقلدين ـ بفتح اللام ـ كما أن ما قبلها فى حال الضُّلّال الجهال المقلدين ـ بكسر اللام ـ فلا تـكرار. أو أنهما فى الدعاة المضلين. واعتبر تغاير أوصافهم فيها ، فلا تـكرار أيضا .

قال فى ( الـكشف ) : والأول أظهر وأوفق بالمقام . وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه الرازىّ ، ثم قال : فإن قيل كيف يصح ما قلتم ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل تصويبا لتقليده . وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمـكن منها . وإن كان معتمده الأصلىّ هو التقليد .

وقوله « ثَانِيَ عِطْفِهِ » حال من فاعل ( يجادل ) أى عاطفا لجانبه إعراضاً واستكباراً عن الحق، إذا دعى إليه .

قال الزمخشرى : ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء . كتصعير الخد ولى الجيد .

وقوله « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى ليصد عن دينه وشرعه، متعلق بـ( يجادل) علة له « لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى إهانة ومذلة ، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل « وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ » أى النار المحرقة « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » على الالتفات ، أو إرادة القول . أى : يقال له يوم القيامة : ذلك الخزى والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال والإضلال . وإسناده إلى (يديه) ، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدى. « وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى بل هو العدل فى معاقبة الفجار ، وإثابة الصالحين .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ )

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ » شروع فى حال المذبذبين ، إثر بيان حال المجاهرين . أى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين ، لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم ، لا على سكون وطمأنينة . كالذى ينحرف إلى طرف الجيش . فإن أحس بظفر وغنيمة قر وإلا فر « فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ »أى دنيوى من صحة وسعة « اطْمَأَنَّ بِهِ » أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً « وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ » أى ما يفتتن به من مكروه ينزل به « انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى رجع إلى ما كان عليه من الكفر « خَسِرَ » أى بهذا الانقلاب «الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» أى ضيعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله، بالارتداد «ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » أى الواضح الذى لا يخفى على ذى بصيرة .

تنبيه :

قال ابن جرير (١) : يعنى جل ذكره بقوله ( وَمِنَ النَّاسِ ) الخ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم. فإن نالوا رخاء ، من عيش بعد الهجرة ، والدخول فى الإسلام ، أقاموا على الإسلام . وإلا ارتدوا على أعقابهم . وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل . ثم أسنده من طرق .

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع . وتقدم ذلك .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ )

« يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ » أى حال ثابتة من فاعل (انقلب) والأولى ( خسر ) ولذلك قرئ ( خاسر ) أى ارتد عن دين الله يدعو من دونه آلهة لا تضره ، إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا تنفعه فى الآخرة إن عبدها . وقال أبو السعود ( يدعو ) استئناف مبين لعظيم الخسران « ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » أى عن الحق والهدى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ )

« يَدْعُو » أى هذا المنقلب على وجهه ، إذا أصابته فتنة «لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» أى وثنا أو صنما ، ضره فى الدنيا بالذل والخزى وفى الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذى يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . فاللام زائدة فى المفعول به ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

وهو ( مَنْ ) كما زيدت فى قوله تعالى[1] ( رَدِفَ لَكُمْ ) فى وجه . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه ( يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ ) بغير لام . وهى مؤيدة للزيادة . و ( ضره ) مبتدأ ، و ( أقرب ) خبر . وفى الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها . وإثبات الضرر له هنا ، باعتبار معبوديته . ونفيُه قبلُ ، باعتبار نفسه . والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها ، بإثبات ضر محقق لاحق لعابده ، تسفيها وتجهيلا لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به. وإيراد صيغة التفضيل ، مع خلوه عن النفع بالمرة ، للمبالغة فى تقبيح حاله ، والإمعان فى ذمه « لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ » أى الناصر له « وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ » أى المصاحب له .

ولما بين سوء حال الكفرة من المجاهرين والمذبذبين ، أعقبه بكمال حسن حال المؤمنين ، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ )

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » أى من الأفعال المبنية على الحكمة ، التى من جملتها إثابة من أطاعه وتعذيب من عصاه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ )

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ »

---

(١) [ ٢٧ / النمل / ٧٢ ] .

أى بحبل إلى مايعلوه « ثُمَّ لْيَقْطَعْ » أى ليختنق « فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » أى غيظه . والمعنى من استبطأ نصر الله وطلبه عاجلا ، فليقتل نفسه . لأن له وقتاً لا يقع إلا فيه . فالآية فى قوم من المسلمين استبطئوا نصر الله ، لاستعجالهم وشدة غيظهم ، وحنقهم على المشركين . وجوز أن تكون فى قوم من المشركين ، والضمير فى ( ينصره ) للنبىّ صلى الله عليه وسلم . والمعنى : من كان منهم يظن أن لن ينصر الله نبيه ، فليختنق وليهلك نفسه ، ثم لينظر فى نفسه ، هل يذهبن احتياله هذا فى المضارّة والمضادّة ، ما يغيظه من النصرة ؟ كلا . فإن الله ناصر رسوله لا محالة . قال تعالى[1] ( إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ )

[١٧] ( إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ )

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ » أى القرآن الكريم « ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة ، أنه يقضى بينهم فى الآخرة بالعدل . فيدخل من آمن منهم به وعمل صالحا ، الجنة . ومن كفر به ، النار . فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم وما تكنه ضمائرهم . وتقدم فى سورة البقرة التعريف بـ (الصابئين) والمراد بـ (الذين) أشركوا

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] .

كفار العرب خاصة . لأن المشركين فى إطلاق التنزيل ، بمثابة العلَم لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » بيان لعظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته ، بانقياد هذه العوالم العظمى له ، وجريها على وفق أمره وتدبيره . فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف ، لمطاوعة الأشياء له تعالى ، فيما يحدث فيها من أفعاله ، ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها . ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما . وقوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) إما معطوف على ما قبله ، إن جوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعاً ، فيكون السجود فى الجمادات الانقياد ، وفى العقلاء العبادة . أو مبتدأ خبره محذوف . أو فاعل لمضمر، إن لم يجوز ذلك . وقوله تعالى:

« وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ » أى من الناس . أى بكفره واستعصائه « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ » أى بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر « فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ » أى يكرمه بالسعادة « إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ )

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ » يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسم

إلى الفرق الخمس المبينة فى الآية قبل . و ( الخصم ) فى الأصل مصدر . ولذا يوحّد وينكر غالباً . ويستوى فيه الواحد المذكر وغيره ومعنى (اختصموا فى ربهم) أى فى دينه وعبادته. والاختصام يشمل ما وقع أحياناً من التحاور الحقيقىّ بين أهل الأديان المذكورة، والمعنوىّ . فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقيّة ما هو عليه ، وبطلان ما عليه صاحبه ، وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر . وإن لم يجز بينهما التحاور والخصام . ثم أشار إلى فصل خصومتهم المذكور فى قوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) بقوله سبحانه :

« فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ » أى قدرت « لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » أى الماء الحارّ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ )

[٢١] ( وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ )

[٢٢] ( كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ )

[٢٣] ( إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ )

[٢٤] ( وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ )

« يُصْهَرُ » أى يذاب « بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ » أى من الأمعاء والأحشاء « وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ » أى سياط يضربون بها « مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ » كما قال تعـالى(١) : ( تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ) وقولهم(٢) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) «وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ» أى المحمود ، وهو الجنة. أو الحق تعالى، المستحق لغاية الحمد .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ )

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى مكة «الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ » أى المقيم « فِيهِ وَالْبَادِ » أى الطارئ « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ » أى بميل عن القصد « بِظُلْمٍ » أى بغير حق « نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على هتكه حرمته . ويشمل الإلحاد الإشراك ومنع الناس من عمارته، واقتراف الآثام . وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه ، أن يضبط نفسه ، ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهمّ به ويقصده. وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة فى الحرم أعظم منها فى غيره ، وأنها تضاعف فيه . وإن همّ بها فيه أخذ بها . ومفعول (يرد ) إما محذوف ، أى يرد شيئاً أو مرادا ما ، والبـاء للملابسة . أو هى زائدة و ( إلحاداً ) مفعوله . أو للتعـدية لتضمينه معنى ( يتلبس ) . و ( بظلم) حال مرادفة . أو بدل مما قبله، بإعادة الجار . أو صلة له . أى ملحداً بسبب الظلم. وعلى كلّ ، فهو مؤكد لماقبله . ومن قوله (نُذِقْهُ) الخ يؤخذ خبر (إنّ). ويكون مقدراً بعد قوله ( وَالْبَادِ ) مدلولا عليه بآخر الآية، كما ارتضى ذلك أبو حيان فى ( البحر ) .

---

(١) [ ١٠ / يونس ١٠ / و [ ١٤ / إبراهيم / ٢٣ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٧٤ ] .

ثم أشار تعالى إلى تقريع وتوبيخ من عبد غيره وأشرك به فى البقعة المباركة ، التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ )

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ » أى واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مباءة ، أى منزلا ومرجعاً لعبادته تعالى وحده و(أنْ) فى قوله تعالى (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) مفسرة لـ( بَوَّأْنَا ) من حيث إنه متضمن لمعنى ( تعبدنا ) لأن التبوئة للعبادة . أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى شيئاً « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ » أى من الأصنام والأوثان والأقذار « لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » أى لمن يطوف به ويقيم ويصلّى . أو المراد بالقائمين وما بعده (المصلين )، ويكون عبّر عن الصلاة بأركانها ، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك ، فكيف وقد اجتمعت ؟ .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ )

[٢٨] ( لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ )

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » أى نادِ فيهم به ، قال الزمخشرىّ : والنداء بالحج أن يقول : حجّوا ، أو عليكم الحج « يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مشاة ، جمع (راجل) « وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ »

أى ركباناً على كل بعير مهزول ، أتعبه بُعد الشقة فهزله . والعدول عن (ركبانا) الأخصر ، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ، وقوله تعالى « يَأْتِينَ » صفة لكل ضامر ، لأنه فى معنى الجمع . وقرئ ( يأتون) صفة للرجال والركبان . أو استئناف ، فيكون الضمير للناس « مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » أى طريق واسع بعيد « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » أى ليحضروا منافع لهم دينية ودنيوية « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » أى على ماملكهم منها، وذللها لهم، ليجعلوها هدياً وضحايا. قال الزمخشرىّ كنى عن النحر والذبح، بذكر اسم الله. لأن أهل الإسلام لاينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلىّ فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه ـ زاد الرازىّ ـ وأن يخالف المشركون فى ذلك . فإنهم كانوا يذبحونها للنصُب والأوثان ، قال القفال : وكأن المتقرب بها وبإراقة دمائها متصوَّر بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها . فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته ، طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته . والأيام المعلومات أيام العشر . أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومان بعده . أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده . أقوالٌ للأئمة .

قال ابن كثير : ويعضد الثانى والثالث قوله تعالى ( عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ) يعنى به ذكر الله عند ذبحها . انتهى .

أقول ـ لايبعد أن تكون (على) تعليلية، والمعنى: ليذكروا اسم الله وحده فى تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه ، لأجل ما رزقهم من تلك البهم . فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها : ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة . وقد امتن عليهم بها فى غير موضع من تنزيله الكريم . كقوله سبحانه(١) ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ )

(١) [٣٦/ يس / ٧١ و ٧٢ ] .

والسرّ فى إفراده هذه النعمة ، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم . إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم . فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم ، لما قامت لهم قائمة . لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وماهم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة . ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم ، ويشكروه ويعرفوا له حقه. من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره . فالاعتبار بها من ذلك ، موجب للاستكانة لرازقها ، والخضوع له والخشية منه . نظير الآية ــ على ما ظهر لنا ــ قوله تعالى[1] ( فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ) هذا أولا . وثانياً قد يقال : إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل . وهو مواساة البؤساء منها . فإن ذلك من أجلّ ما يرضيه تعالى ، ويثيب عليه . والله أعلم .

« فَكُلُوا مِنْهَا » أى من لحومها . والأمر للندب . وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه. وقد ثبت[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

وعن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم . فرخص للمسلمين. فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

قال فى ( الإكليل ) . والأمر للاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء. وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب ، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد ، إلا من جزاء الصيد والنذر . وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكا بعموم الآية . وذهب قوم إلى أن

---

(١) [ ١٠٦ / قريش / ٣ و ٤ ] . (٢) الحديث انفرد به مسلم . أخرجه فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ ( طبعتنا ) عن جابر بن عبد الله . والحديث فى بيان حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، مفصلة أتم تفصيل ، فيحسن دراسته .

الأكل من الأضحية واجب ، لظاهر الأمر . وقومٌ إلى أن التصدق منها ندب ، وحملوا الأمر عليه . ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به ، لإطلاق الآية . انتهى .

« وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ » أى الذى أصابه بؤس أى شدة « الْفَقِيرَ » أى الذى أضعفه الإعسار ، والأمر هنا للوجوب . وقد قيل به فى الأول أيضاً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ )

[٣٠] ( ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ )

[٣١] ( حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ )

« ثُمَّ » أى بعد الذبح « لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » أى ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام ، بالحلق والتقصير وقصّ الأظفار ولبس الثياب « وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » أى ما ينذرونه من أعمال البر فى حجهم « وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى طواف الإفاضة . وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج . ويقع به تمام التحلل . و ( العتيق ) القديم . لأنه أول بيت وضع للناس . أو المعتق من تسلط الجبابرة « ذَٰلِكَ » خبر محذوف . أى الأمر ذلك . وهو وأمثاله من أسماء الإشارة ، تطلق للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهى كلام واحد . قال الشهاب : والمشهور فى الفصل (هَٰذَا) كقوله[1] (هَٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ) .

---

(١) [ ٣٨ / ص / ٥٥ ] .

واختيار ( ذلك ) هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهو من الاقتضاب القريب من التخلص، لملاءمة مابعده لما قبله ، كما هنا «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ » أى أحكامه . أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك . و ( الحرمات ) جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه ، بل يحترم شرعاً « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أى ثواباً . و (خير ) اسم تفضيل حذف متعلقه . أى من غيره ، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير، قاله الشهاب . والثانى هو الأظهر ، لأنه أسلوب التنزيل فى مواضع لايظهر التفاضل فيها . وإيثاره ، مع ذلك ، لرقة لفظه ، وجمعه بين الحسن والروعة «وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ » أى آية تحريمه . وذلك قوله فى سورة المائدة[١] ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ) والمعنى: أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ما استثناه فى كتابه . فحافظوا على حدوده . وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً . كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك . وأن تحلوا مما حرم الله . كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك . أفاده الزمخشرىّ . « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » تفريع على ما سبق من تعظيم حرماته تعالى . فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى . و (من) بيانية . أى فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان، كما تجتنب الأنجاس . وهو غاية المبالغة فى النهى عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . قال الزمخشرىّ : سمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى أنكم، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله[٢] (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب . وقوله تعالى « وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » تعميم بعد تخصيص . فإن عبادة الأوثان رأس الزور . كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه ذلك ، ردًّا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب . وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك،

(١) [ ٥ / المائدة / ٣ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٩٠ ] .

وإعلاماً بأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، وصدق القول ، أعظم الحرمات وأسبقها خطواً « حُنَفَاءَ لِلَّهِ » مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق « غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » أى شيئا من الأشياء . ثم ضرب للمشرك مثلاً فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال تعالى « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » أى سقط منها فقطعته الطيور فى الهواء « أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ » أى تقذفه « فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » أى بعيد مهلك لمن هوى فيه . و( أو ) للتخيير أو التنويع . قال الزمخشرىّ : يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق . فإن كان تشبيها مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية . بأن صور حاله بصورة حالِ مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعاً فى حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله ، بالساقط من السماء . والأهواء التى تتوزع أفكاره ، بالطير المختطفة . والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة ، بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة . فكتب الناصر عليه : أما على تقدير أن يكون مفرّقاً فيحتاج تأيل تشبيه المشرك بالهاوى من السماء ، إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراك المراد ردّته ، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصليا ، فيكون قد عدّ تمكن المشرك من الإيمان ومن العلوّ به ثم عدوله عنه اختياراً ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى[1] « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وفى تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر ، بالطير المختطفة ، وفى تشبيه تطويح الشيطان بالهوىّ مع الريح فى مكان سحيق ـ نظر . لأن الأمرين ذكرا فى سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين . فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء

(١) [ ٢ / البقرة [ ٢٥٧ ] .

والأفكار ، والثاني مثلا لنزغ الشيطان ، فقد جعلهما شيئاً واحداً . لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك . فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما المتذبذب والمتمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة . فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته ، فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب . لا يلوح له خيال إلا اتّبعه ونزل عما كان عليه . والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل . لو نشر بالمنشار لم يكع ولم يرجع . لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج بضلالته . فهذا مشبه في إقراره على كفره ، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه . ويظهر تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق ، الذي هو أبعد الأحياء عن السماء ، وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى[1] : ( أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ) و[2]( ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ) أي صمموا على ضلالهم فبعُد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن في النظم الكريم مساغاً له . إلا أنه لا قاطع به . نعم ، هو من بديع الاستنباط ، ورقيق الاستخراج . فرحم الله ناسجه .

قال ابن كثير[3] وقد ضرب تعالى للمشركين مثلا آخر في سورة الأنعام . وهو قوله تعالى[4] ( قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ) الآية .

---

(١) [ ١٤/ إبراهيم / ٣ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ١٦٧ ] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٢١٩ من الجزء الثالث . (٤) [ ٦ / الأنعام / ٧١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ )

« ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ » أى علائم هدايته ، وهو الدين . أو معالم الحج ومناسكه . أو الهدايا خاصة ، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى . كما تنبىء عنه آية[1] (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ) وهو الأوفق لما بعده . وتعظيمها أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً ، غالية الأثمان . ويترك المكاس فى شرائها . فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهن : الهدى والأضحية والرقبة .

وعن سهل[2] : كنا نسمن الأضحية فى المدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخارىّ.

وعن أنس[3] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين . رواه البخارىّ . وعن البراء[4] مرفوعاً . أربع لا تجوز فى الأضاحى ، العوراء البيّن عورها ، والمريضة البيّن مرضها ، والعرجاء البيّن ظلعها ، والكسيرة التى لا تُنْقِى : رواه أحمد وأهل السنن . « فَإِنَّهَا » أى فإن تعظيمها « مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » أى من أفعال ذوى التقوى . والإضافة إلى القلوب ، لأن التقوى وضدها تنشأ منها .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٣٦ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ تعليقا فى : ٧٣ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٧ ـ باب فى أضحية النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين ، ويذكر ( سمينين ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٣٧ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٧ ـ باب فى أضحية النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين . ويذكر ( سمينين ) حديث رقم ٢٢١١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث رقم ١٧ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٥ ـ باب ما نهى عنه من الأضاحىّ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ )

« لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى لكم فى الهدايا منافع درّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها . وقد روى فى الصحيحين[١] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة قال: اركبها . قال : إنها بدنة قال: اركبها ، ويحك . فى الثانية أو الثالثة . وقوله ( ثُمَّ مَحِلُّهَا ) أى محل الهدايا وانتهاؤها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى[٢] ( هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ ) وقال[٣] ( وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ) .

قال فى ( الإكليل ) : فيه أن الهدى لا يذبح إلا بالحرم . وقيل: المعنى : محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق . فيقتضى أن الحاج بعد طواف الإفاضة . يحل له كل شىء . وكذا روى عن ابن عباس : ما طاف أحد بالبيت إلا حل ، لهذه الآية . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ )

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُ اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٠٣ ـ باب ركوب البدن ، حديث رقم ٨٧٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٣٧٣ ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٥ / المائدة / ٩٥ ] . (٣) [ ٤٨ / الفتح / ٢٥ ] .

أى شرعنا لكل أمة أن ينسكوا . أى يذبحوا لوجهه تعالى ، على وجه التقرب . وجعل العلة ، أن يذكر اسمه . تقدست أسماؤه ، على النسائك . ف(منسكا) مصدر ميمى على أصله . أو بمعنى المفعول . وفى الآية تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً .

« فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا » أى أخلصوا له الذكر خاصة ، لا تشوبوه بإشراك . « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ )

[٣٦] ( وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

« الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى خافت لتأثرهم عند ذكره مزيد تأثر «وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا » أى فى ذبحها تضحية « خَيْرٌ » من المنافع الدينية والدنيوية « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ » أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . وعن ابن عباس : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى . يقول: بسم الله ، والله أكبر ، لا إله إلا الله: اللهم منك ولك . وفى الصحيحين[1] عن ابن عمر ؛ أنه أتى على رجل قد أناخ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١١٨ ـ باب نحر الإبل مقيدة ، حديث ٨٨٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث ٣٥٨ ( طبعتنا ) .

بدنة وهو ينحرها . فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم صلى الله عليه وسلم : وفى صحيح مسلم[١] عن جابر فى صفة حجة الوداع ، قال فيه : فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بدنة . جعل يطعنها بحربة فى يده « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » أى سقطت على الأرض ، وهو كناية عن الموت « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ » أى السائل « وَالْمُعْتَرَّ » أى المتعرض بغير سؤال . أو القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعتر المتعرض بسؤال وقد استنبط من الآية أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : فيأكل ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث .

« كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى ذللناها لكم ، لتشكروا إنعامنا . والشكر صرف العبد ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ )

« لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » أى لن يصيب رضاءه لحومها المتصدق بها ، ولا دماؤها المهراقة ، من حيث أنها لحوم ودماء . ولكن بمراعاة النية والإخلاص ، ابتغاء وجهه الأعلى ، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى[٢] ( لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ) إلى آخرها « كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ » أى لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالعبادة على ما أرشدكم إلى طريق تسخيرها ، وكيفية التقرب بها على لسان أكرم رسله المبعوث بسعادة الدارين . وإنما كرره تذكيراً للنعمة وتعليلا بما بعده .

---

(١) انفرد به مسلم . أخرجه فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ١٤٧ ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٢ / البقرة / ١٧٧ ] .

وفى التعليل المذكور شاهد لما قدمناه أولا فى معنى قوله تعالى[١] (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) فتذكر . وقوله تعالى « وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » أى المخلصين فى أعمالهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

« إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » كلام مستأنف، مسوق لتوطين قلوب المؤمنين، ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم ، بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ، ليتفرغوا إلى أداء مناسكه . كذا قاله أبو السعود . وسبقه الرازىّ إليه . والأولى أن يقال : إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال ، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والكلاءة والعاقبة للمؤمنين . تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم ، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ » أى فى أمانة الله « كَفُورٍ » أى لنعمته بعبادته غيره ، فلا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم . وصيغة المبالغة فيهما ، لأنه فى حق المشركين، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيرا، بل هو أمر عظيم.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

[٤٠] (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٢٨ ] .

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ » أى يقاتلهم المشركون . والمأذون فيه محذوف ، لدلالة المذكور عليه . وقرئ بكسر التاء . « بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » أى بغير حق سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين ، لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله[1] ( هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ) وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » أى لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها. قال ابن جرير[2] : ومنه كفه تعالى ببعضهم التظالم . كالسلطان الذى كف به رعيته عن التظالم بينهم . ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق . ونحو ذلك . وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض . لولا ذلك لتظالموا . فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم، وما سمى جل ثناؤه . و (الصوامع) مبانى الرهبانية لخلوتهم . ( والبيع ) معابد النصارى . و ( الصلوات ) روى عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود . سميت بها لأنها محلها . وقيل هى بمعناها الحقيقىّ . و (هدمت) بمعنى عطلت. أو فيه مضاف مقدر « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » أى ينصر دينه وأولياءه . قال القاضى : وقد أنجز الله وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم . « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤١] ( الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ )

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٥ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم . ثم أشار تعالى إلى تسلية نبيّه صلى الله عليه وسلم ، عما يناله من أذى المشركين ، وحاضًّا له على الصبر على ما يلحقه منهم من التكذيب ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ )

[٤٣] ( وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ )

[٤٤] ( وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ )

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَثَمُودُ » وهم قوم صالح « وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » وهم قوم شعيب « وَكُذِّبَ مُوسَىٰ » وإنما لم يقل ( وقوم موسى ) كسابقه ، لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر كأنه قيل ، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم ( وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ) مع وضوح آياته وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره ؟ أفاده الزمخشريّ .

قال الناصر : ويحتمل عندى ، والله أعلم ، أنه لما صدّر الكلام بحكاية تكذيبهم ، ثم عدّد أصناف المكذبين وطوائفهم ، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلى قوله ( فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ) فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال فى آية ( قٓ ) بعد تعديدهم(1) ( كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ) فربط العقاب والوعيد ، ووصلهما

(1) [ ٥٠ / قٓ / ١٤ ] .

بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره . والله أعلم .

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل ، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذى هو ردّ دعوة النبيّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه ، والقيام فى وجهه وصد الناس عن اتباعه . وما وقع من قوم موسى هو تخليط ، وخطأ اجتهاد ، وتعنت ولجاج مع الاستظلال بظل دعوته ، والانتظام فى سلك إجابته . وقوله تعالى « فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ » أى أمهلتهم « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ » أى بالعقوبة « فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أى إنكارى عليهم بالإهلاك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ )

« فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ » أى فكم من أهالى قرية « أَهْلَكْنَاهَا » أى بالعذاب « وَهِيَ ظَالِمَةٌ » أى مشركة كافرة « فَهِيَ خَاوِيَةٌ » أى ساقطة « عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى سقوفها « وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ » اى وكم من بئر متروكة لا يستقى منها ، لهلاك أهلها « وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ » أى مرفوع . من ( شاد البناء ) رفعه . أو معناه مطلىّ ومعمول بالشيد ، بالكسر ، وهو الجص ، أى مجصص ، أخليناه عن ساكنيه ، ومن شواهد الأول قول عدىّ بن زيد[1] :

شَادَهُ مَرْمَراً وجَلَّلَهُ كِلْـ ... ـساً ، فللطير فى ذُرَاهُ وُكُورُ

---

(١) هذا البيت من إحدى قصائده الأربع الغرر . ومطلع القصيدة :

أيها الشامتُ المعيِّرُ بالدهـ ... ـرِ أأنت المُبَرَّأُ المَوْفُورُ

انظر ( الشعر والشعراء ) لابن قتيبة . ج ١ ص ١٧٦ ، تحقيق شيخنا المغفور له الشيخ أحمد محمد شاكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ )

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أي أهل مكة في تجارتهم « فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ » أي بما يشاهدونه من مواد الاعتبار « قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » أي ما يجب أن يعقل من التوحيد « أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » أي ما يجب أن يسمع من الوحي والتخويف « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » الضمير في ( فإنها ) للقصة . أو مبهم يفسره ( الأبصار ) . والمعنى : ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة . وفائدة ذكر ( الصدور ) هو التأكيد مثل[١] ( يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ) و( طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ )[٢] إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة ، وهنا لتقرير معنى المجاز . وقال الزمخشريّ : الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته : الذي قد تعورف واعتقد ؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول ( ليس المضاء للسيف ، ولكنه للسانك الذي بين فكيك ) ، فقولك ( الذي بين فكيك ) تقرير لما ادعيته للسانه ، وتثبيت . لأن محل المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف . وأثبته للسانك ، فلتة ولا سهوا مني ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٧ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٣٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ )

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى المبيّن فى آية[1] ( وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) « وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ » أى فيصيبهم ما أوعدهم به ، ولو بعد حين « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » أى هو تعالى حليم لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة إلى حلمه . لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شىء . وإن أنظر وأملى . ولهذا قال بعده :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ )

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا » أى أمهلتها « وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ » إلى حكمى مرجع الكل فأجزيهم بأعمالهم . فتأثُّرُ هـذه الآية ما قبلها صريح فى بيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ، ببيان كمال سعة حلمه تعالى ، وإظهار غاية ضيق عطنهم ، المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى ، مُدداً طوالاً عندهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى[2] ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا ) ولذلك يرون مجيئه بعيداً ، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ، ويجترئون على الاستعجال به ، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ، وقوعاً وإخباراً ، ما عنده تعالى من المقدار . أفاده ابن كثير وأبو السعود .

وفى ( العناية ) : لما ذكر استعجالهم ، وبيّن أنه لا يتخلف ما استعجلوه ، وإنما أخر

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] . (٢) [ ٧٠ / المعارج / ٦و٧ ] .

حلما ، لأن اليوم ألف سنة عنده . فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه ، بل هو أقصر من يوم . فلا يقال : إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم ، والقلب لا وجه له .

وقال الرازىّ : لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب ، أنهم يستهزئون باستعجال العذاب ، بيّن أن العاقل لا ينبغى أن يستعجل عذاب الآخرة فقال (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ) يعنى فيما ينالهم من العذاب وشدته (كَأَلْفِ سَنَةٍ) لو عُدّ فى كثرة الآلام وشدتها . فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه .

قال الرازىّ : وهذا قول أبى مسلم ، وهو أولى الوجوه . انتهى .

وقد حكاه الزمخشرىّ بقوله : وقيل معناه : كيف يستعجلون بعذاب مَنْ يومٌ واحد من أيام عذابه ، فى طول ألف سنة من سنيكم . لأن أيام الشدائد مستطالة ، أى تعدّ طويلة . كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ فإنها ... قِصَارٌ . وأيامُ الهُمُومِ طِوَالُ

أو كان ذلك اليوم الواحد ، لشدة عذابه ، كألف سنة من سنى العذاب . انتهى .

واعتمد الوجه الأول أبو السعود . وناقش فيما بعده ؛ بأنه لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه . فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوىّ . وأن الزمان الممتد هو الذى مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال . لا الزمان المقارن له . ألا يرى إلى قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الخ ، فإنه صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد ، بعد الإملاء المديد . انتهى . وفيه قوة . فالله أعلم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٥٠] (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[٥١] ( وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ )

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهي الجنة « وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أي والذين سعوا في ردّ آياتنا ، وصدّ الناس عنها مشاقّين . فالمعاجزة مستعارة للمشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم . فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله . كما يقال ( جاراه في كذا ) . قال تعالى[1] ( أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ) وقرئ ( معجّزين ) بتشديد الجيم . بمعنى أنهم عجّزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن . وكلتا القراءتين متقاربة المعنى . وذلك أن من عجّز عن آيات الله ، فقد عاجز الله . ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله ، والعمل بمعاصيه ، وخلاف أمره . وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله . ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه . وقد ضمن الله له نصره عليهم . فكان ذلك معاجزتهم الله . كذا في الشهاب وابن جرير . ثم أشار تعالى إلى تسلية رسوله صلوات الله عليه ، عما كان يلاقيه من صدّ شياطين قومه عن سبيل الله ، بأن تلك سنة كل رسول ، وأن العاقبة له ، فقال سبحانه :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ » أي رغب في انتشار

---

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤ ] .

دعوته ، وسرعة علوّ شرعته « أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » أي بما يصدّ عنها ، ويصرف المدعوّين عن إجابتها « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ » أي يبطله ويمحقه « ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ » أي يثبتها [١]( فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ) « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه . « حَكِيمٌ » يحكم آياته بحكمته . ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانيّ فتنة للشاكّين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاءً لهم ليزدادوا إثما . ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتاً واستقامة ، فقال تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ )

« لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي شك وارتياب « وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » وهم العتاة المتمردون «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ» أي خلاف للحق « بَعِيدٍ » عن موافقته جدا ، بسبب ظلمهم وشركهم .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ له قُلُوبُهُمْ » أي بالانقياد ، والخشية . والضمير للقرآن أو لله تعالى « وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ

---

(١) [ ١٣ / الرعد / ١٧ ] .

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى إلى طريق الحق والاستقامة، فلا تزلّ أقدامهم بقبول مايلقى الشيطان ، ولا تقبل قلوبهم إلا مايلقى الرحمن ، لصفائها . هذا هو الصواب فى تفسير الآية . ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه ، لو احتاجت إلى نظير . ولكنها بيّنة بنفسها ، غنية عن التطويل فى التأويل ، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل . ونحن نسوق ماقيل فيها من ذلك ، ثم نتبعه بنقد المحققين ، لئلا يبقى فى نفس الواقف حاجة .

قال ابن جرير الطبرىّ: قيل[1] إن السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه ، فى بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ، مالم ينزل الله عليه. فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به ، فسلّاه الله مما به من ذلك، بهذه الآيات . ثم ذكر من قال ذلك . فأسند عن محمد بن كعب القرظىّ ومحمد بن قيس وغيرهما ؛ أن رسول الله ﷺ جلس فى ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شىء فينفروا عنه . فأنزل الله عليه[2] (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ[3] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ألقى عليه الشيطان كلمتين (تلك الغرانيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها . فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورضوا بما تكلم به .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال : ما جئتك بهاتين . فحزن رسول الله ﷺ . فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يعزيه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ » الآية .

وقال القاضى عياض فى ( الشفا ) : اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء السابع عشر .

(٢) [ ٥٣ / النجم / ١و٢ ] . (٣) [٥٣ / النجم / ١٩و٢٠ ].

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكيّ حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير. وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته . ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب. وأكثر الطرق عنهم فيها ، واهية ضعيفة ، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب ( الشك فى الحديث ) أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة .

قال أبو بكر البزّار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل ، يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد . وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبيّ ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس . فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا . وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيما ذكرناه ، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبيّ فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البزار رحمه الله : والذى منه فى الصحيح ؛ أن النبيّ ﷺ قرأ سورة ( والنجم ) وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن .

هذا توهينه من طريق النقل .

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر ، أوأن يتسوّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ماليس منه ، حتى ينبهه عليه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه عليه السلام . أو يقول ذلك النبيّ ﷺ من

قبل تفسه عمداً ، وذلك كفر. أو سهواً وهو معصوم من هذا كله . ووجه ثان ـ وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفاً . وذلك أن الـكلام ، لو كان كما رُوىَ ، بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف. وَلَمَا كان النبىّ ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل. فـكيف بمن رجح حلمه ، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الـكلام علمه ؟ ووجه ثالث ـ أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندى المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم من أول وهلة ، وتخليط العدوّ على النبىّ ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشُّمَّات بهم الفينة بعد الفينة. وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة. ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوه مكابرة فى قصة الإسراء حتى كانت فى ذلك لبعض الضعفاء ردّة . وكذلك ما روى فى قصة القضية . ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . فما روى عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فـدل على بطلها ، واجتثاث أصلها . ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن ، على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع ـ ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت[١] (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيتين. وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذى رووه . لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته لـكاد يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه، أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلًا ، فـكيف كثيراً ؟ وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم . وهذا ضد مفهوم الآية ، ويضعّف الحديث ، لو صح ، فـكيف ولا صحة له ؟ وأما المأخذ الثانى فهو مبنىّ على تسليم الحديث ، لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته . ولـكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٧٣ ] .

أئمة المسلمين بأجوبةٍ منها الغث والسمين . فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبي ﷺ أصابته سِنة عند قراءة هذه السورة . فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصح . إذ لا يجوز على النبيّ ﷺ مثله فى حالة من أحواله . ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولى الشيطان عليه فى نوم ولا يقظة ، لعصمته فى هذا الباب من جميع العمد والسهو . وقد قال عليه السلام[1] ( إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبي ). وفى حديث الكلبىّ ؛ أن النبيّ ﷺ حدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه . وفى رواية ابن شهاب عن أبى بكر بن عبد الرحمن قال : ومنها لما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان . وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام لا سهواً ولا قصداً . ولا يتقوّله الشيطان على لسانه . وقيل : لعلّ النبيّ ﷺ قاله أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار . كقول إبراهيم[2] ( هَٰذَا رَبِّى ) على أحد التأويلات . وكقوله[3] ( بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ) بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين . ثم رجع إلى تلاوته . وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينةٍ تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ . وهو أحد ما ذكره القاضى أبو بكر .

ومما يظهر فى تأويله ، إن سلمنا القصة ، أن يراد بالغرانيق الملائكة . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . فلما تأوّله المشركون على أن المراد بها آلهتهم ، ولبّس عليهم الشيطان ذلك وزيّنه فى قلوبهم ، وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين . انتهى كلام القاضى ملخصاً .

وقال أبو بكر الباقلانىّ : وقيل : كان ﷺ يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان فى سكتة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٦ ـ باب قيام النبيّ ﷺ بالليل فى رمضان وغيره ، حديث رقم ٦٣١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٢٥

(٢) [ ٦ / الأنعام / ٧٧ ] . (٣) [ ٢١ / الأنبياء / ٦٣ ] .

من السكتات . ونطق بتلك الـكلمات ، محاكياً نغمته ، بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله تعالى وأشاعها .

قال : وهذا أحسن الوجوه . ويؤيده ماروى عن ابن عباس من تفسير ( تمنى ) بـ ( تلا ) وكذا استحسن ابن العربىّ هذا التأويل . وقال قبله : إن هذه الآية نص فى براءة النبىّ ﷺ مما نسب إليه ، وأن الشيطان زاده فى قوله صلوات الله عليه ، لا أنه عليه السلام قاله .

قال: وقد سبق إلى ذلك الطبرىّ فصوب هذا المعنى وحوّم عليه. واستحسان ابن العربىّ ذلك، على فرض صحة القصة، وإلا فقد قال: ذكر الطبرىّ فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وقال تقى الدين بن تيمية[1]: فى الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة فى سورة النجم بقوله ( تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ) وقالوا: إن هذا لم يثبت. ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان فى مسامعهم ، ولم يلفظ به الرسول ﷺ . ولـكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا .

وقالوا فى قوله ( إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ): هو حديث النفس وأما الذين قرروا مانقل عن السلف، فقالوا : هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه. وقالوا : الآثار فى تفسير هذه الآية معروفة ثابتة فى كتب التفسير والحديث . والقرآن يوافق ذلك . فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان، وإحكامه آياته، إنما يكون لرفع ماوقع فى آياته ، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها . وجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس ، لا باطنا فى النفس . والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ ، من جنس الفتنة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ . وهذا النوع أدلّ على صدق الرسول ﷺ ، وبعده عن الهوى ، من ذلك النوع . فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله، وهو مصدق فى ذلك ، فإذا قال عن نفسه أن الثانى هو الذى

---

(١) فى شرح دعوة ذى النون . كذا فى هامش جامع البيان ، صحيفة ٢٩٥ .

من عندالله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك ، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق. وهذا كما قالت عائشة[١] رضى الله عنها: لو كان محمد كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية ( وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ) ألا ترى أن الذى يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ . فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته ونسخ ماألقاه الشيطان ، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب . وهذا هو المقصود بالرسالة . فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليما . انتهى .

وفى كلامه رحمه الله نظر من وجوه :

أولا ـ دعواه أن المأثور يوافق القرآن . فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء فى الآيات . ولا تدل الآية عليه ، لا مطابقة ولا التزاماً . بل القول بذلك ينافى التنزيل والوحى منافاة النار للماء ، كما ستراه .

وثانيا ـ دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه . فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين . ويكفى أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال : قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق. وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركى قريش أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح . وتعداد طرقها ، بعد ضعف أصلها ، لا يفيد . وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات . يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى . والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء . وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر . فأخذ يقوى بعض طرقها ويصححها من جهة الإسناد . كما ستمر بك مناقشته . ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخارىّ معلقة أو موقوفة ، أو أرباب السنن .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ حدثنا علىّ بن حجر .

وثالثا ـ اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها ، وإلقاء الشيطان ذلك فى مسامعهم، مما يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول ، كما نبذتها صحة النقول .

فصل .

وقال الفخر الرازىّ فى ( تفسيره ) : هذه الرواية باطلة موضوعة ، عند أهل التحقيق. واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه : ( أحدها ) قوله تعالى(١) ( وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ) .

( وثانيها ) قوله(٢) ( قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ) .

وثالثها ـ قوله(٣) ( وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ) .

ورابعها ـ قوله تعالى(٤) ( وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ) وكلمة ( كاد ) عند بعضهم معناها أنه لم يحصل .

وخامسها ـ قوله(٥) ( وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ) وكلمة ( لولا ) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره . فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل .

وسادسها ـ قوله(٦) ( كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ) .

وسابعها ـ قوله(٧) ( سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ) .

وأما السنة فهى ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة . وصنف فيه كتاباً .

---

(١) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٤ ـ ٤٦ ]. (٢) [ ١٠ / يونس / ١٥ ] .
(٣) [ ٥٣ / النجم / ٣و٤ ] . (٤) [ ١٧ / الإسراء / ٧٣ ].
(٥) [ ١٧ / الإسراء / ٧٤ ] . (٦) [ ٢٥ / الفرقان / ٣٢ ] .
(٧) [ ٨٧ / الأعلى / ٦ ] .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وأيضاً فقد روى البخاريّ(١) فى صحيحه أن النبيّ عليه السلام قرأ سورة (والنجم) وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن. وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق .

وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها ـ أن من جوّز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان ، فقد كفر . لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان فى نفى الأوثان .

وثانيها ـ أنه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له . حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم إليه . وإنما كان يصلى ، إذا لم يحضروها ، ليلاً ، أو فى أوقات خلوة . وذلك يبطل قولهم .

وثالثها ـ أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة ، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر . فكيف أجمعوا على أنه عظّم آلهتهم حتى خروا سجدا ؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم .

ورابعها ـ قوله ( فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ) وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول ، أقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها . فإذا أراد الله إحكام الآيات ، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً ، أولى .

وخامسها ـ وهو أقوى الوجوه ، أنا لو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه. وجوّزنا

(١) [ أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ٤ ـ باب فاسجدوا لله واعبدوا ، حديث رقم ٥٩٠ .

فى كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى (يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى ، وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال ، أن هذه القصة موضوعة .

أكثر ما فى الباب أن جمعاً من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة .

ثم أطال الرازىّ فى تفصيل المباحث . ونقل عن أبى مسلم الأصفهانىّ ما توسع به البحث فانظره إن شئت .

فصل .

وكتب الأستاذ الإمام مفتى مصر ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فى هذه الآية مقالة بديعة ، نقتبس منها شذرات .

قال : يعلم كل ناظر فى كتابنا الإلهىّ ( القرآن ) ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التى أحلهم من حيث هم حملة الوحى وقدوة البشر ، فى الفضائل وصالح الأعمال . وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر ، فى هذا الدين القويم ، أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل فى التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التى وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت فى ثنايا الكتاب العزيز . وعصمة الرسل فى التبليغ عن الله ، أصل من أصول الإسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق ، فإنما هو فى غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذى اعتمدت عليه الأديان ، حق لا يرتاب فيه مِلِّىٌّ يفهم ما معنى الدين . ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه . أولئك عشاق الرواة

وعبدة النقل. نظروا نظرة فى قوله تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ) الآية وفيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن ( تمنى ) بمعنى ( قرأ ) و ( الأمنية القراءة ) فعمى عليهم وجه التأويل ، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس . فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل فى زعمهم . فقيض لهم من يروى فى ذلك أحاديث تختلف طرقها وتتباين ألفاظها وتتفق فى أن النبى ﷺ عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه ، وجفاه قومه وعشيرته ، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلهتهم ، أخذه الضجر من إعراضهم. ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة ( والنجم ) إلى آخر ما رواه ابن جرير أولا . وقد شايعه عليه كثير من المفسرين ، وفى طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب . فولعوا بهذه التفاسير ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين فى تأويلها . وذهب إليه الأئمة فى بيانها .

جاء فى صحيح البخارى (١) : وقال ابن عباس فى (إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيَّته) . إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال ( أمنيته قراءته ) ( إلَّا أمانىَّ ) يقرؤن ولا يكتبون . انتهى .

فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ ( يقال ) بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين . فما يدعيه الشراح أن الحديث فى رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة. ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده . وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس .

وقال صاحب الإبريز : إن تفسير ( تمنى ) بمعنى ( قرأ ) و ( الأمنية ) بمعنى ( القراءة ) مروىّ عن ابن عباس فى نسخة علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . ورواها علىّ بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . وقد علم ما للناس

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ٢٢ ـ سورة الحج ، فى الترجمة .

فى ابن أبى صالح كاتب الليث ، وأن المحققين على تضعيفه . انتهى .

هذا ما فى الرواية عن ابن عباس وهى أصل هذه الفتنة. وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها. وأما قصة الغرانيق ، فمع ما فيها من الاختلاف ، فقد طعن فيها غير واحد من الأئمة ، حتى قال ابن إسحق : إنها من وضع الزنادقة . كما تقدم عن الرازىّ ، ونحوه عن القاضى عياض رحمه الله ، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه .

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من طرق على شرط الصحيح ، وأنه يحتج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل ، فقد ذهب عليه كما قال فى الإبريز : أن العصمة من العقائد التى يطلب فيها اليقين . فالحديث الذى يريد خرمها ونقضها ، لا يقبل على أى وجه جاء . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة ، من الأخبار التى يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به ، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام، لا فى أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به . فهى هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة ، جزاهم الله خيراً ، فى بيان فساد هذه القصة ، وأنها لا أصل لها . ولا عبرة برأى من خالفهم. فلا يعتد بذكرها فى بعض كتب التفسير . وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل فى بطله ، لا تنفخ القوة فى قوله . ولا تحمل على الأخذ برأيه .

ثم قال الأستاذ رحمه الله: والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذى تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها . والله أعلم :

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية ، وقرأ شيئًا من القرآن ، أن قوله تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ) الآيات ، يحكى قدرا قدّر للمرسلين كافة، لا يعدونه ولا يقفون دونه . ويصف شنشنة عرفت فيهم ، وفى أممهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى : أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط فى الوحى المنزل

إليهم . ولـكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحـكم الله آياته الخ، وهذا من أقبح ما يتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه! فلندع هذا الهذيان ، ولنعد إلى ما نحن بصدده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ، ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد بعد أن قال(١) ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ إلى آخر الآيات ثم قال(٢) « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ » الخ ، فالقصص السابق كان فى تكذيب الأمم لأنبيائهم . ثم تبعه الأمر الإلهىّ بأن يقول النبى ﷺ لقومه : إننى لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ، ولأبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسعون فى الآيات والأدلة التى أقيمها على الهدى وطرق السعادة، ليحوّلوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذى أقيمت لأجله ، ويعاجزوا بذلك النبىّ ﷺ والمؤمنين ، أى يسابقوهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك . وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها ، كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة ـ هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتلى به النبىّ ﷺ من المعاجزة فى الآيات ، قد ابتلى به الأنبياء السابقون. فلم يبعث نبى فى أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادّون أمانيه ، ويحولون بينه وبين ما يبتغى ، بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً ، يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين :

الأول ـ أن يكون ( تمنّى ) بمعنى ( قرأ ) و( الأمنية ) بمعنى ( القراءة ) وهو معنى قد يصح . وقد ورد استعمال اللفظ فيه ؛ قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

(١) [ ٢٢ / الحج / ٤٢ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٩ ـ ٥٢ ] .

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المَقادِرِ (١)

وقال آخر :

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه ، بل على المعنى المفهوم من قولك ( ألقيتُ فى حديث فلان ) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ، ولا يكون قد أراده . أو نسبت إليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدى إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل مايصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه . ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا حدّث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل إليه فى هدى لهم ، قام فى وجهه مشاغبون يحوّلون ما يتلوه عليهم عن المراد منه . ويتقوّلون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل . وما زال الأنبياء يصبرون على ما كذّبوا وأوذوا ، ويجاهدون فى الحق ، ولا يعتدّون بتعجيز المعجّزين ، ولا بهزء المستهزئين إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة . فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه السنّة فى الناس ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن الذين فى قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء العقول ، بتلك الشبه والوساوس ، فينطلقون وراءها . ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة ، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها فى جدلهم . ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه ، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به ، فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى

(١) استشهد بهما فى اللسان، بالصفحة رقم ٢٩٤ من المجلد الخامس عشر (طبعة بيروت)

يستقرّ بالعقل فى قرارة اليقين . وبين المغالطات وضروب السفسطة التى تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين . وسواء أرجعت الضمير فى ( أنه الحق ) إلى ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهىّ أو إلى القرآن ، وهو أجلّها ، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين . هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا . وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم . ولم يجعل للوهم عليها سلطانا، فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب ، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع، الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون فى ريب فى الحق أو الكتاب . لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون فى متصرفات شئونهم إليه . حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقوا حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، ومادّهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب، القتل أو الأسر . ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة . وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته . ما أقرب هذه الآيات فى مغازيها ، إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران[١] ( هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ) وقد قال بعد ذلك[٢] ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ) ثم قال[٣] ( قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ) الخ الآيات .

(١) [ ٣ / آل عمران / ٧ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١١٦ ] .
(٣) [ ٣ / آل عمران / ١٢ ] .

وكأن إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم . فيقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاديهم إلى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ، ويشتغلون بقال وقيل بما يلقى إليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرامى البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكئون عليه من الأموال والأولاد ، لن يغنى عنهم من الله شيئاً . فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم . فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم . فسيغلبون فى هراشهم . وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكما لا مدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران ، لا مدخل لها فى آيات سورة الحج ، هذا هو الوجه الأول فى تفسير آيات ( وَمَا أَرْسَلْنَا ) إلى آخرها ، على تقدير أن ( تمنَّى ) بمعنى ( قرأ ) وأن ( الأمنية ) بمعنى ( القراءة ) والله أعلم .

الوجه الثانى فى تفسير الآيات ـ أن التمنى على معناه المعروف . وكذلك الأمنية . وهى أفعولة بمعنى المُنْية . وجمعها . أمانىّ كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمنى سؤال الرب . وفى الحديث (إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه ) وفى رواية ( فليكثر ) قال ابن الأثير : ( التمنى ) تشهِّى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشىء إذا قدرته وأحببت أن يصير إلىّ . وكل ما قيل فى معنى التمنى على هذا الوجه ، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل الله من رسول ولا نبىّ ليدعو قوماً إلى هَدْى جديد ، أو شرع سابق شرعه لهم ، و يحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً ، أو جاء به غيره إن كان نبيا بُعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ، إلا وله أمنية فى قومه . وهى أن يتبعوه

وينحازوا إلى ما يدعوهم إليه ، ويستشفوا من دائهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه. وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذى يطعم ، وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن إليه . ويغدو عنه ويروح علينا . وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى ، والمكان الأسمى . قال الله تعالى[1] : ( فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا )وقال[2] ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) وقال[3] ( أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) وفى الآيات ما يطول سرده ، مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه ، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه ، إلى نور ماجاء به . ومامن رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس فى صدور الناس. وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس،فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه،وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فإذا ظهروا عليه ، والدعوة فى بدايتها ، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ماعمد إليه ، فتنة لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أواسط قومهم ، أو من المستضعفين فيهم ، ليكون العامل فى الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان . وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله . ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل فى كل زمان ، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان ، والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعـــارف .

(١) [ ١٨ / الكهف / ٦ ] . (٢) ١٢ / يوسف / ١٠٣ ] .
(٣) [ ١٠ / يونس / ٩٩ ] .

وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها فى الرؤساء وذوى المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فإذا دعا إلى الحق داع ، عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن ، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله ، بخلوصها من هذه الشواغل . وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعى وظافروه على دعوته ، قام أولئك المغرورون يقولون[1] ( مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ) فإذا استدرجهم الله على سنته ، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً ، افتتن الذين فى قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر فى دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره . فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها ، وينشىء من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الشيطان هى السفلى[2] ( فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ) وفى حكاية هذه السنة الإلهية التى أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسلية لنبينا ﷺ عما كان يلاقى من قومه ، ووعد له بأنه سيكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع استلفاتهم إلى سيرة من سبقهم[3] ( أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ )[4] ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ) .

هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية . ويدل عليه ما سبق من الآيات ، ويرشد إلى سياق

(١) [ ١١ / هود / ٢٧ ] .
(٢) [ ١٣ / الرعد / ١٧ ] .
(٣) [ ٢٩ / العنكبوت / ٢ ] .
(٤) [ ٢ / البقرة / ٢١٤ ] .

القصص السابق فى قوله[1] ( وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ) الخ. وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح .

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز . وإنى أنقله بحروفه ، وماهو بالبعيد عن هذا بكثير . قال ( بعد ذكر أمانىّ الأنبياء فى أممهم ، وطمعهم فى إيمانهم ، وشأن نبينا ﷺ فى ذلك ، على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى ) :

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى[2] ( وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ) فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة، الموجبة لكفره. وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فمعنى (تمنى) أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبىّ . وإلقاء الشيطان فيها ، يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . نخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معاً ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين ، وتدوم على الكافرين . انتهى .

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ماسبقه، تتبين الأحق بالترجيح. ولو صح ماقاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحى وانتقض الاعتماد عليه، كما قاله القاضى البيضاوىّ وغيره. ولكان الكلام فى الناسخ كالكلام فى المنسوخ. يجوز أن يلقى فيه الشيطان مايشاء، ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلٰهية وهو العصمة. ومايقال فى المخرج عن ذلك، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل. على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم. ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم. إلا ماجاء فى معجم ياقوت غير مسند

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٤٢ ] . (٢) [ ٢ / البقرة ٢/٥٣ ] .

ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق. وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت. ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف فى اللغة إلا اسماً لطائر مائى أسود أو أبيض. أو هو اسم الكركى أو طائر يشبهه. والغرنيق ( بالضم وكزنبور وقنديل وَسَمَوْأَل وفردوس وقرطاس وعُلَابط) معناه الشاب الأبيض الجميل. وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة (الغرنوق) كما يسمى به ضرب من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرانيق على ما يكون فى أصل العوسج اللين النبات. ويقال (لمة غرانقة) و(غرانقية) أى ناعمة تفيئها الريح. أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ. ولا شيء فى هذه المعانى يلائم الآلهة والأصنام، حتى يطلق عليها فى فصيح القول الذى يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام. فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين، ممن لا يميز بين حر الكلام، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام. فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية، عما تقتضيه الدراية[1] ( رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ) . انتهى كلام الأستاذ رحمه الله .

وممن جزم بوضع هذه القصة جزماً باتًّا ، الإمام ابن حزم رحمه الله . حيث قال فى كتابه ( الملل فى الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء ما مثاله : استدلوا بالحديث الكاذب الذى لم يصح قط فى قراءته عليه السلام فى ( وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ) وذكروا تلك الزيادة المفتراة التى تشبه مَنْ وَضَعَهَا من قولهم ( وإنها لهى الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى ) ثم قال بعد : وأما الحديث الذى فيه (الغرانيق) فكذب بحت موضوع. لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد . وأما قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ) الآية ، فلا حجة لهم فيها . لأن الأمانىّ الواقعة فى النفس لا معنى لها . وقد تمنى النبىّ صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبى طالب ،

(١) [ ٣ / آل عمران / ٨ ] .

ولم يرد الله عز وجل كون ذلك . فهذه الأمانيّ التي ذكرها الله عز وجل لاسواها ، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ معصية . وبالله تعالى التوفيق .

وهذا الذي قلناه هو ظاهر الآية دون مزيد تكلف ، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق . انتهى ، وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

«وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» أي في شك وجدال من التنزيل الكريم، لما طبع على قلوبهم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» أي القيامة « بَغْتَةً » أي فجأة «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » أي يوم لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيما . والمراد به الساعة أيضاً . كأنه قيل ( أو يأتيهم عذابها ) فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. أفاده أبو السعود . أي لأنه بمعنى (شديد) لا مثل له في شدته. وتقدم فيما نقلنا وجه آخر وهو أن المعنى : لا يزال الذين كفروا في ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما دهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة. بل يسلبون ما كان لديهم، ويساقون إلى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . انتهى .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

« الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ » أى يوم تزول مريتهم « لِلَّهِ » أى وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف لا حقيقة ولا صورة « يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أى بالمجازاة، ثم فسر الحكم بقوله تعالى « فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٥٩] (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا » أى فى الجهاد « أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى من الجنة ونعيمها « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ »

قال فى الإكليل : استدل بقوله تعالى ( ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا ) فَضَالَةُ بن عبيد الأنصارى الصحابىّ على أن المقتول والميت فى سبيل الله سواء فى الفضل. أخرجه ابن أبى حاتم وهو رأى قاله جماعة. وخالفه آخرون ففضلوا المقتول. وأخرج ابن أبى حاتم عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( فمن مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأمر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين. واقرءوا ما شئتم ( وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) إلى ( حَلِيمٌ )

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

« ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ » أى ومن جازى ظالماً بمقدار ظلمه ، ولم يزد فى الاقتصاص منه ، ثم تعدى عليه الظالم ثانياً ، لينصرن الله ذلك المظلوم. وإنما سمى الابتداء بالعقاب، الذى هو الجزاء، للازدواج والمشاكلة. أو لأنه سبب الجزاء وفى قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ » تعريض بالحث على العفو والمغفرة . فإنه تعالى مع كمال قدرته ، لمّا كان يعفو ويغفر ، فغيره أولى بذلك . وتنبيه على قدرته على النصر . إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده . فظهر سر مطابقة ( العفوّ الغفور ) لهذا الموضع .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ )

[٦٢] ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ )

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة ، إيلاج أحد الملوين فى الآخر ، بزيادته فى أحدهما ما ينقص من ساعات الآخر « وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذلك الصنع الباهر بأنه المعبود الحق الذى لا مثل له ولا ندّ . وأن الذى يدعوه المشركون هو الباطل الذى لا يقدر على صنعة شيء . بل هو المصنوع . أى فتتركون عبادة من منه النفع وبيده الضر ، وتعبدون الباطل الذى لا تنفعكم عبادته . وأن الله هو ذو العلوّ على كل شيء ، والعظيم الذى كل شيء

دون عظمته ، فلا أعلى منه ولا أكبر . ثم أشار إلى آية من آيات صنعه الباهر ، تقريرا لألوهيته ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[٦٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[٦٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » أى جعلها معدّة لمنافعكم « وَالْفُلْكَ » أى وسخر لكم البحر، حتى أن الفلك « تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » أى بتيسيره لمنافعكم « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بمشيئته وقدرته. أى ما يمسكها ويحفظها إلا ذلك ، رحمة بكم ، فاشكروا آلاءه وحده « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى فى آلائه وآياته المذكورة ، وما أبان فيها من طرق الاستدلال على وحدانيته ، لا إله إلا هو . وكذلك من آيات ألوهيته ما تضمنه قوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

« وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » أى جحود للنعم ، بعبادة غير بارئها . أو إشراكه معه ، مع أنه هو الخالق لكل ذلك ، والقادر عليه ، وغيره لا يملك شيئاً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ )

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا » أى وضعنا « مَنْسَكًا » أى شريعة ومتعبداً « هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ » أى فى ذلك الجعل والوضع والحوار فى تنوعه فى كل أمة ، وعدم وحدته . أو فى أمر ما جئتهم به ، زعماً بأنه يستغنى عنه بما شرع قبله . لأنه جهل بحكمته تعالى فى تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها ، وحياتها ومنشئها . ولذلك كانت هذه الشريعة أهدى الشرائع للامتنان بها ، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ » أى اثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك عنه . أو معناه : ثابر على الدعوة إلى ما أمرت به . فلا تضرك منازعتهم . وعلى الكل اتباعك وعدم مخالفتك ، لاستقرار الأمر على شرعتك . لأنها الطريق القويم .

هذا، وقال ابن جرير[1]: أصل المنسك فى كلام العرب، الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه ، لخير أو شر . يقال ( إن لفلان منسكاً يعتاده ) يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل فى معنى ( النسك ) هنا ، فقيل : عيداً . وقيل : إراقة الدم ( ثم استظهر ) أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمنى . لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ ، كانت إراقة الدم فى هذه الأيام، أى فلا ينازعك هؤلاء المشركون فى ذبحك ومنسكك بقولهم ( أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التى قتلها الله ) ؟ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٨ من الجزء السابع عشر .

وعليه ، فيكون المراد بالجعل فى قوله تعالى ( جَعَلْنَا ) الجعل القدرىّ لا التشريعىّ . كما قال[١] ( وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ) أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته. فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . وهذا كقوله تعالى[٢] ( وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ » أشار له ابن كثير . ونقل الرازىّ عن ابن عباس ، فى رواية عطاء ، أن المراد بالمنسك الشريعة والمنهاج . قال : وهو اختيار القفال ، لقوله تعالى[٣] ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) وهو الذى آثرناه أولاً لظهوره فيه . والله أعلم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ )

[٦٩] ( اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ )

[٧٠] ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ )

[٧١] ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ )

« وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى من أمر الدين « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً » أى حجة « وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ » أى من ضرورة العقل أو استدلاله « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » أى يدفع عنهم ما يراد بهم .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٤٨ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص/٨٧ ] . (٣) [ ٥ / المائدة / ٤٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ )

[٧٣] ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ )

[٧٤] ( مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ )

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ » أي حال كونها واضحة الدلالة على حقيتها وما تضمنته « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ » أي الإنكار أو الفظيع من التجهم والبسور . أو الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله « يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أي يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب . قال في ( فتح البيان ) : وكذلك أهل البدع المضلة ، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليه ، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة، مخالفاً لما اعتقده من الباطل، رأيت في وجهه من المنكر، مالو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به مالا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ « أي بُيِّنَ » « مَثَلٌ » أي حال مستغرب « فَاسْتَمِعُوا لَهُ » أي تدبروه حق تدبره . فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » يعني الأصنام « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » أي لخلقه متعاونين. وتخصيصه الذباب، لمهانته

وضعفه واستقذاره . وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل المشركين. حيث وصفوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ، صوراً وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ماخلقه الله تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا لذلك « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » أى هـذا الخلق الأقل الأذل ، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه،لم يقدروا « ضَعُفَ الطَّالِبُ » أى الصنم يطلب ماسلب منه « وَالْمَطْلُوبُ » أى الذباب بما سلب . وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف . فإن الذباب حيوان وهو جماد . وهو غالب وذلك مغلوب . وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم ، وبالمطلوب معبوده . قيل : وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم . فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل . واختار الوجه الأول الزمخشرىّ . لما فيه من التهكم، بجعل الصنم طالباً على الفرض تهكماً . وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد ، وذاك حيوان بخلافه .

وهذه الجملة التذييلية إخبار أو تعجب . وقوله تعالى « مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ما عرفوه حق معرفته ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه « إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » أى قادر وغالب . فـكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقوىّ بنصر أوليائه ، عزيز ينتقم من أعدائه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٥] ( اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ )

[٧٦] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ )

« اللهُ يَصْطَفِى » أن يختار « مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » أى فلا نـكران لاصطفائه من البشر من شاء لرسالته . ولا وجه لقولهم(١) : ( أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » قال

(١) [ ٣٨ / ص / ٨ ] .

أبو السعود : كأنه تعالى . لما قرر وحدانيته ، في الألوهية ، ونفى أن يشاركه فيها شيء من الأشياء بيّن أن له عباداً مصطفيْن للرسالة ، يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم ، إلى عبادته عز وجل . وتقدمه بنحوه البيضاويّ « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أي ما عملوه وما سيعملونه « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أي لأنه مالكها . فلا يسئل عما يفعل، من الاصطفاء وغيره ، وهم يسألون.

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) [سجدة]

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » أي صلّوا . وعبر عن الصلاة بهما ، لأنهما أعظم أركانها . أو اخضعوا له تعالى، وخروا له سجداً، لا لغيره « وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ » أي تحرّوه . كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والاتصاف بمكارم الأخلاق « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أي لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

## تنبيهات

الأول لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة . واختلفوا في السجدة الثانية ـ هذه ـ فروى عن عمر وعليّ وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى ؛ أنهم قالوا: في الحج سجدتان . وبه قال ابن المبارك والشافعيّ وأحمد وإسحاق، يدل عليه ما روى[1] عن عقبة ابن عامر قال. قلت يارسول الله أفي الحج سجدتان ؟ قال: نعم

(١) أخرجه أبو داود في: ٧ـ كتاب سجود القرآن ، ١ـ باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن ، حديث رقم ١٤٠٢ .

وأخرجه الترمذيّ في : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٥٤ ـ باب ما جاء في السجدة في الحج ،

ومن لم يسجدها فلا يقرأها . أخرجه الترمذيّ وأبو داود . وعن عمر بن الخطاب[1] أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدتين . أخرجه مالك في ( الموطأ ) وذهب قوم إلى أن في الحج سجدة واحدة ، وهي الأولى ، وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوريّ وأبي حنيفة ومالك . بدليل أنه قرن السجود بالركوع . فدل ذلك أنها سجدة صلاة ، لا سجدة تلاوة ـ كذا في ( لباب التأويل ) أي لأن المعهود في مثله من كل آية ، قرن الأمر بالسجود فيها بالركوع ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، بالاستقراء نحو[2] ( وَاسْجُدِي وَارْكَعِي ) وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال .

وما روي من الحديث المذكور ، قال الترمذيّ رحمه الله : إسناده ليس بالقويّ . وكذا قال غيره . كما في ( شرح الهداية ) لابن الهمام .

قال الخفاجيّ : لكن يرد عليه ما في ( الكشف ) أن الحق أن السجود حيث ثبت ، ليس من مقتضى خصوص في تلك الآية . لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة . بل إنما ذلك بفعل رسول الله ﷺ أو قوله . فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة . ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها ، لما ثبت من الرواية فيه . اهـ .

الثاني ـ قال في ( اللباب ) اختلف العلماء في عدّة سجود التلاوة . فذهب الشافعيّ وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة . لكن الشافعيّ قال : في الحج سجدتان . وأسقط سجدة ( ص ) . وقال أبو حنيفة : في الحج سجدة . وأثبت سجدة ( ص ) . وبه قال أحمد ، في إحدى الروايتين عنه . فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة . وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود . يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس . وبه قال مالك .

---

(١) أخرجه في الموطأ في : ١٥ ـ باب الأمر بالوضوء لمن مسّ القرآن ، حديث رقم ١٣ ( طبعتنا ) . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٤٣ ] .

فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة . يدل عليه ماروى عن أبى الدرداء[1] ؛ أن النبىّ ﷺ قال : فى القرآن إحدى عشرة سجدة . أخرجه أبو داود وقال : إسناده واه . ودليل من قال ( فى القرآن خمس عشرة سجدة ) ما روى عن عمرو بن العاص قال : أقرأنى رسول الله ﷺ فى القرآن خمس عشرة سجدة . منها ثلاث فى المفصل . وفى سورة الحج سجدتان . أخرجه أبو داود[2] . وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ( اقرأ ) و ( إذا السماء انشقت ) أخرجه مسلم [3] . انتهى .

والخمس عشرة : فى الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، والحج ، والفرقان ، والنمل ، والم تنزيل ، وص ، وحم ، السجدة ، والنجم ، والانشقاق ، واقرأ .

والمفصل من سورة الحجرات إلى آخر القرآن ، فى أصح الأقوال . سمى مفصلا لكثرة الفصل بين سورة .

الثالث سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . وبه قال مالك والشافعىّ وأحمد . لقول ابن عمر : كان النبىّ ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد أحدنا موضعاً لجبهته . رواه الشيخان [4] .

---

(١) أخرجه الترمذىّ ( لا أبو داود ) فى : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٤٧ ـ باب ما جاء فى سجود القرآن .

(٢) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب السجود ، ١ ـ باب تفريع أبواب السجود ، وكم سجدة فى القرآن ، حديث رقم ١٤٠١ .

(٣) أخرجه الترمذىّ ( لا مسلم ) فى : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٥٠ ـ باب ما جاء فى السجدة فى ( اقرأ باسم ربك الذى خلق) و ( إذا السماء انشقت ) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ٨ ـ باب من سجد لسجود القارئ ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٣ ( طبعتنا) .

وقال عمر [١] : إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء. رواه البخاريّ . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » عامٌّ فى جهاد الكفار والظلمة والنفس . و ( حق ) منصوب على المصدرية . والأصل ( جهاداً فيه حقا ) فعكس ، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة . وعن الرضيّ : إن ( كلّ ) و ( جدّ ) و ( حقّ ) إذا وقعت تابعة لاسم جنس ، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى ، نحو ( أنت عالم كلّ عالم ) أو ( جدّ عالم ) أو ( حق عالم ) أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرّق فى الكل . وأن ما سواه باطل أوهزل . وقوله تعالى « هُوَ اجْتَبَاكُمْ » أى اختاركم لدينه ولنصرته . وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعى إليه . لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته . وهى بما ذكر . ولأن من قرّبه العظيمُ ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه ، بترك ما لا يرضاه . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » أى فى جميع أمور الدين من ضيق ، بتكليف ما يشق القيام به . كما كان على من قبلنا . فالتعريف فى ( الدين )

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ١٠ ـ باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ، حديث رقم ٥٩٣ ونصه : «يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب . ومن لم يسجد فلا إثم عليه » .

للاستغراق . قال فى ( الإكليل ) : هذا أصل القاعدة ( المشقة تجلب التيسير ) « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » منصوب على المصدرية ، بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج . بعد حذف مضاف أى وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم . أو على الإغراء بتقدير ( اتبعوا أو الزموا ) أو الاختصاص بتقدير ( أعنى ) ونحوه . أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله . فيكون مجروراً بالفتح ، أفاده الشهاب. قال القاضى : وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالأب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية . أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته . فغلبوا على غيرهم .

وقال القاشانىّ : معنى أبوّته كونه مقدماً فى التوحيد ، مفيضاً على كل موحد ، فكلهم من أولاده . وقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل نزول القرآن فى الكتب المتقدمة . والجملة مستأنفة . وقيل : إنها كالبدل من قوله ( هُوَ اجْتَبَاكُمْ ) ولذا لم يعطف « وَفِي هَٰذَا » أى القرآن . أى فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل : الضمير لـ ( إبراهيم ) عليه السلام .

قال القاضى : وتسميتهم بـ ( مسلمين ) فى القرآن ، وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل ، فى قوله [1] ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ) أى لدخول أكثرهم فى الذرية . فجعل مسمياً لهم مجازاً . « لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ) أى بأنه قد بلغكم رسالات ربكم « وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » أى بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ » أى : وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، وثقوا به ، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٣ – سُورَةُ المؤمِنُون

سميت بهم لاشتمالها على جلائل أوصافهم ونتائجها ، فى أولها وفى قوله [(١)] ( إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ) إلى قوله ( سَابِقُونَ ) أفاده المهايمىّ. وهى مكية. واستثنى بعضهم منها آية [(٢)] ( حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ ) إلى قوله ( مُبْلِسُونَ ) وآيها مائة وثمانى عشرة. وقد روى الإمام أحمد ومسلم [(٣)] وغيرهما عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبىّ ﷺ بمكة الصبح . فاستفتح سورة المؤمنين . حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون ، أو ذكر عيسى ، أخذته سعلة فركع .

---

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٧ ] . (٢) ٢٣ / المؤمنون / ٦٤ ] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبى ) .

وأخرجه البخارىّ تعليقا فى ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٠٦ـ باب الجمع بين السورتين فى الركعة

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٦٣ ( طبعتنا ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ )

[٢] ( الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ )

[٣] ( وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ )

[٤] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ )

[٥] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ )

[٦] ( إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ )

[٧] ( فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ )

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » أى دخلوا فى الفوز الأعظم «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» أى متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » . أى عن الفضول وما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، معرضون فى عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » أى للتجرد عن رذيلة البخل .

قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذى فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع فى أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» لأنه الحق المأذون فيه

« فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الكاملون فى العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

## تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملومين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع فى اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قِبل البصر ، جعل الأمر بغضّه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات، واللفظات ، والخطوات. فينبغى للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنها يدخل عليه العدوّ ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيراً .

الثانى ـ روى عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى . واحتج بحديث عبدالله[1] بن مسعود أنه قال : يارسول الله أىّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك. قال قلت: ثم أىّ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أىّ؟ قال: أن تزانى حليلة جارك . والنبىّ ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣ ـ باب قوله تعالى : لا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، حديث ١٩٦٢ .

فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً. وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزنى بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق. فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثماً وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها. إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق. وقد ثبت عن النبي(١) ﷺ أنه قال: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان الجار أخا له ، أو قريباً من أقاربه، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائباً فى طاعة الله، كالصلاة وطلب العلم والجهاد، تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها . فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم

وعلى هذا ، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة. والله المستعان .

الثالث ـ أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره. ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى(٢) ( إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) وقاس ذلك على أمته المملوكة، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد. فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره ، فى الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم فى ( الجواب الكافى ) . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٩ ـ باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم ٢٣٢٦ ، عن أبى شُرَيْح .(٢)[ ٦ / الأنعام/ ٢٣ ] و [ ٧٠/المعارج/ ٣٠]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٨ ] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ )

[ ٩ ] ( وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ )

[١٠] ( أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ )

[١١] ( الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » أى قائمون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتمل العموم فى كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم. ولذا عدت الخيانة فى الأمانة من آيات النفاق فى الحديث المشهور[1] « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى يحافظون عليها. وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها فى أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها. وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولا. فإن الخشوع فى الصلاة، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لايعتد بها بدونه ، أو لعموم هذا له . وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها « أُولَٰئِكَ » أى الجامعون لهذه الأوصاوف «هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ» أى الجنة «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» أى لا يخرجون منها أبداً .

ثم أشار تعالى إلى مبدإ خلقه الإنسان وتقليبه فى أطوار شتى ، حتى نما كاملاً ، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض ، وسخره لمنافعه ، ليشكر مولاه ويعبده ، كما أمره وهداه ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ )

[١٣] ( ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ )

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » أى ابتدأنا خلقه « مِنْ سُلَالَةٍ » أى خلاصة « مِنْ طِينٍ » أى تراب خالط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً » أى بأن خلقناه منها . أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية « فِي قَرَارٍ » أى مستقر ، وهو رحم المرأة الذى نقل إليه « مَكِينٍ » أى متمكن لا يمجّ ما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ )

« ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً » أى بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدم الجامد « فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً » أى قطعة لحم بقدر ما يمضغ « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا » أى بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة « فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا » أى جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ » أى بتمييز أعضائه وتصويره ، وجعله فى أحسن تقويم « فَتَبَارَكَ اللَّهُ » أى تعاظم قدرة وحكمة وتصرفاً « أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » أى المقدّرين . فـ ( الخلق ) بمعنى التقدير كقوله[1] :

وَلَأَنْتَ تَفْرِى ما خلقتَ وبَعْـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

(١) قائله زهير بن أبى سلمى من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الدِّيارُ بقُنَّـةِ الْحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ

يمدح هَرِمَ بن سنان .

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ )

[١٦] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ )

[١٧] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ )

« ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكمالات « لَمَيِّتُونَ » أى لصائرون إلى الموت .

قال المهايمىّ : والحكيم لا يتلف ما استكمله بأنواع التكميل ، ولذلك سيبعثه كما قال « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » أى من قبوركم للحساب والمجازاة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ » أى سبع سمٰوات هى طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها .

قال بعض علماء الفلك ( فى تفسير هذه الآية ) : أى سبعة أفلاك ، للسبع سموات ، لكل سماء طريق تجرى بما معها من الأقمار . قال: فبذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسىّ ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذى يعيّنه قوله تعالى ( فَوْقَكُمْ ) فالمسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجرى فيه سماء بما معها . ويسمى هذا الطريق فلكاً . اهـ . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أى عن ذلك المخلوق ، الذى هو السمٰوات ، أو جميع المخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهدىّ . وعلى الثانى استغراقىّ . أى ما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظه وندبر أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال، حسبما اقتضته الحكمة ، وتعلقت به المشيئة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ )

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » أى جعلناه قارًّا فيها ، يتفجر من الأماكن التى أراد سبحانه إحياءها كقوله[١] ( فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ) « وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » أى إزالته بالتغوير وبغيره ، كما قدرنا على إنزاله . ففى تنكير ( ذهاب ) إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة فى الإبعاد به .

قال الزمخشرىّ : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ، ويقيّدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها ، إذا لم تشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ )

[٢٠] ( وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ )

« فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا » أى فى الجنات « فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً » بالنصب عطف على ( جنات ) وقرئت مرفوعة على الابتداء . أى ومما أنشىء لكم شجرة « تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ » وهو جبل بفلسطين ، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر . قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون ، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها . أو لكثرتها فيه

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٢١ ] .

« تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ » أى ملتبسة بالدهن المستصبح به « وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » أى وبإدام يغمس فيه الخبز ف ( الصبغ ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام . ويختص بكل إدام مائع ، يقال ( صبغ اللقمة : دهنها وغمسها ) وكل ما غمس فقد صبغ . كذا فى ( المصباح ) و ( التاج ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ )

[٢٢] ( وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ )

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً » أى تعتبرون بحالها وتستدلون بها « نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » أى من الألبان « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ » أى فى ظهورها وأصوافها وشعورها ونتاجها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » أى بخلقه وتسخيره وإلهامه . فله الحمد .

قال الزمخشرىّ : والقصد بالأنعام أى الإبل ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة . وقرنها بالفلك التى هى السفائن ، لأنها سفائن البر .

قال ذو الرمة :

* سفينةُ برٍّ تحت خدّى زمامُها *

قال الشهاب : وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور . وهى استعارة لطيفة . وقد تصرفوا فيها تصرفات بديعة . كقول بعض المتأخرين :

لِمَنْ شجرٌ قد أثقلَتْها ثمارُها      سفائنُ برٍّ والسَّرابُ بحارُها

ولما بيّن تعالى دلائل التوحيد ، تأثره بقصص بعثة الرسل لعلوّ كلمته ، فقال سبحانه :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

[٢٤] ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

[٢٥] ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا » أي الداعي إلى عبادة الله وحده ، بدعوى الرسالة منه « إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » أي أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم ، كقوله تعالى(١) ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ « وَلَوْ شَاءَ اللهُ » أي إرسال رسول « لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » أي من السماء « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا » أي بمثل ما يدعو إليه « فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ » أي لعله يرجع أو يفيق من جنته أو يتمادى فنكيد له . قال الرازيّ : واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم هذه الخمسة ، لركاكتها ووضوح فسادها . وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولًا إلا لأنه من جنس الملك . وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات . فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر ، فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولًا . بل جعلُ الرسول من جملة البشر أولى . لما مرّ بيانه في السور المتقدمة . وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة . وأما قولهم ( يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٧٨ ] .

عَلَيْكُمْ ) فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله ، حتى يلزمهم الانقياد لطاعته ، فهذا واجب على الرسول . وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد ، فالأنبياء منزّهون عن ذلك . وأما قولهم ( مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ) فهو استدلال بعدم التقليد ، على عدم وجود الشيء . وهو في غاية السقوط . لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء . فعدمه من أين يدل على عدمه ؟ وأما قولهم ( بِهِ جِنَّةٌ ) فقد كذبوا . لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله . وأما قولهم ( فَتَرَبَّصُوا بِهِ ) فضعيف . لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوّته وهي المعجزة ، وجب عليهم قبول قوله في الحال ، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته . لأن الدولة لا تدل على الحقيقة . وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله ، سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر . ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور ، لا جرم تركها الله سبحانه . انتهى.

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ )

[٢٧] ( فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ )

[٢٨] ( فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

[٢٩] ( وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ )

[٣٠] ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ )

« قَالَ » أي بعد ما أيس من إيمانهم « رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا » أى ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا ، لاتلحقها آفة ولا يعترضها نقص. عبر بكثرة آلة الحس التى بها يحفظ الشيء ، ويراعى من الاختلال والزيغ ، عن المبالغة فى الحفظ والرعاية ، على طريق التمثيل ، وقيل : المعنى بمرأى منا ومشهد فى حفظنا وكلاءتنا. بناء على أن المراد بالعين البصر ، وأنه يسمى البصر عينا لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به . من باب تسمية الشيء باسم محله . وباسم ما هو قائم به .

قال الإمام ابن فورك فى ( متشابه الحديث ) ـ بعد حكاية نحو ما تقدم ـ : وقد اختلف أصحابنا فيما يثبت لله عز وجل من الوصف له بالعين . فمنهم من قال : إن المراد به البصر والرؤية . ومنهم من قال : إن طريق إثباتها صفة لله تعالى بالسمع . وسبيل القول فيها كسبيل القول فى اليد والوجه . انتهى .

ومذهب السلف ؛ أن الصفات يحتذى فيها حذو الذات . فكما أنها منزهة عن التشبيه والتمثيل والتكييف ، فكذلك الصفات إثباتها منزه عن ذلك وعن التحريف والتأويل . وقوله تعالى « وَوَحْيِنَا » أى أمرنا وتعليمنا كيف تصنع « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا « وَفَارَ التَّنُّورُ » كناية عن الشدة . كقولهم ( حمى الوطيس ) . و ( التنور ) كانون الخبز حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، للآية مجازاً « فَاسْلُكْ فِيهَا » أى فأدخل فى الفلك « مِنْ كُلٍّ » أى من كل أمة « زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى فى الدعاء لهم بالنجاة ، عندمشاهدة هلاكهم « إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » أى فى بحر الهلاك ، كما غرقوا فى بحر الضلال وظلمهم أنفسهم، بعد أن أملى لهم الدهر المتطاول « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي » أى فى السفينة أو منها « مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى لمن أنزلته منزل قربك « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما فعل بنوح وقومه « لَآيَاتٍ » أى يستدل بها ويعتبر أولو الأبصار « وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ »

أي مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويدّكر . كقوله تعالى[1] ( وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ) و ( إن ) مخففة على الأصح ـ وقيل نافية . واللام بمعنى ( إلا ) والجملة حالية .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ )

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ » هم عاد أو ثمود . قال الشهاب : ليس في الآية تعيين لهؤلاء . لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما . وأيده في ( الكشف ) بمجيء قصتهم بعد قصة نوح في سورة الأعراف وهود وغيرها . وعليه أكثر المفسرين . ومن ذهب إلى أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، استدل بذكر الصيحة لأنهم هم المهلكون بها. كما صرح به في هذه السورة .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ )

[٣٣] ( وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ )

[٣٤] ( وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ )

[٣٥] أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ١٥ ] .

[٣٦] ( هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ )

[٣٧] ( إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ )

[٣٨] ( إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ )

[٣٩] ( قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ )

[٤٠] ( قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ )

[٤١] ( فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ » أى نعمناهم « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » أى لعزة أنفسكم ، بالتذلل لمثلكم « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ » أى من الأجداث أحياء كما كنتم « هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ » تكرير لتأكيد البعد. أى بَعُدَ الوقوعُ أو الصحةُ لما توعدون من البعث « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا » أى يموت بعض ويولد بعض . لينقرض قرن ويأتى قرن آخر . « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » أى العقوبة الهائلة ، أو صيحة ملك « بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً » أى كغثاء السيل « فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى هلاكا لهم . إخبار أو دعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ )

[٤٣] ( مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ )

[٤٤] ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ )

[٤٥] ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ )

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى وقتها الذى عين لهلاكها « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى » أى متواترين ، واحداً بعد واحد « كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا » أى فى الإهلاك « وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى أخباراً يُسمر بها ويُتعجب منها . يعنى أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم ، إن خيراً وإن شرًّا .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

« فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ » أى حجة واضحة ملزمة للخصم . والمراد به الآيات نفسها . عبر عنها بذلك على طريقة العطف ، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ )

[٤٧] ( فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ )

[٤٨] ( فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ )

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا » أى عن الانقياد وإرسال بنى إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم « وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ » أى متمردين « فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » أى المغرقين فى البحر .

فائدة :

قال الزمخشرى : البشر يكون واحداً وجمعاً[1] ( بَشَراً سَوِيّاً )[2] ( لِبَشَرَيْنِ ) ( فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ )[3] و (مثل) و(غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ( إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ )[4] ( وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ )[5] ويقال أيضاً : هما مثلاه وهم أمثاله[6] ( إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )

[٥٠] ( وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ )

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « لَعَلَّهُمْ » أى قومه « يَهْتَدُونَ » أى إلى طريق الحق ، بما فيها من الشرائع والأحكام « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى دلالة على قدرتنا الباهرة . لأنها ولدته من دون مسيس . فالآية أمر واحد نسب إليهما . أو المعنى: وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس. فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها « وَآوَيْنَاهُمَا » أى جعلنا مأواهما أى منزلها « إِلَىٰ رَبْوَةٍ » أى أرض مرتفعة « ذَاتِ قَرَارٍ » أى مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة: ذات ثمار

---

(١) [ ١٩ / مريم / ١٧ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٤٧ ] .
(٣) [ ١٩ / مريم / ٢٦ ] . (٤) [ ٤ / النساء / ١٤٠ ] .
(٥) [ ٦٥ / الطلاق / ١٢ ] . (٦) [ ٧ / الأعراف / ١٩٤ ] .

وماء . يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها « وَمَعِينٍ » أى وماء معين ظاهر جارٍ . من ( معن الماء إذا جرى ) أو مدرك بالعين ( من عانه ) إذا أدركه بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( يَٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ )

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » نداء وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلٍّ وعهده . فدخل فيه عيسى دخولاً أوليًّا . أو يكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة . وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم . واحتجاجاً على الرهابنة فى رفض الطيبات . وقوله ( وَاعْمَلُو صَالِحاً ) أى عملاً صالحاً . فإنه الذى به سعادة الدارين . وقوله ( إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) أى ذو علم لا يخفى علىّ منها شىء . فأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ )

« وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ » أى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى ملة واحدة ، وهى شريعة الإسلام . إسلام الوجه لله تعالى بعبادته وحده . كقوله[1] ( إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ( فالأمة ) هنا بمعنى الملة والدين « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى من غير شريك « فَاتَّقُونِ » أى فخافوا عقابى ، فى مفارقة الدين والجماعة . قيل : إنه اختير على قوله ( فَاعْبُدُونِ ) الواقع فى سورة الأنبياء ، لأنه أبلغ فى التخويف ، لذكره بعد إهلاك الأمم ، بخلاف ما ثمة . وهذا بناء على أنه تذييل للقصص السابقة ، أو لقصة

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

عيسى عليه الصلاة والسلام ، لا ابتداء كلام . فإنه حينئذ لا يفيده . إلا أن يراد أنه وقع فى الحكاية لهذه المناسبة . كذا فى ( العناية ) .

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٣] ( فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ )

[٥٤] ( فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ )

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً » أى جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفرقاً منوعة « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئن النفس ، معتقد أنه على الحق « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ » أى فى جهالتهم ، ومشيهم مع هواهم ، ونبذهم كتاب الله « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم ، بظهور دين الله وعلو كلمته وهزم عدوه . وشبه جهالتهم بالماء الذى يغمر القامة ، لأنهم مغمورون فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] ( أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ )

[٥٦] ( نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ )

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ » أى نعطيهم إياه ، ونجعله مدداً لهم « مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » أى كلّا. لا نفعل ذلك . بل هم لا يشعرون أصلًا. كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأمّلوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الإثم . وهم يحسبونه معاجلة فيما لهم فيه إكرام . ثم بين سبحانه من له المسارعة فى الخيرات من أوليائه وعباده ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٧] ( إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ )

[٥٨] ( وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ )

[٥٩] ( وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ )

[٦٠] ( وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ )

[٦١] ( أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ )

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » أى من خوف عذابه حذرون « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ » أى شركاً جليًا ، ولا خفيًّا « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أى يعطون ما أعطوه من الصدقات « وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » أى خائفة « أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » أى من رجوعهم إليه تعالى ، فتخشى أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق ، أو غفلت عنه من الآدب « أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة . كما فى قوله تعالى(١) « فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » وقوله تعالى(٢) ( وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ) فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم ، خلا أنه غير الأسلوب ، حيث لم يقل ( أُولَٰئِكَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ) بل أسند المسارعة إليهم ، إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم . وإيثار كلمة ( فى ) على كلمة ( إلى ) للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات . لا أنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها ، بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى(٣) ( وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ .. ) الآية أفاده أبو السعود.

(١) [ ٣/آل عمران/١٤٨ ] . (٢) [٢٩/العنكبوت/٢٧ ] . (٣) [٣/آل عمران/١٣٣] .

« وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » أى إياها سابقون . أى ينالونها قبل الآخرة ، حيث عجلت لهم فى الدنيا، فتكون اللام لتقوية العمل . كما فى قوله تعالى(١) ( هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ) وقيل : المراد ( بِالْخَيْرَاتِ ) الطاعات . والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة. وهم لأجلها فاعلون السبق ، أو لأجلها سابقون الناس ، والله أعلم . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] ( وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

[٦٣] ( بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ )

( وَلَا نُكَلِّفُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا » جملة مستأنفة ، سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة. أى سنتنا جارية على ألا نكلف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها. أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم . فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم ، أفاده أبو السعود .

« وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ » وهو كتاب الأعمال . كقوله تعالى(٢) ( هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَـٰذَا » أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين « وَلَهُمْ أَعْمَالٌ » أى سيئة كثيرة « مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ » أى الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم « هُمْ لَهَا عَامِلُونَ » أى معتادون لا يزايلونها .

---

(١) [ ٢٣ / المؤمنون/٦٣ ] . (٢) [ ٤٥ / الجاثية / ٢٩ ] .

تنبيه :

أغرب الإمام أبو مسلم الأصفهانى فيما نقله عنه الرازى ، فذهب إلى أن قوله تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا . . . ) إلى آخر الآية ، من تتمة صفات المؤمنين المشفقين . كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ( ولا نكلف نفساً إلا وسعها ) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ، (بل قلوبهم فى غمرة من هذا ) هو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال : وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين فى جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ، ولهم أعمال من دون ذلك . أى لهم أيضاً من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه. إما أعمالاً قد عملوها فى الماضى أو سيعملونها فى المستقبل . ثم إنه تعالى رجع .

قال الرازى وقول أبى مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين ، كان أولى من رده إلى ما بعد منه . وقد يوصف المرء لشدة فكره فى أمر آخرته ، بأن قلبه فى غمرة ، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر فى قبول عمله أو ردّه ، وفى أنه هل أداه كما يجب أو قصر . انتهى .

وبعدُ فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك . ولكن لم يرد وصف الغمرة فى حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين . كما تراه فى الآيات أولاً . فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات ، يأبى ما أغرب به أبو مسلم أشد الإباء . والله أعلم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ )

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ » أى متنعميهم « بِالْعَذَابِ » أى بالانتقام ، مثل أخذهم يوم بدر « إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ » أى يصرخون باستغاثة أو الآية . كقوله

تعالى(١) . ( ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ )

[٦٦] ( قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ )

[٦٧] ( مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ )

« لَا تَجْأَرُ الْيَوْمَ » أى يقال لهم تبكيتاً لهم : لا تجأرا ، فإن الجؤار غير نافع لكم « إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ » أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ » أى بالبيت الحرام. والذى سوغ الإضمار ، شهرتهم بالاستكبار به ، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوّامه . وجوز تضمين ( مستكبرين ) معنى ( مكذبين ) والضمير للتنزيل الكريم . أى مكذبين تكذيب استكبار . ولم يذكروا احتمال إرجاع الضمير ( للنكوص ) إشارة إلى زيادة عتوهم ، وأنهم يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما ينذرون به ، كقوله(٢) ( وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ) وليس ببعيد . فتأمل . « سَامِرًا تَهْجُرُونَ » يعنى أنهم يسمرون ليلاً بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك . وهو معنى ( تهجرون ) من ( الهجر ) بالضم ، وهو الفحش فى القول . أو معناه تعرضون . من ( الهجر ) بالفتح .

تنبيه :

قال أبو البقاء : ( سامراً ) حال أيضا وهو مصدر . كقولهم ( قم قائماً ) وقد جاء من المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والعافية . وقيل : هو واحد فى موضع الجميع . انتهى

(١) [ ٧٣ / ١١ ـ ١٣ ] . (٢) [ ٣١ / لقمان / ٧ ] .

فيكون واحدا أقيم مقام الجمع . وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب . قال الشهاب : وعلى كونه مصدراً فيشمل القليل والكثير أيضا ، باعتبار أصله . ولكن مجيء المصدر على وزن ( فاعل ) نادر . وقرئ ( سُمَّرًا ) بضم وتشديد . ( سُمَّار ) بزيادة ألف.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ )

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ » أى القرآن ، ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به وبمن جاء به « أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » أى من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعهد ، لا يوجب النفرة . لأن المألوف قد يكون باطلاً ، فتقتضى به الحكمة التحذير منه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٩] ( أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ )

[٧٠] ( أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ )

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » أى جاحدون بما أرسل به . وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم ، بأنهم ماعرفوا شأنه ولا دروا سر مابعث به مما يؤسف له. كما قال(١) ( يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، أو جن يخبلونه . وهذا توبيخ آخر ، فيه تعجيب من تلونهم فى الجحود ، وتفننهم فى العناد . ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنفتهم للحق كبراً وعتوًّا بقوله « بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » أى لما فيهم من الزيغ والانحراف.

---

(١) [٣٦/ يس / ٣٠ ] .

قال القاشانىّ : ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع ، على مقتضى قوى النفس والطبع ، واشتد احتجابهم بالغواشى الظلمانية عن نور الهدى والعقل ، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد ، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه ، للتقابل بين النور والظلمة ، والتضادّ بين الباطل والحق ، وأنكروه وكرهوا الحق الذى جاء به .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ )

[٧٢] ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ )

[٧٣] ( وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

[٧٤] ( وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ )

« وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » أى ولو كان ما كرهوه من الحق الذى هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه ، موافقا لأهوائهم المتفرقة فى الباطل ، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة ، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذى قامت به السموات والأرض ، والتوحيد الذى به قوامهما . فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك . وفيه من تنويه شأن الحق ، والتنبيه على سموّ مكانه ، ما لا يخفى « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ » إضراب عن توبيخهم بكراهته ، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أى ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا . أو فخرهم أو متمناهم لأنهم كانوا يقولون[1] ( لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ) « فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » أى بالنكوص عنه . وأعاد الذكر تفخيماً . وأضافه لهم لسبقه . وفى سورة الأنبياء[2] ( ذِكْرِ رَبِّهِمْ ) لاقتضاء ما قبله له « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا »

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٦٨و١٦٩ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٢ ] .

أى جعلا على أداء الرسالة ، فلأجل ذلك لا يؤمنون «فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ» أى عطاؤه « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ » أى منحرفون . قال القاشانىّ : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس، ووجود المحبة فى القلب. وشهود الوحدة . والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات ، وعن القدس بالرجس ، إنما هم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة، والركون إلى الكثرة. فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده. فهو فى واد وهم فى واد . وقال الزمخشرىّ : قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات، وقطع معاذيرهم وعللهم، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم ، واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام ، الذى هو الصراط المستقيم. مع إبراز المكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون ، بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ )

« وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قال ابن جرير(١) : أى ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب ، وضر الجوع والهزال ( لَلَجُّوا فى طغيانهم ) يعنى فى عتوّهم وجرأتهم على

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

ربهم ( يَعْمَهُونَ ) يعنى يترددون . وأشار ابن كثير[١] إلى معنى آخر فقال : يخبر تعالى عن غلظهم فى كفرهم ، بأنه لو أزاح عنهم الضر ، وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كما قال تعالى[٢] ( وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ) وقال[٣] ( وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ) الآية . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ )

« وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » .

قال ابن جرير[٤] :أى ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا ، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سراتهم بالسيف فما استكانوا لربهم . أى فما خضعوا لربهم ؛ فينقادوا لأمره ونهيه ، وينيبوا إلى طاعته . وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشا بسنى الجدب ، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ . وعن الحسن قال : إذا أصاب الناسَ من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هى نقمة . فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية . ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرعوا إلى الله . وقرأ هذه الآية ( وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥١ من الجزء الثالث .

(٢) [ ٨ / الأنفال / ٢٣ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ٢٧ و ٢٨ ] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ )

« حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ » يعنى ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر ، أو باب المجاعة والضر ، وهو ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير [1] « إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى حزنى نادمون على ما سلف منهم ، فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لا ينفعهم الندم والحزن . ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة فى الأنفس والآفاق ، فقال سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله فى ذلك ، بصرفها لما خلقت له . وهو أن يدرك

وفى كل شيء لَهُ آيةٌ تَدلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الواحِدُ

والقلة فى الآية هذه ونظائرها ، بمعنى النفى ، فى أسلوب التنزيل الكريم . لأن الخطاب للمشركين .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )

[٨٠] ( وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

[٨١] ( بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ )

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبى الثانية ) .

« وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أي خلقكم وبثكم بالتناسل فيها « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أي تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب «وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي» أي خلقه ، أي يجعلهم أحياء، بعد أن كانوا نطفا أمواتا، ينفخ الروح فيها، بعد الأطوار التي تأتي عليها « وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أي بالطول والقصر . فهو متوليه ولا يقدر على تصريفهما غيره « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أي : إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل ، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم . ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته ، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ، بقوله « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » أي من الأمم المكذبة رسلها .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ )

[٨٣] ( لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ )

« قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » أي أحياء ، كهيئتنا قبل الممات « لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أي ما سطروه في كتبهم ، مما لا حقيقة له :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ )

[٨٥] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ )

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أي فتعلمون أن من ابتدأ ذلك ، قدر على إعادته .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ )

[٨٧] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ )

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى عقابه على شرككم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ )

[٨٩] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ )

« قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ » أى يغيث من أراد ، ممن قصد بسوء « وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ » أى تخدعون عن توحيده وطاعته ، مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخديعة . وتكرير ( إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) لاستهانتهم ، وتجهيلهم ، لكمال ظهور الأمر .

قال فى (الإكليل) : قال مكىّ : فى هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين ، وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم ، ووجوب النظر فى الحجج على من خالف فى دين الله .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ )

[٩١] ( مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ )

[٩٢] ( عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

[٩٣] ( قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ )

[٩٤] ( رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى دعواهم أن له ولداً ومعه شريكا «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » لأنه يجب أن يتخالفا بالذات،وإلا لما تُصُوِّر العدد ـ والمتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا فى الأفعال. فيذهب كل بما خلقه،ويستبد به،ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون ، كما تقدم بيانه فى آية[1] ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ) « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ » أى من العذاب . أى إن كان لابد من أن تريني. لأن (ما)و( النون ) للتأكيد« رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى نجنى من عذابهم. وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب ، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يمكن أن يحيق به . وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم به ، استهزاء . وتكريرُ النداء ، لإظهار زيادة الابتهال .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ )

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٢ ] .

[٩٦] ( ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ )

[٩٧] ( وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ )

[٩٨] ( وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ )

[٩٩] ( حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ )

[١٠٠] ( لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ )

« وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ » أي من العذاب « لَقَادِرُونَ » أي: وإنما نؤخره لحكمة بلوغ الكتاب أجله « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أي بالخلة التي هي أحسن الخلال ، وهو العفو والصفح « السَّيِّئَةَ » يعني أذى المشركين « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أي فسيرون جزاءه « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أي وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد ، والصدّ عن الحق « وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » أي يحضروني في حال من الأحوال « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ » أي حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمنى الرجوع ، وأظهر الندامة ، ونذر العمل الصالح في الإيمان الذي ترك. وقوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ » يعني قوله ( رَبِّ ارْجِعُونِ ) الخ « هُوَ قَائِلُهَا » أي لا يجاب إليها ولا تسمع منه ، يعني أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة ، والتلفظ بألفاظ التحسر والندم ، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة . والآية نظيرها قوله تعالى[1] ( وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ) « وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أي حائل يحول بينهم وبين الرجعة ، يلبثون فيه إلى يوم القيامة .

(١) [ ٦٣ / المنافقون / ١٠ ] .

لطيفة :

الواو فى ( ارجعون ) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى ، وردّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول ( رب ارحمونى ، ونحوه ) لما فيه من إيهام التعدد . مدفوع بأنه لا يلزم من عدم صدوره عنا كذلك ، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه. كما فى ضمير المتكلم . وقيل إنه لتكرير قوله ( ارجعنى ) كما قيل فى ( قفا )و(أطرقا) إن أصله ( قف قف ) على التأكيد،وبه فسر قوله تعالى[1] ( أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ) قال الشهاب : فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة ، بقطع النظر عن معناه،وهو كثير فى الضمائر. كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر فى( كفى به ) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى،ومن لفظ إلى آخر. وما نحن فيه من هذا القبيل . فإنه غيِّر الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد لفظى الفعل ، وجعل دلالة الضمير على المثنى على تكرير الفعل ، قائماً مقامه فى التأكيد،من غير تجوز فيه. ولابن جنى فى( الخصائص )كلام يدل على ماذكرناه . انتهى.

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ )

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » أى لشدة الهول من هجوم ماشغل البال حتى زال به التعاطف والتآلف ، إذ[2] ( يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ) ونفىُ نفع النسب ، إذا دهم مثل ذلك معروف .

كما قال :

لا نَسَبَ اليومَ وَلا خُلَّةٌ اتَّسَعَ الخرقُ عَلَى الراقعِ

---

(١) [ ٥٠ / قٓ / ٢٤ ] . (٢) [ ٨٠ / عبس / ٣٤ـ٣٧ ] .

« وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، لعظم الفزع وشدة ما بهم من الأهوال، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال ، فتنقطع العلائق والوُصَل التى كانت بينهم،وجلىّ أن نفى التساؤل إنما هو وقت النفخ ، كما دل عليه قوله ( فَإِذَا ) أى فوقت القيام من القبور وهول المطلع يشتغل كل بنفسه . وأما ما بعده فقد يقع التساؤل ، كما قال تعالى[1] ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ) لأن يوم القيامة يوم ممتد . ففيه مشاهد ومواقف . فيقع فى بعضها تساؤل وفى بعضها دهشة تمنع منه .

تنبيه :

روى هنا بعض المفسرين أخباراً فى نفع النسب النبوىّ . وحبذا لو روى شىء منها فى الصحيحين ، أو فى مسانيد من التزم الصحة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٢] ( فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ )

[١٠٣] ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ )

[١٠٤] ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ )

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى رجحت حسناته « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتضييع ما منحت من الاستعداد لأن تربح فى تجارة الكمال ، بفطرة الإيمان وصالح الأعمال ، ولله در القائل :

إذا كان رأسَ المال عمرُكَ،فاحترس عليه مِنَ الإنفاق فى غيْرِ واجبِ

« فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تحرقها.و تخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء . فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار « وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » أى مشوهون ، قبيحو المنظر . ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٢٧ ] و [ ٥٢ / الطور / ٢٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ )

[١٠٦] ( قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ )

« أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا » أى ملكتنا « شِقْوَتُنَا » أى التى اقترفناها بسوء اختيارنا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » أى عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب . قال أبو السعود: وهذا، كما ترى، اعتراف منهم ، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم. وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فمع أنه باطل فى نفسه ، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم ـ يردّه قوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ )

[١٠٨] ( قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ )

[١٠٩] ( إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ )

[١١٠] ( فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ )

« رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » أى أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى الدنيا . فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ، فإنا متجاوزون الحدّ فى الظلم . ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم ، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما وعدوا الإيمان والطاعة « قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا » أى ذلوا فيها كخسء الكلاب « وَلَا تُكَلِّمُونِ »

أى فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى « إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي » وهم المؤمنون « يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ » أى بتشاغلكم بهم على تلك الصفة « ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » .

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم ، وأنهم انتفعوا بما آذوهم ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ )

[١١٢] ( قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ )

[١١٣] ( قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ )

[١١٤] ( قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ )

« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ » أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى شيئا ما . أو لو كنتم من أهل العلم . والجواب محذوف ، ثقة بدلالة ما سبق ، عليه . أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها ، كما علمتم اليوم . ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا إليها .

قال الرازىّ : الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلا ، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا . ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ، ولا إعادة . فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون ، سألهم : كم لبثتم فى الأرض ؟ تنبيها لهم على أن ما ظنوه دائما طويلا ، فهو يسير ، بالإضافة إلى ما أنكروه . فحينئذ تحصل

لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه فى الدنيا . من حيث أيقنوا خلافه . فليس الغرض مجرد السؤال ، بل ما ذكر .

قال الزمخشرىّ : استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا ، بالإضافة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحَن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها . أو لأنهم كانوا فى سرور . وأيام السرور قصار . أو لأن المنقضى فى حكم ما لم يكن . وصدّقهم الله فى تقالّهم لسِنى لبثهم فى الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها . وقرئ (فَسَلِ الْعَادِّينَ) والمعنى : لا نعرف من عدد تلك السنين ، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم . لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نعدها ، فسل من فيه أن يعدّ ، ويقدر أن يلقى إليه فكره . وقيل : فسل الملائكة الذين يعدون أعمار العباد ويحصون أعمالهم . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[١١٦] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[١١٧] (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » أى بغير حكمة ، حتى أنكرتم البعث « وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » أى للجزاء « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى تعاظم عما تصفون ، لأنه « الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى المتصرف وحده ، الذى قصد بالخلق معرفته وعبادته . والذى لا يترك الجزاء بل يحق الحق « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » أى العظيم المجيد . وقرئ بالرفع « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

قال ابن جرير[١] : أي : ومن يدع مع المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ، معبوداً آخر لا حجة له بما يقول ولا بينة . فإنما حساب عمله السيء عند ربه . وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه . فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله ، عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم ، قال الزمخشري : وقوله ( لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ) كقوله[٢] ( مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ) وهي صفة لازمة ، نحو قوله[٣] ( يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ) جيء بها للتوكيد ، لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان . ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء . كقولك ( من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فالله مثيبه ) .

قال في ( الانتصاف ) : إن كان صفة ، فالمقصود بها التهكم بمدعي إله مع الله ، كقوله[٢] ( بَلْ أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ) فنفى إنزال السلطان به ، وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان ، لا منزل ولا غير منزل .

وقال الرازي : نبه تعالى بالآية ، على أن كل ما لا برهان فيه ، لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد . انتهى .

ثم أمر تعالى نبيّه بالابتهال إليه واستغفاره والثناء عليه ، بقوله « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » أي خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ١٥١ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ٣٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٤ - سورة النور

سميت به لاشتمالها على ما أمكن من بيان النور الإلهيّ ، بالتمثيل المفيد كمال المعرفة الممكنة لنوع الإنسان ، مع مقدماتها ، وهى أعظم مقاصد القرآن ـ قاله المهايميّ ، وهى مدنية . وقال القرطبيّ : إن آية[1] « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ » الخ مكية . وهى أربع وستون آية .

(١) [ ٢٤ / النور / ٥٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

«سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا» خبر محذوف . أى هذه السورة . والتنكير للتفخيم « وَفَرَضْنَاهَا » أى أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً «وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أى تتذكرونها فتعملون بموجبها . قال الإمام ابن تيمية رحمه الله ، فى تفسير هذه الآيات : هذه السورة فرضها تعالى بالبينات والتقدير والحدود ، التى من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه . ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود . وبيّن فيها فرض العقوبة وآية الجلد وفريضة الشهادة على الزنى وفريضة شهادة المتلاعنيْن . كل منهما يشهد أربع شهادات بالله . ونهى فيها عن تعدى حدود الله فى الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذى السلطان . سواء كان فى منزله أو ولايته . ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه . إذ الحقوق نوعان : نوع لله فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعبادة فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك ، فليس لأحد أن يفعل شيئاً فى حق غيره إلا بإذن الله . وإن لم يأذن المالك ، فإذن الله هو الأصل ، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان فى المساكن والمطاعم وفى الأمور الجامعة . كالصلاة والجهاد ونحوها . ووسطها بذكر النور الذى هو مادة كل خير وصلاح كل شىء . وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك . فإنه ضياء . فإن حفظ الحدود بتقوى الله ، يجعل لصاحبه نورا . كما قال تعالى[١] ( اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ... ) . الآية فضدّ النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين بأعمال الكفار . وأهل البدع والضلال .

(١) [ ٥٧ / الحديد / ٢٨ ] .

فقال[١] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ الآية ، إلى قوله[٢] ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ...﴾ الآية وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة. وظلم العبد نفسه من الظلم. فإن للسيئة ظلمة فى القلب ، وسوادا فى الوجه ، ووهنا فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضاً فى قلوب الخلق. كما روى ذلك عن ابن عباس. يوضحه أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ، وأعمال الكفار بالظلمة. والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله. والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه ، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصى. كما لا يصير مؤمناً إذا كان معه بعض فروع الإيمان. ولغضّ البصر اختصاص بالنور. كما فى حديث أبى هريرة الذى صححه الترمذى[٣] : إن العبد إذا أذنب ... الحديث. وفيه : فذلك الرّان الذى ذكر الله. وفى الصحيح[٤] : إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة. والغين حجاب رقيق أرقّ من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر ليزيل الغين ، فلا يكون نكتة سوداء. كما أنها إذا أزيلت لا تصير ريناً. وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو فى القلب لمظة بيضاء. فكلما ازداد العبد إيماناً ، ازداد قلبه بياضاً ، وفى خطبة الإمام أحمد ، فى الرد على الزنادقة: الحمد لله الذى جعل فى كل زمانِ فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى. يُحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصّرون بنور الله أهل العمى.. الخ. وقد قرن الله سبحانه بين الهدى والضلال بما يشبه هذا. كقوله تعالى[٥] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ وقال[٦] ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ وقال[٧] ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآيات

(١) [ ٢٤ / النور ٣٩ ]. (٢) [ ٢٤ / النور / ٤٠ ].

(٣) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨٣ ـ سورة المطففين ، حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث. (٤) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤١ (طبعتنا). (٥) [ ٣٥ / فاطر / ١٩و٢٠ ]. (٦) [ ١١ / هود / ٢٤ ].

(٧) [ ٢ البقرة / ١٧ ].

وهذا النور الذى يكون للمؤمن فى الدنيا على حسن عمله واعتقاده ، يظهر فى الآخرة ، كما قال تعالى[١] (يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ...) الآية ، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة ، كما فى سورة النور عقيب أمره بغض البصر والتوبة . وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج ومايتعلق بالنساء . وقال فى سورة الحديد[١] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إلى قوله (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذى كان المؤمنون يمشون به ، ويطلبون الاقتباس من نورهم، فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم . كما أنهم فى الدنيا لما فقدوا النور[٢] (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) الآية . وقوله تعالى:

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢] (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها . أى كل من زنى من الرجال والنساء ، فأقيموا عليه هذا الحد . وهو أن يجلد ، أى يضرب على جلده مائة جلدة، عقوبة لما صنع «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ» أى رقة ورحمة فى طاعته فيما أمركم به ، من إقامة الحد عليهما، على ما ألزمكم به «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أى تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب . فإن من كان بذلك مصدقاً ، فإنه لا يخالف الله فى أمره ونهيه ، خوف عقابه على معاصيه «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»

---

(١) [ ٥٧ / الحديد / ١٢و١٥ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٧ ] .

أى وليحضر جلدها طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله . قال ابن جرير[١] : العرب تسمى الواحد فما زاد طائفة .

قال ابن تيمية عليه الرحمة : فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين . وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه . لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة . كما فى الأثر[٢] ( من أذنب سرا فليتب سرا . ومن أذنب علانية فليتب علانية ) وليس من الستر الذى يحبه الله ، كما فى الحديث[٣] ( إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها . فإذا أعلنت ولم تنكر ، ضرت العامة ) فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن . و لهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة . كما روى عن الحسن وغيره . لأنه لما أعلن استحق العقوبة . وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته . ولو لم يذكر إلا بما فيه لاغتر به الناس . فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته . قال الحسن : أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروه بما فيه كي يحذره الناس . و ( الفجور ) اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح ، يدل السامع له على فجور قلب قائله . ولهذا استحق الهجرة ، إذا أعلن ببدعة أو معصية ، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله . بهذا لا يبالى بطعن الناس عليه . فإن هجره نوع تعزير له . فإذا أعلن السيئات ، أُعلِنَ هجره ، وإذا أسر أُسرَّ هجره ، إذ الهجرة هى الهجرة على السيئات وهجرة السيئات ، كقوله[٤] ( وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ) وقوله[٥] ( وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ) وقوله[٦] ( فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ) وقد روى عن عمر ؛ أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) جاء فى حاشية تفسير سورة النور لابن تيمية ، بالصفحة رقم ٦ ، ما يأتى :

قيل : هذا من كلام عمر بن الخطاب . قال فيه : فإن من أبدى لنا عورته ، نقم عليه حد الله تعالى . انتهى من هامش الأصل . (٣) لم أعثر على هذا الحديث .

(٤) [ ٧٤ / المدثر / ٥ ] . (٥) [ ٧٣ / المزمل / ١٠ ] . (٦) [ ٤ / النساء / ٤٠ ] .

أخوه إلى أميرها عمرو بن العاص ليحده ، جلده سرا . فبعث إليه عمر ينكر عليه. ولم يعتدّ بذلك حتى أرسل إلى ابنه ، فأقدمه المدينة وجلده علانية، وعاش ابنه مدة ثم مرض ثم مات . ولم يمت من الجلد ، ولا ضرب به بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

وقوله تعالى ( وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ) نهى تعالى عما يأمر به الشيطان فى العقوبات عموماً وفى الفواحش خصوصاً . فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة، والرأفة التى يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة فى الدياثة، إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به ،أو يعاشره عشرة منكرة ولو كان ولده ، رقّ به وظن أن هذا من رحمة الخلق. وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين وإعانة على الإثم والعدوان . وترك للتناهى عن المنكر . وتدخل النفس به فى القيادة التى هى أعظم من الدياثة كما دخلت عجوز السوء مع قومها، فى استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك. وكانت فى الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط، وفى الباطن منافقة على دين قومها. لا تقلى عملهم كما قلاه لوط . وكما فعل النسوة بيوسف. فإنهن أعنّ امرأة العزيز على ما دعته إليه من فعل الفاحشة معها ولهذا قال(١) (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وذلك بعد قولهن (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض فى القلب . فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى(٢) : (إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) وفى الصحيحين(٣) من حديث أبى هريرة(العينان تزنيان) إلخ فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع كالنظر والاستمتاع والمخاطبة . ومنهم من يرتقى إلى المس والمباشرة . ومنهم من يقبل وينظر . وكل ذلك حرام . وقد نهانا الله سبحانه أن تأخذنا بالزناة رأفة ، بل نقيم عليهم الحد ، فكيف بما دونه من هجر ؟ ونهى

(١) [ ١٢ / يوسف ٣٣ ] . (٢) ١٥ / الحجر / ٧٢ ] .

(٣) أخرجه أبو هريرة فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٢ ـ باب زنى الجوارح دون الفرج ، حديث ٢٣٧٢ .

وأخرجه مسلم فى ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٠ ( طبعتنا ) .

وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقِلاهم على مايتمتع به الإنسان من أنواع الزنى المذكورة في الحديث . والمحب ، وإن كان يحب النظر والاستمتاع بصورة المحبوب وكلامه ، فليس دواؤه في ذلك ، لأنه مريض . والمريض إذا اشتهى مايضره أو جزع من تناول الدواء الكريه، فأخذتنا به رأفة، فقد أعناه على مايهلكه ويضره . وقال تعالى[1] ( إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) أي فيها الشفاء والبرء من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً ، مثل الصلاة ومافيها من الأذكار والدعوات. وأن يحمى عما يزيد علته. ولا يظن أنه إذا استمتع بمحرم يسكن بلاؤه . بل ذلك يوجب له زيادة في البلاء . فإنه وإن سكن مابه عقيب استمتاعه ، أعقبه ذلك مرضاً عظيماً لا يتخلص منه . بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء . ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر من ألم المرض الباقي. وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية أدوية نافعة . وهي من رأفة الله بعباده، الداخلة في قوله تعالى[2] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فمن ترك هذه الرحمة النافعة ، لرأفة بالمريض، فهو الذي أعان على عذابه ، وإن كان لا يريد إلا الخير . إذ هو في ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء بمرضاهن وبمن يربينهن من أولادهن في ترك تأديبهم على مايأتونه من الشر ويتركونه من الخير. ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وبرودة القلب والدياثة . وهو في ذلك من أظلم الناس وأديثهم في حق نفسه ونظرائه . وهو بمنزلة جماعة مرضى قد وصف لهم الطبيب ماينفعهم ، فوجد كبيرهم مرارته ، فترك شربه . ونهى عن سقيه للباقين . ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانيين محبوباً له ، إما لقرابة أو مودة أو إحسان، أو لما يرجوه منه ، أو لما في العذاب من الألم الذي يوجب رقة القلب . ويتأول[3] ( إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤٥ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٧ ] .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب قول النبيّ ﷺ : يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ، حديث رقم ٦٨٢ ، عن أسامة بن زيد .

الرُّحَماءَ ) وليس كما قال. بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه. بل قد ورد[١] (لا يدخل الجنة ديوث ) فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارها لها ولأهلها ، ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها ، لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى ( وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ) الآية ، في دين الله هو طاعته وطاعة رسوله . المبنيّ على محبته ومحبة رسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله مالم تكن مضيعة لدين الله . فالرحمة مأمور بها بخلاف الرأفة في دين الله . والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها . فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة ، زيّن له الرحمة حتى لا يبغض ماأبغضه الله ، ولا يغار . وإن رآه مائلاً إلى الشدة ، زيّن له الشدة في غير ذات الله، فيزيد في الذم والبغض والعقاب على مايحبه . ويترك من اللين والصلة والإحسان والبر مايأمر الله به . فالأول مذنب والثاني مسرف . فليقولا جميعاً[٢] ( رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ) الآية . وقوله ( إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ) فالمؤمن بذلك يفعل مايحبه الله ، وينهى عما يبغضه الله . ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه . فتارة تغلب عليه الشدة[٣] ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ) والنظر والمباشرة ، وإن كان بعضه من اللمم ، فإن دوام ذلك وما يتصل به ، من المعاشرة والمباشرة قد تكون أعظم بكثير من فساد زنى لا إصرار فيه . بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك . كما قال تعالى[٤] ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ) الآية . ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان . والله تعالى إنما ذكره عن امرأة العزيز

---

(١) أخرجه النسائيّ في : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى ، عن ابن عمر ، ونصه : ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث .. الخ . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٤٧ ] .

(٣) [ ٢٨ / القصص / ٥٠ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٦٥ ] .

المشركة وعن قوم لوط. وقد جمع النبي ﷺ الحدود. فيما رواه أبو داود من حديث ابن عمر[١] ( من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضادّ الله فى أمره. ومن خاصم فى باطل، وهو يعلم ، لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ومن قال فى مسلم ما ليس فيه، حبس فى ردغة الخبال حتى يخرج مما قال ) . فالشافع فى الحدود مضادٌّ لله فى أمره . فلا يجوز أن يأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصى. وجماع ذلك كله قوله[٢] ( أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله[٣] ( أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ) فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر كما فى الصحاح[٤] ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ) الخ. ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرأفة بهم. ولا منافاة بين كون الواحد يحب من وجه ويبغض من وجه، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه . خلافاً للخوارج والمعتزلة . ولهذا جاء فى السنة أن من أقيم عليه الحد ، يرحم من وجه آخر ، فيحسن إليه ويدعى له . وهذا الجانب أغلب فى الشريعة ، كما فى صفة الرب سبحانه وتعالى. ففى الصحيح[٥] ( إن رحمتى تغلب غضبى ) وقال[٦] ( نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ) وقال[٧] ( اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١٤ ـ باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ، حديث رقم ٣٥٩٧ .

(٢) [ ٥ / المائدة / ٥٤ ] . (٣) [ ٤٨ / الفتح / ٢٩ ]

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣٠ ـ باب النهى بغير إذن صاحبه ، حديث رقم ١٢٢٠ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٠ ( طبعتنا )

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ، حديث ١٥٠٩ ، عن أبى هريرة .

(٦) [ ١٥ / الحجر / ٤٩ و ٥٠ ] . (٧) [ ٥ / المائدة / ٩٨ ] .

الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) فجعل الرحمة صفة له مذكورة فى أسمائه . وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته . ومن هذا ما أمر الله تعالى به من الغلظة على الكفار والمنافقين . وقال تعالى[1] ( وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ) الآية ، وفى الحديث[2] بيان السبيل الذى جعله الله لهن وهو جلد مائة وتغريب عام فى البكر، وفى الثيب الرجم. لكن الذى فى الحديث الجلد والنفى للبكر من الرجال . وأما الآية ففيها ذكر الإمساك فى البيوت للنساء إلى الموت ، والسبيل للنساء خاصة . ومن الفقهاء من لا يوجب مع الحد تغريباً . ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة . كما أن أكثرهم لا يوجبون الجلد مع الرجم. ومنهم من يوجبهما جميعاً . كما[3] فعل عليٌّ بشراحة الهمْدانية ، حيث جلدها ثم رجمها . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة نبيه . رواه البخارىّ . والله سبحانه ذكر فى سورة النساء مايختص بهن من العقوبة . ثم ذكر مايعم الصنفين فقال[4] ( وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ) فإن الأذى يتناول الصنفين . وأما الإمساك فيختص بالنساء، لأن المرأة يجب أن تصان بما لا يجب مثله فى الرجل ولهذا خصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج، لأن ظهورها يسبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن ، وقوله[5] ( فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ) دل على شيئين : على نصاب الشهادة وعلى أن الشهداء على نسائنا منا . وهذا لا نزاع فيه . وأما شهادة الكفار بعضهم على بعض ففيها روايتان عن أحمد . الثانية أنها تقبل . اختارها أبو الخطاب . وهو قول أبى حنيفة . وهو أشبه بالكتاب والسنة . وقوله[6] صلى الله عليه وسلم : ( لا تجوز شهادة أهل ملة

(١) [ ٤ / النساء / ١٥ ] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٢ ( طبعتنا ) .

(٣) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢١ ـ باب رجم المحصن ، حديث رقم ٢٥١٣ ، عن علىّ . وهو مطول فى المسند رقم ٨٣٩ ( طبعة المعارف ) .

(٤) [ ٤ / النساء / ١٦ ] . (٥) [ ٤ / النساء / ١٥ ] . (٦) لم أقف على هذا الحديث.

على ملة ، إلا أمتى ) فمفهومه جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضهم على بعض. ولكن فيه : أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم ، لقوله تعالى[1] ( لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ) وفى آخر الحج مثلها وفى البخارى[2] من حديث أبى سعيد ( يدعى نوح ) الحديث. وكذلك فيهما[3] من حديث أنس، شهادتهم على الجنازتين خيراً وشراً، فقال (أنتم شهداء الله فى أرضه) الحديث . ولهذا ، لما كان أهل السنة والجماعة لم يشوبوا الإسلام بغيره ، كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة ، بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض ، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن هذه الحقية التى جعلها الله لأهل السنة ، قال فيهم[4] ( يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) واستدل من جوّز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية[5] ( يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ) الآية ، قالوا : دلت على قبول شهادتهم على المسلمين . ففيه تنبيه على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى . ثم نسخُ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى ، والتنبيه على الأقوى . كما نص عليه أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف . ولهذا يجوز فى الشهادة للضرورة مالا يجوز فى غيرها . كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال . حتى نص أحمد على قبول شهادتهن فى الحدود التى تكون فى مجامعهن الخاصة .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٤٣ ] . و [ ٢٢ / الحج / ٧٨ ].

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣ ـ باب قول الله عز وجل : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، حديث رقم ١٥٧٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٦ ـ باب ثناء الناس على الميت ، حديث رقم ٧٢٣ . وأخرجه مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ ( طبعتنا ) .

(٤) لم أعثر على هذا الحديث .

(٥) [ ٥ / المائدة / ١٠٦ ] .

فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى،والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ[١] رجم الزانيين من اليهود ، ومن غير سماع إقرار منهما ولا شهادة مسلم . ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك.وفى تولى بعضهم مال بعض ، نزاع،فهل يتولى الكافر العدل فى دينه،مال ولده الكافر ؟ على قولين . والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت السنة بذلك وسنة خلفائه. وقوله تعالى ( فَآذُوهُمَا ) أمر بالأذى مطلقاً.ولم يذكر صفته ولا قدره. ولفظ (الأذى) يستعمل فى الأقوال كثيرا. كقوله[٢] ( لَنْ يَضرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء . فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوبخ إلا أن يتوب. وأدنى ذلك هجره. فلا يكلم بالكلام الطيب . وهذه محكمة.فمن أتى الفاحشة وجب إيذاؤه بالكلام الزاجر إلى أن يتوب . وليس ذلك محدودا بقدر ولا صفة . إلا ما يكون زاجراً له داعيا إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه . وعلّقه تعالى على التوبة والإصلاح ، فإذا لم يوجدا ،فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً . فأما من تاب بترك الفاحشة ولم يصلح ، فتنازعوا :هل من شرط التوبة صلاح العمل ؟ على قولين. وهذه تشبه قوله[٣] ( فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ) فعلق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح . مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكفّ عنهم . ثم إن صلوا وزكوا، وإلا عوقبوا على ترك الفعل. لأن الشارع فى التوبة شرع الكف عن أذاه . ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام . وكذلك التائب من الفاحشة . وهذه الآية مما يستدل به على التعزير بالأذى . والأذى، وإن كان كثيراً يستعمل فى الكلام ، فليس مختصًّا به . كقوله لمن بصق فى القبلة[٤] ( إنك قد آذيت الله

---

(١) الحديث أخرجه البخاريّ فى: ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب الرجم فى البلاط، حديث رقم ٧٠٤ ، عن ابن عمر .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ١١١ ] . (٣) [ ٩ / التوبة / ٥ ] .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٢٢ ـ باب فى كراهية البزاق فى المسجد ، حديث رقم ٤٨١ عن أبى سهلة الشائب بن خلّاد .

ورسوله ) وكذا قوله فى حق فاطمة [١] ( ويؤذينى ما آذاهـا ) وقوله [٢] لمن أكل البصل ( إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ) وهل يكون من توبته اعترافه بالذنب ؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد وكذب الشهود أو ثبت بشهادة شهود . فيه نزاع . فذكر أحمد أنه لا توبة لمن جحد . واستدل بقصة علىّ بن أبى طالب : أنه أتى بجماعة ممـن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا . فقبل توبتهم . وجحد جماعة فقتلهم . وقال ﷺ لعائشة [٣] ( فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه ) فمن أذنب سراً فليتب سراً ، كما فى الحديث [٤] ( ومن ابتلى بشىء من هذه القاذورات فليستتر ) الخ ، وفى الصحيح [٥] ( كل أمتى معافى إلا المجاهرون ) الحديث . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة . ومع الجحود لا تظهر التوبة . فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب . ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعـة أو فجوراً . فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم . ومن أذاه منعه ، مع القدرة ، من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة . وأما بدون القدرة ، فليفعل المقدور عليه . ولم يعلق الأذية على استشهاد أربعة ، وليس هذا من حمل المطلق على المقيد .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٩ ـ باب ذب الرجل عن ابنته فى الغيرة والإنصاف ، حديث رقم ٥٣٨ عن المسور بن مخرمة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ، حديث رقم ٧٤ ( طبعتنا عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك ، حديث ١٢٦٦ ، عن عائشة .

(٤) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى ٤١ ـ كتاب الحدود ، رقم ١٢ ( طبعتنا ) ، عن زيد بن أسلم .

(٥) أخرجـه البخارىّ فى ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٦٠ ـ باب ستر المؤمن على نفسه ، حديث رقم ، ٢٣٣٥ ، عن أبى هريرة .

لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحداً ، مثل الإعتاق . فإذا كان متفقاً فى الجنس دون النوع كإطلاق الأيدى فى التيمم ، وتقييدها إلى المرافق فى الوضوء ، فلا يحمل . ولم يحمل الصحابة والتابعون المطلق على المقيد فى قوله تعالى [1] ( وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ) وقوله تعالى [2] ( وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ) قالوا : الشرط فى الربائب خاصة . قالوا: أبهموا ما أبهم الله . والمبهم هو المطلق . والمشروط فيه هو المقيد. لكن تنازعوا: هل الموت كالدخول ؟ على قولين . وذلك لأن الحكم مختلف ، والقيد ليس متساوياً فى الأعيان. فإن تحريم جنس ، ليس مثل تحريم جنس يخالفه . كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير ، لما كان أجناساً ، فليس تقييد الدم بالمسفوح موجباً تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً . وهذا القيد قيد الربيبة بدخول أمها . والدخول بالأم لا يوجد مثله فى حليلة الأب وأم المرأة. إذ بالدخول فى الحليلة ، بها نفسها . وفى أم المرأة ببنتها . وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد فى نصاب الشهادة . بل لما ذكر الله فى آية الدّين[3] ( رجلاً وامرأتين ) وفى الرجعة[4] ( رجلين ) أقروا كلا منهما على حاله . لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع . كما أن إقامة الحد فى الفاحشة والقذف بها اعتبر فيه أربعة ، فلا يقاس بذلك عقود الأثمان والأبضاع ، وذكر فى حد القذف ثلاثة أحكام : جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبدا ، وأنهم [5] فاسقون ، إلا الذين تابوا ، الآية . والتوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف ، وترفع الفسق بلا تردد . والأكثر قالوا : ترفع المنع من قبول الشهادة . وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة لم يرجم ، كما فى الصحيح [6]

(١) [٤/النساء/٢٣]. (٢) [ ٤ / النساء / ٢٢ ] . (٣) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .
(٤) [ ٦٥ / الطلاق / ٢ ] . (٥) [ ٢٤ / النور / ٤ و ٥ ] .
(٦) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور ، ٣ ـ باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، حديث رقم ١٢٩٦ ، عن ابن عباس .

( إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها. وإن جاءت به يشبه الرجل الذى رماها به، فقد صدق عليها) فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبى ﷺ ( لولا الأيمان لكان لى ولها شأن) فقيل لابن عباس : هذه التي قال فيها ( لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها ) فقال: لا . تلك امرأة كانت تعلن السوء فى الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحداً إلا ببينة. ولو ظهر على الشخص السوء. ودل الحديث على أن الشبه له تأثير فى ذلك ، ولم تكن بينة . وكذلك ثبت عنه فى الجنازة لما أثنوا عليها شرًّا، والأخرى خيراً . فقال[1] ( أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ) وفى المسند عنه[2] أنه قال ( يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ) قالوا يا رسول الله ! وبم ذاك ؟ قال بالثناء الحسن وبالثناء السيء فقد جعل الاستفاضة حجة وبينة فى هذه الأحكام. ولم يجعلها حجة فى الرجم . وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين فى الوصية فى السفر . وكذلك تقبل شهادة الصبيان فى الجراح إذا أدّوها قبل التفرق ، فى إحدى الروايتين . وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة أو الصبى فى لحاف ، أو بيت مرحاض، أو محلولى السراويل، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك، من وجود اللحاف فقد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره، فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل. فإن لم يكن ما يستخفى به إلا ما شهد به الشاهد، كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا باب عظيم النفع فى الدين. وهو مما جاءت الشريعة التى أهملها كثير من القضاة والمتفقهة، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع . وهذا خلاف ما تواترت به السنّة وسنة الخلفاء الراشدين . وما فطرت عليه القلوب التى تعرف المعروف وتنكر المنكر . ويدل عليه قوله تعالى ( يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ) الآية . ففيها دلالات : إحداها أنه لم يأمر بالتبين عند مجىء كل فاسق بكل نبأ؛ إذ من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين. ومنها ما يباح فيه ترك التبين. ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس، لأنه علل بخشية الإصابة،

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٣ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤١٦ ــ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبى ) .

بجهالة . فلو كان كل ما أصيب بنبإ كذلك ، لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق. بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ كذلك لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق ، بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنه مطلقاً . وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات. فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك . فإنها نزلت بإخبار واحد. أن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد . وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت. فيجوز إصابة القوم إذاً . فكيف خبر العدل مع دلالة أخرى؟ ولهذا كان أصح القولين، أن مثل هذا لَوْثٌ في القسامة فإذا انضاف أيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله ( بِجَهَالَةٍ ) جعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم. فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور . وهذا هو المناط الذى دل عليه القرآن كما قال[1] ( إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) وقال[2] ( وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) وأيضاً علل بخوف الندم. وهو إنما يحصل على عقوبة البرىء من الذنب كما فى السنن[3] (ادرأوا الحدود بالشبهات. فإن الإمام ، أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة ) فإذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنبا ، فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ . وقد ذكر الشافعىّ وأحمد أن التغريب جاء فى السنة فى موضعين : أحدهما الزنى ، والثانى المخنث[4] ، فيما روت أم سلمة أن النبىّ ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لكم الطائف غداً ، أدلك على ابنة غيلان . فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال رسول الله ﷺ : ( أخرجوهم من بيوتكم ) . أخرجاه. وفى لفظ ( لا يدخل هؤلاء عليكم ) وفى رواية ( أرى هذا يعرف مثل هذا. لا يدخلن عليكم بعد اليوم ) وقال ابن جريج : هوهيت . وقال غيره : هنب . وقيل : ماتع . وذكر

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٨٦ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٣٦ ] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢ ـ باب ما جاء فى درء الحدود ، عن عائشة ونصه : ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . الخ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٦٢ ـ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت حديث رقم ١٩٢٧ .

بعضهم أنهم ثلاثة : نهم وهيت وماتع . ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى . إنما كان تخنيثهم لينا فى القول ، وخضاباً فى الأيدى والأرجل ، ولعباً كلعب النساء . وفى السنن : أنه أمر بمخنث فنفى إلى النقيع . فإذا كان الله أمر بإخراج هؤلاء من البيوت ، فمعلوم أن الذى يمكن الرجال من نفسه، شر من هؤلاء: وهو أحق بالنفى. فإن المخنث فيه فساد للرجال والنساء . لأنه إذا تشبه بالنساء ، فقد يعاشرنه وهو رجل ، فيفسدهن . ولأنها إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل وتعاشر الصنفين. وقد تختار مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال . وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به ، بمشاهدته وعشقه فإذا خرج إلى بلد ووجد هناك من يفعل به ، فهنا يكون نفيه بحبسه فى مكان ليس معه غيره فيه . وإن خيف خروجه، قيد؛ إذ هذا هو معنى نفيه. ولهذا تنازع العلماء فى نفى المحارب: هل هو طرده بحيث لا يأوى إلى بلد ، أو حبسه ، أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا؟ فعن أحمد ثلاث روايات: الثالثة أعدل وأحسن . فإن نفيه بحيث لا يأوى إلى بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلافهم واختلاف هممهم . وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤونة. وروى أن هنباً لما اشتكى الجوع أمره النبى ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته ، والذى جاءت به الشريعة من النفى هو نوع من الهجرة وليس كنفى الثلاثة[1] الذين خلفوا ، ولا هجرهم . فإنه لم يمنعهم من مشاهد الناس وحضور مجامعهم فى الصلاة وغيرها . وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً. فمن كانت مخالطته تضر ، استحق الإخراج من بينهم، لأنه مضرة بلا مصلحة. فإن الصبى إذا رأى صبيا يفعل شيئاً تشبه به . والاجتماع بالزناة واللوطية : فيه أعظم الفساد والضرر على الرجال والنساء والصبيان . فيجب أن يعاقب اللوطى والزانى بما فيه تقريعه وإبعاده . وجماع الهجرة هى هجرة السيئات وأهلها . وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق وهجران من

(١) يشير إلى حديث كعب بن مالك الذى رواه البخارى فى : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٨ ـ باب : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث ١٣٢ .

يخالط هؤلاء كلهم ويعاونهم . وكذلك من يترك الجهاد الذى لا مصلحة لهم بدونه . فإنه يعاقب بهجرهم له ، لمالم يخالطهم فى البر . فمن لم يهجر هؤلاء كان تاركا للمأمور فاعلاً المحذور. فهذا ترك المأمور من الاجتماع . وهذا فعل المحذور منه . فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه. وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك ، يفعل بحسب الاستطاعة . فإن لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين ، جاهد من يقدر على جهاده. وإذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين ، عاقب من يقدر على عقوبته . فإذا لم يكن النفى والحبس عن جميع الناس ، كان النفى والحبس على حسب القدرة . ويكون هو المأمور به ، فالقليل من الخير، خير من تركه . ودفع بعض الشر خير من تركه كله . وكذلك المتشبهة بالرجال تحبس ، كحالها إذا زنت فإن جنس الحبس مما شرع فى جنس الفاحشة . ومما يدخل فى هذا : أن عمر نفى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة ، لما شبب به النساء. وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الفاتن ، فلما رآه من أحسن الناس وجنتين ، غمه ذلك فنفاه إلى البصرة . فهذا لم يصدر منه ذنب يعاقب عليه ، لكن كان فى النساء من يفتتن به ، فأمر بإزالة جماله الفاتن. فإن انتقاله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب . وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه . وليس من باب المعاقبة . وقد كان عمر ينفى فى الخمر إلى خيبر ، زيادة فى عقوبة شاربها. ومن أقوى ما يهيج الفاحشة ، إنشاد أشعار الذين فى قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ، وإن كان القلب فى عافية ، جعل فيه مرضاً ، كما قال بعض السلف: الغناء رقية الزنى. ورقية الحية هى التى تستخرج بها الحية من جحرها . ورقية العين والحمة ورقية الزنى. أى تدعو إليه وتخرج من الرجل الأمر الخبيث . كما أن الخمر أم الخبائث. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت الماء البقل . وقال تعالى[1] ( وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ) واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ، كما قاله من قاله من السلف ، وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك. فإن هذه الأصوات توجب

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٦٤ ] .

انزعاج القلوب والنفوس الخبيثة إلى ذلك ، وتوجب حركتها السريعة واضطرابها . حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة . والنفس متحركة . فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهى لا تزال متحركة . وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه . وفى [١] الحديث المرفوع ( القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً ) وفى الحديث الآخر [٢] ( مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض ، تحركها الريح ) وفى البخارىّ عن ابن عمر [٣] : كانت يمين رسول الله ﷺ ( لا ، ومقلب القلوب ) ولمسلم [٤] عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ( اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك ) وفى الترمذىّ [٥] : كان ﷺ يكثر أن يقول ( يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ) قيل : يارسول الله ! آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا ؟ فقال ( نعم . القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء ) انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى قوله تعالى ( الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا ) الآية ، وجوب الحد على الزانى والزانية ، وأنه مائة جلدة . أى فى البكر كما بينته السنة . واستدل بعمومه من أوجب المائة على العبد والذمىّ وعلى المحصن ، ثم يرجم . فأخرج [٦] أحمد عن علىّ أنه .

(١) لم أقف عليه . (٢) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ ـ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) عن أبى موسى .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث رقم ٢٤٨٧ .

(٤) أخرجه فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ١٧ (طبعتنا ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، عن أنس . (٦) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٢ ، حاشية رقم ٣ .

أتى بمحصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ . واستدل الخوارج بالآية على أن حد المحصن الجلد دون الرجم. قالوا : لأنه ليس في كتاب الله . واستدل أبو حنيفة بها على أنه لا تغريب ، إذ لم يذكره. وفي الآية رد على من قال : إن العبد إذا زنى بحرة يرجم . وبأمة يجلد. وعلى من قال : لا تحد العاقلة إذا زنى بها مجنون، والكبيرة إذا زنى بها صبي ،أو عكسه، لا يحدّ .وعلى من قال: لا حد على الزاني بحربية أو بمسلمة في بلاد الحرب أو في عسكر أهل البغي . أو بنصرانية مطلقاً . أو بأمة امرأته . أو محرم . أو من استدخلت ذكر نائم. واستدل بعمومها من أوجبه على المكره والزاني بأمة ولده والميتة .

قال ابن الفرس : ويستدل بقوله ( فَاجْلِدُوا ) على أنه يجرد عن ثيابه . لأن الجلد يقتضي مباشرة البدن . وبقوله ( مِائَةَ جَلْدَةٍ ) على أنه لا يكتفى بالضرب بها مجموعة ضربة واحدة ، صحيحاً كان أو مريضاً . وفي قوله تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ ) الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها . وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره . وفيه ردّ على من أجاز للسيد العفو . فاستدل بالآية من قال : إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب. وفي قوله تعالى ( وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا ) الخ استحباب حضور جمع ، عند جلدها . وأقله أربعة عدد شهود الزنى . وقيل : عشرة . وقيل ثلاثة وقيل : اثنان . انتهى.

وتقدم عن ابن جرير أن الطائفة تصدق بالواحد ، لغة . فتذكر . وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ )

« الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

لما أمر الله بعقوبة الزانيين ، حرم منا كحتهما على المؤمنين ، هجراً لهما ولما معهما من الذنوب كقوله[١] ( وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ) وجعل مُجالس فاعل ذلك المنكر ، مثله بقوله[٢] ( إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ) وهو زوج له قال تعالى[٣] ( احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ) أى عشراءهم وأشباههم . ولهذا يقال: (المستمع شريك المغتاب ) ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر. وكان فيهم جليس لهم صائم، فقال: ابدءوا به فى الجلد. ألم يسمع قول الله تعالى[٤] (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ) فإذا كان هذا فى المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر، يكون مجالسهم مثلا لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة : ( والزوج ) يقال له : العشير . كما فى الحديث[٥] ( ويكفرن العشير ) وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك. أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها . وأما الزانى ففجوره يدعوه إلى ذلك ، وإن لم يكن مشركاً . وفيها دليل على أن الزانى ليس بمؤمن مطلق الإيمان . وإن لم يكن مشركا كما فى الصحيح ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح الزانية إلا زان أو مشرك . ثم قال تعالى ( وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) فعلم أن الإيمان يمنع منه . وأن فاعله إما مشرك وإما زان، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك . وذلك أن المزاناة فيها فساد فراش الرجل وفى منا كحتها معاشرة الفاجرة دائماً . والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه . وهذا موجود فى الزانى . فإنه إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي: من زوج كريمته من فاسق، فقد قطع رحمها . وهذا مما يدخل على المرأة ضراراً فى دينها ودنياها . فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش. ونكاح الزانى أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم . فتبقى المرأة الحرة العفيفة فى أسر الفاجر الزانى الذى يقصّر فى حقوقها، ويعتدى عليها، ولهذا اتفقوا على اعتبار الكفاءة فى الدين، وعلى

(١) [ ٧٤/ المدثر / ٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء/ ١٤٠ ] . (٣) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ] .
(٤) [ ٤ / النساء / ١٤٠ ] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى: ٦ ـ كتاب الحيض، ٦ ـ باب ترك الحائض الصوم ، حديث ٢١٥ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة . واختلفوا فى صحة النكاح بدون ذلك. فإن من نكح زانية فقد رضى لنفسه بالقيادة والدياثة . ومن نكحت زانيا فهو لا يحصن ماءه ، بل يضعه فيها وفى غيرها من البغايا . فهى بمنزلة المتخذة خدناً . فإن مقصود النكاح حفظ الماء فى المرأة. وهذا لا يحفظ ماءه . والله سبحانه شرط فى الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين، فقال[1] (وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهذا مما لا ينبغى إغفاله . فإن القرآن قد قصّه وبينه بياناً مفروضاً . كما قال تعالى (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء . وفيه آثار عن السلف . وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه . وقد ادعى بعضهم أنها منسوخة بقوله[1] (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وزعموا أن البغىّ من المحصنات . وتلك حجة عليهم ، فإن أقل ما فى الإحصان العفة . وإذا اشترط فيه الحرية ، فذاك تكميل للعفة والإحصان . ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرقّ ولده ، فكيف يبيح البغىّ الذى يلحق به من ليس بولده ؟ وأين فساد فراشه من رقّ ولده؟ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء وهذا حجة عليهم. فمن وطئ زانية أومشركة بنكاح ، فهوزان . وكذلك من وطئها زان. فإن ذم الزانى بفعله الذى هو الزنى. حتى لو استكرهها أواستدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزانى دون قرينه. والمقصود أن الآية تدل على أن الزانى لا يتزوج إلا زانية أو مشركة . وأن ذلك حرام على المؤمنين . وليس هذا مجرد كونه فاجراً ، بل لخصوصية كونه زانياً . وكذلك فى المرأة . ليس بمجرد فجورها ، بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً كما جعله زانياً إذا تزوج زانية. وهذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنى . وإلا إن كانا مشركين ، فينبغى أن يعلم ذلك . ومضمونه أن الزانى لا يجوز إنكاحه حتى يتوب . وذلك يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة الزانية لا تحصن فرجها . ولهذا يجب عليه نفى الولد الذى ليس منه . فمن نكح زانية

(١) [ ٤ / النساء/٢٤].

فهو زان ، أى تزوجها . ومن نكحت زانيافهى زانية ، أى تزوجته . فإن كثيراً من الزناة قصروا أنفسهم على الزوانى ، فتكون خدناًله لا يأتى غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته فتتشوق إلى غيره فتزنى كما هو الغالب على نساء الزانى ومن يلوط بالصبيان . فإن نساءهم يزنين ليقضين أربهن ، وليراغمن أزواجهن . ولهذا يقال : عفوا تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم . فكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . فإن الرجل إذا رضى أن ينكح زانية ، رضى بأن تزنى امرأته . والله سبحانه قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة . فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر . فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله ، وكذلك الرجل . ومن رضى بالزنى فهو بمنزلة الزانى ، فإن أصل الفعل هو الإرادة . ولهذا فى الأثر [١] من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها . وفى الحديث [٢] (المرء على دين خليله )وأعظم الخلة خلة الزوجين . وأيضاً ، فإن الله تعالى جعل فى نفوس بنى آدم من الغيرة ما هو معروف . فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته ، أعظم من غيرته على نفسه أن يزنى . فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيا وهو ديوثا ، كيف يكره أن يكون هو زانياً ؟ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعفّ عن الزنى ، فإن الزنى له شهوة فى نفسه . والديوث له شهوة فى زنى غيره . فإذا لم يكن معه إيمان يكره من زوجته ذلك ، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنى؟ فمن استحل أن يترك امرأته تزنى ، استحل أعظم الزنى . ومن أعان على ذلك فهو كالزانى . ومن أقر عليه ، مع إمكان تغييره ، فقد رضيه . ومن تزوج غير تائبة فقد رضى أن تزنى . إذ لا يمكنه منعها . فإن كيدهن عظيم . ولهذا جاز له ، إذا أتت بفاحشة مبينة ، أن يعضلها لتفتدى . لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه . فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب . ولا يسقط المهر بمجرد زناها . كما دل عليه قوله [٣] ﷺ للملاعن (لما قال مالى) قال: لا مال لك عندها

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٤٥ عن العرس بن عميرة الكندى . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٤٥ ـ باب حدثنا محمد بن بشار عن أبى هريرة . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ٥٣ ـ باب المتعة التى لم يفرض لها ، عن ابن عمر ، حديث ٢١٦٤ .

إن كنت صادقاً فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كاذباً عليها فذاك أبعد وأبعد لك منها؛ لأنها إذا زنت قد تتوب. لكن زناها يبيح إعضالها حتى تفتدي إن اختارت فراقه، أو تتوب. وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته، إلا إذا أعجبه ذلك الغير. فلا يزال يزني بما يعجبه، فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة. لا هي أيم ولا ذات زوج. فيدعوها ذلك إلى الزنى، ويكون الباعث لها مقابلة زوجها على وجه القصاص. فإذا كان من العادين لم يكن قد أحصن نفسه. وأيضاً فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة. ولا غيرته كافية في إحصانه المرأة، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها. وعلى هذا، فالمساحِقة زانية، كما في الحديث [1]: (زنى النساء سحاقهن) والذي يعمل عمل قوم لوط زان، فلا ينكح إلا زانية أو مشركة. ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزني، وربما زنت بمن يتلوط به مراغمة له وقضاء لوطرها. وكذلك المتزوجة بمخنث ينكح كما تنكح، هي متزوجة بزان، بل هو أسوأ الشخصين حالاً. فإنه مع الزنى صار ملعوناً على نفسه للتخنيث، غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط. فإن النبي ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط. وفي الصحيح [2] أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء. وكيف يجوز لها أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة. وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها. فإذا لم يكن له غيرة على نفسه، ضعفت غيرته على امرأته وغيرها. ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيرة على ولده ومملوكه ومن يكفله. والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي، كانت على دينه، فتكون زانية، وأبلغ. فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه. فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها.

---

(١) لم أقف عليه. (٢) أخرجه البخاري في: ٨٦ ـ كتاب الحدود، ٣٣ ـ باب نفي أهل المعاصي والمخنثين، حديث ٢٢٨٩، عن ابن عباس.

كشف الخفاء ١/ ٤٥٠

ولفظ الآية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) يتناول هذا كله بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه . وفحوى الخطاب الذى هو أقوى من مدلول اللفظ . وأدنى من ذلك أن يكون بطريق القياس ، كما بيناه فى حد اللوطى وغيره . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله . وكله تأييد لما ذهب إليه الإمام أحمد من أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغىّ ، ما دامت كذلك ، فإن تابت صح العقد عليها ، وإلا فلا . وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة . لقوله تعالى ( وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) كما فصّله تقىّ الدين .

وقد روى هنا الحافظ ابن كثير آثاراً مرفوعة وموقوفة ، كلها مؤكدة لهذا . ثم قال بعدها : فأما الحديث الذى رواه النسائى[1] عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن عندى امرأة من أحب الناس إلىّ ، وهى لا تمنع يد لامس . قال. ( طلقها ) قال : لا صبر لى عنها . قال (استمتع بها) . فقال النسائىّ : هذا الحديث غير ثابت . وعبدالكريم أحد رواته ضعيف الحديث ليس بالقوىّ . وقال الإمام أحمد : هو حديث منكر . وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائىّ فى سننه عن بعضهم . فقال: وقيل: سخية تعطى . وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا ترد يد ملتمس . وقيل : المراد أن سجيتها لا ترد يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة . فإن رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها ، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد ، أمر رسول الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح البقاء معها . لأن محبته لها محققة . ووقوع الفاحشة منها متوهم ، فلا يصار إلى الضرر العاجل للتوهم الآجل . والله أعلم . انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٦ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب تزويج الزانية .

لطيفة :

سر تقديم ( الزانية ) فى الآية الأولى و ( الزانى ) فى الثانية : أن الأولى فى حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع . والثانية فى نـكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة . والأصل فى النكاح الذكور ، وهم المبتدئون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم ، لهذا . وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث ، من مناكحة الزناة ذكوراً وإناثاً ، زجراً لهم عن الفاحشة ، ولذلك قرن الزنى والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة . وقد نقل أصحابه الإجماع فى المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نـكاح الفاسق . ومالكٌ أبعد الناس من اعتبار الـكفاءة إلا فى الدين . وأما فى النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى ، فاستعظمه وتلا[1] ( يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ) انتهى كلام الناصر فى ( الانتصاف ) ومراد السلف بالـكراهة ، ما تعرف بالـكراهة التحريمية . فيقرب بذلك مذهب المالـكية .

ثم بيّن تعالى حكم جَلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، بقوله سبحانه وتعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ )

[٥] ( إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ » أى يقذفون بالزنى «الْمُحْصَنَاتِ» أى المسلمات الحرائر العاقلات

---

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١٣ ] .

البالغات العفيفات عن الزنى «ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أي يشهدون على مارموهن به ( فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ) أي كل واحد من الرامين . وتخصيص النساء لخصوص الواقعة ، ولأن قذفهن أغلب وأشنع . وإلا فلا فرق فيه بين الذكر والأنثى « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً » أي في أي واقعة كانت ، لظهور كذبهم « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أي لخروجهم عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أي القذف « وَأَصْلَحُوا » أي أعمالهم « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أي بقبول توبتهم وعفوه عنهم .

## تنبيهات :

الأول : قال ابن تيمية : ذكر تعالى عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم (منا) ولا ( ممن نرضى) ولا (من ذوى العدل) ولهذا تنازعوا: هل شهادة الأربعة التي لا توجب الحد مثل شهادة أهل الفسوق ؟ هل تدرأ الحد عن القاذف ؟ على قولين : أحدهما تدرأ كشهادة الزوج على امرأته أربعاً . فإنها تدرأ حد القذف ولا توجب الحد على المرأة . ولو لم تشهد المرأة ، فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن ، أو يخلى سبيلها ؟ فيه نزاع . فلا يلزم من درء الحد عن القاذف، وجوب حد الزنى. فإن كلاهما حد. والحدود تدرأ بالشبهات. وأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المقذوف مرة أو مرتين أو ثلاثا درئ الحد عن القاذف ولم يجب الحد عليه عند أكثر العلماء ولو كان المقذوف غير محصن ، مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة ، لم يحد قاذفه حد القذف . ولم يحد هو حد الزنى بمجرد الاستفاضة . وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد . ولا يقام حد الزنى على مسلم إلا بشهادة مسلمين . لكن يقال لم يقيّدهم بالعدالة، وقد أمرنا الله أن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهم الممتثلون ما أمر الله به بقوله(١) ( كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ) الآية ، وقوله(٢) ( وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

(١) [ ٤ / النساء / ١٣٥ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٥٢ ] .

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ) وقوله[١] ( وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ) وقوله[٢] ( وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ) وقوله[٣] ( وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ) فهم يقومون بها بالقسط لله ، فيحصل مقصود الذى استشهدوه .

والوجه الثانى ـ كون شهادتهم مقبولة لأنهم أهل العدل والرضا . فدل على وجوب ذلك فى القبول والأداء . وقد نهى الله سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله[٤] ( إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » الآية . لكن هذا نص فى أن الفاسق الواحد يجب التبين فى خبره. وأما الفاسقان فصاعدا . فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وماذكره من عدد الشهود لا يتعين فى الحكم باتفاق العلماء فى مواضع. وعند الجمهور يحكم بلا شهود فى مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك . ويحكم بشاهد ويمين كما مضت بذلك السنة . ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد ، لا فى آية الزنى ، ولا فى آية القذف . بل قال ( فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ) وإنما أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحد ، ولم يأمر به عند خبر الفاسقين . فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد مالا يوجبه خبر الواحد. ولهذا قال العلماء : إذا استراب الحاكم فى الشهود ، فرقهم وسألهم عما تبين به اتفاقهم واختلافهم . انتهى .

الثانى : قال الحافظ ابن حجر فى ( الفتح ) : ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل . ويزول عنه اسم الفسق . سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله ، لقوله تعالى ( إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ) روى البيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية : فمن تاب فشهادته فى كتاب الله تقبل . وتأولوا قوله تعالى ( أَبَداً ) على أن المراد مادام مصرًّا على قذفه. لأن ( أبد كل شيء ) على مايليق به . كما لو قيل : لاتقبل شهادة الكافر أبدا، فإن المراد مادام مصرًّا على الكفر . وبالغ الشعبى فقال : إن تاب القاذف قبل إقامة الحد عليه ، سقط عنه . وذهبت الحنفية إلى

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٨٣ ] . (٣) [ ٢ / البقرة / ٢٨٢ ] .
(٣) [ ٧٠ / المعارج / ٣٣ ] . (٤) [ ٤٩ / الحجرات / ٦ ] .

أن الاستثناء يتعلق بالفسق خاصة . فإذا تاب سقط عنه اسم الفسق ، وأما شهادته فلاتقبل أبداً . وقال بذلك بعض التابعين . انتهى .

قال الزمخشريّ : والذى يقتضيه ظاهر الآية ونظمها،أن تـكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط . كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم ، وردّوا شهادتهم وفسّقوهم . أى فاجمعوا لهم الجلد والردوالتفسيق ، إلا اللذين تابوا عن القذف وأصلحوا ، فإن الله يغفر لهم ، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسَّقين . انتهى .

وأخرج البخاريّ فى صحيحه فى ( كتاب الشهادات ) فى باب شهادة القاذف والسارق والزانى ، عن عمر رضى الله عنه ؛ أنه جلد أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً ، بقذف المغيرة بالزنى ، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة . ولم يبتّ زيادٌ الشهادة . ثم استتابهم وقال : من تاب قبلتُ شهادته . وفى رواية قـال لهم : من أكذب نفسه قبلتُ شهادته فيما يستقبل . ومن لم يفعل ، لم أجز شهادته . فأكذب شبل نفسه ونافع . وأبى أبو بكرة أن يرجع .

قال المهلب : يستنبط من هذا ؛ أن إكذاب القاذف نفسه ليس شرطاً فى قبول توبته . لأن أبا بكرة لم يكذب نفسه ، ومع ذلك فقد قبل المسلمون روايته وعملوا بها .

الثالث : قال الرازىّ : اختلفوا فى أن التوبة عن القذف كيف تـكون ؟

قال الشافعىّ رحمه الله : التوبة منه إكذابه نفسه ، واختلف أصحابه فى معناه . فقال الاصطخريّ : يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله. وقال أبو إسحاق : لايقول كذبت لأنه ربما يكون صادقاً فيكون قوله ( كذبت ) كذباً ، والـكذب معصية . والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى ، بل يقول : القذف باطل . ندمت على ماقلت ، ورجعت عنه ، ولا أعود إليه .

الرابع : قال الرازىّ فى قوله تعالى : ( وَأَصْلَحُوا ) قال أصحابنا : إنه بعد التوبة، لا بدّ من مضىّ مدة عليه فى حسن الحال، حتى تقبل شهادته وتعود ولايته . ثم قدَّروا تلك المدة بسَنة

حتى تمرّ عليه الفصول الأربعة ، التى تتغير فيها الأحوال والطباع . كما يضرب للعنّين أجل سنة . وقد علق الشرع أحكاماً بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما . انتهى .

وقال الغزالىّ فى ( الوجيز ) : يكفيه أن يقول : تبت ولا أعود . إلا إذا أقر على نفسه بالكذب، فهوفاسق ، يجب استبراؤه ككل فاسق يقول: تبت . فإنه لا يصدق حتى يستبرأ مدة فيعلم بقرائن الأحوال صلاح سريرته . انتهى .

وبه يعلم أن التقدير بسنة لا دليل عليه ، بل المدار على علم صلاحه وظهور استقامته ، ولو على أثر الحدّ .

قال الحافظ ابن حجر : روى سعيد بن منصور من طريق حصين بن عبد الرحمن قال : رأيت رجلا جُلد حدًّا فى قذف بالزنى . فلما فرغ من ضربه أحدث توبة . فلقيت أبا الزناد فقال لى : الأمر عندنا بالمدينة ؛ إذا رجع القاذف عن قوله ، فاستغفر ربه ، قبلت شهادته . وعلقه البخارىّ .

الخامس : ننقل هنا ما أجمله السيوطىّ فى ( الإكليل ) مما يتعلق بأحكام الآية . قال رحمه الله : فى هذه الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أى عفيفة . ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنى لا يحد للقذف . ويصرح بذلك قوله ( ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ) وفيها أن الزنى لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ، لا أقل . ولا نساء . وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين . واستدل بعموم الآية من قال : يحدّ العبد أيضا ثمانين . ومن قال : يحد قاذف الكافر والرقيق وغير البالغ والمجنون وولده . واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحدّ لنفسه . لأنه لم يرم أحداً . واستدل بها من قال : إن حد القذف من حقوق الله ، فلا يجوز العفو عنه . انتهى .

ثم رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، تحقيقاً فى بحث قبول الشهادة بعدالتوبة، جديراً بأن يؤثر . قال رحمه الله : وقوله تعالى ( وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ) نصٌّ فى أن هؤلاء القذفة لاتقبل شهادتهم أبداً . واحداً كانوا أو عدداً . بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل

الجمع والبدل ، لأنها نزلت فى أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير . وكان الذين قذفوا عائشة عدداً ، ولم يكونوا واحداً لما رأوها قدمت صحبة صفوان بن المعطل ، بعد قفول العسكر ، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فُقدت ، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها ، ولم تكن فيه . فلما رجعت لم تجد أحداً فمكثت مكانها . وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش . فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبتها . ثم ذهب إلى العسكر. فكانت خلوته بها للضرورة . كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة. مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة ، وقصة عائشة .

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين. ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور . فإنه كان من جملتهم مسطح وحسان وحمنة. ومعلوم أنه ﷺ لم يردّ شهادة أحد منهم، ولا المسلمون بعده لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها. ومن لم يتب حينئذ ، فإنه كافر مكذب بالقرآن. وهؤلاء ما زالوا مسلمين . وقد نهى الله عن قطع صلتهم . ولو ردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر شهادة أبى بكرة . وقصة عائشة أعظم من قصة المغيرة . لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة يقول: أرد شهادة من حُدّ فى القذف. وهؤلاء لم يحدوا . والأولون يجيبون بأجوبة : أحدها ـ أنه قد روى فى السنن أنهم حدوا . الثانى أن هذا الشرط غير معتبر فى ظاهر القرآن، وهم لا يقولون به. الثالث ـ أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا: قد يكون القاذف صادقاً وقد يكون كاذباً. فإعراض المقذوف عن طلب الحد قد يكون لصدق القاذف . فإذا طلبه ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه . ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كذب كل أحد . فإن الله عز وجل هو الذى برأها بكلامه الذى أنزله من فوق سبع سمٰوات يتلى ، فإذا كانت شهادتهم مقبولة ، فغيرهم أولى . وقصة عمر التى حكم فيها بين المهاجرين والأنصار ، فى شأن المغيرة ، دليل على الفصلين جميعاً . لما توقف الرابع لجلد الثلاثة دونه وردّ شهادتهم . لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل شهادتهما. والثالث وهو أبو بكرة، مع كونه من أفضلهم، لم يتب.

فلم يقبل المسلمون شهادته . وقد قال عمر : تب أقبل شهادتك . لـكن إذا كان القرآن قد بين أنهم إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً ، ثم قال بعد ذلك ( وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ) فمعلوم أن قوله ( هُمُ الْفَاسِقُونَ ) وصف ذم لهم زائد على رد الشهادة .

وأما تفسير العدالة فإنها الصلاح فى الدين والمروءة . وإذا وجد هذا فى شخص كان عدلًا فى شهادته وكان من الصالحين . وأما أنه لا يستشهد أحد فى وصية ولا رجعة فى جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذى أكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها . ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين .

ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصيه إلا الله ، مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنى ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً فى عدالته ، إما لعدم استشعار كثرة الواجبات ، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات ، وليس الأمر كذلك فى الشريعة . وبالجملة ، فهذا معتبر فى باب الثواب والعقاب والمدح والذم والموالاة والمعاداة ، وهذا أمر عظيم . وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضيًّا ، أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل فى أقواله وأفعاله . والصدق فى شهادته وخبره . وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات . كما أن الصفات التى اعتبروها كثيرا ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً . لـكن يقال : إن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها . فإن النبيّ ﷺ قال فى الحديث [1] المتفق على صحته (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٦٩ ـ باب قول الله تعالى : يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، حديث ٢٣٤٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ١٠٥ ( طبعتنا )

إلى الجنة .. ) الحديث . فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب مستلزم للفجور . فإذا وجد الملزوم ، وهو تحرى الصدق ، وجد اللازم وهو البر . وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق . وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم . وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب ، ولهذا يستدل بعدم بر الرجل على كذبه . وبعدم فجوره على صدقه . فالعدل الذى ذكروه ؛ من انتفى فجوره . وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة . وإذا انتفى ذلك فيه ، انتفى كذبه الذى يدعوه إلى الفجور . والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه . ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعى إلى البر يستلزم البر ، والداعى إلى الفجور يستلزم الفجور . فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب . انتهى .

ثم بين تعالى حكم الرامين لأزواجهم خاصة ، بعد بيان حكم الرامين بغيرهن ، بقوله سبحانه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ )

[٧] ( وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ )

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » أى بالزنى « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فيما رماها به من الزنى « وَالْخَامِسَةُ » أى والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة « أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فيما رماها به من الزنى . فيسقط عنه حد القذف ، ويجب عليها الحد وهو الرجم . إلا إن لاعنت أيضاً . كما قال سبحانه :

---

[٨] (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٩] (وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٠] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

« وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ » أى الدنيوىّ وهو الرجم « أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فيما رماها به من الزنى « وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ » أى الزوج « مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ » أى لحرجتم وشق عليكم كثير من أموركم . ولكن لرحمته ولطفه ، شرع لكم من الفرج والمخرج ، ما أنزله وأحكمه .

## تنبيهات

الأول ـ قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل . وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعى عليها بما رماها به . فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين . أى فيما رماها به من الزنى . والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعىّ وطائفة كثيرة من العلماء . وحرمت عليه أبداً . ويعطيها مهرها . ويتوجه عليها حد الزنى . ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أى فيما رماها به . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

الثانى ـ روى فى الصحيح (١) أن ذلك وقع فى عهد النبىّ ﷺ . وأن رجلا قال للنبىّ ﷺ :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٠ ـ باب التلاعن فى المساجد ، حديث ٢٧٩ ، عن سهل بن سعد .

أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً ، أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل؟فقال له رسول الله ﷺ: قد قضى الله فيك وفى امرأتك . وتلا عليه ما نزل من هذه الآية . فتلاعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصح أيضا أنها قد وقعت لرجلين سمّيا . وقد اختلف شراح الصحيح فى معنى ماروى من أنها نزلت فيهما معاً .

وإذا راجعت ما كتبناه فى ( المقدمة ) فى معنى سبب النزول ، زال الإشكال . فارجع إليه.

الثالث ـ قال السيوطىّ فى( الإكليل):هذه الآية أصل فى اللعان.ففيها أن شرطه سبق قذف. وأنه إنما يكون بين الزوجين لا بين الرجل وأجنبية ولا السيد وأمته.واستدل بعمومها من قال بلعان الكفار والعبيد والخصىّ والمجبوب والمحدود فى القذف والأعمى والأخرس،ومن الصغيرة التى لا تحمل والآيسة . واستدل بقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ)من قال لا لعان إذا أقام البينة على زناها وبقوله ( فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ) من قال:إن اللعان شهادة لا يمين. وقوله ( أربع شهادات بالله ) الخ فيه أن صيغته أن يقول: أشهد بالله إنى لمن الصادقين، أربعاً والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فاستدل به من لم يجز إبدال أشهد(بأحلف أو أقسم ونحوه ) أو اللهِ (بالرحمن ونحوه) أو زاد ( يعلم الله ونحوه ) ومن لم يوجب زيادة (الذى لا إله إلا هو ) ومن لم يجز إسقاط ( إنى لمن الصادقين ) ولا إبدالها ( بما كذبت عليها ونحوه ) ولا الاكتفاء بدون أربع ،خلافاً لأبى حنيفة،فى اكتفائه بثلاث شهادات.ولا تقديم اللعنة على الشهادة ، أو توسطها، أو إبدالها بالغضب.وقوله تعالى ( وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ )الآية،فيه أن لعانه يوجب على المرأة حد الزنى وأن لها دفعه بأن تقول أربع مرات . أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها الخ . وفيه أيضاً أنه لا يجوز لها أن تبدل أشهد ( بأحلف ) أو الغضب ( باللعنة ) إلى آخر ما تقدم واستدل به على أنه لا يجوز تقديم لعانها على لعانه . انتهى .

الرابع : اعلم أن الحد الواجب بالزنى نوعان : جلد ورجم . فالجلد حد البكرين الحرّين إذا زنيا . فيجلد كل واحد منهما مائة جلدة . وفى تغريبهما سَنَة ، وتغريب الزانى وحده كذلك ، خلاف . نعم ، إذا رآه الإمام مصلحة فلا خلاف فى إمضائه . والرجم حد الزانيين المحصنين . والإحصان عبارة عن البلوغ والعقل والحرية والدخول فى النكاح الصحيح . فلا يقتل بالسيف ، بل ينكل بالرجم ، لا بصخرة تدفف ، ولا بحصيات تعذب ، بل بحجارة معتدلة ، كما فى ( الوجيز ) وقد اعترض جماعة الخوارج على تشريع الرجم فى الإسلام وقالوا: إن الله لم يأمر به فى كتابه العزيز. فالذى ورد فى عقاب الزنى فى القرآن حكمان. أحدهما قوله[1] تعالى ( وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا. وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا » وهذا الحكم قد نسخ ـ أى بيّن ـ بالحكم الثانى وهو قوله تعالى[2] ( الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) هذه حجة الخوارج . أما حجة الإجماع فهى ورود الآثار الصحيحة الدالة على أن النبى ﷺ أمر برجم المحصن . وفعله . وروى لذلك جملة أحاديث وأحكام عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، كذا فى كتاب ( المقابلات ) وسبقه الرازىّ فى ( تفسيره ) فطوّل النفس فى سوق شبهة الخوارج، وأجاب عنها بما ملخصه: أن الآية المذكورة مخصوصة بالبكر ، خصصها الخبر المتواتر بالرجم ، وتخصيص القرآن الكريم بخبر الواحد جائز . فأولى بالمتواتر . وثانيا ـ قال ـ إنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح . فلعل المصلحة التى تقتضى وجوب الرجم ، حدثت بعد نزول تلك الآيات . انتهى.

قال صاحب ( المقابلات ) : إن الشريعة الإسلامية متفقة مع الشرع العبرىّ فى أغلب أحكام الزنى، ولم يرد فى الديانة المسيحية نص صريح ينسخ حكم اليهودية فى الزنى . ولكن يروى

(١) [ ٤ / النساء / ١٥ و ١٦ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٢ ] .

عن عيسى عليه السلام ، ما يؤخذ منه ضمناً ، عدم إمكان إقامة حدالرجم . لأنه اشترط براءة الراجمين من كل عيب ، وأمر الزانية ، التي اعترفت بين يديه ، بالتوبة والاستغفار . أما حكم الزنى فى القوانين الحديثة فيخالف مخالفة كلية لحكم الشريعة الغراء ، وحكم التوراة والإنجيل انتهى كلامه .

وفقنا الله لحفظ حدوده ، وجنبنا محارمه بمنه وكرمه .

التنبيه الرابع : من مباحث اللفظ فى الآية أن يقال : قد وردت الفاصلة فى غير هذا الموضع بـ( تواب رحيم ) فملام فصلت هنا بـ( تواب حكيم ) مع أن التوبة مع الرحمة ، فيما يظهر ؟ ( والجواب ) أن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التى أمر بها . وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده . وذلك حكمة منه . ففصلت هذه الآية بـ( تواب حكيم ) إثر بيان الحكم . جمعاً بين التوبة المرجوّة من صاحب المعصية ، وبين الحكمة فى سترها على تلك الصورة . فافهم ذلك . أشار له ابن الأثير فى ( المثل السائر ) .

ثم أشار تعالى إلى نبأ الإفك ، وتبرئة عائشة رضى الله عنها ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ )

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ » أى بأبلغ ما يكون من الكذب ، وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك . والمراد به ماأفك به الصديقة ، أم المؤمنين رضى الله عنها ؟ فاللام للعهد ويجوز حمله على الجنس . قيل : فيفيد القصر ، كأنه لا إفك إلا هو . وفى لفظ ( المجىء ) إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل ( عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ) أى جماعة منكم . خبر ( إن ) و ( منكم ) نعت لها . وبه أفاد الخبر . وقوله تعالى « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ »

مستأنف ، والهاء ضمير الإفك أو القذف . والخطاب لرسول الله صلوات الله عليه ، ولآل الصديق رضي الله عنهم ، ولمن ساءه ذلك من المؤمنين . تسلية لهم من أول الأمر . وقوله تعالى « بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » زيادة في التسلية والتكريم. أي لا تظنوه يلحق تهمة بكم ، أو يوقع نقيصة فيكم ، بل قد جرّ لكم خيراً عظيماً .

قال الزمخشري : ومعنى كونه خيراً لهم ، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم . لأنه كان بلاءً مبيناً ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه . وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها . « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » أي جزاؤه ، وذلك الذم في الدنيا إلى يوم القيامة ، والجلد ثمانين . ولعذاب الآخرة أشد « وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أي قام بعظمه وإشاعته ، بعد ابتدائه بالخوض فيه ، وهو رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ ، وانتهازه الفرص ، وطلبه سبيلا إلى الغميزة .

روى[1] الطبري عن ابن زيد قال : أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول الخبيث . هو الذي ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقود بها . والعذاب العظيم يعم عذابي الدارين ، كما قلنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ )

« لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا » أي بالذين منهم من

(١) انظر الصفحة رقم ٨٩ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

المؤمنين والمؤمنات، كقوله تعالى[(١)] ( وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ) قال الشهاب : وهذا من بديع الـكلام . وقد وقع فى القرآن كثيرا . وهو بحسب الظاهر يقتضى أن كل واحد يظن بنفسه خيراً، وليس بمراد. بل أن يظن بغيره ذلك. وتوجيهه أنه مجاز،لجعله اتحادالجنس كاتحاد الذات ولذا فسر قوله [(٢)]( وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ )،( لا تقتلوامن كان من جنسكم ) أو بجعلهم كنفس واحدة ، فمن عاب مؤمناً فـكأنما عاب نفسه ، ويجوز أن يقدر فيه مضاف . أى : ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر .وقال الـكرمانى فى حديث (أموالـكم عليكم حرام) إنه كقولهم ( بنو فلان قتلوا أنفسهم) أى قتل بعضهم بعضاً، مجازاً أو إضماراًللقرينة الصارفة عن ظاهره . و ( لولا ) تحضيضية بمعنى ( هلا ) « وقالوا هـذا إفك مبين » أى هذا الذى سمعناه ، من رمى أم المؤمنين ، إفك مبين جلىّ لمن عقل وفـكر فيه . قال العلامة الزمخشرىّ: فإن قلت : هلا قيل ( لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ) ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ؟ وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات . وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ ألا يصدق مؤمن على أخيه ، ولا مؤمنة على أختها ، قولَ عائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن ، إذا سمع قالةً فى أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظن ، لا على الشك . وأن يقول بملء فيه ـ بناءً على ظنه بالمؤمن الخير ـ : هذا إفك مبين . هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته . كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهـذا من الأدب الحسن الذى قلّ القائم به والحافظ له . وليتك تجد من يسمع فيسكت ، ولا يشيع ما سمعه بأخوات ! انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ )

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١١ ] .        (٢) [ ٤ / النساء / ٢٩ ] .

« لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِنْدَ اللهِ » أى فى حكمه وشريعته المؤسسة على الدلائل الظاهرة المستيقنة « هُمُ الْكَاذِبُونَ » أى الكاملون فى الكذب ، المشهود عليهم بذلك . قال الزمخشرىّ : وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدّوا فى دفعه وإنكاره . واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع ، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به ، إذا قذف امرأة محصنة من عُرْضِ نساء المؤمنين . فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ، حرمة رسول الله ﷺ ، وحبيبة حبيب الله ؟

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى لعوجلتم بالعقاب ، بسبب ما خضتم فيه من الإفك . ولكنه واسع الفضل والرحمة ، يمهل المذنب للتوبة ، ويحلم عنه للأوبة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ)

« إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » أى وقت تلقى بعضكم من بعض « بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا » أى لا تبعة له ولا عقوبة على مشيعه « وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ » أى والحال أنه عظيم فى الوزر واستجرار العذاب. قال المهايمىّ: لأن الجراءة على رسول الله وعلى أوليائه، تشبه الجراءة على الله تعالى. قال الزمخشرىّ: فإن قلت: مامعنى قوله ( بِأَفْوَاهِكُمْ )

والقول لا يكون إلا بالفم ؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، فيترجم عنه اللسان . وهذا الإفك ليس إلا قولًا يجري على ألسنتكم ، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب. كقوله تعالى(١) ( يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ )انتهى. أي فالقيد ليس تأكيداً صرفاً ، ( كنظر بعينه ) بل ليفيد نفيه عما عداه . وقيل إنه توبيخ، كما تقول ( قاله بملء فيه ) فإن القائل ربما رمز ، وربما صرّح وتشدّق . وقد قيل هـذا في قوله(٢) ( بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ) وقيل : فائدته ألا يظن أنه كلام نفسيّ . فهو تأكيد لدفع المجاز . والسياق يقتضي الأول . كذا في ( العناية ) .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ )

« وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ » أي تكذيباً لمشيعيه « مَا يَكُونُ لَنَا » أي مايصح لنا بوجهٍ ما « أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » أي تنزيهاً لك ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء. فإنه بهتان عظيم يستحيل صدقه. قال الزمخشريّ: كلمة ( سبحانك )للتعجب من عظم الأمر . فإن قلت : مامعنى التعجب في كلمة التسبيح؟ قلت:الأصل في ذلك،أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه . ثم كثر حتى استعمل في كل متعجَّب منه . أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيّه عليه السلام فاجرة . انتهى .

فعلى الأول ، هو من المجاز المتفرع على الكناية ، وهو كثير . وقد ذكره النوويّ في ( الأذكار ) وكذا ( لا إله إلا الله ) تستعمل للتعجب أيضاً . وأما الصلاة على النبيّ ﷺ في مقام التعجب فلم ترد ولم تسمع في لسان الشرع . وقد صرح الفقهاء بالمنع . وإنما وقع من العوامّ وبعض المحدثين كقوله :

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٧ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١١٨ ] .

فمن رأى حُسْنَهُ المفدّى في الحالِ ، صَلَّى عَلَى مُحَمَّدْ

وعلى الثانى ، هو حقيقة . كذا فى العناية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ )

[١٨] ( وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الاتّصاف بالإيمان يصدّ عن كل مقبح « وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ » أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها . أى ينزلها كذلك مبينة ، ظاهرة الدلالة على معانيها « وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

ثم أشار تعالى إلى تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء ، فعلق بذهنه منه شيء ، ألا يتكلم به ولا يذيعه ، بقوله سبحانه متوعدا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ » أى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح ، وهى الفرية والرمى بالزنى ونحوه ، كاللواط وما عظم فحشه « فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا » أى من الحدّ وغيره ، مما يتفق من البلايا الدنيوية « وَالْآخِرَةِ » أى من عذاب النار «وَاللهُ يَعْلَمُ» أى ما فى القلوب من الأسرار والضمائر «وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» يعنى أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقِبُهُ عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ )

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » تكرير للمنّة ، بترك المعاجلة بالعقاب ، للدلالة على عظم الجريمة . وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة . وهو ( لمسّكم ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ )

[٢٢] ( وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى بإشاعة الفاحشة « وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ » أى ما طهر من دنسها « مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ » من عباده بإلهامه التوبة والإنابة « وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشري ( يأتل ) من ( ائتلى ) إذا حلف، افتعال من الألية وهو القسم وقيل من قولهم ( ما ألوت جهداً ) إذا لم تدخر منه شيئاً . ويشهد للأول قراءة الحسن ( ولا يتألّ ) والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان . أو لا يقصّروا في أن يحسنوا إليهم ، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح . وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم وسيأتي سبب نزولها فيمن عنى بها .

ثم بين تعالى وعيد القاذفين للبريئات ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ )

[٢٤] ( يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ )

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ » أي العفائف عن الفاحشة ، النقيات القلوب عنها « الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا » بالذم والحد وردّ الشهادة إلا إذا تابوا « وَالْآخِرَةِ » أي حيث يلعنهم ثمة الملائكة ومن شاء الله « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أي يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها أو بظهور آثار ما عملوه عليها . بحيث يعلم من يشاهدهم ما عملوه . وذلك بكيفية يعلمها الله . فهو استعارة . ورجح الأول لقوله[١] ( قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ) فظاهره الحقيقة ، وحمله على الثاني بعيد . قيل : سيأتي في ( يس )[٢] ( الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) والختم على الأفواه

(١) [ ٤١ / فصلت/٢١ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٦٥ ] .

ينافى شهادة الألسنة . والجواب أن الختم على الأفواه معناه المنع عن التكلم بما يريده وينفعه ، بحسب زعمه ، اختياراً . كالإنكار والاعتذار . أو أن هذا فى حال ، وذلك فى حال . أو كل منهما فى حق قوم غير الآخرين ، أو هذا فى حق القذفة ، وذاك فى حق الكفرة ـ وليس بشيء ـ إذ لا منافاة ، فالسر فى التصريح بالألسنة هنا ، وعدم ذكرها هناك ، أن الآية لما كانت فى حق القاذف بلسانه ، وهو مطالب معه بأربعة شهداء ، ذكر هنا خمسة أيضا ، وصرح باللسان الذى به عمله ليفضحه ، جزاءً له من جنس فعله . كذا فى ( العناية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ )

« يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ تشهد عليهم بما ذكر « يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ » أى جزاءهم « الْحَقَّ » أى الواجب الثابت « وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » أى المظهر للأمور كما هى فى أنفسها . ثم أشار تعالى إلى ما يؤكد التبرئة من شاهد العرف والعادة ، فى أنه لا يضم الشكل إلا إلى شكله ، ولا يساق الأهل إلا إلى أهله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ )

« الْخَبِيثَاتُ » أى من النساء « لِلْخَبِيثِينَ » أى من الرجال « وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » أى بحيث لا يكاد يتجاوز كلٌّ واحد إلى غيره . و ( الطيب ) ضد الخبيث وهو الأفضل من كل شيء والأحسن والأجود . قال أبو السعود : وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصدّيقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة . واتضح بطلان ما قيل فى حقها من الخرافات ،

حسبما نطق به قوله تعالى « أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة . وبهذه الآية تم نبأ أهل الإفك .

واعلم أن ما اشتملت عليه هذه الآيات من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب ، لا تفى بها مجلدات . إلا أنا نشير إلى شيء من ذلك ، نقتبسه من أهم المراجع ، تتميما لما أجملناه فى تأويلها .

فالأول: أن نبأ الإفك كان فى غزوة المريسيع (تصغير مرسوع ، بئر أو ماء لخزاعة) وكانت فى شعبان سنة خمس . وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن أبى ضرار ، سيد بنى المصطلق سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب رسول الله ﷺ . فخرج رسول ﷺ بمن معه من أصحابه . وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها ، فأغار عليهم . فسبى ذراريهم وأموالهم . وكانت عائشة رضى الله عنها قد خرجت معه ، عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الغزوة ، بقرعة أصابتها . وكانت تلك عادته مع نسائه . فلما رجعوا من الغزوة ، نزلوا فى بعض المنازل . فخرجت عائشة لحاجتها . ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه . فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها . فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها ، فظنوها فيه ، فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ، لأنها رضى الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى كان يثقلها . وأيضا ، فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج ، لم ينكروا خفته . ولو كان الذى حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال . فرجعت عائشة إلى منزلهم وقد أصابت العقد ، فإذا ليس لها داع ولا مجيب . فقعدت فى المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها . والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل (بفتح الطاء المشددة سلمى ذكوانى صحابى فاضل متقدم الإسلام) : إنا لله وإنا إليه راجعون . زوجة رسول الله ﷺ . وكان صفوان قد عرس فى أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم كما جاء عنه فى صحيح أبى حاتم وفى السنن . فلما رآها عرفها . وكان يراها قبل نزول الحجاب . فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها . فركبتها . وما كلمها كلمة واحدة . ولم

تسمع منه إلا استرجاعه . ثم سار بها يقودها حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به . ووجد الخبيث عدو الله ابن أبىّ متنفساً . فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه. فجعل يستحكى الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه . وكان أصحابه يتقربون إليه . فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم . ثم استشار أصحابه فى فراقها ، فأشار عليه علىّ رضى الله عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها ، تلويحاً لا تصريحا . وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء. فعلىّ ، لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ، ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذى لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء . وأسامة لما علم حب رسول الله ﷺ لها ولأبيها ، وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ، ما هى فوق ذلك وأعظم منه ، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه ؛ أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته، من النساء وبنت صديقه بالمنزل الذى أنزلها به أرباب الإفك . وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيا . وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهى تحت رسوله . ومن قويت معرفة الله ومعرفة رسوله وقدره عند الله فى قلبه ـ قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة ، لما سمعوا ذلك: ( سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ )وتأمل ما فى تسبيحهم لله وتنزيههم له فى ذلك المقام ، من المعرفة به وتنزيهه عما لا يليق به أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه ، امرأة خبيثة بغيا . فمن ظن به سبحانه هذا الظن ، فقد ظن به السوء . وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله ، أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها . كما قال تعالى ( الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ) فقطعوا قطعا لا يشكون فيه ، أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة .

فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده فيما يليق به. وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب : أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها، وامتحانا وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة . ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها . لا يوحى إليه في ذلك بشيء ليتم حكمته التي قدّرها وقضاها ، ويظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده . ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً . ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادة من الصدّيقة وأبيها . وتتم نعمة الله عليهم ، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبيها ، والافتقار إلى الله ، والذل له ، وحسن الظن به ، والرجاء له . ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق . ولهذا وفّت لهذا المقام حقه ، لما قال لها أبوها : قومي إليه ، وقد أنزل الله عليه براءتها ، فقالت : والله ! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي .

وأيضاً ، فكان من حكمة حبس الوحي شهراً ، أن القضية نضجت وتمخضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف ، إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها . وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع . فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والصديق وأهله وأصحابه ، والمؤمنون . فورد عليهم ورود الغيث على الأرض ، أحوج ما كانت إليه . فوقع منهم أعظم موقع وألطفه . وسروا به أتم السرور ، وحصل لهم به غاية الهناء . فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة ، وأنزل الوحي على الفور بذلك ، لفاتت هذه الحكم وأضعافها ، بل أضعاف أضعافها .

وأيضاً ، فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده ، وكرامتهم عليه . وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه ، والرد على أعدائه ،

وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولى لذلك ، الثائر لرسوله وأهل بيته .

وأيضاً، فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى. والتى رميت زوجته. فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها. مع علمه، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ، ولم يظن بها سوءاً قط، وحاشاه وحاشاها. ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: من يعذرنى فى رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ والله ! ما علمت على أهلى إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهلى إلا معى. فكان عنده من القرائن التى تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين . ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه ، وثقته به، وفّى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه. حتى جاءه الوحى بما أقرّ عينه وسر قلبه وعظم قدره وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحى ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك ، فحدوا ثمانين ثمانين . ولم يحد الخبيث عبد الله ابن أبىّ ، مع أنه رأس الإفك . فقيل : لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة . والخبيث ليس أهلا لذلك . وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد . وقيل: بل كان يستوشى الحديث ويجمعه ويحكيه ، ويخرجه فى قوالب من لا ينسب إليه وقيل : الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة . وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد . فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه . ولم يكن يذكره بين المؤمنين وقيل : حد القذف حق الآدمىّ ، لا يستوفى إلا بمطالبته . وإن قيل إنه حق لله فلابد من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبىّ . وقيل : بل ترك حدّه لمصلحة هى أعظم من إقامته . كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً . وهى تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام . فإنه كان مطاعاً فيهم رئيساً عليهم . فلم يؤمن إثارة فتنة فى حده ، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها . فجلد مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش . وهؤلاء من المؤمنين الصادقين ، تطهيراً لهم وتكفيراً . وترك عدو الله ابن أبىّ إذا فليس هو من أهل

ذاك ـ هذا ما أفاده الإمام ابن القيم رحمه الله فى ( زاد المعاد ) وهو خلاصة الروايات فى هذا الباب.

ثم قال رحمه الله : ومن تأمل قول الصديقة، وقد نزلت براءتها، فقال لها أبوها : قومى إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ـ علم معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها ، وإفراده بالحمد فى ذلك المقام ، وتجديدها التوحيد ، وقوة جأشها وإدلالها ببراءة ساحتها ، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها فى مقام الراغب فى الصلح الطالب له. ولثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها، قالت ما قالت . إدلالا للحبيب على حبيبه ، ولاسيما فى مثل هذا المقام الذى هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعته موضعه. ولله! ما كان أحبها إليه حين قالت : لا أحمد إلا الله فإنه هو الذى أنزل براءتى ولله! ذلك الثبات والرزانة منها ، وهو أحب شىء إليها، ولا صبر لها عنه . وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً . ثم صادفت الرضاء منه والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه ، والسرور برضاه وقربه ، مع شدة محبتها له. وهذا غاية الثبات والقوة. انتهى .

وطرق حديث الإفك متعددة عن أم المؤمنين عائشة وعن ابن الزبير وأم رومان وابن عباس وأبى هريرة وأبى اليسر. ورواه من التابعين عشرة كما فى (فتح البارى) وذلك فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها. ما بين مطول وموجز. ومن الثانى ما أخرجه الإمام[1] أحمد عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بابنها وفعل. فقالت عائشة : ولم ؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث. قالت: وأىّ حديث ؟ قالت: كذا كذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت : نعم. قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت: نعم. فخرت عائشة رضى الله عنها مغشيا عليها .فما أفاقت وإلا وعليها حمى بنافض. قالت : فقمت فدثرتها. قالت: فجاء النبىّ ﷺ قال: فما شأن هذه ؟ فقلت: يارسول الله أخذتها حمى بنافض . قال: فلعله فى حديث تحدث به؟ قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٧ من الجزء السادس ( طبعة الحلبى ) .

ولئن اعتذرت إليكم لا تعذرونى . فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال[١] ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ )

قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها . فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر . فدخل فقال : يا عائشة ! إن الله تعالى قد أنزل عذرك . فقالت: بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول ﷺ ؟ قالت : نعم .

قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر . فحلف ألّا يصله . فأنزل الله تعالى[٢] ( وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ) إلى آخر الآية . فقال أبو بكر : بلى، فوصله . تفرد به البخارى[٣] .

المطلب الثانى : قال فى ( الإكليل ) فى قوله تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ) نزلت فى براءة عائشة مما قذفت به . فاستدل بها الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن قال العلماء: قذف عائشة كفر . لأن الله سبح نفسه عند ذكره . فقال[٥] ( سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ) كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد . وفى قوله تعالى[٦] ( لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ) تحريم ظن السوء ، وأنه لا يحكم بالظن . وأن من عرف بالصلاح لا يعدل به عنه لخبر مخبر . وأن القاذف مكذب شرعاً ، ما لم يأت بالشهداء . وفى قوله تعالى[٧] ( إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ) الآية ، الحث على ستر المؤمن وعدم هتكه . أخرج ابن أبى حاتم عن خالد ابن معدان ، قال: من حدث بما أبصرت عيناه وسمعت أذناه فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا ، وأخرج عن عطاء قال : من أشاع الفاحشة فعليه النكال وإن كان صادقاً .

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٨ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٢٢ ] .

(٣) الحديث لم ينفرد به البخارى . بل هو مما اتفق عليه الشيخان .

فقد أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور : حديث ١٢٦٦، عن عائشة وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٦ (طبعتنا) .

(٤) [ ٢٤ / النور / ١١ ] . (٥) [ ٢٤ / النور / ١٦ ] .

(٦) [ ٢٤ / النور / ١٢ ] . (٧) [ ٢٤ / النور / ١٩ ]

وأخرج عن عبد الله بن أبي زكريا ، أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو الرجل يُتكلم عنده في الرجل ، فيشتهي ذلك ولا ينكر عليه .

وفي قوله تعالى(١) (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) الآية ، النهي عن الحلف ألا يفعل خيراً . وأن من حلف عن يمين فرأى غيرها خيراً منها ، يستحب له الحنث . وفيه الأمر بالعفو والصفح .

واستدل من ذهب إلى أن قوله تعالى(٢) « إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، نزلت في أزواج النبي ﷺ خاصة ، يقتل قاذفهن ، إذا لم يذكر له توبة ، كما ذكرت في قاذف غيرهن في أول السورة انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها . والصحيح أن الآية عامة لكل المؤمنات . ويدخل فيهن أمهات المؤمنين دخولاً أوليًّا ، لا سيما من كانت سبب نزولها ، وهي عائشة .

قال ابن كثير : وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة ، على أن من سبها بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي . والله أعلم .

الثالث : قال الإمام ابن تيمية في قوله تعالى(٣) (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) الآية : أخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين . فلا تكون خبيثة لطيب . فإنه خلاف الحصر . وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون طيب لخبيثة . فإنه خلاف الحصر . إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين . فلا يبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة . وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين . فلا يبقى طيبة لخبيث . فجاء الحصر من الجانبين ، موافقاً لقوله(٤) (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) الآية . ولهذا قال من قال من السلف (ما بغت امرأة نبيّ قط) فإن السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك . ولهذا لما صارت شبهة ، استشار النبي ﷺ

(١) [ ٢٤ / النور / ٢٢ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٢٣ ] .
(٣) [ ٢٤ / النور / ٢٦ ] . (٤) [ ٢٤ / النور / ٣ ] .

فى طلاقها . إذ لا يصلح له أن تكون امرأته غير طيبة . وقد روى[١] أنه ( لا يدخل الجنة ديوث ) وهو الذى يقر السوء فى أهله. ولهذا كانت الغيرة على الزنى مما يحبها الله وأمر بها. حتى قال النبى ﷺ[٢]: أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى . من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن. ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجاً ، أن يلاعن، لأجل ماأمر به من الغيرة ، ولأنها أفسدت فراشه، وإن حبلت من الزنى ، فعليه اللعان ، لئلا يلحق به من ليس منه . ومضت السنة بالتفريق بينهما ، سواء حصلت الفرقة بالتلاعن أو بحاكم أو عند انقضاء لعان الزوج . لأن أحدهما ملعون أو خبيث. فاقترانهما يقتضى مقارنة الخبيث للطيب . وفى صحيح مسلم من[٣] حديث عمران فى الناقة التى لعنتها المرأة ، أنه أمر فأخذ ما عليها وأرسلت . وقال : لا تصحبنا ناقة ملعونة . ولما اجتاز بديار ثمود قال[٤] : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين . لئلا يصيبكم ما أصابهم . فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب . وهكذا السنة فى مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصى . لا ينبغى لأحد أن يقارنهم ويخالطهم إلا على وجهٍ يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقتاً لهم شانئاً ماهم فيه بحسب الإمكان . كما فى قوله[٥]: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده الخ. وقال تعالى[٦](وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ) الآية . وكذلك ما ذكره عن يوسف وعمله لصاحب مصر لقوم كفار . وذلك أن مقارنة الكفار إنما يفعلها المؤمن فى موضعين : أحدهما . أن

(١) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى .

(٢) أخرجه البخارى تعليقا فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٧ ـ باب الغيرة .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٨٠ ( طبعتنا )

(٤) أخرجه البخارى فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٣ ـ باب الصلاة فى مواضع الخسف والعذاب ، حديث ٢٨٤ ، عن ابن عمر . (٥) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان . حديث ٧٨ عن أبى سعيد ( طبعتنا ) . (٧) [ ٦٦ / التحريم / ١١ ] .

يكون مكرهاً عليها . والثانى أن يكون فى ذلك مصلحة دينية ، راجحة على مفسدة المقارنة . أو أن يكون فى تركها مفسدة راجحة فى دينه. فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة . وفى الحقيقة : المكره هو من يدفع الفساد باحتمال أدناهما . وهو الأمر الذى أكره عليه. قال تعالى(١) ( إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ) وقال تعالى(٢) ( وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ) الآية وقال تعالى(٣) ( إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » إلى قوله ( غَفُوراً ) وقال(٤) ( وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ )الآية. فقد دلت الآية على النهى عن مناكحة الزانى ، والمناكحة نوع خاص من المصاحبه . والمناكحة فى أصل اللغة المجامعة . فقلوبهما تجتمع إذا عقد النكاح بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف ما لم يكن قبل ذلك . حتى يثبت ذلك حرمة المصاهرة فى غير الربيبة ، بمجرد ذلك فى التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك. وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين فى مكان واحد، وهو المعاشرة المقررة للصداق، كما أفتى به الخلفاء. وآخر ذلك اجتماع المباضعة. وهذا، وإن اجتمع بدون عقد نكاح، فهو اجتماع ضعيف، بل إجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدنين بالسفاح ودل قوله تعالى ( الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ) على ذلك من جهة المعنى ومن جهة اللفظ. ودل أيضا على النهى عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم. كما دل على هذا غير ذلك من النصوص . مثل قوله تعالى(٥) : ( احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ) أى نظراءهم وأشباههم . والزواج أعم من النكاح المعروف . قال(٦) تعالى ( أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ) وقال(٧) ( مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ )وقال(٨) ( وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ) وقال(٩) ( وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ) وقال(١٠) ( وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً )

(١) [ ١٦ / النحل / ١٠٦ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣٣ ] .
(٣) [ ٤ / النساء / ٩٧ ] . (٤) [ ٤ / النساء / ٧٥ ] . (٥) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ] .
(٦) [ ٤٢ / الشورى / ٥٠ ] . (٧) [ ٢٢ / الحج / ٥ ] . (٨) [ ٨١ / التكوير / ٧ ] .
(٩) [ ٥١ / الذاريات / ٤٩ ] . (١٠) [ ٧٨ / النبأ / ٨ ] .

وقال[١] ( إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ) وإن كان فى الآية نصّ فى الزوجة التى هى الصاحبة وفى الولد منها . فمعنى ذلك : فى كل مشابه ومقارن فى كل نوع وتابع[٢] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ )الآية[٣] (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ) الآيتين. فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع طاعة الله على مراد الله . ويدل عليه الحديث[٤] الذى فى السنن ( لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولايأكل طعامك إلا تقىّ ) وفيها[٥] ( المرء على دين خليله ،فلينظر أحدكم من يخالل)وفى الصحيحين[٦] من حديث أبى هريرة ( إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ) إلى قوله ( ثم إن زنت فليبعها ولو بضفير ) والضفير الحبل وهذا أمر ببيعها ولو بأدنى مايقابله . قال أحمد : إن لم يبعها كان تاركا لأمر النبيّ ﷺ . والإماء اللاتى يفعلن هذا ، يكون عامتهن للخدمة . فكيف بأمة التمتع ؟ وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه ، فكيف بالزوجة الزانية ؟ والعبد نظير الأمة ، بدليل قوله[٧] ﷺ ( لعن الله من آوى محدثاً ) فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثاً .

(١) [ ٦٤ / التغابن / ١٤ ] . (٢) [ ١٧/الإسراء/١١١ ] . (٣) [ ٢٥ / الفرقان / ١ ].

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٦ ـ باب ماجاء فى صحبة المؤمن ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٤٥ـ باب حدثنا محمد بن بشار ، عن أبى هريرة .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ١٧ ـ باب كراهية التطاول على الرقيق ، حديث رقم ١٠٨٨ و ١٠٨٩ ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد .

وأخرجه مسلم فى : ٢٩ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٢و٣٣ ( طبعتنا ) .

(٧) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ـ باب حرم المدينة،حديث رقم ٩٥ ، عن علىّ بن أبى طالب .

سواء كان إحداثه بالزنى أو السرقة، أو غير ذلك . وسواء كان الإيواء بملك اليمين،أو نـكاح، أو غير ذلك . لأن أقل ما فيه ترك إنـكار المنـكر . والمؤمن يحتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه ، بالنـكاح وغيره . قال تعالى[1] ( إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ) وكذلك المرأة التى زنى بها الرجل ، فإنه لا يتزوجها إلا بعدالتوبة فى الأصح. كما دل عليه الـكتاب والسنة والآثار . لـكن إذا أراد أن يمتحنها ، هل هى صحيحة التوبة ؟ فقال ابن عمر : يراودها . فإن أجابته لم تصح توبتها . وإن لم تجبه فقد تابت . ونص عليه أحمد . وقيل : هذا فيه طلب الفاحشة . وقد تنقض التوبة . وقد تأمره نفسه بتحقيق ذلك. ويزين لهما الشيطان ، لاسيما إن كان يحبها وتحبه ، وقد ذاقته وذاقها . ومن قال بالأول قال: الأمر الذى يقصدبه امتحانها،لا يكون أمراً بما نهى الله عنه. ويمكنه أن لايطلب الفاحشة بل يعرّض.والتعريض للحاجة جائز. بل واجب فى مواضع كثيرة . وأمانقضها،فإذا جازأن تنقض التوبةمعه،جاز أن تنقضها مع غيره والمقصود أن تـكون ممتنعةممن يراودها.وأماتزيين الشيطان لهالفعل ، فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محنة . فإذا أراد المؤمن أن يصاحب أحدا ، وقد ذكر عنه الفجور،وقيل إنه تاب ، أو كان ذلك مقولاً صدقاً أو كذباً، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره وفجوره ، وكذلك إذا أراد أن يولّيَ أحداً ولاية ، امتحنه . كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبى موسى ، لما أعجبه سمته . فقال له : قد علمتَ مكانى عند أمير المؤمنين . فـكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالاً عظيما . فعلم أنه ليس ممن يصلح للولاية . وكذلك فى المعاملات . وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا ، أو قيل عنهم الفجور ، وأراد الرجل أن يشتريه فإنه يمتحنه . ومعرفة أحوال الناس تارة تـكون بشهادات الناس ، وتارة بالجرح والتعديل ، وتارة بالاختبار والامتحان .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله وكما عظّم الله الفاحشة ، عظم ذكرها بالباطل ـ وهو القذف. فقال[2] بعد ذلك ( وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ

(١) [ ٦٠ / الممتحنة / ١٠ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٤ ] .

ثَمَانِينَ جَلْدَةً ) الآية. ثم ذكر رمى الرجل امرأته وما أمر فيه من التلاعن. ثم ذكر قصة أهل الإفك وبيّن ما فى ذلك من الخير للمقذوف، وما فيه من الإثم للقاذف، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير ، ويقولون : هذا إفك مبين . لأن دليله كذب ظاهر. ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال[1] ( لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ . فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ) ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لعذبهم بما تكلموا به . وقوله[2] ( إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَالَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ) فهذا بيان لسبب العذاب . وهو تلقى الباطل بالألسنة ، والقول بالأفواه . وهما نوعان محرمان : القول بالباطل والقول بلا علم . ثم قال سبحانه[3] ( وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ) فالأول تحضيض على الظن الحسن ، وهذا نهى لهم عن التكلم بالقذف . ففى الأول قوله[4] ( اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ) وقوله ﷺ[5] ( إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ) وقوله[6] ( ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ) دليل على حسن مثل هذا الظن الذى أمر الله به. وفى الصحيح قوله[7] لعائشة ( ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً )؟ فهذا يقتضى جواز بعض الظن ، كما احتج البخارىّ بذلك . لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الرادع له عن فعل الفاحشة ، يجب أن يظن به الخير دون الشر . وفى الآية نهى عن تلقى مثل هذا باللسان ، ونهى عن قول الإنسان ماليس له به علم . لقوله تعالى[8] ( وَلَا تَقْفُ

(١) [ ٢٤ / النور / ١٣ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ١٥ ] .
(٣) [ ٢٤ / النور / ١٦ ] . (٤) [ ٤٩ / الحجرات / ١٢ ] .
(٥) أخرجه البخارىّ تعليقا فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٨ ـ باب قول الله تعالى: من بعد وصية توصون بها أو دين . (٦) [ ٢٤ / النور / ١٢ ] .
(٧) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٩ ـ باب ما يكون من الظن ، حديث رقم ٢٣٣٤ ، عن عائشة . (٨) [ ١٧ / الإسراء / ٣٦ ] .

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) والله جعل فى فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ، ما لم يجعله فى شىء من المعاصى . لأنه جعل فيه الرجم وقد رجم قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط. وجعل العقوبة على القاذف بها ثمانين جلدة ، والرمى بغيرها فيه الاجتهاد . ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين ، كما قال علىّ : لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى. وكما قال عبد الرحمن بن عوف : إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى . وحد الشرب ثمانون ، وحد المفترى ثمانون . وقوله تعالى(١) ( إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ) وهذا ذم لمن يحب ذلك . وذلك يكون بالقلب فقط ، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح . وهو ذم لمن يتكلم بها أو يخبر بها . محبة لوقوعها فى المؤمنين ، إما حسدا أو بغضا ، أو محبة للفاحشة . فكل من أحب فعلها ، ذكرها . وكره العلماء الغزل من الشعر الذى يرغب فيها . وكذلك ذكرها غيبة محرم ، سواء كان بنظم أو نثر . وكذلك التشبه بمن يفعلها ، منهىّ عنه مثل الأمر بها . فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالإخبار تارة . فهذان الأمران للفجرة الزناة واللوطية ؛ مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين المؤمنين . أولئك يعتبرون من الغيرة بهم ، وهؤلاء من الاغترار يعتبرون . فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيه قدوة . ومن ذلك قوله تعالى(٢) ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ) الآية . قيل : أراد الغناء . وقيل: أراد قصص ملوك الكفار . وبالجملة كل مارغب النفوس فى الطاعة ونهاها عن المعصية ، فهو من الطاعة . ومارغب فى المعصية ونهى عن الطاعة ، فهو من المعصية. فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب فى الشريعة ، مثل النهى عنها وعنهم ، والذم لها ولهم وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك فى وجوههم ومغيبهم ـ فهذا حسن يجب تارة ويستحب أخرى . كما قص الله قصص المؤمنين والفجار ليعتبروا بالأمرين . وقد ذكر الله

(١) [ ٢٤ / النور / ١٩ ] . (٢) [ ٣١ / لقمان / ٦ ] .

عن أنبيائه وعباده الصالحين، من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة. فقال تعالى[١] ( وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ) الخ فى مواضع ، وهذا فيه من التوبيخ ما فيه ، وليس من باب القذف واللمز . ثم توعدوه بإخراجه من القرية. وهذا حال أهل الفجور ، إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا إخراجه . وقد عاقب الله على الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى. حيث أمر بنفى الزانى والمخنث . فمضت السنة بنفى هذا وهذا . وهو سبحانه وتعالى أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب . وكذلك ما ذكره تعالى فى قصة يوسف فى قوله[٢]( وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ )إلى قوله[٣]( فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وماذكر بعده من قول يوسف[٤] ( مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) الآية، وهذا من باب الاعتبار الذى يوجب النفور عن المعصية والتمسك بالتقوى. وكذلك ما بينه فى آخرها بقوله تعالى[٥]( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ )الآية. ومع هذا، فمن الناس من يحب سماعها لما فيه من ذكر العشق وما يتعلق به، لمحبته لذلك ولرغبته فى الفاحشة . حتى إن منهم من يُسمعها النساء لمحبتهم للسوء ، ولا يختارون أن يسمعوا ما فى سورة النور من العقوبة والنهى عن ذلك . حتى قال بعض السلف : كل ما حصلته فى سورة يوسف أنفقته فى سورة النور . وقد قال تعالى[٦] ( وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)وقال[٧] ( وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ) الآيات . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة، فهو مذموم. ومن هذا ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب فى المعصية وصدّ عن سبيل الله ، ومنه سماع كلام أهل البدع ، والنظر

(١) [ ٢٧ / النمل / ٥٤ ]. (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٣ ] . (٣) [ ١٢ / يوسف /٣٤].
(٤) [ ١٢/ يوسف/ ٥٠ ] . (٤) [ ١٢/ يوسف/١١١ ]. (٦) [ ١٧/ الإسراء/٨٢] .
(٧) [ ٩/ التوبة / ١٢٤ ] .

فى كتبهم لمن يضره ذلك. فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات . والله تعالى ذم هؤلاء فى مثل قوله(١)(يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)وقوله(٢)( وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ )وقوله(٣)( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ) وما بعدها، وقوله(٤) ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ) الآية، وقوله(٥) ( مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ) وقوله(٦) ( وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ) وقوله(٧) ( وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ ) الآية ، ومثل هذا كثير فى القرآن. فأهل المعاصى كثير فى العالم، بل هم أكثر، كما قال تعالى(٨)( وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ) الآية . وفى النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولًا وعملًا ما يعلمه إلا الله . وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم ، ويزينونها لمن يطيعهم. فهم أعداء الرسل وأندادهم . فالرسل يدعون إلى الطاعة بالرغبة والرهبة . ويجاهدونهم عليها. وينهون عن المعاصى ويحذرون منها بالرغبة والرهبة. ويجاهدون من يفعلها. قال تعالى(٨) ( الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) الآية ، ثم قال(٩) ( وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) الآية، وقوله تعالى(١٠)(الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ) ومثل هذا فى القرآن كثير والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته . فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر مسبوق بمعرفته. فمن لا يعلمه لا يمكنه النهى عنه. وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر . فإن حب الشيء وفعله ، وبغض ذلك وتركه

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١٢ ]. (٢) [ ٢٦/ الشعراء/ ٢٢٤] . (٣) [٢٦/ الشعراء/٢٢١].
(٤) [ ٣١ / لقمان /٦] . (٥) [ ٢٣/ المؤمنون/ ٦٧ ] . (٦) [ ٧ / الأعراف / ١٤٦ ].
(٧) [ ٦ / الأنعام/ ١١٦ ] . (٨) [ ٩/ التوبة / ٦٧ ] . (٩) [ ٩ / التوبة / ٧١ ] .
(١٠)[ ٤ /النساء/ ٧٦ ] .

لا يكون إلا بعد العلم بهما ، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر . فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض، ولا فعل ولا ترك . لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلمه علماً مفصلًا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلًا . ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا أمر بأوصاف فلابد من العلم بثبوتها . فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة ، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها . بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها . وكل منهما معصية . فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية . وأما معرفة مايتركه وينهى عنه فقد يكتفي بمعرفته في بعض المواضع مجملًا . فإن الإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره . وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك ، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها ، وإلى دفع أهوائهم . وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك . ولا يكون ذلك إلا بالصبر ، كما قال تعالى[1] ( وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ) وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها . وبيان ما فيها من الفساد . فإن الإنكار بالقلب واللسان، قبل الإنكار باليد . وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والعصاة ، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان على وجه المدح والحب وبيان منفعته والترغيب فيه ، نحو قوله تعالى[2] ( وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ) الآيات . وهذا كثير جدًّا . فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم . إما كافر وإما فاجر . وليس منهم من هو بعكسه . لكن لا يثاب على مجرد عدم ذلك . وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله . وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذي يثاب عليه ، وهو أدنى الإيمان ، كما قال ﷺ[3] (من رأى منكم منكراً) إلى قوله

(١) [ ١٠٣ / العصر / ١ـ٣ ] .  (٢) [ ١٩ / مريم / ٨٨و٨٩ ] .
(٣) أخرجه مسلم في ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٨، عن أبي سعيد الخدري (طبعتنا).

(وذلك أضعف الإيمان) وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته . وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه . ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد . والنبي ﷺ قال : ( وذلك أضعف الإيمان ) فيمن رأى المنكر . فأما إذا رآه ولم يعلم أنه منكر ، ولم يكرهه ، لم يكن هذا الإيمان موجوداً في القلب في حال وجوده ورؤيته ، بحيث يجب بغضه وكراهته. والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا . وإذ لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ، ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات ، قد يعرض عنها كثير من الناس ، إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين . وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات، فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران : بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيهم وجهادهم، كما يحب المعروف وأهله، ولا يحب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال . وقد قال تعالى(١) : ( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ) وقال تعالى(٢) ( قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ) الآية، قال(٣) ( لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ) الآية ، وكثير من الناس ، بل أكثرهم، كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات، ولاسيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات. فربما مالوا إليها تارة، وعنها أخرى. فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة.

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١٥ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٢٤ ] .
(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ٢٢ ] .

ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى فى هجر السيئات ، وصارت نفسه مطمئنة ، تاركا للمنكرات والمكروهات ، لاتحب الجهاد ومصابرة العدوّ على ذلك، واحتمال مايؤذيه من الأقوال والأفعال. فإن هذا شيء آخر داخل فى قوله(١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ إلى قوله(٢) ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ والشفاعة : الإعانة . إذ المعين قد صار شفيعاً للمعان . فكل من أعان على برّ أو تقوى كان له نصيب منه . ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كِفل منه . وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم، من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان . ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين. كما قال تعالى قبل ذلك(٣) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ إلى قوله(٤) ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ ومن هٰهنا يظهر الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره. والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر. فإن المؤمنين يسمعون إقبال أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كرؤية الصحابة النبيّ ﷺ وسمعهم لما بلغهم عن الله . والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى(٥) ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾الآية، وقال(٦) ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وقال(٧) ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ وقال(٨) ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ وقال تعالى(٩) فى حق المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

(١) [ ٤ / النساء / ٧٧ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٨٥ ] . (٣) [ ٤ / النساء / ٧١ ] .
(٤) [ ٤ / النساء / ٧٦ ] . (٥) [ ٦٨ / القلم / ٥١ ] . (٦) [ ٤٧ / محمد / ٢٠ ] .
(٧) [ ١١ / هود / ٢٠ ] . (٨) [ ٥ / المائدة / ٧١ ] . (٩) [ ٢٥ / الفرقان / ٧٣ ].

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ) وقال فى حق الكفار(١) ( فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ) والآيات فى هذا كثيرة جدًّا . وكذلك النظر إلى زينة الدنيا فتنة . قال تعالى(٢) « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) وفى آخر الحجر. وقوله(٣) (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ )الآية ، وقال(٤) (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ) الآية ، وقال(٥) (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية ، وقال(٦) ( أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ) الآيات ، وقال(٧) ( قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية وقال(٨) (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الآية . وكذلك قال الشيطان(٩) (إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ) وقال(١٠) (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ) الآيات . وقال(١١) ( إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ) الآيات . فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها ، منهيّ عنه . والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه الاعتبار مأمور به . وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لدفع شر أولئك، فمأمور به . وكذلك رؤية الاعتبار شرعا فى الجملة . فالعين الواحدة ينظر إليها تارة نظرا مأمورا به . إما للاعتبار وإما لبغض ذلك . والنظر إليه لبغض الجهاد منهى عنه . وكذلك الموالاة والمعاداة . وقد يحصل للعبد فتنة بنظر منهى عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة . وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله فيهم(١٢) ( وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي) فإنها نزلت فى الجدّ بن قيس لما أمره النبيّ ﷺ أن يتجهز لغزو الروم فقال: إنى مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم . فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول. وأما

---

(١) [ ٧٤ / المدثر / ٤٩ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] . (٣) [ ٩/ التوبة/ ٥٥ ] .
(٤) [ ٢٤ / النور/ ٣٠ ] . (٥) [ ١٨/الكهف/ ٢٨ ] . (٦) [ ٨٨/الغاشية/ ١٧ ].
(٧) [ ١٠/يونس/ ١٠١ ] . (٨) [ ٣٤ / سبأ / ٩ ] . (٩) [ ٨/الأنفال/ ٤٨ ] .
(١٠) [ ٢٦/الشعراء/ ٦١]. (١١) [ ٨/ الأنفال/ ٤٣ ] . (١٢) [ ٩/ التوبة/ ٤٩].

ما يكون من الفعل بالجوارح ، فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا ، داخل فى هذا . بل يكون عذابه أشد . فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد المحبة . وهذه قد لا يقترن بها قول ولا فعل . فكيف إذا اقترن ؟ بل على الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله تعالى من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها فى الذين آمنوا . ومن رضى عمل قوم حشر معهم. كما حشرت امرأة لوط معهم . ولم تكن تفعل فاحشة اللواط . فإنه لا يقع من المرأة. ولكن لما رضيت فعلهم ، عَمَّها معهم العذاب. فمن هذا الباب قيل: من أعان على الفاحشة وإشاعتها، مثل القواد. لما يحصل له من رياسة أو سؤدد أو سحت يأكله . وكذلك أهل الصناعات التى تنفق، مثل المغنين وشَرَبة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . فإنها إذا شاعت تمكنوا من أغراضهم من الرياسة والمال وفعل الفاحشة ، وتمكنوا من دفع من ينكرها . بخلاف ما إذا كانت قليلة . ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته ، منهىّ عنه محرّم . كما قال(١) تعالى ( إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ) أى ما فيها من ذكر الله وطاعته وامتثال أمره أكبر من ذلك . وقال فى الخمر والميسر(٢) ( وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ) أى يوقعهم ذلك فى معصيته التى هى العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التى تنهى عنه الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر ، كما هو الواقع . فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالًا كان أو حرامًا ، فإن الله سبحانه لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا يدعو إلى الحرام بعينه من الجماع. والسكر يزيل العقل الذى يميز به بين الحلال والحرام ، والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام . ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش، ما لا يكثر من غيرها . حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه . وقد يستغنى بالحلال إذا أمكنه . ويدعو شرب الخمر

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤٥ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٩١ ] .

إلى أكل أموال الناس بالسرقة والمحاربة وغير ذلك. لأنه يحتاج إلى الخمر ومايستتبعه من مأكول وغير ذلك من فواحش وغناء . وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال، حتى يتكلم شاربه بما فى باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما فى قلوب الرجال من الأسرار، سقوهم الخمر. وربما يشربون معهم مالا يسكرون به. وأيضاً فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتدبيره. فجميع الأمور التى تصد عنها وتوقعها من المفاسد داخل فى قوله تعالى[١] ( وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ) وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان ولهذا قال النبى ﷺ[٢] ( ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ) ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : ( إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هى الحالقة. لاأقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ) وقد ذكرنا فى غير هذا أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب يوقع العداوة والبغضاء . وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من المعصية. والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو أعظم منها ولا يرضى إلا بغاية ماقدر على ذلك . وأيضاً، فالعداوة والبغضاء شر محض ، لايحبهما عاقل . بخلاف المعاصى فإن فيها لذة . والنفوس تريدها ، والشيطان يدعو إليها ، ليوقعها فى شرٍّ لاتهواه . والله سبحانه قد بيّن مايريد الشيطان بالخمر والميسر، ولم يذكر ما يريده الإنسان. ثم قال[٣] فى سورة النور (لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ) وكذلك فى البقرة[٤] ، نهى عن اتباع خطواته. وهو اتباع أمره بالاقتداء والاتباع. وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم. وقال[٥] فيها ( الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ) فذكر أن الشيطان يأمر بذلك وبعد هذا[٥] ( وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) وقال[٦] (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) [ ٥/المائدة / ٩١ ] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٥٦ ـ باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البندارى ، عن أبى الدرداء .

(٣) [ ٢٤ / النور / ٢١] . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٦٨ ] .

(٥) [ ٢ / البقرة / ٢٦٨ ] . (٦) [ ١٦ / النحل / ٩٠ ] .

وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ )وقال عن نبيّه[1] ( يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ )الآية.وقال عن أمته[2]( يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ )وذكر مثل ذلك فى مواضع كثيرة.فتارة يخص اسم المنكر بالنهى ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغى . وكذلك المعروف ، تارة يخصه بالأمر ، وتارة يقرن به غيره . كقوله[3]( لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ) الآية . وذلك أن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب . كلفظ ( الفقير والمسكين ) . إذا عرف هذا فاسم المنكر يعمّ كل ما كرهه الله ونهى عنه . واسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه . وإذا قرن المنكر بالفحشاء ، فالفحشاء مبناها على المحبة . والمنكر هو الذى تنكره القلوب . فقد يظن أن ما فى الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فيه . فإن الفاحشة وإن كانت مما تنكره القلوب فإنها تشتهيها النفوس . وكذلك البغى ، قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس . ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء . ومنشؤه من قوة الغضب . ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها . فالفواحش والبغى مقرونان بالمنكر . وأما الإشراك والقول على الله بلا علم ، فإنه منكر محض . ليس فى النفوس ميل إليهما . بل إنما يكونان عن عناد وظلم . فهما منكر محض بالفطرة[4] ( وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ) سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى المتّبع . فإن من أتى ذلك ، فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه عابد له . وإن كان الآتى هو الآمر ، فالأمر بالفعل أبلغ من فعله . فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه .

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان. والمغنّى هو مؤذنه الذى يدعو إلى طاعته. فإن الغناء رقية الزنى. وكذلك من اتباع خطوات الشيطان، القول على الله بلا علم. كحال أهل

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٥٧ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٠٤ ] .
(٣) [ ٤ / النساء / ١١٤ ] . (٤) ٢٤ / النور / ٢١ ] .

البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمرد وإحضارهم فى سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك ، مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين. ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف ، أن يمنع ماينبغى فعله من الإحسان إلى القرابة والمساكين وأهل التوبة. وأمره بالعفو . فإنه كما يحب أن يُغفر له فليغفِر . ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وإيتاء المساكين واجب ، ومعونة المهاجرين واجبة ، فلا يجوز ترك مايجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه : كما لا يمنع ميراثه وحقه من الصدقات والفىء ، بمجرد ذنب من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب .

وفى الآية دليل على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوى الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب .

فإنه قد ثبت فى الصحيح[1] عن عائشة فى قصة الإفك ، أن أبا بكر الصديق حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة . وكان أحدَ الخائضين فى الإفك فى شأن عائشة . وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر . وقد جعله الله من ذوى القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم . والنهى يقتضى التحريم . فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل ، كان الفعل واجباً ، لأن الحلف على ترك الجائز جائز . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

الرابع ـ قال الزمخشرىّ : لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة ، لم تر الله تعالى قد غلّظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة ، رضوان الله عليها . ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما رُكِبَ من ذلك واستفظاع ما أُقْدِمَ عليه ـ ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة وأساليب مفتنّة . كل واحد منها

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١٥ ـ باب تعديل النساء بعضهن بعضا ، حديث ١٢٦٦ ، من حديث الإفك الطويل .

كان فى بابه ولو لم ينزّل إلا هذه الثلاث يعنى قوله تعالى[١] ( إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ ) إلى قوله ( هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ) لـكفى بها . حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا . وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة . وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا. وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك ، أن الله هو الحق المبين . فأوجز فى ذلك وأشبع وفصّل وأجمل وأكد وكرر ، بما لم يقع فى وعيد المشركين ، عبدة الأوثان ، إلا ما هو دونه فى الفظاعة . وما ذاك إلا لأمر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة . وكان يُسأل عن تفسير القرآن . حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة .وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلســـان الشاهد[٢] ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ) وبرأ موسى[٥] من قول اليهود فيه ، بالحجر الذى ذهب بثوبه . وبرأ مريم[٤] بإنطاق ولدها حين نادى فى حجرها ( إِنِّى عَبْدُ اللهِ ) وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين .

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فَلْيَتَلَقَّ ذلك من آيات الإفك . وليتأمل كيف غضب الله له فى حرمته ، وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه.

---

(١) [ ٢٤ / النور / ٢٣ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٦ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٠ ـ باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ، حديث رقم ٢٠١ ، عن أبى هريرة . (٤) [ ١٩ / مريم / ٣٠ ] .

( فإن قلت ) إن كانت عائشة هى المرادة ، فكيف قيل : المحصنات ؟ ( قلت ) : فيه وجهان : أحدهما ـ أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ وأن يخصصن بأن من قذفهن، فهذا الوعيد لاحق به . وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ ، كانت المرادةُ أولًا والثانى ـ أنها أم المؤمنين ، فَجُمِعَتْ . إرادةً لها وابنتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان انتهى .

قال الناصر : والأظهر أن المراد عموم المحصنات . والمقصود بذكرهن على العموم، وعيد من وقع فى عائشة، على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر ﷺ ؟ على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه. وهذا معنى قول زليخا[1] ( مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) فعمّمت وأرادت يوسف ، تهويلًا عليه وإرجافاً . والمعصوم من عصمه الله تعالى . انتهى .

الخامس : قال الإمام ابن تيمية فى ( منهاج السنة ) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن عائشة رضي الله عنها أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام واحتجوا بما فى الصحيحين[2] عن أبى موسى وعن أنس رضى الله عنهما ، أن النبىّ ﷺ قال : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . والثريد هو أفضل الأطعمة ، لأنه خبز ولحم . كما قال الشاعر[3] :

إذا ما الخبزُ تأدِمُهُ بلحمٍ        فذاكَ أمانةَ اللهِ الثَّريدُ

وذلك أن البُر أفضل الأقوات . واللحم أفضل الإدام . كما فى الحديث الذى رواه

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ٢٥ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٦٠٦ عن أبى موسى الأشعرىّ، حديث ١٧٦٨ عن أنس بن مالك.

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٧٠ ، عن أبى موسى . وحديث ٧٩ ، عن أنس بن مالك ( طبعتنا ).

(٣) من أبيات الكتاب. وقد قال عنه سيبويه : ( ويقال وضعه النحويون ) ج ١ ص ٤٣٤

ابن قتيبة وغيره، عن النبيّ ﷺ أنه قال (سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم) فإذا كان اللحم سيد الإدام ، والبر سيد الأقوات ، ومجموعهما الثريد ، كان الثريد أفضل الطعام .

وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال [(١)] ( فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ) وفى الصحيح [(٢)] عن عمرو بن العاص قال: قلت : يارسول الله ! أى النساء أحب إليك ؟ قال ( عائشة ) قلت : ومن الرجال ؟ قال (أبوها) قلت : ثم من ؟ قال : (عمر) وسمى رجالا . وهؤلاء يقولون : قوله عليه الصلاة والسلام لخديجة: ما أبدلنى الله خيراً منها : إن صح معناه ما أبدلنى خيراً لى منها ، فإن خديجة نفعته فى أول الإسلام نفعاً لم يقم غيرها فيه مقامها . فكانت خيرا له من هذا الوجه ، لكونها نفعته وقت الحاجة ، وعائشة صحبته فى آخر النبوة وكمال الدين . فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول النبوة . فكانت أفضل لهذه الزيادة . فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها ، وبلغت من العلم والسنن مالم يبلغه غيرها فخديجة كان خيرها مقصوراً على نفس النبيّ ﷺ لم تبلغ عنه شيئاً ، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة . ولأن الدين لم يكن قد كمل حتى تعلمه ، ويحصل لها من كمالاته ما حصل لمن علم وآمن به بعد كماله ، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد ، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه فى أعمال متنوعة . فخديجة رضى الله تعالى عنها خير له من هذا الوجه. لكن أنواع البر لم تحصر فى ذلك . ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيمانا ، وأكثر جهادا بنفسه وماله ، كحمزة وعليّ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم ، هم أفضل ممن كان يخدم النبيّ ﷺ وينفعه فى نفسه أكثر منهم . كأبى رافع وأنس ابن مالك وغيرهما . وفى الجملة ، الكلام فى تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه . لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها. وإن نساءه ﷺ أمهات المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاريّ فى ٧٠ ـ كتاب الأطعمة، ٢٥ ـ باب الثريد ، حديث ١٦٠٦ ، عن أبى موسى الأشعريّ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبيّ ﷺ ( لو كنت متخذا خليلا ) حديث رقم ١٧٢٢ .

اللواتى مات عنهن ، كانت عائشة أحبهن إليه وأعظمهن حرمة عنـد المسلمين . وقد ثبت فى الصحيح (١) أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة ، لما يعلمون من محبته إياها . حتى أن نساءه غرن من ذلك ، وأرسلن إليه (٢) فاطمة رضى الله عنهـا تقول له : نساؤك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة : فقال لفاطمة : أى بنية أما تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى . قال: فأحبى هذه ، الحديث فى الصحيحين (٣) وفى الصحيحين أيضاً أن النبىّ ﷺ قال: ياعائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت : وعليه السلام ورحمة الله . ترى ما لا نرى . ووهبت (٤) سودة بنت زمعة يومها لعائشة رضى الله عنهما ، بإذنه ﷺ . وكان فى مرضه (٥) الذى مات فيه يقول: أين أنا اليوم؟ استبطاء ليوم عائشة . ثم (٦) استأذن نساءه أن يمرّض فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فمرض

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٨٢ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٥١ ـ كتاب الهبة ٨ باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، حديث رقم ٨٣ (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ـ باب فضل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٥١٩ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٩٠ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٦٨ من الجزء السادس ، عن عائشة .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ٤ باب ما جاء فى بيوت أزواج النبىّ ﷺ حديث ١٥٢ ، عن عائشة .

فيه . وفى[١] بيتها توفى بين سحرها ونحرها وفى حجرها . وكانت[٢] رضى الله عنها مباركة على أمته . حتى قال أسيد بن حضير ، لما أنزل الله آية التيمم بسببها : ماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر . ما نزل بك أمر قط تكرهينه إلا جعل الله فيه للمسلمين بركة . وقد كانت[٣] نزلت آية براءتها قبل ذلك ، لما رماها أهل الإفك . فبرأها الله من فوق سبع سموات ، وجعلها من الصيّنات . وبالله التوفيق . انتهى .

وأغرب الإمام ابن حزم ، فذهب إلى أن أفضل الناس بعد الأنبياء ، نساؤه ﷺ . ومعلوم أن عائشة فضلاهن . وقد أسهب فى ذلك فى كتابه ( الملل ) فارجع إليه .

السادس ـ قال القاشانىّ رحمه الله تعالى : إنما عظم تعالى أمر الإفك وغلّظ فى الوعيد عليه ، بما لم يغلظ فى غيره من المعاصى ، وبالغ فى العقاب عليه بما لم يبالغ به فى باب الزنى وقتل النفس المحرمة ، لأن عظم الرذيلة وكبر المعصية ، إنما يكون على حسب القوة التى هى مصدرها . وتتفاوت حال الرذائل فى حجب صاحبها عن الحضرة الإلهية والأنوار القدسية ، وتوريطه فى المهالك الهيولانية . والمهاوى الظلمانية ، على حسب تفاوت مبادئها . فكلما كانت القوة التى هى مصدرها ومبدؤها أشرف . كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ . وبالعكس . لأن الرذيلة ما قابل الفضيلة . فلما كانت الفضيلة أشرف ، كان ما يقابلها من الرذيلة أخسّ . والإفك رذيلة القوة الغضبية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ٤ ـ باب ماجاء فى بيوت أزواج النبىّ ﷺ ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٤٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى : فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، حديث ٢٣٠ ، عن عائشة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ حديث الإفك ، حديث رقم ١٢٦٦ ، عن عائشة .

فبحسب شرف الأولى على الباقيتين ، تزداد رداءة رذيلتها . وذلك أن الإنسان إنما يكون بالأولى إنسانا ، وترقيه إلى العالم العلويّ ، وتوجهه إلى الجناب الإلهيّ وتحصيله للمعارف والكمالات ، واكتسابه للخيرات والسعادات ـ إنما يكون بها . فإذا فسدت بغلبة الشيطنة عليها ، واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة ، حصلت الشقاوة العظمى ، وحقت العقوبة بالنار . وهو الرين والحجاب الكليّ .

ألا ترى أن الشيطنة المغوية للآدمى أبعد عن الحضرة الآلهية ، من السبعية والبهيمية ؟ وأبعد بما لا يقدر قدره . فالإنسان برسوخ رذيلته النطقية يصير شيطاناً ، وبرسوخ الرذيلتين الأخريين ، يصير حيواناً كالبهيمة أو السبع . وكل حيوان أرجى صلاحاً ، وأقرب فلاحاً من الشيطان . ولهذا قال تعالى[1] (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) ونهى هاهنا عن اتباع خطوات الشيطان . فإن ارتكاب مثل هذه الفواحش لا يكون إلا بمتابعته ومطاوعته . وصاحبه يكون من جنوده وأتباعه . فيكون أخس منه وأذل ، محروماً من فضل الله الذى هو نور هدايته ، محجوباً من رحمته التى هى إفاضة كمال وسعادة ، ملعوناً فى الدنيا والآخرة ، ممقوتاً من الله والملائكة . تشهد عليه جوارحه بتبدّل صورها وتشوّه منظرها . خبيث الذات والنفس . متورطا فى الرجس . فإن مثل هذه الخبائث لا تصدر إلا من الخبيثين . كما قال تعالى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) وأما الطيبون المنزهون عن الرذائل ، فإنما تصدر عنهم الطيبات والفضائل . انتهى .

السابع ـ فى سر قَرْن الزنى بالشرك فى قوله تعالى[2] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) وتحقيق القول فى الآية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله فى (إغاثة اللهفان) : نجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات . من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً . ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة ، أكثرهم شركا . فكلما كان الشرك فى العبد أغلب ،

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٢١ و٢٢٢ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣ ] .

كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى[1] عن يوسف الصديق عليه السلام ( كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبّد لها . بل هو من أعلى أنواع التعبّد. ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه ، صار تتيّماً . والتتيّم التعبد . فيصير العاشق عابداً لمشوقه . وكثيراً مايغلب حبه وذكره والشوق إليه والسعى فى مرضاته وإيثار محابّه ، على حب الله وذكره والسعى فى مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور . كما هو مشاهد . فيصير المعشوق هو إلٰهه من دون الله عز وجل . يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه . ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله . وينفق فى مرضاته مالا ينفقه فى مرضاة الله . ويتجنب سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى . فيصير آثر عنده من ربه حبًّا وخضوعاً وذلًّا وسمعاً وطاعةً . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين. وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة . فكلما قوى شرك العبد بُلِى بعشق الصور وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزنى واللواطة كمال لذته ، إنما يكون من العشق . ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد . بل ينقسم على سهام كثيرة لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده . فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين. ولهما خاصية فى تبعيد القلب من الله . فإنهما من أعظم الخبائث . فإذا انصبغ القلب بهما بَعُد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب . وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح ، فيما رواه الإمام أحمد فى ( كتاب الزهد ) لا يكون البطالون من الحكماء . ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى كان قريباً للشرك فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى[2] ( الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) والصواب القول بأن هذه الآية محكمة . يعمل بها لم ينسخها شىء . وهى مشتملة على خبر وتحريم . ولم يأت من ادعى نسخها بحجةٍ البتة.

(١) [ ١٢/ يوسف / ٢٤ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣ ] .

والذى أشكل منها على كثير من الناس ، واضحٌ بحمد الله تعالى. فإنهم أشكل عليهم قوله[١] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ) هل هو خبر أو نهى أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة . وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزانى أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف ، وإباحةً له نكاح المشركات والزوانى . والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً . فلما أشكل عليهم ذلك ، طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه . فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطء والزنى . فكأنه قال : الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة . وهذا فاسد . فإنه لا فائدة فيه . ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك . فإنه من المعلوم أن الزانى لا يزنى إلا بزانية . فأى فائدة فى الإخبار بذلك . ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه . ثم قالت طائفة : هذا عام اللفظ خاص المعنى. والمراد به رجل واحد[٢] وامرأة واحدة . وهى عناق وصاحبها . فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ فى نكاحها فنزلت هذه الآية . وهذا أيضاً فاسد. فإن هذه الصورة المعينة ، وإن كانت سبب النزول ، فالقرآن لا يقتصر به على محالّ أسبابه . ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها . وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله[٣] ( وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ ) وهذا أفسد من الكل . فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين . ولا تناقض إحداهما الأخرى . بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى ، وحرم نكاح الزانية ، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم . فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا ؟ ( فإن قيل ) : فما وجه الآية ؟ قيل : وجهها ، والله أعلم ، أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة . وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط. كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتى النساء والمائدة . والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه. والإباحة قد علقت على شرط الإحصان . فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به .

(١) [٢٤/النور/٣] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور ، ١ ـ حدثنا عبد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو . (٣) [ ٢٤ / النور / ٣٢ ] .

فالمتزوج، إماأن يلتزم حكم اللهوشرعه الذىشرعهعلى لسان رسوله، أولايلتزمه . فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ، ونكح ما حرم عليه ،لم يصح النكاح. فيكون زانياً. فظهر معنى قوله« لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» وتبين غايةالبيان . وكذلك حكم المرأة . وكما أن هذا الحكمهو موجب القرآن وصريحه، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل . فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرناناً ديوثاً زوج بغىّ . فإن الله تعالى فطر الناس على استقباحذلك واستهجانه. ولهذا إذا بالغوا فىسبّ الرجل قالوا ( زوج قحبة ) فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك . فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية . والله الموفق .

ومما يوضح التحريم ، وأنه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة ، أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج ، وفساد النسبالذى جعله الله تعالى بين الناس لتمامصالحهم . وعدّوه من جملة نعمه عليهم . فالزنى يفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب ، فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتستبرأ . وأيضاً ، فإن الزانية خبيثة، كما تقدمبيانه والله‌سبحانه جعلالنكاح سبباً للمودةوالرحمة . والمودةخالص الحب ، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب ، زوجاً له ؟ والزوج سمى زوجاً من الازدواج . فالزوجان، الاثنان المتشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيبوالخبيث شرعاًوقدراً . فلا يحصلمعها الازدواجوالتراحم والتوادّ . فلقدأحسن كل الإحسان من ذهب إلى هـذا المذهب ، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة . فأينهذا منقولمن جوز أنيتزوجها ويطأهاالليلة ، وقد وطئها الزانى البارحة؟ وقال:ماء الزانى لا حرمةله . فهب أنالأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة. فكيف يجوز اجتماعهمع ماء الزانى فى رحم واحد ، والمقصود أن الله سبحانه سمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات . وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالا. وسمى فاعله جنباً لبعدهعن قراءة القرآن وعن الصلاةوعن المساجد. فمنع منذلك كله حتىيتطهر بالماء . فكذلكإذا كان حراماً يبعد القلب عن الله تعالى وعن الدار الآخرة . بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتىيحدث طهراً

كاملًا بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقولُ اللوطية[١] ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ من جنس قوله سبحانه فى أصحاب الأخدود[٢] ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وقوله سبحانه[٣] ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك ، وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنى تجريده متابعة الرسول وأنه لم يَشُبْهَا بآراء الرجال ولا بشىء مما خالفها . فَصَبْر الموحد المتبع للرسول ، على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه ، من صبره على ما ينقمه الله ورسوله ، عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لَمْ يَكُنْ بدٌّ من الصبرِ ، فاصْطَبِرْ ... على الحقِّ . ذاكَ الصبرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ

لطيفة :

كتب ابن القاضى شرف الدين ابن المقرى ، صاحب ( الروض ) إلى أبيه ، وقد قطع نفقته :

لا تقطعنْ عادةَ برٍّ ، ولا ... تجعلْ عقابَ المرءِ فى رزقِهِ
فإن أمرَ الإفكِ مِنْ مِسْطحٍ ... يحُط قدر النَّجْمِ من أُفْقِهِ
وقد جَرى منه الذى قد جَرى ... وعُوتِبَ الصدّيق فى حقِّهِ

فأجابه أبوه شرف الدين بقوله :

قَدْ يُمْنَعُ الْمُضْطَرُّ مِن مَيْتَةٍ ... إذا عَصَىٰ بالسَّيْرِ فى طُرْقِهِ
لأنه يَقْوَى عَلَى تَوْبَةٍ ... تُوجبُ إيصالًا إلى رزقِهِ
لَوْ لَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنبه مِسْطَحٌ ... ما عُوتِبَ الصِّدّيقُ فى حقِّهِ

ولما فصّل تعالى الزواجر عن الزنى ، وعن رمى العفائف عنه ، بيّن من الزواجر ما عسى يؤدى

(١) [ ٧/ الأعراف/ ٨٢ ] . (٢) [ ٨٥/ البروج/ ٨ ] . (٣) [ ٥/ المائدة/ ٥٩ ] .

إلى أحدها . وذلك فى مخالطة الرجال بالنساء ، ودخولهم عليهن ، فى أوقات الخلوات ، وفى تعليم الآداب الجميلة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ )

[٢٨] ( فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا » أى تستعلموا وتستكشفوا الحال . هل يراد دخولكم أم لا ؟ من ( الاستئناس ) وهو الاستعلام . من ( آنس الشيء ) إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . أو المعنى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا . من ( الاستئناس ) الذى هو خلاف الاستيحاش . لما أن المستأذن مستوحش من خفاء الحال عليه . فيكون عبر بالشيء عما هو لازم له ، مجازاً أو استعارة . وجوّز أن يكون من ( الإنس ) والمعنى : حتى تعلموا هل فيها إنسان ؟ . « وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا » أى ليؤمنهم عما يوحشهم « ذَٰلِكُمْ » أى الاستئذان والتسليم « خَيْرٌ لَكُمْ » أى من الدخول بغتة « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى فتتعظوا وتعملوا بموجبه « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا » أى من الآذنين « فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أى واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم . ويحتمل: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ، ولكم فيها حاجة ، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها.

قال الزمخشرىّ : وذلك لأن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الداخل على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها . ولأنه تصرف فى ملك غيرك . فلا بد من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب . انتهى .

« وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا » أى إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع ، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا ، كالنساء والولدان ، فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان . لأن هذا مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس . ولذا قال تعالى « هُوَ » أى الرجوع « أَزْكَىٰ لَكُمْ » أى أطهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب ، من دنس الدناءة . وأنمى لمحبتكم .

قال الزمخشرىّ : وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة ، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار ، وغير ذلك مما يدخل فى عادات من لم يتهذب من أكثر الناس .

لطيفة :

قال ابن كثير : قال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن على بعض إخوانى، فيقول لى : ارجع. فأرجع وأنا مغتبط . انتهى. « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » أى فيجزيكم على نيتكم الحسنة فى الزيارة ، أو المكر والخيانة بأهل المزور أو ماله .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير، ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له ، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد . ويستفاد من هذا تحريم دخول ملك الغير ، والكون فيه ، وشغله بغير إذن صاحبه . فيدخل تحته من المسائل والفروع ما لا يحصى . واستدل بالآية الأكثرُ على الجمع بين الاستئذان والسلام . والأقلُّ على تقديم الاستئذان على السلام بتقديمه فى الآية . وأجاب الأكثرون ، بأن الواو لا تفيد ترتيباً . واستدل بها من قال : له الزيادة فى الاستئذان على ثلاث ، حتى يؤذن له أو يصرح بالمنع . وفهم من الآية أن الرجل لا يستأذن عند دخول بيته على امرأته . انتهى .

وقال ابن كثير : ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . وفى الصحيحين [(١)] عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن، فخذفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح) وأخرج [(٢)] الجماعة عن جابر قال: أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى. فدققت الباب، فقال (من ذا) فقلت: أنا قال (أنا، أنا) كأنه كرهه. وإنما كرهه، لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها، حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها . وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بـ(أنا ) فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية . وعن ابن مسعود قال : عليكم الإذن على أمهاتكم. وعن طاووس قال : ما من امرأة أكره إلىّ أن أرى عورتها من ذات محرم . وكان يشدد النكير فى ذلك . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . قال ابن كثير : وهذا محمول على عدم الوجوب . وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ، ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . ولهذا جاء فى [(٣)] الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨٧ـ كتاب الديات، ٢٣ ـ باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه ، فلا دية له ، حديث ٢٥٢٦ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٤٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٧ ـ باب إذا قال من ذا ؟ فقال أنا ، حديث ١٠٧٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٣٨ و ٣٩ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٦ ـ كتاب العمرة ، ١٦ ـ باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة ، حديث ٢٩٢ ، عن جابر .

ثم بيّن تعالى ما رخص فيه عدم الاستئذان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ )

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا » أى بغير استئذان « بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ » أى غير معدة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل ليتمتع بها كائناً من كان ، كالخانات والحمامات وبيوت الضيافات « فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ » أى منفعة وحاجة « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل ، لفسادٍ ، أو اطلاع على عورات . أفاده أبو السعود .

ثم أرشد سبحانه إلى آداب عظيمة تتناول المستأذنين عند دخولهم وغيرهم، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ )

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » أى مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه « وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » أى عن الإفضاء بها إلى محرم ، أو عن الإبداء والكشف « ذَلِكَ » أى الغض والحفظ « أَزْكَى لَهُمْ » أى أطهر للنفس وأتقى للدين « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى بأفعالهم وأحوالهم . وكيف يجيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم . فعليهم ، إذ عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على تقوى وحذر ، فى كل حركة وسكون . أفاده الزمخشرى .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في ( الإكليل ): في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها . أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل شيء في القرآن من ( حفظ الفرج ) فهو من الزنى ، إلا هذه الآية والتي بعدها ، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة . انتهى .

وليس بمتعيّن . وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى . أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفضاء .

الثاني ـ إن قيل : لِمَ أتى بـ ( مِن ) التبعيضية في غض الأبصار وقيّدها به دون حفظ الفروج؟ مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالى[1] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ) لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسرارى، وهو قليل بالنسبة لما عداه . فجعل كالعدم ولم يقيد به . مع أنه معلوم من الآية الأخرى . بخلاف ما يطلق فيه البصر . فإنه يباح في أكثر الأشياء ، إلا نظر ما حرم عن قصد . فقيّد ( الغض به ) ومدخول ( من ) التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي . وقيل : إن الغض والحفظ عن الأجانب . وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم ، وبعضه جائز . بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول ( من ) فيه . كذا في ( العناية ) .

الثالث ـ سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج ، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور . كما قال الحماسيّ[2] :

وكنتَ ، إذا أرسلتَ طرْفَكَ رائدًا ... لقلبك يومًا ، أتعبَتْكَ المناظِرُ

---

(١) [ ٢٣/المؤمنون/٥ ] . (٢) ديوان الحماسة الحماسية رقم ٤٦٥ . لم يعلم قائله. وثانيه:

رأيتَ الذى لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه ، ولا عن بَعْضِهِ أنت صابرُ

والرائد الذي يتقدم الواردة ، ليتأمل حال الماء والكلإ لهم .

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر . ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه . فبودر إلى منعه . ولأنه يتقدم الفجور في الواقع ، فجمل النظم على وفقه .

الرابع : غض البصر من أجلّ الأدوية لعلاج أمراض القلوب . وفيه حسم لمادتها قبل حصولها . فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . ومن أطلق لحظاته ، دامت حسراته .

كلّ الحوادثِ مبداها من النظرِ ومعظمُ النَّارِ من مستصغَرِ الشَّرَرِ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في ( الجواب الشافي ) : في غض البصر عدة منافع :

أحدها ـ امتثال أمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده . وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى . وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة، إلا بامتثال أوامر ربه . وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثاني ـ أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم ، الذي لعل فيه هلاكه ، إلى قلبه .

الثالث ـ أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعيّة على الله . فإن إطلاق البصر يفرّق القلب ويشتّته ويبعده من الله . وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر . فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع ـ أنه يقوي القلب ويفرحه . كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس ـ أنه يكسب القلب نورا . كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، فقال[1] ( قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ) ثم قال[2] إثر ذلك ( اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن ، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب . كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراضٍ عن أسباب السعادة ، واشتغال

(١) [ ٢٤ / النور / ٣٠ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣٥ ] .

بأسباب الشقاوة . فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب . فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام .

السادس ـ أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب. وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتّباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال ـ لم تخطئ له فراسة .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة ، والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فإذا غض بصره عن محارم الله ، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصرَه لله . ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة، والفراسة الصادقة المصيبة، التي إنما تنال ببصيرة القلب. وضد هذا ماوصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة، فقال تعالى(1) ( لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعمه الذي هو فساد البصيرة. فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل ، وعمه البصيرة يسكر القلب ، كما قال القائل :

سُكرانِ : سكر هوًى وسُكرُ مُدامةٍ ومتى إفاقَةُ مَنْ بِـه سُكرانِ ؟

وقال الآخر :

قالوا : جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم : العشقُ أعظمُ مما بالمجانينِ

العشق لا يستفيقُ الدهرَ صاحبُه وإنما يُصرَع المجنونُ في الحينِ

السابع ـ أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة ، وسلطان القدرة والقوة. كما في الأثر (الذي يخالف هواه يَفرَق الشيطان من ظله). وضد هذا تجده في المتبع هواه ، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها .

---

(1) [ ١٥ / الحجر / ٧٢ ] .

وماجعل الله سبحانه فيمن عصاه . كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى[1] ( وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) وقال تعالى[2] ( وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن . وقال تعالى[3] ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ) أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره ، من الكلم الطيب . والعمل الصالح . وفى دعاء القنوت[4] ( إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ) ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه . وله من العز بحسب طاعته . ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه . وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن ـ أنه يسدّ على الشيطان مدخله من القلب . فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب ، أسرع من نفوذ الهوى فى المكان الخالى . فيمثل له صورة المنظور إليه ، ويزينها ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب . ثم يعده ويمنيه . ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليه حطب المعاصى ، التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة . فيصير القلب فى اللهب . فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار . وتلك الزفرات والحرقات. فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب . فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور . ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة ، أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه ، إلى حشر أجسادهم . كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى[5] الحديث المتفق على صحته.

(١) [ ٦٣ / المنافقون / ٨ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٣٩ ] .
(٣) [ ٣٥ / فاطر / ١٠ ] . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٥ ـ باب القنوت فى الوتر ، حديث رقم ١٤٢٥ . (٥) يشير إلى حديث رؤياه ﷺ الذى أخرجه البخاريّ فى: ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٤٨ ـ باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، عن سمرة بن جندب ، حديث رقم ٥٠١ .

التاسع ـ أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها . وإطلاقُ البصر يشتّت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن أمر ربه ، قال تعالى[1] ( وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ) وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر ـ أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انفعال أحدهما عن الآخر . وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . فإذا فسد القلب فسد النظر . وإذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك فى جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه . وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر ، تطلعك على ما وراءها . انتهى .

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال . وزاد فى أمرهن ، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبلُ لهن ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ

(١) [ ١٨ / الكهف / ٢٨ ] .

مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ )

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » أى بالتستر والتصون عن الزنى كما تقدم . قال الزمخشرىّ : النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار . ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبىّ إلى ما تحت سرته إلى ركبته . وإن اشتهت غضت بصرها رأساً . ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك . وغض بصرها من الأجانب أصلا ، أولى بها وأحسن. ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة[1] رضى الله عنها قالت : كنت عند النبىّ ﷺ وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أُمِرْنا بالحجاب . فدخل علينا . فقال : احتجبا . فقلنا: يا رسول الله ! أليس أعمى لا يبصرنا ! قال: أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه؟ وهذا الحديث رواه أبو داود والترمذىّ وصححه « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » قال الزمخشرىّ : الزينة ما تزينت به المرأة من حلىّ أو كحل أو خضاب . فما كان ظاهراً منها، كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب ، فلا بأس بإبدائه للأجانب . وما خفى منها كالسوار والخلخال، والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها ، للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر . لأن هذه الزِّيَن واقعة على مواضع من الجسد ، لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء . وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن . فنهى عن إبداء الزِّيَن نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع ، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها ، لا مقال فى حله ـ كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً فى الحظْر ثابت القدم فى الحرمة ، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها ويتقين الله فى الكشف عنها .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٣٤ ـ باب وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، حديث رقم ٤١١٢ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٢٩ ـ باب ما جاء فى احتجاب النساء من الرجال .

( فإن قلت ) : لم سومح مطلقاً فى الزينـة الظاهرة ؟ قلت : لأن سترها فيه حرج . فإن المرأة لا تجد بدًّا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والنكاح . وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها . وخاصةً الفقيرات منهن . وهذا معنى قوله ( إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ) يعنى : إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره ، والأصل فيه الظهور . انتهى .

وقال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فسر ابن عباس قوله تعالى ( إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ) بالوجه والكفين ، كما أخرجه ابن أبى حاتم . فاستدل به مَن أباح النظر إلى وجه المرأة وكفيها ، حيث لا فتنة . ومن قال : إن عورتهـا ما عداها . وفسره ابن مسعود بالثياب ، وفسر الزينة بالخاتم والسوار والقرط والقلادة والخلخال . أخرجه ابن أبى حاتم أيضاً . فهو دليل لمن لم يجز النظر إلى شىء من بدنها ، وجعلها كلها عورة ( وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ) أى وليسترن بمقانعهن ، شعورَهن وأعناقهن وقرطهن وصدورهن ، بإلقائها على جيوبهن أى مواضعها ، وهى النحر والصدر .

قال الزمخشرىّ : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نُحورهن وصدورهن وما حواليها . وكنّ يسدلن الخمر من ورائهن ، فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها . ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور ، تسمية بمـا يليها ويلابسها ، ومنه قولهم ( ناصح الجيب ) .

لطيفة :

قال أبو حيان : عدّى ( يضربن ) بـ ( على ) لتضمنه معنى الوضع . وجعله الراغب مما يتعدى بها دون تضمين . و ( الخمر ) جمع خمار يقال ( لغة ) لما يستر به . وخصصه العرف بما تغطى به المرأة رأسها . ومنه ( اختمرت ) المرأة و ( تخمرت ) . و ( الجيب ) ما جيب ، أى قطع من أعلى القميص . وهو ما يسميه العامة طوقاً . وأما إطلاقه على ما يكون فى الجنب لوضع الدراهم ونحوها ، فليس من كلام العرب . كما ذكره ابن تيمية . كذا فى ( العناية ) ثم كرر النهى عن

إبداء الزينة لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه ، باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور ، بقوله تعالى « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » أى فإنهم المقصودون بالزينة . ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، لكن بكراهة على المشهور.

وقال الإمام أبو الحسن بن القطان فى كتاب ( إحكام النظر ) : عن أصبغ ، لا بأس به ، وليس بمكروه . وروى عن مالك لا بأس أن ينظر إلى الفرج فى الجماع . ثم ذكر أن ما روى من أن ذلك يورث العمى ، فحديث لا يصح . لأن فيه ( بقية ) وقد قالوا ( بقية أحاديثه غير نقية ) ولم يؤثر عن العرب كراهة ذلك . وللنابغة والأعشى وأبى عبيد وابن ميادة وعبد بنى الحساس والفرزدق ، فى ذلك ما هو معروف .

وقوله تعالى (أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ » أى لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم. فإن آباءهن أولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن . وآباء بعولتهن يحفظون على أبنائهم ما يسوءهم . وأبناؤهنّ شأنهم خدمة الأمهات ، وهم منهن . وأبناء بعولتهن شأنهم خدمة الآباء وخدمة أحبابهم . وإخوانهن هم الأولياء بعد الآباء . وبنوهم أولياء بعدهم . وكذا بنو أخواتهن ، هم كبنى إخوانهن فى القرابة فيتعيرون بنسبة السوء إلى الخالة . تعيرهم بنسبته إلى العمة . هذا ما أشار له المهايمىّ .

وأجمل ذلك الزمخشرىّ بقوله : وإنما سومح فى الزينة الخفية أولئك المذكورون ، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالفتهم . ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما فى الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب . وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك . وقوله تعالى « أَوْ نِسَائِهِنَّ » قيل : هن المؤمنات . أخذاً من الإضافة. فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدى مشركة أو كتابية . وقيل : النساء كلهن . فإنهن سواء فى حل نظر بعضهن إلى بعض .

قال فى (الإكليل) : فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كمحرم . وروى ابن أبى حاتم عن عطاء ؛

أن أصحاب النبيّ ﷺ لما قدموا بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات.

وقال الرازيّ : القول الثاني هو المذهب . وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأوْلى .

وقوله تعالى « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » أي لاحتياجهن إليهم . فلو منع دخولهم عليهن اضطررن. قاله المهايميّ . وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء . وإليه ذهب قوم . قالوا : لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن. واحتجوا أيضاً بما رواه أبو[(١)] داود عن أنس أن النبيّ ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال: وعلى فاطمة ثوب ، إذا قنعت به رأسها ، لم يبلغ رجليها . وإذا غطت به رجليها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبيّ ﷺ ما تلقى قال : إنه ليس عليك بأس . إنما هو أبوك وغلامك .

وجاء في ( تاريخ ابن عساكر ) أن عبد الله بن مسعدة كان أسود شديد الأدمة . وقد كان وهبه النبيّ صلوات الله عليه لابنته فاطمة . فربّته ثم أعتقته . ثم كان ، بعدُ مع معاوية على عليّ . نقله ابن كثير ، فاحتمل أن يكون هو هو . والله أعلم .

وذهب قوم إلى أنه عني بذلك الإماء المشركات، وأنه يجوز لها أن تظهر زينتها إليهن وإن كن مشركات. قالوا : وسرّ إفراد الإماء مع شموله قوله (أَوْ نِسَائِهِنَّ) لهن الإعلام بأن المراد مَنْ في صحبتهن من الحرائر والإماء لظهور الإضافة في ( نسائهن ) بالحرائر . كقوله[(٢)] ( شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ) فعطفن عليهن ليشاركنهن في إباحة النظر عليهن ، والقول الأول أقوى . لأن الأصل هو العمل بالعامّ حتى يقوم دليل على تخصيصه . لا سيما والحكمة ظاهرة فيه وهي رفع الحرج . وهذا الذي قطع به الشافعيّ وجمهور أصحابه .

قال في ( الإكليل ) : وعلى الأول استدل بإضافة اليمين على أنه ليس لعبد الزوج النظر.

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٢ ـ في العبد ينظر إلى شعر مولاته ، حديث ٤١٠٦

(٢) [ ٢ / البقرة / ٢٨٢ ] .

واستدل من أباحه بقراءة ( أو ما ملكت أيمانكم ) .

وقوله « أَوِ التَّابِعِينَ » أى الخدام لأنهن فى معنى العبيد « غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ » أى الحاجة إلى النساء « مِنَ الرِّجَالِ » كالشيخ الهرم والبله. واستدل بهذا من أباح نظر الخصى . وقوله تعالى « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » أى لم يفهموا أحوالهن ، لصغرهم . فيستدل به على تحريم نظر المراهق الذى فهم ذلك كالبالغ . كما فى ( الإكليل ) .

قال الزمخشرىّ : (يظهروا) إما من ( ظهر على الشىء ) إذا اطلع عليه ، أى لا يعرفون ما العورة ، ولا يميزون بينها وبين غيرها . وإما من ( ظهر على فلان ) إذا قوى عليه و ( ظهر على القرآن ) أخذه وأطاقه . أى لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء . و( الطفل ) مفرد وضع موضع الجمع بقرينة وصفه بالجمع . ومثله ( الحاج ) بمعنى الحجاج . وقال الراغب : إنه يقع على الجمع .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : استدل بعضهم بقوله تعالى ( وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ) الخ على أنه لا يباح النظر للعم والخال ، لعدم ذكرهما فى الآية . أخرج ابن المنذر عن الشعبىّ وعكرمة ، قالا : لم يذكر العم والخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال .

وقال الرازىّ : القول الظاهر أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر . وهو قول الحسن البصرىّ . قال : لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب . وقال فى سورة الأحزاب[1] ( لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ) الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم. وقد ذكروا هاهنا. وقد يذكر البعض لينبه على الجملة .

ثم قال : فى قول الشعبىّ من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التستر .

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥٥ ] .

ثم أشار تعالى إلى أن الزينة ، كما يجب إخفاؤها عن البصر ، يجب عن السمع ، إن كانت مما تؤثر فيه ميلًا ، بقوله سبحانه :

« وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ » أى الأرض « لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ » أى عن الأبصار « مِنْ زِينَتِهِنَّ » كالخلخال . وهذا نهى عما كان يفعله بعضهن . وذلك من ضرب أرجلهن الأرض ليتحرك خلخالهن فيعلم أنهن متحلاين به . فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن ، ويوهم أن لهن ميلًا إليهم .

قال الزمخشرىّ : وإذ نهين عن إظهار صوت الحلىّ بعد ما نهين عن إظهار الحلىّ ، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلىّ أبلغ وأبلغ . قيل : وإذا نهى عن استماع صوت حليهن ، فمن استماع صوتهن بالطريق الأولى . وهذا سدّ لباب المحرمات ، وتعليم للأحوط الأحسن ، لا سيما فى مظانّ الريب وما يكون ذريعة إليها .

تنبيـه :

قال ابن كثير : يدخل فى هذا النهى كل شىء من زينتها كان مستورا ، فتحركت بحركة ، لتظهر ما خفى منها . ومن ذلك ما ورد من نهيها عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها . فروى الترمذىّ[1] عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل عين زانية . والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا . يعنى زانية .

قال: ومن الباب عن أبى هريرة. وهذا حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود والنسائىّ .
وروى الترمذىّ[2] أيضا عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : الرافلة فى الزينة فى

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٣٥ ـ باب ما جاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٣ ـ باب ما جاء فى كراهية خروج النساء فى الزينة .

غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة ، لا نور لها . ومن ذلك أيضا ، نهيهن عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من التبرج . فروى أبو[1] داود عن أبى أسيد الأنصارى أنه سمع النبى ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ الطريق . عليكن بحافات الطريق . فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به . وقوله تعالى: « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ » أى ارجعوا إليه بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، فإن مقتضى إيمانكم ذلك « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى لكى تفوزوا بسعادة الدارين . ولما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة ، أمر بالنكاح . فإنه ، مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع ، خير مزجرة عن ذلك . فقال سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » أى زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم . والخطاب للأولياء والسادات و ( الأيامى ) جمع أيّم . من لا زوجة له أو لا زوج لها . يكون للرجل والمرأة . يقال : آم وآمتْ وتأيّماً ، إذا لم يتزوجا ، بكرين كانا أو ثيبين .

قال أبو السعود : واعتبار الصلاح فى الأرقاء ، لأن من لا صلاح له منهم ، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتنى مولاه بشأنه ، ويشفق عليه ، ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة ، من بذل المال والمنافع . بل حقه ألا يستبقيه عنده . وأما عدم اعتبار الصلاح

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٨ ـ باب فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق ، حديث ٥٢٧٢ .

فى الأحرار والحرائر ، فلأن الغالب فيهم الصلاح · على أنهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم . فإذا عزموا النـكاح ، فلا بد من مساعدة الأولياء لهم ؛ إذ ليس عليهم فى ذلك غرامة ، حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة إليهم . عاجـلة أو آجلة : وقيل : المراد هو الصلاح للنـكاح والقيام بحقوقه . وقوله تعالى « إِنْ يَـكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » إزاحة لما عسى يكون وازعاً من النكاح من فقر أحد الجانبين . أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة . فإن فى فضل الله عز وجل غنية عن المـال . فإنه غاد ورائح · يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب . أو وعد منه سبحانه بالإغناء . لـكنه مشروط بالمشيئة . كما فى قوله تعالى[1] (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ) « وَاللهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ » أى غنىّ ذوسعة ، لا يرزؤه إغناء الخلائق ، إذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته . « عَلِيمٌ » يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحـكمة . انتهى كلام أبى مسعود .

## تنبيهات

الأول — الأمر فى الآية للندب . لما علم من أن النـكاح أمر مندوب إليه . وقد يكون للوجوب فى حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك .

وفى ( الإكليل ) : استدل الشافعىّ بالأمر على اعتبار الولىّ . لأن الخطاب له ، وعدم استقلال المرأة بالنـكاح . واستدل بعموم الآية مَنْ أباح نـكاح الإماء بلا شرط ، ونـكاح العبد الحرة . واستدل بها من قال بإجبار السيد على نـكاح عبده وأمته .

الثانى — قدمنا أن قوله تعالى ( يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ) مشرط بالمشيئة . فلا يقال إنه تعالى لا يخلف الميعاد ، وكم من متزوج فقير . والتقييد بالمشيئة بدليل سمعىّ ، وهو الآية المتقدمة . أو إشارة قوله تعالى ( عَلِيمٌ حَـكِيمٌ ) لأن مآله إلى المشيئة . أو عقلىّ وهو أن الحـكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحـكمة .

(١) [ ٩ / التوبة / ٢٨ ] .

قال الناصر فى ( الانتصاف ) : ولقائل أن يقول : إذا كانت المشيئة هى المعتبرة فى غنى المتزوج ، فهى أيضاً المعتبرة فى غنى الأعزب ، فما وجه ربط وعد الغنىّ بالنكاح ، مع أن حال الناكح منقسم فى الغنى على حسب المشيئة . فمن مستغن به ، ومن فقير . كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم ؟

فالجواب ، وبالله التوفيق : إن فائدة ربط الغنى بالنكاح ، أنه قد ركز فى الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، والغفلة عن المسبِّب ، جل وعلا . حتى غلب الوهم على العقل فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتما ، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً . وأن كل واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به . فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع ، بالإيذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه ، مع كثرة العيال التى هى سبب فى الأوهام ، لنفاد المال . وقد يقدر الإملاق مع عدمه ، الذى هو سبب فى الإكثار عند الأوهام. والواقع يشهد لذلك بلامراء . فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التى يتوهمها البشر ، مرتبطات بمسبباتها ، ارتباطاً لا ينفك ـ ليست على ما يزعمونه . وإنما يقدر الغنى والفقرَ مسببُ الأسباب. غير موقوف تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة . وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح . لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له فى الإقتار . وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه ، ولا يؤثر أيضاً الخلوّ عن النكاح لأجل التوفير . لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه ، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتّر عليه . وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ، ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس . فمعنى قوله حينئذ ( إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ ) الآية ، أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله . فعبر عن نفى كونه مانعاً من الغنى ، بوجوده معه . ولا يبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ، ولو فى صورة من الصور على أثر ذلك . فمن هذا الوادى أمثال قوله تعالى[1] ( فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ) فإن ظاهر

(١) [ ٦٢ / الجمعة / ١٠ ] .

الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة ، وليس ذلك بمراد حقيقة . ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة ، وبيان أن الصلاة متى قضيت ، فلا مانع . فعبّر عن نفي المانع بالانتشار ، بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع . والله أعلم .

فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه . انتهى .

الثالثة ـ ( في الإكليل ) : استدل بعضهم بهذه الآية على أنه لا يفسخ النكاح بالعجز عن النفقة ، لأنه قال ( يغنهم الله ) ولم يفرق بينهم .

ثم أرشد تعالى العاجزين عن أسباب النكاح ، إلى ما هو أولى لهم ، بعد بيان جواز مناكحة الفقراء ، بقوله سبحانه :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أي وليجتهد في العفة الذين لا يجدون نكاحا ، أي أسبابه ، أو استطاعة نكاح أي تزوج . فهو على المجاز ، أو تقدير المضاف . أو المراد ( بالنكاح ) ما ينكح به .

قال الشهاب : فإن ( فِعالًا ) يكون صفة بمعنى مفعول . ككتاب بمعنى مكتوب . واسم آلة كركاب لما يركب به . وهو كثير . كما نص عليه أهل اللغة . وقوله تعالى ( حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ) ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ، ليكون انتظار ذلك

وتأميله ، لطفاً لهم فى استعفافهم ، وربطاً على قلوبهم . وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء . وأدنى من الصلحاء . وما أحسن مارتب هذه الأوامر . حيث أمر أوّلا بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح ، الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام . ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح ، إلى أن يرزق القدرة عليه . أفاده الزمخشريّ .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : فى الآية استحباب الصبر عن النكاح لمن لا يقدر على مؤنته . واستدل بعضهم بهذه الآية على بطلان نكاح المتعة .

ولما أمر تعالى السادة بتزويج الصالحين من عبيدهم وإمائهم ، مع الرق ، رغّبهم فى أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ، ليصيروا أحراراً ؛ فيتصرفوا فى أنفسهم كالأحرار : فقال تعالى : « وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ » أى الكتابة « مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ » حرصاً على تحريرهم الذى هو الأصل فيهم ، وحبا بتحقيق المساواة فى الأخوة الجنسية . والمكاتبة أن يقول السيد : كاتبتك . أى جعلت عتقك مكتوباً على نفسى ، بمال كذا تؤديه فى نجوم كذا . ويقبل العبد ذلك ، فيصير مالكاً لمكاسبه ولما يوهب له ، وإنما وجب معه الإمهال ، لأن الكسب لا يتصور بدونه . واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة وعوضها جميعاً . وقوله تعالى « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً » أى كالأمانة ، لئلا يؤدوا النجوم من المال المسروق . والقدرة على الكسب والصلاح ، فلا يؤذى أحداً بعد العتق . وقوله تعالى « وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَاكُمْ » أمر للموالى ببذل شىء من أموالهم . وفى حكمه ، حط شىء من مال الكتابة . ولغيرهم بإعطائهم من الزكاة إعانة لهم على تحريرهم .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : فى الآية مشروعية الكتابة . وأنها مستحبة . وقال أهل الظاهر :

واجبة لظاهر الآية . وأن لندبها أو وجوبها ، شرطين : طلب العبد لها وعلم الخير فيه . وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة .

ثم نهى تعالى عن إكراه الجوارى على الزنى كما اعتادوه فى الجاهلية ، بقوله سبحانه « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ » أى إماءكم ، فإنه يكنى بالفتى والفتاة ، عن العبد والأمة ، وفى الحديث[1] ( ليقل أحدكم : فتاى وفتاتى ، ولا يقل . عبدى وأمتى ) وقوله تعالى « عَلَى الْبِغَاءِ » أى الزنى . يقال : بغت بغياً وبغاء ، إذا عهرت . وذلك لتجاوزها إلى ماليس لها . وقوله تعالى « إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً » ليس لتخصيص النهى بصورة إرادتهن التعفف عن الزنى ، وإخراج ماعداها من حكمه ، بل للمحافظة على عادتهم المستمرة ، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه ، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور ، وقصورهن فى معرفة الأمور ، الداعية إلى المحاسن ، الزاجرة عن تعاطى القبائح ، انتهى كلام أبى السعود . أى وحينئذ فلا مفهوم للشرط ، وهذا كجواب بعضهم : إن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن . والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب . كما أن الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق . ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق ، لا جرم لم يكن لقوله تعالى[2] ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ) مفهوم . ومن هذا القبيل قوله[3] ( وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ) والقصر لا يختص بحال الخوف . ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب . فكذا هاهنا انتهى .

قال أبو السعود : وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ، مالا يخفى . فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه ، فضلاً

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ١٧ ـ باب كراهية التطاول على الرقيق ، حديث ١٢٥١ ، عن أبى هريرة (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٢٩ ] . (٣) [ ٤ / النساء / ١٠١ ] .

عن أمرهن به ، أو إكراههن عليه . لا سيما عند إرادتهن التعفف . وإيثار كلمة ( إنْ ) على ( إذا ) مع تحقق الإرادة فى مورد النص حتما ، للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه ، عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك . فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع ؟ وقوله تعالى « لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » قيد للإكراه ، لكن لا باعتبار أنه مدار للنهى عنه، بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم، كما قبله. جىء به تشنيعالهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير ، لأجل النزر الحقير . أى لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال ، الوشيك الاضمحلال . يعنى من كسبهن وأولادهن .

وقوله تعالى« وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ »جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارةً ،ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارةً ، أى ( وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ ) على ما ذكر من البغاء . « فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لهن . كما وقع فى مصحف ابن مسعود . وعليه قراءة ابن عباس رضى الله عنهم.وكما ينبىء عنه قوله تعالى( مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ ) أى كونهن مكرهات.على أن الإكراه مصدر من المبنىّ للمفعول فإن توسيطه بين اسم (إن) وخبرها، للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة . وكان الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى،إذا قرأ هذه الآية يقول :لهن،والله! لهن،والله!وفى تخصيصهما(بهن) وتعيين مدارهما،مع سبق ذكر المكرهين أيضاً فى الشرطية، دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية ، كأنه قيل: لا للمكره . ولظهور هذا التقدير، اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط . فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالاً،أومعهن، إخلالٌ بجزالة النظم الجليل ، وتهوين لأمر النهى فى مقام التهويل . وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم ، إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات ، لا يخلون فى تضاعيف الزنى عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية . وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة . وإما لغاية تهويل أمر الزنى ، وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه،والتشديد فى تحذير المكرهين ، ببيان أنهن حيث كن عرضة للمقوبة ، لولا أن تداركهن

المغفرة والرحمة ، مع قيام العذر فى حقهن . فما حال من يكرههن فى استحقاق العذاب ؟ انتهى كلام أبى السعود . وقد أجاد فى تحقيق المرام رحمه الله تعالى :

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : فى الآية النهى عن إكراه الإماء على الزنى . وأن المكرَه غير مكلف ولا آثم . وأن الإكراه على الزنى يتصور . وإن مهر البغىّ حرام . وفيه رد على من أوجب الحد على المكره له .

ثم حذّر سبحانه من مخالفة ما نهى عنه ، مما بينه أشد البيان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ )

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ » أى واضحات أو مفسرات لكل ماتمس حاجتكم إليه من عبادات ومعاملات وآداب . ومنه ماذكر قبلُ، من النهى عن الإكراه . فلايخفى المراد منها « وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ » أى خبرا عظيما عن الأمم الماضية وما حل بهم، بظلمهم وتعدّيهم حدود الله تعالى « وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » أى فيتعظون به وينزجرون عما لاينبغى لهم . كما قال تعالى[١] ( فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ) أى عبرة يعتبرون بها . وإيثار ( المتقين ) لحث المخاطبين على الانتظام فى سلكهم ، فإنهم الفائزون . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٥٦ ] .

مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )

« اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى منوّرها بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار . فهو مجاز من إطلاق الأثر على مؤثره . كما يطلق السبب على مسببه . أو مدبرها ، من قولهم للرئيس الفائق فى التدبير ( نور القوم ) لأنهم يهتدون به فى الأمور فيكون مجازاً . أو استعارة استعير ( النور ) بمعنى المنور ، للمدبر ، لعلاقة المشابهة فى حصول الاهتداء . أو موجدها . فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره ـ كما قاله الغزالىّ ـ فيكون أطلق عليه تعالى مجازاً مرسلاً باعتبار لازم معناه .

قال أبو السعود : وعبر عن المنوّر بالنور ، تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير . وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته،وكل ماسواه ظاهر بإظهاره . كما أن النور نيّر بذاته وماعداه مستنير به . وأضيف ( النور ) إلى ( السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) للدلالة على سعة إشراقه . أو المراد بهما العالم كله « مَثَلُ نُورِهِ » أى صفة نوره العجيبة الشأن . قال أبو السعود : أى نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين . كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين . وقد صرح بكونه نوراً أيضاً فى قوله تعالى[1] ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما ، والحسن ، وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى « كَمِشْكَاةٍ » أى كصفة كوّة ـ طاقة ـ غير نافذة فى الجدار ، فى الإنارة والتنوير « فِيهَا مِصْبَاحٌ » أى سراج ضخم ثاقب ـ شديد الإضاءة ـ وقيل : المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل ، والمصباح الفتيلة المشتعلة « الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ » أى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أى متلألئ وقّاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » أى كثيرة المنافع ، بأن رويت فتيلته بزيتها « زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ »

(١) [ ٤ / النساء / ١٧٤ ] .

أى لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط، ولا غربية تقع عليها عند الغروب. ولا تصيبها فى الغداة . بل فى مكان عليها الشمس مشرقة من أول طلوعها إلى آخر غروبها . كصحراء أو رأس جبل . فزيتها أضوأ « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » أى يكاد يضىء بنفسه من غير نار لصفائه ولمعانه « نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ » أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ، ومثلت صفته العجيبة بما فصل عن صفة المشكاة . نور عظيم كائن على نور كذلك. فـ (نور) خبر مبتدأ محذوف ، والجار متعلق بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، والجملة فذلكة للتمثيل ، وتصريح لما حصل منه ، وتمهيد لما يعقبه . وليس معنى ( نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ) نور واحد فوق آخر مثله ، ولا مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر . فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة ، كان أضوأ له وأجمع لنوره . بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر . والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة . وكذلك الزيت وصفاؤه . وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً ، مرتبة أخرى عادة . « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » أى لهذا النور الثاقب العظيم الشأن ، بأن يوفقهم للإيمان به وفهم دلائل حقيته .

قال أبو السعود : وإظهاره فى مقام الإضمار . لزيادة تقريره ، وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » أى ليدنو لهم المعقول من المحسوس ، توضيحاً وبياناً . ولذلك مثل نوره المعبر عنه بالقرآن ، بنور المشكاة « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فلا يخفى عليه شىء . وفيه وعد ووعيد . لأن علمه تعالى ، عبارة عن مجازاته فى أمثال هذه الآى .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة ـ آية النور ـ من الآيات التى صنفت فيها مصنفات خاصة . منها (مشكاة الأنوار ) للإمام الغزالىّ ، وقد نقل عنه الرازىّ فى ( تفسيره ) هنا جملة سابغة الذيل . ورأيت

للإمام ابن القيم فى كتابه ( الجيوش الإسلامية ) ما يجمل إيراده ، تعزيزاً للمقام واستظهاراً بزيادة العلم .

قال رحمه الله : سمى الله سبحانه وتعالى نفسه نوراً وجعل كتابه نوراً ورسوله ﷺ نوراً ودينه نوراً . واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ ، قال الله تعالى[1] ( اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وقد فسر بكونه منوّر السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض . فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى . والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين . إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله . فالأول كقوله[2] عزوجل ( وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى ، إذا جاء لفصل القضاء . ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الدعاء المشهور : أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلنى لا إله إلا أنت . وفى الأثر الآخر : أعوذ بوجهك ـ أو بنور وجهك ـ الذى أشرقت له الظلمات . فأخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم . أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله . كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

وفى ( معجم الطبرانى )و( السنة )له و( كتاب عثمان الدارمىّ ) وغيرها ، عن ابن مسعود رضى الله عنه . قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه . وهذا الذى قاله ابن مسعود رضى الله عنه أقرب إلى تفسير الآية ، من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض . وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض ، فلا تنافى بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها . وفى صحيح[3] مسلم وغيره من حديث أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله

(١) [ ٢٤ / النور / ٣٥ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٩ ] .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٣ ( طبعتنا ) .

ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وفى صحيح[1] مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال : نور ، أنَّى أراه . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : معناه كان ثمة نور ، وحال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه أن فى بعض الألفاظ الصحيحة : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً . وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال : نورانىٌّ أراه . على أنها ياء النسب ، والكلمة كلمة واحدة . وهذا خطأ لفظاً ومعنى . وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه ، وكان قوله ( أنَّى أراه ) كالإنكار للرؤية ، حاروا فى الحديث ، ورده بعضهم باضطراب لفظه ، وكل هذا عدول عن موجب الدليل . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى فى كتاب ( الرؤية ) له إجماع الصحابة على أنه لم يرَ ربَّه ليلة المعراج . وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك . وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف فى الحقيقة . فإن ابن عباس لم يقل رآه بعينى رأسه ، وعليه اعتمد أحمد فى إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رآه عز وجل . ولم يقل بعينى رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضى الله عنهما . ويدل على صحته ما قال شيخنا فى معنى حديث أبى ذر رضى الله عنه : قوله ﷺ فى الحديث الآخر ( حجابه النور ) فهذا النور ، والله أعلم . النور المذكور فى حديث أبى ذرّ رضى الله عنه ( رأيت نوراً ) .

ثم قال ابن القيم : وقوله تعالى ( مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ) هذا مثل لنوره فى قلب عبده المؤمن . كما قال أبىّ بن كعب وغيره : وقد اختلف فى الضمير فى ( نوره ) فقيل هو النبى ﷺ . أى مثل نور محمد ﷺ . وقيل : مفسره المؤمن . أى مثل نور المؤمن .

(١) أخرجه مسلم فى ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ ( طبعتنا ) .

والصحيح أن يعود على الله تعالى . والمعنى : مثل نور الله سبحانه فى قلب عبده . وأعظمُ عباده نصيباً من هذا النور رسول الله ﷺ . فهذا ، مع ما تضمنه عود الضمير المذكور ـ وهو وجه الكلام ـ يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى . وهذا النور يضاف إلى الله تعالى . إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد . إذ هو محله وقابله . فيضاف إلى الفاعل والقابل . ولهذا النور فاعل وقابل ، ومحل وحامل ، ومادة . وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل . فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار . الهادى لنوره من يشاء . والقابل: العبد المؤمن . والمحل: قلبه . والحامل: همته وعزيمته وإرادته . والمادة: قوله وعمله. وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية ، فيه من الأسرار والمعانى وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن ، بما أناله من نوره ، ماتقرُّ به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان : إحداهما طريقة التشبيه المركب وهى أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف. وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن ، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به . وعلى هذا عامة أمثال القرآن . فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء ، قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرىّ فى صفائها وحسنها . ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً ، من زيت شجرة فى وسط القراح ، لا شرقية ولا غربية ، بحيث تصيبها الشمس فى إحدى طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح ، محميّة بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها . فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها ، يكاد يضىء من غير أن تمسه نار . فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذى وضعه فى قلب عبده المؤمن وخصه به . والطريقة الثانية ، طريقة التشبيه المفصل . فقيل : المشكاة صدر المؤمن ، والزجاجة قلبه . شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها . وكذلك قلب المؤمن . فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة . فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه . تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ماهى عليه . ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء . وبصلابته يشتد فى أمر الله تعالى ، ويتصلب

فى ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله تعالى . ويقوم بالحق لله تعالى . وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه . والشجرة المباركة هى شجرة الوحى المتضمنة للهدى ودين الحق . وهى مادة المصباح التى يتقد منها . والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ، ونور الوحى والكتاب. فينضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة، قبل أن يسمع مافيه بالأثر. ثم يبلغه الأثر بمثل ماوقع فى قلبه ونطق به . فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحى . فيريه عقله وفطرته وذوقه الذى جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة. بل يتصادقان ويتوافقان . فهذا علامة النور على النور . انتهى . وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ )

[٣٧] ( رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ )

[٣٨] ( لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ )

« فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » أى أمر أن تعظم عن اللغو ، أو ترفع بالبناء قدراً . ويتلى فيها اسمه ، ولا يعبد فيها غيره، لأنها شيدت على اسمه جل شأنه. والظرف صفة ( لمشكاة ) أو ( لمصباح ) أو ( لزجاجة ) أو متعلق بـ ( توقد ) أو بمحذوف . أى سبحوه فى بيوت . أو بـ(يسبح ) . ولفظ ( فيها ) تكرار للتوكيد .

قال أبو السعود : لما ذكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام ، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب،وأشير إلى كونه في غاية ما يكون من التوضيح، حيث مثل بنور المشكاة ـ عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاعتداء وعدمه ، والمراد بالبيوت ، المساجد كلها « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ )يعنى قبل طلوع الشمس « وَالْآصَالِ » جمع أصيل وهو العشيّ قبل غروب الشمس « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ »أي بالتسبيح والتحميد« وَإِقَامِ الصَّلَاةِ »أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير « وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » أي المال الذي يتزكى مُؤْتيه من دنس الشح ورذيلة البخل،وتطهر نفسه ويصفو سره « يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » أي تضطرب وتتغير من الهول والفزع . كما في قوله تعالى[1]( وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ) « لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » اللام متعلقة بـ( يسبح ) أو ( لا تلهيهم ) أو بمحذوف يدل عليه السوق.أي يفعلون مايفعلون مما ذكر،ليجزيهم . وفي آخر الآية تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ، ونفاذ المشيئة ، وسعة الإحسان،لأن ( بغير حساب ) كناية عن السعة . والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم .

تنبيه .

قال السيوطيّ في ( الإكليل ) : في هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهها عن اللغو والقاذورات . وفيها استحباب ذكر الله والصلاة في المساجد . وفي قوله ( رِجَالٌ ) إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في قعر بيوتهن . كما صرح به الحديث ، إلا في نحو العيدين لحديث[2] : ليشهدن الخير ودعوة المسلمين ، وقوله ( لَا تُلْهِيهِمْ ) الآية ، فيه أن التجارة

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٠ ] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٦ ـ كتاب الحيض ، ٢٣ ـ باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى،حديث ٢٢٣،عن أم عطية.

لا تنافى الصلاة. لأن مقصود الآية أنهم يتعاطونها ، ومع ذلك لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة. أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه كان فى السوق،فأقيمت الصلاة،فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد . فقال ابن عمر : فيكم نزلت ( رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ ) الآية . وأخرج عن الضحاك والحسن وسالم وعطاء ومطرف مثل ذلك. انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا » عطف على ما ينساق إليه ما قبله . كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالاً ومآلاً كما وصف ، والذين كفروا « أَعْمَالُهُمْ » أى التى يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم من العذاب « كَسَرَابٍ » وهو ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة،يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى « بِقِيعَةٍ » بمعنى القاع ، وهو المنبسط من الأرض . أو جمع قاع (كجيرة ) فى ( جار ) « يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أى لا محققاً ولا متوهماً. كما كان يراه من قبل، فضلاً عن وجدانه ماء، وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل . وقوله تعالى « وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ »أى وجد عقاب الله وجزاءه عند السراب، أو العمل. وفى التعبير بذلك زيادة تهويل. وقيل: المعنى وجده محاسباً إياه . فالعندية بمعنى الحساب ، على طريق الكناية ، لذكر التوفية بعده . قيل : هذه الجملة معطوفة على ( لَمْ يَجِدْهُ ) ولا حاجة إلى عطفه على ما يفيده من نحو ( لم يجد ما عمله نافعاً ) .

قال الشهاب: ويحتمل أن يكون بياناً لحال المشبه به، الكافر. فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه . ولو قيل على الأول إنه من تتمة وصف السراب . والمعنى : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب ، فوفاه ما كتب له،من لا يؤخر الحساب ـ كان الكلام

متناسباً . واختار الثانى أبو السعود حيث قال : هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة، لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظمآن . ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال مالاقدر عنده للخيبة أصلا. فليست الجملة معطوفة على ( لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ) بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل ، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً. كما فى قوله تعالى ( وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ) فإن قيل : لِمَ خص ( الظمآن ) بالذكر، مع أنه يتراءى لكل أحد كذلك ؟ فكان الظاهر (الرائى) بدله. وأجيب بأنه إنما قيده به ولم يطلقه لقوله (وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ) الخ، لأنه من تتمة أحوال المشبه به . وهو أبلغ . لأن خيبة الكافر أدخل وأعرق . ونحوه[1] ( مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) الخ ، فإن الكافرين هم الذين يذهب حرثهم بالكلية . يعنى أنه شبه أعمال الكفار التى يظنونها نافعة ، ومآلها الخيبة ، برؤية الكافر الشديد العطش فى المحشر ، سراباً يحسبه شراباً ، فينتظم عطف ( وجد الله ) أحسن انتظام كما نوّروه . كذا فى (الكشف) الثالثة ـ قال الشهاب : وهذا تشبيه بليغ وقع مثله فى قول مالك بن نويرة :

لَعَمْرِى إنى وابن جارود كالّذى ... أَرَاقَ شُعَيْبَ الماءِ والآلُ يَبْرُقُ
فلمــا أتاه ، خَيَّبَ اللهُ سعيَه ... فأمسى يَغُضّ الطرفَ عيمانَ يَشْهَقُ

ثم أشار تعالى إلى تمثيلهم بنوع آخر ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ )

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١١٧ ] .

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ » أى عميق كثير الماء « يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ » أى متراكم بعضه على بعض « مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ » أى متكاثفة متراكمة. وهذا بيان لكمال شدة الظلمات « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ » أى وجعلها بمرأى منه، قريبة من عينه لينظر إليها « لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » أى: ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذى هو القرآن ، فما له هدايةٌ ما. وهذا فى مقابلة قوله تعالى فى مثل المؤمنين ( يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ) والجملة تقرير للتمثيل قبلُ ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم ، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك، قال تعالى[1] ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ) .

لطيفة :

قال ابن كثير : هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار . كما ضرب للمنافقين فى أول البقرة مثلين: ناريًّا ومائيًا . وكما ضرب لما يقرّ فى القلوب من الهدى والعلم ، فى سورة الرعد ، مثلين مائيًّا وناريًّا .

ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شيء . فمثلهم كالسراب . والثانى لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم ، الذين لا يعقلون . فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدرى أين يذهب . بل كما يقال فى المثل للجاهل ( أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى ) انتهى .

وما ذكره مما يحتمله اللفظ الكريم ، وليس بمتعين . ومستنده فى ذلك ما ذكره شيخه الإمام ابن القيم ، عليهما الرحمة والرضوان ، فى ( الجيوش الإسلامية ) ولا بأس بإيرادها لما اشتملت عليه من بدائع الفوائد . قال : انظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بنى آدم أتم

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٩ ] .

انتظام ، واشتملت عليه أكمل اشتمال. فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها ، فيظنها شيئاً له حاصل فينتفع به . وهي كسراب بقيعة الخ،وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق،أصحاب العلم النافع والعمل الصالح،الذين صدقوا الرسول ﷺ في أخباره،ولم يعارضوها بالشبهات.وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات. فلاهم في علمهم من أهل الخوض الخراصين[1] ( الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ) ولاهم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم ، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون . أضاء لهم نور الوحي المبين، فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون.وفي ضلالهم يتهوكون. وفي ريبهم يترددون . مغترين بظاهر السراب ، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب[2] ( إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ )أوجبه لهم اتباع الهوى ، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

القسم الثاني ـ أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم. الذين قال الله[3] تعالى فيهم (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ،وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ) وهؤلاء قسمان : أحدهما ، الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال . فهؤلاء أهل الجهل المركب ، الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله . وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون . فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه ، بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . وهكذا هؤلاء . أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ماهو إليه. ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال مَنْ أَمَّ السراب فلم يجده ماء . بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين . سبحانه وتعالى . فحسب له ماعنده من العلم والعمل،فوفاه إياه بمثاقيل الذر . وقدم إلى ماعمل من عمل يرجو نفعه

(١) [ ٥١/ الذاريات / ١١ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ٥٦ ] . (٣) [ ٥٣ / النجم / ٢٣ ] .

فجعله هباءً منثوراً . إذ لم يكن خالصاً لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ . وصارت تلك الشبهات الباطلة التى كان يظنها علوماً نافعة ، كذلك هباءً منثوراً . فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه . و ( السراب ) ما يرى فى الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى و ( القيعة ) و ( القاع ) هو المنبسط من الأرض الذى لا جبل فيه ولا فيه واد . فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحى وأعماله، بسراب يراه المسافر فى شدة الحر ، فيؤمّه ، فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب . فيحسبونه ماء . فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فَعَتَلُوهم إلى نار الجحيم فَسُقُوا ماء حميماً ، فقطع أمعاءهم . وذلك الماء الذى سقوه هو تلك العلوم التى لا تنفع ، والأعمال التى كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميما سقاهم إياه . كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التى كانت فى الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغنى من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله(١) فيهم ( قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ) وهم الذين عنى بقوله(٢) ( وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ) وهم الذين عنى بقوله(٣) تعالى ( كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ) .

والقسم الثانى من هذا الصنف ، أصحاب الظلمات . وهم المنغمسون فى الجهل . بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا. فهؤلاء أعمالهم التى عملوها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى . ( كظلمات ) جمع ظلمة وهى ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة الظلم واتباع الهوى وظلمة الشك والريب وظلمة الإعراض عن الحق الذى بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذى أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور. فإن المعرض عما بعث الله به تعالى محمداً ﷺ

(١) [ ١٨/الكهف/ ١٠٣و١٠٤ ] . (٢) [٢٥/ الفرقان/ ٣٣ ] . (٣) [٢/البقرة/١٦٧] .

من الهدى ودين الحق ، يتقلب فى خمس ظلمات : قوله: ظلمة . وعمله ظلمة . ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى ظلمة . وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم . وحاله مظلم . وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور ، جدّ فى الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلى ظلمات الآراء التى هى به أنسب وأولى كما قيل :

خفافيش أعشاها النهارُ بضَوْئه        ووافقها قِطْعٌ من الليل مُظْلِمُ

وقوله تعالى ( فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ) اللجىّ العميق . منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه . وقوله تعالى ( يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ) تصوير لحال المعرض عن وحيه . فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل فى صدره ، بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق بعض. والضمير الأول فى قوله ( يَغْشَاهُ ) راجع إلى البحر ، والضمير الثانى فى قوله ( مِنْ فَوْقِهِ ) عائد إلى الموج . ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب . فههنا ظلمات : ظلمة البحر اللّجىّ ، وظلمة الموج الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله ( إِذَا أَخْرَجَ ) مَن فى هذا البحر ( يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ) واختلف فى معنى ذلك . فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها . وهو أبلغ من نفيه الرؤية . وإنه قد ينفى وقوع الشيء ولا تنفى مقاربته . فكأنه قال لم يقارب رؤيتها بوجه .

قال هؤلاء : ( كاد ) من أفعال المقاربة . لها حكم سائر الأفعال فى النفى والإثبات. فإذا قيل : كاد يفعل ، فهو إثبات مقاربة الفعل . وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفى لمقاربة الفعل

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دالّ على أنه إنما رآها بعد جهد شديد . وفى ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر ، لأجل تلك الظلمات : قالوا: لأن ( كاد ) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال . فإنها إذا أثبتت نفت . وإذا نفت أثبتت . فإذا قلت ( ما كدت أصل إليك ) فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة . فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت ( كاد زيد يقوم ) فهى نفى لقيامه . كما قال تعالى[1] ( وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا )

(١) [ ٧٢ / الجن / ١٩ ] .

ومنه قوله تعالى(١) (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً :

أنحويَّ هذا العصر ! ما هي لفظةٌ      جرت في لسانَيْ جرهم وثَمُودِ؟
إذا استعملت في صورة النفي أثبتَتْ      وإن أثبتَتْ قامت مقام جُحُودِ

وقالت فرقة ثالثة، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره : إن استعمالها مثبتة ، يقتضي نفي خبرها. كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى ، فهي عنده تنفي الخبر. سواء كانت منفية أو مثبتة . (فلم يكد زيد يقوم) أبلغ عنده في النفي من (لم يقم) واحتج بأنها إذا نفيت ـ وهي من أفعال المقاربة ـ فقد نفيت مقاربة الفعل . وهو أبلغ من نفيه . وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر عن مثل قوله تعالى(٢) (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) وعن مثل قوله (وصلت إليك وما كدت أصل) و (سلمت وما كدت أسلم) بأن هذا وارد على كلامين متباينين . أي : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له ، فالأول يقتضي وجود الفعل ، والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه . فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها . فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل . سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل . وإن كانت في طرف النفي ، فإن كانت بصيغة المستقبل ، كانت لنفي الفعل ومقاربته . نحو قوله (لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات نحو قوله (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضي المقاربة . ولها حكم سائر الأفعال . ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها . فإنها لم توضع لنفيه . وإنما استفيد من لوازم معناها . فإنها إذا اقتضت

---

(١) [ ٦٨ / القلم / ٥١ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٧١ ] .

مقاربة الفعل ، لم يكن واقعاً ، فيكون منفياً باللزوم . وأما إذا استعملت منفية ، فإن كانت في كلام واحد ، فهي لنفي المقاربة . كما إذا قلت (لا يكاد البطال يفلح ) و ( لا يكاد البخيل يسود ) و ( لا يكاد الجبان يفرح ) ونحو ذلك . وإن كانت في كلامين ، اقتضت وقوع الفعل ، بعد أن لم يكن مقارباً . كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق في أمرها .

والمقصود إن قوله ( لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ) إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر . فإذا كان لا يقارب رؤيتها ، فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :

إذا غَيَّرَ النأيُ المحبينَ لم يَكَدْ رسيسُ الْهَوَى في حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

أي لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟ فشبه سبحانه أعمالهم أولا ، في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم ، بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد . فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه . وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها ، لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان ، بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج : الذي قد غشيه السحاب من فوقه . فياله تشبيهاً ما أبدعه ! وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال ! وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسول الله ﷺ وأنزل به كتابه ! وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم . وكل واحد من السراب والظلمات ، مثل لمجموع علومهم وأعمالهم . فهي سراب لا حاصل لها ، وظلمات لا نور فيها . وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التي تلقاها من مشكاة النبوة . فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد . ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع ، لأوليائه وأعدائه . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ثم أشار تعالى إلى تعديل الدلائل على ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته ، وظهور أمره وجلالته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ )

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ينزهه ويقدسه وحده، أهلوهما « وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ » أى يصففن أجنحتهن فى الهواء « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » أى كل واحد مما ذكر ، قد هدى وأرشد إلى طريقته ومسلكه،فى عبادة الله عز وجل . فالضمير فى ( علم ) لـكل . أو للفظ الجلالة ، كالضمير فى صلاته وتسبيحه .

قال الزمخشرىّ : ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

وتقدم فى سورة الإسراء كلام فى تسبيح الجمادات ، فارجع إليه « وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ )

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ »أى هو الإله الحاكم المتصرف فيهما ، الذى لا تنبغى العبادة فيهما إلّا له،وإليه يوم القيامة ، مصير الخلائق ، فيحكم بينهم، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ )

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً » أى يسوقها برفق . ومنه البضاعة المزجاة ، يزجيها كل أحد . أى يدفعها لرغبته عنها ، أو لقدرته على سوقها وإيصالها « ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ » بضم بعضه إلى بعض . فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة « ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً » أى متراكماً بعضه فوق بعض « فَتَرَى الْوَدْقَ » أى المطر « يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وهى فرجه ومخارج القطر منه « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ » قال ابن كثير : يحتمل المعنى : فيصيب بما ينزل من السماء من نوعى المطر والبرد رحمة بهم ويصرفه عن آخرين حكمة وابتلاء . ويحتمل المعنى : فيصيب بالبرد من يشاء نقمة لما فيه من نثر الثمار وإتلاف الزروع . ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . انتهى .

وخلاصته أن الضمير إما للأقرب ، على الثانى ، أوله ولما قبله ، على الأول .

لطيفة :

قد ذكرت ( من ) الجارّة فى الآية ثلاث مرات . فالأولى ابتدائية اتفاقاً . والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية ، على جعل مدخولها بدلًا مما قبله بإعادة الجار . والثالثة فيها هذه الأقوال . وتزيد برابع ، وهو أنها لبيان الجنس . والتقدير : ينزل من السماء بعض جبال ، التى هى البرد .

« يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ » أى لمعانه « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » أى يخطفها لشدته وقوته .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ )

« يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يأتى بكل منهما بدل الآخر خلفاًله . أو يأخذ من طول أحدهما فيجعله فى الآخر رحمة بالعباد ، لانتظام معايشهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٦] لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

« وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ » أى كل حيوان يدب على الأرض من ماء ، وهو جزء مادته . أو ماء مخصوص هو النطفة ، فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات مالا يتولد من نطفة . وقيل : ( مِنْ مَاءٍ ) متعلق بـ( دابة ) وليست صلة ( لخلق ) « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » كالحياة . وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفاً ، بطريق الاستعارة أو المشاكلة «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى مما ذكر وغيره ، على من يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات« إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو صراط تلك الآيات ، صراط الحق والهدى والنور. وهم المؤمنون الصادقون الذين استجابوا لله والرسول ، وإذا دعوا إلى حكمهما استكانوا .

ثم أشار إلى ما كان يقع من المنافقين من أثر النفاق ، تحذيراً من صنيعهم ، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ )

[٤٨] ( وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ)

[٤٩] ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾

[٥٠] ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى دعوى الإيمان « وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى فى قلوبهم . ثم برهن عليه بقوله « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ » أى كتابه « وَرَسُولِهِ » أى سنته وحكمه « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ » أى عن المجىء إليه « وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ » أى الحكومة لهم ، لا عليهم « يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ » أى مسرعين طائعين . وقوله تعالى « أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ » أى فى الحكم فيظلموا فيه . قال أبو السعود : إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور . وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والمتوقعة منهم . وترديد المنشئية بينها . فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة و ( أم ) من الأمور الثلاثة ، بل هو منشئيتها له . كأنه قيل : أذلك ، أى إعراضهم المذكور ، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم ، أم لأنهم ارتابوا فى أمر نبوته عليه السلام ، مع ظهور حقيتها ؟ أم لأنهم يخافون الحيف ممن يستحيل عليه ذلك ؟ إشارة إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة ، التى كل واحد منها كفر ونفاق.

ثم بيّن اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم ، بقوله تعالى « بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين رسخ فيهم خلق الظلم لأنفسهم ولغيرهم . فالإضراب انتقالىّ . والمعنى : دع هذا كله ، فإنهم هم الكاملون فى الظلم ، الجامعون لتلك الأوصاف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ )

[٥٢] ( وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ )

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فيها وجوب الحضور على من دعى لحكم الشرع ، وتحريم الامتناع ، واستحباب أن يقول : سمعنا وأطعنا . انتهى .

ثم أشير إلى حكاية شىء من أحوال أولئك المنافقين الممتنعين عن قبول حكمه ، وذلك إقسامهم الكاذب ، ليستدل به على إيمانهم الباطن ، بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ )

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ » أى بالخروج من ديارهم وأموالهم وأهليهم « لَيَخْرُجُنَّ » أى مجاهدين . و(جهد) منصوب على الحالية . أو هو مصدر (لأقسموا) من معناه . وهو مستعار من (جهد نفسه) إذا بلغ وسعها . أى أكدوا الأيمان وشدّدوها « قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » أى لا تقسموا على ذلك وتشددوا لترضونا . فإن الأمر المطلوب منكم طاعة معروفة ، لا تنكرها النفس . إذ لا حرج فيها . فأطيعوا بالمعروف من غير حلف، كما يطيع المؤمنون . وقيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة. أى أنها قول بلا عمل.

إذ عرف كذبكم فى أيمانكم . كما قال تعالى[١] ( يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ) الآية وقال تعالى[٢] ( اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ) الآية فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى[٣] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ) وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الأعمال الظاهرة والباطنة، التى منها الأيمان الكاذبة، وما تضمرونه من النفاق ومخادعة المؤمنين ، التى لا تخفى على من يعلم السر وأخفى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ )

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تولوا عن الإطاعة « فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ » أى كلفه من أداء الرسالة . فإذا أدى فقد خرج من عهدة تكليفه . « وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » أى ما أمرتم به من الطاعة والتلقى بالقبول والإذعان والقيام بمقتضاه « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » أى لأنه يدعوكم إلى الصراط المستقيم . فإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى . وإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى التبليغ البيّن بنفسه ، أو الموضح لما أمرتم به .

(١) [ ٩/التوبة/٩٦ ] . (٢) [ ٥٨/المجادلة/١٦ ] . (٣) [ ٥٩/الحشر/١١و١٢ ] .

ولما تضمن قوله تعالى (تَهْتَدُوا) إشارة إلى وعد كريم ومستقبل فخيم، استأنف التصريح به تقريراً له ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم . أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المؤمنة برسلها . التى أهلك الله عدوَّها ، وأورثها أرضها وديارها . كما فعل ببنى إسرائيل حين أورثهم فلسطين ، بعد إهلاك الجبابرة « وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ » أى فليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً ، مرفوع اللواء ، ظاهراً على غيره ، قاهراً لمن ناوأه .

قال أبو السعود : وفى إضافة (الدين) إليهم . وهو دين الإسلام ، ثم وصفه بارتضائه لهم ، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه ، وفضل تثبيت عليه « وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ » أى بعد هذا الوعد الكريم الموجب لتحصيل ما تضمنه من السعادتين « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العضيمة . وجسروا على غمطها .

تنبيه :

فى هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ماهو عليه قبل وقوعه ـ مالا يخفى . فقد أنجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعدُ بلادَ المشرق والمغرب . ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ )

[٥٧] ( لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ )

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » معطوف على ( أطيعوا الله ) وما اعترض بينهما كان تأكيداً ، أو على مقدر يستدعيه السوق . أى : فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا . أو فلا تكفروا وأقيموا . الخ . ثم كرر طاعة الرسول ، تأكيداً لوجوبها ، بقوله « وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى معجزين لله تعالى ، بل مدركون « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

ثم أشير إلى تتمة الأحكام السابقة ، إثر تمهيد مايجب امتثاله من الأحكام، ومن الترغيب والترهيب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من العبيد والجوارى « وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ » أى هى ثلاث عورات لكم. إشارة إلى علة وجوب الاستئذان بأنهن أوقات يختلّ فيها التستّر عادة، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً . فالهجوم على أهل البيت فى هذه الأحوال، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الإباء والكراهة « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ » أى ليس عليكم جناح فى ترك نهيهم عن الدخول بلا إذن . ولا عليهم جناح من الدخول بدونه ، بعد هذه الأوقات ، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرته . وذلك لأنهم طوافون عليكم ، فيعسر عليهم الاستئذان فى كل مرة « بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى بعضكم طائف على بعض طوافاً كثيراً . أو بعضكم يطوف على بعض .

قال الزمخشريّ : يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام . فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدّى إلى الحرج . « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » يشرع ما فيه الحكمة وصلاح الحال وانتظام الشأن .

تنبيه :

فى الآية إقرارُ ماجرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت الظهيرة. وقد يستدل بها على أن كشف العورة فى الخلوة جائز . كذا فى ( الإكليل ) .

وقال الرازىّ : الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن. لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما بقوله تعالى ( ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ) والثانى بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ماعداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الأوقات الثلاثة، وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ماعدا هذه الأوقات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ » أى الذين رخص لهم فى ترك الاستئذان فى غير الأوقات المذكورة « مِنْكُمْ » أى من الأحرار ، دون المماليك ، فإنهم باقون على الرخصة « الْحُلُمَ » أى حدّ البلوغ بالاحتلام ، أو بالسنّ الذى هو مظنة الاحتلام « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » أى فى سائر الأوقات أيضاً « كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله[1] ( يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ) .

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن، إلا فى العورات الثلاث . فإذا اعتاد الأطفال ذلك ، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة ، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التى يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة . وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آيةٌ لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن . وإنى لآمر جارتى أن تستأذن علىّ .

(١) [ ٢٤ / النور / ٢٧ ] .

وسأله عطاء : أستأذنُ على أختي ؟ قال : نعم ، وإن كانت في حجرك تمونها . وتلا هذه الآية .

وعنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله . وقوله[1] ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) فقال ناس : أعظمكم بيتاً . وقوله[2] ( وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ) . كذا في ( الكشاف ) .

تنبيه :

قال في ( الإكليل ) : في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ . وأن البلوغ يكون بالاحتلام . وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا بالاستئذان ، كالأجانب . انتهى .

وقال التقيّ السبكيّ في ( إبراز الحكم ، في شرح حديث رفع القلم ) : أجمع العلماء على أن الاحتلام يحصل به البلوغ في حق الرجل . ويدل لذلك قوله تعالى[3] ( وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ) وقوله ﷺ في هذا الحديث[4] ( وعن الصبيّ حتى يحتلم ) وهي رواية ابن أبي السرح عن ابن عباس . قال : والآية أصرح . فإنها ناطقة بالأمر بعد الحلم . وورد أيضاً عن عليّ رضي الله عنه ، رفعه ( لا يُتم بعد احتلام ، ولا صمات يوم إلى الليل )[5] رواه أبو داود . والمراد بالاحتلام خروج المنيّ . سواء كان في اليقظة أم في المنام ، بحلم أو غير حلم . ولما كان في الغالب لا يحصل إلا في النوم بحلم ، أطلق عليه الحلم والاحتلام . ولو وجد الاحتلام من غير خروج منيّ ، فلا حلم له .

ثم قال : وقوله في الحديث ( حتى يحتلم ) دليل البلوغ بذلك . وهو إجماع . وهو

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١٣ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٨ ] .

(٣) [ ٢٤ / النور / ٥٩ ] . (٤) أخرجه البخاريّ في : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٢ ـ باب لا يرجم المجنون . من قول عليّ لعمر ( من ترجمة الباب ) .

(٥) أخرجه أبو داود في : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب ما جاء متى ينقطع اليتم ، حديث رقم ٢٨٧٣ .

حقيقة فى خروج المنىّ بالاحتلام ، ومجاز فى خروجه بغير احتلام يقظة أو مناماً . أو منقول فيما هو أعم من ذلك . ويخرج منه الاحتلام بغير خروج منىّ ، إن أطلقناه عليه منقولاً عنه . ولكونه فرداً من أفراد الاحتلام . انتهى .

وفى ( القاموس ) : الحُلْم ( بالضم ) والاحتلام : الجماع فى النوم . والاسم الحُلم كعنق . انتهى .

وقال الراغب : سمى البلوغ حلماً ، لكون صاحبه جديراً بالحِلم : أى الأناة والعقل .

وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ )

« وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ » أى اللاتى قعدن عن الحيض والولد، لكبرهن «اللَّاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا » أى لا يطمعن فيه ، لرغبة الأنفس عنهن « فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ » أى الظاهرة مما لا يكشف العورة ، لدى الأجانب . أى يتركن التحفظ فى التستر بها . فلا يلقين عليهن جلابيبهن ولا يحتجبن « غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ » أى مظهرات لزينة خفية . يعنى الحلىّ فى مواضعه المذكورة فى قوله تعالى[١] ( وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ) أو المعنى غير قاصدات بالوضع ، التبرج . ولكن التخفف إذا احتجن إليه «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ » أى من وضع تلك الثياب « خَيْرٌ لَهُنَّ » لأنه أبلغ فى الحياء وأبعد من التهمة والمظنة . ولذا يلزمهن ، عند المظنة ، ألا يضعن ذلك . كما يلزم مثله فى الشابة « وَاللَّهُ

---

(١) [ ٢٤ / النور / ٣١ ] .

سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فيسمع مقالهن مع الأجانب ، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب . وفيه من الترهيب ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ )

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فى القعود عن الغزو ، لضعفهم وعجزهم . وهذه الآية كالتى فى سورة الفتح وكآية براءة[١] (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ) وهذا ما ذهب إليه عطاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وزَعْمُ أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده ، مردود بأن المراد أن كلا من الطائفتين منفىٌّ عنه الحرج . ومثال هذا ـ كما قال الزمخشرىّ ـ أن يستفتيك مسافر عن الإفطار فى رمضان . وحاجّ مفرد عن تقديم الحلق على النحر . قلت له : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك ، يا حاجّ أن تقدم

(١) [ ٩ / التوبة / ٩١ ] .

الحلق عن النحر . يعني أنه إذا كان في العطف غرابة ، لبعد الجامع في بادئ النظر ، وكان الغرض بيان حكم حوادث تقاربت في الوقوع ، والسؤال عنها والاحتياج إلى البيان لكونها في معرض الاستفتاء والإفتاء ، كان ذلك جامعاً بينها ، محسناً للعطف ، وإن تباينت .

قال الشهاب : وبهذا يظهر الجواب عن زعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده . لأن ملاءمته لما بعده قد عرف وجهها . وأما ملاءمته لما قبله فغير لازمة ، إذ لم يعطف عليه . انتهى.

وقيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها . فخالج قلوبَ المطعِمين والمطعَمين ريبة في ذلك . وخافوا أن يلحقهم فيه حرج . وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، لقوله تعالى[1] (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) فقيل لهم : ليس على الضعفاء ، ولا على أنفسكم ، يعني عليكم ، وعلى مَن في مثل حالكم من المؤمنين ، حرج في ذلك .

وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم ، لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم . ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر . والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه ، فيضيق على جليسه. والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم . فكانوا يتحرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكروه . ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفي الحرج عنه كله . ولا يستلزم نفي الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح في غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه . بل يراد به حضوره مع

(١) [ ٢/ البقرة / ١٨٨ ] .

الصحيح على مائدة ، واختصاصه بقصعة على حدة . وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع ، مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء فى الاجتماع . وقوله تعالى « وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ » أى بيوت أزواجكم وعيالكم . أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفرّاء .

وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم . فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الولد كسب والده ، وماله كماله . قال عليه الصلاة والسلام (١) ( إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه ) .

قال: والدليل على هذا ، أنه تعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد . لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة ، كان الذى هو أقرب منهم أولى . انتهى .

وعليه ، فلا يقال إنه ليس فى أكل الإنسان من بيت نفسه حرج ، فما فائدة ذكره بأن المراد بالأنفس من هو بمنزلتها من العيال والأولاد ، كما فى قوله (٢) ( وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ).

وفى ( الكشف ) : فائدة إقحام النفس، أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين، ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ، أو مَن هو فى مثل حالهم وهم الأصدقاء ـ حرج .

وقيل إنه على ظاهره . والمراد إظهار التسوية بينه وبين قرنائه .

قال الشهاب : وهو حسن . ولا يرد عليه أنه حينئذ لم يذكر فيه الأكل من بيوت الأزواج والأولاد ، لأنه داخل فى قوله ( مِنۢ بُيُوتِكُمْ ) . انتهى .

« أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ » يعنى أموال المرء ، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له ، أن

---

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٤٤ـ كتاب البيوع، ١ ـ باب الحث على الكسب، عن عائشة

(٢) [ ٤ / النساء / ٢٩ ] .

يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته . وملك المفاتح كونها فى يده وحفظه « أَوْ صَدِيقِكُمْ » أى أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحداً وجمعاً . وكذلك الخليط والقطين والعدوّ . كذا فى ( الكشاف ) .

قال الناصر : وقد قال الزمخشرىّ : إن سرّ إفراده فى قوله تعالى [1] ( فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ) دون الشافعين ، التنبيه على قلة الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون فإن الإنسان قد يحمى له ، ويشفع فى حقه من لا يعرفه ، فضلا عن أن يكون صديقاً .

ويحتمل فى الآيتين ، أن يكون المراد به الجمع . فلا كلام . ويحتمل أن يراد الإفراد ، فيكون سرّه ذلك . والله أعلم .

قال الزمخشرىّ : يحكى عن الحسن أنه دخل داره . وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره ، فيها الخبيص وأطايب الأطعمة ، وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً ، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضى الله عنهم .

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب ، فيسأل جاريته كيسه ، فيأخذ منه ما شاء . فإذا حضر مولاها فأخبرته ، أعتقها سروراً بذلك .

وعن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما: من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة ، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الصديق أكبر من الوالدين. إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات . فقالوا [1] ( فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ) . وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك، قام ذلك مقام الإذن الصريح. وربما سمج الاستئذان وثقل . كمن قدم إليه طعام ، فاستأذن صاحبه فى الأكل منه . انتهى .

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٠٠ و ١٠١ ] .

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً » أى مجتمعين أو متفرقين . روى أن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف ، لا يأكلون إلا مع ضيفهم . وإن قوماً كانوا تحرجوا من الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس فى الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض . فأبيح لهم ذلك .

وقال قتادة : كان هذا الحىّ من بنى كنانة ، يرى أحدهم ؛ أن مخزاة عليه ، أن يأكل وحده فى الجاهلية . حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه . واشتهر هذا عن حاتم لقوله[1] :

إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فالْتَمِسى لَهُ ... أكيلًا فإنى لستُ آكِلَهُ وَحْدِى

قال الشهاب : وفى الحديث[2] ( شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده ) والنهى فى الحديث لاعتياده بخلًا بالقرى ، ونفى الحرج عن وقوعه أحياناً ، بيان لأنه لا إثم فيه ، ولا يذم به شرعاً ، كما ذمّت به الجاهلية .

« فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » أى إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ، قرابة وديناً . قاله الزمخشرىّ .

أشار رحمه الله ، إلى أن المراد بالأنفس من هم بمنزلتها ، لشدة الاتصال كقوله[3] ( وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ) ويحتمل أن المسلم ، إذا ردت تحيته عليه ، فكأنه سلم على نفسه . كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله ، كأنه قاتل نفسه . وأما إبقاؤه على ظاهره ؛ لأنه إذا لم يكن فى البيت أحد ، يسره أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . كما روى عن ابن عباس — فبعيد غير مناسب لعموم الآية . كذا فى ( الشهاب ) .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أَيَا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذى البُرْدَيْنِ والأَسَدِ الوَرْدِ

(٢) لم أقف عليه . (٣) [ ٤ / النساء / ٢٩ ] .

وقال الناصر : في التعبير عنهم ، بالأنفس ، تنبيه على السر الذى اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان ، لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه ، لاتحاد القرابة . . فليطب نفساً بانبساطٍ فيها « تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ » أى ثابتة بأمر ، مشروعة من لدنه « مُبَارَكَةً » أى مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها « طَيِّبَةً » أى تطيب بها نفس المستمع « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ما فيها من الأحكام أو الآداب القائدة إلى سعادة الدارين .

ولما أمر تعالى بالاستئذان عند الدخول ، أرشد إلى الاستئذان عند الانصراف من مجلسه صلوات الله عليه ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] ( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشرى : أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية ذهاب الذاهب من مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه . فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ، ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله . وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره . وذلك مع تصدير الجملة (بإنما) وإيقاع المؤمنين مبتدأ

مخبراً عنه بموصول ، أحاطت صلته بذكر الإيمانين . ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله ( إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ )وضمنه شيئاً آخر . وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ،وعرّض بحال المؤمنين وتسللهم لواذاً . ومعنى قوله ( لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استوصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذي يجمع له الناس . فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز . وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور في خطب مهم ، أو تضامّ لإرهاب مخالف ، أو تسامح في حلف وغير ذلك . أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه وقرئ ( أمر جميع ) . وفي قوله( وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ) أنه خطب جلل ، لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم ، في كفايته . فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال ، مما يشق على قلبه ، ويشعّث عليه رأيه فمن ثم غلّظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان ، مع العذر المبسوط ، ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله ( لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ) وذكرُ الاستغفار للمستأذنين ، دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدّثوا أنفسهم بالذهاب ، ولا يستأذنوا فيه .

وقيل : نزلت في حفر الخندق . وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدمهم في الدين والعلم ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ، ولا يتفرقون عنهم ، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام . إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن . على حسب ما اقتضاه رأيه . اهـ

تنبيه :

استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوّضة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام . وتسمى هذه المسألة مسألة التفويض . وهي مبسوطة في الأصول ، وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٣] لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » أى إذ احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر ، فدعاكم ، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه . ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى ، قال الزمخشرى .

وكذا قال ابن الأثير فى ( المثل السائر ) أى إذا حضرتم فى مجلسه ، فلا يكن حضوركم كحضوركم فى مجالسكم . أى لا تفارقوا مجلسه إلا بإذنه ، والزموا معه الأدب .

وذهب قوم إلى أن المراد بالدعاء الأمر . منهم ابن أبى الحديد حيث قال فى (الفلك الدائر): إن المعنى المتقدم ، وإن دلت عليه قرينة متقدمة ، كما قال ابن الأثير ـ فنى الآية قرينة أخرى متأخرة تقتضى حمله على محمل آخر غير هذا . ولعله الأصح . وهى أن يراد بالدعاء الأمر. يقال: دعا فلان قومه إلى كذا ، أى أمرهم به وندبهم إليه. وقال سبحانه(1) ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ) أى ندبكم . وقال سبحانه(2) ( وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ) أى أمرتهم وندبتهم، والقرينة المتأخرة قوله(3) ( فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ) انتهى . وكذا قال المهايمى : أى لا تجعلوا أمره بينكم كأمركم بينكم يجاب تارة دون أخرى . لأنه واجب الطاعة . لا يسقط بالانسلال عن جملة المدعو .

« قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا » أى ينسلون قليلًا قليلًا . ( واللواذ ) الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا . يعنى ينسلون عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة ، واستتار بعضهم ببعض . و ( لواذًا ) حال. أى ملاوذين .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٢٤ ] . (٢) [ ٧١ / نوح / ٧ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٦٣ ] .

هذا ، وقيل معنى الآية : لا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرة . ولكن بلقبه المعظم . مثل : يانبيّ الله! ويا رسول الله! مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

وضعف بأنه لا يلائم السياق واللحاق. وتكلف بعضهم لربطه بما قبله، بأن الاستئذان يكون بقولهم : يا رسول الله ! إنا نستأذنك . ولأن من معه فى أمر جامع يخاطبه ويناديه . والأول أظهر وأولى كما فى ( العناية ) .

نعم ، فى التنزيل عدة آيات ، فى إيجاب مشافهته صلوات الله عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير ، وجعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه . كآية [١] ( يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا) الآية[٢] و( يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ) إلى قوله [٣] ( إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يعرضون عنه ولا يأتون به. فضمن (المخالفة) معنى الإعراض والصدّ . أو عن صلته . وقيل : إذا تعدى ( خالف ) بـ ( عن ) ضمن الخروج . وأصل معنى المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر فى حاله أو فعله ، كما قاله الراغب « أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ » أى محنة فى الدنيا « أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الآخرة أو فيهما .

تنبيه :

استدل به على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته، وأصول دينه . فما وافق قبل ، وما خالف رد على قائله وفاعله ، كائناً من كان . كما ثبت فى الصحيحين [٤] عنه صلوات الله

(١) [ ٢ / البقرة / ١٠٤ ] . (٢) [٤٩ / الحجرات/ ٢ ] .(٣) [ ٤٩ / الحجرات/ ٤ ]

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ ( فى ترجمة الباب ) .

عليه وسلامه ( من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ) واستدل بالآية أيضاً أن الأمر للوجوب . فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين . قيل : هذا إنما يتم إذا أريد بالأمر الطلب لا الشأن كما فى قوله ( عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ ) وقد جوّزا فيه ، مع إرادتهما معاً . وتفصيل البحث فى ( الرازىّ ) .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » أيها المكلفون من المخالفة والموافقة ، والنفاق والإخلاص . وإنما أكد علمه بـ ( قد ) لتأكيد الوعيد . « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فلا يخفى عليه خافية . لأن الكل خلقه وملكه . فيحيط علمه به ضرورة . ( أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ )(١) .

---

(١) [ ٦٧ / الملك / ١٤ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٥ – سُورَةُ الْفُرْقَانِ

الجمهور على أنها مكية . وعن الضحاك : مدنية . وعن بعضهم : مكية إلا ثلاث آيات[١] ( وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ) إلى ( رَحِيماً ) .

قال المهايمي : سميت بالفرقان لاشتمالها على أنه ظهر كثرة خيرات الحق بالفرقان ، الذى هو التمييز بين الحق والباطل . والأظهر أنه لذكره فيها بمعانيه الآتية المتسع لها اللفظ لا خصوص ما ذكره ، وآياتها سبع وسبعون .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٦٨ـ٧٠ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا )

« تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً » .

يحمد تعالى نفسه الكريمة ويثنى عليها ، لما أنزله من الفرقان ، كما قال(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » الآية .

قال الزمخشرىّ : ( البركة ) كثرة الخير وزيادته . ومنها ( تَبَارَكَ اللهُ ) وفيه معنيان : تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شىء وتعالى عنه ، فى صفاته وأفعاله . و( الْفُرْقَانَ ) مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما . وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصلا بعضه عن بعض فى الإنزال . ألا ترىٰ إلى قوله(٢) ( وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ) انتهى .

قال الناصر : والأظهر هٰهنا هو المعنى الثانى. لأن فى أثناء السورة بعد آيات(٣) ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ) قال الله تعالى ( كَذَٰلِكَ ) أى أنزلناه مفرقاً كذلك ( لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ) فيكون وصفه بالفرقان فى أول السورة ـ والله أعلم ـ . كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد . انتهى .

قال أبو السعود : وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان ، لتشريفه والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل ؛ ردًّا على

(١) [١٨/الكهف/١و٢] . (٢) [١٧/الإسراء/١٠٦] . (٣) [٢٥/الفرقان/٣٢] .

النصارى ، والكناية فى ( ليكون ) للعبد أو للفرقان . و ( النذير ) صفة بمعنى منذر ، أو مصدر بمعنى الإنذار ، كالنكر مبالغة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا )

( الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ) أى أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية لما أريد منه . كخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة . وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة . بأمثلة الحكمة والتدبير لأمرما ، ومصلحته مطابقاً لما قدر له ، غير متجاف عنه .

ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة ، تأثره بالبرهنة عليهما ، وتضليل المخالفين فيهما ، بقوله سبحانه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا )

( وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ) أى لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أولًا وبعثه ثانياً . ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء . أفاده القاضى .

قال الشهاب : قدم الموت لمناسبته للضر المتقدم . وفسر الموت والحياة بالإماتة والإحياء والإنشار ، إما بياناً لحاصل المعنى ، لأن مالك الموت له القدرة على الإماتة ، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال . كما في قوله[1] (أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

[٥] (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا » أي بجعل الصدق إفكاً ، والبريء عن الإعانة معيناً « وَزُورًا » أي باطلا لا مصداق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » أي ما سطروه ، كتبها لنفسه وأخذها « فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ » أي تلقى عليه ليحفظها « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أي دائما .

قال ابن كثير : وهذا الكلام ، لسخافته وكذبه وبهته منهم ، يعلم كل أحد بطلانه . فإنه قد علم بالضرورة : أن محمدا رسولَ ﷺ ، لم يكن يعاني شيئا من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره . وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ، إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته . وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الردية ، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث بالأمين لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التي يعلم كل عاقل براءته منها . وحاروا بما يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر . وتارة يقولون: شاعر . وتارة يقولون: مجنون . وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى[2] (انْظُرْ

---

(١) [ ٧١ / نوح / ١٧ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٤٨ ] و [ ٢٥ / الفرقان / ٩ ].

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ) وقال تعالى فى جواب ما افتروه هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى الخفىّ فيهما . إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى. ومن مقتضاه رحمته إياهم بإنزاله ، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره . وفى طيّه ترهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبىّ عليه الصلاة والسلام، مع ما يتقولونه ويفترونه، لا يعزب عن علمه . فسيجزيهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم ، وسموق حقه وظهور أمره « إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم، مع استيجابهم إياها . أى فهو يمهل ولا يعاجل لمغفرته ورحمته. أو الوصفان كناية عن كمال قدرته على الانتقام منهم . لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر . هذا ما يستفاد من ( الكشاف ) ومن تابعه، لبيان مطابقة ذلك لما قبله .

وقال ابن كثير : قوله تعالى ( إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً ) دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم و كفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم سبحانه إلى التوبة ، والإقلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى . كما قال تعالى[١] ( لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) وقال تعالى[٢] ( إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ

(١) [ ٥ / المائدة / ٧٣و٧٤ ] . (٢) [ ٨٥ / البروج / ١٠ ] .

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ ) قال الحسن البصريّ : انظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

ثم أشار تعالى إلى تعنتهم بخصوص المنزل عليه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً )

« وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ » أي كما نأكل « وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ » أي يتردد فيها لشؤونه كما نمشي . قال الزمخشريّ : يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش . أي فيخالف حاله حالنا . قال أبو السعود : وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم ، وقصور أنظارهم على المحسوسات . فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية . كما أشير إليه بقوله تعالى[1] ( قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ ) ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا ، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار فقالوا « لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً » ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز ، إن لم يرفد بملك ، فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها ، وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً )

« أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ » أي من السماء يستظهر به ، ولا يحتاج إلى طلب المعاش ، ويكون دليلا على صدقه . ثم نزلوا فاقتنعوا باقتراح ماهو أيسر منه ، فقالوا « أَوْ تَكُونُ لَهُ

(١) [ ١٨ / الكهف / ١١٠ ] .

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنهَا » أى بستان يرتزق منه « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً » أى مغلوباً على عقله . وقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا )

« انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالُ » استعظام للأباطيل التى اجترأوا على التفوّه بها . والتعجب منها . أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول « فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى القدح فى نبوّتك ، بأن يجدوا قولاً يستقرّون عليه . أو فضلّوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه .

قال ابن كثير : كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال ، حيثما توجه . لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

ثم نبه تعالى على أنه إن شاء آتاه خيراً مما يقترحون ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا )

« تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً » أى إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا . وهو أن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة من الجنات والقصور . ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لا للمال . وليصدع بأن الأمر مبنىّ على النظر والاستدلال ، لا ما يلهى المشاعر والخيال . مما يتطرق إلى الشغب فيه الجدال ، فسبحان الحكيم المتعال . وقول تعالى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا )

« بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ » إضراب انتقالىّ عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة ، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى ، للتخلص إلى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها ، من فنون العذاب ، بقوله « وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » أى نارا شديدة الاستعار ، أى التوقد والالتهاب .

وقيل : هذا الاضراب عطف على ما حكى عنهم وهو ( وقالوا ما لهذا الرسول ) على معنى : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة . والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً . فإن جراءتهم على التكذيب بها ، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها ، أعجب من القول السابق .

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قيل : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ؟ وكيف يصدقون بتعجيل ما وعدك الله فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟

ثم وصف تعالى السعير بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا )

« إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » أى إذا كانت بمرأى منهم ( أى قريبة منهم ) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم ، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها ، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ، حقيقة أو تمثيلا . و ( من ) فى قوله ( مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ) إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة ، حين رأتهم ، خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة . وفيه مزيد تهويل لأمرها . أفاده أبو السعود . و ( التغيّظ )

إظهار الغيظ وهو أشد الغضب ، وقد يكون مع صوت كما هنا . شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره ، وهو صوت يسمع من جوفه ، تصريحاً أو مكنيا أو تمثيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا )

[١٤] ( لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا )

« وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ » أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا » أى هلاكاً . أى نادوه نداء المتمنى الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت . فيقال لهم « لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » لكثرة أنواعه المتوالية . فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين . أو كثرته باعتبار تجدد أفراده وإن كان متحداً . أو كثرته كناية عن دوامه . لأن الكثير شأنه ذلك كما قيل فى ضده[1] ( وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ) وقيل : وصف الثبور بالكثرة ، لكثرة الدعاء أو المدعوّ به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا )

[١٦] ( لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا )

« قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا » أى حقيقا أن يسئل ويطلب ويتنافس فيه . وما فى ( على ) من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى .

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٣٢و٣٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ، أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ )

[١٨] ( قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا )

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ » أى الله تعالى المعبودين، تقريعاً لعبدتهم « ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » أى عن السبيل بأنفسهم ، لإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد « قَالُوا سُبْحَانَكَ » تعجباً مما قيل لهم . لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شيء . أو تنزيها له عن الأنداد « مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى نعبدهم . فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، أو ( من أولياء ) أى أتباعاً للعبادة « وَلَـٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ » استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالّون ، بعد بيان تنزههم عن إضلالهم . وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة . أى ما أضللناهم . ولـكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها . فانهمكوا فى الشهوات حتى نسوا الذكر ، أى ذكرك . أو التذكر فى آلائك ، والتدبر فى آياتك ، فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم، ذريعة إلى الغواية ـ أفاده أبوالسعود « وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا » أى هالـكين . ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبدتهم وإلزامهم ما يبكتهم ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا )

« فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ » أى المعبودون ، أيها الكفرة « بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة.أو فى قولكم هؤلاء أضلونا « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » أى ماتملكون (صَرْفًا ) أى دفعاً للعذاب عنكم بوجهٍ ما « وَلَا نَصْراً » أى لأنفسكم من البوار « وَمَنْ يَظْلِمْ مِّنْكُمْ » أيها المكلفون ، كدأب هؤلاء « نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً » . ثم أجاب عن شبههم السابقة ، بقوله سبحانه :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَمَاأَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ،وَجَعَلْنَابَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ،وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)

« وَمَاأَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى ليحتاجون إلى التغذى بالطعام ويتجولون فى الأسواق للتكسب والتجارة . وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم . فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة،والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة،على صدق ماجاءوابه من الله.ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى[١] (وَمَاأَرْسَلْنَامِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ) وقوله[٢] (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ) .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح، خلافاً لمن كرهها لهم .

---

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٠٩ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٨ ] .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً » قال الزمخشري : هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ماقالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق . بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل . يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم ، أيها الناس ، ببعض . والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم . وبمناصبتهم لهم العداوة . وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل. ونحوه[1] ( وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ) وفي قوله تعالى ( وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً » زيادة تسلية وعدة جليلة . أي هو عالم فيما يبتلى به وغيره ، فلا يضق صدرك . فإن في صبرك سعادةً وفوزاً في الدارين .

ثم أشار إلى نوع آخر من أقاويلهم الباطلة ، وإبطالها ، بقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا )

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أي الرجوع إليه بالبعث والحشر « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ » أي للرسالة ، أو لتخبرنا بصدق محمد صلوات الله عليه « أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا » أي فيخبرنا بذلك « لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي في شأنها حتى تفوّهوا بمثل هذه العظيمة « وَعَتَوْا » أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان « عُتُوًّا كَبِيراً » أي بالغاً أقصى غايته . حيث أملوا رتبة التكليم الرباني من غير توسط الرسول والملك . ولم يكتفوا بهذا الذكر الحكيم والخارق العظيم .

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٨٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا )

« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ » أى عند الموت أو فى القيامة « لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً » أى كما كانوا يقولون عند لقاء العدوّ وشدة النازلة (حجراً) أى أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً و( محجوراً ) تأكيد ا( حجراً ) وقيل هو من قول الملائكة . ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى جعل الله ذلك حراماً عليكم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا )

« وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ » أى مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة ، ويرونه من مكارمهم « فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » أى مثل الغبار المنثور فى الجوّ ، فى حقارته وعدم نفعه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا )

[٢٥] ( وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا )

« أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » أى ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم . فيخرب العالم بأسره . و(الباء) بمعنى (مع) أى مع السحب الجوية . أو بمعنى (عن) أى تنفطر عن الغمام الذى يسوّد الجو ويظلمه ، ويغم القلوب مرآه « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » فيحيطون بالخلائق فى المحشر .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا )

[٢٧] ( وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

[٢٨] ( يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

[٢٩] ( لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا)

«الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ »أى فلا يدعيه ثَمَّ غيره. ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا *وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ »أى تشتد حسراته وتتصاعد زفراته « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » يعنى من أضلّه عن الذكر،وصده عن سبيل الله «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ» أى القرآن ، أوموعظة الرسول « إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا »أى مبالغاً فى إضلاله ، يعده ويمنيه فى الدنيا ، ما يحسّره عليه فى العقبى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا )

« وَقَالَ الرَّسُولُ » أى إثر ماشاهد من عتوهم وعنادهم « يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» أى متروكا ،معرضاً عنه . وجملة ( وقال الرسول ) عطف على(وقال الذين لا يرجون ) وما بينهما اعتراض،سيقت لانتظام ماقالوه وطلب النصر عليهم واستنزال الفرج الإلٰهىّ مما أضاقوا به الصدور ، وجلبوه من الكدور ، وللإشارة إلى مايحيق بهم من شقاء الدارين .

تنبيه :

الآية ، وإن كانت في المشركين ، وإعراضُهم هو عدم إيمانهم ، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به ، والأخذ بآدابه . الذي هو حقيقة الهجر . لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك . إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها . ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها .

ومن ( فوائد ) الإمام ابن القيم رحمه الله . قوله في هذه الآية : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس . هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها . فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوي به .

قال : وكل هذا داخل في هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض . انتهى .

وفي ( الإكليل ) : إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه . وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم . ثم قال : وفيه من التحذير ما لا يخفى . فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم يُنظروا . ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لنبيه ، وتسلية له ، ووعداً بالنصرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا )

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا » أى إلى ما يبلغك ما تتمناه « وَنَصِيرًا » أى لك على كل من يناوئك . ثم أشار تعالى إلى مقترح خاص بالتنزيل الكريم ، بقوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا )

[٣٣] ( وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا )

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » أى دفعة واحدة فى وقت واحد . وقد بين سبحانه بطلان هذه المماراة الحمقاء بقوله « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » أى نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة ، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة . فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » أى فصلناه تفصيلا بديعاً ، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده .

قال القاشانىّ : الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر ، مدّة يمكن فيها ترسخه فى قلبه ، وأن يصير ملكة لا حالا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى الذى يقمع تلك الصفة . كما قال [1] ( بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ) « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى بياناً وهداية ، عناية بك

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٨ ] .

وبما أرسلت من أجله ، وخذلاناً لأعداء الحق وخصوم الرشاد .

تنبيه :

يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة ، كنزول بقية الكتب جملة . ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة ، صحيح . فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التنزيل له . والحال أن القول بنزولها دفعةواحدة لا أصل له ، وليس عليه أثارة من علم ، ولا يصححه عقل . فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت . لمقدار مكث النبيّ . إذ ما دام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة . ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحاً لا مرية فيه . وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك . وما كل كلام معرّض به . وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعنت متفنن فيه . والله أعلم .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

[٣٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)

[٣٦] (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » وهم فرعون وقومه . والآيات الخوارق التسع . أي فذهبا إليهم . فأرياهموها فكذبوها « فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا » أي بالإغراق في البحر .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا )

[٣٨] ( وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا )

[٣٩] ( وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا )

« وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ » يعنى نوحاً . وجُمِع تعظيماً لرسالته . أو هو ومن تقدمه عليهم السلام « أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا » يعنى قوم هود « وَثَمُودَ » بالصرف وعدمه . قراءتان . على معنى الحى أو القبيلة « وَأَصْحَابَ الرَّسِّ » اسم بئر . ونبيهم قيل : شعيب ، وقيل : غيره . ويروى هنا بعضهم آثاراً منكرة لا تصح . كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله . فلا يحل الجراءة على روايتها ، ولا تنزيل الآية عليها . لأنه من قَفْو ما ليس للمرء به علم . ومثله يحظر الخوض فيه . « وَقُرُونًا » أى أقواماً « بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ » أى الأنباء التى تزجر عن الكفر والفساد « وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا » أى إهلاكا عظيما .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا )

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ » أى أهلكت بالحجارة . وهى قرى قوم لوط « أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا » أى فى مرورهم ، ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ؟ وفيه توبيخ لهم على تركهم الذكر ، عند مشاهدة ما يوجبه « بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » أى كفرة ، لا يتوقعون عاقبة وجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)

[٤٢] إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا »أى يستهزئون قائلين ذلك . والإشارة للاستحقار . لأن كلمة ( هذا ) تستعمل له . وعائد الموصول محذوف . أى بعثه . و( رسولًا ) حال منه « إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا » أى أنه كاد لَيصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً ، لولا أن ثبتنا عليها .

قال الزمخشرىّ : فيه دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ فى دعوتهم ، وبذل قصارى الوسع والطاقة فى استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم ، حتى شارفوا بزعمهم ، أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » جواب منه تعالى لآخر كلامهم . وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهـــال . ولا بد للوعيد أن يلحقهم ، فلا يغرنهم التأخير .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » تعجيب للنبىّ صلوات الله عليه من شناعة حالهم ، بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشرىّ : من كان فى طاعة الهوى فى دينه ، يتبعه فى كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلًا ، ولا يصغى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلٰهه . فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتتوكل عليه وتجبره

على الإسلام؟ وتقول لا بد أن تسلم، شئت أو أبيت . ولا إكراه فى الدين . وهكذا كقوله[١] (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) [٢](لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» أى منهم . لأن الأنعام تصرف قواها إلى طلب ماينفعها ، والنفرة مما يضرها . وهؤلاء عطلوا قواهم وهى العقول التى يهتدى بها للحق ، ويميز بها بين الخير والشر . ثم أشار تعالى إلى بعض دلائل التوحيد ، ومافيها من النعم العظمى الجديرة بأن تتلقى بالشكر لا بالكفر ، كحال هؤلاء الكفرة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » أى عجيب صنعه أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » أى ثابتاً على حاله ، من الطول والامتداد . من (السكنى) أو غير متقلص من (السكون) بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فلم ينتفع به أحد « ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا » أى علامة يستدل بأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتاً فى مكان ، زائلا ومتسعاً ومتقلصاً . فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه ، على حسب ذلك .

(١) [ ٥٠ / ق / ٤٥ ] . (٢) [ ٨٨ / الغاشية / ٢٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا )

[٤٧] ( وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا )

« ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا » أى أزلناه بعد ما أنشأناه ممتداً ، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه « قَبْضاً يَسِيراً » أى على مهل ، قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها . وفى هـذا القبض اليسير ، شيئاً بعد شيء ، من المنافع مالا يعدّ ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً ، « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً » أى ساتراً كاللباس « وَالنَّوْمَ سُبَاتاً » أى راحة للأبدان تستعيض به ماخسرته من قواها «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً» أى زمان انتشار لطلب المعاش .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا )

[٤٩] ( لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا )

« وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشْراً » أى ناشرات للسحاب وفى قراءة ( بشراً ) بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين ، أى مبشرات « بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ » أى قدام المطر . وهى استعارة بديعة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت . كقوله[1] ( يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ) وجعلها بين يديه تتمة لها . لأن البشير يتقدم المبشّر به . ويجوز أن تكون تمثيلية . و ( بشرا ) من تتمة الاستعارة ، داخل فى جملتها . ومن قرأ ( نشراً ) كان تجريداً لها .

(١) [ ٩/ التوبة / ٢١ ] .

لأن النشر يناسب السحاب « وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » أي مطهراً ؛ لقوله[١] (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) . وهذه الآية أصل في الطهارة بالماء .

قال القاضي : وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه ، وتتميم للمنة فيما بعده . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها ، فبواطنهم بذلك أولى « لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا » أي بإنبات النبات « وَنُسْقِيَهُ » أي ذلك الماء « مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا » قال الكرخيّ : خص الأنعام بالذكر ، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر . ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض . فإنها سبب لحياتها وتعيشها ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

---

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

[٥١] (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

[٥٢] (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ » أي كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر « بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا » أي ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا « فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أي كفران النعمة وجحودها « وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » أي نبيًّا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة . لكن لم نشأ ذلك ، فلم نفعله . بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى[٢] (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا). إجلالًا لك وتعظيما ، وتفضيلا لك على سائر الرسل .

وقال المهايميّ : أي لكن لم نشأ . لأنه يقتضي تفرق الأمم ، وتكثر الاختلافات .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ١١ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ١ ] .

فجعلنا الواحد نذيراً للكل ليطيعوه أويقاتلهم . والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أويتركوهم على ماهم عليه « فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ » أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر . ولا تطعهم فيما يريدونك عليه . وأراد بهذا النهى ، تهييجه وتهييج المؤمنين ، وتحريكهم . أى إثارة غيرته وغيرتهم . وإلا فإطاعته لهم غير متصوّرة .

وقال أبو السعود : كأنه نهى له، عليه الصلاة والسلام، عن المداراة معهم ، والتلطف معهم. أى لأن فى ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه ، وطول أمد فى سريانه . ولذا قال «وَجَاهِدْهُمْ بِهِ» أى بالقرآن وما نزل إليك من الحق « جِهَاداً كَبِيراً » أى لا يخالطه فتور ، بأن تلزمهم بالحجج والآيات ، وتدعوهم إلى النظر فى سائر الآنات ، لتتزلزل عقائدهم ، وتسمج فى أعينهم عوائدهم . وهذه الآية من أصرح الأدلة فى وجوب مجادلة المبطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن فى محاجتهم بأفانين الأدلة . فإن الحق يتضح بالأدلة . كما أن الشهور تشتهر بالأهلّة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا )

« وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان « هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة قامع للظمأ « وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أى بليغ الملوحة « وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً » أى حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر « وَحِجْراً مَّحْجُوراً» أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما فى الآخر مسافة .

لطيفة :

تلطف هنا المهايمىّ فى تأويل الآية ، بمعنى يصلها بالآية قبلها ، فى أسلوب غريب . قال

رحمه الله ( فى قوله تعالى وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ) : يؤثر فى بواطنهم فيكون ( كَبِيراً ) يفوق مايؤثر فى الظواهر (و) إن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من يورد شبهات تجاورها ؟ قيل : غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين . وقد رفع الله الالتباس بينهما بعد ماجاور بينهما وهما محسوسان ، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ ( هُوَ الَّذِى مَرَجَ ) أى جاور ( الْبَحْرَيْنِ ) اللذين بينهما غاية الخلاف إذ ( هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ) أى قاطع للعطش وهو مثل بحر الدلائل المفيدة للذوق ، القاطعة عطش الطلب ( وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ) أى مبالغ فى الملوحة . وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جداًّ لأهل الذوق (و) أما لأهل النظر فقد ( جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ) أى ما نعاً من الخلط . وهو النظر فى مواد المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل (و) أما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التى لاجواب عنها ، كما أنه جعل بينهما (حِجْراً) أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر (مَحْجُوراً) أى ممنوعاً أن يمنع . وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب وينفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج ، قيل : ليس هـذا بالنظر إلى نفس الدلائل ، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب . وقد أوجد الله لإزالة العذر عنه مثالاً ، فى قوله :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا )

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً » أى كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم « فَجَعَلَهُ » أى البشر « نَسَباً » أى أصلا أو فرعاً أو حاشية لقوم « وَصِهْراً » أى لآخرين يتعصب من أجل نسبه وصهره ، فيعتقد باطلهم حقاًّ . كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم « وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً » أى وهو وان صعب إزالته ، فإن ربك الذى أمرك بالجهاد الكبير ، قدير على إزالتـه . كما قدر فى النسب والصهر . فلا يبالى المؤمنون لهما . انتهى كلام المهايمىّ رحمه الله .

وهو منزع فى باب الإشارة غريب ، أثرناه عنه للطافته . وأما معنى الآية فى عظيم اقتــداره سبحانه ، حيث خلق البشر وقسمهم من نطفة واحدة قسمين ذوى نسب ، أى ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان . وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن ، فظاهر . ونظيره قوله تعالى(١) ( فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا )

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا » أى معيناً للشيطان على عصيان ربه . والمراد بالكافر الجنس . فهو إظهار فى مقام الإضمار ، لنعى كفرهم عليهم ، ولرعاية الفواصل الكريمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا )

[٥٧] ( قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا )

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ الرسالة المفهوم من ( أَرْسَلْنَاكَ ) « مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى يتقرب إليه بالإيمان والطاعة . أى إلى رحمته أو جنابه . فاتخاذ السبيل ، مراد به لازم معناه . لأن من سلك طريق شىء ، قرب إليه ، بل وصل .

قال الزمخشرىّ : مثال ( إِلَّا مَنْ شَاءَ ) والمراد : إلّا فعل من شاء . واستثنائه عن الأجر

(١) [ ٧٥ / القيامة / ٣٩ ] .

قولُ ذى شفقة عليك ، قد سعى لك فى تحصيل مالٍ : ( ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ) فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب . ولـكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين : إحداهما ـ قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله . كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثواباً ، فإنى أطلب الثواب .

والثانية ـ إظهار الشفقة البالغة ، وأنك إن حفظت مالك اعتدّ بحفظك ثواباً ورضى به ، كما يرضى المثاب بالثواب .

ولعمرى إن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . انتهى . والاستثناء على هذا متصل ادعاء .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا )

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ » أى فى دفع شرهم ومكرهم « وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا » أى عليماً لا يعزب عنه منها شىء ، فيجزيهم عليها .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا )

« الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى من أيامه تعالى ، أو أيام الخلق ، قولان للسلف « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » أى علا فوقه علوًّا يليق بجلاله المقدس . وتقدم تفسيره « الرَّحْمَٰنُ » مرفوع على المدح . أى هو الرحمن ، وهو فى الحقيقة وصف آخر للحىّ ، كما قرئ بالجرّ . وقيل : الموصول مبتدأ والرحمن خبره . وقيل : الرحمن

بدل من المستكن فى «اسْتَوَى» وقوله تعالى «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً» فيه أوجه: منها (الباء) فى (به) صلة ( اسأل) ومنها أنها صلة (خبيراً )و(خبيراً)مفعول ( اسأل ) أى فسل عنه رجلا عارفاً يخبرك برحمته . أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته . وعليه ففائدة سؤاله هو تصديقه وتأييده .

قال الشهاب: ويصح تنازعهما ـ أى اسأل وخبيراً ـ فى الباء. وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب . وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية . وقد ذكره السعد فى أواخر ( شرح المفتاح ) وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات . انتهى . ومنها أن الباء للتجريد. كقولك رأيت به أسداً. أى برؤيته. أى اسأل بسؤاله خبيراً والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً .

قال فى ( الكشف ): وهو أوجه، ليكون كالتتميم لقوله ( الَّذِى خَلَقَ )، الخ فإنه لإثبات القدرة ، مدمجاً فيه العلم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ) [سجدة]

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ » أى من المسمى به ؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب، تفنناً فى الإباء . أى وما هذه الأسماء والأعلام التى تصدعنا بها ، وتقرع آذاننا بالإذعان لها . « أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ » أى الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان « نُفُورًا » أى استكباراً عن الإيمان .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا )

« تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً » أى نجوماً أو هى البروج الاثنا عشر، التى ترى صورها فى الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية . « وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً » وهى الشمس « وَقَمَراً مُنِيراً » أى مضيئاً بالليل .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا )

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً » أى ذوى عقبة يعقب كل منهما الآخر « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » أى يتفكر فيستدل بذلك على عظم قدرته « أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » أى يشكر على النعمة فيهما ، من السكون بالليل والتصرف بالنهار . ويكون فيهما بما يقتضيه ما خلقا له .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا )

[٦٤] ( وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا )

« وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » أى هينين . أو مشياً هيناً . أى بسكينة وتواضع . لا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون تبعاً لهم أشراً وبطراً . « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً » أى إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله ، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم . سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)،

أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح . وكظم للغيظ . دفعاً بالتي هي أحسن « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » أي يكون لهم في الليل فضل صلاة وإنابة ، كما قال تعالى[١] ( كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) وقوله[٢] ( تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ) الآية وقوله[٣] ( أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ) و(البيتوتة) لغةً ، الدخول في الليل . يقال: بات يفعل كذا يبيت ويبات، إذا فعله ليلًا . وقد تستعار البيتوتة للكينونة مطلقاً . إلا أن الحقيقة أولى ، لكثرة ما ورد في معناها مما تلونا . ولذلك قال السلف : في الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله . وفي قوله (لِرَبِّهِمْ) إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم . لما أن ذلك هو الذي يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله و(قياماً) جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه .

---

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٥] ( وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا )

[٦٦] ( إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا )

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » أي هلاكا دائما . والمراد من قولهم ذلك ، فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى . لا مجرد قلقلة اللسان ، بلا تأثر من الجنان . فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ، ويتعوذوا به من سعيرها ، إلا لعلمهم بسوء حالها . ومقتضى العلم بالشيء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه . ولذا قال تعالى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » أي موضع استقرار وإقامة .

---

(١) [٥١/الذاريات/١٧و١٨] . (٢) [٣٢/السجدة/١٦] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا )

«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً» أى لم يجاوزوا الحدّ فى الإنفاق ، ولم يضيّقوا على أنفسهم وأهليهم وما يعروهم بخلًا ولؤماً . بل كانوا فى ذلك متوسطين ، وخير الأمور أوسطها .

قال الزمخشرىّ : وصفهم الله بالقصد الذى هو بين الغلوّ والتقصير . وبمثله أمر رسول الله ﷺ[١] ( وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ) . وروى الإمام أحمد[٢] عن أبى الدرداء عن النبىّ ﷺ قال ( من فقه الرجل رفقه فى معيشته ) وأخرج أيضاً عن ابن مسعود[٣] قال : قال رسول الله ﷺ ( ما عال من اقتصد ) وروى البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ( ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة ) .

وعن الحسن : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف . وسمع رجل رجلًا يقول : لا خير فى الإسراف . فقال: لا إسراف فى الخير .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا )

[٦٩] ( يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا )

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٢٩ ] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبى ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٤٢٦٩ ( طبعة المعارف ) .

[٧٠] ( إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا )

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » أى لا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، فالدعاء بمعنى العبادة « وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ » أى حرمها بمعنى حرّم قتلها . ومنه الوأد وغيره « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى المزيل لحرمتها وعصمتها « وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى ما ذكر من هـذه القبائح العظام « يَلْقَ أَثَامًا » أى يجد فى الآخرة جزاء إثمه « يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » أى ذليلا محتقراً جامعاً لعذابى الجسم والروح « إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال الحافظ ابن كثير : وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وآية النساء[١] (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) الآية ، فإن هذه ، وإن كانت مدنية ، إلا أنها مطلقة . فتحمل على من لم يتب . لأن هذه مقيدة بالتوبة . ثم قال تعالى[٢] (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الآية ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . كما ذكر مقرراً من قصة الذى[٣] قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث . ثم قال : وفى معنى قوله تعالى (يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) قولان : أحدهما ـ أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات . فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وكذا قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ،

(١) [ ٤ / النساء / ٩٣ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٤٨ ] و [ ٤ / النساء / ١١٦ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث رقم ١٦٢٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٦ ( طبعتنا ) .

وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين. وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وكذا قال الحسن : أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح. وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وبالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً .

والقول الثانى : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح ، حسنات . وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ، ندم واسترجع واستغفر. فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. انتهى .

ولابن القيم رحمه الله تعالى فى ( طريق الهجرتين ) فى هذا المقام بسط حسن وتناظر متقن ، لا بأس بإيراده ، لعظم فائدته .

قال رحمه الله (بعد شرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله) : وهاهنا مسألة، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها. وهى أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ، فهل تمحى تلك السيئات وتذهب ، لا له ولا عليه ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه ، من المفسرين وغيرهم ، قديماً وحديثا. فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، لكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة قال ابن عطية: يجعل أعمالهم، بدل معاصيهم الأولى طاعة . فيكون ذلك سببا لرحمة الله إياهم ، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن. ورد على من قال هو فى يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث فى كتاب مسلم [(١)] من طريق أبى ذر يقتضى أن الله سبحانه يوم القيامة ، يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذىّ والطبرىّ . وهذا تأويل سعيد بن المسيب فى هذه الآية .

قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . انتهى .

وسيأتى ذكر الحديث والكلام عليه .

وقال الثعلبىّ: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ( يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ) يبدلهم الله تقبيح أعمالهم فى الشرك ، محاسن الأعمال فى الإسلام . فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين ، قتل المشركين . وبالزنى ، عفة وإحصاناً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ ( طبعتنا ) .

وقال آخرون : يعنى يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى حال إسلامهم ، حسنات يوم القيامة . وأصل القولين ، أن هـذا التبديل هل هو فى الدنيا أو يوم القيامة ؟ فمن قال إنه فى الدنيا ، قال هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها . وهى حسنات ، وهذا تبديل حقيقة . والذين نصروا هـذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا . فإنها لم تكن طاعة، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ، فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟

قالوا : وأيضاً فالذى دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، كقوله (١) (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا) وقوله (٢) (وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقوله (٣) (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) والقرآن مملوء من ذلك وفى الصحيح (٤) من حديث قتادة عن صفوان ابن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ قال : سمعته يقول ( يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف؟ فيقول: ربِّ! أعرف قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته ) .

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل .

فهذا الحديث المتفق عليه، والذى تضمن العناية بهذا العبد ، إنما فيه ستر ذنوبه عليه فى الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة. ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة. فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها .

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٩٣ ] .(٢) ٤٢ / الشورى / ٢٥ ] .(٣) [ ٣٩/الزمر/٥٣ ] .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٤٦ ــ كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ألا لعنة الله على الظالمين ، حديث رقم ١٢٠١ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ــ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٢ ( طبعتنا ) .

وقد قال الله فى حق الصادقين (١) ( لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ) فهؤلاء خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها . وأما السيئات ، أن تلغى ويبطل أثرها. قالوا : وأيضاً، فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات فى حق التائب، لكان أحسن حالا من الذى لم يرتكب منها شيئاً. وأكثر حسنات منه . لأنه إذا أساء شاركه فى حسناته التى فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه . وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له ؟ قالوا: وأيضاً فكما أن العبد ، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها ، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها . فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها ، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته، لم ننازعكم فى هذا . وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضى ثواباً وجودياً . واحتجت الطائفة الأخرى التى قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة ، بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون فى السيئة المحققة . وهى التى قد فعلت ووقعت . فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة . قالوا : ولهذا قال تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فأضاف السيئات إليهم، لكونهم باشروها واكتسبوها. ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم، لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هى مجرد فضل الله وكرمه قالوا: وأيضاً، فالتبديل فى الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم . فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات. والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها ، كما قال تعالى (٢): ( فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ) وأما ما كان من غير الفاعل ، فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال تعالى (٣)( فَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فلما أخبر سبحانه أنه هو الذى يبدل سيئاتهم حسنات ، دل على أنه شىء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لا أنهم فعلوه من تلقاء

(١) [ ٣٩ / الزمر ٣٥ ] . (٢) ٢ / البقرة ٥٩ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ ١٦ ] .

أنفسهم . وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .

قالوا: ويدل عليه مارواه (مسلم)[١] فى صحيحه عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ (إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة. وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه . فيقال : عملت يوم كذا و كذا، كذا وكذا . وعملت يوم كذا و كذا ، كذا وكذا. فيقول : نعم. لايستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة ) قالوا : وهؤلاء هم الأبدال فى الحقيقة . فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة ، بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التى عملوا حسنات .

قالوا : وأيضا فالجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بدلها الله من صحف الحفظة ، حسنات جزاء وفاقاً .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبى ذر ، على صحة قولكم، وهو صريح فى أن هذا الذى قد بدلت سيئاته حسنات ، قد عذب عليها فى النار ، حتى كان آخر أهلها خروجاً منها فهذا قد عوقب على سيئاته . فزال أثرها بالعقوبة . فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهـذا حكم غير ما نحن فيه . فإن الكلام فى التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرّا عليها غير تائب . فأين أحدهما من الآخر ؟ .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة ، فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت فى مكان السيئة ، التى لولا الحسنة لحلت محلها .

قالوا: وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم، وذلك يقتضي أن تكون هى السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب . ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها ، مقارناً لكسبهم إياها بفضله ؟ .

قالوا : وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضى أنه هو الذى بدلها من الصحف ، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها ، فهـذا لا دليل لكم . فإن الله خالق

---

(١) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ ( طبعتنا ) .

أفعال العباد . فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلا وكسباً .

قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم أبدلها الله كذلك فى صحف الأعمال . فهذا حق ، وبه نقول ، وإنه بدلت السيئات التى كانت مهيأة ومعدة أن تحل فى الصحف ، بحسنات جعلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين . وإليك أيها المنصف الحكم بينهما. فقد أدلى كل منهما بحجته، وأقام بينته . والحق لا يعدوها ولا يتجاوزهما . فأرشد الله من أعان على هدى ، فنال به درجة الداعين إلى الله ، القائمين ببيان حججه ودينه . أو عذر طالبا منفرداً فى طريق مطلبه ، قد انقطع رجاؤه من رفيق فى الطريق . فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وألا يقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه، فقد رضى بالدون . وحصل على صفقة المغبون . ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه معارض ، ولا يتصدى له ممانع ، فقد منى نفسه المحال. وإن صبر على لأوائها وشدتها، فهو والله الفوز المبين، والحظ الجزيل وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فالصواب ، إن شاء الله فى هذه المسألة ، أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة . والحسنة إنما هى أمر وجودى يقتضى ثواباً ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهى . وذلك الكف والحبس أمر وجودى وهو متعلق الثواب . وأمامن لم يخطر بباله الذنب أصلا ، ولم يحدث به نفسه، فهذا كيف يثاب على تركه ؟ ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب ، لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التى لا تخطر بباله وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ وهذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمرا وجوديا ، فالتائب من الذنوب التى عملها ، قد قارن كل ذنب منها ، ندماً عليه، وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب ، وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة ، قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض

المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة. والحسنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلت مكانها. فهذا معنى التبديل. لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة.

وقال بعض المفسرين فى هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة. وعلى هذا ، فقد زال بحمد الله الإشكال. واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبى ذر ، وإن كان التبديل فيه فى حق المصرّ الذى عذب على سيئاته ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته. فإن الذنوب التى عذب عليها المصرّ، لما أزال أثرها بالعقوبة، بقيت كأن لم تكن، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة. لأن ماحصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها، مع العقوبة ، لا يقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح ، أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة ، حسنات ، فلأَنْ تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات ، أوْلى وأحرى . وتأثيرُ التوبة فى هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبه . لأن التوبة فعل اختيارىّ أتى به العبد طوعا ومحبة لله وفرَقا منه. وأما العقوبة، فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التى تصيبه بغير اختياره ، بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التى يحبها الله ويرضاها فى محو الذنوب، أعظم من تأثير المصائب التى تناله بغير اختياره . انتهى كلامه رحمه الله. وقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴾

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً » أى ومن يترك المعاصى ويندم عليها ويدخل فى العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضيًّا عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب . قرره الزمخشرىّ .

والآية صريحة فى أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلاً، شرط فى صحة التوبة وقبولها. وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح . فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان ، أو تخشع بأركان ، ولا عمل صالح له يرضى الرحمن .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا )

[٧٣] ( وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا )

«وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» أى لا يحضرون الباطل. يقال ( شهد كذا ) أى حضره. و (الزور) مفعول به بتقدير مضاف أى محاله . و(يشهدون) من الشهادة . فالزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أى شهادة الزور أو بالزور . وقد أشار الزمخشرىّ للوجهين بقوله : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه . لأن مشاهدة الباطل شركة فيه. ولذلك قيل فى النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة ( هم شركاء فاعليه فى الإثم ) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه. لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم فى النظر إليه. ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور. انتهى وهى الكذب متعمداً على غيره

قال المبرد فى (الكامل) : ويروى عن ابن عباس فى هذه الآية ( وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) قال : أعياد المشركين. وقال ابن مسعود: الزور الغناء. فقيل لابن عباس: أو ما هذا فى الشهادة بالزور؟ فقال: لا، إنما آية شهادة الزور[1] ( وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ) « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً » أى اتفق مرورهم بأهل اللغو، وهو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح، مرّوا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى[2] ( وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ) ويدخل فى ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن ( كراماً ) جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى وعظوا بها وخوفوا « لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً » أى بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعية ، مجتلين لها

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٣٦ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٥ ] .

بعيون راعية . وإنما عبر بنفي الضد ، تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها (الخرور) على تلك الحالة استعارة بديعة. لما فيها من إسقاطهم عن الإنسانية إلى البهيمية ، بل إلى أدنى منها ، لأنها تسمع وتبصر ، وقد نفيا عنهم .

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى ، وزيادة إيمانهم إذا تلي عليهم الذكر الحكيم ، آيات عديدة . ولذا قال قتادة فيهم: هم قوم عقلوا عن الله، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. ويرحم الله الحسن البصريّ، فقد قال: كم من رجل يقرؤها، ويخر عليها أصم أعمى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ) أي أولاداً وحفدة ، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس ، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل . و ( قرة العين ) إما من القر وهو البرد . لأن دمعة السرور باردة، ولذا قيل في ضده (أسخن الله عينه ) أو من القرار لعدم النظر لغيره ، وجوز في (من) أن تكون بيانية وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات. وقوله تعالى « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً » أي أئمة . اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، مع رعاية الفواصل. أي يقتدى بنا في الخير. أو هداة دعاة إلى الخير. فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً . قال في ( الإكليل ) : في الآية طلب الإمامة في الخير . وفي ( العجائب ) للكرمانيّ : قال القفال وغيره من المفسرين : في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب . انتهى .

وكذا قال الزمخشريّ ، عن بعضهم : إن فيها ما يدل على أن الرياسة في الدين ، يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾

[٧٦] (خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

[٧٧] (قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)

« أُولَـٰئِكَ » إشارة إلى المتصفين بما ذكر . خبر لـ ( عباد الرحمن ) أو مبتدأ خبره « يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » أى على مشاق المجاهدات فى الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على الخيرات ، واجتناب المحظورات . و ( الغرفة ) الدرجة العالية من المنازل فى الجنة « وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً » أى تحييهم الملائكة وتسلم عليهم . أو يحيّي بعضهم بعضاً ويسلم عليه . والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » لسلامة أهلها عن الآفات ، وخلودهم أبد الآباد .

« قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » أى لا يبالى بكم ولا يبقيكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده . فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مرّ .

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم ، أو يتصور ، وقد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » أى بما جاءكم من الحق . أى وقد تلى عليكم سنة من كذب وأصرّ « فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً » ( اللزام ) مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة . أى فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم ، أو الأمر الجليل ، أمر الرسالة ، لازماً وثابتاً . يفتح من الحق رتاجاً . وتدخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولقد صدق الله وعده . ونصر عبده وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده .

---

تم هذا الجزء بحمده تعالى ، ضحوة السبت فى ٨ صفر الخير ، فى سدة جامع السنانية ، بدمشق عام ـ ١٣٢٥ ـ بيد جامعه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح ، القاسمىّ الدمشقىّ عفا عنه مولاه . آمين .

---

تم الجزء الثانى عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى ، الجزء الثالث عشر ، وفيه تفسير : ( ٢٦ ـ الشعراء ، ٢٧ ـ النمل ، ٢٨ ـ القصص ، ٢٩ ـ العنكبوت ، ٣٠ ـ الروم ، ٣١ ـ لقمان ، ٣٢ ـ السجدة ، ٣٣ ـ الأحزاب ) .

---

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

### الجزء الثالث عشر

وفيه تفسير : ( من ٢٦ ـ سورة الشعراء إلى ٣٣ ـ سورة الأحزاب )

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

### الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

## كلمة

مصلح العصر الإمام

### السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

### الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٦ - سورة الشعراء

هى مكية، إلاقوله تعالى[١] «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ» إلى آخرها. وقوله[٢] «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة ، رضى الله عنهم .

وقال الدانى: رُوِىَ بسند صحيح أنها نزلت فى شاعرين تهاجيا فى الجاهلية ،مع كل واحد منهم جماعة . فالسورة على هذا كلها مكية . انتهى .

وقال المهايمىّ : سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء ، لأن الشاعر ، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لايتصور منه الهداية ، وإن كان صادقاً لايتصور منه الافتراء على الله تعالى ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ، انتهى .

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها ، لبيان أنهم فى معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه ، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًّا لفريتهم.

ولما كان لفظ (الشعراء) عامًّا ، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له ، لا لأنه نزل فيه خاصة دون غيره . وسيأتى ، إن شاء الله تعالى ، إيضاح ذلك . وهى مائتان وسبع وعشرون آية .

قال ابن كثير : وقع فى تفسير مالك المروىّ عنه ، تسميتها ( الجامعة ) .

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٧ ]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( طسٓمٓ )

« طسٓمٓ » سبق فى سورة البقرة الأقوال فى هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فمحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ )

« تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتفخيم ، ومحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو بدل مما قبله . والمراد بـ(الكتاب) القرآن . وبـ(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من ( أبان ) بمعنى بان ـ أو المبين للحق من الباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ )

« لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ » أى قاتل « نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ )

« إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ » أى ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتۡ

أَعْنَـٰقُـهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ » أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الـكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما ، فلا وجه للطمع فيه ، والتألم من فواته . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] ( وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ )

«وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ »أى مكذبين، استهزاء وإصرارا على ما كانوا عليه من الـكفر . وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء ، وتحقيق معنى قوله تعالى ( محدث ) فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ )

«فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه ، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحلول الذل بهم، ونزول الصَّغار وقتئذ بدارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ )

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »أى صنف مرضىّ كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » لصرفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم فى هذه الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ » أى ليوازرنى ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أي ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ » وهو قتل القبطيّ ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ » مزيد تسلية لهما ، بكمال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم، ليمد أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .

ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى. لجواز بقاء المعنى الحقيقيّ معها، وهو هنا كذلك. فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

[١٧] ( أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ )

« فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ )

[١٩] ( وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ )

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ » يعنى قتل القبطيّ . « وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ )

« قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّآلِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل . أو الذاهبين عن صواب الحلم والعفو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ )

« فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ، فنجانى الله منكم، وزادنى إنعاماً « فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال دعواك الربوبية، واستئصال شُبَه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ )

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ، ببيان أنها فى الحقيقة نقمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبيداً مسخرين فى شئونه ، مذللين لأموره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام، وإن لم ينله من ذلك ما نالهم ، إلا أنه لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلَّ به ، كما قيل ( وظلم الجار إذلال المجير ) أى لا يفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فحواها تقريعه بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة الغالية التى من ورائها الفرج القريب ، والمخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَٰلَمِينَ )

[٢٤] ( قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ )

[٢٥] ( قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ )

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود. وإنما عدّه جديراً بأن يتعجبوا منه، لأنهم، على ماحققه المؤرخون، غلوا فى عبادة الأصنام وتعديد الآلهة غلوًّا أربوا على كل من سواهم فى الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوامّ ، وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[٢٧] ( قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ )

[٢٨] ( قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ )

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ماعقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئًا ما، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لا يقر بخالق، ولا يعترف بمعبود.

لظاهر قوله(١) ( مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .

قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقرًّا بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر . انتهى .

وقدمنا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين . وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله ( مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته فى ربوبيته التى ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد فى الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، ويغمز جبروته ؛ وهذا هو الذى أذهب إليه ، فإن القوم بمعزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازىّ : السؤال بـ(ما ) طلب لتعريف حقيقة الشىء . وتعريف حقيقة الشىء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشىء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف . فلو عرف الشىء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمور الداخلية فيها ، فهاهنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن

(١) [ ٢٨ / القصص / ٣٨ ] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية. وأظهر آثار ذات واجب الوجود،هو هذا العالم المحسوس ، وهو السمٰوات والأرض ومابينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون ( وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله ( إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ) فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السمٰوات والأرض ومابينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب

ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله ( أَلَا تَسْتَمِعُونَ ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعنى أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأنا إذا قلنا فى الشيء أنه الذى يلزمه اللازم الفلانىّ ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزوميّة والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثانى محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلانىّ ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة ، لأنه لا يمتنع فى العقل اشتراك

الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه ربًّا للسموات والأرض وما بينهما جوابًا عن قوله (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهى غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحال وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر فى أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت، لأنك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

ثم قال الرازىّ : وقد بينا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى(١) :(وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٨ ] .

فَوْقَ عِبَادِهِۦ ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هى ، هى غير معقولة للبشر . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم فى ( المِلَل والنِّحَل ) فى الكلام فى المائية : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو، إلى أن الله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره. قال ابن حزم : والذى نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائية هى إنيّته نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو البارئ ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سأله فرعون ( ومارب العالمين ) ؟ ونقول أنه لا جواب هٰهنا لا فى علم الله تعالى ولا عندنا، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تامًّا لا نقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : هٰهنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا هٰهنا أيضا شىء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى (1): ( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْماً ) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفىّ عن الله عز وجل ، وواجب فى غيره ، لوقوع العدد المحاط به فى أعراض كل ما دونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقًّا، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ )

[٣٠] ( قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ )

[٣١] ( قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ )

(1) [ ٢٠ / طه / ١١٠ ] .

[٣٢] ( فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ )

[٣٣] ( وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ )

[٣٤] ( قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ )

[٣٥] ( يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ )

[٣٦] ( قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ )

[٣٧] ( يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ )

[٣٨] ( فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ )

[٣٩] ( وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ )

« قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » قرئ بهمز وبدونه ، وهما لغتان . يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته . والمعنى أخرهما ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ » أى شرطا يحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خامر فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ )

[٤١] ( فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ )

[٤٢] ( قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ )

[٤٣] ( قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ )

[٤٤] ( فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ )

[٤٥] ( فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ )

[٤٦] ( فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ )

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موّهوا به إفكا وزورا « فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن مثله لايتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لاحقيقة له، وأن التبحر فى كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية، فإن هؤلاء السحرة، لتبحرهم فى علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضى والشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

[٤٨] ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾

[٤٩] ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[٥٠] ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

[٥١] ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

« قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أى فعلكم شيئاً دون شيء ، ولذلك غلبكم. أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه؛ كى لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حقّ .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ » أى جانبين متخالفين . « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أى لا ضرر علينا فى ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع ، لأنا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيّته ، إلى ثوابه ورحمته راجعون، فننقلب خير منقلب، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن » أى لأن « كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من أظهر الإيمان كفاحا، مجاهرة بالحق بلا تقية. ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيحائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهىّ به ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ» أى سِرْ بهم ليلًا، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدركم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ)

« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ » أى حين أخبر بسراهم « فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ » أى جامعين لعسكره ، قائلين ما يقلل به الأعداء فى أعين الجنود :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ » أى بنى إسرائيل الخارجين « لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ » أى يفعلون أفعالًا تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ » أى من مكرهم وسعيهم بالفساد فى الأرض « فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ )

« كَذَٰلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو فى محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمحذوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر ( الأمر كذلك ) فالمراد تقريره وتحقيقه، والجملة معترضة حينئذ كالتى بعدها . « وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تمليك الإرث بعد زمان . وكأن العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ )

« فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ )

[٦٢] ( قَالَ كَلَّآ ، إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ )

[٦٣] ( فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ، فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ )

« فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى لملحقون « قَالَ كَلَّآ » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

اُضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ » أى فضرب به فانفلق « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ »
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ )
[٦٥] ( وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ )
[٦٦] ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ )
[٦٧] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )
[٦٨] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

« وَأَزْلَفْنَا » أى قرّبنا « ثَمَّ » أى حيث انفلاق البحر « ٱلْآخَرِينَ » يعنى قوم فرعون ، أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ » أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ » أى بإطباقه عليهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ما جاء به . منهم من بقى على كفره كبقية القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسلية للنبىّ صلوات الله عليه . ووعد له ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ )
[٧٠] ( إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ )
[٧١] ( قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ )

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ » أي على مشركي العرب « نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ » أي ماالذي تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم ، أن مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء « قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ » أي مقيمين على عبادتها لا نتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » أي مثل عبادتنا يعبدون ، فقلدناهم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مماذكر من السمع والمنفعة والمضرّة بالمرة . واضطروا إلى إظهار أن لاسندلهم سوى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧٨] (ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ »
أى أفأبصرتم ، أو أتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائى « إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي فى الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره. ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ » أى إلى كل ما يهمنى من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهدى كلا لما خلق له . والموصول صفة ا ( رب ) وجعله مبتدأ وما بعده خبراً ـ غيرُ حقيق بجزالة التنزيل . قاله أبو السعود .

« وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ » أى يرزقنى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيي به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيّ كثيراً .

«وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» أى إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما منه ، لمراعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى كما قال الخضر(١) ( فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ) وقال(٢) ( فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ) وكقول الجن فى آية(٣) (أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)ولأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

«وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ» فإنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب ؟ أجيب كما فى ( الانتصاف ) : بأن الموت

---

(١) [١٨ / الكهف/ ٧٩] . (٢) [١٨/ الكهف / ٨٢] . (٣) [٧٢/الجن/١٠].

قدعلم به بأنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عامّ لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت ؛ فالتأسى بعموم الموت لعله يُسقط أثر كونه بلاء، فيسوغ فى الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً . فاقتضى العلوّ فى الأدب مع الله تعالى، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار ذلك السبب الذى لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتًّا وجزماً ، لأنه أمر لابد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال ( وَإِذَا مَرِضْتُ ) وكان ممكناً أن يقول والذى يمرضنى فيشفينى ، كما فى غيره. فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإماتة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى ( وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٢] ( وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ )

«وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى الجزاء . وخطيئته ما كان يراها هو صلوات الله عليه ويعدّها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر،وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه السلام، مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته، فى الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر، وفنون المعاصى والخطايا؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر فى الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبيّن ، ولأن فى ذلك تهويلًا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه ، حمله ذلك على مناجاته، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] ( رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ )

[٨٤] ( وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ )

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكما بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة. « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقنى لأنتظم فى سلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق . « وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ذكراً جميلًا بعدى ، أذكر به ويُقتدى بى فى الخير كما قال تعالى[1]: ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ) .

قال القتيبيّ : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى[2] :

إنِّى أتتنى لسانٌ لا أُسَرُّ بها ... من عُلْوَ ، لاعَجَبٌ منها ولاسَخَرُ

وجوّز أن يكون المعنى: واجعل لى صادقاً من ذريتى، يجدّد أصل دينى ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد. وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم[3] (أنا دعوة

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٨ ـ ١١٠ ] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبى ) عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ: إنى عبد الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك. دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبى إبراهيم ) ، فالكلام بتقدير مضاف. أى صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ )

[٨٦] ( وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ )

« وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ » أى بهدايته وتوفيقه للإيمان . كما يلوح به تعليله بقوله « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ) الخ.. كقوله[1]:(رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى[2] ( وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ )وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى[3] ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ) إلى قوله (وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ )

[٨٨] ( يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ )

[٨٩] ( إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ )

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لا تلحق بى ذلًّا وهواناً يومئذ « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يعهدون

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٤١ ] . (٢) [ ٩ / التوبة/ ١١٤ ] . (٣) [الممتحنة/٥].

فى الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الـكفر والنفاق والخصال المذمومة والملـكات المشئومة .

قال الزمخشرىّ :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولاتسمع. وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فـكسره وأخرجه من أن يكون شبهة،فضلاً أن يكون حجة. ثم صور المسألة فى نفسه[1] دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه، إلى حين وفاته، مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الـكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تـكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليهـا ويغتبطون

---

(١) أى بقوله( فَـإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ) على معنى أنى فـكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدوّ وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادةَ مَن الخير كله فى يده. وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه. فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدوٌّ لـكم) لم يكن بتلك المثابة، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى، وبهذه الآيات الـكريمة وأمثالها ردّ على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمىّ فى زعمه أن القرآن خال من التخلص، وهو زعم فاسد. لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطيفة تلائم بين الـكلام الذى أخرج منه والـكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير فى ( المثل السائر ) فراجعه . اهـ مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[٩١] ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾

[٩٢] ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾

[٩٣] ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾

[٩٤] ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾

« وأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » أى الضالّين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار . وهو قوله تعالى « فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَٱلْغَاوُۥنَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشرىّ : والكبكبة تكرير الكب ـ وهو الإلقاء على الوجه ـ جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

[٩٦] ( قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ )

[٩٧] ( تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

[٩٨] ( إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

« وَجُنُودُ إِبْلِيسَ » أى متبعوه من العصاة «أَجْمَعُونَ* قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »أى فى العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ )

« وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ »أى رؤساؤهم، كما فى آية[١] ( رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا )

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ )

[١٠١] ( وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ )

« فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء. لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى[٢] ( ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ) قال الزمخشرى: و(الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهمه ما يهمك. أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتدّ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٧ ] .      (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٦٧ ] .

ويحمى ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهماته . وهذا هو الذى قيـل ( إنه أعز من بيض الأنوق ) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١٠٣] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

[١٠٤] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر. وتقدم ماقاله الزمخشرىّ فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم » أى أكثر قوم إبراهيم « مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[١٠٦] ( إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ )

[١٠٧] ( إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ )

[١٠٨] ( فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١٠٩] ( وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[١١٠] ( فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١١١] ( قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ )

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم فى أصول الشرائع . وهو نفى الشريك وإثبات البارئ وتوحيده. أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ » يعنون من كان وضيع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنشب. والحسب والنسب، لابالأخلاق الفاضلة. والملكات الكاملة . التى تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق فى مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لامال يطغيهم . ولا جاه يلهيهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشرىّ : وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال ( ضعفاء الناس ) قال ( مازالت أتباع الأنبياء كذلك ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] ( قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

« قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أى وما علىّ إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] ( إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ )

[١١٤] ( وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١١٥] ( إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

[١١٦] ( قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ )

[١١٧] ( قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ )

[١١٨] ( فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

« إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى » أى ماحسابهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم «لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ » أى المشتومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشرىّ : الفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كما سمى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات . وفى ( التهذيب ) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك . قال الأشعر الجُعْفىّ(١) .

ألا مَنْ مُبْلغٌ عمراً رسولًا فإنى عن فُتَاحتِكُمْ غَنِىُّ

« وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] ( فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ )

[١٢٠] ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ )

[١٢١] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى ( طبعة بيروت )

[١٢٢] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[١٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

[١٢٤] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

[١٢٥] ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

[١٢٦] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

[١٢٧] ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

[١٢٨] ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾

« فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً » أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « ءَايَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهـــذا أنـكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف للأموال فى غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

فى الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] ( وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ )

«وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » أى تأخذون بالعنف والشدة ، كبرا وعتوًّا . يقال ( بطش به ) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١٣٢] ( وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ )

[١٣٣] ( أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ )

[١٣٤] ( وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ )

« فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى فيما آمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » أى فاشكروا نعماءه ، وارعوا بتقواه آلاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] ( إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ )

« إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »أى فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] ( قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ )

« قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ » أى : فإنا لن نرعوى عما نحن عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] ( إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ )

« إِنْ هَٰذَآ » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئتنا به إلا عادة الأولين . كانوا يلفقون مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٨] ( وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ )

[١٣٩] ( فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

[١٤٠] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

[١٤١] ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[١٤٢] ( إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ )

[١٤٣] ( إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ )

[١٤٤] ( فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١٤٥] ( وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ )

[١٤٦] ( أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ )

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى على مانحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ » أى بريح صرصر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ » أى من الموت والزوال والعذاب .

قال الزمخشرىّ : يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يُزالون عنه . وأن يكون تذكيراً بالنعمة فى تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة . وقوله تعالى ( فِى مَا هَـٰهُنَآ ) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] ( فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ )

[١٤٨] ( وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ )

[١٤٩] ( وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ )

[١٥٠] ( فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١٥١] ( وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ )

[١٥٢] ( ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ )

[١٥٣] ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾

« فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ » أى لطيف لين « وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ » أى بطرين . وقرئ ( فرهين ) وهو أبلغ . وقيل : فاره من ( فرُه ) بالضم ، بمعنى حـذق . وفرِهٌ صفة من ( فرِه ) كفرح ، بمعنى أشِر وبطر « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ » أى الذين سُحِروا حتى غلب على عقولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

[١٥٥] ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾

[١٥٦] ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾

[١٥٧] ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾

[١٥٨] ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ، وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

[١٥٩] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[١٦٠] ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

[١٦١] ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

[١٦٢] ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾

[١٦٣] ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

[١٦٤] ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

[١٦٥] ( أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[١٦٦] ( وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ )

« مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ » أى نصيب من الماء « وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لعظم ما تسيئون .

قال الزمخشرىّ: عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب. لأن الوقت إذا عظم بسببه ، كان موقعه من العظم أشد « فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى الموعود ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » أى مجاوزون حدّ الحكمة فى ترك محل الحرث، الحافظ للنسل، الذى به حفظ النوع البشرىّ ، وإيثار ما لم يخلق لذلك، شرَهاً فى الشهوة الحيوانية، ومكافحة لتغيير الأوضاع الربانية .

ونقل السيوطىّ فى ( الإكليل) عن محمد بن كعب القرظىّ، أن معنى الآية: تذرون مثله من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة فى دبرها . انتهى.

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما فى (الكشاف) و(حواشيه) أنّ (مِنْ) إمّا تبيين لما خلق ، أو للتبعيض . ويراد به العضو المباح منهن ، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم. ومن الوجه الثانى يستدل على حظر إتيان المرأة فى غير المأتى. وتقريره فى (الانتصاف) أن (مِنْ) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج. ولا شك أن ترك الأزواج

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر . ولو كان الأمر كذلك ، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين . وقد اجتمعت العامة ـ عامة القراء ـ على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلًا . فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد . فتعين حمل (مِنْ) على البعضية . فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار : أحدهما إتيان الذكران . والثاني مجانبة إتيان النساء في المأتى ، رغبة في إتيانهن في غيره . وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلالِ كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير . انتهى .

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً ، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم ، أعمّ مما ذكره ومن غيره . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾

« قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ » أي عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ » أي من قريتنا عنفاً ، إذ لا تجانسنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾

[١٦٩] ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

« قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ » أي المبغضين غاية البغض. أي فأنا أرغب في الخروج عن دياركم ، والراحة من مجاورتكم ، لبغضي لعملكم ، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار . ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ » أي من شؤمه وغائلته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] ( فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ )

[١٧١] ( إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ )

[١٧٢] ( ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ )

« فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته . كما بينت فى آيات « فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ » أى مقدّراً كونها من الباقين فى العذاب . لأنها كانت راضية بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : كثيراً ماورد فى القرآن، خصوصاً فى هذه السورة ، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول فرعون(١) ( لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ) وقولهم(٢) ( سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ) وقولهم(٣) ( لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ) وقوله(٤) ( إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ) وقوله تعالى(٥) فى غيرها ( رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ) وكذلك(٦) (ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ) وأمثاله كثيرة . والسر فى ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل، إنما يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يُفهم أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة، كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان فى ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير.

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٩ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ١٣٦ ] .
(٣) [ ٢٦ / الشعراء / ١١٦ ] . (٤) [ ٢٦ / الشعراء / ١٦٨ ] .
(٥) [ ٩ / التوبة / ٨٧ ] . (٦) [ ٩ / التوبة / ٨٦ ] .

وانظر إلى المساق وهو قوله ( رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ) كيف ألحقهم لقبا رديئا، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام فى جميع مايرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ )

[١٧٤] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

[١٧٥] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

[١٧٦] ( كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ )

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا »أى عظيما غير معهود، هلكوا به «فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . ووهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون ( مدين ) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ماحوتها من الأيكة ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد .

قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (ليكة) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها. وفى الحجر وقٓ ( الأيكة ) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون ( الأيكة ) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وحمزة وصلا ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو على الفارسيّ وغيره، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح. أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الحمر ولحمر) وإثبات الألف واللام فى (الأيكة ) فى سائر القرآن يدل ـ كما قال الزجاج ـ على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (لحمر ) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع. لكن قال الزمخشريّ : هو الوجه. ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة، بوزن ليلة ، اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف. وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ. كما يكتب أصحاب النحو ـ لأن ولولى ـ على هذه الصورة، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن ( ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] ( إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ )

[١٧٨] ( إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ )

[١٧٩] ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ )

[١٨٠] ( وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

[١٨١] ( أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ )

« إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ » أى أتموه « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ » أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] ( وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ )

[١٨٣] ( وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ )

«وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ »أى بالميزان السوىّ «وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ» أى لا تنقصوهم حقوقهم. قال الزمخشرىّ : وهو عام فى كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعيًّا . «وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »أى بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] ( وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٨٥] ( قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ )

[١٨٦] ( وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ )

« وَٱتَّقُواْ » الله « ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : وذوى الجبلة الأولين ، وهم من تقدمهم من الخلائق «قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى فيما تدّعيه من النبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٧] ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ )

[١٨٨] ( قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ )

« فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » قطعا منها . قرىء ( كسفاً ) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع ( كسفة ) « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] ( فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ )

« فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لحلول العقاب فيهم ، من جنس ما سألوه من إسقاط السماء قِطَعاً عليهم. فقد أظلتهم سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوّ فوقهم، وغشيهم العذاب وأحاط بهم . و ( الظلة ) بالضم لغةً ، الغاشية ، وما أطبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كلُّ موطن بصفة تناسب ذلك السياق. فى (الأعراف)ذكر أنهم[١] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ) وذلك لأنهم قالوا[٢] ( لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبيّ الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال[٣] (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم[٤] ( أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ) وههنا قالوا ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ) الآية، على وجه التعنت والعناد. فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ).انتهى

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٩١ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٨٨ ] .
(٣) [ ١١ / هود / ٩٤ ] . (٤) [ ١١ / هود / ٨٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ )

[١٩١] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ )

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً » أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة.

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف كرر فى هذه السورة، فى أول كل قصة وآخرها، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس ، وتثبيتا لها فى الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب، وأرسخ فى الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْفٌ عن تدبره ، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهنا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اهـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩٢] ( وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

[١٩٣] ( نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ )

[١٩٤] ( عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ )

[١٩٥] ( بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ )

« وَإِنَّهُۥ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى منزل منه حقا « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك المزية الجليلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعذار « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » أى واضح المعنى جلىّ المفهوم ، ليكون قاطعا للعذر ، مقيما للحجة ، دليلا إلى المحجة . والجار متعلق بـ(نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] ( وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٩٧] ( أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ )

« وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم. مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها. فكفى بذلك شهيدا على صدقه « أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً » أى علامة على تنزيله الحق « أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها، كما قال تعالى(١) ( وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] ( وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ )

[١٩٩] ( فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ )

[٢٠٠] ( كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ )

[٢٠١] ( لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ )

(١) [ ٢٨ / القصص / ٥٣ ] .

[٢٠٢] ( فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

[٢٠٣] ( فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ )

[٢٠٤] ( أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ )

[٢٠٥] ( أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ )

[٢٠٦] ( ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ )

[٢٠٧] ( مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ )

[٢٠٨] ( وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ )

[٢٠٩] ( ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ )

« وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ » أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذى لايحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفتق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا. ولتمحّلوا لجحودهم عذرا . ولسموه سحراً ، لفرط عنادهم « كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى مكّنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ماهو ، عياذا به منه «أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ*ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ* مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعايش « وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل ينذرونهم لأجل الموعظة والتذكرة « وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ لمازعمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ماتلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعْزُولُونَ » لانتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ)

[٢١٨] (ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ)

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » أى الأدنين . وإنه لايخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل. وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] لما نزلت عليه: ( يافاطمة ابنة محمد! ياصفية ابنة عبد المطلب ! يابنى عبد المطلب ! لاأملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار ) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجعه . وقوله تعالى « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى لين جانبك لهم. مستعار من حال الطائر. فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجد « وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ » أى المصلين. أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود، إذا أممتهم . يعنى: يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلا وجمعا وفرادى. أو معنى الآية: لايخفى عليه حالك ، كلما قمت وتقلبت مع الساجدين، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى[2] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ )

[٢٢١] ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ )

[٢٢٢] ( تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ )

« إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى لماتقوله وبما تنويه « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ » أى ( تتنزل ) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع تنزلهم بالقرآن « تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالى بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٦ ـ سورة الشعراء ، ٢ ـ باب وأنذر عشيرتك الأقربين، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [ ٥٢ / الطور / ٤٨ ].

وحيث كان المقام النبوىّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه .

قال القاشانىّ : لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة فى الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل. فمن تجرد عن صفات النفس، وترقى إلى جناب القدس ، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى ( قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ) تقرير لقوله تعالى ( وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَايَسْتَطِيعُونَ ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] ( يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ )

[٢٢٤] ( وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ )

[٢٢٥] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ )

[٢٢٦] ( وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ )

« يُلْقُونَ » أى الأفاكون « ٱلسَّمْعَ » أى إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم « وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ » أى فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا فى حق القرآن الكريم ، من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادّة لأحواله عليه الصلاة والسلام. والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون المخيلات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم ( أى يجاريهم ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم ) الغاوون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليـــه . قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون، وتقرير له. أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم، لا يقفون عند حدّ معيّن ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب[1] بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلوّ فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها ـ لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تنزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسيب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشق والهيام بها. والغزل: التغزل وذكر صفات النساء، وذكر الميل لهن. والابتهار: الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته. اهـ. خفاجى.

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وفاز بجملة الملكات الأنسية ، مستقرًّا على المنهاج القويم ، مستمرًّا على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكّت كل مفلق ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدًّا . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ـ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد[1] فى (الطبقات) والزبير بن بكار فى كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عَدِىّ بن نَضْلَة على مَيْسان، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِى زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِى دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَنْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِى فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِى ... وَلَا تَسْقِنِى بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال: إى والله! إنه ليسوؤنى ذلك . ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر ( بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ) . أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعلَ أميرَ المؤمنين يَسُوؤهُ ... تَنَادُمُنَا بالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت) فى ترجمة عدىّ بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتك ) .

فلما قدم على عمر . بكّته بهـذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ماشربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لاتعمل لى عملا أبدا ، وقد قلتَ ما قلتَ .

فلم يذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمّنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمّه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشريّ عن الفرزدق[1] أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَبِتْنَ بِجَانِبَىَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحدّ . فقال : ياأمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحدّ بقوله ( وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] ( إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ، وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ، وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ )

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم ، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَٱنتَصَرُواْ » أى بشعرهم على عدوّهم بأن هجوه « مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ » أى فكان هجاؤهم على سبيل

---

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطلعها :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله[١] ( لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ) وقال تعالى[٢] ( فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ) قال ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان[٣] : ( اهجهم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك ) ويروى الإمام أحمد[٤] عن كعب بن مالك أنه قال للنبىّ ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبىّ ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذى نفسى بيده ! لكأن ماترمونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى ( الإكليل ) : فى قوله تعالى ( وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ) الآية ، ذم الشعر ، والمبالغة فى المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه فى الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشرىّ عن عمرو بن عبيد ، أن رجلا من العلوية قال له : إن صدرى ليجيش بالشعر . فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام .

الثانى ـ ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبكون . قالوا: قد علم الله حين أنزل

(١) [ ٤ / النساء / ١٤٨ ] .    (٢) [ ٢ / البقرة / ١٩٤ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ )

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبيّ ﷺ ( إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ) قال : أنتم .

قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات فى شعراء الأنصار ؟ وفى ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه . كما قال[1] عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، لما أسلم :

يارسولَ المليكِ إنّ لسانى رَاتِقٌ مافتَقْتُ ، إذْ أَنَا بُورُ
إذْ أُجارِى الشيطانَ فى سَنَنِ الغَىِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبىّ ﷺ فهو ابن عمّه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ . انتهى . وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد ، لما فى (سيعلم) من تهويل متعلقه . وفى ( الذين ظلموا ) من إطلاقه وتعميمه . وفى ( أى منقلب ينقلبون ) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ )

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٧ – سورة النمل

قال المهايمي : سميت بها ، لاشتمالها على مقالتها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ )

[٢] ( هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ )

[٣] ( ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ )

« طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلوّ الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار . « هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى ( الكشاف ) .

ولصاحب ( الانتصاف ) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام ( وهم يوقنون بالآخرة ) ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به، فوقع فاصلا بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلى المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما ، فطرّى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى على حاله مقدما : ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجِّلْ ذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الـ ... الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلِلْنَاهُ بَجَلْ

والأصل ( وألحقنا بذا الشحم ) فوقع منتصف الرجز أو منتهاه ( على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام. وبنى الشاعر على أنه لابد، عند المنتصف أو المنتهى، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعْدًا بين المعرّف وآلة التعريف . فطرّاها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ )

[٥] ( أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ )

[٦] ( وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ )

[٧] ( إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ )

[٨] ( فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ » أى مددنالهم فى غيّهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاءً على ما كذّبوا به من الدار الآخرة والجزاء على الأعمال كما قال[1] تعالى ( وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) « أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ » أى أشد الناس

(١) [ ٦ الأنعام / ١١٠ ] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقنه من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليّها وخفيها . فخبره هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال[1] ( وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ) والجملة مستأنفة، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجليلة. وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذلّ معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه« إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ » أى حين قفل من مدين إلى مصر، وأضَلَّ الطريق « إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا » أى رأيتها « سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »أى عن الطريق «أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة« لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تتدفئون به «فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا» أى بورك مَن فى مكان النار ومَن حول مكانها. ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبَىّ (تباركت الأرض ومن حولها ) وعنه : بوركت النـار . والذى بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها، حدوث أمر دينىّ فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها ويبثّ آثار يمنـه فى أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة ؟ كذا فى ( الكشاف ) .

وقال السمين : ( بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول: باركك الله، وبارك عليك، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ ( من ) إما البارى تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله ( وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ ( من ) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشرىّ : والظاهر أنه عامّ فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

(١) [ ٦/ الأنعام/ ١١٥ ] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة فى قوله[1] ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وحقت أن تكون كذلك. فهى مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحى إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .

ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هى بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه فى أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبىّ : هذا تحية من الله تعالى لموسى، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا[2] ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ .

وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .

وعنه : هى نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ( إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره ) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من فى النار ومن حولها .

قال ابن كثير: وأصل الحديث مخرج فى صحيح مسلم[3] من حديث عمرو بن مرّة «وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ» أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شىء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلىّ العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام ما لا يليق من التشبيه. ثم إن موسى عليه السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لا ملك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية ، فقال سبحانه :

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٧١ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٧٣ ] .
(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

[١٠] ( وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ )

[١١] ( إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

[١٢] ( وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ، فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ )

« يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » وفى إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع. وهو الإشارة الجُمْلية إلى روح إرساله عليه السلام. أى: أنا الله لا تلك المعبودات التى عكف عليها قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد، الحكيم فى البعثة والإرسال، والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحا على أنه القادر على كل شىء، بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ » هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة وأكثره اضطرابا « وَلَّىٰ » أى من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع على عقبه من شدة خوفه « يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى لحفظى لهم وعنايتى بهم وعصمتى إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، مالم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى « إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ » استثناء منقطع. استدرك به ما عسى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شىء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطيّ والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشريّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ، وسماه ظلما كما قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أي آفة كبرص « فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ » أي غيرها تؤتاها ، إذا جحد فرعون رسالتك . وهي ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قملا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام كثيف ، على ماروي . وفي (تسع) أوجه: أحدها أنها حال ثالثة. أي تخرج آية في تسع آيات. والثاني أنها متعلقة بمحذوف ، أي اذهب في تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ ) أي في جملة تسع آيات. و(في) بمعنى (مع) « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » أي مرسلا بها إلى فرعون « وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ » أي خارجين عن الحدود، في الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ )

[١٤] ( وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ )

[١٥] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ، وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١٦] ( وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ )

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً » أي ظاهرة بينة « قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا » أي كذبوا بها بألسنتهم « وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ » أي عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا، لاسيما عند إلقاء السحرة ساجدين « ظُلْمًا » أي للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله[١] ( بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ) ولقد ( ظلموا بها ) « وَعُلُوًّا » أي تكبراً عن الانقياد لموسى « فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أي من إهلاكهم بالإغراق ، لغرقهم فى بحر الفساد والإفساد « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » أي بالقضاء بين الناس ، وحكمة باهرة « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » أي العلم والحكمة والنبوة أو الملك « وَقَالَ » أي تحدثا بنعمة الله وتنويها بمنته « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » أي فهم صوته « وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » أي البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ[٢] ( أنا سيد ولد آدم ولا فخر ) أي أقول هذا القول شكرا ، ولا أقوله فخراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ )

[١٨] ( حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

(١) [ ٧ / الأعراف / ٩ ] . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة، ١٣ ـ باب فى التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] ( فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ )

[٢٠] ( وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ )

[٢١] ( لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ )

[٢٢] ( فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ )

[٢٣] ( إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ )

[٢٤] ( وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ )

[٢٥] ( أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ )

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ » أى جمع له عساكره « مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ » أى رأتهم متوجهين إلى واديها « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمور ، وابتهاجا بما خصه الله تعـالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود « وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ » أى ألهمنى شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى فلبث فى الغيبة أمداً غير طويل « فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ » وهى مدينة « بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى سرير تجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا » أى هلّا يسجدون . كما قرىء بذلك . وجوّز بعضهم أن يكون معمولا لما قبله. أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ » أى يظهر ماهو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرىء بالتاء والياء على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إما مستأنفة من كلامه تعالى، أو محكيّة عن قول الهدهد. واستظهر الزمخشريّ الثـانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد، لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النّظار بنور الله، مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ)

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ » أى المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شيء. فما أصغر عرشها فى جنب عظمته ! وما أضعف معبودها ـ الشمس ـ فى جانب قدرته!

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجدات . قال الزمخشريّ : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها. وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

[٢٨] (ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ)

[٣٠] (إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ » أى حسن مضمونه وما فيه « إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » أى لا تتكبروا علىّ ، وأتونى منقادين لأمرى « قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أى لا أبتّ

أمراً إلا بحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ )

[٣٤] ( قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ )

[٣٥] ( وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ )

« قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ » أى فى العَدد والعُدد « وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظرى ما هو أبقى لشرفك وملكك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسالمة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوّها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدوّ فى قرية العدوّ . وإلا تعيّن الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً » أى عنوة وقهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخربوها « وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم ، وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملئه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[٣٧] (ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ)

[٣٨] (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٩] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ)

[٤٠] (قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ» أى المرسلون منها «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ» أى من الملك والحكمة والنبوة « خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم » أى فلا أبالى بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية « بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » أى إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً «ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ » أى مهانون « قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أي ليختبرني أأشكر بالطاعة والعمل بالشريعة ، أم أكفر بالمعصية والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » كقوله[1] ( مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ) وكقوله[2] ( وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ )

[٤٢] ( فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ، وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ )

« قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » أي اجعلوه متنكراً متغيرا عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس « نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أي لمعرفته « فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ » قال المهايميّ : لم تقل ( هو هو ) خوفا من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا ( لا ) خوفا من التجهيل .

وقال الزمخشريّ : لم تقل ( هو هو ) ولا ( ليس به ) وذلك من رجاحة عقلها . حيث لم تقطع في المحتمل . أي : فأتت بـ ( كأن ) الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن ( كأن ) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك، وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب ( الانتصاف ) فرقا بين ( كأن ) و ( هكذا ) في التشبيه. وعبارته:

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٦ ] و [ ٤٥ / الجاثية / ١٥ ] . (٢) [ ٣٠/ الروم / ٤٤ ].

وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو)ـ نكتة حسنة . ولعل قائلا يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعا، وإن كانت فى إحداهما داخلة على اسم الإشارة ، وفى الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما ( أعنى اسم الإشارة والمضمر ) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى . ويفضل قولها ( هكذا هو ) بمطابقته للسؤال . فلابد فى اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول: حكمته، والله أعلم، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين . فكاد يقول ( هو هو ) وتلك حال بلقيس . وأما ( هكذا هو ) فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لاغير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذى أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة فى وصفها برجاحة الرأى فى الهداية للإسلام .والتقدير : أصابت فى جوابها وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله. وأوتينا العلم إلخ. وقيل : إنه من كلام بلقيس ، موصولا بقولها (كأنه هو) ، لا من كلام سليمان . كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار .

قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ » أى القصر ، أو صحن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعا من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آتره الله به «فَلَمَّا رَأَتْهُ» أى صحنه « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيما «وَكَشَفَتْ» أى للخوض فيه « عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملّس « مِّن قَوَارِيرَ » أى من الزجاج «قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول ـ روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سندا ولا مخبراً . وما هــذا سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبى شيبة عن عطاء مستحسنا له ، ما مثاله : قلت: بل هو منكر غريب جدا. ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم . كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب. مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ.

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

الثانى ـ أشير فى ( التوراة ) فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطا على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أى أنها تؤدّى له الجزية ، وإن كان ملكه محصورا فى فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكيا جدا ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتكلم فى الشجر ، من الأرز الذى على لبنان إلى الزوفى التى تخرج فى الحائط . وتكلم فى البهائم والطير والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه فى الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه فى ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازَرَ وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر فى أرض البرية . وجاء فى الفصل العاشر من هذا السفر أيضا قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رأته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق مابين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث ـ مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة ، أن فى قوله تعالى ( فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفى قوله تعالى ( وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ) استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

تفقدُ الإخوانِ مُسْتَحْسَنُ ... فمن بَدَاهُ نِعْمَ مَاقَدْ بَدَا
سَنَّ سليمانُ لنــا سُنَّةً ... وكان فيما سنّه مقْتَدَى
تفقّدَ الطـير على مُلْكِهِ ... فقال : مَالِىَ لَا أَرَ الْهُدْهُدَا

وأن في قوله تعالى ( لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ) الآية، دليلا على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى ( قَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى ( قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى ( ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى ( كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدّي : كريم بمعنى مختوم . وأن في قوله تعالى ( قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي ) المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى ( أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في ( الإكليل ) بزيادة .

ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ )

[٤٦] ( قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ )

[٤٧] ( قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ، قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ )

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له. كقوله تعالى[1] ( قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ* قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ) «قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ »أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة. أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمته بالإيمان «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا» أى تطيرنا أى تشاءمنا « بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقائهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه «قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ » أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . قاله الزمخشرىّ .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحا ، وهو ما وليه بميسرته ، أو بارحا وهو ما وليه بميمنته ـ تيمنوا بالأول وتشاءموا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر. ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائرك) « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم. لا ترون حسنا إلا ما يوافق هواكم، ولا شؤما إلا يخالفه. ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وتكذيب صالح عليه السلام، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

---

(١) [ ٧/ الأعراف / ٧٥ و ٧٦ ] .

[٤٩] ( قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ )

[٥٠] ( وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

[٥١] ( فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ )

[٥٢] ( فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ )

«وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أى شأنهم وعادتهم الإفساد ، كما يفيده المضارع وتأكيده بقوله (فِى ٱلْأَرْضِ) الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط) أو (تسعة) « قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ » أى ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذى هو أعظم المعبودين « لَنُبَيِّتَنَّهُۥ » أى لنقتلنّه ليلا . وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض « وَأَهْلَهُۥ » أى من آمن معه . «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ » أى الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ » أى ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم فى الأماكن الكثيرة، فضلا عن مكانه ، فضلًا عن مباشرته « وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ » أى ونحلف إنا لصادقون . أو : والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكَرُواْ مَكْرًا» أى بهذه الحيلة «وَمَكَرْنَا مَكْرًا» أى بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ » أى خالية ساقطة .لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا « بِمَا ظَلَمُوٓاْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أى بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم . وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ )

[٥٤] ( وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ )

[٥٥] (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)

[٥٩] (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا » يعنى صالحاً عليه السلام ومن معه « وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » أى قبحها ومضادّتها لحكمه تعالى وحكمته « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ » أى متجاوزين النساء اللاتى هن محالّ الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » أى يتنزهون عن أفعالنا ويرونها رجساً . قالوه استهزاء « فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ » أى الباقين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا » أى هائلا غير معهود « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشرىّ : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المُسْمِع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفى مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه . وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعوه إلى إيثاره ، من زيادة خير ومنفعة. فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورّط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه[1] عن فرعون (أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التى كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله، كما عددها فى موضع آخر. ثم قال ( هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ) .

لطيفة:

قال ابن القيم فى (طريق الهجرتين) فى هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتمل أن تكون داخلة فى حيزالقول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهى ( الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها النصب محكيّة بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

---

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٥٢ ] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما . فلا يحسن أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرجْ وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى[1] ( قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ) .

فقوله ( وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ ) ليس معطوفاً بالقول وهو ( انظروا ) بل معطوف على الجملة الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى[2] ( قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ) وقوله[3] ( وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلّم على المصطفين من عباده ، والرسلُ أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ )

(١) [ ١٠ /يونس/ ١٠١ ] .(٢) [ ٢١ /الأنبياء/ ١١٢ ] . (٣) [٢٣ /المؤمنون/١١٨] .

[٦١] (أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » إضراب وانتقال، من التبكيت تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السمٰوات والأرض، وأودع فيهما من المنافع مالا يحصى «وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ» أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظار « مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى : أءله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لا يكاد يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى، فى ضمن النفى الكلىّ على الطريقة البرهانية، بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد. قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لا تنكفئ بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها « وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً مانعاً من الممازجة « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء . ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره « أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ »وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من ( الاضطرار ) الذى هو افتعال من

( الضرورة ) وهى الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى(١) « وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » وقال تعالى(٢) ( ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ » وهكذا قال هٰهنا ( أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى ( الجواب الكافى ): إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذلّاً له وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولاسيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبىّ ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

ثم ساقها ابن القيم مسندة .

ثم قال : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظن الظانّ أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده ، كاف فى حصول المطلوب ، كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى « وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ » أى كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكناها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن.

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٦٧ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٥٣ ] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشريّ « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أى بالنجوم فى السماء ، والعلامات فى الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر « وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ » وهى المطر « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

[٦٥] (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ )

« أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمكنهم من معرفتها ـ فلم يبق لهم عذر فى الإنكار. فلاحاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى مما ينزله من مائها وما يخرجه من نباتها « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت. أى هاتوا برهانا عقليا أو نقليا، يدل على أن معه تعالى إلهاً. لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى، فإنهم لا يدعونه صريحا . وفى إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهانا . وأنّى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود « قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ » أى فإنه المتفرد بذلك وحده، كما قال[1] (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ) فى آيات

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٩ ] .

لا تحصى. والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن فى السماء والأرض. أو متصل، على أن المراد ممن فى السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلا أو استعارة . فإنه يعمّ الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى ينشرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ )

« بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما ـ أن (فى) على بابها ، و ( ادّارك ) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعا . كقوله[1] « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ) .

وعلى هذا فـ( فى ) متعلق بـ( ادّارك ) .

والثانى ـ أن ( فى ) بمعنى الباء . أى بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك ( علمى بزيد كذا) انتهى .

والوجه الثانى على الاستفهام . أى بل هل ادّارك علمهم فيها ، أى بلغ وانتهى ؟ كلا . وقد قرىء (بل أءدرك) بهمزتين و (بل آءدرك ) بألف بينهما و ( أم أدرك )و(أم تدارك)

قال الرازىّ : وهى (أم ) التى بمعنى ( بل ) والهمزة . فالمعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا فى حضيض الجهالة بحقيتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطىّ والمهايمىّ . وذهب غيرهما إلى إبقاء (بل ) على أصلها من الإضراب الانتقالىّ. وقرروه بما فيه خفاء ودقة. ويبعده ما ذكرنا

(١) [ ١٦ / النحل / ١ ] .

من القراءات الصريحة فى الاستفهام. وهى مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر فى قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عماية وجهل كبير .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة. ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم ، لا يشخص به طلب التميز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخْطِر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر فى عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه . فلذلك عداه بـ ( من ) دون ( عن ) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ )

[٦٨] ( لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ )

[٦٩] ( قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ )

[٧٠] ( وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ )

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطروها بعبارة مموّهة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » بإنكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتكذيبهم. فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالى معهم بهؤلاء، كقوله تعالى(١) ( فلعلّك بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ) «وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك. ولا تبال بذلك، فإن الله يعصمك من الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ )

[٧٢] ( قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ )

[٧٣] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ )

[٧٤] ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ )

[٧٥] ( وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ )

[٧٦] ( إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم » أى لحقكم أودنا لكم « بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب، فحصل لهم القتل ببدر . ولعذاب الآخرة أمرّ. قال الزمخشرىّ : و(عسى) و(لعلّ) و(سوف) فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده. وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوّهم لا يفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده. انتهى. أى لأن حقيقة الترجّى محال فى حقه تعالى. فهو على هذا استعارة تمثيلية. قاله

(١) [ ١٨ / الكهف / ٦ ] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولـكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المـكايد له. وهو معاقبهم على ذلك «وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ » أى ومامن خافية فيهما، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها فى اللوح البيّن ، المثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالـكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالـكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيـه بالصدق . فالمعوّل من أنبائهم عليه ، ومردّ ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ )

[٧٨] ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ )

[٧٩] ( فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ )

[٨٠] ( إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ )

[٨١] ( وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ )

« وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ » أى بين مَنْ آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى فلا يردّ قضاؤه الغالب

فى انتقامه من المبطلين «ٱلْعَلِيمُ» أى بالفصل بينهم وبين المحقّين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالمضىّ فى دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ» أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشرىّ : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه ، وإلى أن الكل لا يرجى منهم الهداية، كآية[1] (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) تسلية عما كان يهمه من إيمانهم ، بقوله سبحانه « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » قال الزمخشرىّ : شبّهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول ، لا تعيه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء ، إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله (إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصمّ. لأنه إذا تباعد عن الداعى ، بأن يولّى عنه مدبرا ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله ( وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ) إثر ما تقدم ، للمبالغة فى نفى الهداية . وقوله تعالى (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ، إلّا من شأنه الإيمان بها . وقوله ( فَهُم مُّسْلِمُونَ ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم منقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله[2] ( بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ) يعنى جعله سالمًا لله خالصا له .

---

(١) [ ١٢ / يوسف/١٠٣ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١١٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن فى هذا الوعيد وجوها من التأويل :

الأول ـ أنه دنيوىّ ، عنى به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعى وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئيهم. ويظهروا على عدوّهم . وذلك بأن تدبّ إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ السهل والربى ، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدكّ أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . وسعيهم فى الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثانى ـ أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوبخ الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه فى ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَآبَّةً) الفرد، بل النوع. كما فى قولك (أرسل الله عليهم دودة أتلفت زرعهم ) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . اهـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخارىّ منها شيئا، لاضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مأثورها ما أخرجه مسلم(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعا ( إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا ) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعيّ الثبوت .

الوجه الثالث ـ نقله الراغب في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب. فتكون الدابة جمعا، اسما لكلّ مايدبّ. نحو (خائنة) جمع خائن. انتهى.

ولعل الآية كقوله تعالى(٢) ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطي بدبيبه وجه الأرض ـ فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ )

[٨٤] ( حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ »أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه. كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله ( فَوْجًا ) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشريّ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو » أي إلى المحشر « قَالَ » أي ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٩٦و٩٧ ] .

« أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِي » أي الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه. ومؤكدة للإنكار والتوبيخ. أي أكذبتم بها بادئ الرأي، غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتما؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات ، فيما سلف في الموضعين ، هي الآيات القرآنية . لأنها هي المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بهـا علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لا نفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أي بها . أو ماذا كان عملكم ؟ هل هو إلا الفساد والإفساد ؟ وصد السبيل عن العباد ؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ )

[٨٦] ( أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

[٨٧] ( وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ )

[٨٨] ( وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ، صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ )

[٨٩] ( مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ )

« وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ » أي مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا »أي ليبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ » أى حضروا الموقف بين يديه « دَٰخِرِينَ » أى صاغرين « وَتَرَى ٱلْجِبَالَ » عطف على (ينفخ) داخل فى حكم التذكير « تَحْسَبُهَا جَامِدَةً » أى ثابتة فى أماكنها « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ » أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى[1] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) « صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ » أى فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم ، كما قال[2] (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال[3] (وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ) وقال[4] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :

الأول ـ أن قوله تعالى ( وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ) لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله[5] (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن حمل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى إرادة الحال ، شيء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى ـ أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق وهذا شيء لا يراه أحد من البشر كما قال[6] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ) أى من الملائكة . فما معنى قوله[7] إذن (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ) ؟

(١) [ ١٠١ / القارعة / ٥ ] . (٢) [ ٧٨/ النبأ / ٢٠ ] . (٣) [٧٧/ المرسلات/ ١٠ ].
(٤) [ ١٠١ / القارعة / ٥ ] . (٥) [ ٢٧ / النمل / ٨٨ ] . (٦) [ ٣٩ / الزمر/ ٦٨ ] .
(٧) [ ٢٧ / النمل / ٨٨ ] .

الثالث ـ أن تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحس بحركتها . وهذا ينافى قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) أى ثابتة . أما فى الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً . وهذا شىء يراه كل واقف عندها .

الرابع ـ ورود هذه الآية فى سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها فى نفس هذا السياق ، والمراد بهما ذكر شىء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها فى هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار ، ليكون ذلك دليلا على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء فى هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع المدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شىء مشاهد فى القرآن من أوله إلى آخره . اهـ كلامه .

وقال العلامة المرجانى فى مقدمة كتابه ( وفيّة الأسلاف ، وتحيّة الأخلاف ) فى بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى ( وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيذان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره فى هذه الرؤية . وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة فى الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب فى سرعة السير والحركة . قال : وقوله ( صُنْعَ ٱللَّهِ ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى[1] ( وَعْدَ ٱللَّـهِ )[2] ( صِبْغَةَ ٱللَّـهِ ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرّب فيه وتروٍّ وتحرى إجادة . ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وقوله ( ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ) كالبرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسوية مروره على ما ينبغى . لأن إتقان كل شىء ، يتناول إتقانه . فهو تثنية للمراد وتكرير له ، كقوله تعالى[3] ( وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّـهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد ، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره ( بالصنع ) الذى هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى ، تعظيما له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شىء، ومن جملته هذا المرور. ثم إيراده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لاتنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى ( وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ) حال من المفعول به، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذى هو رؤيتها على تلك الحال .

فهذه الآية صريحة فى دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها فى هذه النشأة .

وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع فى النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام . وأن حسبانها جامدة لعدم تبين حركة كبار الإجرام إذا كانت فى سمت واحد . فإن ذلك لايلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكمية على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة ، بعد أن تعتقد أن كل شىء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار، كائنا ما كان ، وهو العلىّ الكبير ، وعلى مايشاء قدير .

(١) [ ٤ / النساء / ١٢٢ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٣٨ ] (٣) [ ٣ / آل عمران / ٩٧ ]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ) الآية ، اعتراض فى تضاعيف ماساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأهوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه فى تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزيز فى القرآن .

وفائدته هنا، التنبيه على سرعة تقضّى الآجال ومضىّ الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارّة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصرا محسوسا ، نكن ماينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر [1] (فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ) فيكون هذا معجزة للنبىّ ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) فى شىء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بنى آدم . اه . كلام المرجانىّ .

«مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» أى لايعتريهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعِ يَوْمِئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منونا وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين فى (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أى يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

(١) [ ٥٩ / الحشر / ٢ ] .

[٩٢] ( وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ )

[٩٣] ( وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ )

«وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والمعاصى «إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ» أى مكة «ٱلَّذِى حَرَّمَهَا» أى جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها . وفيه تعريض بجحدهم نعمته تعالى فى ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلّهم فى أعين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت . وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح «وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ» أى خلقا وملكا . فهو خالق كل شىء ومليكه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى ممن أسلم وجهه لله ، لا لغيره «وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ» أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين «فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ» أى فمن اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول فى الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل علىّ من الوحى ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه ، لا إلىّ «وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ» أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزيغه طريق الهدى ، ولم يتبعنى ، فلا علىّ . وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين «وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومنّ علينا بصراطه المستقيم «سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا» كقوله تعالى(١) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ) وقوله(٢) ( وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ) «وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والتكذيب ونصب المكايد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره .

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٥٣ ] . (٢) [ ٣٨ / ص ٨٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٨ – سورة القصص

سميت به لاشتمالها على قوله تعالى[١] ( فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء ـ أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتمالها على مالايشتمل عليه غيرها من أنباءموسى، أفاده المهايمىّ .

والسورة مكية كلها . وقيل إلّامن قوله تعالى[٢]( ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ )إلىقوله ( ٱلْجَـٰهِلِينَ ) فقد أخرج الطبرانىّ عن ابن عباس أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشىّ الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد .

وقوله تعالى[٣] ( إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ) الآية لما روى من نزولها بالجُحْفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهى ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٢٥ ] .
(٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٥ ] .
(٣) [ ٢٨ / القصص / ٨٥ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( طسٓمٓ )

[٢] ( تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ )

[٣] ( نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

[٤] ( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ )

« طسٓمٓ » تقدم الكلام على هذه الحروف غير مامرة « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى نقرأ عليك ، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى[1] ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ) ثم استأنف ما يجرى مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر « وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً » أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته « يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ » وهم بنو إسرائيل « يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ » وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلا لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعوه الملك « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذى جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ )

[٦] ( وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ )

[٧] ( وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[٨] ( فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ )

« وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ » أى نتفضل « عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً » أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ » أى : لملك عدوّهم . كما قال تعالى(1) ( وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ) إلى قوله (يَعْرِشُونَ) « وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم » أى من أولئك المستضعفين « مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم وذهاب ملكهم، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم «وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ »أى إثر ولادته فى تلك الشدّة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أى فى البحر ، وهو النيل «وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ* فَٱلْتَقَطَهُۥ وَ

(1) [ ٧ / الأعراف / ١٣٧ ] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » أي في هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة. أبرز مدخولها في معرض العلة، لالتقاطهم. تشبيهاله في الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ » أي مجرمين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم ، ومَنْ هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

[١٠] ( وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١١] ( وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

« وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ » أي لفرعون ، حين أخرجته من التابوت « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أي بما سيكون « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا » أي خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون « إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ » أي بأمره وقصته، وأنه ولدها « لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أي لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن . ومعنى ( من المؤمنين ) أي المصدقين بوعد الله . وهو قوله[١] ( إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ) .

قال الزمخشريّ : ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبنّاه . إن كادت لتبدى بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أنّا

(١) [ ٢٨ / القصص / ٧ ] .

طامنا قلبها وسكنا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لابتبنّى فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ » أى اتبعى أثره لتنالى خبره « فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ » بضم النون وسكونها . أى : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى أنها تتعرف حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ )

[١٣] ( فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

[١٤] ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ )

[١٥] ( وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ، فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ، إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ )

[١٦] ( قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ )

[١٧] ( قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ )

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ » أى من قبل قصّها أثره . و (المراضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الضاد. وهى المرأة التى ترضع. وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء. أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميمىّ، جمع لتعدد مواده. أو اسم موضع الرضاع، وهو الثدى «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ» أى فى رضاعه وتربيته «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» أى برؤيته «وَلَا تَحْزَنَ» أى بفراقه «وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ» أى كمال قوته، «وَٱسْتَوَىٰٓ» أى اعتدل مزاجه «ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ» أى فى أعمالهم. ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام، ما تدرج به إلى ماقدّر له من الرسالة، بقوله سبحانه «وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ» أى مصر آتياً من قصر فرعون «عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» قيل وقت القيلولة. وقيل بين العشاءين «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ» أى يتنازعان «هَٰذَا» أى أى الواحد «مِن شِيعَتِهِۦ» أى ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل «وَهَٰذَا» أى الآخر «مِنْ عَدُوِّهِۦ» أى ممن خالفه فى دينه وهم القبط «فَٱسْتَغَٰثَهُ» أى سأله الإغاثة «ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ» لكونه مظلوماً «عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ» لكونه ظالماً. وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين «فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ» أى ضربه بجُمع كفه «فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» أى فقتله «قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ» يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه، من قتله. وسماه ظلماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه «قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى» أى بقتله «فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ» يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف. أى أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة، لأتوبنّ ولا أظاهر المجرمين. وأن يكون استعطافا كأنه قال: رب! اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة. فلن أكون، إن عصمتنى، ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرتهم، إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثير سواده، وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له. قاله الزمخشرىّ.

قال الناصر: لقد تبرأ عليه السلام من عظيم. لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده.

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً ، فيجعلون فى تابوت من حديد ويلقى بهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ، قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ )

[١٩] ( فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ )

[٢٠] ( وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ )

[٢١] ( فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ )

[٢٢] ( وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ )

[٢٣] ( وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ )

« فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ » أى الاستقادة أو الأجناد . « فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ » أى استعانه فقتل من أجله منازعه القبطىّ « يَسْتَصْرِخُهُۥ » أى يستغيثه من قبطىّ آخر « قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرّك إليهم مالا تحمد عقباه « فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا » أى لموسى وللإسرائيلىّ ، وهو القبطىّ « قَالَ » أى ذلك العدوّ وهو القبطىّ ، لا الإسرائيلىّ كما وهم « يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزمخشرىّ: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن. « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ » أى يسرع لفرط حبه لموسى «قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ» أى يتشاورون بسببك « لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ» أى من حد مملكتهم « إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ» أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ » أى فلا يلحقنى فيه الطالبون « وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن المـاء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما فى الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ » أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن المـاء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الـكبر، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ )

[٢٥] ( فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ )

« فَسَقَىٰ لَهُمَا » أى فسق غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج. والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام. وعلى الأخير حمله الأكثرون بمعونة المقام « فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى بالخروج عن حدّ ولا يتهم، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ )

[٢٧] ( قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ )

[٢٨] ( قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ )

« قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق بذلك « إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ » أى خير من أردت جعله أجيراً، القوىّ على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشرىّ : وقولها ( إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ) كلام حكيم جامع لا يزاد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة، أن تقول : استأجره لقوّته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل فى مدح النساء للرجال، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة. وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوىّ . فى مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أمينا : يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه . انتهى . «قَالَ إِنِّى أُرِيدُ» أى لقوتك وأمانتك، ما يقوّى المودة ويجذب القلوب «أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ» أى على أن تكون أجيرى لرعي المواشي بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإيجابه « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد « قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ » أى ذاك الذى عاهدتنى عليه ، لانخرج عنه جميعا « أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » أى أتممت « فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ » أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٩] ( فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ )

[٣٠] ( فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[٣١] (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » أى من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها « أَوْ جَذْوَةٍ » مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شيء « مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّآ أَتَىٰهَا » أى قرب منها « نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ » أى جانب « ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ » أى المبارك . يقال : يمن فهو ميمون وأيمن . وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد . لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء فى غير آية توصيف الوادى بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد . وإن أدهش التفنن فى التعبير عنه ببديع تلك المبانى « فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهى « مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَآنٌّ » أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّىٰ مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلا ظهره إليها « وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ » أى من المخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ، فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ )

« اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أي أدخلها فيه « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أي عيب « وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أي يدك « مِنَ الرَّهْبِ » أي الخوف. قرئ بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه مايجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه مايجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى . وبه الثقة. « فَذَانِكَ » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » أي فيكون أحسن بياناً . ولا يتحمل ذلك مالم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا » أي معيناً « يُصَدِّقُنِي » أي لنشاط قلبي « إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ » أي يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى أنواع الأذيات .

قال الزمخشريّ : فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لا لقوله صدقت. فإن سحبان وباقلا يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازيا . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أي سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشتد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية . شبّه حال موسى فى تقويته بأخيه عليهما السلام ، بحال اليد فى تقويتها بيد شديدة . « وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا » أى غلبة ومهابة فى قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بإيذاء ، فضلا عن القتل « بِـَٔايَٰتِنَآ » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو بـ( نجعل ) أى نسلطكما بها أو بمعنى (لايصلون) أى تمتنعون منهم بها . أوقسم جوابه (لايصلون) مقدر . أو صلة لـ(الغالبون) فى قوله « أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ » وتقدمه ، إما للفاصلة أو للحصر . أى الغالبون عليهم ، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ )

[٣٧] ( وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ )

[٣٨] ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ )

« فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى » أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلهاً يرسل الرسل

بالآيات « فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ » أى كائناً فى أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أو لأنهم لم يؤمنوا به أيضاً «وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ» قال المهايمى: معناه: كفى دليلا على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى . فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار . وهى العاقبة المحمودة . والمراد بـ( الدار) الدنيا . وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان . وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة ، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولًا استدراجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة . وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم . وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة . ونهاية أعدائه وضيعة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى» هذا حكاية لتمرده وعتوّه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة . كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله[1] ( لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وكما قال تعالى[2] عنه (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ » أى ناراً ، فأتخذ منه آجرًّا .

قال الزمخشرى: ولم يقل (اطبخ لى الآجرّ وأتخذه)لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته ، وأشبه بكلام الجبابرة . وهامان وزيره ومدبّر رعيته « فَٱجْعَل لِّى » أى من الآجرّ « صَرْحًا » أى قصراً رفيعاً إلى السماء « لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ »

(١) [ ٢٦ / الشعراء/ ٢٩ ] . (٢) [ ٧٩ / النازعات/ ٢٣ و ٢٦ ] .

يعنى العلىّ الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية، والعلوّ لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ )

[٤٠] ( فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ )

[٤١] ( وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ )

[٤٢] ( وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ )

[٤٣] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ )

« وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه، وادعاء العلم الكلىّ لنفسه مع جهله بربه «وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى بل بالفساد وردّ الحق، والصدّ عن سبيل الله «وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً » أى يلعنهم كل مؤمن يسمعهم «وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ » أى من المطرودين، المبعدين «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهُدًى » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتعظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيا من علام الغيوب، ببيان أنه ما فصّل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

[٤٥] ﴿ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

[٤٦] ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ » أى الوادى الغربىّ الذى كوشف فيه موسى عن المناجاة « إِذْ قَضَيْنَآ » أى قدرنا وأنهينا « إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ » أى أمر الإرسال والإنباء «وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ * وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا» أى بين زمانك وزمان موسى «فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ» أى أمد انقطاع الوحى، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا »أى مقيما «فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أى لك ، وموحين إليك تلك الآيات . أى ما كان الإنباء بها إلا وحيا مصدره الرسالة « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أى وقت ندائنا موسى « وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمةٍ عظيمة كائنة منّا لك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ» أى من نذير فى زمان الفترة ، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ)

«وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ» أي عقوبة «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أي من الكفر والفساد «فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ» أي بها. وجواب (لولا) الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه. أي ما أرسلناك. لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

قال الزمخشريّ : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي، وتقديم الأيدي، وإن كان من أعمال القلوب. وهذا من الاتساع في الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل «فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ» أي من قلب العصا حية، وفلق البحر، وغيرهما من الآيات. تعنتاً وعناداً، كما قالوا[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ) وما أشبه ذلك. وقوله «أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ» رد عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أي أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومَنْ مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتي موسى من الكتاب «قَالُواْ» أي في موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) «تَظَٰهَرَا» أي تعاونا. وقرئ «سِحْرَانِ» أي ذوا سحرين؛ أو جعلوهما

(١) [ ١١ / هود / ١٢ ] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبيّ صلوات الله عليه ، هى الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التى كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنسانيّ كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لابد له فى هذا الطور من معلّم ومرشد ، كما فى الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم. فكانت عمدته ﷺ فى الاستدلال على نبوّته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذى يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما بيديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا فى مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٥٠] (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)

[٥٥] ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين. والذكرى التى تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعْهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تعاندوننى « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلقان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بيّن الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام . انتهى .

أى لاللشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلّ : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة ( إن ) مع امتناع صدقهم، نوع تهكم بهم « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ » أى الزائغة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ » الاستفهام إنكارىّ للنفى .أى لاأحدأضل منه. كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازيّ: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لابد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى أنزلنا عليهم القرآن متواصلا، بعضه إثر بعض، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ ( وصَلنا ) بالتشديد والتخفيف « ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ » أى القرآن « هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ » وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم «وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ» أى القرآن «قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ »أى من قبل نزوله«مُسْلِمِينَ » أى منقادين له، لما عندنا من المبشِّرات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه لله تعالى بدون شرك «أُو۟لَٰٓئِكَ» أى الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ » يعنى مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا۟ » أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانيْن . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم «وَيَدْرَءُونَ» أى يدفعون« بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ » أى بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » أى للبؤساء والفقراء ، وفى سبيل البرّ والخير ، فراراً عن وصمة الشحّ ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ » أى من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ » أى تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا۟ » أى لهم « لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ » أى بطريق التوديع والمتاركة ؛ وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ » أى لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازيّ : قال قوم : نسخ ذلك بالأمر بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت فى سبعين من القسيسين . بعثهم النجاشيّ.

فلما قدموا على النبيّ ﷺ قرأ عليهم[١] (يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ)حتى ختمها . فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقال محمد بن إسحق فى (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد . فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه . ورجال من قريش فى أنديتهم . حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش . فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب . بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل. فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركبا أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قال: ويقال ، والله أعلم، إن فيهم نزلت هذه الآيات(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهرىّ عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشىّ وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتى فى سورة المائدة[٢] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا) إلى قوله[٣] (فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ) .

---

(١) [ ٣٦ / يس / ١و٢ ] . (٢) [ ٥ / المائد / ٨٢ ] .
(٣) [ ٥ [ المائدة / ٨٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ )

[٥٧] ( وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

[٥٨] ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ )

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لاتقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » أى أن يهديه فيدخله فى الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارىّ[١] فى ( صحيحه ) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبـد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص ، ١ ـ باب قوله إنك لاتهدى من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنّ لك مالم أُنْهَ عنك. فأنزل الله(١) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزل الله فى أبى طالب، فقال لرسول الله ﷺ (٢) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم(٣) فى صحيحه والترمذىّ(٤) أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم ، عن أبى هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا. وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبيّ وقتادة: إنها نزلت فى أبى طالب حين عرض عليه الإسلام. انتهى.

وقال ابن حجر فى ( فتح البارى ) : لم تختلف النقلة فى أنها نزلت فى أبى طالب. انتهى.

وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية فى كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من تعنتهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائىّ، بقوله سبحانه «وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ» أى ونخالف العرب «نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ» أى مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أى : ألم نعصمهم من عدوّهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمن ، لحرمة البيت الحرام، الذى تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا » أى كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ

(١) [ ٩ / التوبة / ١١٣ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٦ ] .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ ( طبعتنا )

(٤) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص

لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف ( قليلا ) المستثنى ، إما ( زمان ) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارّة يوما أو بعض يوم . وإما ( مكان ) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندثر الباقى . أو ( مصدر ) أى سكنا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ )

[٦٠] ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

[٦١] ( أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ )

[٦٢] ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ )

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا » أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد « وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، لخلوّه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰٓ » لأنه أبدىّ لا يزول « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » أى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ ( المحضر ) فى القرآن فى المعذّب. وإليه أشار الزمخشرىّ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ، مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ )

[٦٤] ( وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ )

[٦٥] ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[٦٦] ( فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ )

[٦٧] ( فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ )

[٦٨] ( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

« قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم. والمراد بهم ، رؤساء الضلال، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ »أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحضر منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالوسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم ومما اختاروه « مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوايعبدون

أهواءهم وشهواتهم «وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ » ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعُمْى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: ففيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدّى بـ (على ) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أوما يعمّها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به « فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحقٌ للمصرّ « فَأَمَّا مَن تَابَ» أى من الشرك «وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ» أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه. كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشرىّ « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ » أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد « مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال الزمخشرىّ : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم ( محمد خيرة الله من خلقه ) والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده . ولذا قال « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئا ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيّم فى مقدمة ( زاد المعاد ) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالىهو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات. قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ)وليس المراد ههنا بالاختيار، الإرادة التى يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل فى قوله ( يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . وداخل فى قوله تعالى ( مَا يَشَآءُ ) فإن المشيئة هى الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ ) ويكون ( ما كان لهم الخيرة ) نفيا . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده. فكما أنه هو المتفرد بالخلق، فهو المتفرد بالاختيار منه. فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه فى ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) فى قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ) موصولة وهى مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها ـ أن الصلة حينئذ تخلو من العائد. لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفا ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة فى اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر. وهو أن هذا ليس من المواضع التى يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجرورا إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى ( يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى ـ أنه لو أريد هذا المعنى لنصب ( الخيرة ) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهــذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الـكلام على هذا التقدير . الثالث ـ أن الله سبحانه يحكى عن الـكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبيّن تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى(١) ( وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ،وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » فأنـكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال(٢) ( وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) أى الله أعلم بالمحل الذى يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره .

الرابع ـ أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال« مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس ـ إن هذا نظير قوله فى الحج(٣) (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ )ثم قال(٤)(ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٢٤ ] .
(٣) [ ٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤ ] . (٤) [ ٢٢ / الحج / ٧٥و٧٦ ] .

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ) وهذا نظير قوله فى القصص[1] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله فى الأنعام[2] (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) فأخبر فى ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالّ اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق فى هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه . والله أعلم .

السادس ـ إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله[3] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالا على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه الله الذى لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره فى هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبها على ما وراءه، دالًا على ما سواه . فخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقرّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيّه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوى

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٦٩ ] .  (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٢٤ ] .
(٣) [ ٢٨ / القصص / ٦٥ ـ ٦٨ ] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق مايشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولي العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمة. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بني هاشم. ثم اختار من بني هاشم، سيد ولد آدم محمداً ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهي البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيّه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه، ولا يلتقط لقَطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجوّد الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ» أي تنزيهاً لله الذي لا يزاحم اختياره اختيارٌ «وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ )

[٧٠] ( وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ، وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

[٧١] ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ )

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ ٱلْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ )

[٧٣] ( وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

[٧٤] ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ )

[٧٥] ( وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ )

[٧٦] ( إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ
مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ )

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ »أى فى الليل«وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسمانية والروحانية، باستعمالها فيماوجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً » أى نبيًّا يشهد عليهم بما كانوا عليه. كقوله تعالى(١)( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ) «فَقُلْنَا» أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم. وظهر برهان النبيّ، كما قال تعالى«فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية، لايشاركه فيها أحد « وَضَلَّ عَنْهُم » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ» أى من شاكلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [ ٤ / النساء / ٤١ ] .

الدخرة« مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُو » أى مفاتيح صناديقه. على حذف مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابسة. وقيل خزائنه « لَتَنُوٓءُ » أى تثقل « بِالْعُصْبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُوْلِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُو قَوْمُهُو لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح، لما فيه من إيثارها عن الآخرة، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ )

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُو عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ )

« وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك، بعد الفاقة « الدَّارَ الْآخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب. وتجعله زادك إلى الآخرة «وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» وهو أن تأخذ منه مايصلحك ويرفهك «وَأَحْسِن» أى إلى الناس . أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُو عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » أى بطرق التجارة أو المكاسب «أَوَلَمْ يَعْلَمْ» أى مما سمع بالتواتر «أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ» أى الكثيرة، بحيث صارت سنة له «مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً» أى بالأموال والأتباع «وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

ٱلْمُجْرِمُونَ » أى لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ، ليعتذروا عنها . بل متى حق عليها القول بفسقهم ، أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ، قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ )

[٨٠] ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ، وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ )

[٨١] ( فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ )

[٨٢] ( وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ )

« فَخَرَجَ » أى قارون باغيا « عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ » أى مُغْتَرًّا بالنظر فيها « قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى جريا على سنن الجبلة البشرية ، من الرغبة فى السعة واليسار « يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ » أى مما تتمنونه « لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الكلمة التى فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهى الإيمان والعمل الصالح « إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ » أى على الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن

تجرى فى أعقاب المزخرفات . و(ويلك) فى الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى، مجازا. وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ »أى المشتملة على أمواله « ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى بدفع العذاب عنه«وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ» أى بقوة نفسه وماله« وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ »أى من شقىّ وسعيد«وَيَقْدِرُ» أى يقبض. فلا دلالة فى البسط على السعادة . ولا فى القبض على الشقاوة. بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقَدْر بمحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا » أى بعدم إيتائه متمنانا « لَخَسَفَ بِنَا » أى كما خسف به « وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ » أى لنعمة الله، فى صرفها فى غير سبيلها. أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

فى ( ويكأن ) مذاهب :

الأول ـ أن ( وى ) كلمة برأسها . وهى اسم فعل ، معناها أعجب . أى أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها . أى أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على ( وى ) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائىّ .

الثانى ـ أنه مركب من (وى) للتعجب (وكأن) للتشبيه. والمعنى: ما أشبه الأمر أن الله يبسط. أى ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا إلى آخرٍ ، أمرَ قارون وما شوهد من قصته. والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شىء . كما أشار إليه فى الكشف .

الثالث ـ قال بعضهم : ( كأن ) هنا للتشبيه. إلا أنه ذهب منها معناه. وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضا يناسبه الوقف على (وى) .

الرابع ـ زعم الهمدانيّ في (الفرائد) أن مذهب سيبويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأنّ) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس ـ ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) مخفف بحذف اللام. والعامل في (أن) اعلم ، المقدر. والكاف على هذا ضمير في محل جرّ. وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس ـ أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما ـ أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثاني ـ أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع ـ أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفرّاء والكسائيّ أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين. فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائيّ وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما يستفاد من حواشي القاضي والسمين . وعندي أنها مركبة من ( وى ) للتعجب و ( كأن ) التي للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة ـ كما قال ابن كثير ـ أمر وضعيّ اصطلاحيّ ، والمرجع إلى اللفظ العربيّ .

وقد اتفق اللغويون على أن ( وى ) كلمة تعجب. يقال ( ويك ) و ( وى لزيد ) وتدخل على (كأن) المخففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَالَتَانِي الطلاقَ أَنْ رَأَتَانِي ... قَلَّ مالي . قد جئتماني بنُكْرِ
ويْ كأنْ من يكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ... بَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل فقفاه فى الإضراب عن كثير من مرويّه ، الموقوف والضعيف الذى سوّدت به الصحف.

ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ )

[٨٤] ( مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ )

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ »أى غلبة وتسلطاً بسوء وتكبّر « وَلَا فَسَادًا » أى بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَٱلْعَـٰقِبَةُ » أى النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشرىّ ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال[١] ( وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ) فعلق الوعيد بالركون . وعن علىّ رضى الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه. فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانىّ ههنا. وعن عمر بن عبد العزيز، أنه كان رددها حتى قبض . ومن الطُّمَّاع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله[٢]: ( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ )[٣]( وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ )ويقول: من لم يكن

(١) [ ١١ /هود / ١١٣ ]. (٢) [ ٢٨ / القصص /٤ ]. (٣) [ ٢٨ / القصص/ ٧٧].

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) كما تدبره علىّ والفضيل وعمر رضى الله عنهم. «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ) معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامين. ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) أى مثله .وهذا من فضله العظيم و كرمه الواسع ، أن لايجزى السيئة إلا بمثلها. ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة . وهو معنى قوله ( فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ) كذا فى الكشاف .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٥] (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

[٨٦] (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ )

« إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم، وصدعهم به «لَرَآدُّكَ» أى بعد الموت «إِلَىٰ مَعَادٍ» أى مرجع عظيم. وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم . ووجهه ـ كما فى ( العناية ) ـ أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيما لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة . كما قال تعالى(١) ( فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى(٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [ ٧ / الأعراف/ ٦ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ١٠٩ ] .

اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) وقال[1](وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة. إلى الموت. إلى الجنة أخرجت عنه من طرق. كما أسنده ابن كثير.

والذى رواه البخارىّ والنسائىّ وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرادك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبىّ ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيّا ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح، الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبىّ ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت. وتارة بالجنة التى هى جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ » يعنى نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من المثوبة « وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق «وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبُ » أى ما كنت تظن، قبل إنزال الوحى إليك ، أن الوحى ينزل عليك «إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى معينا لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرمانىّ فى (الغرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانيهم ، وأنه أمر بالهجرة .

---

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

[٨٨] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ، لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

« وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعْلٍ كلمتك ومؤيد دينك. ولذاقال «وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ» أى إلى عبادته وحده لاشريك له «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ* وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لايتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله. أو المراد نهى أمته، وإن كان الخطاب له ﷺ. كذا فى ( العناية ) .

« لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ » أى إياه و(الوجه) يعبر به عن الذات كماقال[١] « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى ( هَالِكٌ ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ماليس له وجود ذاتىّ. لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم. وعن مجاهد والثورىّ (إلا وجهه) أى ماأريد به وجهه. حكاه[٢] البخارىّ فى (صحيحه).

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧ ] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ــ كتاب التفسير ، ٢٨ ــ سورة القصص .

قال ابن جرير[١] : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفرُ اللهَ ذنباً ، لست مُحْصِيَهُ　　رَبُّ العبادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهـذا القول لاينافى القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ماأريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .

وفيه بُعد وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لاتحتمل ذاك المعنى ، فكذا هذه « لَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير وإن شرّا فشر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين ( طبعة الحلبى الثانية )

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٩ – سورة العنكبوت

سميت بها لاشتمالها على آية[١] ( مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ) الآية ، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التى لا تحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ فى الدعوة إلى التوحيد الذى هو أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايمىّ .

وهى مكيّة . واستثنى من أولها إلى قوله تعالى[٢] ( وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ) وقوله[٣] : ( وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ) الآية ويقال إنها آخر ما نزل بمكة . وآيها تسع وستون . قال الدانى : متفق عليه .

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤١ ] . (٢) [ ٢٩ / العنكبوت / ١١ ] .
(٣) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٠ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓمٓ )

[٢] ( أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ )

[٣] ( وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ )

« الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » أى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمتحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال(١) ( لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ) وكقوله(٢) ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ) وقوله تعالى(٣) ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة فى تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٨٦ ] .
(٢) [ ٣ / آل عمران / ١٤٢ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ٢١٤ ] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أي من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دوّن التاريخ اضطهادهم . أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ » أي في قولهم ( ءَامَنَّا ) « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ » أي فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشيء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه .

وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم هٰهنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى ( ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم ) .

وقال المهايمي : (فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ) أي يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلَيَعْلَمَنَّ) أي وليظهر علمه بكذب دعوى (ٱلْكَٰذِبِينَ) لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب في تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بصحبة الصادقين ، ويستظهروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

«أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا» أي يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم « سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أي بئس الذي يحكمونه حكمهم « مَن كَانَ يَرْجُواْ

لِقَآءَ ٱللَّهِ » أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته « فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ وهو الموت « لَآتٍ » أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، فاعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلا وغاية لظهور النصر والفتح وعلوّ الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنّه. فإنه آت بوعد الله الحق وقوله الصدق. ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق. والله أعلم «وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم « وَمَن جَٰهَدَ » أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء « فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ » أى لأنه يجهد لنفسه ، ما يجنى به ثمرة غرسه « إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ، إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

[٩] ( وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ )

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلا ذا حسن عظيم «وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ » أى فى الشرك ، إذا حملاك عليه . ومعنى ( مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ) أى لا علم لك بإلٰهيته . قال القاضى: عبر عن نفيها بنفى العلم بها ، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه. فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة فى الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبى وقاص الزهرىّ رضى الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغنى أنك قد صبأت . فوالله! لايظلنى سقف بيت من الضحّ والريح. وإن الطعام والشراب علىّ حرام، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها. فأبى سعد. وبقيت ثلاثة أيام كذلك. فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتى فى لقمان ، والتى فى الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذى عن سعد[1] قال : نزلت فىّ أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت هذه الآية

قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائىّ أيضاً .

وقال الترمذىّ : حسن صحيح «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال .

قال الزمخشرىّ : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله[2] تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ( وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ) وقال[3] فى إبراهيم عليه السلام ( وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ) أو المعنى : فى مدخل الصالحين وهى الجنة . وهذا نحو قوله[4] تعالى ( وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ) الآية .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٢٩ ـ سورة العنكبوت ، حدثنا محمد ابن بشار ومحمد بن المثنى .

(٢) [ ٢٧ / النمل / ١٩ ] . (٣) [ ١٦/ النحل / ١٢٢ ] و [ ٢٩/ العنكبوت / ٢٧ ] .

(٤) [ النساء / ٦٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين. مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يناله فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والمحنة منحة . فإن العاقبة للتقوى وسعادة الدارين لأهلها «وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ» أى من التلبيس والإخلاص. وهذه الآية كقوله تعالى[١] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ إلى قوله[٢] ( ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ) وكقوله سبحانه[٣] (ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ) وقال تعالى[٤] ( فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ )

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ١١ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ١٢ ] . (٣) [ ٤ / النساء / ١٤١ ].

(٤) [ ٥ / المائدة / ٥٢ ] .

[١٢] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

[١٣] ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

« وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ » ثم بين تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ » أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتها علينا وفى رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك فى رقبتى. قال الله تعالى تكذيباً لهم «وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ »وهى أوزار أنفسهم« وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ »أى وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم. يعنى أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصدّ عن سبيل الله . كما قال تعالى[(١)] ( لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ) وفى الصحيح[(٢)] (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا ) «وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ »أى من الأكاذيب والأباطيل. ثم بين تعالى افتتان الأنبياء بأذية أممهم، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثًّا لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [ ١٦ / النحل / ٢٥ ] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٦ ( طبعتنا ) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ )

[١٥] ( فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ )

[١٦] ( وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ )

[١٧] ( إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

[١٨] ( وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ )

[١٩] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِّلْعَٰلَمِينَ * وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا ، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه « أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى ( ثُمَّ يُعِيدُهُ ) عطف على ( أو لم يروا ) لا على ( يبدئ ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على ( يبدئ ) بتأويل ( الإبداء ) بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب . فيصحّ حينئذ العطف.

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال: وبهذا التقرير سقط ما قيل: إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم. وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين. مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحققه، كأنه مشاهد «إِنَّ ذَٰلِكَ» أى ما ذكره ، وهو الإعادة « عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ )

[٢٢] (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ )

[٢٣] ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

[٢٤] ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتّى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض ، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعتم الرقىّ فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فيكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى ( ولا من فى السماء ) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير ( ولا من فى السماء بمعجزه ) والجملة معطوفة على جملة ( أنتم بمعجزين ) وفيه تكلف وضعف صناعىّ « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ،
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ )

[٢٦] ( فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ، وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

[٢٧] ( وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ )

[٢٨] ( وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[٢٩] ( أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ
ٱلْمُنكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ )

« وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها «ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا» أى تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعون الأتباعَ . كما قال تعالى(١) : ( كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ) وقال تعالى(٢) ( ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ) « وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ » .

(١) [ ٧ / الأعراف / ٣٨ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٦٧ ] .

تنبيه :

قال السمين : فى ( ما ) من قوله تعالى( إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم ) ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أنهاموصولة بمعنى ( الذى) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و ( أَوْثَانًا ) مفعول ثان . والخبر ( مودة ) فىقراءةمن رفع . والتقدير : إن الذى اتخذتموه أوثانا مودة ، أى ذو مودة ، أوجعل نفسالمودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذى اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لاينفعكم ، أويكونعليكم،لدلالةقوله ( ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ) .

والثانى ـ أن تجعل (ما) كافة و ( أوثانا )مفعول به . و( الاتخاذ ) هٰهنـا متعد لواحد. أو لاثنين ، والثانى هو ( من دون الله ) فمن رفع ( مودة )كانت خبر مبتدأ مضمر ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لِـ ( أوثانا ) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار ( أعنى ) .

الثالث ـ أن تجعل ( ما مصدرية ، وحينئذ يجوزأن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أوثانا مودة ، فيمن رفع (مودة ) ويجوز أن لايقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع ( مودة ) غير منونة وجرّ ( بينكم ) ومنهم من نصب ( مودة ) منوّنة ونصب ( بينكم ) ومنهم من نصب ( مودة ) منونة وجرّ ( بينكم). فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوّز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع فى الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع ( مودة ) غير منونة ونصب ( بينكم ) وخرجت على إضافة ( مودة ) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . اهـ .

وأشار العلامة القاشانىّ إلى جواز أن يكون قوله تعالى ( فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ) خبراً لِـ ( ما ) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له المعرِبون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودودا فيما بينكم (فى الحياة الدنيا) أو: إن كل مااتخذتم من دون الله ، شيئاً مودودا فيما بينكم فى الحياة الدنيا ، أو : إن كل مااتخذتم أوثانا مودود فى هذه الحياة الدنيا . أو لمودة بينكم فى هذه ، على القراءتين .

ثم قال : والمعنى أن المودة قسمان : مودة دنيوية ، ومودة أخروية . والدنيوية منشؤها النفس ، والأخروية منشؤها الروح. فكل مايحب ويودّ من دون الله ، لا لله ولا بمحبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية . وهو هوى زائل ، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات ، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج . فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية . ولهذا شبهها ببيت العنكبوت فى الوهن .

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هى التى تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات ، وتجانس الذوات ، لاتتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب . فيصير يوم القيامة محبة صرفة صافية الهيئة ، بخلاف تلك . انتهى .

« فَـَٔامَنَ لَهُۥ » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومى « إِلَىٰ رَبِّىٓ » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ » أى لإبراهيم « إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ونافلة، بمباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا » أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ » أى الفعلة المتناهية فى القبح « مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصّلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ » أى سبيل النسل بإتيان ماليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ » أى مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ )

[٣١] ( وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ )

[٣٢] ( قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ )

[٣٣] ( وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ )

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلىّ ونقلىّ، وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ » أى بالبشارة بالولد والنافلة ، وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه « قَالُوٓاْ » أى لإبراهيم عليه السلام « إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ » أى بتنزيلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ »أى الباقين فى العذاب أو القرية « وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام « لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ » أى اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرْعاً » أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته « وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ » أى مِمَّا يصيبهم من العذاب « إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ )

[٣٥] ( وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

[٣٦] ( وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ )

[٣٧] ( فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ )

[٣٨] ( وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ )

« إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى عذابا عظيما من جهتها « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » يعنى قصتها العجيبة ، أو آثارها الخربة « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ » أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبغى على أهلها ، كنقص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ » أى بلدهم أو منازلهم « جَـٰثِمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام ، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عناداً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ )

[٤٠] ( فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )

«وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ » أى فائتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميرا. ولذا قال «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم لوط « وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ » كمدين وثمود « وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ » كقارون « وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل مايوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ، ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ )

[٤٢] ( إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

[٤٣] ( وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ )

[٤٤] ( خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ )

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى شيئا مّا. أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة، فدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت فى ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد. وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ) تذييل يعرّف الغرض من التشبيه . وقوله ( لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) إيغال فى تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة .وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود. وفى الآية لطائف بيانية ذكرت فى المطولات. وقوله « إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ » بالياء والتاء فى ( تدعون ) قراءتان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ( يدعون) و(من) الثانية للتبيين . أو نافية و(من) مزيدة . و(شىء) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شىء ) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول ا (يعلم) ومفعول ( يدعون ) عائده المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضى « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ » يعنى هذا المثل ونظائره فى التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَآ » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » أى الراسخون فى العلم الكاملون فيه. وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزننى . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) « خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى محقاً مراعياً للحكم والمصالح، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال. وهذا كقوله تعالى[1] ( وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ) « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

---

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٣٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ، إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ )

[٤٦] ( وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ، وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ )

«ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ » أى تقربا إلى الله تعالى بقراءته، وتحفظاً لألفاظه، واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى. فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار مالم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ» أى تكون سببا للانتهاء عن ذلك. ففيه تجوز فى الإسناد. فإن قلت: كم من مصلّ يرتكب ولا تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا ، لقوله تعالى ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ) ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهى وبال عليه. أفاده الزمخشريّ. وقوله تعالى «وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» قال الزمخشريّ : أى : وللصلاةُ أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله، كما قال[1]

(١) [ ٦٢ / الجمعة / ٩ ] .

(فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ)وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله . أو: ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر ، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما ، أكبر . فكان أولى بأن يَنْهَى من اللطف الذى فى الصلاة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذكر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته . انتهى . ف(ذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول . وعلى ما بعدها مضاف للفاعل ، والمفعول محذوف . والمفضل عليه فى الأولين غيره من الطاعات . وفى الأخير قوله ( من ذكركم ) .

وقال الرازىّ: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بيّن ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشّون لذلك وتذكرونهم بملء أفواهكم وقلوبكم . لكن ذكر الله أكبر ، فينبغى أن يكون على أبلغ وجه التعظيم . وأما الصلاة فكذلك . لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغى أن يكون على وجه التعظيم . وفى قوله (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه ، لطيفة . وهى أن الله لم يقل : أكبر من ذكر فلان ، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة . إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال : هذا الجبل أكبر من هـذا الجبل . فأسقط المنسوب كأنه قال ( ولذكر الله له الكبر لا لغيره ) وهذا كما يقال فى الصلاة ( الله أكبر ) أى له الكبر لا لغيره . انتهى .

ولما بيّن تعالى طريقة إرشاد المشركين ، ونفع من انتفع ، وحصول اليأس ممن امتنع ، بيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن . وهى اللين والأناة « إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ » أى بالاعتداء، بأن أفحشوا فى المقال وأقذعوا فى الجدال ، فلا حرج فى مقابلتهم بالعنف ، لتنكبهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى[1] (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ)وهذه الآية أصل فى آداب المناظرة والجدل « وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [ ٤ / النساء / ١٤٨ ] .

وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤولا . وروى البخارىّ(١) عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارىّ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أبى نملة الأنصارىّ مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقًّا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارىّ(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يُشَبْ . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيّروا ، وكتبوا بأيدهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

---

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ـ كتاب الشهادات، ٢٩ ـ باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلا . ألا ينها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

وقال البخارىّ[1] : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهرىّ . أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً علم بذلك . كل بحسبه . ولله الحمد والمنة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ، فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ » أى: مثل ذلك الإنزال، أنزلنا إليك الكتاب. أى أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية « فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ » أى العرب « مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ » أى فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين فى شرائعه وقضاياه ، على أمىّ لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة . وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفىّ ، ونفى للتجوز فى الإسناد « إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتبٍ مأثورة عن الأنبياء.

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته فى الكتب المتقدمة . كما قال تعالى[1] ( ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ » الآية. وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده. بل كان له كتّابٌ يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخرى الفقهاء، كالقاضى ابن الوليد الباجى ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية[2] فى صحيح البخارى ( ثم أخذ فكتب ) وهذه محمولة على الرواية الأخرى ( ثم أمر فكتب ) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى ، وتبرأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم. وإنما أراد الرجل أعنى الباجى فيما يظهر عنه. أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروى وأبو الفتح النيسابورىّ وأبو الوليد الباجى من المغاربة . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٥٧ ] .

(٢) أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسوّر بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميّته لاتنافى المعجزة . بل هى معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح[1] ( إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب ) وقال : كل ماورد فى الحديث من قوله ( كتب ) فمعناه أمر بالكتابة. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ )

[٥٠] ( وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

« بَلْ هُوَ »أى القرآن« ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء فى صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا فى الكشاف. «وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ* وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ »يعنون ما كانوا يقترحونه فى تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ » أى هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ »أى ليس من شأنى إلا الإنذار وإبانته، لاالإتيان بما تقترحونه. ثم أشار إلى أن فى آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لانكتب ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

[٥٢] ( قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ )

[٥٣] ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

[٥٤] ( يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ )

[٥٥] ( يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

[٥٦] ( يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ )

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أى آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعنت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أى إنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب . يعنى . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محقّ ، لانتقم منى، كما قال تعالى[1] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى « يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكم «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ*وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما « لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى عاجلا « وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً » أى فجأة فى الدنيا. كوقعة بدر . فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو فى الآخرة عند نزول الموت بهم ( يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » أى ستحيط بهم . أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هى كالمحيطة بهم . لأن كل آت قريب.

« يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد مّا ، يقدّر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لاينبغى الإقامة بأرض لايتيسر بها للمرء ما يريده . كما قيل : * وكل مكان ينبت العز طيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها     بلادى ، وكلُّ العالمين أقاربى

(١) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧ ] .

وقد روى الإمام[1] أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله . فحيثما أصبت خيرا فأقم. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشيّ رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملا بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ )

[٥٨] ( وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ )

[٥٩] ( ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ )

[٦٠] ( وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ )

[٦١] ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ )

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٢٠ ( طبعة المعارف ) .

الموت بأمر كريه الطعم، مرّه « وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ » أي على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّن » أي: وكم « مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أي لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أي يقيّض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو الميسّر والمسهّل لكل مخلوق من رزقه مايصلحه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنّى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد في سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد مرفوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقيّ « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم » يعني هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أي اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أي فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها مالا يضر ولا ينفع . وكثيرا مايقرر تعالى مقام الإلٰهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ» أى فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده . وأنه أظهر حجتك عليهم. والمعنى: احمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نِعَمٍ لا تحصى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه، ويعبدون غيره. وقوله « وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ » إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها فى سرعة زوالها ، وتقضّى أمرها ، كما يلهى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه. ولا ثمرة إلا التعب. فى الحصر تشبيه بليغ «وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ » أى دار الحياة الخالدة. ففيه مضاف مقدر. و(الحيوان) مصدر سمى به ذو الحياة ، فى غير هذا المحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح فى المصادر الدالة على الحركة « لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ » أى لم يؤثروا عليها الدنيا التى حياتها عارضة. وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ )

[٦٦] ( لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ )

[٦٧] ( أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ )

« فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى الدعاء. لعلمهم أنه لا ينجيهم من الغرق سواه « فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ » أى من

نعمة النجاة وربح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون «أَوَلَمْ يَرَوْا» أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً » أى لا يُغْزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم و كثرة العرب « وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهبا وسبيا « أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ )

[٦٩] ( وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ )

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً » بأن زعم أن له شريكا «أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ » يعنى الرسول أو الكتاب « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى موضع إقامة ، جزاء افترائهم وكفرهم . بلى « وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا » أى جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا. وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى: أعمالهم بالنصر والمعونة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٠ - سورة الروم

قال المهايميّ : سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد المؤمنين فرحا عظيما ، بعد ترح يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن .

وهي مكية . وآيها ستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓمٓ )

[٢] ( غُلِبَتِ ٱلرُّومُ )

[٣] ( فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ )

[٤] ( فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ )

[٥] ( بِنَصْرِ ٱللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

[٦] ( وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت‌المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين ـ فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرنّ عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضُهم . وتراهن مع الصديق رضى‌الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يمض من البضع ـ وهو ما بين الثلاث إلى التسع ـ سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوّخها ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه. وفى ضمنه،أن سائرغيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلوّ الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوّهم، إلى غير ذلك . وما ألطف ماقال الزبير الكلائىّ: رأيت غلبةفارس الرومَ. ثم رأيت غلبةالروم فارسَ . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم. كل ذلك فى خمس عشرة سنة ـ من أواخرغلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين ـ والأرض (كما قال الزمخشرىّ) أرض العرب . لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا فى أدنى أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ» أى من قبل غلبة فارس على الروم «وَمِنۢ بَعْدُ»أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولًا ، وغالبين آخرا ، ليس إلا بأمره وقضائه، وعلمه ومشيئته . كماقال تعالى[1] (وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ) «وَيَوْمَئِذٍ» أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ماوعده الله تعالى من غلبتهم « يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ ٱللَّهِ » أى تغليبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغيظ من شمت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنصُرُ مَن يَشَآءُ »أى من عباده على عدوّه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ» أى القاهر الغالب على أمره ، لايعجزه من شاءنصره «ٱلرَّحِيمُ»أى فى نصره وتغليبه من يشاء«وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحكمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] ( يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ )

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٤٠ ] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَافِلُونَ » أى لا يُخطرونها ببالهم . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشريّ : قوله تعالى ( يعلمون ) بدل من قوله ( لا يعلمون ) وفى هـذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله ( ظَاهِرًا ) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. انتهى.

وناقش الكرخىّ فى إبدال ( يَعْلَمُونَ ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفىّ لايصح. واستظهر قول الحوفىّ: أن (يَعْلَمُونَ) استئناف فى المعنى.

وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَاهِرًا) تقليلا لمعلومهم. وتقليلُه يقربه من النفى. فيطابق المبدل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشرىّ (وفى تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر ) .

وأما قول أبى السعود : وتنكير ( ظَاهِرًا ) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق البدل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله ( أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ) أى يحدثوا التفكر فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكر . فالمجرور ظرف للتفكر ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا فى النفس . والتفكر لا متعلق له ، لتنزيله منزلة اللازم. وجوز كون المجرور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(فى) أى : أو لم يتفكروا فى أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر فى ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق. أى: ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعلموا . وقال السمين : ( ما ) نافية . وفى هذه الجملة وجهان : أحدها ـ أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثانى ـ أنها معلقة للتفكر . فيكون فى محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء فى قوله ( بِٱلْحَقِّ ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى، لا بد لها من أن تنتهى إليه. وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

«أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهـــل مكة « وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا » أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العَدد والعُدد ، وتنظيم الجيوش والتزين بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهتها. ففسدت ملـكاتهم ، وطغت شهواتهم، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم، كما قال «وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ»أى الآيات الواضحات على حقية مايدعونهم إليه « فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى فـكذبوهم فأهلـكهم . فما كان الله ليهلـكهم من غير جرم منهم « وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ » أى عملوا السيئات « ٱلسُّوٓأَىٰٓ » أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . و(ٱلسُّوٓأَىٰٓ) تأنيث (الأسوأ)، وهو الأقبح. كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى «أن» أى لأن « كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ* ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ » أى ينشئهم « ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد الموت بالبعث « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى إلى موقف الحساب والجزاء « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ » أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال ( أبلس ) إذا سكت وانقطعت حجته.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾

[١٤] ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

[١٥] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

[١٦] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

[١٧] ( فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ )

[١٨] ( وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ )

« وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ » أي يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون « وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ » أي بإلٰهيتهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنه أمرهم « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » أي يتميز المؤمنون والكافرون في المحالّ والأحوال « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » أي يسرّون « وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أي لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم « فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . و( الفاء ) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان إلخ . والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما . و (سبحان) خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده . أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى ( وَعَشِيًّا ) معطوف على ( حِينَ ) وتقديمه على ( حِينَ تُظْهِرُونَ ) لمراعاة الفواصل . وقوله ( وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد ممن له تميز من أهلهما. قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسيطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما ينبئ عنه قوله تعالى[(١)] (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى[(٢)] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية جامعة للصلوات الخمس :(تمسون) صلاة المغرب والعشاء .و(تصبحون)

(١) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ] . (٢) [ ١٥ / الحجر / ٩٨ ] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر. فإن قيل: لم غيّر الأسلوب في (عشيا) ؟ أجيب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لايجى منه الفعل بمعنى الدخول في العشيّ . كالمساء والصباح والظهيرة . ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا . أما في المساء والصباح فظاهر . وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

[٢٠] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ » أى كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة «وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ » أى بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أى يبسها « وَكَذَٰلِكَ » أى : ومثل ذلك الإخراج « تُخْرَجُونَ » أى من قبوركم .

وقال المهايميّ : أى : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها . ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اه وآثر هذا المعنى، على بعده ، مراعاة لسياق الآية، من طريق الإشارة « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ » أى

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشارا ملأ البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة. كل بحسبه. فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم فى فنون المعايش وفاوت بينهم فى العلوم والمعارف، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضامّ والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادًّا وتراحما بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ )

[٢٣] ( وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ )

[٢٤] ( وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

[٢٥] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)

«وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ» أى أولى العلم كما قال(١) (وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ) «وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ» أى لاستراحة القوى وردّ ما فقدته «وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ» أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى سماع تفهم واستبصار «وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا» أى من الصاعقة «وَطَمَعًا» أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه «وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ» أى بالنبات «بَعْدَ مَوْتِهَآ» أى يبسها «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ» أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤهما. لأنه قد بيّن حاله بقوله تعالى(٢) (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تمات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى(٣) (خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل(٤) (مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضاً، فقيل : «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ» فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤٣ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ٢٢ ] .

(٣) [ ٣١ / لقمان / ١٠ ] . (٤) [ ٣٠ / الروم / ٨ ] .

مترتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم فى سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما. ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى[1] ( يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ) انتهى .

لطائف :

الأولى ـ الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبّه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تجشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعى المطاع على دعائه. أو هو مكنية وتخييلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يتهيئون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قرينتها .

الثانية ـ قوله تعالى ( مِنَ ٱلْأَرْضِ ) متعلق بـ ( دعا ) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلىّ ، لا بـ ( تخرجون ) لأن مابعد ( إذا ) لايعمل فيما قبله .

الثالثة ـ قال الكرخىّ: قال هنا (إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال فى خلق الإنسان[2] ( ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدريج، حتى يصير التراب قابلا للحياة، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما فى الإعادة فلا يكون تدريج . بل يكون بدء وخروج. فلم يقل هنا : (ثم). انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ )

[٢٧] ( وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

(١) [ ٢٠ / طه / ١٠٨ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ٢٠ ] .

«وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى خلقاً وملكاً وتصرفاً « كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ» أى منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد موتهم . قال أبو السعود : وتكريره لزيادة التقرير ، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » أى من البدء. أى بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء فى السهولة.

لطائف :

الأولى ـ تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ ( أن يعيد ) .

الثانية ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ أخرت الصلة فى قوله ( وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) وقدمت فى قوله[1] (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ )؟ قلت :هناك قصد الاختصاص، وهو محزّه. فقيل (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ )وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمّ وعاقر. وأما هٰهنا، فلا معنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبنىّ على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء. فلو قدمت الصلة، لتغيّر المعنى . اهـ .

قال الناصر: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر، لا بالحبر . وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت فى قوله[2] (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموٰات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة فى نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر: إنما يلقى فى السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ(ثم) إيذانا بتغاير مرتبتها وعلوّ شأنها. وقوله (فى الجواب): إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء، لا يخلص .فإن الإعادة ذكرت هٰهنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة .فيلزم

(٣) [ ١٩ / مريم / ٩ و ٢١ ] . (٢) [ ٣٠/ الروم / ٢٥ ] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص، والله أعلم، جعل ( ثم ) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضي : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها. أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى، فتكون للتفاوت في الرتبة لا للتراخي الزماني. والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه. فلا ينافي قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبةُ المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثريّ لا كليّ . كما صرح به الطيبيّ هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة نفيسة. ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزمانيّ والرتبيّ كما في ( شرح الكشاف ) وقوله تعالى « وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيهما. كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة. فكل شيء بدءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج: المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولا ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على ألسنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ) أي الغالب على أمره، الذي لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « ٱلْحَكِيمُ » الذي يجري أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[٢٩] ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

« ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا » أى يتبيّن به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منتزعا من أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم » أى من العبيد والإماء « مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر لـ( أنتم ) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى كما يخاف بعضكم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نفى مضمون مافصّل من الجملة الاستفهامية . أى: لاترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم، وهم أمثالكم فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية ، التى هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان « فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ » أى بسبب صرف اختياره إلى كسبه. أى: لا يقدر على هدايته أحد « وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

[٣١] ( مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ )

[٣٢] ( مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ )

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقوّمه له، واجعله مستقيما متوجهاً له. وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية ، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه «حَنِيفاً» أى مائلا عن كل ماسواه، إليه. قال المهايمىّ: ولا يعسر الرجوع إليه لكونه « فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً. فالقول بتعدده تغيير للفطرة. لكن « لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ » أى لاتغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال «ذَٰلِكَ» أى الدين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لاعوج فيه. قال المهايمىّ: وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة. وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب. لأنها من الأمور التى لاتدخل تحت الكسب والاختيار. وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه بالتوبة والإنابة(١) ( وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ) وهو حال من فاعل (الزموا) المقدَّر ناصباً لـ(فطرة) أومن فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . أولأن الخطاب له ﷺ ولأمته. أو على أنه على حذف المعطوف عليه. أى: أقم أنت وأمتك. والحال من الجميع

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٣٥ ] .

« وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وَكَانُوا شِيَعًا» أى فرقاً « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقا .

قال القاشانىّ : يعنى المفارقين الدين الحقيقىّ ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدّر الفطرة ، وتكاثف الحجاب ، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائما ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ )

[٣٤] ( لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ )

[٣٥] ( أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ )

[٣٦] ( وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ )

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم « ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً » أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهديدىّ كقوله تعالى « فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ » أى عاقبة تمتعكم ووباله « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا » أى حجة واضحة قاهرة « فَهُوَ يَتَكَلَّمُ » أى تكلم دلالة . كما فى قوله[١] تعالى ( هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ) « بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » أى بإشراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شىء من ذلك « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمة من صحة وسعة « فَرِحُوا بِهَا » أى بطراً وفخراً ، لا حمدا وشكرا « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه. فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال[٢] (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ) أى يفرح فى نفسه، يفخر على غيره. وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى[٣] ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء. كما ثبت فى الصحيح[٤] : عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فما لهم

(١) [ ٤٥ / الجاثية / ٢٩ ] .(٢) [ ١١ / هود / ١٠ ] . (٣) [ ١١ / هود / ١١ ] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٦٤ ( طبعتنا )

يقنطون من رحمته ، ومالهم لايرجعون إليه تائبين من المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بيّن تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، ومايجب أن يترك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ )

[٣٩] ( وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ، وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ )

« فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أى من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. لأن ( آتِ ) أمر للوجوب. والظاهرمن(الحق)بقرينة ماقبلهأنهمالىّ، وهواستدلال متين «وَٱلْمِسْكِينَ» وهوالذى لاشىء له ينفق عليه . أو له شىء لايقوم بكفايته « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أى السائل فيه، والذى انقطع به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ » أى النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى. أو يريدون ذاته بمعروفهم لارياء ولاسمعة، ولا مكافأة يد . كما قال تعالى(١) ( ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ )«وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى فى الدنيا والآخرة«وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا»أى مال ترابون فيه « لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ » أى لتزيد فى أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ » أى لايزكو ولا ينمو

(١) [ ٩٢ / الليل / ١٨_٢٠ ] .

ولا يبارك فيه . بل يمحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال . وذكر فى تفسيرها معنى آخر ، وهوأن يهب الرجل للرجل، أو يهدىله ليعوّضهأكثر مماوهب أوأهدى. فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قال الضحاك، واستدل بقوله تعالى[1]( وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ) أى لاتعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لايصح ، يعنى ربا البيع ، وربا لابأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : فى ذلك كله نظر من وجوه :

الأول ـ أن هذه الآية شبيهة بآية[2] (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ) وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثيرمن البؤساء، مماخرج عن طورالرحمة والشفقة والكمال البشرىّ . فنعى عليهم حالهم، طلباً لتزكيتهم بتوبتهم منه . ثم أكّد ذلك فى مثل هذه الآية . مبالغة فى الزجر .

الثانى ـ أن الربا ، على ماذكر ، مجاز . والأصل فى الإطلاق الحقيقة، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لاموجب له .

الثالث ـ دعوى أن الهبة المذكورة مباحة، لابأس بها بعد كونها هى المرادة من الآية ـ بعيدة غاية البعد. لأن فى أسلوبها من الترهيب والتحذير مايجعلها فى مصافّ المحرمات. ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية، كما تقرر فى موضعه .

الرابع ـ زعمُ أن المنهىّ عنه هو الحضرة النبوية خاصة، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب. وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لايوجب اختصاص الحكم على التحقيق. لا يقال الأصل وجوب

---

(١) [ ٧٤ / المدثر / ٦ ] .     (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٧٦ ] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل ـ لأنا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيصٌ مرادٌ به التعميم إجماعاً . كآية[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ) وأمثالها .

الخامس ـ أن في هذا المنهيّ عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفّاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبيّن أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي ـ لم يبعد . لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكيّة . وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعوّل . والله أعلم « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ » أي مال تتزكون به من رجس الشح ودنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » أي ذوو الأضعاف من الثواب . جمع ( مضعف ) اسم فاعل ( من أضعف ) إذا صار ذا ضعف ، ( بكسر فسكون ) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . ( كأقوى وأيسر ) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا . على أنه من ( أضعف ) والهمزة للتعدية ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » قال القاضي : أثبت له

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١ ] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغــيرها . مؤكداً بالإنــكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

«ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» أى كثرة المضار والمعاصى على وجه الأرض وعلى ظهر السفن فى لجج البحر « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ » أى من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا « لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » اللام للعاقبة . أى ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، لعلهم يرجعون عماهم عليه . كقوله تعالى[١] (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٣٠ ] .

أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ » أي فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ » أي لا يقدر أحد على ردّه. وقوله « مِنَ ٱللَّهِ » متعلق بـ(يأتي) أو بـ(مردّ) لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى، لتعلق إرادته بمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهانيّ . وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه . كما في الحديث ( لا مانع لما أعطيت ) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » أي يتفرقون كالفراش المبثوث ، أو فريق في الجنة وفريق في السعير كقوله[1] ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ )

[٤٥] ( لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ )

« مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ » أي وبال كفره . قال الزمخشريّ : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضارّ. لأن من كان ضارّه كفره، فقد أحاطت به كل مضرة « وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » أي يسوّون منزلا في الجنة . أي يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

[٤٧] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

---

(١) [ ٣٠ / الروم / ١٤ ] .

«وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ» أى بالمطر «وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ» أى فى البحر عند هبوبها «وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ» أى بتجارة البحر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» هذه تسلية له ﷺ بمن قبله على وجهٍ يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه. قال الزمخشريّ : فى قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية . حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ، فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[٤٩] (وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ)

[٥٠] (فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ» إما سائرا وواقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا» أى قطعا تارة أخرى «فَتَرَى ٱلْوَدْقَ» أى المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم» أى المطر

«مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ» أي لآيسين. قال الزمخشريّ: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى[1] (فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا) ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلاس إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب. لأن المتبادر من القبلية الاتصال. وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ» أي أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ» أي العظيم الشأن الذي ذكر بعض شؤونه «لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ)

[٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)

[٥٣] (وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

«وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أي من تأثيرها فيه «لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ» أي من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم ـ ما لا يخفى .

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١٧ ] .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ » أى لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق «وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ» قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر ، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء ، نبوّ أسماعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداها ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوها ؟ «وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ» أى ما تسمع « إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية[1] ( فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ) على توهيم[2] عبد الله بن عمر فى رواية مخاطبة النبىّ ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيّفوا؟ فقال : والذى نفسى بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم. ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته ، تقريعا وتوبيخاً ونقمة .

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا ( ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه فى الدنيا، فيسلّم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالًا بهذه الآية ونحوها .

---

(١) [ ٣٠ / الروم / ٥٢ ] . (٢) الحديثان أخرجهما البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و ٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لوحلف لايكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لايحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ فى أهل القليب ( ماأنتم بأسمع منهم ) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكرته. وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له. أو أنه تمثيل. كما روى عن على كرم الله وجهه. وأورد عليه مافى مسلم(١) من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا. إلا أن يخص بأول الوضع فى القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين مافى القرآن. نقله الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٤] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ )

[٥٥] ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ )

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها. أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتهال وبلوغ الأشدّ « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَايَشَآءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة والتغيير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انفراده بالألوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون « كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشاف .

(١) أخرجه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة. فى الدنيا فعلوا مافعلوا من عبادة الأوثان . وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فمنه إقسامهم بالله أنهم مالبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله[1] ( كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ) تشابه حالهم فى الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل. والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى فى الباطل ، والكذب الذى ألِفُوه . انتهى .

وقيل : كان قسمهم استقلالًا لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضاعوا فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ، فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

[٥٧] ( فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ )

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ » ردًّا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق، لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة، أو شىء مما يجب الإيمان به « مَعْذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم فى إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [ ٣٠ / الروم / ٥٥ ] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

[٥٩] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[٦٠] ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أي من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجري مجرى المثل في الظهور « وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ » أي مما اقترحوه أو غيرها « لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أي لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها. فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق. قاله أبو السعود « فَاصْبِرْ » أي على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أي في قوله[1] ( وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ) « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ » أي لا يحملنك على الخفة والقلق « الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أي بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣١ - سورة لقمان

سميت به لاشتمالها على قصته التى تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهى عن الذميمة . وهى معظمات مقاصد القرآن . قاله المهايمىّ . وهى مكية . ويقال : إلا قوله تعالى[1] ( وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ . . . )الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه.

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓمٓ )

[٢] ( تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ )

[٣] ( هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ )

[٤] ( ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ )

[٥] ( أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ )

[٦] ( وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ )

« الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ »أى ذى الحكمة الناطق بها« هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ* ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »بيان لإحسانهم، يعنى ماعملوه من الحسنات. أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها . والمراد بالزكاة، على أنها مكية، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه، وتزكية للنفس بإيتائه، من وصمة البخل والشح المردى لها. لا أنصباؤها المعروفة. فإنها إنما بيّنت بالمدينة «أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ* وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » تعريض بالمشركين. وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة، مايُلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم. ليضلّوا أتباعهم عن الدين الحق. قال الزمخشرىّ: و(اللهوُ) كل باطل ألهى عن الخير، وعما يعنى. ولهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التى لاأصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لاينبغى، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه. ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى بما هى الكمالات ومنافعها ، والنقائص ومضارّها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث. « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ )

[٨] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ )

[٩] ( خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

[١٠] ( خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ )

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ» أى أعرض عنها «مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا» أى ثقلا مانعا من السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » الضمير للسموات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله ( بِغَيْرِ عَمَدٍ ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر، صفة للعمد. أو بغير عمد مرئيّة. يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهى إمساكها، بقدرته. كذا فى (الكشاف) «وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ» أى جبالًا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِكُمْ » أى تميل بكم فتهلككم لما فى جوفها من قوة الجيشان « وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ » أى من كل نوع من أنواعها «وَأَنزَلْنَا» أى لحفظكم وحفظ دوابّكم ، وللرفق بكم وبدوابكم « مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف من الأغذية والأدوية « كَرِيمٍ » أى كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ، بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

[١٢] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ )

« هَٰذَا» أى ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة «خَلْقُ ٱللَّهِ »أى مخلوقه « فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ »أى مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة« بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّن المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً ، فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه . ووضعُ الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء فى غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ » يعنى استكمال النفس بالعلوم النظرية ، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمرين له على لسان نبىّ أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحى (على قول عكرمة أنه نبىّ) « أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ » أى على ما أعطاك من نعمهِ ، من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيرا . كذا قاله المهايمىّ . والأظهر أن (أنْ) مفسرة. فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول. والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى غنىّ عن كل شىء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان. هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة، على قولين : الأكثرون على الثانى . ويقال إنه كان قاضيا على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبدا مسّه الرق ، وينافى كونه نبيا . لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما يُنقل كونه نبيا عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه[1] رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبيا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفىّ . وهو ضعيف. والله أعلم . انتهى.

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنىّ. وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب فى تقريبه ، بأن الفعل العربىّ وهو ( لقم ) معناه بالعبرىّ بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطىّ من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقولْ قيل نبىّ أوْ ولىٌّ أو رسولْ
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم والوقف فى الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية )

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى(١) (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ) وكثيرا مايقرن تعـالى بين ذلك فى القرآن الـكريم . وقال ههنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ )

[١٤] ( وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ )

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ » أى بالإحسان إليهما ، لاسيما الوالدة . لأنه « حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة. و(وهنا) حال من (أمه) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أى: تهن وَهْنًا. وقوله ( عَلَىٰ وَهْنٍ ) صفة للمصدر. أى كائنا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا « وَفِصَـٰلُهُۥ » أى فطامه « فِى عَامَيْنِ » ثم فسّر الوصية بقوله سبحانه « أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ » أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره. قال فى (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له . واعترافه بنعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره. هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناؤه عليها . فإن عدم منها واحدة، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر. وكل من تـكلم فى الشكر، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

---

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٢٣ ] .

وقوله تعالى « إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ » تعليل لوجوب الامتثال . أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

## تنبيهات

الأول ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت: قوله تعالى ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا، وتذكيرا بحقها العظيم مفردا. ومن ثم قال رسول الله ﷺ[(١)] ( لمن قال له من أبرّ؟ ) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب[(٢)] أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول فى حدائه بنفسه .

أَحْمِلُ أُمِّى وَهِىَ الْحَمَّالَهْ * تُرْضِعُنِى الدِّرَّةَ وَالْعُلَالَهْ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهْ

الثانى ـ قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى ( وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ) كقوله[(٣)] ( وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال فى الآية الأخرى[(٤)] ( وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى[(٥)] ( وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢ ـ باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .(٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .(٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤].

الثالث ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى فى توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التى لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تفطمه . ويدل عليه قوله تعالى[1] ( وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا » أى فى إشراك ما لا تعلمه مستحقا للعبادة ، تقليدا لهما .

وقال الزمخشريّ : أراد بنفى العلم به نفيه ، أى لا تشرك بى ما ليس بشىء ، يريد الأصنام . كقوله[2] ( مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ) .

قال فى ( الكشف ) : ليس هذا من قبيل نفى العلم لنفى وجوده . كما مر فى القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ فى نفيه حتى جعل كلا شىء . ثم بولغ فى سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا » أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية أن الوالد لا يطاع فى الكفر . ومع ذلك يصحب معروفا « وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ » أى بالتوحيد والإخلاص فى الطاعات ، وعمل

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣٣ ] . (٢) [ ٢٩ / العنكبوت / ٤٢ ] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضى : والآيتان ، يعنى ( وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ إلى قوله ـ تَعْمَلُونَ ) معترضتان فى تضاعيف وصية لقمان ، تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة فى ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو البارئ تعالى فى استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا فى الإشراك . فما ظنك بغيرهما ؟ انتهى .

ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ )

[١٧] ( يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ )

« يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ » أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان، إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل « فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر ، فى أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة. أو حيث كانت فى العالم العلوىّ أو السفلىّ « يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته فى كل شىء « خَبِيرٌ » أى يعلم كنه الأشياء، فلا يعسر عليه. والآية هذه كقوله تعالى(١) (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٧ ] .

شَيْئًا ) الآية ، وقوله[١] ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ) .

لطيفة :

قوله تعالى ( فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ) الآية، من البديع الذى يسمى التتميم. فإنه تمم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها[٢] ( كأنه علم فى رأسه نار ). « يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك «وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ» لتكميل غيرك «وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ» أى من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية[٣] (وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) « إِنَّ ذَٰلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ )

---

(١) [ ٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨ ] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترثى أخاها صخرا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنَكِ أم بالعين عُوّارُ ... أم ذرّفت ،أم خلَتْ من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أغرّ أبلجُ تأتمّ الهداةُ بهِ *

(٣) [ ١٠٣ / العصر / ٣ ] .

[١٩] ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

« وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء فى الحديث(١) ( ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ) « وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا » أى خيلاء متكبرا « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى معجب فى نفسه « فَخُورٍ » أى على غيره « وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ » أى توسط بين الدبيب والإسراع « وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ » أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال « إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و ( أنكر ) بمعنى أوحش . من قولك ( شىء نكر ) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبيح ( وحش ) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشرىّ : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجردا ، وتفاديهم من اسمه ، أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون ( الطويل الأذنين ) كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدّ فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا ـ مبالغة

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٥ ـ باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة فى الذم والتهجين . وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان فى أحاديث مرفوعة. منها ما رواه الإمام أحمد(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبى حاتم عن القاسم بن مخيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بنىّ إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبى حاتم عن السرىّ بن يحيي قال : قال لقمان لابنه : يابنىّ إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنىّ ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ( يعنى السلام ) ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجِل سهمك معهم . وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالألوهية، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾

---

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ )

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ، أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ » أى من النجوم والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى. وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له . وكذا ماأوجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً » أى محسوسة ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ ٱلنَّاسِ » يعنى الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ » أى فى توحيده وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبىّ « وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و ( المنير ) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ » أى لمن يجادل. والجمع باعتبار المعنى « ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ » أى يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب. كأنه يدعوهم إلى عين العذاب. فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنّى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ )

[٢٣] ( وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ )

[٢٤] ( نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ )

[٢٥] ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

[٢٦] ( لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ )

[٢٧] ( وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ )

[٢٨] ( مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ )

[٢٩] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )

«وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »أى في أعماله «فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ » أى تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن، بحال من أراد رقيّ شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلّى منه « وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ » أى من الأعمال الظاهرة والباطنة« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لايكاد ينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ » أى عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا « ٱلْحَمِيدُ » أى المحمود فيما خلق وشرع، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد نفاده « سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ » أى التى أوجد بها الكائنات، وسيوجدبها مالاغاية لحصره ومنتهاه. والسبعة ، إنما ذكرت ، على سبيل المبالغة لاالحصر . « إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ »أى إلا كخلقها وبعثها فى سهولته« إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى» أى أمد قدره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة « وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق ، لايكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بما يأتى ويذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ )

[٣١] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ )

[٣٢] ( وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ )

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارئ بها « بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ » أى عظيم الصبر على البأساء والضراء « شَكُورٍ » أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها « وَإِذَا غَشِيَهُم » أى علاهم وأحاط بهم « مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ » أى كالسحب والحجب « دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى التجئوا إليه تعالى وحده، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد، بما دهاهم من الضر «فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ »قال ابن كثير: قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر ( المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى(١) (فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل. وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله(٢) تعالى ( فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ) الآية ، فالمقتصد هنها هو المتوسط فى العمل . ويحتمل، أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك، كان مقصرا والحالة هذه . والله أعلم . انتهى «وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ » أى غدّار، ناقض للعهد الفطرىّ ولعقد العزيمة وقت الهول البحرىّ « كَفُورٍ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى. لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا » أى ليس يغنى أحدهما عن الآخر شيئا ، لانقطاع الوُصَل فى

(١) [ ٢٩/ العنكبوت / ٦٥ ] . (٢) [ ٣٥ / فاطر /٣٢ ] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم ـ في الثانية ـ للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّـهِ حَقٌّ » أي بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّـهِ ٱلْغَرُورُ » أي الشيطان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ)

« إِنَّ ٱللَّـهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أي علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ » أي في وقته الذي قدره ، وإلى محله الذي عينه في علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ » أي من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقي «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا» أي من خير أو شر «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أي في بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء في الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتح الغيب « إِنَّ ٱللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ » أي بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٢ – سُورَة السَّجْدَة

سميت بها ، لأن آية السجدة منها، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرّ وجوه الكل ، لسماع مواعظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض فى كلامه . وبشكره على كمال هدايته. وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهايمىّ . وهى مكية ، وآيها ثلاثون .

روى البخارىّ[1] فى ( كتاب الجمعة ) عن أبى هريرة قال: كان النبىّ ﷺ يقرأ فى الفجر، يوم الجمعة ، آلم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان .

ورواه مسلم[2] أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبىّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم. تنزيل السجدة، وتبارك الذى بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ١٠ ـ باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢.

(٢) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٥و٦٦ ( طبعتنا )

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( الٓمٓ )

[٢] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[٣] ( أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ، بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )

« الٓمٓ » تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور « تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى كونه منزلا « مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ » أى اختلقه من تلقاء نفسه « بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى يتبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول، قبله ﷺ . فلطف تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ )

[٥] ( يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ )

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

« ٱلْعَرْشِ » تقدم الكلام فى ذلك « مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ » أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق « أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » أى تتعظون بالقرآن فتؤمنوا « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أى يصعد إليه ، أى مع الملك للعرض عليه « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » أى مقدار صعوده على غير الملك ، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى[1] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ )

[٧] ( ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ )

[٨] ( ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ )

[٩] ( ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ )

« ذَٰلِكَ » أى المدبر « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَٱلشَّهَٰدَةِ » أى ما علمه العباد وما كان « ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « ٱلرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره « ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ » يعنى آدم « مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

(١) [ ٦٥ / الطلاق / ١٢ ] .

نَسْلَهُۥ » أى ذريته « مِن سُلَٰلَةٍ » أى من نطفة « مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ » أى ضعيف ممتهن . والسلالة الخلاصة . وأصلها مايسلّ ويخلص بالتصفية « ثُمَّ سَوَّىٰهُ » أى قوّمه فى بطن أمه « وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ » أى جعل الروح فيه، وأضافه إلى نفسه تشريفاًله « وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى خلق لكم هذه المشاعر ، لتدركوا بها الحق والهدى « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى بأن تصرفوها إلى ما خلقت له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ، بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ )

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ )

« وَقَالُوٓا۟ » أى كفار مكة « أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الأرض لا نتميز منه ، أو غبنا فيها « أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ » أى نجدد بعد الموت « بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ » أى بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب « كَٰفِرُونَ » أى جاحدون . قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعا « قُلْ » أى بياناً للحق وردًّا على زعمهم الباطل « يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ » أى يقبض أرواحكم « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للحساب والجزاء .

فائدة :

قال ابن أبى الحديد فى ( شرح نهج البلاغة ) فى هــذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا

أن الروح جسم لطيف بخاريّ يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ فى العروق ، حالّة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن لملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين فى وقت واحد فى المشرق والمغرب، لأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين . فى وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج الملَك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائىّ ، لا يتعذر عليه النفوذ فى المخارق الضيقة، فيخالط الروح، التى هى كالشبيهة بها، لأنها بخارىّ. ثم يخرج من حيث دخل ، وهى معه .

وإنما يكون ذلك فى الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل .

فألزموا على ذلك أن يغوص الملَك فى الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملَك الماء فى مسامّ الماء ، فإن فيه مسامّ ومنافذ وفى كل جسم . على قاعدتهم فى إثبات المسامّ فى الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسامّ فيه ، لم يبعد أن يلجه الملَك فيوسع لنفسه مكانا، كما يلجه الحجر والسمك ، وغيرهما . وكالريح الشديدة التى تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره . وقوة الملَك أشدّ من قوة الريح . انتهى .

والأوْلى الوقوف، فيما لم تعلم كيفيته، عند متلوّه وعدم مجاوزته، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يُبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء « نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ »أى مطأطئوها من الحياء والخزى، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَآ»أى يقولون ربنا «أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا » أى علمنا ما لم نعلم ، وأيقنا بما لم نكن به موقنين « فَارْجِعْنَا » أى إلى الدنيا « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أى مقرّون بك وبكتابك ورسولك والجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » أى تقواها «وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أى فى القضاء السابق « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى سبق القول حيث قلت لإبليس، عندقوله[١] (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[٢] (فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أى فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم . بل منعناه من أتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الغىّ والفساد . ومشيئته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها . فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاءه لهم . وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة ، وهم المعنيّون بما سيأتى من قوله تعالى[٣] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الآية.فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى ، فى الحقيقة ، سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده أبوالسعود . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أى تركتم الإقرار به ، والإيمان بصدق موعوده ، وعاملتموه معاملة المنسىّ المهجور « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أى جازيناكم جزاء

(١) [ ١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠ ] . (٢) [ ٣٨ / ص/٨٤ و ٨٥ ] .
(٣) [ ٣٢ / السجدة / ١٥ ] .

نسيانكم. أو تركنا كم فى العذاب ترك المنسى « وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الموبقات. والتكرير للتأكيد والتشديد. وتعيينُ الفعل المطوىّ، للذوق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ) [سجدة]

[١٦] ( تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ )

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا » أى وعظوا « خَرُّواْ سُجَّدًا » لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام « وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة. قال تعالى[١] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ) « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ » أى ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم. والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم، وهم المتهجدون بالليل « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى داعين له « خَوْفًا » من عذابه « وَطَمَعًا » فى رحمته « وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ » أى من المال « يُنفِقُونَ » أى فى وجوه البرّ والحسنات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

[١٨] ( أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا، لَّا يَسْتَوُۥنَ )

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٦٠ ].

[١٩] ( أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

[٢٠] ( وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ )

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم » أي ماذخر وأُعدّ أي لهؤلاء الذين عددت مناقبهم « مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » أي مما تقرّ به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة في الجنة « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أي في الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا » أي كافرا جاحدا « لَّا يَسْتَوُۥنَ » أي في الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة. ثم فصّل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا » أي ثوابا « بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا » وكقوله(1) تعالى ( كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ) كناية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أي يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة في غيظهم ، وتقريعا وتوبيخا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

[٢٢] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ، إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ )

---

(1) [ ٢٢ / الحج / ٢٢ ] .

« وَلَنُذِيقَنَّهُم » أى أهل مكة « مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ » أى عذاب الدنيا والجدب والقتل والأسر « دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكثافة الحجاب «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ »أى جحدها وكفر بها « إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ، وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ )

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟، وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة « فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ »أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه وحيا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب . ولقّيناه من الوحى مثل مالقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيُه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُوا۟ » أى على العمل به والاعتصام بأوامره « وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتينا كه، هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية. ويؤخذ من فحوى الآية، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقيّة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأديل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى[1] ( إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ) ففي طيّ هذا الترغيب ، ترهيب وأي ترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

[٢٦] ( أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ )

[٢٧] ( أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ )

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أي يقضي « بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أي فيميز الحق من الباطل ، بتمييز المحق من المبطل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أي يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أي الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ » أي منازلهم. كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام. فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها. ذهبوا كأن لم يغنوا فيها. كما قال[2] ( فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ) « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أي فيما فعلنا بهم « لَـَٔايَـٰتٍ » أي عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أي أخبار من تقدم، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل، وبغيهم الفساد في الأرض، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ » وهي التي جزر نباتها، أي قطع « فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ » يعني العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أي فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [ ١٣ / الرعد / ١١ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٥٢ ] .

انفراده بالإلهية . وهـذا كآية(١) ( فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

[٢٩] ( قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ )

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ » أى الانتصار علينا . استعجال لوقوع البأس الربانىّ عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ» لحلول ما يغشى الأبصار ويعمى البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى(٢) ( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح، قد قبل رسول الله ﷺ إسلامَ الطلقاء وقد كانوا قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى(٣) ( قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله(٤) ( فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ) وكقوله(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ) الآية وقال تعالى(٦) (وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) وقال تعالى(٧) (إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ) .

---

(١) [ ٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ٨٣ ] .
(٣) [ ٣٢ / السجدة / ٢٩ ] . (٤) [ ٢٦ / الشعراء / ١١٨ ] .
(٥) [ ٣٤ / سبأ / ٢٦ ] . (٦) [ ١٤ / إبراهيم / ١٥ ] .
(٧) [ ٨ / الأنفال / ١٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ )

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَانتَظِرْ » أى النصرة عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى[١] ( أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ الْمَنُونِ )[٢] ( وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

---

(١) [ ٥٢ / الطور / ٣٠ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٩٨ ] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# ٣٣ ـ سُورَةُ الأَحْزَابْ

سميت بها ، لأن قصتها معجزة لرسول ﷺ . متضمنة لنصره بالريح والملائكة . بحيث كفى الله المؤمنين القتال . وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايميّ .

وهي مدنية . وآياتها ثلاث وسبعون آية . وروى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب قال: لقد رأيتها وإنها تعادل سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها ( الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم ) .

قال ابن كثير : وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً . والله أعلم . انتهى .

قلت : كان يصح هذا الاقتضاء، لو كان هذا الأثر صحيحاً . أما ولم يخرجه أرباب الصحاح، فهو من الضعف بمكان .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ » نودى صلوات الله عليه بوصفه دون اسمه ، تعظيما له . وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تكريماً المخاطب. ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم، والتعظيم باق كآية[١] (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . وأمره عليه السلام بالتقوى تفخيما وتعظيما للتقوى نفسها، حيث أمر بها مثله . فإن مراتبها لا تنتهى . مع أن المقصود الدوام والثبات عليها. ولم يجعل الأمر لأمته كما فى نظائره ، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه . كقصة زيد رضى الله عنه « وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ » أى لا توافقهم على أمر . ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم . فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين . لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع ، لأنه العليم بعواقب الأمور وبالمصالح من المفاسد . والحكيم الذى لا يفعل شيئاً ، ولا يأمر به ، إلا بداعى الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا )

---

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٩ ] .

[٣] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

[٤] ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

«وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» أى فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا» أى أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره . فكفى به حافظاً موكولا إليه كل أمر «مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» قال الزمخشرىّ : أى ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوّة ودعوة فى رجل . والمعنى : إن الله سبحانه ، كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدهما فضلة غير محتاج إليها ـ وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها ، عالماً ظانًّا ، موقناً شاكًّا ، فى حالة واحدة ـ لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمًّا لِرَجُلٍ زوجا له . لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، كالمملوكة . وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد دعيًّا لرجل ، وابناً له . لأن البنوة أصالة فى النسب ، وعراقة فيه . والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير . ولا يجتمع فى الشىء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل . وهذا مثل ضربه الله فى (زيد بن حارثة) وهو رجل من كَلْبٍ سبى صغيراً . وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابَون . فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة . فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له . وطلبه أبوه وعمه فَخُيِّرَ . فاختار رسولَ الله ﷺ فأعتقه . وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل الله

هذه الآية . وقوله[1] ( مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ) .

والتنكير في (رجل) وإدخال (من) الاستغراقية على (قلبين) تأكيدان لما قصد من المعنى. كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ، ولا لواحد منهم ، قلبين البتة في جوفه .

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله[2] (ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه. لأنه إذا سمع به ، صوّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار . ومعنى (ظاهر من امرأته ) قال لها: أنت عليّ كظهر أمي . وكان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها ، كما يتجنبون المطلقة . وهو في الإسلام يقتضي الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة .

قال الأزهريّ: وخصوا (الظّهر)، لأنه محل الركوب. والمرأة تركب إذا غشيت. فهو كناية تلويحية ، انتقل من الظهر إلى المركوب، ومنه إلى المغشيّ. والمعنى: أنت محرمة عليّ لا تركبين، كما لا تركب الأم . كذا في ( الكشف ) .

وقوله تعالى« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى كل ما ذكر. أي من كونه ليس لأحد قلبان، وليست الأزواج أمهات ، ولا الأدعياء أبناء. أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة «قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ» أي لا حقيقة له فلا يقتضي دعواكم ذلك ، أن يكون ابناً حقيقياً. فإنه مخلوق من صلب رجل آخر فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان« وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ» أي الثابت المحقق في نفس الأمر « وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ » أي سبيل الحق .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥] ( ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٠ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] .

فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا )

« ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ » أى انسبوهم إليهم . وهو إفراد للمقصود من أقواله تعالى الحقة « هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ » أى أعدل وأحكم .

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء. فأمر تبارك وتعالى بردّ نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة. وأن هذا هو العدل والقسط والبر. روى البخاريّ[(١)] عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضى الله عنه، مولى رسول الله ﷺ، ما كنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن (ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) وأخرجه مسلم[(٢)] وغيره. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك. ولهذا قالت سهلة[(٣)] بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يارسول الله! إنا ندعو سالما ابنا . وإن الله قد أنزل ما أنزل . وإنه كان يدخل عليّ. وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا. فقال ﷺ: أرضعيه تحرمى عليه.. الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعىّ . وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه. وقال عز وجل[(٤)] (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ) وقال تبارك وتعالى[(٥)] فى آية التحريم (وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ) احترازاً عن زوجة الدعىّ، فإنه ليس من الصلب .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٢ ـ باب ادعوهم لآبائهم، حديث ٢٠٣٠

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٦٢ ( طبعتنا )

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث رقم ٢٦ ( طبعتنا )

(٤) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٧ ] . (٥) [ ٤ / النساء / ٢٣ ] .

فأما الابن من الرضاعة ، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ﷺ فى الصحيحين[١] : حرموا من الرضاعة مايحرم من النسب .

فأما دعوة الغير ابنا ، على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نُهى عنه فى هذه الآية ، بدليل مارواه الإمام أحمد وأهل السنن . إلا ـ الترمذىّ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢] : قال : قدّمنا رسول الله ﷺ أغيلمةَ بنى عبد المطلب على جمرات لنا من ( جَمْع ) فجعل يلطح أفخاذنا ويقول : أُبَيْنِىَّ ! لاترموا الجمرة حتى تطلع الشمس .

قال أبوعبيدةوغيره (أُبَيْنِىَّ) تصغير (ابنى) وهذا ظاهر الدلالة. فإنهذا فى حجةالوداع سنة عشر .

وفى مسلم[٣] عن أنس قال : قال لى رسـول الله ﷺ : يابنىّ . ورواه أبو داود والترمذىّ . انتهى كلام ابن كثير . وفى ذهابه إلى أن الأمر فى الآية ناسخ ـ نظر ، لأن الناسخ لا بد أن يرفع خطابا متقدما . وأما ما لا خطاب فيه سابقاً ، بل ورد حكما مبتدأ رفع البراءة الأصلية ، فلا يسمّى نسخاً اصطلاحاً . فاحفظه . فإنه مهم ومفيد فى عدة مواضع .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٧ ـ باب الشهادة على الأنساب والرضاع ، حديث رقم ١٢٨٥ عن عائشة

وأخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث رقم ١ ( طبعتنا )

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب المناسك ، ٢٢٢ ـ باب النهى عن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الشمس

وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٥ ـ كتاب المناسك ، ٦٢ ـ باب من تقدم من جمع إلى منى لرمى الجمار ، حديث رقم ٣٠٢٥ ( طبعتنا )

(٣) أخرجه فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب حديث رقم ٣١ ( طبعتنا )

ولما أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوّة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه « فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ » أى فتنسبوهم إليهم « فَإِخْوَٰنُكُمْ » أى فهم إخوانكم « فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ » أى أولياؤكم فيه. أى فقولوا: هذا أخى، وهذا مولاى. ويا أخى ويا مولاى «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى إثم « فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ »أى فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أو سبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه « وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى ففيه الجناح ، لأن من تعمد الباطل كان آثماً «وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا» أى لعفوه عن المخطئ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ، وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا )

«ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» أى فى كل شىء من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها . وأن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب. وأن لا يتبعوا ماتدعوهم إليه نفوسهم، ولا ماتصرفهم عنه . ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنـــه . لأن كل مادعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار . أفاده الزمخشرىّ .

وهذا كما قال تعالى(١)( فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

(١) [ ٤ / النساء / ٦٥ ].

لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ) وفى الصحيح: والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين « وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ » أى فى وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن. وفيما عدا ذلك كالأجنبيات، ولذا قال ابن كثير : ولكن لا تجوز الخلوة بهن . ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. وإن سمى بعض العلماء بناتهن، أخوات المؤمنين. كما هو منصوص الشافعىّ رضى الله عنه فى (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله، خال المؤمنين، فيه قولان: وعن الشافعىّ أنه يقال ذلك. وهل يقال له ﷺ : أبو المؤمنين، فيه قولان : فصح عن عائشة المنع ، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى ( مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ) وروى عن أبىّ بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما، أنهما قرآ : النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم. وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن . واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم . فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه . أفاده ابن كثير.

«وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ »أى ذوو القرابات« بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ »أى فيما فرضه، أو فيما أوحاه إلى نبيّه عليه السلام « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ » بيان لأولى الأرحام، أو صلة لـ ( أَوْلَىٰ ) « إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم » أى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم « مَّعْرُوفًا » أى من صدقة ومواساة وهدية ووصية . فإن بسط اليد فى المعروف مما حث الله عباده عليه ، ويشارك فيه مع ذوى القربى غيرهم .

(١) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الطهارة ٤ ـ باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، حديث رقم ٨

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : استدل بقوله تعالى ( وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ) الآية ، من ورّث ذوى الأرحام . انتهى .

وهو استدلال متين. وليس مع المخالف ما يقاومه . بل فهم كثيرون أن المعنىّ بها ، أن القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة ، التى كانت بينهم . ذهابا إلى ما روى عن الزبير وابن عباس: أن المهاجرىّ كان يرث الأنصارىّ ، دون قراباته وذوى رحمه . للأخوّة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ. حتى أنزل الله الآية . فرجعنا إلى مواريثنا .

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية . لا أنها خاصة بالمدعى فيها ، كما أسلفنا بيانه مرارا « كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا » أى فى القرآن. أو فى قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه ، مقررا لا يعتريه تبديل ولا تغيير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا )

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ » أى أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه. كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) .قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر ، يعنى قوله (وَمِنكَ) الخ مع اندراجهم

فى النبيين ، للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم . وتقديمُ نبينا عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، لإبانة خطره الجليل . انتهى .

وقال فى ( الانتصاف ) : وليس التقديم فى الذكر بمقتض لذلك . ألا ترى إلى قوله :

بهاليل منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّهِ ... علىٌّ ومنهم أحْمَدُ المُتَخَيَّرُ

فأخّر ذكر النبىّ ﷺ ليختم به تشريفاً له .

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر ، والله أعلم فى سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده فى الذكر ، أنه هو المخاطَب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلوّ ، فكان تقديمه لذلك .

ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام ، جرى ذكر الأنبياء، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم . والله أعلم . انتهى .

وقد صرح بأولى العزم هنا وفى آية[1] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ) . قال ابن كثير : فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها . «وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا» أى عهداً عظيم الشأن . وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والحادّين والمشاقّين ، ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( لِّيَسْـَٔلَ الصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا )

[٩] ( يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا )

«لِّيَسْـَٔلَ الصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ» أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء. ووضع

(١) [ ٤٢ / الشورى / ١٣ ] .

الصادقين موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه. وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم. أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم. كما فى قوله تعالى(١) (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ) أو المصدقين لهم عن تصديقهم. أفاده أبو السعود « وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لمن كفر من أممهم عذاباً موجعاً. ونحن ـ كما قال ابن كثير ـ نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحو لهم عن الحق المبين الواضح الجلىّ، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء. وإنْ كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين. فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال. انتهى. « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق « إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ » وهم الأحزاب « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا » وهم الملائكة. أو ما أتى من الريح من طيور الجوّ وجراثيمه ، المشوشة للقارّ المقلقة للهادئ « وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا)

[١١] (هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا)

[١٢] (وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا)

[١٣] (وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ،

(١) [ ٥ / المائدة / ١٠٩ ] .

وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا )

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ » أى من أعلى الوادى وأسفله ، بقصد التحزب على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبى ﷺ وصحبه « وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى مالت عن سننها ومستوى نظرها ، حيرة وشخوصاً « وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ » أى منتهى الحلقوم لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع . وبارتفاعها ترتفع القلوب . وذلك من شدة الغم . أو هو مثل فى اضطراب القلوب « وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا » أى أنواع الظنون المختلفة « هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ » أى اختبروا ليتميز الثابت من المتزلزل ، والمؤمن من المنافق « وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا » أى أزعجوا أشد الإزعاج من شدة الخوف والفزع ، أو من كثرة الأعداء .

فائدة :

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنونا) بإثبات ألف بعد النون ، وبعد لام الرسول ، فى قوله[1] (وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا) ولام السبيل ، فى قوله[2] (فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا) وصلاً ووقفاً ، موافقة للرسم . لأن هذه الثلاثة رسمت فى المصحف ، كذلك . وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة . وهاء السكت تثبت وقفاً للحاجة إليها . وقد ثبتت وصلا إجراء للوصل مجرى الوقف ، فكذلك هذه الألف . وقرأ أبو عمرو وحمزة بحذفها فى الحالين . لأنها لا أصل لها . وقولهم (أجريت الفواصل مجرى القوافى) غير معتدّ به . لأن القوافى يلزم الوقف عليها غالبا . والفواصل لا يلزم ذلك فيها ، فلا تشبه بها . والباقون بإثباتها وقفاً ، وحذفها وصلا ، إجراء للفواصل مجرى القوافى ، فى ثبوت ألف الإطلاق . ولأنها كهاء السكت . وهى تثبت وقفاً ، وتحذف وصلا . أفاده السمين .

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين فى تلك الشدة ، بقوله سبحانه : « وَإِذْ يَقُولُ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٦ ] .　　(٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٧ ] .

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى شبهة . تنفساً بما يجدونه من الوسواس فى نفوسهم ، وفرصة لانطلاق ألسنتهم ، بما تكنّ صدورهم . لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال، وحصر العدوّلهم «مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ »أى من النصر «إِلَّا غُرُورًا» أى باطلا « وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ » أى المنافقين « يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ » وهى أرض المدينة « لَا مُقَامَ لَكُمْ » بضم الميم وفتحها، قراءتان . أى لا إقامة لكم بعداليوم بالمدينة أو نواحيها لغلبة الأعداء « فَٱرْجِعُواْ » أى إلى منازلكم من المدينة هاربين . أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليمكنكم المقام .

فائدة :

(يثرب) من أسماء المدينة . كما فى الصحيح(١) : أريت فى المنام دارَ هجرتكم . أرض بين حرتين . فذهب وَهَلى أنها هَجَر . فإذا هى يثرب ( وفى لفظ : المدينة ) .

قال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد(٢) عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ من سمى المدينة ( يثرب ) فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة . تفرد به الإمام أحمد ، وفى إسناده ضعف . انتهى : « وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ » أى فى الرجوع « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى غير حصينة يخشى عليها « وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا )

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦١ـ كتاب المناقب، ٢٥ـ باب علامات النبوة فى الإسلام ، حديث رقم ١٧٠٣ .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

[١٥] ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾

[١٦] ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

« وَلَوْ دُخِلَتْ » أى يثرب «عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا» أى بأن دخل عليهم العدوّ من سائر جوانبها ، وأخذ فى النهب والسلب «ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ » أى الرجعة إلى الكفر« لَآتَوْهَا» أى لفعلوها « وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أى وما توقفوا بإعطائها إلا ريثما يكون السؤال والجواب. أى فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به ، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكّرهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ» أى من قبل هذا الخوف «لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا »أى عن الوفاء به « قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ » أى لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطوّل أعمارهم . بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم . ولهذا قال : « وَإِذًا » أى إن فررتم « لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى فى الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخرويّ . فمهما متعوا فى الدنيا ، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

[١٨] ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[١٩] (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ، أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا)

« قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم » أى يجيركم « مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا » أى هلاكا أوهزيمة «أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» أى مجيرا ولا مغيثا يدفع عنهم الضر « قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ » أى المثبطين عن رسوله الله ﷺ . وهم المنافقون . قال الشهاب : و(قد) للتحقيق ، أو لتقليله باعتبار متعلقه ، وبالنسبة لغير معلوماته . انتهى . « وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ » أى من ساكنى المدينة «هَلُمَّ إِلَيْنَا » أى أقبلوا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار « وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ » أى القتال «إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إتيانا قليلا . لأنهم يتثبطون ما أمكن لهم « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » أى بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو أضنّاء بكم ظاهرا، إن لم يحضر خوف « فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » أى فى أحداقهم « كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ » أى كنظره أو كدورانه « فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » أى بالغوا فيكم بالكلام طعنا وذما. فأحرقوكم وآذوكم. وأصل (السلق) بسط العضو ومدّه للقهر. سواء كان يدا أو لسانا. ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية، ويثبت له السلق وهو الضرب تخييلا « أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ » أى على فعله « أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ، وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ، وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا )

[٢١] ( لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا )

« يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ » أى لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الريح والجنود. وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم « وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ » أى مرة أخرى « يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ » أى فلا يذهبون إلى قتالهم ، ولا يستقرّون فى المدينة ، بل يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب ، وإن لحقهم عار جبنهم « يَسْـَٔلُونَ » أى القادمين « عَنْ أَنبَآئِكُمْ » أى عما جرى لكم . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة ، لو أتى الأحزاب ، بقوله « وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم » أى فى حدوث واقعة ثانية « مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا » أى رياء وخوفا من التعيير « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » أى فى أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة، إذ كان منها ثباته فى الشدائد وهو مطلوب. وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب. ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور فى شديدة ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة. وقد لقى بمكة من قريش ما يشيب النواصى، ويهدّ الصياصى. وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى. ومن صبر على هذه الشدائد فى الدعاء إلى الله تعالى ، وهو الرفيع الشأن ، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان « لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ » أى رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاته . فإنه يؤثرهما على الحياة الدنيا ، فلا يجبن . إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله ﷺ ، لغاية قبحه « وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا » أى وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة . أى ذكر أمره

ونهيه ووعده ووعيده. فأدرك مواطن السعادة ومهاوى الشقاوة. وعلم أن فى الثبات على قتل العدوّ ، تطهير الأرض من الفساد ، وتزيينها بالحق والصلاح والسداد . مما جزاؤه سعادة الدارين ، والفوز بالحسنيين . ثم بيّن تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين فى تلك الشدة ، بعد بيان ما كان من غيرهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا )

[٢٣] ( مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا )

«وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ» أى لأنه تعالى وعدهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه ، فى قوله[1] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم) وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء والامتحان الذى يعقبه النصر والأمان «وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ» أى ظهر صدقهما فيما وعدانا به «وَمَا زَادَهُمْ» أى هذا الخطب والبلاء، عند تزلزل المنافقين وبث أراجيفهم «إِلَّآ إِيمَـٰنًا» أى بالله ورسوله ومواعيدهما «وَتَسْلِيمًا» أى لأمر الله ومقاديره «مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ» فى الصبر والثبات ، والقيام بما كتب عليهم من القتال ، لإعلاء كلمة الحق ، ومن العمل بالصالحات ، ومجانبة السيئات «فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ» أى أدّى ما التزمه ووفى به ، فقاتل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، صادقا حتى قتل شهيدا .

(١) [ ٢ / البقرة / ٢١٤ ] .

قال الشهاب : أصل معنى (النحب) النذر . وقضاؤه الوفاء به . وقد كان رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حربا ، قاتلوا حتى يستشهدوا . وقد استعير ( قضاء النحب ) للموت ، لأنه لكونه لا بد منه ، مشبّه بالنذر الذى يجب الوفاء به . فيجوز أن يكون هنا حقيقة ، أو استعارة مع المشاكلة فيه . انتهى .

« وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ » أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على مامضى عليه أصحابه « وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا » أى ما غيروا شيئا من العهد ، ولا نقضوه كنقض المنافقين فى قولهم (وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ)(١) ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به . والتصريح بالمصدر لإفادة العموم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا )

[٢٥] ( وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ، وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا )

« لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ » أى فى عهودهم « بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ » أى مع كمال غضبهم بما أرسله من الريح والجنود ، بفضله ورحمته « لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا » أى نصراً ولا غنيمة « وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ » أى فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوهم عن المدينة . بل تولى كفاية ذلك وحده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده « وَكَانَ ٱللَّهُ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٥ ] .

قَوِيًّا » أى فلا يعارض قوته قوة شيء « عَزِيزًا » أى غالبا على أمره

( ذكر تفصيل نبأ الأحزاب المسمى بغزوة الخندق )

قال الإمام ابن القيّم فى ( زاد المعاد ) : كانت غزوة الخندق فى سنة خمس من الهجرة ، فى شوّال على أصح القولين. إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت فى شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ فى العام المقبل وهى سنة أربع . ثم أخلفوه لأجل جدب السنة ، فرجعوا . فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه . هذا قول أهل السير والمغازى. وخالفهم موسى بن عقبة وقال : بل كانت سنة أربع . قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه . واحتج عليه بحديث ابن عمر فى الصحيحين[1] أنه عرض على النبيّ ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه . ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . قال: وصحّ أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة . وأجيب عن هذا بجوابين: أحدهما ـ أن ابن عمر أخبر أن النبيّ ﷺ ردّه لما استصغره عن القتال ، وأجازه لما وصل إلى السن التى رآه فيها مطيقا . وليس فى هذا ما ينفى تجاوزها بسنة أو نحوها . والثانى ـ أنه لعله كان يوم أُحُد فى أول الرابع عشرة . ويوم الخندق فى آخر الخامس عشرة .

ثم قال ابن القيّم رحمه الله : وكان سبب غزوة الخندق ، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد، وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل ، خرج أشرافهم كسلام بن أبى الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة. يحرّضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوالونهم عليه. ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم. فأجابتهم قريش. ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم . ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك . فاستجاب لهم من استجاب . فخرجت

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٢٩٥ وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ٩١ ( طبعتنا ) .

قريش وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف . ووافاهم بنو سليم بمرّ الظهران . وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة . وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن . وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسىّ بحفر خندق يحول بين العدوّ وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون . وعمل بنفسه فيه وبادروا . وهجم الكفار عليهم . وكان فى حفره من آيات نبوّته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به . وكان حفر الخندق أمام سلع . وسلع جبل خلف ظهور المسلمين . والخندق بينهم وبين الكفار . وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم .

وقال ابن إسحاق : خرج فى سبعمائة . ( وهذا غلط من خروجه يوم أُحُد ) .

وأمر النبىّ ﷺ بالنساء والذرارىّ فجعلوا فى آطام المدينة . واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حيىّ بن أخطب إلى بنى قريظة . فدنا من حصنهم . فأبى كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل عليه قال : لقد جئتكم بعزّ الدهر . جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها ، لحرب محمد . قال : قال كعب: جئتنى ، والله! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه . فهو رعد وبرق . فلم يزل به حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين فى محاربته ، فسرّ بذلك المشركون . وشرط كعب على حيىّ أنه ، إن لم يظفروا بمحمد ، أن يجىء حتى يدخل معه فى حصنه ، فيصيبه ما أصابه . فأجابه إلى ذلك ، ووفى له به . وبلغ رسول الله ﷺ خبر بنى قريظة ونقضهم للعهد . فبعث إليهم السعدين وخوّات ابن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه . فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ . فانصرفوا عنهم ، ولحنوا لرسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا . فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتد البلاء وتجهر النفاق. واستأذن بعض بنى حارثة رسول الله ﷺ فى الذهاب إلى المدينة وقالوا : بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً . وهمّ بنو سلمة بالفشل. ثم ثبّت الله الطائفتين . وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً . ولم يكن بينهم قتال . لأجل ما حال الله به من الخندق. بينهم وبين المسلمين. إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ وجماعة معه ، أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكانا ضيقـــا من الخندق فاقتحموه . وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع . ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمروٍ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فبارزه فقتله الله على يديه. وكان من شجعان المشركين وأبطالهم . وانهزم الباقون إلى أصحابهم . وكان شعار المسلمين يومئذ ( حم لا ينصرون ) ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُيَيْنة بن حصن والحارث بن عوف ، رئيسىْ غطفان على ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بقومهما. وجرت المراوضة على ذلك. فاستشار السعدين فى ذلك فقالا: يارسول الله! إن كان الله أمرك بهذا ، فسمعاً وطاعة . وإن كان شىء تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه . لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعا . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله ! لا نعطيهم إلا السيف . فصوّب رأيهما وقال : إنما هو شىء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمرا من عنده . خذل به بين العدوّ وهزم جموعهم، وفلَّ حَدّهم . فكان مما هيأ من ذلك ، أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر، رضى الله عنه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنى قد أسلمت. فمرنى بمـــا شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد . فخذّل عنا ما استطعت : فإن الحرب خدعة . فذهب من فوره ذلك إلى بنى قريظة ، وكان عشيراً لهم

فى الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بنى قريظة! إنكم قد حاربتم محمدا. وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا، فانتقم منكم . قالوا : فما العمل ؟ يا نعيم ! قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى . ثم مضى على وجهه إلى قريش . قال لهم : تعلمون ودّى لكم ونصحى لكم . قالوا : نعم قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه . وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم . فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوّال، بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخفّ . فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا ، فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش صدقكم ، والله ! نعيم . فبعثوا إلى يهود : إنا ، والله ! لا نرسل إليكم أحدا . فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا. فقالت قريظة: صدقكم، والله ! نعيم. فتخاذل الفريقان: وأرسل الله عز وجل على المشركين جندا من الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قِدْرا إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار. وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف . وأرسل رسولُ الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم برحيل القوم. فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ردّ الله عدوّه بغيظه ، لم ينالوا خيرا وكفى الله قتالهم . فصدق وعده . وأعز جنده ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده .

ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدا منصورا والمسلمون معه، ووضعوا السلاح، وكانت الظُّهر، أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ـ وهم قبيلة من يهود خيبر ـ فإنى عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن فى

الناس : من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وقدّم رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، برايته إلى بنى قريظة. وابتدرها الناس. فسار عليّ ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ. فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق . فقال : يارسول الله ! لاعليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخابث . قال : لِمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى . قال : نعم . يارسول الله ! قال : لورأونى لم يقولوا من ذلك شيئا. وتلاحق به الناس، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله! صلى الله عليك وسلم. إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله ﷺ ، قبل بنى قريظة ، قد حاصر بنى قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أُبىّ ابن سلول فوهبهم له .

فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون، يامعشر الأوس! أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رُفيدة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه فى خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكّمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار .

وكان رجلا جسيما جميلا . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه فأنزلوه .

قال ابن كثير : إعظاماً وإكراماً ، واحتراماً له ، فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس ، قال له رسول الله ﷺ : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. فاحكم فيهم بما شئت. وصارت تعرّض له الأوس أن يحسن إليهم، وتقول : ياأبا عمرو! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال رضى الله عنه : عليكم عهد الله وميثاقه ، أنّ الحكم فيهم لما حكمتُ . قالوا : نعم . قال : وعلى من هٰهنا ( فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالًا له ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تُقتل الرجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبي الذراريّ والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وفى رواية: لقد حكمت بحكم الملك (أى لأن هذا جزاء الخائن الغادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق. رماه رجل من قريش يقال له ابن العَرِقة . رماه فى الأكحل .

فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أكحله . وقال سعد: اللهم ! إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقنى لها : فإنه لاقوم أحب إلىّ أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعل لى شهادة ولاتمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من تلقاء أنفسهم .

ثم لما استنزلوا من حصونهم ، حبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى دارٍ. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حُيَيّ بن أخطب وكعبُ ابن أسد رأسُ القوم . وهم ستمائة أو سبعمائة . وسُبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا ماذكره تعالى من أمر بنى قريظة ، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا )

[٢٧] ( وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا )

[٢٨] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا )

« وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم » أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم « مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ » يعنى بنى قريظة . وهم طائفة من اليهود ، كان نزل آباؤهم الحجاز لما فرّوا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات فى أطراف البلاد «مِن صَيَاصِيهِمْ» أى حصونهم وآطامهم التى كانوا فيها «وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ» أى الخوف، جزاءوفاقاً.

قال ابن كثير : لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ وليس من يعلم كمن لا يعلم ـ وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا فى الدنيا . فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال ، لما انشمر المشركون وراحوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا . وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا . ولهذا قال تعالى « فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » يعنى قتل الرجال المقاتلة ، وسبى الذرارىّ والنساء .

روى الإمام أحمد[1] عن عطية القرظىّ قال: عُرِضتُ على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكّوا فىّ. فأمر بى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن ينظروا: هل أنبتُّ بعد؟ فنظرونى فلم يجدونى أنبتّ . فخلّى عنى ، وألحقنى بالسبى .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ )

وكذا رواه أهل السنن كلهم : وقال الترمذىّ : حسن صحيح « وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ » حصونهم «وَأَمْوَالَهُمْ» أى نقودهم وأثاثهم ومواشيهم «وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا» أى أرضا لم تقبضوها بعد ، يعنى خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم، وقال[1] ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مرادا. قال الزمخشرىّ: ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها ، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب . قال بعضهم : يالله ! ماأسوأ عاقبة الطيش ! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح. فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم . وهذا ما حصل لليهود فى الحجاز. فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر . ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسداً منهم وبغياً . فتمّ عليهم ماتم. سنة الله فى المفسدين. فإن الله لايصلح أعمالهم «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا » أى وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى السعة والتنعم فيها «وَزِينَتَهَا» أى زخارفها « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ » أى أعطكن المتعة وأطلقكن. والمتعة ما يعطى للمرأة المطلّقة على حسب السعة والإقتار . من ثياب أو دراهم أو أثاث ، تطوعا لا وجوبا. وقوله تعالى« سَرَاحًا جَمِيلًا » أى طلاقا من غير ضرار ولا بدعة . وقد روى أنهن سألن النبىّ ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة مما ليس عنده . فنزلت الآية . ولما نزلت ، بدأ ﷺ بعائشة رضى الله عنها . وكانت أحبهن إليه . فخيّرها وقرأ عليها القرآن ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة . ثم اختار جميعُهن اختيارها . قيل : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن. ثم صفية بنت حُيَىّ النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن.

(١) انظر الصفحة ١٥٥ من الجزء الحادى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

لطيفة :

قال الرازيّ: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين : التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله . وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : الصلاة وما ملكت أيمانكم . ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيّه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة . وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٣٠] (يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا)

«وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ» أي تردن رسوله . قال أبو السعود: وذكر الله عز وجل، للإيذان بجلالة محله عليه السلام ، عنده تعالى « فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » أي لا يقدر قدره. ولما خيّرهن النبيّ ﷺ ، واخترن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن ، للتوقي عما يسوء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى « يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ » أي بيّن الشرع والعقل قبحها . إن قرئ بالفتح . أو مبيِّنة قبحها بنفسها من غير تأمل ، إن قرئ بالكسر « يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » أي ضعفي عذاب غيرهن. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح . فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ، ولذلك جعل حدّ

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١ ] .

الحرّ ضعفي حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم «وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا» لعموم قدرته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[٣٢] (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ، إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

[٣٣] (وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

«وَمَن يَقْنُتْ» أي يدم مطيعا «مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ» أي في إتيان الواجبات وترك المحرمات والمكروهات «وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» أي مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة «وَأَعْتَدْنَا لَهَا» أي زيادة على أجرها المضاعف في الجنة ، أو فيها وفي الدنيا «رِزْقًا كَرِيمًا» أي حسنا مرضيًّا «يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ» أي عند مخاطبة الناس . أي فلا تجبْنَ بقولكن لينا خنثا، مثل كلام المريبات والمومسات «فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ» أي ريبة وفجور «وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا» أي بعيدا من طمع المريب بجدّ وخشونة ، من غير تخنيث . أو قولا حسنا مع كونه خشنا «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ» أي اسكنّ ولا تخرجن منها . من (وقر يقر وقارا) إذا سكن . أو من (قرّ

يقر من باب ضرب ) حذفت الأولى من راءى (اقررن ) ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغنى عن همزة الوصل . ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح . من ( قررت أقر ) من باب علم . وهى لغة قليلة « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ » أى تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى. إذ لا دين يمنعهم ولا أدب يزعهم . والتبرج ، فسّر بالتبختر والتكسّر فى المشى . وبإظهار الزينة ومايستدعى به شهوة الرجل. وبلبس رقيق الثياب التى لا توارى جسدها. وبإبداء محاسن الجيد والقلائد والقرط . وكل ذلك مما يشمله النهى، لما فيه من المفسدة والتعرّض لكبيرة.

فائدة ـ قيل ( الْأُولَى ) بمعنى القديمة مطلقا من غير تقييد بزمن . فيستدل بذلك لمن قال: إن الأول لا يستلزم ثانيا .

قال فى ( الإكليل ) : وهو الأصح عند العلماء . فلو قال : أول ولد تلدينه فأنت طالق ، لم يحتج إلى أن تلد ثانيا . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : الأولى هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجهلاء . من الزمن الذى ولد فيه إبراهيم ، أو ما قبله، إلى زمن عيسى . والجاهلية الأخرى مابين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام . ويعضّده ما روى[1] أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذرّ ، لما عيّر رجلا بأمه وكانت أعجمية : إنك امرؤ فيك جاهلية . والمعنى نهيهن عن إحداث جاهلية فى الإسلام ، تشبه جاهلية الكفر قبله « وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى بموافقة أمرهما ونهيهما. ثم أشار إلى أن مخالفتهما رجس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » أى ما أمركنّ ونهاكنّ ، ووعظكنّ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصوّن عنها بالتقوى. فالجملة تعليلية لأمرهنّ ونهيهن على سبيل الاستئناف .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية، حديث رقم ٢٨ .

قال الزمخشريّ . استعار للذنوب ( الرجس ) وللتقوى (الطهر) . لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقيّ مصون كالثوب الطاهر . وفى هذه الاستعارة ماينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه . ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . و ( أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ) نصب على النداء أو على المدح . والمراد بهم مَن حواهم بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهــذا نص فى دخول أزواج النبيّ ﷺ فى أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا . إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وأما قول عكرمة، إنها نزلت فى نساء النبيّ ﷺ خاصة، ومن شاء باهلته فى ذلك ، فإن كان المراد أنهن كنّ سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح . وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففى هذا نظر. فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. وأنه ﷺ[1] جمع عليًا وفاطمة والحسن والحسين ، ثم جللهم بكساء كان عليــه . ثم قال : هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس . وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجيه . إلا أن الشيخين لم يصححاه، ولذا لم يخرجاه. وأما ما رواه مسلم[2] عن حصين بن سبرة، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، أيها الناس ! إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولها كتاب الله ، فيه الهدى والنور .فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغّب فيه. ثم قال: وأهل بيتى . أذكّركم الله فى أهل بيتى . قالها ثلاثا . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولـكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضى الله عنهم ـ

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٦٠ ـ باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا )

فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله.

قال ابن كثير : وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحتْ. فإن فى بعض أسانيدها نظراً. انتهى .

وقال أبو السعود : وهذه كما ترى آية بينة ، وحجة نيرة ، على كون نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعليّ وابنيهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته صلى الله عليه وسلم الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتدّ بها ، لكونها فى مقابلة النص . انتهى .

بقى أن الشيعة ، تمسكوا بالآية أيضا على عصمة عليّ رضى الله عنه ، وإمامته دون غيره .

قال ابن المطهر الحلى منهم : وفى هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ ( إنما ) وإدخال اللام فى الخبر ، والاختصاص فى الخطاب بقوله (وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) وغيرهم ليس بمعصوم الخ . وأجاب ابن تيمية رحمه الله فى ( منهاج السنة ) بقوله : ليس فى هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك فى مقامين: أحدهما أن قوله[1](إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) كقوله[2](مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وكقوله[3] (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وكقوله[4](يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا) فإن إرادة الله فى هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به، وأنه شرعه

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٣ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٦ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ١٨٥ ] . (٤) [ ٤ / النساء / ٢٦و٢٧ ] .

للمؤمنين وأمرهم به . ليس فى ذلك أنه خلق هذا المراد ، ولا أنه قضاه وقدّره، ولاأنه يكون لامحالة. والدليل على ذلك، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية قال ( اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، لم يحتج إلى الطلب والدعاء .

وهذا على قول القدرية أظهر . فإن إرادة الله عندهم لاتتضمن وجود المراد ، بل قد يريد مالا يكون ويكون مالا يريد . فليس فى كونه تعالى مريداً لذلك ، ما يدل على وقوعه .

وهذا الرافضيّ وأمثاله قدرية ، فكيف يحتجون بقوله ( إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ) على وقوع المراد ؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان مَن على وجه الأرض. فلم يقع مراده. وأما على قول أهل الإثبات، فالتحقيق فى ذلك أن الإرادة فى كتاب الله نوعان : إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره. الأولى مثل هؤلاء الآيات. والثانية مثل قوله تعالى[١] (فَمَن يُرِدِ ٱللَّـهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) وقول نوح[٢] ( وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّـهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعا واحدا، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحدا. ثم القدرية ينفون إرادته لما بيّن أنه مراد فى الآيات التشريع. فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد. فلا يلزم أن يكون كائناً، والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم. وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب. وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر. وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه. ومما يبيّن ذلك، أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مذكورات فى الآية. والكلام فى الأمر بالتطهير بإيجابه

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٢٥ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٣٤ ] .

ووعد الثواب على فعله والعقاب على تركه . قال تعالى[١] ( يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ) إلى قوله[٢] (وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فالخطاب كله لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعهن الأمر والنهى والوعد والوعيد. لكن لما تبيّن ما فى هذا من المنفعة التى تعمهّن وتعمّ غيرهن من أهل البيت ، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصا بأزواجه . بل هو متناول لأهل البيت كلهم. وعليّ وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك. ولذلك خصهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم. وهذا كما أن قوله[٣] ( لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ) نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك ، وهو ( مسجد المدينة ) وهذا يوجه ما ثبت فى الصحيح[٤] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجدى هذا . وثبت عنه فى الصحيح[٥] أنه كان يأتى قباء كل سبت ماشيا وراكبا. فكان يقوم فى مسجده يوم الجمعة ويأتى قباء يوم السبت. وكلاهما مؤسس على التقوى. وهكذا أزواجه . وعليّ وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أخص بذلك من أزواجه. ولهذا خصهم بالدعاء . وقد تنازع الناس فى آل محمد من هم ؟ فقيل : أمته . وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم . وقيل : المتقون من أمتة . ورووا حديثا ( آل محمد كل مؤمن

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٠ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٣ ] .

(٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٨ ] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ ( طبعتنا ) .

(٥) أخرجه البخاريّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٣ ـ باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، حديث ٦٤٧ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ ( طبعتنا ) .

تقى ) رواه الخلال ، وتمام فى ( الفوائد ) له . وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم . وهو حديث موضوع . وبنى على ذلك طائفة من الصوفية . أن آل محمد هم خواص الأولياء . كما ذكر الحكيم الترمذىّ . والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته . وهذا هو المنقول عن الشافعىّ وأحمد . وهو اختيار الشريف أبى جعفر وغيرهم . لكن هل أزواجه من أهل بيته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . أحدهما ـ أنهن لسن من أهل البيت. ويروى هذا عن زيد ابن أرقم . والثانى ـ وهو الصحيح أن أزواجه من آله . فإنه قد ثبت فى الصحيحين[1] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه علمهم الصلاة عليه: اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته. ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته . وامرأة لوط من آله وأهل بيته . بدلالة القرآن . فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته ؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهن من أهل بيته ، وإلا لم يكن لذكر ذلك فى الكلام معنى. وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه. كما ثبت فى الصحيح[2] أنه قال : إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء ، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين . فبيّن أن أولياءه صالح المؤمنين . وكذلك فى حديث آخر : إن أوليائى المتقون حيث كانوا وأين كانوا . وقد قال تعالى[3] ( وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّـهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ) وفى الصحاح[4] عنه أنه قال : وددت أنى رأيت إخوانى . قالوا : أو لسنا إخوانك ؟ قال :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٠ ـ باب حدثنا موسى بن إسماعيل حديث ١٥٩٠ ، عن أبى حميد الساعدىّ .

ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٦٩ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٤ ـ باب يبلّ الرحم ببلالها ، حديث ٢٣١٥ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم فى ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٦ .

(٣) [ ٦٦ / التحريم / ٤ ] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا) .

بل أنتم أصحابى ، وإخوانى قوم يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى . وإذا كان كذلك ، فأولياؤه المتقون ، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى . وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية . والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان . ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون . وأما أقاربه ففيهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر . فإن كان فاضل منهم ، كعلىّ رضى الله عنه وجعفر والحسن والحسين ، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى . وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب . فأولياؤه أعظم درجة من آله . وإن صلى على آله تبعا ، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه . الذين لم يصلّ عليهم . فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه . وهم أفضل من أهل بيته . وإن لم يدخلوا فى الصلاة معه تبعا ، فالمفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلى عليه كما ثبت ذلك فى الصحيحين . وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهن كلهن . فإن قيل : فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس ، لكن دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على وقوعه . فإن دعاءه مستجاب . قيل : المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس ، فضلا عن أن يدل على العصمة والإمامة. وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر. ثم نقول فى المقام الثانى: هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم، كما أن الدعاء المستجاب لابد أن يستحق معه طهارة المدعوّ لهم وإذهاب الرجس عنهم . لكن ليس فى ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ. والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا يصدر من واحدة منهن خطأ. فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن. وسياق الآية يقتضى أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذى هو الخبث . كالفواحش ويطهرهم تطهيرا من الفواحش وغيرها من الذنوب. والتطهير من الذنب على وجهين، كما فى قوله[1] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) وقوله[2] (إِنَّهُمْ

(١) [ ٧٤ / المدثر / ٤ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٨٢ ] و [ ٢٧ / النمل / ٥٦ ] .

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ) فإنه قال فيها[١] ( مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ) والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد ، وإما بأن يتوب منه كما في قوله[٢] ( خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ) ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة . فإنه يتضمن نهيه عن الفاحشة ، لا يتضمن الإذن فيها بحال . لكن هو سبحانه ينهى عنها ، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها . وفي الصحيح[٣] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب . واغسلني بالثلج والبرَد والماء البارد . اللهم ! نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وبالجملة ، لفظ ( الرجس ) أصله القذر . ويراد به الشرك . كقوله[٤] ( فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ) ويراد به الخبائث المحرّمة ، كالمطعومات والمشروبات كقوله[٥] ( قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ) وقوله[٦] ( إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ) وإذهاب ذلك إذهاب لكله . ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث . ولفظ (الرجس) عامّ يقتضى أن الله يذهب جميع الرجس . فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا بذلك . وأما قوله ( وطهرهم تطهيرًا ) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة . وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفي فيه بفرد من أفراد الطهارة . ويقول مثل ذلك في قوله[٧] ( فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٠ ] .  (٢) [ ٩ / التوبة / ١٠٣ ] .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٨٩ ـ باب مايقول بعد التكبير ، حديث ٤٥٤ ، عن أبي هريرة

وأخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا)

(٤) [ ٢٢ / الحج / ٣٠ ] .  (٥) [ ٦ / الأنعام / ١٤٥ ] .

(٦) [ ٥ / المائدة / ٩٠ ] .  (٧) [ ٥٩ / الحشر / ٢ ] .

ٱلْأَبْصَٰرِ) ونحو ذلك. والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذى يقال عند الإطلاق . كما إذا قيل: أكرم هذا ، أى افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً . وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً . والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر فى قصة ، وترك ذلك فى نظيرها . وكذلك لا يقال ( هو طاهر ) أو ( متطهر ) أو (مطهر ) إذا كان متطهراً من شىء ، متنجساً بنظيره. ولفظ (الطاهر ) كلفظ ( الطيب ) قال تعالى[1] (وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ) كما قال[1] (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ) وقد روى أنه قال لعمّار : ائذنوا له. مرحبا بالطيب المطيب . وهذا أيضاً كلفظ ( المتقى ) و ( المزكى ) قال تعالى[2] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) وقال[3] (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ) وقال[4] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ) وقال[5] ( وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ) وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب ، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب. فإن هذا، لو كان كذلك، لم يكن فى الأمة متّق، بل من تاب من ذنوبه دخل فى المتقين . كما قال[6] (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) فدعاء النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن يطهرهم تطهيراً ، كدعائه بأن يزكيهم ويطيبهم ويجعلهم متقين، ونحو ذلك ومعلوم أن من استقرّ أمره على ذلك ، فهو داخل فى هذا . لا تكون الطهارة التى دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه . وقد قال[7]: اللهم ! طهرنى من خطاياى بالثلج والبرَد والماء البارد.

---

(١) [ ٢٤ / النور / ٢٦ ] . (٢) [ ٩١ / الشمس / ٩ ، ١٠ ] .

(٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٣ ] . (٤) ٨٧ / الأعلى ١٤ ] .

(٥) [ ٢٤ / النور / ٢١ ] . (٦) [ ٤ / النساء / ٣١ ] .

(٧) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٤ ( طبعتنا ) عن عبد الله بن أبى أوفى .

فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً ، فقد طهره الله منـــه تطهيراً . ولـكن من مات متوسخاً بذنوبه ، فإنه لم يطهر منها فى حياته . وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التى هى أوساخ الناس . والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ، إذا دعا بدعاء ،أجابه الله بحسب استعداد المحل . فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب ، فإن هذا، لو كان واقعا، لما عُذِّبَ مؤمن ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . بل يغفر الله لهذا بالتوبة، ولهذا بالحسنات الماحية. ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة ، وإن واحدة بأخرى ، وبالجملة، فالتطهير الذى أراده الله والذى دعا به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ليس هو العصمة بالاتفاق، فإن أهل السنة عندهم ، لا معصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم . والشيعةُ يقولون : لا معصوم غير النبيّ صلى الله عليه وسلم والإمام. فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبيّ صلى الله عليـه وسلم والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعوّ به للأربعة ، متضمنا للعصمة التى يختص بها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والإمام عندهم . فلا يكون دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم له بهذا، العصمة، لا لعليّ ولا لغيره . فإنه دعا للأربعة مشتركين، لم يختص بعضهم بدعوة، وأيضا فالدعاء بالعصمة من الذنوب ممتنع على أصل القدرية . بل وبالتطهير أيضاً. فإن الأفعال الاختيارية التى هى فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غـير مقدورة للرب ، ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصيا . ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر . فامتنع على أصلهم أن يدعو لأحد بأن يجعله فاعلا للواجبات تاركا للمحرمات . وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر . كالسيف الذى يصلح لقتل المسلم والـكافر . والمـــال الذى يمكن إنفاقه فى الطاعة والمعصية، ثم العبد يفعل باختياره، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة . وهذا الأصل يبطل حجتهم، والحديث حجة عليهم فى إبطال هذا الأصل، حيث دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتطهير . فإن قالوا : المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم ، كان ذلك أدل على البطلان من دلالته على العصمة . فتبيّن أن الحديث لا حجة لهم فيـه بحالٍ على ثبوت العصمة . والعصمةُ

مطلقا التى هى فعل المأمور وترك المحظور ، ليست مقدورة عندهم لله، ولا يمكنه أن يجعل أحدا فاعلا لطاعةٍ ولا تاركا لمعصيةٍ . لا لنبيّ ولا لغيره . ويمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه ، لا بإعانة الله وهدايته. وهذا مما يبين تناقض قولهم فى مسائل العصمة. كما تقدم . ولو قدر ثبوت العصمة ، فقد قدمنا أنه لايشترط فى الإمام العصمة ، والإجماع على انتفاء العصمة فى غيرهم . وحينئذ تبطل حجتهم بكل طريق . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

«وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ» أمر لهنّ بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ فى بيوتهن من آيات كتابه تعالى ، وسنة نبيّه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق . وذكر ذلك مستوجب لتصوّر عظمته ومكانته وثمرة منفعته . وذلك يجرّ إلى العمل به . فمن تأوّل ( اُذْكُرْنَ ) باعملن به ، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب . وجوّز أن يكون المعنى : اذكرن هـذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوّة ومهبط الوحى، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة، حثًّا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه. قال أبو السعود: والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها، مع كونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير. بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبىّ صلى الله عليه وسلم وتلاوتهن وتلاوة غيرهن، تعليما وتعلما «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» أى يعلم ويدبر مايصلح فى الدين . ولذلك أمر ونهى .

[٣٥] ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ » أى المنقادين فى الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث « وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى المصدقين بما يجب أن يصدق به فى القلب «وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ » أى بإدامة شغل الجوارح فى الطاعات « وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ » فى القول بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون فى طاعتهم رياء «وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ » أى على البأساء والضراء والنوائب ، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها «وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ » أى المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . و ( الخشوع ) السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته « وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ » أى بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . فيعطون من فضول أموالهم طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وإتماما للخشوع «وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ» أى الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعا ويتصبر فقراً « وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ » أى عن إبدائها وإراءتها ، حياء وكفًا عن مثار الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور «وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ» أى بقلوبهم وألسنتهم « أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفراناً لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرة بذلك « وَأَجْرًا عَظِيماً » أى ثواباً وافراً فى الجنة ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا )

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » أى ما صح لهما « إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» أى قضى الله ورسوله فى أنفسهم قضاء، أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما ، لما فى ذلك من المأثم ، كما قال تعالى « وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فيما أمرا أو نهيا « فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا » أى جار عن قصد السبيل ، وسلك غير الهدى والرشاد . وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة. فأبت لكونه مولى لا يماثلها فى الشرف . فنزلت الآية فرضيت وتزوجها .

قال المهايمىّ : الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب . ويحتمل أن تكون لابطريق الوجوب ، لكن اعتبار العار فى مقابلة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية ، لما فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قول الله بالحقيقة . اهـ .

وقال بعضهم : إنما عدّ التنزيل إباءها عصيانا ، وكأنه أرغمها على زواجه ، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك. وهو هدم تحريم زوجة المتبنّى، الفاشى فى الجاهلية . كما سيأتى سياقه .

وذكر أيضاً أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وكانت أول من هاجر من النساء ـ بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيدا ـ أى بعد فراقه زينب ـ فسخطت ، فنزلت الآية ، فرضيت . وروى الإمام أحمد[١] عن أنس قال :

(١) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) .

خطب النبيّ صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضى الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : نعم إذاً . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فأبت أشد الإباء. فقالت الجارية : أتريدون أن تردّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم ، فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنتَ رضيتَه فقد رضيناه . قال ﷺ : فإنى قد رضيته. قال: فزوجها . ثم ذهب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غزاة، فقتل. ورُئِىَ حوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس : فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت فى المدينة ( وفى رواية : فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها ) .

وذكر الحافظ ابن عبد البرّ فى ( الاستيعاب ) أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردّون على رسول الله ﷺ أمره ، نزلت هذه الآية[1] ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ) الخ .

ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره ، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه ، الآتية ، يؤيد أنها نزلت فى زوجه زينب، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة .

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم ( نزلت الآية فى كذا ) أنها مما تشمله لعموم مساقها . ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ له هذه الآية .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول . كما قال تبارك وتعالى[2] : ( فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفى الحديث : والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . ولهذا شدّد فى خلاف ذلك فقال[3] ( وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ و

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٦ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٦٥ ] .
(٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٦ ] .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا) كقوله تعالى(١) (فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

لطائف :

الأولى ـ قالوا على الروايات السالفة : إن ذكر الله فى الآية ، مع أن الآمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على أنه بمنزلة من الله ، بحيث تعد أوامره أوامر الله تعـالى . أو أنه لمـا كان ما يفعله بأمره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك . انتهى .

وهـذا وقوف مع ما روى . وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى الله فى كتابه ، ورسوله فى سنّته .

الثانية ـ (ٱلْخِيَرَةُ) هنا مصدر ، وذكروا أنه لم يجئ من المصادر على وزنه غير (طِيَرَة)

الثالثة ـ جمع الضمير الأول ـ وهو لهم ـ لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما فى سياق النفى . قال الشهاب : واعتبر عمومه ، وإن كان سبب نزوله خاصا ، دفعا لتوهم اختصاصه بسبب النزول . أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد ، لايصح مع الجمع أيضا كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه . انتهى .

وجمع الثانى ـ وهو ضمير من أمرهم ـ مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو له ولله تعالى ، للتعظيم . هذا ما أشار له القاضى وغيره . مع أنه لايظهر امتناع عوده على ماعاد عليه الأول ، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه ، على أن يكون المعنى : ناشئةً من أمرهم . والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . أو المعنى الاختيار فى شيء من أمرهم ، أى دواعيهم . وردّ هـذا ، بأنه قليل الجدوى ، ضرورةَ أن الخيرة ناشئة من دواعيهم .. أو واقعة فى أمورهم . وهو بيّن مستغن عن البيان . بخلاف ما إذا كان المعنى بدل

(١) [ ٢٤ / النور / ٦٣ ] .

أمره الذى قضاه صلى الله عليه وسلم . أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفى . فهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول .

قال الشهاب : وهو كلام حسن . ثم أشار تعالى إلى ما منّ به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعىّ والمتبنَّى الذى كان فاشيا فى الجاهلية ، بما جرى بين زيد متبنَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم وزوجه من الفراق . ثم تزويجه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إياها ، رفعاً للحرج فيه . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا )

[٣٨] ( مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا )

[٣٩] ( ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا )

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإسلام ومتابعة النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو زيد بن حارثة « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة ، وتزويجه بنت عمتك زينب بنت جحش .

قال ابن كثير : كان سيداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقال له ( الحِب ) ويقال لابنه أسامة (الحِب ابن الحِب) قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية إلا أمّره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه الإمام أحمد[1] . « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » أى لا تطلقها « وَٱتَّقِ ٱللَّهَ » أى اخشه فى أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذى قلبها وارعَ حق الله فى نفسك أيضا . فربما لا تجد بعدها خيراً منها . وكانت تتعظم عليه بشرفها، وتؤذيه بلسانها . فرام تطليقها متعللا بتكبرها وأذاها فوعظه صلى الله عليه وسلم وأرشده إلى الصبر والتقوى « وَتُخْفِى » أى تضمر « فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ » أى من الحكم الذى شرعه . أى تقول ذلك ، وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه ، وأن لا متندح عن امتثال أمر الله بنفسك ، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك . وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه . وهذا معنى قوله تعالى « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ » أى قالتهم وتعييرهم الجاهلىّ «وَٱللَّهُ » أى الذى ألهمك ذلك وأمرك به « أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ » أى فكان عليك أن تمضى فى الأمر من أول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله «فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا » أى حاجةً بالزواج « زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ » أى ضيق من العار فى نكاح زوجات أدعيائهم « إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا » أى بموت أو طلاق أو فسخ نكاح . « وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا » أى قضاؤه واقعا ، ومنه تزويجك زينب «مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ » أى مأثم وضيق « فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ » أى كتبه له من التزوج وأباحه له وسن شريعة مُثْلى فى وقوعه « سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ » أى الرسل عليهم السلام . وهو أن لا حرج عليهم فى الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره . فإنه كان لهم الحرائر والسرارى وتناول المباحات والطيبات وبهداهم

---

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .

القدوة «وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا» أى قضاء مقضيًّا . أى لاحرج على أحد فيما أحل له . ثم وصف شأنهم بقوله « ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ » أى أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها « وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ » أى لا يخافون قالة الناس ولا عتهم ولا يبالون بها فى تشريعه ولاريب أن سيّد الناس فى هذا المقام، بل وفى كل مقام، حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام . كما علم من قيامه بالتبليغ بالقول والفعل أبلغ قيام «وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا» أى حافظا لأعمال خلقه . وكافيا للمخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا )

« مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ» هذا دفعٌ لتعيير من جهل ، فقال: تزوج محمد زوج ابنه زيد. فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أبا لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أبا لأحد من أصحابه، حتى يثبت بينه وبينه ، مايثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيدٌ واحد منهم، الذين ليسوا بأولاده حقيقة . فكان حكمه حكمهم . والادعاء والتبنى من باب الاختصاص والتقريب لا غير « وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ » أى ولكن كان رسول الله مبلغا رسالاته « وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ » بفتح التاء وكسرها ، قراءتان . أى فهذا نعته وهذه صفته . فليس هو فى حكم الأب الحقيقىّ ، وإنما ختمت النبوة به، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس فى كل زمان وكل مكان . لأن القرآن الكريم لم يدع أمًّا من أمهات المصالح إلا جلّاها، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها. فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعي النبوة بعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين «وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» أى فلا يقضى إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان فى لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات :

الأول ـ لم تختلف الروايات أنها نزلت فى قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش . ورواه البخارىّ[1] عن أنس فى التفسير . ورواه عنه فى التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة يشكو . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . وأخرجه[2] أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه. فقال له : أمسك زوجك واتق الله . فنزلت .

وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السّدّىّ . فساقها سياقاً حسناً واضحا ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عزوجل نبيّه صلى الله عليه وسلم بعدُ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب مايكون من الناس ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقى الله . وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه . وكان قد تبنى زيدا .

وعنده ، من طريق على بن زيد بن جدعان عن علىّ بن الحسين بن علىّ ، قال : أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله تعالى : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٦ ـ باب قوله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، حديث رقم ٢٠٣٢ .

وأخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد، ٢٢ ـ باب : وكان عرشه على الماء ، حديث رقم ٢٠٣٢

أخرجه بالصفحة ١٥٠ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبى ) .

قال الحافظ ابن حجر فى ( الفتح ) بعد نقل ماتقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرىّ ، ونقلها كثير من المفسرين ، لاينبغى التشاغل بها . والذى أوردته منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . انتهى .

الثانى ـ قال القاضى عياض رحمه الله فى ( الشفا ) فى بحث أقواله صلى الله عليه وسلم الدنيوية : ولايجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحداً بشىء أو ينهى أحدا عن شىء ، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام[1] : ما كان لنبىّ أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟ فإن قلت : فما معنى قوله فى قصة زيد ( وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ) الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب فى تنزيه النبىّ عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما فى هذا ماحكاه أهل التفسير عن علىّ بن حسين . أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه . فلما شكاها إليه زيد، قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى منه فى نفسه ماأعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها .

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهرىّ قال : نزل جبريل عليه السلام على النبىّ صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذى أخفى فى نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين فى قوله بعد هذا ( وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ) أى لابد لك أن تتزوجها . ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها . فدل أنه الذى أخفاه عليه السلام ، مما كان

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ١ ـ باب الحكم فيمن ارتد ، حديث ٤٣٥٩ .

أعلمه بهتعالى ، وقوله تعالى فى القصة (مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ) دل على أنه لم يكن عليه حرج فى الأمر. ولو كان على ماقيل من وقوعها فى قلبه، ومحبة طلاق زيد لها ، لكان فيه أعظم الحرج. وكيف يقال : رآها فأعجبته وهى بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجبن منه عليه السلام، وهو زوّجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبىّ صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سببه. كما قال[1] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وقال (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ) قال ابن فورك : وليس معنى الخشية هنا الخوف . وإنما معناه الاستحياء . أى يستحيى منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء ، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلّه له. كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه فى سورة التحريم[2] بقوله (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) الآية. كذلك قوله هٰهنا. انتهى ملخصا .

الثالث ـ قال الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) يردّ على من استدل بمثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، ما مثاله: وأما قوله تعالى (وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ) الآية فقد أنفنا من ذلك . إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به وأن ما كان أراده زواج . مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره . وإنما خشى النبىّ صلى الله عليه وسلم الناس فى ذلك خوف أن يقولوا قولا ويظنوا ظنا، فيهلكوا . كما قال عليه السلام[3] للأنصاريين : إنها صفية . فاستعظما ذلك، فأخبرهما النبى صلى الله عليه وسلم أنه إنما

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٠ ] . (٢) [ ٦٦ / التحريم / ١ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء ، حديث رقم ١٠٣١

يخشى أن يلقى الشيطان فى قلوبهما شيئاً. وهذا الذى خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم ، بظن يظنونه به عليه السلام ، هو الذى يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا فى هذا الباب. وكان مراد الله عز وجل أن يبدى مافى نفسه، لما كان سلف فى علمه من السعادة لأمنا زينب رضى الله عنها . انتهى .

الرابع ـ للإمام مفتى مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعزيزاً لما سلف، وإيقافا من أسرار الآية على نخب ما وصف .

قال رحمه الله: نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش. وهى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة . فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ، فلما نزلت الآية قالا: رضينا يارسول الله. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخماراً وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مُدًّا من طعام، وثلاثين صاعا من تمر . كذا روى .

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عمة النبىّ صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته مايشمل البنت مع والدها لأول الأمر. حتى أنه اختارها لمولاه زوجة. مع إبائها وإباء أخيها. وعدّ إباءها هذا عصيانا. ولازالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن. فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم، لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب . ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغبها لنفسه، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يعْرف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب، إلى أن تبلغ حد العشق، خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٦ ]

المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض. متى تعوّد بعضهم النظر إلى بعض، من بداية السن إلى أن يبلغ حدًّا منه يجول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبىّ الذى يقول الله له(١) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله فى ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة، يغلب عليه سلطان شهوةٍ فى بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى نرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو الرؤوف الرحيم، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة. فما كان له ــ وهو سيد المصلحين ــ أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لا ترضاه، مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين. لا ريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق فى فهم الآية التى نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلا يرجع إليه فى الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعىّ جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التى يعتبرونها للابن، حتى فى الميراث وحرمة النسب وهى عقيدة جاهلية رديئة . أراد الله محوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح . لهــذا أنزل الله(٢) (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ) ثم قال(٣) (ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ) الخ فهذا العدل الإلهىّ ، أن لا ينال حقَّ الابن إلا من يكون ابنا . أما المتبنَّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ فى الدين . فحرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئا من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا . وشدّد الأمر حتى قال(٤) ( وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤ ] .
(٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥ ] . (٤) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥ ] .

بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابنى . أو ينادَى شخص آخر بمثل ذلك . لا عن قصد التبنّى . ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذى يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفا من قبل . مضت سنة الله فى خلقه ، أن ما رسخ فى النفس بحكم العادة ، لا يسهل عليها التفصّى منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يُطْبيه (أى يستميله ) إلا الحق . ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبه عرف . ذلك هو النبىّ صلى الله عليه وسلم، ومن يختصه الله بالتأسى به. لهذا، كان الأمر ، إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه، أو أحل شيئا كانت الجاهلية تحرّمه ، بَادَرَ النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهى بالكف عن المنهىّ عنه ، والإتيان بضده . وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان المأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة. نادى صلى الله عليه وسلم[1] فى حجة الوداع بحرمة الربا . وأول ربا وضعه ربا عمه العباس. حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك مالهم، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم، على هذا السنن الإلهىّ كان عمل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من أدعيائهم كما دل عليه قوله تعالى[1] ( وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ) الخ فعمد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه . وما كان ينبغى له ، ولا من مقتضى الحكمة، أن يكاف أحد الأدعياء الأباعد عنه، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقته . فى ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشمئزاز من النفوس، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه، لتسقط العادة بالفعل . كما ألغى حكمها بالقول الفصل. لهذا أرغم النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ ( طبعتنا ) .

زينب أن تتزوج بزيد ، وهو مولاه وصفيّه . والنبيّ يجد فى نفسه أن هـذا الزواج مقدمة لتقرير شرع، وتنفيذ حكم إلهىّ. وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يَلِنْ إباؤها الأول، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها، وبأنها أكرم منه عِرْقاً وأصرح منه حرية . لأنه لم يجر عليها رقّ كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة . وهو عليه السلام مع علوّ مقامه يغلبه الحياء فيتّئد ويتمكّث فى تنفيذ حكم الله ولا يعجل، فكان يقول لزيد[1] (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّـهَ) إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضّه العيش معها . ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمزّق حجاب تلك العادة، ويكسر ذلك الباب الذى كان مغلقا دون مخالفتها كما قال[1] (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُولًا) وأكّد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله[2] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . هذه هى الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما ما رووه من أن النبيّ مرّ ببيت زيد وهو غائب، فرأى زينب، فوقع منها فى قلبه شيء، فقال : سبحان مقلب القلوب! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد، فوقع فى قلبه أن يطلقها الخ. ما حكوه ـ فقد قال الإمام أبو بكر بن العربىّ إنه لا يصح. وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم فى فهم الآية ، لم يقدروا مقام النبوّة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال فى ذلك ، وأذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا فى شأن هذه الروايات .

قال، بعد الكلام فى عصمة النبىّ صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب فى زمن الجاهلية. وبعد أن جاء الإسلام: وقد مهّدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد. وإنما الصحيح[3]

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٧ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٠ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

منها ماروى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتماشيئاً من الوحى لكتم هذه الآية(١) ( وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ) يعنى بالإسلام (وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) فأعتقته ( أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ) إلى قوله (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ) وأن رسول الله لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله(٢) ( مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلا ، يقال له ( زيد ابن محمد) . فأنزل الله(٣) (ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) يعنى أنه أعدل عندالله قال القاضى : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت فى قلبه، فباطل. فإنه كان معهافى كل وقت وموضع. ولم يكن حينئذ حجاب. فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها فى كل ساعة ولاتقع فى قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره . فلم يخطر بباله. فكيف يتجدد هوى لم يكن! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال سبحانه وتعالى(٤) ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)والنساءأفتن الزهرات،وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا فى المطلقات . فكيف فى المنكوحات المحبوسات ؟؟

ثم ساق الكلام فى نفس الآية على حسب ماصح فى الواقعة. ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحان الله! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات، وقد علموا أن الله لم يدع لنبيّه أن يعرض عن ابن أم مكتوم، ويتصدى لصناديد قريش طمعا فى إسلامهم، حتى عاتبه على ذلك فى قوله(٥) ( عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ) إلى آخر الآيات، مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه فى نفسه خيرا للدين ، ولم يكن رغبة فى جاه ، ولاشرها إلى مال ،

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٣٧ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٠ ] .
(٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥ ] . (٤) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] .
(٥) [ ٨٠ / عبس / ١ ] .

ولا طموحا إلى لذة . فلو صحّت الرواية التى زعموها فى شأن زينب ، لـكان العتاب على تلك التسبيحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه فى قصة دواد عليه السلام . وما كان محمد ﷺ فى علوّ مقامه ورفعة منزلته من النبوّة ، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يعلّل شهوته ، ويرفّه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذى نهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوًّا كبيرا . أما والله ! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلّسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الـكريمة شيء مما يرمون إليه . فإن نص الآية ظاهر جلىّ لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل فى الأمر ، والتريث به . وأن الذى كان يخفيه فى نفسه هو ذلك الأمر الإلـٰهىّ الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة فى نفوس العرب ، وأن يتناول المِعْوَل لهدمها بنفسه. كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة. وكما هو شأنه فى جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهـــذا الذى كان يخفيه فى نفسه كان الله مبديه بأمره الذى أوحاه إليه فى كتابه ، وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابنا له ، كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعــه عن إبداء ما أبدى الله ، إلّا حياء الـكريم ، وتؤدة الحـكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لـكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحضر منى لدى أحد الأساتذة الأمير كانيين ، فجاء فى الحديث ذكر قوله تعالى(١) ( ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ) فقال الأميركىّ : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بعشقه ﷺ لزينب على ما زعموا ، فقال له صاحبى : سبحان الله ! إنـكم تشتغلون بعلوم السموات

(١) [ ٣٢ / السجدة / ٧ ] .

والأرض ، ولا تستعملون عقولكم فى أقرب الأشياء إليكم . مع أنكم ، فى المشهور عنكم ، من أشدّ الناس ولعاً بالبحث فى الأديان . إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابنا له ، ليبيّن للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابنا ، فإن كان المسيح قد دُعِى فى لسان الإنجيل بـ ( الابن ) فليس هذا على الحقيقة ، وإنما ( الابن ) الحقيقىّ من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن فى ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس ـ روى الإمام أحمد[1] ومسلم[2] والنسائىّ عن أنس قال : لما انقضت عِدّة زينب رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها علىّ . فانطلق حتى أتاها وهى تخمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت : يا زينب ! أبشرى . أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعةٍ شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا ، حين دخلت على النبىّ ﷺ ، أطعمنا عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : : وهذا أيضا من أبلغ ما وقع فى ذلك : وهو أن يكون الذى كان زوجها هو الخاطب . لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرا بغير رضاه . وفيه أيضا اختبار ما كان عنده منها . هل بقى منه شىء أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة . وأن من وَكَلَ أمره إلى الله عز وجل ، يسّر الله له ما هو الأحظّ له والأنفع دنيا وأخرى . انتهى . أى فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى . فاختار لها ما شرّفها به وأسمى مكانتها ، عنايةً منه ورحمة للأمة أيضا .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٥ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) .

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح حديث رقم ٨٩ ( طبعتنا ) .

السادس ـ روى[(١)] ابن جرير عن الشعبيّ قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبيّ ﷺ : إنى لأُدِلّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تدل بهن : إن جدّى وجدّك واحد : وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء . وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى[(٢)] البخاريّ بعضه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات .

قال ابن القيّم فى ( زاد المعاد ) : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليّها الذى زوجها لرسوله من فوق سمواته . وتوفيت فى أول خلافة عمر بن الخطاب . وكانت أولا عند زيد بن حارثة . وكان رسول الله ﷺ تبناه ، فلما طلقها زوجه الله إياها ، لتتأسى به أمته فى نكاح أزواج من تبنّوه . انتهى .

السابع ـ قالوا : لاينقض عموم قوله تعالى ( مِّن رِّجَالِكُمْ ) بكونه عليه الصلاة والسلام أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لم يبلغوا الحلم . ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، عليه الصلاة والسلام ، لالهم . انتهى .

وهذا من التعمق فى البحث . وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة .

قال ابن كثير : لم يمش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها. فماتوا صغارا، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية . فمات أيضا رضيعا . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين. فمات فى حياته ﷺ ثلاث. وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[٤٢] ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ » أى بما هو أهله من صنوف التحميد والتمجيد « ذِكْرًا كَثِيرًا » أى يعمّ الأوقات والأحوال . قال ابن عباس رضى الله عنهما . إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة ، إلا جعل لها حدًّا معلوما؛ ثم عذر أهلها فى حال العذر. غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًّا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال تعالى[1] ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ وقال[2] ﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال « وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى فى أول النهار وآخره ، ليسرى أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل . لأن ذكره وتسبيحه ، يفيدان تنوير القلوب وقت خلوّها عن الأشغال .

قال الزمخشرىّ : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، ليبيّن فضله على سائر الأذكار، لأن معناه تنزيه ذاته، عمّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . ومثالُ فضله على غيره من الأذكار ، فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي، والطهر من أرجاس المآثم، على سائر أوصافه، من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره ، تكثير الطاعات

(١) [ ٤ / النساء / ١٠٣ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤١ ] .

والإقبال على العبادات . فإن كل طاعة وكل خير، من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا . وهي الصلاة في جميع أوقاتها . لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين . لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

« هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ » استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين . فإن صلاته تعالى عليهم ، مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين ، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه . أفاده أبو السعود .

وقال ابن كثير : هذا تهييج إلى الذكر . أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله عز وجل(1) (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ * فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ) . انتهى .

والصلاة: الرحمة والعطف . والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة « لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ » أي ظلمة الكفر والمعاصي والشبهات ومساوئ العادات « إِلَى ٱلنُّورِ » أي نور الإيمان والسنّة والطاعة ومحاسن الأخلاق « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » أي حيث لم يتركهم يتخبطون في عمياء الضلالة والجهالة ، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم المعالم . وذكر الملائكة تنويها بشأنهم وشأن المؤمنين . وأن للملأ الأعلى عناية وعطفا وترحما ، بالاستغفار والدعاء

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٥١و١٥٢ ] .

والثناء على الجميل. كقوله تعالى[1] (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا )

[٤٥] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا )

[٤٦] ( وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا )

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ » أى يحيّون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة، بسلام، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إما من إضافة المصدر إلى المفعول، والمحيي لهم، إما الله جل جلاله، لقوله[2] (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) تعظيما لهم وتفضلا منه عليهم ، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية[3] ( وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ) أو من إضافة المصدر لفاعله. أى تحية بعضهم بعضا بالسلام. وقد يستدل له بآية[4] (دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ) « وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا » يعنى الجنة وما حوته ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا » أى على من بعثت

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٧ـ٩ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٥٨ ] .

(٣) [ ١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤ ] . (٤) [ ١٠ / يونس / ١٠ ] .

إليهم بالبلاغ « وَمُبَشِّرًا » أى بالثواب لمن آمن « وَنَذِيرًا » أى من النار لمن كفر «وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ »أى إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدانيته « بِإِذْنِهِۦ »أى بأمره ووحيه «وَسِرَاجًا مُّنِيرًا » أى يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا )

[٤٨] ( وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا )

[٤٩] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا )

«وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا »أى ثواباً عظيما وأجراً جزيلا«وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ » أى فيما يرجفون به ويعيبون من جاهليتهم وعوائدهم ، بالإلانة الجانب فى التبليغ ، والمسامحة فى الإنذار والتمهل فى الصدع بالحق «وَدَعْ أَذَىٰهُمْ » أى إيصال الضرر إليهم ، مجازاةً لفعلهم . بل اعف واصفح . أو معناه : دع ما يؤذونك به بسبب صدعك إياهم. فالمصدر مضاف إلى الفاعل على الأول ، وإلى المفعول على الثانى « وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا »أى موكولا إليه، وكفيلا فيما وعدك من النصر ، ودحر ذوى الكفر« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ » أى تزوجتموهن « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ»أى تجامعوهن «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا »أى تستوفون عددها من إحصاءأقراء ، ولا أشهر تحصونها عليهن « فَمَتِّعُوهُنَّ» أى أعطوهن ما يستمتعن به من عرض

أو عين مال «وَسَرِّحُوهُنَّ» أي خلّوا سبيلهن بإخراجهن من منازلكم . إذ ليس لكم عليهن عدّة « سَرَاحاً جَمِيلًا » أي من غير ضرار ولامنع حق .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها إطلاق النكاح على العقد وحده . وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها . وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن ، إنما هو في العقد والوطء بعده ، إلا في هذه الآية. فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى ( الْمُؤْمِنَاتِ ) خرج مخرج الغالب . إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك ، بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن المسيّب والحسن البصريّ وزين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية ، على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لقوله تعالى ( إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ) فعقب النكاح بالطلاق . فدل على أنه لايصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعيّ وأحمد وطائفة كثيرة من السلف والخلف . وأيّده ما روى مرفوعا[1] ( لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك ) رواه أحمد وأبو داود والترمذيّ وابن ماجة . وقال الترمذيّ : هذا حديث حسن . وهو أحسن شيء روى في هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجة[2] عن عليّ والمِسْوَر بن مخرمة رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ : لا طلاق قبل النكاح .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٧ ـ باب في الطلاق قبل النكاح ، حديث ٢١٩٠ .

(٢) أخرجه في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ٧ ـ باب لاطلاق قبل النكاح، حديث ٢٠٤٩ و٢٠٤٨ ( طبعتنا ).

وقوله تعالى ( فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ) هـذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها . فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها . فإنها تعتدّ منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضا . وقوله تعالى ( فَمَتِّعُوهُنَّ ) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال تعالى(١) ( وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ) وقال عزّ وجل(٢) ( لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ) .

وعن ابن عباس : إن كان سمّى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف . وإن لم يكن سمى لها صداقا ، فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . انتهى .

وعليه ، فالآية فى المفوضة التى لم يسمّ لها . وقيل : الآية عامة . وعليه ، فقيل الأمر للوجوب ، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضا . ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشىء .

لطيفة:

قال الرازىّ : وجه تعلق الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى فى هـذه السورة ، ذكر مكارم الأخلاق ، وأدّب نبيّه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيّه المرسل ، فكلما ذَكَرَ للنبىّ مكرمةً ، وعلّمه أدباً ، ذَكَرَ للمؤمنين ما يناسبه . فكما بدأ الله فى تأديب النبىّ ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله، بقوله(٣) ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ) وثنّى بما يتعلق بجانب العامة بقوله(٤) ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ) كذلك بدأ

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣٧ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٦ ] .

(٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ١ ] . (٤) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٥ ] .

في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) ثم ثنّى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم بقوله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ) ثم ، كما ثلث في تأديب النبيّ بجانب الأمة ، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيّهم، فقال بعد هذا[2] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ) وبقوله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع . وإيتاؤها ، إما إعطاؤها معجلة، أو تسميتها في العقد. وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره .

قال ابن كثير : كان مهر النبيّ ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشًّا. وهو نصف أوقية. فالجميع خمسمائة درهم . إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشيّ رحمه الله تعالى أربعمائة دينار. وإلا صفية بنت حُييّ فإنه اصطفاها من سبي خَيْبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها.

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤١ ] . (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥٣ ] .

وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضى الله عنهن . انتهى .

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية . ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه . بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام . كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبيّة ، فى قوله تعالى « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ » فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها .

قال ابن كثير : أى وأباح لك التسرّى مما أخذت من المغانم . وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من السرارى، رضى الله عنهما «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ» أى من مكة ، إلى المدينة . والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم . ولهم فى إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة ، عدة أوجه . فيها اللطيف والضعيف . وعندى أن الإفراد والجمع تابع لمقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية. كما يدريه من يذوق طعم بلاغة القول ، ويشرب من عين فصاحته . فالإفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع . كما أن فى آية[1] ( بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ ) أمتن وأبلغ من الإفراد . ولكل مقام مقال . ولكل مجال حال « وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا » . أى يتزوجها ويرغب فى قبول هبة نفسها بدون مهر . وقد سمى من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضى الله عنهن .

---

(١) [ ٢٤ / النور / ٦١ ] .

وفى البخارىّ[١] عن عائشة قالت : كنت أغار من اللائى وهبن أنفسهن للنبىّ ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى[٢] (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ) الآية ـ قلت ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

وعن ابن عباس ، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحا له . لأنه مردود إلى إرادته . والله أعلم.

قال ابن القيم : وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها ، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها ، فنحو أربع أو خمس . وقال بعضهم : هن ثلاثون امرأة. وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ ، لا يعرفون هذا بل ينكرونه .

قال أبو السعود: وإيراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات، للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى «خَالِصَةً لَّكَ» أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصا، فهى مصدر مؤكد ، أو صفته أى هبة خالصة « مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى فإنهم لا تحل لهم الموهوبة إلا بولىّ ومهر ، خوف أن يستسرى النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك . قال قتادة : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل، بغير ولىّ ولا مهر إلا للنبى ﷺ «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ» أى على المؤمنين « فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ » أى فى حلّها من الولىّ والشهود والمسمى « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ » أى فى حلها من توسيع الأمر فيها .

وقال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فسر بالاستبراء . وليس له فى القرآن ذكر إلا هٰهنا. « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » أى ضيق . واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٧ ـ باب قوله ترجىٔ من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث ٢٠٣٣ .

(٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥١ ] .

ممـا قبله . أى قد علمنا ما فرضنا عليهم ، وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق ، فيما اقتضته الحـكمة والعناية بك « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » أى يغفر مايعسر التحرز عنه، ويرحم فيما يوسع فى مواقع الحرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

«تُرْجِى» بهمز وغير همز . أى تترك وتؤخر «مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ» أى من هؤلاءالنساء اللاتىأحللناهن لك، فلا تتزوج بهن « وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ » أى تضم من تشاءمنهن بالتزوج « وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » أىاخترت تزوجهابعد إرجائها « فَلَاجُنَاحَ عَلَيْكَ» أى فى أن تضمها إليك . ومن رأى بعضهم أن الضمير فى (منهن) يعود إلى الواهبات . قال الشعبىّ: كن نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ : فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن . لم ينـكحن بعده . منهن أم شريك . واستؤنس بحديث عائشة عند أحمد ؛ أنها كانت تعيّر النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول : ألا تستحيي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فلما أنزل الله ( تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ) الآية قالت : إنى أرى ربك يسارع لك فى هواك . ورواهالبخارىّ(١) أيضا كماتقدم. وذهب آخرون إلى أنمعنىالآية: تطلّقوتخلّى سبيلمنشئت من نسائك ، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق. وعن قتادة؛ أنها فى القَسْم، وأنله أنيقسم لمن شاء، ويدعه لمن شاء . مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم . وقد احتج بالآية من ذهبإلى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٧ ـ باب قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث رقم ٢٠٣٣ ، عن عائشة.

أن القسم لم يكن واجبا عليه ﷺ . والتحقيق أن الآية عامة فى ذلك كله . وأن ماروى مما ذكر ، فمن باب الاكتفاء من العام على بعض أفراده، أو من رأى ذهب إليه قائله. وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ورفع الحرج عنك فيه « أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » أى تطيب أنفسهن، إن علمن أن ذلك من الله تعالى «وَلَا يَحْزَنَّ» لمخالفة الإرجاء « وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ » أى لأنه حكم ، كلهن فيه سواء ، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا . وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى. فتطمئن به نفوسهن « وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ » أى من الميل إلى البعض منهن دون البعض بالمحبة «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا » أى بذات الصدور «حَلِيمًا » أى ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر. وروى الإمام أحمد[١] وأهل السنن[٢] عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا )

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ )

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء ، حديث رقم ٢١٣٤

وأخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح، ٤٢ ـ باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر، حديث رقم ١١٤٠

وأخرجه النسائى فى: ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض

وأخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث رقم ١٩٢١ ( طبعتنا )

« لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ » أى من بعد النساء اللاتى نصّ إحلالهن لك فى الآية قبلُ . وانظر إلى تكريمه تعالى لنبيّه صلوات الله عليه حيث لم يقل له ( وحرم عليك ما وراء ذلك ) كما خاطب المؤمنين بنظيره ، لتعلم كيف تتفاوت الناس بالخطاب تفاوتهم فى رفيع الدرجات .

ولم أر أحداً نبه على ذلك ، فاحرص عليه فيه وفى أمثاله .

قال مجاهد فى الآية : أى لا يحل لك يهودية ولا نصرانية ولا كافرة « وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » أى فلك التسرّى بهن وإن كن كتابيات أومشركات، لأنه ليس لهن مالِلحرائر «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً » أى حيث أحل ماأحل وحظر ماحظر للنبيّ وللأمة، فى بيانٍ لاخفاء معه وحكمة لاحيف معها. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح مابعد التسع اللاتى عنده ﷺ. وأن التسع نصابه كالأربع لغيره ، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن . كما تقدم فى الآية . ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، لكنه لم يفعله إتماما للمنّة عليهن . ومنهم من قال إنها محكمة . وكل ذلك لا برهان معه، وتفكيك للمعنى، وغفلة عن سر تكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب . وقد وهم فى هذا المعنى زياد ـ رجل من الأنصار ـ فرده أُبىّ رضى الله عنه، إلى صواب المعنى. وذلك فيما رواه عبد الله بن أحمد وابن(١) جرير ؛ أن زياداً قال لأُبىّ بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبىّ ﷺ تُوُفِّين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قوله تعالى ( لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ) فقال له: إنما أحل الله له ضربا من النساء . فقال تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ، ـ إلى قوله ـ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ) ثم قيل له ( لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وروى الترمذيّ(١) عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى ( لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ) الآية . فحرم كل ذات دين غير الإسلام .

والمطلع على ما كتبوه هنا ، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها . فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه .

تنبيه :

قال فى ( لباب التأويل ) : فى قوله تعالى ( وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ) دليل على جواز النظر من الرجل إلى التى يريد نكاحها من النساء . ويدل عليه ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل . أخرجه أبو داود(٢) .

وروى(٣) مسلم عن أبى هريرة ؛ أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا. قال الحميدىّ: يعنى هو الصِّغَر.

وعن المغيرة بن شعبة قال : خطبتُ امرأةً . فقال لى النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل نظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه الترمذىّ(٤) وحسنه .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٣٣ـ سورة الأحزاب ، ١٨ـ حدثنا عبد . حدثنا روح عن عبد الحميد .

(٢) أخرجه فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ١٨ ، ـباب فى الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها ، حديث ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٤ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه فى : ٩ـ كتاب النكاح، ٥ باب ماجاء فى النظر إلى المخطوبة، حديث رقم ١٠٨٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ » هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازله ﷺ بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام . و(إلى) متعلق بـ(يؤذن) بتضمين معنى الدعاء ، للإشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة ، وإن تحقق الإذن . كما يشعر به قوله تعالى ( غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ) أى غير منتظرين وقته ، وإدراكه .

قال ابن كثير : أى لاترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول. فإن هـذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفل . وهو الذى تسميه العرب الضيفن . وقد صنف الخطيب البغدادىّ فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها . انتهى .

وأقول : قد يكون معنى قوله ( غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ) نهيا لهم أن يدخلوا ـ مع كونهم مأذونا لهم ومدعوين ـ قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه ، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام.

فإن ذلك مما يؤذى قلب صاحب الدعوة ، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة ، إلا ضيق صدر الداعى وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً لكلام لاضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه . وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت . ولذلك قال تعالى « وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ » أى إذا دعيتم إلى الدخول فى وقته. فادخلوا فيه لاقبله ولا بعده. فـ(لكن) استدراك من النهى عن الدخول، مع الإذن المطلق الذى هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حينا ووقتا يجب أن يراعى زمنه . وهذا المنهىّ عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجىء قبل وقته بساعات ، مما يغمّ نفس الداعى وأهله . ويذهب لهم جانبا من عزيز وقتهم عبثا إلا فى سماع حديثهم البارد . وخدمتهم المستكرهة كما قدمنا . فعلى ماذكرناه يكون فى الآية فائدة جميلة ، وحكم مهم. وهو حظر المجىء قبل الوقت المقدّر . وحينئذ فكلمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيّدة للدخول المأذون فيه . وهو أن يكون وقت الدعوة ، لاقبله . والتقدير ( إِلَّا مَأْذُونِينَ فى حال كونكم غير ناظرين إناه ) ولذا قيل : إنها آية الثقلاء . إذا علمت هذا ، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية ، وهو ( لَاتَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ) ومن قوله ( وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ ) لامن قوله ( غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ) لأنه فى معنى خاص . وهو ماذكرناه والله أعلم .

فائدة :

( الإنى ) مصدر . يقال أنى الشىء يأنى أنيا بالفتح . و(أنى) مفتوحا مقصوراً . (وإنى) بالكسر مقصوراً . أى حان وأدرك . قال عمرو بن حسان :

تَمَخَّضَتِ ٱلْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أنى ولكل حاملة تمام

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ » أى تفرقوا ولا

تمكثوا «وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ» أى لحديث بعضكم بعضا، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له. عطف على ( ناظرين ) أو مقدر بفعل . أى لا تمكثوا مستأنسين « إِنَّ ذَٰلِكُمْ » أى المنهيّ عنه فى الآية « كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ » أى لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه « فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ » أى من الإشارة إليكم بالانتشار « وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ » يعنى أن انتشاركم حق. فينبغى أن لا يترك حياء ، كما لا يتركه الله ترك الحيّ ، فأمركم به . ووضع الحق موضع الانتشار، لتعظيم جانبه . وقرىء ( لَا يَسْتَحِى ) بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ » الضمير لنساء النبيّ ، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام « مَتَاعًا » أى شيئا يتمتع به « فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ » أى ستر « ذَٰلِكُمْ » أى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول ، وسؤال المتاع من وراء حجاب « أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » أى من الخواطر الشيطانية، فى الميل إليهن وإليكم . يعنى ويجب التطهر عنه ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ . ولذا قال « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ » أى أن تفعلوا فعلا يتأذى به فى حياته « وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ » أى من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل « أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا » أى أمرا عظيما وخطبا هائلا ، لا يقادر قدره. لما فيه من هتك حرمة حبيبه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم، وإيجاب حرمته حيًّا وميتا ، مالا يخفى . ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا )

« إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا » أى مما لا خير فيه ، كنكاحهن على ألسنتكم، على ما روى عن بعض الجفاة « أَوْ تُخْفُوهُ » أى فى نفوسكم « فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا » أى فيجازيكم

بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد .

قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده. لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته . هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله ( مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ) أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه نزاعا والله أعلم . انتهى .

تنبيه :

في ( الإكليل ) : هذه آية الحجاب التي أمر بها أمهات المؤمنين . بعد أن كان النساء لا يحتجبن. وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن . وفيها تحريم أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم بسائر وجوه الأذى . انتهى .

وقال ابن كثير : هذه آية الحجاب . وفيها أحكام ، وآداب شرعية . وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي الله عنه ، كما روى البخاريّ(١) عنه أنه قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ! فأنزل الله آية الحجاب.

وكان يقول لو أطاع فيكن ، ما رأتكن عين .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، التي تولى الله تزويجها بنفسه تعالى . وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة (في قول قتادة والواقديّ وغيرهما ) وزعم أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط ؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث . فالله أعلم .

---

(١) أخرجه في: ٦٥ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٨ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٦٧ .

وروى البخاريّ[١] عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر . فجـاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس . ثم إنهم قاموا فانطلقوا . فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ) الآية .

ورواه مسلم[٢] أيضاً والنسائيّ .

وعن أنس أيضا قال : بنى على النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش، بخبز ولحم. فأُرسلت على الطعام داعيا. فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو . فقلت : يا رسول الله ! ما أجد أحدا أدعوه . قال : ارفعوا طعامكم . وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت. فخرج النبيّ ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. كيف وجدت أهلك؟ يارسول الله ! بارك الله لك .

فتقرّى حجر نسائه كلهن. يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون. وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة. فما أدرى آخبرتُهُ أو أُخْبِرَ، أن القوم خرجوا. فرجع، حتى إذا وضع رجله فى أسكفّة الباب داخلة ، والأخرى خارجة ، أرخى الستر بينى وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاريّ[١] .

وأخرج نحوه مسلم والترمذيّ . كما بسطه ابن كثير .

---

(١) أخرجه فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب، ٨ ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٠٣٥

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ٨٧ م ( طبعتنا )

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصصن به. فهو فرض عليهن بلا خلاف، فى الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك فى شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا مادعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما فى (الموطأ) أن حفصة لما توفى عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يُستر شخصها . انتهى .

وليس فيما ذكره دليل على مادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كن بعد النبىّ ﷺ يحججن ويطفن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم فى الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب . انتهى .

ومما يؤيده ماروا ه البخارىّ[(١)] فى التفسير عن عائشة رضى الله عنها . قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها . وكانت امرأة جسيمة ، لاتخفى على من يعرفها . فرآها عمر بن الخطاب . فقال : ياسودة ! أما والله ! ماتخفين علينا . فانظرى كيف تخرجين .

قالت : فانكفأت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى، وإنه ليتعشى وفى يده عَرْقٌ ، فدخلتْ فقالتْ : يارسول الله! إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا. قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه ، وإن العَرْقَ فى يده ماوضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجنّ لحاجتكن .

قال الكرمانىّ : فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ماضرب الحجاب وفى الوضوء ـ أى من البخارىّ ـ أنه كان قبل الحجاب . فالجواب لعله وقع مرتين .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب، ٨ ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبىّ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام حديث رقم ١٢٣

قال ابن حجر : قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثانى .

والحاصل أن عمر رضى الله عنه وقع فى قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوىّ، حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام : احجب نساءك ، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب . ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدين أشخاصهن أصلاً ، ولو كن مستترات ، فبالغ فى ذلك فمنع منه ، وأذن لهن فى الخروج لحاجتهن ، دفعا المشقة ، ورفعا للحرج ، انتهى بحروفه . وإنما نقلنا الجمع بين الروايتين ، مع أن الأمسّ به شرح الصحيح ، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين إحدى الروايتين ونقل آخرين الثانية ، مما يوقع الواقف فى شبهة الاختلاف ، فآثرنا توسيع الكلام لتحقيق المقام . زادنا الله من فضله علما ، إنه هو العليم العلام .

ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] ( لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ، وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا )

« لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ » أى لا حرج ولا إثم عليهن ، فى أن لا يحتجبن من هؤلاء المسمَّيْن .

قال الطبرىّ(١) : وعُنِى بـ(إخوانهن وأبناء إخوانهن) إخوتهن . وأبناء إخوتهن . وخرج معهم جمع ذلك ، مخرج جمع فتى إذا جمع ( فتيان ) فكذلك جمع أخ إذا جمع ( إخوان ) وأما إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع ( فتية ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

## تنبيهات

الأول ـ قيل : إنما لم يذكر العم والخال ، لأنهما بمنزلة الوالدين . ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى[(١)] (وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ) أولأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات. فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين، عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة . لما أنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات لأبناء الأخوات . وقيل : لأنه كره ترك الاحتجاب منهما ، مخافة أن يَصِفَاهُنَّ لأبنائهما .

وهو رأى عكرمة والشعبيّ . كما أخرجه الطبريّ[(٢)] من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة والشعبيّ أنه قال لهما : ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قالا : لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

قال الشهاب : لكنه قيل عليه ، إن هذه العلة ، وهو احتمال أن يَصِفَا لأبنائهما وهما يجوز لهما التزوج بها ، جار فى النساء كلهن ، ممن لم يكن أمهات محارم . فينبغى التعويل على الأول . انتهى .

والتحقيق فى رده ما رواه البخارى[(٣)] فى التفسير من طريق عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: استأذن علىّ أفلح أخو أبى القعَيْس، بعد ما أنزل الحجاب، فقلت: لا آذن له حتى أستأذن فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم. فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبى القعيس. فدخل علىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقلت له: يارسول الله! إن أفلح أخا أبى القعيس

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٣) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ باب قوله إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، حديث ١٢٨٣ .

استأذن . فأبيت أن آذن حتى أستأذنك، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: وما منعك أن تأذنى؟ عمك . قلت: يارسول الله! إن الرجل ليس هو أرضعنى، ولكن أرضعتنى امرأة أبى القعيس، فقال : ائذنى له فإنه عمك ، تربت يمينك .

قال عروة: فلذلك كانت عائشة تقول: حرموا من الرضاعة ماتحرمون من النسب انتهى فبقوله صلى الله عليه وسلم[1] (ائذنى له فإنه عمك) مع قوله فى الحديث الآخر[2] (العم صنو الأب) رد على عكرمة والشعبيّ .

الثانى ـ قيل: أريد بقوله تعالى (وَلَا نِسَآئِهِنَّ) المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل هو عامّ فى المسلمات والكتابيات. وإنما قال (وَلَا نِسَآئِهِنَّ) لأنهن من أجناسهن .

الثالث ـ استدل بعموم قوله تعالى (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ) مَنْ ذهب إلى أن عبد المرأة مَحْرم لها . وذهب قوم إلى أنه كالأجانب . والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد، وتقدم تفصيل ذلك فى سورة النور .

الرابع ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها، على تحريم نظرهما إليهن، فكانا لا يدخلان عليهن «وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ» أى أن تتعدين ماحدّ لكنّ ، فتبدين من زينتكن ماليس لكن ، أو تتركن الحجاب فيراكن أحد غير هؤلاء . وقال الرازىّ : أى واتقينه عند المماليك. قال، ففيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله تعالى «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا» أى فهو

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ باب قوله إن تُبْدُواْ شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ، حديث رقم ١٢٨٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث ٣ـ٦ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١١ ( طبعتنا ) .

شاهد على ماتفعلنه من احتجابكن وتركـكنّ الحجاب لمن أبيح لـكن تركه ، وغير ذلك من أمور كن ، فاحذرن أن تلقينه . وهو شاهد عليكن بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلـكن .
قال الرازىّ : هذا التذييل فى غاية الحسن فى هذا الموضع، لأن ماسبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال : إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض . فخلوتـكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا )

«إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا » قال الرازىّ: لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً، كمّل بيان حرمته. وذلك لأن حالته منحصرة فى اثنتين: حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله[1] (لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ) وحالة يكون فى ملأ. والملأ إما الملأ الأعلى وإما الملأ الأدنى ، أما فى الملأ الأعلى فهو محترم. فإن الله وملائـكته يصلون عليه. وأما فى الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) انتهى .

وقد روى البخارىّ[2] عن أبى العالية قال: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائـكة. وصلاة الملائـكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون يُبَرِّكون. اهـ. أى يدعون له بالبركة. فيوافق قول

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥٣ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ١٠ ـ باب إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ .

أبي العالية، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر . وقد أطنب الإمام ابن القيّم في ( جلاء الأفهام ) في مبحث معنى الصلاة ، وأطال فأطاب . فلينظر .

وفي البخاريّ[1] عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، أنه قيل : يارسول الله ! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللهم! صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وروى الإمام أحمد[2] وأبو داود والنسائيّ وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدريّ ؛ أنهم قالوا : يا رسول الله ! أما السلام فقد عرفناه . فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : قولوا: اللهم! صلّ على محمد وعلى آل محمد . وذكره . ورواه الشافعيّ في مسنده عن أبي هريرة بمثله .

ومن ههنا ذهب الشافعيّ رحمه الله ، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير . فإنْ تركه لم تصح صلاته . ووافقه الإمام أحمد في روايةٍ . وقال به إسحق ابن راهويه والإمام ابن المواز المالكيّ وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام ) وابن كثير في ( التفسير ) وقد تقصّيا ، عليهما الرحمة ، أيضا الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها . فأوسعا . فليرجع إليهما .

## تنبيهات :

الأول ـ تدل الآية على وجوب الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم مطلقا . لأن الأصل في الأمر للوجوب . فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة . ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس.

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ١٠ـ باب إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ، حديث رقم ١٥٩١ .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الرابع من المسند ( طبعة الحلبي ) .

وآخرون إلى وجوبها فى العمر مرة واحدة. ثم هى مستحبة فى كل حال. وآخرون إلى وجوبها كلما ذكر . وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب . قال ابن كثير : وهذا قول غريب . فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة . فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه . فمنه بعد النداء للصلاة ، لحديث(١) ( إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث(٢) ( كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم . ثم قال: اللهم ! اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك. وإذا خرج صلى على محمد وسلم. ثم قال: اللهم !اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك. ومنه الصلاة،فتستحب على قول الشافعىّ فى التشهد الأول منها،وتجب فى الثانى.ومنه فى صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية،لقول أبى أمامة: من السنة ذلك . وهـــذا من الصحابىّ فى حكم المرفوع ، على الصحيح . ومنه ختم الدعاء . فيستحب الصلاة فيه على النبىّ ﷺ ، ومن آكد ذلك دعاء القنوت. ومنه يوم الجمعة وليلتها. فيستحب الإكثار منها فيهما ، ومنه فى خطبة يوم الجمعة . يجب على الخطيب فى الخطبتين الإتيان بها . وهو مذهب الشافعىّ وأحمد . ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث ( ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام ) تفرد به أبو داود(٣) وصححه النووىّ فى ( الأذكار ) . وعن الحسن بن الحسن بن علىّ ؛ أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لاتتخذوا قبرى عيدا. ولا تتخذوا بيوتكم قبورا. وصلوا علىّ حيثما كنتم . فإن صلاتكم تبلغنى .

قال ابن كثير : فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة ، فنهاهم . وقد

(١) أخرجه البخارىّ فى: ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٧ ـ باب ما يقول إذا سمع المنادى ، حديث ٣٩٠ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى. ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١١٧ ـ باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ، حديث ٣١٤ .

(٣) أخرجه فى: ١١ ـ كتاب المناسك ، ٩٦ ـ باب فى زيارة القبور ، حديث ٢٠٤١

روى أنه رأى رجلا ينتاب القبر . فقال : ياهذا ! ماأنت ورجل بالأندلس ، منه إلا سواء . أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين . وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم كلما كتبه. وقد روى فى حديث (من صلى عليّ فى كتاب لم تزل الصلاة جارية له ، مادام اسمى فى ذلك الكتاب ) .

قال الحافظ ابن كثير : وليس هذا الحديث بصحيح. بل عدّه الحافظ الذهبيّ موضوعا. وقد ذكر الخطيب البغداديّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، كثيرا اسم النبيّ ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظا .

الثانى ـ الصلاة على غير الأنبياء ، إن كانت على سبيل التبعية ، كنحو : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه ، فهذا جائز إجماعا . وأما استقلالا فجوّزه قوم لآية[1] (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ) وآية[2] (أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) وآية[3] (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ) والحديث[4] ( كان ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم! صل عليهم. فأتاه أبوأوفى بصدقته فقال: اللهم! صل على آل أبى أوفى. وكرهه قوم، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا. فلا يلحق بهم غيرهم. فلا يقال : قال عمر صلى الله عليه . كما لايقال قال محمد عز وجل . وإن كان عزيزاً جليلا . لكون هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد من ذلك فى الكتاب والسنة على الدعاء لهم .

وقال ابن حجر : إن ذلك وقع من الشارع. ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بماشاء وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه . ولم يثبت عنه إذن فى ذلك . انتهى .

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٣ ] .   (٢) [ ٢ / البقرة / ١٥٧ ] .
(٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٣ ] .
(٤) أخرجه البخاريّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٦٤ ـ باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة ، حديث ٨٠٠ ، عن عبد الله بن أبى أوفى .

وقد يقال : كفى فى المروىّ المأثور المتقدم إذناً .

والاستدلال بأن ذلك من حقه فيه مصادرة على المطلوب . على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر . ولا حظر هنا . فتدبر .

وأما السلام ، فقال الجوينىّ : هو فى معنى الصلاة . فلا يستعمل فى الغائب. ولا يفرد به غير الأنبياء . فلا يقال : علىّ عليه السلام. وسواء فى هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به . فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم. أو السلام عليك أو عليكم. وقد غلب ـ كما قال ابن كثير ـ على كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علىّ رضى الله عنه بأن يقال (عليه السلام ) من دون سائر الصحابة .

قال : والتسوية بينهم فى ذلك أولى . انتهى .

والخطب سهل. ومن رأى المروىّ فى هذا الباب، علم أن الأمر أوسع من أن يحرّج فيه. على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف ، وفيه بحث فى الأصول .

الثالث ـ قال النووىّ: إذا صلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فليجمع بين الصلاة والتسليم. فلا يقتصر على أحدها . فلا يقول ( صلى الله عليه ) فقط . ولا ( عليه السلام ) فقط .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ) فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليما . انتهى .

الرابع ـ قال الرازىّ : إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول : الصلاة عليه ليس لحاجته إليها . وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ، ولا حاجة له إليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه منا، رحمة بنا، ليثيبنا عليه. ولهذا جاء فى الحديث (من صلى علىّ مرة، صلى الله عليه بها عشرا ) . انتهى .

وكان سبق لى، من أيام معدودات أن كتبت فى مقدمة مجموعة الخطب فى سر الصلاة عليه، ما مثله: ويُسَنُّ يوم الجمعة إكثار الصلاة على النبىّ ﷺ . ليذكر الرحمة ببعثته ، والفضل بهدايته

والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصلاح الأعظم برسالته ، والجهاد للحق بسيرته ، ومكارم الأخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ما ذاق عارفٌ سرَّ شريعته . وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد في دنياه وآخرته .

الخامس ـ قال الرازيّ : ذكر ( تسليما ) للتأكيد ليكمل السلام عليه. ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد، لأنها كانت مؤكدة بقوله (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ) انتهى.

وقيل: إنه من الاحتباك . فحذف ( عليه ) من أحدهما . و ( المصدر ) من الآخر .

قال القاضي : قيل معنى (وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ) أي انقادوا لأوامره . فالسلام من التسليم والانقياد .

السادس ـ قال الحافظ ابن حجر في ( الفتح ) : سئلتُ عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام ، وأمر المؤمنين بها وبالسلام ، فقلت : يحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد . فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم . والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد ، فلم يضف إليهم ، دفعا للإيهام . والعلم عند الله . انتهى .

وقال الشهاب : قد لاح لي في تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته ، نكتة سرية . وهي أن السلام تسليمه عما يؤذيه . فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والأذية إنما هي من البشر وقد صدرت منهم ، فناسب التخصيص بهم والتأكيد . انتهى .

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيّه صلى الله عليه وسلم التي هي الثناء عليه وتمجيده وتعظيمه ، بيّن وعيد مَن لا يرعاها ، بأن يجرؤ على ضدها بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا » أى ينالون فيه الهوان والخزى . والمقصود من الآية الرسول ﷺ . وذكر الله تعالى إنما هو لتعظيمه ، ببيان قربه ، وكونه حبيبه ، حتى كأنّ ما يؤذيه يؤذيه . كما أن من يطيعه يطيع الله. وقد روى(١) الطبرىّ عن ابن عباس؛ أنها نزلت فى الذين طعنوا على النبىّ ﷺ ، حين اتخذ صفية بنت حيىّ . وهذا فى الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية . بل لو قيل إنها عنى بها مَنْ خاض فى مسألة زينب ، لكان أقرب ، لتقارب الآيات فى الباب الواحد ، وتناسقها كسلسلة واحدة ، فى تلك المسألة التى كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها . كما لا يخفى على من تدبرها . وبالجملة ، فاللفظ عامٌّ فى كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه . فيدخل المقصود من التنزيل دخولا أوليًّا . وعلى هذا ، فالأذية على حقيقتها . وقيل المراد بأذية الله ورسوله ، ارتكاب مالا يرضيانه ، مجازا مرسلا . لأنه سبب ، أو لازم له . وإن كان بالنسبة إلى غيره ، فإنه كان فى العلاقة وذكر الله والرسول على ظاهره . ومَنْ جوّز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين ، كاستعمال اللفظ المشترك فى معنييه ، أو فى حقيقته ومجازه ، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين . فتكون بالنسبة إليه تعالى ، ارتكاب ما يكره مجازا ، وإلى الرسول على ظاهره . فإن تعدد المعمول بمنزلة تكرر لفظ العامل . فيجىء فيه الجمع بين المعنيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا )

« وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى بقول أو فعل « بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ » أى بغير جناية يستحقون بها الأذية « فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » أى ظاهرا بيّنا .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال الزمخشريّ : أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدا . وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فمنه ومنه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى هذه الآية تحريم أذى المسلم ، إلا بوجه شرعىّ . كالمعاقبة على ذنب . ويدخل فى الآية كل ماحرم للإيذاء . كالبيع على بيع غيره ، والسوم على سومه ، والخطبة على خطبته . وقد نص الشافعىّ على تحريم أكل الإنسان مما يلى غيره ، إذا اشتمل على إيذاء .

وأخرج ابن أبى حاتم من حديث عائشة مرفوعا ( أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم ) ثم قرأ هذه الآية. وأخرج عن قتادة فى هذه الآية: إياكم وأذى المؤمن ، فإن الله يحوطه ويغضب له . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم، فأفزعه ذلك. حتى ذهب إلى أبىّ بن كعب. فدخل عليه فقال: ياأبا المنذر! إنى قرأت آية من كتاب الله فوقعت منى كل موقع ( وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ ) الآية . والله ! إنى لأعاقبهم وأضربهم . فقال له : إنك لست منهم . إنما أنت مؤدِّب ، إنما أنت معلِّم . انتهى .

قال الزمخشريّ : وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف ؟

وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول. فرحمه الله ورضى عنه .

ولما بيّن تعالى سوء حال المؤذين، زجرًا لهم عن الإيذاء، أمر النبىّ عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم، بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز، عن مواقع الإيذاء، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ » جمع ( جلباب ) كسرداب ، وهو الرداء فوق الخمار ، تتغطى به المرأة . وهو معنى قول بعضهم : جلبابها ملاءتها تشتمل بها . وقيل هو الخمار . قالت[١] جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه :

تمشى النسورُ إليه وهى لاهِيَةٌ ... مشىَ العذارى، عليهن الجلاليبُ

وقال آخر[٢] يصف الشيب :

حتى اكتسى الراسُ قناعاً أشهبا ... أكرهَ جلبابٍ لمن تجلببا

وقال الزمخشرىّ : الجلباب ثوب واسع ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء . تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ماترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الرداء الذى يستر من فوق إلى أسفل. ثم قال: ومعنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ) يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن. يقال إذا زلّ عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك. وذلك أن النساء كن فى أول الإسلام على هجّيراهن فى الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة فى درع وخمار، لافصل بين الحرة والأمة . وكان الفتيان وأهل الشطارة[٣] يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل ، إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان . وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة . يقولون حسبناها أمة. فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء، بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه

(١) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٢ من المجلد الأول ( طبعة بيروت )

(٢) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٣ من المجلد الأول ( طبعة بيروت )

(٣) الشاطر : من أعيى أهله ومؤدبه خبثا ومكرا . مولدة ، كما فى القاموس وشرحه.

ليحتشمن ويُهبن ، فلايطمع فيهن طامع، وذلك قوله «ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ» أى أولى وأجدر بأن يعرفن أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن. ثم قال الزمخشرى: فإن قلت : مامعنى (من) فى (من جلابيبهن) قلت: هو للتبعيض. إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين : أحدهما ـ أن يتجلببن ببعض مالهن من الجلابيب. والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة فى درع وخمار كالأمة والماهنة، ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها. والثانى ـ أن ترخى المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها ، لتتقنع حتى تتميز من الأمة . انتهى .

ومن الآثار فى الآية ، مارواه الطبرى[1] عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ( يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من السكينة. وعليهن أكسية سود يلبسنها. وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهرىّ: هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب. لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات .

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : روى عن سفيان الثورىّ أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهنّ . واستدل بقوله تعالى ( وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ) . انتهى .

الثانى ـ قال السبكىّ فى (طبقاته): استنبط أحمد بن عيسى، من فقهاء الشافعية، من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات ، من تغيير لباسهم وعمائمهم، أمر حسن. وإن لم يفعله السلف. لأن فيه تميزاً لهم حتى يُعرفوا ، فيعمل بأقوالهم . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ).

الثالث ـ قال الشهاب : قوله تعالى ( يُدْنِينَ ) يحتمل أن يكون مقول القول . وهو خبر بمعنى الأمر ، أو جواب الأمر ، على حدّ(١) ( قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ) انتهى « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا » أى لما سلف منهنّ من التفريط « رَّحِيمًا » أى بعباده ، حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا )

[٦١] ( مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا )

« لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ » أى عن نفاقهم « وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى ضعف إيمان ، عن مراودة النساء بالفجور « وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ » أى بأخبار السوء اللاتى يفترونها وينشرونها . كمجىء عدوّ وانهزام سريّة . وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين . وأصله التحريك . من (الرجفة) وهى الزلزلة. يسمى به الخبر المفترى، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت . أو لاضطراب قلوب المؤمنين به « لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ » أى لنسلطنك عليهم بما يضطرهم إلى الجلاء « ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ » أى فى المدينة من قوة بأسك عليهم « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمناً قليلا ريثما يستعدون للرحلة « مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ » أى مبغضين لله وللخلق. لا يستريحون بالخروج. للصوق اللعنة بهم أينما وجدوا. «أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا» أى أسروا وبولغ فى قتلهم لذلتهم وقلتهم . ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا )

« سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ » أى فى المفترين والمؤذين الذين مضوا ، إذا

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٣١ ] .

تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا ، أن يسلّط عليهم أهل الإيمان فيقهرونهم . «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا» أى لأنه لا يبدلها ، أو لا يقدر أحد أن يبدلها .

## تنبيهات :

الأول ـ قال الشهاب : إما أن يراد بالمنافقين والمراض والمرجفين ، قوم مخصوصون ، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ، على حدّ ( إلى الملك القرم وابن الهمام ) أو يراد بهم أقوام مختلفون فى الذوات والصفات . فعلى الأول، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين. وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين فى قلوبهم مرض ، كما مرّ فى البقرة . والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم . لكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل . فإنه لم يقع للمنافقين . وعلى الثانى ، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين . كأهل الفجور . والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة . وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم ينته منهم . وهم اليهود . انتهى .

الثانى ـ ذكروا أن معنى قوله تعالى (أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا) أنهم إذا خرجوا لا ينفكّون عن الذلّة ، ولا يجدون ملجأ . بل أينما يكونون ، يطلبون ويؤخذون ويقتلون . وعليه ، فالجملة خبريّة . وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائيّة كقوله[1] (عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ) وقوله[2] (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) كأنه قيل : أخذهم الله. أى أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه . ولم أر أحداً تعرّض له . وقد أفاد ابن عطية ، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشىء . لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهى فى قبضته ، أى لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير .

الثالث ـ فى (الإكليل): فى الآية تحريم الأذى بالإرجاف. وأخرج ابن أبى حاتم عن السّدّىّ

(١) [ ٩ / التوبة / ٩٨ ] و [ ٤٨ / الفتح / ٦ ] .

(٢) [ ١٠٤ / الهمزة / ١ ] .

فى قوله:( وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ) هم قوم كانوا يجلسون على الطريق ، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله (أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) قال : هذا حكم فى القرآن ، ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . انتهى .

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية . كما قدمنا . على أن للحاكم أن يفعل ذلك ، إذا رأى فى ذلك مصلحة ودرء مفسدة .على قاعدة رعاية المصالح التى هى أم الباب. كما بسط ذلك النجم الطوفىّ فى (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها .

الرابع ـ كتب الناصر فى ( الانتصاف ) على قول الكشاف فى قوله ( إِلَّا قَلِيلًا ) أى زمنا قليلا ريثما يرتحلون ويتلقطون أنفسهم وعيالاتهم، ما مثاله : فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعىّ ، يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر ، على حسب الاجتهاد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا )

«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » أى يسألونك عن وقت قيامها . وكان المشركون فى مكة يسألونه صلى الله عليه وسلم، عنها استعجالا على سبيل الهزء . وكذلك اليهود فى المدينة أو غيرهم . لأن هذه السورة مدنية ، وقد أرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستئثاره تعالى به. فلم يطلع عليه نبيا ولا ملكا، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين .

لطيفة :

تذكير ( قريبا ) باعتبار موصوفه ، الخبر ، أى شيئا قريبا . أو لأن الساعة فى معنى اليوم

أو الوقت . أو أن ( قريبا ) ظرف منصوب على الظرفية ، فإن ( قريبا ) و ( بعيدا ) يكونان ظرفين . فليس صفة مشتقة ، حتى تجرى عليه أحكام التذكير والتأنيث .

قال أبو السعود : والإظهار فى حيز الإضمار ، للتهويل وزيادة التقرير. وتأكيد استقلال الجملة . يعنى أن قوله ( وَمَا يُدْرِيكَ ) خطاب مستقل له عليه السلام، غير داخل تحت الأمر، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق ، مرجوة المجيء عن قريب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا )

[٦٥] ( خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا )

[٦٦] ( يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا )

« إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ » أى أبعدهم من رحمته « وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الاتقاد فى الآخرة « خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا » أى حافظا يتولاهم «وَلَا نَصِيرًا» أى يخلصهم «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ» أى تصرف من جهة إلى جهة، تشبيه بقطعة لحم فى قدرٍ تغلى . ترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو المعنى : من حال إلى حال . فالمراد تغيير هيآتها من سواد وتقديد وغيره .

قال الزمخشرىّ : وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة . وناصب الظرف ( يقولون ) أو ( اذكر ) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) « يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا » أى فكنا ننجو من هذا العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠)

[٦٨] (رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

[٦٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا)

«وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا» وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه « فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ » أى بما زينوه لنا . قال الزمخشرىّ : وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف «رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ» أى مثلى العذاب الذى آتيتناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا « وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » أى لعنا هو أشد اللعن وأعظمه . وقرئ ( كثيرا ) تكثيرا لأعداد اللعائن « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا» لما بين تعالى وعيد من يؤذى نبيه ﷺ ، من استحقاقه اللعنة فى الدارين ، تعريضا بمن صدر منهم شىء من الأذى فى قصة زيد وزينب، التى سيقت السورة لأجلها، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام، بتنقصه تارة، وقلة الأدب معه طورا ، ونسبته إلى ما ينافى الرسالة آونة . كما يعرِ كثير من ذلك بقارئى توراتهم. مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها ، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته . فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات ، ولحقتهم المخازى ، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن حقق فضله ، وأسمى منزلته ، وآتاه الوجاهة ـ وهى العظمة والقرب ـ عنده . وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزى على مؤذى رسول الله ﷺ ،

ولحقهم الدمار ، وشرح لنبيه صدره، ورفع له ذكره، وأعلى منزلته، ونخم وجاهته ، ماتعاقبت الأدوار. ويقرب من هذه الآية، في المعنى والإشارة، قوله تعالى[1] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ) وفيهما كلتيهما تسلية للنبيّ ﷺ بتأسّيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما . وكثيرا ما كان يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره : رحمة الله على موسى . لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وقد روى المفسرون ههنا آثارا. أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعا : كان موسى رجلا حييًّا. وأنه أتى الماء ليغتسل . فوضع ثيابه على صخرة. وكان لايكاد تبدو عورته. فقال بنو إسرائيل إن موسى آدرُ[2] أوبه آفة . يعنون أنه لايضع ثيابه . فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء بنى إسرائيل . فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال . أو كما قال . فذلك قوله ( فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ) ورواه[3] البخاريّ في صحيحه عن أبى هريرة أيضا .

قال الرازيّ: وحديث إيذاءموسى مختلف فيه ـ أى لكثرة الروايات فيه ـ مع أن الإيذاء المذكور في القرآن كاف كقولهم[4] (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ) وقولهم[5] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ) وقولهم[6] ( لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ) إلى غير ذلك . فقال للمؤمنين : لاتكونوا أمثالهم . انتهى .

(١) [ ٦١ / الصف / ٥ ] .

(٢) أى به أدرة ، بضم فسكون ، وهى انتفاخ الخصيتين وكبرهما جدا

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٠ ـ باب من اغتسل عريانا وحده في الخلوة ، حديث رقم ٢٠١

(٤) [ ٥ / المائدة / ٢٤ ] . (٥) [ ٢ / البقرة / ٥٥ ]

(٦) [ ٢ / البقرة / ٦١ ] .

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ماروى مرادا. وأن يكون معه غيره . انتهى. أى لعموم المعمول المحذوف . وما بيناه أولًا ، هو الأقرب . والله أعلم .

## تنبيهات :

الأول ـ ( الوجيه ) لغة بمعنى السيد ، كالوجه . يقال : هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه . أى أشرافه. وبمعنى ذى الجاه ـ والجاه القدر والمنزلة. مقلوب عن (وجه) فلما أخرت (الواو) إلى موضع ( العين ) وصارت جوَها ، قلبت ( الواو ) ألفا . فصارت ( جاها ) . كذا فى القاموس وشرحه .

الثانى ـ قال الزمخشرىّ : ( وجيهاً ) أى ذا جاه ومنزلة عنده . فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة . كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة . وقال ابن جرير(١) : أى كان موسى عند الله مشفّعا فيما يَسأل ، ذا وجه ومنزلة عنده ، بطاعته إياه . أى مقبولا ومجابا فيما يطلب لقومه من الله تعالى ، عناية منه تعالى وتفضيلا .

الثالث ـ اتخذ العامة ، وكثير من المتعالمين ، وصف الوجاهة للأنبياء ، ذريعة للطلب والرغبة منهم، ممالاينطبق على عقل ولا نقل، ولا يصدق على المعنى اللغوىّ بوجهٍ ما. وقد كتب فى ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتيا ، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة . وذلك أنه سئل ، رحمه الله ، عمن يتوسل بالأنبياء والأولياء ، معتقداً أن النبىّ أو الولىّ يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام . وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام .

فقال امرؤ: إن هذا مخلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال . وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى . وإنه لا يدعى معه

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

أحد سواه . كما قال تعالى[١] ( فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّـهِ أَحَدًا ) وإن النبيّ ﷺ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر ، وأعظم الناس جاها ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضرًّا ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره . كما فى نص القرآن . وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بمـا جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته . وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضارّ إلا ما هدى الله الناس إليه . ولا معنى للتوسل بنبيّ أو وليّ إلا باتباعه والاقتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة فى القرآن العظيم ، كقوله تعالى[٢] ( قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّـهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّـهُ ) ( وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ )[٣] إلى غير ذلك من الآيات. هذا هو اعتقادى وهو الذى قلته للناس . فإن كنتم ترون فيهْ خطأ فأرجو بيانه. وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة، لأدافع بذلك من أساء بى الظن .

فأجاب رحمه الله، بعد البسملة والحوقلة :اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح . ولايشوبه شوب من الخطأ . وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاءبه محمد ﷺ أن يعتقده. فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبيّ محمد ﷺ هوهذا المعنى من التوحيد . كماقال الله تعالى[٤] ( قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ * ٱللَّـهُ ٱلصَّمَدُ) و (ٱلصَّمَدُ )هو الذى يقصد فى الحاجات، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم . والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر . كما هو معروف عند أهل اللغة . فلا صَمَدَ إلا هو . وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله[٥] ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

(١) [ ٧٢ / الجن / ١٨ ] . (٢) [٣ / آل عمران / ٣١ ].
(٣) [ ٦ / الأنعام / ١٥٣ ] . (٤) [ ١١٢ / الإخلاص / ١ و ٢ ] .
(٥) [ ٢ / البقرة / ١٨٦ ] .

قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وقد قال الشيخ محي الدين بن العربى، شيخ الصوفية، فى صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل لله الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا الله أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصا.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم فى هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقا من التأويل لا تنطبق على ما فى نفوس الناس. ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له فى مخيلات المعتقدين. فأى حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه (بدعة) فى الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك بالله تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التى نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن فى ذلك تعظيما لقدر النبى ﷺ، أو الأنبياء أو الأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظنّ هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم، واختراع شئون لهم مع الله، لم ترد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم فى ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يخطر بالبال أن جبارا لقى الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله. فكيف بالأنبياء والصديقين؟ إن لفظ (الجاه) الذى يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفىّ هو السلطة. وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال فلان خلص فلانا

من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلا. فزعمُ زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى ، إشراكٌ جليّ لاخفيّ . وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ ، وهو المنزلة والقدر . على أنه لامعنى للتوسل بالقدر والمنزلة فى نفسها. لأنها ليست شيئا ينفع. وإنما يكون لذلك معنى، لو أُوِّلَتْ بصفةمن صفات الله، كالاجتباء والاصطفاء، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها فى دعائه . وإن كان ( الآلوسىّ ) بنى تجويز التوسل بجاه النبيّ خاصة على ذلك التأويل . وما حمله على هذا إلّا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهّال . وهو مما لاقيمة له عند العارفين . فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة . وفيـــه شبهة الشركـ والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فَلِمَ الإصرار على تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها. وهى مارواه الترمذيّ[1] بسنده إلى عثمان بن حنيف رضى الله عنه قال: إن رجلا ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادع الله أن يعافينى. فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة. يامحمد ! إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى . اللهم فشفعه فىّ . قال الترمذيّ: وهو حديث حسن صحيح غريب ، ونقول أولًا : قد وصف الحديث بالغريب، وهو مارواه واحد. ثم يكفى فى لزوم التحرز عن الأخذ به، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراكـ فى الدعاء من الحى. كما قال عمر[2] رضى الله عنه، فى حديث الاستسقاء: إنا كنا نتوسل

---

(١) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ١١٨ ـ باب حدثنا محمود بن غيلان

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء ، إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢

إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا، قال ذلك ، رضى الله عنه ، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، ولو كان التوسل مازعم هؤلاء الزاعمون ، لكان عمر يستسق ويتوسل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يقول ( كنا نستسقى بنبيك) وطلب الاشتراك فى الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه، بل ويكون من الأعلى للأدنى، كما ورد فى الحديث. وليس فيه مايخشى منه، فإن الداعى ومن يشركه فى الدعاء وهو حيّ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى، والشريك فى الدعاء شريك فى العبودية ، لا وزير يتصرف فى إرادة الأمير كما يظنون[1] (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم المسألة داخلة فى باب العقائد، لا فى باب الأعمال. ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله فى قضاء حاجاتنا أو لا يجوز )؟ أما الكتاب فصريح فى أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم فى قوله[2] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّـهِ) سورة يونس، وقد جاء فى السورة التى نقرؤها كل يوم فى الصلاة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرًّا ، وهذا هو التوحيد الذى كان أساس الرسالة المصطفوية كما بيّنا. ثم البرهان العقليّ يرشد إلى أن الله تعالى فى أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم فى التحول عن إرادتهم ، بما يتخذه أهل الجاه عندهم، لتنزّهه جل شأنه عن ذلك. ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة ، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة . ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده . فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن . (وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا )[3] انتهى كلامه رحمه الله .

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٨٠ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ١٨ ] .
(٣) [ ٥٣ / النجم / ٢٨ ] .

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلم تقيّ الدين ابن تيمية رضي الله عنه . فرأيته ذكر نحوا من ذلك ، وعبارته : فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها ، تعمّ الوسيلة في عبادته وفي مسألته . فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته . ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبيّ ﷺ يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعوَ لهم في الاستسقاء وغيره : وقول عمر رضي الله عنه ( إنا كنا ، إذا أجْدَبْنَا ، توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله، ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته . ليس المراد به، إنا نقسم عليك به. أوما يجرى هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه. كما يقوله بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك . ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه، ويروون حديثا موضوعا (إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ،فإن جاهي عند الله عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضي الله عنه، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس. مع علمهم أن السؤال به والإقسام به ، أعظم من العباس . فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه ، هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات . وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم . فإن الحيّ يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء ، لا دعاء ولا غيره . وكذلك حديث الأعمى . فإنه طلب من النبيّ ﷺ أن يدعوله ليردّ الله عليه بصره . فعلّمه النبيّ ﷺ دعاءً أمره فيه ، أن يسأل الله قبول شفاعة نبيّه فيه . فهذا يدل على أن النبيّ ﷺ شفع فيه ،وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله (أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة ) أي بدعائه وشفاعته . كما قال عمر: كنا نتوسل إليك بنبينا . فلفظ ( التوجه) و (التوسل ) في الحديثين بمعنى واحد . ثم قال ( يا محمد ! يا رسول الله! إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها . اللهم ! فشفعه فيّ ) فطلب من الله أن يشفّع فيه نبيّه . وقوله ( يا محمد ! يانبي الله !) هذا وأمثاله نداء ، يطلب به استحضار المنادى في القلب.

فيخاطب المشهود بالقلب . كما يقول المصلّي : السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته . والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا . يخاطب من يتصوره في نفسه . وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب . فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به ، فيه إجمال واشتراك. غلط بسببه من لم يفهم مقصد الصحابة، يراد به التشبث به (في الأصل التسبب به) لكونه داعيا وشافعا مثلا . أو لكون الداعي محبّا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به . فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته . فلا يكون التوسل، لا بشيء منه ولا بشيء من السائل ، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله . فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أي في كل ماتأتون وماتذرون . لاسيما في ارتكاب ما يكرهه، فضلًا عما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم « وَقُولُوا۟ » أي في كل شأن من الشئون «قَوْلًا سَدِيدًا» أي قويما حقا صوابا . قال القاشانيّ : (السداد) في القول ، الذي هو الصدق والصواب ، هو مادة كل سعادة ، وأصل كل كمال . لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعي جميع الكمالات. وهو وإن كان داخلا في التقوى المأمور بها ، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب ، مندرج تحت التزكية التي عبر عنها بالتقوى. لكنه أفرد بالذكر للفضيلة. كأنه جنس برأسه . كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا )

«يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ» أى بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم. لأنه لا يصح عملٌ ما بدون الصدق أصلا . وبه يصلح كل عمل « وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل . فإن الحسنات يذهبن السيئات « وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فى الأوامر والنواهى التى من جملتها هذه التشريعات « فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » أى فى الدارين .

وقال القاشانىّ : أى فاز بالتحلية والاتّصاف بالصفات الإلهية ، وهو الفوز العظيم .

تنبيه :

قال الزمخشرىّ : المراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعثُ على أن يَسِدّ قولُهم فى كل باب . لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . وهذه الآية مقررة للتى قبلها . بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ، ليترادف عليهم النهى والأمر ، مع إتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام . وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . انتهى .

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذى ذكره ، مراداً آخر . وهو نهيهم أيضا عما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف فى غزوة الأحزاب ، المتقدمة أوائل السورة وبالجملة ، فالسياق يشمل ذينك وغيرهما . إلا أن الذى يراعى أولًا ، هو ما كان التنزيل لأجله، وذلك ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] ( إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ، إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا )

« إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا » قال أبو السعود : لما بيّن عظم شأن طاعة الله ورسوله، ببيان مآل الخارجين عنهامن العذاب الأليم ، ومثال المراعين لهامن الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل ـ مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها ، صدر عنهم بعد القبول والالتزام . وعبر عنها بـ ( الأمانة ) تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين، وائتمنهم عليها . وأوجب عليهم تلقّيها بحسن الطاعة والانقياد . وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها ، من غير إخلال بشيء من حقوقها . و عبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها ، بالعرْض عليهنّ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهنّ لها ـ وعن عدم استعدادهنّ لقبولها ، بالإباء والإشفاق منها ، لتهويل أمرها وتربية فخامتها ـ وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية، التي أشدها وأعظمها ما فيهنّ من القوة والشدة. والمعنى :أن تلك الأمانة فى عظم الشأن ، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ، التي هى مثل فى القوة والشدة ، مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك، لَأَبَيْنَ قبولها وأشفقن منها. ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق، رَوْماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه. وقوله تعالى (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ) أى عند عرضها عليه . إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق ـ أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ـ وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرىّ ، أو عن اعترافه بقوله (بلى) . وقوله تعالى ( إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ) اعتراض وسط بين الحمل وغايته، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ـ أى أنه كان مفرطا فى الظلم، مبالغا فى الجهل .أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا . وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا )

« لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ » أى حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة . على أن اللام للعاقبة . فإن التعذيب وإن لم يكن غرضا له من الحمل ، لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ، ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها ، أبرز فى معرض الغرض ـ أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية . وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى « وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده . أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة . وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات . قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلّته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة . والالتفات إلى الاسم الجليل أولا ، لتهويل الخطب وتربية المهابة . والإظهارُ فى موضع الإضمار ثانيا ، لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا » أى مبالغاً فى المغفرة والرحمة . حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم . انتهى ملخصا مما حرره أبو السعود . وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الكلام ، وإجادته فى المقام . وهكذا عادتنا فى كل مجوّد ، أن ننقله ولا نتصرف فيه .

بقى فى الآية لطائف نشير إليها :

الأولى ـ فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة ، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين . وبعضهم بمعرفته تعالى. قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال لا تنافىَ بينها، بل هى متفقة وراجعة

إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها. وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب . انتهى .

وقيل : المراد بالأمانة الطاعة التى تعمّ الطبيعية والاختيارية، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وبعرضها، استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار، وإرادة صدوره من غيره ـ وبحملها، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، فيكون الإباء امتناعا عن الخيانة وإتيانا بالمراد . فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها ، أَبَيْنَ الخيانة وانقدن لأمره تعالى انقياد مثلها. حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكوينا وتسوية، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة . كما قال[1] ( قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) وخانها الإنسان حيث لم يأت ـ وهو حيوان عاقل صالح للتكليف ـ بما أمرناه به؛ إنه كان ظلوما جهولا . وإرادة الخيانة من حملها، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله . كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزمخشرىّ بقوله: وأما حمل الأمانة فمن قولك ( فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، ويخرج عن عهدتها . لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها . ألا تراهم يقولون ( ركبته الديون ) و ( لى عليه حق ) فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها . ومنه قولهم (أبغض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤدّه. وإذا أبغضه أخرجه وأداه فمعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها. وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه . وهو أداؤها . انتهى ملخصا .

الثانية ـ نقل ابن كثير آثارا عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقيا. وأنه قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فقلن: يارب ! إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بنا قوة . ولكنا لك مطيعين . قال الشراح : ولا بُعْد ، أن يخلق الله فيها فهماً لخطابه ، وأنه كان على سبيل التخيير لهـــا . ولذا عبر بالعرض ، لا تكليفا حتى يلزم عصيانها . انتهى .

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ١١ ] .

قال الإمام ابن حزم فى ( الفِصَل ) فى الردّ على من جعل للجمادات تميزا، مامثاله : وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبابة كل واحد منها، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك. وهذا نص قوله[1] (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ » فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق ، وأن له مبدأً لايشبهه البتة ، فأراد معرفة كيف كان ، فقد دخل فى قوله تعالى[2] (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ) .

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة ، إلا وقدجعل فيها تميزاً لما عرض عليها . وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها. فلما أبتها وأشفقت منها، سلبها ذلك التميز وتلك القوة ، وأسقط عنها تكليف الأمانة .

قال : هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل ، ولا مزيد عندنا على ذلك . انتهى .

وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز ، كما بينه ابن أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشرىّ حيث قال : ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب . وماجاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم (لوقيل للشحم أين تذهب ، لقال أسوّى العوج) وكم وكم لهم من أمثالٍ على ألسنة البهائم والجمادات . وتصوُّرُ مقاولة الشحم محال . ولكن الغرض أن السِّمَن فى الحيوان مما يحسّن قبيحه . كما أن العجف مما يقبح حسنه . فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس، وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف. وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . انتهى .

الثالثة ـ قال الرازىّ : إن قال قائل: لم قدم التعذيب على التوبة ـ فى آخر الآية؟ نقول: لما سمى التكليف أمانة، والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن، وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة ، فكان التعذيب على الخيانة كاللازم ، والأجر على الحفظ إحسان ، والعدل قبل الإحسان .

الخامسة ـ ورد فى تعظيم الأمانة عدة أحاديث. منها عن أبى هريرة مرفوعا : أدّ الأمانة

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ٥١ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ١٥ ] .

إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود[٢] والترمذىّ[١]. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعا : أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة فى طعمة. رواه الإمام أحمد[٣] والطبرانىّ. وعن أبى هريرة[٤] قال: قال رسول الله ﷺ ، لمن سأل عن الساعة : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ يارسول الله ! قال : إذا وسّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة .

السادسة ـ قال ابن كثير : روى عبد الله بن المبارك فى كتاب ( الزهد ) أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا ، تفرد به أبو داود[٥] . أى لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته . وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام . كما تقرر فى موضعه . والله أعلم .

السابعة ـ سبق لى أن كتبت فى الآية شيئا . فى منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤ ، فى قرية ضمّت حفلة من أهل العلم . فسأل بعض الناس عن تفسير الآية . ولم يكن ثمة تفسير . فاستعنتُ بالله تعالى ، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ماتراه. أردت إثباته هنا تعزيزاً للمقام ، ونصه: فى ختم السورة بهذه الآية من البدائع مايسميه علماء البديع (ردّ العجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت فى ذم المنافقين وقصّ

(١) رواه فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٧٩ ـ باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده ، حديث ٣٥٣٥

(٢) أخرجه فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٣٨ ـ باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٦٦٥٢ ( طبعة المعارف )

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢ ـ باب من سئل علما وهو مشتغل فى حديثه ، حديث ٥٢

(٥) أخرجه فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان، ٥ ـ باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣

مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه فى غزوة الأحزاب ، وهى غزوة الخندق . أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين ، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبنّى ونحوها ، أنهم كانوا أعطوا العهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفروا وذلك فى قوله تعالى[1] ( وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ) فلما خانوا أماناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم ، والتثبيط لهم ، وما كان من شنائعهم فى تلك الغزوة ، بين الله تعالى فى خاتمة السورة ، شأن الأمانة وعظم خطرها ، وأنها عند الله بمكان عظيم . وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقا ، عاهد الله عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته فى عداد من يشدّ أزرها ، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب ، يتخذ عهود الله هزؤا ولعبا ، فيخذل من وثق به ، ويمالئ العدوّ عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة ، ويوقع الأراجيف ليوهى العزائم ويضعف الهمم ، فتكثر القالة وترتبك العامة . فما أسوأ ما يأتى به وما أفظع ما ارتكب وما أعظم جريمته ! وجلىّ أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها ، وما ذكر بعض من آثارها . ففى أى مرتبة تكون الخيانة ؟ لا جرم أنها فى أحط المهاوى الدنيئة . كما أن مرتكبها فى الدرك الأسفل من النار . فالأمانة المذكورة فى الآية باعتبار سياقها وسباقها ، هى الأمانة التى خان فى تحملها المنافقون ، ونقضوا بها عهدهم فى هذه الواقعة . وكان من أثرها السيئ فى المدينة وأهلها ما كان ـ وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره ، والإنسان هنا ، المعنىّ به جنس المنافق الذى قصّ من نبئه ما قصّ . والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل ، ثم نقض ذلك عن عمد وقصد ، ظلما لنفسه وجهلا بالعاقبة وباللوم الذى يتبعه ، وبالعذاب الذى سيلقاه ، وبكون هذا الأمر أمراً ربّانيا وعزيمة إلهية ما هى بالهزل . والمراد بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، هو ظهور خطرها لهذه المكونات ، وفظاعة الخيانة فيها ، وإشفاق كلٍّ من خطر تحملها . وإبائهن ذلك لو كن مما يعقلن . مع أنهن أقوى أجساما وأعظم ثباتا وأصبر على

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٥ و ١٦ ] .

طوارئ الحدثان ، تخوفا من أن يطغين فى أمرها أو يعصين فى شأنها . وإن الإنسان ، مع ضعفه بالنسبة لهن، حملها وما حفظها ولا رعاها . واجترأ مع ضعفه على ما أشفق منه ما هو أقوى منه . فما أظلمه وما أجهله ! والقصد رميه بالظلم والجهل . وجراءته على الخيانة وعدم مبالاته بما ترهب منه السموات والأرض والجبال . فيالله ما أطغاه ! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة ، وأنهن لو عقلن لكان منهن ما كان. ونظير هذه الآية فى ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى[1] (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا*لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا* تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ) وحقا أن سبك المعنى المذكور فى قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل ، وخارق من خوارقه فى باب البلاغة . فإن أسلوبه فى إفراغ المعانى فى أرق الألفاظ وأفخم التراكيب، أسلوب انفرد به عن كل كلام . وبه يعلم أن من بحث فى كيفية العرض عليهن، هل كان بإيداع عقل فيهن أولا، وفى تعيين زمانه وفى كيفية إبائهن وإشفاقهن ، وفى معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل ، بعد ما عرضت عليه ، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك ـ كله فلسفة لفظية ، ولدها عشاق الظواهر والألفاظ ، الولعون فى الغلوّ بمفرداتها ، وصرف الوقت فيها جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم . فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه ـ ولن يجدوا إليه سبيلا ما دام هذا سبيلهم ـ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

تمّ الجزء الثالث عشر . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر ، وفيه تفسير : ( ٣٤ ـ سورة سبأ ، و ٣٥ ـ سورة فاطر ، و٣٦ ـ سورة يس ، ٣٧ ـ سورة الصافات ، و ٣٨ ـ سورة ص ، و٣٩ ـ سورة الزمر ، و ٤٠ ـ سورة غافر ، و٤١ ـ سورة فصلت ، و ٤٢ ـ سورة الشورى ، و ٤٣ ـ سورة الزخرف ، و٤٤ ـ سورة الدخان و ٣٥ ـ سورة الجاثية )

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٨٨ ـ ٩١ ] .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٣٩٤٥

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

## الجزء الرابع عشر

وفيه تفسير سور : ( من سبأ إلى الجاثية )

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً، فى خزانته الواسعة، مخطوطاً كان أو مطبوعاً، خالياً من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان، رحمه الله، آية فى المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٤ - سورة سبأ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلوّ عن الآفة، وتبدّلها بالنقم ، لمن كفر بالمنعم .. وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمىّ . وهى مكية . واستثنى منها[1] ( وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ) الآية . وروى الترمذىّ[2] عن فروة بن مسيك المرادىّ قال : أتيت النبىّ ﷺ فقلت : يا رسول الله ! ألا أقاتل من أدبر من قومى ؟ الحديث . وفيه : وأنزل فى سبأ ما أنزل . فقال رجل : يا رسول الله ! وما سبأ ؟ الحديث .

قال ابن الحصار : هذا يدل على أن هذه القصة مدنية . لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع .

قال : ويحتمل أن يكون قوله ( وأنزل ) حكاية عما تقدّم نزوله قبل هجرته . أفاده فى ( الإتقان ) وآيها أربع وخمسون .

---

(١) [ ٣٤/ سبأ / ٦ ] .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٤ ـ سورة سبأ ، ١ ـ حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » خلقاً وملكا ، وتصرفا بما شاء « وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ » أى فى النشأة الآخرة. قال الشهاب: السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره . وهو يشتمل على النعم الدنيوية. فعلم من التوصيف بقوله (ٱلَّذِى) الخ ، أنه محمود على نعم الدنيا . ولما قيّد الثانى بكونه فى الآخرة، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى : أنه المحمود على نعم الدنيا فيها ، وعلى نعم الآخرة فيها . أو هو من باب الاحتباك . وأصله : الحمد لله الخ فى الدنيا ، وله ما فى الآخرة والحمد فيها . فأثبت فى كل منها ماحذف من الآخرة . وقوله ( وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ) معطوف على الصلة ، أو اعتراض ، إن كانت جملة ( يَعْلَمُ ) حالية ( وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ) أى الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته «ٱلْخَبِيرُ» أى بخلقه وأعمالهم وسرائرهم ، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ)

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من الأمطار والمياه والكنوز والدفائن والأموات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب «وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة وأعمال العباد « وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ » أى لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » يعنى مشركى مكة « لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ » أى ساعة الجزاء ، إنكاراً لها « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ » أى الساعة . رد لكلامهم وتأكيد لما نفوه ، باليمين بالله عزّ وجلّ « عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ » بالجرّ صفة ، والرفع خبر محذوف . وقرئ ( علاّمِ ) بالجرّ . وفى هذا التوصيف تقوية للتأكيد . لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به ، يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته . لما أن فى حكم الاستشهاد على الأمر . لا سيما إذا خص من الأوصاف ماله اختصاص بهـذا المعنى . فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب ، إذا قيل عالم الغيب « لَا يَعْزُبُ » أى لا يغيب بضم الزاى وكسرها « عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ » أى فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شىء وإن تناهى فى الصغر . فالعظام وأجزاء البدن ، وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت . ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، لسعة علمه وعظم قدرته ، جلّ شأنه .

لطائف :

الأولى ـ عامة القرّاء على رفع ( أَصْغَرُ ) و ( أَكْبَرُ ) وفيه وجهان : أحدهما الابتداء

والخبر ( إِلَّا فِي كِتَابٍ )والثانى النسق على (مثقال). وعلى هذا فيكون قوله ( إِلَّا فِي كِتَابٍ ) تأكيداً للنفى فى ( لَا يَعْزُبُ ) كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين . ويكون فى محل الحال . وقرأ بعض السلف بفتح الراءين . وفيه وجهان : أحدهما ـ أن (لا) هى لا التبرئة. بنى اسمها معها . والخبر قوله ( إِلَّا فِي كِتَابٍ ) . والثانى ـ النسق على (ذَرَّةٍ) لامتناعه من الصرف .

الثانية ـ يشير قوله تعالى ( وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ ) إلى أن ( مِثْقَالَ ) لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً .

الثالثة ـ قال الكرخىّ : فإن قيل فأىّ حاجة إلى ذكر ( الأكبر ) فإن من علم الأصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان. وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فأعلم أن الإثبات فى الكتاب ليس كذلك . فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ )

« لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » علة لقوله تعالى (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وبيان لما يقتضى إتيانها من جزاء المحسن والمسىء « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى عيش هنىء فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ )

« وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا » أى بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك « مُعَٰجِزِينَ » أى مقدرين الغلبة والعجز فى زعمهم الفاسد وظنهم الباطل « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ » وهو أسوأ العذاب و ( مِّن ) للبيان « أَلِيمٌ » بالرفع صفة ( عذاب )،

وبالجرّ صفة (رجز). قراءتان. وقد جوّز في قوله ( وَٱلَّذِينَ سَعَوْ ) أن يكون مبتدأ، وجملة ( أُوْلَـٰٓئِكَ..الخ) خبره وأن يعطف على ( ٱلَّذِينَ ) قبله . أي ويجزى الذين سعوا . ويكون جملة ( أُوْلَـٰٓئِكَ ) التي بعده مستأنفة ، والتي قبله معترضة . وفي التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعي ، تمثيل لحالهم . فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعي العظيم والجدّ البليغ، ليروّج كذبه لعله يعجز المتمسك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ )

[٧] ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ )

[٨] ( أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ، بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ )

« وَيَرَى » أي يعلم « ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » أي دينه وشرعه « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أي من قريش « هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ » يعنون النبيّ ﷺ « يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أي فرقتم كل تفريق ، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً « إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أي فيما قاله « أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ » أي جنون يخيل به ذلك. فردّ تعالى عليهم ما نعى به سوء حالهم بقوله « بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ » أي المتناهي أمره . فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد؛ ونبذ الهوى والفساد، فيرمى الداعي بالفرية والجنون ، لَمُغرِق في الجهالة. ومبعد أيّ بعد في الضلالة. ثم أشار إلى تهويل تلك العظيمة التي تفوهوا بها ، وإنها موجبة لنزول أشد العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ )

« أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . أفاده الزمخشرىّ . و ( الكسف ) بسكون السين ، بمعنى القطع ، إما جمع كسفة ، أو فعل بمعنى مفعول ، أو مخفف من المصدر . وقرأ حفص ( كسفاً ) بالفتح « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله « لَآيَةً » أى دلالة واضحة « لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى راجع إلى ربه مطيع له . فإن شأنه لايخلو من الاعتبار فى آياته تعالى ، على أنه قادر على كل شىء من البعث ونشر الرميم كما قال تعالى[١] ( أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ) وقال تعالى[٢] ( لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد ، ببركة إنابتهما وقيامهما بشكر الرب تعالى ، عِدَةً للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المنيبين الشاكرين بنيل مثل ذلك ، وتذكيراً بقدرته على كل شىء ، فقال تعالى :

(١) [ ٣٦ / يس / ٨١ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ٥٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا، يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ، وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ)

[١١] (أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ، وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ » أى رجّعى معه التسبيح و ( يَـٰجِبَالُ ) بدل من ( فَضْلًا ) أو من ( ءَاتَيْنَا ) بتقدير قولنا ، أو قلنا يا جبال أوّبى معه « وَٱلطَّيْرَ » بالرفع والنصب ، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها . وجوز انتصابه مفعولاً معه وأن يعطف على ( فَضْلًا ) بمعنى وسخرنا له الطير . قال الزمخشرىّ : فإن قلت أىّ فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وآتينا داوود منا فضلاً، تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما ! ألا ترى ما فيـه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته . انتهى . « وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ » أى دروعا واسعات « وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ » أى اقتصد فى نسج الدروع لتتناسب حلقها « وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا » أى وقلنا له ولأهله ذلك « إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فأجازيكم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ، وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ )

«وَلِسُلَيْمَـٰنَ» أى وسخرنا له «ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشىّ كذلك. والريح الهواء المسخر بين السماء والأرض. ويطلق بمعنى

النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كما في القاموس «وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ» أي النحاس المذاب. أي أجرينا له ينبوعه لكثرة ماتوفر لديه منه من سعة ملكه «وَمِنَ ٱلْجِنِّ» أي الشياطين الأقوياء «مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ» أي من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها «بِإِذْنِ رَبِّهِۦ» أي بأمره تعالى «وَمَن يَزِغْ» أي يعدل «مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ» أي النار. ثم فصل ماذكر من عملهم بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ، ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ)

«يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ» أي مساكن ومجالس شريفة أومساجد «وَتَمَٰثِيلَ» أي صور ونقوش منوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهو كل ماصوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان. ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما.

قال السيوطيّ في (الإكليل) : قال ابن الفَرَسِ : احتجت به فرقة في جواز التصوير، وهو ممنوع فإنه منسوخ في شرعنا «وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ» أي وصحاف كالجوابي وهي الحياض الكبار. و (الجفان) جمع جفنة وهي كالصحفة والقصعة، مايوضع فيه الطعام مطلقا. وقيل الجفنة أعظم القصاع. ثم يليها القصعة وهي ماتشبع عشرة. ثم الصحفة وهي ماتشبع خمسة. ثم الميكلة وهي ماتشبع ثلاثة أو اثنين. ثم الصحيفة «وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ» أي ثابتات على الأثافي، لاتنزل عنها لعظمها «ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا» أي قيل لهم : اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف. كما أن فيه وجوب الشكر. وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان. لأن حقيقته صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق لأجله. وداود عليه السلام قد يدخل هنا في (آله) فإن آل الرجل قد يعمه «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ» أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه، أكثر أوقاته.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ )

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ » أى على سليمان « ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ » وهى الأرضة « تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ » أى عصاه التى ينسأ بها ، أى يطرد ويؤخر « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » أى الشديد من الجرى على رسمه لهم ، والدأب عليه ، لظنهم إياه حيًّا .

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه ، إثر بيان أحوال الشاكرين لها ، مافيه عظة واعتبار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ )

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ » اسم لأبى قبيلة . وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها « فِى مَسْكَنِهِمْ » أى فى مواضع سكناهم ، وهى باليمن يقال لها ( مأرب ) كمنزل من بلاد الأزد ، فى آخر جبال حضرموت . وكانت فى الزمن الأول قاعدة التبابعة ، فإنها مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل . وقرئ ( مَسَاكِنِهِمْ ) « ءَايَةٌ » على قدرته تعالى ومجازاته المسىء « جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ » أى جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وشمالها . أو لكل واحد جنتان عن يمين مسكنه وشماله : قيل لهم « كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ » أى بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله . ثم بين مايوجب الشكر المأمور به ، بقوله سبحانه « بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ » أى لطيفة جميلة مباركة لاعاهة فيها « وَرَبٌّ غَفُورٌ » أى لمن شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

« فَأَعْرَضُواْ » أى عن الشكر « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ » أى سيل الأمر العرم، أى الصعب والمطر الشديد ــ أو الوادى ــ أو السكر الذى يحبس الماء ــ أو هو البناء الرصين المبنىّ بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها . وقد ترك فيه أنقاب على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم. فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم . واضطر من نجا منهم للنزوح عنها . كما قال تعالى « وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ » أى ثمر مرّ ، أو بشع لا يؤكل « وَأَثْلٍ » شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له « وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » وهو شجر النبق . أى قلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم، كما قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧] (ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ، وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ)

« ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ » أى بشكر النعم ، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدول إلى الباطل . ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنىّ والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ)

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا» أى بالزروع والثمار وحسن العمران وهى

قرى بصنعاء كما قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومالك وغيرهم «قُرًى ظَـٰهِرَةً» أى متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها . فهى ظاهرة لأعين الناظرين . أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مسالكهم «وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ» أى جعلنا بين قراها مقادير متساوية . فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة . ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ، ولا يخاف من عدوّ ونحوه «سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ» أى لا تخافون فى الليل أو النهار. أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن. والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبيّ ونحوه، أو بلسان الحال . كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به . فالأمر للإباحة . وفى ( فى ) إشعار بشدة القرب ، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

«فَقَالُواْ» أى بلسان الحال والميل إلى المهالك الشيطانية «رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» أى فاستعدوا لضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها المطىّ والرواحل ، لتباعد ما بينها وبين ما يسيرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة «وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ» أى حتى حل بهم ما حل «فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ» أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهنىّ «وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» أى فرّقناهم كل تفريق ، حتى اتخذه الناس مثلًا مضروباً . يقولون ( تفرقوا أيادى سبا ، وذهبوا أيدى سبا ) بألف مقصورة . قال الأزهرىّ : العرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز ، وإن كان أصله مهموزاً . والذهاب معلوم. والأيادى جمع أيد . والأيدى جمع يد. وهى بمعنى الجارحة ، وبمعنى النعمة، وبمعنى الطريق، وهو المراد.

قال فى التهذيب : قولهم ذهبوا أيدى سبا ، أى متفرقين . شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله فى الأرض كل ممزق . فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة . و ( اليد ) الطريق . يقال : أخذ القوم يد بحر .. فقيل للقوم إذا ذهبوا فى جهات مختلفة (ذهبوا أيدى سبا) أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها ، كما تفرق أهل سبا فى مذاهب شتى .

قال ابن مالك : إنه مركب تركيب خمسة عشر ، مبنيًّا على السكون . وفى ( زهر الأكم ، فى الأمثال والحكم ) أن سبا كانت أخصب بلاد الله . كما قال تعالى ( جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ) قيل كانت مسافة شهر للراكب المجدّ . يسير الماشى فى الجنان من أولها إلى آخرها لايفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء . فمكثوا مدة فى أمن لايعاندهم أحد إلا قصموه . وكانت فى بدء الأمر تركبها السيول . فجمع لذلك حميرُ أهلَ مملكته وشاورهم . فاتخذوا سدًّا فى بدء جريان الماء ورصفوه بالحجارة والحديد ، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعمهم نفعه فى الجنات والمزروعات . فلما كفروا نعم الله تعالى ، ورأو أن ملكهم لا يبيده شىء ، وعبدوا الشمس ، سلط الله على سدّهم فأرة نخرقته . وأرسل عليهم السيل فمزقهم الله كل ممزق . وأباد خضراءهم . وتبددوا فى البلاد . فلحق الأزد بعمان . وخزاعة ببطن مرّ . والأوس والخزرج بيثرب . وآل جفنة بأرض الشام . وآل جذيمة الأبرش بالعراق .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة ؟ أم أرض ؟ قال ﷺ : بل هو رجل ولد له عشرة . فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : وإسناده حسن إلا ابن لهيعة .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فقاتل بمقبل قومك مدبرهم . فلما وليت دعانى فقال : لاتقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام . فقلت :

يا رسول الله ! أرأيت سبأ ؟ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو ؟ قال ﷺ : لا ، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة . فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة . تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ـ الذين يقال لهم بجيلة ـ وخثعم . وتشاءم لخم وحذام وعاملة وغسان .

قال ابن كثير : حديث حسن . وإن كان فيه أبو حباب الـكلبيّ ، وقد تـكلموا فيه .

ورواه الحافظ ابن عبد البرّ فى كتاب ( القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الداريّ ؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؟ فذكر مثله .

وقال ابن كثير : فقوى هذا الحديث وحسن .

وذكر علماء النسب ، منهم محمد بن إسحق اسم سبأ ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب وكان يقال له الرائش . لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه . فسمى الرائش . والعرب تسمى المال ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشّر برسول الله ﷺ فى زمانه المتقدّم . وقال فى ذلك شعرا :

سيملكُ بعدنا مَلِكٌ عظيمٌ ... نبيٌّ لا يرخِّص فى الحرامِ
ويملك بعده منهم ملوكٌ ... يدينوه القيادَ بكل رامى
ويملك بعدهم منا ملوكٌ ... يصير الملك فينا بانقسامِ
ويملك بعد قحطانٍ نبيٌّ ... تَقِى مُتَحَنِّثٌ خيرُ الأنامِ
يسمّى أحمدًا . ياليت أنى ... أعمّر بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه بنصرى ... بكل مُدَجَّج وبكل رام
متى يظهرْ فـكونوا ناصريه ... ومن يَلْقَهْ يبلِّغْهُ سلامِى

ذكر ذلك الهمدانىّ فى كتاب ( الإكليل ) . واختلفوا فى قحطان . فقيل : إنه من سلالة إرم بن سام بن نوح . وقيل : من سلالة عابر وهو هود عليه السلام . وقيل : إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وقد ذكر ذلك مستقصًى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النمرىّ فى كتاب ( الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه ) .

قال ابن كثير : ومعنى قوله ﷺ فى سبأ : كان رجلا من العرب ، يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث . كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم . والله أعلم .

ولكن فى صحيح البخارى[1] أن رسول الله ﷺ مرّ بنفرٍ من أسلم ينتضلون فقال : ارموا ، بنى إسماعيل ! فإن أباكم كان راميا . وأسلم قبيلة من الأنصار . والأنصار أوسها وخزرجها من عرب اليمن ، من سبأ ، نزلت يثرب ، لما تفرقت ، كما مر .

( ثم قال ) : ومعنى قوله ﷺ : ولد له عشرة أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن . لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه ، الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من قصتهم ، وما حل بهم من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام « لَأَيَٰتٍ » أى لعبرا عظيمة « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام ، والشكر على النعم . قال الأعشى من قصيدة .

فَفِى ذاكَ للمؤتسى أُسْوَةٌ     وَمَأْرِبُ عَفَّى عليها العَرِمْ
رُخَامٌ بنته لهم حِمْيَرٌ     إذا جاء موّاره لم يَرِمْ
فأروى الزروعَ وأعنابَها     على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أَيَادِىَ ما يقدرو     ن منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) أخرجه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٨ـ باب التحريض على الرمى ، حديث رقم ١٣٨٧ عن سلمة بن الأكوع .

[٢١] (وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ)

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ » قال الزمخشرىّ : قرئ ( صدق ) بالتشديد والتخفيف. ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فمن شدد ، فعلى : (حقق عليهم ظنه ، ووجده ظنه صادقا ) أى صدّق بمعنى حقق مجازا . لأنه ظن شيئا فوقع فحققه . وقوله (أووجده ظنه صادقا) فإن العرب تقول صدّقك ظنك . والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئا فيهم . فلما وقع جعل كأنه صدقه . اه شهاب .

ومن خفف فعلى (صدق فى ظنه ، أو صدق يظن ظنا) نحو فعلته جهدك . أى و(ظنه) منصوب على الظرفية بنزع الخافض. وأصله (فى ظنه) أى وجد ظنه مصيبا فى الواقع ، فـ(صدق) حينئذ بمعنى أصاب ، مجازا . أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدّر . كفعلته جهدك ، أى وأنت تجهد جهدك . فالمصدر وعامله فى موقع الحال . اه شهاب .

وبنصب ( إبليس ) ورفع ( الظن ) فمن شدد فعلى ( وجد ظنه صادقا ) . ومن خفف ، فعلى ( قال له ظنه الصدقَ حين خيله إغواؤهم ) برفع ( إغواؤهم ) على الفاعلية . أو نصبه على الحذف والإيصال ، وفاعله وضمير الظن . أى خيـل له إغواءهم . اه شهاب . يقولون صدقك ظنك .

وبالتخفيف ورفعهما ، أى على إبدال الظن من إبليس ، بدل اشتمال . اه شهاب . على ( صدق عليهم ظن إبليس ) . انتهى .

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم فى الشهوات ، أو ببنى آدم حينما رأى ما ركب فيهم من الشهوة والغضب .

« فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ » أى ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء

بالوسوسة والاستغواء ، إلا لغرض صحيح وحكمة بينة . وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها. وعلل التسليط بالعلم. والمراد ماتعلق به العلم. قاله الزمخشريّ. يعنى أن العلم المستقبل المعلل به هنا ، ليس هو العلم الأزليّ القائم بالذات المقدس ، بل تعلقه بالمعلوم فى عالم الشهادة الذى يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب . فالمعنى ماسلطناه عليهم إلا ليبرز من كمون الغيب ما علمناه ، فتظهر الحكمة فيه ويتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه ، وهو ظهور المعلوم .

ويجوز أن يكون المعنى : لنجزى على الإيمان وضده . كذا فى ( العناية ) « وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » أى رقيب قائم على أحواله وأموره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ )

« قُلِ » أى للمشركين، إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم «ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم» أى زعمتموهم آلهة « مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى من خير وشر ونفع وضر « فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ » أى شركة، لاخلقا ولا ملكا ولا تصرفا « وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ » أى معين يعينه على تدبير خلقه ، قال الزمخشريّ : يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية. فكيف يصح أن يُدْعَوا كما يدعى ، ويرجَوْا كما يرجى ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُواْ ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ )

« وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ » أى من المستأهلين لمقام الشفاعة،

كالنبيين والملائكة . وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله « حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ » أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة ، فى إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك « قَالُوا۟ » أى سائلا بعضهم بعضا « مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ » أى قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى «وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ» أى ذو العلوّ والكبرياء . ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى .

قال ابن كثير : هذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة ، حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : بم اتصل قوله ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ) ولأى شيء وقعت (حتى) غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن . وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىّ من الزمان وطول من التربّص . ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل[1] (رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ) أى : وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال ، عظمة وسموًّا من ذى الجلال ، فأنَّى ينالها جماد لا يعقل ، لا سيما وهو عدوّ للكبير المتعال ، فتبين كذبهم فيهم أنهم شفعاء ، وحرمانهم من مقامها ، بأجلى بيان وأفصح مقال .

وفى الآية تأويل آخر . وهو أن معنى قوله تعالى ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ) أى عن قلوب المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : ( حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ) أى كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : أى كشف عما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

(١) [ ٧٨ / النبأ / ٣٧و٣٨ ] .

هذا عند الموت ، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . واختار ابن جرير[١] القول الأول ، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا هو الحق الذى لامرية فيه . لصحة الأحاديث فيه والآثار ، أى ولورود مايؤيده فى آية أخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضا وذلك فى قوله تعالى[٢] ( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ) نعم ، النظم الكريم لا يأبى ما ذكروه، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة فى باب فهم التأويل ، ما وجد إليها سبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، قُلِ ٱللَّهُ ، وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله « قُلِ ٱللَّهُ » أى الذى تعترفون بأنه هو الخالق . كما قال تعالى[٣] ( قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ) أى فحينئذ قامت الحجة عليهم منهم .

«وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» أى وإن أحد الفريقين من الموحدين، الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الثانى والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] . (٣) [ ١٠ / يونس / ٣١ ] .

قال الزمخشرىّ : وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من مُوالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك . وفى دَرْجِهِ بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو فى الضلال المبين . ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك . وإن أحدنا لكاذب . ومنه بيت حسان (١) :

أتهجوه ولستَ له بكفء فشرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِدَاء

انتهى .

قال الناصر : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعى فزاد رونقاً بالترديد . واستعاده الخاطر ، كأنى بطئ الفهم حين يفيد . ولا ينبغى أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التى أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء فى مجادلاتهم ومحاوراتهم . وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإبهام . فهذا المسلك من هذا الوادى غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى .

قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى ( الكلام المنصف ) . وقيل إن الآية على اللف والنشر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعا لقوله (وَإِنَّـآ) و ( أَوْ فِي ضَلَٰلٍ ) راجعا لـ ( إياكم ) كان العطف بالواو لا بأو . وكونها بمعنى الواو كما فى قوله :

سِيّانِ كسرُ رَغِيفِهِ أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

عَفَتْ ذات الأصابع فالجِواء إلى عذراء منزلها خَلاء

يهجو بها أبا سفيان ، وكان هجا النبىّ ﷺ قبل إسلامه .

( ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق . وعذراء : موضع على بريد من دمشق . وعفت : درست ) .

بعيد جداً . إلّا إنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار (على) فى الهدى و(فى) فى مقابله ، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الراكب على جواد . وانغماس الضال فى ضلاله حتى كأنه فى مهواة مظلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى قل لهؤلاء المشركين : لا تسئلون عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم ، ولا نسئل نحن عما تعملون من عمل .

قال ابن كثير : معناه التبرى منهم . أى لستم منا ولا نحن منكم . بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفرادِ العبادة له . فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى[1] (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) وكقوله[2] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) السورة . انتهى .

وما ذكره معنى دقيق ، قلَّ من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشباه والنظائر . وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة . ولا يدرك هذا إلا الراسخ فى فن التأويل، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشرىّ والمنتصف ، من أن هذا القول أدخل فى الإنصاف من الأول . حيث أسند الإجرام إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التى لا يخلو عنها مؤمن . وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصى والكبائر. فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم . وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف . وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضى ، الذى يعطى تحقيق المعنى . وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك . والله أعلم .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٤١ ] . (٢) [ ١٠٩ / الكافرون / ١ ـ ٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ )

« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا » أى يوم القيامة فى صعيد واحد . « ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أى يقضي بالعدل . لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال . فيتبين يومئذ المهتدى منا من الضالّ ، ويجزى كلا بعمله ، كما قال تعالى(١) ( وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ) ولهذا قال سبحانه «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » أى الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحق من المبطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ » أى جعلتموها لله أنداداً ، وصيرتموها له عدلًا . قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم . أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شيء فى استحقاق العبادة . وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم . وقد جوّز المعرِبُ فى ( رأى ) هنا أن تكون علمية متعدية بهمزة النقل ، إلى ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاء . وعائد الموصول محذوف . أى ألحقتموهم. وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنين : ياء المتكلم والموصول ، و ( شركاء ) حال . ولا ضعف

(١) [ ٣٠ / الروم / ١٤ ـ ١٦ ] .

فى هـــذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقته . لأنه كان يراهم ويعلمهم . فهو مجاز وتمثيل . والمعنى : ماز عمتموه شريكا إذا برز للعيون وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعــالى « كَـلَّا » ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايسة « بَلْ هُوَ ٱللَّـهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَـكِيمُ » أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحـكمة الباهرة. فأين شركاؤكم التى هى أخسّ الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية. والضمير إما لله عز وعلا، أو للشأن. قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

«وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَـآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أى وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لجميع الخلائق من المـكلفين . تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كقوله تبارك(١) وتعالى (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّـهِ إِلَيْـكُمْ جَمِيعًا ) (٢)( تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَـكُونَ لِلْعَـٰلَمِـينَ نَذِيرًا ).

(وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى فيحملهم جهلهم على ماهم فيه من الغىّ والضلال كقوله عز وجــل(٣) ( وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) (٤)( وَإِن تُطِـعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّـهِ ) قال ابن عباس ـ فيما رواه ابن أبى حاتم ـ إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس! فَبِمَ فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال(٥) ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(١) [ ٧/ الأعراف/ ١٥٨ ]. (٢) [ ٢٥/ الفرقان/ ١ ]. (٣) [ ١٢/ يوسف/ ١٠٣ ].
(٤) [ ٦/ الأنعام/ ١١٦ ]. (٥) [ ١٤ / إبراهيم / ٤ ].

بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ) ، وقال للنبي ﷺ[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير : وهـذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت فى الصحيحين . رفعه عن جابر رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ[2]: أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبىّ يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة. وفى الصحيح أيضاً[3] ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بعثت إلى الأسود والأحمر . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس . وقال غيره : يعنى العرب والعجم اهـ . والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأىّ زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط . ولهذا ختمت النبوّات بنبوّته ﷺ ، كما تقرر فى موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٣٠] (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ

(١) [ ٣٤ / سبأ / ٢٨ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعـالى فلم تجدوا ماء فتيمموا ، حديث رقم ٢٣١ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ عن جابر ابن عبد الله ( طبعتنا ) .

لَّا تَسْتَئْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ » يعنون بالوعد المنذر به استهزاء ، كقوله تعالى[1] ( يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ) وقوله[2] ( وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ )

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » وهو ما نزل قبل القرآن من كتبه تعالى « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتجاذبون أطراف الحادثة ويتراجعونها بينهم . ثم أبدل من (يَرْجِعُ) قوله « يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » وهم قادتهم وسادتهم « لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ )

« قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ » أى نحن مافعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك.

(١) [ ٤٢ / الشورى / ١٨ ] . (٢) [ ١١ / هود / ١٠٤و١٠٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى مكركم فيهما وإغراؤكم وتعنيتكم لنا « إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا» أى نظراء وآلهة معه « وَأَسَرُّوا » أى الجميع من السادة والأتباع « النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم كلٌّ بحسبه . للقادة عذاب بحسبهم . وللأتباع بحسبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ)

[٣٥] (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى زعماً أنه أكرمهم الله بذلك فى الدنيا، فلا يعذبهم فى الآخرة على تقدير وقوعها. وتوهما بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم . وقد أبطل الله تعالى حسبانهم ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته فى عباده ، من يحب ومن لا يحب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه . فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها . ولذا قال « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمالات النفسية . وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ)

« وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ » أى بالمزية التى تقربكم قربة . فـ ( زُلْفَىٰٓ ) محلها النصب « إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ » أى الثواب المضاعف « بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ » أى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن نظائر الآية قوله تعالى(١) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وقوله سبحانه(٢) (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٥٥ ] .

وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ) . وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ )

« وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا » أى بالصدّ عنها والطعن فيها « مُعَـٰجِزِينَ » أى قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أى فى عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ )

« قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ » أى يعوضه . فإن ينابيع خزائنه لا تنضب . وسحائب أرزاقه سحّاء الليلَ والنهارَ « وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى أعلاهم . لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق . روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إن بعد زمانكم هـذا زمان عضوض . يعض الموسر على ما فى يده حذار الإنفاق . ثم تلا هذه الآية ( وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ) وقال مجاهد : لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية ( وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبى ) .

(٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٣٤ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ)

[٤١] (قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ، بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ* قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ » قال الزمخشريّ : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر ( إياك أعنى واسمعى ياجارة ) ونحوه قوله تعالى[1] ( ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ) وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير. والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا. فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم ألزم . ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . انتهى .

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركى العرب . ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة . فتكون شفعاء لهم . وقوله تعالى ( أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ) أى: أبإذنكم كان ذلك. كما قال تعالى[2] (ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ) وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام[3] ( ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ) وهكذا تقول

(١) [ ٥ / المائدة / ١١٦ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ١٧ ] .

(٣) [ ٥ / المائدة / ١١٦ ] .

الملائكة (سُبْحَـٰنَكَ) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) أى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم . فنبرأ إليك منهم. بينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. وقولهم (بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ) أى الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم. والضمير الأول فى قولهم (أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) الإنس أو المشركين . والأكثر بمعنى الكل . والثانى للجن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

« فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لأن الأمر كله فيه لله. لأن الدار دار جزاء وهو المجازى وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة . يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ» وهم المشركون «ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ» ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ» يعنون رسول الله ﷺ «إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ » أى القرآن الكريم « إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ )

« وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أى ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا. فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ )

« وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا « وَمَا بَلَغُواْ » أى هؤلاء « مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ » يعنى أولئك، من المال وبسطة الملك والعمران والمدنية « فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أى عقابى ونكالى وانتقامى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ )

« قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ » أى بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وقد فسرها بقوله « أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ » أى قياماً خالصاً لله بلا محاباة

ولا مراءاة، اثنين اثنين وواحدا واحدا «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» أى فى أمره ﷺ وماجاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ماهو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات، واتباع الأحسن، ونبذ التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة فى الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة فى الكتب المؤلفة فى ذلك. وقوله تعالى «مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ» أى جنون. مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجح صدقه. فإنه لايدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان. فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقى نفسه إلى الهلاك. فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة؟ وجوّز كون الجملة معلقا عنها. لقول ابن مالك: إنّ (تفكر) يعلّق حَمْلا على أفعال القلوب. والتعبير عنه ﷺ ب(صاحبهم)، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم. لأنه نشأ بين أظهرهم معروفا بقوة العقل ورزانة الحلم وسداد القول والفعل. «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وهو عذاب الآخرة والمآل.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[٤٨] (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[٤٩] (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

«قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» أى أىّ شىء سألتكم من أجر على الرسالة فهو لكم. والمراد نفى السؤال رأساً. وإمحاض النصح كناية، لأن مايسأله السائل، يكون له. فجعله للمسئول عنه، كناية عن أنه لايسأل أصلا. و (ما) على هذا شرطية. وجوز كونها

موصولة مرادا بهـا ماسألهم[١] (مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) وقوله[٢] (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى . وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوّز أيضاً كونها نافية . وقوله ( فَهُوَ لَكُمْ ) جواب شرط مقدر . أى فإذا لم أسألكم فهو لكم « إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ » أى يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه. أو يرمى به فى أقطار الآفاق، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق « عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ » أى ظهر، وهو الإسلام ومحاسنه « وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ » كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره . مأخوذ من هلاك الحىّ . فإنه مادام موجودا، إما أن يبدىء فعلا أو يعيده. فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة. ثم شاع ذلك فى كل ماذهب ، وإن لم يبق له أثر، وإن يكن ذا روح. وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده. أى : أى شىء يقدر عليه .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : فى الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أُضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ، وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى ، إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

« قُلْ إِن ضَلَلْتُ » أى عن الطريق الحق « فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى » أى لأن وبال ذلك عائد عليها، أو على ذاتى، لا على غيرى « وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ » أى من الرشاد والحق المبين « إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » فإن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال (وإن

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٧ ] . (٢) [ ٤٢ / الشورى / ٢٣ ] .

اهتديت فإنما أهتدى لها ) فلِمَ عدل عنها إلى ماذكر ؟ قيل : إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى . وما هنا من الثانى . بيانه أن النفس كل ماعليها فهو بها ، أى : كل ماهو وبال عليها ، وضارّ لها، فهو بسببها، ومنها. لأنها الأمارة بالسوء. وكل ماهو لها مما ينفعها، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لكل مكلف . وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه . لأن ( الرسول ) إذا دخل فى عمومه، مع علوّ محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به. أشار لهذا، الفاضل ابن الأثير فى ( المثل السائر ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ )

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ » أى هؤلاء المكذبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أسره « فَلَا فَوْتَ » أى لهم ، بهرب أو التجاء . إذ لا وزر لهم ولا ملجأ « وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ )

« وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ » أى بمحمد ﷺ ، أو القرآن « وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى: ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء ، لا دار الابتلاء . أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى ( على تفسير ( إِذْ فَزِعُواْ ) بظهور الحق عليهم فى حياتهم . اهـ منه ) قال الزمخشرىّ : التناوش والتناول ، أخوان . إلا أن التناوش ، تناول سهل لشىء قريب.

يقال : ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا فى الحرب . ناش بعضهم بعضا . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون . وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع ، تناولاً سهلا لا تعب فيه . انتهى . أى ففيه استعارة تمثيلية . شبه إيمانهم حيث لايقبل، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه . فلما بعد عنه فرسخاً، مد يده لتناوله. وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ » حال أو معطوف أو مستأنف . والأول أقرب . « وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى يرجمون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة . كقولهم : ساحر وشاعر ومجنون وما نحن بمبعوثين . ونحو ذلك . فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصداقها بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ)

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » أى من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النار. أو من أن يدال لهم الأمر . لأنه جاء نصر الله والفتح « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ » أى بأشباههم من كفرة الأمم « إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ » من (أرابه) أوقعه فى ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدية . أو من (أراب الرجل) أى صار ذا ريبة . وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازىّ ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

في الإكليل ؛ قال ابن الفَرَس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر . وردّ بها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .

وعن قتادة : إياكم والشك والريبة . فإن من مات على شكٍّ بُعث عليه . ومن مات على يقين بعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، ووليّ المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٥ – سورة فاطر

سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة ، وجعلهم ذوى أجنحة متنوعة فى العدد ، الدالّ على عجيب صنعه تعالى وباهر قدرته .

وقال المهايميّ: سميت بها لاشتمالها على بيان تفصيل رسالتهم ، من جهة أخذهم الفيض عن الله ، وإيصاله إلى خلقه ، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر . ليشعر أن الرسالة العامة لهم ، إذا كانت كذلك ، فكيف الرسالة الخاصة ؟ مثل إنزال القرآن . فيجوز أن يكون له جهات كثيرة .

وقد روى أنه كان لجبريل ستمائة جناح . انتهى .

وتسمى هذه السورة سورة ( فاطر ) لذكر هذا الاسم الجليل والنعت الجميل فى طليعتها. وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد، التى فصلت فيها النعم الأربع، التى هى مجامع النعم. لأن نعم الله تعالى قسمان : عاجلة وآجلة . والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى . كما بينه الرّازى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[٢] ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى مبتدئها ومبدعها من غير سبق مثال ومادة « جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ » أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد ، حسب تفاوت ما لهم من المراتب . ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها. وفى الصحيح(١) أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة أسرى به، وله ستمائة جناح . ولهذا قال سبحانه « يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ » أى يزيد فى خلق الأجنحة وغيره ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته « إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ » أى نعمة سماوية كانت أو أرضية « فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » أى لا أحد يقدر على إمساكها « وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد إمساكه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » الغالب على كل ما يشاء « ٱلْحَكِيمُ » أى فى أمره وصنعه .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٦ ، عن ابن مسعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى إنعامه لتستدلوا بها على وحدته فى ألوهيته . لأنه المنفرد بإرسالها وحده . ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره ، لأنه كفران له موجب لغضبه . وهذا ما أشار له بقوله تعالى « هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى المطر والنبات « لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أى تصرفون عن التوحيد الواجب ـ لأنه مقتضى شكر المنعم ـ إلى الشرك والكفر .

... المدينة المنورة

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

« وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » فيجازى المكذب وشيعته بالخزى وظهور الحق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم فى الاتباع . وبالعقاب ، إن عصيتم « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا » أى بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها ، عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان . وقرئ بالضم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ )

« إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى باتباع الهوى والركون إلى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ )

[٨] ( أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ )

« ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا » أى: فمن حسّن له عمله السيء ، بأن غلب هواه على عقله ، حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقا والقبيح حسنا ، كمن لم يزين له ، بل هدى فعرف الحق وميز الحسن من السيء ؟ فحذف الجواب لدلالة قوله :

« فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى إلى الإيمان واتباع الحق. وجوّز أن يكون تقديره : أفمن زين له سوء عمله ، ذهبت نفسك عليهم حسرة ، بقوله تعالى « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ » أى فلا تهلك نفسك حزنا على ضلالهم وعدم اتباعهم لك « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى فيجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)

«وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ» أى مثل إحياء الموات ، إحياء الأموات . وكثيرا مايستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، ليعتبر المرتاب فى هذا . فإنه من أظهر الآيات وأوضحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ، وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ)

«مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ» أى الشرف والرفعة «فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا» أى فليطلبها من عنده ، باتباع شريعته ، وموالاة أنبيائه ورسله ، والتأسى بهم فى الصلاح والإصلاح ، والصبر والثبات ، واطّراح كل ملامة رغبة فى الحق وعملا بالصدق . وهذا كآية[١] (ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وكآية[٢] (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) «إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ» وهو الداعى إلى الحق والإصلاح ، والمنبه على سبل الضلال والفساد «وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ» أى يرفع الكلمُ العملَ الصالحَ ، على أن يكون المستكن للكلم . إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر فى إبلاغ دعوة الخير . والضمير المستتر للعمل ، والبارز للكلم . أى يكون العمل

(١) [ ٤ / النساء / ١٣٩ ] . (٢) [ ٦٣ / المنافقون / ٨ ] .

الصالح موجبا لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها ، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام[1] ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ « وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى الأعمال السيئة المفسدة لصلاح الأمة وقيام عمرانها « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ » أى يضمحلّ . لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ، وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ )

«وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا» أى ذكرانا وإناثا ، لطفا منه ورحمة « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ » أى من أحد . وإنما سمى معمرا لما يؤول إليه . أى وما يمدّ فى عمر أحد «وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ » وهو علمه تعالى الذى سبق ، ببلوغ أصله إليه « إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى : الحفظ والزيادة أو النقص ، سهل . لشمول علمه وعموم قدرته .

لطيفة :

الضمير فى ( عمره ) للمعمر قبله . باعتبار الأصل المحوّل عنه . لأن الأصل ( وما يعمر من أحد ) كما ذكرنا . أوهو على التسامح المعروف فيه ، ثقة فى تأويله بأفهام السامعين : كقولهم ( له علىّ درهم ونصفه ) أى نصف درهم آخر . أو للمنقوص من عمره لا للمعمر ، كما فى الوجه السابق . وهو وإن لم يصرح به فى حكم المذكور ، كما قيل ( وبضدها تتبين الأشياء ) فيعود

(١) [ ١١ / هود / ٨٨ ] .

الضمير على ما علم من السياق . وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك . ومحصله ، كما ذكره الشهاب، أنه اختلف فى معنى ( مُّعَمَّرٍ ) فقيل: المزادعمره. بدليل مايقابلهمن قوله (يُنقَصُ)الخ. وقيل ( من يجعل له عمر ) . وهل هو واحد أو شخصان ؟ فعلى الثانى هو شخص واحد . قالوا مثلا : يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم، مضى يومان، وهكذا . فكتابةالأصل هى التعمير . والكتابة بعد ذلك هو النقص . كما قيل :

حياتك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلما مضى نَفَسٌ منها انتقصتَ به جُزْءا

والضمير فى ( عمره ) حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمّر هو الذى جعل الله له عمراً طال أو قصر . وعلى القول الأول هو شخصان . والمعمر الذى يزيد فى عمره . والضمير حينئذ راجع إلى ( معمر آخر ) إذ لا يكون المزيد من عمره منقوصاً من عمره . وهذا قول الفرّاء وبعض النحويين . وهو استخدام أو شبيه به . انتهى .

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة « سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أى قوىّ الملوحة « وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا » يعنى السمك « وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » أى زينة تتحلّون بها . كما قال تعالى[١] ( يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ) . « وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ » أى تمخر الماء وتشقه بجريها « لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ » أى بالتنقل فيها « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ )

« يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » يعنى مدة دوره ، أو منتهاه، أو يوم القيامة « ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ »أى فأنّى يستأهلون العبادة. و ( القطمير ) لفافة النواة . وهو مثل فى القلة والحقارة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ )

« إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ » لأنهم جماد « وَلَوْ سَمِعُوا۟ » أى على الفرض «مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ» أى لعدم قدرتهم على النفع «وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أى يقرون ببطلانه ، وأن لا أمْرَ لهم فيه « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » أى لايخبرك بالأمر مخبر ، مثل خبير عظيم أخبرك به . وهو الحق سبحانه . فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى مايدعون لهم من الإلهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ » أى رحمته وعنايته ولطفه وإمداده فى كل

لمحة ونفس . وسرّ وصل الآية بما قبلها من التهكم بالأنداد ، لتذكيرهم الالتجاء إليه تعالى، والتضرع والابتهال إذا مسهم الضر وأخذت البأساء بخانقهم . فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعا إلى سؤاله لا مردّ له . وحاثًّا إلى اللجإ إليه لا صادّ عنه . كما بين فى غير آية . مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة ، لغناه المطلق ، كما قال « وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ » أى المحمود لنعمه التى لا تحصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ )

[١٧] ( وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ )

« إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » أى بممتنع. قال الزمخشرىّ : وهــذا غضب عليهم ، لاتخاذهم له أنداداً ، وكفرهم بآيه ، ومعاصيهم . كما قال[١] ( وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ، إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ، وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ، وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ )

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل نفس آثمة « وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى إثم نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها الذى اقترفته ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس . كما تأخذ جبابرة الدنيا الولىّ بالولىّ والجار بالجار ، ولا يرد آية[٢] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنها فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم . وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم .

(١) [ ٤٧ / محمد / ٣٨ ] .  (٢) [ ٢٩ / العنكبوت / ١٣ ] .

« وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ » أى نفس أثقلتها الأوزار «إِلَىٰ حِمْلِهَا» أى إلى حمل بعض أوزارها ليخفف عنها « لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ » أى لم تجب ولم تغث بحمل شىء « وَلَوْ كَانَ » أى المدعوّ المفهوم من الدعوة « ذَا قُرْبَىٰٓ » أى ذا قرابة من الداعى ، من أب أو ولد أو أخ . وهذا قطع لأطماع انتفاعهم بقرابتهم وغنائهم عنهم . وأنه لا تملك نفس لنفس شيئاً ، وأن كل امرئ بما كسب رهين . ثم بين من يتعظ ويتذكر ، فقال سبحانه « إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ » أى تطهر من أوضار الأوزار « فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ » مثل للكافر والمؤمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ)

« وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ » مثل للحق والباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ)

« وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ » مثل للثواب والعقاب و (ٱلْحَرُورُ) الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ، وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ » تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أى: مايستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيله ، وأموات القلوب. لغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهيه ، ولا تعرف الهدى من الضلال « إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ » أى يوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته « وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ » أى: كما لايقدر أن يسمع من فى القبور كتاب الله ، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لايقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه ، مَن كان ميت القلب عن معرفة الله وفهم كتابه وواضح حججه. وهذا ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه عليه الصلاة والسلام، من إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ )

« إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ماعليك إلا أن تبلغ وتنذر. فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع . وإن كان من المصرّين فلا عليك .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[٢٤] ( إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ )

« إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » أى ومامن أمة من الأمم الدائنة بملة ، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله ، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى[1] ( إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) وكقوله سبحانه[2] ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ) .

(١) [ ١٣ / الرعد / ٧ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٣٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ)

«وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ» أى : وإن يكذبوك ولم يستجيبوا لك ، فلا تبال بهم وتأس بمن كذب من الرسل السالفة . فقد جاءوهم بالآيات والخوارق المحسوسة على صحة نبوتهم ، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق . وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع ماذكر ، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب ، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا. وجوز أن يراد بالجميع واحد ، والعطف لتغاير الأوصاف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

«ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى إنكارى بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» قرأ الجمهور ( جدد ) بضم الجيم وفتح الدال ، جمع ( جدة ) بالضم، وهى الطريقة من ( جدّه ) إذا قطعه ، أى ومن الجبال

ذووجدَد ، أى طرائق بيض وحمر . وإنما قدر المضاف ، لأن الجبال ليست نفس الطرائق . و (غرابيب) جمع (غربيب) وهو الأسود المتناهى فى السواد . يقال: أسود غربيب، كما يقال : أحمر قان ، وأصفر فاقع ، تأكيدا . وإنما قدم هنا، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير ، ذهابا إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ » أى اختلافا كذلك، أى كاختلاف الثمرات والجبال . وقوله تعالى « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ » تكملة لقوله تعالى(١) ( إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ) بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم . أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل . وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان . أى إنما يخشاه تعالى بالغيب ، العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة. لما أن مدار الخشية معرفة المخشىّ والعلم بشؤونه . فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه عز وجل . كما قال(٢) عليه الصلاة والسلام: أنا أخشاكم لله وأتقاكم له . ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته . وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة ، امتنع إنذارهم بالكلية . أفاده أبو السعود .

وقال القاشانىّ : أى ما يخشى اللهَ إلا العلماء العرفاء به . لأن الخشية ليست هى خوف العقاب، بل هيئة فى القلب خشوعية انكسارية عند تصوّر وصف العظمة واستحضاره لها .

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ١٨ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ عن أنس بن مالك ، قطعه من حديث طويل .

فمن لم يتصوّر عظمته لم يمكنه خشيته . ومن تجلى الله له بعظمته ، خشيه حق خشيته . وبين الحضور التصورّىّ الحاصل للعالم غير العارف، وبين التجلّى الثابت للعالم العارف ـ بون بعيد. ومراتب الخشية لاتحصى بحسب مراتب العلم والعرفان . انتهى .

ويذكر بعض المفسّرين هنا القراءة الشاذة. رفع الاسم الجليل ونصب العلماء. ويتأوّلون الخشية بالتعظيم استعارة . وربما استشهدوا بقوله :

أَهَابُـكِ إجلالًا وما بكِ قُدْرَةٌ　　علىَّ ولـكن مِلْءُ عَينٍ حَبِيبُهَا

وقد طعن فى (النشر) فى هذه القراءة . والحقُّ له . لمنافاتها للسياق والسباق . وما أغنى المنقحين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ ! وبالله التوفيق .

« إِنَّ ٱللَّـهَ عَزِيزٌ غفُورٌ »أى غالب على كل شىء بعظمته، غفور لمن تاب وأناب وعمل صالحا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّـهِ » أى يداومون على تلاوته وتدبره ، للأخذ بما فيه « وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ » أى أجراً وفضلًا لايفنى ، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة . والبوار بمعنى الـكساد والهلاك ترشيح للاستعارة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ )

« لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ » أى لأعمالهم . والشـكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ )

[٣٢] ( ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ )

« وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » أى : ثم ، بعد أخذ الذين كفروا ، أورثنا الكتاب الذى هو أعظم فضل وعناية ورحمة ، المصطفين من الموحدين . ثم بيّن انقسامهم فى العمل به إلى ثلاثة ، بقوله تعالى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بالإثم والعصيان « وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » أى فى العمل ، ليس من المجرمين ولا من السابقين « وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ )

[٣٤] ( وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ )

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ )

« ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ » أى الإقامة « مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » أى كلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ )

[٣٧] ( وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ )

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » أى : أو ماعشتم فى الدنيا أعمارا ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر ؟ قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة . فنعوذ بالله أن تغتر بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ )

[٣٩] ( هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ، فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا )

« إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى مستخلفين فيها . أباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة « فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا » أى بغضاً شديداً « وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ ، مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا )

« قُلْ » أى تبكيتاً لهم « أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى شركة فى خلقها « أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ » أى حجة وبرهان ، بأنه أذن لهم فى الإشراك « بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا » أى فى قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

[٤٢] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٣] (ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا)

« إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا » أى ما أمسكهما « مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ » يعنى إنزال العذاب على الذين كذبوا رسلهم من الأمم قبلهم « فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا » وفى معنى الآية قوله تعالى(١) (أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) وقوله تعالى(٢) (وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٥٦و١٥٧ ] . (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٦٧ـ١٧٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا )

[٤٥] ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا )

« أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ » أي بما اقترفوا من معاصيهم « مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ » أي من نسمة تدب ، لشؤم معاصيهم . والضمير للأرض لسبق ذكرها . « وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أي يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا » أي فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب ، وبمن يستوجب الكرامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٦ - سورة يس

هى مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى[١] ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ) الآية لما أخرجه الترمذىّ[٢] والحاكم عن أبى سعيد قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفى نظائرها . لأن ذلك مبنىّ على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول فى الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مرارا . لاسيما فى المقدمة . يؤيده أنه جاء فى هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما فى رواية الصحيحين[٣] . وهكذا يقال فيما روى أن آية[٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ) من هذه السورة نزلت فى المنافقين . فإن المراد ماذكرناه . ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشى هنا ، فاحفظه . وآيها ثلاث وثمانون آية . ومما روى فى فضلها ما أخرجه[٥] الترمذىّ عن أنس رفعه : إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس ، وفى إسناده ضعف.

---

(١) [ ٣٦ / يس / ١٢ ] .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٣٦ـ سورة يس ، ١ـ حدثنا محمد بن وزير الواسطى

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٣ ـ باب احتساب الآثار ، حديث ٤١٥ ، عن أنس ، وليس فى مسلم .

(٤) [ ٣٦ / يس / ٣٧ ] .

(٥) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٧ ـ باب ما جاء فى فضل يس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( يسٓ )

« يسٓ » تقدم الكلام في مثل هذه الفواتح مرارا . وحاصله ـ كما قاله أبو السعود ـ أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فمحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا لمحذوف ، وعليهما مدار قراءة ( يسٓ ) بالرفع والنصب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ )

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ » أي ذي الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُوثِرَتْ في القَسَمِ به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[٤] ( عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ )

« إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطلوب بدون لغوب. والتنكير للتفخيم والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ )

« تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمحذوف . أو خبر لـ ( يس ) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولا بها . والجملة القسمية معترضة . والقسم لتأكيد المقسَم عليه والمقسَم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ )

« لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَٰفِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ )

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا. وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ )

« إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ » أى اللحى . أى واصلة إليها وملزوزة إليها « فَهُم مُّقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاضّو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقمح الغلّ الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغلّ الذى ينخس ذقنه ، أن يطأطئ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى ( فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ) كناية عن الأيدى لاعن الأعناق . لأن الغلّ يجعل اليد تلى الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهرىّ : أراد عز وجل أن أيديهم لمـــا غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُدًا ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل فى العنق، عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، لما دل السياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ )

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الزمخشرىّ : مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لاسبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، فى أنهم لايلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له. وكالحاصلين بين سدّين . لا يبصرون ماقدامهم ولاماخلفهم ، فى أن لاتأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله. انتهى. أى فالمجموع استعارة تمثيلية. وفى (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبها بالإقماح . لأن المقمح لا يطأطئ رأسه . وقوله ( فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ) تتمة للزوم الإقماح لهم . وكان عدم الفكر فى القرون الخالية مشبها بسدّ من خلفهم ، وعدم النظر فى العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء فى ( فهم مقمحون ) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبّب. ولا شك أن ضغط اليد مع العنق فى الغلّ يوجب الإقماح. فإن اليد، والعياذ بالله، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير. فإن

اليد متى كانت مرسلة مخلاة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . ولعله يتحيّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ماذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم فى الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبها بغلّ الأيدى . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ماقبله وما بعده فى ذكر أحوالهم فى الدنيا . وجعله أبو حيان لبيان أحوالهم فى الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجنبياً فى البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله[1] (حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ » أى خوفتهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبى جهل وأصحابه من كفرة قريش ، الذين هلكوا فى بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أى الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أى لذنوبه فى الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أى ثواب حسن فى الجنة .

(١) [ ٣٦ / يس / ٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ، وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ)

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ» أى للبعث «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟» أى نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر «وَءَاثَـٰرَهُمْ» أى ما تركوه من سنة صالحة، فعمل بها بعد موتهم. أو سنة سيئة فعمل بها بعدهم «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ» أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى مثّل لأهل مكة مثلًا « أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ » أى اذكر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحاب القرية « إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ » أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ)

« إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أى فقوّيناهما برسالة ثالث « فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

[١٦] (قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

[١٧] (وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

«قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله ظاهراً بيّناً لا سترة فيه، وقد خرجنا من عهدته.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ، لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» أى تشاءمنا بكم. فكان إذا حدث فى البلد ما يسيء من حريق أو بلاء، نسبوه إليهم. وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم. ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه. فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا. كما حكى الله عن القبط[١] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ) وعن مشركى مكة[٢] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ) أفاده الزمخشرىّ «لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ» أى عن دعوتكم إلى التوحيد «لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ، أَئِن ذُكِّرْتُم، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

«قَالُواْ» أى الرسل «طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ» أى سبب شؤمكم معكم، وهو الكفر والمعاصى «أَئِن ذُكِّرْتُم» أى وعظتم بما فيه سعادتكم. وجواب الشرط محذوف، ثقة بدلالة ما قبله عليه. أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» أى فى الشؤم والعدوان.

(١) [٧/ الأعراف/ ١٣١].  (٢) [٤/ النساء/ ٧٨].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسل « قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)

« ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا » أى جُعْلًا ولا مالًا على الإيمان « وَهُم مُّهْتَدُونَ » أى فى أنفسهم بالكمالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتَأَسَّى بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى » أى خلقنى . وهـذا تلطُّف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه . والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبئ عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ)

« ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » أى فأضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة بحيث « إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ » أى من ذلك الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تحميق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

[٢٥] ( إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ )

« إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ » أى فاسمعوا إيمانى واشهدوا به . قال السمين: الجمهور على كسر النون. وهى نون الوقاية، حذفت بعدها ياء الإضافة. مجتزى عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ، قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ )

[٢٧] ( بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ )

« قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ » أى ليقبلوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ )

« وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد موته بالشهادة « مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى لإهلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » قال الرازىّ: إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ )

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحـدة من السماء هلـكوا بها « فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » ميتون كالنار الخامدة . رمزاً إلى أن الحىّ كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ يَحُورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطِـعُ

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى عليـه السلام . كما نص عليـه قتادة وغـيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخرى المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها ـ أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى ( إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ) ولو كان هؤلاء من الحواريين، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى ـ أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم. وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح. ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائى فيهن بطاركة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها. والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولـمـا ابتنى القسطنطينية نقلوا البطرك من

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينا ومَا تَبْلَى النجومُ الطوالعُ وَتَبقى الجبالُ بعدنا والمَصانعُ

يحور: يرجع ويتغير. وكل شىء تغير من حال إلى حال، فقد حار (الشعر والشعراء ص ٢٣٦)

رومية إليها ـ كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ـ كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ـ فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم .

الثالث ـ أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدريّ رضى الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم. بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تعالى(١) (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة فى القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية ـ إن كان لفظها محفوظاً فى هذه القصة ـ مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز فى الأنباء التى يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصا على الثمرة من أول الأمر ، واقتصارا على موضع الفائدة ، وبعدا عن مشرب القصاص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . ومامن حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يَرَوْنَ فيما يَرَوْنَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهماته . حتى جعل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس فى التوسع من العلم والازدياد منه بأى طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بنى إسرائيل. إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما، إن كان جزمه من غير طريق القواطع.

(١) [ ٢٨ / القصص / ٤٣ ] .

فإن القاطع هو ماتواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لامغمز فيها. وهذا مفقود فى الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفا ومنقطعا، وفى بعض إسناده متهمون . ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لامخرج له منه. فالمفسر أحسن أحواله أن يمشى مع التنزيل ، إجمالا فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله . ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح . وإلافليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك ، بل عن تشويهها . والذى حمل السلف على قص ما نحن فيه ، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب ، وموافقة من فى طبقتهما لهما فيه . هــذا أولا ، وثانيا شهرة بلدة أنطاكية فى ذلك العهد ، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحدُ رسل عيسى عليه السلام . ثالثا ما جرى فى أنطاكية لماقدم ملك الرومان وتهدد كل من أبى عبادة الأوثان بالقتل . وكان فى مقدمة الآبين رجل مقدم فى المؤمنين . فأراده على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد . فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش : فألقى فى رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه . ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة فى سبيل الله . وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين فى عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد ، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع . فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم . فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية . ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته . والشواهد فى هذا الباب لا تحصى . معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب فى تواريخ مبدأ ظهور الأديان ، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه . فللقصة الكريمة هذه مصدقات لا تحصى . رابعا شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام ، وكانوا انبثوا فى البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبائر والشرور التى كانت عليها دولة الرومان وقتئذ . هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع . وإلا ، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها . والصيحةُ

أعم من أن تكون صيحة سماويةأو صيحة أرضية. وهى صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم. وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفينا من النبإ الاعتبار به وفهمه مجملا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما، فهو الذى ينشأمنه ماينشأ. وما بنا من حاجة إلىالزيادة عن الاعتبار، وتخصيص مالا قاطع عليه .

الثانى ـ ذكر الرازىّ فى قوله تعالى ( إِذْ أَرْسَلْنَآ ) لطيفة، إن صح أن الرسل المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تتمة التسلية للنبىّ صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهـذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» أى يا ندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبقى حسيرا . وهو لايليق به تعالى . فيجعل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، ياحسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى(١) ( بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنايتهم . أى عدّها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ )

« أَلَمْ يَرَوْا » أى يخبروا « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ » أى من الأمم الخالية « أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ )

« وَإِن كُلٌّ » أى من هؤلاء المتفرقين « لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن ( كل ) بجميع ومعناهما واحد، لأن ( كلا ) تفيد الإحاطة حتى لاينفلت عنهم أحد. و ( جميع ) تفيد الاجتماع، وهو فعيل بمعنى مفعول، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا لـ(كل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ )

[٣٤] ( وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ )

[٣٥] ( لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ )

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ » أى عبرة لأهل مكة عظيمة « الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا » أى بالنبات

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٢ ] .

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى: وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو مايتخذ منـــه كالعصير والدبس ونحوها ، على ما استظهره القاضي . وقال الزمخشريّ : أى عملته بالغرس والسقى والآبار . قيل وهـذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا بلذة ثمرة العمل وسرور النفس بعده . وفى الحديث ( أفضل الـكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده ) رواه الإمام[1] أحمد عن أبى بردة . وجوّز أن تـكون (ما) نافية، والمعنى: أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» أى خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنـكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ )

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنفُسِهِمْ » يعنى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ )

«وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ» بيان لقدرته تعالى فى الزمان، إثر ما بيّنها فى المـكان. أى نزيله ونـكشفه عن مكانه. استعير لإزالة الضوء، السلخ الذى هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ. وفيه إشارة إلى أن النهار طارىء على الليل، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبى ) .

منه قبل المسلوخ ، الذى هو كالغطاء الطارئ على المغطى . قال الشهاب : لان الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى ( مظلمون ) داخلون فى الظلام . يقال ( أظلمنا ) كما يقال: أعتمنا وأدجينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ )

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » أى لحدّ لها مؤقت مقدر ينتهى إليه دورها اليومىّ أو السنوىّ . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه فى حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند خراب العالم . ومستقر، عليه، اسم زمان « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » أى ذلك الجرى المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ )

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » أى صيرنا له منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » أى حتى إذا كان فى آخر منازله ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العنقود الذى عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم: العتيق ، وإذا قدم دق وانحنى واصفرّ . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ )

« لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره « وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيّه . أو المراد بالليل والنهار آيتاهما . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى ، وعليه فسر إيثار ( سابق ) على ( مدرك ) كما قبله ، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر . إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى ( الانتصاف ) ) : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل ، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه . لا يقال ( أدرك السابقُ اللاحق) ولكن ( أدرك اللاحقُ السابق ) وبحسب الإمكان توقيع النفى . فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفىّ بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نفى إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله ( لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ) تنائيًّا لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلا عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن المنفيّ السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله[1] ( هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) فقدقربهم منه عذراًعن قوله تعالى[2] ( وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ) فكأنه مهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفا صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية. فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك، ولا يبلغ به عدم السبق. ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أي كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالسابح في الماء. وتقدم لنا في سورة الأنبياء ، ماقاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية . فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ )

«وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» أي حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

---

(١) [ ٢٠ / طه / ٨٤ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٨٣ ].

فى تجاراتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبته لقوله قبله (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذكر (المشحون) أقوى فى الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد ، وتعريفه للعهد . والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان ، ونجوا مع نوح فى السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير . وآثر البعض الوجه الأول ، لأن الثانى محتاج للتأويل . وأرى جدارة الثانى بالإيثار لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ماوجد له سبيل. لأنه أقرب وأسدّ. وقد جاء نظيره آية[١] (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) وإن ورد فى نظير الأول آية[٢] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وأشباهها ، إلا أن لفظ الحمل اتحد فى الآيتين ، فقارب ما بينهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ » أى مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أى من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل ( سفائن برٍّ والسراب بحارها ) أوما يركبون ، أى من السفن والزوارق على الوجه الثانى . وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ)

« وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ » أى لامغيث لهم ، أولا مستغيث منهم ، أولا استغاثة . وذلك لأن الصريخ يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ . ومصدرا للثلاثى

(١) [ ٦٩ / الحاقة / ١١،١٢ ] . (٢) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٤ ] .

كالصراخ ، يتجوزبه عن الإغاثة ، لأن المغيث ينادى من يستغيث به ويصرخ له، ويقول . جاءك العون والنصر . أنشد المبرد[1] فى أول الـكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كان الصراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ

أى إذا أتانا مستغيث ، كانت إغاثته الجد فى نصرته .

« وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] ( إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ )

« إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لـكن رحمناهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم ، يموتون فيه بعد النجاة من موت الغرق . ومن هنا أخذ أبو الطيّب قوله[2] :

وإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبقَى ولـكن ... سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ )

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الخالية فى الأمم المـكذبة للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المعدّ فى الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

(١) قائله سلامة بن جندل السعدىّ . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية والعشرين ، التى مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ ... أَوْدَى وذلك شأوٌ غيرُ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

مَلُومكما يجلّ عن الملامِ ... ووقعُ فعالِهِ فوقَ الـكلامِ

قالها لما نالته بمصر حمّى . فقال يصفها ويعرّض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى باتقائكم وشكركم. وجواب ( إِذَا ) محذوف دل عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ )

« وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ » أى الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالتكذيب والصدّ عن الإيمان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أى تصدقوا على الفقراء من مال الله الذى آتاكم « قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا، إما تهكم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون ( إِنْ أَنتُمْ ) جواباً من الله لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين. وفى هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، فى اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ سامحه الله فى كتاب ( البخلاء ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » يعنون وعد البعث .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

« مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبغتهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و ( يخصمون ) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصاد على الأصل ، وأصله (يختصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يوصوا فى شىء من أمورهم توصية « وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ » أى يعدون مسرعين. كما فى قوله تعالى[١] ( يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ) ولا منافاة بين هـذا وما فى آية[٢] ( فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

(١) [ ٧٠ / المعارج / ٤٣ ] .  (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ، هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ )

« قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ )

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

[٥٥] ( إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ )

« فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير ( شُغُلٍ ) تعظيمُ ما هم فيه وتفخيمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ )

[٥٧] ( لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ )

« هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السُّرُر المزينة « مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ » أى يطلبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)

« سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولًا كائنا منه تعالى . فيكون ( سَلَـٰمٌ ) مبتدأً محذوف الخبر . أو هو بدل من ( مَّا ) أو خبر محذوف ، أى : هو سلام . أو مبتدأ خبره الناصب لـ (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولا . أو مبتدأ وخبره ( مِّن رَّبٍّ ) و ( قَوْلًا ) مصدر مؤكد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر . والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله[١] ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى[٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ) وقوله[٣] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ) [٤](يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ) أى يصيرون صدعين فرقتين [٥](ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ) .

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٤ ] .
(٢) [ ١٠ / يونس / ٢٨ ] .
(٣) [ ٣٠ / الروم / ١٤ ] .
(٤) [ ٣٠ / الروم / ٤٣ ] .
(٥) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » تقريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ، كما قاله القاشانىّ . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الآمرة بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

« وَأَنِ اعْبُدُونِي ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى : وأن أفردونى بالعبادة فإنه السبيل السوىّ . وفى تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ فى استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه . وأصلٌ لمرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

« وَلَقَدْ أَضَلَّ » أى الشيطان وأغوى بالشرك « مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى خلقا كثيرا قبلكم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ » أى من أولى العقل . إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

[٦٤] (ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

«هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

«ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ» أى عندما يجحدون مااجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازىّ : وفى الختم على الأفواه وجوه . أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيـــه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فـكما جاز تحركه بها، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر، أنهم لايتكلمون بشىء، لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم. فيقفون ناكسى الرؤوس وقوف القنوط اليئوس ، لايجد عذراً فيعتذر، ولا مجال توبة فيستغفر. وتـكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لايسع معـه الإنـكار ، حتى تنطق به الأيدى والأبصار . كما يقول القائل ( الحيطان تبكى على صاحب الدار ) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالته. فلا تتعذر الحقيقة. ويؤيده آية[١] (وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) .

(١) [ ٤١ / فصلت / ٢١ ] .

ومن لطائف بعض أدباء العصر مانظمه فى الفونغراف ، مستشهداً به فى ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ ... على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لكل ذى نظرٍ مثالٌ ... على بدء الخليقة والمعادِ
يدير شئونه فرد بصُورٍ ... به الأصوات تجرى كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح ... على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضى كبرقٍ ... ولا أثر لها فى الكون بادِى
تظن بأنها ذهبت جفاء ... كما ذهبت بريحٍ قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى ... كأرواح تجرد عن موادِّ
متى شاء المدير لها معاداً ... ورام ظهورها فى كل نادِ
يدير الصور بالآلات قسرا ... فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذى آلة من صنع عبدٍ ... فكيف بصنع خلّاق العبادِ ؟
تبارك من يعيد الخلق طرًّا ... بنفخة صوره يوم التنادِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلوك لهم لم يقدروا ، لعماهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

«وَلَو نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ» أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم «عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ» أى مكانهم « فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى ( لا يرجعون عن

تكذيبهم ) فهو معطوف على جملة ( ما استطاعوا ) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم ، أحِقَّاء بأن يفعل بهم ذلك . لكنا لم نفعل لشمول الرحمة، واقتضاء الحكمة إمهالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ )

« وَمَن نُّعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ » أى بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبيّ فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما قال عز وجل[1] ( وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ) (ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ)[2] « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ )

« وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعرَ ، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ » أى وما يصح لمقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه . لما يرمى به الشعراء كثيراً من الكذب والمين ومجافاة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى: « إِنْ هُوَ » أى القرآن الذى يتلوه « إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ » أى كتاب سماوىّ بيّن أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجهٍ ما .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٥ ] .  (٢) [ ٩٥ / التين / ٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ )

« لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا » أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ » أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ )

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا . « أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ » أى متصرّفون فيها تصرّف الملاك . أو ضابطون قاهرون لها كما قال[١] :

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ وَلا أَمْـلِكُ راسَ البعيرِ إنْ نفرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ )

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صيّرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى مركوبهم « وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى ينتفعون بأكل لحمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ )

«وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ» أى من الجلود والأصواف والأوبار «وَمَشَارِبُ» أى من ألبانها « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

---

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزاريّ . من قصيدته التى أولها :

أَقْفرَ من ميّةَ الجريبُ إلى الـــزُّجَّيْنِ إلا الظباءَ والبَقرَا

انظر ص ١٥٨ من ( نوادر أبى زيد )

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ )

«وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ» أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ )

« لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ » أى لآلهتهم « جُندٌ مُّحْضَرُونَ » أى معَدُّون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وَجَعْلُهُمْ ـ على هذا ـ جندا ، تهكم واستهزاء . وكذا لام ( لَهُمْ ) الدالة على النفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ )

« فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ » أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء « إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوّه الكافر ، مقتضٍ لمجازاته وانتقامه . وتقديم السرّ ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملاك الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

«أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» أى جدل بالباطل

بيّن الجدال ، وهـذه تسلية ثانية ، بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنـكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهي قوله ( فَلَا يَحْزُنكَ ) الآية ، عناية بشأنه صلوات الله عليه .

قال الطيبيّ : هذا معطوف على ( أولم يروا ) قبله. والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس. فإنه خلق له ماخلق ليشكر ، فـكفر وجحد النعم والمنعم . وخلقه من نطفة قذرة ليـكون منقاداً متذللا ، فطغى وتـكبر وخاصم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ، قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ )

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أي في استبعاد البعث وإنـكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ » أي خلقنا إياه « قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أي بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد . وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلي من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات. أو مشتق، فعيل بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، أُلْحِق بالأسماء فلم يؤنث . أو بمعنى مفعول . من ( رمّه ) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من ( رمت الإبل الحشيش ) فـكأن ما بلي أكلته الأرض . وقال الأزهري : إن (عظاما) لـكونه بوزن المفرد، كـكتاب وقراب، عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .

قال الشهاب : وهو غريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ )

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أي فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين. وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أي فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها، لعلمه بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ )

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ » أى الذى بدأ خلق هذا الشجرمن ماء حتى صار خضرًا نضرًا فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد . لايمنعه شيء . قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار ( من شجر البادية ) فى أرض الحجاز . فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . والعَفار الزند وهو الأعلى . والمرخ الزندة وهو الأسفل . بمنزلة الذكر والأنثى . وعكس الجوهرىّ فجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر(١) :

إذا المرخُ لم يُورِ تحت العَفَارِ وضُنَّ بقِدْرٍ فلم تُعْقَبِ

وقال أبو زياد : ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المرخ. وربما كان المرخ مجتمعا ملتفا، وهبت الريح ، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادى . ولم نر ذلك فى سائر الشجر .

وقال الأزهرىّ : العرب تضرب بالمرخ والعفار ، المثل فى الشرف العالى . فتقول : ( فى كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفار ) أى كثرت فيهما على ما فى سائر الشجر . و ( استمجد ) استكثر واستفضل . وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً . وزنادها أسرع الزناد وريا . وفى المثل : اقدح بعفار أو مرخ ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ . ويقال ( فى كل شجر نار إلا العُنّاب ) .

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث ( طبعة بيروت ) .

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :

أيا شجر العُنّاب نارك أوقدت بقلبي . وما العُنّاب من شجر النار

انتهى .

والمقصود أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذى به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية . لأن الذى يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهى حارة يابسة بالفعل ، مع ما فى الشجر من المائية المضادّة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًّا ، تطرأ عليه اليبوسة والبلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ )

« أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم » أى فى الصغر والضعف ثانيا ، بعد ما خلقهم أولاً « بَلَىٰ » أى هو القادر « وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « ٱلْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ )

« إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا » أى إذا تعلقت إرادته بإيجاد شيء « أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

« فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » تنزيه له مما وصفه به المشركون ،

وتعجيب من أن يقولوا فيه ماقالوا . وهو مالك كل شيء والمتصرف فيه بلا وازع ولا منازع .
« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن المُلك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح. والصحيح الأول . وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .

ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو العليم العلام .

---

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٧ - سورة الصافات

سميت بها لاشتمال الآية التى هى فيها على صفات للملائكة تنفى إلٰهيـة الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفى بذلك إلٰهية ما دونهم ، فيدل على توحيـد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمى .

وهى مكية اتفاقا ، وآيها مائة واثنتان وثمانون . روى النسائىّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمّنا بالصافات .

قال ابن كثير : تفرّد به النسائىّ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا )

[٢] ( فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا )

[٣] ( فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا )

[٤] ( إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ )

« وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ » افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها . وتنبيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها . و ( الصافات ) جمع صافة ، أى طائفة صافة ، أو جماعة صافة . فيكون فى المعنى جمع الجمع . أو على تأنيث مفرده باعتبار أنه ذات ونفس ، والمراد بالصافات الملائكة . لقيامها مصطفة فى مقام العبودية لمالك الملك . من قوله تعالى[١] ( وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ) أو لصفها أجنحتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى . و ( الزاجرات ) أى : الناس عن المعاصى ، بإلهام الخير . من ( الزجر ) بمعنى المنع والنهى. أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من ( الزجر ) بمعنى السوق والحث. و ( التاليات ) أى : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى[٢] ( وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ) و(الزاجرات) ، كل مازجر عن معاصى الله . و(التاليات) كل من تلا كتاب الله . أوهم العلماء الصافون فى العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه . أوهم الغزاة الصافون فى الجهاد، والزاجرون الخيل أو العدوّ ، التالون لذكر الله ، لايشغلهم فيها عنه مبارزة العدوّ . وقد ذكر

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٦٥ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٤١] .

غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجملة ، فالعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثارُ الفاء على ( الواو ) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكسا . أما الأول فاعتناءً بالأهم فالأهم . وأما الثانى فالترقى إلى الأعلى . و (صفا) و ( زجرا ) مصدر مؤكد . وكذا (ذكرا) ويجوز فيه كونه مفعولا به . قال الناصر : وفى هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل فى مثل[1] ( وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ) فإنهما يقولان: الواو الثانية ومابعدها عواطف . وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقوع الفاء فى هـذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد . إلا أن ماتزيده الفاء من ترتيبها، دليل واضح على أن الواو الواقعة فى مثل هذا السياق ، للعطف لا للقسم . انتهى .

وقوله تعالى ( إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ) جواب للقسم . وفى تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذى هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به، وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ )

« رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ » فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدل شواهد وحدته. أى مالك السموات والأرض ومابينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها إلى كمالاتها. والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم. فإنها ثلاث مائة وستون مشرقا. تشرق كل يوم من مشرق منها. وبحسبها تختلف المغارب، وتغرب كل يوم فى مغرب منها . وأما قوله تعالى ( رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما . أفاده أبو السعود .

---

(١) [ ٩٢ / الليل / ١و٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ )

« إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا » أى الجهة العليا القربى من كرة الأرض « بِزِينَةٍ » أى عجيبة بديعة « ٱلْكَوَاكِبِ » بالجر، بدل من (زينة) . وقرئ بالإضافة، على أنها بيانية، أو على معنى ما زينت هى به، وهو ضوؤها. والمراد التزيين فى رأى العين. فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] ( وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ )

« وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ » أى خارج عن الطاعة، بقذفه بشهبها، كيما يتطاول إلى استراق السمع من جهتها و ( حفظاً ) إما منصوب بإضمار فعله . أى حفظناها حفظاً . أو بعطفه على ( زينة ) من حيث المعنى . أى خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظاً . أو على المفعول لأجله بزيادة الواو . والعامل فيه ( زيّنّا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ )

« لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ » قرئ بالتخفيف والتشديد. وأصله (يتسمعون) أى يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان . لأنه فى معنى الشياطين ، والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترقة للسمع من أنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ. أو هى علة للحفظ . أى لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم ( أَنْ ) وأهدر عملها . وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منكر. كما ذكروه فى قوله تعالى[1] ( يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ) أى لئلا

(١) [ ٤ / النساء / ١٧٦ ] .

تضلوا ، وقد يقال : إنما ينكر حذف شيئين فيما يخلّ بانسجام الكلام . أما فى تقدير أمرٍ له نظائر ، ومرجعه إلى تحليل معنى ، لا يأباه اللفظ ـ فلا وجه للتعصب فى رده ، لمجرد أن الكوفيين ، مثلًا ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها « وَيُقْذَفُونَ » أى يرمون « مِن كُلِّ جَانِبٍ » أى من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

« دُحُورًا » أى للدحور وهو الطرد « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » أى شديد غير منقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

« إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ » أى اختلس الكلمة « فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ » أى لحقه شعلة نارية تنقضّ من السماء « ثَاقِبٌ » أى مضيء . كأنه يثقب الجوّ بضوئه .

تنبيه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء . فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب . فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب . فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم .

قال ابن كثير : يعنى إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه . ولهذا قال جل جلاله (لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ) أى: لئلا يصلوا إلى الملإ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره.

كما وردت الأخبار بذلك فى تفسير قوله تعالى[١] (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُواْ ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ) انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفّه الأرواح الغيبية ـ حسبما تقدم بيانه فى آية[٢] ( ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ) فى الأعراف ـ فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح ( الملَك ) ومنها الطالح ( الشيطان ) وكذلك أرضنا هذه. ففيها من الملائكة ومن الشياطين مالا نبصره[٣] (إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ) ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. فعدم إدراكنا لهذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها . كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللكهرباء التى تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك فى العالم . فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه. على أن لنا الآن من مسألة استحضار الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح فى هذه الأرض، لا نبصرها ولا نشعر بها. وقد قدّر الله تعالى أن الحيوانات فى هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت فى الحال. وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التى فى أرضنا هذه، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التى فى الكواكب الأخرى، انقضّ عليها، قبل أن تخرج من جوّ الأرض، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادّتها . حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى . وهذه الشهب التى تنقضّ ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة . وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهبت فيما بعد لشدة سرعتها واحتكاكها بالغازات التى تمر فيها فى جوّنا هـذا . ولعل فى مادة الشياطين ما يجتذب إليه هذه الشهب ويتحدُ بها. كما تجتذب العناصر الكيماوية

(١) [ ٣٤ / سبأ / ٢٣ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٥٤ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ٢٧ ] .

بعضها بعضا ( مثال ذلك عنصر الصوديم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحلله ) ولا نقول إن جميع الشهب تنقضّ لهذا السبب، بل منها ماينقضّ لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له. ومنها ما ينقض لإهلاك الشياطين، كما بينّا هنا. والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة[١] (وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ) والمراد (بالسماء الدنيا) فى هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا. أى هذا الجوّ الذى نشاهده وفيه العوالم كلها. أما ماوراءه من الجواء البعيدة عنا ، التى لايمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا ، فهو فضاء محض لاشىء فيـــه . فلفظ ( السماء ) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السموّ . وتُفَسَّرُ فى كل مقام بحسبه .

ثم قال : فـكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لايوجد فى العلم الطبيعىّ ما يكذبها . لأنه وحى الله حقا ، والحق لايناقضه الحق[٢] ( سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ) اهـ .

وقال أيضا : يعتقد الآن علمـــاء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذناب . ويحتمل أن بعضها ناشىء من بعض الشموس المنحلّة ، أو الباقية الملتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو مما لم ينطفىء من السيارات للآن . ومتى علمنـــا أن ذوات الأذناب والسيارات جميعا مشتقة من الشموس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشموس أو النجوم .

( قال ) : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اهـ كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى[٣] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ) وقوله عزوجل[٤](وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ

(١) [ ١٥ / الحجر / ٢٧ ] . (٢) [ ٤١ / فصلت / ٥٣ ] .
(٣) [ ٦٧ / الملك / ٥ ] . (٤) [ ١٥ / الحجر / ١٦ـ١٨ ] .

فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ) وقوله سبحانه إخبارا عن الجن[١] (وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا *وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ( فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ، إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ )

« فَٱسْتَفْتِهِمْ » أى فاستخبر مشركى مكة « أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » أى أقوى خلقة وأمتن بنية « أَم مَّنْ خَلَقْنَآ » أى من السموات والأرض والجبال. كقوله تعالى[٢] ( ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ) الآيةوقوله[٣] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ)وفى اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤله عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا . كشأن البعث وغيره . وإليه الإشارة بقوله تعالى « إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ » أى لزج ضعيف لاقوة فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ )

« بَلْ عَجِبْتَ » أى من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه «وَيَسْخَرُونَ» أى من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ )

« وَإِذَا ذُكِّرُواْ » أى بما يؤيده ، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة « لَا يَذْكُرُونَ » أى مايقتضيه ؟ لتعنتهم وعنادهم . أولا يخافون ولا يتعظون .

---

(١) [ ٧٢ / الجن / ٨و٩ ]. (٢) [ ٧٩/ النازعات / ٢٧ ]. (٣) [ ٤٠/ غافر / ٥٧ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾

« وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً » أى برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات فى أنفسهم أو فى الآفاق « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يبالغون فى السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

« وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ » أى ادعاء ما ذكر ، والاستدلال عليه والصدع بشأنه ، والقراع فيه « إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

[١٧] ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

[١٨] ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ » أى تبكيتاً لهم . « نَعَمْ » أى تبعثون « وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ » أى ذليلون ، لا جدل منكم يدفعه ولا قدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾

« فَإِنَّمَا هِىَ » أى البعثة « زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ » أى صيحة واحدة « فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ » أى قيام من مراقدهم أحياء ، أولو قوة مدركة ، بها يبصرون . أو ينتظرون ما يفعل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ )

« وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى الجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ )

[٢٢] ( ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ )

« هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى أنفسهم بالكفر والمعاصى والسعى بالفساد « وَأَزْوَٰجَهُمْ » أى وأشباههم من الفجرة . أو نساءهم الكافرات « وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ )

« مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الأصنام وغيرها ، زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم « فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ » أى فعرفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير بـ (الهداية) و (الصراط) للتهكم بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ )

« وَقِفُوهُمْ » أى احبسوهم فى الموقف « إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ » أى عن عقائدهم وأعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ )

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » أى لا ينصر بعضكم بعضاً ، وقد كان شأنكم التعاضد فى الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم وتقريع .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٦] ( بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ )

« بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ » أى منقادون مخذولون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ )

[٢٨] ( قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ )

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى عن القهر والغلبة . أى كنتم تضطرونا إلى ما تدعونا إليه . كما فى آية[1] ( وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ) وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق . من (اليمن) ضد الشؤم . أى توهمونا وتخدعونا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز . فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(١) [ ٣٤ / سبأ / ٣٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ )

[٣٠] ( وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ، بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ )

[٣١] ( فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، إِنَّا لَذَائِقُونَ )

[٣٢] ( فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ )

[٣٣] ( فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ )

[٣٤] ( إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ )

[٣٥] ( إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ )

« قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الاستجابة للداعى إليها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ )

« وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ » أى لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون . فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ )

« بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ » أى الذين هم أعقل الأمم وأحكم الحكماء . فمتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾

[٣٩] ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[٤٠] ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

[٤١] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾

[٤٢] ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾

[٤٣] ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

[٤٤] ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

« إِنَّكُمْ » أى بافترائكم « لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ » أى فى الصف متراثين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون فى المقاعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾

« يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى شراب معين ، جارٍ كالنهر لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾

[٤٧] ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾

« بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى ما يغتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ » أى تذهب عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ)

[٤٩] (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)

« وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى على أزواجهن أو مبيضّاته تشبيها بالثوب المقصور، وهو الحَوَر . « عِينٌ » أى كبار الأعين « كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ » أى بيض نعام فى الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار .

قال الشهاب : وهذا على عادة العرب فى تشبيه النساء بها . وخصت ببيض النعام، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره . ولأنها تبيض فى الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء ( بيضات الخدور ) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان ، كما فى الدرّ. وهو لون محمود جدا . إذ البياض الصرف غير محمود . وإنما يحمد إذا شابهُ قليلُ حمرة فى الرجال ، وصفرة فى النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه عنى بالبيض المكنون ( اللؤلؤ ) .

ثم قال : والعرب تقول لكل مصون ( مكنون ) لؤلؤا كان أو غيره . كما قال أبو دهبل[1] :

وهى زهراء مثلُ لؤلؤةِ الغوّاصِ مِيزَت مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

طال ليلى وبتّ كالمحزونِ ومَلِلْتُ الثَّواءَ فى جَيْرُونِ

جيرون : حصن فى دمشق ، وقيل : هى دمشق نفسها .

قالها فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان .

انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع من الأغانى ( طبعة دار الكتب ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ )

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » معطوف على (يطاف) والمعنى ، يشربون فيتحادثون على الشراب ، كعادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .

وقال القاشانىّ : أى يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر فى وصف أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ )

[٥٢] ( يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ )

[٥٣] ( أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ )

« قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ » أى فى المحادثة « إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ » أى جليس فى الدنيا « يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ » أى لمبعوثون فمجزيّون . أى يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب . والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده ، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار له بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ )

« قَالَ » أى ذلك القائل « هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ » أى إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالّها ، لأريكم ذلك القرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ )

[٥٦] ( قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ )

[٥٧] ( وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ )

« فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ » أى وسطه « قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ » أى لتهلكنى بالإغواء « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى » أى بالهداية واللطف بى « لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » أى معك فى النار . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ )

[٥٩] ( إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ )

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » من تتمة كلامه لقرينه ، تقريعاً له . أو معاودة إلى محادثة جلسائه ، تحدثاً بنعمة الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ )

[٦١] ( لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ )

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ » أى لنيل مثله ، فليجدّ المجدّون .

ولما وصف ملاذّ أهل الجنة ، تأثره بطعام أهل النار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ)

« أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ » وهي شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ)

[٦٤] (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ)

[٦٥] (طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ)

« إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً » أي محنة وعذابا « لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا »أي حملها« كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ » أي مثل مايتخيل ويتوهم من قبح رؤوس الشياطين . فهي قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس . قال الزمخشريّ : وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لايخلطه خير . فيقولون في القبيح الصورة ( كأنه وجه شيطان ) ( كأنه رأس شيطان ) وإذا صوره المصوّرون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لاشر فيه . فشبهوا به الصورة الحسنة. قال الله تعالى(١) ( مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ) وهذا تشبيه تخييليّ. انتهى . أي لأمر مركوز في الخيال . وبه يندفع مايقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لايشترط أن يكون معروفا في الخارج . بل يكفي كونه مركوزا في الذهن والخيال ،

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣١ ] .

ألا ترى امرأ القيس(١) ــ وهوملك الشعراء ــ يقول :

* ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوال *

وهو لم يرَ الغول . والغول نوع من الشياطين ، لأنه فى خيال كل أحد مرتسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلًا للتشكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ )

« فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا » أى من طلعها «فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ» أى لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ )

« ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ » أى لشرابًا كالصديد أو الغساق ، ممزوجًا من ماء متناه فى الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ )

« ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ » أى مصيرهم « لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ » أى إلى دركاتها . أو إلى نفسها

---

(١) البيت :

أيقتلنى والمشرفىُّ مُضَاجِعِى ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ !

من قصيدته التى مطلعها :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالِى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُر الخالى

انظر الصفحة رقم ٢٧ من الديوان ( طبعة دار المعارف ) .

لامفر لهم منها ولا محيص كيفما تحولوا . قال ابن كثير : أى ثم إن مردّهم بعد هـذا الفصل لإلى نار تتأجج وسعير تتوهج . فتارة فى هذا وتارة فى هذا . كما قال تعـالى[1] ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ) هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هـذه الآية . وهو تفسير حسن قوىّ . انتهى .

ومن لطائف الإشارات فىهذه الآية، ماقاله القاشانىّ . وعبارته : ( إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ) وهى شجرة النفس الخبيثة المحجوبةالنابتة فى قعر جهنم الطبيعة المتشعبة أغصانها فىدركاتها القبيحة الهائلةثمراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوّه والخبث بالتنفر ( رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ) أى تنشأ منها الدواعى المهلكة والنوازع المردية الباعثة على الأفعالالقبيحة والأعمال السيئة . فتلك أصول الشيطنة ومبادىءالشر والمفسدة، فكانت رؤوسالشياطين ( فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا ) يستمدون منهاويغتذون ويتقوّون. فإن الأشرار غذاؤهم منالشرور ولايلتذون إلابها ( فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ) بالهيئات الفاسقةوالصفات المظلمة، كالممتلىء غضباوحقدا وحسدا وقتهيجانها ( ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَالَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ) الأهواء الطبيعية والمُنَى السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية، وقصور الشرور الموبقة ، التى تكسر بعض غلة الأشرار ( ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ) لغلبة الحرص والشره، بالشهوة والحقـد والبغض والطمع وأمثالها . واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباغيها . انتهى .

وهذه الإشارات من المجازات التى تتسع لها اللغة، لأنها لاتنحصر فى الحقيقة، ولايقال إنها المرادة هنا ، لنبوّها عن نظائرها من آيات الوعيد . والله أعلم . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ٤٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ )

[٧٠] ( فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ )

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ » تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء فى الضلال. و(الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم . وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازىّ : ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد ، لكفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[٧٢] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ )

« وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ » أى أنبياء حذروهم العواقب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ )

« فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ » أى الذين أُنذروا وخوّفوا. فقد أهلكوا جميعاً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ )

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصوا دينهم لله . أو الذين أخلصهم تعالى لدينه . على القراءتين . أى فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبائهم ، تثبيتاً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ)

[٧٦] (وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ)

[٧٧] (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ)

« وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ » أى بقوله[1] ( رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ) « فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ » أى نحن بهلاك قومه . لأنه لا يجيب المضطر غيره « وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » أى من الغرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ » أى فى الأرض بعد هلاك قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ)

[٧٩] (سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ » أى أبقينا عليه فى الأمم بعده ثناء حسنا ، فمفعول ( تركنا ) محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله « سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة . أى أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين: قوله ( سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ) مبتدأ وخبر . وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لـ ( تركنا ) والثانى أنه مفسر لمفعوله . أى تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام . أو ثمّ قول مقدر . أى فقلنا سلام . أو ضمن ( تركنا ) معنى ( قلنا ) أو سلط ( تركنا ) على ما بعده . وقرئ ( سلاما ) وهو مفعول به لـ ( تركنا ).

(١) [ ٧١ / نوح / ٢٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ )

« إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » تعليل لما أثيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته فى إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلًا ونهاراً ، سرًّا وجهاراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ )

« إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى المصدقين . وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهار لفضل الإيمان ومزيته . حيث مدح من هو من كبار الرسل به . فالمقصود بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها . وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ )

« ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ » أى من كفار قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ )

« وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ » أى ممن شايعه وتابعه فى الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ )

« إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب ،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطريّ ، منكر على من غيّر وبدّل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ )

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ » أى من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ )

« أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ » أى أتريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

« فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه ربًّا للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره . والمعنى : لا يقدّر فى وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته. لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه . فأنكر ظنهم الكائن فى بيان استحقاقه للعبادة . وهو الذى حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟ وعلى كلٍّ ، فالاستفهام إنكاريّ . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ )

« فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ » أى ليريهم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا منجّمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ )

« فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ » أى مريض لا يمكننى الخروج معكم إلى معيّدكم . ترخص عليه السلام بذلك ، ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم ، مما تجوزه المصلحة . أو عَنَى أنه سقيم القلب ، تشبيها لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه . أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض . فهو استعارة أو مجاز مرسل .

قال الزمخشرىّ : والذى قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام . ولقد نوى به أن مَن فى عنقه الموت ، سقيم . ومنه المثل ( كفى بالسلامة داء ) وقول لبيد[1] :

فدعوتُ ربِّى بالسلامة جاهدا ليُصحَّنى ، فإذا السلامةُ داء

ومات رجل فجأة ، فالتفّ عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابىٌّ : أصحيحٌ مَن الموت فى عنقه ؟ انتهى .

وقال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى الآية استعمال المعاريض والمجاز للمصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ )

« فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى إلى معيّدهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ )

« فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ » أى ذهب إليها فى خفية « فَقَالَ » أى للأصنام استهزاء « أَلَا تَأْكُلُونَ » .

(١) رواه المبرد فى الكامل غير منسوب .
وقال فى ( رغبة الآمل ج ٣ ص ٣٥ ) : ينسب إلى عبد الرحمن بن سويد المرّىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ )

[٩٣] ( فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ )

[٩٤] ( فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ )

[٩٥] ( قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ )

[٩٦] ( وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ )

« مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ » أى بإيجاب ولا سلب « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ » أى هجم عليهم «ضَرْبًا بِالْيَمِينِ» أى التى هى أقوى الباطشتين، فكسرها . « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم بعد ما رجعوا « يَزِفُّونَ » أى يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه . فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى من الأصنام « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » أى وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال ، المختلفة المقادير . ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ )

[٩٨] ( فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ )

« قَالُوا ابْنُوا لَهُ » أى لإحراقه « بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ » أى الأذلّين بإبطال كيدهم . جعل النار عليه بردا وسلاما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ )

« وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » أى مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربى ، وأعصم فيه دينى .

قال الرازيّ : فيه دليل على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ماخصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسّ من قومه العداوة الشديدة ، هاجر . فَلَأَنْ يجب على غيره ، بالأولى. وقوله « سَيَهْدِينِ » أى إلى مافيه صلاح دينى ، أو إلى مقصدى. وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى. إذ تكفل بهدايته. أولأن من كان مع الله كان الله معه[1] ( احفظ الله يحفظك ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ )

[١٠١] ( فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ )

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة « فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ » أى متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء فى كل أمر . والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ )

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ » أى السنّ الذى يقدر فيه على السعى والعمل « قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ » أى: إنى أمرت فى المنام بذبحك ـ ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ـ فانظر هل تصبر على إمضائى أمر الرؤيا والعمل بظاهرها؟

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٥٩ ـ باب حدثنا بشر بن هلال .

« قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » ، أى يأمرك الله به . فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأمضه . قال القاضي : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأمورا به. أوعلم أن رؤيا الأنبياء حق، وأن مثل ذلك لايقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر فى المنام دون اليقظة ، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازىّ : الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم، حيث يراه قد بلغ فى الحِلْم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثناء الحسن فى الدنيا . وقوله « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ » أى على الذبح، أو على قضاء الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ )

« فَلَمَّآ أَسْلَمَا » أى استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء، واستلّ إبراهيم السكين، « وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ » أى صرعه على شقه ، فوقع جبينُه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . و ( تله ) أصل معناه : رماه على التلّ ، وهو التراب المجتمع . كـ ( تربه ) . ثم عم لكل صرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ )

[١٠٥] ( قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ )

«وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ » أى لاتذبحه وقدمت بمصداقها فى بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ماتشير إليه وكمال الطاعة فى هذا الشاقّ ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . وفى جواب ( لما ) ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف. أى نادته الملائكة.

أو ظهر صبرهما . أو أجزلنا لهما أجرهما . الثانى فى أنه ( وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ) بزيادة ( الواو ) وهو رأى الـكوفيين والأخفش . الثالث أنه ( وَنَٰدَيْنَٰهُ ) والواو زائدة أيضا . « إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » أى باللطف والعناية والنداء والوحى والفرج بعد الشدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ( إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ )

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ » أى الاختبار البيّن الذى يتميز فيه المخلص من غيره . إشارة إلى أن هـذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم فى صدق الخلة لله ، وتضحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ )

« وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى رزقناه ما يذبح بدلًا عنه وفداء له ، منة وتطولًا . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ماحوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه فى شجرة . فتم به المرئىّ فى المنام المقصود به القربان لله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ )

[١٠٩] ( سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ )

[١١٠] ( كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ )

[١١١] ( إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١١٢] ( وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ )

[١١٣] ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ » أى مثل ما تركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعرابه « كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إبراهيم « وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ » أى: بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكا ، وإيتائهم مالم يؤتَ أحد « وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ » أى فى عمله « وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بالكفر والمعاصى « مُبِينٌ » أى ظاهر الظلم .

## تنبيهات :

الأول ـ روى المفسرون هٰهنا فى قصة الذبح روايات منكرة لم يصحّ سندها ولامتنها . بل ولم تحسن ، فهى معضلة تنتهى إلى السّدّىّ وكعب . والسدّىّ حاله معلوم فى ضعف مروياته . وكذلك كعب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأحبار فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً : فربما استمع له عمر . فترخص الناس فى استماع ما عنده عنه ، غثها وسمينها . وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله . ولذا لا نرى التزيد على أصل ما قص فى التنزيل من الضرورىّ له ، إلا إذا صح سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد وَلِعَ الخطباء فى دواوينهم برواية هذه القصة فى خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين . ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعا . ولما صنفتُ مجموعة الخطب حذفتُ هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروىّ ضعيف فى فضائل الشهور والأوقات ، واقتصرتُ على جياد الأخبار والآثار . وذلك من فضل الله علينا فلا نحصى ثناء عليه . وأمثل ما روى فى هذا النبأ من

الآثار ما أخرجه الإمام أحمد(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعى . فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة . فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات . ثم تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض . فقال له : يا أبت ! إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه: فعالجه ليخلصه ، فنودى من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتُنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحى، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة فى كل قول . واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة .

ثم قال السيوطىّ : فسّر الذِّبح العظيم فى الأحاديث والآثار بكبش . فاستدل به المالكية على أن الغنم فى التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث ـ استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ـ كما ذكره الرازىّ ـ وذلك فى باب الابتلاء . أى ابتلاء المأمور فى إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع ـ يذكر كثير الخلافَ فى الذبيح . قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم . فإن فيه إن الله أمر

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٧ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٧٠٧ ( طبعة المعارف ) .

إبراهيم أن يذبح ابنه ( بكره ) . وفي لفظ ( وحيده ) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذي غرّ وأصحاب هذا القول إن في التوارة االتي بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق ) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله ( بكرك ) ( وحيدك ) ولكن يهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب. ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى[١] (لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ) فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . ولاريب أن يعقوب داخل في البشارة . فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحٰق ، فكانت القراءة ( ومن وراء إسحٰق يعقوب ) أي ويعقوب من وراء إسحٰق . قيل لايمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص : وهي أول خبر سارّ صادق . وقوله ( ومن وراء إسحٰق يعقوب ) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى: وقلنا لها من وراء إسحٰق يعقوب والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله في أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يستريب ذوفهم فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك ( مررت بزيد ومن بعده عمرو ) لأن العاطف يقوم حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور: كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور ، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه في هذه السورة، قال[٢] (فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا

(١) [ ١١ / هود / ٧٠و٧١ ] . (١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ ـ ١١١ ] .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ) ثم قال[١] (وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) فهذا بشارة من الله له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول. بل هو كالنص فيه . فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك، بأن أعطاه النبوة . قيل: البشارة وقعت على المجموع، على ذاته ووجوده وأن يكون نبيًّا . ولهذا ينصب (نبيًّا) على الحال المقدر أى مقدراً نبوته . فلا يمكن إخراج البشارة أن يقع على الأصل، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامةً لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحٰق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة، من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانا ومكانا . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما لأنه لاأحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحٰق سماه عليما فقال[٢] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ) إلى أن قال[٣] (قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ) وهذا إسحٰق بلا ريب ، لأنه من امرأته وهى المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية. وأيضاً فإنهما بشرا به على الكبر واليأس

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١١٢ ]. (٢) [ ٥١ / الذاريات / ٢٤ و ٢٥ ].
(٣) [ ٥١ / الذاريات / ٢٨ ].

من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلا . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل. فأمره الجليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة . إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، مايقتضى الأمر بذبحه . وهذا فى غاية الظهور . وأيضا فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ، ليبرّد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحالههذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب الست على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارهما وموطئ أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله

وانـكساره . قال تعالى[١] ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ) [٢]( ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ) انتهى .

وقال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : واستدل بقوله تعالى بعد[٣] ( وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ ) من قال إن الذبيح إسمعيل . وهو الذى رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة . منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحق بعده . والبشارة بيعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهى أمور ظنية لاقطعية. ثم قال: وتأملت القرآن فوجدت فيه مايقتضى القطع أو يقرب منه ـ ولم أرمن سبقنى إلى استنباطه ـ وهو أن البشارة وقعت مرتين. مرة فى قوله[٤] ( إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ) فهذه الآية قاطعة فى أن هذا المبشر به هو الذبيح. ومرة فى قوله[٥] ( وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ) الآية . فقد صرح فيها أن المبشر به إسحق. ولم يكن بسؤال من إبراهيم. بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك فى الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو فى آخر أمره . أما البشارة الأولى لـــا انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لايستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله . فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين ، بغلامين. أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره. فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

---

(١) [ ٢٨/ القصص/ ٥ ]. (٢) [ ٥٧/ الحديد/ ٢١ ]. (٣) [ ٣٧/ الصافات/ ١١٢ ].
(٤) [ ٣٧ / الصافات / ٩٩ـ١٠٢ ] . (٥) [ ١١ / هود / ٧١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ( وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ )

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ » أى بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالمَىْ زمانهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ( وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ )

« وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » وهوقهر فرعون لهم، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ( وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ )

« وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ » أى مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ( وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ )

« وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ » أى البليغ فى بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ( وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ )

« وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ » أى فى باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٩] ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾

[١٢٠] ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

[١٢١] ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[١٢٢] ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[١٢٣] ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » وهو من أنبياء بنى إسرائيل من بعد زمن سليمان . أرسله الله لما انتشرت الوثنية فى الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهريا . فقام إلياس عليه السلام يوبخهم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى فى التوراة ( إيليا ) وله نبأ فيها كبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

« إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ » أى عذاب الله ونقمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

« أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفنيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة . ويقدمون لهم ضحايا بشرية « وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ » أى تتركون عبادته . قال القاضى : وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار ، المعنىّ بالهمزة . ثم صرح به بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] ( ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٢٧] ( فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ )

« ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى فى العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ( إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ )

[١٢٩] ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ )

[١٣٠] ( سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ )

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين آمنوا به واتبعوه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ » بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين) . وقرئ آل ياسين بإضافة آل ( بمعنى أهل ) إليه . وكله من التصرف فى العَلَم الأصلىّ ، الذى هو ( إيليا ) على قاعدة العرب فى الأعلام العجمية ، إذا أرادت أن تلطفها فى الاستعمال ، وتخففها على الألسنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] ( إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ )

[١٣٢] ( إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[١٣٣] ( وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ )

[١٣٤] ( إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ )

« إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أي للدعاء إلى الله والنهي عن الفواحش « إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ » أي من عذاب قومه المنذرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] ( إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ )

« إِلَّا عَجُوزًا » وهي امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت « فِى ٱلْغَٰبِرِينَ » أي في حكم الباقين في العذاب ، لكونها على دين قومها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] ( ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ )

« ثُمَّ دَمَّرْنَا » أي أهلكنا « ٱلْأَخَرِينَ » بجعل قريتهم عاليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] ( وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ )

[١٣٨] ( وَبِٱلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

[١٣٩] ( وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ )

« وَإِنَّكُمْ » أي يا أهل مكة « لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ » أي فترون دائما علامات مؤاخذتهم « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أي إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] ( إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ )

« إِذْ أَبَقَ » أي : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم « إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ »

أى السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس . فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم . فاقترعوا ليعلموا بسبب مَن ، أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه فى البحر . وهو معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] ( فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ )

« فَسَاهَمَ » أى قارع « فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ » أى المغلوبين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] ( فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ )

« فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ » أى ابتلعه « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] ( فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ )

« فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ » أى الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة ، فى بطن الحوت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] ( لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ )

« لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة . أى لكن رحمناه بتسبيحه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] ( فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ )

« فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ » أى حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط « وَهُوَ سَقِيمٌ » أى مما ناله من هذا المحبس الذى يأخذ بالخناق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤٦] ( وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ )

« وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ » أى لتقيه من الذباب والشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] ( وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ )

«وَأَرْسَلْنَـٰهُ» أى بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب «إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أوّلا . و ( أو ) للإضراب . أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر . أى إذا رآها الرائى قال : هى مائة ألف أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] ( فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ )

« فَـَٔامَنُوا۟ » أى فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر والغى والضلال والفساد والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه « فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى حين انقضاء آجالهم بالعيش الهنىّ والمقام الأمين، ببركة الإيمان والعمل الصالح . وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ) إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ)

« فَٱسْتَفْتِهِمْ » أى قريشاً المنذرين بأنباء الرسل وقومهم « أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ » أى سلهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها . جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم ( الملائكة بنات الله ) مع كراهتهم الشديدة لهنّ ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ)

« أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ » أى حاضرون ، حتى فاهوا بتلك العظيمة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

[١٥٢] (وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

« أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ » أى صدر منه الولد . مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد « وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى فى مقالتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ)

« أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ » أى اختار الإناث « عَلَى ٱلْبَنِينَ » أى الذكور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« مَا لَكُمْ » أى : أىّ شىء عرض لعقولكم « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخيّركم الكامل .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : قال قلت: (أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ) بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة، بدلا عن قولهم (وَلَدَ ٱللَّهُ) وقد قرأبها حمزة والأعمش رضى الله عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا محملها، فهى ضعيفة. والذى أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها . وذلك قوله (وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ) و (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى أنه منزه عن ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ)

« أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ » أى حجة واضحة وبرهان قاطع. ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقليا ، لاستحالته عند العقل . فغايته أن يكون مأثورا عن أسفار مقدسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ » أى المسطور فيه ذلك عن وحى سماويّ « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى فى دعواكم. وهذا كقوله تعالى[1] (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ) وفيه إشعار بأن المدار فى الدعوى على البرهان البين. وأنها بدونه لا يقام لها وزن.

(١) [ ٣٠ / الروم / ٣٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

«وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً» أى قربا منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رضى الله عنه: فَمَنْ أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد. ثم أشار إلى أن لا نسبة تقتضى النسب بوجه ما. عدا عن استحالة ذلك عقلا، بقوله «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ» أى المنسوب إليهم هذا النسب «إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» أى فى النار يوم القيامة. لكون الجنة كالجن، علما فى الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين. أى: فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون؟ وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة المحدث عنها قبلُ. والضمير فى (إنهم) للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوّه عن تشتيت الضمائر، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة. وذلك فيما عدا الملائكة. وقلنا (الأغلب) لما سمع من إطلاق الجن فى الملائكة. قال الأعشى[(١)] يذكر سليمان عليه السلام:

وسخَّر من جنِّ الملائك تسعةً      قياما لَدَيْهِ يَعملون مَحَاربَا

وقال الراغب: الجن يقال على وجهين: أحدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس. فعلى هذا تدخل فيه الملائكة. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة. وأشرار وهم الشياطين. وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى[(٢)] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) إلى قوله تعالى[(٣)] (وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) انتهى. وردّ إطلاق الجن على الملائكة العلامةُ الفاسى فى شرحه على (القاموس) فقال: تفسير الجن بالملائكة مردود. إذ خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن. والملائكة معصومون. ولا يتناسلون ولا يتّصفون بذكورة وأنوثة، بخلاف

(١) أنشده فى اللسان (مجلد ١٣ ص ٩٧ ، طبعة بيروت) هكذا ... يعملون بلا أجر.
(٢) [٧٢ / الجن / ١].      (٣) [٧٢ / الجن / ١٤].

الجن. ولهذا قال الجماهير: الاستثناء فى قوله تعالى[١] (إِلَّآ إِبْلِيسَ) منقطع أو متصل. لكونه كان مغمورا فيهم، متخلقا بأخلاقهم . انتهى. وهو يؤيد ماذهبنا إليه. وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه . لأن سليمان لم تسخَّر الملائكة لتشييد له المبانى. وليس ذلك من عمّاهم عليهم السلام . وقد مر الكلام على ذلك فى تفسير سورة (سبأ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَـٰنَ ٱللَّـهِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الولد والنسب . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦٠] (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّـهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة، متصل على القول الأول ، أى المؤمنين منهم . ومنقطع على الثانى. أو استثناء منقطع من (واو) يصفون. هذا، وبقى وجه فى الآية لم يذكروه . وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمشاكلة فى العبادة . ويراد بالجنة الملائكة . ويكون المراد من الآية الإخبار عمن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم ندًّا ومثلا له تعالى ، وحكاية لضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم لهم . مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون فى العذاب. والآية فى هذا كآية[٢] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ* قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم، بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ) وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق فى طليعة السورة. كله فى تقرير عبودية الملائكة له تعالى، وكونها من مخلوقاته الصافّة لعبادته، فأنّى تستحق الربوبية؟ والله أعلم. وقوله:

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٣٤ ] .

(٢) [ ٣٤ / سبأ / ٤٠و٤١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » عود إلى خطابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴾

« مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ » أى مفسدين أحداً بالإغواء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

« إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ » أى ضالّ مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير (١) : يقول تعالى ذكره : فإنكم أيها المشركون بالله ( وَمَا تَعْبُدُونَ ) من الآلهة والأوثان ( مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ) أى ما أنتم على ماتعبدون من دون الله بمضلين أحداً ، ( إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ) أى مَن سبق فى علمى أنه صال الجحيم . وقد قيل: إن معنى ( عليه ) به. انتهى.

ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكيا عنهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾

« وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » أى فى العبودية وتسخيره فيما يريده تعالى منه . لا يتعدى فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] ( وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ )

« وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ » أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة التى نؤمر بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] ( وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ )

« وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ » أى المنزهون الله عما يصفه به الملحدون . أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] ( وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ )

« وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ » أى مشركو قريش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] ( لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ )

« لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى كتاباً من الكتب التى نزلت عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] ( لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ )

« لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى لأخلصنا العبادة له . فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] ( فَكَفَرُواْ بِهِۦ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ )

« فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أي عاقبة كفرهم . وهذا كقوله تعالى[١] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ) الآية . وقوله تعالى[٢] (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] ( وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ )

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ » أي وعدنا لهم الأزليّ ، وهو :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] ( إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ )

[١٧٣] ( وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ )

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا » أي الرسل ومن آمن معهم « لَهُمُ الْغَالِبُونَ » أي الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى[٣] ( كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ )

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أي أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عمن ينال منه .

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٤٢ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٥٦و١٥٧ ] .

(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ٢١ ] .

كقوله تعالى[1] ( وَدَعْ أَذَاهُمْ ) وقوله[2] ( فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ) « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى استقرار النصر لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] ( وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ )

« وَأَبْصِرْهُمْ » أى بصرهم وعرفهم عاقبة البغى والكفر ، ومانزل بمن أُنذر قبلهم ، أو أوضح لهم الدلائل والحجج فى مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحى . فإن لم يبصروا الآن ، « فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » أى ماقضينا لك من التأييد والنصرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] ( أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ )

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى قبل حلول أجله ، وإنه لآت، لأنه يوم الفتح الموعود به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] ( فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ )

« فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » أى بقربهم وفنائهم « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ » أى فبئس الصباح صباح من أنذرتهم بالرسل فلم يؤمنوا . لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزمخشرىّ : مثّل العذاب النازل بهم ، بعد ماأنذروه فأنكروه، بجيش أنذر بهجومه بعضُ نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم، ولادبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا . فسميت الغارة ( صباحا ) وإن وقعت فى وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. انتهى. أى فهى استعارة تمثيلية . أو فى الضمير استعارة مكنية ، والنزول تخييلية .

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٨ ] . (٢) [ ١٥ / الحجر / ٨٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[١٧٩] (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » قال الزمخشرى : إنما ثنى ذلك ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة . وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول . وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة . وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ » أى المنعة والقدرة والغلبة « عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الشريك والولد ونحوهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ » أى سلام وأمان وتحية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى على نعمه ، التى أجلّها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

## فوائد فى خواتم هذه السورة

الأولى ـ روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفّون فى الصلاة حتى نزلت ( وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ) فصفوا . وقال أبو نضرة: كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياما، يريد الله بكم هدى الملائكة. ثم يقول ( وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ) تأخرْ يافلان ، تقدم يافلان. ثم يتقدم فيكبر. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير[1] .

وفى صحيح مسلم[2] عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض مسجداً . وتربتها لنا طَهوراً .

الثانية ـ روى الشيخان[3] عن أنس رضى الله عنه قال : صبّح رسول الله ﷺ خيبر . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله! محمد والخميس. فقال النبىّ ﷺ : الله أكبر خربت خيبر ( إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ) . دلّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولا وبالذات .

الثالثة ـ قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة . ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال المطلق مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما فى هذا الموضع ، وفى مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال تبارك وتعالى « سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ » الآيات .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٤ ( طبعتنا )

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٦ ـ باب مايحقن بالأذان من الدماء، حديث ٢٤٦

وأخرجه مسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح حديث رقم ٨٧ ( طبعتنا )

الرابعة ـ روى ابن أبى حاتم عن الشعبيّ مرسلا : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه، حين يريد أن يقوم : ( سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ ) الآيات .

وروى أيضاً عن عليّ موقوفاً .

وأخرج الطبرانىّ عن زيد بن أرقم مرفوعا : من قال دبر كل صلاة ( سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ ) الآيات ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر .

وقد بيّن الرازىّ أن خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية . فارجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٨ - سُورَةُ صٓ

مكية . وقيل : مدنية وضُعِّفَ وآياتها ثمان وثمانون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( صٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ )

« صٓ » بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفى نظائره . لما قدمنا غير ما مرة . وقيل : قَسَم رمزىّ ، وإليه نحا المهايمىّ. قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذى اعترف به الكل فى غير دعوى النبوة، حتى صدقه أهل الكتابين فى إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق فى دعوى النبوّة . أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصعوده فى مدارج الكمالات ، الدال على صعوده فى مدارج القرب من الله ـ أو بصبره الكامل الذى هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

«وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ» أى الشرف الدال على حقيقته وصدقه. أو التذكير، كآية(١) ( لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ) والجواب محذوف لدلالة السياق عليه . أى إنه لحق. وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ )

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ » أى كبر « وَشِقَاقٍ » أى عداوة للحق والإذعان له. إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ مّافيه . بل هم فى حميّة جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله. ولذلك لايذعنون له. وقيل: الجواب مادلعليه الجملة الإضرابية. أى ما كفر به من كفرلخلل وجدهفيه. بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ )

« كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله « فَنَادَوْا » أى فدعوا واستغاثوا « وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى وليس الحين حينَ فرار ومهرب ومنجاة . والكلام على ( لات ) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط فى مطولات العربية ، وفى معظم التفاسير هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ، وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ )

[٥] ( أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ )

« وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ » أى رسول « مِّنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبيّ ﷺ « وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » أى بليغ فى العجب . وذلك لتمكن تقليد آبائهم فى نفوسهم ، ورسوخه فى أعماق قلوبهم . ومضيّ قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل محى بالكلية من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل وأمحل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ )

« وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قريش يحضّون بعضهم على التمسك بالوثنية،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنِ ٱمْشُواْ » أى فى طريق آبائكم « وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا « إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ » تعليل للأمر بالصبر . أى يراد منا إمضاؤه وتفنيذه لامحالة . أى يريده محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لاقول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكاك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] ( مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ )

« مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ » أى ماسمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة النصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا « إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ » أى ماهذا التوحيد إلا فرية محضة ، لامستند له سوى هذا الذكر بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ، بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ )

« أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا » أى مع أن فينا من هو أثرى وأعلى رياسة . قال الزمخشرىّ : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا(١) ( لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى » إضراب عن مقدّر . أى : إنكارهم للذكر ليس عن علم ،

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٣١ ] .

بل هم فى شك منه . يقولون فى أنفسهم : إمّا وإمّا « بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ » أى على الإنـكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدّقوا . وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ويؤخذ منه أن ( لما ) لائقة بالجواب . وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيبويه . وفرق بينها وبين ( لم ) بأن ( لم ) نفىٌ لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته ( قد ) . و ( لما ) نفى لما يتوقع وجوده أُدخل على مثبته ( قد ) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليـه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإنى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيـل لى : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلتُ ذلك بأن آلة النفى المذكورة ( لم ) ومقتضاها، قبول المحل الفعل المنفىّ وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتـكلم . ولو قلت : الحجر لم يتـكلم ، لـكان ركيـكاً من القول ، لإفهامه قبوله للـكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ )

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنبـوة ما تهوى أنفسهم . كلا (١)( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ) (٢)( ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ )

« أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ » أى فليصعدوا

(١) [ ٢٨ / القصص / ٦٨ ] .          (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٢٤ ] .

فى المراقى التى توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا فى الأمور الربانية والتدابير الإلهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير[1] بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشدّ من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرّف به الأثير الموجود فى أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة. فتأمل .

ثم قال ابن جرير[1] : وأصل السبب عند العرب، كل ماتسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايمىّ : أى فليصعدوا فى الأسباب التى هى معارج الوصول إلى العرش ، ليستووا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحى على من شاءوا . وأنّى لهم ذلك ؟؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ )

« جُندٌ مَّا » أى هم جند حقير « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك. وأولئك قد قهروا وأهلكوا. وكذا هؤلاء. فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون . و ( هُنَالِكَ ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر. وقال ابن كثير: هذه الآية كقوله جلت عظمته[2] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ) وكان ذلك يوم بدر . وفى الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ).

(٢) [ ٥٤ / القمر / ٤٤و٤٥ ] .

بقوله : ( جُندٌ ) يجوز فيه وجهان : أحدهما ـ وهو الظاهر ـ أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و ( ما ) فيها وجهان ، أحدهما ـ أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ(جند) على سبيل التعظيم، للهزء بهم، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين. و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن يكون خبراً ا(جند) و (ما) مزيدةو (مَهْزُومٌ ) نعت ا(جند). الثانى ـ أن يكون صفة ا(جند) الثالث ـ أن يكون منصوبا .بـ(مهزوم) . و (مَهْزُومٌ ) يجوز فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ أنه خبر ثان لذلك المبتدأ المقدر ،والثانى أنه صفة ا(جند) .و(هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالـكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سيهزمون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل: مشارٌ به إلى نصرة الإسلام . وقيل: إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون ( جند ) مبتدأ و ( ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و ( مَهْزُومٌ ) خبره . وفيه بعد ، لتفلّته عن الـكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيته ! فبعث إليه . فجاء النبيّ ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل . قال فخشى أبو جهل لعنه الله ، إن جلس إلى جنب أبى طالب ، أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس فى ذلك المجلس. ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه. فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب :أى ابن أخى !ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول. قال، وأكثروا عليه من القول . وتـكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففزعوا لـكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

( أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ) ونزلت الآية . رواه ابن جرير(١) والإمام أحمد والنسائيّ ، والترمذيّ وحسّنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ )

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أى المربوطة أطنابه ـ أى حباله ـ بأوتاده . استعير للملك استعارة تصريحية . وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه . أوشبه فرعون فى ثبات ملكه بذى بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده. على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تخييلا ، وهو قوله ( ذُو ٱلْأَوْتَادِ ) فإنه لازم له . أو هو كناية. حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت. وقد جاءهذا فى قول الأسود(٢) من شعراء الجاهلية :

ولقد غَنُوا فيها بأنعمِ عيشةٍ ... فى ظل مُلْكٍ ثابتِ الْأَوْتَادِ

أو المعنى: ذو الجموع الكثيرة. سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضا ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية فى الأوتاد . أوهو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند. أوهو على حقيقته والمراد المبانى العظيمة والهياكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق فى الكل .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) البيت رقم ١٢ من المفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النهشليّ . وأول القصيدة:

نام الخليُّ وما أُحسّ رقادِى ... والهمُّ محتضِرٌ لدىَّ وِسَادِى

غنوا : أقاموا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ )

«وَثَمُودُ» وهم قوم صالح «وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ» أي الغيضة ، وهم قوم شعيب «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ» أي الكفار المتحزبون على رسلهم، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ )

« إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ » أي فوجبت عليهم عقوبتي. قال الشهاب: ( إن ) نافية و ( كُلٌّ ) محذوف الخبر . والتفريغ من أعمّ العام . أي ما كل أحد مخبر عنه بشيء، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل. لأن الرسل يصدق كلٌّ منهم الكل. فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل . أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع . فيكون كل كذب رسوله. أو الحصر مبالغة . كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة العدم . فهم غالون فيه . انتهى .

وقال الزمخشريّ : وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولا ، وبالاستثنائية ثانيا ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص ـ أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير . وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليليَ قوله تعالى ( فَحَقَّ عِقَابِ ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام . وهو كما قدمته في قوله(١) (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله (١) (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ). انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ )

« وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ » أي أهل مكة «إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً» أي أخذة واحدة بعذاب

(١) [ ٢٢ / الحج / ٤٤ ] .

بئيس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كما قال :

صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً          خرّوا لشدّتِهَا على الأذقانِ

وأصله من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم « مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ » أى من توقف مقدار فواق . وهو مابين الحلبتين . أورجوع وترداد. فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ف ( فواق ) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر اللزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وهما لغتان. وقيل: المفتوح اسم مصدر من ( أفاق المريض ) إفاقة وفاقة، إذا رجع إلى الصحة. والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ )

« وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله[١] ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ) « قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ )

« ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام، مما سارت به الأمثال[٢] ولذا قال تعالى «وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ »

(١) [ ٢٢ / الحج / ٤٧ ] و [ ٢٩ / العنكبوت / ٥٣و٥٤ ] .

(٢) ماذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيتائه ما أوتى ، هو مايظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزمخشرىّ وتابعه عليه البيضاوىّ وغيرهما فى وجه الاتصال ، فما تقشعر من ذكره الأبدان. ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً. نخذ ماأوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإنابة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ )

[١٩] ( وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ )

« إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلٌّ لَّهُۥٓ » أى لله تعالى « أَوَّابٌ » أى مطيع منقاد . يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل[١] ( يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ، إذا مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوىّ فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرىّ أنه ينتظر سكتة المصوّت والقارئ بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ )

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ » أى قويناه بوفرة العدَد والعُدَد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال

(١) [ ٣٤ / سبأ / ١٠ ] .

والحضّ على الآداب ومكارم الأخلاق . وكان زبوره عليه السلام ، كله حكما غررا « وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ » أى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل . وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب . ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَهَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ )

« وَهَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ » أى وجوه . و ( المحراب ) مقدم كل بيت وأشرفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ، فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ)

« إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ » أى منا . فلسنا فاتكين وإنما نحن « خَصْمَانِ » أى شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك « بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ » أى تعدى « فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما يطابق أمر الله « وَلَا تُشْطِطْ » أى ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه « وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ » أى بحيث لا تميل عن الحق أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ )

« إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أى أنثى من الضأن « وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها، بل أراد التغلب علىّ «فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا» أى : ملكنيها . بمعنى اجعلنى كافلها كما أكفل ما تحت يدى . أو بمعنى اجعلها كفلى أى نصيبى « وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ » أى غلبنى فى المكالمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ )

[٢٥] ( فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ )

« قَالَ » أى داود « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ » أى طلب نعجتك التى أنت أحوج إليها ليضمها « إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ » أى مع استغنائه عن هذا الضم «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ» أى الإخوان الأصدقاء المتخالطين فى شئونهم «لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» أى بغى الأعداء. مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار « إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى فإنهم لايبغون « وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ » أى وهم قليل . و ( ما ) مزيدة للإبهام والتعجيب من قلتهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقلة ، وتنكير ( قليل ) وزيادة ( ما ) الإبهامية . والشىء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب مايهيج الأفئدة ويقر عين المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لامحاباة فيه ولامواربة فأقر عين المظلوم . وعرف الباغى ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس عن قلب المظلوم البائس، وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة ـ خلة البغى

وعدم الإنصاف ـ مع الخلطة والخلة ، ليتأسى ويتسلى كما قيل ( إن التأسى روح كل حزين ) ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة، والصداقة. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق، إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة. وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربا « وَحُسْنَ مَـَٔابٍ » أى مرجعاً حسناً وكرامة ، فى الآخرة .

## تنبيهات :

الأول ـ للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألمّ به داود عليه السلام ثم غفر له. ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير[١] . فإنه قال : هذا مَثَل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له، فيما قيل، تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتِل نكح، فيما ذكر ، داوُد امرأتَه . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته. هذا ما قاله ابن جرير[١]. ثم أسند قصته مطولة من روايات عن ابن عباس والسّدّىّ وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد . ومن طريقٍ عن أنس مرفوعا . ويشبه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .

(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفي إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشيّ وهو ضعيف . وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبيّ ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم، فمعوّلهم في ذلك ماذكر في التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ . كما فصّل في مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطّيب الباقلانيّ من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هـذا القول ، رحمه الله ، ردًّا متينا .

وأما المذهب الثاني ، فهو ما جزم به ابن حزم في ( الفِصَل ) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لايدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافاتٍ ولّدها اليهود . وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم ، بلاشك ، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغي أحدهما على الآخر على نصّ الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرّضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عزوجل، وقوّله مالم يقل ، وزاد في القرآن ماليس فيه ، وكذّب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذّب الملائكة . لأن الله تعالى يقول ( وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ) فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له أكفلنيها . فاعجبوا . لِمَ يقحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجرّدة . وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشّق امرأة جاره، ثم يعرّض زوجها للقتل عمدا، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفسّاق المتمردين . لاأفعال

أهل البرّ والتقوى . فكيف برسول الله داود ﷺ الذى أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من مَلَكٍ ولا من نبيّ . ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبيّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى[1] (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) وقوله تعـالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَالِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ[2] يدعو فى أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هـذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعىّ فى (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال : وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه . انتهى .

ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَالِكَ) أى الوقوع فى الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام فى الأحكام . وذكرها للنبيّ ﷺ تدريب له فى الأناة فى جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا، ربما أوهم شيئاً فى مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله[3] (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ) فالقصة لم يجر ذكرها

(١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر، ٧ ـ باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) [٣٨ / صٓ / ٤٠] .

إلا للترقية فى رتب الكمال . وأول دليل على ماذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هى بالتدريب فى الحكم ، لابامرأة ولا غيرها . وأن ماذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لايصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشيّ عن أنس رضى الله عنه . ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل. فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضى عياض فى ( الشفا ) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين . ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد فى حديث صحيح. والذى نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وقوله فيه (أَوَّابٌ) فمعنى (فَتَنَّاهُ) أى اختبرناه. و (أَوَّابٌ) قال قتادة: مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: مازاد داود على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك وأكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه. وأنكر عليه شغله بالدنيا. وهذا هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه من أمره. وقد قيل خطبها على خطبته، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقنديّ أن ذنبه الذى استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفى ما أضيف فى الأخبار إلى داود من ذلك ـ ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداوديّ : ليس فى قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبيّ محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه، رجلان فى نتاج غنم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم فى أواخر كتابه ( الجواب الكافى ) فى مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى النكاح. كما فى سنن ابن ماجه[1] مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابَّين مثل النكاح. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله دواءه شرعاً وقدَراً . وبه تداوى نبيّ الله داود ﷺ ولم يرتكب نبيّ الله محرما. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلوّ مرتبته . ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لا بتمامها . وهو من الأقوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكا حكيما، لا نبيا، بدليل ذكره فى أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له ناثان ، ضرب له المثل المذكور ـ فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التى بين أيديهم فى إثباتٍ أو نفى لا يعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى . ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم . ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام . ومنها أنه لا حاجة فى كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء فى غيره ، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب ، أو هى إليه ، لاستغنائه بنفسه . بل وكونه مهيمناً على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمّل ذلك . والله أعلم .

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حُدِّث بنبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذَّب المحدِّث به، وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله، فما ينبغى أن يلتمس خلافها . وأَعْظِمْ بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرتَ وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغى إظهارها عليه. فقال عمر: لَسَماعى هذا الكلام، أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس . نقله الزمخشرىّ .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب ما جاء فى فضل النكاح ، حديث ١٨٤٧ ( طبعتنا ).

قال الناصر في ( الانتصاف ) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب، مبرءون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثاني ـ قال ابن الفرس : في هذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد ( أي لظاهر المحراب . إلا أنه ليس نصًّا في محراب المسجد ) والتلطف في ردّ الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤاخذ بمنفٍ ما أمكن . وجواز المعاريض من القول .

قال الزمخشريّ : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ . من قِبَل أن المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به ، كان أوقع في نفسه، وأشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يبادَه به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة ، بأن يعرّض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياسا لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث ـ قال ابن مسعود في قوله تعالى ( إِنَّ هَٰذَا أَخِي ) : أي على ديني . أخرجه ابن أبي حاتم . ففيه جواز إطلاق ( الأخ ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى ( وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ ) على جواز الشركة . أفاده في ( الإكليل ) .

الرابع ـ قال السيوطيّ في ( الإكليل ) : استدل بقوله تعالى ( وَخَرَّ رَاكِعًا ) من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوّز به عنــه . أو هو استعارة له ، لمشابهته له فى الانحناء والخضوع .

الخامس ـ قال ابن كثير : اختلاف الأئمة فى سجدة (صٓ) هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين : أحدهما أنها ليست من العزائم ، بل هى سجدة شـكر . لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رســول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخارىّ(١) وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبىّ ﷺ سجد فى ( صٓ ) وقال : سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شـكراً ، تفرد به النسائىّ(٢) . وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ( صٓ ) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هى توبة نبىّ . ولـكن رأيتكم تشزنتم ، فنزل وسجد . تفرّد به أبو داود(٣) . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ )

« يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ » أى استخلفناك على الملك فى الأرض

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ٣ ـ باب سجدة صٓ ، حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٤٨ ـ باب سجود القرآن ، السجود فى صٓ .

(٣) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب السجود ، ٥ ـ باب السجود فى صٓ ، حديث رقم ١٤١٠ .

كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله فى أرضه « فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ » أى هوى النفس، من الميل إلى مال أوجاه أوقريب أوصاحب « فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى صراطه الموصل إلى الكمالات، كحفظ الملكة والنصر على الأعداء ، والنجاة فى الآخرة ورفع الدرجات فيها « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ » أى بسبب نسيانهم، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

تنبيه :

فى الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء أو سبب يقتضى الميل . واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا فى ( الإكليل ) .

وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى . ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبى حاتم عن أبى زرعة ؛ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أقول ؟ قال : قل فى أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعده فى كتابه قال تعالى ( يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ) الآية .

وقال الرازىّ : اعلم أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع . لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة . حتى هذا يحرث وذاك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج والآخر يخيط . وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهمّ . وينتظم من أعمال الجميع

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدنيّ بالطبع . وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق. وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله ( فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ) يعني لابد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال ( وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ )

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا » أي خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى(١) ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ) وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدّون عن سبيل الله ويبغون في الأرض الفساد .

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٣٨و٣٩ ] .

قال الزمخشريّ : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلا إقرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

« أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » قال المهايميّ: أي : أنترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ » أي مخالفةَ أمر الله رعايةً لمحبته « كَٱلْفُجَّارِ » أي الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بعداوته . أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لابدّ من معاد وجزاء . فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده . فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

« كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ » أي كثير الخير « لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ » قال المهايميّ: أي لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها . فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال.

وقال الزمخشريّ : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعانى الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلَ منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يُرى للقرآن عليه أثر فى خُلُق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لا كثّر الله فى الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ » أى من الخيل ، جمع ( صافن ) وهو الذى يقوم على طرف سنبك يدٍ أو رِجْل ، « الْجِيَادُ » جمع ( جواد ) وهو الذى يسرع فى جريه أو بمعنى الحسان جمع ( جيّد ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » أى آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وفائدة التضمين إشارة إلى عروضه ، و ( ذِكْرِ رَبِّى ) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله . .

قال الزمخشرىّ : و ( الخير ) المال كقوله[1] ( إِن تَرَكَ خَيْرًا ) وقوله[2] ( وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ) والمال : الخيل التى شغلته ، أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ[3] : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال فى زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ماوصف لى رجل فرأيته، إلا كان دون مابلغنى ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالًا رضى الله عنه عن قوم يستبقون ، مَن السابق؟ فقال: رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال: وأنا أردت الخير. « حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ » أى غربت الشمس . متعلق بقوله ( أَحْبَبْتُ ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك. وباء ( بِٱلْحِجَابِ ) للظرفيّة ، أو الاستعانة أو الملابسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( رُدُّوهَا عَلَىَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ )

« رُدُّوهَا عَلَىَّ » يعنى الصافنات . وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ » أى فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٨٠ ] . (٢) [ ١٠٠ / العاديات / ٨ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى ، حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبىّ ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب . وذلك ثابت فى الصحيحين[1] من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو، والقتال . والخيلُ تُراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة حتى لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضى الله عنهم فى فتح ( تستر ) وهو منقول عن مكحول والأوزاعىّ وغيرهما، والأول أقرب. لأنه قال بعد( رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ) قال الحسن البصرى : قال : لا ، والله ! لا تشغليني عن عبادة ربى آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها . وهذا القول اختاره ابن جرير[2]. قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذى رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا . ولاسيما إذا كان غضبا لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوّها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد[3] عن ابن قتادة وأبى الدهماء،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعتنا)

(٢)( انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدويّ ، أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى ممـا علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلاّ أعطاك الله عز وجل خيرا منه . انتهى ماذكره ابن كثير .

وقال القاشانىّ : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرقب بعضها وينحر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التى تعبدها بهواها ، وقمعا لسورتها وقواها، ورفعا للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإنابة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازىّ إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم . كما أنه كذلك فى دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجـل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله ( عَن ذِكْرِ رَبِّى ) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول ـ تشريفا لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدوّ . والثانى ـ أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث ـ أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقا . ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات .

قال : وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل ردها . وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسّروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لنا ههنا مقامان : المقام الأول ـ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها . وقد ظهر، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه، وظهوره لايرتاب العاقل فيه . المقام الثانى ـ أن يقال : هب أن لفظ الآية لايدل عليه، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام . ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات . ورواية الآحاد لاتصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لايبالى بهم ولايلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازىّ .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لاذنب لها، والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبيّ مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها . ثم أمر بردها . فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده، برًّا بها وإكراما لها، هذا هو ظاهر الآية الذى لايحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة . وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : الذى يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم . لأن التنزيل الكريم مصدق الذى بين يديه . إلا أن له الهيمنة عليه . فما وقف فيه على حدّ من أنباء مابين يديه، يوقف عنده ولا يتجاوز . وحينئذ، فالقصة المعروفة عندهم هى التى أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها، إذ لا تقبل على علاّتها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ » أى ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا » أى جسما مجسدا كناية عن صنم ـ على مارووه ـ وإنما أوثر الجسد عليه ـ إجلالاً لسليمان عليه السلام، وإشارة

إلى أن قصته ـ إن صحت ـ كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ)

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ » أى غيرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ)

« فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ » أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً » أى لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ)

« وَٱلشَّيَٰطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ)

« وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ » أى على من شئت من القرنين وغيرهم «أَوْ أَمْسِكْ» أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المنّ والإمساك ، فيكون حالًا من المستكن . أو هو حال من العطاء، أو صلة له، وما بينهما اعتراض. والمعنى: إنه عطاء جمٌّ لا يكاد يمكن حصره. فقد يعبر عن الكثير بـ( لا يعدّ ) و ( لا يحسب ) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

« وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى فى الدرجات ، « وَحُسْنَ مَـَٔابٍ » أى مرجع فى الآخرة .

تنبيه :

روى الأثريّون هٰهنا قصصا مطولة ومختصرة ، مؤتلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام. فالظاهر أنهم يكذبون عليه ولهذا كان فى سياقها منكرات. وتقويةُ ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائىّ بإسناد قوىّ ـ لا عبرة له . فليس المقام قاصرا على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك فى الصحيحين ، فأنّى بمروىّ غيرها ؟؟

وذكر الرازىّ أن القصص المروية هناهى لأهل الحشو من تأويلهم. وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ) أى آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته، كما قال تعالى مصدقا لموسى عليه السلام فى قوله[١] (إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٥٥ ] .

تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ) إذ من الفتنة ما يهدى الله بها من يشاء وقال تعالى[١] ( الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ) فهذه الفتنة هى الاختبار حتى يظهر المهتدى من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هى اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا فخرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيّه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو، ونقول (صدق الله عز وجل، كل من عندالله ربنا ) ولو جاء نص صحيح فى القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو، لقلنا به، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح، فلا يحل لأحد القول بالظن الذى هو أكذب الحديث فى ذلك، فيكون كاذبا على الله عز وجل، إلا أننا لانشك البتّة فى بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب. والله تعالى لايهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد فى قول من قال إنه كان ولداً له ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير ماطبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشانىّ أن حكاية الجنىّ والخاتم مع سليمان ، هى من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء فى تمثيلاتهم من حكايات أبسال وسلامان[٢] .

ثم أخذ القاشانىّ فى تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبلُ: إن صحت الحكاية فى مطابقتها للواقع، كان قد ابتلى بمثل ماابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

---

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣ ] .

(٢) انظر المراد منها فى شرح (الإشارات) لابن سينا فى أول النمط التاسع من مقامات العارفين وأمثالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

« وَٱذْكُرْ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَآ » أى الكامل فى التحقق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ » أى دعاه وابتهل إليه قائلا «أَنِّى مَسَّنِىَ» أى أصابنى «ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ »أى مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

«ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أى: فاستجبنا له وقلنا : اركض برجلك . أى اعدُ بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك . وقوى جسمك وصح بدنك « هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ )

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ » بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا » أى ترحما منا عليه بهذا الإضعاف والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ » أى وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ، نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا » أى حزمة صغيرة « فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإنابة والابتهال والعبادة .

## تنبيهات

الأول ـ كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً فى قومه . وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقىّ من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية . وكانت إذ ذاك خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة . وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى ـ يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله . وهو ما أشار له التنزيل الكريم ؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبرا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صـــدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم نسب المسّ إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسّه الله به من النصب والعذاب ـ نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل . انتهى .

الرابع ـ دلّ قوله تعالى ( وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ) الآية ، على تقدم يمينٍ منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا فى المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء . فالله أعلم به ولا ضرورة لبيانه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهى الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثل ما كتب فى الآية ، إيقافا للقارئ عليه ، قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : أخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شماريخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهى لهذه الأمة لمن حلف على مثل ماحلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هى للناس عامة . وعن مجاهد قال: كانت لأيوب خاصة قال الكيا الهراسىّ : ذهب الشافعى وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ فى يمينه . وخالف مالك ورآه خاصا بأيوب .

قال : وفى الآية دليل على أن للزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى .

واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إنى أردت أن لا أكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عنيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عِبَر . انتهى كلام ( الإكليل ) .

وقد رد الإمام ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته: وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ) فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول: إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها

ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعيّ: إن علم أنها مسته كلها ، برّ في يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحنث. ولو كان هذا موجبا لبرّ الحالف ، لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة . وهـذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد ، في المريض عليه الحدّ ، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد . واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل ، عن سعيد بن سعد بن عبادة[1] قال: كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف ، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبث بها . وكان مسلما . فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ . فقال : اضربوه حده ، قالوا : يارسول الله ! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلته . فقال : فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة ، وخلوا سبيله .

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق . فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه ، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال : إنه الشيطان . ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة . فإنه لو كان في شرعهم كفارة، لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها . فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود . وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة المعذورة ، التي لا تستحق العقوبة. فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة، في شأن الضعيف الذي زنى . فلا يتعدى بهما عن محلهما .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ) .

فإن قيل : فقولوا هـذا فى نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أَمَتَهُ مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما، إنه يبرّ بجمع ذلك فى ضربها بمائة شمراخ . قيل: قد جعل الله له مخرجا بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر يمينه، ويقضى الله بالبر فى يمينه هٰهنا، ولا يحل له أن يبرّ فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرقا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل: إما أن يكون العذر مرجوّ الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله. ثم يحدّ الحد الواجب . كما روى مسلم[1] فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت. فأمرنى أن أجلدها . فأتيتها فإذا هى حديثة عهد بنفاس . فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . اتركها حتى تماثَلَ . انتهى كلام ابن القيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾

« وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أى ذوى القوة فى العبادة والأفكار فى معرفة الله تعالى . قال القاشانىّ : أى العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدى، والثانى إلى البصر والنظر، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية.

قال الشهاب : ( الأيدى ) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و ( الأبصار ) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد بـ ( الأيدى ) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب . و ( الأبصار ) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لا جارحة له ولا بصر . انتهى .

---

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ ( طبعتنا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [٤٦] ( إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ )

« إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم » أى صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ » أى الباقية والمقر الأصلىّ ، أى استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : ( بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها ـ أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان. لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كما فى قوله[1] ( بِشِهَابٍ قَبَسٍ ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره . الثانى ـ أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أى بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالعاقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة . وفيها أوجه : أحدها ـ أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون ( ذكرى ) منصوبا به، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون ( ذكرى ) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منوّنا كما يعمل مضافا . أو يكون ( خالصة ) اسم فاعل على بابه . و ( ذكرى ) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار ( أعنى ) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و ( الدار ) يجوز أن يكون مفعولا به بـ ( ذكرى ) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و ( خالصة ) إن كانت صفة ، فهى صفة لمحذوف . أى بسبب خصلة خالصة . انتهى .

---

(١) [ ٢٧ / النمل / ٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْـكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « ٱلْأَخْيَارِ » أى المنزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أفعل تفضيل . أو هو جمع (خيّر) المشدد أو المخفف منه « وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْـكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إلياس وكان خادمه . ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمى إلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم علم أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فى سورة الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَـٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

[٥٠] (جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ)

« هَـٰذَا ذِكْرٌ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجوّز به عنه بعلاقة اللزوم. فيكون المعنى : أى فى ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشرىّ أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . أى فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر .

قال الزمخشرىّ : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل ، ونوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، قال (هَـٰذَا ذِكْرٌ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ » أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ )

« مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ )

« وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع ( أحور ) والثوب المقصور يشبه بالحوارىّ فى بياضه ونصاعته « أَتْرَابٌ » أى متساوية فى السن والرتب ، لا عجوز بينهن . جمع ( ترب ) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد. كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحد . فـ ( ترب ) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ )

« هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تعليلية . فإن ماوعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جعلت اللام بمعنى ( بعد ) كما فى ( كتب لخمس ) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ )

« إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ » أى انقطاع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( هَـٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ )

[٥٦] ( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ )

« هَـٰذَا » أى باب فى وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا . فهو خبر لمحذوف . أو مفعول لمحذوف « وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ )

« هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يغسق من صديد أهل النار . أى يسيل . وجملة ( فَلْيَذُوقُوهُ ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ )

« وَءَاخَرُ » أى ومذوق ، أو عذاب آخر « « مِن شَكْلِهِۦٓ » أى مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والهوان « أَزْوَٰجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بيّن ما يقال للرؤساء الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ )

« هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ » أى هـذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة ، مقتحم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أوصفة لـ( فوج ) . أو حال. أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ما أتوا رحبا وسعة، لشدة عذابهم وكونهم فى الضيق والضنك، واستيحاش بعضهم من بعض، لقبح المناظر وسوء المخابر « إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ )

« قَالُوا۟ » أى الأتباع للرؤساء « بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم « أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا » أى قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانىّ : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال. أى لأن الوضع لا يختص بالحقيقة. إلا أن الأظهر الأول. ويؤيده قوله تعالى بعدُ (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ) « فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ » أى المستقر جهنم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦١] ( قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ )

«قَالُوا۟» أى الأتباع أيضا «رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ» كقوله(١) تعالى ( رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ) .

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ )

« وَقَالُواْ » أى الطاغون أو الأتباع « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ » يعنون فقراء المسلمين الذى يسترذلونهم ويسخرون بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ )

« أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا » قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة ا (رجالا) . وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى مالت عنهم كبرا ، وتنحت عنهم أنفة . والمعنى أىّ الفعلين فعلنا بهم ، السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على مافعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل ( أم ) بمعنى ( بل ) أى بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا فى النار . كأنهم يسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون: أو لعلهم معنا فى جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل(١) ( وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالُواْ نَعَمْ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ) إلى قوله(٢) ( ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ) الآية. وقيل : ( أم ) بمعنى ( بل ) أيضا، أى بل زاغت عنهم أبصارنا لكونهم فى دار أخرى وهى دار النعيم . وقرئ ( سُخْرِيًّا ) بضم السين وكسرها .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٤٤ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٤٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ )

« إِنَّ ذَٰلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ » أى لواقع وثابت . و ( تَخَاصُمُ ) بدل من ( حَقٌّ ) أو خبر لمحذوف . وقرئ بالنصب على البدل من ( ذَٰلِكَ ) قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك . ولأن قول الرؤساء ( لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ) وقول أتباعهم ( بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصما ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الناصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله ( لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى ( بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ) من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثانى من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ )

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ » أى رسول مخوّف « وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ » أى بلا ولد ولا شريك « ٱلْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ )

« رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والعجائب « ٱلْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « ٱلْغَفَّـٰرُ » أى لمن تاب وأناب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ )

« قُلْ هُوَ » أى الذى أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ )

« أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لتمادى غفلتكم . فإن العاقل لا يعرض عن مثله . كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع. وأما على بعثته ﷺ به ، فقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ )

« مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى .

قال القاشانىّ : وفرق بين اختصام الملإ الأعلى واختصام أهل النار بقوله فى تخاصم أهل النار ( إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ) وفى اختصام الملإ الأعلى ( إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) لأن ذلك حقيقىّ لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضىّ نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كمالاتهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم[١] ( سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ) وقوله تعالى[٢] ( أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) على ما ذكر فى البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٣٢ ] .
(٢) [ ٢ / البقرة / ٣٣ ] .

وبالجملة ، فالاختصام المذكور في الآية ، هو المشار إليه في قوله تعالى(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ) قال الرازيّ : وهو أحسن ما قيل فيه .

ثم قال : ولو قيل : كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى ؟ قلنا : لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب . وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة . والمشابهة علة لجواز المجاز . فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه . انتهى .

وملخصه : أن ( يَخْتَصِمُونَ ) استعارة تبعية لـ ( يتقاولون ) . وقيل: معنى الآية نفى علم الغيب عنه ﷺ وردّ اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث فى الملأ الأعلى من التخاصم، كقوله تعالى(٢) ( قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ) وقوله(٣) (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) ولذا قال بعد :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

« إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » وقُرِئَ (إِنَّمَا) بالكسر على الحكاية .

## تنبيهات :

الأول ـ قال الرازيّ: واعلم أن قوله (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب فى النظر والاستدلال، ومنع من التقليد . لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق، يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، وقع فى أعظم أبواب الشقاوة . فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية . وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة .

الثانى ـ قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصام بالتقاول فى شأن آدم عليه السلام

(١) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٥٠ ] . (٣) [ ٦٧ / الملك / ٢٦ ] .

مع الملائكة . وقيل : مخاصمتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم . كما تجرى المناظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه الكرمانيّ في ( عجائبه ) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عنى به ما كان في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد[1] ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحى . بتقدير ( ما كان لى من علم لولا الوحى ) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف . والله أعلم .

وقد جاء ذكر تخاصم الملإ الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد[2] عن معاذ رضى الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نتراءى قرن الشمس . فخرج ﷺ سريعا ، فثوّب بالصلاة . فصلى وتجوز في صلاته . فلما سلّم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إنى قمت من الليل فصليت ما قدّر لى . فنعست في صلاتى حتى استيقظت . فإذا أنا بربى عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتجلى لى كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى . وإذا أردت

---

(١) [ ٢ البقرة / ٣٠ ] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

فتنةً بقوم، فتوفنى غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك.
وقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها وتعلموها .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جعله يقظة فقد غلط . وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذىّ[1] من حديث جهضم بن عبدالله اليمامىّ به ، وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصام المذكور فى القرآن . فإن هــذا قد فسّر . وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ )

[٧٢] ( فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ )

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ » أى نخرّوا له ساجدين تعظيما وتكريما ، إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . ( فإذا ) بدل من ( إذ ) الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصام ، وهذا ما رآه الزمخشرىّ وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء ( اذكر ) وهو الأظهر عندى ، ويعضده القول الثانى فى الآية المتقدمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ )

[٧٤] ( إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ )

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(١) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة ص ، ٤ ـ حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ » أى باستكباره أمرَ الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ )

« قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » أى بنفسى من غير توسط ، كأب وأم «أَسْتَكْبَرْتَ» أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف «أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ» أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ )

« قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانىّ النارىّ أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلٰهية ، واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى اللهَ تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ )

« قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة ومحل الكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ )

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » قال القاشانىّ : الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عن

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانغماس فى الغواشى الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وقّت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البـدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ )

[٨٠] ( قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ )

[٨١] ( إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ )

[٨٢] ( قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ )

[٨٣] ( إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ )

« قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن شوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصفّى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ )

« قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ )

[٨٦] ( قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ )

« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » أى تبعك فى التعزز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة فى الباطل « قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على القرآن أو الوحى . قال القاشانىّ : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالغرض « وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ » قال الزمخشرىّ : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدّعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان[١] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم. فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ[٢] ( قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ )

[٨٨] ( وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ )

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ٣ ـ باب وما أنا من المتكلفين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى: ٥٠ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩ و٤٠ (طبعتنا).

(٢) [ ٣٨ / صٓ / ٨٦ ] .

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أي عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله[1] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) وقوله سبحانه[2] (وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ » أي عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهـذا من أجلّ معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوّة، وخوفهم أمناً، وكونهم ظهورا وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيّه الكريم ، وحقت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٩ ] . (٢) [ ١١ / هود / ١٧ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٣٩ - سورة الزمر

سميت بها لاشتمالها على الآية التى ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمىّ . وهى مكية ، واستثنى بعضهم ثلاث آيات(١) (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ) الخ ذهابا إلى أنها نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة على ماروى . قيل، ورابعة وهى(٢) (ٱللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) حكاه ابن الجوزىّ، وتقدم الـكلام فى مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائىّ(٣) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم .

وكان ﷺ يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٥٣ ] .    (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٢٣ ] .

(٣) أخرجه فى : ٢٢ ـ كتاب الصيام، ٣٤ ـ باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ )

« تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزيله كائن من الله. وقرئ ( تَنزِيلَ ) بالنصب على إضمار فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ )

« إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أى عن شوب الشرك والرياء ، بإمحاض التوحيد وتصفية السر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ )

« أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ، لانفراده بالألوهية « وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى بالمحبة ، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » أى يقولون ذلك احتجاجا على ضلالهم « إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ» لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، سُبْحَٰنَهُۥ ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)

«لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ» أى نزهه عن المماثلة والمجانسة ، واصطفاء الولد . لكون الوحدة لازمة لذاته ، وقهره بوحدانيته لغيره . فلا تماثل فى الوجود ، فكيف فى الوجوب ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ)

[٦] (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)

«خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ» أى بإذهاب أحدهما وتغشية الآخر مكانه. كأنما ألبسه ولفّ عليه «وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته «أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا» أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ » أي ذكراً وأنثى . من الإبل والبقر والضأن والمعز « يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ » أي متقلبين في أطوار الخلقة « فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ » يعني البطن والرحم والمشيمة « ذَٰلِكُمُ » أي الخالق لصوركم ، المكوّر أي المصرف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشىء للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته « ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أي عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ، وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ )

« إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ » أي عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ » أي لأنه سبب هلاكهم « وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ » أي وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثوابا حسنا لطاعتكم .

تنبيه :

في الإكليل : استدل بقوله تعالى ( وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصي . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولي أهل السنة . والقول الثاني وحكاه الآمديّ عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سيان ، وحملوا (العباد) في الآية على المخلصين . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أي لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أي ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ » أي بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أي بما في القلوب من الخير والشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ
نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ،
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ)

[٩] (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟
رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)

« وَإِذَا مَسَّ » أى أصاب « ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ » أى شدة وبلاء « دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ » أى ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلا إليه بالدعاء والتضرع « ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ » أى أعطاه « نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ » أى نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه . فـ ( ما ) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفىّ ، ولما فى ( ما ) من الإبهام والتفخيم ، « وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى يصد الناس عن دينه وطاعته « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ » أى عش به « قَلِيلًا » أى يسيراً فى الدنيا « إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا » أى متعبداً فى ساعاته يقطعها فى السجود والقيام « يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ » أى عقابها « وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ » أى جنته ورضوانه ، أى : أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسى لربه ؟ « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ » أى توحيده وأمره ونهيه فى الثواب والطاعة « وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يستويان .

## تنبيهات :

الأول ـ فى الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل: جوف الليل. وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثانى ـ فى قوله تعالى (يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ) ردّ على من ذمّ العبادة خوفا من النار أو رجاء الجنة . وقال ﷺ[1] ( حولها ندندن ) .

الثالث ـ فى قوله تعالى ( هَلْ يَسْتَوِى ) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذمّ الجهل ونقصه. وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم، أفاده فى ( الإكليل ) .

وفى الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولا بـ(القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشانىّ : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذى رسخ فى القلب وتأصل بعروقه فى النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره فى الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم فى حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعلم . إنما هو أمر تصورىّ وتخيل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعا ، لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغنى من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أى يتعظ بهذا الذكر « أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى العقول الصافية عن قشر التخيّل والوهم، لتحققها بالعلم الراسخ الذى يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى: ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٢٤ ـ باب فى تخفيف الصلاة، حديث رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبىّ ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ » أى للذين أحسنوا بالطاعات فى الدنيا ، مثوبة حسنة فى الآخرة ، لا يكتنه كنهها « وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ » أى بلاده كثيرة . فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان فى وطنه ، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعانى الكثيرة ، أوضحه شراح الكشاف بأن قوله ( للذين أحسنوا ) مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف . لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغى أن يلق فى حرثها بذر المثوبات. وعقب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام فرصة الأعمار ، وترك مايعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها ... بلادى وكُلُّ العالَمين أَقَارِبى

انتهى. « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ » أى على مشاقّ الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان لها « أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ)

« قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أى عن الالتفات إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أى وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم

فى الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام أتمّ من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية فى الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تجعل اللام مزيدة. كما فى ( أردت لأن أفعل ) فيكون أمرا بالتقدم فى الإخلاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ )

[١٤] ( قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى )

« قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى » عن شوب الغير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ، قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ )

« فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضلال ، وأهليهم بالإضلال . أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده، إن كانوا من أهل الجنة « أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ، يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ )

« لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَٰلِكَ »

أى العذاب المتوعد به « يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشريّ : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ )

[١٨] ( ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ )

[١٩] ( أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ )

« وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . و ( فعلوت ) للمبالغة « وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ » أى إيثارًا للأفضل واهتماما بالأكمل . قال الزمخشريّ: أراد أن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلا وأمارة . وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل(١):

* ولا تَكُن مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضا إيثار الأفضل من كل نوعين، اعترضا. كالواجب مع الندب . والعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ » أى أفأنت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلًا .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شَمِّرْ وكن فى أمورِ الدِّينِ مجتهدا *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ )

[٢١] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ )

« لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لابد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلا للدنيا كقوله تعالى(١) ( إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ) (٢)( وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ) أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ )

« أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ » أى وسعه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على بينة ومعرفة،

(١) [ ١٠ / يونس / ٢٤ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ٤٥ ] .

واهتداء إلى الحق . واستعارةُ النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لضد ذلك . وخبر ( من ) محذوف دلّ عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّـهِ » أى من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن الكمالات القدسية. أو من أجل ذكره . فـ( من ) للتعليل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشئها عنه. قال الشهاب : إذا ( قيل قسا منه ) فالمراد أنه سبب لقسوةٍ نشأت منه . وإذا قيل ( قسا عنه ) فالمعنى أن قسوته جعلته متباعدا عن قبوله. وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ( عن ) فى الشواذ. لكن الأول أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله. وهو معناه إذا تعدى بـ (عن) . وذكره تعالى مما يلين القلوب ، فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ )

« ٱللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا » أى يشبه بعضه بعضا ، فى الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِىَ » جمع ( مُثَنًّى ) بمعنى مردّد ومكرر ، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيده ، بما يردعلى قلوبهم منها «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّـهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَٰلِكَ » أى الكتاب، أوالكائن من الخشية والرجاء«هُدَى ٱللَّـهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُوَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ» أى من زاغ قلبه « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ )

« أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائما مقامها فى أنه أول مايمسه المؤلم له . لأن مايتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أعز أعضائه . وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم مايتقى به ، لأن الوجه لايتّقى به . وخبر ( من ) محذوف كنظائره . أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ )

« كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون أن الشر يأتيهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ )

[٢٧] ( وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ )

« فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى بيّنا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيته وأحقيته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به مايهمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المعقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ )

« قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ » أى مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف « لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى العذاب والخزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجلّ تلك الأمثال ، ما مثل به ليتقى من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا » أى للمشرك والموحد رجلين مملوكين « رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المختلفة ، لايزال متحيراً متوزع القلب ، لايدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ » أى : خلص ملكه له ، لايتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالًا . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لايزال متحيراً خائفاً لايدرى أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحدا . فهمّه واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام[١] (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٩ ] .

ٱلْقَهَّارُ ) « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » قال أبوالسعود : تقرير لماقبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى. وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته. وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون فى ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ )

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ » تمهيدلما يعقبه من الاختصام يوم القيامة . وقرئ (مائت ومائتون ) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ )

« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجّوا فى المكابرة والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ )

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ » أى افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ » أى بالأمر الذى هو عين الحق « إِذْ جَآءَهُۥٓ » أى حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه ورده على قائله . أى لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ » أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ )

« وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ » أى جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتقد بشبهة تقابله ، يعنى النبىّ ﷺ ومن تبعه « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » أى الموصوفون بالتقوى التى هى أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ )

[٣٥] ( لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ )

[٣٦] ( أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ )

[٣٧] ( وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ )

« لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى

كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ » أي نبيّه ﷺ أن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف « وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ » يعني الأوثان التي عبدوها من دونه تعالى . وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها لعيبك إياها. كما قال قوم هود[1] ( إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ) « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ » أي من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلًا « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ*وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ » أي يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه . إذ لا راد لفضله ولا معقب لحكمه « أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ » أي ينتقم من أعدائه لأوليائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ، قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ )

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ » لما تقرر في الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه « قُلْ » أي تبكيتا لهم « أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ » أي نفعه وخيره . كلا . فإنها لا تضر ولا تنفع « قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » أي في جميع أمورهم ، لا على غيره . لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهره .

(١) [ ١١ / هود / ٥٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ )

[٤٠] ( مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ )

« قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناصبة الحق « إِنِّى عَٰمِلٌ » أى على مكانتى. فحذف للاختصار، والمبالغة فى الوعيد، والإشعار بأن حاله لاتزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأييده. ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم. وقد أخزاهم الله يوم بدر[١] ( وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ )

« إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مراشدهم «فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ» أى بدلائله «فَلِنَفْسِهِۦ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذ ما عليك إلا البلاغ[٢] ( فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

(١) [ ٢٠ / طه / ١٢٧ ] . (٢) [ ١٥ / الحجر / ٩٤ ] .

« ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية « وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا » أى ويتوفى التى لم يحن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ » أى فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة «وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وهو نوم آخر أوموت «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين « لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ، قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ )

[٤٤] ( قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا، لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٤٥] ( وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ )

«أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالكها لايستطيع أحد شفاعةً ما، إلاأن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذونا له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ » أى فرادى، أومع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى. ولقد بولغ فى الأمرين حيث بيّن الغاية فيهما. فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشمئزاز أن يمتلىء غما حتى ينقبض أديم وجهه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى التجىء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم . والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم . وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى. وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرّع والابتهال على دفع كيد العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ)

[٤٨] (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» أى نزل بهم جزاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٠] (قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

« فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ » أى منى بوجوه الكسب والتحصيل « بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة، فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون[1] ( إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ) « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ، وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ )

[٥٢] (أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك ـ كما قال المهايمىّ ـ أنه تعالى قوىّ بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه فيّاض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ )

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٧٨ ] .

[٥٤] ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

[٥٥] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

[٥٦] ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

« قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى جنَوْا عليها بالإسراف فى المعاصى والكفر « لَا تَقْنَطُواْ » قرئ بفتح النون وكسرها « مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ » أى لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف « إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا » أى لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجبّ ما قبله « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى توبوا إليه « وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ » أى استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ » أى قصرت « فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ » أى فى جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ » أى المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و ( أَن تَقُولَ ) مفعول له بتقدير مضاف . أى : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله . أى أنذركم وآمركم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله فى شروح ( الكشاف ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ )

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي » أى للإسلام « لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ » أى : من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر والتعلل بما لا يجدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ )

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ )

[٦٠] ( وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ )

« بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك ، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما ينالهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيقىّ . أو لما يلحقهم من الكآبة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن الإيمان والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)

«وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ» أى بفوزهم وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة «لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ» أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

«لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أى هو وحـــده يملك أمرها وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها «وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ» أى خصّه بالعبادة «وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» أى الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر ( لو أشركت ) لأن ( أن ) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بعدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية قبح الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلة للعمل مطلقا، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيدا بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحبط فى الحقيقة . وأنه إنما ترك التقييد به اعتمادا على التصريح به فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى[1] (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى ماقدروا عظمته تعالى حق عظمته، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام. فإن تبديل الأرض غير الأرض، وطىّ السموات كطى السجل ، أهون شىء عليه . وفى (القبضة واليمين) مذهبان معروفان. مذهب السلف، وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله ( أى ما يؤول إليه من حقيقته ) لايعلمه إلا الله . وهكذا قولهم فى جميع الصفات التى نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢١٧ ] .

المذهب الثانى ـ القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره فى كلام العرب. وإن الإطلاق لاينحصر فى الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز فى المفردات، استعيرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه فى المركب ، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشرىّ وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ فى الصور سبب موت الكل تارة، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ )

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » أى من خواص الملائكة. أو من الشهداء. روى ذلك عن بعض التابعين. وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت ثُنْيَتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لايصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» أى وقوف ، يقلّبون أبصارهم دهشا وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

« وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلّى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله فى صحيفته.

أو ( ٱلْكِتَٰبُ ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه. أو هو تمثيل. وجوه نقلها الشهاب «وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ» أى الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم. أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لاطّلاعهم على أحوالهم . وجوّز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى، تنويهاً بشأنهم ، وترفيعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد « وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفّون جزاء أعمالهم ، لاينقص منها شىء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ )

[٧١] ( وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ )

[٧٢] ( قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ )

[٧٣] ( وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ )

« وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا » أى أفواجا متفرقة بعضها فى أثر بعض، على تفاوت ضلالهم وغيهم، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا» أى ليدخلوها، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ » أى الموكلون بتعذيبهم «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ » أىْ مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة « زُمَرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » أى من دنس المعاصى، وطهرتم من خبث الخطايا « فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ » قال السمين : فى جواب ( إِذَا ) ثلاثة أوجه: أحدها ـ قوله ( وَفُتِحَتْ ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جىء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى ـ أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على زيادة الواو أيضا. الثالث ـ أن الجواب محذوف. قال الزمخشرى : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجىء بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدره المبرد : سعدوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله ( وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتحة أبوابها. كما صرح بمفتحة حالا من ( جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ) وهو قول المبرد والفارسىّ وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية. لأن أبوٰب الجنة ثمانية . وردّه فى ( المغنى ) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب. وهى جمع لا يدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلة عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى ـ على قول مثبتها ـ الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد. ذهابا إلى أن بعض

العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذانا بأن السبعة عدد تامّ ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على ألسنة رسله « وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آبائهم . فكأن الأعمال آباؤهم . كما قيل : * وأبى الإسلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ * وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ » أى يتبوأ كل من جنته الواسعة ، أىّ مكان أراده « فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا « وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ » أى الملائكة السماوية حافين فى جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محدقين به . وتقدم فى تفسير آية[1] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم » أى بين الخلائق « بِٱلْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى على ماقضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥٤ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٠ – سورة غافر

وسميت ( المؤمن ) قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون ، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه . وعما أخذوا به ، وهي من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطَّول . وهي مكية وآيها ثمانون وخمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ )

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » الكلام فى مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف فى ( ألم السجدة ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ )

[٤] ( مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ )

« غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ » أى المن والفضل « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ما يخاصم فى حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشرىّ : سجل على المجادلين فى آيات الله بالكفر . والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله(١) ( وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ » فأما الجدال فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقوله ﷺ(٢) ( جدال فى القرآن كفر ) وإيراده منكرا ، تميز

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥ ] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٧٤٩٩ ( طبعة المعارف ) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فمآلهم إلى الزوال والنفاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ )

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ » أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم « مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من ( الأخذ ) بمعنى الأسر . والأخيذ الأسير « وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المتقرر بذاته « فَأَخَذْتُهُمْ » أى بالعذاب الدنيوىّ المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ )

« وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » قال[١] ابن جرير : أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

[٨] ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[٩] ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ، وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[١٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

«ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقدسبق فى تفسير آية[١] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فراجعه «وَمَنْ حَوْلَهُۥ» يعنى الملائكة المقرّبين « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ » أى: ويقرّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لايستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم، مع جلائه، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » فإن المشاركة فى الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة . وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥٤ ] .

فى موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيّك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليتم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزاءها « وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى : لبغضه الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضكم لبعض . وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تعذبون كما قال تعالى[1] ( يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم . فقد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيآتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفّر « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » أى تدعون على ألسنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتوّاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ )

« قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » أى أنشأتنا أمواتا مرتين . وأحييتنا فى النشأتين كما قال تعالى[2] ( وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ) قال قتادة : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا . ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها . ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان « فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا » أى : فأقررنا

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٢٥ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٨ ] .

بما عملنا من الذنوب فى الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أى : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل. قال الزمخشرىّ: وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ، وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ، فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ )

[١٣] ( هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ )

« ذَٰلِكُم » أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ » أى بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم[١] ( أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ) وإيمانكم بالشرك « فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ » أى فالقضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوّه وكبريائه . فلا يمكن أحدا ردّ حكمه وعقابه « هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ » أى من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا » أى مطرا. وإفراده بالذكر من بين الآيات، لعظم نفعه، وتسبب حياة كل شىء عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أى. وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

---

(١) [ ٣٨/ ص/ ٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ )

[١٥] ( رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ )

« فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله[1] ( ذِى ٱلْمَعَارِجِ ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه وكمالاته ، غير المتناهية «ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ» أى الوحى والعلم اللدنّى الذى تحيا به القلوب الميتة «مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ» أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ، لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ )

[١٧] ( ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ )

« يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو بناء «لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ» أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله « لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاقى والبروز . فيجيب هو

(١) [ ٧٠ / المعارج / ٣ ] .

وحده « لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ » أى المتفرد بالملك « ٱلْقَهَّارِ » أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى بإيصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ، مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ )

« وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ » أى الواقعة القريبة « إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ » أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارّها ، فتصير لدى الحلوق « كَـٰظِمِينَ » أى ممتلئين غمّا ، بما أفرطوا من الظلم « مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ » أى قريب يهتمّ لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم « وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ )

[٢٠] ( وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ )

[٢١] ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ )

[٢٢] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ )

[٢٣] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ )
[٢٤] ( إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ )
[٢٥] ( فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ )

« يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ » أي نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى مالا يحل « وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ » أي تكنه من الضمائر والأسرار « وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ » أي بالعدل « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ » أي لأنهم لا يقدرون على شيء « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ » يعني حصونهم وقصورهم وعددهم « فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ » أي بآيات نبوته « مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ » أي: قالوا أعيدوا عليهم القتل، كالذي كان أولا. واستبقوا نساءهم للخدمة «وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ » أي: وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه، إلا في ضياع . إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ )

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أى ماأنتم عليه من عبادة الأصنام « أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ » أى فساد مملكتى. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ )

«وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ» أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه ومعزّ أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ، وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ )

« وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ » أى من فرعون وملئه «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ » أى من عذاب الدنيا إن تعرضتم له. وقد أشار الزمخشرىّ إلى مافى طىّ هذا القول من اللطائف والأسرار، بما ملخصه: إن هذا المؤمن استدرجهم فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من عندمَنْ تنسب إليه الربوبية، ببينات عدة لا ببينة واحدة. وأتى بها معرّفة. معناه البينات العظيمة التى شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم، فقال : لايخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا. فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقا فيصبكم ، إن تعرضتم له، بعض الذى يعدكم. وإنما ذكر (بعض) فى تقدير أنه نبي صادق ، والنبيّ صادق فى جميع ما يَعِدُ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة. فجاء بما هوأقرب إلى تسليمهم، وأدخل فى تصديقهم له، ليسمعوامنه ولايردوا عليه صحته . وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق فى جميع مايَعِدُ . ولكنه أردفه ( يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ) ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلا عن أن يكون متعصبا له . وتقديم (الكاذب) على ( الصادق ) من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى[1] ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ*وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ولايضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، مافى قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى . « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » قال الزمخشريّ : يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فتتخلصون منه. وأنه لوكان مسرفا كذابالما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ )

(١) [ ١٢ / يوسف / ٢٦و٢٧ ].

« يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى عالين وقاهرين، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ » أى ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله. إذ البأس السماوىّ من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَآ أَهْدِيكُمْ » أى بإراءة رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ، بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ)

[٣١] (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم » أى من قتله « مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ » أى الطوائف الهالكة بالتكذيب « مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ » أى جزاءهم من الغرق « وَعَادٍ » أى من الريح العقيم « وَثَمُودَ » أى من الصيحة «وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ» أى من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجبه « وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ » أى فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ)

« وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أى عذابه . سمى بذلك لما جاء فى حديث[1] ( إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ،

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث .

فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا ) أى : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهلُ الجنة أهلَ الجنة وأهلُ النار أهلَ النار . وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار[1] ( أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ ) ومناداة أهل النار أهل الجنة[2] ( أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ) . واختار البغوىّ وغيره ؛ أنه سُمّى لمجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ )

« يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » أى ذاهبين فرارًا من الفزع الأكبر[3] ( كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ) « مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه، من مانع، لتقرر الحجة عليكم « وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ » أى يزيغه عن صراط ربه « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ )

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ» أى من قبل مجىء موسى بالحجج البينة

(١) [ ٧ / الأعراف / ٤٤ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٥٠ ] .
(٣) [ ٧٥ / القيامة / ١١و١٢ ] .

والبراهين النيّرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله(١) ( ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ) « فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ » أى مع ظهور استقامته الكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُّرْتَابٌ » أى شاكّ مع ظهور لوائح اليقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ )

« ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ » أى برهان « أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » أى بطر للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتياب والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ )

[٣٧] ( أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ )

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا » أى قصرًا عالياً ظاهراً لكل أحد

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٩ ] .

« لَعَلِّيَ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى طرقها « فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه « وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا » قال ابن جرير[1] : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدّعى ، من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبّره وإسرافه وارتيابه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيله ، مما أراده من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ )

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ )

« يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ » أى تمتع يسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ » التى يوصل إليها سبيلى « هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ )

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير تقدير وموازنة بالعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشريّ : قوله ( بِغَيْرِ حِسَابٍ ) واقع فى مقابلة ( إِلَّا مِثْلَهَا ) يعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق. فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَيَـٰقَوْمِ مَالِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ )

[٤٢] ( تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ )

«وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ*تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ » أى بوجوده علم، إذ لاوجود له «وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ » أى الغالب الذى يقهر من عصاه « ٱلْغَفَّـٰرِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس من أطاعه، بأنواره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ )

[٤٤] ( فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ )

« لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ » أى الذى تدعوننى إلى عبادته ، ليس له دعوة فى الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا فى الآخرة لدفع أهوالها ، على ماقاله المهايمىّ . أو لا دعوة له فى الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله القاشانىّ. وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارةعن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق ( لَا جَرَمَ ) عند البصريين أن يكدن ( لَا ) ردًّا لما دعاه إليه قومه و ( جَرَمَ ) بمعنى كسب . أى وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون ( لَاجَرَمَ ) نظير ( لابد ) من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول ( لابد لك أن تفعل ) والبد من التبديد الذى هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك ( لَا جَرَمَ ) معناه لاانقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هى باطلة أبدا . هذا مايستفاد من ( الكشاف ) .

وفى (الصحاح) : قال الفرّاء : ( لَا جَرَمَ ) كلمة كانت فى الأصل بمنزلة (لامحالة، ولابد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة ( حقا ) فلذلك يجاب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لاجرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام فى (المغنى) فى بحث . والجلال فى ( همع الهوامع ) أثناء بحث إن والقسم، فانظرها . «وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّـهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى فى الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ» أى من النصح عند معاينة الأهوال ومايحيق بكم «وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّـهِ » أى وأسلم أمرى إليه وأجعله له وأتوكل عليه، فإنه الكافى من توكل عليه « إِنَّ ٱللَّـهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ » أى فيعلم المطيع منهم والعاصى، ومن يستحق المثوبة والعقوبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( فَوَقَىٰهُ ٱللَّـهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ، وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ )

« فَوَقَىٰهُ ٱللَّـهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ » أى فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروهَ ما كان فرعون ينال بهأهل الخلاف عليه، من العذاب والبلاء، فنجاه منه « وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ » أى بفرعون وقومه « سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ » يعنى الغرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ )

[٤٧] ( وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ )

[٤٨] ( قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ )

«ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم. على أن ( ٱلنَّارُ ) مبتدأ وجملة ( يُعْرَضُونَ ) خبره . وعلى الثانى ، فالنار خبر لمحذوف وهو خبر العذاب السيء . أو هى بدل من ( سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائما. وا كتفى بالطرفين المحيطين ـ الغدوّ والعشىّ ـ عن الجميع. وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ. وقاناه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطىّ : وفى ( العجائب ) للكرمانىّ: فى هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر. لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ » أى هذا العرض مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ » وهو عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ » أى يتخاصمون فيها ، الأتباع والمتبوعون «فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» أى أتباعاً كالكرهين « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا «إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النار النارَ، ولا معقب لحكمه. أو بأن قدّر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه، ولا يتحمله عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب بما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ » أى لما أيسوا من التخفيف عند الحاجّة « ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألمَ يوم وشدّته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ)

«قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ » أى المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُوا۟ بَلَىٰ » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ » أى إن كان ينفعكم ، وهيهات « وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ)

« إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوّهم واستئصاله عاجلا ، أو بإظفارهم بعدوّهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعيم الأبدىّ والحبور السرمدىّ . و ( ٱلْأَشْهَـٰدُ ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلما . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ )

« يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ » قال ابن جرير [١] : ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل. وذلك أن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم فى الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ، بأن يقولوا [٢] (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة، وهى البعد من رحمة الله وشر ما فى الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ )

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ » . أى ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه كما كذبت قريش « وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ )

« هُدًى » أى بيانا لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى لذوى الحجى والعقول منهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .
(٢) [ ٦ / الأنعام / ٢٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ )

« فَٱصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرك على من خالف ، لا خلف له وهو منجزه . واذكر نبأ موسى وفرعون « وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ » كقوله تعالى(١) « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ، فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : إلا تكبّر عن الحق وتعظم عن التفكر ، وغمط لمن جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوّة « مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ » قال ابن جرير(٢) : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأمانىّ . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغى تلك العظمة ، لأن الله مذلّهم « فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ » قال ابن جرير(٣) :

(١) [ ٥٠ / ق / ٣٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أى فاستجر بالله يامحمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شىء «إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم.

تنبيه :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعيذ بالله من فتنته. قال ابن كثير: وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد. وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

«لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ» أى : لإنشائهما وابتداعهما من غير شىء ، أعظم من خلق البشر «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أى لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يجعلون إعادة الشىء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

«وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ» أى مايستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لايتأمّل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ماشاء، ويؤمن به ـ والبصير الذى يرى بعينيه ما شخص لها ويبصره . وذلك مثل للمؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيتفكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم « وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكّروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ )

« إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بمجيئها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لايصدقون بمجيئها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ )

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدونى أثبكم . قال الزمخشرىّ : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدلّ عليه قوله تعالى « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلّاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له. لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة ، مجازا أو مشاكلة . وإنما أوّل به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جوّز أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازا ، لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها فخيم . قال الشهاب : ولو قيل لا حاجة إلى التجوّز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوّز ـ لكان أحسن . انتهى .

وعلى الوجه الثاني ـ وهو أن المراد بالدعاء السؤال ـ اقتصر كثير من المفسرين . قال المهايميّ ( أَسْتَجِبْ لَكُمْ ) لأن الدعاء من العبد غاية في التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة . وإذا لم يستجب له في الدنيا عوّضه في الآخرة. ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال. اه . وقال القاشانيّ: الآية في دعاء الحال. لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعوّ به خير له أم لا ، دعاء المحجوبين. وأما الدعاء الذي لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداده لقبول ما يطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله ، وأناب بالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم في آية(١) ( أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ) فوائد تناسب هذا المقام ، فلتراجع. ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقتضي شكره بالعبادة ، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ )

[٦٢] ( ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ )

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ » أي الله الذي لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا تنبغي عبادة غيره ، هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ،

(١) [ ٢ / البقرة / ١٨٦ ] .

ما فاتكم من القوى فى العمل بالنهار «وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا» أى أن يبصر فيه أو به لتتحركوا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما «إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ» أى ليشكروه بعبادته «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ* ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ» أى عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

«كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ» أى من الأمم المتقدمة الهالكة. أى فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتم محجتهم فى الضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا» أى تستقرون عليها وتسكنون فوقها «وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً» أى مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم. وقد فسّر (البناء) بالقبة المضروبة. لأن العرب تسمّى المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كريتها. قاله الشهاب «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» أى بجعل كل عضو فى مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته «وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ» أى لذيذات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ» أى الذى لا تصلح الربوبية إلا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

« هُوَ ٱلْحَىُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها « لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشركوا فى عبادته شيئاً « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .

قال ابن جرير[1] : وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال ( لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ) أن يتبع ذلك ( ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ) تأولا منهم هـذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ )

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ » أى يبقيكم لتبلغوا أشدكم ، فتتكامل قواكم « ثُمَّ لِتَكُونُواْ » أى إذا تناهى شبابكم وتمام خلقكم « شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا « وَلِتَبْلُغُوٓاْ » أى ونفعل ذلك لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميقاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكى تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى ( البقرة ) الكلام على هذه الآية مطوّلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ )

[٧٠] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٧١] (إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ )

[٧٢] (فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ )

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى الغىّ

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ » أى بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ . قال المهايمىّ : لدفعهم برْد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ » أى يحرقون . قال المهايمىّ : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ )

[٧٤] ( مِن دُونِ ٱللَّهِ ، قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ )

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا » أى غابوا فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضلالهم استعارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم « بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا » أى ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانىّ : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم فى عبادته ، ليس بشىء ، فضلا عن إغنائه عنهم شيئاً « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ » أى أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ )

« ذَٰلِكُم » أى العذاب « بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ » أى بسبب فرحكم فى الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصى ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأشر والبطر والخيلاء . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ )

« ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » أى منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ )

« فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ، وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ » أى من العذاب والنقمة « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل أن يحل بهم ما يحل « فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ، البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ » أى لتقف على ما وفينا لهم من وعد النصر إياهم فى الدنيا « وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » أى لمكان الطول . مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشيء يعتبر بشكله « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن

يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم فى طلب ماقص عنهم من آية[1] ( وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ) الآية ، بأن الإتيان بذلك مردّه مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى[2] ( مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ) وقال تعالى[3] ( أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ) « فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة، بعد إتيانها « قُضِىَ بِٱلْحَقِّ » أى من المؤاخذة، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى فى دعواهم الشريك ، وافترائهم الكذب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ )

[٨٠] ( وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ )

[٨١] ( وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ )

[٨٢] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ )

« ٱللَّهُ » أى الذى لاتصلح الألوهية إلا له «ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ» أى مسخرة

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٩٠ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٠٦ ] .

(٣) [ ٢٩ / العنكبوت / ٥١ ] .

« لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف « وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ » أى بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ » أى فى طريق البحر « تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ » أى دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته « فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ » أى من الحصون والقصور والمبانى والعدد والعدد « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى مما لا يدفع به العذاب الأرضىّ ولا السماوىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ )

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ)

[٨٥] ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ، سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ )

« فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » أى الخالى عن نور الهداية والوحى ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسلهم لاستصغارهم بما جاءوا به ، فى جنب ماعندهم من العلم الوهمىّ «وَحَاقَ بِهِم» أى من عذاب الله « مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى جزاؤه «فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ » أى مضت فى خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيمانا فى تلك الحال « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ » أى وهلك ، عنـد مجىء بأسه تعالى ، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم. ففاتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤١ – سورة فصلت

(حمٓ السجدة)

سميت بها لاشتمالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة المظاهر بالكلية . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ . وهي مكية . وآيها أربع وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ )

« حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » قال أبوالسعود : إن جعل ( حمٓ ) اسماً للسورة، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره ( تَنزِيلٌ ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسرودا على نمط التعديد . وقوله تعالى ( مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ) متعلق به ، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو ( تَنزِيلٌ ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ )

« كِتَٰبٌ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى[١] ( وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ) « فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ » أى بينت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا » أى بلسان عربى يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب ( قُرْءَانًا ) على المدح ، أو الحالية من ( كِتَٰبٌ ) لتخصصه بالصفة ، أو من ( ءَايَٰتُهُۥ ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ )

« بَشِيرًا » أى للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه، بالنعيم المقيم «وَنَذِيرًا» أى للمعرضين عنه بخلود الأبد فى نار جهنم « فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يتدبروه « فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى لايصغون له ، عتوًّا واستكبارا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ )

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى أغطية متكاثفة ، لايصل إليها شىء مما تدعونا إليه، من التوحيد وتصديق مافى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعد والوعيد « وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ » أى صمم ، لانسمع ذلك، استثقالا له وكراهية «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » أى فلا تواصل ولا تلاقى على ماندعى إليه « فَاعْمَلْ» أى على ماتدعو إليه، وانصب له « إِنَّنَا عَامِلُونَ » أى على ما ألفينا عليه آباءنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ )

[٧] ( الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ )

[٨] ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ )

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ » أي بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَٱسْتَغْفِرُوهُ » أي بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أي لا يزكون أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا مارجحه ابن جرير[1] ، ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضميمة الإيتاء . وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه . وعن قتادة : إن الزكاة قنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير[2] : وقد كان أهل الردّة ، بعد نبيّ الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة ، فوالله ! لا تُغْصَب أموالنا . قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله ! لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ » أي بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أي عليهم . أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] ( قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[١٠] ( وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ )

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ » أي في مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وعلمهم بصلة الموصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذعنت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهودا لها « وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا » أى أكفاء ( وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ) « ذَٰلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالا ثوابت « مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها « وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ » أى مستوية بالامتزاج والاعتدال ، للطالبين للأقوات والمعايش . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات . فحدّه ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ )

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ » أى قصد إلى إيجادها . و ( ثم ) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لا زمان هناك . قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[١] : أى ثم ارتفع إلى السماء ، أى بلا تكييف ولا تمثيل « وَهِىَ دُخَانٌ » قال القاشانىّ : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر الكثيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى : ( دخان ) أمر ظلمانىّ . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصغرة التى ركبت منها . وأصله للرازىّ حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقمرا ، وأحدث صفة

---

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لامعنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال: فهذا ماخطر بالبال فى تفسير الدخان . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك فى تفسير هذه الآية ( وَهِيَ دُخَانٌ ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى[١] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقا لقوله تعالى ( فَفَتَقْنَٰهُمَا ) أى فصلناها ، فصارتا كرات من الماء فى يومين . أى ألفى سنة. لقوله تعالى[٢] ( وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) وفى هذا الوقت كان عرشه على الماء . أى كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ » قال القاشانىّ : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادها ، فوجدتا فى الحال معا . كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع لم يلبث فى امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لاقول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير[٣] : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئا بما خلقت فيكما . أما أنت ياسماء ، فأطلعى ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت ياأرض فأخرجى ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشققى عن الأنهار ( قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) أى جئنا بما أحدثت فينا من خلقك ، مستجيبين لأمرك ، لانعصى أمرك . انتهى . يعنى أن إثبات المقاولة مع السماء والأرض من المجاز . إما بالاستعارة المكنية ، كما تقول (نطقت

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٠ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٧ ] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الحال ) فتجعل الحال كإنسان يتكلم فى الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذى هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالةالسماء والأرض التى بينهما وبين خالقهما ، فى إرادة تكوينهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذى جبروت له نفاذ فى سلطانه ، وإطاعة مَن تحت تصرفه من غير تردد . وقددّ غير واحد قول من ذهب إلى أن فى الجمادات تمييزا ونطقا على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال فى (الفِصَل) : وأما قوله تعالى ( قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول فى اللغة التى نزل بها القرآن ، إنما هودفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذ لاشك فى هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته ، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذ هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى ( أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال فى ( ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ) فإنهما لما نزلا ـ وهما من الجمادات ـ منزلة العقلاء ، إذ أُمرا وخوطبا على طريق المكنية أوالتمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحا . وهما مؤولان بـ ( طائع وكاره ) لأن المصدر لايقع حالا بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولامطلقا . وإنما قال (طَآئِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور . وكان مقتضى الظاهر ( طائعات ) أو ( طائعتين ) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ )

« فَقَضَٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أى أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان . قال المهايمىّ : ولم يجعل لمادتّها يوما . لأنها كادة الأرض . فدخلت فى يومها « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا » أى ما أمر به فيها ودبّره من الملائكة والخلق الذى فيها ، وما لا يعلم « وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ، مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أى من الشياطين أن تسترق أخبارها « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ )

« فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ » أى عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شىء ، الذى اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » لأنكم مثلهما فى العناد ، ومثل عاد فى الاستكبار ، ومثل ثمود فى استحباب العمى على الهدى .

قال ابن جرير(١) : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشىء وغيّره عن هيئته . وقيل فى هذا الموضع : عُنِىَ بها وقعة من الله وعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ، قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ )

[١٥] ( فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ )

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

[١٦] ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ )

* إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » قال الزمخشرىّ : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتوّ والإعراض كما حكى الله تعـالى عن الشيطان[١] ( لَأٓتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة . وتقول ( استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة ) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ماعرف فى مثله. والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الـكناية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الـكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس، كما ذكر فى آية الـكرسىّ «أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا» أى إرسال رسول « لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً » أى من السماء بمـا تدعوننا إليه « فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ » أى من عبادة الله وحده « كَٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتقى عذابه « وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا » أى التى هى أقوى الدلائل « يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعتوّهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبـوبها « فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الأخرى . كما لم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازىّ : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٧ ] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والـكدر يقابله الصافى . ثم أطال الرازىّ فى الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافىّ لا ذاتىّ . وإلا لـكان اليوم الذى يراه المنجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس . وكذا ما يرونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عنـد بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدّة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد. فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ )

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ » أى بيّنّا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة . وأمرناهم أن يقتفوا الهدى « فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى من الآثام ، بكفرهم بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ )

« وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ » أى يخشون ربهم ويخافون وعيـده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ )

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يوم يجمع، لمزيد الفضيحة،

بين الأولين والآخرين، أعداء الله المشركون والجاحدون، إلى النار فيجيء أولهم على آخرهم، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ )

« حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا » أى فبالغوا فى إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أى بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها «وَأَبْصَـٰرُهُمْ» أى بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاختاروها «وَجُلُودُهُم» أى بأنهم باشروا المعاصى ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء « بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ، قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

«وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ» أى المدركة ألم العذاب الذى لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا» أى بما يوجب إيلامكم «قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ»أى بهذه الشهادة «ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ» أى أنطق كل شىء من الحيوان. فهو من العامّ الذى خصه العقل، كقوله تعالى[١] (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى كل شىء من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته. وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به فى الدنيا ، بتغير أشكالها ونحوه. مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء فى الآخرة . فالنطق مجاز

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٨٤ ] .

عن الدلالة . قال القاشانيّ : معنى ( شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُم ) أى غيرت صور أعضائهم ، وصُوِّرت أشكالها على هيئة الأعمال التى ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت ( أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ) إذ لا يخلو شىء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازيّ : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطا للحياة ، ولا لشىء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازيّ : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب الكنايات كما قال[1] ( وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ) وأراد النكاح . وقال[2] ( أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ) والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيدا شديدا فى الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية فى الترجيح الذى يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة فى أحدهما ، مجازا فى الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغيّ الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه . وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغيّ .

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٤٣ ] و [ ٥ / المائدة / ٦ ] .

ويقال : مابيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عامّ ، فلا يخلو إماأن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التىهى الفاعلة ، شهادة باطلة . إذهى شهادة غير شاهد. والشهادة هنايرادبها الإقرار . فتقول اليد : أنافعلت كذا وكذا . وتقول الرِّجل : أنامشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقيةتنطق مقرّة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أوالبعض . فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريدبه البعض ، فهو بالفرْج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما ـ أنالجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرْج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر ـ إنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرْج . فكنى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى (١) ( فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ) والنخل والرمان من الفاكهة ، قلت فى الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفضيلٍ لهما فى الشكل أوفى الطعم ، والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة ، إنما هى تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية. لأن معصية السمع إنما تكون فى سماع غيبة ، أو فى سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ماجرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون فى النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها . وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أوالرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغى أن تخص بالذكردون

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ٦٨ ] .

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد ماذهبت إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبى الحديد فى (الفلك الدائر) بما محصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين، إذا كان بين لفظتى الجلد والفرج أو معناهما مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فعبر عن الكل بالبعض ، وهو بعيد جدا . انتهى .

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى . وذلك لأن الجلود تصدق على ماحواه الجسم من الأعضاء والعضلات التى تكتسب الجريمة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربى على الجميع . وقد عهد فى مفسرى السلف اقتصارهم فى التأويل من العامّ على فرده الأهم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن ( سبيل الله ) يصدق على كل مافيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفى غيره . وهذه فائدة ينبغى أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحلّ بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلٍّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ )

« وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . فـ ( أَن يَشْهَدَ ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو فى محل نصب. وفى الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغى أن يتحقق ، أنه لايمر عليه حال إلا وعليه رقيب، كما قال أبو نُوَاس[1] :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما ، فلا تَقُلْ خلوتُ . ولكن قل : علىّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أن ما يَخفَى عليك، يغيبُ

« وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّـهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لايعلم كثيرا ، وهو ما عملتم خفية . فما استترتم عنها واجترأتم على المعاصى . وإذا كان ( أَن يَشْهَدَ ) مفعولا له ، فالمعنى ما استترتم بالحجب ، لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا ، فلذا سعيتم فى الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ )

« وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ » أى أهلككم بالجراءة على مخالفته فى الدنيا ، ومجادلته فى القيامة « فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ » أى لأعمال النجاة والدرجات فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ، وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ )

« فَإِن يَصْبِرُوا۟ » أى على النار « فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ » أى يسألوا العتبى وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ » أى المجابين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه ( طبعة ١٩٥٣ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ )

[٢٦] ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ )

« وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسّنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلة . فالطرفان كناية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشيء الذى بين يديك تقلّبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذى خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلة ، وما خلفهم الدنيا لمضيّها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانىّ فى تفسير الآية : أى قدرنا لهم أخداناً وأقراناً من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم فى المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت ( فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ) أى ما بحضرتهم من اللذات البهيمية والسبعية ، والشهوات الطبيعية ( وَمَا خَلْفَهُمْ ) أى من الآمال والأمانىّ التى لايدركونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلهىّ ، بالشقاء الأبدىّ « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم » من المكذبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ستروا زينة أدلة القرآن عن أتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية « لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أى إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه « وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ » أى ائتوا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له . أو ما لا معنى له « لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » أى تصدّون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، التى يغلب بها عقولكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ )

[٢٨] ( ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ، جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ )

« فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ » أى المكث الأبدىّ . وفى النظم الكريم من البديع ، التجريد . وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة ، آخر مثله ، مبالغة فيها. لأنها نفسها دار الخلد . وجعله للظرفية الحقيقية، تكلفٌ لا داعي له . مع أن المذكور أبلغ. قاله الشهاب « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ » أى ينكرون أو يلغون . وذكر الجحود الذى هو سبب اللغو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ » قال القاشانىّ : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران، بسببهم. وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم، وأنزل مراتبهم . كما ترى مَن وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرّد عليه ويتغيّظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرّق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ » أى وحّدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » أى فى الدنيا، بإلهامهم. أو عند الموت، أو حين البعث «أَلَّا تَخَافُواْ» أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُواْ » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإنا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفزع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية[١]

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٣ ] .

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ والتنزيل يفسر بعضه بعضا . أو الآيتان في مقامين وبشارتين . وفضله تعالى أوسع، وجوده أعم وأشمل. قال القاشاني: وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي، والإيمان اليقيني، والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة في الطريقة إليه. غير نا كثين في عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين في عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ، بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم . انتهى. وقوله تعالى «وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أي في الدنيا، حال الإيمان بالغيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

[٣٢] ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

«نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ» أي أحباؤكم في الدارين. للتناسب بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة في الظلمة والكدورة . قال ابن كثير : أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا قرناءكم في الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم في الآخرة . نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور . ونجاوزكم الصراط المستقيم. ونوصلكم إلى جنات النعيم. وقال الرازي : معنى كونهم أولياء للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية . كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح، بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة، حاصل من جهات كثيرة معلومة، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا ، فهى تكون باقية فى الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة. كما قال ﷺ[1]: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفىّ ومنزع فلسفىّ ، فيه شية من الرقة « وَلَكُمْ فِيهَا » أى فى الآخرة « مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » أى تتمنون « نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ » أى إكراما معدًّا لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

---

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بى ، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى لاأحد أحسن مقالا ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى فى التوحيد .

لطائف :

الأولى ـ قال القاشانىّ : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل، لكونه أشرف المراتب، ولاستلزامه الكمال العلمىّ والعملىّ . وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .

الثانية ـ فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعما كانوا يقولونه من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات. فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى إثر ماسبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : كامل وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة مالأجلها يصير كاملا فى ذاته. فإذا فرغ من هذه الدرجة، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ) الآية .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ، ونصيبا وافيا من العلوم الإلهية ، عرف أنه لاترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازىّ .

(١) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] . و [ ٤٦ / الأحقاف / ١٣ ] .

الثالثة ـ يدخل فى الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل المأثورة . لأن الدعوة الصحيحة هى الدعوة النبوية. ثم ما انتهج منهجها فى الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة ـ فى الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعـالى ـ على ما قرره الرازىّ ـ لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة ـ احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة، بهذه الآية . وقال: إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى . والمسألة معروفة بسطها الغزالىّ فى ( الإحياء ) .

وللإمام ابن حزم فى ( الفِصَل ) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس فى قول المسلم ( أنا مؤمن ) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعـده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول ( أنا مؤمن إن شاء الله ) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائـكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عندنا فى هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى ( وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ) ولا نعمة أوكد، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطعا عند الله تعالى، فى وقتى هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم ) وبين قوله ( أنا أسود وأنا أبيض ) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيهـا . وليس هذا من باب الامتداح والتعجب فى شىء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى[1] ( قُولُوا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

(١) [ ٢ / البقرة / ١٣٦ ] .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح. لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه ( مسلم مؤمن ) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هـذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إنى مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسله) أى صدقت. وأما من قال فقل إنك فى الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلابد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة . إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا فى الدنيـا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندرى ماذا نكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ )

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» أى لكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة. والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتى هى أحسن منها، وهى الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا . أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو ( ادْفَعْ بالحسنة ) إلى الأبلغ ـ لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ فى الحمل والحث على ما ذكر. لأنه يومئ إلى أنه

مهم ينبغى الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشانىّ : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لاتندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطا إلى مقام النفس ، متبعا للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقيا لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلا له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسببا لازدياد الشر ، معرضا عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكّنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وانخرطت فى سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولىّ المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ )

« وَمَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ » أى على تجرع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقا بالعلم والعفو « وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكمال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكمال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ )

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى وإما

يلقين الشيطان فى نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه ، فاستجر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنابه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير : قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى سورة الأعراف وهو قوله تعالى(١) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفى سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه(٢) ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سجدة]

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ » أى حججه تعالى على خلقه ، ودلالاته على وحدانيته وعظيم سلطانه « ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ » أى اختلافهما ، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه « وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ » أى نورها وإشراقهما وتقدير منازلها ، واختلاف سيرهما فى سمائهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم، فهما مخلوقان « وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تفردونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشركوا فى طاعته أحدا . لأنها لا تنبغى لأحد سواه .

تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق فى ( المهذب ) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها فى القرآن ، بخلافها . كذا فى ( الإكليل ) .

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٩٩و٢٠٠ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٩٦ـ٩٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾

« فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا » أى عن عبادته كبرا وعتوا « فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » أى لا يملّون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[٤٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[٤١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لعشب فيها ولا نبات ولا زرع « فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » أى اهتزت بالنبات وتحركت بزينته ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة، فأخرج منها النبات، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها « لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيغون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزيهم .

تنبيه :

شملت الآية من يضع الكلام فى الآيات على غير مواضعه ، كما فسّرها ابن عباس .

قال فى ( الإكليل ) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ » أى بهذا القرآن « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى فهم هالكون . فالخبر محذوف . أو الجملة بدل من جملة ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا ) « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ » أى منيع محمىّ عن التغيير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

« لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ » أى لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

قال القاشانىّ : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما فى كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد فى تأويله ، ويغيّرونه بالتحريف لكونه ثابتا فى اللوح محفوظا من جهة الحق. كما قال(١) ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ) وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه فى حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن مابين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل فى كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية مابين يديه ، والآتية ماخلفه. أو العكس

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩ ] .

كما مرّ « تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » قال ابن جرير(١) : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ )

« مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إلّا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ )

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ » أى بيّنت أدلته وما فيه، بلسان نعرفه لنفهم مافيه . قال الزمخشرىّ: كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت ولخصت بلسان نفقهه « ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمىّ ورسول عربىّ ؟ أو مرسَل إليه عربىّ؟ والمعنى: إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متعنتا . لأن القوم غير طالبين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجميّ أصله (أعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة أو لغرابة لغته. وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحمرىّ . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى أُلحق بالحقيقة . وأما العجمىّ فالمنسوب إلى العجم . وهم مَنْ عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمىّ والعجمىّ عموم وخصوص وجهىّ . انتهى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ » أى: هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصّرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصّرهم بطريق النظر والعمل، فتعلمهم وتزكيهم «وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » أى لا يسمعونه ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها. فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا «أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق، واستماعهم له، مثل من يُصَيَّحُ به من مسافة شاطة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وإنهما كهم فى ظلمات الهيولى. قال الشهاب: وجعل النداء من مكان بعيد، تمثيلًا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له. يقال: أنت تُنَادَى من مكان بعيد، أى لا تفهم ما أقول. وقيل : إنه على حقيقته، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك، تفضيحًا لهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ )

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ» قال ابن جرير[1]: أى فاختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أي كذّب وأوذي، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » وهي العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ. أي لولا أنه تعالى قدر الجزاء في الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أي بتعجيل العذاب[1] (بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا)[2] (بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) « وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أي موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم. وإلا فالحق أجلى من أن يخفى. وقال ابن كثير: أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم، لما قالوا. بل كانوا شاكّين فيما قالوه، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجّهه ابن جرير. وهو محتمل. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٦] (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ)

« مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أي من عمل بطاعة الله، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه، فلنفسه نفعه. لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن « وَمَنْ أَسَآءَ » أي عمل السيئ وعصى « فَعَلَيْهَا » ضرّه. لأنه جنى على نفسه بذلك، ما أكسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

(١) [ ١٨ / الكهف / ٥٨ ]. (٢) [ ٥٤ / القمر / ٤٦ ].

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها « وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا » أى أوعيتها « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ » أى مقروناً بعلمه . قال الزمخشرىّ : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى » أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى «قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ» أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ ( شَهِيدٍ ) فعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كناية عن التبرؤ منهم. أو هو منهم إنكار لعبادتها. فيكون كذبا، كقولهم(١) ( وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ )

« وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ » أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً « وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » أى وأيقنوا يومئذ مالهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ )

« لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ » أى لا يمل من مسألته ربه بالخير ، كالمال وصحة الجسم « وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته « فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ » أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزمخشرىّ : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء ( فعول ) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر .

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ٢٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ » أى بتفريجها عنه « لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي » أى حق نلته بعملى ، لا بفضل من الله . جحدا للمنعم « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تخرصا ورجما بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا » أى فلنخبرنّ هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم . ولنبصرنّهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى إذا كشفنا ما به من ضر ، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغرق فى الابتهال أنفاسه . وقد استعير ( العرض ) لكثرة الدعاء . كما يستعار له ( الطول ) أيضا . فيقال : أطال فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ » أى من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ » أى من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف فى شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين. وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراجٌ للإقرار. مع مافيه من سحر البيان . وحديثُ الساعة وقع فى البين تتميما للوعيد. وتنبيها على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ » يعنى وقائع النبىّ ﷺ بنواحى بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقاً للوعد « وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ » أى من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع فى بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ » أى أن هذا القرآن ، بوعده ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر اللهُ رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى لا يخفى عليه شىء ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . ففيه وعد ووعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ، أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ)

« أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد الممات ، ومعادهم إلى ربهم « أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ » أى فلا يخرج عن إحاطته شىء[١] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) .

(١) [ ٦٧ / الملك / ١٤ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٢ - سُورَة الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ : وهي مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرّ مرارا تحقيق ذلك ، وآيها ثلاث وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( عٓسٓقٓ )

« حمٓ * عٓسٓقٓ » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير ( حمٓ * عٓسٓقٓ ) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير منكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و ( حمٓ * عٓسٓقٓ ) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعُدَّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

« كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيحاءها مثل إيحائها ، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها . والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول لـ ( يُوحِيٓ ) على الأول ـ وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و(ذَٰلِكَ) على الأول إشارة إلى ما فيها . وعلى الثانى إلى إيحائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم . على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد . أو مثل إيحائها ، أوحى إليك عند إيحاء سائر السور. وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم. لا إيحاء مغايرا له. كما فى قوله تعالى[1] ( إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ) الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإيذان باستمرار الوحى ، وأن إيحاء مثله عادته . وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل ، مع ما فيه من التشويق. وقرئ ( يوحى ) على البناء للمفعول ، على أن ( كذلك ) مبتدأ ( ويوحى ) خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و (يوحى) مسند إلى (إليك) . و (الله) مرتفع بما دل عليه ( يوحى ) كأنه قيل : من يوحى؟ فقيل: الله . ( ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ) صفتان له ، أو مبتدأ ، كما فى قراءة ( نوحى ) . والعزيز وما بعده خبران له . أو العزيز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ )

« لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ )

[٦] ( وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ )

---

(١) [ ٤ / النساء / ١٦٣ ] .

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ » أى يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته، ويتلاشين من علوّ قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بعد ( ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى شركاء وأندادا « ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر[1] ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ )

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى النار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ، وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ )

---

(١) [ ١٣ / الرعد / ٤٠ ] .

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّـهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة « وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ » أى ولـكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافاة ذلك مايقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فـكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء فى رحمته وهم المؤمنون ، وفى عذابه ، الـكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لـكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والـكافرون بالله مالهم من ولىّ يتولاهم يوم القيـامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم فى قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين فى باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يواليهم وينصرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٩ ] ( أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ )

[١٠] ( وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ )

« أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى يتولونهم. مع أنه لا ولاية لهم فى الحقيقة، إذ لاقدرة ولا قوة « فَٱللَّـهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شيء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنـكار كل ولىّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولىّ بالحق ، لا ولىّ سواه « وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أى هو المحيي القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تمهيد لما يأتى بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه . والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم مالم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية . ومع ذلك ، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شيء من الخصومات ، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكومته حكومة غيره . كقوله تعالى[1] (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) وتدل أيضا على الرجوع إلى الحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض مالم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى ، بأن يقال : الله أعلم . كما فى قوله[2] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وقوله «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى» بتقدير ( قل ) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّى لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فى أمورى كلها « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

**[١١] ( فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ )**

« فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى من جنسكم « أَزْوَٰجًا »

---

(١) [ ٤ / النساء / ٥٩ ] .  (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٨٥ ] .

أى نساء «وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا» أى أصنافا مختلفة ، أو ذكورا وإناثا « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » أى يكثركم . من ( الذرء ) وهو البث . يقال : ذرأ الله الخلق ، بثهم كثّرهم . وفسر بـ ( يخلقكم ) . وضمير ( فِيهِ ) للبطن أو الرحم . وقال الزمخشريّ : أى فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى ( يَذْرَؤُكُمْ ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيّب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذرؤكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل ( فى ) مستعارة للسببية « لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » قال ابن جرير [1] : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشىء . وأدخل المثل فى الكلام ، توكيدا للكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شىء . وتكون الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع ـ وهو ما عول عليه المحققون ـ أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ، على قصد المبالغة فى نفيه عنه . فإنه إذا نفى عمن يناسبه . كان نفيه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشىء ببيّنة . وقد بينت الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمُنّيّ . وهو أنه نفى للشىء بنفى لازمه . لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه . لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنُفِىَ هذا اللازم . والمراد نفى ملزومه . أى ليس لزيد أخ . إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نفى أن يكون لمثل الله مثل . والمراد نفى مثله تعالى ـ إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقق المماثلة من الجانبين .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فلا يصح نفى مثله ( أى نفى مثل ذلك المثل ) وبالجملة ، فأطلق نفى مثل المثل ، وأريد لازمه من نفى المثل. قال بعض الأفاضل: طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً. وذلك أن محصل هذا أن نفى المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولا أنها تقتضى إثباته . ولذا أوّلوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً لشيء واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى الملزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم. مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازما لحقيقة الآية قطعا . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعويل فى نفى المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال، فافهم ذلك . وقال العصام : هذاـ أى كون الآية من باب الكناية ـ وجه تلقاه الفحول بالقبول. ورجّحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح. وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث، وهو أن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل . لأن الشيء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشيء فى صفةٍ ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزله الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتيّ فقال : ما قيل إن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض .لأن المماثلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الوجوه مما به المماثلة . صرّح به فى ( شرح العقائد النسفية ) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام . وتتشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حالّ فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى ( وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فمثلوا أولًا وعطلوا آخراً . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل. بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة. فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيّه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه. قال تعالى ( لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفى المثلية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البرّ : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة فى الكتاب والسنة، وحملها على الحقيقة لا على المجاز. إلا أنهم لم يكيّفوا شيئاً من ذلك. وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة. ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبيّ : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أدّاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا : فى دارنا نخلة . قيل : لها سعف ؟ قالوا : لا . قيل لها كَرَب ؟ قالوا : لا. قيل لها رطب؟ قالوا : لا. قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا. قيل : فما فى داركم نخلة. قلت : كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا فى زمان ولا فى مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحان المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحان الله العليّ العظيم السميع البصير المريد ، الذى كلم موسى تكليما ، واتخذ إبراهيم خليلا ، ويُرى فى الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رسله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال الذهبي رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس فى السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا فى الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم. قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض فى ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية فى (الرسالة التدمرية) فى القاعدة الأولى: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفى . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفى كقوله ( لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ) وينبغى أن يعلم أن النفى ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فمجرد النفى ليس فيه مدح ولا كمال. لأن النفى المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشيء . وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا . ولأن النفى المحض يوصف به المعدوم والممتنع . والمعدومُ والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفى متضمنا لإثبات مدح ، كقوله[1] ( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ) إلى قوله ( وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ) فنفى السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحى القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) أى لا يكرثه ولا يثقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥٥ ] .

ومشقة ، فإن هـــذا نقص فى قدرته وعيب فى قوته . وكذلك قوله[١] ( لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ) فإن نفى العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة فى السموات والأرض. وكذلك قوله[٢] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ) فإن نفى مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة. بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والـكلال مايلحقه. وكذلك قوله[٣] ( لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ) إنما نفى الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية. لأن المعدوم لا يرى، وليس فى كونه لا يرى مدح. إذ لو كان كذلك لـكان المعدوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لايحاط به ، وإنْ رُئِيَ . كما أنه لايحاط به وإن علم ، فـكما أنه إذا علم لايحاط به علمـــا ، فـكذلك إذا رئى لايحاط به رؤية . فـكان فى نفى الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لاعلى نفيها . لـكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفى لايستلزم ثبوتا، هو مما لم يصف الله به نفسه. فالذين لايصفونه إلا بالسلوب، لم يثبتوا فى الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا. وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لايتـكلم أو لا يُرى أوليس فوق العالم أولم يستو على العرش. ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق : ميِّز لنا بين هذا الرب الذى تثبته وبين المعدوم. وكذلك كونه لايتـكلم أولا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هـــذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات. فهذه الصفات منها مالا يتصف به إلا المعدوم ومنها مالا يتصف به إلا الجمادات والناقص. فمن قال لاهو مباين للعالم ولا مداخل للعالم، فهو بمنزلة

---

(١) [ ٣٤ / سبأ / ٣ ] . (٢) [ ٥٠ / قٓ / ٣٨ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ١٠٣ ] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له . ومن قال إنه ليس بحيّ ولا سميع ولا بصير ولا متكلم، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم. فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر، ومالم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها . فإن الله قادر على جعل الجماد حيا كما جعل عصا موسى حية ابتلعت الحبال والعصىّ . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها. فالجماد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الأخرس . فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجماد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد منها . وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نفى هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث هى هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[١٣] ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ، أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ )

« لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت « يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه، ويقتّر على آخرين « إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ » اعلم أنه تعالى لما عظّم وحيه إلى النبيّ ﷺ بقوله(١) ( كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك ، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال(٢) ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ) وفى الحديث(٣): نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد . يعنى : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم. كقوله تعالى(٤) ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ). وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاستمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل على نبوّة بعضهم. وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل. والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٣ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٥ ] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٤٨ ـ باب واذكر فى الكتاب مريم، حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ ( طبعتنا ) .

(٤) [ ٥ / المائدة / ٤٨ ] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام . والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هى الشريعة الكاملة . ولذا عبر فيه بـ (ٱلَّذِى) التى هى أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة، تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال الاعتناء . وهو السر فى تقديمه على مابعده مع تقدمه عليه زمانا « كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ » وهو من صرف اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ » أى الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ » أى ظلما وتعديا وطلباً للرئاسة « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة « لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جناياتهم لذلك « وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين مَنّ الله عليهم بالكتاب العزيز « لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع لأتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يبثونه من الوساوس الصادّة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ، وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ )

« فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ » أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَٱسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه والصدع به « كَمَآ أُمِرْتَ » أى أوحى إليك « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ » أى : أىّ كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ » أى لأسوّى بينكم فى دعوة واحدة كما قال تعالى[١] (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ) الآية. ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ » أى لا خصومة ولا محاجة بعد هذا. لأن الحق قد ظهر. ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة. والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج. كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر « ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى المعاد والمرجع للجزاء .

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ٦٤ ] .

تنبيهان :

الأول ـ تفسير العدل بما ذكرناه، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيما والسورة مكية. ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات. نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أُمِر النبىّ ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم. وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل يرد المعتدى ويوبخه .

الثانى ـ قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات. كل منها منفصلة عن التى قبلها. حكم برأسها . قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسىّ. فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ)

« وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ » أى يخاصمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أورثوا الكتاب، المذكورون قبل ، ليصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية « مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ » أى استجاب له الناس. أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادهم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِندَ رَبِّهِمۡ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره. قال أبو السعود: وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ » أى عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ )

« ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ » أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره « وَٱلْمِيزَانَ » أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوّى به الخلاف « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ » قال أبو السعود : أى شىء قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ، أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ )

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا » أى خائفون منها . قال ابن جرير[١] : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها « وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ » أى المتحقق وجوده لا محالة « أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ )

[٢٠] ( مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ )

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

«ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ » أي يلطف بهم في تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا « يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ». قال الزمخشري : سمى مايعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء ، حرثاً على المجاز ـ أي بتشبيهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل ( الدنيا مزرعة الآخرة ) وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفِّق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئاً منها ، لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة. ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له، واصلٌ إليه لا محالة ـ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب . انتهى .

وهذه الآية كآية(1) ( مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ) الخ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

[٢٢] ( تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ )

[٢٣] ( ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ، قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ )

(1) [ ١٧ / الإسراء / ١٨ ] .

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّـهُ» (أَمْ) منقطعة، فيها معنى ( بل والهمزة ) ولا بد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر مابعـده . وما سبق قوله[1] ( شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تتمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم فى الـكفر وحملوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء وإن لم تـكن كذلك فى الحقيقة . وعلى الثانى ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدينوا به . أو لأنها على صورة المشرّع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذ للإنـكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع. كما فى قوله[2] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ) « وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ » أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبيّن فى الآخرة. فالفصل بمعنى البيان « لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى لفرغ من الحـكم بين الـكافرين والمؤمنين ، بتعجيل العذاب للـكافرين «وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى يوم البعث « مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ » أى من السيئات « وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ » أى نازل بهم لا محالة «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّـهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لا أسألـكم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذى جئتكم به، والنصيحة التى أنصحكم ، ثوابا وجزاء وعوضا من أموالـكم تعطونيه « إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ » أى أن تودونى فى القرابة التى بينى وبينكم ، وتصلوا الرحم التى بيننا. ولا يكن غيركم، يامعشر قريش، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منـكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ ( أن والفعل ) . والقربى مصدر كالقرابة. و ( فى )

(١) [ ٤٢ / الشورى / ١٣ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٣ ] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى. والاستثناء منقطع. ومعناه نفى الأجر أصلا. لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل ( ٱلْقُرْبَىٰ ) التقرّب إلى الله تعالى . أى إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عوّل عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره. فى البخارىّ[1] عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى ( إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ) فقال سعيد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت. إن النبىّ ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارىّ ـ أى عن مسلم ـ ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبىّ والضحاك وعلىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدّىّ وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانىّ عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لاأسألكم عليه أجراً إلا أن تودونى فى نفسى ، لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم. وروى الإمام أحمد[2] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال: لاأسألكم على ماأتيتكم به من البينات والهدى أجرا ، إلا أن تودّوا الله تعالى، وأن تقرّبوا إليه بطاعته. وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرىّ مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٢ ـ سورة الشورى ، ١٠ ـ باب قوله إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .
والحديث رقم ٢٤١٥ ( طبعة المعارف ) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية فى هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبى حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن فى إسناده مبهمالا يعرف، عن شيخ شيعىّ، وهو حسين الأشقر، فلا يقبل خبره فى هذا المحل وذكر نزول الآية فى المدينة بعيد . فإنها مكية. ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالكلية . فإنها لم تتزوج بعلىّ رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخارىّ . ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلىّ وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته: إنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتى. وإنهما لم يفترقا حتى يردا علىّ الحوض . وروى الإمام أحمد[2] عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ! إن قريشاً إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن. وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبىّ ﷺ غضبا شديدا وقال: والذى نفسى بيده! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله . هذا ملخّص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه فى الإيساع فى ذلك تقىّ الدين ابن تيمية فى ( منهاج السنة ) من أوجه عديدة . قال فى الوجه الثالث : إن هذه الآية فى سورة الشورى. وهى مكية باتفاق أهل السنة.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) .
والحديث رقم ١٧٧٢ ( طبعة المعارف ) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد فى السنة الثالثة من الهجرة . والحسين فى السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبى ﷺ الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال: الوجه الرابع ـ إن تفسير الآية الذى فى الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك. فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علىّ ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى. ولكن معناها لا أسألكم يامعشر العرب ويا معشر قريش عليه أجرا. لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التى بينى وبينكم. فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أوّلا ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلّغ رسالة ربه. الوجه الخامس ـ أنه قال : (لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى. فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال[١] (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ) وقال[٢] ( مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ) وكذلك قوله[٣] (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ) وقوله[٤] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ) وهكذا فى غير موضع. فجميع ما فى القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبى ﷺ ، وذوى قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (فى القربى). فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) .الوجه السادس ـ أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودّة لذوى القربى، ولم يقل فى القربى .فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة فى فلان، ولا فى قربى فلان. ولكن أسألك المودة لفلان، والمحبة لفلان . فلما قال المودة فى القربى، علم أنه ليس المراد لذوى القربى.

(١) [ ٨ / الأنفال / ٤١ ] . (٢) [ ٥٩ [ الحشر / ٧ ] .
(٣) [ ١٧ / الإسراء / ٢٦ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٧٧ ] .

الوجه السابع ـ أن يقال إن النبيّ ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرا البتة . بل أجره على الله كما قال[١] (قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) وقوله[٢] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) وقوله[٣] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ) ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال[٤] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) ولا ريب أن محبة أهل بيت النبيّ ﷺ واجبة. لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبيّ ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفى الصحيح[٥] عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خما) بين مكة والمدينة فقال ( أذكركم الله فى أهل بيتى ) وفى السنن[٦] عنه أنه قال ( والذى نفسى بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتى ) فمن جعل محبة أهل بيته أجرا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيما . ولو كان أجرا له لم نُثَبْ عليه نحن ، لأنا أعطيناه أجره الذى يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن ـ إن ( القربى ) معرفة باللام. فلابد أن يكون معروفا عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج علىّ بفاطمة . فالقربى التى كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تكون هذه . بخلاف القربى التى بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول ( لا أسألك إلا المودة فى الرحم التى بيننا ) وكما تقول ( لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم ) ( ولا أسألك إلا أن

(١) [ ٣٨ / صٓ / ٨٦ ] .　(٢) [ ٥٢ / الطور / ٤٠ ] و [ ٦٨ / القلم / ٤٦ ] .
(٣) [ ٣٤ / سبأ / ٤٧ ] .　(٤) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٧ ] .
(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا ) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبيّ ). والحديث رقم ١٧٧٧ ( طبعة المعارف ) .

تتق الله فى هذا الأمر ) . انتهى « وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا » أى بمضاعفته « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأناب « شَكُورٌ » لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ )

« أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك. أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن. كقوله[1] جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) أى لا نتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجزعنه. انتهى .

وهذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة، ما وجد إليه سبيلا. فإن التنزيل يفسّر بعضه بعضا. ومآل الآية على هذا المعنى، كما أوضحه أبو السعود، هو الاستشهاد على بطلان ماقالوا، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى، لمنعه من ذلك قطعا، بختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه. وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حينا فحينا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشرىّ: فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفترى عليه الكذب. فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المختوم على

(١) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٧ ] .

قلوبهم . ومثل هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلني . لعل الله أعمى قلبي . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . و إنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكِب من تخوينه أمرٌ عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فمعناه ؛ إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى ( بأن ) في موضع ( لو ) إرخاء للعنان ، وتلميحا للبرهان. على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه . فالتفريع بالنظر للمعنى المكنّى عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال، لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى «وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ» استئناف مقرر لنفي الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لمحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس ( يمح ) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع ( يحق ) . قال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ )

«وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ» أي يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته، من بعد كفره « وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أي معاصيه التي تاب منها «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» أي من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ، وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ، إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ)

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى يستجيب لهم . فحذف اللام كما حذف فى قوله تعالى(١) (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أى يثيبهم على طاعتهم «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ» أى على ثوابهم ، منةً منه وطوْلًا «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ» أى تجاوزوا الحدّ الذى حدّه لهم إلى غيره ، بركوبهم ماحظره عليهم . لأن الغنى مَبْطَرَة مَأْشَرَة(٢) (كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ) «وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاؤه بقدرٍ ، لكفايتهم «إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ» قال الزمخشرىّ : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيُفقر ويُغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ، وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ)

«وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ» أى بركات الغيث

(١) [ ٨٣ / المطففين / ٣ ] . (٢) [ ٩٦ / العلق / ٦و٧ ] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ، والمحمود على أياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ)

«وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ» أى حشرهم يوم القيامة «إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ» أى متمكن منه، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم.

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل من قوله تعالى[(١)] (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض . ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال: لعمرى، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة، لآية لأهل هذا العصر وأيّة آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح بلا حدّ ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجدّ العنيف والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [ ٢٤ / النور / ٤٥ ] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلىّ ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها .وإن الكواكب السيارات كريّات . وأن النجوم الثوابت شموس، ولها سيارات تدور حولها. ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء فى هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجدفيها عالم كعالم الأرض . وبدأالبعض منهم يفكرون بإيجادالوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذى هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فنًّا . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ )فلايبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة فى القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما فى كتاب الله من الحكمة والبيان .

وقال أيضا : لايخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين، أولا وبالذات . لكن، تمهيدا لهذه السبيل، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمّل فى خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية فى أكثر من ثلاثمائة آية. فالمفسرون رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات فى زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذورون إذا لم يفهموا معانى هذه الآيات التى تحيّر عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية . لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أوّلوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه.

وقال عالم فلكىّ أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التى على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته. وباقى الكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات فى هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول فى كتابه[1] ( وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ) ويقول[2] ( يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ )

« وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » أى فبسبب معاصيكم وما اجترمتم من الآثام . « وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ » أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ )

« وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم فى قبضة تصرّفه « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى إذا أراد عذابكم . فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ )

[٣٣] ( إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ )

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ » أى السفن الجارية « فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ » أى الجبال

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٢٩ ] .    (٢) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٩ ] .

« إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ » أى فيبقين ثوابت على ظهر البحر « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجريها « لَأٓيَٰتٍ » أى لعبرة وعظة وحجة بيّنة على القدرة الأزلية « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما ( والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ )

[٣٥] ( وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ )

« أَوْ يُوبِقْهُنَّ » أى أو يهلكهن بالغرق « بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم ( وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ )

[٣٧] ( وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ )

[٣٨] ( وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ )

«فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ» أى مما زيّن للناس حبه من الشهوات « فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» أى فهو متاع لكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ» أى من ثوابه الأخروىّ «خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم « وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ » أى يصفحون عمن أساء إليهم « وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيده، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » أى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه . وذلك من فرط تدبّرهم وتيقظهم، وصدق تآخيهم فى إيمانهم وتحابّهم فى الله تعالى «وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » أى فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة ونفقة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ )

«وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ» أى بالعدالة. احترازاً عن الذلة والانظلام، لكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانىّ . وقال ابن جرير(١) : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون: بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السّدّىّ حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب. لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍّ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

من المدح ؟ قيل : إن فى إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفى ذلك أعظم المدح . انتهى. وكذا قال الزمخشريّ . فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف فى القتل ، إن كان ولىّ دم ، أو ردّ على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال النخعىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق. ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ )

[٤١] ( وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ )

[٤٢] ( إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » أى وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها. إذ النقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بيّن تعالى أن العفو أولى، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أى بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى ثوابه عليه . وفى إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » أى البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام « وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ » أى بعد ما ظلم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، أو هو مصدر المبنىّ للمفعول « فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ » أى للمعاقب، ولا للعاتب والعائب. لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فكيف يكون عليه سبيل؟ « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » أى يبدءوهم بالظلم والإضرار،

أو يعتدون فى الانتقام « وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى يتكبرون فيها ويفسدون « أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بسبب ظلمهم وبغيهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ )

«وَلَمَن صَبَرَ» أى على الأذى « وَغَفَرَ » أى لمن ظلمه ولم ينتصر « إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » أى التى ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تنبيه :

نقل السيوطىّ فى ( الإكليل ) عن الكيا الهراسىّ أنه قال : قد ندب الله إلى العفو فى مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية ( وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ » أن الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصرّ ، لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين . وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه، عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب فى الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذى انتهى إليه الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة فى تزكية النفس وهضما لها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كليًّا ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا وتفريطا . والدين دين الفطرة . وهى تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجبلّتها والقضاء الأدبىّ والوازع الرحمانىّ يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثليته ،

مما لا يبعد، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى ( إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ) كما قال الزمخشريّ ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتـداء ، خصوصا فى حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ، وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ )

« وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من ولىّ يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعتاب منهم فى غير وقته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ )

[٤٦] ( وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ )

[٤٧] ( ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ )

« وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى من طرف قد خفى من ذله وصغاره « وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد، وتفويت النعيم المؤبد « أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم » أى أجيبوا أيها الناس داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ » أى لا يرده الله بعد ما حكم به . فـ « من » صلة ( مَرَدَّ ) أو هى صلة ( يَأْتِيَ ) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن ردّه « مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترفتموه ، لأنه محصىّ عليكم . أو نكير ينكر على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ، وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ )

« فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك « وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ » أى جحودٌ نعمَ ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ )

[٥٠] ( أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ، وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ )

« لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة . وتقديمُ الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكراهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبيّ : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من اليمن ( ومن يمن المرأة تبكيرها بأنثى ) .

قال الشهاب : والضمير فى ( يُزَوِّجُهُمْ ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان إن ضمّن معنى التصيير. يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين. كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث . ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ، إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ )

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» أى إلهاما وقذفا فى القلب منه، بلاواسطة « أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ » أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى عليه السلام «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا » أى من ملائكته كجبريل «فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ» أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه، ما يشاء إيحاءه، من أمر ونهى وغير ذلك، على سبيل

الإلقاء والنفث فى الروع والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُۥ عَلِيٌّ » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوّه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شىء حضوره . قاله القاشانىّ .

وقال المهايمىّ : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى. « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه فى تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايمىّ : أى حكيم فى تبليغ كلامه العلىّ إلى البشر الضعيف .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : استدلت بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبىّ ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله ( أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحنث . لأنه تعالى استثناه من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كلمه إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ )

[٥٣] ( صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ )

« وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسمّاه روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و ( أَوْحَيْنَآ ) مضمن معنى ( أَرْسَلْنَا ) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحى « مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب . إنه الكريم الوهاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٣ - سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها ، وغاية العداوة مع ربّها ، بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايميّ . وهي مكية . قيل : إلا آية[1] ( وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٤٥ ] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ )

[٣] ( إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ )

« حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى معانيه ومواعظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ )

« وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها « حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ )

« أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهملكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء فى زمان الفترة . قاله القاشانىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

[٧] ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

[٨] ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم فى تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم . أى فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[١٠] ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا » أى طرقا تتطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعايشكم ومتاجركم « لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

«وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ» أى بمقدار الحاجة إليه. فلم يجعله طوفانا يهلك،

ولا رذاذا لا ينبت، بل غيثا مغيثا «فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا» أى أحيينا به بلدة ميتا من النبات، قد درست من الجدب وعفت من القحط «كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ» أى من بعد فنائكم ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ)

«وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا» أى خلق كل شىء فزوّجه، فجعل منه الذكر والأنثى «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ» أى من السفن والبهائم ماتركبونه «لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ» أى مطيقين «وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ» أى لصائرون إليه، وراجعون بعد مماتنا .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة. وكان ﷺ يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ، إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

«وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا» أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا. وذلك

قولهم للملائكة ( هم بنات الله ) قال القاشانيّ : أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له، الذى هو بعض من الوالد ، مماثل له فى النوع ، لكونهم ظاهريين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة ، فضلا عن ذات الله تعالى . فكل ماتصوروا وتخيلوا ، كان شيئاً جسمانيا . ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور ، وكل مايتعلق بالمعاد . إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمورَ المعاش . فلا مناسبة أصلا بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا فى ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى « إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » أى لجحودٌ نعمَ ربه ، التى أنعمها عليه . يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ )

« أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ » أى : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تجهيلا لهم . وتعجيبا من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءًا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لهن . ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن . كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، وترك له شرهما وأدناهما ؟ قاله الزمخشريّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ )

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا » أى من البنات « ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا » أى من الكآبة والغم والحزن « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء قلبه من الكرب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ)

« أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ » أى تربى فى الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ » أى فى المجادلة « غَيۡرُ مُبِينٖ » أى لمن خاصمة ببرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى :أومن كان كذلك جعلتموه جزءا لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال إلكيا الهرّاسى : فيه دليل على إباحة الحلىّ للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم يرَ به بأسا ، وتلا هذه الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ)

« وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدسونه ، إناثا . فقالوا ( هم بنات الله ) جهلا منهم بحق الله سبحانه ، وجراءةً منهم على قيل الكذب .

قال القاشانىّ : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلٰهية ـ توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يعتقدها العامىّ إلا صوراً إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ » أى على الملائكة بما هم مبرءون عنه « وَيُسۡـَٔلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها ، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا . وفيه من الوعيد ما فيه . لأن كتابتها ، والسؤال عنها ، يقتضى العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ، مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)

«وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ» هذا بيان لضلال لهم آخر ، فى جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصى . وأهل السنة تأوّلوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شىء ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا ما للمحققين المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط نفائس ما للمتقدم ، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشانىّ : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى ، افترضوه وجعلوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لا عن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّهم الله تعالى بقوله (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره . إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعا ولا ضرًّا (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوّفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود[1] (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) ولمّا خوّفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم ، أجاب بقوله[2] (وَلَآ

(١) [ ١١ / هود / ٥٤ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٨٠ ] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ) إلى قوله[١] ( وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ) انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهى عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة. ويمتنع كونها منهيا عنها أو قبيحة. وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسنا كان أو قبيحا . ولذلك جهلهم فى استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلا على امتناع النهى عن عبادتهم، أو على حسنها : لا إلى هذا القول. فإنه كلمة حق أريد بها باطل . انتهى.

وقال الناصر فى (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئته تعالى، حتى الضلالة والهدى ، اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل . فى أمثال قوله تعالى[٢] ( يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ) وآية الزخرف هذه لا تزيد هـذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا . فنقول : إذا قال الكافر ( لو شاء الله ما كفرت ) فهذه كلمة حق أراد بها باطلا ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهما أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه. لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال[٣] ( مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) و(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هـذا التقدير . وذلك قوله تعالى

(١) [ ٦ / الأنعام / ٨١ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٩٣ ] و [ ٣٥ / فاطر / ٨ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٠ ] .

فى سورة الأنعام[١] ( سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم[١] ( لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ) فشبه تعالى حالهم فى الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلّب وخيال مكذب ، فقال[١] ( إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ) ثم لما أبطل أن يكون لهم فى مقالتهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله[٢] ( فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا فى احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة فى نفسها كذب . فقال[٢] ( فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ) وهو معنى قولهم ( لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح . والذى يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم فى سلك الأفهام الكثيفة . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبدلت . فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب . أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨ ] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩ ] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتهجوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته . ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنها قدرة تقارن بلا تأثير . وتميز بين الضروريّ والاختياريّ فى التصور . فهذا هو التحقيق . والله ولى التوفيق : انتهى .

وقد سبق فى آية (الأنعام) نقولٌ عن الأئمة فى الآية مسهبة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى(أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ )أى من قبل هذا القرآن (فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)أى يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى فى الآية الأخرى[1]( قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ) يعنى بالعلم كتابا موحى فيه ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ )

« بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ » أى لا حجة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ )

« وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ » أى كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل مَن قبلهم من أهل الكفر بالله .

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٤٨ ] .

قال القاضي : وفيه تسلية له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ، قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ )

« قَٰلَ » وقرئ قل « أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » أي جاحدون منكرون، وإن كان أهدى. إقناطا للمنذر من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ )

« فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ » أي بعذاب الاستئصال « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أي آخر أمرهم ، مما أصبح مثلا وعبرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ )

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » قال القاضي : أي اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل . أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بدّ من التقليد، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أي بريء من عبادتكم أو معبودكم . و ( بَرَآءٌ ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعتاق ، أريد به معنى الوصف مبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة مبالغة، كطوال و كرام، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ )

« إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي » استثناء منقطع أو متصل . على أن (ما) يعمّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. أو(إلا) بمعنى(غير) صفة لـ(ما). أي إنني برىء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني . أي خلقني « فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ » أي للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء ( يَهْدِينِ ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع في الموضعين للاستمرار. وإما للتسويف والاستقبال، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولًا . فيتغاير ما في الآيتين من الحكاية أو المحكي ، بناء على تكرر قصته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

«وَجَعَلَهَا» أي شهادة التوحيد « كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ » أي موصى بها ، موروثة متداولة محفوظة. كقوله تعالى[1] (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي لكي يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيده في سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ )

« بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ » يعني أهل مكة «وَءَابَآءَهُمْ» أي من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ » أي دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أي ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التي يحتج بها عليهم في دعوى رسالته .

(١) [ ٢ / البقرة / ١٣٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾

«وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ» أى جاحدون . فازدادوا فى ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

« وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ » أى من إحداها ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد «عَظِيمٍ» أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضى : ولم يعلموا أنهـــا رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلّى بالفضائل والـكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» إنـكار، فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولّاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوّة « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ» أى بالغنى «فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم» يعنى الغنى « بَعْضًا » يعنى الفقير « سُخْرِيًّا » أى مسخرا فى العمـــل ، وما به قوام المعايش ، والوصول إلى المنافع . لا لـكمالٍ فى الموسّع عليه ، ولا لنقص فى المقتّر عليه . بل لحاجة التضامّ والتآلف ، التى بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم اللدنية ،

فليست مما يستدعي سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهيّ ، وفيض رحمانيّ، يمنّ به على أنفس مستعدّيه ، وأرواح قابليه . و ( السخريّ ) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن ( غرفة ) وهى الاستخدام والقهر على العمل. « وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعنى أن النبوّة خير مما يجمعون من الحطام الفانى . أى : والعظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبيّ ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ )

[٣٤] ( وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ )

[٣٥] ( وَزُخْرُفًا ، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ )

« وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى متفقة على الكفر بالله تعالى . أى لولا كراهة ذلك « لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ » أى لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالمنعم فيزداد عذابا « لِبُيُوتِهِمْ » بدل من (لِمَن) «سُقُفًا» بفتح السين وسكون القاف، وبضمهما، جمعا « مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ» أى مصاعد من فضة «عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» أى يرتقون «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا » أى من فضة « وَسُرُرًا » أى من فضة « عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا » أى : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أى زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة فى ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى : وما كل هذه الأشياء التى ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة، والزخرف، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا فى الدنيا « وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أى: وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين ، أى الذين اتقوا الله فخافوا عقابه . فجدّوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايميّ : يعنى لا خصوصية فى ذاك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عنده الدنيا أم لا . وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق ، بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور ـ هوماذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخولُ فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين . فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشريّ .

وعندى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ما ذكروه . وذلك أن المعنى : لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد والتعاون والتضامّ ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحلىّ لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وحطًّا لقدر الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى ( لولا ) المطرد ، أن مابعدها أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون ( حرف امتناع لوجود ) .

فليس المعنى على ما ذكروه أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هـذه تتمة لما قبلها ، فى جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته فى تفاوت الخلق فى الآية الأولى . وهى التسخير . وفى الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة فى الإعلام بضعتها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

« وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ » أى يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ » أى نجعل له شيطانا يغويه ويضله عن السبيل القويم دائما ، لمقارنته له . قال القاشانىّ : قرئ ( يعش ) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العَشَى لعارض أو متعمدا ، من غير آفة فى بصره . وعَشِيَ إذا إيف بصره. فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أى القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعامى عنه لغرض دنيوىّ وبغى وحسد ، أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشى الطبيعية ، واشتغاله باللذات الحسية عنه ، أو لا غترار بدينه وماهو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل ( نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ) جنيًّا فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه . أو إنسيا يغويه ويشاركه فى أمره ويجانسه فى طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثانى معناه . ومن إيف استعداده فى الأصل ، وشقى فى الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصّر عن فهم معناه ( نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ) من نفسه أو جنسه ، يقارنه فى ضلالته وغوايته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » قال ابن جرير[1] : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته. « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾

« حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا » أى العاشى « قَالَ » أى لشيطانه « يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ » أى بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقا الصيف والشتاء . والتقدير من المغربين، فاختصر. « فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ » قال القاشانىّ : أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذى أضله عن الحق ، وزيّن له ما وقع بسببه فى العذاب، واستوحش من قرينه واستذمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

« وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشانىّ : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم فى الدنيا، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون فى العذاب لاشتراككم فى سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العـذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين فى أمر صعب ، معاونتهم فى تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ )

« أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرر فى التنزيل التعبير عنهم بالصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماعَ حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصارَ آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصدَ السبيل الأمم ، كالضالّ الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ )

« فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخروىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ )

« أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى[١] ( فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ) وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفلت أحد من صناديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

(١) [ ٤٠ / غافر / ٧٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسلية له ﷺ وأمر لأمته أو له ، بالدوام على التمسّك . والفاء فى جواب شرط مقدّر . أى إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه. أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوّز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » أى عما عملتم فيـــه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائـكم عن نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)

«وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من مللهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه ، فيـكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل . فالكلام بتقدير مضاف . أى أممهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ » أى المصدقة له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد « وَمَلَإِيْهِۦ » أى لينهاهم عن التعبّد له « فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى فأبان أنه لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ )

« فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جئتهم به من الآيات والعبَر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيّه ﷺ ، عما كان يلقى من مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيّه ﷺ إلى الاستنان بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبى مردّتهم إلى البوار والهلاك . كسنته فى المتمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذى فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير[١] .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعنادٍ ، لا لقصورها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)

[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ » أى الدنيوىّ كالسنين ، مما يلجئ إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أى من أنه لا يعذّب مَن آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتمادون فى غيهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

[٥٣] (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ » يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » أى ضعيف لا شىء له من المُلك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أى الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أى يعينونه ويصدقونه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ » أى فاستفزهم بهذه المغالطات، وحملهم على أن يخفّوا له ويصدقوه « فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا » أى أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث العهود « ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم فى بحر الضلال، الأجيال الطوال، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

[٥٨] (وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا » أى حجة للهالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أى عبرة « لِّلْءَاخِرِينَ » أى الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أى فى كونه كآدم ، كما أشارت له آية[1] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أى من مَثَلَه المضروب ووصفه المبين « يَصِدُّونَ » أى يعرضون ولا يعون «وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم،

(١) [ ٣ / آل عمران / ٥٩ ] .

زعما منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك فى أول السورة . أى أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولا صحيحة . ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد فى ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أى ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لا عن اعتقادٍ ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أى شديدو الخصومة بالباطل تمويها وتلبيسا . وفى الحديث[1] ( ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) وما ذكرناه فى تفسير هذه الآية ، هو الجلىّ الواضح ، لدلالة السياق والسباق .. فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ )

« إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أى بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » أى آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيّد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ )

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ » أى بدلكم « مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » أى يكونون مكانكم . إيعاد لهم بأنهم فى قبضة المشيئة فى إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤٣ ـ سورة الزخرف ، عن أبى أمامة .

كما فى قوله تعالى(١) : ( وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُمْ )
وقيل معنى ( لَجَعَلْنَا مِنكُم ) لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدنا عيسى من غير أب ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله . إلا أن الأظهر هو الأول ، لما جرتْ به عادة التنزيل، من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ )
[٦٢] ( وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ، إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ )

« وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ » الضمير إما للقرآن كما ذهب إليه قوم ، أى وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها . وفى جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة . وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أى إن ظهوره من أشراط الساعة . ونزوله إلى الأرض فى آخر الزمان دليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته السببية . إذ أطلق المسبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك ( أمطرت السماء نباتا) أى مطرا يتسبب عنه النبات. وقرئ ( وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ ) بفتحتين . أى أنه كالجبل الذى يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه . فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ » أى اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . أو هو أمر للرسول أن يقوله « هَٰذَا » أى القرآن ، أو ما أدعوكم إليه « صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى عن الاتباع « إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

---

(٢) [٤٧ / محمد / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

[٦٤] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

«وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » أى من أحكام التوراة وغيرها. كاختلاف اليهود فى القيامة، لعدم صراحتها فى كتبهم . وقد جاء فى نحوها آية(١) ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وقد وضع عن اليهود شيئاً من إصْر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل فى يوم السبت . خفف شدّة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل ( ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه ) لأنه لم يفعل ذلك . بل ترك بيان كثير من الأشياء، كالفساد الذى دخل فى أغلب كتبهم للفارقليط ( محمد ﷺ ) الذى يأتى بعده ، لعدم استعداد الناس فى زمنه لقبول كل شىء منه . كما قال هو نفسه فى ( إنجيل يوحنا ) فى الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تعرّض للطعن فى كتبهم ، وهى رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشكّ فيه الكثيرون منهم وكذّبوه ، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيع الفائدة من بعثته التى بيناها فى المتن . وهى التى بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه(١) ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ فالمراد بمثل هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة ( التوراة ) تطلق على كتب العهد القديم . فالمعنى أن مجىء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن

(١) [ ٣ / آل عمران / ٥٠ ] .

عيسى يقرّ كل ما فى التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة[١] ( وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخا لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ » قال ابن جرير[٢]: أى إن الله الذى يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لا تشركوا معه فى عبادته شيئا . فإنه لا يصح ولا ينبغى أن يعبد شىء سواه « هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى هذا الذى أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعتى ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ )

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ » أى الفرق المتحزبة اختلافا نشأ « مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى لا من قوله تعالى، ولا من قول عيسى. بل ظلما وعنادا « فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح، وظلمهم بترك النظر فى الدلائل العقلية والنقلية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

[٦٧] ( ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ )

(١) [ ٣ / آل عمران / ٥٠ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« هَلْ يَنظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ » أى المتخالون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة الله ومحبته . قال القاشانىّ : الخلة إما أن تكون خيرية ، أوْ لا . والخيرية إما أن تكون فى الله أولله ومحبته. وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلىّ. والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل، التى قال[1] فيها (فما تعارف منها ائتلف ) فهم إذا برزوا فى هـذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ، فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابوا، لتجانسهم الأصلى ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة، وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية، التى هى سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلقائه ، وتصفى بصفائه ، وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة. كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أممهم . والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة . ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار والصناع . ومحبة المحسَن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فانٍ وسبب زائل ، زال

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ( طبعتنا ).

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين، أطلق الكلام وقال (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) لانقطاع أسباب الوصلة بينهم، وانتفاء الآلات البدنية عنهم، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حسرات وآلاما وضررا وخسرانا. قد زالت اللذات والشهوات، وبقيت العقوبات والتبعات. فكل يمقت صاحبه ويبغضه. لأنه يرى ما به من العذاب، منه وبسببه. ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما قال[1] (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)[2] (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ) ولعمري، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر. وهم الكاملون في التقوى، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثاني . وكلا القسمين ، لاشتراكهما في طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ » أي لأمنهم من العذاب « وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أي على فوات لذات الدنيا . لكونهم على ألذ منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ)

«ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا» أي صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم « وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ » أي أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [ ٣٨ / ص ٢٤ ] . (٢) [ ٣٤ / سبأ / ١٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ )

« ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ » أى تُسَرُّون سرورا يظهر حَبَاره ، أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى(١) ( تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ، وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ )

[٧٢] ( وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصحاف جمع ( صحفة ) وهى آنية الأكل . والأكواب جمع ( كوب ) وهو ما يشرب منه كالكوز . إلا أن الكوب ما لا عروة له . قال الشهاب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من ألغز فيه :

وذى أُذُنٍ بلا سمعٍ  له قلبٌ بلا قَلْبِ
إذا استولى على صَبٍّ  فقل ما شئتَ فى الصبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أوانى المأكولات أكثر بالنسبة لأوانى المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ » أى بمشاهدته « وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة ، من الجنة ونعيمها الباقى لهم ، بما يخلفه المرء لورّاثه من الأملاك والأرزاق . ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورِّث ( على صيغة اسم الفاعل ) فهو استعارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [ ٨٣ / المطففين / ٢٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ )

« لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتهيتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعيضية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ )

[٧٥] ( لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ )

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى مستسلمون يائسون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ )

« وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى بكفرهم الله وجحودهم توحيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ )

[٧٨] ( لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ )

« وَنَادَوْا۟ » أى بعد إدخالهم جهنم « يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليميتنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطل الحواس وعدم الإحساس ، لشدة التألم بالعذاب الجسمانىّ .

« قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ » أى لابثون « لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ » أى لاتقبلونه وتنفرون منه . وعبّر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليدا .

لطيفة :

قال القاشانىّ : سمى خازن النار ( مالكا ) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها . لقوله تعالى[1] ( فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ) كما سمى خازن الجنة ( رضوانا ) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ )

« أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » اى أم أبرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ، يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم ، من النكال . كقوله تعالى[2] ( أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ الْمَكِيدُونَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ، بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ )

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم » أى ما أخفوه من تناجيهم بما يمكرون ، فلا نجازيهم عليه لخفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسمعهما ونطّلع عليهما « وَرُسُلُنَا » يعنى الحفظة « لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » أى ما تكلموا به ولفظوا من قول . ثم أشار إلى ردّ إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختما للسورة مما بدئت به ، المسمى عند البديعيين ( رد العجز على الصدر ) فقال سبحانه :

(١) [ ٧٩ / النازعات / ٣٧ـ٣٩ ] . (٢) [ ٥٢ / الطور / ٤٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ )

« قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدّمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارعة ، جاز . انتهى .

قال القاشانىّ : وهذا إما أن يدل على نفى الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفى الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالته على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ )

« سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفى التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحّده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلًا لشىء . لكونه ربًّا خالقاً للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهانىّ . وأما دلالته على الثانى فإذا جعل قوله ( سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، ( أى نزّه رب السموات عما يصفونه ) فيكون نفيا للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال . والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية[١] ( فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ )

« فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٤٣ ] .

ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » قال ابن جرير(١) : وذلك يوم يُصْلِيهم الله بفريتهم عليه ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ )

« وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

[٨٦] ( وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ )

« وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحّدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله(٢) ( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ) قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع . أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . ا هـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفى ( الإكليل ) قال إلكيا : يدل قوله تعالى ( إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) على معنيين : أحدهما ـ أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى ـ أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها، أن يكون الشاهد عالما بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ )

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ )

« وَقِيلِهِ » أى قيل محمد صلوات الله عليه، شاكيا إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ » أى الذين أمرتنى بإنذارهم، وأرسلتنى إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ » أى بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى[1] ( وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ )

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٣٠ ] .

« فَٱصْفَحْ » أي أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ » أي لكم أو عليكم . أو أمرى سلام . أى متاركة ، فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازيّ : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاقتصار على مجرد قوله ( سلام ) وأن يقال المؤمن ( سلام عليكم ) والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكافر . اهـ .

وفيه نظر ، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول[1] إبراهيم عليه السلام لأبيه ( سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ) وآية[2] ( سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى ( عليكم ) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعلة كالثابت . فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى حقية ما أرسلت به ، بسموّ الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ ( وقيله ) بالنصب عطفا على ( سرّهم ونجواهم ) وضعّف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل ( الساعة ) لأنه في محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على ( الساعة ) أو الواو للقسم والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله ( إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ) وقرئ بالرفع عطفا على ( علم الساعة ) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجملة ( يارب ) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو متقبل . وفي ( الحواشي ) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٤٧ ] .
(٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٥ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٤ – سورة الدخان

قال المهايمىّ : سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة ، بصائرَ قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين. وجعلوا المميز بينهما مجنونا. وإن القرآن كاشف عنه كـكشف الدخان المحسوس عنهم ، وهى مكية . وآيها خمسون وتسع.

روى[1] الترمذىّ مرفوعا : من قرأ ( حمٓ الدخان ) فى ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمرو بن أبى خثعم راويه ، يضعّف . قال البخارىّ : منكر الحديث. أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٨ ـ باب ماجاء فى فضل (حمٓ الدخان).

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ )

[٣] ( إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ )

« حمٓ *وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ *إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ » يعنى ليلةالقدرالتى قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت فى رمضان . كما قال سبحانه[١] ( شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان،فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها فى رمضان . وما روى من الآثار فى فضلها ، فمثله لاتعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهى ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشانىّ : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة فى العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكماله بها . كما سماها ( ليلة القدر ) لأن قدره وكماله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذامّ وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ )

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [ ٢ / البقرة / ١٨٥ ] .

وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ )

[٦] ( رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ )

« أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه . كما قال تعالى[1] ( وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ) وجوز كون ( رحمة ) علة للإنزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإنزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « ٱلْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإنزال . قاله المهايمى .

وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة فى الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، ( العليم ) أى بعقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٧ ]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ)

[٨] (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٩] (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم ( فلان منجد متْهم ) أى يريد نجدا وتهامة . اه . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين فى إقرارهم بربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنما هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائرَ قلوبهم وأرواحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)

[١١] (يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٢] (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل ( الارتقاب ) إلا فى أمر مكروه . وللسلف فى معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول ـ قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف . فأخذوا بالمجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ فى أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيئة الدخان . روى ابن جرير[١] عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن: إن قاصًّا عند أبواب كندة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل ( الله أعلم ) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم ( الله أعلم ) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم ( لا أعلم ) فإن الله عز وجل يقول[٢] لنبيّه ﷺ (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ) إن النبيّ ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال : اللهم سبعا كسبع يوسف. فأخذتهم سَنَةٌ حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف. ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل[٣] (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) إلى قوله[٤] ( إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ) قال : فكشف عنهم[٥] (يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر. وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة واللزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[٦] ورواه الإمام أحمد[٧] فى مسنده

---

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٣٨ / صٓ / ٨٦ ] .　　(٣) [ ٤٤ / الدخان / ١٠ ] .

(٤) [ ٤٤ / الدخان / ١٥ ] .　　(٥) [ ٤٤ / الدخان / ١٦ ] .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٤ ـ سورة الدخان ، ٢ ـ باب يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا).

(٧) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٣٦١٣ ( طبعة المعارف ) .

وهو عند الترمذيّ[١] والنسائيّ في تفسيرها، وعند ابن جرير[٢] وابن أبي حاتم من طرق متعددة
وقد وافق ابنَ مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعيّ والضحاك وعطية العوفيّ، وهو اختيار ابن جرير.

قال الحافظ ابن حجر في ( الفتح ) : والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة . لقول ابن مسعود ( ثم عادوا ) ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر . وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك . فلذلك قال[٣] :

* وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعدد ، وإلا فهو مشكل جدًّا . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان على هذا معنيين : أحدهما ـ أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، ويظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان. ولهذا يقال لسنة المجاعة (الغبراء) ثانيهما ـ أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان. فيقولون ( كان بيننا أمر ارتفع له دخان ) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلمت عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استعارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تريد مهذَّبا لا عيبَ فيهِ وهل عودٌ يفوحُ بلا دُخَانِ

---

(١) أخرجه في : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤٤ ـ سورة الدخان، ١ ـ باب حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٣) وعجز البيت : * ثِمَالُ اليتامى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ *

وهذا البيت من قصيدة أبي طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خليليّ ما أذْني لِأولِ عاذلِ بصَغْوَاءَ في حقٍّ ولا عند باطِلِ

الوجه الثانى فى الآية ـ أنه دخان يظهر فى العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدُ ، وهو آت وهو قول حذيفة . ويروى عن علىّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازىّ : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول ـ أن قوله (يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز . الثانى ـ أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث ـ أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التى ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع ـ ماروى عن النبىّ ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة.

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز. وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ماذكروه مشكلاً جدا. فإن قالوا : الدليل على أن المراد ماذكرناه، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون ( رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) والجواب: لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، فى أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق. وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقالوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازيّ .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثانى، ذهابا إلى ما صح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التى أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى بيّن واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى ( يَغْشَى ٱلنَّاسَ ) أى يتغشاهم ويعمّهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أى يقال لهم ذلك، تقريعا وتوبيخا. كقوله عز وجل[1] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى ( رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ) أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جلت عظمته[2] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)وكذا قوله جل وعلا[3](وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

---

(١) [ ٥٢ / الطور / ١٣و١٤ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٢٧ ] .

(٣) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ )

[١٤] ( ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ )

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ » أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بيّن الرسالة والنذارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته[١] ( يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ) الآية . وكقوله عز وجل[٢] ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ )

« إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما ـ أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعنا كم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى[٣] ( وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ) وكقوله جلت عظمته[٤] ( وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ) والثانى ـ أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى[٥] ( إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم .

(١) [ ٨٩ / الفجر / ٢٣ ] . (٢) [ ٣٤ / سبأ / ٥١ ] .
(٣) [ ٢٣ / المؤمنون / ٧٥ ] . (٤) [ ٦ / الأنعام / ٢٨ ] .
(٥) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا[1] ( لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : ( إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

## [١٦] ( يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ )

« يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسّر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم. وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفيّ عنه وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير[2] : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذّاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصريّ وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازا ، بذكر المسبّب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه

(١) [ ٧ / الأعراف [ ٨٨و٨٩ ] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ).

مساق النظم الكريم قطعا . فإن قوله تعالى (أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ) الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم فى الوعد بالإيمان ، المنبيء عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتّعاظ ماهو أعظم منه فى إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبيّن لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، تخرّ لها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ريثما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُواْ) فى حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يعلّمه غلام أعجمىّ لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . ومابينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل فى الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبىّ ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث فى الآية ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحي بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قولهعز وجل (يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) قال: كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جدًّا بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يروَ مرفوعا ولا موقوفا على ابن عباس، ترجمان القرآن. أو غيره من الصحب. إلا أن عدم كونه مأثورا لا ينافى احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى فى آخر السورة (فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم. وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فمعنى قوله تعالى ( إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى ( عَآئِدُونَ ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف فى هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان، اهتماما فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرًّا على وجهٍ، وعليّ وابن عباس وحذيفة على وجهٍ آخر. على ما أسند عنهم من طرق . ولعمر الحق! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازا أخرى . هذا أولا . وثانيا ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما. لما تقرر من شرح السنة للكتاب. وهذا ما درج عليه المحدّثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده . وأما من فتح للتدبر بابا ومهد للنظر مجالا ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٥٩ ] .

فذاك وسّع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة النقل إلى فضاء العقل . ولكلٍّ وجهة .

إذا علمت ذلك، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التي حصلت لقريش، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازا في بعض مفرداتها، وحقيقة في بقيتها وفي وقوع مصداقها، في رأيه. ومن فسرها بالدخان المنتظر ، المرويّ من أشراط الساعة ، وقف مع المرويّ ورأى أنه تفسيرها . لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرها بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بليغ المجاز وبديع الكناية في ذلك . وأن الوعد بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مرادا به الفتح . كآية[1] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ) فهذا وأمثاله يبين مآخذ الأئمة ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأى عن التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن ثمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازيّ المتقدّم ، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد، عنه. مع أن للذاهب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوّته هنا. لأن المقام مقام إنذار وإبعاد . والذوق أكبر حاكم وإليه مردّ البلاغة . ولا يلزم المتأوّلَ نكرانُه للدخان المنتظر. كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظيّ اتحاد المتلوّ والمرويّ. وبالجملة، فاللفظ الكريم يتناول المعاني الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين واحد منها للمراد ، فصعب جدّا فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن. والله العليم . وقوله تعالى:

---

(١) [ ٣٢ / السجدة / ٢٨ ـ ٣٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ )

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أي ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أي على الله والمؤمنين . أو في نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرّم أي معظّم. وعلى الثاني ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبا ونسبا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ )

«أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ» أي أرسلوا معي بني إسرائيل، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى. وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » أي على وحيه ورسالته ، التي حملنيها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ )

« وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ » أي بإنكار ربوبيته، ودعوى الربوبية لأنفسكم، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أي حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفي ربوبيتكم . وعلى رسالتي . وعلى أن بني إسرائيل عباده الخاصة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ )

«وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ» أي اعتصمت به من رجمكم. يعني القتل، فعصمني ، فلا ينالني منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افترى عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته فى موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفا ورعبا . وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأييده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾

« وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ » أى فكونوا بمعزل عنى . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون مفسدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

« فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم ليرجعوكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ، إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾

[٢٥] ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

« وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله التى كان عليها حين دخلته ، ولا تضرب بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُواْ » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا فى التفكه والتنزّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ )

« وَزُرُوعٍ » أى قائمة فى مزارعهم للقوت « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ )

« وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ » أى متنعمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ )

« كَذَٰلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير « وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ )

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ » قال الزمخشرى: إذا مات رجل خطير، قالت العرب فى تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض. وبكته الريح وأظلمت له الشمس. قال جرير(١):

* تَبْكِى عليكَ نجومُ الليلِ والقمرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فالشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ *

( الديوان ج ١ ص ٣٠٤ )

وقالت الخارجية(١) :

أيا شَجَرَ الخابورِ مالكَ مُورِقاً     كأنك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيفِ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلّى المؤمن وآثاره فى الأرض ، ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء : تمثيل . ونفيُ ذلك عنهم فى قوله تعالى(١) ( فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ) فيه تهكم بهم وبحالهم ، المنافية لحال من يعظم فقده. فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعنى : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ » أى مؤخّرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ )

« وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( مِن فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ )

« مِن فِرْعَوْنَ » بدل من العذاب ، على حذف مضاف. أو جعله عذاباً، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من ( المهين ) بمعنى واقعاً من جهته « إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا » أى متكبّراً على الناس « مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحدّ ، فى العتوّ والشرّ .

---

(١) البيت لليلى بنت طريف الشيبانى . ترثى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مَزْيَد قتله . والقصيدة مطلعها :

بِتَلِّ نُبَاتَا رسمُ قبر كأنه     على عَلَمٍ فوق الجبالِ مُنِيفِ

( الأغانى ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار ) .     (٢) [ ٤٤ / الدخان / ٢٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ )

«وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى فضّلناهم لأجل علمٍ معهم، على عالمى زمانهم، أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ )

« وَآتَيْنَاهُم » أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم « مِّنَ الْآيَاتِ » أى المعجزات والكرامات « مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ » أى نعمة ظاهرة، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ )

[٣٥] ( إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ )

« إِنَّ هَٰؤُلَاءِ » أى مشركى قريش « لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ » أى المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه. وليس القصد إلى إثبات ثانية. قال الإسنوىّ فى (التمهيد) : الأول فى اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول: هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحدىّ فى تفسيره، والزجاج. ومن فروع المسألة، مالو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علىّ : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولا ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .

وما ذكر أظهر مما للزمخشرىّ هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ » أى مبعوثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ )

« فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا . قال ابن كثير: وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة . فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا فى دار الدنيا . بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا. ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا. ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يردّ ، كما حلّ بأشباههم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ )

« أَهُمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنعة « أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ » أى أهلكناهم بجرمهم. وهو كفرهم وفسادهم. وهم ماهم. فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ. أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة ( سبأ ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان. وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا. كما يقال ( كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا. و (النجاشىّ) لمن ملك الحبشة. وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه. واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصّر الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل . فاستحيا منهم وكفّ عنهم. واستصحب معه حبرين من أحبار يهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبيّ يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن. فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة. فنهياه عن ذلك أيضا، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبيّ المبعوث فى آخر الزمان . فعظمها وطاف بها وكساها المُلاء والوصائل والحبر . ثم كرّ راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهوّد معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهوّد معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه ( السيرة ) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرهميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والحبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة ، عن أُبيّ بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد ابن إسحاق فى ( السيرة ) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبّع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبيّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه ... رسولٌ من الله بارِي النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْرِي إلى عُمْرِهِ ... لكنتُ وَزِيراً لهُ وابنَ عَمْ
وجاهدتُ بالسيف أعداءَهُ ... وفرَّجْتُ عن صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

ثم ساق ابن كثير آثارا في النهي عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمرويّ في شأنه، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعيّ . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من فخامة نبئه المرويّ لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لاقصّ ذلك خبرا من الأخبار ، وسمرا من الأسمار ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أي الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ » أي فصل الله بين الخلائق وقضاءه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ » أى بأن وفّقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « ٱلرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ )

« إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ )

« طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ )

[٤٦] ( كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ )

« كَٱلْمُهْلِ » وهو درديّ الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ الذى انتهى غليانه . وقوله ( فِى ٱلْبُطُونِ ) كقوله[١] ( نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ) وهذه الآية كآية الصافات[٢] ( أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ) .

(١) [ ١٠٤ / الهمزة / ٦و٧ ] .　　(٢) [ ٣٧ / الصافات / ٦٢ـ٦٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ » أى ادفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾

« ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾

« ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهكم ، فيتم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسىّ ، العذابُ العقلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾

« إِنَّ هَـٰذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ » أى تشكّون ، مع ظهور دلائله . أو تمارون وتتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

[٥٣] ( يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ )

« فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارقّ من الحرير وكثُف « مُّتَقَـٰبِلِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصفيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ )

« كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ )

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ، وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ )

[٥٧] ( فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ )

[٥٨] ( فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ )

[٥٩] ( فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ )

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ » قال ابن جرير(١) : أى لا يذوق هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد الموتة الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إلّا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى . يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فذلكة للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بعبره وعظاته وحججه ، فينيبوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق « فَٱرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم من زهوق باطلهم « إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم ( نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ) وهذا وعد له ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسلية ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه[1] ( كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ) وقوله تعالى[2] ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ) .

---

(١) [ ٥٨ / المجادلة / ٢١ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٥ - سورة الجاثية

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهي من المطالب الشريفة في القرآن . وتسمى ( سورة الشريعة ) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايميّ .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها آية[1] ( قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ ) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما سيأتي ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [ ٤٥ / الجاثية / ١٤ ] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ )

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » قال المهايمىّ : فعزّته تقتضى إفاضة الحجج التى بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكمالات التى يعسر الوصول إليها . وأنواعُ السعادات ، وحدة النظر ، والحكمةُ تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزّله من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه . فمنها آيات الأجسام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ )

[٤] ( وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ )

[٥] ( وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ » أى مطر . سمى رزقا لأنه سببه « فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديمُ اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك ( أعجبنى زيد وكرمه ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل « أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه ،

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا، أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَـٰذَا هُدًى، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

[١٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلا « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا » استهانة بها « أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ » أى من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ » أى من الأموال والأولاد « شَيْـًٔا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَٰذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق، يهدى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج لآليه ، وصيد منه « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [١٣] ( وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيعتبرون بها ويتفكرون . قال المهايمىّ : منها أن ربط بعض العالم بالبعض دليل توحيده . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى صدّقوا بالله واتبعوك « يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائعه بأعدائه « لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، ليُثاب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر ـ إن صح ـ صدقها على قضيته . والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

«مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أى لكونه افتكها من العذاب «وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا» أى أساء عمله بمعصية ربه، فعلى نفسه جَنَى ، لأنه أوبقها بذلك «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة «وَٱلْحُكْمَ» أى الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التى لم تنزل بالكتاب « وَٱلنُّبُوَّةَ » أى جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق « وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ » يعنى المنّ والسلوى « وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى عالمى أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ، فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

«وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أى حججاً وبراهين وأدلة قاطعات ، تأبى الاختلاف ، ولكن أبوا إلا الاختلاف «فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ» أى ظلماً وتعدياً منهم ، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى بالمؤاخذة والمجازاة . قال ابن كثير : وهذا فيه تحذير لهذه الأمة ، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ )

« ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ » أى على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين ، الذى أمرنا به من قبلك من رسلنا « فَٱتَّبِعْهَا » أى تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعنى المشركين وما هم عليه من الأهواء التى لا حجة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ، وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ )

«إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أي لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما، «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أي أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة . أو فى التحزّب والتقوّى. ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلّت عناية الله ونصرته عنهم ؟ «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» أي من اتقاه بعبادته وحده، وخشيته بكفايته من بغى عليه، وكاده بسوء. والأظهر تفسير الآية بآية(1) «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

«هَٰذَا» أي القرآن «بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» أي يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد. قال الزمخشريّ : جعل مافيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل روحا وحياة . أي فهو تشبيه بليغ «وَهُدًى» أي من الضلالة «وَرَحْمَةٌ» أي من العذاب لمن آمن وأيقن «لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» أي يطلبون اليقين «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ» أي اكتسبوا سيئات الأعمال «أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» أي من عدم التفاوت. قال الزمخشريّ: والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيًا، وأن يستووا مماتا . لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

(1) [ ٢ / البقرة / ٢٥٧ ] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمأنينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والعيث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية[١] ( وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

« وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب. قال ابن جرير[٢] : أى للعدل والحق، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من التسوية بين الأبرار والفجار. لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشرىّ : معطوف على ( بالحق ) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلل محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته، ولتجزى كل نفس «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فى جزاء أعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ )

[٢٤] ( وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ )

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبده . فجعله إلها تشبيه بليغ أو استعارة . قال القاشانىّ : الإله المعبود، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلها . إذ كل مايعبده الإنسان بمحبته وطاعته ، فهو إلهه ولو كان

(١) [ ٢٠ / طه / ١٢٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

حجرا ! « وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى عالما بحاله ، من زوال استعداده ، وانقلاب وجهه ، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى عالما بعلم ما يجب عليه فعله فى الدين . على تقدير أن يكون ( عَلَىٰ عِلْمٍ ) حالا من الضمير المفعول فى (أَضَلَّهُ ٱللَّهُ) لا من الفاعل. وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه محبة النفس وغلبة الهوي . أو على علم منه غير نافع . لكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لمكان الرَّين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئاً « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا» أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنىّ الطبيعىّ ، «وَنَحْيَا» أى الحياة الجسمانية الحسية ، لا موت ولا حياة غيرها «وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين . و ( ذلك ) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشرىّ : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[1] ( لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر ) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابىّ ، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا ( بؤسا للدهر ) و ( تبا للدهر ) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحا نحوه من الظاهرية ، فى عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

فى هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وماهذا سبيله ، فباب القبول فى وجهه مسدود[1] (إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا)

قال الشهرستانيّ فى معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد[2] ( وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ) إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفليّ . وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر ( وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، فى كم آية وكم سورة فقال تعالى[3] ( أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ )[4] ( أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) وقال[5] ( أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ) وقال[6] ( قَالَ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ) وقال[7] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداء وإعادة . انتهى .

ولى فى الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمته ( دلائل التوحيد ) فليرجع إليه المريد ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

(١) [ ١٠ / يونس / ٣٦ ] . (٢) [ ٤٥ / الجاثية / ٢٤ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨٤ ] . (٤) [ ٧ / الأعراف / ١٨٥ ] .
(٥) [ ١٦ / النحل / ٤٨ ] . (٦) [ ٤١ / فصلت / ٩ ] . (٧) [ ٢ / البقرة / ٢١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكما بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى قل لهم فى جواب قولهم (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ): قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم ( فى جواب إنكارهم البعث ) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مرارا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى الذين أتوا بالباطل فى أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[٢٩] ﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[٣٠] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

[٣١] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

« وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » أى باركة، مستوفزة على الركب لاحراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره. وذلك عند الحساب أو فى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء « كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا » أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها. ويعطى بيمين من كان سعيداً. وشمال من كان شقيا « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ » أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ » أى نستكتب الملائكة « مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى ما صلح به حالهم فى المعاد الجسمانى « فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ » أى فى جنته « ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ » أى فيقال لهم « أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى بكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بمعاد ، ولا الإيمان بثواب وعقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ )

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ » أى : أىّ شيء هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ » أى أنها كائنة وآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ )

[٣٤] ( وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ )

[٣٥] ( ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ )

«وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟» أى قبائح أعمالهم، أو عقوبات أعمالهم السيئات «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » يعنى الجزاء «وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أى نترككم فى العذاب، ترك ما يُنسى، كما تركتم التأهب له. ف (نَنسَىٰكُمْ) استعارة أو مجاز مرسل « وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ * ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا» أى خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة وزعمتم أن لاحياة سواها « فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا » أى من النار «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه. من (الإعتاب) وهو إزالة العتب، كناية عن الإرضاء . أو : لاهم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[٣٧] ( وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

« فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير[1] : أى فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه . فإياه فاحمدوا أيها الناس . فإن كل ما بكم من نعمة فمنه، دون ماتعبدون من دونه، من آلهة ووثن « رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شىء . وغاية العلوّ والعظمة باستغنائه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ القاهر لكل شىء « ٱلْحَكِيمُ » قال القاشانىّ : أى المرتب لاستعداد كل شىء ، بلطف تدبيره ، المهيء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفىّ حكمته ( لا إله إلا هو رب العالمين ) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمنزلنا بدمشق الشام . بقلم جامعه جمال الدين القاسمىّ . وهذا آخر الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير :
٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ٤٧ ـ سورة محمد ، ٤٨ ـ سورة الفتح ، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٥٠ ـ سورة قٓ ، ٥١ ـ سورة الذاريات ، ٥٢ ـ سورة الطور ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٥٤ ـ سورة القمر ، ٥٥ ـ سورة الرحمن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥٢٧٣

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

## الجزء الخامس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٤٦ — سورة الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ — سورة الرحمن

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

### الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضي الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسميّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

### السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْي السلف ، والارتقاء المدنيّ الذي يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

### الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضي الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، في خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# ٤٦ – سورة الأحقاف

قال المهايمىّ : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العـذاب فيه ، كالدليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالدلائل على أنفسها . ثم فى قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة المرجوّ مخوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهى مكية . واستثنى بعضهم منها ( وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ... )[1] الآيتين . وقوله[2] : ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... ) الآية . ( وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ... )[3] الأربع الآيات . ( فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ... )[4] الآية ، فهى مدنية ـ كذا قيل . وتقدم فى طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٧ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٠ ] .
(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٥ ] . (٤) [ ٤٦ / الأحقاف / ٣٥ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( حمٓ )

[٢] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ )

[٣] ( مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ )

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ » أى : من هول ذلك اليوم « مُعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ، ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

« قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضىّ بالاستقلال ، أو شىء سماوىّ بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ » تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلىّ ، بعد تبكيتهم بالتعجيز

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : ائتونى بكتاب إلٰهىّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقلىّ ، أو سلطان نقلىّ . وحيث لم يقم عليها شىء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ )

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخّرون مشغولون بأحوالهم . و ( الغفلة ) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله ( إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه ـ والله أعلم ـ أنها من الغايات المشعرة بأن مابعدها ، وإن وافق ماقبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت مابينهما، كالشىء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

فى سورة الزخرف فى قوله[١] ( بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ )

« وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُواْ » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَآءً » أى : لتبرّئهم منهم. قال الشهاب: أعداء استعارة ، أومجاز مرسل للضارّ . «وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ» قال ابن جرير[٢] :أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرّأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصدًا إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانىّ : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانىّ . وكذا استعباد الموالى لخدمهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله[٣] ( ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى ( كَانُواْ ) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر: لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

---

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٦٧ ] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرًا ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية[١] (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» أى : بادهوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ، ولا إعمال روية . واللام فى (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ، وعدّى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه، وهو الإيمان ، فإنه يعدى بها نحو[٢] (أَنُؤْمِنُ لَكَ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى: لاتقدرون أن تدفعوا عنى سوءاً ، إن أصابنى به. و (أم) ـعلى ما قالواـ منقطعة مقدرة بـ(بل) الإضرابية وهمزة الاستفهام ، المتجوز بهعن الإنكار والتعجيب. ووجه كون الافتراء أشنع من السحر، حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة .

---

(١) [ ١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ١١١ ] .

وقال الناصر : هذا الإضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آنفاً فى بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون فى حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد لى بالصدق بما يؤيدنى به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى : لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التى أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم، فلِمَ تستنكرون بعثى، وتستبعدون رسالتى ، كقوله [(١)] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير [(٢)] : ومن البدع قول عدىّ بن زيد [(٣)] :

فَلَا أَنَا بِدْعٌ من حَوَادِثَ تَعْتَرِى رجالًا عَرَتْ من بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعُدِ

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٤٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من الجمهرة ومطلعها :

أتعرفُ رسمَ الدارِ من أم مَعْبَدٍ نَعَمْ . وَرَمَاكَ الشوقُ قبل التجلُّدِ

تعترى : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص [١] :

فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فقلتُ : ذَرِينى ليْسَ جهلٌ أُتيتِه ببـديعِ

« وَمَآ أَدْرِى مَا يُفعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أىّ شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدّر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدرى ما يصير إليه أمرى ، وأمركم فى الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة . والأظهر أن ( ما ) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ما عول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو ﷺ جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما فى الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركى قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذى رواه الإمام [٢] أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سُكينة . فأذّن مؤذّن . فلما قال ( أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ) فخرت سكينة بما سمعت . فقال الأحوص :

فخرت فانتمَتْ . . . .

فأنا ابن الذى حمت لحمَهُ الدَّبْـ رُ ، قتيلِ اللَّحْيَانِ يوم الرجيعِ

غَسَّلت خالىَ الملائـكة الأبْـ رار ميتا طُوبَى له من صريعِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى فخر بفخر ، لو على غير سكينة ، فخر به ! وبأبى سكينة ﷺ ، حمتْ أباهُ الدَّبْرُ ، وغسلت خالَه الملائـكة .

( الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .

النبيّ ﷺ ، قالت : (طار لنا فى السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك،أبا السائب! شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أماهو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير. والله! ما أدرى ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بى! قالت: فقلت : والله ! لاأزكى أحداً بعده أبداً وأحزننى ذلك. فنمت ، فرأيت لعثمان رضى الله عنه عيناً تجرى، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله ) فقد انفرد بإخراجه البخارىّ(١) دون مسلم ، وفى لفظ له : ما أدرى ـ وأنا رسول الله ﷺ ـ ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزننى ذلك . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة ، إلا الذى نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام ( والدجابر ) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضى الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايمىّ : ( وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ) أى : فيما لم يوح إلىّ . والوحى ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقى . ولم يكن لى أن أضمّ إلى الوحى كذباً من عندى .

« إِنْ أَتَّبِعُ »أى:فى تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ »أى منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى مافيه صلاحكم وسعادتكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣ـ باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ» أي: القرآن منزلاً من لدنه، علىّ. لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أي: من الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة «عَلَىٰ مِثْلِهِۦ» أي مثل القرآن، وهو ما فى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده، وهو ما يتبعه، كقوله تعالى(١) (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) وقوله(٢) (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى. أو على مثل شهادة القرآن، فجعل شهادته على أنه من عند الله، شهادة على مثل شهادة القرآن، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله، أو (المثل) صلة و (الفاء) فى قوله تعالى « فَـَٔامَنَ » للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق « وَٱسْتَكْبَرْتُمْ » أي: عن الإيمان به بعد هذه الشهادة.

وقوله: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » استئناف مشعر بأن كفرهم، لضلالهم المسبب عن ظلمهم. ودليل على الجواب المحذوف. مثل: (ألستم ظالمين) أو (فمن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً، فيكون كقوله فى الآية الأخرى(٣) (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ).

قال أبو السعود: ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم، لظلمهم.

تنبيه:

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة، كما ذكره الكواشىّ، لأن إسلامه كان بالمدينة. وأجيب: بأن لا حاجة للاستثناء، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع، كقوله(٤) (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ). ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٦ ]. (٢) [ ٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩ ].
(٣) [ ٤١ / فصلت / ٥٢ ]. (٤) [ ٧ / الأعراف / ٤٨ ].

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه. ويقرب مما نذكره كثيرًا من المرادمن سبب النزول فى مثل هذا، وأنه استشهادعلى مايتناوله اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم فى التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ » أى : الإيمان، أو ما أتى به الرسول «خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ » أى: لوكان من عندالله لـكناأولى به، كسائرالخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالًا وعمارًا وصهيباًوخباباً رضى الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تعالى[١] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ) أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا[٢] (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم : هو بدعة . لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. انتهى. «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ »أى: بالقرآن«فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ» أى : كذب قديم، كما قالوا ( أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ) . قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال[٣] رسول الله ﷺ : بطر الحق وغمط الناس .

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٣ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ١١ ] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البرّ والصلة ، ٦١ ـ باب ماجاء فى الكبر =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

« وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً » أى : قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . « وَهَٰذَا » أى الذى يقولون فيه ما يقولون « كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ » أى : لـكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه « لِّسَانًا عَرَبِيًّا » أى : بيّناً واضحاً . وفى تقييد الـكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . « لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[١٤] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ » أى : لا غيره . « ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ » أى : على العمل الصالح . قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و ( ثُمَّ ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من هول يوم القيامة « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . « أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبىّ ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . ولا يدخل النار ( يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجمال . ولـكن الـكبر مَنْ بَطِرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ، إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا » وقرئ ( حُسْنًا ) وهــذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما فى الإيمان المذكور ، فى قوله[1] تعالى ( وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ... ) الآية .

« حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملا ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ » أى : حمله جنيناً فى بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأنا نقول : إن الحولين أَمَدُ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنــه قوله[2] تعالى ( حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون فى الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم فى ذلك ، كما ذكروه فى حديث أنس فى وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفى عن ثلاث وستين ، كما بين فى شرح الشمائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

---

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٧ ] .   (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٣ ] .

قال ابن كثير : وقد استدل عليّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان[١] (وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ) وقوله تبارك وتعالى[٢] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قويّ صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

« حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ » أي : استحكم قوته وعقله «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ » أي : ألهمني « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ » أي : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . « وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ » أي : واجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، راسخاً فيهم « إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ » أي : من ذنوبي التي سلفت مني « وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أي: المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ )

« أُو۟لَٰٓئِكَ » أي الموصوفون بالتوبة والاستقامة « ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ » أي : من الصالحات فنجازيهم عليها « وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ » أي : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم « فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ » أي : معدودين في زمرتهم ثواباً ومقاماً .

قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل[٣] ( وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ) ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها ، إذ قولك ( فلان من العلماء ) أبلغ من قولك ( عالم ) . ولم يبيّنوه ههنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال ( فِىٓ ) بمعنى ( مع ) . انتهى .

---

(١) [ ٣١/ لقمان / لقمان / ١٤ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٣ ] .
(٣) [ ١٢ / يوسف / ٢٠ ] .

« وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعدَ الحق فى الدنيا ، وهو موفيه لهم فى الآخرة ، كما قال[1] ( وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ) .

ثم بيّن تعالى نعت من عصى ما وصَّى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاقّ كافر ، وما له فى مآله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

« وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ » أى حين دعَوَاه إلى الإيمان والاستقامة « أُفٍّ لَّكُمَآ » أى: من هذه الدعوة « أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبرى بعد فنائى « وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستعظامه ، كأنهما لجآ إلى الله فى دفعه ، كما يقال ( العياذ بالله ) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدّق بوعد الله ، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك . و ( وَيْلَكَ ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ماهو فيه ، وأخذ ما ينجيه « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، ورادًّا عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التى كتبوها .

---

(١) [ ٥٢ / الطور / ٢١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ)

« أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى : الإلهىّ ، وهو العذاب « فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ » أى : ببيعهم الهدى بالضلال ، والباقى بالفانى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى من الفريقين « دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيء « وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى ابنٍ لأبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ قال : نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه ـ وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعدُ ، فحسن إسلامه ـ فنزلت توبته فى هذه الآية (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟) .

قال الحافظ ابن حجر: لكن نفيُ عائشة أن تكون نزلت فى عبدالرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول. وذلك مارواه البخارىّ(١) والإسماعيلىّ والنسائىّ وأبويعلى؛ أن مروان

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ١ ـ باب والذى قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملًا على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيدَ ، ودعا إلى بيعته وقال: إن الله أرى أمير المؤمنين فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: ماهى إلا هرقلية! فقال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن: هرقلية! إن أبا بكر، والله ! ماجعلهافى أحد من ولده، ولا فى أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه. فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه ( وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ) فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروانُ فى صلبه .

ومما يؤيده أن ( ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ) هم المخلدون فى النار فى علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وحاول بعضهم عدم التنافى بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه، ثم يسلم بعد ذلك. ومعلوم أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن معنى الوعيد فى الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد فى العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد فى أول البعثة آيات لاتحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أنَّ فيها ما يحط من أقدارهم، ويجعلها مغمزًا لهم، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقالةٍ يلوكها الرعاع ، وهم الذين يهمه أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن! فقد شفى الغلة، وصدع بالحق ، فى حين أن لاظهير له ولا نصير ـ والله أعلم ـ .

قال ابن قتيبة فى ( المعارف ) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ فى نسق : أبو قحافة، وابنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن .

وقال أيضاً: قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش، ويكنى أبا محمد، وله عقب بالمدينة،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زورًا. وما أكثر المزوّرات في المزارات، كما يعلمه من دقّق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أي يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أي فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها « فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ » أي الهوان « بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أي بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ » أي عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ » يعني هودًا « إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع. قال قتادة : ذكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن ، أهل رمل، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ » أي : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ » أي لا تشركوا مع الله شيئًا

فى عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

«قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» أى لتصرفنا «عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لامحالة . « قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له «وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرى[١] : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

فرأوه عارضاً فى ناحية من نواحى السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض «مُّمْطِرُنَا» أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من ( ما ) ، «فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ» أى تهلك « كُلَّ شَىْءٍ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمّرتهم « فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ » أى بيوتهم .

ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا فى غيهم ، وطغوا على ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أنّ ( إن ) نافية ، أوثرت على ( ما ) لئلا توجب شبه التكرير الثقيل. وقيل ( إن ) شرطية محذوفة الجواب. والتقدير: ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شىء ، إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله[1] .

يرجّى المرءُ ما إنْ لَا يَرَاهُ     ويَعْرِضُ دونَ أَدْنَاهُ الخطوبُ

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ، قاله إياس بن الأرتّ . وقبله .

فإنْ أُمْسِكْ فإن العيشَ حُلْوٌ     إلىّ كأنه عَسَلٌ مَشُوبُ =

قال الزمخشرىّ : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه فى غير آية فى القرآن(١) ( هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا )(٢) ( كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا ) وهو أبلغ فى التوبيخ ، وأدخل فى الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى(٣) ( وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً )وقوله(٤) (مَكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ) أى: والأصل توافق المعانى فى الآى الواردة فى نبأ واحد، على مافيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً » قال الطبرىّ(٥) : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، «فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ» أى لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل فى خلافه « إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبرى(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شَراشِرَهُ ، أيخطىء أم يصيبُ

ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطماعه إلى الأمور المغيبة التى لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمورُ الشديدة التى تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [ ١٩ / مريم / ٧٤ ] . (٢) [ ٤٠ / غافر / ٨٢ ] .
(٣) [ ٤١ / فصلت / ١٥ ] . (٤) [ ٦ الأنعام / ٦ ] .
(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الساس والعشرين(طبعة الحلبىّ الثانية).
(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة.

لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم » أي ما حول قريتكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أي كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أي وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أي عن الكفر بالله ورسله . قال الطبريّ : وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادي على غيهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ )

« فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » أي : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أوثانهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا[1] ( هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ) .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ١٨ ] .

« بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمدوا بهم، امتناع الاستمداد بالضالّ ففى ( ضَلُّواْ ) استعارة تبعية « وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » أى وإثر افترائهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ )

[٣٠] ( قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ )

[٣١] ( يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ )

[٣٢] ( وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ )

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ » أى أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ » أى ليتم التدبر والتفكر «فَلَمَّا قُضِىَ» أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْاْ » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فُضّل عليها إذ « يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى[1] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى[2] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن: يهدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

« يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ » أى رسول الله محمدًا إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله، « وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزٍ ربَّه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أنّى اتجه . « وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ » أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . « أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » أى أخذ على غير استقامة .

## تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام مسلم[3] عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراءَ . قال : فقلنا : يارسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطَلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم .

وروى الإمام أحمد[4] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحى،

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١٥ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٣٣ ] .
(٣) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ ( طبعتنا ) .
(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول ( طبعة الحلبيّ ) والحديث رقم ٢٤٨٢ ( طبعة المعارف ) .

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشراً . فيكون ما سمعوا حقًّا ، وما زادوا باطلًا . وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رُمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبثّ جنوده ، فإذا بالنبيّ ﷺ يصلّى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذىّ [١] والنسائىّ فى كتابى التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصرىّ : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظىّ قصة خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعته الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله ( إن الجن كان استماعهم تلك الليلة ) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضى الله عنهما المذكور . وخروجُه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه [٢] ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . . ) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٩ ] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم [1] جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً : من آذن النبيّ ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثني أبوك ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقيّ : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ماسمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم . ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ـ كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ـ .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبيّ ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقيّ . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ـ والله أعلم ـ كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ( قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجن نصيبين . وتأوّل البيهقي قوله ( فبتنا بشرّ ليلة ) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعْدٍ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ ـ باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ ( طبعتنا ) .

وبالجملة ، فقد روى مايدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد عند ابن جرير[1] فى هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدلّ على أنه قدروى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالىّ أن هذا الحىّ من الجن كانوا أكثر الجن عدداً ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدلّ على ذلك ماوراه البخارىّ[2] فى صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشىء قط يقول : إنى لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . علىّ الرجلَ . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنَهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا . ثم نادى : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . فقمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبيّ ـ هذا سياق البخارىّ ـ وقد رواه البيهقىّ من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ ـ باب إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ـ والله أعلم ـ .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقىّ : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب. قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان . قال سواد : فإنى كنت نازلا بالهند ، وكان لى رَئِىٌّ من الجن . قال ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤىّ بن غالب ، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنّ وتَحْسَاسِهَا ... وشــدِّها العيسَ بأحْلَاسِهَا
تَهوى إلى مكة تبغى الهُدَى ... ما خيِّرُ الجنِّ كأَنْجَاسِهَا
فانهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشِمٍ ... واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : ياسواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبيًّا، فانهض إليه تهتدِ وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبتُ للجن وتَطـلَابِهَا ... وشــدِّها العيسَ بأَقْتَابِهَا
تَهـوى إلى مكة تبغى الهدى ... وليسَ قُدْمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فانهض إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ... واسمُ بعينيــك إلى قَابِهَا

فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عجبتُ للجن وتَخْبَارِهَــا ... وشدِّها العيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ليس ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فانْهَضْ إلى الصَّفوةِ من هاشم ... ما مُؤْمِنُو الجنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ،وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلى ، فشددته على راحلتى ، فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآنى النبيّ ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يارسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه منى ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَانِى رَئِـيِّى بعد لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ ... ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبِ
ثلاثَ ليالٍ ، قولُه كلَّ ليلة : ... أتاكَ رسول من لُؤَىّ بْنِ غالب
فشمَّرْتُ عن ساقى الإزار وَوَسَّطَتْ ... بى الدِّعْلِبُ الوجناءُ بين السباسب
فأشهد أن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله ، يابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مُرْسَلٍ ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذَّوَائبِ
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواكَ بمُغْنٍ عن سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال : فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لى : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيّك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقىّ من وجهين آخرين. انتهى[1] كلام ابن كثير.

وقد ساقه الإمام الماوردىّ فى ( أعلام النبوة ) مع نظائر له ، فى الباب السادس عشر ، فى هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد ، عمن لايرى شخصه ، ولا يحج قوله، لخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره فى النفوس بشير، وقد قبلها السامعون. وقبولُ الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع ( طبعة ١٩٣٧ ) .

جاز أن تكون دليلًا على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن الكهانة عن مغيّب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردىّ : فى صرف الجن المذكور فى قوله تعالى[1] ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ) وجهان :

أحدهما ـ أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث فى السماء ، إلا لحادث فى الأرض ، وتخيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ ببطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلى الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلى ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضى الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون ( إلى ) فى ( إليك ) بمعنى لام التعليل . وذُكر فى (المغنى) أنها تأتى مرادفة اللام، نحو[2] ( والأمر إليكِ ) . وفيه تكاف وبُعدٌ ، لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردىّ : وحكى عكرمة أن السورة التى كان يقرؤها[3] ( ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ) .

أقول : سيأتى مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردىّ :

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٩ ] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثانى ـ أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبيّ الله ببطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : فخط عليّ خطًّا وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه. وعلى الوجه الثانى، أعلمه جبريل قبل إتيانهم. واختلف أهل العلم فى رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يرهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن .

مكتبة الحرم النبوي الشريف المدينة المنورة

أقول : تقدم لابن كثير مافيه كفاية ـ .

ثم قال الماوردىّ : وفى قوله[1] ( فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ) وجهان :

أحدها ـ فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثانى : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا ـ أى قولهم أنصتوا ـ أدب منهم . وقد روى البيهقىّ عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالى أراكم سكوتاً ؟ لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم ردا . ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا: ولا بشىء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد. ورواه الترمذىّ[2] وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث ـ دل قوله تعالى[3] (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عامّ الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٩ ] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥٥ ـ سورة الرحمن، باب حدثنا عبد الرحمن ابن واقد . (٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ٣١ ] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال ( أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ).

قال الماوردىّ: لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم، فجوّزه قوم لقول الله تعالى(١) ( يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ) ومنع آخرون منه. وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوْا إلى قومهم منذرين . انتهى .

أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية(٢) ( إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ) .

الرابع ـ استدل بقوله (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)مَن ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .

قال الماوردىّ : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم. فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم، يدخلون الجنة. وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق ـ كما قال ابن كثير ـ أن مؤمنهم كمؤمن الإنس ، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل(٣) ( لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا(٤) ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٣٠ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ١٤ ] .

(٣) [ ٥٥ / الرحمن / ٥٦و٧٤ ] . (٤) [ ٥٥ / ٤٦و٤٧ ] .

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة. وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولىّ أبلغ من الإنس، فقالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم. وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلأن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على عموم ذلك قوله تعالى[1] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار. فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه[2] ( يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى )ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس ـ قيل : سر التبعيض فى قوله ( مِّن ذُنُوبِكُمْ ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربىّ لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال.

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ١٠٧ ] . (٢) [ ٧١ / نوح / ٤ ] .

ويقال : إنه ماوعدُ المغفرة للـكافر على تقدير الإيمان فى كتاب الله تعالى إلا مبعضة، والسر فيه أن مقام الـكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما فى حق المؤمن ـ أفاده الناصر ـ .

السادس ـ قال ابن كثير: جمعوا فى دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجع فى كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع ـ قال الماوردىّ : الجن من العالم الناطق المميز، يأ كلون ويتنا كحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص رؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الـكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية .

وقال القاشانىّ :الجن نفوس أرضية تجسدت فى أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر، سماها حكماء الفرس ( الصور المعلقة ) . ولـكونها أرضية متجسدة فى أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس فى ذلك ، سميا ( ثقلين ) . وكما أمكن الناسَ التهدّى بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أ كثر من أن يمكن رد الجميع، وأوضح من أن يقبل التأويل. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ » أى بإعادة الروح إلى الجسد ، بعـــد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كهيأتهم قبل وفاتهم .

وفى ابن جرير[1] بحث نحوىّ فى دخول الباء فى ( بِقَادِرٍ ) بديعٌ . ويذكر فى مباحث زيادة الباء ، فى مطولات العربية .

« بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من إعادة المعدوم ، ولو فنى الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ )

[٣٥] ( فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ )

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا » أى الإحياء إحياء « بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَٱصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم ـ فى اللغة ـ كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشيء والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون، المجدّون، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لا تبعيضية، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلابد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها ـ أنهم جميع الرسل . والثانى ـ أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث ـ أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزمِ نوحٌ والخليلُ الممجَّدُ ... وموسَى وعيسَى والنبيُّ محمــدُ

والرابع ـ أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس ـ أنهم سبعة بزيادة آدم . والسادس ـ أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزاد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام فى دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحمى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو لملك جبار فى عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كنمروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولـكل موسى فرعون ، ولـكل محمد أبو جهل . وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره ـ أفاده الشهاب ـ « وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ » أى ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونـكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أو فى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلَـٰغٌ » قال ابن جرير(١) : فيه وجهان :

أحدها ـ أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف ( ذلك لبث ) ، وهى مرادة فى الـكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الـكلام عليها .

والآخر ـ أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فـكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايمىّ إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحـكمة « إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٧ - سورة محمد ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده ـ قاله المهايمي ـ .

وهي مدنية . وحكى النسفي قولاً غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ( ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ )

« ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى: جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره « وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى : أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. « أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى ورشاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم .

وقوله « وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ » أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله « وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ » أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ » أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح، ما كان منهم من الكفر والمعاصى، لرجوعهم عنها وتوبتهم « وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ » أى حالهم وشأنهم، وعملهم فى الدنيا بالتأييد والتوفيق.

قال الشهاب : ( البال ) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم، كقوله ﷺ[١] ( كل أمر ذى بال ) . ويكون بمعنى الخاطر القلبيّ، ويتجوز به عن القلب . ولو فسر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب خطبة النكاح ، حديث ١٨٩٤ ( طبعتنا ) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسره السفاقسيّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لايعرف منه فعل، ولا تكاد العرب تجمعه إلا فى ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : ( بالات ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ )

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كائن « بِأَنَّ ٱلَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أو فى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ، وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ )

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فى قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب مافى حيزها من الأمر على ماقبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين مايليق به من الأحكام. أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم فى المحاربة ، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم ، فصاروا فى أيديكم أسرى « فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ » بفتح الواو ، وقرىء بكسرها . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أى فأمسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سبعيتهم ، وإما تفدون فداء ، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايمىّ : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مرمن قوله(١) (مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال. ولم يذكر الاسترقاق، لأنه فى معنى استدامة الأسر، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية. ولا تزالوا كذلك «حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أى: إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى. استعير لآلات الحرب التى لاتقوم إلا بها، استعارة تصريحية أو مكنية، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخييلاً . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى(٢) :

وأعددتَ للحرب أوزارَها : رماحاً طِوالاً وخيلاً ذُكوراً

(١) [ ٨ / الأنفال / ٦٧ ] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها:

غَشِيتَ لِلَيْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وَطَالَبْتَهَا ونذرتَ النُّذُورَا

يمدح بها هوذة بن علىّ الحنفىّ .

وقيل : أوزارها آثامها . يعنى : حتى يترك أهل الحرب ـ وهم المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

## تنبيهات :

الأول ـ قال فى ( الإكليل ) : فى الآية بيان كيفية الجهاد .

الثانى ـ للسلف قولان فى أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّى أنها منسوخة بقوله تعالى [1] ( فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لايجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهى المطلقة .

ومدرك الثانى أن الأمر بقتلهم المجمل فى آيات ، محمول على المفصل فى مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة فى القتل ، فتلك من باب آخر .

وثم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لاينافى جواز القتل ، لعلمه من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى أختاره . وإذا دار الأمر فى الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لايتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام ، لما قدمناه فى مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين فى النسخ .

(١) [ ٩ / التوبة / ٥ ] .

ثم رأيت ابن جرير (١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :

والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، أنه مالم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أوما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى ، وذلك قوله تعالى (٢) ( فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ) الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أتى به أسيراً . وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلماً ، وهو على فدائهم والمنّ عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى ، فخص ذكرهما فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلمَ نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث ـ من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبيّ صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .
(٢) [ ٩ / التوبة / ٥ ] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يخيّر ، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة فى الأسراء المقاتلين ، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ ، كولىّ اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح فى بعض الأسرى . فإن منهم من له قوة ونكاية فى المسلمين ، فقتله أصلح . ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى فى المسلمين ، يرجى إسلامه ، فالمنّ عليه أولى . ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه ، استرقاقه أصلح ـ كما فى ( شرح الإقناع ) ـ .

الرابع ـ تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، قطعاً لحجته . ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة ، لحديث[1] بُرَيْدَة بن الحُصَيْب قال : كان النبىّ ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين . وقال : إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ـ رواه مسلم ـ .

وقيد الإمام ابن القيّم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصدهم المسلمون . أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة ، دفعاً عن نفوسهم وحريمهم وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم ـ كما فى ( شرح الإقناع ) ـ .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » خبر لمحذوف . أى الأمر ذلك . أو مفعول لمقدّر «وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ » أى : لانتقم منهم بعقوبة عاجلة ، وكفاكم ذلك كله. « وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ ( طبعتنا ) .

بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » أى ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق . « وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ » أى استشهدوا . وقرئ ( قاتلوا ) « فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ )

[٦] ( وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ )

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بيّنها لهم فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ )

[٩] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ » أى خزياً وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكبّ . « وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » أى من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل . « فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا )

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذّبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمّره بمعنى أهلكه . ودمّر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم، لجعل مفعوله نسياً منسيًّا ، فيتناول نفسه وكل مايختص به . والإتيان بـ ( على ) لتضمنه معنى ( أطبق عليه ) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَالُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ )

[١٢] ( إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ )

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكّرين فى المعاد، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح، فلا همّ لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم)

« وَكَأَيِّن » أى : وكم « مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبده على بصيرة منه. « كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ » أى فأراه إياه الشيطان حسنا ، فهو مقيم عليه. « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ، فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ)

« مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ » أى متغيّر الريح « وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

( مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ) مبتدأ خبره ( كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان فى صورة الإثبات ، هو فى معنى الإنكار والنفى ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : ( أَفَمَن كَانَ ... ) الخ، وليس فى اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعاريب أخر، هذا أمتنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ )

« وَمِنْهُم » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّن » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من المتلوّ، وتهاوناً به « مَاذَا قَالَ ءَانِفًا » أى الساعة. هل فيه هدى؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً . « أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ » أى آراءهم ، لا مايدعو إليه البرهان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً لحقيقة ماجاءهم « وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بيّن لهم ما يتقون .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

« فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير : أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى(١) ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ وكقوله جلت عظمته(٢) ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ وقوله سبحانه وتعالى(٣) ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقوله جل وعلا(٤) ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبىّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرىّ : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبىّ التوبة ، ونبىّ الملحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى .

روى البخارىّ(٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ـ بالوسطى والتى تليها ـ : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ » أى ذكرى ما قد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [ ٥٣ / النجم / ٥٦ و٥٧ ] . (٢) [ ٥٤ / القمر / ١ ] .
(٣) [ ١٦ / النحل / ١ ] . (٤) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] .
(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٩ ـ باب قول النبىّ ﷺ ( بعثت أنا والساعة كهاتين ) حديث رقم ٢٠٦٨

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ)

«فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ» قال ابن جرير[1]: أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغى أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذى هو خالق الخلق، ومالك كل شيء. يدين له بالربوبية كل ما دونه. والفاء فصيحة فى جواب شرط معلوم، مما مر من أول السورة إلى هنا، من حال الفريقين.

قال السيوطىّ: وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد فى العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات، المعرفةُ قبل الإقرار.

«وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ» قال ابن جرير[2]: أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

قال الشهاب: وإنما أعيد الجار، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبىّ ﷺ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر، وذنبه ترك الأَوْلى.

وقال السيوطىّ: استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء. انتهى.

والمسألة مبسوطة بأقوالها، وما لها وما عليها فى (الفِصَل) لابن حزم. فارجع إليه.

وفى الصحيح[3] أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٨٠ـ كتاب الدعوات، ٦٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ (اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤، عن أبى موسى الأشعرىّ.

فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطاياى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

وفى الصحيح(١) أنه كان يقول فى آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلهى لا إله إلا أنت .

وفى الصحيح(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ » أى متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ )

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أى تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار. « فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ » أى مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلا ، « وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ » أى الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى : شك فى الدين وضعف فى اليقين « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ » أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذى لا يطرف بصره

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١ ـ باب التهجد بالليل ، حديث رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣ ـ باب استغفار النبىّ ﷺ فى اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبى هريرة .

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولى ، بمعنى القرب. وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل ( أويل ) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فَعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و ( لهم ) خبره . وقد سمع فيه ( أولاة ) بتاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فُعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمى بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه ( أولاةٌ ) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون ( أولاة ) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منـــه عليهم أصلاً ، كما جاء ( أوّل ) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ ( قبل ) وسمع فيه ( أوّلة ) ـ كما نقله أبو حيان ـ فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها ـ أنه مبتدأ ، و ( لهم ) خبره ، تقديره : فالهلاك لهم .

والثاني ـ أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أي أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أي أولى وأحق بهم .

الثالث ـ أنه مبتدأ ، و ( لهم ) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و ( طاعة ) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

---

القول في تأويل قوله تعالى

[٢١] ( طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ )

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر ( أولى ) على ما تقدم .

الثاني ـ أنها صفة السورة . أي : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أي : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكيّ وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث ـ أنها مبتدأ ، و ( قول ) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكيّ : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع ـ أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أي أمرنا طاعة .

الخامس ـ أن ( لهم ) خبر مقدم و ( طاعة ) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل ـ أفاده السمين ـ .

« فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ » أي : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما في قوله [1] تعالى ( إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ) وعامل الظرف محذوف . أي خالفوا وتخلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلوجئتنى لأطعمتك . أي : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجبه « لَكَانَ » أي الصدق « خَيْرًا لَّهُمْ » أي فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأيًّا ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ )

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ » أي أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وماجاء به رسوله « أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أي بالتغاور والتناهب « وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ »

---

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٧ ] .

أى تعودوا لما كنتم عليه فى جاهليتكم من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٣] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ)

« أُوْلَـٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين « ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامّهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ » أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ)

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ » قال ابن جرير[1] : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ماهم عليه مقيمون . «أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتنكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها ، كأنها مبهمة منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم » أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر « مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى » أى الحق بواضح الحجة .

« ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ » أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه « وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانىّ ، أو أمهلهم الله تعالى ، فمد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى: الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ )

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَالُواْ » أى المنافقون « لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ » أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ « سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ » أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى[(١)] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

[٢٨] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

« فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَارَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَلِكَ » أى التوفى الهائل « بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه، « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ » أى يظهر « اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ» أى لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ » أى بعلاماتهم التى نسمهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى ( الإكليل ) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانىّ : علمُ الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالًا فى لوح القضاء ، وتفصيلًا فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فمعنى ( حَتَّىٰ نَعْلَمَ ) حتى يظهر علمنا التفصيلىّ فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ )

[٣٤] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ » أى لكن يعذبهم ويعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾

« فَلَا تَهِنُواْ » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامنتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَٱللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسكتم بحبله « وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد «وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم «وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ» أى لأنه غنىّ عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لايسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لايسألكم الجميع ، أى : لايأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله ( يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ) أى يعطكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال ـ هذا ماقاله الشهاب ـ .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ )

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشرىّ : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شىء ، يقال ( أحفاه فى المسألة ) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و ( أحفى شاربه ) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراهتكم لدينٍ يذهب بأموالكم . وضمير ( يخرج ) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ ( يخرج ) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ، وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ، وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ، وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾

« هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ » أى يمسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكلُّ شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ » أى بالذات إليه . فوصفُه بالغنى وصف لازم له ، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لاينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيلَ من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر ، وجزئيّه الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه .

« وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلًا منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه .

« ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُمْ » أى لايبخلوا بما أُمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على مايؤمرون به .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٨ - سورة الفتح

سميت به لدلالتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هـذه أمور جليلة ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وآيها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَةً له بالفتح . قال أنس: لما رجعنا من الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة، فنزلت. واختلف فى المكان الذى نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد ( بضَجْنان ) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى ـ الإكليل ـ بكراع الغميم . وعن أبى معشر ( بالجحفة ) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ـ وهو فى بعض أسفاره ـ لعمر : لقد أنزلت علىّ الليلةَ سورة، لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفّل قال : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجّع فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا )

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيناً » قال الرازىّ : فى الفتح وجوه :

أحدها ـ فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها ـ فتح الروم وغيرها .

وثالثها ـ المراد من الفتح ، صلح الحديبية .

ورابعها ـ فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها ـ المراد منه الحكم ، كقوله (١) (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ) ، وقوله (٢) ( ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانىّ ، وجميعها مما تحقق مصداقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تكرّه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أُحْصِرَ ورجع، أنزل الله عز وجل

(١) [ ٧ / الأعراف / ٨٩ ] . (٢) [ ٣٤ / سبأ / ٢٦ ] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً ، باعتبار مافيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . رروى البخارىّ [١] عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبىّ ﷺ ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) مرجعه من الحديبية . قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت علىّ آية أحب إلىّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجاه فى الصحيحين [٢] من رواية قتادة به ـ .

وروى الإمام أحمد [٣] عن مجمّع بن جارية الأنصارىّ رضى الله عنه ـ وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن ـ قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسولَ الله ! أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد.

ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ) ـ أى بينا ظاهراً ـ هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) .

وقال الإمام ابن القيّم فى ( زاد المعاد ) فى الكلام على ما فى غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره فى الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ) نزلت فى الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله! أو فتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدى قصة المسيح وخلقه من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيرًا ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدى نسخ القبلة ، قصة البيت وبنائه وتعظيمه والتنويه به ، وذكر بانيه، وتعظيمه ومدحه. ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له. وهكذا ما قدم بين يدى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك. وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدى الوحى فى اليقظة. وكذلك الهجرة، كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد. ومن تأمّل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الألباب . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا )

« لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاقّ الحروب، واقتحام موارد الخطوب.

« مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِـكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع مافرط منك ، من ترك الأَوْلى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لايشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهـذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليـه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولا من الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيما لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده ! لايسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ... ) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُو عَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوّك ، ورفعه ذكرك . « وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيماً » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه. قال أبو السعود: أصل الاستقامة، وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لـكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبلُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا )

« وَيَنصُرَكَ ٱللَّـهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قويًّا منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا )

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ » أى يقينا منضما إلى يقينهم .

قال القاشانىّ : السكينة نور فى القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدانٌ يقينىّ معه لذة وسرور .

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه . « وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا )

واللام فى قوله تعالى « لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبّر ما دبّر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ ( فَتَحْنَا ) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله ( لِيَزْدَادُوٓا۟ ) . « وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَآءَتْ مَصِيرًا )

« وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ » أى بالتعذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ ( دَآئِرَةُ ٱلسُّوءِ ) بالضم ، وهما لغتان من ( ساء ) كالكُرْه والكَرْه . « وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا )

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكرير: إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله ( عَلِيمًا حَكِيمًا ) ، وهنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المنتقم ، فلذا ذيله بقوله ( عَزِيزًا حَكِيمًا ) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرّض لوصف العزة . وقال القاشانىّ : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبدّل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا )

« إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظّموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا ـ على ظاهره ـ أو دائما ، بجعل طرفى النهار كناية عن الجميع ، كما يقال ( شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها ـ على ما ذكرنا ـ لله ، وجوّز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا )

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ ، ولا يولوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيه. « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ . وقال القاشانىّ : أى قدرته البارزة فى يد الرسول، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَن نَّكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح ـ على ما قاله ابن كثير ـ وقد اقتص سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها فى شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبيّ ﷺ فى ذى القعدة معتمرًا ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيّم : قصة الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا فى الصحيحين [١] عن جابر . وفيهما [٢] عن عبد الله بن أبى أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما[٣] : كانوا ألفاً وأربعمائة ـ والقلب إلى هذا أميل ـ وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ ، قد جمعوا لك الأحابيش [٤] ، وجمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذرارىّ هؤلاء

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين(١) محزونين ، وإن نجوا يكن عُنُق(٢) قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم(٣) ، فى خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فو الله! ماشعر بهم خالد حتى إذا هو بعترة الجيش. فانطلق يركض نذيرا لقريش. وسار النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنيَّة التى يهبط عليهم، بركت راحلته. فقال الناس: حَلْ حَلْ(٤)، فألحّت(٥) : فقالوا : خلأت(٦) القصواء! خلأت القصواء ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء ، وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذى نفسى بيده ! لايسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها. ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد(٧) قليل الماء إنما يتبرضه(٨) الناس تبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته(٩)، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فو الله ! ما زال يجيش لهم بالرىّ(١٠) ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يارسول الله! ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُنُق : الجماعة من الناس .
(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .
(٥) أى لزقت مكانها . (٦) أى حرَنت .
(٧) الثمد : بالتحريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .
(٨) أى يأخذونه قليلًا قليلًا . (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .
(١٠) أى يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّارا ، وادعهم إلى الإسلام . وأمَرَه أن يأتى رجالًا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهرٌ دينَه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح[1] ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّاراً. فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه. فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلًا من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بى ! والذى نفسى بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم، إلا الجَدّ بن قيس،

(١) موضع قرب مكة .

وكان معقل بن يسار آخذا بغصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من بايعه أبو سنان الأسديّ ، وبايعه سَلَمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول الناس وأوسطهم وآخرهم . فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيّ فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح[1] رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ وعامر بن لؤىّ نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[2] ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجىء لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا ماددهم ويخلّوا بينى وبين الناس . وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جمّوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره . قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء . وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفىّ : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعونى آته . فقالوا : ائته . فأتاه ، فجعل يكلمه . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ! أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن أخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوشابا من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك ! فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجْزِكَ بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التى هى مواضع النصح ، تشبيها لها بالعياب التى يستودع فيها الثياب .

(٢) أى الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه السيف، وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخّر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غُدَر ! أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شىء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ . فو الله ! ما تنخم النبيّ ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ،وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقدوفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشىّ ، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدًا . والله ! إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظّمون البُدْن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدْن قد قُلّدت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام مكرز بن حفص،فقال: دعونى آته . فقالوا : ائته. فلما أشرف عليهم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلّمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا الكاتب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ماندرى ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيّ ﷺ: اكتب: باسمك اللهم. ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: فوالله! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبيّ ﷺ: إنى رسول الله وإن كذبتمونى! اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبيّ ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله! لا تتحدث العرب أننا أُخِذْنا ضغطةً، ولكن لك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا. فقال المسلمون سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده، فقال النبيّ ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: فوالله! إذن لا أصالحك على شىء أبداً. فقال النبيّ ﷺ: فأجره لى قال: ما أنا بمجيره لك، قال: بلى، فافعل. قال ما أنا بفاعل. قال مكرز: قد أجزناه لك. فقال أبو جندل: يامعشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون مالقيت ـ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله ـ قال عمر بن الخطاب: والله! ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبيّ ﷺ فقلت: يارسول الله! ألست نبيّ الله؟ قال: بلى! قلت: ألسنا على الحق، وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى! فقلت: على مَ نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: إنى رسول الله، وهو ناصرى، ولست أعصيه. قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى! أفأخبرتك أنك تأتيه العامَ؟ قلت: لا! قال: فإنك آتيه، وتطوف به! قال فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ماقام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سَلَمة ، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة : يارسول الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عزوجل:[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ) حتى بلغ ( بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . . ) الآيات . فقال عمر : أفتحٌ هو يارسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يارسول الله ! فمالنا ! فأنزل الله عزوجل[2] ( هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر، فقال : أجل ! والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبى ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبىّ الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتنى إليهم ، فأنجانى الله منهم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم :

(١) [ ٦٠ / الممتحنة / ١٠ ] . (٢) [ ٤٨ / الفتح / ٤ ] .

ويل أمّهِ ! مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فو الله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم. وأرسلت قريش إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لمّا أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله عز وجل[1] ( وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . ) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلّوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثا ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عَيْبَةً مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال. فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تتمة ما فى فوائد هذه الغزوة ولطائفها فى ( زاد المعاد ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا )

« سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا » قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه، فقتلوا أصحابه، فنقاتلهم. فاعتلوا بالشغل. أى سيقولون لك

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٤ ] .

إذا عاتبتهم على التخلف عنك : شغلتنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معايشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد يمنعه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قال الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل ـ والله أعلم ـ : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل في الضر . وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله[1]( فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ )[2] (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا)[3]( فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ) . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث[4] : إني لا أملك لكم شيئاً ـ يخاطب عشيرته ـ وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان

(١) [ ٥ / المائدة / ١٧ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٤١ ] . (٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ٨ ]

(٤) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ ( طبعتنا ) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لا له . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان فى أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما فى عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية فى سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله[1] ( قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ) فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان فى التقرير الذى ذكرته ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا )

[١٣] ( وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا )

« بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . «وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ» أى حسّن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حبب لكم التخلف . « وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » وهو عدم نصر الرسول، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

«وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا» أى: من النار تستعر عليهم .

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ١٧ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا )

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » قال ابن جرير(١) : هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥] ( سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا )

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهليهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَىٰ مَغَانِمَ » أى أماكنها . قال ابن جرير(١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذَرُونَا » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « نَتَّبِعْكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير(٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عنى بقوله ( يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ) إرادتهم الخروج مع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة. وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة[1]: (فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ) والأكثرون على الأول . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحي . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى[1] ( فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ . . . ) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ ـ والله أعلم ـ .

« قُل لَّن تَتَّبِعُونَا » أي إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفي في معنى النهي . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهي الإنشائيّ ، وهو أبلغ .

« كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ » قال ابن جرير[2]: أي من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمتها لغيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أي أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله. أي بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ » أي عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٨٣ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

أى فهماً قليلاً ، وهو ما كان فى أمور الدنيا ، كقوله تعالى(١) ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

« قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه ، بل « تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » أى يدخلون فى الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذا ( أو يسلموا ) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة « وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

« لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ » قال المهايمىّ : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشى

(١) [ ٣٠/ الروم / ٧ ] .

العدوّ ، ومشى فرسه ، لـكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً، لـكن لا يمكنه الـكرّ والفرّ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدوّ ، فضلًا عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء، وإن فاتهم الجهاد، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله، بقوله سبحانه «وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ » أى عن إطاعتهما ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضا « يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم ( أُولو بأْس شديد ) ـ على أقوال :

أحدها ـ أنهم هوازن .

الثانى ـ ثقيف، وكلاهما غزاه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالث ـ بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلمة الـكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع ـ أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مصداقها لـكل الغزوات المذكورة. ولو عدّ من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عِدَةً بفتح مكة ، منصرفَه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبىّ ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فـكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا )

« لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ » يعنى بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة فى الصحاح على أن الشجرة لم تُعْلَمْ بعدُ. فى الصحيحين(١) من حديث أبى عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان أبى ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين، نخفى علينا مكانها، وإن كان بينت لكم، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا فى موضعها .

وروى ابن جرير(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأتيناها من قابل ، فَعُمِّيَتْ علينا .

ثم قال ابن جرير(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلّف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شىء سوى ذلك . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٤ـ كتاب المغازى، ٣٥ـ باب غزوة الحديبية، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقال الحافظ ابن حجر فى ( الفتح ) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعّدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت !

ولا ينافى ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهّموها ، فاتّخذوها مسجدًا ، ومكاناً مقدسًا ، فقطعها عمر حالتئذ ، صوناً لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضى إلى عبادتها بعدُ ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال فى ( الفتح ) أيضا فى شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله :

وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة فى ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهّال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر ، كما نراه الآن مشاهدًا فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله ( كانت رحمة من الله ) أى كان خفاؤها عليهم، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصّتها مفصلة .

« فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ » أى من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أى الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير[1] : أى وعوّضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فَتْحًا قريباً ، وذلك ـ فيما قيل ـ فتح خيبر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهى مغانم خيبر ، وكانت أرضًا ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)

« وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما يفىء عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ » أى أيدى أهل خيبر ، فانتصرتم عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثانى سيذكر فى قوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما فى مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها ـ والله أعلم ـ .

« وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا » أى ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

«وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَٰذِهِۦ ) أى فعجّل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال ( لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها. وقال الحسن: هى فارس والروم. قال القرطبيّ: وكونها معجلة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير[1] : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدروا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خيبرَ لحرب، ولا وجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، عُلم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ) غيرها ، وأنها هى التى عالجها ورامها فتعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيّه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبيّ: معنى (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدروا عليها فى الحال، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : ( أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ) علم أنها ستكون لكم ، كما قال ( وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .

وقد جوّز فى ( أُخْرَىٰ ) أن تكون معطوفة على ( مَغَانِمَ ) المنصوب بـ ( وَعَدَكُمْ ) وأن تكون مرفوعة بالابتداء و ( لَمْ يَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ) صفتها و ( قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ) خبر. وأوجه أخر .

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاءه .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا )

[٢٣] ( سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا )

« وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المنهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يواليهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها .

« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير[١] : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر العقاب والنكال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المُكَافَّةَ والمحاجزة ، بعد ماخولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته فى الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففى ذلك قال (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير(١) عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ، لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله « وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ » أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو مايهدى إلى مكة من النعم « مَعْكُوفًا » أى محبوساً . قال السمين: يقال : عكفت الرجل عن حاجته، إذا حبسته عنها. وأنكر الفارسىّ تعدية ( عكف ) بنفسه، وأثبتها ابن سيدة والأزهرىّ وغيرهما، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ » قال ابن جرير(١) : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَن تَطَـُٔوهُمْ » أى تقتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين: ( أَن تَطَـُٔوهُمْ ) يجوز أن يكون بدلاً من ( رِجَال وَنساء ) غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول ( تَعْلَمُوهُمْ ) . فالتقدير على الأول ( ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

رجال ونساءً غير معلومين ) . وتقدير الثانى ( لم تعلموا وطأهم ) والخبر محذوف تقديره ( ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة ) . انتهى .

« فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ » أى إثم وغرامة . من ( عرّه ) إذا عراه مايكرهه . وقوله « بِغَيْرِ عِلْمٍ » حال من الضمير المرفوع فى ( تَطَـُٔوهُمْ ) أى تطؤوهم غير عالمين بهم . وفى جواب ( لَوْلَا ) أقوال :

أحدها ـ أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرانى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم فى دخول مكة مقاتليهم .

والثانى ـ أنه مذكور ، وهو ( لَعَذَّبْنَا ) وجواب ( لو ) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث ـ أن قوله ( لَعَذَّبْنَا ) جوابهما معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .

وذكر الزمخشرىّ قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون ( لَوْ تَزَيَّلُوا ) كالتكرير لـ ( لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ) لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون ( لَعَذَّبْنَا ) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ماتعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى ـ أفاده السمين ـ .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعهما هٰهنا واحداً ، وإن كانت ( لولا ) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تنافٍ ظاهر ، لأن ( لولا )هٰهنا دخلت على وجود ، و ( لو ) دخلت على قوله ( تَزَيَّلُوا ) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدّى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى ردّ الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق ( المعرة ) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك. وهو مذهب الشافعيّ . وذهب غيرهما إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير [١] حيث قال : ( المعرة ) هى كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين. قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب ـ إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه ـ الكفارةَ دون الدية فقال ( فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة فى هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم فى مقاتلتهم ، ليدخلكم فى رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون ( مَن يَشَآءُ ) عبارة عمن رغب فى الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير [١] ، قال : أى ليدخل الله فى الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

« لَوْ تَزَيَّلُوا۟ » أى لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهرّاسى : فى الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمى الحصون إذا كانو بها ، والكفار إذا تترسوا بهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية )

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا )

« إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ » قال ابن جرير[١] : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو فى قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب فى كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين ( بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ) ، وأن يكتب فيه ( مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك. والعامل فى الظرف إما ( لعذبنا ) أو ( صدوكم ) أو ( اذكر ) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و ( الحمية ) الأنفة ، وهى الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من ( حمى من كذا ) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوىّ . أى : فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويقاتلوا عليه، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم .

« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا. وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها. « وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شىء ، فيسوقه إلى مستحقه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه، ومحلقاً بعضهم. ثم روى عن مجاهد أنه قال : أُرِىَ بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبىّ ﷺ : إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون فى ذلك فقالوا : أين رؤياه؟ فقال الله ( لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ... ) الآية ، إنى لم أُرِهِ يدخلها هذا العام ، وليكونن ذلك . و ( ٱلرُّءْيَا ) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه فى رؤياه. أى حقق صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرمانىّ ، وعبارته : ( كذب ) يتعدى إلى مفعولين ، يقال : كذبنى الحديث ، وكذا ( صدق ) كما فى الآية . وهو غريب لتعدى المثقل لواحد ، والمخفف لمفعولين .

وقوله ( بِٱلْحَقِّ ) حال من الرؤيا. أى متلبسة بالحق، ليست من قبيل أضغاث الأحلام.

وقوله ( لَتَدْخُلُنَّ ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقوله ( إِن شَآءَ ٱللَّهُ ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العبـــاد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو فى معنى : ليدخلنّه من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبيّ ﷺ لأصحابه .

وقوله ( مُحَلِّقِينَ ) حال مقدرة ، لأن الدخول فى حال الإحرام ، لا فى حال الحلق والتقصير . وفى الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصراً آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلابد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت فى الصحيح(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى ( لَا تَخَافُونَ ) حال مؤكدة لقوله ( ءَامِنِينَ ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان فى عمرة القضاء ، فى ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبيّ ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج فى صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهى إقليم عظيم ، كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعريّ وأصحابه رضى الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه . ثم رجع المدينة ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ ( طبعتنا ) .

فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرّ الظهران، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسىّ والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة فى قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان فى أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ؛ فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسىّ والرماح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبرّ والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارىّ آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسمِ الذى لا دينَ إلا دينُهْ     باسمِ الذى محمد رسولُهْ
خلوا بنى الكفار عن سبيلِهْ     اليومَ نضربكم على تأويلِهْ
كما ضربناكم على تنزيلِهْ     ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلِهْ
ويُذهل الخليلَ عن خليلِهْ     قد أنزل الرّحمنُ فى تنزيلِهْ
فى صحف تُتْلَى على رسولِهْ     بأن خير القتل فى سبيلِهْ

يا رب ! إنى مؤمن بِقيلِهْ

وروى الإمام أحمد [١] من طريق أبى الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته ، بلغ أصحابَ رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: مايتباعثون من العَجَف! فقال أصحابه : لو انتحرنا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحَسَوْنا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جَمَامَةٌ . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا، ولكن اجمعولى من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحثا كل واحد منهم فى جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحِجْر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غميزَة ، فاستلم الركنَ ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : مارضون بالمشى إنهم لَيَنْقِزُونَ نقْز الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنّة .

قال أبو الطفيل : فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك فى حجة الوداع .

وروى أحمد [٢] من طريق سعيد بن جبير عن بن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جَلَدَهُم . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لايراهم المشركون . وفى رواية : ولم يمنع النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٧٨٣ ( طبعة المعارف ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٦٨٦ ( طبعة المعارف ) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .

وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ » أى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها ، عامكم ذلك .

قال ابن جرير [(١)] : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرَّجل ، فأصابتهم منهم معرة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .

« فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبىّ صلى الله عليه وسلم « فَتْحاً قَرِيباً » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركى قريش ، أو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. وإلى الأول ذهب الزهرىّ ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلَّم أحد بالإسلام ، يعقل شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا )

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ ٱلْحَقِّ » أى الإسلام .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقال المهايمىّ : ( بِٱلْهُدَىٰ ) أى الدلائل القطعية ( وَدِينِ ٱلْحَقِّ ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل. فالعلم الشرعىّ صحيح ، والعمل الشرعىّ مقبول، فإخباراتها حق،وإنشاءاتها عدل .

« لِيُظْهِرَهُۥ » أى ليعليه «عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير[١] : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فحينئذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ماوعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير[١] : وهــذا إعلام من الله تعالى نبيّه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلّيهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا )

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أصحابه « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادّين عن سبيل الله ، وعندهم تراحم فيما بينهم ، كقوله تعالى[١] ( أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ) .

## لطائف

الأولى ـ جوز فى ( مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون ( رَسُولُ اللَّهِ ) صفة ، أو عطف بيان، أو بدلا ، ( وَالَّذِينَ مَعَهُ ) عطف عليه . وخبرهما ( أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ) .

الثانية ـ قال الشهاب : قوله تعالى ( رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية فى كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل ( رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما فى الآية المتقدمة، فإنه لما قيل ( أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٤ ] .

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله ( أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ماالحلمُ زيَّنَ أهلَهُ ... على أنه عنـد العدوِّ مَهِيبُ

الثالثة ـ قال المهايمِيّ : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر فى أصحابه صلوات الله عليه ، إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ، لرسوخهم فى صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحماء بينهم ، لعدم ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت « تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا[1] ( وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ) انتهى .

« سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم » مبتدأ وخبر ، أى علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ » بيان للسيما ، كأنه قيل : سيماهم التى هى أثر السجود . أو حال من المستكنّ فى ( وجوههم ) .

قال الشهاب : وهى على ماقبله خبر مبتدأ تقديره : هى من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ فى معناها تأويلان للسلف، فعن ابن عباس ( سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ) يعنى السمت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعنى الخشوع والتواضع. وقال منصور لمجاهد: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال مجاهد، ربما كان بين عينى من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار. وقد رفعه ابن ماجه. والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة لنوراً فى القلب،

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٧٢ ] .

وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وروى الطبرانىّ مرفوعاً : ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ـ وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزرمىّ وهو متروك ـ .

وروى الإمام أحمد[1] عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضا[2] عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال: إن الهدى الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ثرى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوىّ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من ( سِيمَاهُمْ ) رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » أى الوصف « مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى صفتهم العجيبة فيها «وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ» أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَـَٔازَرَهُۥ» أى قوّاه « فَٱسْتَغْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد. فالسين للمبالغة فى الغلظ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ » أى استقام على قصبه. و ( السوق ) جمع ساق «يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ » أى يعجب هذا الزرعُ الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى « لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ » تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوّاهم وكثّرهم ليغيظ بهم الكفار .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٢٦٩٨ ( طبعة المعارف ) .

## لطائف :

الأولى : يجوز فى قوله تعالى ( وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ ) وجهان :

أحدهما ـ أنه مبتدأ ، وخبره ( كَزَرْعٍ ) فيوقف على قوله (فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ) فهما مثلان، وإليه ذهب ابن عباس .

والثانى ـ أنه معطوف على ( مَثَلُهُمْ ) الأول ، فيكون مثلًا واحدًا فى الكتابين ، ويوقف حينئذ على ( فِى ٱلْإِنجِيلِ ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله ( كَزَرْعٍ ) على هذا فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر مبتدأ مضمر . أى مثلهم كزرع ، فسر به المثل المذكور فى الإنجيل.

الثانى ـ أنه حال من الضمير فى ( مَثَلُهُمْ ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث ـ أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلًا كزرع ـ ذكره أبو البقاء ـ .

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون ( ذَٰلِكَ ) إشارة مبهمة أوضحت بقوله ( كَزَرْعٍ ) كقوله[1] ( وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ ) ـ أفاده السمين ـ .

الثانية ـ قال السمين : الضمير المستتر فى (فَـَٔازَرَهُۥ) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس النسفىّ ، فجعل المستتر للشط ، والبارز للزرع . أى فقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفى أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوّى بفروعه ، فهى تعينه وتقوّيه .

الثالثة ـ قال السمين : ( يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل.

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيه فى الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبىّ ﷺ قام وحده ، ثم قوّاه الله بمن آمن معه ، كما يقوّى الطاقةَ الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

---

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦٦ ] .

وهذا ما قاله البغوىّ من أن ( الزرع ) محمد ، و ( الشطء ) أصحابه والمؤمنون ، فجعلا التمثيل للنبيّ ﷺ وأمته .

وأما القاضى فجعله مثالاً للصحابة فقط. وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة، قلّوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس .

قال الشهاب : ولكل وجهة .

الخامسة ـ قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، فى رواية عنه، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضى الله عنهم. قال: لأنهم يغيظونهم،ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك ـ انتهى كلام ابن كثير ـ.

ولا يخفاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط فى كتب العقائد ، وأوضحه النووىّ فى شرح (مقدمة مسلم )، وقبله الإمام الغزالىّ فى كتابه ( فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء فى القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقة . وكم أريقت دماء فى سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى فى أصغر كتاب فى الأصول كمثل ( جمع الجوامع ) . نعم ، إن التطرف والغلوّ فى المباحث ليس من شأن الحكماء المنصفين . وإذا اشتد البياض صار برَصًا .

«وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» أى صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً» أى عفواً عما مضى من ذنوبهم، وسيّئ أعمالهم، بحسنها . « وَأَجْرًا عَظِيمًا» أى ثواباً جزيلاً، وهو الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٩ - سورة الحجرات

قال المهايميّ: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لايعظم رسول الله غاية التعظيم، ولا يحترمه غاية الاحترام. وهو من أعظم مقاصد القرآن.

وهي مدنية، وآيها ثمان عشرة.

وقد انفردت هـذه السورة بآداب جليلة، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ، من التوقير والتبجيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » قال ابن جرير[(١)]: أى يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله ، ونبوّة نبيّه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر فى حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضىَ الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكىّ عن العرب : فلان يقدم بين يدى إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهى دونه . انتهى .

و ( تُقَدِّمُوا۟ ) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن ( قدم ) يرد بمعنى ( تقدم ) كبيّن ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبيّن .

وفى هذه الجملة تجوّزان :

أحدهما ـ فى ( بين اليدين ) ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورها ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله ـ هذا محصل ما فى ( الكشاف ) و ( شروحه ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا فى الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبىّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيى ! فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذىّ[٣] وابن ماجة[٤] . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد ( بين يدى رسول الله ) وذكر ( الله ) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هـذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التـــاء من قوله ( لَا تُقَدِّمُوا ) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لاأستجيز القراءة بخلافها، لإجماع الحجة من القراء عليها. وقد حكى عن العرب : قدّمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل ( لاتقدموا ) بفتح التاء ، كان جائزاً. انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهـــاد الرأى فى القضاء ، حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرجه ابن ماجه .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ماتقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتنهاه أولاً عن عين ماقارفه ، ثم تعمّ وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه ، لم يرتكب تلك الفعلة ، وكل مايضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها ـ أشار له الزمخشريّ ـ .

« إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فحقيق أن يُتّقى ويُراقب .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : قال الكيا الهراسيّ : قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شيء . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ » أى : إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحدّ الذى يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذى يضادّ الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروى عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أى لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً : يامحمد ! يامحمد ! بل يانبى الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض، كما مر فى قوله[١] ( لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ) انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروىّ عن مجاهد فى قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل فى إيثار أرق الألفاظ والجمل، وألطفها فى ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب. وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور فى الآية كبيرة محبطة ولافرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين القاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبىّ عليه الصلاة والسلام. والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبىّ عليه الصلاة والسلام، سواء وجد هذا المعنى أوْ لا، حماية للذريعة، وحسماً للمادة. ثم لما كان هذا المنهىّ عنه ـ وهو رفع الصوت ـ منقسماً إلى مايبلغ ذلك المبلغ أولا، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله ( أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على ماتعتقده المعتزلة، لم يكن لقوله (وَأَنتُمْ

(١) [ ٢٤ / النور / ٦٣ ] .

لَا تَشْعُرُونَ ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاليه ، الإحباط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الشعور ثابت مطلقاً ـ والله أعلم ـ .

ثم قال : وهذا التقرير الذى ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاهما صحيحة :

إحداهما ـ أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهـذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى ـ أن إيذاء النبيّ ﷺ كفر . وهـذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا ـ يعنى المالكية ـ وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى فى مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير[١] : أى اصطفاها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِن وَرَآءِ » أى خارج « ٱلْحُجُرَٰتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالًا لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لايفعله محتشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمىّ ، فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! ( وفى رواية : يا رسول الله ! ) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبىّ ) .

يارسول الله ! إن حمدى لزين ، وإن ذمّى لشين ، فقال : ذاكـ الله عز وجل .

وروى ابن إسحاق ، فى ذكر سنة تسع ، وهى المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوكـ ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم . ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال: وفيهم نزل من القرآن ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ) .

الثانى ـ ( ٱلْحُجُرَٰتِ ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً : جمع ( حجرة ) . وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها . فُعْلَة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشرىّ : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمته . والفعل ـ وإن كان مسنداً إلى جميعهم ـ فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : ورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها ـ مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .

ومنها ـ لفظ ( ٱلْحُجُرَٰتِ ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

ومنها ـ المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم .

ومنها ـ التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها ـ أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد. ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول بساط للثاني، ووطاء لذكره . ثم ذكر ماهو ثناء على الذين تحاموا ذلك، فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم، من الصياح برسول الله ﷺ ، في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد ـ ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أنه قال: ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خروجه . انتهى .

الرابع ـ قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حيًّا ، وفي قبره ﷺ ، . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما، فحصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس ـ روى البخاري[1] عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على

---

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٢ ـ باب إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ، حديث ١٩٤٢

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمِّرِ القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمّر الأقرع ابن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ! فقال عمر : ما أردت خلافك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل فى ذلك ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ) حتى انقضت الآية .

وفى رواية : فأنزل الله فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ ...) الآية .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استُشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذى يتعلق بقصة الشيخين فى تخالفهما فى التأمير هو أول السورة ( لَا تُقَدِّمُوا۟ ) ولكن لما اتصل بها قوله ( لَا تَرْفَعُوٓا۟ ) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله، بأن قولهم: نزلت الآية فى كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية فى كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه، فإنه من المضنون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخارىّ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، فى قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ »أى: فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم «فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التى تصيبونهم بها، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق. ومن أحسنها مارواه الإمام أحمد[١] فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعىّ رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يارسول الله ! أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلىّ يارسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأته ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لى وقتاً يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إن الحارث منعنى الزكاة ، وأراد قتلى . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل من المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذى بعث محمدًا بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولى ؟! قال : لا ، والذى بعثك بالحق ! ما رأيته بتة ، ولا أتانى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ( زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه، فرأى الذى يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبُّت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم فى هذه الآية ، أنها نزلت فى الوليد بن عقبة ـ والله أعلم ـ انتهى .

قال ابن قتيبة فى ( المعارف ) : الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كريز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بنى المصطلق ، فأتاه فقال : منعونى الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بنى تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربعاً ، وقال : أزيدكم ؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع علىّ ، فخرج إلى الرقّة فنزلها ، واعتزل عليًّا ومعاوية . ومات بناحية الرقّة .

الثانى ـ فى ( الإكليل ) : فى الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه فى نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبُّت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث ـ فى قوله تعالى ( فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ) فائدتان :

إحداها ـ تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال ( أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فماذا علىّ ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية ـ مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها ـ أفاده الرازىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾

« وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبيّ الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب فى أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبرىّ(١) : أى لو كان رسول الله ﷺ يعمل فى الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنتٌ ـ يعنى الشدة والمشقة ـ فى كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ فى أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله فى بنى المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى (ٱعْلَمُوٓاْ) باعتبار ماقيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور فى (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهى أنكم تودّون أن يتبعكم فى كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع في بني المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون ( لَوْ يُطِيعُكُمْ ) مستأنفاً . إلا أن الزمخشريّ منع هذا الاحتمال، قال : لأدائه إلى تنافر النظم، لأنه لو اعتبر ( لَوْ يُطِيعُكُمْ . . . ) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : ( وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف، والوقف على ( رَسُولَ اللَّهِ ).

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » أي فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتمّوا به ، فيقيكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ » أي بالله « وَالْفُسُوقَ » يعني الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أي مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أُولَئِكَ » أي الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه في قلوبهم ، وكراهتهم المعاصي « هُمُ الرَّاشِدُونَ » أي السالكون طريق الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )

« فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أي إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانيّ : كان فضلاً بعنايته بهم في الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات في الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية . وهو تعليل لـ ( حبّب ) و ( كرّه ) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أي جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً .

« وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ )

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ » أى تقاتلوا « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا » قال ابن جرير(١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلًا بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى » أى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ » أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِن فَآءَتْ » أى رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ » أى بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلًا بين خلقه « وَأَقْسِطُوٓاْ » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاشانىّ : الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

لزوم العدالة فى النفس التى هى ظل المحبة، التى هى ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداهما ، حتى ترجع. لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا فى بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح. روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذى نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال ـ فيما رواه الطبرى[1] عنه ـ : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله ( وَإِن طَآئِفَتَانِ ) إلى قوله ( فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى ... ) الآية . يقول: ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله ( حَتَّىٰ تَفِىٓءَ ) . انتهى.

وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلىّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا تسبى لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل فى قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة، وترك الجماعة، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا لحرب ، لم يتعرّض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حدًّا، أقامه عليهم .

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى .

هذه شذرة مما جاء فى ( الإقناع ) و ( شرحه ) وتفصيله ثمة .

الثالث ـ قال فى ( شرح الإقناع ) : فى الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه فى قتالهم . وإجازة كل من منع حقًّا عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ( متفق عليه ) [١] . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعى الزكاة ، وعليًّا قاتل أهل الجمل ، وأهل صفّين . انتهى .

وتدل الآية أيضا على وجوب معاونة من بغى عليه ، لقوله ( فَقَٰتِلُواْ ) ، وعلى وجوب تقديم النصح ، لقوله ( فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ) ، وعلى السعى فى المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع ـ وجه الجمع فى ( اْقْتَتَلُواْ )، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . والنكتة فى اعتبار المعنى أولا ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم ( سترون بعدى أموراً تنكرونها ) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١و٤٢ ( طبعتنا ) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور فى الاستعمال ، ما قيل إنهم أولًا فى حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم ، وفى حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً . وسرُّ قَرْنِ الإصلاح الثانى بالعدل، دون الأول، لأن الثانى لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس ـ (أقسط) الرباعىّ همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثىّ ، فمعناه جار . قال[1] تعالى : ( وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ) وهذا هو المشهور ـ خلافاً للزجاج ـ فى جعلهما سواء ـ أفاده الكرخىّ ـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ )

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب: وتسمية المشاركة فى الإيمان أُخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة. شبه المشاركة فيه بالمشاركة فى أصل التوالد ، لأن كلًّا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدىّ فى الجنان .

« فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله.

قال القاشانىّ : بيّن تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقرابة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقتضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

---

(١) [ ٧٢ / الجن / ١٥ ] .

التناسب فى اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذى هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بغواشى النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة فى التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع ، أكثر منه فى شقاق الاثنين ـ أفاده القاضى والزمخشرىّ ـ .

وفى معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث[1] ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ) . وحديث[2] ( والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ) . وحديث[3] ( مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ) . وحديث[4] ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ) وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ـ وكلها فى الصحاح ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبى موسى .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ، بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين، ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنيّ للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبريّ(١) : والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميعَ معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وقد عدّ الغزالىّ فى (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لامطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة ـ السخرية والاستهزاء : وهـذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . .) الآية . ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت ، فقال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم: والله ما أحب أنى حاكيت إنساناً ، ولى كذا وكذا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى(١) (يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أى لاتستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٩ ] .

وعلى صنعته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القُوَّام على النساء ( والأحسن المهمات ) وهو فى الأصل إما جمع قائم كصَوْم وزَوْر فى جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع . وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب، أولأنهن توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ » أى لا يعيب بعضكم على بعض ولا يطعن .

قال الشهاب : ضمير ( تَلْمِزُوٓا۟ ) للجمع بتقدير مضاف فيه . و ( أَنفُسَكُمْ ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما فى قوله[1] ( لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) وقوله[2] ( وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . فنى اللفظ الكريم تجوّز ، وتقدير مضاف . والنهى على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية، كالإشارة . أوهو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لمز نفسه .

---

(١) [ ٩/ التوبة / ١٢٨ ] . (٢) [ ٤ النساء / ٢٩ ] .

قال الشهاب : فـ ( أَنفُسَكُمْ ) على ظاهره والتجوّز فى قوله ( تَلْمِزُوٓاْ ) . فهو مجاز ذكر فيه المسبّب ، وأريد السبب . والمراد : لاترتكبوا أمرًا تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله ( وَلَا تَنَابَزُواْ )، كما فى ( الكشف )، وكونه من التجوّز فى الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكاف ظاهر . وكذا كونه كالتمليل للنهى السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لاتتسببوا فى الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما فى الحديث [١] ( من الكبائر أن يشتم الرجل والديه ) ، إذ فُسِّر بأنه إذا شتم والدى غيره ، شتم الغيرُ والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ » أى ولا تداعوا بالألقاب التى يكره النبز بها الملقب فقد روى أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء فى الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد [٢] وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية ـ كما قال ابن جرير [٣] ـ : تشمل ذلك كله . قال : لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ » قال الزمخشرىّ : ( ٱلِٱسْمُ ) ههنا بمعنى الذكر. من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفى قوله ( بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ ( طبعتنا ) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أحدها ـ استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوةُ .

والثانى ـ أنه كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودىّ ! يا فاسق ! فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز .

والثالث ـ أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته : يقول تعالى ذكره: ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق (بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقا، بئس الاسم الفسوق. وترك ذكر ما وصفنا من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله ( بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ ) عليه . ثم ضعف القول الثانى وقال(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ، أو بالقبيح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« وَمَن لَّمْ يَتُبْ » أى من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه، أو سخريته منه « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءًا، فإن الظانّ غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لاداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه ، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى[(١)] (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له. ولذا قال الزمخشرىّ : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريَب ، والمجاهرة بالخبائث .

« إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

---

(١) [ ٢٤ / النور / ١٢ ] .

قال حجة الإسلام الغزاليّ فى ( الإحياء ) فى بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسك ، وتسيء الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس، فهو معفوّ عنه، بل الشك أيضا معفوّ عنه. ولكن المنهىّ عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب. فقد قال تعالى« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ »). قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع فى قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق . إلى أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، ذكر سبحانه النهى عنه، إثر سوء الظن لذلك، فقال تعالى«وَلَا تَجَسَّسُوا۟» قال ابن جرير(١) : أى لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتلمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب، لأن من يطلب الشيء يمسه ويجسه ، فأريد به ما يلزمه. واستعمل التفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالىّ : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله. فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث[١] أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح[٢] عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وروى أبو داود[٣] ؛ أن ابن مسعود رضى الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به ـ والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود[٤] عن معاوية قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد[٥] عن دجين ، كاتب عقبة، قال : قلت لعقبة: إنا لنا جيرانًا يشربون

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: ٢٥ـ كتاب البرّ والصلة، ٨٥ ـ باب ماجاء في تعظيم المؤمن، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ـ كتاب النكاح : ٤٥ـ باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس، حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبيّ ) .

الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل، ولـكن عظهم وتهددهم ! قال: ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشُّرَط فتأخذهم! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فـكأنما استحيى موؤودة من قبرها !

وروى أبو داود [1] عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريبـة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعيّ : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .

«وَلَا يَغْتَب بَّعْضُـكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله، إذا ذكره بسوء في غيبته. « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَـكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغي أن تـكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثّـل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

## لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشريّ : ( أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها ـ الاستفهام الذى معناه التقرير ( وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقةً أو ادعاءً ) ومنها ـ جعل ما هو الغاية من الـكراهة موصولاً بالمحبة . ومنها ـ إسناد الفعل إلى ( أحدكم ) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها ـ أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا.

ومنها ـ أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

---

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهى عن التجسس ، حديث حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير فى ( المثل السائر ) فى بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى ( أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو فى الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى.

الثانية ـ الفاء فى قوله تعالى ( فَكَرِهْتُمُوهُ ) فصيحة فى جواب شرط مقدّر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه ( قد ) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضى ، كما فى قوله تعالى[1] ( فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ) وضمير ( فَكَرِهْتُمُوهُ ) للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى : فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضى للمبالغة ، فإذا أوِّل بما ذكر يكون إنشائيًّا غير محتاج لتقدير ( قد ) ـ أفاده الشهاب ـ .

الثالثة ـ قال ابن الفرَس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمىّ ،

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ١٩ ] .

لأنه ضرب به المثل فى تحريم الغيبة، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان. فدل على أنه فى التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه ( بالإحياء ) للغزالىّ ، فإنه جمع فأوعى .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهى. « إِنَّ ٱللَّـهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى، بعدنهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم فى البشرية، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل مايدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب .

« وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ » قال ابن جرير[1] : وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً فى قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم فى ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّـهِ أَتْقَىٰكُمْ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لاأعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ ٱللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتقى والأكرم ، وغير ذلك ، لاتخفى عليه خافية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

## تنبيهات :

الأول ـ حكى الثعالبيّ فى ( فقه اللغة ) فى تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبيّ عن أبيه : أن الشَّعب ( بفتح الشين ) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ( بكسر العين ) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّى : الصحيح فى هذا مارتبه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهى الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهى الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حىّ ... عدداً فى الحواء ثم القبيلهْ
ثم يتلوها العِمارة ثم الْـ ... ـبَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلهْ
ثم من بعدها العشيرة لكن ... هى فى جنب ما ذكرنا قليلهْ

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصىّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت ( الشعوب ) لأن القبائل تشعبت منها . و ( الشعوب ) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكرىّ فى ( شرح نوادر أبى على القالى ) : كل الناس حكى الشعب فى القبيلة بالفتح ، وفى الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبى عبيدة بالعكس . نقله الزبيدىّ فى ( تاج العروس ) .

الثانى ـ فى الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقىّ غير النسيب ، يقدم على النسيب غير التقىّ ، فيقدم الأورع فى الإمامة على النسيب غيرهما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط فى الكفاءة الحرية ـ نقله فى ( الإكليل ) ـ .

وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة فى النكاح لاتشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى ( لِتَعَارَفُوٓا ) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت فى معرض البيان .

وقال القاشانيّ : معنى قوله تعالى ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل فى البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى. والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لاتكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً . فالمتقى عن المناهى الشرعية، التى هى الذنوب، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع ـ روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاريّ[1] عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أيّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٨ ـ باب قول الله تعالى (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم[1] عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام[2] أحمد عن أبي ذر قال : إن النبيّ ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبيّ ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبيّ ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقيّ كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يُتَّقَى ، هين على الله تعالى. إن الله عز وجل يقول : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . . ) الآية .

وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبريّ[3] عن عطاء قال : قال ابن عباس: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله وقال : ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب، والإنكار على مساوئ أخلاقهم، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولًا وبالذات، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان، ثم بيان مَن المؤمن حقًّا، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ » أي المحدث عنهم في أول السورة « ءَامَنَّا » أي بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعماً أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ » أي لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا» أي انقدنا ودخلنا في السلم خوف السباء والقتل «وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ» أي لأنه لو حل الإيمان في القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهي ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد. فإن قيل : في قوله ( وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ) بعد قوله ( قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله ( لَّمْ تُؤْمِنُواْ ) تكذيب دعواهم ، وقوله ( وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في (قُولُوٓاْ) . وما في (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . هذا ما أشار له الزمخشريّ ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول ـ قال في ( الإكليل ) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال ( وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ) . انتهى .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف. لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغويّ في بعض المواضع . وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جلية ، كما هنا . وإلا فآية[1] (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ) أكبر منادٍ على اتحادهما . ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا . والإيمان والإسلام وأمثالها ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل ، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في ( الفصل) فانظره .

الثاني ـ قال في (الإكليل) : في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر . وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم ، الإمام ابن حزم في ( الفصل ) ، فراجعه .

الثالث ـ قيل ، مقتضى الظاهر أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا . أو : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم . فعدل عنه إلى هذا النظم احترازًا من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً. وقيل: إنه من الاحتباك ، وأصله :لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم، فقولوا أسلمنا، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر. والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفى عنهم ، ثم استدرك عليه فقال : دعوا ادعاء الإيمان ، وادّعوا الإسلام ، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه . فنفى الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الاتصاف به ، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة ـ هذا ما في القاضي وحواشيه ـ .

« وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أي فتأتمروا لأوامرهما ، وتنتهوا عما نهياكم عنه . والخطاب لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا « لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا » أي لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا ينقصكم من ثوابها .

قال الزمخشريّ : يقال ( ألته السلطان حقه أشد الألت ) وهي لغة غطفان . ولغةُ أسد ،

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

وأهل الحجاز ـ لأنه ليتاً ـ وحكى الأصمعيّ عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين ( لَا يَلِتْكُمْ ) و (لا يألتكم ). ونحوه فى المعنى[1] ( فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ) .

« إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ )

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوّة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ـ قاله ابن جرير[2] : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٧ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى : بذلوا الجهد . أو مفعوله مقدر ، أي العدوّ أو النفس والهوى .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ » أي الذين صدقوا في ادّعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض بكذب أولئك الأعراب في ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر . أي : هم الصادقون ، لا هؤلاء ، أو إيمانهم إيمان صدق وجد .

## تنبيهات :

الأول ـ قال في ( الإكليل ) : في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان . وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف ، وليراجع في ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله في (الفِصَل).

الثاني ـ قال القاشانيّ: في قوله تعالى ( إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ.. ) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقيّ، وهو اليقين الثابت في القلب المستقر الذي لا ارتياب معه ، لا الذي يكون على سبيل الخطرات ، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم ، ونورتها بأنوارها ، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجري بحكمها، والتسخر لهيأتها ، وذلك معنى قوله ( وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّـهِ ) بعد نفي الارتياب عنهم ، لأن بذل المال والنفس في طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره في الظاهر . انتهى .

الثالث ـ قال في ( الكشاف ) : فإن قلت : ما معنى ( ثُمَّ ) ههنا ، وهي للتراخي . وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما ـ أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين ، بعد ثلج الصدر ، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه . أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك ، راكباً رأسه ، لا يطلب له مخرجاً . فوصف المؤمنون حقًّا بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله ( ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ) .

والثانى ـ أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخى ، إشعارًا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًّا جديدًا . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفى الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولًا لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخىّ زمانىّ لا رتبىّ على ما مرّ فى قوله: ( ثُمَّ اسْتَقَامُوا ) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته فى الإيمان ، حتى كأنه شىء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )

« قُلْ » أى لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءامَنَّا) . «أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ» أى أتخبرونه بقولكم ( ءامَنَّا ) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثانى بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم ( ءامَنَّا ) إن كان إخبارًا للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه، وهو العالم بكل شىء، كما قال « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهى عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه فى دينهم . يقول : الله محيط بكل شىء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شىء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مختوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » أى انقادوا وكثّروا سواد أتباعك . « قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم » أى بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلى[١] (مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ) « بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى قولكم ( ءامنّا ) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ )

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير[٢] يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ، فلا تعلّمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإن الله لا يخفى عليه شيء فى خبايا السموات والأرض.

تنبيهات :

الأول ـ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ـ ونزلت هذه الآية ـ .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٥ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

فى آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنيّين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم فى غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى قوله تعالى ( بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ... ) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل فى الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبيّ ﷺ للأنصار يوم حنين (١) : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرّقين فألفكم الله بى . وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟ ـ كلما قال شيئًا ، قالوا : الله ورسوله أمنّ .

وما ألطف قول أبى إسحاق الصابى فى طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى :

وبعث إليهم رسلًا منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم فى الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجحهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبعدهم فى الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى اتخذه صفيًّا وحبيبًا ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم فى المعاصى حمية ، ونفوسهم فى غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئًا . فلم يزل ﷺ يقذف فى أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدًا ، وبالعنف لمّا وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسمًا إلا أزاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضاحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف ، حديث رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتوادعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث ـ قال الرازيّ : هـذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهى إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين فى رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل فى طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضراً عندهم، أو غائباً عنهم، فهذه خمسة أقسام :

أحدها ـ يتعلق بجانب الله .

وثانيها ـ بجانب الرسول .

وثالثها ـ بجانب الفسّاق .

ورابعها ـ بالمؤمن الحاضر .

وخامسها ـ بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ) ، وأرشد فى كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولًا ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ )، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

وقال ثانياً ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ) لبيان وجوب احترام النبيّ ﷺ .

وقال ثالثاً ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبيّن ذلك عند تفسير قوله ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ) .

وقال رابعاً ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ) وقال ( وَلَا تَنَابَزُواْ ) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ) وقال ( وَلَا تَجَسَّسُواْ ) وقال ( وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى . وهو فى غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حدٍّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبإ الفاسق ، آية الاقتتال فقال ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ) ؟ انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٠ ـ سورة قٓ

وتسمى سورة ( الباسقات ) . وهى مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .

قال ابن كثير: وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام أنه من ( عمّ ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم . والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل وحده . فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة ( قٓ ) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وصٓ والزمر وغافر وحمٓ السجدة وحمٓ عسٓقٓ والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصــل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعيّن أن أوّله سورة ( قٓ ) .

وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثيّ : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد ؟ قال : بـ ( قٓ ) و ( اقتربت ) .

وروى مسلم[٣] وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت ( قٓ ) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفى رواية : كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الـكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤و١٥ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث ٥١و٥٢ ( طبعتنا ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( قٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ )

« قٓ » هو حرف من حروف التهجى المفتتح بها أوائل السور ، مثل : صٓ ، ونٓ ، والٓم ، وحمٓ ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ( قٓ ) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له ( جبل قاف ) . وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصَدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتُرِىَ فى هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها، أحاديثُ عن النبىّ ﷺ ، وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفّاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله(١) ( وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ) فيما قد يجوّزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عَمْرو .

ثم ردّ ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من ( قٓ ) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر[١] :

* قلت لها قفى فقالت قاف *

أى : إنى واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ )

« بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ » أى : لأنْ جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود ـ إضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، ولكن لجهلهم .

« فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بوجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ )

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار . والعامل فى ( إذا ) مضمر غنىّ عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمنذر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَٰلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌۢ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ )

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى. وتأكل من لحومهم وعظامهم، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن فى الأرض منهم . « وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ » قال أبو السعود: أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد: إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم مَن عنده كتاب محيط ، يتلقى منه كل شىء . أو تأكيد لعلمه تعالى بها ، بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ )

« بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى من غير تأمّل وتفكّر.

قال الزمخشريّ : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات ، فى أول وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر. وكونه أفظع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه. « فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالتهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تعنتاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ )

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ » أى هؤلاء المكذّبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّٰهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » . قال ابن جرير[١] : يعنى وما لها من صدوع وفتوق . كقوله تعالى[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ )

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالًا ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يبتهج به لحسنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٦٧ / المُلك / ٣و٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ )

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر فى بدائع صنعه . و ( تَبْصِرَةً ) و ( ذِكْرَىٰ ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ )

[١٠] ( وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ )

[١١] ( رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ )

« وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً مُّبَٰرَكًا » أى كثير المنافع، « فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ » أى أشجارًا ذوات أثمار ، « وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء، النخل طوالًا ، أو حوامل. من ( أبسقت الشاة ) إذا حملت ، فيكون من ( أفعل ) فهو ( فاعل ) . والقياس ( مفعل ) فهو من النوادر كالطوائح واللواقح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى ( جَنَّٰتٍ ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيـه من مراعاة الفواصل . « لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضه فوق بعض . « رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى ( فَأَنۢبَتْنَا ) . وفى تعليله بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : ( رِّزْقًا ) مصدر من معنى ( أَنْبَتْنَا ) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ » أى بذلك الماء « بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أرضاً جدبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، فـ ( كَذَٰلِكَ ) خبر ( ٱلْخُرُوجُ ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى ( مثل ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ )

[١٣] ( وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ )

[١٤] ( وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ )

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقية البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده . يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . «وَثَمُودُ» وهم الذين جادلوا صالحا ، وقتلوا الناقة. « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هودًا فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازىّ : ولم يقل ( وقوم فرعون ) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إتيان الرجال . « وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ » أى أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . ( وَقَوْمُ تُبَّعٍ » قال المهايمىّ : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ » أى كل من هـذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسولهم ،

ومن كذب رسولًا ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى[١] ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم فى نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ـ أفاده ابن كثير ـ وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير ( كَذَّبَ ) مراعاة للفظ ( كُلٌّ ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به مَن كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير[٢] : إنما وصف تعالى فى هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ أنه مُحِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسلية للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ )

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العىّ هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائىّ : تقول ( أعييت ) من التعب و ( عييت ) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و ( الخلق الأول ) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية[٣] ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ . . . ) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٠٥ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ٣٣ ] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثانى، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة ما مات وتفرق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلٰهية ، وسهولة ذلك فى المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عرَّف الخلق الأول ، ونكَّر اللبس ، والخلق الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور فى قوله[1] ( وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلًا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى . أى إذا لم يَعْيَ تعالى بالخلق الأول، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرةً يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة . ومرةً يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول[2] ( سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ) وقوله[3] ( لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) ، و[4] ( إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثانى : هو الأصل فى التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير ( اللبس ) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : فى لبس أىّ لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

---

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٤٩ ] .

(٢) [ ٣٦ / يس / ٨٥ ] . (٣) [ ٥ / المائدة / ٩ ] و [ ٤٩ / الحجرات / ٣ ] .

(٤) [ ٥٢ / الطور / ١٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ )

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ » أى تحدّث به نفسه، وهو مايخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوىّ ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذلك القرب أتم من غاية القرب الصورىّ ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوّز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتنزّهه عن القرب المكانىّ ، إما تمثيلًا ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشيء سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيّها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقى الحبل على حقيقته، فإضافته كلجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل ( نحن ) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل ( وأنا أقرب إليه ) وإنما قال ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ) كما قال فى المحتضر(١) ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ) يعنى: ملائكته . وكما قال

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٥ ].

تبارك وتعالى : [(١)]( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عزوجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمَّة من الإنسان، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ماذكره ، بما ورد فى الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهى سعة العلم، مع التعريف بجلالة المقام الربانىّ ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إيثار ( نحن ) على ( أنا ) لا يحسم ما نفاه ، لاحتمال إرادة التعظيم بـ ( نحن ) كما هو شائع، فلا يتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ماذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيما للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه، مع ماعرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَن قال فى تفسير الآية كالقاشانىّ ـ ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشىء يشهد بالبينونة والاثنينية الراجعة للاتحاد الحقيقىّ . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة فى هويته وتحققه ليست غيره، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التى هى الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدما صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشانىّ . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما ، فى كتاب ( دلائل التوحيد ) الذى طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدُ ، مسبوقا بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله فى كتابه ( شرح حديث النزول ) : ليس فى القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩ ] .

من كل شيء أصلا ، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى[1] ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما فى الصحيحين[2] عن أبى موسى الأشعرىّ ؛ أنهم كانوا مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : ( أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، وإنما تدعون سميعاً قريبا . إن الذين تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ) . فقال : إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام[3] ( فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ) ومعلوم أن قوله ( قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [ ٢ / البقرة / ١٨٦ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ ـ ٤٧ ( طبعتنا ) .

(٣) [ ١١ / هود / ٦١ ] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولـكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية[1] ( وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ) هو معهم بعلمه ، مع علوّه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال[2] ( إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ) وقال[3] ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله! أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبيّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . . ) الآية . ولا يقال في هـذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكّوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لـكونه هو المقصود، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لـكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهـذا المعنى يقرّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال: وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباريء جل وعلا قريبة من

(١) [ ٥٧ / الحديد / ٤ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٥٦ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ١٨٦ ] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما فى لفظ المعية . ولا حاجة إلى هـذا ، فإن المراد بقوله ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) أى بملائكتنا ، فى الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشيء أعلم من غيره، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه. ثم إنه سبحانه عالم بما يُسَرُّ من القول، ومايجهر به، وعالم بأعماله، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى[1] ( يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم، سياقُ الآية، فإنه قال[2] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فأثبت العلم، وأثبت القرب، وجعلهما شيئين ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله ( إِذْ يَتَلَقَّى . . . ) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا فى غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه فى كل مكان، وإنه قريب من كل شيء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شيء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم فى جميع بدن الإنسان، وهو فى أهل الميت ، كما

(١) [ ٢٠ / طه / ٧ ] . (٢) [ ٥٠ / قٓ / ١٦ ] .

هو فى الميت ، فكيف يكون ( أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة، فإنه قال ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ... ) الآيتين. فقيدالقرب بهذا الزمان، وهو زمان تلقى المتلقيين ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال[١] ( مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ... ) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين الرقيب والعتيد معنى مناسب. وكذلك قوله فى الآية الأخرى[٢] ( فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر فى بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى فى هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده فى هذه الحال. وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هى فى مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شىء من شىء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما فى قوله ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ) فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى[٣] ( فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ). ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقرب منه، دون من حوله، وقد يكون حوله قوله مؤمنون. وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى[٤] ( إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ) وقال

(١) [ ٥٠ / قٓ / ١٨ ] .
(٢) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٣ـ٨٥ ] .
(٣) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٨ـ٩٤ ] .
(٤) [ ٤ / النساء / ٩٧ ] .

تعالى(١) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ) وقال(٢) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى(٣) (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى(٤) (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) وهذا كقوله(٥) سبحانه (نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال(٦) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) وقال(٧) (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى فى كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة . فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع المعظم الذى له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين(٨) عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [ ٨ / الأنفال / ٥٠ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٩٣ ] .

(٣) [ ٦ / الأنعام / ٦١ ] . (٤) [ ٣٢ / السجدة / ١١ ] .

(٥) [ ٢٨ / القصص / ٣ ]. (٦) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .

(٧) [ ٧٥ / القيامة / ١٧ـ١٩ ] . (٨) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ ( طبعتنا ) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذى اختص الله به .

ثم قال : وقوله [١] ( وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال [٢] ( أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا [٣] : ( مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ) وقال تعالى [٤] ( إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ) وأخبر بالكتابة ( نحن ) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصل فى تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ) مثل قوله ( نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ) لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال [٥] تعالى ( وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة فى النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٥٠ / قٓ / ١٦ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٨٠ ] .
(٣) [ ٥٠ / قٓ / ١٨ ] . (٤) [ ٣٦ / يس / ١٢ ] .
(٥) [ ٤٢ / الشورى / ٥١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ )

« إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملكان الحفيظان مايتلفظ به . فـ (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنىّ عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على مايخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى مارغبه ورهبه فى الأولى .

وقال القاشانىّ : بين تعالى بهذه الآية أقربيّته لينتفى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقيين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقيهما للحجة عليه ، وإثباتُ الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقول الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيّرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشرورُ إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيآته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكلما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزيه عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصلىّ ، وسنخه

الحقيقىّ ، وحاله الغريزىّ، لينمحى أثر ذلك الأمر العارضىّ، بالنور الأصلىّ والاستغفار ، أى التنوّر بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية، لينمحى أثر تلك الظلمة العرضية، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر فى كلام القاشانىّ رحمه الله تأويل الملَك بالقوة الحاثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هذا الشىء الذى أودع فينا ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالىّ إلى هذا المعنى ، وعبّر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكاً ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته .

لطيفة : ( قَعِيدٌ ) كجليس ، بمعنى مجالس ، لفظاً ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله[1] :

* فإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

---

(١) قائله ضابىء بن الحارث البرجمىّ . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ * و ( قيّار ) اسم جَمَلِهِ .

وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرّد فى الكامل ، ص ١٨١ ( طبعة أوربا ) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله[1] ( وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ )، وضعّف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان ( فعيل ) بمعنى ( مفعول ) بشروطه ، وهـذا بمعنى ( فاعل ) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على ( فعيل ) بمعنى ( مفعول ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ )

« مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ )

« وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ » أى شدته المحيّرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِٱلْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلًّا منهما مذهب للعقل، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإثبات السكرة لها ، تخييل . « ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيته هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [ ٦٦ / التحريم / ٤ ] .

قال الطيبيّ : إن اتصل قوله ( وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ . . ) الخ بقوله ( فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ... ) الخ ، فالمشار إليه الموت. والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله ( وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ) بعده ، وتفصيله[1] ( أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ) [2]( وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ )

[٢١] ( وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ )

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَٰلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد، بشهود ما قدم من الأعمال وما أخر « وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير[3] : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال :

وقال القاشانيّ : أى سائق من علمه ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشيء إنما نشأ من شعوره بذلك الشيء ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفلياً جسمانياً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقوّاه ؛ أو أمراً علوياً روحانياً بعثه عليه عقله ، ومحبته الروحانية ، وحرّضه عليه قلبه وفطرته الأصلية. فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيـه ،

(١) [ ٥٠ / قٓ / ٢٤ ] . (٢) [ ٥٠ / قٓ / ٣١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

والعمل المكتوب فى صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيآت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

« لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ » فى المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها ـ أنه النبيّ ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة فى خلال أمر النبأ الأخرويّ ، تنويهاً بمنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلوّ الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قويّ ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية[1] ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ .

وثانيها ـ أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت فى غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جلينا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية[2] ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ وآية[3] ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ .

وثالثها ـ أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البرّ والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٥٢ ] .
(٢) [ ١٩ / مريم / ٣٨ ] .
(٣) [ ٣٢ / السجدة / ١٢ ] .

وعوّل ابن جرير[١] فى الأولوية على الثالث .

قال الزمخشرىّ : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشانىّ فى تأويل الآية : ( لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن ( فَكَشَفْنَا عَنكَ ) بالموت ( غِطَآءَكَ ) المادىّ الجسمانىّ ، الذى احتجبت به ( فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوىّ تعاينه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ )

« وَقَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الذى جيء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قيض له مقارناً له يغويه ، وهو الأظهر ـ كما اعتمده الزمخشرىّ ـ لآية[٢] « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ » ويشهد له قوله تعالى[٣] ( قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ) « هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ » أى هذا شيء لدىّ حاضر مُعَدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى صحفه، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدىّ عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاشانىّ : ( وَقَالَ قَرِينُهُۥ ) أى من شيطان الوهم الذى غرّه بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ) مهيأ لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٦ ] . (٣) [ ٥٠ / قٓ / ٢٧ ] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده فى طلب اللذات البدنية ، حتى هيأه لجهنم فى قعر الطبيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق، ألق ، ثم حذف الفعل الثانى، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، فثنى الضمير للدلالة على ماذكر . أو الألف بدل من نون التأكيد، لأنها تبدل ألفاً فى الوقف ، فأجرى الوصل مجراه ـ أوجه ذكروها ـ .

وقال ابن جرير[١] : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين. وفى ذلك وجهان من التأويل :

أحدها ـ أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذى يكون بلفظ الواحد فى الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله ( أَلْقِيَا ) إلى المعنى .

والثانى ـ أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلاها ، وازجراها ، كما قال[٢] :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْبِسَانَا ... بِنَزْعِ أصولِهِ واجْتَزَّ شِيحا

وقال أبو ثَرْوَان[٣] :

فإن تَزجرانى يا ابنَ عفانَ أَنْزَجِرْ ... وإن تَدَعَانِى أَحْمِ عِرْضا ممنَّعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربعىّ الفقعسىّ .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلىّ . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفىّ ليلى : ألا تَرَى ... إلى ابن كراع لا يزال مُفزَّعَا

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تـكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا : ياصاحبىّ ، ياخليلىّ . انتهى .

و ( الـكَفَّار ) المبالغ فى جحده وحدانيةَ الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه .

و ( العَنِيد ) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلا فى مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ )

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى الـكلىّ ، وهو الإسلام . أو المـال . واستصوب ابن جرير(١) أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمىّ فى ماله ، لأنه لم يخصص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد فى الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش فى المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتد فى منطقه وسيرته وأمره .

« مُّرِيبٍ » أى شاكّ فى الحق ، أو موقع صاحبه فى الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشانىّ : الخطاب فى ( أَلْقِيَا ) للسائق والشهيد اللّذَين يوبقانه ويلقيانه ويهلـكانه فى أسفل غياهب مهواة الهيولى الجسمانية، وغيابة جب الطبيعة الظلمانية، فى نيران الحرمان. أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تـكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم فى الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوّى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة، التى أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقوعهم فى نيران الجحيم ، وبيّن أنها من باب العلم والعمل . والـكفرانُ ومنعُ الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كها فى لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى فى غير مواضعها من المعاصى والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقيها. وذكرُها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة فى قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ، بتفريطها فى جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾

« ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره ( فَأَلْقِيَاهُ ) أو مفعول لمضمر يفسره ( فألقياه ) أو بدل من ( كل كفار ) فيكون ( فألقياه ) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعانى من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسِّر والمفسَّر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابىّ . ولو جعل ( العذاب الشديد ) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب (١) ( وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ ) كان حسناً .

قال الشهاب ( بعد نقله ما ذكر ) : قال ابن مالك فى ( التسهيل ) : فصلُ الجملتين فى التأكيد بـ ( ثم ) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٩٨ ] .

الزمخشريّ فى ( الجاثية ) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحيّ ، وكلام أهل المعانى فى إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئاً منه « رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ » أى بالإرابة ومنع الإسلام، وجعل إله آخر معك « وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانىّ : وقول الشيطان ( مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ... ) الخ كقوله[١] ( إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك. فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير[٢] : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرّؤ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ)

«قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٢ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الجزاء، وموقف الحساب ، فلا فائدة فى اختصامكم ، وقد قدمت إليكم فى الدنيا بالوعيد لمن كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ونهيي فى كتبى ، وعلى ألسن رسلى .

قال القاشانىّ : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لااختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة فى نفوسكم ، ورانت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ )

« مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ » قال ابن جرير(١) : أى مايغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله ( لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره، ولكن بذنبه بعدقيام الحجة عليه .

وقال القاشانىّ : ( وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبأت على الكمال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ماينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال مايفنى بما يبقى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

## تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآيات أن هذا التقاول على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشانيّ : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلًا . ولهذا قال : ( لَا تَخْتَصِمُواْ ) ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين في أمر ، لتوقع نفع أو لذة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أوقعا بسعيهما في خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كل منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضي الله عنه للنبيّ عليه السلام : ورأيت أهل النار يتعاورون . وصوّب عليه السلام قوله . انتهى .

الثاني إن قلت : لم طرحت الواو من جملة ( قَالَ قَرِينُهُۥ ) وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول ، كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقاولة ؟ قلت : لما قال قرينه ( هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ) وتبعه قوله ( قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ) وتلاه ( لَا تَخْتَصِمُواْ ) ـ علم أن ثمّ مقاولة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لديّ عتيد ، قال الكافر : ربّ هو أطغاني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلًا يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تختصموا لديّ . وذكر الواو في الجملة

الأولى لأنها أول المقـاولة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملـكين ، وقول قرينه ما قال له ـ هذا ملخص ما فى الـكشاف ـ .

الثالث ـ جوز قوله تعالى ( بِٱلْوَعِيدِ ) أن تـكون الباء زائدة فى المفعول ، وأن يكون حالًا من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لـكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من ( لَا تَخْتَصِمُواْ ) على تأويل تقـديم الوعيد بالعلم به . أى : لاتختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع ـ دل قوله تعالى ( مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ) على أنه لاخلف فى إيعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف فى ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة، حيث قالوا : ماورد فى القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الـكريم إذا وعد أَنْجَزَ ووفّى ، وإذا أوعد أخلف وعفا ـ أفاده الرازىّ ـ .

ووجه الاستدلال أنه لوصح ما ذكروه للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف فى أخباره ـ تقدس عن ذلك ـ مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس ـ ذكروا فى سر المبالغة فى ( بِظَلَّٰمٍ ) وجوهاً :

منها ـ أن ( فعّالا ) قد ورد بمعنى ( فاعل ) ، فهذا منه .

ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها ـ أن المنسوب فى المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلًا فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملـكه ، قدس ذاته عما يتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] ( يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ )

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ » قال ابن جرير[١] : فيه لأهل التأويل قولان :

الأول ـ أن معناه : مامن مزيد. فعن مجاهد قال: وعدها الله ليملأنها فقال: هلاوفيتكِ؟ قالت : وهل من مسلك ؟ !

الثانى ـ معناه : زدنى .

أى : فالاستفهام على الأول إنكارىّ . معناه النفى ، وأيد[٢] بآية ( لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرىّ ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ) الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لايخلو طبقة منها عمن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية .أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلىء .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقاولة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة .

وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية )

(٢) [ ١١ / هود / ١١٩ ] و [ ٣٢ / السجدة / ١٣ ] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها فى نفَسين. وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوّز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوّزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً فى الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسبيح الحصى فى كف النبيّ ﷺ، وفى يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر فى تفاصيل المقالة، لاتسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة فى الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب: وهو كلام حسن، وأمور الآخرة لاينبغى أن تقاس على أمور الدنيا. انتهى

ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر فى الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة، كما أوضحه السيوطىّ فى (المزهر) والجرجانىّ فى (أسرار البلاغة) . وفى شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها ــ والله أعلم ــ .

و ( يوم ) منصوب بـ( ظلّام ) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و ( المزيد) إما مصدر كالمحيد ، أو اسم مفعول كالمبيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ )

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ » أى قربت وأدنيت « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعومل معاملته ، وأُجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لايحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ )

« هَٰذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشانىّ : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلىّ ، كى لايتكدر بظلمة النفس . و ( لكل ) بدل من ( للمتقين ) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ )

« مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانىّ : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و ( من ) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعده بتأويل ( يقال لهم ادخلوها ... الخ ) « وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ )

[٣٥] ( لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ )

« ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم «وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ )

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم » أى قبل هؤلاء المشركين من قريش « مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً » أى قوة، كعاد وفرعون وثمود «فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ» أى فضربوا فيهاوساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس[١] :

لقــد نقّبتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

« هَلْ مِن مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتنقيبهم فى البلاد، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء المشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير[٢] : وقرأت القراء قوله ( فَنَقَّبُوا۟ ) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمرِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان ( طبعة المعارف ) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طَوَّفت : أكثرت الطواف والمشى فى نواحى الأرض حتى شق علىّ ذلك . وصرت أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الخبر عنهم . وذُكر عن يحيي بن يعمر أنه كان يقرأ ( فنقِّبوا ) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ )

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قريش « لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .

« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه . على أن ( شهيد ) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : التفطن ، لأن غير المتفطن كالغائب، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو ( شهيد ) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن ـ نقله الشهاب ـ .

لطيفة :

قيل : ( أو ) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير ( القلب ) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ )

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ » أى إعياء .

قال قتادة : أكذب الله اليهود وأهل الفِرَى على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ )

[٤٠] ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ )

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ، « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره، وهو قرين التحميد، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشاآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ )

[٤٢] ( يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ )

« وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى استمع ، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء .

قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير ( كن ) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِٱلْحَقِّ » قال ابن جرير[١] : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ )

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ )

« يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَٰلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ » أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ )

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعد به من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# ٥١ – سُورَةُ الذَّارِيات

قال المهايميّ : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية . وآيها ستون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا )

« وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرواً . أى نوعاً من الذرو ليعقدها سحباً . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بمايتطاير من الرياح . أو الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ، شبهت الأشياء المعدة للبروز من كمون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .

و « الذَّٰرِيَٰتِ » اسم فاعل ( ذرا ) المعتل بمعنى فرّق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما ( ذرأ ) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا )

« فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا » أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل [١] :

وأسلمتُ نفسى لمن أَسْلَمَتْ　　　له المزنُ تحمل عَذْباً زُلَالَا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و ( الوِقر ) بكسر الواو ، كالحمل وزناً ومعنى . وقرئ بفتح الواو على أنه مصدر سمى به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية ( صفحة رقم ٦٢٢ ) . والرواية هناك :

* وأسلمت وجهى . . . *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا )

[٤] ( فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا )

« فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلًا. أو الرياح الجارية فى مهابها. أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و ( يُسْرًا ) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذا يسر « فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو مايعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب .

تنبيهات :

الأول ـ ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن علىّ رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن، والمقسمات هى الملائكة. واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى: فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

واستظهر الرازىّ أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك .

واللفظ متسع بجوهره للكل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فائدة ( الفاء ) إن قيل إنها صفات الرياح ، فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشئ السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرىّ أو الرتبىّ .

الثالث ـ ذكر الرازىّ فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها ـ أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبىّ ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لابصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل، وعجزى عن ذلك. وهو يعلم فى نفسه أن الحق بيدى ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها ـ أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبىّ ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً. وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان، ولناله المكروه فى بعض الأزمان.

ثالثها ـ أن الأيمان التى أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهى سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسَم. كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل: فلِمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول: لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل فى صورة اليمين، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين، فى صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[٦] (وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ)

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و ( ما ) موصولة أو مصدرية . والموعود

هوقيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدْق . فوضع الاسم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية) . « وَإِنَّ ٱلدِّينَ » أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر «لَوَاقِعٌ » أى لحاصل. قال قتادة : وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ )

[٨] ( إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ )

[٩] ( يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ )

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ » أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير الكواكب .

و ( الحبك ) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء ، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشَّعر : آثار تثنّيه وتكسّره . و( الحبك ) بضمتين جمع حِباك ، كمثال ومثل وكتاب وكتب . أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غديراً[1] :

مكللٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لضاحى مائِه حُبُكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشتياقاً ، أية سلكوا .

قال الأصمعىّ : النجم : النبت الذى يقال له الثِّيلُ . وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم . وهو كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل .

ويقال : نَجَمَ البقلُ : إذا طلع . ومنه : نجم قرن الظبية إذا طلع .

ريح خارق ، يقال : هبت الشِّمالُ خَرِيقا ، إذا هبت هبوبا شديدا .

لضاحى مائه : ما ضحا للشمس من الماء ، برز للشمس .

وحُبُك : طريق الماء . الواحد حَبِيك .

يقول : إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء . ونسْجُها إياه : مرُّها عليه.

( انظر شرح الديوان ، صفحة ١٧٦ ، طبعة الدار ) .

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .

وعن الحسن[1] : ( ذات الحبك ) أى النجوم . قال : حُبِكَتْ بالْخَلْقِ الحسن ، حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشىّ تحبيكه ، فشبهت النجوم بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فمعنى ( ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى الجاذبية التى يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهى إحدى معجزات القرآن العلمية . انتهى .

« إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرصون يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) «يُؤْفَكُ» أى يصرف «عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضى فى مناسبة المقسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها ، بالطرائق للسموات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالخرص والتخمين ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ )

[١١] ( ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ )

[١٢] ( يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ )

[١٣] ( يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ )

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون، أو هو يوم هم .. الخ وفتح ( يومَ ) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ )

« ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ » أى مقولاً لهم: ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ )

[١٦] ( ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ )

[١٧] ( كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ )

[١٨] ( وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ )

[١٩] ( وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ )

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالخرص والتخمين فى الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير (١) : أى عاملين ما أمرهم به ربهم، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخرويّ ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذى فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ( ءَاخِذِينَ ) حال من قوله ( فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ » يعنى : فى الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » أى كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير (١) عن أنس فى الآية ؛ أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن علىّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرّف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى ( كَانُواْ قَلِيلًا ) أى أن المحسنين كانوا قليلاً. ثم ابتدئ فقيل ( مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ) . و ( ما ) نافية . أى لا يهجعون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية ) .

لطيفة :

فى هذه الجملة الكريمة مبالغات فى وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذى هو وقت النوم ، والهجوع الذى هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، ففى الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله. والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضى : أى أنهم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم.

قال الرازىّ : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجّدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ، ويمنّ به . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بيّن أنهم يهجعون قليلًا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال ( يَسْتَغْفِرُونَ ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبّينها فى جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلًا، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار، فى وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار. يأتون بفعل آخر طالباً للغفران ، وهو الصلاة. والأول أظهر، والثانى عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثانى الإشارة إلى الزكاة فى الآية بعدها. والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات. وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد، بل وفى غيره،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر فى أذكار الصلاة الاستغفار فى مواضع منها. كالركوع والسجود وبين السجدتين وآخر الصلاة، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن ـ وكان ﷺ يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ فى ( أساس البلاغة ) إنما سمى ( السحر ) استعارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .

« وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَن غنياً ، فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل فى كفه ، وفقير متعفف ، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفى الصحيح[(١)] عن النبىّ ﷺ : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه .

وروى الإمام[(٢)] أحمد عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسنده عن علىّ كرم الله وجهه .

ويدخل فى ( المحروم ) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراده المتعفف . ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يَصِلون بها رحماً، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كَلًّا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب لا يسألون الناس إلحافا ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ١٧٩٠ (طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لاحاجة إلى الخرص والتخمين فى باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ماتطمئن به النفس ، وينثلج له الصدر ، فيرون فيها ممـا ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت فى العقول والأفهام ، وما فى تراكيب أعضائها من الحكم فى وضع كل عضو منها ، فى المحل المفتقر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبى الدنيا فى كتابه ( التفكر والاعتبار ) لشيخه أبى جعفر القرشىّ :

وإذا نظرتَ تريد معتبَراً ... فانظر إليك ، ففيك معتبرُ
أنت الذى تُمسى وتُصْبِحُ فى الـ ... دُّنْيـا وكلٌّ أمورِهِ عِبَرُ
أنت المصرَّف كان فى صغر ... ثم استقلّ بشخصك الـكِبَرُ
أنت الذى تنعاه خلقتُهُ ... ينعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنت الذى تعطَى وتسلَب، لا ... ينجيه من أن يُسلَب الحَذَرُ
أنت الذى لاشىء منـه له ... وأحقُّ منـه بما له القَدَرُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ ( السماء ) المزن ، وبـ ( الرزق ) المطر، فإنه سبب الأقوات . والمراد بـ ( مَا تُوعَدُونَ ) العذاب السماوىّ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

« فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» أى مثل نطقكم. والضمير فى ( إنه ) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبىّ ﷺ ، أو إلى ( مَا تُوعَدُونَ ) ويؤيدالأخير ماتأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للاتجار ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ، قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] (قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُۥ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » يعني: الملائكة الذين دخلوا عليه في صورة ضيف . قال الزمخشريّ : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحي . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القِرى ، أو أنهم في أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ » أي سلام عليكم « قَوْمٌ مُّنكَرُونَ أي أنتم قوم لا أعرفكم . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فإن قولك لمن لقيته : أنا لا أعرفك ! في قوة قولك : عرف لي نفسك وَصِفْها .

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أي ذهب إليهم في خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفّه ويعذره ـ قاله الزمخشريّ ـ وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال روّغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً . قال الناصر: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى . ومن مقلوباته (غوّر الأرض) والجرح . وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أي قد أنضجه شيًّا « فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ » أي بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أي منه . قال القاضي : وهو مشعر بكونه حنيذاً. والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب، إن قاله أول ماوضعه . وللإنكار، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أي أضمرها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ » أي يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ » أي صيحة «فَصَكَّتْ » أي لطمت « وَجْهَهَا » أي تعجباً ، على عادة النساء في كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك ،فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله،ولا تتوهمى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ )

[٣٢] ( قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] ( لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ )

[٣٤] ( مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ )

[٣٥] ( فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

[٣٦] ( فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ )

[٣٧] ( وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ )

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ* قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم« لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ» أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة «مُّسَوَّمَةً » أى مرسلة ، أومعلّمة «عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» أى المتعدّين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . «فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» يعنى بيت لوط عليه السلام «وَتَرَكْنَا فِيهَآ » أى فى تلك القرية « ءَايَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوىّ الدال على الأخروىّ « لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ )

[٣٩] ( فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ )

[٤٠] ( فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ )

« وَفِي مُوسَىٰٓ » عطف على ( فيها ) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور . أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آية وحجة تبين لمن رآها حقية دعواه .

« إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ » أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ ( ركنه ) جانب بدنه . فالتولى به كناية عن الإعراض . والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ سَٰحِرٌ » أى هو ساحر « أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ » أى فأغرقناهم فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ )

[٤٢] ( مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ )

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آية « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك . « مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ » أى الشيء الهالك . وأصل الرميم : البالى المفتت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

[٤٤] ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

[٤٥] ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾

« وَفِى ثَمُودَ » أى وتركنا فى ثمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا۟ » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى: ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى .

« فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ » يعنى العذاب الحالّ بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهارًا .

« فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلًا عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على ( وَفِى ثَمُودَ ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولًا لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول ( فَأَخَذْنَٰهُ ) أو على محل ( وَفِى مُوسَىٰٓ ) . « مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْماً فَٰسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

[٤٨] ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾

« وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا بناءها . « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا » أى مهدناها ليتمتعوا بها « فَنِعْمَ الْمَـٰهِدُونَ » أى لهم . وفى إيثار صيغة فاعل من ( مهد على فرش ) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلًا واسمًا ، فيكون فى أحدهما أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف، ويؤثر عليه غيره فى آخر. والمرجع الذوق ـ كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ )

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكرًا وأنثى ، أو نوعين متقابلين .

قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . وليل ونهار . وشمس وقمر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجـاهد ، وعبارة ابن جرير[١] :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لـكل ماخلق من خلقه ثانيًا له ، مخالفًا فى معناه. فـكل واحدمنهما زوج للآخر، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله ( خَلْقِهِ ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ماصفتهفعل نوع واحد دون ماعداه، كالنار التىشأنها التسخينولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذى شأنه التبريدولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالـكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ماشاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير[٢] : أى لِتَذَكَّرُوا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

« فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ » أى فِرُّوا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فر لمأمنه . فهو استعارة تمثيلية . « إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذيقهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

« وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة . قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير ـ كما قيل ـ بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾

[٥٣] ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

[٥٤] ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » يعنى تقليداً لآبائهم، واقتداءً لآثارهم ، فمورد جهالتهم مؤتلف ، ومشرع تعنتهم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ » إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلًا عن التفوّه بها . أى أأوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه. وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدالّ على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية مَن قبلهم بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى(١) ( وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ) وقوله(٢) ( وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ) . « فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شىء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا ـ ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة ـ بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأمورًا بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى(٣) ( وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ) .

وكذا قول البعض فى قوله تعالى ( فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكرى بعد . فالصواب ماذكرناه فى تفسير الآية، لأنه المحاكى لنظائرها. وأقعد التفاسير ما كان بالأشباه والنظائر ـ كما قيل ـ : وخير ما فسرته بالوارد .

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٨ ] . (٢) [ ٨٣ / المزمل / ١٠ ] .
(٣) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

« وَذَكِّرْ » أى عظهم « فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من قدّر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا مَن سواهم ، إذ هم العابدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ )

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا تنال سعادة فى الدارين، إلا بها . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ )

[٥٨] ( إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ )

« مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم ، قدّر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ )

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغى والفساد، « ذَنُوبًا » أى نصيبا وافرا من العذاب « مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية . وأصل ( الذنوب ) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء . وهى تذكّر وتؤنّث ، فاستعيرت للنصيب مطلقا، شرًّا كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيرًا كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس [1] :

وفى كل حىّ قد خبطتَ بنعمة فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .

« فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ )

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و ( اليوم ) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .

قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوىّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) قائل البيت هو علقمه الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحَا بكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذّنوب الدلو . أراد حظًّا ونصيبا .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٢ – سورة الطور

قال المهايمى : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحى ، فالوحى أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهى مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان[1] ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخارى[2] عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إنى أشتكى ! فقال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلطُّورِ )

[٢] ( وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ )

[٣] ( فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ )

[٤] ( وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ )

[٥] ( وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ )

[٦] ( وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ )

« وَٱلطُّورِ » أى طور سينين ، جبل بمَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

« فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ » متعلق بـ ( مسطور ) . أى وكتاب سطِّر فى ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و ( الرق ) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين . وروى أنه بيت فى السماء بحيال الكعبة من الأرض . يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ماجاء فى سورة ( التين ) من عطف ( ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ) على ( طُورِ سِينِينَ ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايميّ : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجلّ الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية[1] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ) وآيات أخر .

« وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

« وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله[2] ( وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ) قال ابن[3] جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى ( السَّجْر ) الإيقادأو الامتلاء. فإذا كان البحر غير موقد اليوم، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء، لأنه كل وقت ممتلئ. ولاتنس ماقدمنا فى أوائل ( الذَّارِيَاتِ ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ )

[٨] ( مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ )

[٩] ( يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا )

[١٠] ( وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا )

[١١] ( فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[١٢] ( ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ )

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٧ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ٦ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩و٢٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

[١٣] ( يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا )

[١٤] ( هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ )

[١٥] ( أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ )

[١٦] ( ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا » أى تضطرب. « وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصيرهباءً منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق، الجاحدين له « ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دعَعْت فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا . قال الزمخشرىّ : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « ٱصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار « فَٱصْبِرُوٓا۟ » أى على ألمها، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران: الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لاتعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله ( إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ... )الخ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ )

[١٨] ( فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ )

[١٩] ( كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

[٢٠] ( مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ )

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة « وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » جمع ( عيناء ) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ )

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ » أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً « وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ » أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً « كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » أى بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ )

[٢٣] ( يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ )

[٢٤] ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ )

« وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر . « يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنّ ، فهو أنق له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ )

[٢٦] ( قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ )

[٢٧] ( فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ )

[٢٨] ( إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ )

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا . « قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل ( ٱلسَّمُومِ ) الريح الحارّة التى تدخل المسامّ ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « ٱلرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رئىّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب فى بعضهم ، ولكنك رسول الله حقًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن ( المنون ) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ » أى عقولهم بهذا التناقض فى القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد،مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُو » أى اختلق هذا القرآن من عندنفسه ، « بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً،فلذلك يرمونه بتلك الفرى. « فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ »أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله[1]( قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ) . « إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ )

[٣٦] ( أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ )

[٣٧] ( أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ )

[٣٨] ( أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ )

[٣٩] ( أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ )

[٤٠] ( أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ )

[٤١] ( أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ )

[٤٢] ( أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ )

[٤٣] ( أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ، سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

« أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ » قال ابن جرير [٢] : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٤٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ » أي أنفسهم ، أو هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » أي بوعيد الله ، وما أعد لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ » أي خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ » أي الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أي مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أي الوحى ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أي بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ » أي حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم، الملائكة إناثا ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه [1] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ) « أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى، « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ » أي من التزام غرامة « مُّثْقَلُونَ » أي من أدائه، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أي منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أي بالرسول وما جاء به ، « فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ » أي المكور بهم دونك ، فثق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ » أي له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي : تنزيها له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١)[ ١٦ / النحل / ٥٨ ] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم(١) ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

قال الزمخشريّ: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ )

[٤٦] ( يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ )

« فَذَرْهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلههم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا » أى لايدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم ـ أقوال للسلف ـ واللفظ صادق بالجميع « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته.

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٩٠ـ٩٢ ] .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير [١] : أي بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعني أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة، استعيرت لذلك، وللحافظ نفسه ، كما تسمى ( الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع ( العين ) هنا وإفرادها في قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد، هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أي من منامك .

روى الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال: رب اغفر لي (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى، قبلت صلاته . وأخرجه البخاريّ [٣] في صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك . اللهم زدني علماً . ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ــ روى مسلم [٤] في صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول في

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .
(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبيّ ) .
(٣) أخرجه في : ١٩ ــ كتاب التهجد، ٢١ ــ باب حدثنا عليّ بن عبد الله، حديث رقم ٦٣٤
(٤) أخرجه في : ٤ ــ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ ( طبعتنا ) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبيّ ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة [١] عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك ـ رواه الترمذيّ وصححه، وكذا الحاكم.

وأخرج أبو داود [٢] والنسائيّ والحاكم عن أبي برزة الأسلميّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يارسول الله ! إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهـذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ، وعلله ، فرحمه الله .

ولايخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ )

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى [٣] ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُوداً ) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثاني ( طبعة الحلبيّ ).
(٢) أخرجه في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب في كفارة المجلس، حديث ٤٨٥٩
(٣) [ ١٧ / الإسراء / ٧٩ ] .

وقد روى فى أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف فى كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرّى عن أسانيدها فى كتابى ( الأوراد المأثورة ) .

« وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ » أى : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق، بانتشار ضوء الصبح . وقد عنى بذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة: كنا نحدَّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر . وفى لفظ لمسلم[2] : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشرىّ : وقرئ ( وَأَدْبَـٰرَ ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت.

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) عن الكرمانىّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٧ ـ باب تعاهد ركعتى الفجر ، حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٤ و٩٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ ( طبعتنا ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# ٥٣ – سُورَةُ النَّجْمِ

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخاريّ[1] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ( وَٱلنَّجْمِ ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد مَن خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع فى رواية غيره ، تسمية غير أمية ـ كما بسطه ابن حجر فى ( الفتح ) ـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ٤ ـ باب فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ )

[٢] ( مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ )

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقضّ . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًّا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغىّ . وذكرُه ﷺ بعنوان ( صاحبهم ) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بمحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ )

[٤] ( إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ )

« وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحيه إليه . وجملة ( يُوحَىٰ ) صفة مؤكدة لـ ( وَحْيٌ ) رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددىّ . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحى ، وقوّاه بما فى ( مراسيل ) أبى داود عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن. واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني: كون مرجع الضمير للقرآن، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (ٱفْتَرَىٰهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلىّ أنه ﷺ كثيراً مايقول بالرأى فى أمور الحرب، وأمورأخرى. فلابد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لاقوة فى المراسيل ، لما تقرر فى الأصول . وبأن الآية لاتدل على منع الاجتهاد المذكور، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً. لأن الله تعالى إذا سوغله الاجتهاد، كان الاجتهاد ومايستند إليه كله وحياً، لانطقاً عن الهوى. لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ ( متى ماظننتَ كذا فهو حكمى ) أى كل ماألقيته فى قلبك فهو مرادى، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجه تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراده . فما قيل عليه من أن الوحى الكلام الخفىّ المدركُ بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادىّ إلا بعموم المجاز. مع أنه يأباه قوله[1] ( عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) غير وارد عليه ، بعدماعرفت من تقريره ـ نقله فى (العناية) عن ( الكشف ) ـ وتفصيل المسألة فى مطولات الأصول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [٥] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)

«عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه، يعنى جبريل عليه السلام. كما قال[2] ( إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ) و ( ٱلْقُوَىٰ ) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرِّشا بكسر الراء فى جمع رشوة بضمها ، والحِبا فى جمع حُبوة ـ نقله ابن[3] جرير .

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ٥ ] . (٢) ( ٨١ / التكوير / ١٩و٢٠ ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه. والعرب تقول لـكل قوىّ العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من ( أمررت الحبل ) إذا أحكمت فتله « فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزمخشرىّ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء ـ كما قال شراحه ـ سببية ، لأن تشـكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على ( عَلَّمَهُو ) أى علمه على غير صورته الأصية ، ثم استوى على صورته الأصلية .

وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور ـ حكاه القاضي ـ.

قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر، لا مصطلح أهل الهيأة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى ( فَاسْتَوَىٰ ) يعنى جبريل عليـه السلام ـ قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس ( وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير[١] ههنا قولًا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد. وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء ـ كذا قال ـ ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله[٢] ( أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٢٧ / النمل / ٦٧ ] .

وَءَابَاؤُنَا ) فعطف بالآباء على المكنيّ فى ( كُنَّا ) من غير إظهار ( نحن ) فكذلك قوله ( فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يستوى والْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقْرَأْ) ثم فترة الوحى فترة ذهب النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقًّا، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه اليه . انتهى.

أقول : قد وافق القاشانيّ ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبيّ بالأفق الأعلى، لأنه حين كَوْن النبيّ بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية الكلبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر، لم يفهم القلب كلامه، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبيّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايمىّ وافقهما وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار ( بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ) الروحانىّ . انتهى .

وكذا الفخر الرازىّ وعبارته :

المشهور أن ( هو ) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقىّ ، فسدّ المشرق لعظمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

( فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول[1] ( وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ) إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول: وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا؛ أنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول : فوق السطح . أى : إن الرائى فوق السطح ، لا المرئىّ . و (المبين ) هو الفارق ، من ( أبان) أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحى فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) إلى غير ذلك ، وقوله تعالى ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبيّن موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل عليه السلام أرى النبىّ ﷺ نفسه على صورته ، فسدّ المشرق. فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

(١) [ ٨١ / التكوير / ٢٣ ] .

وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحـكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبىّ ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقى وسدَّه ، ولـكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازىّ .

وفى القرطبىّ حكاية أقوال أخر ، وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ ) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه فى السماء ، بعد أن علّم محمدًا ﷺ ـ قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير ـ .

وقيل : ( فَٱسْتَوَىٰ ) أى قام وظهر فى صورته التى خُلِق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) أى استوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان:

أحدهما ـ فى صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثانى ـ فى صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى ( فَٱسْتَوَىٰ ) فاعتدل . يعنى محمدًا فى قوّته ، والثانى فى رسالته ـ ذكره الماوردىّ ـ .

وعلى الأول يكون تمام الـكلام ( ذُو مِرَّةٍ ) ، وعلى الثانى ( شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما ـ أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثانى ـ أنه النبىّ ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : ( فَٱسْتَوَىٰ ) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش ـ على قول الحسين ـ انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال فى الآية ، وسيأتى فى أول التنبيهات إيضاح ما اخترناه منها ، وإنما أخّرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ )

[٩] ( فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ )

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّىٰ » أى إليه .

قال ابن جرير[١] : هذا من المؤخر الذى معناه التقـديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولـكنه حسن تقديم قوله ( دَنَا ) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلىّ فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبيّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ ( أراد الدنو ) ـ كما فى الإيضاح ـ .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » أى كأن مسافة مابينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدًّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيبه : مابين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدّر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابىْ قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحـداهما بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه لا يمكن خلافه ـ كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين ـ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

قال السمين : وقوله تعالى ( أَوْ أَدْنَىٰ ) كقوله[1] : ( أَوْ يَزِيدُونَ ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى لتقارب مابينهما ، يشك الرائى فى ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه فى رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر فى ( أَوْ يَزِيدُونَ ) فإن المعنى : إذا رآهم الرائى يقول هم مائة ألف أو يزيدون .

وقيل : ( أَوْ ) بمعنى ( بَلْ ) أى بل أدنى .

و ( أَدْنَىٰ ) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ )

« فَأَوْحَىٰٓ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِۦ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبىّ ﷺ . وإنما أضمر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإبهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ )

« مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ مارآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق وصدق. وقرئ ( ما كذّب ) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملَك ربانىّ ، لا خيال شيطانىّ ، كما قال[2] ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية فى أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٤٧ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ٢٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾

« أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانىّ : أى أفتخاصمونه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى .

وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبىّ ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصحّ المجادلة فى المرئىّ ، لأنه لا يجوز الجدال فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾

[١٤] ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

[١٥] ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾

[١٦] ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾

[١٧] ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾

[١٨] ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرّة أخرى من النزول ، وتأكيد الخبر عن الرؤية

الثانية هـذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه .
«عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . ف(المنتهى) : اسم مكان ، أومصدر ميمىّ . وقد جاء فى الصحيح[1] أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبهت بالسدرة ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبهت بها ، وسميت (سدرة) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث[2] أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر ـ قاله الشهاب ـ .

« عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ » أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . « إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ » قال القاشانىّ : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها .
« مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ » أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . « وَمَا طَغَىٰ » أى ما تجاوز مرئيه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . « لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ » يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالته . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الكبر .

قال الناصر : ويحتمل أن تكون ( ٱلْكُبْرَىٰٓ ) صفة لآيات ، ويكون المرئىّ محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

## تنبيهات :

الأول ـ قدمنا فى تفسير قوله تعالى ( فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ) ماقاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى مافى بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازيّ ومن وافقهما، وبعض أقوال حكاها القرطبيّ. والأقرب فى معنى الآية ماذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك. ونحن نقول فى تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما فى سورة التكوير تمام المشابهة، فقدقال تعالى(١) ثمة: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنوّ واقتراب لم يذكر فى (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبيّ ﷺ فى معارج الكمالات وقتاً فوقتاً. وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه فى ( الإتقان ) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان فى (النجم) زيادة هذا التكريم والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ماينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم، جمّ المناقب، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى. ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيّه تنزل من الأفق ، ودنا إليه، وكان فى غاية القرب منه، والتمكن من رؤيته، وتلقى الوحى عنه. وذلك كله حق وصدق لامرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره مايصدقه فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى فى مكان معين لايشتبه على رائيه، وهو سدرة المنتهى. وبالجملة، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لاخفاء به عند المتدبر ، وكله رد على المشركين المفترين، وإقسام على حقيقة الوحى والتنزيل ، وصدق مايخبر به، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه. فما بقى بعد التعنت

(١) [ ٨١ / التكوير / ١٩ـ٢٣ ] .

والجحد إلا انتظار سنة الله فى أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له فى آخر السورة.

هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوّزه مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد ـ والله الموفق ـ .

الثانى ـ ما قدمناه من رجوع الضمائر فى قوله تعالى ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ... » الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدلّى فى سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدلّيه ـ كما قالت عائشة وابن مسعود ـ والسياق يدل عليه ، فإنه قال ( عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القُوَى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلّى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .

وروى البخارىّ [(١)] فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح.

وروى الترمذىّ [(٢)] عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياد ـ مكان بمكة ـ له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارىّ [(٣)] من قوله ( ودنا الجبّار رب العزة فتدلّى،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيي بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٣ ـ حدثنا ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٧ ـ باب قوله وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما فى سورة النجم ، نؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تكلّم كثير من الناس فى رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) ، فهذه هى ليلة الإسراء ، والأولى كانت فى الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقيّ : وقع فى حديث شريك فى الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذى قاله البيهقيّ رحمه الله فى هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذرّ قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنَّى أراه . وفى رواية : رأيت نورًا ـ أخرجه مسلم [(١)] ـ .

وقوله ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة [(٢)] وعن ابن مسعود [(٣)] . وكذلك هو فى صحيح مسلم [(٤)] عن أبى هريرة ، ولا يعرف لهم

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحي حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحي حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ ( طبعتنا ) .

مخالف من الصحابة فى تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيم فى ( زاد المعاد ) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصحّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ » إنما هو جبريل . وصحّ عن أبى ذرّ أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما فى لفظ آخر : رأيت نورًا .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال: نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين. فإن كان استناده إلى قوله تعالى ( مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ) ثم قال: ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل ، رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى عز وجل، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد[1] أيضاً عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة ( أحسبه ، يعنى فى النوم ) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٣٤٨٤ ( طبعة المعارف ) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثدييّ ( أو قال نحرى ) فعلمت ما فى السموات ومافى الأرض . ثم قال: يا محمد! هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال قلت: نعم ! يختصمون فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء فى المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضنى إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

ثم قال ابن كثير: وقوله تعالى[1] ( لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ) كقوله[2] ( لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع. لأنه قال (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث ـ ذهب بعضهم إلى أن هـذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوىّ ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى مافوق السموات السبع ، كما ذكر فى أحاديث المعراج من سدرة المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبىّ : لما كان الإسراء مقدماً فى الوجود على المعراج، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج ومافيه . وكان مافى المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ مالا يجوز عليه ، فقال « وَٱلنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

(١) [ ٥٣ / النجم / ١٨ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٢٣ ] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحى، بأنه تعليم ملك كريم ، مرئىّ للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس ، لا لإثبات المعراج .

ثم من الغرائب أيضاً هنا ، قول بعضهم محاولًا سرّ إفراد الإسراء عن المعراج ، وذكر كلٍّ فى سورةٍ ، ما مثاله : إن الإسراء أنزل أولًا وحده ، حملًا للمشركين على تسليم ما وضح صدقه ﷺ فيه، توصلًا للتصديق بماوراءه فإنه ﷺ أرشدأن يخبر المشركين أولًا بالإسراءإلى المسجد الأقصى ، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه ، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط ، فتقوم الحجة عليهم . وكذلك وقع ، كما ذكر فى الروايات . وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺأن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام ، وأنزل الله تصديقه فى سورة النجم . انتهى . فكل هــذا مما لا سند له ، نعم ! روى البيهقىّ وابن أبى حاتم وابن جرير فى حديث مطول ؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب . إنى أتيت البارحة بيت المقدس ، وعرج بى إلى السماء ورأيت كذا وكذا . إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين ، ولا حجة فى الأخبار إلا مرويّهما . وبالجملة ، فالمعوّل عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر فى القرآن مطلقاً ، وما ورد فى هذه السورة وسورة التكوير ، فلا علاقة له بالمعراج ، وإنما هى رؤية النبىّ صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم . وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية . لصريح حديث البخارىّ فى ذلك من طرقه التى عن أنس ومالك بن أبى صعصعة . قال بعضهم ولذلك لم يذكر فى حديث المعراج، بحسب رواية البخارىّ التى هى أصح الروايات بالإجماع ، أن النبىّ ﷺسار أولا إلى بيت المقدس ، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيهأن جبريل فارقه، ثم ظهر لهعند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة ، وذلك يدل على أن ما ذكر فى القرآن مماوقع يقظة، هو غير ماذكر فى الحديث، مما وقع مناماً فى وقت آخر،

وإلا لذكرا معا فى سياق واحد ، إما فى القرآن ، وإما فى أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذى لم يحصل إلا فى بعض روايات لا يعوَّل عليها ، وهى من خلط بعض الرواة الحوادثَ بعضها ببعض . انتهى ـ والله أعلم ـ .

ثم قال تعالى منكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لهـا البيوت ، مضاهاة للـكعبة التى بناها خليل الرحمن لعبادته تعالى وحده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾

[٢٠] ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ » قال ابن كثير : هى صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فِناء معظَّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا ( ٱللَّٰتَ ) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشرىّ : هى فعلة من ( لوى ) لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة، أو يلتوون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ( اللاتّ ) بتشديد التـاء ، وفسروه بأنه كان رجلا يلتّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه. « وَٱلْعُزَّىٰ » وهى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى ( العزيز ) وقال الزمخشرىّ : أصلها تأنيث الأعز .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظّمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة . روى البخارىّ عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير(١) : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

## تنبيهات :

الأول ـ قال القاضى : ( مناة ) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت ( منى ) لأنه يمنى فيها القرابين ، أى ينحر .

وقال الزمخشرىّ : وكأنها سميت ( مناة ) لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أى تراق . وقرئ ( مناءة ) مفعلة من ( النوء ) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .

فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .

وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو ( ٱلثَّالِثَةَ ) للتأكيد ، و ( ٱلْأُخْرَىٰٓ ) بيان لها، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : ( ٱلْأُخْرَىٰٓ ) ما يثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودىّ ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودىّ ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلىّ ، بخلاف ( آخر ) و ( آخرة ) ، على وزن فاعل وفاعلة، فإن إشعارها بالتأخير الوجودىّ ، ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودىّ ، لأن ( الأفعل) و(الفعلى) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير فى الذكر مع ما نعتقده فى الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثانى ـ قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق فى السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكانت لقريش ولبنى كنانة ( الْعُزَّىٰ ) بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

ياعُزَّ كفرانَكِ لا سُبْحانَكِ　　　إنى رأيتُ اللهَ قد أهَانَكِ

روى النسائىّ عن أبى الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها ، ثم أتى النبىّ ﷺ فأخبره فقال : ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا فى الحيل وهم يقولون : ياعزى ! ياعزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب. وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على صاحل البحر ، من ناحية المشلّل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علىّ بن أبى طالب . انتهى .

الثالث ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العربية فى وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحويّى البصرة يقول : إذا سكتَ قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللاتّ ، فجعله من اللتّ الذى يلت. ولغة العرب يسكتون على مافيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شىء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويّى الكوفة يقف على ( اللات ) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار فى كل مالم يضف ، أن يكون بالهاء[2] ( رَحْمَةً مِّن رَّبِّى )[3] ( وَشَجَرَةً تَخْرُجُ ) . وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء، فالتاء للإضافة، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثانى، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها فى العرب، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ )

[٢٢] ( تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ )

« أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ » قال الزمخشرىّ : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ١٨ / الكهف / ٩٨ ] . (٣) [ ٢٣ / المؤمنون / ٢٠ ] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهنّ آلهة ؟ انتهى.

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام فى (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرنى) وفى كيفية دلالتها على ذلك، واختلاف النحاة فى فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرىّ ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضىّ . أو علمية ، فتكون فى محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها فى تأويل : أهى بنات الله ؟

قال السمين : وكأنّ أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام. وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » أى جائرة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير(١) : والعرب تقول ( ضِزْتُهُ حقَّه ) بكسر الضاد ، و ( ضُزته ) بضمها، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير ( ضئزى ) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على ( ضَيْزَىٰ ) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من ( ضازه يضيزه ) إذا ضامه وجار عليه ، فمعنى (ضيزى) جائرة. وعلى هذا فتحتمل وجهين: أحدهما ـ أن تكون صفة على ( فُعلى ) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء، كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل ( فِعلى ) بالكسر؟ .

فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد فى الصفات ( فِعلى ) بكسر الفاء ، وإنما ورد بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورُبَّى وما أشبهه، إلاأن غيره حكى فى الصفات ذلك . حكى ثعلب: مشية حيكى ، ورجل كيسى ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لاينقض على سيبويه لأنه يقول فى ( حيكى وكيسى ) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى ـ أن تكون مصدراً كذكرى . قال الكسائىّ : يقال ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من ( ضأزه ) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياءً ، لكنها لغة التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من الأول . و ( ضيزى ) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصليًّا ، لما تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى ( ضئزى ) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنة وسمع منهم ( ضؤزى ) بضم الضاد مع الواو والهمزة .

وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ )

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّآ أَسْمَآءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلًا. أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لا نصيب لها أصلًا ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَآ » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات « أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبوع « مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ » أى برهان يتعلق به « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ » أى تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير [١] : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحى جاءهم من الله، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحى ؛ أن عبادتها لا تنبغى وأنه لا تصلح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل ( يَتَّبِعُونَ ) أو اعتراض . وأيًّا ما كان، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى ( الإكليل ) : استدل بقوله ( إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ . . . ) الخ على أن اللغات توقيفية. ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .

واستدل بقوله تعالى ( إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ . . . ) الخ على إبطال التقليد فى العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبى حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأى على الدين ، فإنما كان الرأى من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ )

« أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ » أى ليس له ما يشتهيه من الأمور التى منها طمعه الفارغ فى شفاعة الأنداد ، وتعمقه فى دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمن يزعه . فإن ذلك من المحالات فى نظر العقل السليم ، كقوله[1] ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( فَلِلَّهِ ٱلْأٓخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ )

« فَلِلَّهِ ٱلْأٓخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ » أى فمصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ماتسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال[2] (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

---

(١) [ ٤ / النساء / ١٢٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٧١ ]

وَٱلْأَرْضُ . . . ) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبل السعادة التى لا تخفى على بصير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ)

« وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان، بإقناطهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزان ( كسانا الأمير حلة ) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا )

[٢٩] ( فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا )

« وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدًّا به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم التنعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من ( الإعراض ) هجرهم هجراً جميلًا ، وترك إيذائهم . وقولُ الزمخشريّ : أى أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله ... الخ ـ لايصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله[1] تعالى ( وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التنزيل ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ )

« ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٢ ] .

و ( مبلغ ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء ـ كما حققه الشهاب ـ والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أى : ولابد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى )

« وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى » أى بالمثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

ثم بيّن صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ )

« ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ » يعنى ما كبر الوعيد عليه من المناهى « وَٱلْفَوَٰحِشَ » يعنى ما فحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا ٱللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثّله أبو هريرة بالقبلة والغمزة والنظرة ـ فيما رواه ابن جرير[1] ـ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

وأصل معناه : ماقل قدره. ومنه : لمة الشَّعر، لأنها دون الوفرة. وقيل: معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ماذكر. أي إلا اللمم بما دون الكبائر والفواحش، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلًا، و(إلا) صفة بمعنى غير ـ وتفصيله في ( العناية ) ـ .

وحكى ابن جرير(١) عن ابن عباس وغيره؛ أن معنى ( اللمم ) ماقدسلف لهم مما ألموا به من الفواحش والكبائر في الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وعن ابن عباس أيضاً قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيّ عبد لك لا ألمّا

وقال الحسن : ( اللمم ) أن يقع الوقعة ثم ينتهي . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى في معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر ، كما قال تعالى(٢) ( إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ) .

« إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير(٣) : أي واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » قال(٤) ابن جرير: أي أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها «وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ» أي حينما يصوركم في الأرحام « فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أي تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ» أي بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٤ / النساء / ٣١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح. وهذا كقوله تعالى(١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

وفى الصحيحين(٢) عن أبى بكرة قال: مدح رجل رجلًا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾

[٣٤] ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴾

[٣٥] ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾

« أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى(٣) ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ « وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ » أى قطع العطاء بخلًا وشحًّا « أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

---

(١) [ ٤ / النساء / ٤٩ ] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٥و٦٦ ( طبعتنا ) .

(٣) [ ٧٥ / القيامة / ٣١و٣٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ )

[٣٧] ( وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ )

« أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ » أى بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال[١] ( وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ )

« أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آثمة ، فإن إثمها عليها .

قال القاشانىّ : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت فى النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التى هى الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ )

« وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

## تنبيهات :

الأول ـ قال[٢] ابن جرير : إنما عنى بقوله ( أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ) الذى

---

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذى فى صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها ( وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ) أى: وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شرًّا . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردًّا على ما كانوا يتخرصونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجاجاً وجهلاً . ومع ذلك فمفهومها الشمولىّ جلىّ .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : استدل به على عدم دخول النيابة فى العبادات عن الحىّ والميت . واستدل به الشافعىّ على أن ثواب القراءة لايلحق الأموات . انتهى.

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعىّ رحمه الله ومن تبعه؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به ـ فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكدّه وعمله، كما جاء فى الحديث[٢]: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقةُ الجارية ـ كالوقف

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١ ـ باب الحث على الكسب ، عن عائشة .

ونحوه ـ هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال [1] تعالى ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ . . . ) الآية . والعلم الذى نشره فى الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت فى الصحيح [2] : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام فى قوله تعالى ( لِلْإِنسَٰنِ ) فإن اللام لعود المنافع ، و( على ) لعود المضار . تقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه، فى المنافع والمضارّ . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل، كجموع السلامة تذكّر، إذا اجتمعت الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى ( ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ ) و (الأوفى) لا يكون إلا فى مقابلة الحسنة ، وأما فى السيئة فالمثل أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ )

[٤١] ( ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ )

« وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ » أى يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من ( أريت الشىء ) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من ( رأى ) المجرد . أى يراه ، كقوله تعالى [3] ( وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) [ ٣٦ / يس / ١٢ ] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ ( طبعتنا ) .

(٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٥ ] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُو ) « ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، فـ ( الجزاء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يتعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه ـ كما فى ( الكشاف ) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ )

[٤٣] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ )

[٤٤] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا )

[٤٥] ( وَأَنَّهُو خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ )

[٤٦] ( مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ )

[٤٧] ( وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ )

[٤٨] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ )

[٤٩] ( وَأَنَّهُو هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ )

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عامّ ، أى أيها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاصّ بالنبىّ صلوات الله عليه ، ففيه تسلية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالألوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُو هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَىٰ » أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعمّ .

قال الرازىّ : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ، فلابد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أمات من شاء من خلقه ، وأحيى من شاء . قال ابن جرير[1] : وعنى بقوله ( أَحْيَا ) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصييره الروح فيها « وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لا تعلم، كما قال[2] ( وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ » أى أغنى من شاء بالمال . و ( أقناه ) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ » وهو نجم مضىء خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ )

[٥١] ( وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ )

[٥٢] ( وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ )

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٥٦ / الواقعة / ٦١ ] .

[٥٣] (وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ)

[٥٤] (فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

[٥٦] (هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ)

« وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ » يعني قوم هود. وسميت (ٱلْأُولَىٰ) لتقدمها في الزمان. « وَثَمُودَاْ » أي قوم صالح « فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ » أي أشد في كفرهم « وَأَطْغَىٰ » أي أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، في طول مدته بينهم ، وهي أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ » أي قرى قوم لوط التي ائتفكت بأهلها ، أي انقلبت . « أَهْوَىٰ » أي أهواها على أهلها ودمّرها . « فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ » أي من العذاب السماويّ الذي صب عليها. « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ » أي نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أي ترتاب وتشكّ وتجادل في أنها ليست من عنده ، وهو الذي أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم. « هَـٰذَا » أي القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ » أي إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ)

[٥٨] (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ)

« أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ » أي قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام في (ٱلْأَزِفَةُ) للعهد . وقيل : الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا، لئلا يلزم وصف القريب بالقريب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القويب بالقرب يفيد المبالغة فى قربه، كما يدل عليه الافتعال فى ( اقتربت ) .

« لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله[1] (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) و ( كَاشِفَةٌ ) صفة محذوف، أى نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أوالتاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التأنيث و (مِن دُونِ ٱللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : الكشف بمعنى الإزلة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من ( كشف الغماء ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ)

[٦٢] (فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ) (سجدة) (لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر «تَعْجَبُونَ» أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيته الدمع المدرار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أىمما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية[2] ( وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ) «وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ» أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبيّ ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شامخين .

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٨٧ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٠٩ ] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن. يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى ( الإكليل ) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله ( سَٰمِدُونَ ) وفسره السدّىّ بالاستكبار .

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لاينبغى أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد[1] عن المطّلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد ـ ولم يكن أسلم يومئذ المطّلب ـ فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه ـ ورواه النسائىّ ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٤ - سورة القمر

وتسمى سورة ( ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ) وهى مكية . وآيها خمس وخمسون .

قال ابن كثير : ورد فى حديث أبى واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ( قاف ) و ( وٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ) فى الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ )

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة. كما قال[١] ( أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) وقال[٢] ( ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) .

قال ابن جرير[٣] : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون .

« وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ )

« وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير[٣] : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم، أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر، سَحَرَنا محمد. ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى ( الشفا ) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ١ ] .
(٢) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذّبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبيّ ﷺ بعث رحمة ، وأمّن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطبائع حريصة على إشاعة مالم يعهد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يُرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى .

وقد ذكر ابن قتيبة في ( تأويل مختلف الحديث ) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزمخشريّ والبيضاويّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى ( مُسْتَمِرٌّ ) دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من ( مررت الحبل ) إذا أحكمت فتله . أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانيّ الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً .

وجملة ( وإن يروا ) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد ـ كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولي ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمنكرٍ حديثٍ غير مجمع على تواتره ، جناية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالىّ كتابه ( فيصل التفرقة ) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرّق الكلمة، ونفّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه، وأشاروا له فى مواضع ، فقرروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفنارىّ فى ( فصول البدائع ): ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح، كما كانت الصحابة ترده، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالىّ فى ( الإحياء ) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها ـ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هـذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها ـ أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول علىّ رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له فى الشىء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما ـ أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشىء ، أو روى فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام ـ وبالله التوفيق ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

« وَكَذَّبُواْ » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غايةٍ، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾

[٥] ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

« وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتى به أمىّ غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة. وهو بدل من (ما) أوخبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أىّ غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون ( حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : ( حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) يعنى أى شيء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه. فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى(١) ( وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ) وكذا قوله تعالى(٢) ( وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ) .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٩ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ١٠١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ )

[٧] ( خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ )

[٨] ( مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ )

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال : « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ » أى داعي الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر فى قوله ( كُن فَيَكُونُ ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » أى فى الكثرة والتموج والانتشار . والجرادُ مثل فى الكثرة «مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ » أى مسرعين. مادّى أعناقهم إليه . «يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ ( يَقُولُ ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ ( يَخْرُجُونَ ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ )

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ » أى زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة ( افتعل ) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا۟) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد. وهو كقوله فى السورة(١) ( فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

---

(١) [ ٥٤ / القمر / ٢٩ ] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله ( عَبْدَنَا ) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . فالتكذيب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ )

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ )

[١٢] ( وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ )

[١٣] ( وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ )

[١٤] ( تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ )

[١٥] ( وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

[١٦] ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ )

« فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء، وشق لها أديم الخضراء. « وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر . « فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدّره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام ـ كما بسطه فى (الكشاف) ـ .

( ودُسُرٍ) جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ،وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . «جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من ( الكفر ) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلا أو حقيقة . « وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ » أى قصة نوح « ءَايَةً » أى جعلناها عِبْرَة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله ( مذتكر) . «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ» أى عذابى لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتى بما أحلت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهلناه للادّكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ )

[١٩] ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ )

[٢٠] ( تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ )
[٢١] ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ )
[٢٢] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذّبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب، لها صرير ، أو باردة ، « فِى يَوْمِ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُّسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنزِعُ ٱلنَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل ( مُّنقَعِرٍ ) ما أخرج من القعر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » كرّره للتهويل وللتنبيه على فرط عتوّهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ )
[٢٤] ( فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ )
[٢٥] ( أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ )
[٢٦] ( سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ )
[٢٧] ( إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ )
[٢٨] ( وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ )
[٢٩] ( فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ )

[٣٠] ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ )
[٣١] ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ )
[٣٢] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون، أو عناء. فهو اسم مفرد. وقيل: جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشريّ قالوا : ( أَبَشَرًا ) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا ( مِّنَّا ) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا ( وَاحِدًا ) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالًا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ » أى المتكبر عن الحق، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَٱرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعوه بها «وَٱصْطَبِرْ» أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم «قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ» أى مقسوم بينهم، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و ( الشرب ) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ » فتناول الناقة بيده «فَعَقَرَ» أى فعقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسّر ، الذى يتخذه

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا ، كما يهمد وييبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفيان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ )

[٣٤] ( إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لوطٍ ، نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ )

[٣٥] ( نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ )

[٣٦] ( وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ )

[٣٧] ( وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ )

[٣٨] ( وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ )

[٣٩] ( فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ )

[٤٠] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة. أو ريحاً تحصبهم بالحجارة، أى ترميهم « إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ » أى

فى سحر . أو ( الباء ) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبيّ الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء « نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا، وهو علة لـ(نجينا) « كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . و ( الشكر ) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنذَرَهُم » أى لوط« بَطْشَتَنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم، وهم الملائكة الذين وردوا عليه فى صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا يخزوه فى ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم، كما قال «فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشريّ : فإن قلت : مافائدة تكرير قوله ( فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ) ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ... ) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله[1] ( فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) عند كل نعمة عدها فى سورة ( الرحمن ) . وقوله[2] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) عند كل آية أوردها فى

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ١٣ ] . (٢) [ ٧٧ / المرسلات / ١٥ ] .

سورة ( والمرسلات ) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ )

[٤٢] ( كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ )

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديد لا يغالَب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ )

[٤٤] ( أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ )

« أَكُفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد ( مُّنتَصِرٌ ) مراعاة للفظ ( جَمِيعٌ ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ )

[٤٦] ( بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ )

« سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » أى يولّون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد ( الدبُر ) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوّة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير[1]: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يُبعثون بعد مماتهم، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب. « وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ )

[٤٨] ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ )

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة. وقال القاشانىّ : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و ( سُعُرٍ ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرّون عليها . « ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ » أى حرّها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أو فى ( سَقَرَ ) مكنية، وفى ( المسّ ) تخييلية.

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق فى المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبّباتها. ومنه خلق دار العذاب، لما كسبت الأيدى، وإذاقة ألمها جزاء الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية[١] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا )، وآية[٢] (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ) أى قدّر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويُتّقى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعى بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد «إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» أى كلمة واحدة يكون بها كل شىء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر فى السرعة .

قال القاشانىّ : (إِلَّا وَاحِدَةٌ ) أى تعلّق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شىء فى زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت فى لوح القدرة ، المسمّى فى الشرع بـ (كُن) ، فيجب وجوده فى ذلك الزمان، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى[٣] (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ) .

(١) [ ٢٥/ الفرقان/ ٢ ] . (٢) [ ٨٧/ الأعلى/ ١ـ٣ ] . (٣) [ ١٦/ النحل/ ٧٧ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى (الأشياع) جمع شيعة ، وهم من يتقوّى بهم المرء من الأتباع. ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى متعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ )

« وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ )

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُّسْتَطَرٌ » أى مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى[١] ( وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ) وقوله سبحانه[٢] ( وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ) .

وروى الإمام أحمد[٣] عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٩ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٣و١٤ ] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس ( طبعة الحلبى ) .

يا عائشة ! إيَّاكِ ومحقّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً .

قال ابن كثير : ورواه النسائيّ وابن ماجة من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنيّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدّثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك ياسعيد ! لقد حدَّثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لاتحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرَا ... إنَّ الصغيرَ غَـدًا يعودُ كَبيرَا
إنَّ الصغيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، ... عنـد الإله مُسَطَّرٌ تسطيرَا
فازجُرْ هواكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لاتـكن ... صعبَ القِيَادِ وشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا
إنَّ المُحِبَّ إذا أحَبَّ إلٰهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأُلْهِمَ التفـكيرَا
فاسْأَل هِدايتك الإله ، فَتَتَّئِدْ ... فَـكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرَا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ )

[٥٥] ( فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ )

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أي الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ » أي أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ » قال ابن جرير[1] : أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشريّ : في مكان مرضيّ . قال شرّاحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

أو استعارة . وقيـل : المراد صدق المبشَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِندَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هى صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشانىّ : أى يقدر على تصريف جميع ما فى ملـكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : فى تنـكير الاسمين الـكريمين إشارة إلى أن ملـكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منـه بمنزلة من السعادة والـكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجل عن البيان ، وتـكلّ دُونه الأذهان .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٥ – سورة الرحمن

قال المهايمى : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهى راجعة إلى هذا الاسم .

وهى مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .

وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

[٢] ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

« ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ » أى بصّر به ما فيه رضاه، وما فيه سَخطه، برحمته ليطاع باتباع ما يرضيه ، وعمل ما أمر به ، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضى : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدّرها بـ ( الرحمٰن ) وقدم ماهو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحى ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصداق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾

[٤] ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ـ وهو التعبير عما فى الضمير ، وإفهام الغير ـ لما أدركه لتلقى الوحى ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو فى الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشريّ : وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا ـ كما قال الشهاب ـ مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلًّا منها نعمة مستقلة تقتضى الشكر . ففيه إيماء إلى تقصيرهم فى أدائه . ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهانىّ فى ( الذريعة ) : لما كان للنطق أشرف ماخص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التى بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل ( خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ) ولم يقل ( وعلمه ) إذ جعل قوله ( عَلَّمَهُ ) تفسيراً لقوله ( خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذى لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرتفعة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

قال الشاعر(١) :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤادُهُ ❊ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدّمِ

أى إذا توهم ارتفاع النطق الذى هو باللسان ، والقوة الناطقة التى هى بالفؤاد ، لم يبق إلاصورة اللحم والدم. فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظًّا كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلًا عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء فى الكلام ، فيقع منه جنايات عظيمة فى أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فمحال أن يقال فى الصمت فضل ، فضلًا أن يخاير بينه وبين النطق. وسئل حكيم عن فضلهما فقال: الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

---

(١) هو زهير بن أبى سُلْمى ، من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكَلَّمِ ❊ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الخنا ، أفضل من الكلام بالخطا . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أليَقُ بالفَتى     من منطقٍ فى غَيْرِ حِينِه

انتهى . وقد جوّز ـ كما حكاه الشهاب ـ أن يكون ( ٱلرَّحْمَٰنُ ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعديد نعمه . ثم قال : و ( عَلَّمَ ) من التعليم ، ومفعوله مقدر . أى علّم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس ( من العلامة من غير تقدير ) كما قيل . أى جعله علامة وآية لمن اعتبر ـ لبُعْدِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ )

[٦] ( وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ )

[٧] ( وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ )

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجريان بحساب معلوم مقدّر فى بروجهما ومنازلهما، به تتسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب . « وَٱلنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَٱلشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى ينقادان لله فيما يريد بهما طبعاً، انقياد الساجد من المكلّفين طوعاً . فهو استعارة مصرّحة تبعيّة. شبّه جريهما على مقتضى طبيعته، بانقياد الساجد لخالقه والجملة ـ إن كانت خبرًا عن الرحمن لعطفها على الخبر ـ فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لغرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويّان ، والنجم والشجر أرضيّان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته . « وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشانيّ : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولمّا استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاه لفسد ـ أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدّة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و ( أَنْ ) مصدرية على تقدير الجارّ . أى لئلا تطغوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ » قال القاشانيّ : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى .

وممن فسّر ( ٱلْمِيزَانَ ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية[1] ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ) . وجوّز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥]

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب ـ كذا ارتآه القاضي ـ والله أعلم .

وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عامًّا أولى وأفيد .

ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازيّ : ( ٱلْمِيزَانَ ) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول . قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى[1] ( فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ )؛ وبمعنى المقروء في قوله [2] ( إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ )؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى[3] ( وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ )، فكأنه آلة ومحل له ؛ وفي قوله تعالى[4] ( ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ). ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ )

[١١] ( فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ )

[١٢] ( وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ )

[١٣] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهّدها للخلق « فِيهَا فَٰكِهَةٌ » أي صنوف مما يتفكّه به « وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه العنقود ،

---

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٨ ] .    (٢) [ ٧٥ / القيامة ١٧ ] .

(٣) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] .    (٤) [ ١٥ / الحجر / ٨٧ ] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطبا . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردها بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة، على ماعرف من اتخاذ الظروف منها، والانتفاع بجمّارها وبالطلع والبسر والرطب وغيرذلك . فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة، فهى أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها فى عين ثمارها . « وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ » أى وفيها الحَبّ . وهو حَبّ البرّ والشعير ونحوهما ( ذُوٱلْعَصْفِ ) أى الورق اليابس كالتبن . « وَٱلرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه فى حالتيه . هذا على ( قراءة ) ( الريحانِ ) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمى به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية فى نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبيّ : الريحان ، إمافيعلان، من ( روح ) ،فقلبت الواو ياء، وأدغم ثم خفف، أو فعلان ، قلبت واوه ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى [1] ( لِلْأَنَامِ ) ، وسينطق به قوله تعالى [2] ( أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ) . والفاء لترتيب الإنكار، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما . والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة فى نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالا ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة، فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ١٠ ] . (٢) [ ٥٥ / الرحمن / ٣١ ] .

من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر، شهادة منها بذلك. فكفرهم تكذيب بها لامحالة . أي فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأي فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلًّا منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ )

[١٥] ( وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ )

[١٦] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتي كل واحد من الثقلين . و ( الصلصال ) الطين اليابس الذي له صلصلة . و ( الفخار ) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالًا . فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين. « وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ » أي الجن، أو أبا الجن، « مِن مَّارِجٍ » أي لهب صاف « مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النِّعَم . ومما أظهره لكما بالقرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ )

[١٨] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ » أي مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما، أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما فيهما من النعم

والفوائد التى لاتحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدوث ماينا سب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التى بها قوام العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ )

[٢٠] ( بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ )

[٢١] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من ( مَرَجَ فلان دابته ) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَّا يَبْغِيَانِ » أى لايبغى أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر، قد يجرى فيه فراسخ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لايتجاوزان حديهما بإغراق مابينهما ـ وهو مروى عن قتادة والحسن ـ قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لايوافق قوله تعالى ( مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ... ) الآية(١) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير(٢) ماروى عن ابن عباس وغيره؛ أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض. وذلك أن الله قال(٣) ( يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى.

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٣ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٣) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٢ ] .

وفيه ما فى الذى قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل فى الآى التشابه . زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى هو الأول . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فى البحرين وخلقهما من الفوائد ، وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ )

[٢٣] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » أى كبار الدر وصغاره . أو ( المرجان ) الخرز الأحمر المعروف . وإنما قيل ( مِنْهُمَا ) مع أنه يخرج من أحدهما ، وهو الملح ، لأنه لامتزاجهما يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله[1] ( لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال: هو من أهل مصر ، وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير ( مِنْهُمَا ) لبحرى فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متكون فيهما ، بل أنهما يحصلان فى جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .

ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحلّيهم بهما ، كما تشير له آية[2] ( وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ) قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

---

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٣١ ] .  (٢) [ ٣٥ / فاطر / ١٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ)

[٢٥] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

«وَلَهُ ٱلْجَوَارِ» يعنى السفن ، جمع جارية «ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ» قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتى تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتى تقبل بهن وتدبر . و ( الأعلام ) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى «فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أى نعمه التى أنعم بها فى هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» أى : مَن على ظهر الأرض هالك «وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ» أى ذاته الكريمة «ذُو ٱلْجَلَـٰلِ» أى العظمة والعلوّ والكبرياء «وَٱلْإِكْرَامِ» أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية[1] (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ) .

(١) [ ٢٨ / القصص / ٨٨ ] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها المحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويبوء الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها العدل الإلهي المكلفين ـ قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازيّ إلى ما في قوله تعالى ( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ) من الفوائد ، بقوله : فيه فوائد :

منها ـ الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .

ومنها ـ المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول ـ إذا كان في نعمة ـ إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .

ومنها ـ الأمر بالصبر إن كان في ضر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضر زائل .

ومنها ـ ترك اتخاذ الغير معبوداً، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها ـ حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفيّ جميعاً، لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ )

[٣٠] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفقرهم الذاتيّ ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدّد أحوالًا .

قال مجاهد : يعطي سائلًا ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير[1] أن النبيّ ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يارسول الله ! وماذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال القاشانيّ : المراد يسأله كلُّ شيء ، فغلب العقلاء ، وأتى بلفظ ( مَنْ ) أي كل شيء يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً ( كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خلق شأن ، بإفاضة مايستحقه ويستأهله باستعداده . فمن استعدّ بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والرذائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشرور والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره ـ كابن كثير والقاضي ـ رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو مايتبادر باديْ بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولا « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما يسعف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فآناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ )

[٣٢] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ » قال القرطبيّ : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغا . وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك ، أي أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وقال الزجّاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشىء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلى به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تدبيره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ فى الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهى ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن ـ بحال مَن إذا كان فى شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع فى آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب ( المفتاح ) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعاراً للأخذ فى الجزاء وحده .

لطيفة :

ترسم ( أَيُّهَ ) بغير ألف . وأما فى النطق فقرأ أبو عمرو والكسائىّ ( أيها ) بالألف فى الوقف ، ووقف الباقون على الرسم ( أيه ) بتسكين الهاء ، وفى الوصل قرأ ابن عامر ( أيُّهُ ) برفع الهاء ، والباقون بنصبها .

و ( الثقلان ) تثنية ( ثَقَل ) بفتحتين ، فَعَل بمعنى مفعل ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أُثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب فى ( لكم ) قيل للمجرمين ، لكن يأباه قوله ( أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع ـ كما أفاده الشهاب ـ ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلىّ . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من ثوابه أهلَ طاعته ، وعقابه أهلَ معصيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ )

[٣٤] ( فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَٱنفُذُوا۟ » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ) أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنَّى لكم ذلك ؟ ونحوه[١] ( وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى الآية الأولى أنه لا محالة مُجاز للعباد ، عقبه بقوله ( إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ . . . ) الخ ، لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه، إذا أراده . « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[٢] : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ )

[٣٦] ( فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ » أى من لهب « مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفر مذاب يصبّ

---

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٢٢ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتنقذان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .

وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ، وعبارته :

هذا فى مقام الحشر ، والملائكة محدقة بالخلائق ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان ، أى بأمر الله[1] ( يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ) وقال تعالى[2] (وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ) والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك ، الإمامُ ابن القيّم رحمه الله ، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه ( طريق الهجرتين ) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل قوله تعالى ( إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ ) ما مثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض ، وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً ، كما قال تعالى[3] (وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) قال مجاهد : فارّين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٠ـ١٢ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ٢٧ ] .
(٣) [ ٤٠ / غافر / ٣٢و٣٣ ] .

قوله[١] (وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) وقوله[٢] (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ..) الآية. وهذا القول أظهر ـ والله أعلم ـ فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : ( إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لايقدرعلى عذابكم ، فافعلوا. وكأن ماقبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ ... ) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها[٣] ( فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ... ) الآية، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله ( يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ) فلابد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر . وقال تعالى ( إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ) ولم يقل: إن استطعتما، لإرادة الجماعة، كما فى آية أخرى[٤] (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال[٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين، أى لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله[٦] ( إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ) فخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسّن الخطاب بالتثنية فى قوله ( عَلَيْكُمَا ) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما ـ والله أعلم ـ انتهى كلام ابن القيّم .

وأنت ترى أن لاقرينة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لايؤيده، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ماذكرناه .

---

(١) [ ٦٩ / الحاقة / ١٧ ] . (٢) [ ٥٥ / الرحمن / ٣٣ ].
(٣) [ ٥٥ / الرحمن / ٣٧ ]. (٤) [ ٦ / الأنعام / ١٣٠ ].
(٥) [ ٥٥ / الرحمن / ٣٥ ]. (٦) [ ٥٥ / الرحمن / ٣٣ ].

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضى : فإن التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ )

[٣٨] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ » أى انفطرت فاختل نظامها العلوىّ « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أى كلون الورد الأحمر « كَٱلدِّهَانِ » أى كالدهن الذى هو الزيت ، كما قال[١] ( يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ) وهو دردىّ الزيت ، يعنى فى لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يحله بكم بعد ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ )

[٤٠] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ » أى لا يفتح له باب المعذرة ، كقوله[٢] ( وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) فنفى السؤال مجاز عن نفى سماع الاعتذار . فهو من باب نفى السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثيرٌ السؤالَ على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشانىّ : وأما الوقف والسؤال المشار إليه فى قوله[٣] ( وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ) ونظائره ، ففى مواطن أخر من اليوم الطويل الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الموطن قبل الموطن الأول فى ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

---

(١) [ ٧٠/ المعارج/ ٨ ]. (٢) [ ٧٧/ المرسلات/ ٣٦ ] . (٣) [ ٣٧/ الصافات/ ٢٤ ].

وكذا قال ابن كثير : إن هذه الآية كقوله[١] تعالى (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) فهذا فى حال . وثَمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى[٢] ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) وفى الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لايسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم فى ( طريق الهجرتين ) اختلف فى هـذا السؤال المنفىّ ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لايسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنفىّ سؤال الاستعلام والاستخبار ، لاسؤال المحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[٣] : أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ )

[٤٢] ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٤٣] ( هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ )

[٤٤] ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ )

[٤٥] ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكآبة والحزن والذلة . وقيل :

---

(١) [ ٧٧ / المرسلات / ٣٥و٣٦ ] . (٢) [ ١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام، أو للتعدية . و ( الناصية ) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[1] : أى من تعريفه ملائكته ، أهلَ الإجرام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانٍ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنَىٰ . ومنه قوله[2] ( غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به .

ثم تأثر ماعدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدنيوية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ )

[٤٧] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٤٨] ( ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ )

[٤٩] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٥٠] ( فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ )

[٥١] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٥٢] ( فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ )

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .
(٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥٣ ] .

[٥٣] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )
[٥٤] ( مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ )
[٥٥] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )
[٥٦] ( فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ )
[٥٧] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )
[٥٨] ( كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ )
[٥٩] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقود الحلب ، أى رقود عند الحلب. أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهانىّ بليغ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، فخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإيثار التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثابته المحسن ما وصف « ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع ( فن ) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع ( فَنَن ) وهو ما دقّ ولان من الغصن « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج. نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟!

« وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنىّ دانى القطوف « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات النظر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف الناظر لايتجاوزها ، كقول المتنبى :

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيهِ        كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقَا

فالمراد: قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن. أو المعنى: شديدات بياض الطرف، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوّارى .

وجلىّ أن المعانى ههنا لاتتزاحم لتحقق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » أى لم يمسهن . وأصله خروج الدم، ولذلك يقال للحيض ( طمث ) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عمّ كل جماع . وقد يقال: إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكراً كلما جومعت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمث ويدخلن الجنة . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة، أو فى حمرة الوجنة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ )

[٦١] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٦٢] ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ )

[٦٣] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٦٤] ( مُدْهَآمَّتَانِ )

[٦٥] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٦٦] ( فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ )

[٦٧] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٦٨] ( فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ )

[٦٩] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٧٠] ( فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ )

[٧١] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٧٢] ( حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ )

[٧٣] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٧٤] ( لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ )

[٧٥] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٧٦] ( مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ )

[٧٧] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )

[٧٨] ( تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ )

« هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ » أى فى العمل « إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا » أى دون تينك الجنتين المنوّه بهما « جَنَّتَانِ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف فى مناظرها « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ » أى خضراوان من الريّ ،

تضربان إلى السواد من شدة الخضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى فوّارتان بالماء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية ، جنسان آخران « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ » جمع ( خيّرة ) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل. أى فاضلات الأخلاق. وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده «حِسَانٌ » أى حسان الوجوه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ » الحور : جمع ( حوراء ) وهى البيضاء النقية . ومعنى ( مَّقْصُورَٰتٌ ) قصرن أنفسهنّ على منازلهنّ ، لا يهمهنّ إلا زينتهنّ ولهوهنّ . وفيه المعانى المتقدمة أيضاً . و ( ٱلْخِيَامِ ) قال ابن جرير[1] : يعنى بها البيوت . وقد يسمّى العرب هوادج النساء خياماً ، ثم أنشد له . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » يعنى بهنّ حور الجنتين اللتين من دون الأوليين . أو تكرير لما سبق ، للتنويه بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتهيات ، وطليعة الملذات : « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ » أى سرر أو مساند أو وسائد « خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ » أى طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياد . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبير : ( العبقرىّ) عتاق الزرابىّ ، أى جيادها . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكما هذا الإكرام . « تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و ( الاسم ) هنا كناية عن الذات العليّة ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كآية[2] ( تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ) ، وآية ( تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ) ونحوهما . وسر إيثار الاسم

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٢٥ / الفرقان / ٦١ ] . (٣) [ ٦٧ / الملك / ١ ] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماؤه الحسنى ، لاستحالة اكتناه الذات المقدسة . فما عرف اللهَ إلا اللهُ . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ ( اسم ) مقحم ، كقوله[1] :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلام عليكُما *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقته . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل ( تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ) فحق . ومعنى ( تَبَٰرَكَ ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذى هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء. ونحن نتبرّك بالذكر له وبتعظيمه ونجلّه ونكرّمه، فله التبارك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حيثما كان من قرطاس ، أو فى شىء منقوش فيه ، أو مذكور بالألسنة . ومَنْ لم يجلّ اسم الله عز وجل

---

(١) وعجزه: * ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فقدِ اعْتَذَرْ *

وقائله لبيد بن ربيعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تَمَنَّى ابنتاىَ أنْ يعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فقوما فقولَا بالذى قد علمتما ... ولا تَخْمِشاَ وَجْهاً ولا تَحْلِقاَ شَعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا خليلَهُ ... أضاعَ، ولا خان الصديقَ ، ولا غَدَرْ

فقوله ( إلى الحول ) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول. والحول: السنة كاملة بأسرها .

وقوله(اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية فى العذر .

( تفسير الطبرىّ ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩ ) ( فى الحاشية ) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها. انتهى كلامه رحمه الله .

## فائدة

فيما قاله الأئمة فى سر تكرير ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) (١) .

قال السيوطى فى ( الإتقان ) فى بحث التكرير :

قد يكون التكرير غيرَ تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) فإنها ، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائدا إلى شىء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها ـ قاله ابن عبد السلام وغيره ـ انتهى .

وفى ( عروس الأفراح ) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هى ألفاظ كلٌّ أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصًّا فيما يليه ، ظاهراً فى غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزاد به عن ثلاثة ، لأن ذاك فى التأكيد الذى هو تابع . أما ذكر الشىء فى مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع. انتهى .

وقال العز بن عبد السلام فى آخر كتابه ( الإشارة إلى الإيجاز ) وأما قوله ( فَبِأَيِّ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التى قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ماتقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ماتقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ) نعمة ، وقوله ( يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ) نعمة، وكذلك قوله ( هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ وقوله ( يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ) وقوله ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله[1] هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام . وأما قوله[2] ( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب فى الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوىّ : كررت هذه الآية فى أحد وثلاثين موضعا تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وتابع إليه بالأيادى ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب . انتهى .

(١) [ ٣٦ / يس / ٥٢ ] . (٢) [ ٥٥ / الرحمن / ٢٦ ] .

وقال السيد مرتضى فى ( الدرر والغرر ) : التكرار فى سورة الرحمن، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعدّدة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، وبّخ على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك فى الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثى كليباً[1] :

على أنْ ليس عدلًا من كُلَيْبٍ ... إذا ما ضِيمَ جِيرانُ المُجيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا رجف العِضَاهُ من الدَّبُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوَى الأُمُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خِيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... غداة تَلَاتِلِ الأمرِ الكبيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما خَارَ جارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام فى ( متشابه القرآن ) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين ، أخذاً من قوله ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطّلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلئ فرقانك العظيم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالى المرتضى ( طبعتنا ) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :
٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ٥٨ ـ سورة المجادلة ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٦٠ ـ سورة الممتحنة ، ٦١ ـ سورة الصف ، ٦٢ ـ سورة الجمعة ، ٦٣ ـ سورة المنافقين ، ٦٤ ـ سورة التغابن ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٦٧ ـ سورة الملك ، ٦٨ ـ سورة القلم ، ٦٩ ـ سورة الحاقة ، ٧٠ ـ سورة المعارج ، ٧١ ـ سورة نوح ، ٧٢ ـ سورة الجن ، ٧٣ ـ سورة المزمل ، ٧٤ ـ سورة المدثر ، ٧٥ ـ سورة القيامة .

---

## فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء


| رقم الصفحة | رقم السورة واسمها |
|---|---|
| ٥٣٢٦ | ٤٦ ـ سورة الأحقاف |
| ٥٣٧١ | ٤٧ ـ سورة محمد ﷺ |
| ٥٣٩٤ | ٤٨ ـ سورة الفتح |
| ٥٤٣٧ | ٤٩ ـ سورة الحجرات |
| ٥٤٨٠ | ٥٠ ـ سورة قٓ |
| ٥٥١٩ | ٥١ ـ سورة الذاريات |
| ٥٥٤٠ | ٥٢ ـ سورة الطور |
| ٥٥٥٣ | ٥٣ ـ سورة النجم |
| ٥٥٩١ | ٥٥ ـ سورة القمر |
| ٥٦١٠ | ٥٥ ـ سورة الرحمن |


---

رقم الإيداع بدارالكتب رقم ٤٢٤٠/١٩٧٠

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

## محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

## الجزء السادس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٥٦ ـ سورة الواقعة ، وينتهي بتفسير ٧٥ ـ سورة القيامة

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

**محمد فؤاد عبد الباقي**

عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا، فى خزانته الواسعة، مخطوطا كان أو مطبوعا، خاليا من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان، رحمه الله، آية فى المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# ٥٦ – سُورَة الواقِعَة

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هي الواقعة العظمى، لوقوعها في أشد الأحوال ـ قاله المهايميّ ـ .

وهي مكية . وآيها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت ـ رواه الترمذيّ[1] وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحوٍ من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٦ ـ حدثنا أبو كريبٍ . حدثنا معاوية بن هشام .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة ... المدينة المنورة

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾

[٢] ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾

[٣] ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أومنقول، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لابد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضىّ ، للدلالة على ماذكر . « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة ( فاعلة ) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعتها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت .

قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم. وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾

[٥] ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾

[٦] ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾

« إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضِ رَجًّا » أى زلزلت زلزالا شديداً « وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا »

أى فتّتت، أو سيقت وأذهبت، كقوله(١) ( وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ) «فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا» أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ماتذْرُوهُ الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو مايرى من الكوة كهيأة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً )

[٨] ( فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ )

[٩] ( وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ )

[١٠] ( وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ )

[١١] ( أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ )

[١٢] ( فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ )

« وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا » أى أصنافاً « ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها. وإطلاق (الميمنة) و(المشأمة) اللتين هما الجهتان المعروفتان، على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار والمفسدون من الناس ـ أصله من تيمُّنِ العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السانح والبارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوّزًا به ، أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمن والشؤم، فليس بمعنى الجهة، بل بمعنى البركة وضدها،

(١) [ ٧٨ / النبأ / ٢٠ ] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفى جملتى الاستفهام إشارة إلى ترقّى أحوالها فى الخير والشر ، تعجُّباً منه .

« وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله ( ٱلسَّٰبِقُونَ ) أبلغ من قرينه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله ( وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق. ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله ( أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله ( ٱلْمُقَرَّبُونَ ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله ( فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ) ـ أفاده الناصر ـ .

و ( ٱلسَّٰبِقُونَ ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ ( وشِعرى شعرى ) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقرّبهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٤] ( وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ )

« ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ » أى الذين جاءوا من بعدهم فى الأزمنةالتى حدثت فيها الغيَر، وتبرّجت الدنيا لخطّابها، ونسى معها سر البعثة، وحكمة الدعوة . فما أقلّ الماشين على قدَم النبيّ صلوات الله عليه وصحابه ! لاجَرَم أنهم وقتئذ الغُرَباء، لقلّتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)

[٢٠] (وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَحُورٌ عِينٌ)

[٢٣] (كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أى مصفوفة، أو مشبكةبالدرّ والياقوت أو الذهب. و(الوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى مبقون على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و( الكوب ) إناء لا عروة ولا خرطوم له . و( الإبريق ) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية .

ثم أشار إلى أنها لذّة كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا . والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُنزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لهـا ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبيّ ﷺ بثريد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه، فقبض النبيّ ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كلْ من موضع واحد، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كلْ من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد ـ رواه الترمذيّ (١) واستغربه ـ .

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى وأزواج بيض واسعة الأعين . عطف على ( وِلْدَانٌ ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على ( بِأَكْوَابٍ ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله(٢) :

* وزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا *

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٤١ ـ باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد ( وكحّلْنَ العيونا ) .

أو يبقى على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالحور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضونهن عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوّز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على ( جَنَّٰتِ ) بتقدير مضاف . أى هم فى جنات، ومصاحبة حور ـ فقال أبو حيّان : هو فهم أعجمىّ ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومَن عصّبه فقد تعصّب .

« كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ » أى صفاؤهنّ كصفاء الدرّ فى الأصداف الذى لا تمسّه الأيدى . وأصل ( ٱلْمَكْنُونِ ) الذى صِينَ فى كِنّ . « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد، باطلًا من القول . « وَلَا تَأْثِيمًا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا » قال القاشانىّ : أى قولًا هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص، مبرّأ عن الفضول والزوائد . أو قولًا يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبيّن كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَٰمًا) بدلا من ( قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدلّ على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ )

[٢٨] ( فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ )

[٢٩] ( وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ )

[٣٠] ( وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ )

[٣١] ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾

[٣٢] ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾

[٣٣] ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾

[٣٤] ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾

[٣٥] ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾

[٣٦] ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾

[٣٧] ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾

[٣٨] ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

[٣٩] ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

[٤٠] ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾

« وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ » أى: أىّ شىء هم! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتعجب من أوصافهم فى السعادة « فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شوك له . أو موقر بالثمار « وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوجّ ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيذة لا نوى لها «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» أى ممتد منبسط لا يتقلّص « وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ » أى مصبوب دائم الجريان« وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لَّا مَقْطُوعَةٍ» أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها، لكونها غير متناهية، «وَلَا مَمْنُوعَةٍ» أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحيانا لعزتها أو جدبها « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعهن

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل: على طريق الحقيقة. أى مرفوعة على الأرائك، كآية[1] (هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ) « فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمثن . « عُرُبًا » جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعلها « أَتْرَابًا » أى على سن واحدة « لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ » متعلق بـ ( أَنشَأْنَا ) أو ( جَعَلْنَا ) أو صفة لـ ( أَبْكَارًا ) أو خبر لمحذوف ، مثل هن . « ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة. والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ )

[٤٢] ( فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ )

[٤٣] ( وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ )

[٤٤] ( لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ )

[٤٥] ( إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ )

[٤٦] ( وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ )

[٤٧] ( وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ )

[٤٨] ( أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ )

(١) [ ٣٦ / يس / ٥٦ ] .

« وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ » أىّ حر نار ينفذ فى المسامّ « وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق أهويتهم الردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيآت نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيآت السود الرديئة « لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليـه الناس من الروح، ونفع من يأوى إليه بالراحة، بل له إيذاء وإيلام وضرّ، بإيصال التعب واللهب والكرب « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات، منغمسين فى الأمور الطبيعية ، والغواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيآت الموبقة ، والتبعات المهلكة . « وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره ( السبكىّ ) بالقسم على إنكار البعث المشار إليـه بقوله تعالى[1] ( وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ) . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ )

[٥٠] ( لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ )

[٥١] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ )

[٥٢] ( لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ )

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٣٨ ] .

[٥٣] (فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ)

[٥٦] (هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ)

« قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْأٓخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرّون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى المرارة ، وبشاعة المنظر ، ونتن الريح « فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة « فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشرىّ : وأنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ فى قوله ( مِنْهَا ) و ( عَلَيْهِ ) « فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رىّ معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلًا إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلًا ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متهكمًا ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافنَا    جعلنا القنَا والمُرْهَفَاتِ له نُزْلًا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ)

[٥٩] (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ)

[٦٠] ( نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ )
[٦١] ( عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ )
[٦٢] ( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ )

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ » أى معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم، وإن كانوا مقرين به لقوله[1] ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لايعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ » أى ماتقذفونه فى الرحم من النطف. « ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ » أى بجعله بشراً سويًّا «أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ» أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى: ومن كان سبيله ذلك، فشأنه أن يرهب من نزوله، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ماقدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى ( بينكم ) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين « عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ » أى بعدمهلككم، فنجئ بآخرين من جنسكم «وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ» من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله ( وَنُنشِئَكُمْ ) المراد به إذا بدلنا كم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى[2] (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعدأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى، وهى الإعادة، وأنها أهون عليه .

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٥ ] و [ ٣٩ / الزمر / ٣٨ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ١٣٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ )

[٦٤] ( ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ )

[٦٥] ( لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ )

[٦٦] ( إِنَّا لَمُغْرَمُونَ )

[٦٧] ( بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ )

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ » أى ماتحرثون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ » أى المنبتون. وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول: بل أنت يارب ! « لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا » أى أيبسناه قبل استوائه واستحصاده. وأصل ( الحطام ) ماتحطم وتفتت لشدة يبسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكهون) على ماأصبتم لأجله من المعاصى ، فتتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال[1] :

إن يعذّب يكن غراماً وإن يعــط جزيلًا فإنه لايُبالِى

« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمنا رزقنا .

---

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية فى الديوان ( إن يعاقبْ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾

[٦٩] ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾

[٧٠] ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسماء فى غير ما آية « أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ » أى لـكم إلى قرار الأرض ، ومسلـكوه ينابيع فيها . « لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليـكم فى جعله عذباً فراتاً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معايشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير فى ( المثل السائر ) فى النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، فى بحث ورود لام التوكيد فى الـكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، فى سر مجىء اللام فى قوله تعالى ( لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ) دون قوله ( جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ) ما مثاله :

أدخلت اللام فى آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً فى العرف والعادة . والموجودُ من الماء الملح ، أكثر من المـاء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق. وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة فى تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧١] (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ)

[٧٢] (ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ)

[٧٣] (نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ)

[٧٤] (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونهامن الزند، وهوالعود الذى تقدح منه . « ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَمَتَـٰعًا » أى منفعة « لِّلْمُقْوِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصحر إذا دخل الصحراء، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : ( المقوين ) المستمتعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقويت منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى سبح اسمه. قال الزمخشرىّ : بأن تقول: سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم فى غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التى عدها ونبه عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ )

[٧٦] ( وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ )

[٧٧] ( إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ )

[٧٨] ( فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ )

[٧٩] ( لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ )

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة فى السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم القيامة . و ( لا ) فى ( لا أقسم ) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها فى كلامهم ، كما أوضحه فى ( فقه اللغة ) . وإما ( لا أقسم ) بتمامها صيغة من صيغ القسم ، على ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ، لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن ترداد الأيدى عليه ، كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ » اعلم أن فى الآية أقوالاً عديدة ، مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد للكتاب بمعنى الوحى المتلقَّى ، أو المصحف ، وأن ( المطهرون ) هم الملائكة ، أو المتقون ، أو المتطهرون من الأحداث والأخباث . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عنى بالآية الملائكة . فنفىُ مسّه كناية عن لازمه، وهو نفى الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ ( المطهرين ) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، ودنس الهيولى، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هـذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه ( لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ) كما قال(١) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ) انتهى. قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفرّاء : لايجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لايقرؤه إلا الموحدون .

فنفىُ مسّه كناية عن ترك تقبّله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشىء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هى نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عنى بـ ( المطهرين ) المتطهرون من الجنابة والحدث. قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهى ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائعه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ ( الكتاب ) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك فى موطئه عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم، أن لايمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطنىّ فى قصة إسلام عمر؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و ( لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ) إلا أن فيهما مقالا

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢١٠ ـ ٢١٢ ] .

بيّنه الحافظ ابن حجر فى ( تلخيص الحبير ) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكانىّ فى ( نيل الأوطار ) وعبارته :

( الطاهر ) يطلق بالاشتراك على المؤمن ـ والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر ـ ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى[1] : ( إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ) وقوله ﷺ لأبى هريرة[2] : المؤمن لاينجس . وعلى الثانى[3] ( وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ) وعلى الثالث: قوله[4] ﷺ فى المسح على الخفين: دعهمافإنى أدخلتهما طاهرتين. وعلى الرابع : الإجماع على أن الشىء الذى ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً. وقد ورد إطلاق ذلك فى كثير . فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حمله عليها هنا . والمسألة مدونة فى الأصول ، وفيها مذاهب . والذى يترجح أن المشترك مجمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لايجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف فى ذلك داود . استدل المانعون للجنب بقوله تعالى : ( لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ) وهو لايتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة. ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائما ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أومتنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حمله على من ليس بمشرك ، كما فى قوله تعالى : ( إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ) لهذا الحديث ، ولحديث النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدوّ. ولو

(١) [ ٩ / التوبة / ٢٨ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الغسل ، ٢٣ ـ باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [ ٥ / المائدة / ٦ ] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٤٩ ـ باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا فى معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، لحديث ( المؤمن لا ينجس ) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح، وتعيينه لجميعها استعمالا للمشترك فى جميع معانيه، وفيه الخلاف. ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشترك فى جميع معانيه، لما صح، لوجود المانع، وهو حديث: المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة، وفى رجال إسناده خلاف شديد، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق فى لفظ ( طاهر ) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير: إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذى ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لا حقيقة ولا مجازاً ولا لغة. صرح بذلك فى جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ماتريد من حمل ( الطاهر ) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت فى المتفق عليه من حديث ابن عباس[1] أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين. و[2] (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ .. ) إلى قوله : ( مُسْلِمُونَ ) مع كونهم جامعين بين نجاستى الشرك والاجتناب ووقوع اللمس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث رقم ٧ .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ٦٤ ] .

لا يحرم لمسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف فى الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبيّ والضحاك وزيد بن علىّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضى القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيي : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكانىّ .

تنبيه :

فى لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون

قال الإمام ابن القيّم فى ( أعلام الموقعين ) فى مباحث أمثال القرآن الكريم، ما مثاله :

الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعانى ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط فى كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعانى والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر مايصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح، هذا الذى يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهرىّ: الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعانى والأشباه والنظائر ، ومقاصد المتكلم. والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذى من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول[1] علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ـ كتاب الجهاد، ١٧١ـ باب فكاك الأسير، حديث ٩٥

يؤتيه الله عبداً فى كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى(١) : ( إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبيّ ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذى جاء به روح مطهرة، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله(٢) ( وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخاريّ من الآية، فقال فى صحيحه فى باب(٣) (قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ): (لَّا يَمَسُّهُۥٓ ) لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله(٤) ( مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغى، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعَقْدَ هذه الأخوة بين هذه المعانى وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعانى كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذى أشار إليه عليّ رضى الله عنه . انتهى .

---

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩ ] . (٢) [ ٢٦ الشعراء / ٢١٠ ] .
(٣) [ ٣ / آل عمران / ٩٣ ] . (٤) [ ٦٢ / الجمعة / ٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[٨١] ( أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ )

[٨٢] ( وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ )

« تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه. « أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم فخامة شأنه ، وعظمة مقداره . « أَنتُم مُّدْهِنُونَ » . قال ابن جرير[(١)] : أى تلينون القول للمكذبين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل ( الإدهان ) ـ كما قال الشهاب ـ جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن . ولما كان ذلك ملينا له محسوسًا ، أريد به اللين المعنوىّ . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مداهنة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضًا ، لأن المتهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير[(١)] : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول القائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلىّ .

وقد ذكر عن الهيثم بن عدىّ : أن من لغة أزدشنوءة ( مارزق فلان ) بمعنى ما شكر. انتهى .

وقد حمل بعضهم ( الرزق ) هنا على النعمة مطلقًا ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقال القاشانىّ : أى وتجعلون قُوتَكُمُ القلبىّ ورزقكم الحقيقىّ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصورىّ . أى لمداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾

[٨٤] ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾

[٨٥] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾

« فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ » أى النفس ، لدلالة الكلام عليها « ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ » أى حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعنى ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول فى تفسير آية[١] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ فى سورة ( ق ) فارجع إليه فإنه مهم .

وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتى قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

[٨٧] ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(١) [ ٥٠ / قٓ / ١٦ ] .

[٨٨] ( فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ )

[٨٩] ( فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ )

[٩٠] ( وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ )

[٩١] ( فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ )

[٩٢] ( وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ )

[٩٣] ( فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ )

[٩٤] ( وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ )

[٩٥] ( إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ )

[٩٦] ( فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ )

« فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين. من ( دانه ) أذله واستعبده . « تَرْجِعُونَهَآ »أى تردّون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية، وهو الموت. « فَأَمَّآ إِن كَانَ »أى الميت « مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيأ ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتنعم فيها مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم: سلام لك، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . . ) الآيات . انتهى .

وقال الرازىّ : فى السلام وجوه :

أولها ـ يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى[2] من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ) .

ثانيها ـ ( فَسَلَٰمٌ لَّكَ ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبُكَ منه ، فإنه فى أعلى المراتب . وهـذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك، فإنه فى راحة.

ثالثها ـ أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم، كما يقال : فلان ناهيك به، وحسبك أنه فلان. إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازىّ : والخطاب بقوله (لَّكَ) يحتمل أن يكون للنبىّ ﷺ ، وحينئذ فيه وجه، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبىّ ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شىء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يا محمد منهم، فإنهم فى سلامة وعافية ، لا يهمك أمرهم .أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

« وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله «ٱلضَّآلِّينَ» أى الجائرين عن سبيله. « فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » أى إحراق بالنار « إِنَّ هَٰذَا» أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم « لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ »

(١) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] . (٢) [ ٥٦ / الواقعة / ٢٥ ] .

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيــه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس، أى اليقين الحق. أو من إضافة العام للخاص، أى كعلم الأمر اليقين. فالإضافة حينئذ لامية، أو بمعنى ( من ) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن، منعّمة أو معذّبة، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الـكافرين فى النار .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولًا وعملًا .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٧ — سورة الحديد

سميت به لأنه ناصر لله ولرسوله فى الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ولرسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وهى مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وآيها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد[1] عن عرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ والنسائىّ . قال ابن كثير : والآية المشار إليها فى الحديث هى ـ والله أعلم ـ قوله تعالى ( هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ . . . ) الآية ، لما سيأتى بيانه ـ والله أعلم ـ .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل ما لا يليق به ، وآذن بانفراده فى ألوهيته ، وتدبيره وعلمه وقدرته . فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لاتنقضى عجائبـــه ، ولا تنتهى غاياته ـ فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مريد لسيره فى سننه ، كما بسطناه فى ( دلائل التوحيد ) . « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض « الْحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكمىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما « يُحْيِي وَيُمِيتُ » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الْأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجده ومحدثه «وَالْآخِرُ»

أى الباقى بعدفناء كل شىء « وَٱلظَّـٰهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير[١]. أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه «وَٱلْبَاطِنُ» أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير[١] : أى الباطن جميعَ الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال[٢] ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .

وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء. وأنت الآخر فليس بعدك شىء. وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر ـ ورواه مسلم[٤] وغيره ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ )

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانى : أى من الأيام الإلهية ، وقيل : المعهودة ـ والله أعلم ـ . « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » قال ابن جرير[٥] :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٥٠ / قٓ / ١٦ ] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) .

(٤) أخرجه فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٦١ (طبعتنا).

(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبّرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبذور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرَد والأقدار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرهما . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ » قال ابن جرير(١) : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم ويعلَم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة، فى آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا :هو معهم بعلمه. وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتدّ بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى ( الرد على الجهمية ) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصًّا كما فى قوله تعالى(٢) ( إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) وقوله(٣) (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وقوله(٤) (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله ( لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ) أراد به تخصيصه وأبا بكر، دون عدوّهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار. وأيضاً ، فلفظ المعية، ليست فى لغة العرب، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ١٦ / النحل / ١٢٨ ] . (٣) [ ٢٠ / طه / ٤٦ ] .
(٤) [ ٩ / التوبة / ٤٠ ] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما فى قوله[(١)] ( مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ) وقوله[(٢)] ( فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقوله[(٣)] (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ) وقوله[(٤)] ( وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله[(٥)] ( وَهُوَ مَعَكُمْ ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بُسِط الكلام عليه فى موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى الجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد، لم يناف ذلك علوّه على عرشه، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه .فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسىّ رضى الله عنه فى كتاب ( ذم التأويل ) :

فإن قيل :فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) أى بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم ما لزمنا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً، وحملُ هذه اللفظات على هذه المعانى ليس بتأويل، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية، المجاز دون الحقيقة، كاسم الراوية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التى لها عرف شرعىّ ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعىّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالمتبادر

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٩ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ١٤٦ ] .
(٣) [ ٩ / التوبة / ١١٩ ] . (٤) [ ٨ / الأنفال / ٧٥ ] .
(٥) [ ٥٧ / الحديد / ٤ ] .

إلى الفهم من قولهم ( إن الله معك ) أى بالحفظ والكلاءة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيه[(١)] ( إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا )، وقال لموسى[(٢)] ( إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلاً . ثم لو كان تأويلا فما نحن تأوّلناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأوّلوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله ( وَهُوَ مَعَكُمْ ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله[(٣)] ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ) ثم قال فى آخرها ( إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها مايخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبيّناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شىء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٤٠ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٤٦ ] .

(٣) [ ٥٨ / المجادلة / ٧ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ )

[٦] ( يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ) .

« لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجعله زيادة فى الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ )

«ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» أى آمنوا الإيمان اليقينىّ ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذى موَّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرُّف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرُّف إنما هو بحكمه فى شريعته ـ أفاده القاشانىّ ـ .

وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرُّف الحقيقىّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله ( لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ) ، أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت فى أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حثٌّ على الإنفاق ، وتهوينٌ له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لايدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ... ولابدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ(١)

« فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ )

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » أى وما يصدّكم عنه، وقد ظهرت دواعيه، واتضحت سبله لذويه كما قال « وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر والتفكُّر إلى الإيمان بالذى ربَّاكم بنعمه ، وصرّفكم بآلائه ، فوجب عليكم شكره . « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ » أى بالإيمان ، إذ ركّب فيكم العقول ، ونصب الأدلّة ، ومكّنكم من النظر ، بل أودع فى فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم ، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول ، فما عليكم إلا أن تأخذوا فى سبيله . « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » قال القاشانىّ : أى إن بقى نور الفطرة والإيمان الأزلىّ فيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ )

« هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » أى حُججًا واضحات، وبراهين قاطعات، « لِّيُخْرِجَكُم » أى الله ، أو عبده بآياته « مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبيد ، من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينا وما تبلَى النجومُ الطوالعُ ... وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ

( الشعر والشعراء ص ٢٣٦ ).

الجهل والكفر والأهواء المتضادّة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب. « وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى فى إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ، أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أى يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدر أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإنفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولًا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإنفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العامّ على أهم أفراده وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثـانى لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لايتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة فى التنويه بهم: « أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ » أى لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإنفاق المال فى تلك الحال ، وفى المسلمين قلة ، وفى الـكافرين شوكة وكثرة عدد . فـكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار فى ذلك الوقت قويًّا ، والـكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى[1] ( وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ) وقوله عليـه الصلاة والسلام [2] : لاتسبوا أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولانصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ ـ أفاده الرازىّ ـ .

وفى ( الإكليل ) : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة فى سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التامّ ، وإنفاقه فى حال الجهد

---

(١) [ ٩ / التوبة / ١٠٠ ] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ ( طبعتنا ) . عن أبى هريرة .

والقلة والضيق . وفى الحديث[1]: سبق درهم مائة ألف . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصريحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أنفق فى سبيل الله بنيّة خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جلىّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمُّهُ ، زاد كَيْفُهُ .

---

[1] أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٤٩ ـ باب جهد المقلّ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ )

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و ( النور ) إما حقيقىّ حسىّ ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل: وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال، فجعل الله معها نوراً يعرف بهأنهم من أصحاب اليمين وإما مجازىّ معنوىّ مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير[1] ، وأيده بقوله : لوعنى بذلك النور ، الضوءَ المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدى والأيمان، دون الشمائل، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنىّ به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وكلاًّ وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمانهم كتب أعمالهم تطايَرُ . ويعنى بقوله ( يسعى ) يمضى والباء فى قوله ( وبأيمانهم ) بمعنى ( فى ) وكان بعض نحويى البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم ) بمعنى (على أيمانهم )وقوله « يوم ترى » من صلة ( وَعَدَ ) . انتهى .

« بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

المبشَّر به جنات أو بشرا كم دخول جنات . وقد قيل: إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ )

«يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ »أى: نُصِبْ منه . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و ( انظرونا ) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال، لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية، يتعدى بـ ( إلى ) فإن أريد التأمل تعدى بـ ( فى ). وقولهم ذلك، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم، كقوله تعالى[١]( وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ... ) الآية . وقيل: ( انظرونا ) بمعنى انتظرونا، وهو الذى عول عليه ابن جرير[٢] . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، «ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا»قال الزمخشرىّ : طردٌ لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥٠ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لانور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملًا طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى فى الظلمات، على طريق الاستعارة. والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الزمخشريّ رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازيّ عن أبى مسلم؛ أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة. كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك. قال الرازيّ: فعلى هذا القول، المقصودُ من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب، لأنه أمرهم بالرجوع. انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين فى المنازل وتباينهما فيها، بقوله سبحانه: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين، لتتم ظلمتهم « لَّهُۥ » أى: لذلك السور « بَابُۢ » أى: لأهل الجنة يدخلون منه، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُۥ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ » يعنى: الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَـٰهِرُهُۥ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ )

[١٥] (فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ، هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ» يريدون موافقتهم فى الظاهر «قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ» أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها «وَتَرَبَّصْتُمْ» أى بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم «وَٱرْتَبْتُمْ» أى فى توحيد الله ، ونبوّة نبيّه ، أو فى البعث بعد الموت ، أوفى قوله[١] (لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) ووعده بنصر المؤمنين، أوفى جميع ذلك . «وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ» أى طول الآمال، والطمع فى امتداد الأعمار. أوقولهم: (سيغفرلنا) . «حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ» يعنى: الموت، أومصداق وعده بنصره رسوله، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار «وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ» أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . «فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ» هذا من تتمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فاليوم لايقبل منكم مايفتدى به ، بدلًا من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم «وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟» يعنى المجاهرين بالكفر من المحادّين لله ولرسوله «مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ» أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا «وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ» أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصدق فى سبيل الله، بأن ذلك من أرقلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً بالمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

---

(١) [ ٩ / التوبة / ٣٣ ] و [ ٤٨ / الفتح / ٢٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من ( أنى الأمر ) يأنى ، إذا جاء إناه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإنفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله كلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا ما نزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلًا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شىء من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى[١] ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ... ﴾ إلى آخرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

«ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو محييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ» أى الحجج وضروب الأمثال « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

[١٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ » أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصديقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [ ٤ / النساء / ١٥٥ ] و [ ٥ / المائدة / ١٣ ] .

أحدهما ـ أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني ـ أن يكون مبتدأ ، خبره ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ ) . و ( ٱلشُّهَدَآءُ ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا فى سبيل الله . واختار الوجه الثانى ابن جرير[١] ، قال : لأن الإيمان غير موجب فى المتعارف للمؤمن اسم ( شهيد ) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل[٢] فتأويل قوله ( وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ، أو هلكوا فى سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله فى الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيّم فى ( طريق الهجرتين ) بسطاً لهذين الوجهين فى بحث الصديقية . ننقله لنفاسته . قال رحمه الله فى مراتب المكلفين فى الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة ـ ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى[٣] ( وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقاً ) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

---

انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : ( شهداء على الناس ) .

(٣) [ ٤ / النساء / ٦٩ ] .

الحق ، لايضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى[١] ( وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) قيل : إن الوقف على قوله ( هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ) ثم يبتدئ (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ) فيكون الكلام جملتين ، أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين، هنا، وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء فى كلام النبى[٢] فى قوله : ( اثبت أُحُدُ فإنما عليك نبىّ وصديق وشهيد ) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله[٣] : ( لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة ( المؤمنين الصديقين ) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ) مبتدأ خبره مابعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله . ويرجحه أيضاً أنه لو كان ( الشهداء ) داخلاً فى جملة الخبر ، لكان قوله ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) داخلاً أيضاً فى جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [ ٥٧ / الحديد / ١٩ ] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبى ﷺ : لو كنت متخذاً خليلا، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [ ٢ / البقرة / ١٤٣ ] .

أحدها ـ أنهم هم الصدّيقون .

والثانى ـ أنهم هم الشهداء .

والثالث ـ أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن فى هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعا ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملًا مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون فى الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى (١) ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ) فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون ، فقال (٢) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا .. )الآية. وذكر المنافقين فى قوله(٣) ( يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ )الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلّط صاحب الشائبتين، على طريق القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرٍّ اقتضه حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لاضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا ييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا فى تخليده فى النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير فى الآية .

(١) [ ٥٧ / الحديد / ٢٥ ] . (٢) [ ٥٧ / الحديد / ١٩ ] .

(٣) [ ٥٧ / الحديد / ١٣ ] .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ» أى تفريح نفس «وَلَهْوٌ» أى باطل «وَزِينَةٌ» أى منظر حسن «وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ» أى فى الحسب والنسب «وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ» أى مطر «أَعْجَبَ الْكُفَّارَ» أى الزراع «نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ» أى يجف بعد خضرته ونضرته «فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا» أى من اليبس «ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا» أى هشياً متكسراً ، وكذلك الدنيا لاتبقى كما لايبقى النبات «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله، ومنع حق الله «وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ» أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله. «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» قال المهايمىّ : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء، دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ » أى الإيمان اليقينىّ . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة «فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ » أى ممن كان أهلًا له« وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »قال ابن جرير[1] أى بما بسط لخلقه من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرّفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من قحط وجدب ووباء وغلاء « وَلَا فِىٓ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أَنفُسِكُمْ » أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال « إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ » أى إلا فى علم أزلىّ من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلابد من حصوله « إِنَّ ذَٰلِكَ » أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى لسعة علمه وإحاطته « لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ » أى تحزنوا « عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى من عافية ورزق ونحوها « وَلَا تَفْرَحُواْ » أى تبطروا « بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ » أى من نعم الدنيا . والمعنى : أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانىّ : أى لتعلموا علماً يقينياً أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لعجزكم وإهمالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة « وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه « فَخُورٍ » أى به على الناس ، لعدم يقينه ، وبعده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور « ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أى بالإنفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال « وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ » أى لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أوبدل من ( كل ) . « وَمَن يَتَوَلَّ » أى يعرض عن ذكر الله ، وما أمر به « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ » أى عنه ، لاستغنائه بذاته « ٱلْحَمِيدُ » أى لاستقلاله بكماله . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه الغنىّ المطلق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة مايدعون إليه «وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى التامّ فى الحكم والأحكام «وَالْمِيزَانَ» أى العدل ــ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ــ قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه. فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق، كما قال[١] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلًا فى الأوامر والنواهى ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات[٢] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ «وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فما من صناعة إلا وللحديد يدٌ فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟

فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة، لأن المقصود ذكر مايتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا، حتى ينالوا السعادة فى الأخرى . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة. ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم. ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الرادّ لكل مَريد . وإلى الأولين أشار بقوله[٣]

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١٥ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٤٣ ] .

(٣) [ ٥٧ / الحديد / ٢٥ ] .

( وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ) لجمعهم وأتباعهم فى جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله [(١)] ( وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواص ، وما يهتدى به أتباعهم ، ومايهتدى به من لم يتبعهم ، فهى حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعى له ، وليس فى الكلام مايقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتبى فى أول ( تاريخه ) : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على مايزيح العلة وينقع الغلة ، حتى أعملت التفكر ، فوجدت ( الكتاب ) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع ( ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو ( الحديد ) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع ـ نقله الشهاب ـ .

وأوّل القاشانىّ ( البينات ) بالمعارف والحكم ، و ( الكتاب ) بالكتابة ، و ( الميزان ) بالعدل ، لأنه آلته ، و ( الحديد ) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعىّ ، وينضبط النظام الكلىّ ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لاينضبط النظام ، ولايتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون ( البينات ) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و ( الكتاب ) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و ( الميزان ) إلى العمل بالعدل والسوية و ( الحديد ) إلى القهر ودفع شرور

(١) [ ٥٧ / الحديد / ٢٥ ] .

البرية . وقيل : ( البينات ) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هى النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة فى الكتب الحكمية . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء فى المعاوضات ، والملك. وأيًّا ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصيّ والنوعيّ فى الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنىّ بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع. والنفوسُ إما خيّرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها فى السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللطف وسياسة الشرع . والثانية لابدّ لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة فى معنى نزول القرآن ولفظ النزول، حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، بيّن فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول فى مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف، لاشتباه المعنى فى تلك المواضع. وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ ( نزول ) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولًا إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ـ فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبيّ عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح ـ حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .

وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة فى هذا لسائر الناس ؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذى به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل: نزلت الآلة التى يطبع بها. قيل: فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة، والآلة وحدها لا تكفى ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال . فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد فى مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دلّ عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه فى الجهاد ، وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر، وهذا المقصود منه. أواللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم. . . الخ والجملة معطوفة على ماقبلها . فحذف المعطوف، وأقيم متعلقه مقامه. وقيل عطف على (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر لمن شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ )

[٢٧] ( ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم » أى من الذرية « مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه وتحريفها ، وإيثار آراء الأحبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا « عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقَّة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان فى عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة : اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما فى العقوبات . فقد كان لهم أفانين فى تعذيب النوع البشرىّ بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتربيتها لذلك ، مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت فى مطاردتها ، وصبرت على منازلتها ، حتى ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره ـ كما بيّنه آخر سورة الصف ـ . « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلبَ مرضاة الله عنهم . « فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهُّد ، والتخلّى

للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم . « فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعني الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أي خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

## تنبيهات

الأول ـ ( الرهبانية ) هي المبالغة في العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرّهبان ، وهو الخائف . ( فعلان ) من رهب ، ك ( خشيان ) من خشي .

الثاني ـ قال ابن كثير في قوله تعالى : ( فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ) : ذمٌّ لهم من وجهين :

أحدهما ـ في الابتداع في دين الله مالم يأمر به الله .

والثاني ـ في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث ـ رأيت في كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة ( الرهبنة ) وما كان لتأثيرها في النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار . فقد قال صاحب ( ريحانة النفوس ) منهم ، في الباب السابع عشر ، في الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية ، هي ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ، لكي يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلّمون وينصحون . ونحن نقول بكل جراءة : إنه لا يوجد في جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها . بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وفحواه يضادّ كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها فى الـكنيسة ، فى أواخر الجيل الثانى وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين. فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأموراً أخرى مقرونة بخرافات .

ثم قال: ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء، امتدت وانتشرت فى المسكونة. وكان ابتداؤها فى مصر فى الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذى أصابه ، وآثر لأجله الطواف فى البرارى، فراراً من أيادى مضطهديه. ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها، وذلك فى الجيل الثالث. ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات. توهما بأن رسم المسيحية الـكاملة لايوجد إلا فى العيشة الضيقة القشفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال فى الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضادّ للـكتب المقدسة . ولمـا كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هـذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت مِنْ حَضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه فى آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب ( ريحانة النفوس ) أيضا : إن هذه العادة لايوجد لها برهان فى الـكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية فى الإطراء، فحسبوها من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها فى الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغـايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الـكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنهـا فى بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب ( البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية ) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانو ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاؤه حسب الشريعة، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لا بل من الباباوات المدعين بالعصمة، قد تكردسوا فى هوة الزنا، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعىّ . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط فى الزنا، ويفتح باباً واسعا لدخول الشيطان . وكأن الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطانىّ قبيح ، لم يكن له رسم فى الكتب المقدسة ، ولا فى أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا نفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران، فيتنعمون وحدهم فى أديرتهم، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطّالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرد عن العالم فى مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب. إن بولس كان يخدم الكنائس، ويعيش من شغل يديه، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما فى الآية التى فى (القصص) وكما فى حديث[١] الشعبيّ عن أبى بردة ، عن أبيه أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، فله أجران. وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ـ أخرجاه فى الصحيحين ـ ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاكُ وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما. وهو اختيار ابن جرير[٢] .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية فى حق هذه الأمة . والظاهر أن لفظها أعم ، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبيّ ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه ، والانصياع لأوامره . ومنه ما حرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله ، وسخاوة النفس فيه . وأن لهم فى مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال فى أول السورة: ( فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ) فآخر السورة ، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وما سبق نزولها لأجله .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث رقم ٨٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ ( طبعتنا ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وأصل ( الكفل ) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط . والتثنية فى مثله إما على حقيقتها ، أو هى كناية عن المضاعفة . و ( النور ) هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ )

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فضلًا عن أن يتصرفوا فى أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و ( لا ) فى ( لئلا ) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٢٩ ] .

وقال ابن جرير(١) : وذكر أنّ فى قراءة عبد الله ( لكى يعلم ) . قال : لأن العرب تجعل ( لا ) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحدٌ غير مصرح كقوله فى الجحد السابق الذى لم يصرح به(٢): ( مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ) وقوله(٣) : ( وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ) . وقوله(٤) : ( وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ... ) الآية. ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبىّ فى ( فقه اللغة ) زيادتها فى عدة شواهد . فى فصل الزوائد والصلات التى هى من سنن العرب . فانظره ، تزدد علماً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٧ / الأعراف / ١٢ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ١٠٩ ] .

(٤) [ ٢١ / الأنبياء / ٩٥ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٨ — سُورة المجُادلة

سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ، ولذلك سمع الله لصاحبها ـ قاله المهايميّ ـ .

وهى مدنية ، وآيها اثنتان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» روى الإمام أحمد[١] عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادِلة إلى النبيّ ﷺ تـكلمه، وأنا فى ناحية البيت، ماأسمع ماتقول! فأنزل الله عز وجل ( قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ... ) إلى آخر الآية. ورواه البخاريّ معلقاً. وفى رواية لابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء . إنى أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول: يارسول الله ! أكل شبابى ، ونثرتُ له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ! اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت، حتى نزل جبريل بهذه الآية (قَدْ سَمِعَ ...) الخ. قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر فيقال (خويلة) . ولامنافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب .

وفى (العناية) . المرادمن قوله ( قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ) الخ قَبِل قولَها وأجابه. كما فى: سمع الله لمن حمده ، مجازاً بعلاقة السببية أو كناية . انتهى .

وقوله : ( وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ) أى تشتكى المجادِلةمالديها من الهم، بظهار زوجهامنها، إلى الله ، وتسأله الفرج .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤٦ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .

ومعنى ( تَحَاوُرَكُمَا ) ترجيعكما الكلام فى هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته فى الجاهلية ، فإذا تكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً. وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علقة النكاح، والنبيّ ﷺ لم يبت لها فيه الأمر، حتى ينزل الوحى الذى يردّ التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

« ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم » يعنى قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها: أنت علىّ كظهر أمى ، يعنى : فى حرمة الركوب . « مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ » أى ما نساؤهم اللاتى ظاهروا منهن بأمهاتهم . أى يصرن بهذا القول كأمهاتهم فى التحريم الأبدىّ .

قال المهايمىّ : ماهن أمهاتهم بالحقيقة، ولا فى حكمهن بالمجاز، إذ لا يقتضي المجاز أن يكون فى حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لا تنقلب .

« إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ » أى فلا يشبه بهن فى الحرمة الأزواج «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ » أى قولاً تنكره العقلاء ، وتتجافاه الكرماء. « وَزُورًا » أى باطلًا لا حقيقة له، لأنه يتضمن إلحاقها بالأمّ المنافى لمقتضى الزوجية . « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ » أى لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وأنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )

[٤] ( فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ » أى يرجعون إلى لفظ الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئهن رغبة فى تحليلهن ، بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى المقول فيه « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى الإمام أحمد (١) عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله ! وفى أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر . فدخل علىّ يوماً فراجعته بشىء ، فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى على نفسى . قالت : قلت : والذى نفس خويلة بيده ! لا تخلص إلىّ وقد قلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى ،

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤١٠ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .

فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا خويلة ! ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه . قالت : فو الله ! ما برحت حتى نزل فيّ القرآن ، فتغشى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرِّى عنه ، فقال لى : ياخويلة ! قد أنزل الله فيك وفى صاحبك . ثم قرأ علي : ( قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ .. ) إلى قوله تعالى: ( وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) قالت: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ماعنده ما يعتق! قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت : فقلت : والله ! إنه لشيخ كبير ، مابه من صيام . قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر. قالت : فقلت: والله ! يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنا سنعينه بفرق من تمر. قالت : فقلت : يارسول الله! وأنا سأعينه بفرق آخر . قال : قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدق بهعنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده (خولة بنت ثعلبة ) ، ولا منافاة كما تقدم ، فإن العرب كثيراً ما تصغرّ الأعلام .

وروى ابن جرير(١) عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية: أنت علىّ كظهر أمى، حرمت فى الإسلام . فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط فى يديه ، وقال : ماأراك إلا قد حرُمت علىّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأتت رسول الله ﷺ ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : يا خويلة ! ما أُمِرْنا فى أمرك بشىء . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ياخويلة ! أبشرى. قالت خيراً. قال فقرأ عليها ( قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ . . . ) إلى قوله : ( فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ) . قالت :

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وأىّ رقبة لنا ؟ والله ! ما نجد رقبة غيرى! قال : (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) قالت : والله ! لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره . قال: (فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) . قالت : من أين ؟ ماهى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فرعاه بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوَسق ستون صاعاً ، فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . قال ابن كثير : إسناده جيّد قوىّ ، وسياق غريب . وقد روى عن أبى العالية نحو هذا .

## تنبيهات :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حكم الظهار ، وأنه من الكبائر ، وأنه خاص بالزوجات ، دون الأجنبيات ، وأن فيه بالعود كفارة ، وأنه يحرم الوطء قبلها ، وأنها مرتبة : العتقُ ، ثم صوم شهرين متتابعين ، ثم إطعام ستين مسكيناً . واستدلّ مالك بقوله (مِنكُم) على أن الكافر لايدخل فى هذا الحكم . وبقوله (مِّن نِّسَآئِهِم) على صحته من الزوجات والسرارىّ ، لشمول النساء لهنّ .

واستدلّ ابن جرير وداود وفرقة بقوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) على أن العود الموجب للكفارة ، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر .

واستدلّ بإطلاق الرقبة من جوّز فى كفارة الظهار عتق الكافرة .

واستدلّ بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا فى التشبيه بظهر الأمّ خاصّة، دون سائر الأعضاء، ودون الاقتصار على قوله (كأمى) ، وبالأم خاصة دون الجدّات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك. ومن قال لاحكم لظهار الزوجة من زوجها، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل . ومن قال بصحة ظهار العبد لعموم (ٱلَّذِينَ) له . ومن قال بإباحة الاستمتاعات بناء على عدم دخولها فى لفظ المماسّة . ومن قال يجوز الوطء ونحوه قبل الإطعام إذا كان يكفر به ، لأنه لم يذكر فيه (مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) .

وفى الآية ردٌّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، ولم يعتبر العود . ووجه ما قاله أنه جعل العود فعله فى الإسلام بعد تحريمه .

وفيها رد على من اكتفى بإطعام مسكين واحد ، ستين يوما . انتهى .

وقوله تعالى ( ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ) أى الحكم بالكفارة العظمى المذكورة ، تزجرون به .

وقوله تعالى ( ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ) أى ذلك البيان أو التعليم للأحكام، لتصدّقوا بالله ورسوله فى قبول شرائعه ، والانتهاء عن قول الزور الجاهلىّ .

والمراد بقوله تعالى ( وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) الجاحدون لفرائضه وحدوده التى بيّنها. فالكفر على حقيقته ، أو المتعدّون لها ، وعنوان ( الكفر ) تغليظا لزجرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فى مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من المحادّة ، بمعنى المعاداة ، لأن كُلًّا من المتعاديين فى حدّ غير حدّ الآخر. « كُبِتُوا۟ » أى أخزوا « كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » يعنى كفار الأمم الماضية. « وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » قال ابن جرير[(١)] : أى دلالات مفصّلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله. « وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ » يعنى منكرى تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فسّر بعضهم (يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) بمعنى يضعون أو يختارون حدودًا غير حدودهما.

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال محشيه : ففيه وعيد عظيم للملوك ، وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين، قدّس الله روحه، رسالة فى كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالى[1] ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لاتقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل[2] . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل، فيه نظر . لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء ، الذين زيّف أقوالهم فى التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق فى ذلك أن القانون الذى يهدم نصوص الشرع التى لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال . لايقول به ، ولا يعول عليه، إلا المارقون الجاحدون. وأما غير المنصوص عليه ، أعنى ما لم يكن قاطعاً فى بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع من الفروع النظرية، والمسائل الاجتهادية المدوّنة ، فمخالفتها إلى قانون عادل لايعدّ ضلالًا ولا كفرا ، لأنه ليس من مخالفة الشرع فى شىء ، إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بيانا رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأى ، فإن ذلك ، لا عصمة فيه من الخطأ، مهما بلغ رائيه من المكانة ، إذ لا عصمة إلا فى نص الله ورسوله ﷺ . وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتابا فى مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية . وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأى والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب فى هذا المعنى سماه (السياسة الشرعية)، وكذا لتلميذه

---

(١) [ ٥ / المائدة / ٣ ] .

(٢) هو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

الإمام ابن القيّم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفى أيضا رسالة فى المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع العز بن عبد السلام فروع الفقه فى قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ، ودرء المفاسد .

قال القاضى زكريا : وبحث بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .

وقال الشاطبىّ فى ( الموافقات ) : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبديًّا وكليًّا وعامًّا فى جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال .

وقال نجم الدين الطوفى : إن قول النبىّ صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)[1] يقتضى رعاية المصالح إثباتاً ونفيا ، والمفاسد نفيا ، إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذى هو المصلحة ، لأنهما نقيضان ، لا واسطة بينهما . ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفاها ، فإن وافقاها ، فبها ونعمتْ ، ولا تنازع . إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام ( لا ضرر ولا ضرار ) ، وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما ، والتعطيل لهما ، كما تُقَدَّم السنّة على القرآن ، بطريق البيان . انتهى . وتتمة كلامه جديرة بالمراجعة ، هى وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب من بَنَى فى حقه مايضرّ جاره ، حديث رقم ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ، أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ » أى أحاط به علماً ، ولم يذهب عنه شىء « وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه. و (يَوْمَ) منصوب بـ (اذكر) مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ، تمهيدٌ لما بعده من النهى عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكّد ذلك بتفصيل علمه عناية بالمنهىّ عنه ، والمحذّر منه ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ». (النجوى) مصدر ، معناها التحدث سرًّا ، مأخوذة من (النجوة) ، وهى ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يصان عن الغير ، كأنه رفع من حضيض الظهور ، إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب وأقرب منه قول الراغب، لأن المتسارّين يخلوان بنجوة من الأرض . أوهو من (النجاة) وتخصيص العددين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التناجي للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لابد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب مافوقها فى الوترية ، فذكرا ليُشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله : ( وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ) أى : كالاثنين ( وَلَآ أَكْثَرَ ) أى : كالستة وما فوقها ( إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ) أى : يعلم ما يكون بينهم فى أى مكان حلّوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانىّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة .

روى ابن جرير[1] عن الضحاك فى الآية قال : هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا .

وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك فى إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى فى كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم فى ( الفِصَل ) بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان فى مكان، فإنه شاغل لذلك المكان ومالئ له ، ومتشكل بشكل المكان ، أو المكان متشكل بشكله . ولا بد من أحد الأمرين ضرورة . وعلمنا أن ما كان فى مكان ، فإنه متناه بتناهى مكانه، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية فى مكانه . وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكرنا ، علمنا أن قوله تعالى[2] :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٥٠ / ق / ١٦ ] .

( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ) ، [١]( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) ، وقوله تعالى ( مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ) إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لانتفاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم ( فى كل مكان ) خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القولِ ، أنه يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما فى الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن فى المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم فى قوله تعالى : ( وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ) كلام فى المعية لابن تيمية ، فارجع إليه فى سورة الحديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ )

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ » قال مجاهد : هم اليهود . « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ » أى : بما هو إثم وتعدّ على المؤمنين ، وتواصٍ بمخالفة النبيّ ﷺ .

قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

« وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ » أى من قولهم : ( السام عليك ) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول[٢] : ( وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ )

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٥ ] . (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٨١ ] .

« وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ » أى : من التناجى المذموم ، أو من التحريف فى التحية ، استهزاء وسخرية . أى : هلّا يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى : « حَسْبُهُمْ » أى : يكفى قائلى ذلك فى تعذيبهم « جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذّرهم أن يجترموا فى النجوى ما اجترمه أولئك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٩ ] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )

[١٠] ( إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ » أى : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، « وَٱلتَّقْوَىٰ » أى : اجتناب ما يؤثم ، « وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : فيجزيكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين فى قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين على وصاياه ، متكلين عليه ، بقوله « إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى : النجوى التى ذمها . فاللام للعهد . أى المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان . « لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ » أى الشيطان ، أو التناجى المذكور « شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بمشيئته « وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » أى بالمضى فى سبيله ، والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشانىّ : إنما نهوا عن النجوى لأن التناجى اتصال واتحاد بين اثنين فى أمر يختص بهما ، لا يشاركهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيأة الاجتماعية التى لا توجد فى الأفراد. فإذا كانت شريرة يتناجون فى الشر ، ويزاد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذى يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهى قوله: ( وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ ) الذى هو رذيلة القوى البهيمية «وَٱلْعُدْوَٰنِ» الذى هو رذيلة القوى الغضبية، « وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ » التى هى رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة. ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجى بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجى بالخيرات، ليتقووا بالهيأة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال : ( وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ ) أى : الفضائل التى هى أضداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، (وَٱلتَّقْوَىٰ) أى: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة . انتهى .

قال ابن كثير: وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى، حيث يكون فى ذلك تأذٍّ على مؤمن. روى الإمام أحمد(١) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه ـ أخرجاه(٢) ـ .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧٥ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٣٥٦٠ ( طبعة المعارف ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٤٦ ـ باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارّة والمناجاة ، حديث رقم ٢٣٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٧ ( طبعتنا ) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه ـ انفرد بإخراجه مسلم(١) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ » تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان فى أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحّى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر . لأنه لما نهى عن التناجى والسرار ، علم منه الجلوس مع الملأ، فذكر آدابه. ورتب على امتثالهم فسحهلهم فيما يريدون التفسح، من المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح(٢) : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة . ومن يسَّرَ على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ولهذا أشباه كثيرة .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٥ ـ باب من بنى مسجدا ، حديث رقم ٢٩٧ ، عن عثمان بن عفان .

وأخرجه مسلم فى: ٥ ـ كتاب المساجدومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٤و٢٥ (طبعتنا).

« وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ » أى انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا فى المجالس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول، إذا أُمرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه . « فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » أى يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية.

قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم ، وعند الناس ، ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة فى المجلس ، تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا ـ كما قال الشهاب ـ من مغيبات القرآن ، لما ظهر من هؤلاء فى سائر الأعصار من التنافس فى رفعة المجالس ، ومحبة التصدير .

وفى كلام الزمخشرىّ ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعدّه كأنه جنس آخر ، كما فى[1] ( وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ ) ، ولذا أعاد الموصول فى النظم. والمراد بالعلم علم ما لابد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

## تنبيهات :

الأول ـ فى ( الإكليل ) : فى الآية استحباب التفسح فى مجالس العلم والذكر ، وكل مجلس طاعة .

الثانى ـ يفهم من الأمر بالتفسح النهى عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا ـ رواه الإمام أحمد والشيخان[2] ـ .

(١) [ ٢ / البقرة / ٩٨ ] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٤٦٥٩ ( طبعة المعارف ) .

وأخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٣١ ـ باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، حديث رقم ٥٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٢٧ ( طبعتنا ) .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : لايقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم ـ رواه الإمام أحمد ـ وفى رواية بلفظ : لايقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لكن افسحوا يفسح الله لكم ـ تفرد به الإمام أحمد ـ

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجا [1] بحديث : قوموا إلى سيدكم .

ومنهم من منع ذلك محتجا [2] بحديث: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار .

ومنهم من فصّل فقال يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبىّ صلى الله عليه وسلم حاكما فى بنى قريظة ، فلما رآه مقبلا قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ـ والله أعلم ـ فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ . وكان إذا جاء لايقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، فى فتوى له فى ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله، كثير من الناس. بل قد قال أنس بن مالك رضى الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه، تلقياً له ، كما روى عن النبىّ ﷺ أنه قام لعكرمة ، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، وكان سعد متمرضا بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بنى قريظة شرقىّ المدينة .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٦ ـ باب قول النبىّ ﷺ ( قوموا إلى سيدكم ) ، حديث رقم ١٤٤٤ ، عن أبى سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب فى قيام الرجل للرجل، حديث رقم ٥٢٢٩ ، عن معاوية .

والذى ينبغى للناس ، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبىّ ﷺ . فإنهم خير القرون . وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فلا يعدل أحد عن هدى خير الخلق ، وهدى خير القرون، إلى ما هو دونه. وينبغى للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له، ولا يقوم لهم، إلا فى اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام ، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس فى حقه ، أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة ـ فالأصلح أن يقام له، لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء . وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس فى ترك ذلك إيذاء له . وليس هذا القيام هو القيام المذكور فى قوله ﷺ : من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد . ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء . ولهذا فرقوا بين أن يقال ( قمت إليه ) و ( قمت له ) . والقائم للقادم ساواه فى القيام، بخلاف القيام للقاعد. وقد ثبت فى صحيح مسلم[(١)] أن النبىّ ﷺ لما صلى بهم قاعداً فى مرضه ، وصلّوا قياماً، أمرهم بالقعود ، وقال : لا تعظّمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً . فقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يتشبهوا الأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود . وجماع ذلك أن الذى يصلح ، اتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتد ذلك ، أو لم يعرف أنه العادة ، وكان فى ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث ـ قال ابن كثير : روى عن ابن عباس والحسن البصرىّ وغيرهما ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ) يعنى فى مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله (وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ) أى انهضوا للقتال .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب قيام الرجل للرجل ، حديث ٥٢٣٠ .

وقال قتادة : ( وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبيّ ﷺ فى بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده . فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة . فأُمروا أنهم إذا أُمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى[1] ( وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ) انتهى .

ولا تنافى بين هذه الأقوال ، لأن كلًّا منها تفسير للفظ العام ببعض أفراده . وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك ، لا أن أحدها هو المراد دون غيره ، فذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك فى تفاسير السلف لكثير من الآى ، وكله مما لا اختلاف فيه ـ كما بيّنّاه مراراً ـ .

الرابع ـ فى ( الإكليل ) قال قوم : معنى ( يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ) يرفع الله المؤمنين منكم العلماءَ درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفسّح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء فى المجالس ، والتفسّح لهم عن المجالس الرفيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً » أى تصدّقوا قبل مناجاته ، أى مسارّته فى بعض شأنكم . « ذَٰلِكَ » أى التقديم . « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب ، والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوى بالمسكنة بالمواساة والإغناء . « وَأَطْهَرُ » أى لأنفسكم من رذيلة البُخل

(١) [ ٢٤ / النور / ٢٨ ] .

والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذى قد يكون من شعار المنافقين . وكأن الأمر بالتصدق المذكور، نزل ليتميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإنفاق كيفما كان ، والثانى يغصّ به ، ولو فى أضرّ الأوقات. ومعظم أوامر السورةهو التصدّق، حثًّا للباخلين، وسوقاً للمؤمنين . « فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ » أى ما تتصدّقون به أمام مناجاتكم الرسول صلوات الله عليه. « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن لم يجده، إذ لم يحرجه ولم يضيّق عليه، رحمةً منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ )

«ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ » أى أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقةَ والفقر ؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغى أن يشفق منه ، للزوم الخلف للإنفاق ، لزوم الظل للشاخص ، بوعد الله الصدق . « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ » أى ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة ، وشقّ عليكم ، « وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ » بأن رخّص لكم أن لا تفعلوا ، رفعاً للحرج حسبما أشفقتم، « فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلا تفرّطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة. « وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجزيكم بحسبه .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : قوله تعالى ( إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ) الآية منسوخة بالتى بعدها، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل، ووقوعه ، خلافا لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير[١] عن مجاهد قال: قال عليّ رضى الله عنه: إن فى كتاب الله عز وجل لآية ماعمل بها أحد قبلى، ولايعمل بها أحد بعدى « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ... » الخ قال : فرضت، ثم نسخت . وعنه أيضا قال[١]: نهوا عن مناجاة النبىّ ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قدم ديناراً فتصدق به ، ثم أنزلت الرخصة فى ذلك .

وعن قتادة[١] أنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار .

وعنه أيضا[١] قال : سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية ، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبىّ الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك ( فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .

وعن الحسن[٢] وعكرمة قالا : ( إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ .. ) الآية، نسختها التى بعدها ( ءَأَشْفَقْتُمْ .. ) الآية .

هذه الآثار وأمثالها هى مستند مدعى النسخ ، وقوفاً مع ظاهرها . وقد أسلفنا فى مقدمة التفسير ، ومواضع أخرى؛ أن النسخ فى كلام السلف أعم منه باصطلاح الخلف، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم . ومنه قول قتادة هنا: فأنزل الله الرخصة بعد ذلك. فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بعزيمة فى الآية الثانية ، لاأن نزولها كان متراخياً عن الأولى، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم. والأصل فى الآى المقررة لحكم ما، هو اتصال جملها ، وانتظام عقدها ، إذ به يكمل سحر بلاغتها وبديع بيانها ، وتمام فقهها. والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ فى التنزيل ، لهم فى الآية وجوه :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أحدها ـ قول أبى مسلم : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقيًّا ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليتميز هؤلاء الذين آمنو إيماناً حقيقيًّا عمن بقى على نفاقه الأصلىّ . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لاجرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازىّ : وحاصل قول أبى مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ، ما به بأس . انتهى .

ثانيها ـ قول بعضهم : إن شبهة مدعي النسخ ذهابهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب. وتأكد ذلك بقوله بعده : ( فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) وقوله : ( فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ) فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه . والجواب : أن لا قاطع فى كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :

الأول ـ أنه تعالى قال : ( ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ) وهذا إنما يستعمل فى التطوع لا فى الفرض .

والثانى ـ أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو ( ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ . . . ) إلى آخر الآية .

والثالث ـ أن قوله تعالى : ( فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... ) الخ معناه إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشىء مما أوجبه عليكم ، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هى سنته فى معاملتكم بالرأفة والرحمة ، فأقيموا الصلاة ... الخ . فقوله ( وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ )

قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هــذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقيها ، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب. وقد ورد بذلك المعنى أيضا فى آية أخرى فى سورة المزمل ، وهى قوله تعالى[1] ( عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) أى رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم مايشقّ عليكم. وليس معناه فى هاتين الآيتين العفو عن الذنوب، إذ لا ذنب هنا صدر منهم .

هذا ملخص ماحققه من ذهب إلى امتناع النسخ . والحق لا تخفى قرته، وسكون النفس إليه ـ وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ )

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم» يعنى المنافقين الذين كانوا يتولّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية[2] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ... ) الآية « مَّا هُم مِّنكُمْ » أى من أهل دينكم وملتكم ، معشر المسلمين « وَلَا مِنْهُمْ » أى من اليهود كقوله تعــالى[3] (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ) «وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ» قال ابن جرير[4]: وذلك قولهم لرسول الله ﷺ (نشهد أنك رسولُ اللهِ) وهم كاذبون غير مصدقين به . « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى المحلوف عليه كذب بحت .

---

(١) [ ٧٣ / المزمل / ٢٠ ] . (٢) [ ٥٩ / الحشر / ١١ ] . (٣) [ ٤ / النساء / ١٤٣ ] .
(٤) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

[١٦] ( ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ )

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً » أى وقاية وعصمة لأنفسهم « فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى فخالوا بأيمانهم عن حكم الله فى أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدّوا الناس فى خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وتبطوهم عنه . « فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » أى مذلّ لهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ )

[١٨] ( يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ )

[١٩] ( ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ، أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ )

« لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا » أى من عذابه شيئاً ما ، كما كانوا يفتدون بذلك فى الدنيا « أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » أى فى الدنيا كاذبين مبطلين، إشارة إلى مرونهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تخفى عليه خافية . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ » أى من النفع أو من الحق « أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » أى فيما يحلفون عليه

فى الدارين « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم « فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ » أى بتسويل اللذات الحسيّة ، والشهوات البدنية لهم ، وتزيين الدنيا وزبرجها فى أعينهم . « أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى أتباعه فى الفساد والإفساد . « أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » أى للسعادة فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ » أى فى أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ )

« كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ » أى حزب الشيطان المحادّين « إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » أى قوىّ على إهلاك من حادّه ورسله ، عزيز فلا يغلب فى قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ، أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

«لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ» أى شاقّهما وخالف أمرهما . أى لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادّة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفى الوجدان نفى الموادّة ، على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنه ، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم. وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: «وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ» أى آباء الموادّين. والضمير فى ( كَانُوٓا۟ ) لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى ( مَن ) كما أن الإفراد فيما قبله ، باعتبار لفظها . « أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » أى فإن قضية الإيمان هجر المحادّين «أُو۟لَـٰٓئِكَ» إشارة إلى الذين لا يوادّونهم « كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ » أى أثبته فيها « وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ » أى بنور وعلم ولطف حيّت به قلوبهم فى الدنيا. وأشار إلى مالهم فى الآخرة بقوله «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ، أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى الناجحون الفائزون بسعادة الدارين .

## تنبيهات :

الأول ـ من أشباه هذه الآية قوله تعالى(١) ( لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ) الآية . وقال تعالى(٢) ( قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ) .

(١) [ ٣ / آل عمران / ٢٨ ] . (٢) [ ٩ / التوبة / ٢٤ ] .

الثانى ـ قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ( لَّا تَجِدُ قَوْمًا ... ) إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفى أبى بكر الصديق ، همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن . وفى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير . وفى عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضا . وفى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . انتهى.

وقد بينا مراراً ؛ أن المراد بسبب النزول فى مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب فى دين الله ، فى مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفادَوْا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لاأرى ما رأى يارسول الله ! هل تمكننى من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الثالث ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى ( رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ) سر بديع . وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع ـ يفهم من قوله تعالى (حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) وقوله فى آية[1] أخرى (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ) أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادّون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبلُ بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا ، أى الذين

(١) [ ٦٠/المتحنة / ١ ] .

على حدٍّ منا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضى بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذى ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد عاد النبيّ ﷺ يهوديًّا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ـ كما رواه[1] البخاريّ ـ .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين ـ كما فى ( الإقناع ) و ( شرحه ) ـ .

وقال ابن القيّم فى ( إغاثة اللهفان ) فى الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبيّ ﷺ كان يجيب من دعاه ، فيأكل طعامه . وأضافه يهوديّ بخبز شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضي الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذلك فى كتابه . ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو؟ قالوا فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعليّ رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب عليّ بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل عليّ رضيّ الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل فى هذا قوله تعالى[2] (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ) .

(١) أخرجه فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١١ ـ باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس . (٢) [ ٦٠ / الممتحنة / ٨ و ٩ ] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانىّ فى ( إيثار الحق ) : عن الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليه السلام ؛ أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٩ - سورة الحشر

قال المهايمي : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله وبالمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وكان ابن عباس يقول : سورة بني النضير .

روى البخاري[1] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير . وهم قوم من اليهود . وهي مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

[٢] ( هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ، وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ )

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » تقدم القول فى تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِن دِيَٰرِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم تعالى بقهره لأول ماحُشِر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانىّ لهم ، وقوة البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ » أى من بأسه « فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا » أى لم يظنوا « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أى أنزله إنزالًا شديداً فيها ، لدلالة مادة ( القذف ) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشانيّ : أى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك فى قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينة من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب فى قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » أى كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله فى وعده ووعيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾

[٤] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

« وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والسبى ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَٰلِكَ » أى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا » أى خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى له فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ » أى نخلة من نخيلهم إغاظة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلُّب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى لما فيه من إهانة العدوّ ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيّم : لما قدم النبىّ ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم. ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه ـ تبارك وتعالى ـ فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض مابينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم، فتآمروا على قتله ﷺ، وأن يعلو رجل فيلقى صخرة عليه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، وصعد ليلقى عليه صخرة، ونزل الوحى على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجَاف(١) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما همّ به من شأني ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى عليه وسلم ، وما عمل به . فيهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ » أي أعاد عليه من أموال بني النضير « فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أي فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و ( الإيجاف ) من الوجيف ، وهو سرعة السير . و ( الركاب ) : ما يركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَٰكِنَّ

(١) العتبة التي بأعلى الباب .

ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ » أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط . « وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

قال الزمخشرىّ : المعنى أن ماخوّل الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لايقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ، وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ )

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهو بيان للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ » أى الفىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ » أى من قسمة غنيمة أو فىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ فى ( الإكليل ) : استدل بالآية على أن ( الفيء ) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و ( الغنيمة ) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم فى[1] قوله : ( وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ... ) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكأن الذى زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيَّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال ـ فيما رواه عنه ابن جرير[2] ـ : كان الفيء فى هؤلاء ثم نسخ ذلك فى سورة الأنفال فقال : ( وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ) وجعل الخمس لمن كان له الفيء فى سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثانى على خمسة أخماس : نخمس لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ فى حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوطة فى مطولات الفروع .

الثانى ـ قال الزمخشرىّ : الأجود أن يكون قوله تعالى ( وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ) الآية ـ عامًّا فى كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفيء داخل فى عمومه .

وفى ( الإكليل ) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ماثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه فى القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

(١) [ ٨ / الأنفال / ٤١ ].

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق فى الاستنباط .

ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ )

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ » أى من مواطنهم ومألوفاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَٰنًا » أى منه ، وهو أعظم مايرغب فيه ، « وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى ببذل النفوس لقوة اليقين « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ » قال القاشانىّ : أى فى الإيمان اليقينىّ لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لاتمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ )

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من قبل مجىء المهاجرين إليهم . وعطف ( الإيمان ) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوّؤ فى لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان. وجوّز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذى يتمكّن فيه، على أنه استعارة بالكناية، ويثبت له التبوّؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء، والموافقة فى الدين والإخاء. قال الشهاب : المراد بمحبتهم المهاجرين هنا، مواساتهم، وعدم الاستثقال والتبرّم منهم، إذا احتاجوا إليهم ، فالمحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

يا أخى ! واللبيب، إن خانَ دهرٌ ، يستبين العدوّ ممن يحبُّ

« وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِّمَّآ أُوتُواْ » أى مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانىّ : لتجرّدهم وتوجّههم إلى جناب القدس ، وترفّعهم عن موادّ الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتيًّا ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوّة ، وكمال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .

وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى[1] ( وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا )، وقوله[2] ( وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ) فإن هؤلاء تصدّقوا ، وهم يحبون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تَصَدُّق الصِّدِّيق

(١) [ ٧٦ / الإنسان / ٨ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٧٧ ] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليَرْموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى المـاء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشرب به أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ » أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق. « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشُّحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشانىّ من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخُلُق دنىء . والشح من غرائزها المعجونة فى طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولـكن المعصوم من تلك الآفات والشرور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير(١) : الشح فى كلام العرب البُخل، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : ياأباعبد الرحمن ! إنى أخشى أن تـكون أصابتنى هذه الآية ( وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدى شىء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما . ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسّر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وعن ابن زيد فى الآية قال : من وُقِىَ شح نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً ، ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير[١] عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : برئ من الشح من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة .

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لايحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا .

وعن أبى هريرة[٣] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

« وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) . والحديث رقم ٦٤٨٧ ( طبعة المعارف ) .

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨ ـ باب فضل من عمل فى سبيل الله على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » يعنى بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجين من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والمجيء حسيّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة. فالمجيء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة[1] : ( وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جعل الزمخشريّ قوله ( وَالَّذِينَ ) عطفاً على ( الْمُهَٰجِرِينَ ) كالموصول قبله فى قوله : ( وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو ... ) الخ ، فيكون قوله ( يُحِبُّونَ ) وقوله ( يَقُولُونَ ) حالين .

وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره .

وعندى أن هذا هو الوجه ، وماقبله تكلف، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال الكاملة . وما حمل الزمخشريّ ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفيء من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ...)الخ، (وَ)للفقراء(الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...)الخ وللفقراء الذين جاءوا مِن بَعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون فى جهد ، والأنصار فى سعة ورغد ـ يقضى بأن المقصود منها للفيء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار فى غنى عنه وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم فى إيثارهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثنى على من سبقه ، ويدعو له ابتهاجاً بما

(١) [ ٩ / التوبة / ١٠٠ ] .

أتوا ، واغتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة فى الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّ عن قوة الإيمان ، والإخلاص فى تدعيم روابط الإيقان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من الفىء قياساً على الصنف الأول ، لاشتراكهم فى الفقر. إلا أنه فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار فى تلك الواقعة فقراً، إلا سهلاً وأبا دجانة ـ كما تقدم ـ فأعطاها صلى الله عليه وسلم. وأما فى غيرها من الوقائع التى كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين فى آيات أخر ، فإن التنزيل الكريم بيّن مقاسم الأموال لذويها فى عدة آيات .

روى ابن جرير[١] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ[٢] ( إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ) حتى بلغ ( عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) ثم قال : هذه لهؤلاء. ثم قرأ[٣] ( وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ . . . ) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ[٤] ( مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ) حتى بلغ[٥] ( وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق. ثم قال لئن عشت ليأتين الراعى ، وهو بسَرْوِ حِمْيَر ، نصيبَه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ )

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٩ / التوبة / ٦٠ ] . (٣) [ ٨ / الأنفال / ٤١ ] .

(٤) [ ٥٩ / الحشر / ٧ ] . (٥) [ ٥٩ / الحشر / ١٠ ] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم. وأخوّتهم معهم أخوّة دين واعتقاد ، أو أخوّة صداقة وموالاة لأنهم كانوا معهم سرًّا على المؤمنين « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ، والمؤمنين « وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير(١) : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ووُدَيعة ومالك ابنا نوفل ، وسُوَيد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم. « وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ )

« لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ » أى بنوعٍ مّا من أنواع النصر . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] ( لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ )

« لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخِفّوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

« لَا يُقَاتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم «جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ» أى بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ » أى من خلف حيطان، لفرط رهبتهم منكم. « بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشرىّ : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذلّ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرّقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرّقها عن الحق بالباطل .

« ذَٰلِكَ » قال المهايمىّ : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلىّ . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم، والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النضير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيهم من قبلهم ، وهم كفار قريش فى وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثانى أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحُد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام ـ والتفصيل فى السير ـ .

وقال ابن جرير[1] : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مذيقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكهم بسخطه . وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النضير . وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

[١٧] ( فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى مثل المنافقين فى إغراء بنى النضير على القتال، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل انخداع بنى النضير بوعد أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعده على اتباعه وكفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله ، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه فى عذابه ، مسلماً له وخاذلًا « إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ» أى فلا أعينك «إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ» أى فى نصرتك فلم ينفعه التبرؤ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة «فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى فى حق الله تعالى ، وحق العباد . أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين ، الذين وعدوهم النصرة. وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به . إنهم فى النار مخلدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايمىّ : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ )

« وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ » قال ابن جرير[١] : أى لا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانىّ : ( نَسُوا۟ ٱللَّهَ ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمانية ، والاشتغال باللذات النفسانية ( فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيّم فى (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيما. وهو أن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكمل به ، وتزكو به ، وتسعد به فى معاشها ومعادها . قال تعالى[٢] ( وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ) فغفل عن ذكر ربه ، فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله، وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدى سبيلا . فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، وما تزكو به وتفلح به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ١٨ / الكهف / ٢٨ ] .

« أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيّم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ )

« لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم . « أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ » أى : بالنعيم المقيم .

تنبيهان

الأول ــ قال الزمخشرى : استدل أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

وردّ الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى ( تفضيل السلف على الخلف ) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمىّ . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوه ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواء ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواء . فهذا كلام مَنْ ضعف نظره فى مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى ــ قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابليهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى[1] (هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

(١) [ ١٣ / الرعد / ١٦ ] .

وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله[1] تعالى ( هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ) فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ )

« لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايمىّ أى بتفهيمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والمحركة « لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا » أى متذللا لعظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققا « مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانىّ : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهىّ بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلابد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشرىّ : الآية تمثيل كما مرّ فى[2] قوله ( إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ) وقد دل عليه قوله ( وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجره .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

---

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٩ ] .   (٢) [ ٣٣ / الأحزاب / ٧٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ، هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ )

[٢٣] ( هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

[٢٤] ( هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له . « عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شوهد « هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ » أى المنعم بالنعم العامة والخاصة . ومن كان مطلعاً على الأسرار يحب أن يخشع له ، ويخشى منه ، لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له، ويخشى أن تسلب نعمه «هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ » أى الغنىّ المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شىء ، المدبر للكل فى ترتيب نظام لا أكمل منه «ٱلْقُدُّوسُ» أى المنزه عما لا يليق بجلاله، تنزهاً بليغاً «ٱلسَّلَـٰمُ» أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « ٱلْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين بإنزال السكينة ، ومن فزع الآخرة «ٱلْمُهَيْمِنُ» أى الرقيب على كل شىء باطلاعه واستيلائه وحفظه « ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يَغلب ولا يُغلب « ٱلْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته ـ قاله الغزالىّ فى ( المقصد الأسنى ) ـ .

وقال الإمام ابن القيّم فى ( الكافية الشافية ) :

وكذلك ( الجبارُ ) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه داني
والثانِ جبر القهر بالعزّ الذى لا ينبغى لسواه من إنسانِ
وله مسمًّى ثالثٌ وهو العلـ ـوّ فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم ( جبّارةٌ ) للنخلة الـ ـعليا التى فاتَتْ بكل بَنَانِ

«ٱلْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من الأوثان والشفعاء . « هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ » أى المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته . «ٱلْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «ٱلْمُصَوِّرُ» أى الكائنات كما شاء . « لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الدالة على محاسن المعانى ، وأحاسن المادح . « يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم وسعادتهم .

## تنبيهات :

الأول ـ قال السيد ابن المرتضى فى ( إيثار الحق ) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لابد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى ، والجحد المحض ، وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله[1] ( وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ) . وقال سبحانه وتعالى[2] ( قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ). فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٨٠ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١١٠ ] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمٍّ لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجلّ من أن يسمىّ باسمٍ لم يُتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدّثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخارىّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوّله . واتفاقُهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماؤها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروىّ بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله فى ذلك وأطاب . فليرجع إليه النَّهِمُ بالتحقيقات .

الثانى ـ قال الغزالىّ فى ( المقصد الأسنى ) ـ وهو من أنفس ما ألف فى معانى الأسماء الحسنى ـ : هل الصفات والأسامى المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذى مال إليه القاضى أبو بكر الباقلانىّ أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما مالا مانع فيه فإنه جائز . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ ، رحمة الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق فى حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والمختار عندنا أن نفصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لايقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب .

ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث ـ قال السيد ابن المرتضى فى ( إيثار الحق ) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، الكمال الذى لايحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولابد من الإشارة هنا إلى أمر جلىّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع ( الأحسن ) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن ( الحسن ) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعانى . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على ( حُسْنَى )، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بيّن مثال ذلك فانظره .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٠ - سورة الممتحنة

بفتح الحاء ، وقد تكسر . فعلى الأول هي صفة المرأة التي نزلت فيها . وعلى الثاني صفة السورة ، كما قيل لبراءة ( الفاضحة ) ـ كما في ( الأعلام ) ـ .

قال المهايمي : سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لايكتفى في باب الصحة بظواهر الأدلة كالهجرة ، بل لابد من اختبار البواطن . فدلائل الاعتقادات أولى بذلك . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وفي ( جمال القراء ) أنها تسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة . وهي مدنية . وآيها ثلاث عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ » أى أنصاراً . نهى لأصحاب النبيّ صلوات الله عليه ، عن موالاة مشركى مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتى . « تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ » أى صميم المحبة ، والباء زائدة فى المفعول « وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ » أى من الإيمان بالله ورسوله و كتابه، الذى هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنه لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله « يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ » أى من أرضكم ودياركم « أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ » أى يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المقتضية انقياد الناقص له ، لاسيما باعتبار اتصافه بوصف كونه ربّاكم بالكمالات ، فهى بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير: هذامعماقبله من التهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم ، لأنهمأخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة للهوحده. ولهذا قال تعالى : ( أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ) أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم

بالله رب العالمين كقوله تعالى(١) (وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكقوله تعالى(٢) (الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) وقوله تعالى « إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ » أى هاجرتم « جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي » أى للجهاد فى طريق الذى شرعته لكم ، ودينى الذى أمرتكم به ، والتماس رضائى عنكم الذى لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ ( لَا تَتَّخِذُواْ ) أى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى « تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ » أى من المودة معهم وغيرها « وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ » أى اتخاذهم أولياء « فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ » أى جار عن السبيل السوىّ الذى جعله الله هدى ونجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ)

« إِن يَثْقَفُوكُمْ » أى يظفروا بكم « يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً » أى حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم « وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ » أى بما يسوؤكم كالقتل والشتم ، « وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ » أى بما جاءكم من الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ » أى قراباتكم « وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » أى بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

---

(١) [ ٨٥/ البروج / ٨] . (٢) [ ٢٢ /الحج / ٤٠] .

وقال القاشانيّ : أي لا نفع لمن اخترتم موالاة العدوّ الحقيقيّ لأجله، لأن القيامة مفرقة. وهـذا معنى قوله ( يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) أي يفصل الله بينكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال[١] (يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ) انتهى ، وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز في ( يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ) وجهان :

أحدهما ـ أن يتعلق بما قبله ، أي لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ « يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » .

والثاني ـ أن يتعلق بما بعده أي يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على ( أولادكم ) ، ويبتدأ بـ ( يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ) .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فيجازيكم عليه .

## تنبيهات

الأول ـ قال ابن جرير[٢]: ذكر أن هذه الآيات، من أول هذه السورة، نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله ﷺ قد أخفاه عنهم ـ ثم ساق الروايات ـ .

وأما رواية البخاريّ[٣] فعن عليّ رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فذهبنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ،

(١) [ ٨٠ / عبس / ٣٤ ـ ٣٦ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٣) أخرجه في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٤١ ـ باب الجاسوس ، حديث رقم ١٤٢٩

فقالت : مامعى من كتاب ! فقلنا : لتخرجِنّ الكتاب ، أو لنُلقِيَنّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم .

فقال النبىّ ﷺ : ما هذا ياحاطب؟ قال: لاتعجل علىّ يارسول الله! إنى كنت امرءًا من قريش ، ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتى . ومافعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن دينى. فقال النبيّ ﷺ : إنه قد صدقكم. فقال عمر : دعنى يارسول الله فأضرب عنقه ! فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم !

قال عمرو بن دينار ـ راوى الحديث ـ ونزلت فيه ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى ... ) الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلًا من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، لمّا نقض أهلها العهد ، فأمر النبيّ ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال: اللهم عمّ عليهم خبرنا . فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ـ كما ذكر فى الحديث ـ .

الثانى ـ قال ابن كثير : يعنى تعالى بقوله ( لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ) المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى(١) ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) [ ٥ / المائدة / ٥١ ] .

لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ) ، وهـذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقال تعالى[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). وقال تعالى[2] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا). وقال تعالى[3] (لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أى أنه قبل عذره فيما قام فى ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة، وإن أخطأ. والمجتهد المخطئ معذور . وقد تبيّن خطؤه بصريح النهى عن معاودة مثله الذى لأجله نزلت السورة . ولذا قال الإمام إِلْكِيَا الهرّاسى : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة فى دين الله . وهو ظاهر، وليس هذا من التقية ، لأنها فى موضوع آخر. وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد ابن المرتضى فى ( إيثار الحق ) فى المسألة الثامنة. قال ( بعد أن أورد الآيات والأحاديث ) : هذا كله فى الحب الذى هو فى القلب، والمخالصة لأجل الدين، وذلك للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحّدين ، إذا كان لأجل إسلامهم وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالقة والمنافعة ، وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضى مفسدة كالذلة ، فلا يبذل للعدو فى حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية ( لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٧ ] .    (٢) [ ٤ / النساء / ١٤٤ ] .
(٣) [ ٣ / آل عمران / ٢٨ ] .

مْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ) ـ كما يأتى ـ وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين . وأما الفرق بين ما يجوز من المنافعة والمداهنة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال والمنافع فهو جائز ، وهو المنافعة ، وربما عبروا عنه بالمداهنة والمداراة والمخالقة . وما كان من أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعى إلى الله تعالى ، يحي بن المحسن عليه السلام فى ( الرسالة المحرسة ، لأهل المدرسة ) : لايجوز أن تكون الموالاة هى المتابعة فيما يمكن التأويل فيه ، لأن كثيراً من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولّى الناصر الكثير منهم ، وصلى بهم الجمعة جعفرُ الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنائزهم .

وذكر الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى موالاة الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها قوله[١] تعالى فى ٱلْوالِدَيْنِ ٱلْمُشْرِكَيْنِ بالله ( وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً ) ومنها قوله[٢] تعالى ( لَّا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّـهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . . ) الآيتين . وفى الحديث أنها نزلت فى قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبزار والواحدىّ ، وتأخرها واضح فى سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ، فالخاص مقدم على العام عند جهل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رُشْد فى ( نهايته ) بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ماثبت فى القرآن والسنة الصحيحة المتفق عليها من حديث علىّ عليه السلام فى قصة حاطب ، على ماذكره الله تعالى فى أول سورة الممتحنة ـ هذه ـ وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله ﷺ عذره بالخوف على أهله فى مكة ، والتقية فيما لايضر فى ظنه .

---

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٥ ] . (٢) [ ٦٠ / الممتحنة / ٨ ] .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذنب لقوله ( وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ) فكيف يقبل ماجاء من قبول عذره ؟

قلت : إنما قبل عذره فى بقائه على الإيمان ، وعدم موالاة المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ) والعموم نص فى سببه . فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لا يحل مثل مافعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم، لقوله تعالى[1] ( وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ... ) الآية . ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن فى أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيلة فى حفظ المال . فلو كان مثل ذلك موالاة لم يأذن فيه صلى الله عليه وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لانفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة ـ والله أعلم ـ انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودّد بذلك إليهم ، والمناصحة لهم ، مما يشفّ عن كون الآتى بذلك متزلزلاً فى عقده ، مضطرباً فى حقه، فيصبح عمله حجة على دينه، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر فى الحقيقة ، كما بينه آية[2] ( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) وسيأتى بيانه .

ثم علّم تعالى عباده المؤمنين التأسى بإبراهيم عليه السلام فى البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٤ / النساء / ٨٣ ] . (٢) [ ٦٠ / الممتحنة / ٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ» أى قدوة «حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ» أى أتباعه الذين آمنوا معه ، كلوط عليه السلام « إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ » يعنى الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت «إِنَّا بُرَآءُ» جمع برىء ، كظريف وظرفاء «مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » أى بدينكم ومعبودكم . قال ابن جرير[١] : أى أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ماتعبدون من دون الله أن يكون حقاً «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ » أى لاصلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده . أى توحدوه وتفردوه بالعبادة « إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » استثناء من قوله (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) قال ابن جرير[١] : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور التى ذكرناها ، من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه .يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تبرءوا من أعداء الله المشركين به،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرءوا عن عبادة ما سواه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال فى الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

«وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ» أى وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده . ولذا قال الزمخشرىّ : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنىّ عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طاقتى إلا الاستغفار .

وقوله تعالى « رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ » متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تتميما لما وصّاهم به من قطع الصلات المضرّة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى ( إِلَيْكَ أَنَبْنَا ) أى إليك رجعنا بالتوبة مما تكره ، إلى ما تحب وترضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » قال مجاهد : أى لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

ومآل هذا الدعاء هو التعوذ من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما

صانعنا مؤمنهم ، فإذن ما هم عليه أمانىّ . فيتزلزل من كان فى نفسه الانتظام فى سلكهم ، والاستسعاد بحقهم . ففى الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أى : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بآداب الدين ، محافظين عليها ، قائمين بها حق القيام، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم. ولذا أصبح المسلمون فى القرون الأخيرة بحالهم، حجة على دينهم أمام عدوهم. ولا مسترد لقوتهم، ومستعاد لمجدهم، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعمل بآدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلمه ، ويجافى حقيقته . وللحكماء فى هذا الموضوع مقالات معروفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ )

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ » تكرير لوجوب التأسى بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم . فإن محبة المفسدين فيها تخريب لمبانى الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المصلحين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداءهم بهم ، لذلك كان البغض فى الله من شُعَب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلمته ، ورمى أعدائه عن قوس واحدة . وفى إبدال ( لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ) من (لكم) دلالة على أنه لا ينبغى لمؤمن أن يترك التأسى بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله ( وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ) أى من يتولّ عما أُمِر به ، ويوالى أعداء الله ، ويلقى إليهم بالمودّة ، فإنه لا يضرّ إلا نفسه ، والله هو الغنىّ عن إيمانه به وطاعته ، المحمود على كل حال .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » هذا وعد منه تعالى، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعدُ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً . والآية من معجزات القرآن ، لما فيها من الإخبار عن مغيبٍ ، وقع مصداقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

[٩] (إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)

« لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » هذا ترخيص من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . فهو فى المعنى تخصيص لقوله ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى ... ) الخ . أى لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، أى تفضوا إليهم بالبرّ ، وهو الإحسان . والقسط وهو العدل . فهذا القدر من الموالاة غير منهيّ عنه ، بل مأمور به فى حقهم . والخطاب،

وإن يكن فى مشركى مكة ، إلا أن العبرة بعموم لفظه . وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه ، فردّ ذلك الإمام ابن جرير[١] بقوله :

والصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ) من جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ، فإن الله عز وجل عمّ بقوله ( ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ) جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب، غير محرم ولا منهىّ عنه ، إذا لم يكن فى ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح . وقد بين صحة ما قلناه الخبر فى قصة أسماء وأمها . انتهى .

وذلك أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا . فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يارسول الله ! إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم ! صلى أمك . رواه أحمد[٢] والشيخان[٣] ، ورواه أيضاً الإمام أحمد[٤] عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا : ضباب، وقرظ، وسمن ، وهى مشركة. فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها . فسألت عائشةُ النبيّ ﷺ.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء السادس ( طبعة الحلبىّ ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٢٩ ـ باب الهدية للمشركين ، حديث رقم ١٢٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٤٩و٥٠ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

فأنزل الله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...) إلى آخر الآية. فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

قال الرازىّ : وقوله تعالى (أَن تَبَرُّوهُمْ) بدل من (ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ) وكذلك (أَن تَوَلَّوْهُمْ) بدل من (ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ) . والمعنى : لاينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا رحمة لهم ، لشدتهم فى العداوة . وهذه الآية تدل على جواز البرّ بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ، ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ» أى من مكة إلى المدينة ، «فَٱمْتَحِنُوهُنَّ» أى فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن فى الإيمان «ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ» أى المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور لكم ، فحسبكم أماراته وقرائنه .

وقد روى ابن جرير[١] عن ابن عباس قال: كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ ، حلّفها

(١) انظر الصفحة رقم ٦٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بالله، ماخرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ماخرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله.

وقال مجاهد: أى سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره، ولم يؤمنّ، فارجعوهن إلى أزواجهن.

« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ » قال الزمخشرىّ: أى العلم الذى تبلغه طاقتكم، وهو الظن الغالب بالحلف، وظهور الأمارات. وإنما سماه علماً، إيذاناً بأنه كالعلم فى وجوب العمل به. « فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ » أى فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين، إذ لا حِلّ بين المؤمنة والمشرك، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرك المعادى لله ولرسوله.

قال ابن جرير[1]: وإنما قيل ذلك للمؤمنين. لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش فى صلح الحديبية، أن يردّ المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً، فأبطل ذلك الشرط فى النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات، فامتُحنّ فوجدهن المسلمون مؤمنات، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا، وأمروا أن لايردوهن إلى المشركين، إذا علم أنهن مؤمنات.

« لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » أى لانقطاع النكاح بينهنّ.

قال ابن كثير: هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين. وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. ولهذا كان أمر أبى العاص بن الربيع، زوج ابنة النبىّ ﷺ زينب رضى الله عنها. وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه. فلما وقع فى الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة. فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا، ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضى الله عنه. فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . انتهى «وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ» قال ابن جرير[١]: أى وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجعوهن إليهم، ما أنفقوا فى نكاحهم إياهن من الصداق « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ » أى هؤلاء المهاجرات اللاتى لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ، «إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» أى مهورهن . قال ابن زيد: لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة عن الكافر ، بطل نكاح الكافرة عن المسلم ، بقوله : « وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ » أى بعقودهن التى يتمسك بها فى الاستحلال .

قال ابن جرير[٢] : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ : لا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و (الكوافر) جمع كافرة . و(العصم) : جمع عصمة ، وهى مااعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان، وأمر لهن بفراقهن. ثم روى عن مجاهد قال: أمر أصحاب محمد بطلاق نسائهم كوافر بمكة قعدن مع الكفار .

وعن الزهرىّ : لما نزلت هذه الآية (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى قوله ( وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ) ، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبى أمية ، وابنة جرول . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان ممن فرّ إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧١ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

ممن لم يكن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فحبسها وزوَّجها رجلًا من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية . كانت عند ثابت بن الدحداحة ، ففرّت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله ﷺ ، فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، أحد بنى عمرو بن عوف. فولدت عبد الله ابن سهل .

«وَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ» أى اطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتى لحقن بهم ، من الصداق ، مَن تزوجهن منهم « وَلْيَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ » أى وليسألكم المشركون منهم، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات، إذا تزوجن فيكم، مَن تزوجها منكم، ما أنفقوا عليهن من الصداق «ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى هذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا، وأمر المشركين بمثل ذلك . حكم الله الحق الذى لا يعدل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)

« وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ » أى وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت الكفار، فلم يردّوا مهرها « فَعَاقَبْتُمْ » أى فغزوتموهم فوجدتم منهم غنيمة « فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم » أى من المسلمين « مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ » أى فى مهورهن .

قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

وقال قتادة : كن إذا فررن من أصحاب النبيّ ﷺ إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبيّ الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطى زوجها ماساق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمتهم .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ » أى فإن الإيمان به يقتضى أداء أوامره ، واجتناب نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ » قال ابن كثير : أى أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج معسراً فى نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ماجرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه ، عملا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك ـ أخرجاه فى الصحيحين(١) ـ « وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ » قال الزمخشرىّ: يريد وأد البنات.

وقال ابن كثير : هذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعمّ قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجاهلات من النساء، تطرح نفسها، لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٥ ـ باب من أجرى أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم فى البيوع والإجارة ، حديث رقم ١١٠٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ٧ ( طبعتنا ) .

«وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ» قال ابن عباس: أى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وأوضحه الزمخشرىّ بقوله: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها. هو ولدى منك . كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : فى شرح البخارىّ للكرمانىّ معناه : لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما . ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لاتنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذى مقره بين الأيدى والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثانى عن كونه من دخيلة قلوبهم المبنية عن الخبث الباطنىّ .

وقال الخطابىّ : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . وردّ بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه ، فلا يقال : بين أرجله. وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها . أما مع الأيدى تبعاً فلا . فالمخطئ مخطئ وهو كناية عن خرق جلباب الحياء . والمراد: النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى.

« وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » أى من أمر الله تأمرهن به .

قال فى النهاية : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

«فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّـهَ إِنَّ ٱللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

## تنبيهات :

الأول ـ روى البخاري[١] عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ، كلاماً . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة . ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك .

قال ابن حجر : أى لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

ثم قال: وروى النسائىّ والطبرىّ أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت فى نسوة تبايع. فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : إنى لا أصافح النساء . ولـكن سآخذ عليـكن . فأخذ علينا حتى بلغ ( وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ) فقال : فيما أطقتُنّ واستطعتن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ـ وفى رواية الطبرىّ : ماقولى لمائة امرأة إلا كقولى لامرأة واحدة ـ وقد جاء فى أخبار أخرى أنهن كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب ـ أخرجه يحيى ابن سلام فى تفسيره عن الشعبىّ ـ .

وفى المغازى لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده فى إناء، فيغمسن أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخارىّ الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثانى ـ روى مسلم[٢] عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) كان منه النياحة .

---

(١) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٢٠ ـ باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمىّ والحربىّ ، حديث رقم ١٣١٠ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث رقم ٣١ ( طبعتنا ) .

ولفظ البخارىّ[1] عنها قالت : بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ( أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ) ونهانا عن النياحة .

وأخرج الطبرىّ بسنده إلى امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه فى شىء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلًا .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبىّ الله ﷺ أخذ عليهن يومئذ أن لا يَنُحْنَ ، ولا يحدّثن الرجال إلا رجلًا منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبىّ الله ! إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نسائنا ؟ ! فقال ليس أولئك عنيت .

الثالث ـ قال إلكيا الهراسىّ : يؤخذ من قوله تعالى ( وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ) أنه لاطاعة لأحد فى غير المعروف . قال وأمر النبىّ ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه فى الطاعة ، لئلا يترخص أحد فى طاعة السلاطين .

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد . قال فى هذه الآية : إن رسول الله ﷺ نبيه، وخيرته من خلقه . ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط . لم يقل ( ولا يعصينك ) ويترك حتى قال ( فى معروف ) فكيف ينبغى لأحد أن يطاع فى غير معروف ، وقد اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى فى آخر السورة بما نبّه به فى فاتحتها ، من النهى عن موالاة محاربى الدين ، تحذيراً من التهاون فى ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

---

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤٦ ـ باب ما ينهى عن النوح والبكاء ، حديث ٦٩٤ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى مسخوطاً عليهم لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيثهم بالفساد . وهو عام فى كل محارب . ومنهم من خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزمخشرىّ. قال الناصر : قد كان الزمخشرىّ ذكر فى قوله[(١)] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ) إلى قوله (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) أن آخر الآية استطراد . وهو فن من فنون البيان، مبوّب عليه عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدًّا ، فإنه ذم اليهود ، واستطرد ذمهم بذم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه . ومما صدروا به هذا الفن قوله :

إذا ما اتقى اللهَ الفتى وأطاعه ... فليس به بأس، وإن كان من جُرْمِ

وقوله [(٢)] :

إن كنتِ كاذبةَ الذى حدثتِنى ... فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

وقوله [(٢)] :

تركَ الأحبة أنْ يقاتِلَ دونهم ... ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

انتهى .

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ١٢ ] .

(٢) قائلهما حسّان بن ثابت ، من قصيدته التى مطلعها :

تبلتْ فؤادَكَ فى المنام خريدةٌ ... تسقِى الضجيعَ ببارِدٍ بسَّامِ

( شرح الديوان للبرقوقىّ ص ٣٦٢ ) .

وكان وجه إيثاره الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية ردّ العجز على الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه . ولكل وجهة .

« قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ » أى من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا . والجملة صفة ثانية « كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ » أى كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين . أى أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكلٌّ مؤاخذ بكفره . وقيل : المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦١ ـ سورة الصف

وتسمّى سورة ( الحواريين ) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنهـا مكية ، لأن آياتها المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآيها أربع عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى أذعن لله كل خلقه العلوىّ والسفلىّ ، وانقاد لتسخيره ، ودلّ على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

[٣] ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانىّ : من لوازم الإيمان الحقيقىّ الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيهما . وقوله ( لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ ) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادّعى الإيمان وجب عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان ، فضلًا عن كماله . إذ الإيمان الأصلىّ هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيّم . وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ . والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره ، هى النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع ، فدخل فى حد الشيطنة ، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التي هي إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها. فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصليّ بانتفاء ملزومه، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه . قصد في ( كَبُرَ ) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين . وأسند إلى ( أَن تَقُولُواْ ) ، ونصب ( مَقْتاً ) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ ( المقت ) لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأفحشه . و ( عند الله ) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكراره لقوله : ( ما لا تفعلون ) وهو لفظ واحد ، في كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ )

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ » قال القاشانيّ : لأن بذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئاً من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس في الله وفي سبيله لا للنفس ، كما قال ـ ترك الدنيا للدنيا ـ كانت

محبة الله فى قلبه راجحة على محبة كل شىء ، فكان من الذين قال فيهم :[١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله :[٢] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ) انتهى.

## تنبيهات :

الأول ـ فى ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات فى قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى[٣] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ) فالنهى العام ورد أولًا . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم، النهى عن الشىء الواحد مرتين ، مندرجاً فى العموم، ومفرداً بالخصوص. وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود فى حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما فى التعميم من التعظيم والتهويل. انتهى

الثانى ـ فى (الإكليل) : قال إلكيا الهراسىّ ، يحتج بقوله تعالى : ( لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ) فى وجوب الوفاء بالنذر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولًا ، لا يفى به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت فى الصحيحين[٤] ؛

(١) [ ٢/ البقرة/ ١٦٥ ]. (٢) [ ٥ / المائدة/ ٥٤]. (٣) [ ٤٩ / الحجرات/ ١و٢] .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ ( طبعتنا ) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا اؤتمن خان. ولهذا أكّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى ( كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ) .

وقد روى الإمام أحمد[1] وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : ياعبد الله ! تعال أعطك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً . فقال : أما إنك لو لم تفعلي ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به. كما لو قال لغيره : تزوّج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوّج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدميّ .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض، نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى[2] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ) . وقال تعالى[3] ( وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ . . ) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبيّ ) .

(٢) [ ٤ / النساء / ٧٧ ] . (٣) [ ٤٧ / محمد / ٢٠ ] .

دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ).

وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبيّ ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيّان.

وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم، وكنا فى نصركم ، وفى وفى . . . روى ذلك عن ابن زيد.

وكلّ المروىّ هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف ـ كلها . ولفظ ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن سلام ؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهِبْنا أن نسأله عن ذلك. قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر رجلًا رجلًا ، حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة ـ الصف ـ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها.

وفى رواية ابن أبى حاتم هذه فائدة جليلة: وهى أن قول الصحابىّ نزلت هذه السورة، بمعنى قرئت فى الحادثة، كما تبيّنته الرواية قبله. والروايات يفسر بعضها بعضاً. وقد نبهنا على ذلك مراراً.

الثالث ـ فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .

قال ابن أبي الفرَس : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان. لأن التراصّ إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .

وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدهما ـ أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المتزلزل القدم، والمضطرب في الموقف ـ دع من يعزم على الفرار ـ ممن يمقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

ثانيهما ـ أن يكون المعنيّ به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدوّ ، حتى يكونوا في الاتحاد وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازيّ . وهما أقرب من الأول ، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ )

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ » أي لم توصلون إليّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمي وإطاعتي ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظّم رسوله ، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه(١) : رحمة الله على موسى ! لقد أوذي بأكثر

(١) أخرى البخاريّ في : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ١٩ ـ باب ما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلّفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى[١] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و ( إذ ) منصوب على المفعولية بمضمر. خوطب به النبىّ ﷺ بطريق التلوين. أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة ، بقوله[٢] (يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ) فلم يمتثلوا أمره، وعصوه أشد عصيان، حيث قالوا[٣]: ( يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ) إلى قوله[٤] ( فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ) وأصروا على ذلك وآذوه، عليه الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق السليم . وأما ماقيل بصدد بيان أسباب الأذية، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ــ فمما لاتعلق له بالمقام. انتهى ملخصاً. وملخصه: أن المقام يعيّن نوع الأذية ويخصصها، والقرينة إحدى مخصصات العامّ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى، وحب الدنيا «أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ» أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغىّ والضلال . « وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرّين على الغواية .

---

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٩ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٢١ ] . (٣) [ ٥/ المائدة / ٢٢]
(٤) [ ٥ / المائدة / ٢٤ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام. «وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ» أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججًا على نبوّته ، « قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن .

والإشارة إلى ماجاء به أو إليه، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة. يريد عليه السلام : أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

## تنبيهات :

الأول ـ نقل الرازىّ وغيره مصداق هــذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ـ كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١و١٨٣١و١٨٣٣ بمدينة لندن ـ وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصلىّ ( بيركلوط ) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب ( إظهار الحق ) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد ( ٣٢٨٤ ) صفحة (٢) تحت عنوان ( لايعدم الإسلام منصفاً ) :

وقال مسيو مارسيه من ( مدرسة اللغات الشرقية ) مايأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامىّ ، واسم محمد جاء من مادة حمد. ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسما من نفس المادة يقرب فى المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهـذا مادعا علماء الدين الإسلامىّ أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجىء النبىّ محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هـذا بقوله عن المسيح : ( وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ) .

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارةخاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما ( إنجيل برنابا ) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الضافية الذيول ، التي يذكر فيها اسم محمد فى عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزىّ أنه رأى فى دار الكتب البابوية فى الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبةبالقلم الحميرىّ قبل بعثة النبىّ ﷺ ، وفيها يقول المسيح: ( وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان لفظ ( الفارقليط ) فى المطبوعات الأخيرة بـ(المعزّى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجية القوم فى كتبهم المقدسة .

* سجيةٌ تلك فيهم غير محدَثةٍ *

(١)

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى ( جلاء الأفهام ) : الفرق بين محمدوأحمد من وجهين :

أحدها ـ أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذى

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدرهصفحة وثلث الصفحة، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يملأه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فمحمد زيادة حمد فى الكمية ، وأحمد زيادة فى الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثانى ـ أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ كونه محموداً . ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لايُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لاالمتعدّى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : ( ما أشغله بالشىء ) .

إلىأن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمداً وأحمد. لأنه يحمد أكثرمايُحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقعان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى ( الحمّاد ) وهو كثير الحمد ، كما سمى محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأوْلَى أن يسمّى حماداً ، كما أن اسم أمته الحمادون. وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلكثرة خصائله التى تفوت عدّ العادّين سمى باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ )

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ »أى: لاأحد أظلم وأشد عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته، المسعد له فى الدارين، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى ( سحر ) ولرسوله ( ساحر ) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبيّ ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال ( الإسلام ) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغويّ . وقد كثر ذلك فى آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ )

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ» قال ابن جرير(١) . أى يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليبطلوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

و( نور الله ) استعارة تصريحية لدينه ، و ( الإطفاء ) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهادهم فى إبطال الحق ، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس: هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وألطف ، وهو مختار الزمخشريّ .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحاة مقررة فى المطولات ، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ )

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ » يعنى محمداً ﷺ « بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير(١) : أى على كل دين سواه . وذلك عند نزول عيسى بن مريم ، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشرىّ : أى ليعليه على جميع الأديان المخالفة له . ولعمرى لقد فعل ، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وتقدم فى آخر سورة الفتح فى مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

« وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » أى لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ )

[١١] ( تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ )

[١٢] ( يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ )

[١٣] ( وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إيماناً يقينياً لا يشوبه أدنى شك « وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم . أو أنه خير . فإن قيل : إن ذلك خير بنفسه علموا أولا ، وأيضاً أن علمهم محقق ، إذ الخطاب مع المؤمنين . فالجواب ماقاله الناصر : أن الشرط ليس على حقيقته ، بل هو من وادى قوله تعالى[1] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذى يقتضى الامتثال ، وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حرّاً فانتصر . تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير . انتهى وقوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، أو لشرط أو استفهام ، دل عليه الكلام تقديره : إن تؤمنوا وتجاهدوا . أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم « وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ » أى بساتين إقامة لا ظعن عنها « ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » أى النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ، « وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » أى عاجل . وهو فتح مكة . وهذا يدلّ على أن السورة نزلت قبل فتح مكة بقليل . وكان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم ، والثبات أمامه ، والتحذير عن الزيغ عن ذلك ، والترغيب فى السخاوة ببذل الأنفس والأموال ، فى سبيل الحق ، لإعلاء شأنه ، وإزهاق الباطل .

و ( أُخْرَىٰ ) مفعول لمقدر معطوف على الجوابين قبله ، وهو جواب ثالث . أى ويؤتكم أخرى أو صفة لمبتدأ مقدّر ، وخبره محذوف ، وهو ( لكم ) . أى ولكم إلى هذه النعمة المذكورة ، نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهى نصر من الله لكم على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم .

« وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بنصره تعالى لهم وفتحه . ومن منع من النحاة عطف الإنشاء

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٧٨ ] .

على الخبر يقول ( وَبَشِّرِ ) معطوف على ( تُؤْمِنُونَ ) ، لأنه بمعنى آمنوا. وضعّف بأن المخاطب بـ ( تُؤْمِنُونَ ) المؤمنون ، و بـ ( بَشِّرِ ) النبيُّ ﷺ . ثم إن ( تُؤْمِنُونَ ) بيان لما قبله ، و ( بَشِّرِ ) لايصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب ( الكشف ) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَـٰٓأَيُّهَا) . وجعل ( بَشِّرِ ) أمراً بمعنى الخبر ، كما فى قوله : أبطئى أو أسرعى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ، قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ، فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به، « كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ؟ » أى من معى وجندى متوجّهاً إلى نصرة الله، « قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ » أى ننصر دينه، ومأمر به، وندعو إليه ، ونضحّى لأجله حياتنا، « فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بعيسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعث به ، وتنشر دعوته ، « وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانىّ لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم. اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرّقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟

قال الشهاب : فـ ( ما ) مصدرية ، وهي مع صلتها ظرف . والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبيّ : من أنصاري إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور في الآخر . وهو كلام حسن . انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٢ - سورة الجمعة

مدنية . وآيها إحدى عشرة .

روى مسلم[١] فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ ( طبعتنا ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ» أى: العرب «رَسُولًا مِنْهُمْ» أى من أنفسهم، أمياً مثلهم، «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أى: مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أى: من خبائث العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أى: القرآن والسنة «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى: جَوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبيّ يرشدهم.

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله. وكذلك أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهى عما يقربهم إلى النار، وسخط الله تعالى. حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، فى الأصول والفروع،

وجمع له تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه مالم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه فى الأميين ، لأنهم أحدُّ الناس أذهاناً ، وأقواهم جناناً ، وأصفاهم فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشى المتحضرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك. وإيثار البعثة فيهم ـ بمعنى إظهارها فيهم ـ لاينافى عموم الرسالة، كما قال سبحانه[1] ( قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ) وقوله[2] ( لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ) وهو ظاهر . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

«وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» معطوف على (الأميين) . يعنى : أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم ، من كل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسره مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازىّ : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى[3] : ( وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) انتهى .

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٥٨ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٩ ] .
(٣) [ ٩ / التوبة / ٧١ ] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : فى الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك فى الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب فى الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التى أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة(١) (وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) فصدق الله العظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » يعنى بعثته تعالى رسولًا فى الأميين ، وفى آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ، بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

«مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا » قال

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٢ ] .

الزمخشري : شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به، ولم يؤمنوا به ـ بالحمار حمل أسفاراً، أي : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ولايدري منها إلا مايمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى ( حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ) كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيّم في ( أعلام الموقعين ) : قاس من حمّله سبحانه كتابَهُ ليؤمن به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبّر ولا تفهّم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه ـ كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدرى ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المَثَل ، وإن كان قد ضُرِب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » أي الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ( قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم ، وينقلكم سريعاً

إلى الآخرة ، فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[٨] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

«وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أي من المعاصي والسيئات والكفر «وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ» أي فيجازيهم على أعمالهم. وتقدم في البقرة نظير الآية(١) ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ...﴾ الآية «قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ» أي تخافون أن تتمنوه بلسانكم، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم «فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أي من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[١٠] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ» أي عند جلوس الإمام

(١) [ ٢ / البقرة / ٩٤ ] .

على المنبر ، لأنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذّن بلال رضى الله عنه « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيع الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » أى أدِّيت وفرغ منها « فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير(١) : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ )

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً » أى عِير تجارة « أَوْ لَهْوًا » أى ماتلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « انفَضُّوا إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يُسبقوا إليها . وإنما أوثر ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ » أى من الثواب المرجوّ بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ » أى لأن الثواب مخلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم ( اللهو ) لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندكم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

## تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) أى إلى ماينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى(١) : (وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله(٢) : (فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً . وبالسبت، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال المهايمىّ فى وجه المناسبة : بيّن تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لئلا تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة، والأذان لها، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

---

(١) [ ٨٧/ الأعلى / ١٧ ] . (٢) [ البقرة / ٩٤ ] .

الثالث : فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لايشرع بعد أدائها صلاة ما. غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها فى فى بيته ركعتين . وفى رواية أربعاً . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتعصب مذهبىّ لا برهان له . وقد قلت فى مقدمة مجموعة الخطب[1] ، فى الفائدة الرابعة ، ما مثاله :

الحاجة فى هذه البلاد فى هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسعهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلًا . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات فى كثير من المساجد الصغيرة التى لم تشيد لمثلها ، قد هول فيه السبكىّ فى فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيتها، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة ( فُعَلَة ) فى اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجوامع الكبار التى تؤمها الأفواج يوم الجمعـــة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاوريها ، هى التى لا خلاف فى جوازها مهما تعددت ، والتى لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناه فى كتابنا ( إصلاح المساجد من البدع والعوائد )[2] .

الرابع ـ يدل قوله تعالى : (وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب فى تعطيل يومى السبت والأحد ، وردّ على ما ابتدع فيه من الوظائف مايدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوىّ ، من خبر قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغلال التى كانت على من قبلنا ، فما بالنا نستجرّها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفراً .

---

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه فى المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ ﻫ .

الخامس ـ قال فى ( الإكليل ) : فى قوله تعالى ( وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة فى الصلاة، وسماعهم الخطبة ، وتحريم الانفضاض . انتهى .

وفى الصحيحين[١] عن جابر قال : قدمت عيرٌ مرةً المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس . وبقى اثنا عشر رجلًا ، فنزلت ( وَإِذَا رَأَوْا . . . ) الآية .

وروى ابن جرير[٢] عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يمرون بالكَبَر والمزامير، ويتركون النبىّ ﷺ قائمًا على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله ( وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وعن مجاهد : اللهو الطبل .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ٣٨ ـ باب إذا نفر الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ ( طبعتنا ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٣ – سورة المنافقون

مدنية وآيها إحدى عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

[٢] ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

« إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ » أى أن الأمر كما قالوه « وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ » أى فى قولهم ( نَشْهَدُ ) وادعائهم فيه مواطأة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا « ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ » أى حَلِفَهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً » أى وقاية من القتل والسبى ، « فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقه « إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى فى اتخاذهم أيمانهم جُنة ، وصدهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : استدل بالآية أبو حنيفة على أن ( أشهد بالله ) يمين ، وإن لم ينو معه ، لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه ( أيمانًا ) انتهى .

قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ غايته أن ماذكره يسمى يمينًا ، وليس الخلاف فى تسميته يمينًا ، وإنما الخلاف : هل يكون يمينًا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل مايسمى حلفًا أو قسمًا يوجب حكمًا . ألا ترى أنه لو قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفًا لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

[٤] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

« ذَٰلِكَ » أى ما نُعى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا۟ » أى سرًّا « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مرنوا عليه من التلوّن والتذبذب ورسوخ الهيآت المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ » أى فى الخلوّ عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعامة لشىء آخر .

قال القاشانىّ : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه ، فاستنطقه لظنه ذكاءه وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أى أجرام خالية عن الأرواح، لا نفع فيها ولا ثمر، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استعداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابتها .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير (١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون، من خبثهم، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كلّ صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحي على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعَطَبِهم .

وقال القاشانيّ : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ » قال القاشانيّ : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أي كيف يصرفون عن الحق، مع وضوح مناره . و ( قاتل ) بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ )

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » أي : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير(١) أي: حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّوْاْ) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها وأكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أي يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أي : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشانيّ : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكمالات البهيمية والسبعية ، فلا يألفون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكمالات الإنسانية ، لمسخ الصورة الذاتية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

«سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ» قال القاشانىّ لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخروجهم عن دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ، وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

« هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ » أى : حتى تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشانىّ : لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله، وبما فى أيديهم عما فى خزائن الله، فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

« وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » أى : من بيده خزائنهما ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى ( هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ . . . ) الخ تعليل لرسوخهم فى الفسق ، لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ) الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هـذه العبارة ، فغيّرها الله إجلالًا لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لمكان غرورهم وجهلهم وشدة ارتيابهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير[١]: عنى بهذه الآيات كلها ـ فيما ذكر ـ عبدالله بن أبىّ ابن سلول. وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ، ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات فى ذلك . وتقدمه الإمام البخارىّ ، فأسندها من طرق . ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق فى غزوة بنى المصطلق : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لقيهم على ماء لهم يقال له ( المريسيع ) وأظفره الله بهم . قال : فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه . فازدحم جهجاه وسنان الجهنىّ حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنىّ :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدَث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله ! ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذِّن بالرحيل ، فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفاً عظيما . فقال من حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ـ حدَبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحتَ فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال: عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ ! قال : فأنت يا رسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا ، ثم مشى رسول صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ، حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ، فى ابن أبيّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هـذا الذى أوفى لله بأذنه اهـ .

وكانت غزاة بنى المصطلق هذه ، فى شعبان سنة خمس ، كما فى ( زاد المعاد ) .

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت فى غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع فى رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائى) أنها غزوة تبوك . ويؤيده قوله فى رواية زهير : فى سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلا، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلًا لم يرتحل منه حتى يصلى فيه . فلما كان غزوة تبوك ، نزل منزلًا ، فقال عبد الله بن أبيّ : فذكر القصة .

والذى عليه أهل المغازى أنها غزوة بنى المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : ( دعه لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ) .

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جدا . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح فى غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى .

وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله ـ أى ابن جبير ـ إن ذلك كان فى غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك ، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان فى غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال الزمخشرىّ: معنى قوله تعالى:( وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ) الخ أى: الغلبة والقوة، ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لافقر معه ؟

وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ؛ أن رجلًا قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازىّ : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكِبْر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمودة . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى[1] ( بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الكبر .

---

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[١١] (وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ، وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ» أى: لايشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده، أو ذكر ماأنزله وأوحى به. ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالى المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» أى المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته، كما قال سبحانه[١] (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ) . «وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ» أى أتصدق وأخرج حقوق مالى «وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا» أى لن يؤخر فى أجل أحد إذا حضر ، ولكن يخترمه .

قال القاشانىّ : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ) إن صدقتم فى الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شىء ، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة فى قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطرىّ بإضاعته فيما يفنى سريعاً ، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة فى أنفسكم ،

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١٩ ] .

وهيأة نورية لها، فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد فى النفس. فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إنفاقه ، وليس له إلا التحسر والتندم ، وتمنى التأخير فى الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً فى دعوى الإيمان ، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضرورىّ ، وأنه مقدر فى وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا يمكن تأخره .

« وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى: بأعمالكم ونياتكم. فلا ينفع الإنفاق فى ذلك الوقت ولا تمنى التأخير فى الأجل ، ووعد التصدق والصلاح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ، ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ، وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المنافية للتصدق والصلاح فى النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى[1] ( وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ) ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهرّاسى: يدلّ قوله تعالى ( وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ... ) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .

وأخرج الترمذىّ[2] عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

---

(١) [ ٦ / الأنعام / ٢٨ ] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦٣ ـ سورة المنافقين، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد،

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٤ — سورة التغابن

مكية ، على ما يظهر من أمثالها لمن سبر . وقيل : مدنية . وآيها ثمان عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )

[٢] ( هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ )

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ» أي ملك السموات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما « وَلَهُ ٱلْحَمْدُ » أي الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ » أي هو الذي انفرد بإيجادكم في أحسن تقويم ، قابل للكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر ، جاحد للحق ، كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته . ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسبما تقتضيه خلقته . وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم . فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر ، لأنه الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ ـ أفاده أبو السعود ـ « وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فيجازيكم به ، فآثروا مايجديكم ، وجانبوا مايرديكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة التى ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » أى حيث برأكم فى أحسن تقويم . وذلك أنه تعالى جعل الإنسان معتدل القامة على أعدل الأمزجة . وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف فى المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات « وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى مرجعكم للجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

«يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بخفاياها ، وما تنطوى عليه . وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه . لأنه إذا علم السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشرىّ : نبه بعلمه ما فى السموات والأرض ، ثم بعلمه مايسرّه العباد ويعلنونه، ثم بعلمه ذوات الصدور، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه؛ فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شىء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، فى معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى : ( فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ) كما ترى ، فى معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ، وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى معشر الكفرة الفجرة « نَبَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ » أى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط «فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ» من عذاب الاستئصال . و (الوبال) الثقل ، والشدة المترتبة على أمر من الأمور . و ( أمرهم ) كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيذان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا » أى ذلك المذكور من ذوقهم وبال أمرهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهدوننا ؟

قال ابن جرير[1] : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن اتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه . وجمع الخبر عن البشر فقيل (يهدوننا) ، ولم يقل ( يهدينا ) ، لأن ( البشر ) وإن كان فى لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى .

وقال القاشانىّ . لما حجبوا بصفات نفوسهم عن النور الذى هو به يفضل عليهم بما لا يقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته . فإن كل عارف لا يعرف معروفه إلا بالمعنى الذى فيه ، فلا يوجد النور الكمالىّ إلا بالنور الفطرىّ ، ولا يعرف الكمال إلا الكامل ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢١ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله . وكل طالب وجد مطلوبه بوجهٍ ما دالًا لما أمكن به التوجه نحوه . وكذا كل مصدق بشيء ، فإنه واجد للمعنى المصدق به، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطريّ أصلًا ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

« فَكَفَرُواْ » أي : بالحق والدين والرسول « وَتَوَلَّواْ » أي عن التدبر في الآيات البينات ، « وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ » أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك . فـ ( استغنى ) معطوف على ماقبله ، وجوز جعله حالًا بتقدير ( قد ) . أي : وقد استغنى بكماله ، عرفوا أو لم يعرفوا .

« وَٱللَّهُ غَنِيٌّ » أي : بذاته عن العالمين، فضلًا عن إيمانهم، لايتوقف كمال من كمالاته عليهم ، ولا على معرفتهم له . « حَمِيدٌ » أي: يحمده كل مخلوق، أو مستحق للحمد بنفسه، وإن لم يحمده حامد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ )

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ » أي من قبوركم «ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » أي في الدنيا « وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أي هين لقبول المادة، وثبوت القدرة الكاملة .

قال ابن كثير: وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل، على وقوع المعاد ووجوده . فالأولى في يونس[١] : ( وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ) والثانية في سبأ[٢]: ( وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) والثالثة هذه الآية .

---

(١) [ ١٠ / يونس / ٥٣ ] . (٢) [ ٣٤ / سبأ / ٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )

« فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله وحده وبرسوله فيما يخبركم به من البعث والجزاء وغيره « وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا » يعنى القرآن الحكيم. والالتفات إلى نور العظمة ، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال « وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ )

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ » ظرف لـ ( لَتُنَبَّؤُنَّ ) أو لـ ( خَبِيرٌ ) لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ ( اذكر ) « لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ » أى ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء « ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ » قال الزمخشرىّ : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن . انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، ورود البيع والاشتراء فى حق الفريقين. فذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى، وذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، فكأنهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال[1] ( هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ ... ) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة . فخسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

(١) [ ٦١ / الصف / ١٠ ] .

وقال القاشانيّ : أي ليس التغابن في الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شيء منها لأحد . فإن فات شيء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أُفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن في إفاتة شيء لو لم يفته لبقي دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكماليّ والاستعداديّ ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، في إضاعة الربح ورأس المال في تجارة الفوز والنجاة ، كما قال[1] (فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ) فمن أضاع استعداده ونور فطرته ، كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقي في الظلمة . ومن بقي نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذي يقتضيه استعداده ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكامل التام ، فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه ، وبقي هذا متحيراً في نقصانه . انتهى « وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[١١] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أي بقدره ومشيئته ، كقوله في آية الحديد[2] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ

(١) [ ٢ / البقرة / ١٦ ] . (٢) [ ٥٧ / الحديد / ٢٢ ] .

أن نبرأها ) . « وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » أى إلى العمل بمقتضى إيمانه، ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير . «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فيعلم مراتب إيمانكم، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتها ، وخلوصها من الآفات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ )

[١٣] ( اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ )

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى لما أرسل به ، والله سبحانه ولىّ الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال ابن كثير: الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب . أى وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه، كما قال(١) (رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » خطاب لمن آمن بالنبىّ ﷺ ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم، ويؤذيهم بسببه . فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم . فأمروا بالحذر من فتنتهم

(١) [ ٧٣ / المزمل / ٩ ] .

وشر كهم فحسب ، وأن يظهروا فيهم بمظهر أولى الفضل. كما قال : « وَإِن تَعْفُواْ » أى: عن ذنوبهم ، « وَتَصْفَحُواْ » أى : بترك التثريب والتعيير « وَتَغْفِرُواْ » أى جناياتهم بالرحمة لهم ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى يعاملكم بمثل ماعملتم .

روى ابن جرير[1] عن إسماعيل بن أبي خالد قال : كان الرجل يُسلم فيلومه أهله وبنوه ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس[2] قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك ، فقال الله : إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا ، وامضوا لشأنكم . فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط ، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليعاقبن أهله فى ذلك ، فقال الله جل ثناؤه: ( وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ ) ، الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ )

« إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ » أى : تفتتن بهما النفس، ويجرى عليها البلاء بهما ، إذا أوثرا على محبة الحق .

« وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما .

روى ابن جرير[3] عن الضحاك قال : هذا فى أناس من قبائل العرب. كان يسلم الرجل أو النفر من الحىّ ، فيخرجون من عشائرهم ، ويَدَعُون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم فيناشدونهم الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٦ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أن لايفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرقّ ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضى حتى يلحق بنبىّ الله ﷺ .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه به . فلذلك وعد فى إيثار طاعة الله، وأداء حق الله فى الأموال، الأجر العظيم، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

« فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » أى جهدكم ووسعكم ، أى ابذلوا فيها استطاعتكم ، « وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ » أى افهموا هذه الأوامر واعملوا بها « وَأَنفِقُواْ » أىأموالكم التى ابتلاكم الله بها فى مراضيه « خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ » أى وائتوا خيراً لأنفسكم . أى اقصدوا فى الأموال والأولاد ماهو خير لكم . ف (خيراً) مفعول بمقدر ، وهذا قول سيبويه ، كقوله تعالى[١] ( ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ) وقيل: تقديره يكن الإنفاق خيراً، فهوخبر ( يكن ) مضمراً، وهو قول أبى عبيد . وقيل: مفعول لـ ( أنفقوا ) وهو رأى[٢] ابن جرير . قال : أى وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب الله، والخير فى هذا الموضع ، المال « وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ » أى بالعصمة منه « فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم .

---

(١) [ ٤ / النساء / ١٧١ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ )

[١٨] ( عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ )

« إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » أى بالإنفاق فى سبيله، مما تحبون من غير منّ ولا أذى. قال الزمخشرىّ : ذكر ( القرض ) تلطف فى الاستدعاء « يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ » أى يضاعف جزاءه وخلفه « وَيَغْفِرْ لَكُمْ » أى ذنوبكم بالصفح عنها « وَٱللَّهُ شَكُورٌ » أى ذو شكر لأهل الإنفاق فى سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا « حَلِيمٌ » أى عن أهل معاصيه، بترك معاجلتهم بعقوبته. « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ » أى ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه « ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه « ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٥ — سورة الطلاق

قال المهايميّ : سميت به لبيانها كيفية الطلاق السنّيّ ، وما يترتب على الطلاق من العِدَّة والنفقة والسكنى .

وتسمّى سورة النساء القُصْرَى . مدنية . وآيها اثنتا عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » أى فى وقتها ، وهو الطُّهْر . فاللام للتأقيت .

وقال الناصر : جعلت العدة ، وإن كان فى الأصل مصدراً ، ظرفاً للطلاق المأمور به . وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً ، مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فالطهر عدة إذًا .

قال ابن جرير[١] : أى إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذى يحصينه من عدتهن طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهن بحيضهن الذى لايعتددن به من قُرْئهن . ثم روى عن قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنّة ، وطلاق بدعة . فطلاق السّنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملًا قد استبان حملها . والبدعيّ هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنّة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وسيأتى فى التنبيهات زيادة على هذا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ » أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء « وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ » أى : اتقوه فى تعدّى حدوده فى المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التى كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكراهة لمساكنتهن ، لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضى عدتهن .

« وَلَا يَخْرُجْنَ » أى : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى ( وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ) توطئة لقوله ( لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

« إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ » أى : فإنهن يخرجن . و (الفاحشة) الزنا ، أو أن تبذو المطلقة على أهلها ، أو هى كل أمر قبيح تعدّى فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقة والبذاء على الأحماء ونحوها ، والأخير مختار ابن جرير ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ » أى : بتعريضها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضرّ بها بما اكتسب من قوة النفار ، وشدة البغضة التى قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأَوْلى تخفيف الشنآن ، وتلافى الهجران ـ وهو الأظهر ـ ولذا قال سبحانه : « لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا » فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود : وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى ، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه ، فلابد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوىّ يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه . أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوىّ والأخروىّ . ويخص التعليل بالدنيوىّ لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى ( لَا تَدْرِى ) خطاب للمتعدى بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى ، لا للنبىّ ﷺ ، كما توهم ، فالمعنى : ومن يتعد حدد الله فقد أضرّ بنفسه ، فإنك

لاتدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث فى قلبك، بعد ذلك الذى فعلت من التعدى، أمراً يقتضى خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ويتسنى تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

## تنبيهات :

الأول ـ قال فى ( الإكليل ) : فسر النبى ﷺ قوله تعالى ( لِعِدَّتِهِنَّ ) بأن تطلق فى طهر لم يجامع فيه ـ أخرجه البخارىّ ومسلم[1] ـ وفى لفظ مسلم[2] أنه قرأ ( فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن ) ، فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ما ذكر ، وأن الطلاق فى الحيض أو طهر جومعت فيه بدعىّ حرام . واستدل قوم بالآية على عدم وقوعه فى الحيض .

الثانى ـ فى ( الإكليل ) : فى قوله تعالى ( لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ) وجوب السكنى لها مادامت فى العدة، وتحريم إخراجها وخروجها ( إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ) كسوء الخلق ، والبذاءة على أحمائها . فتنتقل .

الثالث ـ فى ( الإكليل ) : استدل بقوله تعالى ( لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ) من لم يوجب السكنى بغير الرجعة. أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وعكرمة قال: المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها ، لاسكنى لها ولا نفقة، لقوله: ( لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ) فما يحدث بعد الثلاث .

الرابع ـ قال ابن المنذر : أباح الله الطلاق بطليعة هذه السورة . انتهى .

وذلك ـ كما قال بعض الحكماء ـ إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق فى الإمكان

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١ ـ باب قول الله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ، حديث رقم ٢٠٦٠ ، عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١ ـ ١٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٤ ( طبعتنا ) .

إصـــلاح ، وصمم الزوج عليه ، لأن وجود شخصين متنافرى الطباع ، متباغضين ، لاينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ فى نفسه بالنفور ، وفى قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما فى أذى صاحبه ـ شرٌ وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم فى ( إغاثة اللهفان ) : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بمفارقة طاعة الله بالنكاح الذى هو واجب أو مستحب ، وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفاسد الطلاق ؛ وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة، وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طلقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها . فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها . فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها . وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فنكحت من شاءت .

وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذى شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن فى إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضى بالفسخ والافتداء . فإذا طلقها مرة بعد مرة بقى له طلقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبه يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

ومباحث الطلاق وفروعه تجدر مراجعتها من (إغاثة اللهفان) و ( زاد المعاد ) لابن القيم ، و ( فتاوى ابن تيمية ) شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه وجاهدا فى الصدع به ، فاته علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس ـ استدل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق فى دفعة واحدة غير مشروع.

قال الإمام ابن القيّم فى ( إغاثة اللفهان ) : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

أحدها ـ أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أى لاستقبال عدتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعها فى العدة ، ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، لما طلق امرأته ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق فى قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى فى ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ، لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها . وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون: المراد بالطلاق للعدة ، الطلاق لاستقبالها، كما فى القراءة الأخرى التى تفسر القراءة المشهورة ( فطلقوهن فى قبل عدتهن ) قالوا فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فأن لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى. فإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف فى الأطهار من لا يجوّز الجمع فى الطهر الواحد.

وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادّها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) ، فما أجد لك مخرجاً . عصيتَ ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن ) . وهذا حديث صحيح[1] .ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم، وهذا فَهْمُ مَنْ دعاله

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

النبيّ ﷺ أن يفقّهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهوم كما تقرر .

الوجه الثانى : من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ) وهذا إنما هو فى الطلاق الرجعىّ ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله ﷺ الصحيحة التى لا يُطعن فى صحتها ، الصريحة التى لا شبهة فى دلالتها ، فدل على أن هذا حكم كلّ طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله . ولهذا قال الجمهور : إنه لا يُشرع له ، ولا يملك إبانتها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ، لأن الرجعة حقه ، وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له ، فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث : أنه قال : (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله ، فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال : ( لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) وقد فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر ههنا هو الرجعة . قالوا : وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس ـ قوله تعالى : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ) فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن ) كما تقدم ـ وهذا حق ، فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق فى طهر أو أطهار ، قبل رجعة أو عقد ـ كما تقدم ـ لأنه يكون مطلقاً فى غير قبل العدة ـ فلأنْ تدل على تحريم الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة ، لئلا يتسارع العبد فى وقوعه ومفارقة حبيبه ، وقد وقَّت للعدة أجلًا لاستدراك ألفاظه بالرجعة ،

فلم يبح له أن يطلق المرأة فى حال حيضها ، لأنه وقت نفرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهد فى إمساكها لقضاء وطره، فإذا طلقها فى هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا، مع مافى الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولدٍ منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ، ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها فى هذه الحالة إلا لحاجة إليه . فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا فى هذه الحال ، أوفى حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها فى هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبيّ ﷺ هـذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن يطلق فى الطهر الذى يلى الحيضة التى طلق فيها، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، إن بداله أن يطلقها فليطلقها. وفى ذلك عدة حكم :

منها ـ أن الطهر المتصل بالحيضة، هو وهى حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها فى ذلك الطهر، فكأنه طلقها فى الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشىء الواحد .

الثانية ـ أنه لو أذن له فى طلاقها فى ذلك الطهر، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق، وهذا ضد مقصود الرجعة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمنفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجعة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى فى شرعه ودينه .

الثالثة : أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، زال مافى نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هـذا الوجه الذى هو أبعد شىء عن الندم ، فكيف يليق

بشرعه أن يشرع إبانتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع فى حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟

فهذه الوجوه ونحوها مما بيّن بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هى بعينها تعيّن عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهى الواحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا )

« فَإِذَا بَلَغْنَ » أى : المطلقات اللواتى فى عدة « أَجَلَهُنَّ » يعنى آخر العدة . أى : إذا قرب انقضاؤه وشارفنه « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى. فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق التى أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة « أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى : اتركوهن حتى تنقضى عددهن فيبنّ منكم بمعروف ، وهو إيفاؤهن مالهن من حق ، كالصداق والمتعة ، على ما أوجب عليه لهن .

« وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ » أى: أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضى دينهما وأمانتهما .

قال ابن عباس : فإن راجعها فهى عنده على تطليقتين . وإن لم يراجعها ، فإذا انقضت عدتها ، فقد بانت منه بواحدة ، وهى أملك بنفسها ، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ، ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها ، وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر فى الآية الوجوب فيهما ، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر فى الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً ، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره ، فبقى

كسابقه ولاحقه ، وإن كان القرآن لايفيد المشاركة فى الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق ، يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر ، كله مما لا يعدّ طلاقاً فى الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لابد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتهيأ له . وجدير بعصمة ينوى حلها ، وكانت معقودة أوثق عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكَمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم . فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزمخشريّ : قيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

« وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّـهِ » أى : لوجهه خالصاً، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق، ودفع الظلم، كقوله تعالى[1]. ( كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّـهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ) انتهى.

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّـهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ » فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما فى الآية .

« وَمَن يَتَّقِ ٱللَّـهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ، قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا )

« وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » قال الزمخشرىّ : يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم .

(١) [ ٤ / النساء / ١٣٥ ] .

ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلّق للسنّة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما فى شأن الأزواج من الغموم، والوقوع فى المضايق، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص، ويرزقه من وجه لايخطره بباله ولا يحتسبه ، إنأوفى المهر وأدّى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : ( ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ ) يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن الفرَسِ : قال أكثر المفسرين: معنى الآية فى الطلاق أى: من لايتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم فى الرجعة. قال: وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت ـ نقله فى ( الإكليل ) .

وقال ابن القيم فى (الإغاثة) : اعلم أنه من اتقى الله فى طلاقه ، فطلّق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه عن الحيل كلها . ولهذا قال تعالى ، بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : ( وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ) . فلو اتقى اللهَ عامةُ المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذى شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها ، فإن بداله أن يمسكها فى العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها، أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل . ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إنى طلقت امرأتى ألفاً . فقال : أما ثلاث ، فتحرم عليك امرأتك ، وبقيتهن وزر ، اتخذت آيات الله هزؤًا .

وقال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت

حتى ظننت أنه رادّها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة، ثم يقول: ياابن عباس! يا ابن عباس! وإن الله تعالى قال: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك ـ ذكره أبو داود[1] ـ والبحث طويل الذيل لا يستغنى عن مراجعته.

«وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ» أى من يتوكل على ما شرعه، ويفوّض أمره إلى ماجعله المخرج، فهو كافيه، لأنه لا دواء أنجع منه «إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ» قرىء بالإضافة، أى يبلغ ما أراد من أمره، فمن تيقن ذلك فوض أمره إليه، وعول عليه. وقرئ (إن الله بالغٌ أمرُه) أى تام وكامل أمره وحكمه وشرعه، لما فيه من الحكم والرحمة. «قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا» أى حدًّا وتقديراً، حسبما تقتضيه الحكمة. ومنه تقديره ما قدر فى أمر الطلاق، مما بينه فى شأنه وتوقيته، ومعرفة المخرج منه.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ، وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا)

«وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» أى أشكل عليكم حكمهن، أو شككتم فى الدم الذى يظهر منهن لكبرهن، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة؟ «فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ» أى من الجوارى لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول، فعدّتهن ثلاثة أشهر. فحذف لدلالة المذكور عليه «وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ

---

[1] أخرجه أبو داود فى: ١٣ ـ كتاب الطلاق، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث، حديث رقم ٢١٩٧.

أَجَلُهُنَّ» فى انقضاء عِدَدهن «أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أى ما فى بطنهن . والآية عامة فى المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن علىّ وابن عباس رضي الله عنهما أن الآية خاصة فى المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدتها آخر الأجلين .

قال ابن جرير(١) : والصواب أنه عام فى جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عَمَّ القول بذلك ، ولم يخصص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر فى أحكام المطلقات . يجاب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عِدَد جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفى الصحيحين(٢) عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

«وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ» أى فلم يخالف إذنه فى طلاق امرأته «يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا» وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عدتها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته نفسه إليها بسبب التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا)

«ذَٰلِكَ» أى ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة «أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ»

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٩ ـ باب وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث رقم ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

أى لتأتمروا له وتعملوا به . «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا» أى بالمضاعفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ، وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ، وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ)

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ » أى من سعتكم التى تجدون، وطاقتكم ومقدرتكم « وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ » أى لا تستعملوا معهن الضرار « لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ » أى فى المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو بشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ): فى الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن ، وللبوائن ، لتقدم سكنى الرجعيات ، ولقوله بعده ( وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ) فإنه خاص بالبوائن . وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج ، وتحريم المضارة بها ، وإلجائها إلى الخروج . « وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » قال ابن جرير[١] أى وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل ، وكن بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن فى عدتهن منكم حتى يضعن حملهن .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

فعن ابن عباس فى الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبتّ طلاقها وهى حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تفطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بها حبل ، فلها السكنى حتى تنقضى عدتها ، ولا نفقة . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملا أنفق عليها من نصيب ذى بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها ، كما قال الله عز وجل[١] : (وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ) . فإن لم تكن حاملا فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير[٢] : وقال آخرون عنى بقوله : (وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ) كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك . وممن قال ذلك عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما .

فعن إبراهيم قال : كان عُمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتعة . وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبى ﷺ أمرها أن تعتد فى غير بيت زوجها . قال : ما كنا لنجيز فى ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير[٣] : والصواب من القول فى ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملا ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله : ( وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ ) للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن ، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل فى الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر فى هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن فى ذلك سواء . وفى خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدلّ الدليل على أن لا نفقة لبائن ، إلا أن تكون حاملاً . وبالذى قلنا صح الخبر عن رسول الله ﷺ .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثتنى فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٣٣ ] .
(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أن أبا عمرو المخزومىّ طلقها ثلاثاً، فأمر لها بنفقة فاستقلتها . وكان رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن . فانطلق خالد بن الوليد فى نفر من بنى مخزوم إلى رسول الله ﷺ وهو عند ميمونة ، فقال : يارسول الله ! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثاً، فهل لها من نفقة ؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس لها نفقة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن انتقلى إلى بيت أم شريك ، وأرسل إليها أن لاتسبقينى بنفسك . ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون ، فانتقلى إلى ابن مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك . فزوجها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد . انتهى .

وقال الناصر فى ( الانتصاف ) : لا يخفى على المتأمل لهذه الآى أن المبتوتة غير الحامل ، لا نفقة لها ، لأن الآى سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ، ولم يوجب سواها . ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن . وليس بعد هذا البيان بيان . والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة ، حاملًا أو غير حامل، لايخفى منافرته لنظم الآية . والزمخشرىّ نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر أن الحمل ربما طال أمده ، فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله فخصت بالذكر تنبيهاً على قطع هذا الوهم . وغرض الزمخشرىّ بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة كيلا يكون له مفهوم فى إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع فى وجوب النفقة . انتهى .

وفى ( الإكليل ) : فى الآية وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضى عدتها . ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها . واستدل بعموم الآية من أوجبها للحامل المتوفى عنها . انتهى .

« فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ » يعنى : نساءكم البوائن منكم « فَئَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » أى : على رضاعهن « وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ » أى ليقبل بعضكم من بعض ما أمر به من معروف ، ، يعنى : المجاملة والمسامحة فى الإرضاع والأجر . والخطاب للآباء والأمهات .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلْكِيَا : وفيها دلالة على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .

وفى قوله : ( بمعروف ) طلب أن لا يماكس الأب ، ولاتعاسر الأم ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفى وجوب الإشفاق عليه ـ قال الزمخشرىّ ـ .

« وَإِن تَعَاسَرْتُمْ » أى ضيّق بعضكم على الآخر بالمشاحّة فى الأجرة ، أو طلب الزيادة ونحوه ، « فَسَتُرْضِعُ لَهُو أُخْرَىٰ » قال ابن جرير[1] : أى فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولـكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه .

وقال الزمخشرىّ : أى فستوجد ، ولاتعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متموّل ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصاً فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة . فالأم ، إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . انتهى .

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضا ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاسرته لاتجدى ، إذ لابد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان فى حكم المعاتب المذكور فى الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاسرة فعل الأب والأم ، فـكيف يخص الأم بالذكر فى الجزاء . وحاصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

تنبيه :

في ( الإكليل ) : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها، وقبل الصبيّ ثديها . وإلا أجبرت عليه .

قال ابن العربيّ : والآية أصل في وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا، سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا )

« لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ » أي من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ » أي ضيق عليه « فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ » أي على قدر ماله وطاقته «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا» يعني: وسعها وطاقتها، فلا يكلف الفقير نفقة الغنيّ ، ولا أحداً إلا فرضه الذي وجب عليه «سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » أي سيؤتي المقلّ بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلية للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبير لمطلقاتهن ، وتطييب لقلوب الجميع ، وتبشّر عام .

تنبيه :

في ( الإكليل ) : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر، لا حال المنفق عليه. واستدل بقوله ( لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا) من قال : لا فسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة. وفي الآية استحباب مراعاة الإنسان نفسه في النفقة والصدقة . ففي الحديث : إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر .

روى ابن جرير[١] أن عمر بن الخطاب سأل عن أبى عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخـــذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تأول هذه الآية ( لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ » .

ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدى حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا )

[٩] ( فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا )

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا » أى أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ، « وَرُسُلِهِۦ » أى وعن أمر رسله كذلك « فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا » أى على ماقدمت ، فلم نغادر لها منه شيئاً « وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » أى عاقبة ما اكتسبت وجزاءه « وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » قال ابن جرير[٢] : أى غبناً ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[١٠] (أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » يعنى عذاب النار المعدّ فى القيامة « فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى العقول « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى صدقوا الله ورسله. نعت للمنادى، أو عطف بيان له «قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا)

«رَّسُولًا » يعنى محمداً ﷺ، وجعله نفس الذكر مبالغة، لذلك أبدل منه « يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ» أى لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله « لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ» أى من الضلال إلى الهدى «وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا » أى طيّبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » أى : المعبود المستحق للعبادة ، مَن هذا خلقه . لا ما يشرك معه . وههنا .

## لطائف

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : قيل ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسموات ، فهو أمر نجهله ولا نفهمه إلا إذا أريد به أن للأرض سبع طبقات . قال: والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، هو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد فى القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً ـ أى أرضين ـ ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السموات سبع، مراراً عديدة وفى كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وهى الآية الوحيدة التى فهموا منها أن الأرضين سبع . وهى كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .

قال : ولنا فى تفسيرها وجهان :

إما أن تكون ( مِن ) فى قوله تعالى ( وَمِنَ ٱلْأَرْضِ ) زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة .

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى : أنها إحدى السيارات، وهو أمر ما كان معروفاً فى زمن النبىّ ﷺ ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن. والأرض مثل السيارات الأخرى فى المادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى، وكونها كروية الشكل. فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ،

وهى مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة . قال الله تعالى[1] ( أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا » أى شيئاً واحداً ( فَفَتَقْنَٰهُمَا ) أى فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السموات تماماً .

وأما على الوجه الثانى : وهو أن ( مِنْ ) غير زائدة، فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لى سبعة أصدقاء ، ولى من فلان صديق مثلهم. أى مثلهم فى الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن فى مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس فى القرآن الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى.

الثانية ـ ذكر ابن الأثير فى ( المثل السائر ) فى النوع السادس، فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها فى الحسن فيه ، ما مثاله :

وفى صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة . جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ( وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ) فى قوله تعالى : ( ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ) . انتهى .

الثالثة ـ قرئ ( مِثْلَهُنَّ ) بالنصب ، عطفاً على (سبع ) وبالرفع على الابتداء ، وخبره ( من الأرض ) .

« يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن . وقوله: « لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا » علة لـ ( خلق ) أو لـ ( يتنزل ) أو لمضمر يعمهما ، كفعَلَ ما فعل لتعلموا . . . الخ ، فإن كلًّا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٠ ] .

قال ابن جرير[1] : أى نخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته . فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خافٍ ، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٥ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٦ ـ سورة التحريم

مدنية ، وآيها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » . قال المهايمىّ : ناداه ليُقْبِل إليه بالكلية ، ويُدْبِر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبّر عنه بالمبهم إشعارًا منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لايعلم كنهه . وأتى بلفظ ( ٱلنَّبِىُّ ) إشعارًا بأنه الذى نبىء بأسرار التحليل والتحريم الإلٰهىّ . والمراد بتحريمه ما أحلّ له ، امتناعه منه ، وحظره إيَّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح . وإنما قيل له ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ) رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتنويهاً لقدره ولمنصبه ﷺ ، أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيّه ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خُلقوا ، ليظهر الله كمال نبوّته ، بظهور نقصانهم عنه ـ كما أفاده الناصر ـ .

## تنبيهان :

الأول : للأثريين فى هذا الذى حرمه ، صلوات الله عليه ، على نفسه ، روايات .

فروى البخارىّ ومسلم(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلًا عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، حديث رقم ٢٠٦٣

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢٠ ( طبعتنا ) .

فلتقل له : إنى أجد منك ريح مغافير، أكلتَ مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال: بل شربت عسلًا عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له، وقد حلفتُ ! لا تخبرى بذلك أحداً ، فنزلت الآية .

وروى الشيخان[1] أيضاً عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه، فيدنو من كل واحدة منهن . فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس . فسألتُ عن ذلك ، فقيل لى : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة ، فقلت : والله لنحتالنّ له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقولى له : يارسول الله ! أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقولى له : وما هـذه الريح ؟ وكان ﷺ يكره أن يوجد منه الريح الكريه ! فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل ، فقولى له : أكلت نحله العرفطَ ، حتى صار فيه ـ أى فى العسل ـ ذلك الريح الكريه . وإذا دخل علىّ فسأقول له ذلك . وقولى أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابها بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك . فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك . فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يارسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال . لا حاجة لى به ! قالت : إن سودة تقول : سبحان الله، لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتى!

و ( المغافير ) صمغ حلوٌ له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له ( العرفط ) بضم العين المهملة والفاء .

وفى هذه الرواية أن التى شرب عندها العسل حفصة ، وفى سابقتها أنها زينب . والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٨ ـ باب لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث رقم ٢٠٦٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢١ ( طبعتنا ) .

وروى ابن جرير[1] عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتى النبىّ ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبىّ ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه فى بيت حفصة ، وكان اليوم الذى يأتى فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها فى بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك، والله لقد سؤتنى ! فقال النبىّ ﷺ : والله لأرضينك ، فإنى مسرّ إليك سرًّا فاحفظيه ! قالت : ما هو ؟ قال : إنى أشهدك أن سريتى هذه علىّ حرام ، رضا لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبىّ ﷺ . فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشرى ، إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسر النبىّ ﷺ ، أظهر الله عز وجل النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ . . . ) الآيات .

وروى أيضاً[2] عن الضحاك قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتمى علىّ ، ولا تذكرى لعائشة ما رأيتِ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة، فلم تزل بنبىّ الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفر يمينه ويأتى جاريته .

وروى النسائىّ عن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرمها ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجح ابن جرير أحد السببين المرويين فى نزولها على الآخر، بل وقف على إجمال الآية، على عادته فى أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذى حرمه النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

على نفسه شيئا كان الله قد أحله له . وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شرابا من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك . غير أنه ، أى ذلك كان، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبين له تحلة يمينه . انتهى .

والذى يظهر لى ، هو ترجيح روايات تحريم الجارية فى سبب نزولها ، وذلك لوجوه :

منها ـ أن مثله يبتغى به مرضاة الضرات ، ويهتم به لهن .

ومنها ـ أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لايشرب به أنفة من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لاتحدث صاحبته به شفقة عليها . إلا أن يكنّ عاتبنه فى ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فحرمه . ولكن ليس فى الرواية مايشعر به . وما زاد على ذلك فمن اجتهاد الرواة .

ومنها ـ أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن فى المظاهرة عليه ، وإيعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستبدال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهراءه مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيما دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روى فى شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على مايقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية . هذا ما ظهر لى الآن .

وأما تخريج رواية العسل فى هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف فى قولهم : نزلت فى كذا، كما نبهنا عليه مراراً . وكأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواة بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا مانع من العود إلى شربه ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى ( الإكليل ) : استدل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أو زوجة، لم تحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاريّ [١] عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفِّر . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير [٢] إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرده يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين فى عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرمها ، يعنى جاريته ، فكانت يميناً ـ رواه ابن جرير ـ وسيأتى ما يؤيده . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢] ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ، وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ )

« قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ » أى : شرع تحليلها ـ وهو حل ما عقدته ـ بالكفارة . والتحلة ، مصدر بمعنى التحليل . « وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ » أى : متولى أموركم « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ » أى بمصالحكم « ٱلْحَكِيمُ » أى : فى تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به .

تنبيهات

الأول : قال ابن قدامة فى ( الروضة ) . دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه فى تحريم ما أحل له قال عقيبه : ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يا أيها النبيّ لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث ٢٠٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٨ ( طبعتنا ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

أَيْمَـٰنِكُمْ ) وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تمّمَهُ بلفظ الجمع بقوله : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ) . والمسألة طويلة الذيل فى الأصول .

الثانى ـ قال تقىّ الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حللت الشىء تحليلا وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمة ، وهذا المصدر يسمى به المحلل نفسه، الذى هو الكفارة . فإن أريد المصدر ، فالمعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذى هو خلاف العقد .

ولهذا استدل مَن استدل من أصحابنا وغيرهم كأبى بكر عبدالعزيز، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ،لأن التحلة لا تكون بعد الحنث، فإنه بالحنث ينحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين من وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التى جعلها بدلًا من الوفاء فى جملة ما رفعه عنها من الآصار .

الثالث ـ شمل قوله تعالى ( أَيْمَـٰنِكُمْ ) تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة، لدخوله فيه دخولًا أوليًّا ، بل كل يمين .

قال تقىّ الدين ابن تيمية فى فتاويه : قوله تعالى (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) نصٌّ عام فى كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة ، بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبىّ ﷺ ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم تخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً معنوياً ، مع عمومه اللفظىّ ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل . فشرعُ التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود فى اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه فى غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن النفس ، أو ليقطعن رحمه ، أو ليمنعن الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ،

أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرضة . ثم إن وفى بيمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه. وإن طلق امرأته، ففى الطلاق أيضاً من ضرر الدين والدنيا ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال : ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) وذلك يقتضى أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضى ثبوت ذلك التحريم ، لأن قوله لأى شيء استفهام فى معنى النفى والإنكار . والتقدير : لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم . فلو كان الحالف بالنذر والعتاق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لكان هنا سبب يقتضى تحريم الحلال ، ولا يبقى موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

ومما يوضح عمومه أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق فى عموم حديث(١) : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعتاق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعىّ وأحمد ومن وافقهما فى مسألة نذر اللجاج والغضب. فإنهم احتجوا على التكفير فيه بهذه الآية ، وجعلوا قوله (تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) كفارة أيمانكم عامًّا فى اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب فى الحج والعتق ونحوهما ، سواء .

فإلى قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة فى قوله(٢) ( عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ) و ( تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ) منصرفاً إلى اليمين المعهودة عليهم ، وهى اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور، ٩ ـ باب الاستثناء فى اليمين، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

(٢) [ ٥ / المائدة / ٨٩ ] .

إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم ، ولو كان اللفظ عامًّا ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بالمخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة، لقوله[1]: مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ . وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة، فلا كفارة لها ولا حنث .

فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبيّ ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين في هذا كله ، كقوله ﷺ : النذر حلف . وقول الصحابة لمن حلف بالهدى بالعتق : كفر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبيّ ﷺ . ولإدخال العلماء ذلك في قوله ﷺ[2] : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . ويدل على عمومه في الآية أنه سبحانه قال : ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ) ثم قال : ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ) فاقتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدل به ابن عباس .

وسبب نزول الآية إما تحريمه العسل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله . ولهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس وغيرهم؛ أن تحريم الحلال يمين مكفرة، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله. وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً.

وأيضاً فإن قوله ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ) إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقاً. فإن أريد الأول والثالث، فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى ، ثم فيعم . وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمى الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية. لكن لما أوجبت

(١) أخرجه البخاريّ في ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٤ ـ باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأوّلا ، حديث رقم ١٢٩٨ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود في ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور . ٩ ـ باب الاستثناء في اليمين، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

امتناع الحالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطيًّا ، لاشرعيًّا . فكلٌّ يوجب امتناعه من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل فى قوة قوله: « لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ » وحينئذ فقوله : ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ) لابد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلابد أن يطابق صوره ، لأن تحريم الحلال هو سبب قوله : ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ) وسبب الجواب إذا كان عامًّا كان الجواب عامًّا ، لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضى للتعميم .

وقال الإمام ابن القيم فى ( زاد المعاد ) الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها . فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله : ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ) . وهذا صريح فى أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصا به ، وإما شاملاً له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة فى السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم ، كالمنع منه باليمين ، بل أقوى . فإن اليمين، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره ، فإنه إذا شرع حلالًا فحرمه المكلف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ماشرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنث فى اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جدًّا ، فإن الحنث إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لعباده الحنث مع الكفارة .

وأخبر النبىّ ﷺ (١) أنه إذا حلف على يمين، ورأى غيرها خيراً منها كفر عن يمينه، وأتى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور، ١٨ ـ باب اليمين فيما لايملك وفى المعصية وفى الغضب ، حديث ١٤٧٦ ، عن أبى موسى الأشعرىّ . ونصه : أتيت =

المحلوف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى، لم يبح في شريعة قط، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة . وهي تفعلة من ( الحل ) ، فهي تحل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم . وظهر سر قوله تعالى : ( قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ) ، عقيب قوله : ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ) .

وقال رحمه الله فيه ، قبلُ : أما من قال إنه يمين مكفرة بكل حال ، فمأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ... ) الآية . ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلًا تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العامّ ، ممتنع قطعاً ، إذ هو المقصود بالبيان أولًا ، فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال في غاية القوة . فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى في الزوجة ، كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفّر .

وقال رحمه الله في ( أعلام الموقعين ) : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمه لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالمخلوق التي لا تنعقد ، ولا هي من لغو اليمين ، وهي يمين منعقدة ، ففيها كفارة يمين .

ثم قال في المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال . صح ذلك أيضاً عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبيّ وسعيد ابن المسيّب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعيّ وأبي ثور ، وخلق

= رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين ، فوافقته وهو غضبان . فاستحملناه . فحلف أن لا يحملنا . ثم قال : والله ! إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير ، وتحللتها .

سواهم رضى الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً ، فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التى قصد ذكرها لأجله .

وقال فى ( زاد المعاد ) : لا فرق بين التحريم ( فى غير الزوجة ) بين الأمَة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعىّ وحده ، فإنه أوجب فى تحريم الأمَة خاصة ، كفّارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير فى الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعوه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعمّ من تحريم الأمَةِ وغيرها ، فتجب الكفار حيث وجد سببها . وقد تقدّم تحريره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ، قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

« وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ » يعنى محمداً ﷺ « إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ » هى حفصة فى قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبىّ والضحاك ـ كما نقله ابن جرير ـ « حَدِيثاً » وهو تحريم فتاته فى قولهم . قال ابن جرير[(١)] : أو ماحرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحلّه له ، وقوله : لاتذكرى ذلك لأحد .

« فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ » أى أخبرت بالسرّ ، صاحبتَها كما تقدم ، « وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ » أى أطلعه على تحديثها به ، « عَرَّفَ بَعْضَهُۥ » أى عرّفها بعض ماأفشته مُعاتِباً « وَأَعْرَضَ

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

عَنۢ بَعْضٍ » أي بعض الحديث تكرّماً ، « فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ » أي الذي لا تخفى عليه خافية .

تنبيه :

في ( الإكليل ) : في الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانه . وفيهـا حُسْن المعاشرة مع الزوجات ، والتلطُّف في العتب ، والإعراض عن استقصاء الذَّنْب .

وحكى الزمخشريّ عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام .

ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيّه، صلوات الله عليه، مما أتت به من إفشاء السرّ إلى صاحبتها، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ )

« إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » أي إلى الحق . وهو ماوجب من مجانبة ما يسخط رسوله . وقد صح[1] عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن المتظاهرتين على رسول الله ﷺ فقال : عائشة وحفصة .

وفي خطابهما ، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب مطرودًا بعيدًا عن ساحة الحضور. ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد. «وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ »أي تتظاهرا وتتفقا على ما يسوؤه ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٢ ـ باب تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، حديث رقم ٧٦ ، وهو حديث طويل ممتع كل الإمتاع .

وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » أى متظاهرون على من أراد مساءته ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم المخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أفخم فى التنويه بالنبيّ صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هى هنا بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوّه ومناوئه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا )

« عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ » أى خاضعات لله بالطاعة « مُّؤْمِنَٰتٍ » أى مصدّقات بالله ورسوله « قَٰنِتَٰتٍ » أى مطيعات لما يؤمرن به « تَٰٓئِبَٰتٍ » أى من الذنوب لا يصررن عليها « عَٰبِدَٰتٍ » أى متعبّدات لله ، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن « سَٰٓئِحَٰتٍ » قيل : معناه صائمات ـ وسننبه على ما فيه ـ « ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا » .

اعلم أن فى توصيف المبدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ، لا سيما أزواج النبيّ ﷺ .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من ( سائحات ) صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير (السائحون) أن الحق فيه هو المعنى الحقيقيّ ، لعدم مايمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لمانع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هى كذلك للرجال ، فمعنى قوله تعالى (سَٰٓئِحَٰتٍ) مسافرات ، سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهن ، حفظاً لهن .

• ثم قال: كأن الذى دعا البعض لتفسير (السائحات) بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة فى البلاد لاتناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التى ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد ؟! وأما قوله تعالى[1] : ( خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ) فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها، وهو الرجال. وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه ﷺ فى سفره مع أزواجه ؟ فقد كان يقرع بينهن ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها فى الدين . وهكذا صح[2] أنه ﷺ لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب .

وبالجملة فالسياحة فى القرآن الكريم ليست ترمى إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد .

أولاً ـ إدراك المعقولات ، والإحاطة بعظات المسموعات، كما نتعلمه من آية[3]: ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ) .

ثانياً ـ الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، ومالهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم[4] : ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٩ ] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ١٠٤ ـ باب قول الرجل جعلنى الله فداك ، حديث رقم ٢٤٦ ، عن أنس بن مالك .

(٣) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] . (٤) [ ٤٠ / غافر / ٢١ ] .

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ) وقوله[١] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

ثالثاً ـ البحث والتنقيب فى أنحاء المسكونة بالنظر فى الكون، وفى الفنون، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالى بقوله[٢] (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ) .

رابعاً ـ الحصول على ربح التجارة كما نتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم[٣] (وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) .

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصًّا بالرجل ؟ كلا ! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله[٤]: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ). وامتن على جميع عباده بقوله[٥]: (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) وقال تعالى[٦] (مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) فهل يجوز أن نذهب إلى أن هذه المنن هى من مخصوصات الرجل دون النساء ؟ كلا ! بل الكل مغمور بهذه المنات ، كما هو مقتضى عموم الآيات . انتهى ملخصاً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أى سببها. وذلك بترك المعاصى،

(١) [ ٣٠ / الروم / ٩ ] .
(٢) [ ٢٩ / العنكبوت / ٢٠ ] .
(٣) [ ٧٣ / المزمل / ٢٠ ] .
(٤) [ ٣٤ / سبأ / ١٨ ] .
(٥) [ ١٠ / يونس / ٢٢ ] .
(٦) [ ٥ / المائدة / ٩٦ ] .

وفعل الطاعات، والقيام على تأديب الأهل، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم « وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ » أى تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب « عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ » أى تلى أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية « غِلَاظٌ شِدَادٌ » أى جفاة قساة « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » قال الزمخشرىّ . وليست الجملتان فى معنى واحد . فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية: أنهم يؤدون مايؤمرون به ، لا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً مالم يؤمروا به ، كقوله[1] تعالى ( وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ) فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيده ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون فى كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد بـ ( اليوم ) وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهى عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٧ ] .

وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا » أى توبة ترقع الخروق، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من ( النصح ) بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذى تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه . من ( النصوح ) بمعنى الخلوص « عَسَىٰ رَبُّكُمْ » أى بمناصحة أنفسكم بالتوبة النصوح « أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ » أى لا يذلهم . تعريض لأعدائهم بالخزى والصغار « نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا» أى أدمه أو زده « وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ» أى بالسنان والبرهان «وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى فيما تجاهدهم به ، لتنكسر صلابتهم، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنقهر نفوسهم وتذل وتخضع . « وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ )

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ » أى حالهما « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا » أى بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان ، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان « فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ » أى من عذابه « شَيْـًٔا وَقِيلَ » أى لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : « ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ » أى مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ )

[١٢] ( وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ )

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى من عملهم وعذابهم « وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى حفظته وصانته « فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا » يعنى : جبريل عليه السلام، أو من روح خلقناه بلا توسط، وهو عيسى عليه السلام « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا » أى بصحفه المنزلة من عنده « وَكُتُبِهِۦ » أى الموحاة . والعطف للتفسير ، أو الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب خاصة بالمخطوط من الأسفار . « وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ » أى من المواظبين على الطاعة لله، والخضوع لأحكامه . والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشرىّ : مثل الله عز وجل حال الكفار فى أنهم يعاقبون على كفرهم

وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، لأن عدواتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر ، نبيًّا من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناءً ما من عذاب الله . ومثل حال المؤمنين فى وصلة الكافرين لا تضرهم ، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله ـ بحال امرأة فرعون ، ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفى طىّ هذين التمثيلين تعريض بأمَّى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما فى التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه فى التغليظ قوله تعالى[1] : ( وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتيْن ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرارُ التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثانى : قال الإمام ابن القيم فى ( أعلام الموقعين ) اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من

(١) [ ٣ / آل عمران / ٩٧ ] .

أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح ، مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله، وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبى، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال. فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال تعالى[1] : ( لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ، يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) : وقال تعالى[2] : ( يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ) وقال تعالى[3] ( وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ) وقال[4] ( وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة ؛ أن من تعلقوا به من دون الله، من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة ، أو يجيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله. وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم وهو الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الذى بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه فى كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة، وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ، وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثانى للمؤمنين : مريم ، التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

(١) [ ٦٠ / الممتحنة / ٣ ] . (٢) [ ٨٢ / الانفطار / ١٩ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ٤٨ و ١٢٣ ] . (٤) [ ٣١ / لقمان / ٣٣ ] .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التى لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التى لا وصلة بينها وبين أحد . فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم فى هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقت فى ذكر أزواج النبىّ ﷺ ، والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، ولهذا إنما ضرب فى هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة . ثم ضرب لهما المثل الثانى يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفى ضرب المثل للمؤمنين بمريم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذفُ أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه . وفى هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما فى ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه فى حق النبىّ ﷺ . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن ، والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذى منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث ـ قال القاشانىّ : بيّن تعالى أن الوصل الطبيعية ، والاتصالات الصورية غير معتبرة فى الأمور الأخروية . بل المحبة الحقيقية ، والاتصالات الروحانية ، هى المؤثرة فحسب . والصورية التى بحسب اللحمة الطبيعية والخلطة والمعاشرة لا يبقى لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا فى الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر فى استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كإحصان مريم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المعدة إياها

لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لاتفى بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلة فى نار الحرمان ، وجحيم الهجران مع المحجوبين ، ولا تغنى هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء فى باب العذاب . وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذى قويت فيه قوة محبة الله لصفائه ، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه وضعفه ، لايبقى فى العذاب مخلدا ويخلص إلى النجاة ، ويبقى فى النعيم سرمدا ، وإن تعذب بمجاورتها حيناً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هى القابلة لفيض روح القدس . المتنورة بنور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكمية ، والشرائع الإلهية ، المطيعة لله مطلقاً ، علما وعملا ، سرًّا وجهراً . انتهى ملخصاً .

الرابع ـ فى ( الإكليل ) : استدل بقوله تعالى ( ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ) على صحة أنكحة الكفار . أقول : ويستدل بقوله تعالى ( ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ إلى قوله : فَخَانَتَاهُمَا ) على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لايعد من قلة التورع . وهو جلىّ . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً فى شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ فى آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير فى قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون ( رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شىء من ذلك فى حديث مرفوع .

السادس ـ قال الزمخشرىّ : فى دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين (١) ( فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ) ( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ )(٢) .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١١٨ ] . (١) [ ١٠ / يونس / ٨٥و٨٦ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٧ - سورة الملك

قال المهايمي : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغي أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنية لخدامه وعدم التفاوت في رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة ( تبارك ) . وهي مكية . وآيها ثلاثون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ )

« تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » قال ابن جرير[١] : أى تعاظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانىّ : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلوّ والبركة . وباعتبار تسخيره عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله[٢] ( فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ) كلاًّ بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فمعنى (تبارك) تعالى وتعاظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدها على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ )

« ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى : قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٣٦ / يس / ٨٣ ] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيي من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدّره .

قال القاشانيّ : الموت والحياة من باب العدم والملكة. فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له. وعدم الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود. والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجوديّ، فلذلك صح تعلق الخلق به، كتعلقه بالحياة،وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان في حسن العمل وقبحه، أي العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس إلا علم الله الكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم، لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها، وبهما تتفاضل النفوس في الدرجات، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت في عالم الملك ذاتيّ ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

« وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل « ٱلْغَفُورُ » أي لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ )

« ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير(١) : طبقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وقال المهايمىّ : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليتم أمر الحكمة فى الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ ( السماء ) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان، فإنه من السموّ ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى[١] ( فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ) أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهائىّ سماء . ومنه قوله تعالى[٢] : ( كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى[٣] ( أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ) والكواكب سماوات. فالسموات السبع المذكورة كثيراً فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب فى رعاية الحكمة ، بل راعاها فى كل خلقه .

« فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى إن شككت، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ » أى: خلل . وأصل ( الفطور ) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هى متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم فى سورة ( ق ) فى آية[٤]: ( أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ) .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ١٥ ] . (٢) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٤ ] .
(٣) [ ٢ / البقرة / ٢٢ ] . (٤) [ ٥٠ / قٓ / ٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ )

« ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى كرره « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنقَلِبْ » أى:يرجع « إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معيي كالٌّ .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب الزمخشرىّ إلى أن قوله تعالى ( مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ) صفة ثانية لقوله : ( سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ) وضع فيها ـ خَلْق الرحْمَٰن ـ موضع الضمير للتعظيم ، والأصل ( فِيهِنَّ ) وتابعه القاضى والقاشانىّ ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك فى خلق السموات ، لاترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها. وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادىء سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال ( ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لايفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : ( مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ) مستأنفاً ، مقرراً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله ـ لكان أولى من تخصيصه بوصفية ماقبله ، ويكون كآية[١] : ( أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ )وآية[٢]: ( صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ) وتلطف بعضهم فقال : فى الآية إشارة إلى قياس تقديره : ماترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى فى خلقه من تفاوت .

(١) [ ٣٢ / السجدة / ٧ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٨٨ ] .

الثانى ـ للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب ( الفِصَل ) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نفاه الله تعالى عن خلقه ، فإذن ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نفاه الله تعالى عما خلق هو شيء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لـكذب قول الله عز وجل ( مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الـكفر والظلم والـكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئىّ فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلًا ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعـالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً فى تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها المميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهيأة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شيء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شيء منه أصلًا . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الـكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضا نعلم أن الـكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لاتفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول فى الظلم والإنصاف ، وفى العدل والجور ، وفى الصدق والكذب ، وفى الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما فى العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التى ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهى الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لامنفك لهم عنها ، وهى أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً فى خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهى أن يرى فى خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الناصر : فى قوله تعالى ( يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ) وضع للظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذى يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرِكٍ الفطورَ ، هو الآلة التى يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شىء ، دل على أنه لاشىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ )

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » قال ابن جرير [1] : وهى النجوم . وجعلها ( مَصَٰبِيحَ ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذى يضىء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير فى قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

( وَجَعَلْنَـٰهَا ) على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ـ والله أعلم ـ .

وقال القاضي : أى وجعلنا لها فائدة أخرى هى رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس ـ وهم المنجمون ـ .

قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و ( الرجم ) يكون بمعنى الظن، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات(١) ( إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ) « وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ » أى فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ )

[٧] ( إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ )

[٨] ( تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ، كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ )

[٩] ( قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ )

[١٠] ( وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ )

[١١] ( فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ )

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٦ ـ ١٠ ] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسيّ ، أو لأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله [1] ( لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ) . أولها نفسها، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِيَ تَفُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ » أى تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله . شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ ـ كما فى شرح المفتاح الشريفى ـ وأما ثبوت الغيظ الحقيقيّ لها ، بخلق الله فيها إدراكا ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن ( تكاد ) تأباه ، كما فى قوله [2] : ( يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ) وقد صرح به علماء المعانى فى بحث المبالغة والغلوّ . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازيّ ، أو على تقدير مضاف ـ كما فى ( العناية ) ـ .

« كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى ( الإكليل ) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

---

(١) [ ١١ / هود / ١٠٦ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣٥ ] .

« قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا فى التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا فى نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النُّذر ما جاءت به ، سماعَ طالب الحق ، وعقلَ مَن نبذ الهوى « مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى : فى عداد أهل النار .

## تنبيهان :

الأول ـ قال الناصر : لو تفطن نبيهٌ لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثانى ـ قال ابن السمعانىّ فى ( القواطع ) : استدل به من قال بتحكيم العقل .

وقال الزمخشرىّ : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى : فأقروا بجحدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه، وهم لم يروه « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ )

« وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائرها، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَن خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » أى اللطيف بعباده ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة فـ( من ) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالىّ : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك فى إيصال مايصلحها سبيل الرفق، دون العنف. و (الخبير) هو الذى لايعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك فى الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ)

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير(١) : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : فى قوله تعالى ( فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ) الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير: فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ،فى أنواع المكاسب والتجارات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ )

[١٧] ( أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ )

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أأمنتم العلىّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِىَ تَمُورُ » أى : تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً » وهو التراب ، فيه الحصباء الصغار، «فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ» قال ابن جرير[١] : أى عاقبة نذيرى لكم، إذا كذبتم به، ورددتموه على رسولى .

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وقد بيَّن تعالى نذيره لهم فى غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرُّوا ، ونصر رسوله ، وغلبة جنده ، كما قال تعالى(١) ( وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ) .

قال الشهاب : ( النذير ) مصدر ، والياء محذوفة ، والقرّاء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وَصْلًا ، وأثبتها وَقْفًا ، ومنهم من حذفها فى الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال فى ( نكير ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] ( وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ )

[١٩] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ )

«وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عَدَدًا وعُدَدًا «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإنزال العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسلية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ » أى باسطات أجنحتهن فى الجوّ عند طيرانها ، « وَيَقْبِضْنَ » أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل فى بعض الأحيان للتقوّى بالتحريك . كما يفعله السابح فى الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت فى حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

« مَا يُمْسِكُهُنَّ » أى فى الجو « إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ » أى المفيض لكلٍّ ما قُدّر له ، حسب استعداده بسعة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

« إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » قال القاشانىّ : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب

(١) [ ٣٨ / ص / ٨٨ ] .

مشيئته ، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .

ثم بكّت تعالى المشركين ، بنفي أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ)

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ » أى معشر المشركين « يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ » أى إن أراد بكم سوءا ، فيدفع عنكم بأسه. « إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ » أى من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ . أو أنها تقرّبهم إلى الله زلفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ، بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ » يعنى المطر ونحوها « بَل لَّجُّواْ » أى تمادَوْا « فِى عُتُوٍّ » أى عناد وطغيان « وَنُفُورٍ » أى شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرْزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعنادًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و ( المكب ) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سوياً هو القائم السالم من العثار، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى المكبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لايستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[٢٣] ( قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ )

[٢٤] ( قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )

[٢٥] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ )

[٢٦] ( قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبدوه، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ )

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً، أو ذا زلفة ، أى قُرْب «سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيتا « هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستعجلون به، من الدعاء ، أو تدّعون أن لا بعث ، من ( الدعوى).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ )

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »كان كفار مكة يتربصون بالنبىّ ﷺ ريب المنون، تخلصاً من دعوته وانتشارها، فأمر أن يقول لهم ذلك. أى أخبرونى إن أماتنى الله ومن معى من المؤمنين، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ماتتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنىّ بالعذاب : إما الدنيوىّ ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخروىّ ، وهو أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا » أى غائراً لاتناله الدلاء، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازىّ: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليريهم قبح ماهم عليه من الكفر. أى: أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ فلابد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلًا، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى[١] : (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ . ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

---

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٦٨ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهى مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (نٓ ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« نٓ » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف، قصد به التحدى. أو اسم للسورة، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً لمحذوف « وَٱلْقَلَمِ » أى الذى يخط به «وَمَا يَسْطُرُونَ» أى يكتبون . و( مَا ) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية[1] : ( وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) .

قال الزجاج : ( أَنتَ ) هو اسم ( ما ) ، و ( بمجنون ) الخبر . وقوله ( بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه. فالباء فى ( بِنِعْمَةِ ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ ( ما ) والباء فى ( بِمَجْنُونٍ ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦ ] .

قال ابن جرير[١] : من قولهم ( حبل منين ) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة فى العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير[١] : أى أدب عظيم. وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .

قالت عائشة[٢] : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .

قال الرازىّ: وهذا كالتفسير لقوله ( بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ) والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ )

[٦] ( بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ )

[٧] ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ )

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

« بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهابا ، إلى أن المصدر يجىء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى). أى: من كوشف بأسرار العلوم، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ ( طبعتنا ) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ، « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيجزى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ )

[٩] ( وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ )

[١٠] ( وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ )

[١١] ( هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ )

[١٢] ( مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ )

[١٣] ( عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ )

[١٤] ( أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ )

[١٥] ( إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٦] ( سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ )

« فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشرىّ : تهييج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وتترك ما أنت عليه من الحق ، فيمالئونك ـ رواه ابن جرير(١) عن مجاهد ـ ثم قال : أى : لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلٰهك، كما قال جل ثناؤه(٢). (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا* إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ١٧ / الإسراء / ٧٤، ٧٥ ] .

وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين فى القول بتليين الدهن .

« وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشرىّ : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى[1] ( وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ) . « مَّهِينٍ » أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيّاب طعان : قال ابن جرير[2] : والهمز أصله الغمز . فقيل للمغتاب : هماز ، لأنه يطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ » أى نقّال لحديث الناس بعضهم فى بعض ، للإفساد بينهم .

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صادّ عن الإسلام .

« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز فى ظلمهم . « أَثِيمٍ » كثير الآثام .

« عُتُلٍّ » أى جاف غليظ . دعىّ « بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ » أى: دعىّ ملصق فى النسب، ليس منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير[3] : ومعنى ( بعد ) فى هذا الموضع معنى (مع) . وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على أن ما بعده أعظم فى القباحة . فـ ( بعد ) هنا كـ ( ثم ) الدالة على التفاوت الرتبىّ ، كما مر فى قوله[4] ( بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ) .

« أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشرىّ : متعلق بقوله ( وَلَا تُطِعْ ) يعنى : ولا تطعه مع هذه المثالب ، لِأَنْ كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب بآياتنا .

« إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ »

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٢٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٤) [ ٦٦ / التحريم / ٤ ] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .

وقوله: « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ » عِدَةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تناهى كبره وعجبه وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا يفارقه . قال جرير (١) :

لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسمى وعلى البعيثِ، جَدَعْتُ أنفَ الأَخْطَلِ

قال الزمخشرىّ : الوجه أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ، لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه ( الأَنَفَة ) وقالوا : الأنف فى الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا فى الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره فى وجوهها ، فقال له رسول الله ﷺ: أكرموا الوجوه ، فوسمها فى جواعرها . وفى لفظ ( الخرطوم ) استخفاف به واستهانة ، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير (٢) : وأصله من ثقيف ، وعداده فى بنى زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم فى الجاهلية . ولذا سمى زنيما للصوقه بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ بين الكِناس وبين طَلْحِ الأعزلِ

الكناس : ببلاد غنى . والأعزل : لبنى كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر من العضاه . ( شرح ديوان جرير ص ٤٤٢ ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ )

[١٨] ( وَلَا يَسْتَثْنُونَ )

« إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببلية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، ( كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ) وهم قوم من أهل الكتاب ـ على ماروى عن ابن عباس ـ أو ناس من الحبشة ـ فى قول عكرمة ـ أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى: ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لايعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَثْنُونَ » قال المهايمىّ: أى: ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه . وحكاه الرازىّ والقاضى قولًا ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله ـ واقتصر عليه ابن جرير[١] والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسىّ ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا ) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ )

[٢٠] ( فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ )

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال ابن جرير[1] : ولا يكون الطائف فى كلام العرب إلا ليلًا ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده[2] :

أَطَفْتَ بها نَهَارًا غيرَ لَيْـلٍ    وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ

و ( الرخال ) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى مستغرقون فى سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ » أى كالبستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شىء. أو كالليل الأسود لاحتراقها. وأنشد فى ذلك ابن جرير لأبى عمرو[3] ابن العلاء :

ألا بَكَرَتْ وعَاذِلَتِى تَلُومُ    تهجّدنى وما انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن ( الورقة ٣٩٣ ) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ. قال: لا يكون الطائف إلا ليلا، ولا يكون نهارا. وقد تكلم به العرب فيقولون : أطفت به نهارا ، وليس موضعه بالنهار، ولكنه بمنزلة قولك: لو ترك القطا ليلا لنام . لأن القطا لا يسرى ليلا .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلىّ : ( أطفت بها نهارا ... ) البيت اه .

والرخال جمع رخل ( بكسر الراء وفتحها ) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل. والجمع أرخل ورخال ( بكسر الراء وضمها ) ورخلان أيضا ( حاشية ابن جرير ) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو . يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظنى حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد ( قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجدته ) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل . =

وقال أيضاً(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ      فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحٍ صَرِيمُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ)

[٢٢] (أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ)

[٢٣] (فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ)

[٢٤] (أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ)

[٢٥] (وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ)

[٢٦] (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ)

[٢٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« فَتَنَادَوْا۟ » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفرّاء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصريم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسود اهـ . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصريم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اهـ . ويقال : كالشىء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهرىّ : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصريم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل «أَنِ اغْدُوا» أى اخرجوا غدوة «عَلَىٰ حَرْثِكُمْ» أى زرعكم «إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ» أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها «فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ» أى يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم «أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ» أى فقير . فالجملة مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزمخشريّ : والنهي عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أرينّك ههنا .

«وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ» أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجِدٍّ من أمرهم ، أو على منع وغضب «قَادِرِينَ» أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . «فَلَمَّا رَأَوْهَا» أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقاً حرثها «قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» أى أنكروها وشكّوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

«قَالَ أَوْسَطُهُمْ» أى أعدلهم وخيرهم رأياً «أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» أى :

تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيّرهم . « قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفريطنا وعزمنا السيّئ « عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ )

« كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : قال ابن الفرَس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشريّ عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأُبدلوا خيراً منها ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

[٣٥] (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ)

[٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

[٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)

[٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

[٤٠] (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ)

[٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

[٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٤٣] (خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ » أى فى الكرامة والمثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله[1] : (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٤٠ ] .

ويتمنون من الأمانيّ الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ » أي تقضون من أمانيّكم ومزاعمكم .

قال الزمخشريّ : يقال : لفلان عليّ يمين بكذا، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به. يعني : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد. و(إنّ لكم لما تحكمون) جواب القسم ، لأن معنى ( أم لكم أيمان علينا ) أم أقسمنا لكم . فـ ( بالغة ) ـ كما قال الشهاب ـ معناه المراد منه ، متناهية في التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه اختصاراً ، وشاع في هذا المعنى .

« سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ » أي : الحكم « زَعِيمٌ » أي كفيل به ، يدعيه ويصححه . « أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ » أي ناس يشاركونهم في هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ » أي : في دعواهم .

قال الزمخشريّ : يعني أن أحدا لا يسلّم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ » قال ابن عباس : أي عن أمر شديد مفظع من هول يوم القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ ـ رواه ابن جرير[1] .

« وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أي لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل. « خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أي : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ » أي : لا مانع يمنعهم منه . والمراد من السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

تنبيه :

ما أثرناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى ( عَن سَاقٍ ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية، وعليه اقتصر الزمخشرىّ، وعبارته: الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم(١) :

أخو الحرب ، إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا  وإن شَمَّرَتْ عن ساقِهاَ الحربُ شَمَّرَا

وقال ابن الرقيات(٢) :

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه ، وتُبْدِى  عن خِدَامِ العقيلةِ العذراءِ

وجاءت منكّرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة، منكر خارج عن المألوف كقوله(٣): ( يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنتُ إلى الأَجْبَالِ ، أجبال طيِّءٍ  وحنَّت قَلُوصى أن رأت سَوْطَ أحْمَرَا

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان :  * عن بُرَاها العقيلةُ العذراءُ *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أقفرت بعد عبد شمسٍ كُدَاءُ  فكُدَىٌّ فالركن فالبطحاءُ

كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدىّ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليمانىّ ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة ( الديوان ص ٨٧ ) .

وقال شارح شواهد الكشاف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرمه. ورفع الشعواء فى البيت قبله، وخفض العذراء، إقواء . يتساهل الشعراء فيه .

(٣) [ ٥٤ / القمر / ٦ ] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استعارة من ساق الشجر ، وفى ( الكشف ) تجوّز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى ( الفِصَل ) : ماصح عن النبيّ ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير[1] :

ألا ربَّ سامى الطرفِ من آل مازنٍ إذا شمَّرَتْ عن ساقها الحربُ شمَّرَا

والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصًّا . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لاعلم له به . وقد عاب الله هذا فقال[2] ( بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانىّ إلى أن الآية وعيد دنيوىّ للمشركين ، لا أخروىّ . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم[3] : ( وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى[4] : ( يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ) ثم إنه يرى الناس يدعون

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لمن رسمُ دارٍ همَّ أن يتغيرا تَرَاوَحُهُ الأرواح والقَطْرُ أَعْصُرَا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تتراوحه أخرى . والأعصر : الدهور ( شرح ديوان جرير ص ٢٤٠ ) .

(٢) [ ١٠ / يونس / ٣٩ ] .

(٣) [ ٦٨ / القلم / ٤٢ ] .

(٤) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٢ ] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لايستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذى لاينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله[1] ( فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ) انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أنه لانزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لا يمكن حمله على القيامة، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل هٰهنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثّر تعالى تخويفهم بعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفى قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ )

« فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهذَا ٱلْحَدِيثِ » أى كِلْهُ إلىّ فإنى أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلىّ ، وتخلّى بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لايعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورّطه فيه .

---

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهلهم وأنسئ فى آجالهم ملاوةً من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوىّ .

قال الزمخشرىّ : الصحة والرزق والمدّ فى العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً فى الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرَج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه ( كيداً ) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه فى صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط فى الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ )

[٤٩] ( لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ )

[٥٠] ( فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ )

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنينّك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغمًّا . والمعنى : لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشرىّ : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى برحمته . قال القاشانىّ : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعداده ، وعدم رسوخ الهيأة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى لمقام النبوة والرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ )

[٥٢] ( وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ )

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ » قال الزمخشرىّ : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يُزلّون قدمك، أو يهلكونك . من قولهم ( نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى ) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال[1] :

يتقارضون ، إذا التقوا فى موطن ، نظراً يُزِلّ مواطئ الأقدام

وأنشد ابن عباس ـ وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه ـ :

نظروا إلىّ بأعين محمرةٍ نظر التيوس إلى شِفارِ الجازِرِ

وبيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبيّ ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى: « لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن، معاداة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه. « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما فى عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنّن من جاء بمثله ؟ ـ وبالله التوفيق ـ .

---

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا فى موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٩ – سورة الحاقة

مكية . وآيها إحدى وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( ٱلْحَآقَّةُ )

[٢] ( مَا ٱلْحَآقَّةُ )

[٣] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ )

« ٱلْحَآقَّةُ » أى الساعة الحاقة التى تحق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشىء ، إذا وجب. وقوله : « مَا ٱلْحَآقَّةُ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ » قال بعضهم : من عوائد العرب فى محاوراتهم اللطيفة، إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شيء ودرايته، أتوا بإجمال وتفصيل . أى : أىّ شىء أعلم المخاطب ماهى ؟ تأكيداً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب . على معنى: أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه من الأوصاف، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين، ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين، ولا أدركه وهمه، وكيفما قدر حالها، فهى وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه، من أنها لاتعلم ، ولا يصل إليها دراية دارٍ ، ولا تبلغها الأفكار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ )

[٥] ( فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ )

[٦] ( وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ )

[٧] (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

[٨] (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ » أى بالساعة التى تقرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم. قال الزمخشرىّ: ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة، زيادة فى وصف شدتها . ولمّا ذكرها ونخمها ، أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

« فَأَمَّا ثَمُودُ » وهم قوم صالح عليه السلام « فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ » أى بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة ، أو بطغيانهم . و ( الطاغية ) مصدر كالعافية .

« وَأَمَّا عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ » أى : شديدة العصوف والبرد « عَاتِيَةٍ » أى : متجاوزة الحد المعروف فى الهبوب والبرودة .

«سَخَّرَهَا» أى: سلطها « عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعات من ( حسمت الدابة ) ، إذا تابعت بين كيّها. شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكىّ القاطع للداء . أو معناه : نحسات ، حسمت كل خير واستأصلته . أو قاطعات، قطعت دابرهم . هذا على أن ( حُسُومًا ) جمع حاسم ، كشهود وقعود . فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر . أى تحسم حسوماً ، أو بأنه مفعول له . أى سخرها عليهم للحسوم، أى الاستئصال. وقد قيل: إن تلك الأيام هى أيام العجز . والعامة تقول : (العجوز) وهى التى تكون فى عجز الشتاء، أى آخره.

« فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ » أى هلكى ، جمع صريع « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » أى ساقطة مجتثة من أصولها كآية[١] : ( كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ )

« فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ » أى : بقاء . أو نفس باقية ، أو بقية .

(١) [ ٥٤ / القمر / ٢٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ )

[١٠] ( فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً )

[١١] ( إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ )

[١٢] ( لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ )

« وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ » أى : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود « وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ » وهى قرى قوم لوط « بِٱلْخَاطِئَةِ » أى : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجاز فى النسبة. « فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً » أى: زائدة فى الشدة. « إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ » أى: كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصى، وتكذيبه، عليه السلام « حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ » أى السفينة التى تجرى فى الماء.

قال ابن جرير(١) : خاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حُملوا فى الجارية، فكان حملُ الذين حملوا فيها من الأجداد، حملًا لذريتهم .

« لِنَجْعَلَهَا » أى تلك الفعلة التى هى إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين « لَكُمْ تَذْكِرَةً » أى : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده فى نصر رسله ، وتدمير أعدائه .

« وَتَعِيَهَآ » أى تحفظها « أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ » أى حافظة لما سمعت عن الله، متفكرة فيه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ )

[١٤] ( وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً )

[١٥] ( فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ )

[١٦] ( وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ )

[١٧] ( وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ )

« فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ » أى : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

« وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً » أى : رفعتا وضربتا ببعضهما من شدة الزلازل . وفى توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم ، هى وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى .

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى : نزلت النازلة ، وهى القيامة .

« وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ » أى : انصدعت « فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » متمزقة .

« وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا » أى : جوانبها وأطرافها حين تشقق . « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ » أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها « يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ » أى : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش ( العرش العظيم ) ، أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، ـ والله أعلم ـ انتهى .

ومثله ، من الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهها . وتقدم فى سورة الأعراف،

فى تفسير آية[١] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية، فتذكره.

وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكه تعالى للسموات والأرض ، وبـ (الثمانية) السموات السبع والأرض . وعبارته : (وَيَحْمِلُ) بالجذب (عَرْشَ رَبِّكَ) أى : ملك ربك للأرض والسموات (فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة ، (ثَمَٰنِيَةٌ) أى : السموات السبع والأرض .

قال : وهـذا يدل على أن (السبع) ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية يحملون العرش ، أى : ملك الأرض والسموات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم . ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جدًّا .

ثم قال : ولا وجه لمعترض يقول : إن حملة العرش مسبحة ، لقوله تعالى[٢] : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) فكيف تسبح السموات والأرض؟ لأنه يجاب بقوله تعالى[٣] : (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ)

[١٩] (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ)

[٢٠] (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ)

[٢١] (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

[٢٢] (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[٢٣] (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[٢٤] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ)

(١) [ ٧/ الأعراف/ ٥٤ ] . (٢) [ ٤٠/ غافر/ ٧ ] . (٣) [ ١٧/ الإسراء/ ٤٤ ] .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ » أى : على ربكم للحساب والمجازاة « لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ » أى سريرة كانت تخفى فى الدنيا بستر الله .

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ » أى : علامة لفوزه « فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ » أى : تعالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : حقها أن تحذف وصلا ، وتثبت وقفاً ، لتصان حركة الموقوف عليه ، فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها فى الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل بنيّة الوقف . وإثباتها وصلًا قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .

« إِنِّي ظَنَنتُ » أى : علمت « أَنِّي مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ » أى جزائى يوم القيامة . أى : فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح .

« فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » أى : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى ( مرضية ) . أو الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها نفسها راضية مجازاً . ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية ، كما فصل فى ( المطول ) .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا » جمع قِطْف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها « دَانِيَةٌ » أى قريبة سهلة التناول .

« كُلُواْ » أى : يقال لهم كلوا « وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » أى : الماضية فى الحياة الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ )

[٢٦] ( وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ )

[٢٧] ( يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ )

[٢٨] ( مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ )

[٢٩] ( هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ )

[٣٠] ( خُذُوهُ فَغُلُّوهُ )

[٣١] ( ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ )

[٣٢] ( ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ )

[٣٣] ( إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ )

[٣٤] ( وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ )

[٣٥] ( فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ )

[٣٦] ( وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ )

[٣٧] ( لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ )

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ » أى : عندما يلاقى العذاب « يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ » أىْ : أىّ شىء حسابى .

« يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ » قال ابن جرير(١) : أى ياليت الموتة التى متُّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل مابعدها ، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث . و ( القضاء ) هوالفراغ . وقيل : إنه تمنى الموت الذى يقضى عليه ، فتخرج منه نفسه .

« مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ » أى : ما دفع من عذاب الله شيئاً .

« هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ » أى ملكى وتسلطى على الناس . أو حجتى ، فلا حجة لى أحتج بها .

« خُذُوهُ » أى : يقال لخزنة النار : خذوه بالقهر والشدة « فَغُلُّوهُ » أى : ضموا يده إلى عنقه ، إذ لم يشكر ما ملكته .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ » أى : أدخلوه ليصلىٰ فيها ، لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

« ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ » أى حلقة منتظمة بأخرى ، وهى بثالثة ، وهلم جرا .

« ذَرْعُهَا » أى : مقدارها « سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ » فأدخلوه فيها . أى : لفّوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً ، لا يقدر على حركة .

قال القاشانىّ : والسبعون فى العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعيّن ثم علل استحقاقه ذلك، على طريقة الاستئناف ، بقوله : « إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ » أى : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجماد المهين .

« وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى : إطعامه ، فضلًا عن بذله ، لتناهى شحه.

« فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ » أى : قريب تأخذه الحمية له .

« وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » أى : من غسالة أهل النار وصديدهم .

قال ابن جرير[1] : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شىء فهو ( غسلين ) ـ فعلين ـ من الغسل من الجراح والدَّبَر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين.

« لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ » أى . الآثمون، أصحاب الخطايا . يقال : خطىء الرجل، إذا تعمد الخطأ . قال الرازىّ : الطعام ما هيئ للأكل . فلما هيئ الصديد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمى طعاماً . كما قال[2]:

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضرب وجيعُ *

(١) انظر الصفحة رقم ٦٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) صدره : * وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ *

وقائله عمرو بن معدى كَرِبَ ( نوادر أبى زيد ص ١٤٩ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ )

[٣٩] ( وَمَا لَا تُبْصِرُونَ )

[٤٠] ( إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ )

[٤١] ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ )

[٤٢] ( وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ )

[٤٣] ( تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » أى: بالمشاهدات والمغيبات . وهذا القسم ـ كما قال الرازىّ ـ يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلوىّ والسفلىّ ، وهكذا . وتقدم فى ( الواقعة ) الكلام على كلمة ( لا أقسم ) فتذكر .

« إِنَّهُۥ » أى : القرآن « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وهو محمد ﷺ، يبلغه عن الله تعالى، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه .

« وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » أى : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعلة وخيالاته ، بعد المشرقين .

« قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ » . تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه، عناداً وعتوًّا . والقلة كناية عن النفى والعدم . ونصب ( قَلِيلًا ) على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر . أى إيمانًا وزمانًا. والناصب ( تُؤْمِنُونَ ) أو ( تَذَكَّرُونَ ) . و ( مَّا ) زائدة ـ هـذا ما قاله ابن عادل ـ وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

« وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ » أى كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان « قَلِيلًا

مَّا تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان فى الأول ، والذكرى فى الثانى ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن، لاينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله فى ترك الإيمان، وهو أكفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكّر ما ، لأن الكاهن يأخذ جُعْلًا ، ويجيب عما سئل عنه ، ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحمق لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور ، فتأمّل .

« تَنزِيلٌ » أى هو تنزيل « مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى ممن ربّاهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة ، ومناهج الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ )

[٤٥] ( لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ )

[٤٦] ( ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ )

[٤٧] ( فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ )

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ » أى افترى علينا . وسمى الكذب تقوّلا ، لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعّل . و ( ٱلْأَقَاوِيلِ ) إما جمع ( قول ) على غير القياس، أو جمع الجمع كالأناعيم ، جمع أقوال وأنعام . قيل: تسمية الأقوال المفتراة (أقاويل) تحقيراً لها، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

« لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ » قال ابن جرير[١] : أى لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب . وإنما يعنى بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخّره بها . وقد قيل: إن معنى قوله ( لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ) لأخذنا منه باليد اليمنى

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذى السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض مَن بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده، فأقمه ، وافعل به كذا وكذا: قالوا : وكذلك معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ) أى لَأَهَنّاهُ . كالذى يفعل بالذى وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : المعنى لو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاجلة بالسخط والانتقام . فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه . فمعنى ( لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ) لأخذنا بيمينه . كما أن قوله ( لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ) لقطعنا وتينه ، وهذا بيّن . انتهى .

وما قرره الزمخشرىّ أبلغ فى المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ، لأن قوله ( بِالْيَمِينِ ) بعد ( لَأَخَذْنَا مِنْهُ ) بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله ( مِنْهُ ) زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً ـ كما فى ( العناية ) ـ .

« فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » أى ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تَقَوَّلَ علينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ )

[٤٩] ( وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ )

[٥٠] ( وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ )

[٥١] ( وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ الْيَقِينِ )

[٥٢] ( فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ )

« وَإِنَّهُو » أى القرآن « لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » أى عظة لمن يتقى عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده . « وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ » أى له ، إيثاراً للدنيا والهوى . أى فنجازيكم على إعراضكم . « وَإِنَّهُو لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به . « وَإِنَّهُو لَحَقُّ الْيَقِينِ » أى للحق اليقين الذى لا ريب فيه . « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى دُمْ على ذكر اسمه ، وادأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالعاقبة لك ، ولمن اتبعك من المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٠ — سورة المعارج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَآئِلُ » . وهى مكية . وآيها أربع وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ( سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ )

[٢] ( لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ )

[٣] ( مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ )

« سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَـٰفِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع فى الآخرة ، وهو قولهم(١) ( ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة ـ فيما رواه النسائىّ عن ابن عباس ـ وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففى الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و ( لِّلْكَـٰفِرِينَ ) صفة ثانية لـ ( عذاب ) ، أو صلة لـ ( واقع ) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ » أى رادّ يرده من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى(٢) ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ) .

وقوله تعالى « ذِى ٱلْمَعَارِجِ » قال الرازىّ : المعارج جمع معرج ، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى(٣) ( وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ) .

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها ـ قال ابن عباس فى رواية : أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] . (٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٧ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٣ ] .

وثانيها ـ قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب ، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها ـ أن المعارج هى الدرجات التى يعطيها أولياءه فى الجنة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ )

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال ابن جرير(١) : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، فى يوم كان مقدار صعودهم ذلك ، فى يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن ( فى يوم ) متعلق بـ ( واقع ) . والمراد به يوم القيامة .

فعن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة . والمقدار المذكور إما حقيقىّ ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ ، فإنها قِصارٌ ، وأيامُ الغُمُومِ طِوَالُ

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ماخلق الله إلى آخر الفناء . فبين تعالى أنه لابدّ فى يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة . ثم لايلزم على هـذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأنا لا ندرى كم مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهـذه الآية كآية(٢) ( يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٣٢ / السجدة / ٥ ] .

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) ولا منافاة فى التقدير ، لأن المعنىّ به الاستطالة ، لشدته على الكفار ، أو لكثرة مافيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا )

[٦] ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا )

[٧] ( وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا )

[٨] ( يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ )

[٩] ( وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ )

[١٠] ( وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا )

[١١] ( يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ )

[١٢] ( وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ )

[١٣] ( وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ )

[١٤] ( وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ )

« فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى: على مايقولون. ولا يضق صدرك ، فقدقرب الانتقام منهم. « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ » أى : العذاب الدنيوىّ أو الأخروىّ « بَعِيدًا » أى: وقوعه، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا » أى قريب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب، أو دردىّ الزيت. و(يوم) إما ظرف لـ(قريبا) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » أى : كالصوف .

« وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .

« يُبَصَّرُونَهُمْ » أى يعرّفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .

« يَوَدُّ الْمُجْرِمُ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ » أى الذين هم محل شفقته .

« وَصَاحِبَتِهِ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .

« وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « الَّتِى تُئْوِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .

« وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض . عطف على ( يفتدى ) . و ( ثم ) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ )

[١٦] ( نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ )

[١٧] ( تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ )

[١٨] ( وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ )

« كَلَّا » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار الموعود بها المجرم « لَظَىٰ » أى لهب خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع ( شواة ) وهى جلدة الرأس . « تَدْعُوا » أى إلى صليها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة . « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَىٰ » أى جعله فى وعاء وكنزه ، ومنع حق الله منه ، فلم يزكّ ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾

[٢٠] ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾

[٢١] ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيّنه بقوله : « إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى «مَنُوعًا» أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾

[٢٣] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾

[٢٤] ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾

[٢٥] ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

[٢٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

[٢٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾

[٢٨] ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾

[٢٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾

[٣٠] ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

[٣١] ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

[٣٢] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ )

[٣٣] ( وَالَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ )

[٣٤] ( وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ )

[٣٥] ( أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ )

« إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيّعون منها شيئاً . « وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » أى المتعفّف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل(١) ( بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ) . واللفظ أعمّ من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقا سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحِماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلًّا ، أو يمين بها محروماً .

وعن الشعبىّ : أن فى المال حقًّا سوى الزكاة .

« وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ » أى الجزاء . « وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ » قال ابن جرير(٢) : أى وَجِلون أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيّعون له فرضاً ، ولا يتعدّون له حدًّا . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [ ٦٨ / القلم / ٢٧ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ » قال ابن جرير(١) : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه . . « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم. «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » قال ابن جرير(١): أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه . «وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ» أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولـكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيّرة ولا مبدّلة . « وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لايضيّعون لها ميقاتاً ولا حدًّا . قيل: الحفظ عن الضياع، استعير للإتمام والتـكميل للأركان والهيئات. ولذا قال القاضى: وتـكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولًا وآخرًا ، باعتبارين: للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها . « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ )

[٣٧] ( عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ )

[٣٨] ( أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ )

[٣٩] ( كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ )

«فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور، ليظفروا بما يتخذونه هزؤاً .

وعن ابن زيد : ( المهطع ) الذى لا يطرف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتصف بصفات أهلها المنوه بها قبل . « كَلَّآ » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع فى غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يعجزه إهلاكهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ )

[٤١] ( عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ )

[٤٢] ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ )

[٤٣] ( يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ )

[٤٤] ( خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ )

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و ( النصب ) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجند إلى راية الأمير . « خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الخزى والهوان . « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ما حاق بهم . « ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧١ - سورة نوح

عليه السلام

قال المهايمي : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[٢] ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

[٣] ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

[٤] ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و ( مِّن ) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لأنبتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٥ ] ( قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا )

[ ٦ ] ( فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا )

[ ٧ ] ( وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا )

[ ٨ ] ( ثُمَّ إِنِّىٓ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا )

[ ٩ ] ( ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا )

[١٠] ( فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا )

[١١] ( يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا )

[١٢] ( وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا )

[١٣] ( مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا )

[١٤] ( وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا )

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ، «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى» أى إلى التوحيد والعمل الصالح «لَيْلًا وَنَهَارًا» أى دائمًا بلا فتور ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه «جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ» أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة «وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ» أى تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى الدين «وَأَصَرُّوا۟ » أى على الشر والكفر «وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا» أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا* ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، مابين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بينى وبينهم فى خفاء . وهـذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا» أى لذنوب من تاب وأناب . «يُرْسِلِ السَّمَآءَ» أى المطر «عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندكم «وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغةً . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله. ومنه قوله(١) :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

---

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ ، من قصيدته التى مطلعها :

أساءلتَ رسمَ الدار أم لم تُسَائلِ عن السّكْن أم عن عهده بالأوائلِ ؟

السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى ـ أى يرتفع إليهم ويريدهم ، ومنه قوله تعالى: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ـ والمسكن : المنزل نفسه .

ويروى بيت الشاهد هكذا :

إذا لسعته الدَّبْرُ لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب : التى تنوب ، تجىء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تاراتٍ ، تراباً ثم نطفاً ثم عَلَقاً ثم مضغاً ثم أجنّة ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته. هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل، وينير وجه الأرض. « وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء. « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمهدونها. « لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

[٢٣] ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

[٢٤] ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾

[٢٥] ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا علىّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، «وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا »أى رؤساءهم المتبوعين، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

«وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا»أى متناهياً كبره ، فإن (الكبّار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان ( ود ) لكلب بدومة الجندل ، وكانت ( سواع ) لهذيل ، وكان (يغوث) لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان ( يعوق) لهمدان ، وكان ( نسر ) لذى الكلاع من حمير .

وقال ( فى رواية ) : والله ما عدا ـ أى كلٌّ منها ـ خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير[١] : كان من خبرهم ـ فيما بلغنا ـ من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وروى البخاريّ (١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بعدُ : أما ( ود ) ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما ( سواع ) فكانت لهذيل ، وأما ( يغوث ) فكانت لمراد ثم لبنى غُطَيف بالجرف عند سبا ، وأما ( يعوق ) فكانت لهمدان ، وأما ( نسر ) فكانت لحمير لآل ذى الكَلَاع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ العلمُ ، عبدت.

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازىّ : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعياً منه فى حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهىّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلىّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخاريّ : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازىّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُّمَام .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧١ ـ سورة نوح ، ١ ـ باب وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثانى ـ قال الحافظ ابن حجر فى ( فتح البارى ) : حكى الواقدىّ قال : كان ( ود ) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يغوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و ( نسر ) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها . انتهى .

الثالث ـ قال ابن القيّم فى ( إغاثة اللهفان ) أول ما كاد به الشيطان عبّاد الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه فقال: ( وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ .. ) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن[1] النبىّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل[2] ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، وقال[3] : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلًا ، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً .... إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦٢ ـ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذى أخرجه كذلك فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧١ ـ باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٢ عن فَضالة بن عُبَيْد ، و ٩٣ عن علىّ بن أبى طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّوا۟» أى : الرؤساء «كَثِيرًا» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى(١) : ( رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ) . «وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا» أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به «مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ» أى من أجلها «أُغْرِقُوا۟» أى بالطوفان «فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا» أى أذيقوا به عذاب النار «فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا» .

قال الزمخشريّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله، كقوله تعالى(٢) : ( أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ) .

وقال الرازىّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا )

[٢٧] ( إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا )

[٢٨] ( رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا )

«وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا» أى أحداً .

قال ابن جرير(٣) : يعنى بـ (الديّار) من يدور فى الأرض فيذهب ويجىء فيها، وهو (فيْعال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة، وأدغمت الواو فيها، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول: مابها ديّار ولا عريب ولا دَوِىّ ولا صافر ولا نافخ ضَرَمة

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٣٦ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٣ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيآتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ » قال ابن جرير[1] : أى رب اعف عنى، واستر علىّ ذنوبى وعلى والدىّ ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا » قال ابن جرير[1] : أى ولمن دخل مسجدى ومصلاى، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه. وقيل: بيتى منزلى . «وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا » أى هلاكاً وخساراً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# ٧٢ - سُورَةُ الجنّ

قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم فى تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا فى قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .

وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا )

[٢] ( يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا )

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط ـ كما فى (المجمل) ـ .

قال القاشانىّ : قد مرّ أن فى الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا فى غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيآت النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا فى صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوىّ ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوى فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبيّنا محمداً ﷺ . انتهى .

وفى الآية ـ كما قال القاضى ـ دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .

« فَقَالُوٓاْ » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا » قال المهايمىّ أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .

« عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .

« يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

## تنبيهات

الأول ـ هذا المقام شبيه بقوله تعالى[1] ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية . وقد روى البخارىّ[2] عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا ! إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ( قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ) وإنما

(١) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٩ ] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ـ سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم[1] أيضاً وزاد فى أوله : ماقرأ رسول ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثانى ـ قال الماوردىّ : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول. أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبىّ المبشر به ، وكلا الأمرين فى الجن محتمل . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : فى الآية فوائد :

إحداها ـ أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها ـ أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها ـ أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها ـ أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .

وخامسها ـ أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .

ولما سمعوا القرآن ، ووفّقوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذه صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، ونزهوه عنه ، فقالوا :

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

---

(١) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ ( طبعتنا ) .

قال ابن جرير (١) : الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جَدّ فى هـذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذى يقال له بالفارسيّة ( البخت ) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تـكون له صاحبة ولا ولد ، لأن الصاحبة إنما تـكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذى يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شىء يكون منه ولد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا )

[٥] ( وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا )

[٦] ( وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا )

« وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا » أى قولا ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة الحدّ . والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه . « وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » روى ابن جرير (٢) عن ابن عباس قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادى ، فزادهم ذلك إثماً . فى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

فى الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرًّا ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرَق .

وقال ابن زيد : كان الرجل فى الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال: إنى أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة، فإنها للإرشاد لذلك.

روى مسلم (١) عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلًا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : فى الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفى الآية تأويل غريب نقله الرازىّ . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلًا . انتهى.

والضمير المرفوع فى ( فزادوهم ) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غيًّا وإثماً وضلالًا . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوًّا .

و ( الرهق ) فى الأصل غشيان الشىء ، نخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

---

(١) أخرجه فى مسلم: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعتنا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا )

[٨] ( وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا )

[٩] ( وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأٓنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا )

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلىّ أن الجن « ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ » أى فى جاهليتكم « أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا » أى رسولًا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده ومافيه سعادتهم. أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى ( وَأَنَّهُمْ ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله ( وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ ) (وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ » أى تطلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » أى حَفَظَة ورواجم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأٓنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ، وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشرىّ : وفى قوله ( مُلِئَتْ ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك قوله ( نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] ( وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا )

« وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك ببعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ، كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

[١٢] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾

[١٣] ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ، فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾

[١٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾

[١٥] ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

[١٦] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

[١٧] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

« وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ » أى قوم دون ذلك، وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه، أو الكافرون « كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى . وهذا بيان للقسمة قبلُ . أى كنا مثلها أو ذويها . و ( الطرائق ) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه. و ( القدد ) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع ( قدّة ) كالقطعة .

« وَأَنَّا ظَنَنَّآ » أى علمنا « أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءًا « وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشرىّ : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لايفوته مطلب ، ولا يُنْجِى عنه مهرب .

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِۦ » أى صدّقنا بأنه حق من عندالله، « فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه هيأة معذبة موجبة للخسوء والطرد . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى . « وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، « فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخوا رشداً عظيما ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله ( فَمَنْ أَسْلَمَ .. ) الخ من كلام الله أو الجن. قال الزمخشرىّ: وقد زعم من لايرى للجن ثواباً، أن الله تعالى أوعد قاسطيهم، وماوعدمسلميهم، وكفى بهوعداً أن قال ( فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ) فذكر سبب الثواب وموجبه. والله أعدل من أن يعاقب القاسط، ولايثيب الراشد . « وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم، كما توقدبكفار الإنس. « وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ » أى طريقةالحق والعدل « لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوزبالماء الغدق، وهو الكثير، عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه بالأولى. « لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ماخولوا منه. « وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقًّا .

قال الزمخشريّ : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صَعَدًا وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب ، أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

« وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لايجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجُّباً مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى ( كَادُواْ ) للجن . وقد بيّن ذلك حديث البخاريّ كما تقدم . وجوّز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى: لما قام رسولاً يعبد الله وحده، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين ـ حكاه الزمخشريّ ـ ثم قال : ( لِبَدًا ) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ ( قال ) « إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا » أى فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقتى . « قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلونى بالعذاب .

قال الشهاب فى توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضرّ الغيّ ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر فى الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا غيًّا ولا رشداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ، وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

«قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءًا « وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ » استثناء من قوله ( لَآ أَمْلِكُ ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحى ، وأحكام الحق . « وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلم يسمع ما جاء به، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخروىّ . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا )

[٢٦] ( عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا )

[٢٧] ( إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا )

« قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا » أى غاية تطول مدتها. « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا » أى حرسًا من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانىّ : ( رصداً ) أى حفظة إما من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإما من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشرىّ : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم، وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة ، وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التى بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التى من جملتها قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبدا . على أن بيان وقته مُخلّ بالحكمة التشريعية التى عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفى كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم عدم حصول مرتبةٍ ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما فى رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحى الصريح . انتهى

وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسفىّ فى الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان ﻟ (من ارتضى) . والولىّ إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولىّ فهى معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازىّ : وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه ـ يعنى الزمخشرىّ ومن تابعه ـ والذى تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لايظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله: ( إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ) يعنى : لاأدرى وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : ( عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لايظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : ( على غيبه ) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : ( إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ) مع أنه لايظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال[1] ( وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك .

وناقشه فى العناية بأن المرضىّ حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه .

هذا ، ونقل النسفى عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم: فى هذه الآية تكذيب المنجمة، وليس كذلك، فإن فيهم من يصدق خبره، وكذلك المتطببة فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لايعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره ، وبقى علمه فى الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقهة زعماً بأن معرفة مواقيت الكسوف، وخواص المفردات

---

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٥ ] .

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب فى شيء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبيّ أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة. وقد أرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل إذ قال[1] (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى. فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

«لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ» متعلق بـ (يَسْلُكُ) غاية له. والضمير إما لـ (الرصد)، وإما لـ (مَنِ ارْتَضَىٰ). والجمع باعتبار معنى (من). أى ليبلغوا، فيظهر متعلق علمه. وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة فى الحث عليه، والتحذير عن التفريط فيه. «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» أى بما عند الرصد، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْلُكُ) جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى فى العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد. «وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» أى فردًا فردًا لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره.

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم فى: ٤٣ ـ كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٣ - سورة المزمل

قال المهايميّ : سميت به لدلالته على عظم أمر الوحي ، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل .

وهي مكية ، قيل : إلا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ » إلى آخر السورة ، وآيها عشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾

[٢] ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[٣] ﴿ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾

[٤] ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ » أي المتزمل . من ( تزمل ) بثيابه إذا تلفف بها . فأدغم التاء في الزّاي خوطب ﷺ بحكاية حاله وقت نزول الوحي ، ملاطفةً وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمل الزِّمْلَ ، إذا تحمل الحمل . ففيه استعارة . شبّهَ إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة .

قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقيّ ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت في نزول سورة ( المدثر ) لا في هذه السورة ، كما سيأتي إن شاء الله ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد .

« قُمِ ٱلَّيْلَ » أي : فيه للصلاة ، ودع التزمل للهجوع « إِلَّا قَلِيلًا » أي بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن ومهماته التي لا يمكن بقاؤه بدونها .

ثم بيّن تعالى قدر القيام مخيراً له بقوله : « نِّصْفَهُۥٓ » أي نصف الليل بدل من الليل . « أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ » أي من النصف « قَلِيلًا » أي إلى الثلث .

« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » أي النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلًا وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عديله .

« وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا » أى بيّنه تبييناً ، وترسّل فيه ترسلًا .

قال الزمخشريّ : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذًّا ، ولا يسرده سرداً .

تنبيه :

قال السيوطيّ : فى الآية استحباب ترتيل القراءة، وأنه أفضل من الهذّ به، وهو واضح. وقد ثبت فى السُّنَّة أنه ﷺ كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً، وأنه كان يقف على رؤوس الآى .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبُّر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبُّره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل. قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا )

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » أى رصيناً ، لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عداه . ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوّز بالثقيل عنه . أو ثقيلًا على المتأمّل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلًا تلقّيه ، لقول عائشة[1] رضى الله عنها : رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وعلى كل فالجملة معللة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخاريّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا )

« إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره « هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا » أى موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال . « وَأَقْوَمُ قِيلًا » أى أسدّ مقالًا وأصوبه .

قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول، ولا يكون دون تسمّعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطىّ عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هى المعانى المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أثراً . وأقوم قيلًا ، أصحّ مما تخرجه الأفكار بالنهار ، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا )

[٨] ( وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا )

[٩] ( رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا )

« إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » أى تقلباً فى مهماتك ، واشتغالًا بها، فلذا أمرت بقيام الليل . « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » أى دم على ذكره ليلًا ونهاراً . قال الزمخشرىّ : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره. « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » أى أخلص إليه ، بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيما . « رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أى تكل إليه مهامك، فإنه سيكفيكها.

قال ابن جرير[١] : أى فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا )

[١١] ( وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا )

[١٢] ( إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا )

[١٣] ( وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا )

[١٤] ( يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا )

« وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى من الأذى والفرى « وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى بالإعراض عن مكافأتهم بالمثل ، كما قال تعالى[(١)] ( وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ) « وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ » أى دعنى وإياهم، وكِلْ أمرهم إلىّ، فإن بى غنية عنك فى الانتقام منهم . « أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ » أى التنعم ، يريد صناديد قريش ومترفيهم . « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » أى تمهل عليهم زماناً ، أو إمهالًا قليلًا. « إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا » أى قيودًا «وَجَحِيماً» أى ناراً شديدة الحرّ والاتّقاد « وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ » أى يغصُّ به آكله فلا يسيغه ، « وَعَذَاباً أَلِيماً » أى ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلماً لايعرف كنهه . أى فلا ترى موكولًا إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . « يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ » أى تضطرب وترتجّ بالزلزال ، « وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا » أى رملًا متفرقاً منثوراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا )

[١٦] ( فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا )

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٤٨ ].

« إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ » أى بإجابة من أجاب وإباء من أبى « كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » أى يدعوه إلى الحق. « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا » أى ثقيلًا ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً فى اليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا )

[١٨] ( ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ، كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا )

[١٩] ( إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا )

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا » أى كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله فى الهول ما ذكر .

قال ابن أبى الحديد : يقال فى اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصى الأطفال ، كلام جار مجرى المثل. وليس ذلك على حقيقته، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حُلاهم فى الآخرة إلى الشيب . والأصل فى هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعاً . قال أبو الطيب(١) :

والهم يخترم الجسيم نحافةً ويشيب ناصية الصبيّ ويُهرِمُ

« ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ » قال الزمخشريّ : وصف لليوم بالشدة أيضاً. وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد وجوه : منها ـ تأويله بالمشتق . ومنها ـ أنها على النسب ، أى ذات انفطار ، نحو : مرضع وحائض . ومنها ـ أنها تذكر وتؤنث .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِهوَى القلوب سريرة لا تعلَمُ عَرَضاً نظرتُ وخِلْتُ أنّى أسْلَمُ

الديوان ص ٢١٨ ( طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ ) .

ومنها ـ أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فيقال : سماءة ، وفى اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء فى ( بِهِ ) سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى ( فى ) .

« كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا » أى لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم . « إِنَّ هَٰذِهِۦ » أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد « تَذْكِرَةٌ » أى موعظة لمن اعتبر بها واتعظ، « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » أى بالإيمان به ، والعمل بطاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ، وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ،وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ )

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ » أى تتهجد فيه هذه التارات المختلفة ، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالًا لأمره وتبتلًا إليه ، « وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ » أى يعلمهم كذلك ، « وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى أن يجعلهما على مقادير يجريان عليها، فتارة يعتدلان، وتارة يزيد أحدهما فى الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم ـ أشار إليه ابن كثير ـ . أو المعنى : يقدر فيهما ما شاء من الأوامر . ومنه تقديره فى قيام الليل ما قدره ، مما أمر به أول السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً . « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ » أى قيام الليل ، على النحو الذى

دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للحرج والعسر « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى عاد عليكم باليسر ورفع الحرج . « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ » أى فى صلاة الليل بلاتقدير . أو المراد : لاتتجاوزوا ماقدره لكم، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم فى قيام الليل كله، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى الكمالات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلى الليل كله ، مخافة أن لايصيب مما أمر به من قيام مافرض عليه ـ نقله الرازىّ ـ .

« عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ » أى يضعفهم المرض عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » أى للتجارة وغيرها ، فيقعدهم ذلك عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى لنصرة الدين ، فلا يتفرّغون للقيام فيه « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى من القرآن. ولا تحرّجوا أنفسكم، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

## تنبيهات :

الأول ـ ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

روى ابن جرير[1] عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب ـ وكان بهم رحيما ـ فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : ياأيها الناس ؟ اكلفوا من الأعمال ماتطيقون، فإن الله لايمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال مادمتم عليه . ونزل القرآن . ( يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ... ) الآية، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله مايبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل

قال ابن كثير : والحديث فى الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة . وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هى مكية . انتهى كلامه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أقول : وبمثل هــذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : ( ونزلت الآية ) الاستشهاد بها فى قضية تنطبق عليها ـ كما بيناه مراراً ـ .

وأخرج أيضاً [١] عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا . فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا ( عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم . . . ) الآية . فوسع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيق .

وعن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ) قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت ( فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ) فاستراح الناس .

وهكذا روى عن سعيد والحسن وعكرمة وقتادة .

قال ابن حجر فى ( شرح البخارىّ ) : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره المروزىّ . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : قوله تعالى ( قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ) هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به على ندب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبىّ ﷺ خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً ، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة مّا فيه . وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للندب ، يرى أن آخر السورة تعليمٌ لهم الرفقَ بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه ما يدل على عنايتهم بالمندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة فى ربطهم الحبل للتعلق به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثانى ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى ( فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ) تعبير عن

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان [١] ( وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ) أى بقراءتك .
وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه . واعتضدوا بحديث (المسيء صلاته ) الذى فى الصحيحين [٢] : ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين [٣] أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : لا صلاة إلا أن تقرأ بفاتحة الكتاب . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى ( وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ) علم من أعلام النبوّة .
قال ابن كثير : هذه الآية ، بل السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوّة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

الرابع ـ قال ابن الفرس : فى قوله ( وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ) فضيلة التجارة ، لسوقها فى الآية مع الجهاد .
أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتينى عليه الموت بعد الجهاد فى سبيل الله ، أحب إلىّ أن يأتينى وأنا ألتمس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية .
وقال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى التجارة .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١١٠ ] .
(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦١ ، عن أبى هريرة .
وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٤٥ ( طبعتنا ) .
(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦٠ .
وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، حديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ( طبعتنا ) .

« وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ » أى زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة .

«وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » يعنى به بذل المال فى سبيل الخيرات على أحسن وجه ، كأن يكون من أطيب المال ، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المنّ والأذى . وسر الأمر بـ ( الحسن ) أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالى بأى شىء وأى مقدار يعطى منه ، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا . « وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ » أى فى الدنيا من صدقة أو نفقة فى وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر « تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » أى ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا . « وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ » أى سلوه غفران ذنوبكم ، « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »أى ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب ، ورحمة أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

---

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٤ – سورة المدثر

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت فى صحيح البخارىّ عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى ( ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ) كما سيأتى بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخارىّ(١) عن يحيي بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ) . قلت: يقولون ( ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . قال ، فدثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . فنزلت ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ) .

وروى الشيخان أيضاً(١) عن الزهرىّ قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧٤ ـ سورة المدثر، ١ ـ حدثنى يحيي حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ ( طبعتنا ) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبيّ ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فجُئِثْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى . فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذى جاءنى بحراء) وهوجبريل حين أتاه بقوله ( ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعدُ . هذا وجه الجمع : أن أول شيء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة .

وروى الطبرانىّ عن ابن عباس؛ أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هـــذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ )

[٢] ( قُمْ فَأَنذِرْ )

[٣] ( وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ )

[٤] ( وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ )

[٥] ( وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ )

[٦] ( وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ )

[٧] ( وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ )

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلى الجسد . وأصله ( المتدثر ) فأدغم . خوطب بذلك لحالته التى كان عليها وقت نزول الوحى . أو لقوله : دثرونى ــ كما تقدم ــ . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى ( خلة ) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أوفى الإحاطة . والأول أتم .

« قُمْ » أى من مضجعك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل ( وَبَشِّرْ ) لأن كان فى ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير.

« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير(١) أى فعظم بعبادته ، والرغبة إليه فى حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشانىّ : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير، لا يعظم فى عينك غيره ، ويصغر فى قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .

«وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى: بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .

قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة . ثم أنشد لغيلان بن سلمة(٢) الثقفىّ :

وإنى ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر    لبستُ ، ولا مِنْ غَدْرَةٍ أتقنَّعُ

وفى الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفى الثانى تجوّز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرّون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفىّ .

قال فى اللسان ( ث و ب ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورٍ كفرٍ . واحتجّ بقول الشاعر :

إنى بحمد الله ، لا ثوب غادر    لبستُ ولا عن خَزْيَةٍ أتقنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنترة (١) :

* فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بِمُحَرَّمِ *

واستصوب ابن الأثير فى ( المثل السائر ) الوجه الأول . قال فى الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى ( وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا الملبوس . وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع فى تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه (٢) :

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن ، إذا التقى الجمعانِ

تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه ... مثلَ الجبان بكفِّ كل جبانِ . انتهى

ويكفى دليلًا ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر فى الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

---

(١) من معلقته التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ ؟

المتردَّم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهى .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أولٌ ، وهى المحل الثانى

الديوان ( ص ٤١٢ ) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ » أى اتركه . و ( الرجز ) بكسر الراء كالرجس والسين والزاى يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و ( الرجس ) اسم للقبيح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله [١] : ( فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق . والجملة من جوامع الكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهجر الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر مايؤدى إليه من الشرك والمعاصى . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سببه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرئ بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره .

« وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال [٢] : ( هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوّز القفّالُ أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء . فسمى طلب الثواب استكثاراً حملًا للشيء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

---

(١) [ ٢٢ / الحج / ٣٠ ] . (٢) [ ٣٨ / ص / ٣٩ ] .

وسر النهى أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالاً وعلوّ همة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسين للمدّ والوجدان . وسبق فى سورة الروم فى قوله تعالى[1] : (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ) كلام فى هذه الآية أيضاً فارجع إليه .

« وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ » أى نفخ فى الصور. و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هيّن ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفى قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

(١) [ ٣٠ / الروم / ٣٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

[١٢] ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾

[١٣] ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾

[١٤] ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾

[١٥] ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾

[١٦] ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾

[١٧] ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا » أى مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والمجامع، أو حضوراً معه يأنس بهم، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخروىّ . وهذا أظهر لقوله « كَلَّآ » أى لا يكون ما يأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ـ قاله الزمخشرىّ ـ .

قال الشهاب: ومعنى كونه مثلًا ، أنه شبه مايسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

فى الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُۥ فَكَّرَ » أى ماذا يقول فى هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ » أى فى نفسه ما يقوله وهيأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلاق ما يكذبه وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و ( ثُمَّ ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للعطف بـ ( ثُمَّ ) الدالة على تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده . ولذا ساغ العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشرىّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجيبا من تقديره وإصابته فيه المحزّ ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾

[٢٢] ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾

[٢٣] ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾

[٢٤] ﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾

[٢٥] ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾

« ثُمَّ نَظَرَ » أى فى ذلك المقدّر . أى تروّى فيه . قال الرازىّ : وهـذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : ( ثُمَّ نَظَرَ ) أى فى وجوه القوم .

« ثُمَّ عَبَسَ » أى قطب وجهه كبراً وتهيوءًا لقذف تلك الكبيرة « وَبَسَرَ » أى كلح وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخاتلتـه ، والحسود فى آثار حقده على صفحات وجهه . « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَاسْتَكْبَرَ » أى عن الإيمان به . « فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأثره عن غيره . « إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومىّ ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولـكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالو : ما هو بساحر . لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: والله ! إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمرّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة، وفى ذلك ، من قوله ( ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ... ) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات ـ رواه بن جرير [(١)] ـ .

وثم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبيّ عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر فى ( الإصابة ) : والصواب خالد وهشام والوليد . فأما عمارة ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشا بعثوه للنجاشيّ ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبيّ ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبى معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلّى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( سَأُصْلِيهِ سَقَرَ )

[٢٧] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ )

[٢٨] ( لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ )

[٢٩] ( لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ )

[٣٠] ( عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ )

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم. وهو بدل من ( سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ) بدل اشتمال، لاشتمال ( سَقَرَ ) على الشدائد . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ » قال الزمخشرىّ : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شىء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ » أى محرقة للجلود ، من ( لوّحته الشمس ) إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . و ( الْبَشَر ) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد. أو اسم جنس بمعنى الناس. وجوّز أن يكون المعنى: لائحة للناس، من ( لاح ) بمعنى ظهر ، والبَشَر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولِّين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأُخروىّ ، تفوق زبانية الجبابرة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ )

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ » أى خزنتها « إِلَّا مَلَائِكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا، وأشدهم غضباً لله ، ليباينوا جنس المعذبين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائىّ : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبىّ : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من المتشابه الذى أمروا بالإيمان به .

« لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى رسالة النبيّ صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ ( جَعَلْنَا ) الثانية .

فإن قيل: كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد، معللًا باستيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشىء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدها ـ جعل الشىء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما ـ الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عددًا يقتضى فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان. . . الخ. وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمشاكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ . . . الخ ـ هذا ما قرّره شرّاح القاضى ـ .

«وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» أى حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلًا . وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازىّ : إن قيل : لم سموه مثلًا ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مرادُ الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشىء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

« كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » قال الزمخشرىّ : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال فى تنزيله، وإلا فلا يعلم جنوده التى يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب النار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ ( سقر ) . وقيل : للآيات . والأقرب عندى هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأييده لما قبله بالمعنى الذى ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( كَلَّا وَالْقَمَرِ )

[٣٣] ( وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ )

[٣٤] ( وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ )

[٣٥] ( إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ )

[٣٦] ( نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ )

[٣٧] ( لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ )

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر .

« وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » أى أضاء. ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم فى سورة ( الصافات ) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم، فنصبه على أنه تمييز عن ( إحدى ) لما تضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً. ف( نذيراً ) بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار. أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة. أى كبرت منذرة ، ف(نذيراً) مصدر مؤول بالوصف، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف. و (لمن) بدل من ( للبشر ) أى منذرة لمن شاءوا التقدم والفوز، أو التأخر والهلاك. أو خبر مقدم ، و ( أَن يَتَقَدَّمَ ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضأ أن يصلى ، كآية[1] ( فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ) وفى الثانى بُعْدٌ . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ )

[٣٩] ( إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ )

[٤٠] ( فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ )

[٤١] ( عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ )

[٤٢] ( مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ )

[٤٣] ( قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ )

[٤٤] ( وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ )

[٤٥] ( وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ )

(١) [ ١٨ / الكهف / ٣٩ ] .

[٤٦] ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾

[٤٧] ﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾

[٤٨] ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. « فِي جَنَّاتٍ » أى هم فى جنات لايدرك وصفها « يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه ( دعوته وتداعيناه ) .

وقال القاشانىّ : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأنا سألناهم عن حالهم بقولنا :

«مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا » أى بلسان الحال أو المقال «لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحات البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية، والخوض فى الباطل، والهزء والهذيان، والتكذيب بالجزاء، وإنكار المعاد. « حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » أى من نبيّ أو ملَك ، لو قدر على سبيل فرض المحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير(١) : أى فما يشفع لهم الذين شفعهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفِّع بعض خلقه فى بعض .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ )

[٥٠] ( كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ )

[٥١] ( فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ )

[٥٢] ( بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً )

[٥٣] ( كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ )

[٥٤] ( كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ )

[٥٥] ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ )

[٥٦] ( وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ )

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعظوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة النفار . « فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصبة قنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبىّ ﷺ . ونحوه آية(١) ( وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ) وآية(٢) ( وَلَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ) وآية(٣) ( وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . . ) الآية .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٢٤ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٩٣ ] .
(٣) [ ٦ / الأنعام / ٧ ] .

« كَلَّآ » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال : « بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ، لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان بتنزيله . « كَلَّا » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى فاتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » أى ذكرهم واتعاظهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ، مما كان يخامره من إعراضهم، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى حقيق بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٥ – سورة القيامة

قال المهايميّ : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ، بحيث تتحسّر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .

وهي مكية . وآيها أربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ )

[٢] ( وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ )

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ » قال القاشانىّ : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، فى القسم بهما ، تعظيما لشأنهما ، وتناسبًا بينهما . إذ النفس اللوامة ، هى المصدقة بها ، المقرة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً فى التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة فى الخير ، وأعمال البر ، تيقنًا بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانا .

ومر الكلام على ( لَآ أُقْسِمُ ) فى مواقعه قبل هذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ )

[٤] ( بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ )

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ » عليه ، وهو لتبعثُنّ . قال القاشانىّ : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .

« بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ » أى بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التى هى أطراف خلقته وتمامها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ )

« بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شيء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : ( أَمَامَهُۥ ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر فى المستقبل . على أن إرادته وحسبانه هما عين الفجور . وفى إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونعى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه. وقيل: حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشانىّ : أى ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، و كونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها ، متعنتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ )

[٧] ( فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ )

[٨] ( وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ )

[٩] ( وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ )

[١٠] ( يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ )

[١١] ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾

[١٢] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾

[١٣] ﴿ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » أي متى يكون ؟ استبعاداً وهزؤاً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله ( يفجر ) ، أو بدل منه والاستئناف بيانيّ ، كأنه قيل: لِمَ يريد الدوام على الفجور ؟ قيل : لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ » أي تحير ودهش. أي لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أي عند الموت . « وَخَسَفَ الْقَمَرُ » أي ذهب ضوؤه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أي جمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلاضوء لواحد منهما . وقيل: إنهما يجمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه[١] ( إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ) قال ابن زيد : جمعا فرمى بهما في الأرض . « يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » أي الفرار . أي يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب المفر ، « لَا وَزَرَ » أي لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » أي مستقر العباد، من نار أو جنة . أي مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ » أي من عمله الذي يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أي منه ففرط وقصر فيه ولم يعمله .

قال الشهاب : ( مَا قَدَّمَ ) كناية عما عمل ، و ( ما أخر ) ما تركه ولم يعمله . وهو مجاز مشهور فيما ذكر. أو ماقدمه، ماعمله، وماأخره، عمل من اقتدى به بعده عملًا له، كأنه وقع منه .

---

(١) [ ٨١/ التكوير / ١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ )

[١٥] ( وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ )

« بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ » قال القاشانىّ : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيآت أعماله المكتوبة عليه فى نفسه ، ورسوخها فى ذاته ، وصيرورة صفاته صور أعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : ( بَصِيرَةٌ ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو ( بَصِيرَةٌ ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازىّ . أو هى بمعنى دالة مجازًا . أو هو استعارة مكنية وتخييلية . و ( ٱلْإِنسَـٰنُ ) مبتدأ ، و ( بَصِيرَةٌ ) خبره ، و ( عَلَىٰ ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة ( حجة ) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلًا عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم ، وأنهم فى دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن ينكر القلب ماتدفعه الفطرة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجىء بالعذر بإلقاء الدلو فى البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروىّ للعطش .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ )

[١٧] ( إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ )

[١٨] ( فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ )

[١٩] ( ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ )

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ » أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلت منك . « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ » أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء. « وَقُرْءَانَهُۥ » أى أن تقرأه بعدُ فلا تنسى « فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ » أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام، « فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ » أى كن مقفياً له ولا تراسله . « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ » أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نبيِّنه على لسانك .

## تنبيهات :

الأول ـ ما ذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرهما. ولفظ البخارىّ(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه إذا أُنزل عليه ، فقيل له ( لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ) يخشى أن يتفلت منــه ( إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ) أن نجمعه فى صدرك ( وَقُرْءَانَهُۥ ) أن تقرأه ( فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ ) يقول أنزل عليه ( فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ) أن نبيّنه على لسانك. زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبىّ ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تكلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . يعنى : أن هـذه الآية نظير قوله تعالى(٢) ( وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث رقم ٥ .
(٢) [ ٢٠ / طه / ١١٤ ] .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبيّ والحسن البصريّ وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت فى ذلك، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحى.

الثانى ـ ذكروا فى مناسبة وقوع الآية معترضة فى أحوال القيامة ـ على تأويلهم المتقدم ـ وجوهاً :

منها ـ تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان ـ والمرء مفتون بحب العاجل ـ حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذى هو منشأ الكفر والعناد، المؤدى إلى إنكار الحشر والمعاد. فالنهى عن العجلة فى هذا يقتضى النهى فيما عداه ، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه. قاله الشهاب .

ومنها ـ أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية فى الدنيا التى تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال فى الكهف[1] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) إلى أن قال[2] ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ) الآية . وقال فى طه[3] ( يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ) إلى أن قال[4] ( فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ) .

ومنها ـ أن أول السورة لما نزل إلى قوله (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ) صادف أنه ﷺ فى تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذى نزل، وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ) إلى قوله ( ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ) ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازيّ : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألق إلىّ بالك ، وتفهم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٩ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٨٩ ] .
(٣) [ ٢٠ / طه / ١٠٢ ] . (٤) [ ٢٠ / طه / ١١٤ ] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك ـ قاله الحافظ ابن حجر فى ( فتح البارى ) ـ .

الثالث ـ استدلوا على التأويل السابق بقوله تعالى ( ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخى . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضى أبو بكر بن الطيب، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان، فلا! .

قال الآمدىّ : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان المجمل . يقال ( بان الكوكب إذا ظهر ) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والمجمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمر المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصرىّ : يجوز أن يراد البيان التفصيلىّ ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالىّ ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله ( بيانه ) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك ـ قاله الحافظ فى ( الفتح ) ـ .

وجوز القفال أن تكون ( ثم ) للترتيب فى الإخبار . أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب. وضعفه الرازىّ بأنه ترك للظاهر من غير دليل.

الرابع ـ ما قدمناه من معنى قوله تعالى : ( لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل فى مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازى ـ: إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله[1] ( يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له[2] (ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ) . فإذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف،

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٣ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٤ ] .

وسرعة القراءة ، فيقال له ( لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد فى الدنيا ، وأشد التهويل فى الآخرة .

ثم قال القفّال : فهذا وجه حسن ، ليس فى العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق .

وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بيّن الأئمة المناسبة التى أثرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه ـ هو فيما يظهر ـ فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثره على المأثور ، الذى قد يكون مدركه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبىّ ﷺ فى تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان فى مبدأ البعث النبوىّ ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع ـ كما قال ابن حجر ـ أن يخبر النبىّ ﷺ بذلك بعدُ ، فيراه ابن عباس، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ )

[٢١] ( وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ )

[٢٢] ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ )

[٢٣] ( إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ )

[٢٤] ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ )

[٢٥] ( تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ )

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها . « وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » أى كالحة ، لجهامة هيآتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تفصم فقار الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من ( بها ) إلى الوجوه ـ مراداً بها الذوات ـ شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ )

[٢٧] ( وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ )

[٢٨] ( وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ )

[٢٩] ( وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ )

[٣٠] ( إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ )

« كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أعالى الصدر . وإضمارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماويّ مَا يُغْنِى الثَّرَاء عَنِ الْفتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قال الرازيّ : يكنى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنـــه قول دريد ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعتُ عنها وقد بلغَتْ نفوسُهُمُ التَّراقِى

ونظيره قوله تعالى [١] : ( حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ) . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » قال [٢] ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أوطبيب. وجوز كونه بمعنى الإنـكار ، يأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .

لطيفة .

قال الواحديّ : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن . فلايجوز إظهار نون ( مَنْ )فى قوله ( مَنْ رَاقٍ ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فىقوله ( مَنْ رَاق) و ( بَلْ رَانَ) قال أبو على الفارسيّ : ولا أعرفوجه ذلك . قال الواحديّ : والوجه أن يقال قصد الوقف على ( مَنْ ) و ( بَلْ ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدها . وهـذا غير مرضيّ من القراءة . انتهى نقله الرازيّ .

« وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به، أنه فراقالدنيا والأهلوالمال. « وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما ساقاه ، إذا التفتا فى الـكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة ( القلم ) . والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الـكشف عن الساق، ووجهه ظاهر، لأن المصاب يكشف عن ساقه ، فـكيف ينزل هذا عليه ؟

قلت : الأمر كما ذكرت ، لـكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحـده ، حتى صار

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٣ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

عبارة عن كل أمر فظيع ـ كما أشار إليه الراغب ـ انتهى .

« إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » أي سوقه إلى حكمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ )

[٣٢] ( وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ )

[٣٣] ( ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ )

[٣٤] ( أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ )

[٣٥] ( ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ )

[٣٦] ( أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى )

[٣٧] ( أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ )

[٣٨] ( ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ )

[٣٩] ( فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ )

[٤٠] ( أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ )

« فَلَا صَدَّقَ » أي بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أي ما زكاه « وَلَا صَلَّىٰ » أي الصلاة التي هي رأس العبادات ، التي سها عنها . « وَلَٰكِن كَذَّبَ » أي بدل التصديق « وَتَوَلَّىٰ » أي بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى « ثُمَّ » أي مع هـذه التقصيرات في جنب الله تعالى « ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ » أي يتبختر في مشيته . وأصله ( يتمطط ) أي يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

## تنبيهات

الأول ـ الضمير في الآيات للإنسان المتقـدم في قوله تعالى ( أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ ) .

الثانى ـ قال الرازىّ : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولـكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى ، ولـكنه تولى ، وأعرض . وأما مايتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال فى مشيته .

الثالث ـ دلت الآية على أن الـكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع ـ قال الرازىّ : قال أهل العربية : (لا) ههنا فى موضع (لم) فقوله : ( فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ) أى لم يصدق ولم يصلّ ، وهو كقوله (١) ( فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ) أى لم يقتحم . وكذلك ما روى (٢) : أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الـكسائىّ : لم أر العرب قالت فى مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحاً بها ، أومقدراً. أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولايقولون مررت برجل لايحسن ،حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدرفهو كقوله ( فَلَااقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ) ثم اعترض الـكلام فقال ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَٰمٌ ) وكان التقدير : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير فى قوله ( فَلَا اقْتَحَمَ ) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم . انتهى « أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ » أى ويل

(١) [ ٩٠ / البلد / ١١ ] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٦ ـ باب الـكهانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، ونصه : أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، فقتلت ولدها الذى فى بطنها . فاختصموا إلى النبىّ ﷺ فقضى أن دية ما فى بطنها غرةٌ : عبد أو أمَةٌ . فقال ولىّ المرأة التى غرمت : كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبىّ ﷺ : إنما هذا من إخوان الـكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاءً متكررا متضاعفا .

وقيل : المعنى بُعْدًا لك . فبعداً فى أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً فى أمر أخراك ـ حكاه الرازىّ عن القاضى ـ ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً :

أحدها ـ أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثانى ـ أنه شىء قاله النبىّ ﷺ لعدوه ـ يعنى أبا جهل ـ فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث ـ أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يا محمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لاقبل لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول ـ .

لطيفة :

تفسير ( أَوْلَىٰ لَكَ ) بـ ( ويل لك ) قال الشهاب : هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمعىّ أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام فى لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائىّ من (الولى) واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمعىّ : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه ( أفعل ) من الويل ، فقلب . وقيل فَعْلَىٰ ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و ( لك ) الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبنىّ ، ومعناه وَلِيَك شر بعد شر .

ونقل الزمخشرىّ عن أبى علىّ أنه عَلَمٌ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل ( يوم أيوم ) غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل ، لا يسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس . فما ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعني : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى » أي : هملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ، مع أنه الإنسان الذي أودع العقل وعلِّم البيان ، وغرز في طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً في متاهة جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله:

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ » أي يصبّ في الرحم .

« ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً » أي دماً « فَخَلَقَ » أي قدّر أعضاءه « فَسَوَّىٰ » أي سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها .

« فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ » أي الصنفين « ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أي لبقاء نوعه ، يعمر الدنيا إلى الأجل الذي كتبه وقدره .

«أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ» أي فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة.

وقد روى أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأها قال: سبحانك ، فبلى ـ رواه أبو داود عن رجل من الصحابة. ورواه أيضاً عن أبي هريرة بلفظ: من قرأ (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فانتهى إلى (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ) فليقل : بلى . ورواه الإمام أحمد والترمذي أيضاً ـ والله أعلم ـ .

---

بحمده تعالى وعونه ، كمل هذا الجزء في أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمنزلنا في زقاق الكتبي ، في خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكاتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسميّ

الدمشقيّ

---

تمّ الجزء السادس عشر، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر، وفيه تفسير ما بقى من سور الكتاب الكريم

# فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء


| رقم السورة واسمها | رقم الصفحة | رقم السورة واسمها | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٥٦ ـ سورة الواقعة | ٥٦٤٥ | ٦٦ ـ سورة التحريم | ٥٨٥١ |
| ٥٧ ـ سورة الحديد | ٥٦٧٠ | ٦٧ ـ سورة الملك | ٥٨٧٤ |
| ٥٨ ـ سورة المجادلة | ٥٧٠٤ | ٦٨ ـ سورة نٓ | ٥٨٩١ |
| ٥٩ ـ سورة الحشر | ٥٧٣٣ | ٦٩ ـ سورة الحاقة | ٥٩١٠ |
| ٦٠ ـ سورة الممتحنة | ٥٧٥٧ | ٧٠ ـ سورة المعارج | ٥٩٢٣ |
| ٦١ ـ سورة الصف | ٥٧٨٠ | ٧١ ـ سورة نوح | ٥٩٣٢ |
| ٦٢ ـ سورة الجمعة | ٥٧٩٦ | ٧٢ ـ سورة الجن | ٥٩٤٢ |
| ٦٣ ـ سورة المنافقون | ٥٨٠٦ | ٧٣ ـ سورة المزّمل | ٥٩٥٧ |
| ٦٤ ـ سورة التغابن | ٥٨١٧ | ٧٤ ـ سورة المدّثر | ٥٩٦٩ |
| ٦٥ ـ سورة الطلاق | ٥٨٢٨ | ٧٥ ـ سورة القيامة | ٥٩٨٧ |


رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٩٤/١٩٧٠

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[ ٣٨ / ص / ٢٩ ]

# تفسير القاسمي

المسمّى

# محاسن التأويل


تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م


## الجزء السابع عشر

وفيه تفسير : ٧٦ ـ سورة الإنسان ، وما بعدها ، إلى ١١٤ ـ سورة الناس

---

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي


عيسى البابي الحلبي وشركاه

## كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

**الأمير شكيب أرسلان**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

## كلمة

مصلح العصر الإمام

**السيد محمد رشيد رضا**

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

## كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

**الشيخ محمد بهجة البيطار**

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٦ - سورة الإنسان

وتسمى سورة ( الدهر ) و ( الأمشاج ) و ( هل أتى ) وهى مكية وآيها إحدى وثلاثون .

رَوَى الإمام مسلم[١] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ـ الم تنزيل السجدة ـ و ـ هل أتى على الإنسان .

(١) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)

« هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا » أى فى ذلك الحين ، بل كان شيئاً منسياً ، نطفته فى الأصلاب . والاستفهام للتقرير .

قال الشهاب : أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه ، والمقرر به من ينكر البعث . وقد علم أنهم يقولون : نعم ، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه . فيقال لهم : فالذى أوجدهم بعد أن لم يكونوا ، كيف يمتنع عليه إحياؤهم بعد موتهم ؟ والمراد بالإنسان جنس بنى آدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى ذات أخلاط ، وهى موادّها المؤلفة منها . جمع مَشَج أو مشيج . كسبب وأسباب ، ونصير وأنصار . أو مفرد ، كبرمة أعشار ( البرمة القدر . وأعشار أى منكسرة كأنها صارت عشر قطع ) انتهى « نَّبْتَلِيهِ » أى نختبره . والجملة فى موضع الحال أى خلقناه مبتلين له ، أى مريدين ابتلاءه ، لا عبثا وسدى « فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » أى لننظر هل يصرف سمعه وبصره إلى استماع آيات الله والنظر فيها . ولما كان تمام المنّة بهما بهبة العقل ، أشار إليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » أى سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك . أى عرّفناه وبينا له

ذلك، بأدلة العقل والسمع « إِمَّا شَاكِرًا » أى بالاهتداء والأخذ فيه « وَإِمَّا كَفُورًا » أى بالإعراض عنه . ونصبهما بـ ( يكون ) مقدرة . أى ليكون إما شاكراً وإما كفوراً . أى ليتميزشكره من كفره، وطاعتهمن معصيته. كقوله(١) ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) .

( قال الرازىّ ) قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قدنصحت لك ، إن شئت فاقبل وإن شئت فاترك . أى فإن شئت فتحذف الفاء . فكذا المعنى ( إنا هديناه السبيل ) فإماشاكرا وإما كفوراً. فتحذف الفاء. وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد . أى إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر ، وإن شاء فليشكر . فإنا أعتدنا للكافرين كذاوللشاكرين كذا. كقوله(٢) (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ) انتهى .

لطيفة :

قال فى ( النهر ) : لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال ( شاكراً ) ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر قال « كَفُورًا » بصيغة المبالغة . انتهى .

وهذا ألطف من القول بمراعاة رؤوس الآى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا )

« إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ » أى ليقادوا بها ويستوثق بهـا منهم شدًّا فى الجحيم « وَأَغْلَٰلًا » أى لتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم « وَسَعِيرًا » أى نارا تسعر عليهم فتتوقد .

---

(١) [ ٦٧ / الملك / ٢ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ٢٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا )

[٦] ( عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا )

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ » أى الذين برّوا بطاعتهم ربهم فى أداء فرائضه واجتناب معاصيه « يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ » أى خمر ، أطلقت عليها للمجاورة « كَانَ مِزَاجُهَا » أى ما تمزج به « كَافُورًا » قال ابن جرير[1]: يعنى فى طيب رائحتها كالكافور . ولما كان الكافور من أطيابهم كان كناية عما يطيب به مما له عرف ذكىّ « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » أى يثيرونها من منابعها فى روض الجنة ، إثارة مبهجة، تفنناً فى النعيم . و(عيناً) منصوب بنحو ( يؤتون ) . والباء فى ( بها ) بمعنى من . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا )

« يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ » استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم ، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار إجمالًا . كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟ « وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ » أى عذابه « مُسْتَطِيرًا » منتشراً ظاهراً للغاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا )

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ » أى مع حب الطعام، كقوله[2] ( حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ » أو على حب الله تعالى ، لما سيأتى من قوله[3] ( لِوَجْهِ ٱللَّهِ ) « مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٣ / آل عمران / ٩٢ ] . (٣) [ ٧٦ / الإنسان / ٩ ] .

وَأَسِيرًا » أى مأسوراً من حرب أو مصلحة . وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم . فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه . واليتيم مات من يعوله ويكتسب له ، مع نهاية عجزه بصغره . والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة .

قال فى ( الإكليل ) : والآية تدل على أن إطعام المشرك مما يتقرب به إلى الله تعالى ، أى لقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا )

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ » أى قائلين ذلك بلسان الحال أو المقال، إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة وتوقع المكافأة . أى لا نقصد بإطعامكم إلا ثوابه تعالى والقربة إليه والزلفى عنده . وإطلاق ( الوجه ) على الذات مجاز مشهور « لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً » أى مكافأة « وَلَا شُكُورًا » أى ثناء ومديحاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا )

« إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً » أى عذاب يوم « عَبُوسًا » أى شديدا مظلما . أو تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه وطول بلائه « قَمْطَرِيرًا » أى شديد العبوسة والكرب . وخوفهم من اليوم كناية عن عمل ما يؤمنهم فزعه وهوله ، من الصالحات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا )

[١٢] ( وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا )

[١٣] ( مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا )

«فَوَقَـٰهُمُ ٱللَّـهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ » أى بسبب ما ذكر من خوفهم منه «وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً » أى فى الوجوه « وَسُرُورًا » أى فى القلوب « وَجَزَـٰهُم بِمَا صَبَرُواْ » أى على طاعة الله واجتناب محارمه والدعوة لسبيله واحتمال الأذى « جَنَّةً وَحَرِيرًا » أى يلبسونه ويتزينون به « مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السُّرُرِ « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا» أى لاحرًّا ولا بردًا . من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم .

[ختم مكتبة]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا )

[١٥] ( وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ )

[١٦] ( قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا )

« وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا » أى ظلال أشجارها . أى قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة فى نعيمهم « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » أى سهلت ثمارها لمتناولها . فلا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك . « وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ » جمع كوب ، وهو كوز لاأذن له « كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ» قال أبو البقاء : حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلهما . ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية ، لشدة اتصال الصفة بالموصوف « قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا » أى فى أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم . فجاءت كما قدّروا . أو قدرها لهم السقاة على قدر ريّهم . لايزيد ولا ينقص . وهو ألذّ للشارب ، لكونه على مقدار حاجته ، لايفضل عنها ولا يعجز .

قال أبو حيان : أقرب من هذا ما نحاه أبو حاتم. وهو أن أصله قدر ريّهم منها تقديراً . والريّ العطش ، فحذف المضاف وحرف الجر وأوصل الفعل له بنفسه .

قال الشهاب : وفى كونه أقرب ، نظر . فإنه أكثر تكلفاً . ولكن كل حزب بما لديهم فرحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا )

[١٨] ( عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا )

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا » أى ما يشبهه فى الطعم . وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به « عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا » وهى شديدة الجرية المنسابة بنوع خاص بهيج . ونصب ( عَيْنًا ) بنحو ( يؤتون ) أو ( ينظرون ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا )

« وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى لا يموتون . أو دائم شبابهم لا يتغيّرون عن تلك السن . أو مسوّرون . أو مقرّطون . « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا » أى لحسنهم وكثرتهم فى منازلهم ، وانبثاثهم فى مغازه أماكنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا )

[٢١] ( عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا )

« وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ » أى نظرت فى الجنة ، ورميت بطرفك ما أوتى الأبرار « رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » أى واسعاً لا ينفذه البصر « عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ » وهو ما رق من الحرير « خُضْرٌ » قرئ بالرفع صفة لـ ( ثِيَابُ ) وبالجر لـ ( سُندُسٍ ) « وَإِسْتَبْرَقٌ » وهو ما غلظ من الديباج . وفيه القراءتان، رفعاً وجرًّا « وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ

رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » أي ليس برجس كخمر الدنيا . أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل في الدنان التي لم يُعْنَ بتنظيفها . والآية مما يستروح بها في نجاسة الخمر ، لما فيها من التعريض بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا )

« إِنَّ هَٰذَا » أي ما عدّ من ثوابهم « كَانَ لَكُمْ جَزَآءً » أي على ما قدمتم من الصالحات « وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا » أي مجازًى عليه غير مضيَّع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا )

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا » أي عظيماً لا يقدر قدره . أي فأمره الحق ووعده الصدق . والقصد تثبيت قلبه صلوات الله عليه، وشرح صدره وتحقيق أن المنزل وحي . وعدم المبالاة برميهم له بالسحر والكهانة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا )

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أي من الصدع به ، والتبليغ لآيه ، والعمل بأوامره « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا » أي ولا تطع في معصيته تعالى من مشركي مكة، من ركب الإثم وجاهر بالكفر ، ممن يريدك عن الرجوع عن دعوتك ، بما شئت من مال أو مطلب . و ( أو ) إما على بابها . أي لا تطع من كان فيه أحد هذين الوصفين ، فالنهي عمن اجتمعا فيه يعلم بالطريق الأولى . وإما بمعنى الواو .

قال الفرّاء : ( أو ) ههنا بمنزلة الواو. وفى الجحد والاستفهام والجزاء يكون بمعنى (لا) فهذا من ذلك مع الجحد . انتهى .

وإما بمعنى ( بل ) إضراب إلى وصف هو به أخلق وأجدر . وإما للتخيير فى التسمية . أى من شئت تسميه بالآثم أو الكفور ، لتحقق مفهومهما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا )

[٢٦] ( وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا )

« وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » أى بدعائه وتسبيحه والصلاة له « بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ » أى بالتهجد فيه « وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » أى مقدارًا طويلًا ، نصفه أوزيادة عليه. وفى هذه الأوامر ، مع الأمر فى أول (المزمل) وأمثالها، مايدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه .

ويأتى البحث المتقدم هنا أيضاً ، فى أن الأمر خاص به صلوات الله عليه بناء على أنه للوجوب ، أو يشمل غيره تبعاً وهو للقدر المشترك ، قولان معروفان فى نظيره. والقصد حثه ﷺ أن يستعين فى دعوة قومه والصدع بما أمر به ، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح . وقد كثر ذلك فى مواضع من التنزيل كقوله[١] ( وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ) وقوله[٢] ( فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ) وأمثالها .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٤٥ ] . (٢) [ ٥٠ / ق / ٣٩و٤٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا )

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » أى المشركين « يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ » أى اللذات العاجلة ، فيسعون لها جهدهم ، وإن أهلكوا الحرث والنسل « وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » أى شديداً ، لثقل حسابه وشدته وعسره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ، وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا )

« نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ » أى خلقهم وأعضاء بناهم .

قال الشهاب : الأسر ، معناه ، لغةً ، الشد والربط . ويطلق أيضاً على مايشد ويربط به . ولذا سمى الأسير أسيراً بمعنى مربوط . فشبهت الأعصاب بالحبال المربوط بها ، ليقوى البدن بها . أو لإمساكها للأعضاء . ولذا سموها رباطات أيضاً .

« وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا » أى بإهلاكهم والإتيان بآخرين . وهذا محط الترهيب ، وما قبله كالتعليل له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا )

« إِنَّ هَٰذِهِۦ » أى السورة ، أو الآيات القريبة « تَذْكِرَةٌ » أى عظة لمن تذكّر واتّعظ « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » أى بالطاعة الموصلة لقربه ، إيصال السبيل للمقاصد . فهو تمثيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا )

[٣١] ( يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ، وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا )

« وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » قال ابن جرير[١] : أى وما تشاءون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم . أى لأن مالم يشأ الله وقوعه من العبد ، لا يقع من العبد . وما شاء منه وقوعه ، وقع . وهو رديف (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ) هذا تأويل السلف . وقالت المعتزلة : أى وما تشاءون الطاعة إلا أن يشاء الله بقسرهم عليها . والمسألة مبسوطة فى الكلام . وقد لخصناها فى (شرح لقطة العجلان) فارجع إليه . « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا » أى بأحوالهم وما يكون منهم « حَكِيمًا » أى فى تدبيره وصنعه وأمره « يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ » قال أبو السعود : بيان لإحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته . أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها . وهو الذى يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى ، حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة . « وَٱلظَّٰلِمِينَ » وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ماذكر « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » يعنى عذاب النار . وقاناه الله بمنه وكرمه .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٧ – سُورة المُرسَلات

وتسمى سورة العرف وهى مكية وآيها خمسون .

روى البخاري[١] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غارٍ بمنى ، إذ أُنزلت عليه ( والمرسلات ) فإنه ليتلوها ، وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حيّة . فقال النبي ﷺ : اقتلوها . فابتدرناها فذهبت . فقال النبيّ ﷺ : وقيت شركم كما وقيتم شرها . وأخرجه مسلم[٢] أيضاً .

وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عباس عن أمّه ؛ أنها سمعت النبيّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفاً . ورواه الشيخان[٤] أيضاً .

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٧ ـ سورة والمرسلات ، ١ ـ باب حدثنى محمود ، حدثنا عبيد الله ، حديث رقم ٩٢٧ .

(٢) أخرجه فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ١٣٧ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٣٣٨ من الجزء السادس .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٨ ـ باب القراءة فى المغرب ، حديث رقم ٤٦٣ ، عن أم الفضل .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٣ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)

[٢] (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا)

[٣] (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا)

[٤] (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا)

[٥] (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)

[٦] (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا)

[٧] (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)

« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » إقسام بالرياح المرسلة متتابعة كشعر العرف . أو بالملائكة المرسلة بأمر الله ونهيه . وذلك هو العرف . أو بالمرسل من بنى آدم المبعوثة بذلك « فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا » أى الرياح الشديدات الهبوب ، السريعات المرّ « وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا » أى الرياح التى تنشر السحاب والمطر، كما قال[1] (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وقوله[2] (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ) أو الملائكة التى تنشر الشرائع والعلم والحكمة والنبوّة والهداية فى الأرض « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا » أى الملائكة التى تفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال الوحى والتنزيل . أو الآيات القرآنية التى تفرق كذلك . أو السحب التى نشرن الموات ففرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥٧ ] .   (٢) [ ٣٠ / الروم / ٤٨ ] .

كقوله[1] ( لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) « فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا » أى الملائكة الملقيات ذكر الله إلى أنبيائه ، المبلغات وحيه « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » أى إعذاراً من الله لخلقه ، وإنذاراً منه لهم . مصدران بمعنى الإعذار والإنذار . أى الملقيات ذكرًا للإعذار والإنذار . أى لإزالة إعذارهم ، وإنذارهم عقاب الله تعالى إن عصوا أمره « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ » جواب القسم . أى : إن الذى توعدون به من مجىء يوم القيامة والجزاء ، لكائن نازل ، كقوله[2] ( وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ) أو من زهوق ما أنتم عليه من الباطل ، وظفر الحق بقرنه ، أو ما هو أعم . والأول أولى ، لإردافه بعلاماته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ )

[٩] ( وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ )

[١٠] ( وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ )

[١١] ( وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ )

[١٢] ( لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ )

[١٣] ( لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ )

[١٤] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ )

[١٥] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

« فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ » أى محقت أو ذهب ضياؤها ، كقوله[3] ( ٱنكَدَرَتْ ) و[4] ( ٱنتَثَرَتْ )

---

(١) [ ٧٢ / الجن / ١٦ ] .
(٢) [ ٥١ / الذاريات / ٦ ] .
(٣) [ ٨١ / التكوير / ٢ ] .
(٤) [ ٨٢ / الانفطار / ٢ ] .

« وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ » أى شققت وصدعت « وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ » أى اقتلعت من أماكنها بسرعة . فكانت هباء منبثا « وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ » أى أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة للشهادة على أممهم والفوز بما وعدوه من الكرامة . والهمزة من (أُقِّتَتْ) مبدلة من الواو .

قال ابن جرير [1] وقرأه بعض قراء البصرة بالواو وتشديد القاف . وأبو جعفر بالواو وتخفيف القاف . وكل ذلك قراءات معروفات ولغات مشهورات بمعنى واحد . فبأيتها قرأ القارئ فمصيب . غير أن من العرب من يستثقل ضمة الواو ـ كما يستثقل كسرة الياء فى أول الحرف ، فيهمزها .

« لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ » أى أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب . أى يقال لأى يوم أجلت فالجملة مقول قول مضمر ، هو جواب ( إذا ) أو حال من مرفوع ( أقتت ) والمعنى ليوم عظيم أخرت أمور الرسل . وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم ، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها ، ولذا عظم شأن اليوم ، وهول أمره بالاستفهام . وقوله تعالى « لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ » بدل مما قبله ، مبين له . أو متعلق بمقدر . أى أجلت ليوم الفصل بين الخلائق . وقد قيل : لامه بمعنى ( إلى ) « وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ » أى بين السعداء والأشقياء . والاستفهام كناية عن تهويله وتعظيمه . « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بيوم الفصل . كما قال فى سورة المطففين [2] ( ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ) والتكذيب به ، إنكار البعث له والحشر إليه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٢) [ ٨٣ / المطففين / ١١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٧] (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ)

[١٨] (كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ)

[١٩] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى الأمم الماضين المكذبين بالرسل والجاحدين بالآيات ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود . « ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ » أى من قوم لوط ، وموسى . فنسلك بهم سبل أولئك . وهو وعيد لأهل مكة « كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الأخذ العظيم . « نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ » أى بكل من أجرم وطغى وبغى « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » .

قال ابن جرير(١) : أى بأخبار الله التى ذكرها فى هذه الآية ، الجاحدين قدرته على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ)

[٢١] (فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ)

[٢٢] (إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[٢٣] (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ)

[٢٤] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ » أى من نطفة ضعيفة « فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ »

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

أى رحم استقرفيها فتمكن « إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ » أى وقت معلوم لخروجه من الرحم «فَقَدَرْنَا» قرئ بالتخفيف والتشديد . أى فقدرنا على ذلك أو قدّرناه « فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بقدرته تعالى على ذلك ، أو على الإعادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا )

[٢٦] ( أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا )

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا » قال ابن جرير(١) : أى وعاء . تقول هذا كِفْتُ هذا وكَفِيتُهُ إذا كان وعاءه . والمعنى ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم ، تكفت أحياءكم فى المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم ، وأمواتكم فى بطونها فى القبور فيُدفنون فيها ؟ وجائز أن يكون عنى بقوله ( كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ) تَكفِتُ أذاهم فى حال حياتهم ، وجِيَفَهُمْ بعد مماتهم . انتهى .

و ( الكفات ) إما اسم جنس لما يضم ويقبض . يقال : كَفَتَهُ الله إليه أى قبضه . ولذلك سميت المقبرة كَفْتَةً وكِفَاتًا . ومنه الضمام والجماع ، لما يضم ويجمع . يقال هذا الباب جِماع الأبواب . وإما اسم آلة ، لأن فِعالًا كثر فيه ذلك . أو مصدر كقتال . أُوِّل بالمشتق ونعت به ، كرجل عدل . أو جمع كافت كصائم وصيام . أو كِفْت بكسر فسكون كقدح وقداح . و ( كِفَاتًا ) منصوب على أنه مفعول ثان لـ ( نَجْعَلِ ) لأنها للتصيير ، و ( أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ) منصوبان على أنهما مفعولان به لـ ( كِفَاتًا ) .

قال الشهاب : وهذا ظاهر على كون ( كفاتا ) مصدراً أو جمع كافت . لا على كونه اسم آلة فإنه لا يعمل ، كما صرح به النحاة . وحينئذ فيقدر فعل ينصبه من لفظه ، كما صرح به ابن مالك فى كل منصوب بعد اسم غير عامل . وثمة وجوه أخر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) قال إلكيا الهراسىّ : عنى بالكفات الانضمام . ومراده أنها تضمهم فى الحالتين . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت فلا يرى منه شيء . وقال ابن عبد البرّ : احتج ابن القاسم فى قطع النباش بهذه الآية . لأنه تعالى جعل القبر للميت كالبيت للحىّ ، فيكون حرزاً . انتهى .

ونقله القفّال عن ربيعة . وعندى أن مثل هذا الاحتجاج من الإغراق فى الاستنباط وتكلف التماس مايؤيد المذهب المتبوع كيفما كان، مما يعد تعسُّفاً وتعصُّباً . وبين فحوى الآية وهذا الاستنباط ما بين المنجد والمتهم . ومثله أخذ بعضهم من الآية السابقة ( لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ) تأجيل القضاة الخصوم فى الحكومات ، ليقع فصل القضاء عند تمام التأجيل . كما نقله فى ( الإكليل ) عن ابن الفرَس . ومآخذ الدين والتشريع ليست من الأحاجى والمعميات . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا )

[٢٨] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ » أى جبالًا شاهقات « وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا » أى عذباً « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ )

« ٱنطَلِقُوٓاْ » أى يقال لهؤلاء المكذبين بهذه النعم والحجج التى احتج بها عليهم يوم القيامة : انطلقوا « إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أى من عذاب الله للكفرة الفجرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ )

[٣١] ( لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ )

[٣٢] ( إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ )

[٣٣] ( كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ )

[٣٤] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[٣٥] ( هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ )

[٣٦] ( وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ )

[٣٧] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[٣٨] ( هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ، جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ )

[٣٩] ( فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ )

[٤٠] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

« ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ » أى فِرَق . وذلك دخان جهنم المرتفع من وقودها ، إذا تصاعد تفرّق شعباً ثلاثاً ، لعظمه .

قال الشهاب : فيه استعارة تهكمية لتشبيه ما يعلو من الدخان بالظل . وفيه إبداع ، لأن الظل لا يعلو ذا الظل . وقوله تعالى « لَّا ظَلِيلٍ » تهكم بهم . لأن الظل لا يكون إلا ظليلاً أى مظللاً . فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلاً تهكم بهم ، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم ، فنفى هذا الاحتمال بقوله ( لَّا ظَلِيلٍ ) « وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ » أى لا يردّ عنهم من لهب

النار شيئاً. والمعنى أنه لايظلهم من حرّها ولا يكنّهم من لهبها «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ» أى تقذف كل شررة كالقصر فى عظمها . والقصر واحد القصور .

قال ابن جرير[1] : العرب تشبّه الإبل بالقصور المبنيّة ، كما قال الأخطل فى صفة ناقة :

كأنها بُرْجُ رُومِىّ يشَيّدُهُ ... لُزَّ بِجِصٍّ وَآجُرّ وأَحْجَارِ

ثم قال : وقيل ( بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ) ولم يقل كالقصور . والشرر جمع . كما قيل ( سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ) ولم يقل الأدبار لأن الدبر بمعنى الأدبار . وفعل ذلك توفيقاً بين رؤوس الآى ومقاطع الكلام . لأن العرب تفعل ذلك كذلك . وبلسانها نزل القرآن .

« كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ » وقرئ ( جِمَالَاتٌ ) جمع (جمال) جمع (جمل). أو جمع (جمالة) جمع (جمل) أيضاً . ونظيره : رجال ورجالات، وبيوت وبيوتات ، وحجارة وحجارات . « صُفْرٌ » أى فى لونها . فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر . وقيل : صفر أى سود .

قال قتادة وغيره: أى كالنوق السود، واختاره ابن جرير[2] زاعماً أنه المعروف من كلام العرب « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ » أى بحجة. أو فى وقت من أوقاته. لأنه يوم طويل ذو مواقف ومواقيت . أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لاينفع ولا يسمع ، فلا ينافى آية[3] ( وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ) وآية[4] ( وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ) وآية[5] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ) «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» أى لايعهد لهم الإذن فى الاعتذار ، لعدم قبول معذرتهم بقيام الحجة عليهم . وإنما لم يقل ( فيعتذروا ) محافظة على رؤوس الآى . وقيل : هو معطوف على ( يؤذن ) منخرط معه فى سلك النفى. والمعنى ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له، من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ » أى الحق بين العباد «جَمَعْنَاكُمْ» أى

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .
(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .
(٣) [ ٦ / الأنعام / ٢٣ ] . (٤) [ ٤ / النساء / ٤٢ ] .
(٥) [ ٣٩ / الزمر / ٣١ ] .

حشرناكم فيه « وَالْأَوَّلِينَ » أى من الأمم الهالكة « فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أى احتيال للتخلص من العذاب « فَكِيدُونِ » أى فاحتالوا له .

قال الزمخشريّ : تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى فإنه لاحيلة لهم فى دفع العقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ )

[٤٢] ( وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ )

[٤٣] ( كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )

[٤٤] ( إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ )

[٤٥] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[٤٦] ( كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ )

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « فِي ظِلَالٍ » أى كنان من الحرّ والقرّ « وَعُيُونٍ » أى أنهار تجرى خلال أشجار « وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ » أى يرغبون، مقولا لهم: « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى فى طاعتهم وعبادتهم وعملهم « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ » أى حظكم حظ من أجرم، وهو الأكل والتمتع أياماً قلائل ، ثم البقاء فى الهلاك أبداً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ )

[٤٨] ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ )

[٤٩] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ )

[٥٠] ( فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ )

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا » أى اخضعوا لهذا الحق الذى نزل ، وتواضعوا لقبوله ، واخشعوا لذكره « لَا يَرْكَعُونَ » أى لا يخضعون ولا ينقادون ولا يقبلون ، تجبراً واستكباراً « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى الذين كذبوا رسل الله ، فردوا عليهم ما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم . وتكرير آية ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ) للتأكيد . وهو من المقاصد الشائعة . وقيل : لا تكرار ، لاختلاف متعلق كل منها . وتقدم تمام البحث فى سورة ( الرحمن ) فارجع إليه فى خاتمتها « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » أى بعد هذا القرآن ، إذا كذبوا به ، مع وضوح برهانه وصحة دلائله ، فى أنه حق منزل من عنده تعالى . وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه فى الفضل أو يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه ويعلوه ، فلا حديث أحق بالإيمان منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٨ - سُورَةُ النَّبَأ

وتسمى سورة ( عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ) . وهى مكية ، وآيها أربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ)

[٢] (عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ)

[٣] (ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

«عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ» أى هؤلاء المشركون بالله ورسوله. قال ابن جرير[١] وذلك أن قريشا جعلت ، فيما ذكر عنها ، تختصم وتتجادل فى الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، من الإقرار بنبوته ، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى ، والإيمان بالبعث. فقال الله تعالى لنبيه : فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون ؟ . و (فى) و (عن) فى هذا الموضع بمعنى واحد . انتهى.

والاستفهام للتفخيم أو للتبكيت. والتفاعل إما على بابه، أو هو بمعنى (فعل). والمعنى على الأول يتساءلون فيما بينهم. وعلى الثانى يسألون الرسول صلوات الله عليه وسلامه، أو المؤمنين. قيل مجىء تفاعل بمعنى فعل إذا كان فى الفاعل كثرة ، مراعاة لمعنى التشارك بقدر الإمكان . ونوقش بأن (تفاعل) يكون بمعنى (فعل) كثيراً وإن لم يتعددْ فاعله . كتوانى زيد وتدانى الأمر . بل حيث لا يمكن التعدد نحو[٢] (تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقوله :

« عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ » بيان للمفخم شأنه ، أو للمبكت من أجله « ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » أى منقسمون ، بعضهم يجحده وآخر يرتاب فيه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٢) [ ٢٧ / النمل / ٦٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( كَلَّا سَيَعْلَمُونَ )

[٥] ( ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ )

« كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ » ردع للمتسائلين ووعيد لهم . والتكرير للمبالغة لحذف مفعول العلم . فإما أن يقدر سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال . أو سيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والنكال . فتكريره مع الإبهام ، يفيد مبالغة . وفى ( ثُمَّ ) إشعار بأن الوعيد الثانى أشد . لأنها هنا للبعد والتفاوت الرتبيّ . فكأنه قيل : ردع وزجر لكم شديد ، بل أشد وأشد . وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله . ولذا خص عطفه بـ ( ثُمَّ ) غالباً . هذا ملخص ما فى ( العناية ) .

ثم ذكّرهم تعالى بدلائل قدرته وآيات رحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا )

[٧] ( وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا )

[٨] ( وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا )

[٩] ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا )

[١٠] ( وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا )

[١١] ( وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا )

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » أى فراشاً وموطئاً تمهدونها وتفترشونها « وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » أى للأرض . أى أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد ، حتى لا تميد بأهلها فيكمل

كون الأرض مهاداً بسبب ذلك . قال الإمام مفتى مصر : وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها فى الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها، ولأنها فى تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب ، كالأوتاد فى حفظ الخيمة من مثل ذلك . كأن أقطار الأرض قد شدت إليها. ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما فى جوفها من الموادّ الدائمة الجيشان .

« وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا » أى ذكوراً وإناثاً . قال الإمام : ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية .

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أى راحة ودعة ، يريح القوى من تعبها ويعيد إليها ما فقد منها . إطلاقاً للملزوم وهو ( السبات ) بمعنى النوم ، وإرادة للّازم وهو ( الاستراحة ) . وقيل : السبات هو النوم الممتد الطويل السكون . ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم : إنه مسبوت وبه سبات . ووجه الامتنان بذلك ظاهر ، لما فيه من المنفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئاً من الراحة . وقد أفاض السيد المرتضى فى أماليه فى لطائف تأويل هذه الآية .

« وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا » أى كاللباس بإحاطة ظلمته بكل أحد ، وستره لهم .

قال الرازىّ : ووجه النعمة فى ذلك ، أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدوّ أو بياتاً له ، أو إخفاء مالا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه . قال المتنبي :

وكم لِظَلَامِ الليلِ عَنْدِىَ مِنْ يَدٍ  تخبّر أن المانوية تَكْذِبُ

وأيضا ، فكما أن الإنسان ، بسبب اللباس ، يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الإنسان وفى طراوة أعضائه وفى تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسمانىّ وأذى الأفكار الموحشة .

« وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا » أى وقت معاش . إذ فيه تتقلب الخلق فى حوائجهم ومكاسبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا )

[١٣] ( وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا )

[١٤] ( وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا )

[١٥] ( لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا )

[١٦] ( وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا )

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا » قال الرازىّ : أى سبع سموات شدادًا جمع (شديدة) يعنى محكمة قوية الخلق لايؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج .

وقال الإمام : السبع الشداد الطرائق السبع ، وهى ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها . « وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً » أى متلألئاً وقادًا . يعنى الشمس « وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » أى السحائب إذا أعصرت ، أى شارفت أن تعصرها الرياح « مَاءً ثَجَّاجًا » أى منصبًّا متتابعاً « لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتَاً » قال ابن جرير[١] : الحب كل ما تضمنه كمام الزرع التى تحصد . والنبات الكلأ الذى يُرْعَى من الحشيش والزروع .

وقال الزمخشرىّ : يريد مايتقوّت من نحو الحنطة والشعير ، ومايعلف من التبن والحشيش. كما قال[٢] ( كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ ) .

« وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً » أى حدائق ملتفة الشجر ، مجتمعة الأغصان .

قال الرازىّ : قدم الحب لأنه الأصل فى الغذاء . وثنى بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه.

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٢٠ / طه / ٥٤ ] .

وأخر الجنات لأن الحاجة إلى الفواكه ليست بضرورية . ثم قال: وكان الكعبي من القائلين بالطبائع. فاحتج بقوله تعالى (لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا) الخ على بطلان قول من قال: إنه تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر . أي لأن ارتباط المسببات بالأسباب مما بنى عليه سبحانه ، بحكمته الباهرة ، نظام العمران .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا)

[١٨] (يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ » أي يوم يفصل بين الناس ويفرق السعداء من الأشقياء ، باعتبار تفاوت الأعمال ، وهو يوم القيامة « كَانَ » أي عند الله وفي علمه وحكمه «مِيقَـٰتًا» أي حداً معيناً ، ووقتاً موقتاً ، ينتهي الخلق إليه ليرى كلٌّ جزاء عمله « يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » بدل من ( يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ) أو عطف بيان . كناية عن اتصال الأرواح بالأجساد ، ورجوعها بها إلى الحياة والحشر في الآخرة . كما قال القاشاني والشهاب .

وقال الإمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق[١] ( فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور. وليس علينا أن نعلم ماهي حقيقة ذلك الصور : « فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » أي فرقاً مختلفة ، كل فرقة مع إمامهم ، على حسب تباين عقائدهم وأعمالهم وتوافقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا)

[٢٠] (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)

---

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٨ ] .

« وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا » قال ابن جرير[١] : أى وشققت السماء فصدعت، فكانت طرقًا، وكانت من قبل شدادًا لافطور فيها ولا صدوع.

وقال القاضى فيما نقله الرازىّ : وهذا الفتح هو معنى قوله[٢] ( إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ) و[٣] ( إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ) إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب، وهذا، كما قاله ابن جرير، متين للغاية. وتعقبُ الرازىّ له، وقوف مع الألفاظ لا يفيد. لاسيما والأصل هو التفسير بالنظائر والأشباه.

« وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » أى رفعت من أماكنها فى الهواء. وذلك إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء. وفى الآية تشبيه بليغ. والجامع أن كلا منهما يرى على شكل شىء، وليس به. فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك. والجبال إذا فتتت وارتفعت فى الهواء، ترى كأنها جبال وليست بجبال. بل غبار غليظ متراكم، يرى من بعيد كأنه جبل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا )

[٢٢] ( لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا )

[٢٣] ( لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا )

[٢٤] ( لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا )

[٢٥] ( إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا )

[٢٦] ( جَزَآءً وِفَاقًا )

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ).
(٢) [ ٨٤ / الانشقاق / ١ ]. (٣) [ ٨٢ / الانفطار / ١ ].

«إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا» أى موضع رصد ، يرصد فيه خزنتها من كان يكذب بها وبالمعاد . على أن ( مِرْصَادًا ) اسم مكان . أو مجدّة فى ترصدهم وارتقاب مقدمهم . على أنه صيغة مبالغة « لِلطَّاغِينَ مَآبًا » أى للذين طغوا فى الدنيا ، فتجاوزوا حدود الله استكباراً على ربهم ، منزلا ومرجعاً يصيرون إليه « لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا » أى دهوراً متتابعة إلى غير نهاية . كقوله[1] ( خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ) « لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا » أى روحاً وراحة « وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا » أى ماء حارًّا انتهى غليانه « وَغَسَّاقًا » أى صديداً . وهو مايخرج من جلودهم مما تصهرهم النار ، فى حياض يجتمع فيها، فيسقونه « جَزَآءً وِفَاقًا » أى : جوزوا بذلك جزاءً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال ، وقدموه من العقائد والأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا )

[٢٨] ( وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا )

[٢٩] ( وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا )

« إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا » قال القاشانىّ : أى ذلك العذاب ، لأنهم كانوا موصوفين بهذه الرذائل من عدم توقع المكافآت والتكذيب بالآيات. أى لفساد العمل والعلم . فلم يعملوا صالحاً رجاء الجزاء ، ولم يعلموا علماً فيصدقوا بالآيات .

« وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا » قال القاشانىّ : أى كل شىء من أعمالهم ضبطناه بالكتابة عليهم فى صحائف نفوسهم .

وقال الرازىّ : المراد من قوله ( كِتَـٰبًا ) تأكيد ذلك الإحصاء والعلم . وهذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر . فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال ، لأنه واجب لذاته . انتهى .

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٥ ] .

وهو بمعنى ما نقله الشهاب ؛ أنه تمثيل لإحاطة علمه بالأشياء ، لتفهيمنا . وإلا فهو تعالى غنيّ عن الكتابة والضبط . ومذهب السلف الإيمان بهذه الظواهر وتفويض تأويلها إلى الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا )

[٣١] ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا )

[٣٢] ( حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا )

[٣٣] ( وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا )

[٣٤] ( وَكَأْسًا دِهَاقًا )

[٣٥] ( لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا )

[٣٦] ( جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا )

« فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى يقال لهم ذلك ، تقريعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب ، وإعلاماً بمضاعفته .

ولما ذكر وعيد الكفار ، تأثره بوعد الأبرار ، بقوله سبحانه « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » أى فوزاً بالنعيم . ونجاة من النار ، التى هى مآب الطاغين « حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا » الحدائق جمع حديقة وهى البستان فيه أنواع الشجر المثمر المحوط بالحيطان المحدقة به . والأعناب معروفة . قال ابن جرير[1] : أى وكروم وأعناب ، فاستغنى بالأعناب عنها .

« وَكَوَاعِبَ » أى بنات فلكت ثديهن ، أى استدارت مع ارتفاع يسير «أَتْرَابًا» أى

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

متساويات فى السن « وَكَأْسًا دِهَاقًا » أى ملأى من خمر لذة للشاربين « لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا » أى فى الجنـة « لَغْوًا » أى باطلًا من القول « وَلَا كِذَّابًا » أى مكاذبة . أى لا يكذب بعضهم بعضاً .

قال الإمام : اللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين ، بل هو من أشد الأذى لقلوبهم. فأراد الله إزاحة ذلك عنهم «جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً» أى جزاء لهم على صالح أعمالهم، تفضُّلًا منه تعالى بذلك الجزاء « حِسَابًا » أى كافياً ، أو على حسب أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا )

« رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » .

قال ابن جرير[1] : أى لا يملكون أن يخاطبوا الله . قال : والمخاطب المخاصم الذى يخاصم صاحبه . وقال غيره: أى لا يملكهم الله منه خطاباً فى شأن الثواب والعقاب. بل هو المتصرِّف فيه وحده . وهـذا كما تقول ( ملكت منه درهما ) فـ ( من ) ابتدائية متعلقة بـ( يملكون ) وعلى ما ذكره ابن جرير من أن المعنى لا يملكون أن يخاطبوه بشىء من نقص العذاب ، فـ ( منه ) صلة ( خطاباً ) كما تقول ( خاطبت منك ) على معنى خاطبتك . كـ ( بعت زيدا ) أو ( بعت من زيد ) فـ ( منه ) بيان مقدم على المصدر لا صلة ( يملكون ) . وقد قرئ ( رب ) و ( الرحمن ) بالجر وبالرفع . وقرئ بجر الأول ورفع الثانى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا )

[٣٩] ( ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا )

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ » أى جبريل عليه السلام وهو المعبّر عنه بروح القدس فى آية أخرى وفيه أقوال أُخر نقلها ابن جرير[١] . وما ذكرناه أصوبها . والتنزيل يفسر بعضه بعضاً .

ثم رأيت الرازىّ نقل عن القاضى اختياره ، قال : لأن القرآن دل على أن هـذا الاسم اسم جبريل عليه السلام . وثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والـكلام صحيح منه ، ويصح أن يؤذن له . فـكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذى لا يصح وصفه بالقيام ؟ وقوله تعالى « وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا » قال القاشانىّ : أى صافّين فى مراتبهم ، كقوله تعالى[٢] ( وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ) . انتهى .

وقال الرازىّ : يحتمل أن يكون المعنى صفًّا واحداً . ويحتمل أنه صفان . ويجوز صفوفاً . والصف فى الأصل مصدر ، فينبئ عن الواحد والجمع . ورجح بعضهم الأخير ، لآية[٣] ( وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ) انتهى .

وقوله تعالى « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » أى لا يتكلمون فى الشفاعة ، كقوله[٤] ( مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) والضمير للملائكة أو أعمّ كقوله[٥] ( يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٦٤ ] . (٣) [ ٨٩ / الفجر / ٢٢ ] .

(٤) [ ٢ / البقرة / ٢٥٥ ] . (٥) [ ١١ / هود / ١٠٥ ] .

قال الزمخشريّ : هما شريطتان : أن يكون المتكلّم منهم مأذوناً له فى الكلام ، وأن يتكلّم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى[1] ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ .

« ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ » أى الواقع الذى لا يمكن إنكاره و ( ٱلْحَقُّ ) صفة أو خبر . « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا » قال ابن جرير[2] : أى فمن شاء اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق ، والاستمداد له والعمل بما فيه ، النجاةَ له من أهواله ، مرجعاً حسناً يؤوب إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾

« إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا » يعنى عذاب الآخرة وقربه . لأن مبدأه الموت « يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى من خير أو شرّ . أى ينظر جزاءه « وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا » أى مثله . لم أصب حظّاً من الحياة ، لما يلقى من عذاب الله الذى أعدّ لأمثاله . وقاناه الله بمنه وكرمه .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٧٩ – سُورَةُ النَّازِعَات

وتسمى سورة الساهرة . والطامّة . وهى مكية . وآيها ست وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا )

[٢] ( وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا )

[٣] ( وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا )

[٤] ( فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا )

[٥] ( فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا )

« وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا » يعنى الغزاة أو أيديهم . يقال للرامى ( نزع فى قوسه ) إذا مدها بالوتر. و ( نزع فى قوسه فأغرق ) و ( أغرق النازع فى القوس ) إذا استوفى مدّها . ويضرب مثلًا للغلوّ والإفراط . و ( غَرْقًا ) بمعنى إغراقاً كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بحذف الزوائد. أو ( وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ ) الكواكب . من ( نزع الفرس سننًا ) جرى طلقاً ، أى الجاريات على السير المقدر ، والحدّ المعين ، مجدّة فى السير ، مسرعة للغاية . « وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا » أى الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار . من قولهم ( ثور ناشط ) إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هى السهام . يعنى خروجها عن أيدى الرماة ونفوذها . وكل شىء حللته ، فقد نشطته . ومنه ( نشاط الرجل ) وهو انبساطه وخفته . أو الكواكب تنشط من برج إلى برج . « وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا » أى الخيل تسبح فى عَدْوها فتسبق إلى العدوّ . وهو مستعار من ( سبح فى الماء ) لكنه ألحق بالحقيقة لشهرته . أو هى الكواكب تسبح فى الفَلَك . لأن مرورها فى الجو كالسبح، كما قال تعالى[1] ( كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) . « فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا »

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٣ ] .

أى الخيل تسبق إلى العدوّ فى حومة الوَغَى . أو الكواكب السيارة تسبق غيرها فى السير، لكونها أسرع حركة . « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » أى الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً، لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعقبات . أى أنه يأتى فى أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها ، الأمر الذى هو النصر . أو هى الكواكب تدبر أمراً نيط بها . كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه . أو هى الملائكة تدبر ما نيط بها من أمر الله تعالى . وقد جوّز فيما قبلها أن تكون الملائكة أيضاً . واللفظ الكريم متسع لما ذكر من المعانى بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد ، إذ لا قاطع . ولذا قال ابن جرير[1]: الصواب عندى أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة . فكل نازعة غرقاً، فداخلة فى قَسَمِهِ ، مَلَكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القَسَم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع . فكل ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها، بأن المعنىّ بالقَسَم من ذلك، بعض دون بعض . وهكذا فى البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية . إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله، وهو أعم فائدة وعدم التكلف للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها فى مثلها وشواهدها، مما قد يخصص الصيغ . إلا أن التنزيل الكريم يُتَوَقّى فى التسرّع فيه مالا يُتَوَقّى فى غيره .

لطائف :

قال أبو السعود: العطف مع اتحاد الكل ، بتنزيل التغاير العنوانىّ منزلة التغاير الذاتىّ . كما فى قوله [2] :

إلى الملكِ القَرْمِ وابن الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور، حقيق بأن يكون على حياله،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) ورد هذا البيت فى الخزانة ( ١ / ٢١٦ ) غير منسوب .
وكذلك هو فى ( معانى القرآن ) للفرّاء ( ١ / ١٠٥ ) .

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة . و ( غَرْقًا ) مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب ( نَشْطًا ) و ( سَبْحًا ) و ( سَبْقًا ) أيضاً على المصدرية . وأما (أَمْرًا) فمفعول للمدبرات . وتنكيره للتهويل والتفخيم. والمقسم عليه محذوف، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه، وهو (لتبعثن) وبه تعلق قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ٦ ] ( يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ )

[ ٧ ] ( تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ )

[ ٨ ] ( قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ )

[ ٩ ] ( أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ )

[١٠] ( يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ )

« يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ » أي الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة. أي تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة. فالإسناد إليها مجازيّ لأنها سببه . أو التجوز في الطرف بجعل سبب الرجف راجفاً . أو الراجفة الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ ، كالأرض والجبال . فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالحركة جاز ، وكان حقيقة . لأن ( رجف ) يكون بمعنى حرّك وتحرّك .

« تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ » أي السماء وما فيها . تردفها فتنشق وتنتثر كواكبها . ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى ، جعلت رادفة لها . أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان. أما الأولى فتميت الأحياء . وأما الثانية فتحيي الموتى. ثم تلا الحسن(١) ( وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٨ ] .

اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ » أى شديدة الاضطراب، خوفا من عظيم الهول النازل « أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ » أى أبصار أهلها ذليلة، مما قد علاها من الكآبة والحزن ، من الخوف والرعب . وقوله تعالى « يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ » قال ابن جرير[1] : أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركى قريش ، إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا ؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمىّ، وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أى يقولون، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، منكرين له متعجبين منه: أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة ؟ أى فى الحالة الأولى . يعنون الحياة . من قولهم ( رجع فلان فى حافرته ) أى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها. أى أثر فيها بمشيه. وتسميتها (حافرة) مع أنها محفورة كقوله تعالى[2] ( فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ) أى منسوبة إلى الحفر والرضا. أو كقولهم ( نهاره صائم ) على تشبيه القابل بالفاعل . أى شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتنزيله منزلته . فالاستعارة فى الضمير المستتر ، وإثبات الحافرية له ، تخييل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً )

[١٢] ( قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ )

[١٣] ( فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ )

[١٤] ( فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ )

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٦٩ / الحاقة / ٢١ ] .

« أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً » أى بالية . وقرئ نَاخِرَةً . من ( نخر العظم ) بلى . فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير ، وقوله تعالى « قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » أى ذات خسر . أو خاسرة أصحابها . أى إن صحت فنحن إذاً خاسرون . قال ابن زيد : وأى كرة أخسر منها؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فـكانت كرة سوء .

وقال أبو السعود : هـذا حكاية لـكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق . ولعل توسيط (قالوا) بينهما للإيذان بأن صدور هذا الـكفرعنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها فى كافة أوقاتهم . حسبما ينبيء عنه حكايته بصيغة المضارع . أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنـكروه من الردة فى الحافرة . وقوله تعالى « فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ » تعليل لمقدر يقتضيه إنـكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالـكرّة . فإن مداره لما كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنمـا هى صيحة واحدة . أى حاصلة بصيحة واحدة . وهى النفخة الثانية . وفيــه تهوين لأمر الإعادة ، على وجه بليغ لطيف « فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ » أى على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير[1] : والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة (قال) وأراهم سموا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها . فوصف بصفة مافيه . وقيل لأن السراب يجرى فيها . من قولهم ( عَيْنٌ سَاهِرَة ) للتى يجرى ماؤها ، وفى ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه المعروف ، والتجوز فى الإسناد .

وفى الثانى مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التى ألحقته بالحقيقة. ثم ذكّر سبحانه الـكفرة ما حل بمن هو أشد منهم قوة ، لما طغوا ، ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ )

[١٦] ( إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى )

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » أى خبره حين ناجاه ربه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى ( هَلْ أَتَىٰكَ ) إن اعتبر هذا أول ماأتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام، ترغيب له فى استماع حديثه . كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به . وإن اعتبر إتيانه ، قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز فى الاقتصاص ، حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقرّ بأمر يعرفه قبل ذلك . كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه ؟ .

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة فى المعنى على كلٍّ ، كما لا يخفى « إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » إلى حين ناداه بالوادى المطهر المبارك . وهو واد فى أسفل جبل طورسيناء من برية فلسطين. و ( إِذْ ) ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتيهما و (طُوًى) اسم لذلك الوادى . أو مصدر لنادى. أو المقدس. أى ناداه نداءين . أو المقدس مرة بعد أخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ )

[١٨] ( فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ )

[١٩] ( وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ )

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى عتا وتجاوز حدّه فى العدوان على بنى إسرائيل، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه « فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ » أى تتزكى

وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و ( إِلَىٰٓ ) متعلقة بمبتدأ محذوف . أى هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتزكى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك ، جيء بـ ( إِلَىٰٓ ) فجعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه « وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى أرشدك إلى علم ما يرضيه عنك . وذلك الدين القيم « فَتَخْشَىٰ » أى عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم . وذلك بأداء ما ألزمك من فرائضه واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم ، كما فى آية[1] ( إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ) أى العلماء به .

قال الزمخشرىّ : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر . من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض . كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوّه . كما أمر بذلك فى قوله[2] ( فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ )

[٢١] ( فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ )

[٢٢] ( ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ )

[٢٣] ( فَحَشَرَ فَنَادَىٰ )

[٢٤] ( فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ )

[٢٥] ( فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ )

[٢٦] ( إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ )

---

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٢٨ ] .    (٢) [ ٢٠ / طه / ٤٤ ] .

« فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ » أى الدلالة الكبرى على أنه لله رسول أرسله إليه. والفاء فصيحة، تفصح عن جمل قد طويت، تعويلاً على تفصيلها فى السور الأخرى. أى فذهب وبلغ ورجع وتُحُدِّىَ ، فأراه الآية الكبرى . وهى على ما قاله مجاهد ، عصاه ويده . أى عصاه إذ تحولت ثعبانا مبينا . ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين . وإفرادهما لأنهما كالآية الواحدة فى الدلالة . أو هى العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتبع . قيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات مَن قبله من الرسل . أو هو للزيادة المطلقة «فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ» أى فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه وخشيته إياه « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى أعرض عما هدى إليه. أو انصرف عن المجلس كبراً «يَسْعَىٰ» أى يجدّ فى معارضة الآية بالمكايد الشيطانية والحيل النفسانية. أو أدبر بعد ما رأى الثعبان، مرعوباً مسرعاً فى مشيه « فَحَشَرَ » أى جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه « فَنَادَىٰ » أى فى المجمع بنفسه أو بمناد «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ» أى على كل من يلى أمركم. وفى (التنوير): أى أنا ربكم ورب أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضى : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) ؟ فدلت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالرب الخالق والموجد. والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى . وأنه الذى يستأهل الطاعة دون غيره .ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التى هى فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته . ولذا أخذ أشد الأخذ . فإنه لم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجهم من مصر ، فأغرقه الله تعالى فى البحر. وهو معنى قوله تعالى« فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ » أى عذبه عذابهما. أى أن أخذه لم يكن مقصوراً على الإغراق وحده، بل نكل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و ( نكال ) مفعول مطلق ا ( أخذ ) بتأويل فى الأول أو فى الثانى، والإضافة من قبيل إضافة

الموصوف إلى الصفة . وقيل الآخرة هى قوله ( أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ) والأولى هى تكذيبه موسى حين أراه الآية

قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر. لأنه تعالى قال ( فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ* فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ* فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ) فذكر المعصيتين ثم قال (فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين. انتهى.

وما ذكره القفال كان وقع فى قلبى قبل أن أراه . وأرانى فى إيثار له . ثم ختم تعالى القصة بقوله « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ » أى فى أخذه وما أحل به من العذاب والخزى ، عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته فى كل من يقاوم الحق ويحاربه. فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا )

[٢٨] ( رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا )

[٢٩] ( وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا )

[٣٠] ( وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ )

[٣١] ( أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا )

[٣٢] ( وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا )

[٣٣] ( مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ )

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ » خطاب للمكذبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبيههم على سهولته فى جانب القدرة الربانية . فإن من رفع السماء على عظمها ، هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحياؤهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه (١) ( لَخَلْقُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ) .
وقوله تعالى (٢) ( أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم )
ثم بيّن كيفية خلقها بقوله « بَنَىٰهَا » قال ابن جرير (٣) : أى رفعها فجعلها للأرض سقفاً .
وقال الإمام : البناء ضم الأجزاء المتفرّقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب . وضع كلّاً منها على نسبة من الآخر ، مع ما يمسك كلًّا فى مداره ، حتى كان عنها عالم واحد فى النظر ، سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا . وهو معنى قوله « رَفَعَ سَمْكَهَا » أى أعلاه و( السمك ) قامة كل شىء وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا « فَسَوَّىٰهَا » عدلها بوضع كل جرم فى موضعه « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أى جعله مظلماً . قال ابن جرير (٣) : أضاف الليل إلى السماء ، لأن الليل غروب الشمس ، وغروبها وطلوعها فيها ، فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل ( نجوم الليل) إذ كان فيه الطلوع والغروب . « وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا » أى أبرز نهارها . و (الضحى)انبساط الشمس وامتداد النهار . وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها .
« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء « دَحَىٰهَا » أى بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وتقلبهم فى أقطارها « أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا » أى بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً « وَمَرْعَىٰهَا » أى رعيها وهو النبات .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان . فأريد به هنا ، مجازاً ، مطلق المأكول للإنسان وغيره . فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبيّ : يجوز أن يكون استعارة مصرحة . لأن الكلام مع منكرى الحشر بشهادة قوله ( ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ) كأنه قيل : أيها المعاندون الملزوزون فى قرن البهائم ، فى التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥٧ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٨١ ] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

«وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا » أى أثبتها فيها «مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ» أى انتفاعاً إلى حين. قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ، لأن فائدة ماذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى، واصلة إليهم وإلى أنعامهم. فإن المراد بالمرعى مايعم مايأكله الإنسان وغيره ـ كما تقدم ـ وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر. أى متعكم بذلك متاعاً. أو مصدر من غير لفظه، فإن قوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا) فى معنى متع بذلك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ)

[٣٥] (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ)

[٣٦] (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ)

[٣٧] (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ)

[٣٨] (وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا)

[٣٩] (فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ)

[٤٠] (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ)

[٤١] (فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ)

« فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ » أى الداهية العظمى التى تطمّ على كل هائلة من الأمور ، فتغمر ماسواها بعظيم هولها . وهى القيامة للحساب والجزاء « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ » أى ما عمل من خير أو شر . وذلك بعرضه عليه « وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ » أى أظهرت نار الله لأبصار الناظرين « فَأَمَّا مَن طَغَىٰ » أى أفرط فى تعديه ومجاوزته حد الشريعة والحق، إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال « وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى متاعها وشهواتها، على كرامة الآخرة وما أعد فيها للأبرار « فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ» أى

مأواه ومرجعه « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى مقامه بين يديه للسؤال، أو جلاله وعظمته. أى اتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ » أى فيما يكرهه الله ولا يرضاه منها ، نخالفها إلى ما أمره به « فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » أى مصيره يوم القيامة. وجواب (إذا) محذوف لدلالة التقسيم عليه . تقديره: ظهرت الأعمال . أو انقسم الناس قسمين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا )

[٤٣] ( فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ )

[٤٤] ( إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ )

[٤٥] ( إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا )

[٤٦] ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا )

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى إقامتها . أى متى يقيمها الله ويكوّنها . قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله(١) ( وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ) ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرسى السفينة وإرساء الجبال « فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ » أى فى أى شىء أنت من ذكر ساعتها لهم . أى ليس إليك ذكرها لأنها من الغيوب، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها. ولذا قال « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ » أى منتهى علمها « إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا » أى ما بعثت إلا لإنذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله على إجرامه . ولم تكلف علم وقت قيامها « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا » أى كأن هؤلاء المكذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب، يوم يشاهدون وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا فى الدنيا أو فى القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لما بينهما من الملابسة ، لاجتماعهما فى يوم واحد .

(١) [ ٧٦ / الإنسان / ٢٧ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٠ – سُورة عَبَسَ

وتسمى الصاخبة . مكية وآيها اثنتان وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ )

[٢] ( أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ )

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ » .

روى ابن جرير (١) : وابن أبي حاتم : عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشى وهو يناجيهم . فجعل عبدالله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال: يارسول الله ! علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه . وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى ( عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ) الآيات . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شيء ؟ .

قال ابن كثير : وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة . والضحاك . وابن زيد . وغير واحد من السلف والخلف ؛ أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله . ويقال عمرو . والله أعلم . انتهى .

وقال الرازيّ : أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه . وأجمعوا أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . قال الشهاب : وهو مكيّ قرشيّ من المهاجرين الأولين .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

وكان النبيّ ﷺ يستخلفه على المدينة فى أكثر غزواته . وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

قيل: عمى رضى الله عنه بعد نور. وقيل : ولد أعمى. ولذا لقّبت أمه أم مكتوم. والتعرض لعنوان عماه ، إما لتمهيد عذره فى الإقدام على قطع كلامه ﷺ وتشاغله بالقوم : وإما لزيادة الإنكار . كأنه قيل: تولى لكونه أعمى . وكان يجب أن يزيده لعماه ، تعطفاً وترؤفاً وتقريبا وترحيباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٣ ] ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ )
[ ٤ ] ( أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ )
[ ٥ ] ( أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ )
[ ٦ ] ( فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ )
[ ٧ ] ( وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ )
[ ٨ ] ( وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ )
[ ٩ ] ( وَهُوَ يَخْشَىٰ )
[١٠] ( فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ )

« وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ » أى يتطهر ـ بما يتلقن منك ـ من الجهل أو الإثم. وفى الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أوّلا ، إذ فى الغيبة إجلال له ﷺ ، لإيهام أن من صدر منه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه مثله . كما أن فى الخطاب إيناساً بعد الإيحاش ، وإقبالا بعد إعراض .

وقال أبو السعود : وكلمة ( لعل ) مع تحقق التزكى ، واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام . للتنبيه على أن الإعراض عنه ، عند كونه مرجوّ التزكى ، مما لا يجوز . فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكى ؟ كما فى قولك ( لعلك ستندم على ما فعلت ) وفيه إشارة إلى أن إعراضه كان لتزكية غيره . وأن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلًا « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ » أى يعتبر ويتعظ فتنفعه موعظتك . وتقديم التزكية على التذكر ، من باب تقديم التخلية على التحلية .

« أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ » أى بماله وقوته عن سماع القرآن والهداية والموعظة « فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ » أى تتعرض بالإقبال عليه ، رجاء أن يسلم ويهتدى « وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ » أى وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام . إنْ عليك إلا البلاغ . قال الرازىّ : أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم، إلى أن تعرض عمن أسلم، للاشتغال بدعوتهم «وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى طلب الخير « وَهُوَ يَخْشَىٰ » أى يخاف الله ويتقيه « فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ » أى تعرض وتتشاغل بغيره .

## تنبيهات :

الأول : قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : فى هـذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء والإقبال عليهم فى مجالس العلم وقضاء حوائجهم، وعدم إيثار الأغنياء عليهم. وقال الزمخشرىّ: لقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدباً حسناً . فقد روى عن سفيان الثورىّ رحمه الله أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

الثانى : فى هذه الآيات ونحوها ، دليل على عدم ضنه ﷺ بالغيب . قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحى شيئاً ، كتم هذا عن نفسه .

الثالث : قال الرازىّ : القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام ، تمسكوا

بهذه الآية وقالوا : لما عاتبه الله فى ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية. وهذا بعيد. فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد . وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء . وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه السلام . وإذا كان كذلك ، كان ذلك جاريا مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

وأجاب الإمام ابن حزم فى ( الفِصَل ) بقوله: وأما قوله ( عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ) الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه. وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين. وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته ، وهو حاضر معه . فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير ، عما لا يخاف فوته. وهذا غاية النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن فى ظاهر الأمر ونهاية التقرب إلى الله ، الذى لو فعله اليوم منا فاعل ، لأُجِرَ . فعاتبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقىّ ، وهذا نفس ماقلناه ! انتهى .

وقال القاشانىّ: كان ﷺ فى حجر تربية ربه، لكونه حبيباً. فكلما ظهرت نفسه بصفة حجبت عنه نور الحق، عوتب وأدب. كما قال[1]: ( أدبنى ربى فأحسن تأديبى ) إلى أن تخلق بأخلاقه تعالى . انتهى . وقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ )

[١٢] ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ )

[١٣] ( فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ )

---

(١) فى كشف الخفاء ( ١٦٤ ) : رواه العسكرىّ عن علىّ رضى الله عنه .

[١٤] ( مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ )

[١٥] ( بِأَيْدِى سَفَرَةٍ )

[١٦] ( كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ )

[١٧] ( قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ )

« كَـلَّآ » ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال أنس رضى الله عنه: كان النبيّ ﷺ بعد ذلك يكرمه. رواه أبو يعلى. وقوله تعالى « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » أى إن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

قال الشهاب : وكون عتابه على ماذكر عظة ، لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند الله إذا عوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوّز عود الضمير للآيات وللسورة، وللوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام. وقوله تعالى « فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى حفظه. على أنه من (الذكر) خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من ( التذكير ) .

قال الزمخشريّ : وذكّر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وقيل: الضمير للقرآن، والكلام استطراد « فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ » يعنى صحف آيات التنزيل وسوره « مَّرْفُوعَةٍ » أى عالية المقدار « مُّطَهَّرَةٍۭ » من التغيير والنقص والضلالة « بِأَيْدِى سَفَرَةٍ » جمع سافر بمعنى سفير. أو هو الذى يسعى بين قومه بالصلح والسلام. يقال : سفر بين القوم، إذا أصلح بينهم. ومنه قوله[1] :

وما أدعُ السفارةَ بين قومى ... وما أَمْشِى بِغِشٍّ ، إن مَشَيْتُ

---

(١) قال فى حاشية ابن جرير (٣٠/٥٤) : البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (٣٥٨) قال : وقوله بأيدى سفرة وهم الملائكة، واحدهم سافر. يقال: سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم . فجعلت الملائكة ، إذ نزلت بوحى الله وتأديته ، كالسفير الذى يصلح بين القوم .

والسفرة ، إما الملائكة لأنهم يسفرون بالوحى بين الله تعالى ورسله ، كأنه محمول بأيديهم . وإما الأنبياء لأنهم وسائط فى الوحى يبلغونه للناس « كِرَامٍ » أى عنده تعالى ، لاصطفائهم للرسالة « بَرَرَةٍ » أى أخيار ، جمع ( بارّ ) وهو صانع البر والخير .

« قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ » قال الرازىّ: اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين، عجّب عباده المؤمنين من ذلك. فكأنه قيل: وأى سبب فى هذا العجب والترفع ؟ مع أنّ أوله نطفة قذرة وآخرة جيفة مذرة . وفيما بين الوقتين حمال عذرة . فلا جرم ، ذكر تعالى مايصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم . فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع وعلى القول بالبعث والحشر والنشر. ومرجعه إلى أن المراد بالإنسان من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به . وجوز أن يراد بالإنسان الجنس المنتظم للمستغنى ، ولأمثاله من أفراده ، لا باعتبار جميع أفراده .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشرىّ : ( قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ ) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم . لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها .

الثانية : قال ابن جرير[1]: فى قوله ( مَآ أَكْفَرَهُۥ ) وجهان أحدهما التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر ما الذى أكفره ؟ أى أىُّ شىء أكفره . وعلى الثانية، فالهمزة للتصيير كـ( أَغَدَّ البعيرُ ) .

الثالثة : قال الزمخشرىّ فى هذه الآية : ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن متناً ولا أدل على سخطٍ ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، مع تقارب طرفيه ولا أجمع لِلَائمةٍ ، على قصر متنه. وسره ما أشار له الرازىّ من أن قوله ( قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ ) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب . وقوله (مَآ أَكْفَرَهُۥ) تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات.

(١) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

الرابعة : أفاد فى ( الكشف ) أن الدعاء ليس على حقيقته ، لامتناعه منه تعالى . لأن منشأه العجز . فالمراد به إظهار السخط باعتبار جزئه الأول، وشدة الذم باعتبار جزئه الثانى. أى لاستحالة التعجب بمعناه المعروف أيضاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ )

[١٩] ( مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ )

[٢٠] ( ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ )

[٢١] ( ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ )

« مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ » شروع فى بيان إفراطه فى الكفر، بتفصيل ماأفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره ، من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة، مع إخلاله بذلك . وفى الاستفهام عن مبدأ خلقه ، ثم بيانه بقوله تعالى « مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ » تحقير له . أى من أى شىء حقير مهين خلقه ؟ من نطفة مذرة خلقه « فَقَدَّرَهُۥ » أى فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال . أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه «ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ» أى سهله . وهو مخرجه من رحم أمّه بعد اجتنانه وتعاصيه . أو سبيل الإسلام .

قال ابن زيد هداه للإسلام الذى يسره له وأعلمه به . أى بما غرز فى فطرته من الخير ، وأودع فى غريزته من وجدان معرفة الخالق . وقال مجاهد: يعنى سبيل الشقاء والسعادة وهو كقوله(١) ( إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ ) واختاره أبو مسلم قال : المراد من هذه الآية هو المراد من قوله(٢) ( وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين . أى جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر . والتيسير يدخل

(١) [ ٧٦ / الإنسان / ٣ ] . (٢) [ ٩٠ / البلد / ١٠ ] .

فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب . نقله الرازىّ . « ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ » أى جعله ذا قبر يوارَى فيه ، تكرمةً له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض للطير والسباع ، كالحيوان .

قال الفراء : ولم يقل ( فقبره ) لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله تعالى . يقال ( قبر الميت ) إذا دفنه . و ( أقبر الميت ) إذا أمر غيره بأن يجعله فى القبر .

وقال ابن جرير(١) : القابر هو الدافن الميت بيده كما قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ )

[٢٣] ( كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ )

[٢٤] ( فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ )

[٢٥] ( أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا )

[٢٦] ( ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا )

[٢٧] ( فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا )

[٢٨] ( وَعِنَبًا وَقَضْبًا )

[٢٩] ( وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا )

[٣٠] ( وَحَدَآئِقَ غُلْبًا )

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

[٣١] ( وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا )

[٣٢] ( مَّتَـٰعًا لَّـكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ )

« ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ » أى بعثه بعد مماته وأحياه. وإنما قال ( إِذَا شَآءَ ) لأن وقت البعث غير معلوم لأحد . فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى . متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم .

قال الشهاب : وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار ، لأن وقتهما معين إجمالا ، على ماهو المعهود فى الأعمار الطبيعية .

« كَـلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ » قال ابن جرير[1] : أى ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الـكافر ، من أنه قد أدى حق الله عليه ، فى نفسه وماله ، فإنه لما يؤد مافَرَضَ عليه من الفرائض ، ربُّهُ .

وقال القاشانىّ : لمـا بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين ، تعجب من كفران الإنسان واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير . وعدد النعم الظاهرة التى يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس، من مبادئ خلقته، وأحواله فى نفسه، وماهو خارج عنه مما لا يمكن حياته إلا به. وقرر أنه مع اجتماع الدليلين ، أى النظر فى هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيـام بشكره ، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن، لما يقض فى الزمان المتطاول ما أمره الله به من شكر نعمته، باستعمالها فى إخراج كماله إلى الفعل، والتوصل بها إلى المنعم . بل احتجب بها وبنفسه عنه . انتهى .

ولما فصل تعالى النعم المتعلقة بحدوثه ، تأثرها بتعداد النعم المتعلقة ببقائه . فقال سبحانه « فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ » أى فإن لم يشهد خلق ذاته، وعمى عن الآيات فى نفسه، وأصر على جحوده توحيدَ ربه ، فلينظر إلى طعامه ومأكله الذى هو أقرب الأشياء لديه . ماذا صنعنا فى إحداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً. وقوله تعالى « أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ » أى من

(١) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

المزن « صَبًّا » أى شديداً ظاهراً . وقد قرىء بكسر همزة ( إنا ) على الاستئناف المبين لكيفية حدوث الطعام ، وبالفتح على البدلية ، بدل اشتمال . بمعنى سببية الأول للثانى . أو تقوم الثانى بالأول. فهو من اشتمال الثانى عليه أو بدل كل ، ادعاءً «ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا» أى صدعناها بالنبات . أو شققنا أجزاءها بعد الرى ليتخلل الهواء والضياء فى جوفها « فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا » يعنى حب الزرع . وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب « وَعِنَبًا وَقَضْبًا » وهو كل ما أكل من النبات رطباً، كالقثاء والخيار ونحوهما. سمى قضباً لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى « وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ » جمع حديقة وهى البساتين ذوات الأشجار المثمرة ، عليها حوائط تحيط بها « غُلْبًا » جمع غلباء أى ضخمة عظيمة . وعظمها إما لاتساعها البالغ حد البصر ، أو لغلظ أشجارها وتكاثفها والتفافها «وَفَـٰكِهَةً» أى مما يؤكل من ثمار الأشجار « وَأَبًّا » وهو المرعى الذى تأكله البهائم من العشب والنبات « مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ » أى تمتيعاً . مفعول له لـ ( أنبتنا ) أو مصدر حذف فعله وجُرّد من الزوائد . أى متعكم بذلك متاعاً ، وجعلكم تنتفعون به أنتم وأنعامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ )

[٣٤] ( يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ )

[٣٥] ( وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ )

[٣٥] ( وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ )

[٣٧] ( لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ )

[٣٧] ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ )

[٣٩] ( ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ )

[٤٠] ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ )
[٤١] ( تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ )
[٤٢] ( أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ )

« فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ » يعنى الداهية الشديدة ، وهى صيحة القيامة وصوت زلزالها الهائل المصمّ للآذان . يقال صخّه يصخه ، ضرب أذنه فأصمها . وصاح بهم صيحة تصخّ الآذان ، وقد صخ صخيخاً ، وهو صوته إذا قرع . وصخ لحديثه إذا أصاخ له ، بمعنى استمع كما فى ( الأساس ) ويجوز على الأخير أن تجعل بمعنى المستمعة ، مجازاً فى الإسناد . وجواب ( إذا ) محذوف يدل عليه مابعده . كيشتغل كل بنفسه ، أو افترق الناس « يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ » أى زوجته «وَبَنِيهِ» أى لاشتغاله بنفسه، وعلمه بأنهم لاينفعونه .

قال الشهاب : يعنى أن الإقبال عليهم إما للنفع أو للانتفاع ، وكلاهما منتف لاشتغاله بنفسه عن نفس غيره ، وعلمه بعدم نفعه . وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة . فهو للترقى. كذا قيل .

قال الشهاب : والظاهر أنه لم يقصد ذلك لاختلاف الناس والطباع فيه « لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » أى يكفيه فى الاهتمام به. كأن ذلك الهم الذى نزل به، قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهمٍّ آخر ، فصار شبيها بالغنى « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ » أى مضيئة « ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » أى مسرورة بنيل كرامة اللهوالنعيم المتزايد، وهىوجوه المؤمنين الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وقدموا من الخير والعمل الصالح ماملأوا به صحفهم « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ » أى غبار وكدورة « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » أى تغشاها ظلمة « أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ » أى الفسقة الذين لايبالون ما أتوا به من معاصى الله ، وركبوا من محارمه ، فجوزوا بسوء أعمالهم وخبث نياتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨١ – سورة التكوير

وتسمى سورة ( إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ) وهى مكية وآيها تسع وعشرون . روى الإمام أحمد[١] عن ابن عمر : قال قال رسول الله ﷺ : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأى عين فليقرأ ( إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ . وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ) وهكذا رواه الترمذى[٢] .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبى ) ، والحديث رقم ٤٨٠٦ ( طبعة المعارف ) .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨١ ـ سورة إذا الشمس كورت .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ )

[٢] ( وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ )

[٣] ( وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ )

[٤] ( وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ )

[٥] ( وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ )

[٦] ( وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ )

[٧] ( وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ )

[٨] ( وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ )

[٩] ( بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ )

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أى أزيلت من مكانها ، وأُلقيت عن فلَـكها ، ومُحى ضوؤها «وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ» أى تناثرت وانقضّت «وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ» أى رُفعت عن وجه الأرض، ونسفت . من أثر الرجفة والزلزال الذى قطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ» أى تركت مهملة لا راعي لها ولا طالب . والعشار جمع عُشَرَاء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وخصها ، لأنها أنفس أموالهم . أى فإذا هذه الحوامل التى يتنافس فيها أهلها أهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ « وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ » أى جمعت من كل جانب واختلطت، لما دهم أوكارها ومكامنها من الزلزال والتخريب، فتخرج

هائمة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ» أى : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض ، حتى تعود بحرا واحداً . من ( سجر التنور ) إذا ملأه بالحطب . كقوله (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ) وقيل : المعنى تأججت ناراً . قال القفال : يحتمل أن تكون جهنم فى قعور البحار ، فهى الآن غير مسجورة لقوام الدنيا . فإذا انتهت مدة الدنيا ، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار ، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك . وأوضحه الإمام بقوله : وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً . فإن ما فى بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى فى البحار إلا النار . أما كون باطن الأرض يحتوى على نار فقد ورد به بعض الأخبار . ورد أن البحر غطاء جهنم ، وإن لم يعرف فى صحيحها . ولكن البحث العلمىّ أثبت ذلك . ويشهد عليه غليان البراكين وهى جبال النار . انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها فى أول زمان تخريب الدنيا . ويمكن وقوعها أيضا بعد قيام القيامة . وليس فى اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين . أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة . انتهى .

« وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ » أى قرنت الأرواح بأجسادها . أوضمت إلى أشكالها فى الخير والشر ، وصُنِّفَتْ أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء .

« وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ » يعنى البنات التى كانت طوائفُ العرب يقتلونهن . قال السيد المرتضى فى ( أماليه ) : الموءودة هى المقتولة صغيرة . وكانت العرب فى الجاهلية تئد البنات ، بأن يدفنوهنّ أحياء ، وهو قوله تعالى[1] (أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ) وقوله تعالى[2] ( قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ) . ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين : أحدهما أنهم كانوا يقولون إن الإناث بنات الله . فألحقوا البنات بالله فهو أحق بها منا . والأمر الآخر أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق . قال الله[3] تعالى ( وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ) الآية : قال المرتضى : وجدت أبا على الجبائىّ

(١) [ ١٦/ النحل/ ٥٩ ] . (٢) [ ٦/ الأنعام/ ١٤٠ ] . (٣) [ ٦/ الأنعام/ ١٥١ ] .

وغيره يقول : إنما قيل لها موءودة لأنها ثقلت بالتراب الذى طرح عليها حتى ماتت. وفى هذا بعض النظر . لأنهم يقولون من الموءودة ـ وَأَدَ ( يَئِدُ ) ( وَأْدًا ) والفاعل ( وَائِد ) والفاعلة ( وَائِدَة ) ومن الثقل يقولون آدنى الشىء يؤودنى ، إذا أثقلنى ، أَوْدا . انتهى .

وإنما قال ( بعض النظر ) لأن القلب معهود فى اللغة ، فلا يبعد أن يكون ( وأد ) مقلوباً من ( آد ) . وقال المرتضى : فإن سأل سائل ، كيف يصح أن يسئل من لاذنب له ولا عقل، فأىّ فائدة فى سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين : أحدها أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة فى قتلها، وسئل عن قتله لها بأى ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقتلة ههنا هم المسئولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها. ويجرى هذا مجرى قولهم ( سألت حقى ) أى طالبت به ومثله قوله تعالى[1] ( وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ) أى مطالباً به مسئولًا عنه . والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبيه له ، على أنه لاحجة له فى قتلها . ويجرى هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام[2] ( ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ) على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هذا الوجه : كيف يخاطب ويسئل من لاعقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن فى الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغمّ عليه فى ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمتنع أن يقع . وإن لم يكن من الموءودة فهم له . لأن الخطاب، وإن علق عليها، وتوجه إليها، والغرض فى الحقيقة بهغيرها. قالوا وهذا يجرى مجرى من ضرب ظالم طفلًا من ولده فأقبل على ولده يقول له: ضربتَ ماذنبك وبأى شىء استحل هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لاخطاب الطفل. والأولى أن يقال فى هذا : إن الأطفال ، وإن كانوا من جهة العقول لايجب فى وصولهم إلى الأغراض المستحقة ،

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٣٤ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ١١٦ ] .

أن يكونوا كاملي العقول ، كما يجب مثل ذلك في الوصول إلى الثواب . فإن كان الخبر متظاهراً والأمة متفقة على أنهم في الآخرة ، وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ، لأنها تكون في تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتعقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحجة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبيّ ، بأن المجنيّ عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت له الجناية دون الجاني ، بعث ذلك الجاني على التفكّر في حاله وحال المجنيّ عليه . فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له . حتى يبين من صدر عنه ذلك . كما سئل عيسى دون الكفرة ، وهو فن من البديع ، بديع . انتهى .

وقال الزمخشريّ : وإنما قيل ( قُتِلَتْ ) بناء على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

قال السيوطيّ في ( الإكليل ) : في الآية تعظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياء . وأخرج مسلم[1] أنه ﷺ سئل عن العزل فقال : الوأد الخفيّ . وهي : وإذا الموءودة سئلت. انتهى.

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب في هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! إني وأدت بنات لي في الجاهلية . قال : أعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يارسول الله ! إني صاحب إبل . قال : فانحر عن كل واحدة منهن بدَنَة .

(١) الحديث أخرجه في : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ١٤١ ( طبعتنا ) عن جُدَامة بنت وهب الأسدية .

وروى الدارمي[١] في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان . فكنا نقتل الأولاد . وكانت عندي ابنة لي . فلما أجابت ، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها . فدعوتها يوماً فاتبعتني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها في البئر . وكان آخر عهدي بها أن تقول يا أبتاه يا أبتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ : أحزنت رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : كف . فإنه يسأل عما أهمه . ثم قال له : أعد علي حديثك . فأعاده . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته . ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك .

وكان للعرب تفنن في الوأد . فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها : طيّبيها وزّينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها . وقد حفر لها بئراً في الصحراء . فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لتتمخّض على رأس الحفرة . فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة . وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال ، جد الفرزدق بن غالب ، بأنه كان ممن فدى الموءودات في الجاهلية ، ونهى عن قتلهن . قيل إنه أحيا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك . وقد افتخر الفرزدق بهذا في قوله[٢] :

ومنا الذي منع الوائِدَاتِ  وأحيا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ

---

(١) أخرجه في مقدمة مسنده في : ١ ـ باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ من الجهل والضلالة .

(٢) من قصيدته التي مطلعها :

عرفت المنــازلَ من مَهْدَدِ  كوحي الزبور لدى الغرقدِ

الوحي : الكتاب . والغرقد : ضرب من الشجر دائم الاخضرار .

( الديوان ١/٢٠٢ ) .

وفى قوله أيضاً[١] :

أنا ابنُ عِقالٍ وابن ليلى وغالبٍ ... وفكّاكُ أغلال الأسير المكفَّر[٢]
وكان لنا شيخانِ ذو القبر منهما[٣] ... وشيخٌ أجار الناسَ من كل مَقْبَرِ
على حينِ لاتُحْيَي البناتُ وإذ همُ ... عُكُوف على الأصنام حولَ المدوَّرِ
أنا ابن الذى ردّ المنيةَ فضلُهُ ... وما حسبٌ دافعتُ عنه بِمُعْوِرِ
أَبِى أَحَدُ الغَيْثَيْن صعصعةُ الذى ... متى تُخْلِفِ الجوزاء والنجمُ يُمْطِرِ
أجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القبر ، يعلمْ أنه غير مُخْفِرِ
وفارق ليلٍ[٤] من نساء أتت أبى ... تُعالج ريحاً ليلها غير مُقْمِرِ
فقالت أجر لى ما ولدتُ فإننى ... أتيتك من هَزْلى الحمولةِ مُقْتِرِ
رأى الأرض منها راحة فرمى بها ... إلى خُدَدٍ منها وفى شر مَحْفَرِ
فقال لها نامى فأنت بذمتى ... لبنتك جارٌ من أبيها القَنَوَّرِ[٥]

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة ـ هذا ـ وفد على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم . قال : وكان صعصعة منع الوأد فى الجاهلية، فلم يدع تميما تئدوهو يقدر على ذلك. فجاء الإسلام وقد فدى فى بعض الروايات أربعمائة موءودة ، وفى أخرى ثلاثمائة ، فقال للنبيّ ﷺ : بأبى

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بنى نهشل أبقُوا عليكم ولم تروا ... سوابقَ حامٍ للذِّمار مُشَهَّرِ

( الديوان ٢/٤٧٤ ) .

(٢) المكفر : هو الذى كفر وكبل بالحديد .

(٣) ذو القبر : غالب كان يستجار بقبره. والذى أجار الناس من القبر وأحيا الوئيدة صعصعة.

(٤) فارق ـ يعنى امرأة ماخضاً. شبهها بالفارق من الإبل وهى الناقة التى يضربها المخاض فتفارق الإبل وتمضى على وجهها حتى تضع .

(٥) القنور : السيء الخلق .

أنت وأمى ! أوصنى . فقال : أوصيك بأمك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك . فقال : زدنى . فقال عليه الصلاة والسلام: احفظ مابين لحييك ورجليك. ثم قال عليه الصلاة والسلام: ماشيء بلغنى عنك فعلته ؟ فقال : يارسول الله ! رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب. غير أنى علمت أنهم ليسوا عليه. فرأيتهم يئدون بناتهم، فعرفت أن ربهم عز وجل لم يأمرهم بذلك . فلم أتركهم . ففديت ما قدرت عليه . ويقال إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى . فقال له سليمان : أنت ابن محيي الموتى ؟ فقال : إن جدى أحيا الموءودة، وقد قال الله تعالى[1] ( وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً ) وقد أحيا جدى اثنتين وتسعين موءودة، فتبسم سليمان . وقال : إنك مع شعرك لفقيه . نقله المرتضى فى (أماليه) . وبالجملة، فكان الوأد عادة من أشنع العوائد فى الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتمام الجفاء والغلظة .

قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة . انتهى .

ومن أثر نعمته أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون فى مدحهن ماهو أبهى من عقود الجمان ؛ فمن ذلك قول معن بن أوس[2] :

رأيت رجالًا يكرهون بناتِهِمْ     وفيهن ، لا نُكْذَبْ ، نساء صوالحُ
وفيهن والأيام يعـثرن بالفتى     خوادِمُ لا يَمْلَلْنَهُ ونوائحُ

وقال العلوىّ الحمانىّ، فى صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً .

قالوا له ماذا رُزِقْتَا     فأصاخ ثُمَّتَ قال : بنتا

(١) [ ٥ / المائدة / ٣٢ ] .

(٢) انظر أمالى القالى ، الصفحة رقم ١٩٠ من الجزء الثانى ( طبعة الدار ) .

وأجلّ من ولد النساء أبو البنات . فلمْ جزعتا
إن الذين تودّ من بين الخلائق ما استطعتا
نالوا بفضل البنت ما كبتوا به الأعداء كبتا

وحكى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته. فقال : من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال . أمطها عنك . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء ، ويورثن الشحناء ، ويُثِرنَ البغضاء . قال : لا تقل ذلك يا عمرو ! فوالله ما مرّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الزمان ، ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لواجدٌ خالًا قد نفعه بنو أخته ،وأبا قد رفعه نسل بنيه . فقال: يامعاوية! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إلىّ منهن. وإنى لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلىّ منهن. وفى رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون (١)

فلو كان النساء كمن وَجَدْنا لفُضِّلَتِ النساء على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عَيْبٌ وما التذكيرُ فَخْرٌ للهلالِ

والله تعالى يعرفك البركة فى مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً . فالدنيا مؤنثة. والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية . وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون . فهنيئاً لك هنيئاً بما أوتيت،وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

(١) قائله المتنبى ، من قصيدته التى مطلعها :

نعدّ المشرفيةَ والعوالِي وتقتلنا المَنُونُ بِلا قِتالِ

انظر الصفحة رقم ٢٥٣ من الديوان ( طبعة لجنة التأليف ) .

ونسخت رقعة لأبي الفرج الببغاء : اتصل بي خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها ، وأنبتها نباتاً حسناً . وما كان من تغيرك عنـد اتصال الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر . وقد علمت أنهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهن في الترتيب فقال عز من قائل[١] : ( يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ) وما سماه الله تعالى هبة ، فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى . فهنأك الله بورود الكريمة عليك ، وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنوادر في هذا لا تحصى . وكلها من بركة الإسلام وفضله ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ )

[١١] ( وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ )

[١٢] ( وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ )

[١٣] ( وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ )

[١٤] ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ )

« وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ » قال ابن جرير[٢] : أي صحف أعمال العباد نشرت لهم ، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات « وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ » أي قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى[٣] ( يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ) « وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ » أي أوقد عليها فأحميت .

---

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٤٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٣) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٨ ] .

قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . « وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » أى قربت للمتقين « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ » أى علمت كل نفس عند ذلك ، ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار . أى تبيّن لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذى كان فيه صلاحها من غيره . و ( عَلِمَتْ ) جواب لجميع ما سبق من الشروط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ )

[١٦] ( ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ )

[١٧] ( وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ )

[١٨] ( وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ )

[١٩] ( إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ )

[٢٠] ( ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ )

[٢١] ( مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ )

« فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ » أى الرواجع من النجوم . من ( خنس ) إذا رجع وتأخر . قال الزمخشرىّ: بينا ترى النجم فى آخر البرج، إذ كرّ راجعاً إلى أوله «ٱلْجَوَارِ» جمع جارية ، من الجرى « ٱلْكُنَّسِ » أى الغيّب التى تدخل فى بروجها ، فى رأى العين . من ( كنس الوحش ) إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . فهو فى الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة فى الاستعمال ، حقيقة « وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » أى أدبر ولم يبق إلا اليسير، وذلك وقت السحر «وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» أى أقبل وتبيّن . أو هبّ نسيمه اللطيف أو انجابت عنه غمة الليل و كربته . تشبيها بمن نفس عنه كربه . قال الإمام : أقسم الله تعالى

بهذه الدرارىّ ليُنوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرّفها ومقدّرها، وإرشاد تلك الحركات إلى مافى كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعتها، فى القسم، بما يبعدها عن مراتب الألوهية ، من الخنوس والكنوس ، تقريعاً لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أرباباً . وفى الليل إذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الأحياء بانسدال الظلمة بعدما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفى الصبح إذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد ، تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى « إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعنى روح القدس الذى ينفث فى روعه ﷺ وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ) أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن « ذِى قُوَّةٍ » أى على تحمل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم فى قوله[1] تعالى ( شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) « عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ » أى صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى « مُّطَاعٍ ثَمَّ » أى فى الملأ الأعلى « أَمِينٍ » أى على وحيه تعالى ورسالته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ )

[٢٣] ( وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ )

[٢٤] ( وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ )

[٢٥] ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ )

« وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ » أى ليس ممن يتكلم عن جِنَّةٍ ويهذى هذيان المجانين .

(١) [ ٥٣ / النجم / ٥ ] .

(١)( بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ) وهذا نفى لما كان يبهته به أعداؤه، صلى الله عليه وسلم ، حسداً ولؤماً .

قال الشهاب : وفى قوله ( صَاحِبُكُم ) تكذيب لهم بألطف وجه . إذ هو إيماء إلى أنه نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهناً. فلا يسند له الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون . ولله در البحترى (٢) فى قوله :

إذا مَحَاسِنِىَ ٱللاتى أُدِلُّ بها ... كانت ذُنوبى، فقل لى كَيْفَ أَعْتَذِرُ

« وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ » أى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق الأعلى، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر ، والله أعلم ، أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى . وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله تعالى(٣) ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ* عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ) فتلك إنما ذكرت فى سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام، متمثلاً له، هو التحقيق الموحى به، وأن أمره مبنىّ على مشاهدة وعيان، لا على ظن وحسبان . وماسبيله كذلك فلا مدخل للريب فيه « وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ » أى ببخيل .

قال مجاهد : ما يضن عليكم بما يعلم . أى لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء :

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٣٧ ] .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

فى الشَّيْبِ زجرٌ له لو كان ينزجرُ ... وبالغٌ منه لولا أنه حَجَرُ

انظر الصفحة رقم ٦٧٣ من الديوان ( طبعة بيروت ) .

(٣) [ ٥٣ / النجم / ١٣ ـ ١٥ ] .

يأتيه غيب السماء، وهو شيء نفيس، فلا يبخل به عليكم. وقال أبو عليّ الفارسيّ: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه ، كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً . وقرئ ( بظنين ) بالظاء : أى ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب .

قال القاشانيّ : لامتناع استيلاء شيطان الوهم وجنّ التخيل عليه ، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسيّ بالوهميّ والخياليّ ، لأن عقله صفّى عن شوب الوهم . والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحى واليوم الآخر والجزاء، ليس من شأنه أن يتهم فيه. كما قال هرقل[1] لأبي سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا . فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

تنبيه :

قال ابن جرير[2]: وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به ، وذلك ( بِضَنِينٍ ) بالضاد . لأن ذلك كله كذلك فى خطوطها . فأولى التأويلين بالصواب فى ذلك ، تأويل من تأوّله ( وما محمد، على ما علمه الله من وحيه وتنزيله، ببخيل بتعليمكموه أيها الناس. بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتتعلموه ) انتهى . واختار أبو عبيدة القراءة بالظاء لوجهين :

أحدهما أن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل .

وثانيهما قوله ( عَلَى ٱلْغَيْبِ ) ولو كان المراد البخل لقال ( بالغيب ) لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

وقال الشهاب : قال فى ( النشر ) : هو بالضاد فى جميع المصاحف ، ولا ينافى هذا قول أبى عبيدة . إن الضاد والظاء فى الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى،

(١) من حديث طويل أخرجه البخاريّ عن أبى سفيان بن حرب ، فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان حديث رقم ٧ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

زيادة يسيرة ، قد تشتبه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقلة المصاحف كما توهم ، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولابد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا فى القراءات موافقة الرسم العثمانىّ ، ولولاه كانت قراءة الظاء مخالفة له . انتهى .

قال ابن كثير : وكلتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ » أى من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام . وهو نفى لقولهم إنه كهانة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ )

[٢٧] ( إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ )

[٢٨] ( لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ )

[٢٩] ( وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

« فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ » أى أىّ مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جرم أنكم تنحون الضلال بعد هذه المزاعم فى الوحى ومبلغه . فمن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يتقرّب إليه بوجه . كمن سلك طريقاً يبعده عن سمت مقصده ، فيقال : أين تذهب .

قال الزمخشرىّ : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيّات الطريق : أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله ، فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل « إِنْ هُوَ » أى القرآن المتلوّ عليكم « إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى تذكرة وعظة لهم .

قال الإمام : موعظة يتذكّرون بها ما غرز الله فى طباعهم من الميل إلى الخير . وإنما أنساهم ذكره ماطرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع . وقوله تعالى « لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ » بدل من ( العالمين ) . أى إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه . أما من أعرض ونأى ،

فمن أين تنفعه الذكرى ، وقد زاده الران عمى ؟ وقوله تعالى « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى وما تشاءون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخلية بينكم وبينها . وفائدة هذا الإخبار ، هو الإعلام بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل . فهو خاضع لسلطان مشيئته ، مقهور تحت تدبيره وإرادته .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٢ — سُورَة الانفطار

وهى مكية . وآيها تسعة عشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ » أى انشقت كما فى آية(١) (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ) « وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استعارة لإزالة الكواكب ، حيث شبهت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى فتح بعضها إلى بعض، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها « وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » أى بحثت وأُخرج موتاها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتاها فانفتحت وخرج من دفن فيها . وهذا معنى البعثرة . وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه. وهو إنما يكون لإخراج شىء تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجوّز به عن البعث والإخراج كما فى سورة العاديات. والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وثَمَّ، لما فيها ، فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزمخشرىّ والسهيلىّ إلى أنه مركب من كلمتين اختصاراً. ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أثير) أى حرك وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٥ ] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً . ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة ، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين ، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصّله فى ( المزهر ) نقلاً عن أئمة اللغة .

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرَتْ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى: ماقدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه . والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير ، وجدان الجزاء عليهما، وتحقق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ )

[٧] ( ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ )

[٨] ( فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ » أى: أىّ شىء خدعك وجرّأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذكر ( ٱلْكَرِيمِ ) للمبالغة فى المنع عن الاغترار. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل فى نعوته . ومن كان كذلك فجدير بأن يرهب عقابه ويخشى انتقامه وعذابه . لاسيا وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد فى الرهبة ، كما قال « ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ » أى جعلك سويًّا متساوى الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تم به « فَعَدَّلَكَ » أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق ، معتدل القامة . لا كالبهائم . وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدّد، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة، مزتَ بها على سائر الحيوان «فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ » أى : فى أىّ صورة شاءها ركبك عليها . يعنى أنه ركّبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها. فـ ( أَىِّ ) استفهامية. والمجرور متعلق بـ ( رَكَّبَكَ ) و ( ما ) زائدة ،

وجملة ( شَآءَ ) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته فى ذلك التركيب، لَجَدِيرٌ بأن يُتّقَى بأسه و يُحذر بطشه ويُرهب أشد الترهيب .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيّم فى ( الجواب الكافى ) فى بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحا فى ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الكونية، على الأسباب، ماتتمته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب ـ وهذا من أهم الأمور ـ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له فى دنياه وآخرته ، ولابدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يغترّ بفهمٍ فاسدٍ ، فَهِمَهُ هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنَّة فاتكلوا عليه . قال : كاغترار بعض الجهّال بقوله تعالى ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإنما غرّه بربه الغَرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمّارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ ( ٱلْكَرِيمِ ) ، وهو السيدالعظيم المطاع الذى لاينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر ( الغرور ) فى غير موضعه، واغترّ بمن لاينبغى الاغترار به. انتهى .

وفى مثل هذا الغرور يجب ـ كما قال الغزالىّ ـ على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب. وإنه ، مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد . مع أنه لم يضرّه كفرهم . بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فَمَنْ هذه سنته فى عباده ، وقد خوّفنى عقابه، فكيف لاأخافه؟ وكيف أغترّ به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور.

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين . مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى. زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته . كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا ، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لايتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذّونه هذًّا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب. لايهمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ )

[١٠] ( وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ )

[١١] ( كِرَامًا كَاتِبِينَ )

[١٢] ( يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ )

« كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ » قال الإمام : أى لا شىء يغرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته فى كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر، لثواب أو عقاب . وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين. أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء . مع أن الله تعالى لم يترك عملا من أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه ، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كِرَامًا كَـٰتِبِينَ » أى يكتبون ما تقولون .

« يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » أى من خير أو شر. أى يحصونه عليكم، فلا يغفلون ولا ينسون

قال الرازىّ : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم. لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود ، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة . فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره . فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا هاهنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم ، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهه . فيجب الإيمان به ، كما ورد . مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ )

[١٤] ( وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ )

[١٥] ( يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ )

[١٦] ( وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ )

[١٧] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ )

[١٨] ( ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ )

[١٩] ( يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ، وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ )

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ » قال ابن جرير[١] : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ، واجتناب معاصيه ، لفى نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع ( برّ ) بفتح الباء وهو المتصف بالبِرّ ( بكسرها ) أى الطاعة . قال الأصفهانىّ : وقد اشتمل عليه قوله تعالى[٢] ( لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ، وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ) . وقوله تعالى: « وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ » أى الذين فجروا عن أمر الله . أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبل « يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلدون فى صليّها . وقوله تعالى « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه . أى أىّ شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ما تهمّ درايته والبحث عنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٢ / البقرة / ١٧٧ ] .

والخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا » أى من دفع ضرّ أو كشف همّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازىّ : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرّفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغنى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٣ – سورة المطففين

قال المهايمىّ : سميت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق ، استحق أعظم ويل من الحق . فكيف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإيمان به وبآياته ورسله ؟ وهى مكية على الأظهر . فإن سياقها يؤيد أنها كأخواتها اللائى نزلن بمكة ، لاسيما خاتمتها . فإنها صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة . وحملها على المنافقين بالمدينة بعيد ، إذ لم يبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائىّ وابن ماجه[1] ـ كما فى ابن كثير عن ابن عباس ، لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا ، فأنزل الله ( وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ) فأحسنوا الكيل ـ فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإنزال ، فى إطلاق السلف ، لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فيه ذلك . كأنّ أهل المدينة تلى عليهم ما سبق إنزاله فى مكة . وقيل لهم : أنزل الله حظر ما أنتم عليه والوعيد فيه . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه . ومنه يعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكة إلا قصة التطفيف . وقول آخر : إن كل نوع من المكىّ والمدنىّ منه آيات مستثناة ـ منشؤه الحيرة فى المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور فى سبب النزول ، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه . وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال ويتضح الحال .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٣٥ ـ باب التوقى فى الكيل والوزن ، حديث ٢٢٢٣ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ )

[٢] ( ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ )

[٣] ( وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ )

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصفهانىّ : ومن قال : ( وَيْلٌ ) وادٍ فى جهنم ، فإنه لم يرد أن ( ويلًا ) فى اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقرًّا من النار .

ثم بيّن تعالى المطففين بقوله « ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافياً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك فى الكيل الذى هو أجلّ مقداراً ، ففى الوزن بطريق الأولى . وإيثار ( على ) على ( من ) للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرئ لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتمام . ففيهما حذف وإيصال .

قال ابن جرير[١] : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : فى الآية ذم التطفيف والخيانة فى الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل فى الأخذ والدفع ، ولو فى القليل . لأن من دنُوَّتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعده عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير[١] : وأصل التطفيف من الشىء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : المقلل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام فى كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء فى حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء . وقد أمر تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان . فقال تعالى فى عدة آيات : [٢]( وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ) . وقال تعالى[٣] ( وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ) وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ )

[٥] ( لِيَوْمٍ عَظِيمٍ )

[٦] ( يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ )

« أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، مَن خسر فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون، فى موقف يغشى المجرم فيه من الهول ، مايود الافتداء بكل مستطاع. وفى تأثر الويل للمطففين بما ذكر فى هاتين الآيتين،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .
(٢) [ ١٧ / الإسراء / ٣٥ ] . (٣) [ ٥٥ / الرحمن / ٩ ] .

مبالغات فى المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن فى ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً ـ ووصف يوم قيامهم بالعظمة ـ وإبدال ( يَوْمَ يَقُومُ ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان ( رب العالمين ) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوىّ ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف ـ وفى تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله فى عباده ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة. فتأمّل هذا المقام ، ففيه ما تتحيّر فيه الأوهام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٧ ] ( كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ )

[ ٨ ] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ )

[ ٩ ] ( كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ )

[١٠] ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[١١] ( ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ )

« كَلَّآ » ردع عن التطفيف الذى يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيء وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانٍ، وهو الفجور، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى مسطور بيّن الكتابة . أو معلّم برقم ينبىء عن قبحه . سمى سجيناً ـ فعِّيلا من السجن وهو الحبس والتضييق ـ لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم . فهو بمعنى ( فاعل ) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى ( مفعول ) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير: ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم؟ فحذف المضاف. وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب. وقال الأصفهانيّ: السجين اسم لجهنم بإزاء عليّين. وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه. وقيل: هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ ) فسّره . وكل ما ذكره بقوله ( وَمَا يُدْرِيكَ ) تركه مبهماً. وفى هذا الموضع ذكر ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ ) وكذا فى قوله ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ) ثم فسّر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفى هذه الطبقة موضعها الكتب التى يتبع هذا الكتاب ، لاهذا . انتهى .

وقال القاشانيّ : ( لَفِى سِجِّينٍ ) فى مرتبة من الوجود مسجون أهلها فى حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء فى أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشرّ . ولذلك فسّر بقوله ( كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ) أى ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ* ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ » أى بيوم الحساب والمجازاة. وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف. لأن إصرارهم على التعدى والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ )

[١٣] ( إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

« وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ » أى مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة، إلى الإفراط فى أفعاله بالبغى والعدوان « أَثِيمٍ » أى مبالغ فى ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصى « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» أى ماسطروه من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحى ربانى ، ولا تنزيل إلهىّ. مع نصوع بيانه وشواهد برهانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطّى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدّر جوهرها وصار صدأ عليها بالرسوخ فيها . و ( الرين ) أصل معناه الصدأ والوسخ القارّ ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكة راسخة لاتقبل الزوال ، وصفة للنفس قارّة فيها . فبكثرة المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدأ الذى لايزول بسهولة . قال فى ( الأساس ) : الران ماغطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب. من قولهم ( ران عليه الشراب والنعاس ) و ( ران به ) إذا غلب على عقله. و ( رين بفلان ) ونظيره الغين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ )

« كَلَّا » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقًّا « إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ » قال ابن جرير(١) : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو الساتر من ستارة بزّ وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب. وتارة للإهانة ، لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سببىّ لا حقيقىّ . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ )

[١٧] ( ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ )

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » أى محترقون بها . وقد أشار القاشانىّ إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيّرها عن طباعها . فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة، ولذلك قال: ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ) لامتناع قبول قلوبهم للنور، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرىّ . كالماء الكبريتىّ مثلا ، إذ لو روّق أو صعّد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيفيته دون طبيعته. ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب، وحكم عليهم بقوله ( ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ) انتهى .

قال ابن القيم فى ( بدائع الفوائد ) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ما تفعله النار فى أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهى ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحبوب عنها وطول احتجابه ، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذى لا يتصوره إلا من بلى به أو بشىء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب. وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما[1] قال :

وكنتُ أرى كالموتِ من بَينِ لَيْلَةٍ ... فكيفَ بِبَيْنٍ كَانَ ميعادَه الحشرُ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسَلَمة الجعفىّ يرثى أخاه لأمه. وأولها : =

وإنما يتبين الحال فى هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته فى أن يحصل فيه ماخلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشى والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره . وجعل هذا كمالها وغايتها . فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالاً من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التى تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه. بل لا نسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهومن جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذى لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة فى الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

---

= أقول لنفسى فى الخلاء ألومها : لكِ الويل! ما هذا التجلدُ والصبرُ

قال الشارح المرزوقىّ :

قوله ( كالموت ) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لا يرى ذلك إلا فى الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يمتنع أن يكون ( كالموت ) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثل الموت .

وقوله ( من بين ليلة ) من، دخل للتبيين. والمعنى : كنت أعدّ مفارقتى له فى ليلة كالموت، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حالى وقد فرّق بينى وبينه بَيْنٌ ، موعدُ الالتقاء بعده يومُ القيامة .

الذى كان يحجبها فى الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفى حديث الرؤية(١) : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعى النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما فى الجنة ، فى قوله(٢) ( وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ) الآيات اه .

« ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أى فى الدنيا . قال الإمام: تبكيتاً لهم وزيادة فى التنكيل بهم . فإن أشد شىء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّى عنه كانت فى مكنته فأغفلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ )

[١٩] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ )

[٢٠] ( كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ )

[٢١] ( يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ )

« كَلَّآ » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً « إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ » قال القاشانىّ : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، فى عليين . وهو مقابل للسجين ، فى علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٦ ـ كتاب الجنة ، ١٦ ـ باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى .

(٢) [ ٧٦ / الإنسان / ١١ ].

رقم بِصُوَرِ أعمالهم « يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية(١) ( فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصفٍ ثان ، تنويهاً بهم وتعديداً لصفاتهم . أو هم الملائكة إجلالًا لهم وتعظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ )

[٢٣] ( عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ )

[٢٤] ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ )

[٢٥] ( يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ )

[٢٦] ( خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ، وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ )

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » أى على الأسرة والمتكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ » أى بهجته ورونقه، كما يرى على وجوه المترفهين ماؤه وحسنه « يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ » أى خمر، إلا أنه خص بالخالص الذى لا غش فيه، كما قال حسان(١) :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ(٢) عليهم　　بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلْسَلِ

(١) [ ٥٤/القمر/٥٥ ] .　　(٢) البريص: نهر بدمشق . وبَرَدَى: نهر آخر بدمشق. وقوله ( بردى ) أى ماء بردى . ويصفّق أى يمزج . والرحيق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسأل ؟　　بين الجوابى فالبُضَيْع فحَوْمَلِ

( شرح البرقوقىّ ص ٣٠٧ ) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .

وقوله تعالى : « مَّخْتُومٍ » أى ختم على أوانيه تكريما له لصيانته عن أن تمسه الأيدى على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق، هو المسك، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بعض السلف واللغويين: المختوم الذى له ختام أى عاقبة، وقد فسرت بالمسك. أى من شربه كان ختم شربه على ريح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة «وَفِى ذَٰلِكَ» أى النعيم المنوه به وما تلاه «فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ » أى فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه . وهو مأخوذ من الشيء النفيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه . وكأن معناه فى ذلك: فليجدّ الناس فيه وإليه، فليستبقوا فى طلبه ولتحرص عليه نفوسهم . وقال الرازىّ : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه . وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا فى النعيم الذى هو مكدر سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ )

[٢٨] ( عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ )

« وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ » عطف على (ختامه) صفة أخرى (لرحيق) ومابينهما اعتراض مقرر لنفاسته. أى مايمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم. والتسنيم فى الأصل مصدر سنمه بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

رفعه ، ومنه السنام . سمى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ . وقد بينه بقوله « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء ، كما فى آية[1] ( يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ) من كونها زائدة ، أو بمعنى ( من ) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ )

[٣٠] ( وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ )

[٣١] ( وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ » يعنى كفار قريش « كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه ، ونبذهم ما ألفوا عليه آباءهم .

قال الإمام : الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شربت نفوسهم فى الشر ، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبيّ ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفى ضلال العامة . وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيلَ الحق إلى قلوبهم فَيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القوىّ المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش ، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم . وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجهل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [ ٧٦ / الإنسان / ٦ ] .

لاتطابقها البواطن، وحركات أركان لاتشايعها السرائر. وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب. وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب. وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل. وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل. واستوى فى ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل والملقب بلقب العالم. إذا صار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعى إليه. وانطبق عليهم نص الآية الكريمة. انتهى.

« وَإِذَا مَرُّوا » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية. والغمز: الإشارة بالجفن والحاجب.

قال السيوطىّ: وفى هذا دلالة على تحريم السخرية بالمؤمنين، والضحك منهم، والتغامز عليهم «وَإِذَا انْقَلَبُوا» أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم «إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ» أى متلذذين بالسخرية وحكاية مايعيبون به أهل الإيمان. أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتنعم بالدنيا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ)

[٣٣] (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

[٣٤] (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[٣٥] (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى رأوا المؤمنين «قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ» أى لتركهم ما عليه العامة، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَا أُرْسِلُوا » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذكر

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَـٰفِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من ( واو قالوا ) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ماجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام. وإنما قيل (عَلَيْهِمْ) نقلًا له بالمعنى كما فى قولك ( حلف ليفعلنّ ) لابالعبارة ، كما فى قولك ( حلف لأفعلنّ ) أفاده أبو السعود « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفريع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخريتهم فى الدنيا. و (اليوم) يوم الدين والجزاء. وضحكهم من الكفار ضحك المسرور بما نزل بعدوّه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وماحل بالمجرمين من عذاب الجحيم «هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ ( يَنظُرُونَ ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة. والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيما لهم وتكريما وزيادة فى مسرتهم. أى هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و (ما) مصدرية أو موصولة .

وثوّبه وأثابه بمعنى جازاه . وهو من ( ثاب ) بمعنى رجع. فالثواب مارجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى[1] (ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ* إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ* فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ* إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ) .

---

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ١٠٨ـ١١١ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٤ - سورة الانشقاق

وتسمى سورة إذا السماء انشقت . وهى مكية . وهى خمس وعشرون آية . قيل ترتيب هذه السور الثلاث ظاهر . لأن فى ( انفطرت ) تعريف الحفظة الكاتبين وفى ( المطففين ) مقر كتبهم . وفى هذه عرضها للقيامة . روى الإمام مالك[1] عن أبى سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: إذا السماء انشقت . فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. ورواه مسلم[2] والنسائى[3] . وأخرج البخارى[4] عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة . فقرأ ( إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ) فسجد . فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم ﷺ . فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وفى رواية للنسائى[5] عن أبى هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) و (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٢ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٧ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

(٤) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ١١ ـ باب من قرأ السجدة فى الصلاة فسجد بها . حديث رقم ٤٦٦ .

(٥) أخرجها فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ )

[٢] ( وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ )

[٣] ( وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ )

[٤] ( وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ )

[٥] ( وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ )

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ » أى انصدعت وتقطعت كما تقدم فى قوله[١] ( إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى سمعت له فى تصدعها وتشققها . وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته ، حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذى يستمع للآمر ويذعن له . قال ابن جرير[٢] : العرب تقول ( أذن لك فى هـذا إذناً ) بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذى روى[٣] عن النبيّ ﷺ : ما أذن الله لشىء ما أذن لنبيّ يتغنى بالقرآن . يعنى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبيّ يتغنى بالقرآن . ومنه قول الشاعر[٤] :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكرتُ به … وإن ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عندهم أَذِنُوا

(١) [ ٨٢ / الانفطار / ١ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٢ ـ باب قول الله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٤) الحماسية رقم ٦٠٦ لقعنب بن أم صاحب . وأولها :

إن يسمعوا رِيبةً طارُوا بها فَرَحاً … منى ، وما سَمِعوا من صَالحٍ دَفَنُوا

أذنوا : استمعوا ، يقال : أذن لـكذا وكذا ، يأذن إذنا .

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذُن ، الحاسّة .

ومعنى قوله تعالى ( وَحُقَّتْ ) أى : حق لهـا ووجب أن تنقاد لأمر القادر ولا تمتنع . وهى حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له فى قبضة تصرفه . قال المعرب : الأصل حق الله طاعتها . ولما كان الإسناد فى الآية إلى السماء نفسها ، والتقـدير : وحقت هى ، كان أصل الـكلام على تقدير مضاف فى الضمير المستكنّ فى الفعل . أى وحق سماعها وطاعتها . فحذف المضاف، ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه «وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ» أى بسطت وجعلت مستوية . وذلك بنسف جبالها وآكامها كما قال[1] ( قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ) ولذا قال ابن عباس : مدت مد الأديم العكاظىّ . لأن الأديم إذا مدّ ، زال كل انثناء فيه واستوى « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا » أى ما فى جوفها من الـكنوز والأموات « وَتَخَلَّتْ » أى : وخلت غاية الخلوّ ، حتى لم يبق شىء فى باطنها ، كأنها تـكلفت أقصى جهدها فى الخلوّ « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى انقادت له فى التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهىّ وقهره ومشيئته . وجواب ( إِذَا ) محذوف للتهويل بالإبهام . أى : كان ما كان مما لا يفى به البيان . أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ )

[٧] ( فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ )

[٨] ( فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا )

[٩] ( وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ » قال ابن جرير[2] : أى

(١) [ ٢٠ / طه / ١٠٦و١٠٧ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به ، خيراً كان أو شرًّا . والمعنى : فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشانيّ : أى إنك ساع مجتهد فى الذهاب إليه بالموت . أى تسير مع أنفاسك سريعاً . كما قيل : أنفاسك خطاك إلى أجلك ؛ أو مجتهد مجدٌّ فى العمل، خيراً أو شرًّا، ذاهب إلى ربك فملاقيه ضرورة. قال : والضمير إما للرب وإما للكدح . وأصل الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه ، حتى يؤثر فيها . من ( كدح جلده ) إذا خدشه . فاستعير للجد فى العمل والتعب ، بجامع التأثير فى ظاهر البشرة « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وهم من آمن وعمل صالحاً واتصف بما وصف به الأبرار، فى غير ما آية «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» قال ابن جرير[1]: بأن ينظر فى أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشانيّ : بأن تمحى سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية « وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أى : زوجته وأقاربه . أو قومه ممن يجانسه ويقارنه من أصحاب اليمين « مَسْرُورًا » أى بنجاته من العذاب ، أو بصحبتهم ومرافقتهم ، وبما أوتى من حظوظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ )

[١١] ( فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا )

[١٢] ( وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا )

[١٣] ( إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا )

[١٤] ( إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ )

[١٥] ( بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا )

(١) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ » أى أعطى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، وهو على هيئة المغضوب عليه، أمام الملك المنصرف به عن ذاك المقام إلى دار الهوان[1] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ، وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)«فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا » أى ينادى بالهلاك وهو أن يقول : واثبوراه ! وواويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفه ، إذا قال والهفاه « وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا » أى يدخل ناراً يحترق بها « إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا » أى منعماً مستريحاً من التفكر فى الحق والدعاء إليه والصبر عليه . لا يهمه إلا أجوفاه، بطراً بالنعم، ناسياً لمولاه « إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ » أى لن يرجع إلى ربه، أو إلى الحياة بالبعث. لاعتقاده أنه يحي ويموت ولا يهلكه إلا الدهر. فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالى ما ركب من المآثم، على خلاف ما قيل عن المؤمنين[2]( إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ )[3]( إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ) « بَلَىٰٓ » أى ليحورن وليرجعن إلى ربه حيًّا كما كان قبل مماته « إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا » أى بما أسلف فى أيامه الخالية ، فيجازيه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ )

[١٧] ( وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ )

[١٨] ( وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ )

[١٩] ( لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ )

[٢٠] ( فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ )

[٢١] ( وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ )

(١) [ ١٦/ النحل/ ٦٠ ] . (٢) [ ٥٢/ الطور / ٢٦ ] . (٣) [ ٦٩/ الحاقة / ٢٠ ] .

« فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ » وهى الحمرة فى الأفق من ناحية مغرب الشمس «وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » أى جمع وضمّ مما سكن وهدأ فيه من ذى روح كان يطير أو يدب نهاراً كذا قاله ابن جرير[1]، والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتمال الليل عليها. فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال[2] ( فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ) « وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ » أى اجتمع وتم نوره وصار كاملًا « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » أى حالًا بعد حال. والمعنىّ بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها . فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفى اكتناهها. وجوز أن يكون ( طَبَقًا ) جمع طبقة وهى المرتبة . أى لتركبن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطبق معناه ما طابق غيره مطلقاً فى الأصل، ثم إنه خص بما ذكر، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و ( عن ) للمجاوزة أو بمعنى (بعد). والبعدية والمجاوزة متقاربان، لكنه ظاهر فى الثانى « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحديث. وقد أقام لهم الحجة على التوحيد والبعث « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ » أى لا يخضعون ولا يستكينون ولا ينقادون .

قال فى ( الإكليل ) : وقد استدل به على مشروعية سجدة التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ )

[٢٣] ( وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ )

(١) انظر الصفحة رقم ١١٩ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٦٩ / الحاقة / ٣٨و٣٩ ] .

[٢٤] ( فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ )

[٢٥] ( إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ )

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ » أى بآيات الله وتنزيله ، المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره كما قال الإمام ، لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم . بلى، قد بلغ وأقنع فيما بلغ. ولكن العناد هو الذى يمنعهم عن الإيمان، ويصدهم عن الإذعان، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل . وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ، فالإضراب يرمى إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ» أى بما يسرون فى صدورهم من حقية التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغى والمكر ، فسيجزيهم عليه . ولذا قال « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على تكذيبهم وإعراضهم وبغيهم « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فآمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى ( يؤمنون ) وكونه منقطعاً أظهر لمجىء ( لهم أجر ) بغير فاء . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٥ — سورة البروج

مكية . وآيها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ )

[٢] ( وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ )

[٣] ( وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ )

[٤] ( قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ )

[٥] ( ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ )

[٦] ( إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ )

[٧] ( وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ )

[٨] ( وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ )

[٩] ( ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ )

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور، لعلوّها . أو البروج منازل عالية فى السماء .

قال ابن جرير[١] : وهى اثنا عشر برجاً . فمسير القمر فى كل برج منها يومان وثلث فذلك ثمانية وعشرون منزلا . ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج ـ كما قال الشهاب ـ الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة ( برج ) أيضا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

فشبه ـ على هذا ـ الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ » أي الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسّ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها ، وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأَولى أو الأعرف والأظهر ، لقرينةٍ عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ » أي: قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هى جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لتبلون كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزمخشرىّ : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم (قتلت قريش) كما قيل ( قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة. وقوله تعالى « ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ » بدل من ( الأخدود )و( الوقود ) بالفتح الحطب الجزل الموقد به وأما ( الوقود ) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أي على حافات أخدودها« قُعُودٌ »أي قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أي حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم « وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ »أي : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نقمت من الشيء ونقمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « ٱلْعَزِيزِ » أي الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « ٱلْحَمِيدِ »أي المحمود على إنعامه

وإحسانه « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شىء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفى توصيفه تعالى بما ذكر من النعوت الحسنى ، إشعار بمناط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبيده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر ، وفى الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف فى كتب المعانى .

تنبيه :

روى ابن جرير[(١)] عن ابن عباس فى أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالًا ونساءً ، فعرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالًا ونساء فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم فى النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس ـ وتفصيل النبأ ـ على ما فى كتاب ( الكنز الثمين ) ـ إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العريّة عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان فى مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانياً مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا فى تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تنصر ، بغضاً فى المسيحية وكراهة لسلطانٍ مسيحىّ يملكهم . فأقاموا رجلًا يهودياً منهم عند موت ذلك السلطان أو قتله . فأشهر ذلك اليهودىّ نفسه ملكاً على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

والخيانة . ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالًا ونساءً . كانت عدتهم ـ فيما يقال ـ ثلاثمائة وأربعين شهيداً. وأتى بذلك الراهب محمولا يحف به الجنود. وكان هرماً لا يقوى على المشى . فسئل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام. فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على مايشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألقت امرأة بنفسها فى النار وتبعها طفل لها فى الخامسة من عمره. وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى، والفرح بالشهادة، ماأضحوا مثالًا وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعته عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لا جرم أن من تلا ماورد فى الوعد الصادق لكل مفتون فى الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أراثا ورفقته . ويؤرخونها بعام ( ٥٢٤ ) من التاريخ المسيحىّ ، وقد علمت أن فى كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى بلوهم بالأذى ليرجعوا عن إيمانهم . قال أبو السعود: والمراد بهم، إما أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين المطروحون فى الأخدود، وإما الذين بلوهم فى ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق. وهم داخلون فى جملتهم دخولًا أوليًّا «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟» أى عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ » أى عذابان منوّعان على الكفر وعلى الفتنة . أوهما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أى فى نشأتهم الأخرى « جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ » أى التام الذى لا فوز مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ )

[١٣] ( إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ )

[١٤] ( وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ )

[١٥] ( ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ )

[١٦] ( فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ )

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبوالسعود : استئناف خوطب به النبىّ ﷺ ، إيذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بعنف. وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى[١] (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ )

« إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ » أى يبدئ الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو فى كل يوم

(١) [ ١١ / هود / ١٠٢ ] .

يبدئ خلقاً من نبات وحيوان وغيرها . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس فى اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ » أى لمن يرجع إليه بالتوبة « ٱلْوَدُودُ » أى المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو ٱلْعَرْشِ » أى الملك والسلطان أو السماء « ٱلْمَجِيدُ » أى العظيم فى ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته «فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ» أى لا يريد شيئاً إلا فعله. فلا يحول بينه وبين مراده شىء. فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض. ولذا تأثره بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ )

[١٨] ( فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ )

[١٩] ( بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ )

[٢٠] ( وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ )

[٢١] ( بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ )

[٢٢] ( فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ )

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ » أى الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير[١] : أى قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلى . ولا يثنينّك عن تبليغهم رسالتى . كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم ، إلى عطب وهلاك . كالذى كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة ـ كما قال أبو السعود ـ استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فعالا لما يريد) متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ » بدل من (الجنود) لأن المراد بفرعون هو وقومه، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى، مع وضوح آياته وظهور بيناته، عناداً وبغياً . والإضراب انتقالىّ للأشد، كأنه قيل ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك. فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم، لم ينزجروا . وفى جعلهم (فِي تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه ، مع ما فى تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شىء وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهربا . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخىّ لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه أنهما كهم ، وقوله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل فى أسلوبه وهدايته « فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير [1]: والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل فى لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لاريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٦ - سورة الطارق

هي مكية . وآيها سبع عشرة . -

روى الإمام أحمد[١] : عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي حبل العدوانيّ عن أبيه؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر. فسمعته يقرأ ( وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ) حتى ختمها : قال فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك . ثم قرأتها في الإسلام . قال فدعتني ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم. فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه. وروى النسائيّ[٢] عن جابر ، قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء، فقال النبيّ ﷺ : أفتان أنت يامعاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا ؟

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٣٥ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبيّ ) .

(٢) أخرجه في : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ )

[٢] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ )

[٣] ( ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ )

[٤] ( إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ )

« وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ » أى المضىء . كأنه يثقب ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدى به . وسمى طارقاً لأنه يطرق ليلا . أى يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من (الطرق) وأصل معناه الضرب بوقعٍ وشدة يسمع لها صوت. ومنه المطرقة والطريق ، لأن السابلة تطرقها . ثم صار فى عرف اللغة اسما لسالك الطريق ، لتصور أنه يطرقها بقدمه . واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتى ليلًا ( طارقاً ) لأنه فى الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف فى ( النجم ) للجنس . وأصل معنى ( الثقب ) الخرق . فالثاقب الخارق . ثم صار بمعنى المضىء ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفى إبهامه ثم تفسيره ، تفخيم لشأنه وتنبيه على الاعتبار والاستدلال به .

« إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى مهيمن عليها رقيب . وهو الله تعالى ، كما فى آية[1] (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً) فيحصى عليها ماتكسب من خير أو شر ،

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٥٢ ] .

وقد قرئ ( لَمَا ) بالتخفيف فـ ( إن ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ـ و ( كُلُّ نَفْسٍ ) مبتدأ و ( عَلَيْهَا حَافِظٌ ) خبره . و ( ما ) صلة واللام هى الفارقة . وقرئ ( لما ) بالتشديد على أنها بمعنى ( إلّا ) الاستثنائية و ( إن ) نافية والخبر محذوف . أى ما كل نفس كائنة فى حال من الأحوال، إلا فى حال أن يكون عليها حافظ ورقيب. و ( كل ) على هذا مؤكدة[٢] لأن ( نفس ) حينئذ نكرة فى سياق النفى ، فتعم .

قال ابن جرير[١] : والقراءة التى لا أختار غيرها فى ذلك ، التخفيف . لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب. غير أن الفرّاء كان يرى أنها لغة فى هُذَيل . يجعلون ( إلا ) مع ( إن ) المخففة لمّا . فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة . وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف . لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . ولا ينبغى أن يترك الأعرف إلى الأنكر . انتهى .

وقد صحح غير واحد ثبوتها. وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة . واستشهد ابن هشام لها فى ( المغنى ) فراجعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٥ ] ( فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ )

[ ٦ ] ( خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ )

[ ٧ ] ( يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ )

[ ٨ ] ( إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ )

[ ٩ ] ( يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ )

[ ١٠ ] ( فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ )

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ » جواب لمقدر . والفاء فصيحة. أى : إن ارتاب مرتاب فى كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر الخ .

قال الإمام : قوله ( فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ ) بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة فى التأكيد . ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم إن هـذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بخلافته فى الأرض. فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الإدارك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله ( فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ) من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول: فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكر فى خلقه. وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذى أنشأه أول مرة ، قادر على أن يعيده . فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق . ويعدل بها عن سبل الشر . فإن عين الرقيب لا تغفل عنها فى حال من الأحوال . انتهى .

و ( دَافِقٍ ) من الدفق . وهو صبٌّ فيه دفع . وقد قيل إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل[1] كـ ( حِجَابًا مَّسْتُورًا ) .

والصحيح أنه بمعنى النسبة كـ ( لابن وتامر ) أى ذى دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز فى الإسناد . فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجعله دافقاً . لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أى يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث . أقوال .

وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ » أى من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

(١) [ ١٧/ الإسراء / ٤٥ ] .

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه فى كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقا لاسم الجزء على الكل و (الترائب) موضع القلادة من الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة. أى أن ذلك الماء الدافق، إنما يكون مادة لخلق الإنسان، إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع فى المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة . فقوله (يخرج) الخ وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

وقال بعض علماء الطب: الترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر فى الذكر والأنثى. ويغلب استعمالها فى موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس (١) :

* ترائبُها مَصْقولة كالسَّجَنْجَل *

قال : ومعنى الآية أن المنىّ باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شىء ممتد بين الصلب ـ أى فقرات الظهر فى الرجل ـ والترائب أى عظام صدره . وذلك الشىء الممتد بينهما هو الأبهر ( الأورطى ) وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويمتد إلى آخر الصلب تقريباً . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة . ومنها شريانان طويلان يخرجان منه

---

(١) صدر البيت : * مهفهفةٌ بيضاء غيرُ مُفاضَةٍ *

وقائله امرؤ القيس من معلقته التى مطلعها :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ      بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

المهفهفة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن .

المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم .

الترائب : جمع التريبة ، وهى مواضع القلادة من الصدر .

السقل والصقل ( بالسين والصاد ) : إزالة الصدأ والدنس وغيرهما .

السجنجل : المرآة . لغة روميّة عرّبتها العرب ، وقيل بل هو قطع الذهب والفضة .

بعد شريانى الكليتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين ، فيغذيانهما . ومن دمهما يتكون المنىّ فى الخصيتين ويسميان شريانى الخصيتين ، أو الشريانين المنويين فلذا قال تعالى عن المنىّ ( يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ) لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطى أو الأبهر. وهذه الآية، على هذا التفسير، تعتبر من معجزات القرآن العلمية. وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ » أى الحافظ سبحانه ، المتقدم فى قوله ( لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ) أو الخالق المفهوم من خلق « عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ » أى رجع الإنسان وإعادته فى النشأة الثانية، لقادر . كما قدر على إبدائه فى النشأة الأولى « يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ » أى تظهر وتعرف خفيات الضمائر .

قال الزمخشرىّ : السرائر ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها تعرّفها وتصفّحها، والتميز بين ماطاب منها وما خبث « فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » أى من قوة يمتنع بها من عذاب الله وأليم نكاله . ولا ناصر ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه . يعنى أنه فقد ما كان يعهده فى الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بعشيرته ، يمتنع منهم ممن أراده بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا انتظار الجزاء على ما قدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ )

[١٢] ( وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ )

[١٣] ( إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ )

[١٤] ( وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ )

[١٥] ( إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا )

[١٦] ( وَأَكِيدُ كَيْدًا )

[١٧] ( فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا )

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » أى المطر . يسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » أى النبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها . أو الانشقاق بالنبات . فهو علم أو مصدر « إِنَّهُ » أى القرآن الكريم « لَقَوْلٌ فَصْلٌ » أى حق فارق بين الحق والباطل «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ» أى بالكلام الذى ليس له أصل فى الفطرة ولا معنى فى القلب ، بل هو جدّ الجدّ « إِنَّهُمْ » أى المكذبين به ، الجاحدين لحقه « يَكِيدُونَ كَيْدًا » أى يمكرون مكراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره «وَأَكِيدُ كَيْدًا » قال ابن جرير[١] أى وأمكر مكراً . ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به. يعنى أن الكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية. بتشبيه إمهال الله لهم ليستدرجهم، بالكيد. وبهذا يظهر تفريع أمره بإمهالهم فى قوله « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ » أى لاتستعجل عقابهم . وقوله « أَمْهِلْهُمْ » بمعنى ( مهلهم ) فهو بدل منه للتأكيد . أو تكرير بلفظ آخر للتأكيد . وقوله « رُوَيْدًا » أى قليلا .

قال الإمام : وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن مايصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبيّ ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذى جاء به، أنه سيبلغ من النجاح مايستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٧ – سورة الأعلى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية مارواه البخاري[(١)] عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلا يُقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين . ثم جاء النبي ﷺ . فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء . فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، في سور مثلها.

وعن عليّ رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » تفرد به الإمام أحمد[(٢)]، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى . وعن النعمان ابن بشير[(٣)] أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية . وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما . رواه مسلم وأهل السنن . وعن عائشة أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين .

---

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨٧ ـ سورة الأعلى ، ١ ـ حدثنا عبدان ، حديث رقم ١٨٣١ . (٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول ( طبعة الحلبيّ ) والحديث رقم ٧٤٢ ( طبعة المعارف ) . (٣) أخرجه مسلم في : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى)

[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣] (وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

[٤] (وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ)

[٥] (فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ)

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوها، كقوله[1] (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فالاسم صلة . وسرٌّ إيراده أن المنوه به إذا كان فى غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيها على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير[2] وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شىء سواه، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير[2] فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمده الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) حيث رد على من استدل بهذه الآية

---

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٨٠ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فى أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره .
فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى ( سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ) فهو على ظاهره دون تأويل. لأن التسبيح فى اللغة التى بهـا نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشيء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه، الذى هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعـالى ( سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى )ومعنى قوله تعالى[1] ( إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعـالى، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فـكلا الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعـالى ( فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ) وبين قوله[2] ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ) .

والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطل تعلقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء فى ( بحمد ربك ) للملابسة ، ولا كذلك هى فى ( باسم ربك ) ومع اتساع اللفظ الـكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لمـا أيده من الأخبار ، ولآية ( فَسَبِّحْهُ ) وآية ( سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ) والله أعلم .

و ( الأعلى ) هو الأرفع من كل شيء، قدرة وملـكاً وسلطاناً. واستدل السلف بظاهره فى إثبات العلوّ بلا تـكييف . والمسألة معروفة .

« ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ » قال الزمخشرىّ : أى خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولـكن على إحكام واتساق، ودلالة على أنه صادر عن عالم، وإنه

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٩٥و٩٦ ] . (٢) [ ٥٢ / الطور / ٤٨و٤٩ ].

صنعة حكيم . « وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لكل حيوان مايصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ » أى أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات « فَجَعَلَهُۥ » أى بعد خضرته ونضرته « غُثَآءً » أى جافًّا يابسا تطير به الريح « أَحْوَىٰ » أى أسود ، صفة مؤكدة ( لغثاء ) لأن النبات إذا يبس تغير إلى ( الحوّة ) وهى السواد .

قال ابن جرير[1] : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ماشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ )

[٧] ( إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ )

[٨] ( وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ )

[٩] ( فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ )

[١٠] ( سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ )

[١١] ( وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى )

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

[١٢] ( ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ )

[١٣] ( ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ )

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ » أى سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه . والمعنى نجعلك قارئا للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشرىّ : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى ، وهو أمىّ لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :

أحدها ـ إنه كان رجلًا أمياًّ فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما ـ إن هذه السورة من أوائل مانزل بمكة. فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .

الثانى ـ قيل ( لاتنسى ) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل[(١)] (ٱلسَّبِيلَا) والمعنى لاتغفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهى عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازىّ : والقول المشهور إن هذا خبر. والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لاتنسى وتأمن النسيان. كقولك (سأكسوك فلاتعرى) أى فتأمن العرى، قال: واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لايتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن النسيان لايقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلابد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان. مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ .

(١) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٧ ] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجملك بحيث لاتنساه . وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهى الدراسة والقراءة . وهذا ليس فى البشارة وتعظيم حاله مثل الأول. ولأنه على خلاف قوله[1] ( لَاتُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ) انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعىّ فى كتاب ( تفضيل السلف على الخلف ) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَاتَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ) وتحقيق معنى النسخ هنا فى غاية الإشكال، لأن قوله ( وَلَا تَعْجَلْ ) نهى عن العجلة، وقوله ( سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ) ليس بأمر بها ليكون ناسخاً للنهى عنها. بل هو خبر عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفحواه مؤكد لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفظك تحفيظاً لاتخاف معه النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخا، لغة لاحقيقة، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى «إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ» استثناء مفرغ من أعم المفاعيل. أى لاتنسى مما تقرؤهُ شيئاً من الأشياء ، إلا ماشاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجبلة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ماشاء الله أن ينسي فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً كلياً دائماً . وذلك لأن ما بالجبلة لايتغير . وإلا لكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخارىّ[2] عن عائشة أن النبىّ ﷺ قال: رحم الله فلاناً. لقد أذكرنى كذا وكذا آية ، كنت أسقطتهن . ويروى أنسيتهن .

---

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٦ ] .

(٢) أخرجه فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١١ ـ باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى. رواه الشيخان(١) عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازيّ بمعنى القلة المراد بها النفى ، وذلك أن المخرج فى الاستثناء أقل من الباقى . ولأن (ماشاء الله) فى العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفا ، والقلة قد يراد بها النفى فى نحو ( قلّ من يقول كذا مجازا ) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزمخشريّ بقوله: ( أو قال إلا ماشاء الله ) والغرض نفى النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سهمى فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة فى معنى النفى .

وقال الفراء ـ فيما نقله الرازيّ ـ : إنه تعالى ماشاء أن يُنسى محمداً عليه السلام شيئاً، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه، كما قال(٢) ( وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

« إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ » أى ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله ( سَنُقْرِئُكَ ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحى وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المقرأ الموحى به للعمل. ليس فيه حرج وعسر، بقوله تعالى «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ » أى نوفقك للطريقة اليسرى ، أى الشريعة السمحة السهلة ، التى هى أيسر

---

(١) أخرجه البخارى فى: ٨ ـ كتاب الصلاة، ٣١ ـ باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ ( طبعتنا )
(٣) [ ١٧ / الإسراء / ٨٦ ] .

الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكِّرْ» أى عبادَ الله عظمتَه، وعظهم وحذرهم عقوبته « إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ » أى الموعظة. و(إن) إما بمعنى (إذ) كقوله تعالى(١) (وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) أو بمعنى ( قد ) على ماقاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى(٢) (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقيل: (إن)شرطية. والمعنى ذم المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلا بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: (عظ المكّاسين إن سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيَذَّكَّرُ» أى يقبل التذكّرة وينتفع بها «مَن يَخْشَىٰ» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى* ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ» أى العظمى ألما وعذابا «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيي حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا ( لا هو حى ولا ميت ) فجاء على مألوفهم فى كلامهم . و ( ثم ) هنا للتفاوت الرتبيّ ، إشارة إلى أن خلوده أفظع من دخوله النار ، وصليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ)

[١٥] (وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ)

[١٦] (بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا)

[١٧] (وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ )

[١٨] (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ)

[١٩] (صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ)

« قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ » أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل

---

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٣٩ ] . (٢) [ ٥١ / الذاريات / ٥٥ ].

بما أمره الله به «وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ» أى تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه ، كقوله تعالى(١) (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ) وجوز أن يحمل (تزكى) على إيتاء الزكاة و(صلى) على إقامة الصلاة، كآية(٢) (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ) لما عهد فى كلامه تعالى من الجمع بينهما فى عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المعهود فى التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لاضير فى مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله(٣) (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم. وهو أكثر فائدة.

« بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان مايؤدى إلى الفلاح : لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما فى قوله تعالى(٤) (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا) الآية. أو للكل، فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر، ومالا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة ، فى السعى وترتيب المبادئ. والالتفات على الأول لشديد التوبيخ. وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ ( يؤثرون ) بالياء «وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ» أى أفضل ، لخلوصها عما يكدر. وأدوم لعدم انصرام نعيمها. والجملة حال من فاعل (تؤثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب « إِنَّ هَٰذَا » أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) أو ما فى السورة كلها « لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى ثابت فيها معناه « صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » بدل من ( الصحف الأولى ) وفى إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لايخفى .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٢ ] .
(٢) [ ٢٠ / طه / ١٤ ].
(٣) [ ٧٥ / القيامة / ٣١ ].
(٤) [ ١٠ / يونس / ٧ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٨ – سورة الغاشية

مكية . وآيها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ( سبح اسم ربك الأعلى والغاشية ) فى صلاة العيد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك[١] أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية ( رواه مسلم[٢] وأبو داود وغيرهما ) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٥ ـ كتاب العمل فى غسل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ)

[٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)

[٤] (تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ)

[٦] (لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ)

[٧] (لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ)

[٨] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ)

[٩] (لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الغاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجحود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » قال القاشانىّ : أى تعمل دائبا أعمالًا صعبة تتعب فيها ، كالهوىّ فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضريت بها فى الدنيا ، وأتعابها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعـــذاب .

وجوز أن يكون ( عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ) إشارة إلى عملهم فى الدنيا . أى عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثورًا كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله فى أهل الجنة ( لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ) وذلك السعى هو الذى كان فى الدنيا . والله أعلم . « تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً » أى تدخل ناراً متناهية فى الحرارة . قال القاشانىّ : أى مؤذية مؤلمة بحسب ما تزاولها فى الدنيا من الأعمال « تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ » أى بلغت غايتها فى شدة الحر « لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ » وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل .

قال ابن جرير[٢]: الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية[٣] ( وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ) لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع .

وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقوماً أو غسليناً « لَّا يُسْمِنُ » أى لا يخصب البدن « وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ » أى لا يسكن داعية النفس ولا نهمها من أجله « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ » أى ذات حسن، على أنه من النعومة ، كناية عن حسن المنظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم « لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » أى لعملها الذى عملته فى الدنيا ، وجدّها فى طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكرة لا تندم ولا تتحسر .

---

(١) [ ٨٨ / الغاشية / ٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) [ ٦٩ / الحاقة / ٣٦ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ )

[١١] ( لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً )

[١٢] ( فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ )

[١٣] ( فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ )

[١٤] ( وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ )

[١٥] ( وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ )

[١٦] ( وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ )

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علوّ المكانة .

« لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ما خولوه من النعيم والملك « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب، وهو إناء لاأذن له « مَّوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لا يعوزهم تفقدها « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن للاستناد إليها « وَزَرَابِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ )

[١٨] ( وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ )

[١٩] ( وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ )

[٢٠] ( وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ )

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية ، وماهو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون، بالاستشهاد عليه بما لايستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة ( كيف ) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة فى حيز الجر على أنها بدل اشتمال من( الإبل ) أى أينكرون ماذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتى مايصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة. وفى صبرها على الجوع والعطش، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى ٱلْجِبَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبة لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى ٱلْأَرْضِ » أى التى يضربون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشرىّ : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .

لطيفة :

ذكر السكاكىّ فى ( المفتاح ) فى بحث الجامع الخيالىّ ؛ أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب فى استيداع الصور خزانة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق ( أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ) الآيات ، لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ، ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها . وكذا البواقى . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الوبر ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لامحالة إلى أكثرها نفعاً ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يُؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيرهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم فى منزل ـ ومَن لأصحاب مواش بذاك ـ كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أَرى البدوىّ إذا أخذ يفتش عما فى خزانة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تَنِصّ إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا . وإنما الحضرىّ ، حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيبا ، للعيب فيه . انتهى .

---

(١) قائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضُهُ فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

نجيره : نحميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كليل : تعب قاصر النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ )

[٢٢] ( لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ )

[٢٣] ( إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ )

[٢٤] ( فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ )

[٢٥] ( إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ )

[٢٦] ( ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم )

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرةُ « إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نسى من أمره تعالى « لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » أى بمتسلط تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق « إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى ( مَن ) كما أن إفراده قبل باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة له تعالى وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٨٩ - سورة الفجر

مكية . وآيها تسع عشرة روى النسائى[١] عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . فجاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذا ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول علىّ . فانصرفت وصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناقة ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[٤] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[٥] (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)

« وَالْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى(١) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضّوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق. وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد، عشر ذى الحجة، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفى البخارىّ(٢) عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير(٣) أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازىّ ، قولًا أنها العشر الأواخر من رمضان، لما فيه من ليلة القدر، ولما صح(٤) أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير

(١) [ ٨١ / التكوير / ١٨ ] .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٥٢ ـ باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحيي ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر في العشر . وهو أنها الليالي التي يحلو لك فيها الليل ويشتد ظلامه ويغشى الأفق سواده. وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة ( عَشْرٍ ) بمثابة قوله في السور الآتيـة ( إِذَا يَغْشَىٰ ) ( إِذَا سَجَىٰ ) مما يبيّن وجه العبرة ويجلّيها أتم الجلاء ، ولا بعد في هذا المعنى. بل فيه توافق لبقية الآيات. وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيدته قرينة أو حاكى نظائره . والله أعلم .

« وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » يعني الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيـه كما في قوله تعالى[1] ( وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفع . السماء والأرض . والبر والبحر . والجن والإنس . والشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار .

( وَالْوَتْرِ ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقه . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعاني . لأنها لا تخلو من شفع ووتر .

قال القاضي: ومن فسرها بالبروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها أو بيومي النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، ما رآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلًا في الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير[2] : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر، دون نوع ، بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هـذا ، لعموم قسمه بذلك .

وقد قرئ ( الوتر ) بفتح الواو وكسرها . وهما لغتان .

(١) [ ٥١ / الذاريات / ٤٩ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ » أى إذا يمضى ، كقوله[1] ( وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ) والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . فنى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآى . ومن القراء من حذفها وصلا ووقفا . ومنهم من خصه بأحدها ، كما فصل فى كتب الأداء .

« هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ » قال ابن جرير[2] : أى هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذى حجر . وإنما عُنى بذلك : أن فى هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأقسام .

وقال الرازىّ : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لُبّ علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . أى على طريقة قوله تعالى[3] ( وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق ، وإيذاناً بظهور الأمر . و ( الحجر ) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب مالا ينبغى . والمقسَم عليه محذوف . وهو ( ليعذبن ) كما ينبىء عنه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ )

[٧] ( إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ )

[٨] ( ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ )

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

---

(١) [ ٧٤ / المدثر / ٣٣ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) [ ٥٦ / الواقعة / ٧٦ ] .

فيعذب هؤلاء أيضا ، لاشتراكهم فيما يوجبه من جحود الحق والمعاصى. و ( عَادٍ ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليــه السلام . فـكذبوه فأهلـكهم بريح صرصر عاتية. فقوله تعالى « إِرَمَ » عطف بيان لعاد « ذَاتِ ٱلْعِمَادِ » أى ذات الخيام المعمّدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الـكلأ حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم فى الأحقاف فى حضرموت . وقيــل : كنى بالعماد عن العلوّ والشرف والقوة. إلا أن الأشبه ـ كما قال ابن جرير[1] ـ بظاهر التنزيل هو الأول. وهو أنهم كانوا أهل عمد سيارة . لأن المعروف فى كلام العرب من العماد ، ما عُمد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنمــا يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ماوُجِدَ إلى ذلك سبيل ، دون الأنـكر. « ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ » أى فى العظم والبطش والأيدى .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً . ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم. فقال[2] ( وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَـكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ ) وقال تعــالى[3] ( فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَـكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّـهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ) .

تنبيه :

قال الإمام الدرّاكة ابن خلدون فى (مقدمة) تاريخه فى سياق الأخبار الواهية للمؤرخين مامثاله : وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم مايتناقله المفسرون فى تفسير سورة ( والفجر ) فى

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .
(٢) [ ٧ / الأعراف / ٦٩ ] . (٣) [ ٤١ / فصلت / ١٥ ] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) فيجعلون لفظه ( إِرَمَ ) اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده. وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها. فبنى مدينة ( إرم ) فى صحارى عدن فى مدة ثلثمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرىّ والثعالبىّ والزمخشرىّ وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبدالله بن قلابة، من الصحابة ، أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هى ( إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ) وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ فى شىء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التى زعموا أنها بنيت فيها هى فى وسط اليمن ومازال عمرانه متعاقباً . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخبار بين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب فى لفظة ( ذات العماد ) أنها صفة ( إرم ) وحملوا العماد على الأساطين . فتعين أن يكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير ( عاد إرم ) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه

بالأقاصيص الموضوعة التى هى أقرب إلى الكذب المنقولة فى عداد المضحكات . وإلا فالعماد هى عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع فى وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص فى مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما فى قراءة ابن الزبير ، على إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول: قريش كنانة وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأى ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذى تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير فى تفسيره حيث قال: ومن زعم أن المراد بقوله ( إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر . فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذٍ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يردّ ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم

قال : وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها ( إرم ذات العماد ) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ؛ إن صدقتهم فى جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابىّ ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابىّ ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات . ويطنزون بهم . والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٩ ] ( وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ )

[١٠] ( وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ )

[١١] ( ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ )

[١٢] ( فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ )

[١٣] ( فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ )

[١٤] ( إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ )

« وَثَمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما فى قوله[1] ( وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ ( جابوا ) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرئ بالياء وبإسقاطها . كما فى ( يَسْرِ ) والوادى هو وادى القرى . كانت منازلهم فيه . كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ » أى الجنود الذين يشدون له أمره . أو هى أوتاد يشد بها من يعذبه . أو القوى والعَدد والعُدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرض ما : ضرب بها أوتاداً « ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ماحظر من الكفر بالحق والعتو والتمرد والبغى فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحل بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً

(١) [ ١٥ / الحجر / ٨٢ ] .

فى غير ما سورة وآية . و ( السوط ) إما مصدر ( ساطه ) أى خلطه كما فى قول كعب[1] :

لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دَمِها فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبها ذكر سميت الآلة المعروفة، وهى الجلد المضفور الذى يضرب به، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض . وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره الزمخشريّ حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ، بالقياس إلى ما أعدّ لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : هو من قبيل ( لجين الماء ) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام الطبريّ ، حيث زعم أن السوط مَثَل لشدة العذاب .

قال الشهاب: وأما استعارة الصبّ للعذاب فشائعة، كالإذاقة. يقال: صبّ عليه السوط، وقنّعه به وغشّاه . وهو تمثيل وتصوير لحلوله أو تتابعه عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » أى لهؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعاثين بالفساد . و ( المِرصاد ) اسم مكان للذى يترقب فيه الرصد ـ جمع راصد ـ أو صيغة مبالغة . كمطعام ومطعان . فالباء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد، مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها . بحيث لا ينجو منه أحد ـ بحال من قعد على الطريق مترصّدا لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .

ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غناه وفقره . ونعى عليه شأنه فيهما، بما يقرر ما تقدم من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى :

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بانَتْ سعادُ فقلبى اليومَ مَتْبُولُ متيَّمٌ إثْرَها ، لم يُفْدَ ، مَكْبُولُ

سيط : خُلِطَ . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب ، والإخلاف فى الموعد ، وتبديل خليل بآخر .

انظر شرح السكّرى ص ٨

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ)

« فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ » أى بالغنى واليسار « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ » أى فضلنى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ » أى ضيّقه عليه وقتّره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ » أى أذلنى بالفقر. وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بخلق الصبر على الكفاف . ففى كلٍّ ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية[١] (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً) وآية[٢] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وآية[٣] (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَلَّا » ردع عن قوليه فى حاليه . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع،

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٥ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦ ] .

(٣) [ ٧٠ / المعارج / ١٩ـ٢٢ ] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ » وهو من فقد كافله ومربيه . فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالته، صونا له إذا أهمل من فساد طبيعته وعيثه بالضرر فى أهل جبلته . ومثله التحاضّ على مواساة البؤساء. وهؤلاء المنعى عليهم ضلالهم فى غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ »أى لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به.

قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول ( ولم تطعموا المسكين ) ليصرح لك بالبيان الجلىّ أن أفراد الأمة متكافلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشانىّ ، فى دلالة قوله تعالى ( فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ ) الخ : أى الإنسان يجب أن يكون فى مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان، لحديث (الإيمان نصفان . نصف: صبر، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يبتليه بالنعم والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغى من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمنى لاستحقاقى وكرامتى عنده . ويترفه فى الأكل ويحتجب بمحبة المـال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول: إن الله أهاننى. فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ، ويجعل ذلك وسيلة له فى التوجه إلى الحق والسلوك فى طريقه لعدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدراجاً منه . انتهى .

« وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا » قال ابن جرير(١) : أى تأكلون الميراث أكلا شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم ( لممت ما على الخوان أجمع فأنا ألمه لماً ) إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورّثون النساء ولا يورّثون الصغار ، وقرأ[1] (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى النِّسَآءِ الَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَٰنِ) أي لا تورثونهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللمّ : الاعتداء في الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أي جمعه وكنزه ، حبًّا كثيراً شديداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

[٢٢] (وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

[٢٣] (وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ)

[٢٤] (يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[٢٥] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ)

[٢٦] (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ)

« كَلَّآ » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم . وما بَعْدَهُ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا ينفعهم الندم « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أي دكا بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثاني تأكيدا ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلًا رجلًا ، و(الدك) قريب من الدق، لفظاً ومعنى « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أي وجاء الرب، تبارك وتعالى، لفصل القضاء، كما يشاء. والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة

(١) [ ٤ / النساء / ١٢٧ ] .

والضحاك فى نزوله تعالى من السماء يومئذ فى ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهبُ الخلف فى ذلك معروف ، من جمل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه .

قال الزمخشريّ : مثلت حاله فى ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكأنّ الخلاف بين المذهبين لفظيّ ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق . بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذى يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لا تشبه الذوات ، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات . لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجهٍ ما . فهى حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على ما يليق به . كالعلم والقدرة . لا تمثيل ولا تعطيل .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله ( ظاهرها غير مراد ) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قِبلَ وجه المصلّى ، أنه مستقر فى الحائط الذى يصلى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب فى المعنى ، لكن أخطأ فى إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه فى غير هذا الموضع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً فى هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك فى ( الرسالة المدنية ) وأوضح أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله فى بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذى قام دليله. وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد فى شيء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل. ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب واللحاق بمحرفة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص فى هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبى بكر بن أبى داود ، وأبى الحسن الخرزىّ ، وأبى الفضل التميمىّ ، وابن حامد، فيما أظن ، وغيرهم، إلى إنكار أن يكون فى القرآن مجاز. وإنما دعاهم إلى ذلك ما رَأَوْهُ من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز. فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم الموادّ . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

« وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها. فمجيئها متجوز به عن إظهارها. كما صرح به آية(١) (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ) « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ » تفريطه فى الدنيا فى طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ » أى منفعتها. فالمراد بتذكره ندامته على تفريطه فى الصالحات من الأعمال التى تورثه نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى « يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتى هذه . فاللام للتعليل . أو : قدمت وقت حياتى . فاللام بمعنى وقت . والحياة هى التى فى الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يعذب كعذاب الله، أحدٌ فى الدنيا « وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد فى الدنيا. وقرئ (يُعَذَّبُ وَيُوثَقُ ) على بناء المجهول .

(١) [ ٧٩ / النازعات / ٣٩ ] .

قال السمين : وعذاب ووثاق فى الآية ، واقعان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق فى الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .

ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، فى مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ )

[٢٨] ( ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً )

[٢٩] ( فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى )

[٣٠] ( وَٱدْخُلِى جَنَّتِى )

« يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ » أى الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن . وهى التى كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ » أى وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أى راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى » أى فى زمرتهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَٱدْخُلِى جَنَّتِى » أى معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أى ارجعى إلى جسد صاحبك إيذاناً بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة فى الأجساد ، وأن لها مقرًّا قبل تعلقها بالبدن فى عالم الملكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٠ — سورة البلد

مكية وهى عشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

«لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ» تقدم فى مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَآ أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى « وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ » عناية بالنبيّ صلوات الله عليه. فكأنه إقسام به لأجله، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة، وأنهم جهلوا جهلاً عظيما ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب: و(الحل) صفة أومصدر بمعنى الحالّ على هذا الوجه. ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته فى كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حالهم فى عداوته، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لايستحل فيه الحمام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به فى المستقبل. تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها مافتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه. و ( الحل ) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما ـ كماقالوا ـ بُعْدٌ . لاسيما إرادة الاستقبال فى الوجه الأخير، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، بجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب، بذكر بعض موادّ المكابدة، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق، ولاقى من الشدائد، فى سبيل الدعوة إلى الله، مالم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على ( هَٰذَا ٱلْبَلَدِ ) داخل فى المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب ـ كما قال ابن جرير(١) ـ أن المعنىّ به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومه كما عمه .

وإيثارُ (ما) على (من) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم فى مقام المدح . وإنه ممالا يكتنه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما فى قوله تعالى(٢) (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) أى أىُّ مولودعظيم الشأن وضعته. وهذا على كون المراد إبراهيم والنبيّ عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر. أما على أن المرادبه آدم وذريته، فالتعجب من كثرتهم ، أومما خص به الإنسان من خواص البشر. كالنطق والعقل وحسن الصورة. حكاه الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ )

[٥] ( أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ )

[٦] ( يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا )

[٧] ( أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ )

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ » أى فى شدة، يكابد الأمور ويعالجها فى أطواره كلها، من حمله إلى أن يستقر به القرار. إما فى الجنة وإما فى النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ٣٦ ] .

قال الزمخشريّ : (الـكبد) أصله من قولك ( كبد الرجل كبدا) فهو أ كبد، إذا وجعت كبده وانتفخت. فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة،ومنه اشتقت المـكابدة. كما قيل : ( كبته ) بمعنى أهلـكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد[1] :

يَا عينُ هَلَّا بَـكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الخُصومُ فِي كَبَدِ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبيّ صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قالوه .

وقال القاشانيّ : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ ( الـكبد ) فى اللغة غلظ الـكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الـكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى لغلظ حجابه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المـكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه بعجزه .

« يَقُولُ أَهْلَـكْتُ مَالًا لُّبَدًا » أى كثيراً . من ( تلبد الشىء ) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم ( خسرت عليه كذا وكذا ) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ » أى: أيحسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مراضى الله ، وهى رذيلة على رزيلة ، فكيف تكون فضيلة ؟

---

(١) من كلمة قالها يرثى بها أرْبَدَ ، أخاه لأمه ، وأولها :

ما إنْ تُعَرِّى المَنُونُ من أحَدٍ لا وَالدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدِ

انظر ( رغبة الآمل ) ج ٨ ص ١٦٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ)

[٩] (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[١٠] (وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ)

[١١] (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ)

[١٢] (وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ)

[١٣] (فَكُّ رَقَبَةٍ)

[١٤] (أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ)

[١٥] (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

[١٦] (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشانىّ : أى ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التى يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به علتهم فى تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التى يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما فى الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى « وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ » أى طريقى الخير والشر . قال الإمام : النجد مشهور فى الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماها نجدين ، ليشير إلى أن فى كل منهما وعورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظن ، وإلى أنهما واضحان جليان لا يخفى واحدمنهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التميز بين الخير والشر . وأقمنا له من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقين شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفلت من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شىء من سريرته . « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و ( الاقتحام ) الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . و( العقبة ) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ » أى أى شىء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة « فَكُّ رَقَبَةٍ » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتخليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجانب فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى ( مقربة ) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من (القُرْب) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى ( ذَا مَتْرَبَةٍ ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال ( ترب ) كأنه لصق بالتراب ، ويقال ( فقر مدقع ) و ( فقير مدقع ) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب .

لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن ( لا ) من قوله ( فَلَا ) نافية . وإنما لم تكرر ، مع أن العرب لا تكاد تفردها ، كما جاء فى آية[1] ( فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ) . [2] ( فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [ ٧٥ / القيامة / ٣١ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٣٨ ] .

يَحْزَنُونَ ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن ( لَا اقتحم ) لما فسر بما بعده كان فى قوة ( لا فك رقبة ولا أطعم مسكينا ) وفى الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفى أيضاً . فكأنها كررت . وقيل (لا ) للدعاء . كقولهم (لا نجا ولا سلم) وقيل مخففة من ( ألا ) التى للتحضيض . وقيل : إنها للنفى فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن ( لا) إذا دخلت على الماضى وجب تكرارها ، ولم تكرر فى الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة فى الفصاحة . وقد ورد فى كلامهم عدم تكرارها .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ )

[١٨] ( أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ )

« ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنفىّ بـ ( لا ) وهو ( اقتحم ) أو على ( فك ) « وَتَوَاصَوْا۟ » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِٱلصَّبْرِ » أى على ما نابهم فى سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله[١] ( رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصدع به وعمل الصالحات « أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ » أى اليمين ، أو جهة اليمين التى فيها السعداء .

تنبيه :

قال القاشانىّ : يشير قوله تعالى ( فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها ، حتى يصير التطبع طبعا . ثم قال : فإن الإطعام ، خصوصا وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع فى موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٩ ] .

بل أفضل أنواعها ـ والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلميّ اليقينيّ ـ والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة ـ . وأخّره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أي التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدَّدَ أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعفة التي هي أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذي هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة ( ثم ) لبعد مرتبته عن الأولى في الارتفاع والعلوّ . وعبر عن الحكمة به لكونه أُمّ سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التي هي نهايتها ، واستغنى بذكر المرحمة ، التي هي صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ )

[٢٠] ( عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ )

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا » أي بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التي بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التي تجب الاستقامة عليه في الاعتقاد والعمل « هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » أي الشؤم على أنفسهم ، أو جهة الشمال التي فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل اليمين ، في لسان الدين الإسلاميّ ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ » أي مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجارنا الله بفضله وكرمه منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩١ – سورة الشمس

مكية ، وآيها خمس عشرة .

وقد تقدم حديث جابر الذى فى الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا )

[٢] ( وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا )

[٣] ( وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا )

[٤] ( وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا )

[٥] ( وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا )

[٦] ( وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا )

[٧] ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا )

[٨] ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا )

« وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » أى ضوئها إذا أشرقت . قال الراغب : ( الضحى ) انبساط الشمس وامتداد النهار، وبه سمي الوقت . وحقيقته ـ كما قال الشهاب ـ تباعد الشمس عن الأفق المرئى وبروزها للناظرين. ثم صار حقيقة فى وقته . وقال الإمام: يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية فى عالمها الفخيم. وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا، أو هل كنت تجد نفسك، لولا ضياء الشمس، جل مبدعه؟

« وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » أى تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك فى الليالى البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربه مع الامتلاء . إذ يضيء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم فى الحقيقة بالضياء فى طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفى هذه الأقسام كلها ـ كما قاله الإمام ـ إشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفى قوله ( إِذَا جَلَّاهَا ) بيان للحالة التى ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهى حالة الصحو . أما يوم الغيم الذى لا تظهر فيه الشمس ، فحاله أشبه بحال الليل الذى يقسم به فى قوله « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » أى يغشي الشمس ويعرض دون ضوئها فيحجبه عن الأبصار . وذلك فى ليالى الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله فى الآية المتقدمة [1] ( وَلَيَالٍ عَشْرٍ ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة، عبر فى جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل فى نفسه . أما النهار فإنه يجلى الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له فى ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر فى جانبه بالماضى المفيد لوقوع المعنى من فاعله، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » أى ومن رفعها ، وصيّرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحكمة المزينة المحيطة بنا . فـ ( ما ) موصولة بمعنى ( من ) أوثرت لإرادة الوصفية. أي والقادر الذى أبدع خلقها .

قالوا : وذكر ( مَا بَنَاهَا ) مع أن فى ذكر ( السَّمَاءِ ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدها صراحة ( وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا » أى بسطها من كل جانب ، لافتراشها وازدراعها والضرب فى أكنافها .

قال الإمام : وليس فى ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين. أى بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أى خلقها فعدل خلقها

(١) [ ٨٩/ الفجر / ٢ ] .

ومزاجها ، وأعدها لقبول الكمال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » أى أفهمها إياهما، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملكىّ والتمكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيولانىّ.

لطيفة :

جوز فى (ما) كونها مصدرية فى الكل، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفى لصحة الإضمار دلالة السياق. وهى موجودة هنا . وأن العطف على صلة ( ما ) لا عليها مع صلتها . فكأنه قيل : ونفس وتسويتها ، فإلهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم فى الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ. وأما الثانى فوجه يتسع النظم الكريم له . وأما تنكير (نفس) فللتكثير أو التعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا )

[١٠] ( وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا )

[١١] ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا )

[١٢] ( إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا )

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا » أى زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام. أو نماها بالعلم والعمل والوصول إلى الكمال وبلوغ الفطرة الأولى «وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا» أى أخملها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير(١). وقال غيره: أى نقص تزكيتها وأخفى استعدادها وفطرتها التى خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من ( دس الشىء فى التراب ) أى أدخله فيه وأخفاه. وأصل (دسّى) دسَّسَ . كتقضّى البازى ، وجملة ( قَدْ أَفْلَحَ ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال القاضي : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذى هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الإله ليحملهم على الاستغراق فى شكر نعمائه الذى هو منتهى كمالات القوة العملية .

وذهب الزمخشريّ إلى أن هـذه الجملة كلام تابع لقوله ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام. وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا » أى بسبب طغيانها ومجاوزتها الحـدّ فى الفجور . و(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه، على حذف مضاف أو بدونه، مبالغة. كما يوصف بغيره من المصادر. أى كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوى، كقوله ( فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة من العذاب . والباء صلة ( كذبت ) . وقوله تعالى « إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَىٰهَا » ظرف لـ( كذبت ) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسّها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا )

[١٤] ( فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا )

[١٥] ( وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا )

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه ـ « نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشربها، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر، غير يوم الناقة.

كما بينته آية الشعراء . قال(١) ( هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها « فَكَذَّبُوهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته، استهانة به واستخفافا بما بعث به . وقيل: دمدم أطبق عليهم العذاب. وقيل: الدمدمة حكاية صوت الهدة « فَسَوَّىٰهَا » أى فسوى الدمدمة عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » أى لا يخشى تبعة إهلاكهم لأنه العزيز الذى لا يغالب .

قال الشهاب : أى لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل: الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو للحال أو الاستئناف .

تنبيه :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦ ] .

وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال[١] ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال[٢] ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ) فهذا أمره ودينه . وثمود ، هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

---

(١) [ ٩١ / الشمس / ٨ ] .  (٢) [ ٩١ / الشمس / ٩ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٢ - سورة الليل

مكية ، وآيها إحدى وعشرون . وقد تقدم قوله ﷺ لمعاذ[١] : هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائيّ في : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ )

[٢] ( وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ )

[٣] ( وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ )

[٤] ( إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ )

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بذاك الضياء « وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين بطلوع الشمس .

قال الإمام : والتعبير فى الغشيان بالمضارع ، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما تجلى النهار فهو لازمله . لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » أى والقادر الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . فـ ( ما ) موصولة بمعنى ( من ) أوثرت لإرادة الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع فى الصنع . إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى ، فى الحيوان ، يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ » جواب القسم. أو هو مقدر ، كما مر تفصيله . أى مختلف في جزائه ، ومفرّق في عاقبته . فمنه ما يسعد به الساعى ومنه ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . و(شتى) إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم. فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ (شتى) وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث. كذكرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤوّل، أو بجعله عين الافتراق، مبالغة.

قال الرازيّ : ويقرب من هذه الآية قوله(١) ( لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ) وقوله(٢) ( أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَّا يَسْتَوُۥنَ ) وقوله(٣) ( أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٥ ] ( فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ )

[ ٦ ] ( وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ )

[ ٧ ] ( فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ )

[ ٨ ] ( وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ )

[ ٩ ] ( وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ )

[ ١٠ ] ( فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ )

[ ١١ ] ( وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ )

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ » تفصيل لتلك المساعى الشتى ، وتبيين لمآلها كما تقدم .

(١) [ ٥٩ / الحشر / ٢٠ ] . (٢) [ ٣٢ / السجدة / ١٨ ] .
(٣) [ ٤٥ / الجاثية / ٢١ ] .

قال الرازيّ : وفي « أَعْطَىٰ » وجهان :

أحدها ـ أن يكون المراد إنفاق المـال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوّهم. كما كان يفعله أبو بكر، سواء كان ذلك واجباً أو نفلًا . وإطلاق هذا كالإطلاق في قوله[١] ( وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ) فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً في سبيل الله، سواء كان واجباً أو نفلا . وقد مدح الله قوماً فقال[٢] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ) وقال في آخر هذه السورة[٣] ( وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ) الآية .

وثانيهما ـ أن قوله ( أَعْطَىٰ ) يتناول إعطاء حقوق المال، وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى . يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السمعة . انتهى .

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء . لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع في مقابلة ذكر البخل والمال « وَٱتَّقَىٰ » أي ربه فاجتنب محارمه « وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ » أي بالمثوبة الحسنى . قال قتادة: أي صدق بموعود الله الحسن . وهو بمعنى قول مجاهد، إنها الجنة كما قال تعالى[٤]: (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا) فسمى مضاعفة الأجر (حسنى) وقال القاشانيّ : أي صدق بالفضيلة الحسنى التي هي مرتبة الكمال بالإيمان العلميّ ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقي . «فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ» أي فسنهيئه ونوفقه للطريقة اليسرى ، التي هي السلوك في طريق الحق ، لقوة يقينه .

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذي يستريح به الناس، وصفت بأنها يسرى ، على أنه استعارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوّز في الإسناد .

وأَمَّا مَنۢ بَخِلَ » أي بالنفقة في سبيل الله ، ومنع ماوهب الله له من فضله من صرفه في الوجوه التي أمر الله بصرفه فيها « وَٱسْتَغْنَىٰ » أي عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له

(١) [ ٢ / البقرة / ٣ ] . (٢) [ ٧٦ / الإنسان / ٨ ] .

(٣) [ ٩٢ / الليل / ١٧و١٨ ] . (٤) [ ٤٢ / الشورى / ٢٣ ] .

بطاعته بالزيادة فيما خوّله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ » أى بوجود المثوبة للحسنى ، لمن آمن بالحق ، لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابه بها عن عالم الآخرة . « فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ » أى للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبدىّ.

قال الإمام : الخطة العسرى هى الخطة التى يحط فيها الإنسان من نفسه ، ويغض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها فى أوحال الخطيئة . وهى أعسر الخطتين على الإنسان ، لأنه لا يجد معيناً عليها ؛ لا من فطرته ولا من الناس « وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ » أى وما يفيده ماله الذى تعب فى تحصيله ، وأفنى عمره فى حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم ( تردى من الجبل وفى الهوة ) وفى التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمه من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلفه و ( ما ) نافية أو استفهام فى معنى الإنكار . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ )

[١٣] ( وَإِنَّ لَنَا لَلْأٓخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ )

[١٤] ( فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ )

[١٥] ( لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى )

[١٦] ( ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ )

[١٧] ( وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى )

[١٨] ( ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ )

[١٩] ( وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ )

[٢٠] ( إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ )

[٢١] ( وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ )

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ » استئناف مقرر لماقبله . أى علينا بموجب قضائنا المبنىّ على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح فى الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والتمكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

« وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ » أى ملكا وخلقا . فلايضرنا توليكم عن الهدى . وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرده بملك ما فى الدارين ، وكونه فى قبضة تصرفه . لايحول بينه وبينه أحد ، ولا يحصله أحد، حتى يضر عدم اهتدائه أوينفع اهتداؤه . وفيه إشارة إلى تناهى عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته . ولذا رتب عليه قوله « فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ » أى تتلظى وتتوهج . وهى نار الآخرة « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ » أى بالحق الذى جاءه « وَتَوَلَّىٰ » أى عن آيات ربه وبراهينها التى وضح أمرها وبهر نورها ، عنادا وكفرا « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ » أى ينفق ماله فى سبيل الخير ، يتزكى عن رجس البخل ودنس الإمساك « وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ » أى من يد يكافئه عليها . أى لا يؤتيه للمكافأة والمعاوضة « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ » أى لكن يؤتيه ابتغاء وجه ربه وطلب مرضاته . لالغرض آخر من مكافأة أو محمدة أوسمعة . وفى حصر (الأتقى) بالمنفق، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد فى اللحاق به، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال، ورفع مبانى الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى: « وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » قال ابن جرير[1] : أى ولسوف يرضى هذا المؤتى ماله فى حقوق الله عز وجل ، يتزكى بما يثيبه الله فى الآخرة عوضا مما أتى فى الدنيا فى سبيله إذا لقى ربه تبارك وتعالى . ففيه وعد كريم بنيل جميع مايبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على، إن ضمير ( يرضى) لـ ( الأتقى ) لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

وذهب بعضهم إلى الثانى ، ومنهم الإمام، قال : أى ولسوف يرضى الله عن ذلك الأتقى. الطالب بصفة رضاه ( ثم قال ) : والتعبير بـ ( سوف ) لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهىّ .

تنبيه :

قال ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها. فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى(١) ( وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى* ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ* وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة. فإنه كان صدّيقاً تقيًّا كريما جواداً بذّالاً لأمواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ . فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم. ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها. ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود ، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله! لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ وفى الصحيحين(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة: ياعبدالله هذا خير. فقال أبو بكر: يارسول الله! ماعلى من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . انتهى .

---

(١) [ ٩٢ / الليل / ١٧ـ١٩ ] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤ ـ باب الريان للصائمين ، حديث رقم ٩٦٣ ، عن أبى هريرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٣ - سورة الضحى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد. فلما بلغت ( والضحى ) قال لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة. فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك. وأخبره أُبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازيّ وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيليّ ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في ( شرح الشاطبية ) عن الشافعيّ أنه سمع رجلًا يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر ( والليل إذا يغشى ) . وقال آخرون: من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول ( الله أكبر ) ويقتصر، ومنهم من يقول ( الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى، أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) السورة بتمامها. كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فالله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلضُّحَىٰ )

[٢] ( وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ )

[٣] ( مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ )

[٤] ( وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ )

[٥] ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ )

« وَٱلضُّحَىٰ » تقدم في سورة ( وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا ) تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً «وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ» أي اشتد ظلامه. وأصله من التسجية وهي التغطية، لستره بظلمته . كما في آية(١) ( وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم . أي : ما تركك وما قطعك قطع المودّع .

قال الشهاب في (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّ مفارقته . كما قال المتنبي:

حشاشةُ نفس وَدَّعت يوم وَدَّعوا     فلم أَدْرِ أيَّ الظاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

وقال في ( شرح الشفاء ) : الوداع له معنيان في اللغة : الترك وتشييع المسافر . فإن فسر بالثاني هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً . فإنه معه أينما كان. وإنما الترك ، لو تصور في جانبه ، ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع. فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجاني بقوله :

(١) [ ٧٨ / النبأ / ١٠ ] .

إذا رأيت الوداعَ فاصبرْ ولا يُهمنَّك البعادُ
وانتظر العوْدَ عن قريبٍ فإن قلب الوداع ( عادُوا )

فقوله (وَمَا قَلَىٰ) مؤكد له . (قال) : وهذا، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة فى النفى لا فى المنفىّ فتركه لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفى القيد والمقيد . وقرئ ( مَا وَدَعَكَ ) بالتخفيف . وورد فى الحديث[1] شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد فى الشعر ، كقوله[2] :

فَكَانَ مَا قدَّموا لأنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نفعاً من الذى وَدَعُوا

ولهذا قال فى ( المصباح ) بهذا : اعلم أن قولهم ، فى علم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الوديعة تعسّف . انتهى .

وكذا قال فى ( المستوفى ) : أنه كله ورد فى كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلَىٰ» أى: وما أبغضك . والقالى : المبغض . يعنى ماهجرك عن بغض . قال الشهاب : وحذف مفعول (قلى ) اختصاراً للعلم به، وليجرى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لئلا يخاطبه بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير[3] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياما،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٤٨ ـ باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده فى اللسان ( مجلد ٨ ص ٣٨٤ ) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فعُيِّر بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله هذه الآية، وفى رواية : إن قائل ذلك امرأة أبى لهب ، وفى أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولا تنافى، لاحتمال صدوره من الجميع. إلا أن قول المشركين وقول خديجة ـ إن صح ـ توجع وتحزن ـ وفى رواية إسمعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحى حتى شق ذلك على النبىّ ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبى قلانى . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ » قال ابن جرير[1]: أى وللدار الآخرة ، وما أعدالله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا ومافيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذى لك عندالله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لنهاية أمرك خير من بدايته . فإنه ﷺ لايزال يتصاعد فى الرفعة والكمال « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفشوّ دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهـذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبيه :

قال فى ( المواهب اللدنية ) : وأما ما يغترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحدا من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تغريراً للجهال وتزيينا لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـَٔاوَىٰ » قال أبو السعود : تعديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على الترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفىّ على أبلغ وجه. كأنه قيل: قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ » أى غافلا عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية[1] (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَآئِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٥٢ ] .

ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » فلا تغلبه على ماله فتذهب بحقه، استعطافاً منك له « وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ » قال ابن جرير(١) : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقا، كما قال تعالى(٢) (وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن ـ فيما نقله الرازىّ ـ إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم. فيكون فى مقابلة قوله تعالى ( وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ) وهكذا قال ابن كثير: أى وكما كنت ضالا فهداك الله، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام: ويؤيد هذا المعنى ما ورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتبه عليهم. فمنهم أهل الكتاب المهارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لايسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نهرهم ، كما عاتبه على التولّى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر الحاويج عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها. وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى .

قال الإمام: من عادة البخلاء أن يكتموا مالهم، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل. فلا تجدهم إلا شاكين من القل. أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين. فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٧٠ / المعارج / ٢٤و٢٥ ] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع فى البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفجفجة التى يتنزه عنها النبىّ ﷺ . ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله ( وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ) فتكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله ( وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ) وقد علمت الحق فى مقابله . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندى . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ )

[٢] ( وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ )

[٣] ( ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ )

[٤] ( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ )

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء مايسره ويقويه ، وإظهار ماخفى عليه من الحكم والأحكام ، وتأييده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقرّ الحكمة ووعاء حقائق الأنباء ، والهمزة لإنكار النفى . ونفى النفى إثبات . ولذا عطف المثبت عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفى منه . استعمل فى القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيعاً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربه ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفيًّا عليه ، مما فيه مسرته. كما يقال (شرح الكتاب) إذا وضحه. ثم استعمل فى الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشىء يتبعه اتساع ظرفه. ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكناية بوسائط ، وبعد الشيوع زال الخفاء وارتفعت الوسائط ـ هذا ماحققه الشهاب. «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ» قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضعه: إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ ( على ) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ ( من ) كان بمعنى الإزالة . والإنقاض: حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر. وقيل: صوت الجمل أوالرحل

أو المركوب إذا ثقل عليه . فالإنقاض، التثقيل فى الحمل حتى يسمع له نقيض، أى صوت، كما قاله الأزهريّ .

وقال ابن عرفة: هو إثقال يحمل ما حمل عليه نقضا . أى مهزولًا ضعيفاً. وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه ويغمه من قلة المستجيبين لدعوته، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال فى جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضعه عنـــه هو كثرة من آمن بعدُ ، ودخولهم فى دين الله أفواجاً ، وقوة أتباعه وانمحاء الشرك والجاهلية من الجزيرة، وذل أهلها بعد العز، وانقيادهم بعد شدة الإباء. وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله[1] ( لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ).

والوجه الأول أقوى ، وفى الآية ، على كلٍّ ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لهـــا «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» أى بالنبوة وفرض الاعتراف برسالته وجعله شرطاً فى قبول الإيمان وصحته. وقال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة. فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد: أى لا أذكر إلا ذكرت معى. قال الشهاب وهذا ـ أى المأثور عن مجاهد ـ إن أخذ كلية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جعلت القضية مهملة ، فلا يخفى ما فى الإهمال من الركاكة .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر ، ويردّ السائل غير صفر ، حتى لاح لى أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر فى مجامع العبادة ومشاهدها. فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها فى الواقع فى الصلوات والخطب. فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

---

(١) [ ٤٨/ الفتح / ٢ ] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى فى يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالى بل ولا فى وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه الـكلية. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح ؟ قلت : المقام ناطق بهذا القيد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربه ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره فى المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأى إشاعة أقوى من الأذان؟ لا فى الأسواق والطرق التى يطرح فيها كل ذكر .

ثم قال : واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعىّ فى أول ( رسالته الجديدة ) وبينه السبكىّ فى تعليقة على الرسالة فقال رحمه الله تعالى :

قال الإمام رضى الله تعالى عنه عن مجاهد فى تفسير الآية : لا أذكر إلا ذكرت معى : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله. وأشهد أن محمدا رسول الله. قال الشافعىّ: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان ، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

قال السبكىّ : هذا الاحتمال من الشافعىّ جيد جدًّا . وهو مبنى على أن المراد بالذكر ، الذكر بالقلب ، وهو صحيح . فعلى هـذا يعم . لأن الفاعل للطاعة أو الـكافّ عن المعصية امتثالًا لأمر الله تعالى به ، ذاكر للنبىّ ﷺ بقلبه ، لأنه المبلغ لها ، عن الله . وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها . قال الشافعىّ : فلم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ، نلنا بها حظًّا فى دين أو دنيا . أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو فى واحد منهما ، إلا ومحمد ﷺ سببها . فعلم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره ، حمل الذكر على الذكر القلبىّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة ، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله ، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته ، وهو رسول الله ﷺ ، كما قيل :

فأنت باب الله . أىّ امرئ أتاه من غيرك لا يدخل ؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشريفه ﷺ ، بمقارنته لذكره فى شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلمتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالحصر إضافىّ . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا )

[٦] ( إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا )

[٧] ( فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ )

[٨] ( وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب )

« فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا» إشارة إلى أن الذى منحه، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب فى أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى فى هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التى لبيان السبب. (وأل) فى (العسر) للاستغراق ولكنه استغراق بالمعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه . فهو العسر الذى يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدوّ ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعدّ لذلك فى معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لاتضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب فى أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبىّ ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحى والنبوة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه. بل مازال يلتمس

الغنى فى الفقر، والقوة فى الضعف، حتى أوتى من ذلك مازعزع أركان الأكاسرة والقياصرة، وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طوالًا . أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير ( يسراً ) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفى كلمة ( مع ) إشعار بغاية سرعة مجئ اليسر، كأنه مقارن للعسر. فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ ( مع ) لمعنى (بعد) . وقوله تعالى « إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا » تكرير للتأكيد، أو عِدَةٌ مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة . وعليه أثر[١] : ( لن يغلب عسر يسرين ) فإن المعرّف إذا أعيد يكون الثانى عين الأول، سواء كان معهودا أو جنساً. وأما المنكّر فيحتمل أن يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالأول « فَإِذَا فَرَغْتَ » أى من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمتك « فَانصَبْ » أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام « وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب » أى فى الدعوة إليه . أى لاترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[٢] : اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم فى حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عندى ، اعتماداً على ماصححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل ـ أن يكون معنى قوله تعالى

(١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى: ٢١ـ كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

( فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ، بمجىء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ، وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة ( إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ) ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعه . إلا أن السياق والنظائر ـ وهو أهم ما يرجع إليه ـ يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٥ – سورة التين

مكية ، ويقال : مدنية . وأيد الأول بقوله ( وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ) وآيها ثمان . روى عن البراء بن عازب(٢) أن النبيّ ﷺ كان يقرأ فى سفره فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » ، حديث رقم ٤٦٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ )

[٢] ( وَطُورِ سِينِينَ )

[٣] ( وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ )

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا فى أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحاربوا . كما قال تعالى[١] ( أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ) وأما المقسمات بها قَبْلُ ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لكل منها . فعن مجاهد والحسن وغيرهما أن ( التين ) الذى يؤكل و ( الزيتون ) الذى يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة ( التين ) الجبل الذى عليه دمشق و ( الزيتون ) الذى عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : ( التين ) مسجد دمشق و ( الزيتون ) بيت المقدس وعن ابن عباس : ( التين ) مسجد نوح الذى بنى على الجوديّ و ( الزيتون ) بيت المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته[٢] : والصواب من القول فى ذلك عندنا ، قول من قال ( التّين ) هو التين الذى يؤكل و ( ٱلزَّيْتُونِ ) هو الزيتون الذى يعصر منه الزيت . لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة فى ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوِّز خلافه ، لأن دمشق بها منابت

(١) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٧ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون. انتهى كلامه . وفيه نظر، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين فى تقويم البلاد .

قال صاحب ( الذخيرة ) فى تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون. قال: وقد دعى كذلك لكثرة الزيتون فيه، وهو قريب المسافة من أورشليم، وفيه صعد المسيح لكى يرتفع إلى السماء . انتهى .

ويسمى أيضا طور زيتا إلى الآن . على أن فيما صوبه ابن جرير، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما فى نسق واحد ـ غير مفهومة. كما قاله الإمام. فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون المقسم به ثلاثة مواضع مقدسة .

قال ابن كثير: وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبيًّا مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذى بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران .

والثالث: مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً، وهو الذى أرسل فيه محمد ﷺ .

وفى التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعنى الذى كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله عنه عيسى . واستعلن من جبال فاران : يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمدا ﷺ . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودىّ بحسب ترتيبهم فى الزمان . ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما. انتهى كلام ابن كثير .

ومراده ببعض الأئمة، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان. فإنه ذكر ذلك فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ونحن ننقلها زيادة فى إيضاح المقام، واهتماماً بتحقيقه.

قال رحمه الله ( فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته ﷺ ) : وذلك مثل قوله فى التوراة ماقد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول فى الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء ( واللفظ لأبى محمد بن قتيبة ) : ليس بهذا خفاء على من تدبره . ولا غموض . لأن مجئ الله من طور سيناء ، إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء . كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا . وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير ، إنزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من اتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، إنزاله القرآن على محمد ﷺ فى جبال فاران . وهى جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى أن فاران هى مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة ـ وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم ـ قلنا أليس فى التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبىّ الذى أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا فى مشارق الأرض ومغاربها فشوّه ؟؟

وقال أبو هاشم بن طفر : ساعير جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح عليه السلام . قلت : وبجانب بيت لحم ـ القرية التى ولد فيها المسيح ـ قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذى ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحى على النبىّ ﷺ ، وحوله من الجبال جبال كثيرة. وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن. والبرية التى بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران . ولا يمكن أحدا أن يدعى أنه بعد المسيح، نزل كتاب

فى شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبيّ . فعلم أن ليس المراد باستعلانه من جبال فاران، إلا إرسال محمد ﷺ . وهو سبحانه ذكر هـذا فى التوراة على الترتيب الزمانىّ . فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن . وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال فى الأول : جاء أو ظهر . وفى الثانى : أشرق . وفى الثالث : استعلن. وكان مجئ التوراة مثل طلوع الفجر أو ماهو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى. وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء. ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران . فإن محمدا ﷺ ظهر به نور الله وهداه فى شرق الأرض وغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت فى مشارق الأرض ومغاربها. ولهذا سماه الله سراجاً منيراً . وسمى الشمس سراجاً وهاجاً . والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج. فإن الوهاج يحتاجون إليه فىوقت دون وقت. بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المنير فيحتاجون إليه فى كل وقت، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سرًّا وعلانية . وقد قال ﷺ(١) : زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها فى القرآن فى قوله ( وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ) فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل . وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذى كلم الله موسى وناداه فيه، من واديه الأيمن، فى البقعة المباركة من الشجرة ـ وأقسم بهـذا البلد الأمين وهو مكة الذى أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل ، وأمه هاجر فيه. وهو الذى(٢) جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله. وجعله آمناً خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١٩ ( طبعتنا ) عن ثوبان .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة رقم ٦٧ من سورة العنكبوت .

ثم قال ( ابن تيمية ) : فقوله تعالى ( وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة . التى ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة فى التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران .

ولما كان مافى التوراة خبرا عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزمانىّ، فقدم الأسبق فالأسبق. وأما فى القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها . وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله . فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة . نختمها بأعلى الدرجات . فأقسم أولا بالتين والزيتون، ثم بطور سينين ، ثم بمكة . لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل . وكذلك الأنبياء، فأقسم بها على وجه التدريج كما فى قوله(١) ( وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ) فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة. فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح، ثم بالجاريات يسراً ، وقد قيل إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله(٢) ( فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ) فسماها جوارى كما سمى الفلك جوارى فى قوله(٣) ( وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ) والكواكب فوق السحاب ثم قال(٤) ( فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ) وهى الملائكة التى هى أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى ( وَٱلتِّينِ ) يعنى به شجرة ( بوذا ) مؤسس الديانة البوذية ، التى تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيقىّ . لأن تعاليم بوذا لم تكتب فى زمنه. وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية . ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها .

ثم قال : والراجح عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية ، أنه كان نبيًّا صادقاً

(١) [ ٥١ / الذاريات / ١ـ٤ ]. (٢) [ ٨١ / التكوير / ١٥و١٦ ] .

(٣) [ ٤٢ / الشورى / ٣٢ ] . (٤) [ ٥١ / الذاريات / ٤ ] .

ويسمى ( سكياموتى )أو ( جوناما ) وكان فى أول أمره يأوى إلى شجرة تين عظيمة وتحتها نزل عليه الوحى . وأرسله الله رسولا . فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينجح معه . ولهذه الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم ( التينة المقدسة ) وبلغتهم ( أجاپالا ) .

قال : ففى هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم ونفعهم فى دينهم ودنياهم . فالقسم فيها كالتمهيدلقوله بعده ( لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ) إلى آخر السورة .

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعـــة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم . والترتيب فى ذكرها فى الآية ، هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى . فبدأ تعالى بالقسم بالبوذيةلأنها أقل درجة فى الصحةوأشد الأديان تحريفاً عن أصلها . كما يبدأ الإنسان بالقسم بالشىء الصغير، ثم يرتقى للتأكيد إلى ما هو أعلى. ثم النصرانية وهىأقل من البوذية تحريفاً . ثم اليهودية وهى أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهى أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل . بل إن أصولها ، الـكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً. ومن محاسن هذه الآيةالشريفةغير ذلك، ذكرديني الفضل (البوذية والمسيحية) أولا ثم ديني العدل ( اليهودية والإسلامية ) ثانيا الإشارة إلى الحـكمة بتربية الفضل والمسامحة مع الناس أولا . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب. ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينيهما. وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينيهما . فلذا جمع الأولان معاً والآخران كذلك . وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى. كما قدم الموسوية على المحمديةلهذا السبب بعينه. ومن محاسن الآية أيضا الرمز والإشارة إلى ديني الرحمة بالفاكهة والثمرة ، وإلى ديني العدل بالجبل والبلدة الجبلية ( مكة ) وهى البـــلد الأمين . ومن التناسب البديع بين ألفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً فى أودية الجبال ، كما فى جبل الزيتون بالشام وطور سيناء، وهما مشهوران بها.

فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحى ، وأكرم أماكن التجلى الإلهى على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم فى أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

لم ينصرف ( سينين ) كما لا ينصرف ( سيناء ) لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض . فهو علم أعجمى . ولو جعل اسماً للمكان أو المنزل ، أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة ( سينين ) بكسر السين . وقرأ بعض السلف بفتحها . وآخرون ( سيناء ) بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلفت فى هذا الاسم السريانى ، على عادة العرب فى تلاعبها بالأسماء الأعجمية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ )

[٥] ( ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ )

[٦] ( إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ )

[٧] ( فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ )

[٨] ( أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ )

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » أى فى أحسن تعديل خلقاً ، وشكلاً ، صورة ومعنى . قال الشهاب : الظرف فى موضع الحال من الإنسان . والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر . أى قوام أحسن تقويم ، أو ( فى ) زائدة والتقدير : قومناه أحسن تقويم .

« ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ » أى جعلناه أسفل من سفل ، وهم أصحاب النار ، لعدم جريانه

على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لـكان فى أعلى عليين ، و ( رد ) بمعنى جعل التى تنصب مفعولين . قال الشهاب : و(السافلين) العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل للمتعدد المتفاوت . و (ثم) للتراخى الزمانىّ أوهو رتبىّ ، وجوز نصب ( أسفل ) بنزع الخافض صفة لمحذوف . أى إلى مكان أسفل سافلين . أى محل النار . أو النار بمعنى جهنم . وهذا ماقاله مجاهد حيث قال : ( فى النار ) وفى رواية (إلى النار) والسافلين ، على هذا ، الأمكنة السافلة. وهى دركاتها . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتنزيل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفل كالأول ، لـكان أولى .

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير منقوص أو غير محسوب أوغير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير (رددناه) فإنه فى معنى الجمع ؛ لأن المـكنىّ عنه وهو الإنسان ، فى معنى الجنس .

هذا ، وقد اعتمد ابن جرير فى تأويل الآية ، ماروى عن ابن عباس من أن المعنى (ثم رددناه إلى أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله فى شبيبته كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله ، كتب له مثل عمله الصالح الذى كان يعمل فى شبيبته ، ولم يؤاخذ بشىء مما عمل فى كبره وذهاب عقله ، من أجل أنه مؤمن وكان يطيع الله فى شبيبته ) .

وعبارة ابن جرير(١) : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه أى إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والـكبر ، فهو فى أسفل من سفل فى إدبار العمر ، وذهاب العقل . ( إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ) فى حال صحتهم وشبابهم ( فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) بعد هرمهم ، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم ، فى حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

---

(١) انظر الصفحه رقم ٢٤٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال : وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب فى ذلك ، لأن الله تعالى ذكرُه أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه فى الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكرى قدرته على البعث بعد الموت . ألا نرى أنه يقول ( فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ) يعنى بعد هذه الحجج . ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعانى بما كانوا له منكرين. وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين. وإذ كان ذلك كذلك ، وكان القوم ، للنار التى كان الله يتوعدهم بها فى الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء منقطعاً ، استدراكاً لدفع مايتوهم من أن التساوى فى أرذل العمر يقتضى التساوى فى غيره ، ويكون ( الذين ) حينئذ مبتدأ ، والفاء داخلة فى خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له . وقوله تعالى :

« فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ » خطاب للإنسان على طريق الالتفات، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أى فما يحملك على التكذيب بالدين ، أى الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل . والمعنى: إن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشرا سويًّا، وتحويله من حال إلى حال، كمالًا ونقصاناً، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأى شىء تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبىّ ﷺ ومعنى (يُكَذِّبُكَ) إما ينسبك إلى الكذب ( كفسقته إذا قلت له إنه فاسق ) والباء فى ( بالدين ) بمعنى ( فى ) أى يكذبك فى إخبارك به . أو سببية أى بسبب إخبارك به وإثباته . أو المعنى ما يجعلك مكذباً بالدين . على أن الباء صلته .وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين، والمعنى إنه لا يكذبك شىء ما بعدهذا البيان بالدين .لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً .والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير[١] قول من قال ( ما ) بمعنى ( من ) أى فمن يكذبك يا محمد بعد الذى جاءك من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : ( فما ) استفهام عمن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقائها على أصلها ، كما بيناه لك . والداعى لارتكاب هذا ، أن المعنى عليه أظهر إذا كان المخاطب النبيّ ﷺ فإنه إنكار توبيخيّ المكذبين له ﷺ ، بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه « أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ » أى بأحكم من حكم فى أحكامه . قال أبو السعود : أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملة تقرير لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و ( أحكم ) من الحكم أو الحكمة . قيل : والثانى أظهر . وكان النبيّ ﷺ إذا قرأها قال : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبيّ ﷺ .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٩ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٦ - سورة العلق

سورة العلق . وهى مكية بالإجماع . وصدرها أول آية نزلت من القرآن ، كما صحت بذلك الأخبار . وأما أول سورة نزلت كاملة فهى الفاتحة . ويروى فى الأوائل غيرها . ولا منافاة . لأن الأولية حقيقية ونسبية . روى الشيخان[1] وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد . ويتزوّد لذلك . ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال ( اقْرَأْ ) قال : ما أنا بقارئ . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ( اقْرَأْ ) فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ( اقْرَأْ ) ، فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال ( اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٣ ـ باب حدثنا يحي بن بكير ، حديث رقم ٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٢ ( طبعتنا ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ )

[٢] ( خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ )

[٣] ( اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ )

[٤] ( الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ )

[٥] ( عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ )

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » أى اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى . أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية ، والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية ، بإنزال الوحى المتواتر . ووصف الرب بقوله تعالى ( الَّذِي خَلَقَ ) لتذكير أول النعماء الفائضة عليه ﷺ منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات ، قادر على تعليم القراءة للحىّ العالم المتكلم ـ أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شىء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكوينىّ . فإن النبىّ ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً . ولذلك كرر القول مراراً : ما أنا بقارئ . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهىّ بأن يكون قارئاً وإن لم يكن

كاتباً . فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه . وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق، أى الذى أوجد الكائنات التى لا يحيط بها الوصف، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها . لأنك لم تكن تدرى ما الكتاب . فكأنّ الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وبإرادتى . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق فى ( سورة سبح) دال على ما تعرف به الذات، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً . لأن القراءة علم فى نفس حية . فهى تخطر ببالك من الله وجودَه وعلمه وقدرته وإرادته . أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله ، وهو خلاف المتبادر ، فيكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقرأ دائما على أن تكون قراءتك عملا تنفذه لله لا لغيره فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد « خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ » أى دم جامد . وهى حالة الجنين فى الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيما لشأنه . إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة ، وإنما قال ( علق ) دون (علقة) كما فى الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن ( الإنسان ) مراد به الجنس . فهو فى معنى الجمع . فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر، من المضغة . مع استلزامه لما تقدمه. ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام: أى ومن كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحىّ الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ؛ يقدر أن يجعل من الانسان الكامل مثل النبىّ ﷺ قارئاً . وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقتها ، ليزيد المعنى تأكيداً . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد

صرت قارئاً بإذن ربك الذى أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذى أنشأ الإنسان خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل. فهى أولى بسهولة الإيجاد، ولما كانت القراءة من الملكات التى لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعوّد على ما جرت به العادة فى الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهىّ عن تكرار المقروء ، فى تصييرها ملكة للنبىّ ﷺ . فلهذا كرر الأمر بقوله « ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ » وجملة ( وَرَبُّكَ ) الخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الإعطاء . فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة ، من بحر كرمه. ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه « ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ » أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلمُ آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها فى ذاتها الإفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئاً مبيّناً وتاليا معلماً وأنت إنسان كامل ؟؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال « عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أى إن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الإنسان جميع ماهو متمتع به من العلم، وكان فى بدء خلقه لا يعلم شيئا، فهل يستغرب من هذا المعلِّم الذى ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرة، أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟؟ انتهى .

## تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم فى ( مفتاح دار السعادة ) فى مباحث عجائب الإنسان وما فى خلقه من الحكم: ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين . البيان النطقىّ والبيان الخطىّ وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمة على العبد . فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ ( ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ *

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فتأمل كيف جمع فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه . فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة . ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم . وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة . وفى سائر المواضع يذكر ماهو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين . وذكر فى هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة . فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة . ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمه على عباده . إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين . ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم ، إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم . فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان . فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن ، من أجلّ النعم . والتعليم به ، وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة ، فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله . فهو الذى علمه الكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم . فإنه علمه فتعلّم . كما أنه علمه الكلام فتكلم . هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخطّ به ، ومن هيأ ذهنه لقبول هـذا التعليم دون سائر الحيوانات ، ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذى دعم البنان بالكف ، ودعم الكف بالساعد . فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم . فقف وقفة فى حال

الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ، ووضعته على القرطاس وهو جماد ، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل . فمن الذى أجرى فلك المعانى على قلبك ، ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناه أعجب من صورته، فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ، ويترجم عنك . ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله ، سوى من علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ؟ والتعليمُ بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهنىّ والوجود اللفظىّ والوجود الرسمىّ . فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب . ودل قوله ( خَلَقَ ) على أنه يعطى الوجود العينىّ . فدلّت هذه الآيات ، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليما . وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا . وتعليماً خاصًّا وتعليما عاما . وذكر من صفاته ههنا اسم (الأكرم ) الذى هو فيه كل خير وكل كمال . فله كل كمال وَصْفا، ومنه كل خير فعلًا . فهو (الأكرم) فى ذاته وأوصافه وأفعاله . وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعته إلى ذلك ، وهو الغنىّ الحميد .

الثانى : قال الإمام : لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات . فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبهم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله أبداً .

الثالث: قال الرازىّ: فى قوله (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) إشارة

إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفى قوله ( ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثانى إلى النبوّة . وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ )

[٧] ( أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ )

[٨] ( إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ )

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ » أى حقًّا إن الإنسان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنت . فـ ( كلا ) بمعنى ( حقًّا ) لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله ـ على ما تقدم فى المأثور ـ أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان . فإذا قيل ( كَلَّآ ) يكون ردعاً للإنسان الذى قابل تلك النعم بالكفران والطغيان . أى ما هكذا ينبغى أن يكون الإنسان . ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه مالم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفء له ، ثم يكفر بربه الذى فمل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخىّ ، ومذهب أبى حيان أن ( كلا ) بمعنى ( ألا ) الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة ( إن ) بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفى ( الكواشى ) : يجوز فى ( كلا ) أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعا ، فيقف عليها .

تنبيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة فى باب التموّل المحمود ، قررها الحكماء المصلحون . وهو أن لايتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط . وإلا كان حرص التمول من أقبح الخصال .

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال. أى إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو فى مقابل عمل .

والشرط الثانى : أن لا يكون فى التمول تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات . مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته . وهى أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتؤويهم فى حضن أجزائها .

الشرط الثالث لجواز التمول : هو أن لايتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا . وذلك لقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية . لأن الربا كسب بدون مقابل مادىّ ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك . دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوى بين الناس ، كما تقدم بيانه فى أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ » أى المرجع فى الآخرة. قال أبو السعود: تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان. والالتفات للتشديد فى التهديد، و (الرجعى) مصدر بمعنى الرجوع. وتقديم الظرف لقصره عليه. أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث، لا إلى غيره، استقلالاً ولا اشتراكاً. فسترى حينئذٍ عاقبة طغيانك . وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ )

[١٠] ( عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ )

[١١] ( أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ )

[١٢] ( أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ )

[١٣] ( أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ )

[١٤] ( أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ )

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ » أى يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهى ، إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك . قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون فى أن الناهى أبو جهل والعبد المصلى النبيّ ﷺ . كما روى فى الصحيحين . ولفظ البخاريّ عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبيّ ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة . وفى الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . ولفظ ( العبد ) وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان فى الكلام المنصف ، إذ قال (ينهى) ولم يقل (يؤذى) و ( عبداً ) دون ( نبيّا ) والرؤية ههنا بصرية ، وفيما بعدها قلبية . معناه : أخبرنى . فإن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئىّ ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السعود .

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٦ ـ سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق ، حديث رقم ٢٠٧٢ .

وقال الإمام : كلمة ( أرأيت ) صارت تستعمل فى معنى ( أخبرنى ) على أنها لا يقصد بها فى مثل هـــذه الآية الاستخبار الحقيقىّ ، ولــكن يقصـــد بها إنــكار المستخبر عنها وتقبيحها . فــكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الــكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو فى حالة أدائها . وقوله « أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ » أى أرأيت إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده . أى ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه ، فالضمائر كلها ا ( لذى ينهى ) وجوز عود الضمير المستتر فى ( كان ) للعبد المصلى . وكذا فى ( أمر ) أى أرأيت الذى ينهى عبداً يصلى ؟ والمنهىّ على الهدى آمر بالتقوى . والناهى مكذب متول ، فما أعجب من هذا !
وذهب الإمام رحمه الله ، فى تأويل الآية إلى معنى آخر . وعبارته : أما قوله ( أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ) فمعناه أخبرنى عن حاله إن كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟ وقوله أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ » أى نبئنى عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون . وتولى أى أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله مالا قِبَلَ له باحتمال ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى . وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » أى أجهل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته . ثم إن ما يطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل ( أرأيت ) الأولى ومفعوليها فى الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؛ لأن القرآن قدوة فى التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحـــد وبلا مفعول أصلاً بمعنى ( أخبرنى ) . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ )

[١٦] ( نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ )

[١٧] ( فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ )

[١٨] ( سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ )

[١٩] ( كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب )

« كَلَّا » ردع عن النهى عن الصلاة « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ » أى عن هذا الطغيان ، وعن النهى عن الصلاة ، وعن التكذيب والتولى « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » أى لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنّه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا ، مَثَلٌ فى القهر والإذلال والتعذيب والنكال . وقوله تعالى « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » بدل من ( الناصية ) ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهى والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازىّ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله[١] ( وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ) و ( وجهها يصف الجمال ) ـ والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئىّ فى قولهم ( بنو فلان قتلوا قتيلًا ) والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال فى ( البحر ) : كتبت نون ( لَنَسْفَعًا ) بالألف باعتبار الوقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيها لها بالتنوين . وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف

(١) [ ١٦ / النحل / ٦٢ ] .

لأن قاعدة الرسم مبنية على حال الوقف والابتداء «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُو» أى أهل مجلسه، ليمنع المصلين ويؤذى أهل الحق الصادقين ، اتـكالًا على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف، أو على الإسناد المجازىّ من إطلاق اسم المحل على من حلّ فيه. والنادى المجلس الذى ينتدى فيه القوم، أى يجتمعون « سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ » أى زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلـكونه فى الدنيا ، أو يردونه فى النار فى الآخرة وهو صاغر ، ولم يرسم ( سندع ) بالواو فى المصاحف باتباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله (فليدع) وقيل إنه مجزوم فى جواب الأمر وفيه نظر « كَلَّا » ردع للناهى بعد ردع ، وزجر إثر زجر « لَا تُطِعْهُ » أى لا تطع ذاك الطاغى إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشرىّ : أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله[1] (فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ) « وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب » أى صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفى صحيح مسلم[2] عن أبى هريرة مرفوعا: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثروا من الدعاء .

## تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت فى أبى جهل ، على ما صح فى الأخبار ، قال الإمام: ولا مانع من أن يكون فى الآيات إشارة إليه، ولـكنها عامة فى كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبىّ ﷺ . والله أعلم .

الثانى: قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : إنما شدد الأمر ـ أمر الوعيد ـ فى حق أبى جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبى معيط ، حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلى ـ لأنهما وإن اشتركا فى مطلق الأذية حال صلاته ، لـكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفى ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل

(١) [ ٦٨/ القلم / ٨ ] .

(٢) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢١٥ ( طبعتنا ) .

العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ وعلى من شاركه فى فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبى جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة فى السورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة . فقد كان للنبىّ ﷺ وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال فى (اللباب) : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعىّ . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روى عن أبى هريرة[1] قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ( اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ) و ( إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ) : أخرجه مسلم فى صحيحه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ٧١ ـ باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٨ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٧ - سورة القدر

قال السيوطيّ : فيها قولان ، والأكثر أنها مكية ، وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ)

[٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ)

[٣] (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[٤] (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ)

[٥] (سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . وقد وصفت بالمباركة فى قوله تعالى(١) : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وكانت فى رمضان ، لقوله تعالى(٢) (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة. لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظّمه بالرسالة، وقد جاء بما فيه الإشارة، بل التصريح، بأنها ليلة جليلة، بجلالة ماوقع فيها من إنزال القرآن . فقال «وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ» أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدالّ

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٣ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٨٥ ] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال ( إنها خير من ألف شهر ) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبطون فى ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف فى التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، فى تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى. فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عادتهم فى التخاطب . وذلك فى الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع فى هذه السورة ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ) فإنه جار على عادتهم فى الخطاب . وإلا فالعليم الخبير لايقع منه أن يستفهم عن شىء . فيكون التحديد بالألف لامفهوم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة. فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء فى الكتاب فى واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالعدد هناك لامفهوم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبىّ ﷺ بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحانىّ الذى لايحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى ، وهو الذى سُمِّىَ فى القرآن بجبريل. وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِم » أى إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة ، بعد أن هيأها الله لقبول تجليها. وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم. فذلك فضل الله يختص به من يشاء. واختصاصه هو إذنه ومشيئته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام . لأن الله يجلى الملائكة على النفوس ، لإيحاء مايريده منها. ولهذا قال « مِّن كُلِّ أَمْرٍ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر هٰهنا هو الأمر فى قوله[(١)] ( فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ) فالكلام فى الرسالة والأوامر والأحكام ، لا فى شىء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن ( من ) هٰهنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع فى قوله ( تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ) وقوله ( فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن ـ لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما فى قوله[(٢)] ( وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ ) فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصوراً . والثانى : لأن مبدأ النزول كان فيها . ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر فى مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ » أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلام نفسه ـ وهو الأمن والسلامة ـ للمبالغة فى أنه لم يَشُبْها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبّيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيامَ والشهور الطوال.

## تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التى ابتدئ فيها نزول القرآن كانت فى رمضان لآية ( شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ) ولا إجماع فى تعيين تلك الليلة . بل فى صحيح البخارىّ[(٣)] أنها رفعت . أى رفع العلم بتعيينها . وفى رواية فيه : نسيتها أو أنسيتها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب فى قيام رمضان كله رجاء موافقتها فى ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها فى العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله. وقد ذهب ابن مسعود والشعبىّ والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [ ٤٤ / الدخان / ٤و٥ ] .

(٢) [ ٢ / البقرة / ٢١٤ ] .

(٣) أخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٢ ـ باب التماس ليلة القدر فى السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولًا .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه فى شهر رمضان . ولا نعينها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيما . وكتاب الله لم يعينها . وما ورد فى الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله إفاضته فيهم، فى أثنائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات. فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات فى الشهر كله . وهذا هو السر فى عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهى ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه . بل إن أصْغَوْا إليه، فإنما يصغون لنغمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد فى الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات فى ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال ، فضلًا عن الراشدين من الرجال . انتهى.

وقال الطبرىّ : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر فى تلك الليلة للعيون ، ما لا يظهر فى سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقًّا، لم يخفَ على كل من قام ليالى السنة، فضلًا عن ليالى رمضان .

الثانى : حكى الحافظ ابن حجر فى ( فتح البارى ) قولًا عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت فى زمان النبىّ ﷺ . ولعل مستنده ما صح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندى أن لا تنافى . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّي الخاص التي انفردت به ـ وبالثانى أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هى ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ فى قيام رمضان والتماسها فى العشر الأواخر منه . أعنى إحياء ماماثلها من الليالى ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالقائم فى ليالى العشر الأخير ، أو فى رمضان ، مصادفٌ البتة لما ماثل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام فى تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسماً للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخر فى تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافى حكمة ذكراها . فتأمّل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليله المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، هى ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التى تفرق فيهاهى الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم ﷺ . ومثل ذلك لم يرد ، لاضطرب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد . ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبىّ ﷺ . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين ( إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ) نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعَدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

---

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٥ — سورة البينة

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهى مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَيّ بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) قال: وسمّانى لك، قال: نعم .فبكى. ورواه البخارىّ ومسلم[١] . وفى رواية الإمام أحمد[٢] عن أبى حبّة البدرىّ قال : لما نزلت ( لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ) قال جبريل : يا رسول الله! إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيًّا . فقال النبىّ ﷺ لأُبَىٍّ : إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة . قال أُبَىّ : وقد ذُكِرْتُ ثَمّ يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكى أُبَىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٨ ـ سورة لم يكن ، ١ ـ حدثنا محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ )

[٢] ( رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً )

[٣] ( فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ )

« لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى جحدوا نبوة النبىّ صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ماتبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم «وَٱلْمُشْرِكِينَ» أى وثنيّي العرب «مُنفَكِّينَ» أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ماقلدوا فيه آباءهم ، لايعرفون من الحق شيئاً « حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ » أى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى، وهى هنا النبىّ ﷺ . فمجيئه هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ماهم فيه أجمل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » أى مستقيمة لاعوج فيها . واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذى لايميل إلى باطل[١] ( لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٢ ] .

حَكِيمٍ حَمِيدٍ ) والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هى ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاه الله فى كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم. وقد ترك حكاية ماالبّس فيه الملبّسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلا إلى إنكار الحق. وإنما فضلوا عليه سواه . أو هى سور القرآن . فإن كل سورة من سوره ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ماعرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذى جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذى لايختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم فى معرفة سبيله حتى لاينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع فى كشفها إلى العارف بمعانى الكتب. ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لايضللهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تفدهم شيئاً فإنهم اختلفوا فى التأويل وتفرقوا فى المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً فى المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ )

[٥] ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ )

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » أى على السنة

أنبيائهم. فهكذا كان شأنهم فى النبىّ ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب فى بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق فى الجهالة وأسلس قياداً للهوى ، منهم؟؟ وقوله تعالى « وَمَآ أُمِرُوٓاْ » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَآءَ » أى متبعى إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سمى به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الناس كافة « وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع . لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة فى شيء ، البتة « وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » أى بصرفها فى مصارفها التى عينها الله تعالى « وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : إن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة أختها . وكان افتراقهم فى العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله فى صلاتهم ، وإن يَصِلُوا عباد الله بزكاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذى يرجع إليه فى الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويَحُلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكم الإخلاص فى الأنفس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول فى حالنا ؟ أفما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، فى افتراقنا فى الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبىّ ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن (من) فى قوله ( مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ) للتبعيض . وأن معنى ( لم يكونوا منفكين ) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال فى عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التى كانوا فيها، حتى تأتيهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ما جاءهم . ولم ينظروا فى دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركى العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر منته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب ، لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا ، حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم فى إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى ( حتى ) وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعّبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفاسته ، ولكونه أحسن ما فُسِّرَت به . وقاعدتنا التى انتهجناها فى هذا التفسير أن نؤثر فى معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناه ( محاسن التأويل ) هدانا الله إلى أقوم السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجحدوا نبوته « مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر فى الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

## لطائف

الأولى ـ دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعني من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب، فأهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لا أصيل. ولذلك ينفرون من وصمة الشرك، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنيين.

الثانية ـ قال ابن جرير : العرب لا تهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم . فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها. وذهب بها إلى إلى قول الله [1] ( مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها، فإن لتركهم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك، وهو مفعل ، من ( ألك) أو (لأك ) ومن (يرى ) و (ترى ) و ( نرى ) ، وهو (تفعل) من رأيت. والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء ) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيل ( بفيك البراء ) يعني به التراب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ )

[٨] ( جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أي بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أي من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال في أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات . لأن إذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ، ملكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة، قاله الإمام. «أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [ ٥٧ / الحديد / ٢٢ ] .

«ٱلْبَرِيَّةِ» أى أفضل الخليقة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التى شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جعله اللهقوام الوجود الإنسانىّ ، وهَدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ماهُدوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام «جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ» أى بساتين إقامة ، لا ظعن فيها ، تجرى من تحت أشجارها وغرفها الأنهار «خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا» أى ماكثين على الدوام ، لايخرجون عنها ولايموتون فيها «رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ» أى بما أطاعوه فى الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه فى ذلك «وَرَضُوا۟ عَنْهُ» لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به فى الدنيا. فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله مالا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله فى كل حال . أفاده الإمام .

«ذَٰلِكَ» أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء «لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ» أى خاف الله فى الدنيا ، فى سره وعلانيته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه . فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية .

قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ولايزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفى فى نيل ماأعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء . وأفواههم ماؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياحُ العجب والخيلاء . وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء . بل ولمن دون الأمراء . خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء ـ كلا لا ينالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحلّ قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفُه قلبه . والله أعلم .

---

بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٩ – سورة الزلزلة

قال ابن كثير : مكية . ورجّح السيوطىّ أنها مدنية . وآيها ثمان . روى الترمذىّ[١] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) تعدل نصف القرآن . و ( قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ) تعدل ثلث القرآن . و ( قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ) تعدل ربع القرآن . وسيأتى سر ذلك فى تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا )

[٢] ( وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا )

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أى أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب. فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص، بمعنى الزلزال المخصوص بها. وهى الرجة التى لا غاية وراءها. والأقرب الأول ، لآية[١] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ) وقرئ بفتح الزاى . وقد قيل هما مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو المشهور « وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أى قذفت ما فى باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله[٢] ( وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ) والأثقال جمع ( ثقل ) بفتحتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن الحمل يسمى ثقلا كما فى قوله تعالى[٣] ( فَلَمَّآ أَثْقَلَت ) قاله الشريف المرتضى فى ( الدرر ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا )

[٤] ( يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا )

[٥] ( بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا )

(١) [ ٢٢ / الحج / ١ ] .

(٢) [ ٨٤ / الانشقاق / ٣و٤ ] .

(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨٩ ] .

[٦] ( يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ )

[٧] ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ )

[٨] ( وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ )

« وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى فجأه ودهشه ، ولم يعهد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من ( إذا ) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدثت بذلك . كقولك ( الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة ) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة، تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ(تحدث) أى تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ماتدل به على خرابها .

وقال القاشانىّ : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكوينىّ . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مراقدهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم، متفرقين سعداءوأشقياء « لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى ليريهم الله جزاء أعمالهم «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ» أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

## تنبيهات :

الأول ـ دل لفظ ( من ) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره، فإنه يراه ويجد جزاءه . لا فرق فى ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون فى الشقاء . والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا. أى أن عملًا من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول[1] ( وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ) فقوله ( فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ) أصرح قول فى أن الكافر والمؤمن فى ذلك سواء . وإن كلًّا يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبيّ ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئةٍ ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجرا يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايعرفون للإجماع الذى تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب فى ( حواشيه ) على القاضى ، حيث ناقش صاحب المقاصد فى دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به فى الآية ؟ والذى يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبى طالب كعذاب أبى جهل. ولا

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٧ ] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهىّ . انتهى .

الثانى ـ قال فى ( الإكليل ) : فى هاتين الآيتين ، الترغيب فى قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية فى القرآن . وفى لفظ ( أجمع ) .

وسمّى[1] رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ) . وروى الإمام أحمد[2] عن صعصعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبىّ ﷺ فقرأ عليه ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ) إلخ . قال : حسبي . لا أبالى أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائىّ فى تفسيره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٩ ـ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، ١ ـ باب قوله فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٠ — سورة العاديات

مكية أو مدنية . وآيها إحدى عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا)

[٢] (فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا)

[٣] (فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا)

[٤] (فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا)

[٥] (فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا)

« وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحاً » إقسام بخيل الغزاة التى تعدو نحو العدوّ ، فتضبح . و( الضبح ) صوت أنفاسها إذا عَدَتْ . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها ( اح . اح ) كما قاله ابن عباس . ونصب ( ضَبْحاً ) إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية « فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحاً » أى تورى النار بحوافرها . والقدح هو الضرب لإخراج النار ، والإيراء يترتب عليه . لأنه إخراج النار وإيقادها . فإيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة . وتسمى نار الحباحب . ولما كان مرتباً على عَدْوها ، عطفه بالفاء . وكون المراد به الحرب ـ بعيد . وفى إعرابه الوجوه السابقة .

« فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحاً » أى تغير على العدوّ فى وقته . يقال ( أغار على العدوّ ) إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام: وهو وصف عرض للخيل من الغاية التى أجريت لها . أى أنها تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها ، لتهجم على عدوّ وقت الصباح ، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة « فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعاً » أى فأهجن ، بذلك الوقت ، غباراً من الإثارة . وهى

التهييج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع. والنقع: الغبار كما ذكرنا، وورد بمعنى الصياح . فجوّز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه ، وأوقع به . لا صياح المغير المحارب ، وإن جاز على بُعْدٍ فيه . أى هيجن الصياح بالإغارة على العدوّ، وضمير (به) للوقت والباء ظرفية. وفيه احتمالات أخر . ككونه للعدو أو للإغارة ، لتأويلها بالجرى. فالباء سببية أو للملابسة. ويجوز كونها ظرفية أيضا . والضمير للمكان الدال عليه السياق، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع . وهو الذى اختاره ابن جرير .

قال الشهاب : وذكر إثارة الغبار ، للإشارة إلى شدة العَدْوِ وكثرة الكرّ والفرّ . وتخصيص الصبح ، لأن الغارة كانت معتادة فيه . أى لمباغتة العدوّ . والغبار إنما يظهر نهاراً و ( أثرن ) معطوف على ما قبله .

قال الناصر : وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم ، الذى هو العاديات أو مابعده ، لأنها أسماء فاعلين تعطى معنى الفعل . وحكمة مجىء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل ، تصوير هذه الأفعال فى النفس . فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف . وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة . وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضى .

وقوله تعالى « فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعاً » أى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء، ففرقنه وشتتنه . يقال : ( وسطت القوم ) بالتخفيف و( وسطته ) بالتشديد و ( توسطته ) بمعنى واحد . وفى الضمير الوجوه المتقدمة .

قال الإمام رحمه الله : أقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التى ذكرها، آتية بالأعمال التى سردها لينوه بشأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد . ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها . ليكون كل واحد منهم مستعداً فى أى وقت كان ، لأن يكون جزءاً من قوة الأمة إذا اضطرت إلى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان فى هذه

الآيات القارعات ، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله[١] ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وفيماورد من الأحاديث التى لاتكاد تحصر - مايحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل . ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها . وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس من أعجب العجب أن ترى أمما ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، إلى أن صار يشار إلى راكبها بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التى رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذى جاء فى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾

[٧] ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾

[٨] ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ » أى لكفور . يكفر نعمه ولا يشكرها . أى لا يستعملها فيما ينبغى ليتوصل بها إليه .

قال المهايمىّ : أى لكفور ، فيوجب قتاله بهذه الخيول وقهره بهذا الغضب . وعن أبى أمامة : الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده « وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ » أى وإن الإنسان على كنوده ، لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٦٠ ] .

قال القاشانيّ : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لايقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر فى جنب الله بكفرانه « وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » أى وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها ، لقوىّ . ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس وإنه لحب الخير الموصل إلى الحق ، شديد منقبض ، غير هش منبسط . أو اللام للتعليل . أى إنه لأجل حب المال بخيل . فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه فى تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ )

[١٠] ( وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ )

[١١] ( إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ )

« أَفَلَا يَعْلَمُ » أى أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، لايعلم بنور فطرته وقوة عقله « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ » أى بعث وأثير ما فى القبور وإخراج موتاها « وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ » أى أظهر وأبرز ما فى صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر « إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ » أى عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم . فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقديم الظرف ، إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته . وهى إنما تكون يومئذ .

قال الرازىّ : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب . فإنه لولا البواعث والإرادات فى القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح . ولذلك جعلها تعالى الأصل فى الذم فقال[1] ( ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ) والأصل فى المدح فقال[2] ( وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ) .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٨٣ ] . (٢) [ ٨ / الأنفال / ٢ ] و [ ٢٢ / الحج / ٣٥ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠١ — سورة القارعة

مكية وآيها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْقَارِعَةُ)

[٢] (مَا ٱلْقَارِعَةُ)

[٣] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ)

[٤] (يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ)

[٥] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ)

« ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ » قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهى القيامة . سميت بها لأنها تفزع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال . وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار ، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض بالزلزال والتبديل والجبال بالدك والنسف . وهى مبتدأ خبره قوله تعالى ( ما القارعة ) على أن (ما) الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس . لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ . ولا ريب فى أن مدار إفادة الهول والفخامة ههنا ، هو كلمة (ما) لا ( القارعة ) ، أى أىُّ شىء عجيب هى فى الفخامة والفظاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل . وقوله تعالى « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ » تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها ، بحيث لا تكاد تناله دراية أحد ، حتى يدريك بها . أى : وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ولما كان هذا منبئاً عن الوعد الكريم بإعلامها ، أنجز ذلك بقوله تعالى « يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ » أى هى يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة

والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، والتطاير إلى الداعى ، كتطاير الفراش إلى النار . ف ( يوم ) خبر محذوف بنى على الفتح ، لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب . بإضمار ( اذكر ) . كأنه قيل ، بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها : اذكر يوم يكون الناس « وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ » أى كالصوف المندوف فى تفرق أجزائها وتطايرها فى الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذى تبتدئ فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٦ ] ( فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ )

[ ٧ ] ( فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ )

[ ٨ ] ( وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ )

[ ٩ ] ( فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ )

[١٠] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ )

[١١] ( نَارٌ حَامِيَةٌۢ )

« فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » قال ابن[1] جرير : أى فأما من ثقلت موازين حسناته ، يعنى بالموازين الوزن . والعرب تقول ( لك عندى درهم بميزان درهمك ) ويقولون ( دارى بميزان دارك ووزن دارك ) يراد حذاء دارك . قال الشاعر[2] :

قد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرَّة      عندى لكلِّ مخاصم ميزانُهُ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .
(٢) أنشده ثعلب فى اللسان ( ج ١٣ ص ٤٤٧ ) طبعة بيروت .

يعنى بقوله ( ميزانه ) كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان . إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه ، فالموازين جمع ميزان . وجوز كونه جمع موزون ، وهو العمل الذى له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله ( فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ) أى فى عيشة قد رضيها فى الجنة . ف ( راضية ) بمعنى مرضية ، على التجوز فى الـكلمة نفسها أو فى إسنادها . أو استعارة مكنية وتخييلية « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى وزن حسناته « فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ » أى فمأواه ومسكنه الهاوية التى يهوى فيها على رأسه فى جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى ( أمًّا ) على التشبيه تهكماً . لأن أم الولد مأواه ومقره . وفى ( التأويلات ) : قيل المراد أم رأسه . أى يلقى فى النار منكوساً على رأسه . انتهى . والأول هو الموافق لقوله « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ » فإنه تقرير لها بعد إبهامها، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتهويل . وأصل (مَاهِيَه) ماهى ، كناية عن الهاوية. فأدخل فى آخرها هاء السكت وقفاً ، وتحذف وصلا . وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٢ - سُورَة التَّكاثُر

وهي مكية وآيها ثمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)

[٢] (حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)

[٣] (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٤] (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٥] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)

[٦] (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[٧] (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

[٨] (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى شغلكم التباهى بالكثرة فى المال والولد ونحوها . فيقول هذا : أنا أكثر منك مالًا ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً . وهكذا مما يصرف عن الجد فى العمل ، ويطفىء نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والكمالات المعنوية الباقية . ذهب بكم التفاخر والتباهى بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كل مذهب « حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى حتى هلكتم ومتم وصرتم من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم فى الأعمال السيئة وما تنبهتم طولَ حياتكم إلى ما هو سبب سعادتكم ونجاتكم . وزيارةُ القبور عبارة عن الموت .

روى الزمخشريّ شواهد لها . قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث . لأن الزائر لابد من انصرافه عما زاره . ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بعثوا ، ورب الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لابد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة ، دهليز

الآخرة « كَلَّا » ردع عن الاشتغال بالتكاثر، وتوهم أن الفوز بالتفاخر. فإن الفوز بالتناصر على الحق والتحلي بالفضائل « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » أي مغبة ما أنتم عليه ، في الآخرة ، من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال ، العظيمة الوبال ، لبقاء تبعاتها .

« ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » تكرير للتأكيد. و ( ثم ) للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول . أو الأول عند الموت ، والثاني عند النشور « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أي لو تعلمون ما بين أيديكم من الجزاء، علم الأمر اليقين، لكان ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز في التكاثر، والذهول عن الحق به. واليقين بمعنى المتيقن، صفة لمحذوف، أو صفة للعلم، على أنه من إضافة الصفة للموصوف، وحذف جواب (لو) ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه، ليستحكم فيه فضل استحكام . وقوله تعالى « لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ » جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه تفخيما « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ » أي الرؤية التي هي نفس اليقين ، فالعين هنا بمعنى النفس ، كما في (جاء زيد عينه ) أي نفسه . وإنما كانت نفس اليقين ، لأن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة ، فوق سائر الانكشافات . فهو أحق بأن يكون عين اليقين . والتكرير للتأكيد .

قال الإمام: وكنى برؤية الجحيم، عن ذوق العذاب فيها. وهي كناية شائعة في الكتاب العزيز.

« ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » أي عن النعيم الذي ألهاكم التكاثر به والتفاخر في الدنيا. ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ ويدخل في ذلك ما أنعم عليهم من السمع والبصر وصحة البدن .

قال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار . قال : يسأل الله العباد فيم استعملوا وهو أعلم بذلك منهم . وهو[1] قوله ( إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ) قال ابن جرير[2]: لم يخصص في خبره تعالى نوعاً من النعيم دون نوع. بل عمّ . فهو سائلهم عن جميع النعيم . ولذا قال مجاهد : أي عن كل شيء من لذة الدنيا . وقال قتادة : إن الله عز وجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه .

(١) [١٧/الإسراء/٣٦] . (٢) انظر الصفحة رقم ٢٨٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

بسم الله الرحمن الرحيم

## ١٠٣ — سورة العصر

مكية ، وقيل مدنية ، وآيها ثلاث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلْعَصْرِ )

[٢] ( إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ )

[٣] ( إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ )

« وَٱلْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة . ولذا قيل له ( أبو العجب ) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبّه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة. وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعيبونَ الزمانَ وليسَ فيهِ معايبُ غير أهـلٍ للزمانِ

وجوّز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسبّ ، كما اعتاد الناس أن يقولوا ( زمان مشؤوم ) و (وقت نحس) و ( دهر سوء ) وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم مايقع فيه من الأفاعيل الممقوتة.

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقى فى الفانى « إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيمانا ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » قال القاشانيّ : أي من الفضائل والخيرات. أي اكتسبوها فربحوا زيادة النور الكماليّ على النور الاستعداديّ الذي هو رأس مالهم .

«وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ » أي أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ » أي على ما يبلو الله به عباده . أو على الحق، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذاك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

## تنبيهات

الأول ـ قال الإمام ابن القيّم في ( مفتاح دار السعادة ) قال الشافعيّ رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة ، لكفتهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها معرفة الحق. الثانية عمله به. الثالثة تعليمه من لا يحسنه. الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا. وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة. وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة .

وهذا نهاية الكمال. فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه، مكملًا لغيره . وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان. وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثانى : قال الرازىّ : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة . وهى : الإيمان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه فى غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن يحب له ما يحب لنفسه . ثم كرر التواصى ليتضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثانى الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثانى النهى عن المنكر . ومنه قوله تعالى[1] ( وَأْنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلىّ عيوبى .

الثالث : قال الرازىّ : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه . فلذلك قرن التواصى بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصى بالحق والصبر ، مع اندراجهما فى الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كلٌّ صاحبَه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التى لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التى لا قَرَارَ للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر فى الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق فى النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٧ ] .

للعادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى فى الآية بالنص الصريح الذى لايقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة فى العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان فى نيلها مايخالف حقاً أو ما لاتأذن به الشريعة الصحيحة التى لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج فى دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصى غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التى هى أم الفضائل بأسرها ، ولايمكنك حمله على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بهـا . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس ـ قال الإمام: إنما قال ( وَتَوَاصَوْاْ ) ولم يقل ( وأوصوا ) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهمه أمر الحق؛ ليوصى صاحبه بطلبه ، يهمه أن يرى الحق فيقبله . فكأن فى هذه العبارة الجزلة ، قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس ـ قال ابن كثير : ذكر الطبرانىّ من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها. ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصى بالحق والتواصى بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره، فعلى من أراد التوسع فى أسرارها ، أن يرجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٤ — سُورَة الهُمَزة

مكية ، وآيها تسع .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ )

[٢] ( الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ )

[٣] ( يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ )

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » أى لكل من يطعن فى أعراض الناس ويغتابهم . أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن ، الحقيقيين . ثم استعيرا لذلك . ثم صارا حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعجم[١] :

تُدْلى بوُدٍّ إذا لاقيتَنى كَذِباً ‏ ‏ ‏ ‏ وإن أُغَيَّبْ فأنت الهامزُ اللُّمَزَهْ

وبناء ( فُعَلَة ) يدل على أن ذلك عادة منه قد ضَرِىَ بها ، لأنه من صيغ المبالغة . والآية عنى بها من كان مع المشركين بمكة ، هازاً لمازاً . كما فى قوله[٢] ( إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . . ) الآيات ، وقوله[٣] ( هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ .. ) الآيات ، فالسبب ، وإن يكن خاصًّا ، إلا أن الوعيد عام، يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عامًّا ، ليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه .

« الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ » أى أحصى عدده ولم ينفقه فى وجوه البر .

قال الإمام: أى أن الذى يحمله على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . أى عده مرة بعد أخرى، شغفاً به وتلذذًا بإحصائه. لأنه لا يرى عزًّا ولا شرفاً ولا مجداً فى سواه.

(١) انظر الصفحة رقم ٤٧٥ من إصلاح المنطق لابن السكيت .

(٢) [ ٨٣ / المطففين / ٢٩و٣٠ ] . ‏ ‏ ‏ (٣) [ ٦٨ / القلم / ١١ ] .

فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه . فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه . ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض . لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المآل فهو « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ » أى يظن أن ماله الذى جمعه وأحصاه ، وبخل بإنفاقه ، مخلده فى الدنيا ، فزيل عنه الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ )

[٥] ( وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ )

[٦] ( نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ )

[٧] ( ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ )

[٨] ( إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ )

[٩] ( فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ )

« كَلَّا » أى فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن . بل لا بد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال ، كما قال « لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ » أى ليلقين وليقذفن يوم القيامة فى النار التى من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . أى تكسره ، وكلمة (النبذ) تفيد التحقير والتصغير « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ » استفهام عنها لتهويل أمرها . كأنها ليست من الأمور التى تدركها العقول « نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ » أى هى النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو منشئها فى عالم لا يعلمه سواه .

قال أبو السعود : وفى إضافتها إليه سبحانه، ووصفها بالإيقاد، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه « ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ » قال ابن جرير[١] : أى التى يطلع ألمها ووهجها على القلوب.

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٤ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى . حكى عن العرب سماعا ( مَتى طَلَعْتَ أرضَنَا ) . و ( طلعتُ أرضى ) بلغتُ .

وقال الزمخشريّ : يعنى أنها تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهى أوساط القلوب . ولا شىء فى بدن الانسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألمًا منه بأدنى أذى يمسه . فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه !! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها « إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ » أى مغلقة مطبقة لامخلص لهم منها « فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » صفة لمؤصدة ، أو حال من الضمير المجرور . وإلى الوجهين أشار الزمخشريّ بقوله : والمعنى أنه يؤكد يأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمد ، استيثاقاً فى استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين فى عمد ممددة ، مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص .

و ( المقاطر ) جمع ( مقطرة ) بالفتح ، وهى جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم ( وتقطر ) أى يجعل كلّ بجنب آخر و ( عمد ) قرئ بضم العين والميم وفتحهما .

قال ابن جرير[1] : وهما قراءتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء ولغتان صحيحتان . والعرب تجمع العمود عُمُداً وعَمَدا ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل فى جمع إهاب تجمعه أُهُبا وأَهَبا .

## تنبيه

قال القاشانىّ فى بيان آفات رذيلتى الهمز واللمز اللتين نزلت فى وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أى الكسر من أعراض الناس واللمز أى الطعن فيهم ، رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر . لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس . وصاحبهما يريد أن

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٥ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

يتفضل على الناس ، ولا يجد فى نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرذيلة إليهم ، ليظهر فضله عليهم . ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة . فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتى القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفى قوله تعالى ( وَعَدَّدَهُۥ ) إشارة أيضاً إلى الجهل . لأن الذى جعل المال عدة للنوائب ، لايعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب . لاقتضاء حكمة الله تفريقه فى النائبات ، فكيف يدفعها ؟ وكذا فى قوله ( يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ) أى لا يشعر أن المقتنيات المخلدة لصاحبها هى العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والذخائر الجسمانية الفانية. ولكنه مخدوع بطول الأمل ، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذى هو رذيلة القوة الملكية ، أصل جميع الرذائل ، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها ، العذاب الأبدىّ المستولى على القلب المبطل لجوهره .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٥ – سورة الفيل

مكية ، وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ )

[٢] ( أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ )

[٣] ( وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ )

[٤] ( تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ )

[٥] ( فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ )

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ » يعنى الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشىّ الأشرم . كما سيأتى .

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله ﷺ . والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها . والرؤية علمية . أى ألم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان ، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه ، بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ ـ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام .

فإن ذلك من الإرهاصات . لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبىّ عليه الصلاة والسلام ، كما سنأثره . وقوله تعالى « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ » بيان إجمالىّ لما فعل بهم . أى لم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة فى تضييع وإبطال لما حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

قال الرازىّ : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية ( إن قيل ) لم سماه

كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ ( قلنا ) نعم لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر . لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » أى طوائف متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . و(أبابيل) جمع لا واحد له، على ماحكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسى ـ وكان ثقة ـ أنه سمع واحدها إبّالة بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهى حزمة الحطب . استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائىّ عن بعض النحويين فى مفردها ( أبول ) وعن آخرين ( أبيل ) سماعاً كما أثره ابن جرير[1] . والتنكير فى ( طيرا ) إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر . أو للتفخيم ، كأنه يقول وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل . أفاده الرازىّ .

« تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ » أى من طين متحجر. وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعنىّ بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير[2] : وهذا القول الذى قاله ابن زيد لا نعرف لصحته وجها فى خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لا تدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ » قال ابن جرير[3] : كزرع أكلته الدواب فراثته ، فيبس وتفرقت أجزاؤه . شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التى نزلت بهم ، وتفرق آراب أبدانهم بها ، بتفرق أجزاء الروث ، الذى حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهجنته . فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار تشويه حالهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٠٤ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وقال أبو مسلم : ( العصف ) التبن، لقوله(١)( ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ... ) لأنه تعصف به الريح عند الذرّ ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولًا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه فى الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، والتقدير كعصف مأكول الحب . كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه . فأجرى ( مأكول ) على ( العصف ) من أجل أنه أكل حبه . لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضا أن معنى ( مأكول ) مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب . يقال لكل ما يصلح للأكل (هو مأكول) والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب فى التفرق والتفتت والهلاك . أشار له الرازىّ

تنبيهات :

الأول : كان السبب الذى من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل ، مسير أبرهة الحبشىّ بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل فى ذاتها معروفة متواترة الرواية . حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث . فيقولون : ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك . وتفصيل نبئها على ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشىّ كان أمير صنعاء للنجاشىّ . وكان ذادين فى النصرانية . فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها فى زمانها . ثم كتب للنجاشىّ : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها الملك كان قبلك . ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشىّ غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها (أى أحدث فيها ) ثم خرج فلحق بأرضه . فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك ( أصرف إليها حج العرب ) غضب فجاء فقعد فيها . أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل .

(٤) [ ٥٥ / الرحمن / ١٢ ] .

وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفْر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفْر وأصحابه وأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفْر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي . فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق . وكان أبرهة رجلا حليما . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له . حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل بن حبيب الخثعميّ في قبيلي خثعم : شهرانَ وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب . فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً . فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك ! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب . وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم : شهران وناهس ، بالسمع والطاعة . فخلى سبيله وخرج به معه يدله . حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفيّ في رجال ثقيف . فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم ـ واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ـ فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس . فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك : فرجمت قبرَه العرب . فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس . فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به . فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميريّ إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم . إنما جئت لهدم هذا البيت . فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب ، فلا حاجة لي في دمائكم .

فإن هو لم يرد حربى فأتنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل من سيد قريش وشريفها . فقيل له عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام (أو كما قال) فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه . وأن يخل بينه وبينه ، فو الله ! ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر . فسأل عن ذى نفر وكان له صديقا حتى دخل عليه وهو فى مَحْبَسه. فقال له : ياذا نفر! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر: وماغناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا . ماعندى غناء فى شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير، إن قدر على ذلك. فقال: حسبى . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة . يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل، والوحوش فى رؤوس الجبال . فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته . قال فأذن له أبرهة . قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته. وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه: قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : وما كان ليمتنع منى . قال :

أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة ـ يعمر بن نفاثة سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل . فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم . والله أعلم ، أكان ذلك أم لا.

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له . فلما انصرفوا عنه، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة . وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إنَّ العبدَ يَمْـ … ـنع رَحْلَهُ ، فامنع حِلالكْ

لا يغلبنّ صَليبُهُمْ … ومحالُهُم ، عَدْوًا مِحَالك

إن كنت تاركهم وقبـ … ـلتَنا ، فأَمْرٌ ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعبّى جيشه ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه . فقال له : ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نفيل يشتد حتى أصعد فى الجبل. وضربوا الفيل ليقوم. فضربوا رأسه ليقوم فأبى. فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ـ أى أدموه ـ ليقوم فأبى . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلَسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وليس كلَّهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى

منه جاءوا . ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفرُّ والإله الطالبْ والأشرم المغلوبُ ليس الغالبْ

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك. على كل منهل . وأصيب أبرهة في جسده . وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة . كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تَمُثُّ ـ أى تسيل ـ قيحاً ودماً . حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحق: حدثني يعقوب بن عتبة . أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدريّ بأرض العرب ، ذلك العام .

قال ابن إسحق : فلما بعث الله محمداً ﷺ ، كان مما يَعُدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تعالى ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ . . . ) السورة .

ثم قال ابن إسحق : فلما ردّ الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم. فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ماصنع الله بالحبشة، ومارد عن قريش من كيدهم. ثم ساق القصائد في ذلك .

وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحق . لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ سبكا ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغاء رجالها ، فرحمه الله ورضي عنه .

التنبيه الثاني: إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل، واشتهرت به، لاصطحابهم الفيل معهم للبطش والتخريب . فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يَدَهُم العاملة وسهمهم النافذ . وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام . فإذا غضبوا على محارب وأسروه، أو وزير وأوثقوه، أو بلد ونازلوا حصنه ـ أرسلوا على دار المغضوب عليه أو حصنه الفيل ، فنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه. وقواعد البنيان فيهدمها . فيكون أمضى من معاول وفؤوس . وأعظم رعبا ورهبة في النفوس . وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه، فأعمل فيه

نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثل به تمثيلا ، كان أشد بطشاً وتنكيلا . وقد حدثني بغرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

الثالث : قال القاشانيّ : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ . وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه . وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ، ليس بمستنكر . ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب الحكمة ، عرف لمية أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبورها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماورديّ في (أعلام النبوة) : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات قاهرة . تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق . ولا منتحل بحق . وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها . ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته . فكان من أعظمها شأنا . وأظهرها برهانا . وأشهرها عيانا وبيانا . أصحاب الفيل . أنفذهم النجاشيّ من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها وسبي ذراريّها وهدم الكعبة . وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملا في بطن أمه بمكة . لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل . فكانت آيته في ذلك من وجهين : أحدها أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا . فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملا ووليدا . والثاني أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم . وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة . ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيسا للنبوة وتعظيما للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكا للحج .

فإن قيل . فكيف منع عن الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكا ، ولم يمنع الحجاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكا حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قيل : فعلُ الحجاج كان بعد استقرار الدين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتاسيس النبوة ومجيء الرسالة . على أن الرسول قد أنذر بهدمها فصار الهدم آية بعد أن كان المنع آية فلذلك اختلف حكمهما فى الحالين والله تعالى أعلم .

ولما انتشر فى العرب ماصنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمته فى النفوس ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيما ، فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين . وصار أصحاب الفيل مثلا فى الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لـكل باغ ودافعاً لـكل طاغ . وقد عاصر رسول الله ﷺ فى زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبابيل . منهم حكيم بن حزام وحاطب ابن عبد العزى ونوفل بن معاوية . لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة . منها ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام . انتهى .

الخامس : ورد فى كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل . روى البخارى[١] أن النبىّ ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء ـ أى حرنت ـ فقال رسول الله ﷺ : ماخلأت القصواء وما ذاك لها بخلق . ولـكن حبسها حابس الفيل ؛ قال ابن الأثير فى ( النهاية ) : هو فيل أبرهة الحبشىّ الذى جاء يقصد خراب الـكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، ورد رأسه راجعاً من حيث جاء . يعنى أن الله حبس ناقة النبىّ ﷺ لما وصل إلى الحديبية . فلم تتقدم ولم تدخل الحرم . لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفى الصحيحين[٢] أيضا أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين . وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب .

(١) أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، حديث ٨٨١ ، ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث رقم ٩٦ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٧ و٤٤٨ ( طبعتنا ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٦ - سورة قريش

مكية ، وآيها أربع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ )

[٢] ( إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ )

[٣] ( فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ )

[٤] ( ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ )

« لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ » قال ابن هشام: إيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام فى تجارتهم. وكانت لهم خرجتان: خرجة فى الشتاء وخرجة فى الصيف. قال : أخبرنى أبو زيد الأنصاريّ أن العرب تقول : ألفت الشىء إلفا، وآلفته إيلافا، فى معنى واحد وأنشدنى لذى الرمة(١) :

من المُؤْلِفاتِ الرمْلَ إدماءُ حرةٌ ... شُعاعُ الضُّحَى فى لونها يتَوَضَّحُ

والإيلاف أيضا أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك، ويقال آلف فلان إيلافا ، قال الكميت بن زيد(٢) :

بِعَامٍ يقــول له المُؤْلِفُو ... ن هذا المُعيمُ لنا المُرْجِلُ

(١) استشهد به فى اللسان ( ج ٩ ص ١٠ ) طبعة بيروت .

شعاع الضحى : بريق لونه . يتوضّح : يتبيّن .

(٢) العيم من العيمة ، وهى الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذى تذهب إبله فيمشى على أرجله . يريد أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من اللبن ، يعام إلى اللبن ويسعى ماشياً .

والمعيم العام الذى قل فيه اللبن . والإيلاف أيضا أن يصير القوم ألفا ؛ يقال آلف القوم إيلافا . قال الكميت :

وآل مُزَيْقِياءَ غداةَ لاقَوْا بنى سعد بن ضَبَّةَ مُؤْلِفِينَا

والإيلاف أيضا أن يُؤْلفَ الشيء إلى الشيء، فيألفه ويلزمه . يقال: آلفته إياه إيلافا . والإيلاف أيضا أن تصيّر ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا . انتهى. ولورود الإيلاف بهذه المعانى، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه. مع ما فى الإبهام، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير[1] عن عكرمة قال: كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن، يختلفون إلى هذه فى الشتاء وإلى تلك فى الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن فى التجارة. إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد. وكانت رحلتهم فى الشتاء إلى اليمن . وعن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ويصيّفون بالطائف . والأكثرون على الأول . واللام فى قوله ( لإيلاف ) متعلق بقوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ » أى فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء، لما فى الكلام من معنى الشرط . إذ المعنى، أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة. فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة « ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ » أى جوع شديد كانوا فيه قبل الرحلتين فـ ( من ) تعليلية. أى أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم أو بدلية « وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ » أى مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التى كانت العرب يخاف بعضها من بعض. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا . فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ[2] ( أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ) ونظيره أيضا قوله تعالى[3] ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٧ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٧ ] . (٣) [ ٢٩ / العنكبوت / ٦٧ ] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام فى ( لِإِيلَـٰفِ ) متعلق بما قبله أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هـذا لابد من تأويله . والمعنى : أهلكهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه . أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن فى الإقامة والسفر ، أو هى لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف . ولذا قال ابن جرير[1] فى رده : وأما القول الذى قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله ( فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون ( لِإِيلَـٰفِ ) بعض ( أَلَمْ تَرَ ) وأن لا تكون سورة منفصلة من ( أَلَمْ تَرَ ) وفى إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذى قاله من قال ذلك . ولو كان قوله ( لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ) من صلة قوله ( فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ) لم تكن ( أَلَمْ تَرَ ) تامة حتى توصل بقوله ( لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ) لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذى ذكر . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٧ – سُورَة الماعُون

مدنية ، وآيها سبع .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾

[٢] ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾

[٣] ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾

[٤] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾

[٥] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾

[٦] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾

[٧] ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ » أى بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه فى أمره ونهيه.
قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه. والخطاب للنبيّ ﷺ . أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم . والفاء فى قوله تعالى « فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ » جواب شرط محذوف ، على أن ( ذلك ) مبتدأ والموصول خبره . والمعنى : هل عرفت الذى يكذّب بالجزاء أو بالإسلام ، إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً ويزجره زجراً قبيحاً . يقال : دفعت فلاناً عن حقه : دفعت عنه وظلمته « وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى لا يحثّ غيره من ذوى اليسار على إطعام المحتاج وسدّ خلته . بل يبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام ، كما قاله الراغب ، فهو ظاهر . وإلا ففيه مضاف مقدر . أى بذل طعام المسكين. واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له

كما فى قوله(١) (فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ) فهو بيان لشدة الاستحقاق. وفيه إشارة للنهى عن الامتنان : قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

قال الزمخشرىّ : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعنى أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشى الله تعالى وعقابه، ولم يقدم على ذلك . فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه فى التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين، وقوله تعالى «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» قال ابن جرير(٢) : أى لاهون يتغافلون عنها وذلك باللهو عنها والتشاغل بغيرها. وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى. وقال القاشانىّ : أى فويل لهم ، أى للموصوفين بهذه الصفات ، من دعّ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين. الذين إن صلّوْا غفلوا عن صلاتهم لاحتجابهم عن حقيقتها بجهلهم وعدم حضورهم . و(المصلين) من باب وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ما هى به معتبرة من الحضور والإخلاص، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذى يكذب هو الجنس «ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ» أى يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلّون رغبة فى ثواب ، ولا رهبة من عقاب . وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم فيكفوا عنهم. وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك . أريد به العمل عند الناس ليثنوا عليهم. أوضحه الشهاب .

« وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ » أى ما يعان به الخلق ويصرف فى معونتهم من الأموال والأمتعة وكل ما ينتفع به، لكون الجهل حاكما عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوحيدىّ

(١) [ ٧٠ / المعارج / ٢٤و٢٥ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٢ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وعدم اعتقادهم بالجزاء . فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفانى ، ولا عدالة فى أنفسهم للاتصاف بالرذائل والبعد عن الفضائل ، فلا يعاونون أحدا فلن يفلحوا أبداً . قاله القاشانىّ .

تنبيه :

المعنىّ بهذه الآيات أولا وبالذات المنافقون فى عهد النبوة . ويدخل فيها ثانياً وبالعرض، كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتباراً بالعموم . فالسورة مدنية . ونظيرها فى المنافقين قوله تعالى[1] ( وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ) ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير[2] : هم المنافقون ، كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهو الماعون .

(١) [ ٤ / النساء / ١٤٢ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٨ - سُورَةُ الكَوْثَر

مكية ، ويقال مدنية ، وآيها ثلاث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ )

[٢] ( فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ )

[٣] ( إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ )

« إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ » أى الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحق والهدى ومافيه سعادة الدارين . روى ابن جرير(١) عن أبى بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذى آتاه الله إياه . فقلت لسعيد : إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة . فقال : هو من الخير الذى أعطاه الله إياه «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ» قال الإمام: أى فاجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى(٢) (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَاشَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ » [قال ابن جرير(٣) : أى إن مبغضك يا محمد، وعدوك، هو الأبتر. يعنى الأقل الأذل المنقطع دابره الذى لاعقب له].

روى ابن إسحق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : ( دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له . فإذا هلك انقطع ذكره ) فأنزل الله هذه السورة .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٢١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

(٢) [ ٦/ الأنعام/ ١٦٢و١٦٣ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٢٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

وعن عطاء قال : نزلت في أبي لهب . وذلك حين مات ابن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله ، في ذلك ، السورةَ . وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط . قال ابن كثير : والآية تعم جميع من اتصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء النبيّ ﷺ يموتون ، يقولون: بتر محمد . أي لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ، ويعدون ذلك عيبا يلمزونه به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويعدّون ذلك مغمزاً في الدين . ويأخذون القلة والضعف دليلا على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقًّا لنشأ مع الغنى والقوة ، شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل . وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنّون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين . وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلوّ أيديهم من المال . وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين ، تمرُّ بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق . فأراد الله سبحانه أن يمحص من نفوس هؤلاء ، ويبكّت الآخرين ، فأكد الخبر لنبيه ، أن ما يخيله النظر القصير قليلا ، هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة . ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز ، وأن متبعه هو الظافر ، وأن عدوه هو الخائب ، الأبتر الذي يمحى ذكره ويعفى أثره .

تنبيه :

لما روى من سبب نزول هذه السورة مما رويناه ، ذهب إمام اللغة ابن جنّي إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة . وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جنّي في ( شرح ديوان المتنبي ) في قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوّي :

وأبهـرُ آياتِ التهاميّ أنه ... أبوك وأجْدَى مالكم من مَناقبِ

فى جملة ما أملاه علىّ أبو الفضل العروضىّ : أن قريشا وأعداء النبىّ ﷺ كانوا يقولون : إن محمداً أبتر لاعقب له . فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : ( إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ) أى العدد الكثير، ولست بالأبتر الذى قالوه . ومراده بالعدد الكثير الذرية وهم أولاد فاطمة. قال العروضىّ: فإن قيل: الإنسان بالأبناء والآباء والأمهات . قلنا : هذا خلاف حكم الله تعالى فإنه قد قال[1] : ( وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ ) إلى قوله ( وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ) فجعل عيسى من أولاد إبراهيم ومن ذريته . ولاخلاف فى أنه لم يكن لعيسى أب . انتهى .

وقد بسطنا أدلة صحة انتساب الأسباط إلى أجدادهم فى كتاب ( شرف الأسباط ) بما لامزيد عليه . فراجعه .

---

(١) [ ٦/ الأنعام/ ٨٤ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١٠٩ — سورة الكافرون

مكية ، وآيها ست . قال ابن كثير : ثبت فى صحيح مسلم[١] عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ( قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ ) فى ركعتى الطواف . وفى صحيح مسلم[٢] من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر . وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ( قل يا أيها الكافرون ) و ( قل هو الله أحد ) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يارسول الله ! علمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ : قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال فى ( اللباب ) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهى ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام . وهذه السورة مشتملة على النهى عن عبادة غير الله تعالى ، وهى من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب . فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى فى تفسير الإخلاص سر آخر .

---

(١ و ٢) هذان الحديثان أملنى التنقيب عنهما ولم أعثر عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبى ) والحديث رقم ٥٢١٥ ( طبعة المعارف ) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كما هنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه عن فروة بن نوفل الأشجعى عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ)

[٢] (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[٣] (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ)

[٤] (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)

[٥] (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ)

[٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ)

«قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حجته واتضحت محجته «لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ» أى فيما أستقبل «مَّا عَبَدتُّمْ» أى فيما مضى «وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبداً «مَآ أَعْبُدُ» أى الآن وفيما أستقبل ـ هكذا فسره الإمام ابن جرير(١) رحمه الله. ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ فى أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك فى السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم . وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم فى وقت من الأوقات. وآيس نبىّ الله ﷺ من الطمع فى إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضٌ قبل ذلك كافراً . ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا قال : لقى الوليد بن المغيرة

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد! هلم، فلنعبد ماتعبد وتعبد مانعبد ، ونشركك فى أمرنا كله. فإن كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يديك، كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ..) السورة. وفى رواية: وأنزل الله فى ذلك هذه السورة، وقوله(١) (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ) (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفى العبادة حالا. كما أن الأوليين لنفيها استقبالا. قال أبو السعود: وإنما لم يقل (ما عبدت) ليوافق (مَا عَبَدتُّمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى . وإيثار ( ما ) فى ( مَآ أَعْبُدُ ) على ( مَن ) لأن المراد هو الوصف . كأنه قيل ( ما أعبد ) من المعبود العظيم الشأن الذى لايقادر قدر عظمته . وقيل: إن ( ما ) مصدرية . أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذى) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) ثانياً تأكيد لمثله المذكور أولا . انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية؛ أن المراد بقوله (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) نفى الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) نفى قبوله لذلك بالكلية، لأن النفى بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلا لذلك. ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعىّ أيضا. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون ( ما ) فى الأوليين موصولة وفيما بعدها مصدرية ، قال: فمفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود . ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف فى العبادة. فلا

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٤و٦٦ ] .

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع، المتعالى عن الظهور فى شخص معين، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخلصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى ( لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ) وقوله تعالى ( وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ) كما أن قوله تعالى « وَلِيَ دِينِ » تقرير لقوله تعالى ( وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ) والمعنى أن دينكم، الذى هو الإشراك ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزه إلى الحصول لى أيضا ، كما تطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدل الإمام الشافعىّ وغيره بهذه الآية الكريمة ( لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ( لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتّى ) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٦٦٦٤ ( طبعة المعارف ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١٠ - سورة النصر

مدنية ، وآيها ثلاث .

وهى آخر سورة نزلت فى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما . وروى البيهقىّ عن ابن عباس ، أن النبىّ ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعيت إلىّ نفسى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ )

[٢] ( وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا )

[٣] ( فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا )

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَٱلْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحادا ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لاريب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يغلبه غالب، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبةُ من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم « إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ » أى إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربى النفوس بالمحن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددهما بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال . وهى فى كل منزلة تتوب عن التى قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة فى ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبىّ ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام فى تفسيره .

## تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : المراد بالفتح هٰهنا فتح مكة قولا واحداً . فإن أحياء العرب كانت تتلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبىّ . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخارىّ فى صحيحه(1) عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممرّ الناس. وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه ( أو أوحى الله بكذا ) فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يُغْرَى فى صدرى . وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبىّ صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبى قومى بإسلامهم . . الحديث .

(1) أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثاني ـ قال الرازيّ : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس فى وقت نزول هذه السورة قولان :

أحدهما ـ أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما ـ أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة،وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره[1]:( إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ) . وقوله : ( إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّـهِ وَٱلْفَتْحُ )يقتضى الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع(إذا جاء) و ( إذا وقع ) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقا له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر فى ( فتح البارى ): ولأبى يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة فى أوسط أيام التشريق ، فى حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت فى حجة الوداع أيام التشريق ، فكيف صدرت بـ ( إذا ) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف مانقله . وعلى تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح . لأن مجىء الناس أفواجا لم يكن كمل ، فبقية الشرط مستقبل .

وقد أورد الطيبيّ السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدهما ـ أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما فى قوله تعالى[2]: ( وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً ..)الآية.

ثانيهما ـ أن كلام الله قديم . وفى كل من الجوابين نظر لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الشهاب: المراد بـ ( الناس) العرب . فـ ( أل )عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [ ٢٨ / القصص / ٨٥ ] . (٢) [ ٦٢ / الجمعة / ١١ ] .

العرفىّ . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا فى حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع ـ روى البخارىّ [١] عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : ( إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً [٢] : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى ( يتأول القرآن ) يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، فى أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيّم فى ( الهدى ) كأنه أخذه من قوله تعالى : ( وَٱسْتَغْفِرْهُ ) لأنه كان يجعل الاستغفار فى خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك [٣] : ( ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ . . . ) الآية .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ ـ حدثنا الحسن بن الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ ـ سورة النصر ، ٢ ـ حدثنا عثمان ابن أبى شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [ ٢ / البقرة / ١٩٩ ] .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١١ - سورة المسد

ويقال سورة أبي لهب ، مكية وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ )

[٢] ( مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ )

[٣] ( سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ )

[٤] ( وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ )

[٥] ( فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ )

« تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » أى خسرت يداه ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من اللزوم فى الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة (وتب) مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسرانه فيما كسبه وعمله بيديه ، حيث لم يفده ولم ينفعه . وما بعده عبارة عن خسرانه فى نفسه وذاته؛ لأن سعى المرء لإصلاح نفسه وعمله . فأخبر بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعنى هلاك عمله وهلاك نفسه . وقال ابن جرير[١] : كان بعض أهل العربية يقول قوله : ( تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ) دعاء عليه من الله . وأما قوله : ( وَتَبَّ ) فإنه خبر . أى عما سيحقق له فى الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضى لتحققه .

وأبولهب أحد عمومة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزّى . وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولدٍ له يقال له لهب . أو لتلهب وجنتيه وإشراقهما . مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن مآله إلى نار ذات لهب . فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبيّ الثانية ) .

قال الرواة : كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ . وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقصا له ولدعوته . ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها . بل أرسل عنه بديلا . فلما بلغه ما جرى لقريش مات غما ـ وقد روى الشيخان [1] عن ابن عباس قال : لما نزلت [2] ( وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ) صعد النبيّ ﷺ على الصفا ونادى : يا بنى فهر ! يابنى عدىّ ! ( لبطون من قريش ) حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا، لينظر ما هو . فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإنى لكم نذير بين يدىْ عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت هذه السورة.

وروى الإمام أحمد [3] عن ربيعة بن عباد الديلىّ قال : رأيت النبىّ ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : يا أيها الناس ! قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا . والناس مجتمعون عليه . ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . وفى رواية له : يتبعه من خلفه يقول : يا بنى فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة . فلاتسمعوا له ولاتتبعوه . « مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ » أى أىّ شىء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه . فكسبه هو عمله الذى يظن أنه منه على شىء . وقيل : ولده . لقرن الأولاد بالأموال فى كثير من الآيات . وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال ، فنفى إغناءها عنه حين حل به التباب .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١١ ـ سورة المسد ، ـ حدثنا يوسف بن موسى ، حديث رقم ٧٣٩ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٥ ( طبعتنا ) .

(٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٢١٤ ] .     (٣) أخرجه بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الرابع .

قال الشهاب : والذى صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : معتب وعتبة وهما أسلما . وعتيبة ( مصغراً ) وهذا هو الذى دعا النبىّ ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، ورد ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . فأكله السبع فى خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان[1] رضى الله عنه :

من يرجعُ العـامَ إلى أهلِهِ  فما أَكِيلُ السَّبْعِ بالراجِعِ

ثم قال . ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبيّ : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراده « سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » أى توقد واشتعال ، وهى نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاحدته « وَٱمْرَأَتُهُو حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ » أى وسيصلاها معه امرأته أيضا : فـ ( امرأته ) مرفوع عطفا على الضمير فى ( سيصلى ) أوعلى الابتداء ، و ( فى جيدها ) الخبر . وقرئ ( حمالة ) بالنصب على الشتم والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلًا أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام وتمشى بالنميمة . كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشريّ : ويقال للمشّاء بالنمائم المفسد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد بينهم ويورث الشر ، قال[2] :

من البيضِ لم تُصْطَدْ على ظهر لَأْمة  ولَمْ تَمْشِ بين الحىّ بالْحطَبِ الرَّطْبِ

يمدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تُصْطَادَ على سوء ولؤم فيها . ومن أن تمشى بالسعاية والنميمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذى هو زيادة الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

(١) لم أعثر عليه فى ديوان حسان ، فى طبعتيه .

(٢) استشهد به فى الكشاف فى تفسير السورة .

واستشهد به فى اللسان بالمجلد الأول بالصفحة رقم ٣٢٢ ( طبعة بيروت ) .

وقال : يعنى بالحطب الرطب ، النميمة .

قال الشهاب : وهى استعارة مشهورة لطيفة ، كاستعارة حطب جهنم للأوزار .

قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها (أروى) بنت حرب بن أمية . وهى أخت أبى سفيان وعمة معاوية . وكانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال الإمام رحمه الله : أى فى عنقها حبل من الليف . أى أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن ، يشدّ به ما حمله إلى عنقه ، حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل من الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تختنق به .

وقال أيضا : قد أنزل الله فى أبى لهب وفى زوجته هذه السورة ، ليكون مثلا يعتبر به من يعادى ما أنزل الله على نبيه ، مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ، واغترارا بما عنده من الأموال ، وبما له من الصولة أو من المنزلة فى قلوب الرجال ، وأنه لا تغنى عنه أمواله ولا أعماله شيئا . وسيصلى ما يصلى . نسأل الله العافية .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١٢ – سورة الإخلاص

مكية ، وآيها أربع . روى البخارىّ[١] عن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ ﷺ بعث رجلاً على سرية . وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ ( قل هو الله أحد ) . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبىّ ﷺ ، فقال : سلوه لأىّ شيء يصنع ذلك . فسألوه . فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبىّ ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبّه .

وروى الإمام أحمد[٢] عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . وأخرجه البخارىّ فى قصةٍ . وروى الإمام أحمد[٣] عن أبىّ ابن كعب أن المشركين قالوا للنبىّ ﷺ : يا محمد ! انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى هذه السورة .

(١) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبىّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٥٩٦ .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء الرابع .

(٣) أخرجه عن أبى سعيد الخدرىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبىّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٠٨١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

[٢] ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

[٣] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

[٤] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

« قُلْ هُوَ » أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره ، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير « ٱللَّهُ أَحَدٌ » أى واحد فى الألوهية والربوبية . قال الزمخشرىّ : ( أَحَدٌ ) بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : ( الأحد ) فى أسمائه تعالى ، الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله ( وحد ) لأنه من الوحدة . وفى ( المصباح ) : يكون ( أحد ) مرادفاً ( لواحد ) فى موضعين سماعاً :

أحدهما ـ وصف اسم البارئ تعالى فيقال هو الواحد وهو الأحد ، لاختصاصه بالأحدية . فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى . فلا يقال ( رجل أحد ) ولا ( درهم أحد ) ونحو ذلك .

والموضع الثانى ـ أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال . فيقال أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفى غير هذين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال ، بأن ( الأحد ) لنفى مايذكر معه ، فلا يستعمل إلا فى الجحد ، لما فيه من العموم ، نحو ما قام أحد . أو مضافاً نحو ( ما قام أحد الثلاثة ) . و ( الواحد ) اسم لمفتتح العدد . ويستعمل فى الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال ( جاءنى واحد من القوم ) . انتهى .

وقال الأزهريّ : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثانى له . ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما ( أحد ) فلا ينعت به غير الله تعالى ، لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونكّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه . فإن الوحدة تكون لكل واحد . تقول (لا أحد فى الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذى كان يزعمه المخاطبون هو التعدد فى ذاته . فأراد نفى ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف مايعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، ومايعتقده القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتى لابن تيمية كلام آخر فى سر إيثاره بالتنكير « ٱللَّـهُ ٱلصَّمَدُ » أى الذى يصمد إليه فى الحوائج ، ويقصد إليه فى الرغائب . إذ ينتهى إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزالىّ فى (المقصد الأسنى ) . وهكذا قال ابن جرير[١] : الصمد عند العرب هو السيد الذى يصمد إليه ، الذى لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر[٢] :

أَلا بَكَّرَ النَّاعى بِخَيْرَىْ بَنى أَسَدْ   بِعَمْرِو بْن مسعودٍ وبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الشهاب : فهو ( فَعَل ) بمعنى مفعول . وصمد بمعنى قصد . فيتعدى بنفسه وباللام وإلى . وقال ابن تيمية رحمه الله : وفى الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما ـ أن الصمد هو الذى لا جوف له .

والثانى ـ أنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٢٥٨ من المجلد الثالث ( طبعة بيروت ) .

ثم توسع رحمه الله فى مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :

وإنما أدخل اللام فى ( الصمد ) ولم يدخلها فى ( أحد ) لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحداً فى الإثبات مفرداً غير مضاف . ولم يوصف به شىء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما يستعمل فى غير الله فى النفى وفى الإضافة وفى العدد المطلق . وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل صمد بل قال ( ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ) فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه . فإنه المستوجب لغايته على الكمال . والمخلوق ، وإن كان صمدا من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه . فإنه يقبل التفرق والتجزئة . وهو أيضاً محتاج إلى غيره . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شىء ولا يصمد هو إلى شىء ، إلا الله . وليس فى المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض . والله سبحانه هو الصمد الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود . وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية . وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى . بيّن أولاً ألوهيته عزوجل المستتبعة لكافة نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة فى الحقيقة وخواصها . ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتى عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فى وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق ، وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح . ثم صرح ببعض مايندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه «لَمْ يَلِدْ» تنصيصاً على إبطال زعم المفترين فى حق الملائكة والمسيح . ولذلك ورد النفى على صيغة الماضى . أى لم يصدر عنه ولد ، لأنه لا يجانسه شىء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . كما نطق به قوله تعالى [١] ( أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ) ولا يفتقر إلى

(١) [٦/ الأنعام/ ١٠١] .

ما يمينه أو يخلفه ، لا ستحالة الحاجة والفناء عليه ، سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية . وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة ، كل أفرادها . سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة . وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى[1] ( وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) وقال تعالى[2] (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى[3] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ) والآيات في هذا كثيرة .

وقوله « وَلَمْ يُولَدْ » نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات . فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله (وَلَمْ يُولَدْ) يصرح ببطلان مازعمه بعض أرباب الأديان من أن ابنا لله يكون إلها ، ويعبد عبادة الإله، ويقصد فيما يقصد فيه الإله . بل لا يستحي الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بأم الإله القادرة ، فإن المولود حادث ولا يكون إلا بتزاوج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزليّ مع أبيه ، مما لا يمكن تعقله . فهو سبحانه منزه عن ذلك « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ » أي ولم يكن أحد يكافئه أي يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفؤ معناه المكافئ والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلا . فقد نفى بهذه السورة

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٠٠ ] . (٢) [٣٧/ الصافات ١٥١، ١٥٢ ] .
(٣) [ ١٦ / النحل / ٥٧ ] .

جميع أنواع الإشراك . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير[1]: الكفؤ والكفىء والكفاء ، فى كلام العرب ، واحد . وهو المثل والشِّبْه .

وقرئ (كُفُوًا) بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهمزها ، وهما قراءتان معروفتان ، ولغتان مشهورتان . و (له) صلة ا (كفوا) قدمت عليه ، مع أن حقها التأخر عنه ، للاهتمام بها ، لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل .

## ( فوائد من هذه السورة )

الأولى ـ قال الشهاب : فإن قلت المأمور بـ(قل) من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالمقول وحده ، فلم كانت (قُلْ) من المتلوّ فيه وفى نظائره فى القراءة ؟ قلت : المأمور به سواء كان معينا أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول . فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على مرّ الدهور .

الثانية ـ قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى (ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم ، كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما . قالوا : هو صمد ، والصمد الذى لا جوف له . وهذا إنما يكون فى الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما فى الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة . ولهذا قيل فى تفسيره إنه الذى لا يخرج منه شىء ولا يدخل فيه شىء ولا يأكل ولا يشرب . ونفى هذا لا يعقل إلا عما هو جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع . ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل فى الجسم المجتمع . وأما النفاة فقالوا : الصمد الذى لا يجوز عليه التفرق والانقسام . وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والانقسام . وقالوا أيضا : الأحد الذى لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً

(١) انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد . والصمد الغنيّ عما سواه ، فالمركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازيّ : قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية فى أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحدا ينافى كونه جسما . فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة . وتعالى الله عن ذلك . فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه . وذلك لأن الجسم الذى يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير . وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجبا لذاته ، ممتنع التغير فى وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول: الصحيح فى تأويل الصمد ما ذكرناه أولا . وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب فى معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثانى ولا لوازمه .

الثالثة ـ قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات . فى شيء من صفات الكمال الثابتة له . وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله . وهذه السورة دلت على النوعين . فقوله (أحد) من قوله( وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ) ينفى المماثلة والمشاركة. وقوله ( صمد ) يتضمن جميع صفات الكمال . فالنقائص جنسها منفيّ عن الله تعالى . وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها. بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك. فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعانى ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلا عن أن يماثله فيه . بل ما خلقه الله فى الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه فى الدنيا وإن اتفقا فى الاسم ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد فى مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمى الله نفسه عليما حليما رؤوفاً رحيما سميعاً بصيراً عزيزاً ملكا جباراً متكبراً ، وسمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء . مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله فى شيء من الأشياء .

الرابعة ـ قدمنا ما ورد فى الحديث من أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .

وقد ذكروا فى ذلك وجوهاً ـ منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام . ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصافات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقال الغزالىّ فى ( جواهر القرآن ) : مهمات القرآن هى معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هى المهمة . والباقى توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهى معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك فى الجنس والنوع . وهو المراد بنفى الأصل والفرع والكفؤ .

قال : والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذى لا يقصد فى الوجود للحوائج سواه . نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم . فلذلك تعدل ثلث القرآن أى ثلث الأصول من القرآن كما قال ( الحج عرفة ) أى هو الأصل والباقى تبع .

وقال ابن القيّم فى ( زاد المعاد ) : كان النبىّ ﷺ يقرأ فى سنة الفجر والوتر بسورتى الإخلاص والكافرون . وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد . فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشركة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه . ونفى الولد والوالد الذى هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته . ونفىُ الكفؤ المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والتنظير : فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفى كل نقص عنه ، ونفى إثبات شبيه أو مثل له فى كماله ونفى مطلق الشريك عنه . وهذه الأصول هى مجامع التوحيد العلمىّ الاعتقادىّ الذى يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك . ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن . فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء . والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهى ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه ـ فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه

وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن. وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العلمى. كما خلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العملى الإرادى القصدى . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازله، كانت سورة ( قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ) تعدل ثلث القرآن، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر. و(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) تعدل ربع القرآن ، وفى الترمذى[1] : من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يرفعه : ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) تعدل نصف القرآن و ( قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ) تعدل ثلث القرآن و (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) تعدل ربع القرآن . رواه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملى الإرادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لما لها فيه من نيل الأغراض. وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمى وإزالته . لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ماهو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه . فجاء من التأكيد والتكرار فى سورة ( قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ) المتضمنة لإزالة الشرك العملى مالم يجئ مثله فى سورة ( قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ) .

ولما كان القرآن شطرين: شطراً فى الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها . وشطراً فى الآخرة ومايقع فيها . وكانت سورة ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر فيها إلا الآخرة ، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن . فأحْرِ بهذا الحديث أن يكون صحيحاً. والله أعلم .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى إذا زلزلت .

الخامسة ـ قال ابن تيمية : سورة (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر فى أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة . ولا منافاة . فإن الله أنزلها بمكة أولًا . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى. وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك . فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقًّا . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب . وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم فى مقدمة هذا التفسير ، ومواضع أخر منه ، تحقيق البحث فى معنى سبب النزول ، بما يدفع المنافاة فى أمثال هذا . فراجعه . ولهذه السورة الشريفة تفاسير على حدة . من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما فى تفسيرها ، والثانى فى سر كونها تعدل ثلث القرآن . فاحتفظ بهما . والله الهادى .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١٣ — سُورَة الفَلَق

مكية ، وآيها خمس : روى الإمام مسلم[١] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : ألم تر آياتٍ أُنزلت هذه الليلة ، لم ير مثلهن قط : قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس. وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود والترمذىّ والنسائىّ عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ صلى بهما فى سفر .

(١) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٦٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبىّ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ)

[٢] (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)

[٣] (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

[٤] (وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ)

[٥] (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ » أى ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فَعَل بمعنى المفعول . كقَصَص بمعنى مقصوص . قال ابن تيمية : كل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بانَ لك أن أكثره عن انفلاق . كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح . فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله . وأما من قال إنه واد فى جهنم أو شجرة فى جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته . لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقلٍ عن النبىّ ﷺ ، ولا فى تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كل ما انفلق أو رب النور الذى يظهره على العباد بالنهار . فإن فى تخصيصه هذا بالذكر ، ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى .

وقوله تعالى « مِن شَرِّ مَا خَلَقَ » أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم ، كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار . وقوله سبحانه «وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ» قال أبو السعود :

تخصيص لبعض الشرور بالذكر، مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه، لكثرة وقوعه . ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة ، وأدعى إلى الإعاذة .

وقال الإمام ابن تيمية : وإذا قيل الفلق يعم ويخص ، فبعمومه استعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهاريّ استعيذ من شر غاسق إذا وقب. فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله[1] ( أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ) وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة . قالوا : ومعنى ( وَقَبَ ) دخل فى كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل لليل غاسق، لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذىّ[2] والنسائىّ عن عائشة أن النبىّ ﷺ نظر إلى القمر فقال : ياعائشة ! تعوّذى بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب. وروى من حديث أبى هريرة مرفوعاً : الغاسق النجم . وقال ابن زيد : هو الثريا . وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولًا آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه. قال ابن قتيبة: ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسودّ . ومعنى وقب دخل فى الكسوف . وهذا ضعيف . فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لايقول إلا الحق . وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى[3] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ) فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل . فأمرُه بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته . والدليلُ مستلزم للمدلول. فإذا كان شر القمر موجوداً، فشر الليل موجود. وللقمر من التأثير ما ليس لغيره. فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى. ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى[4] (هو

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٧٨ ].

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١٣و١١٤ سورة المعوّذتين .

(٣) [ ١٧ / الإسراء / ١٢ ] . (٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٤ ـ حدثنا قتيبة ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

مسجدى ) هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء[١] ( هؤلاء أهل بيتى ) مع أن القرآن يتناول نساءه . فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف . فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن ، مالاتنتشر بالنهار . ويجرى فيه من أنواع الشر مالا يجرى بالنهارمن أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك . فالشر دائما مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم. لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار . ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته . وأبو معشر البلخىّ له ( مصحف القمر) يذكر فيهمن الكفريات والسحريات ماينـاسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

ثم خص تعالى مخلوقاتأخر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررهاوعسر الاحتياطمنها. فلا بد من الفزع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه « وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ » قال ابن جرير[٢]: أى ومن شر السواحر اللاتى ينفثن فى عقد الخيط حين يرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل . فعن مجاهد : الرق فى عقد الخيط . وعن طاووس : ما من شىء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين . ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشرىّ : النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ويرقين . والنفث النفخ مع ريق . ولاتأثير لذلك ، اللهم إلاإذا كان ثمّ إطعام شىء ضار أوسقيه أوإشمامه ، أومباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله عزّ وجلّ قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبؤون به .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٦٠ ـ باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه .

أحدها ـ أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، ومن إثمهن فى ذلك .

والثانى ـ أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن .

الثالث ـ أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . انتهى .

وفى الآية تأويل آخر . وهو اختيار أبى مسلم رحمه الله . قال : النفاثات النساء . والعقد عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال . والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حبله سهلًا . فمعنى الآية : إن النساء لأجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة . فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن . كقوله[1]: ( إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ) فكذلك عظم الله كيدهن فقال[2]( إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ) .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل فى ( التأويلات ) عن أبى بكر الأصم أنه قال : إن حديث سحره صلوات الله عليه ، المروىّ هنا ، متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة أنه مسحور . وهو مخالف لنص القرآن حيث أكذبهم الله فيه . ونقل الرازىّ عن القاضى أنه قال : هذه الرواية باطلة . وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول[3] ( وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ) . وقال[4] ( وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ) ولأن تجويزه يفضى إلى القدح فى النبوّة . ولأنه ، لو صح ذلك ، لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل . ولكان الكفار يعيرونه بأنه مسحور . فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك الدعوة ، ولحصل فيه ، عليه السلام ، ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى .

(١) [ ٦٤ / التغابن / ١٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٨ ] .
(٣) [ ٥ / المائدة / ٦٧ ] . (٤) [ ٢٠ / طه / ٦٩ ] .

ولا غرابة فى أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان مخرّجا فى الصحاح . وذلك لأنه ليس كل مخرّج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى. كما يعرفه الراسخون. على أن المناقشة فى خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

قال الإمام الغزالىّ فى (المستصفى) : مامن أحد من الصحابة إلا وقد ردّ خبر الواحد. كردّ علىّ رضى الله عنه خبر أبى سنان الأشجعىّ فى قصة ( بروع بنت واشق ) وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردّ عائشة خبر ابن عمر فى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه . وظهر من عمر نهيه لأبى موسى وأبى هريرة عن الحديث عن الرسول ﷺ . وأمثال ذلك مما ذكر. أوردَ ذلك الغزالىّ فى مباحث (خبر الآحاد فى شبه المخالفين فيه) . وذكر رحمه الله فى (مباحث الإجماع ) إجماع الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية فى (المسوّدة) : الصواب أن من رد الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا. فإن هذا لا يكفر ولا يفسق. وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وقال العلامة الفنارى فى (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد . والمسألة معروفة فى الأصول . وإنما توسعتُ فى نقولها لأنى رأيت من متعصبة أهل الرأى مَن أكبر رد خبرٍ رواه مثل البخارىّ، وضلل منكره. فعلمت أن هذا من الجهل بفن الأصول، لا بل بأصول مذهبه. كما رأيت عن الفنارى . ثم قلت : العهد بأهل الرأى أن لا يقيموا للبخارىّ وزناً . وقد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ. فمتى صادقوه حتى يضللوا مَنْ ردّ خبراً فيه؟؟ وقد برهن على مدعاه ، وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث فى هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً. وقد أوسع المقال فيه شراح (الصحيح) وابن قتيبة فى شرح (تأويل مختلف الحديث) والرازىّ . والحق لا يخفى على طالبه، والله أعلم.

«وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» قال الزمخشرىّ : أى إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على من حسده . بل هو الضارّ لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١١٤ – سُورَة النَّاس

مكية ، وهى ست آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ )

[٢] ( مَلِكِ النَّاسِ )

[٣] ( إِلَٰهِ النَّاسِ )

[٤] ( مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ )

[٥] ( الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ )

[٦] ( مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ )

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » أى ألجأ إليه وأستعين به ، و ( رب الناس ) الذى يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره . وهو رب العالمين كلهم والخالق للجميع « مَلِكِ النَّاسِ » أى الذى ينفذ فيهم أمره وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره « إِلَٰهِ النَّاسِ » أى معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذى هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها « مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أى الشيطان ذى الوسوسة . وقد زعم الزمخشريّ ومن تبعه ؛ أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير ( ذى ) . وحقق غير واحد أنه صفة كالثرثار ، وأن فِعلالا ( مصدر فعلل ) بالكسر والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام فى ذلك الإمام ابن القيّم فى ( بدائع الفوائد ) « الْخَنَّاسِ » أى الذى عادته أن يخنس ـ أى يتأخر ـ إذا ذكر الإنسان ربه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة . وكلما تنبه العبد فذكر الله ، خنس « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » أى بالإلقاء الخفيّ فى النفس . إما بصوت خفيّ لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و ( الوسوسة ) من جنس ( الوشوشة ) بالشين المعجمة . يقال ( فلان يوسوس فلانا ) و ( قد وشوشه ) إذا حدثه سرًّا فى أذنه . وكذلك الوسوسة. ومنه وسوسة الحلىّ . لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام: إنما جعل الوسوسة فى الصدور، على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيرا ما يقال ( إن الشك يحوك فى صدره ) وما الشك إلا فى نفسه وعقله. وأفاعيل العقل فى المخ ، وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

وقوله تعالى « مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ » بيان للذى يوسوس ، على أنه ضربان : ضرب من الجِنّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم . وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان ، كما قال تعالى[1] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا). وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن . قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال[2] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ) فالشر من الجهتين جميعا. والإنس لهم شياطين كالجن شياطين.

وقال أيضا : الذى يوسوس فى صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس . فليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يُشاهَد .

## لطائف :

الأولى ـ قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم المستعيذون . فيستعيذون

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١٢ ] . (٢) [ ٥٠ / ق / ١٦ ] .

بربهم الذى يصونهم ، وبملكهم الذى أمرهم ونهاهم وبإلههم الذى يعبدونه من شر الذى يحول بينهم وبين عبادته . ويستعيذون أيضا من شر الوسواس الذى يحصل فى نفوس منهم ومن الجنّة . فإنه أصل الشر الذى يصدر منهم والذى يرد عليهم .

وقال الناصر : فى التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فإنه معه أتمّ .

الثانية ـ تكرير المضاف إليه وهو ( الناس ) باللفظ الظاهر ، لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة . فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق له عطف البيان . وأدل على شرف الإنسان . وقيل : لا تكرار . لجواز أن يراد بالعام بعض أفراده . فـ ( الناس ) الأُوَل بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية . والثانى الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم . والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمّل .

الثالثة ـ فى تعداد الصفات العليا هنا ، إشارة إلى عظم المستعاذ منه . وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به فى السورة قبل ، وكرره هنا إظهاراً للاهتمام فى هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة ـ قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام . ولهذا قال المفسرون فى قوله ( مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ) قالوا : ماتحدِّث به نفسه . وقد قال ﷺ[1]: إن الله تجاوز لأمتى ما تحدِّث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به . وهو نوعان : خبر وإنشاء . فالخبر إما عن ماض وإما عن مستقبل . فالماضى يذكره والمستقبل يحدثه ، بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره . فهذه الأمانىّ والمواعيد الكاذبة . والإنشاء أمر ونهى وإباحة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٦ ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

الخامسة ـ قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الـكتاب والسنة . فإن كان مما ألقى فى النفس مما دل الـكتاب والسنة على أنه تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود . وإن كان مما دلّ على أنه فجور ، فهو من الوسواس المذموم . وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم فى الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه . وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه .

السادسة ـ قال الإمام الغزالىّ فى (الإحياء) فى بيان تفصيل ماينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ، مامثاله : وإذا قلت (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ، حسداً لك على مناجاتك مع الله عزوجل ، وسجودك له. مع أنه لعن بسبب سجدةواحدة تركها ولم يوفق لها . وإن استعاذتك بالله سبحانه منه ، بترك ما يحبه ، وتبديله بما يحب الله عز وجل ، لا بمجرد قولك . فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقتله فقال ( أعوذ منك بهذا الحصن الحصين ) وهو ثابت على مكانه ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيده إلا بتبديل المكان . فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان . وحصنُه ( لا إله إلا الله ) إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ ـ لا إله إلا الله حصنى . فمن دخل حصنى أمِنَ من عذابى . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه . فأما من اتخذ إلـهه هواه ، فهو فى ميدان الشيطان لا فى حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعوّذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لى من قبل أن أراه فى كلام حجة الإسلام ، حتى رأيته ، فحمدت الله على الموافقة .

السابعة ـ قال الإمام الغزالىّ فى ( الإحياء ) أيضا ، فى بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ، ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب فى مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصبّ إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضا مثال هدف تنصبّ إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة ، فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تنصبّ فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس . وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان . فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر فى القلب . وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وسبب قوة من المزاج ، حصل منها فى القلب أثر . وإن كف عن الإحساس ، فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شىء إلى شىء . وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة فى هذه الخواطر ـ وأعنى بالخواطر مايحصل فيه من الأفكار والأذكار ـ وأعنى به إدراكاته علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر . فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها .

والخواطر هى المحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوىّ بالبال لامحالة . فمبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى مايدعو للشر ، أعنى إلى مايضر فى العاقبة . وإلى مايدعو إلى الخير ، أعنى إلى ماينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعنى الداعى إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة . ثم إن كل حادث فلا بدله من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب . هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم

سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان. فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملَكاً . وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً . والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف . وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك . وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف ، عند الهم بالخير ، بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في القابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزاليّ: ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به. لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى، وسوى مايتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالًا للشيطان. وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك ( أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ) وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى . وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ).

ثم قال: فالوسوسة هي هذه الخواطر. والخواطر معلومة. فإذن، الوسواس معلوم بالمشاهدة. وكل خاطر فله سبب . ويفتقر إلى اسم يعرّفه. فاسم سببه الشيطان. ولا يتصور أن ينفك عنه آدميّ . وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته. فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

---

وإلى هنا وقف القلم بالمؤلف رضي الله تعالى عنه . وبه تم كتاب (محاسن التأويل) والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

(١) [ ٧ / الأعراف / ٢٠١ ] .

# فهارس التفسير

١ — فهرس محتويات أجزاء التفسير

٢ — فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة

٣ — فهرس موضوعات القرآن ، حسب صحيح البخارىّ

٤ — فهرس أسماء المؤلفين

٥ — فهرس أسماء الكتب التى تناولها التفسير

# ١ — فهرس محتويات أجزاء التفسير


| الجزء | من صفحة | إلى صفحة | |
|---|---|---|---|
| ١ | ١ | ٣٤٩ | ويحتوى على المقدمة المشتملة على قواعد التفسير |
| ٢ | ٣ | ٣٤٠ | ويحتوى على تفسير ١ ـ سورة فاتحة الكتاب ، ثم تفسير ٢ ـ سورة البقرة، من أولها إلى الآية رقم ١٥٧ |
| ٣ | ٣٤٣ | ٧٤٢ | ويبتدئ بتفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة، وينتهي بتفسير آخر آياتها |
| ٤ | ٧٤٩ | ١٠٨٥ | وفيه تفسير ٣ ـ سورة آل عمران بتمامها |
| ٥ | ١٠٩٢ | ١٧٨٠ | « « ٤ ـ سورة النساء بتمامها |
| ٦ | ١٧٨٨ | ٢٥٩٨ | « « ٥ ـ سورة المائدة و ٦ ـ سورة الأنعام |
| ٧ | ٢٦٠٩ | ٢٩٤٠ | « « ٧ ـ سورة الأعراف |
| ٨ | ٢٩٤٤ | ٣٣٠٦ | « « ٨ ـ سورة الأنفال و ٩ ـ سورة التوبة |
| ٩ | ٣٣٢١ | ٣٦٩٤ | « « ١٠ ـ سورة يونس و ١١ ـ سورة هود و ١٢ ـ سورة يوسف و ١٣ ـ سورة الرعد |
| ١٠ | ٣٧٠٤ | ٤٠١٢ | « « ١٤ ـ سورة إبراهيم و ١٥ ـ سورة الحجر و ١٦ ـ سورة النحل و ١٧ ـ سورة الإسراء |
| ١١ | ٤٠٢٠ | ٤٣١٦ | « « ١٨ ـ سورة الكهف و ١٩ ـ سورة مريم و ٢٠ ـ سورة طه و ٢١ ـ سورة الأنبياء |
| ١٢ | ٤٣٢٠ | ٤٦٠٠ | « « ٢٢ ـ سورة الحج و ٢٣ ـ سورة المؤمنون و ٢٤ ـ سورة النور و ٢٥ ـ سورة الفرقان |
| ١٣ | ٤٦٠٤ | ٤٩٣٠ | ويبتدئ بتفسير ٢٦ ـ الشعراء، وينتهي بتفسير ٣٣ ـ الأحزاب |
| ١٤ | ٤٩٣٦ | ٥٣٣٠ | « « ٣٤ ـ سبأ ، وينتهي بتفسير ٤٥ ـ الجاثية |
| ١٥ | ٥٢٣٦ | ٥٦٣٨ | « « ٤٦ ـ الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ ـ الرحمن |
| ١٦ | ٥٦٤٤ | ٦٠٠١ | « « ٥٦ ـ الواقعة ، وينتهي بتفسير ٧٥ ـ القيامة |
| ١٧ | ٦٠٠٨ | ٦٣١٦ | « « ٧٦ ـ الإنسان ، وينتهي بتفسير ١١٤ ـ الناس |

# ٢ — فهرس سور القرآن الكريم

## وموضع تفسير كل سورة


| رقم مسلسل | اسم السورة | رقم الصفحة | رقم الجزء |
|---|---|---|---|
| ١ | الفاتحة | ٣ | ٢ |
| ٢ | البقرة | ٣١ | ٢ |
| ٣ | آل عمران | ٧٤٨ | ٤ |
| ٤ | النساء | ١٠٩٢ | ٥ |
| ٥ | المائدة | ١٧٨٨ | ٦ |
| ٦ | الأنعام | ٢٢٣٠ | ٦ |
| ٧ | الأعراف | ٢٦٠٨ | ٧ |
| ٨ | الأنفال | ٢٩٤٤ | ٨ |
| ٩ | التوبة | ٣٠٦٠ | ٨ |
| ١٠ | يونس | ٣٣٢٠ | ٩ |
| ١١ | هود | ٣٤٠٧ | ٩ |
| ١٢ | يوسف | ٣٥٠١ | ٩ |
| ١٣ | الرعد | ٣٦٣٧ | ٩ |
| ١٤ | إبراهيم | ٣٧٠٤ | ١٠ |
| ١٥ | الحجر | ٣٧٤٥ | ١٠ |
| ١٦ | النحل | ٣٧٧٦ | ١٠ |
| ١٧ | الإسراء | ٣٨٨٢ | ١٠ |
| ١٨ | الكهف | ٤٠٢٠ | ١١ |
| ١٩ | مريم | ٤١٢٤ | ١١ |
| ٢٠ | طه | ٤١٦٨ | ١١ |
| ٢١ | الأنبياء | ٤٢٤٣ | ١١ |
| ٢٢ | الحج | ٤٣٢٠ | ١٢ |
| ٢٣ | المؤمنون | ٤٣٨٦ | ١٢ |
| ٢٤ | النور | ٤٤٢٣ | ١٢ |
| ٢٥ | الفرقان | ٤٥٦١ | ١٢ |
| ٢٦ | الشعراء | ٤٦٠٣ | ١٣ |
| ٢٧ | النمل | ٤٦٥٥ | ١٣ |
| ٢٨ | القصص | ٤٦٩٤ | ١٣ |
| ٢٩ | العنكبوت | ٤٧٣٥ | ١٣ |
| ٣٠ | الروم | ٥٧٦٤ | ١٣ |
| ٣١ | لقمان | ٤٧٩٢ | ١٣ |
| ٣٢ | السجدة | ٤٨٠٩ | ١٣ |
| ٣٣ | الأحزاب | ٤٨٢١ | ١٣ |
| ٣٤ | سبأ | ٤٩٣٦ | ١٤ |
| ٣٥ | فاطر | ٤٩٧١ | ١٤ |
| ٣٦ | يس | ٤٩٩٠ | ١٤ |
| ٣٧ | الصافات | ٥٠٢٤ | ١٤ |
| ٣٨ | ص | ٥٠٧٥ | ١٤ |
| ٣٩ | الزمر | ٥١٢٦ | ١٤ |
| ٤٠ | غافر | ٥١٥٤ | ١٤ |

| رقم مسلسل | اسم السورة | رقم الصفحة | رقم الجزء |
|---|---|---|---|
| ٤١ | فصلت | ٥١٨٥ | ١٤ |
| ٤٢ | الشورى | ٥٢١٩ | ١٤ |
| ٤٣ | الزخرف | ٥٢٥٧ | ١٤ |
| ٤٤ | الدخان | ٥٢٩٢ | ١٤ |
| ٤٥ | الجاثية | ٥٣١٧ | ١٤ |
| ٤٦ | الأحقاف | ٥٣٣٦ | ١٥ |
| ٤٧ | محمد ﷺ | ٥٣٧١ | ١٥ |
| ٤٨ | الفتح | ٥٣٩٤ | ١٥ |
| ٤٩ | الأحقاف | ٥٤٣٧ | ١٥ |
| ٥٠ | قٓ | ٥٤٨٠ | ١٥ |
| ٥١ | الذاريات | ٥٥١٩ | ١٥ |
| ٥٢ | الطور | ٥٥٤٠ | ١٥ |
| ٥٣ | النجم | ٥٥٥٣ | ١٥ |
| ٥٤ | القمر | ٥٥٩١ | ١٥ |
| ٥٥ | الرحمن | ٥٦١٠ | ١٥ |
| ٥٦ | الواقعة | ٥٦٤٤ | ١٦ |
| ٥٧ | الحديد | ٥٦٧٠ | ١٦ |
| ٥٨ | المجادلة | ٥٧٠٤ | ١٦ |
| ٥٩ | الحشر | ٥٧٣٣ | ١٦ |
| ٦٠ | الممتحنة | ٥٧٥٧ | ١٦ |
| ٦١ | الصف | ٥٧٨٠ | ١٦ |
| ٦٢ | الجمعة | ٥٧٩٦ | ١٦ |
| ٦٣ | المنافقون | ٥٨٠٦ | ١٦ |
| ٦٤ | التغابن | ٥٨١٧ | ١٦ |
| ٦٥ | الطلاق | ٥٨٢٨ | ١٦ |
| ٦٦ | التحريم | ٥٨٥١ | ١٦ |
| ٦٧ | الملك | ٥٨٧٤ | ١٦ |
| ٦٨ | نٓ | ٥٨٩١ | ١٦ |
| ٦٩ | الحاقة | ٥٩١٠ | ١٦ |
| ٧٠ | المعارج | ٥٩٢٣ | ١٦ |
| ٧١ | نوح | ٥٩٣٢ | ١٦ |
| ٧٢ | الجن | ٥٩٤٢ | ١٦ |
| ٧٣ | المزمل | ٥٩٥٧ | ١٦ |
| ٧٤ | المدثر | ٥٩٦٨ | ١٦ |
| ٧٥ | القيامة | ٥٩٨٧ | ١٦ |
| ٧٦ | الإنسان | ٦٠٠٨ | ١٧ |
| ٧٧ | المرسلات | ٦٠١٩ | ١٧ |
| ٧٨ | النبأ | ٦٠٣٠ | ١٧ |
| ٧٩ | النازعات | ٦٠٤٢ | ١٧ |
| ٨٠ | عبس | ٦٠٥٥ | ١٧ |
| ٨١ | التكوير | ٦٠٦٧ | ١٧ |
| ٨٢ | الانفطار | ٦٠٨٣ | ١٧ |
| ٨٣ | المطففين | ٦٠٩١ | ١٧ |
| ٨٤ | الانشقاق | ٦١٠٥ | ١٧ |
| ٨٥ | البروج | ٦١١٢ | ١٧ |
| ٨٦ | الطارق | ٦١٢١ | ١٧ |

## ٢ ـ فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة ( تابع )


| رقم مسلسل | اسم السورة | رقم الصفحة | رقم الجزء |
|---|---|---|---|
| ٨٧ | الأعلى | ٦١٢٨ | ١٧ |
| ٨٨ | الغاشية | ٦١٣٧ | ١٧ |
| ٨٩ | الفجر | ٦١٤٤ | ١٧ |
| ٩٠ | البلد | ٦١٥٩ | ١٧ |
| ٩١ | الشمس | ٦١٦٧ | ١٧ |
| ٩٢ | الليل | ٦١٧٤ | ١٧ |
| ٩٣ | الضحى | ٦١٨١ | ١٧ |
| ٩٤ | الشرح | ٦١٨٩ | ١٧ |
| ٩٥ | التين | ٦١٩٥ | ١٧ |
| ٩٦ | العلق | ٦٢٠٦ | ١٧ |
| ٩٧ | القدر | ٦٢١٩ | ١٧ |
| ٩٨ | البينة | ٦٢٢٥ | ١٧ |
| ٩٩ | الزلزلة | ٦٢٣٢ | ١٧ |
| ١٠٠ | العاديات | ٦٢٣٧ | ١٧ |
| ١٠١ | القارعة | ٦٢٤٢ | ١٧ |
| ١٠٢ | التكاثر | ٦٢٤٦ | ١٧ |
| ١٠٣ | العصر | ٦٢٤٩ | ١٧ |
| ١٠٤ | الهمزة | ٦٢٥٤ | ١٧ |
| ١٠٥ | الفيل | ٦٢٥٩ | ١٧ |
| ١٠٦ | قريش | ٦٢٦٩ | ١٧ |
| ١٠٧ | الماعون | ٦٢٧٣ | ١٧ |
| ١٠٨ | الكوثر | ٦٢٧٧ | ١٧ |
| ١٠٩ | الكافرون | ٦٢٨١ | ١٧ |
| ١١٠ | النصر | ٦٢٨٥ | ١٧ |
| ١١١ | المسد | ٦٢٩٠ | ١٧ |
| ١١٢ | الإخلاص | ٦٢٩٤ | ١٧ |
| ١١٣ | الفلق | ٦٣٠٤ | ١٧ |
| ١١٤ | الناس | ٦٣١٠ | ١٧ |

# ٣ ــ فهرس موضوعات القرآن ، حسب صحيح البخارى

بسم الله الرحمن الرحيم

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **١ ــ كتاب الوحى** | |
| | ١ ـ باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ | |
| ٥/١٧٢٢ | إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده | ٤/١٦٣ |
| | ٣ ـ حدثنا يحي بن بكير | |
| ١٧/٦٢٠٦ | اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم | ٩٦/١ـ٣ |
| ١٦/٥٩٦٠ | يا أيها المدثر * قم فأنذر | ٧٤/١ |
| | ٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل | |
| ١٦/٥٩٩١ | لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه | ٧٥/١٦ |
| | ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع | |
| ٤/٨٦١ | قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . | ٣/٦٤ |
| | **٢ ــ كتاب الإيمان** | |
| | ١ ـ باب الإيمان | |
| ١٥/٥٣٩٩ | ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم | ٤٨/٤ |
| ١١/٤٠٢٧ | وزدناهم هدى | ١٨/١٣ |
| ١١/٤١٦٠ | ويزيد الله الذين اهتدوا هدى | ١٩/٧٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٥٣٨١/١٥ | والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم | ١٧/٤٧ |
| ٥٩٧٩/١٦ | ويزداد الذين آمنوا إيمانا | ٣١/٧٤ |
| ٣٣٠٢/ ٨ | أيكم زادته هذه إيمانا | ١٢٤/ ٩ |
| ٣٣٠٢/ ٨ | فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا | ١٢٤/ ٩ |
| ١٠٣٩/ ٤ | فاخشوهم فزادهم إيمانا | ١٧٣/ ٣ |
| ٤٨٣٧/١٣ | وما زادهم إلا إيمانا وتسليما | ٢٢/٣٣ |
| ٦٧١/ ٣ | ولكن ليطمئن قلبي | ٢٦٠/ ٢ |
| ٥٢٣١/١٤ | شرع لكم من الدين | ١٣/٤٢ |
| ٢٠١٥/ ٦ | شرعة ومنهاجا | ٤٨/ ٥ |

٣ ـ باب أمور الإيمان

| | | |
|---|---|---|
| ٣٨٧/ ٣ | ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر | ١٧٧/ ٢ |
| ٤٣٨٧/١٢ | قد أفلح المؤمنون | ١/٢٣ |

١٣ ـ باب قول النبي ﷺ أنا أعلمكم بالله

| | | |
|---|---|---|
| ٥٧٧/ ٣ | ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم | ٢٢٥/ ٢ |

١٧ ـ باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم

| | | |
|---|---|---|
| ٣٠٧٢/ ٨ | فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم | ٥/ ٩ |

١٨ ـ باب من قال إن الإيمان هو العمل

| | | |
|---|---|---|
| ٢٦٨٩/ ٧ | وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون | ٤٣/ ٧ |
| ٣٧٧٠/١٠ | فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون | ٩٢/١٥ |
| ٥٠٣٩/١٤ | لمثل هذا فليعمل العاملون | ٦١/٣٧ |

١٩ ـ باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل

| | | |
|---|---|---|
| ٥٤٧١/١٥ | قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا | ١٤/٤٩ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٤ /٨١١ | إن الدين عند الله الإسلام | ٣ /١٩ |
| | ٢٢ ـ باب المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها ، إلا بالشرك | |
| ٥ /١٥٦٣ | إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء | ٤ /١١٦ |
| | ٢٣ ـ باب ظلم دون ظلم | |
| ٦ /٢٣٨٧ | الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم | ٦ /٨٢ |
| ١٣/٤٧٩٧ | إن الشرك لظلم عظيم | ٣١/١٣ |
| | ٣٠ ـ باب الصلاة من الإيمان | |
| ٢ /٢٨١ | وما كان الله ليضيع إيمانكم | ٢ /١٤٣ |
| | ٣٣ ـ باب زيادة الإيمان ونقصانه | |
| ١١/٤٠٢٧ | وزدناهم هدى | ١٨/١٣ |
| ١٦/٥٩٧٩ | ويزداد الذين آمنوا إيمانا | ٧٤/٣١ |
| ٦ /١٨١١ | اليوم أكملت لكم دينكم | ٥ /٣ |
| | ٣٤ ـ باب الزكاة من الإسلام | |
| ١٧/٦٢٢٦ | وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة | ٩٨/٥ |
| | ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان | |
| ٤ /٨٨٠ | ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه | ٣ /٨٥ |
| ١٣/٤٨٠٨ | إن الله عنده علم الساعة | ٣١/٣٤ |
| | ٤١ ـ ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة | |
| ١٠/٣٩٨١ | قل كل يعمل على شاكلته | ١٧/٨٤ |
| | ٤٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ الدين النصيحة | |
| ٨ /٣٢٣١ | إذا نصحوا لله ورسوله | ٩ /٩١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **٣ ـ كتاب العلم** | |
| | ١ ـ باب فضل العلم | |
| ١٦ / ٥٧١٨ | يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات | ٥٨ / ١١ |
| ١١ / ٤٢١٢ | رب زدنى علما | ٢٠ / ١١٤ |
| | ١٠ ـ باب العلم قبل القول والعمل | |
| ١٥ / ٥٣٨٣ | فاعلم أنه لا إله إلا الله | ٤٧ / ١٩ |
| ١٤ / ٤٩٨٣ | إنما يخشى الله من عباده العلماء | ٣٥ / ٢٨ |
| ١٣ / ٤٧٥٠ | وما يعقلها إلا العالمون | ٢٩ / ٤٣ |
| ١٦ / ٥٨٨١ | لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير | ٦٧ / ١٠ |
| ١٤ / ٥١٣٠ | هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون | ٣٩ / ٩ |
| | ١٦ ـ باب ما ذكر فى ذهاب موسى ﷺ فى البحر إلى الخضر | |
| ١١ / ٤٠٧٨ | هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا | ١٨ / ٦٦ |
| ١١ / ٤٠٧٧ | أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت | ١٨ / ٦٣ |
| ١١ / ٤٠٧٨ | ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا | ١٨ / ٦٤ |
| | ٣٥ ـ باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه | |
| ١٧ / ٦١٠٧ | فسوف يحاسب حساباً يسيراً | ٨٤ / ٨ |
| | ٤٢ ـ باب حفظ العلم | |
| ٣ / ٣٥١ | إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات | ٢ / ١٥٩ |
| | ٤٤ ـ باب ما يستحب للعالم إذا سئل أىّ الناس أعلم فيكل العلم إلى الله | |
| ١١ / ٤٠٧٧ | آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا | ١٨ / ٦٢ |
| ١١ / ٤٠٧٨ | ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا | ١٨ / ٦٤ |
| ١١ / ٤٠٧٨ | هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا | ١٨ / ٦٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١١/٤٠٧٩ | ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا | ١٨/٦٩ |
| ١١/٤٠٨٠ | قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت | ١٨/٧٢ |
| ١١/٤٠٨١ | أقتلت نفسا زكية بغير نفس | ١٨/٧٤ |
| ١١/٤٠٨٢ | فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها | ١٨/٧٧ |
| ١١/٤٠٨٢ | لو شئت لاتخذت عليه أجرا | ١٨/٧٧ |
| | ٤٧ ـ باب قول الله تعالى : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا | |
| ١٠/٣٩٨١ | ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى | ١٧/٨٥ |

## ٤ — كتاب الوضوء

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب ما جاء فى الوضوء وقول الله تعالى : إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم .. | |
| ٦ /١٨٧٦ | إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق | ٥ /٦ |
| | ٥ ـ باب التخفيف فى الوضوء | |
| ١٤/٥٠٤٩ | إنى أرى فى المنام أنى أذبحك | ٣٧/١٠٢ |
| | ٣٣ ـ باب الماء الذى يغسل به شعر الإنسان | |
| ٥ /١٢٤٣<br>٦ /١٨٧٦ | فلم تجدوا ماء فتيمموا | ٤ /٤٣<br>٥ /٦ |

## ٥ — كتاب الغسل

| | | |
|---|---|---|
| ٦ /١٨٧٦ | وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط | ٥ /٦ |
| ٥ /١٢٤٣ | ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون | ٤ /٤٣ |

## ٦ — كتاب الحيض

| | | |
|---|---|---|
| ٣ /٥٦٣ | ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى | ٢ /٢٢٢ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٧ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت | |
| ٦ / ٢٤٨٢ | ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه | ٦ /١٢١ |
| | ٢٤ ـ باب إذا حاضت فى شهر ثلاث حِيَض | |
| ٣ / ٥٨١ | ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن | ٢ /٢٢٨ |

## ٧ ـ كتاب التيمم

| | | |
|---|---|---|
| ٥ / ١٢٤٣<br>٦ / ١٨٧٦ | فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا | ٤ /٤٣<br>٥ /٦ |
| | ٧ ـ باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت | |
| ٥ / ١٢٠٢ | ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما | |

## ٨ ـ كتاب الصلاة

| | | |
|---|---|---|
| | ٢ ـ باب وجوب الصلاة فى الثياب | |
| ٧ / ٢٦٥٧ | خذوا زينتكم عند كل مسجد | ٧ /٣١ |
| | ٣١ ـ باب التوجه نحو القبلة حيث كان | |
| ٢ / ٣٠٠ | قد نرى تقلب وجهك فى السماء | ٢ / ١٤٢ |
| ٢ / ٢٧٩ | ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم | ٢ / ١٤٢ |
| | ٣٢ ـ باب ما جاء فى القبلة | |
| ٢ / ٢٤٦ | واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى | ٢ /١٢٥ |
| | ٦٣ ـ باب التعاون فى بناء المساجد | |
| ٨ / ٣٠٨٥ | ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر | ٩ /١٧ |

رقم الجزء والصفحة — رقم السورة والآية

## ٩ ــ كتاب مواقيت الصلاة

١ ـ باب مواقيت الصلاة وفضلها

٥ / ١٥١٨ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا   ٤ /١٠٣

٢ ـ باب منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة

١٣/ ٤٧٧٨ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين   ٣٠/٣١

٤ ـ باب الصلاة كفارة

٩ / ٣٤٩١ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات   ١١/١١٤

٢٦ ـ باب فضل صلاة الفجر

١١/ ٤٢٣٤ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها   ٢٠/١٣٠

## ١٠ ــ كتاب الأذان

١ ـ باب بدء الأذان

٦ / ٢٠٤٦ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا   ٥ / ٥٨

٣١ ـ باب فضل الصلاة فى جماعة

١٠ / ٣٩٥٩ إن قرآن الفجر كان مشهودا   ١٧ /٧٨

١٠٥ ـ باب الجهر بقراءة صلاة الفجر

١٣ / ٤٨٣٦ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة   ٣٣/٢١

## ١١ ــ كتاب الجمعة

١ ـ باب فرض الجمعة

١٦ / ٥٨٠١ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله   ٦٢ / ٩

١٨ ـ باب المشى إلى الجمعة

١٠ / ٣٩١٦ وسعى لها سعيها   ١٧ / ١٩

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٣٨ ـ باب إذا نفر الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة | |
| ١٦/٥٨٠٢ | وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما | ٦٢/١١ |
| | **١٢ ـ كتاب صلاة الخوف** | |
| | ١ ـ باب صلاة الخوف | |
| ٥/١٥٠١ | وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا | ٤/١٠١ |
| | **١٣ ـ كتاب العيدين** | |
| | ١١ ـ باب فضل العمل فى أيام التشريق | |
| ١٢/٤٣٣٤ | ويذكروا الله فى أيام معلومات | ٢٢/٢٨ |
| | ١٩ ـ باب موعظة النساء يوم العيد | |
| ١٦/٥٧٧٤ | يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك | ٦٠/١٢ |
| | **١٥ ـ كتاب الاستسقاء** | |
| | ٢ ـ باب دعاء النبيّ صلى ﷺ اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف | |
| ١٤/٥٢٩٥ | فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين | ٤٤/١٠ |
| | **١٦ ـ كتاب الكسوف** | |
| | ٢٩ ـ باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله | |
| ١٣/٤٨٠٨ | وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت | ٣١/٣٤ |
| | **١٧ ـ كتاب سجود القرآن** | |
| | ١١ ـ باب من قرأ السجدة فى الصلاة فسجد لها | |
| ١٧/٦٢٠٦ | إذا السماء انشقت | ٨٤/١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|

# ١٩ ـ كتاب التهجد

## ١ ـ باب التهجد بالليل

| | | |
|---|---|---|
| ١٠/٣٩٦٨ | ومن الليل فتهجد به نافلة لك | ١٧/٧٩ |

## ١١ ـ باب قيام النبىّ ﷺ بالليل ونومه وما نسخ من قيام الليل

| | | |
|---|---|---|
| ١٦/٥٩٥٨ | يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا | ٧٣/١ |

# ٢٣ ـ كتاب الجنائز

## ٥٧ ـ باب سنة الصلاة على الجنائز

| | | |
|---|---|---|
| ٨/٣٢٢٣ | ولا تصلّ على أحد منهم | ٩/٨٤ |

## ٨٤ ـ باب ما يكره من الصلاة على المنافقين ، والاستغفار للمشركين

| | | |
|---|---|---|
| ٨/٣٢٢٣ | ولا تصل على أحد منهم مات أبداً | ٩/٨٤ |

## ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر

| | | |
|---|---|---|
| ٦/٢٤١٥ | إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم | ٦/٩٣ |
| ٨/٣٢٤٤ | سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم | ٩/١٠١ |
| ١٤/٥١٧٠ | وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا | ٤٠/٤٥ |
| ١٠/٣٧٢٨ | يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت | ١٤/٢٧ |

# ٢٤ ـ كتاب الزكاة

## ٦ ـ باب الرياء فى الصدقة

| | | |
|---|---|---|
| ٣/٦٧٩ | يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى | ٢/٢٦٤ |

## ٧ ـ باب لا يقبل الله صدقة من غلول

| | | |
|---|---|---|
| ٣/٧١٠ | ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم | ٢/٢٧٦ |

## ١٠ ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة

| | | |
|---|---|---|
| ٣/٦٨٠ | ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله | ٢/٢٦٥ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١١ ـ باب أى الصدقة أفضل | |
| ٥٨١٥/١٦ | وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت | ١٠/٦٣ |
| ٣ /٦٥٦ | يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه | ٢ /٢٥٤ |
| | ١٢ ـ باب صدقة العلانية | |
| ٣ /٦٩٣ | الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية | ٢ /٢٧٤ |
| | ٢٧ ـ باب قول الله تعالى : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى | |
| ٦١٧٥/١٧ | فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى | ٦/٩٢ |
| | ٢٩ ـ باب صدقة الكسب والتجارة | |
| ٣ /٦٨٣ | يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم | ٢ /٢٦٧ |
| | ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب | |
| ٤ /٨٨٩ | لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون | ٣ /٩٢ |
| | **٢٥ ـ كتاب الحج** | |
| | ١ ـ باب وجوب الحج وفضله | |
| ٤ /٨٩٥ | ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا | ٣ /٩٧ |
| | ٤٢ ـ باب فضل مكة وبنيانها | |
| ٢ /٢٤٦ | وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا | ٢ /١٢٥ |
| | ٤٣ ـ باب فضل الحرم | |
| ٤٦٩٢/١٣ | إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها | ٩١/٢٧ |
| ٤٧١٥/١٣ | أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء | ٥٧/٢٨ |
| | ٤٤ ـ باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها | |
| ٤٣٣٣/١٢ | إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام | ٢٥/٢٢ |
| ٨ /٣٠٤٤ | إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم | ٨ /٧٢ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٤٦ ـ باب قول الله تعالى : وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا | |
| ٣٧٣٢/١٠ | رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام | ٣٥/١٤ |
| | ٤٧ ـ باب قول الله تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام | |
| ٦ /٢١٦١ | جعل الله الكعبة البيت الحرام | ٥ /٩٧ |
| | ٧٩ ـ باب وجوب السعى بين الصفا والمروة | |
| ٣ /٣٤٣ | إن الصفا والمروة من شعائر الله | ٢ /١٥٨ |
| | ١٠٣ ـ باب ركوب البدن | |
| ١٢/٤٣٤٣ | والبدن جعلناها لكم من شعائر الله | ٣٦/٢٢ |
| | ١٢٣ ـ باب وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت | |
| ١٢/٤٣٣٤ | وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت | ٢٦/٢٢ |

## ٢٦ ـ كتاب العمرة

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب وجوب العمرة وفضلها | |
| ٣ /٤٨٣ | وأتموا الحج والعمرة لله | ٢ /١٩٦ |
| | ١٠ ـ حدثنا أبو نعيم | |
| ٣ /٣٤٣ | إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما | ٢ /١٥٨ |

## ٢٧ ـ كتاب المحصر وجزاء الصيد

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب المحصر وجزاء الصيد | |
| ٣ /٤٨٣ | فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله | ٢ /١٩٦ |
| | ٥ ـ باب قول الله تعالى : فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى | |
| ٣ /٤٨٣ | فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى | ٢ /١٩٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٩ ـ باب قول الله تعالى: فلا رفث | |
| ٣ / ٤٩٢ | فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج | ٢ / ١٩٧ |

## ٢٨ — كتاب جزاء الصيد

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب جزاء الصيد ونحوه | |
| ٦ / ٢١٥٥ | لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم | ٥ / ٩٥ |

## ٣٠ — كتاب الصوم

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب وجوب صوم رمضان | |
| ٣ / ٤١٤ | يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم | ٢ /١٨٣ |
| | ١٥ ـ باب قول الله جل ذكره: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم | |
| ٣ / ٤٥٠ | أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم | ٢ /١٨٧ |
| | ١٦ ـ باب قول الله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض | |
| ٣ / ٤٥٠ | وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود | ٢ / ١٨٧ |
| | ٤٨ ـ باب الوصال ومن قال ليس فى الليل صيام | |
| ٣ / ٤٥٠ | ثم أتموا الصيام إلى الليل | ٢ / ١٨٧ |

## ٣٢ — كتاب فضل ليلة القدر

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب فضل ليلة القدر | |
| ١٧ / ٦٢١٩ | إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر | ٩٧/ ١و٢ |

## ٣٣ — كتاب الاعتكاف

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب الاعتكاف فى العشر الأواخر | |
| ٣ / ٤٥٠ | ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد | ٢ / ١٨٧ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|

# ٣٤ ـ كتاب البيوع

| | | |
|---|---|---|
| ٣/٧٠٠ | وأحل الله البيع وحرّم الربا | ٢/٢٧٥ |
| ٣/٧١٩ | إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم | ٢/٢٨٢ |
| | ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض | |
| ١٦/٥٨٠١ | فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض | ٦٢/١٠ |
| ١٦/٥٨٠٢ | وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً | ٦٢/١١ |
| ٣/٤٦٥ | ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل | ٢/١٨٨ |
| ٣/٧١٩ | إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم | ٢/٢٨٢ |
| | ١١ ـ باب | |
| ١٢/٤٥٢٩ | رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله | ٢٤/٣٧ |
| | ٢٤ ـ باب آكل الربا وشاهده وكاتبه | |
| ٣/٧٠٠ | الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس | ٢/٢٧٥ |
| | ٢٥ ـ باب موكل الربا | |
| ٣/٧١٣ | ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين | ٢/٢٧٨ |
| | ٢٦ ـ باب | |
| ٣/٧١٠ | يمحق الله الربا ويربى الصدقات | ٢/٢٧٦ |
| | ٢٩ ـ باب ذكر القين والحداد | |
| ١١/٤١٦٠ | أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا | ١٩/٧٧ |
| | ٥١ ـ باب الكيل على البائع | |
| ١٧/٦٠٩٢ | وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون | ٨٣/٣ |
| | ١٠٠ ـ باب شراء المملوك من الحربىّ وهبته وعتقه | |
| ١٠/٣٨٣١ | والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم | ١٦/٧١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **٣٧ – كتاب الإجارة** | |
| ١٣/٤٧٠٢ | إن خير من استأجرت القوىّ الأمين | ٢٨/٢٦ |
| | ٢٠ – باب كسب البغىّ | |
| ١٢/٤٥١٩ | ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا | ٢٤/٣٣ |
| | **٣٩ – كتاب الكفالة** | |
| | ٢ – باب | |
| ٥ /١٢١٠ | والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم | ٤ /٣٣ |
| | **٤١ – كتاب الحرث والمزارعة** | |
| | ١ – باب فضل الزرع والغرس | |
| ١٦/٥٦٥٦ | أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون | ٥٦/٦٣ |
| | **٤٢ – كتاب المساقاة** | |
| ١١/٤٢٦٦ | وجعلنا من الماء كل شىء حىّ أفلا يؤمنون | ٢١/٣٠ |
| ١٦/٥٦٥٧ | أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون | ٥٦/٦٩ |
| | **٤٣ – كتاب الاستقراض وأداء الديون** | |
| | ٣ – باب أداء الديون | |
| ٥ /١٣٣٠ | إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها | ٤ /٨٥ |
| | ١٩ – باب ما ينهى عن إضاعة المال | |
| ٣ /٥٠٨ | والله لا يحب الفساد | ٢ /٢٠٥ |
| ٩ /٣٣٨٥ | لا يصلح عمل المفسدين | ١٠/٨١ |
| ٩ /٣٤٧٨ | أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء | ١١/٨٧ |
| ٥ /١١٢٤ | ولا تؤتوا السفهاء أموالكم | ٤ /٥ |

رقم الجزء والصفحة — رقم السورة والآية

## ٤٦ ـ كتاب المظالم

١٠/٣٧٣٦ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ١٤/٤٢

١٠/٣٧٣٧ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب ١٤/٤٤

### ٢ ـ باب

٩ /٣٤٢٤ ألا لعنة الله على الظالمين ١١/١٨

### ٦ ـ باب الانتصار من الظالم

٥ /١٦٢٦ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ٤ /١٤٨

١٤/٥٢٤٩ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ٤٢/٣٩

### ٧ ـ باب عفو المظلوم

٥ /١٦٣٠ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوّا قديرا ٤ /١٤٩

١٤/٥٢٥٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ٤٢/٤٠

١٤/٥٢٥٢ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل ٤٢/٤٤

### ١٥ ـ باب

٣ /٥٠٨ وهو ألدّ الخصام ٢ /٢٠٤

## ٤٨ ـ كتاب الرهن

٣ /٧٢٣ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ٢ /٢٨٣

## ٤٩ ـ كتاب العتق

١٧/٦١٦٢ فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة ٩٠/١٣ ـ ١٥

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
| --- | --- | --- |
| | ١٣ ـ باب من ملك من العرب رقيقا | |
| ١٠/٣٨٣٤ | ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء | ٧٥/١٦ |
| | ١٥ ـ باب قول النبي ﷺ : العبيد إخوانكم | |
| ٥ /١٢٢٦ | واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا . . وما ملكت أيمانكم | ٤ /٣٦ |
| | ١٧ ـ باب كراهة التطاول على الرقيق | |
| ١٢/٤٥١٦ | والصالحين من عبادكم وإمائكم | ٣٢/٢٤ |
| ١٠/٣٨٣٤ | عبدا مملوكا | ٧٥/١٦ |
| ٩ /٣٥٣١ | وألفيا سيدها لدى الباب | ٢٥/١٢ |
| ٥ /١١٩٤ | من فتياتكم المؤمنات | ٢٥/٤ |

## ٥٠ ـ كتاب المكاتب

| | | |
| --- | --- | --- |
| | ١ ـ باب المكاتب ونجومه فى كل سنة | |
| ١٢/٤٥١٩ | والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم | ٣٣/٢٤ |

## ٥١ ـ كتاب الهبة

| | | |
| --- | --- | --- |
| | ١٥ ـ باب هبة المرأة لغير زوجها | |
| ٥ /١١٢٤ | ولا تؤتوا السفهاء أموالكم | ٤ /٥ |
| | ٢٩ ـ باب الهدية للمشركين | |
| ١٦/٥٧٦٨ | لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم | ٦٠/٨ |
| | ٣٢ ـ باب ما قيل فى العمرى | |
| ٩ /٣٤٦١ | استعمركم فيها | ٦١/١١ |

رقم الجزء والصفحة — رقم السورة والآية

## ٥٢ — كتاب الشهادات


١ ـ باب ما جاء في البينة على المدعى

٣/٧١٩ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ٢/٢٨٢

٥/١٦٠٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ٤/١٣٥

٥ ـ باب الشهداء عدول

١٦/٥٨٣٦ وأشهدوا ذوى عدل منكم ٦٥/٢

٣/٧١٩ ممن ترضون من الشهداء ٢/٢٨٢

٨ ـ شهادة القاذف والسارق والزانى

١٢/٤٤٤٨ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ٢٤/٤

١٠ ـ باب ما قيل في شهادة الزور

١٢/٤٥٩٨ والذين لا يشهدون الزور ٢٥/٧٢

١٢ ـ باب شهادة النساء

٣/٧١٩ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ٢/٢٨٢

١٨ ـ باب بلوغ الصبيان وشهادتهم

١٢/٤٥٤٨ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا ٢٤/٥٩

٣٠ ـ باب القرعة في المشكلات

٤/٨٤٢ إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ٣/٤٤


## ٥٣ — كتاب الصلح


١ ـ باب ما جاء في الإصلاح بين الناس

٥/١٥٤٢ لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ٤/١١٤

٤ ـ باب

٥/١٧٩٣ أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ٤/١٢٨

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **٥٥ ــ كتاب الوصايا** | |
| | **١ ــ باب الوصايا** | |
| ٢/ ٤٠٦ | كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً | ٢ /١٨٠ |
| | **٨ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٣٨ | من بعد وصية يوصى بها أو دين | ٤ /١١ |
| | **٩ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٤٥ | من بعد وصية توصون بها أو دين | ٤ /١٢ |
| | **١٨ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٣١ | وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين | ٤ /٨ |
| | **٢١ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٠٠ | وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب | ٤ /٢ |
| | **٢٢ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٢٦ | وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح | ٤ /٦ |
| | **٢٣ ــ باب** | |
| ٥/ ١١٣٦ | إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما | ٤ /١٠ |
| | **٢٤ ــ باب** | |
| ٣/ ٥٥٥ | ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير | ٢ /٢٢٠ |
| | **٣٥ ــ باب** | |
| ٦/ ٢١٩٤ | يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم | ٥ /١٠٦ |
| | **٥٦ ــ كتاب الجهاد** | |
| | **١ ــ باب فضل الجهاد والسير** | |
| ٨/ ٣٢٧٢ | إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة | ٩ /١١١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
| --- | --- | --- |
| | ٢ ـ باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله | |
| ٥٧٩٢/١٦ | يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم | ١٠/٦١ |
| | ٦ ـ باب الحور العين وصفتهن | |
| ٥٣١٥/١٤<br>٥٥٤٤/١٥ | وزوجناهم بحور عين | ٥٤/٤٤<br>٢٠/٥٢ |
| | ٨ ـ باب فضل من يصرع فى سبيل الله فمات فهو منهم | |
| ١٤٩٥/٥ | ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت | ١٠٠/٤ |
| | ١١ ـ باب | |
| ٣١٧٣/٨ | هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين | ٥٢/٩ |
| | ١٢ ـ باب | |
| ٤٨٣٧/١٣ | من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه | ٢٣/٣٣ |
| | ١٣ ـ باب عمل صالح قبل القتال | |
| ٥٧٨١/١٦ | يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون | ٢/٦١ |
| | ١٦ ـ باب من اغبرت قدماه فى سبيل الله | |
| ٣٢٩٥/٨ | ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله | ١٢٠/٩ |
| | ١٩ ـ باب | |
| ١٠٣٢/٤ | ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً | ١٦٩/٣ |
| | ٣١ ـ باب | |
| ١٤٨١/٥ | لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر | ٩٥/٤ |
| | ٣٣ ـ باب التحريض على القتال | |
| ١٤١٥/٥<br>٣٠٣٢/٨ | حرض المؤمنين على القتال | ٨٤/٤<br>٦٥/٨ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٤٥ ـ باب من احتبس فرسا | |
| ٨/٣٠٣٢ | ومن رباط الخيل | ٨/٦٠ |
| | ٤٨ ـ باب الخيل لثلاثة | |
| ١٠/٣٧٨٠ | والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة | ١٦/٨ |
| | ٧٣ ـ باب فضل رباط يوم فى سبيل الله | |
| ٣/١٠٨٠ | يا أيها الذين آمنوا اصبروا | ٣/٢٠٠ |
| | ٧٨ ـ باب التحريض على الرمى | |
| ٨/٣٠٢٤ | وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل | ٨/٦٠ |
| | ١٠٢ ـ باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام | |
| ٤/٨٧٣ | ما كان لبشر أن يؤتيه الله | ٣/٧٩ |
| | ١١٠ ـ باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا | |
| ١٥/٥٤١٦ | لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة | ٤٨/١٨ |
| | ١١٢ ـ باب استئذان الرجل الإمام | |
| ١٢/٤٥٥٦ | إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع | ٢٤/٦٢ |
| | ١٢٣ ـ باب حمل الزاد فى الغزو | |
| ٣/٤٩٢ | وتزودوا فإن خير الزاد التقوى | ٢/١٩٧ |
| | ١٤١ ـ باب الجاسوس | |
| ١٦/٥٧٥٨ | لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء | ٦٠/١ |
| | ١٨٩ ـ باب الغلول | |
| ٤/١٠٢٤ | ومن يغلل يأت بما غلّ | ٣/١٦١ |
| | **٥٧ ـ كتاب فرض الخمس** | |
| | ٤ ـ باب ما جاء فى بيوت أزواج النبى ﷺ | |
| ١٢/٤٨٤٨ | وقرن فى بيوتكنّ | ٣٣/٣٣ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٤٨٩١/١٢ | لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم | ٥٣/٣٣ |
| | ٧ ـ باب | |
| ٨/ ٢٩٩٧ | فأن لله خمسه | ٨ /٤١ |
| | ٨ ـ باب قول النبيّ ﷺ : أحلت لكم الغنائم | |
| ٥٤١٨/١٥ | وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها | ٢٠/٤٨ |


## ٥٨ — كتاب الجزية والموادعة


| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب | |
| ٨/ ٣١٠٥ | قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر | ٩ /٢٩ |
| | ١٢ ـ باب الموادعة والمصالحة مع المشركين | |
| ٨/ ٣٠٢٧ | وإن جنحوا للسلم فاجنح لها | ٨ /٦١ |
| | ١٥ ـ باب ما يحذر من الغدر | |
| ٨/ ٣٠٢٧ | وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله | ٨ /٦٢ |
| | ١٦ ـ باب كيف ينبذ إلى أهل العهد | |
| ٨/ ٣٠٢١ | وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء | ٨ /٥٨ |
| | ١٧ ـ باب إثم من عاهد ثم غدر | |
| ٨/ ٣٠٢٠ | الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم | ٨ / ٥٦ |


## ٥٩ — كتاب بدء الخلق


| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب | |
| ٤٧٧٤/١٣ | وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه | ٢٧/٣٠ |
| ٥٤٨٨/١٥ | أفعيينا بالخلق الأول | ١٥/٥٠ |
| ٥٥١٦/١٥ | وما مسّنا من لغوب | ٣٨/٥٠ |
| ٥٩٣٤/١٦ | وقد خلقكم أطوارا | ١٤/٧١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٢ ـ باب ماجاء فى سبع أرضين | |
| ١٦/٥٨٤٧ | الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن | ٦٥/١٢ |
| | ٣ ـ باب فى النجوم | |
| ١٦/٥٨٨٠ | ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح | ٦٧/٥ |
| | ٥ ـ باب | |
| ٧/٢٧٥٧ | وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته | ٧/٥٧ |
| ١٠/٣٩٥٠ | فيرسل عليكم قاصفا من الريح | ١٧/٦٩ |
| ١٠/٣٧٥٣ | وأرسلنا الرياح لواقح | ١٥/٢٢ |
| ٣/٦٨٢ | فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت | ٢/٢٦٦ |
| ٤/٩٤٥ | كمثل ريح فيها صرّ | ٣/١١٧ |
| | ٦ ـ باب ذكر الملائكة | |
| ١٤/٥٠٦٩ | لنحن الصافّون | ٣٧/١٦٥ |
| | ٨ ـ ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة | |
| ٢/٨١ | أزواج مطهرة | ٢/٢٥ |
| ٣/٨٠٦ | » | ٣/١٥ |
| ٤/١٣٢٩ | » | ٤/٥٧ |
| ٢/٨١ | كلما رزقوا منها | ٢/٢٥ |
| ١٦/٥٩١٥ | قطوفها دانية | ٦٩/٢٣ |
| ١٧/٦٠١٣ | وذللت قطوفها تذليلا | ٧٦/١٤ |
| ١١/٤٠٥٦ | متكئين فيها على الأرائك | ١٨/٣١ |
| ١٤/٥٠١٢ | على الأرائك متكئون | ٣٦/٥٦ |
| ١٧/٦١٠٠ | على الأرائك ينظرون | ٨٣/٢٣ |
| ١٧/٦١٠٣ | » | ٨٣/٣٥ |

| رقم الجزء والصفحة | رقم السورة والآية |
|---|---|
| ٦٠١٢/١٧ ولقّاهم نضرة وسرورا | ١١/٧٦ |
| ٦١٠٠/١٧ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم | ٢٤/٨٣ |
| ٦٠١٤/١٧ عينا فيها تسمى سلسبيلا | ١٨/٧٦ |
| ٥٠٣٦/١٤ لافيهاغول ولاهم عنها ينزفون | ٤٧/٣٧ |
| ٥٦٤٨/١٦ لايصدّعون عنها ولا ينزفون | ١٩/٥٦ |
| ٦٠٣٨/١٧ وكأسا دهاقا | ٣٤/٧٨ |
| ٦٠٣٨/١٧ وكواعب أترابا | ٣٣/٧٨ |
| ٦١٠٠/١٧ يسقون من رحيق مختوم | ٢٥/٨٣ |
| ٦١٠١/١٧ ومزاجه من تسنيم | ٢٧/٨٣ |
| ٦١٠٠/١٧ ختامه مسك | ٢٦/٨٣ |
| ٥٦٣٢/١٥ فيهما عينان نضاختان | ٦٦/٥٥ |
| ٥٦٤٨/١٦ على سرر موضونة | ١٥/٥٦ |
| ٥٦٤٨/١٦ بأكواب وأباريق وكأس من معين | ١٨/٥٦ |
| ٥٦٥١/١٦ عُرُباً أتراباً | ٣٧/٥٦ |
| ٥٦٦٧/١٦ فَرَوْحٌ وريحان وجنة نعيم | ٨٩/٥٦ |
| ٥٦٥٠/١٦ وطلح منضود | ٢٩/٥٦ |
| ٦٥٥٠/١٦ فى سدر مخضود | ٢٨/٥٦ |
| ٥٦٥١/١٦ وفرش مرفوعة | ٣٤/٥٦ |
| ٥٦٤٨/١٦ لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما | ٢٥/٥٦ |
| ٥٦٢٩/١٥ ذواتا أفنان | ٤٨/٥٥ |
| ٥٦٣٠/١٥ وجَنَى الجنتين دانٍ | ٥٤/٥٥ |
| ٥٦٣١/١٥ مدهامتان | ٦٤/٥٥ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **١١ـ باب صفة إبليس وجنوده** | |
| ١٤/٥٠٢٧ | ويُقذفون من كل جانب | ٣٧/٨ |
| ١٤/٥٠٢٨ | دحورا ولهم عذاب واصب | ٣٧/٩ |
| ٥/ ١٥٦٤ | وإن يدعون إلا شيطانا مريدا | ٤ /١١٧ |
| ٥/ ١٥٦٧ | فليبتكنّ آذان الأنعام | ٤ /١١٩ |
| ١٠/٣٩٤٧ | واستفزز من استطعت منهم بصوتك | ١٧/٦٤ |
| ١٠/٣٩٤٦ | لأحتنكنّ ذريته إلا قليلا | ١٧/٦٢ |
| ١٤/٥٠٣٨ | إنى كان لى قرين | ٣٧/٥١ |
| ١٤/٥٢٧٢ | فهو له قرين | ٤٣/٣٦ |
| | **١٢ـ باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم** | |
| ٦/ ٢٥٠٦ | يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم | ٦ /١٣٠ |
| ١٤/٥٠٦٦ | وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا | ٣٧/١٥٨ |
| | ولقد علمت الجن إنهم لمحضرون | ٣٧/١٥٨ |
| | **١٣ ـ باب** | |
| ١٥/٥٣٥٧ | وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن | ٤٦/٢٩ |
| | **١٤ ـ باب** | |
| ٣/ ٣٥٥ | وبث فيها من كل دابة | ٢/ ١٦٤ |
| ١٣/٤٧٩٤ | « « « | ٣١/١٠ |

## ٦٠ ــ كتاب الأنبياء

| | | |
|---|---|---|
| | **١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته** | |
| ١٠/٣٧٥٤ | ولقد خلقنا الإنسان من صلصال | ١٥/٢٦ |
| ١٠/٣٧٥٥ | إنى خالق بشراً من صلصال | ١٥/٢٨ |
| ١٠/٣٧٥٥ | لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال | ١٥/٣٣ |
| ١٥/٥٦١٧ | خلق الإنسان من صلصال | ٥٥/١٤ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٧/١٩١٩ | فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به | ٧/١٨٩ |
| ٧/٢٦٢٠ | ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك | ٧/١٢ |
| ٢/٩٤ | وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة | ٢/٣٠ |
| ١٧/٦١٢١ | إنْ كل نفس لما عليها حافظ | ٨٦/٤ |
| ١٧/٦١٦٠ | لقد خلقنا الإنسان فى كَبَدٍ | ٩٠/٤ |
| ٧/٢٦٤٤ | قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا | ٧/٢٦ |
| ١٦/٥٦٥٤ | أفرأيتم ما تمنون | ٥٦/٥٨ |
| ١٧/٦١٢٢ | إنه على رجعه لقادر | ٨٦/٨ |
| ١٧/٦٢٠١ | لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم | ٩٥/٤ |
| ١٧/٦٢٠١ | ثم رددناه أسفل سافلين | ٩٥/٥ |
| ١٤/٥٠٣١ | إنا خلقناهم من طين لازب | ٣٧/١١ |
| ١٦/٥٦٥٥ | وننشئكم فيما لا تعلمون | ٥٦/٦١ |
| ٢/٩٤ | ونحن نسبح بحمدك | ٢/٣٠ |
| ٢/١١٠ | فتلقى آدم من ربه كلمات | ٢/٣٧ |
| ٢/١٠٩ | فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه | ٢/٣٦ |
| ٣/٦٦٨ | وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه | ٢/٢٥٩ |
| ١٥/٥٣٨٠ | فيها أنهار من ماء غير آسن | ٤٧/١٥ |
| ١٠/٣٧٥٥ | ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون | ١٥/٢٦ |
| ٧/٢٦٤١ | وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة | ٧/٢٢ |
| ٧/٢٦٣٩ | ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما | ٧/٢٠ |
| ١١/٤٢١٥ | وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة | ٢٠/١٢١ |
| ١١/٤٢١٥ | فبدت لهما سوءاتهما | ٢٠/١٢١ |
| ٢/١٠٩ | ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين | ٢١/١١١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٣ ـ باب | |
| ٧/٢٧٦٠ | ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه | ٧/٥٩ |
| | ٤ ـ باب | |
| ١٤/٥٠٥٩ | وإن إلياس لمن المرسلين | ٣٧/١٢٣ |
| | ٥ ـ باب | |
| ١١/٤١٥١ | ورفعناه مكانا عليًّا | ١٩/٥٧ |
| | ٦ ـ باب | |
| ٧/٢٧٦٧ | وإلى عاد أخاهم هودا | ٧/٦٥ |
| ١٥/٥٣٥٢ | إذ أنذر قومه بالأحقاف | ٤٦/٢١ |
| ١٩/٥٩١١ | وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية | ٦٩/٦ |
| | ٧ ـ قصة يأجوج ومأجوج | |
| ١١/٤١٠٢ | قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج | ١٨/٩٤ |
| ١١/٤٠٩٩ | ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً | ١٨/٨٣ |
| | ٨ ـ باب | |
| ٥/١٥٧٦ | واتخذ الله إبراهيم خليلا | ٤/١٢٥ |
| ١٠/٣٨٧٤ | إن إبراهيم كان أمة قانتا | ١٦/١٢٠ |
| ٩/٣٤٦٨ | إن إبراهيم لحليم أواه منيب | ١١/٧٥ |
| | ٩ ـ باب | |
| ١٤/٥٠٤٨ | فأقبلوا إليه يزفّون | ٣٧/٩٤ |
| ١١/٤٣١٠ | وهم من كل حدب ينسلون | ٢١/٩٦ |
| ١٤/٥٠١١ | فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون | ٣٦/٥١ |
| | ١١ ـ باب | |
| ١٠/٣٧٥٨ | ونبئهم عن ضيف إبراهيم | ١٥/٥١ |
| ٣/٦٧١ | ولكن ليطمئن قلبي | ٢/٢٦٠ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١٢ ـ باب | |
| ١١/٤١٥٠ | واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد | ١٩/٥٤ |
| | ١٤ باب | |
| ٢/٢٦٦ | أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت | ٢/١٣٣ |
| | ١٥ ـ باب | |
| ١٣/٤٦٧٤ | ولوطا إذ قال لقومه | ٢٧/٥٤ |
| | ١٦ ـ باب | |
| ١٠/٣٧٦٠ | فلما جاء آل لوط المرسلون | ١٥/٦١ |
| | ١٧ ـ باب | |
| ٧/٢٧٨٢ | وإلى ثمود أخاهم صالحا | ٧/٧٣ |
| ١٠/٣٧٦٦ | كذب أصحاب الحجر المرسلين | ١٥/٨٠ |
| | ١٨ ـ باب | |
| ٢/٢٦٦ | أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت | ٢/١٣٣ |
| | ١٩ ـ باب | |
| ٩/٣٥١٣ | لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين | ١٢/٧ |
| | ٢٠ ـ باب | |
| ١١/٤٢٩٧ | وأيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضرّ | ٢١/٨٣ |
| | ٢١ ـ باب | |
| ١١/٤١٤٩ | واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا | ١٩/٥١ |
| ١٤/٥١٦٣ | وقال رجل مؤمن من آل فرعون | ٤٠/٢٨ |
| | ٢٢ ـ باب | |
| ١١/٤١٧١ | وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا | ٢٠/٩ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٢٣ ـ باب | |
| ٥١٦٣/١٤ | وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه | ٢٨/٤٠ |
| | ٢٤ـ باب | |
| ٤١٧١/١١ | وهل أتاك حديث موسى | ٩/٢٠ |
| ١٧٢٣/ ٥ | وكلم الله موسى تكليما | ١٦٤/ ٤ |
| | ٢٥ـ باب | |
| ٢٨٤٩/ ٧ | وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر | ١٤٢/ ٧ |
| | ٢٩ـ باب | |
| ٢٨٤٦/ ٧ | يعكفون على أصنام لهم | ١٣٨/ ٧ |
| ٢٨٤٦/ ٧ | إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه | ١٣٩/ ٧ |
| ٣٩٠٣/١٠ | وليتبِّروا ما علوا تتبيرا | ٧/١٧ |
| | ٣٠ـ باب | |
| ١٥٢/ ٢ | وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة | ٦٧/ ٢ |
| | ٣٢ـ باب | |
| ٥٨٦٩/١٦ | وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون | ١١/٦٦ |
| | ٣٣ ـ باب | |
| ٤٧٢٥/١٣ | إن قارون كان من قوم موسى | ٧٦/٢٨ |
| | ٣٤ـ باب | |
| ٢٨١٠/ ٧ | وإلى مدين أخاهم شعيبا | ٨٥/ ٧ |
| | ٣٥ ـ باب | |
| ٥٠٦١/١٤ | وإن يونس لمن المرسلين | ١٣٩/٣٧ |
| | ٣٦ـ باب | |
| ٢٨٨٧/ ٧ | واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر | ١٦٣/٧ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٣٧ ـ باب | |
| ٥ /١٧٢٢ | وآتينا داود زبورا | ٤ /١٦٣ |
| | ٣٩ ـ باب | |
| ١٤/٥٠٨٤ | واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب | ٣٨/١٧ |
| | ٤٠ ـ باب | |
| ١٤/٥٠٩٨ | ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب | ٣٨/٣٠ |
| | ٤١ ـ باب | |
| ١٣/٤٧٩٥ | ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله | ٣١/١٢ |
| | ٤٢ ـ باب | |
| ١٤/٤٩٩٥ | واضرب لهم مثلا أصحاب القرية | ٣٦/١٣ |
| | ٤٣ ـ باب | |
| ١١/٤١٢٥ | ذكر رحمة ربك عبده زكريا | ١٩/٢ |
| | ٤٤ ـ باب | |
| ١١/١٤٣١ | واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا | ١٩/١٦ |
| | ٤٥ ـ باب | |
| ٤ /٨٤٠ | وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين | ٣ /٤٢ |
| | ٤٦ ـ باب | |
| ٤ /٨٤٤ | إذ قالت الملائكة يا مريم | ٣ /٤٥ |
| | ٤٧ ـ باب | |
| ٦ /٢١٠٦ | يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق | ٥ /٧٧ |
| | ٤٨ ـ باب | |
| ١١/٤١٣١ | واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها | ١٩/١٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٥٢ ـ باب | |
| ١١/٤٠٢٥ | أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم | ٩/١٨ |
| | ## ٦١ ـ كتاب المناقب | |
| | ١ ـ باب | |
| ١٥/٥٤٦٧ | يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى | ١٣/٤٩ |
| | ٢٦ ـ باب | |
| ٢ /٣٠٤ | يعرفونه كما يعرفون أبناءهم | ٢ /١٤٦ ، ٧ /٢٠ |
| | ## ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار | |
| | ١ ـ باب | |
| ١٦/٥٧٤٠ | والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم | ٩/٥٩ |
| | ٣٢ ـ باب ذكر الجن | |
| ١٦/٥٩٤٣ | قل أوحىَ إلىّ أنه استمع نفر من الجن | ١/٧٢ |
| | ٤١ ـ حديث الإسراء | |
| ١٠/٣٨٨٣ | سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى | ١/١٧ |
| | ## ٦٤ ـ كتاب المغازى | |
| | ٣ ـ باب قصة غزوة بدر | |
| ٤ /٩٦٠ | ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة | ٣ /١٢٣ |
| | ٤ ـ باب | |
| ٨ /٢٩٥٦ | إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم | ٨ /٩ |
| | ١٧ ـ باب غزوة أُحُد | |
| ٤ /٩٥٣ | وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال | ٣ /١٢١ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١٨ ـ باب | |
| ٤ /٩٥٩ | إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا | ٣ /١٢٢ |
| | ١٩ ـ باب | |
| ٤ /١٠١٣ | إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان | ٣ /١٥٥ |
| | ٢٠ ـ باب | |
| ٤ /٩٩٩ | إذ تصعدون ولا تلوون على أحد | ٣ /١٥٣ |
| | ٢١ ـ باب | |
| ٤ /٩٦٨ | ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم | ٣ /١٢٨ |
| | ٢٥ ـ باب | |
| ٤ /١٠٣٨ | الذين استجابوا لله والرسول | ٣ /١٧٢ |
| | ٣٤ ـ حديث الإفك | |
| ١٢/٤٤٥٩ | إن الذين جاءوا بالإفك | ٢٤/١١ |
| | ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية | |
| ١٥/٥٤١٦ | لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة | ٤٨/١٨ |
| | ٥٤ ـ باب | |
| ٨ /٣٠٩٢ | ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم | ٩ /٢٥ |
| | ٧٩ ـ باب حديث كعب | |
| ٨ /٣٢٨٧ | وعلى الثلاثة الذين خلفوا | ٩ /١١٨ |
| | ٨٣ ـ باب مرض النبى ﷺ | |
| ١٤/٥١٣٩ | إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون | ٣٩/٣٠و٣١ |

## ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٢ ـ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب | |
| ٩ /٣٥٠٢ | قرآنا عربيا | ١٢/٢ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١٩ ـ باب من لم يتغن بالقرآن ، وقوله تعالى : | |
| ٤٧٥٨/١٣ | أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم | ٥١/٢٩ |
| | ٢٦ـ باب نسيان القرآن ، وقول الله تعالى : | |
| ٦١٣٠/١٧ | سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله | ٦/٨٧ |
| | ٢٨ ـ باب الترتيل فى القراءة ، وقوله تعالى : | |
| ٥٩٥٨/١٦ | ورتل القرآن ترتيلا | ٤/٧٣ |
| | ٣٤ ـ باب فى كم يقرأ القرآن ، وقول الله تعالى . | |
| ٥٩٦٣/١٦ | فاقرءوا ما تيسر منه | ٢٠/٧٣ |

## ٦٧ ـ كتاب النكاح

| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، لقوله تعالى : | |
| ٥ /١١٠٤ | فانكحوا ما طاب لكم من النساء | ٤ /٣ |
| | ١٤ ـ باب تزويج المعسر ، لقوله تعالى : | |
| ٤٥١٦/١٢ | إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله | ٣٢/٢٤ |
| | ١٥ ـ باب الأكفاء فى الدين . وقوله : | |
| ٤٥٨٤/١٢ | وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباوصهرا | ٥٤/٢٥ |
| | باب ما يتقى من شؤم المرأة ، وقوله تعالى : | |
| ٥٨٢٤/١٦ | إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم | ١٤/٦٤ |
| | ١٩ ـ باب لا يتزوج أكثر من أربع ، لقوله تعالى : | |
| ٥ /١١٠٤ | مثنى وثلاث ورباع | ٤ /٣ |
| | ٢٠ ـ باب | |
| ٥ /١١٧٣ | وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم | ٤ /٢٣ |
| | ٢١ ـ باب من قال لارضاع بعد حولين ، لقوله تعالى : | |
| ٣ /٦٠٩ | حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة | ٢ /٢٣٣ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٢٤ ـ باب ما يحل من النساء وما يحرم ، وقوله تعالى : | |
| ٥ /١١٧٣ | حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم | ٤ /٢٣ |
| | ٢٥ ـ باب | |
| ٥ /١١٧٣ | وربائبكم اللاتى فى حجوركم | ٤ /٢٣ |
| | ٢٦ ـ باب | |
| ٥ /١١٧٣ | وأن تجمعوا بين الأختين إلى ما قد سلف | ٤ /٢٣ |
| | ٣٤ ـ باب | |
| ٣ /٦١٥ | ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء | ٢ /٢٣٥ |
| | ٣٥ ـ باب من قال لا نكاح إلا بولىّ ، لقول الله تعالى : | |
| ٣ /٦٠٨ | فلا تعضلوهنّ | ٢/٢٣٢ |
| ٥ /١١٥٦ | ولا تعضلوهن | ٤ /١٩ |
| | ٣٨ ـ باب إنكاح الرجل أولاده الصغار ، لقوله تعالى: | |
| ١٦/٥٨٣٩ | واللائى لم يحضن | ٦٥/٤ |
| | ٤٣ ـ باب تزويج اليتيمة لقوله تعالى: | |
| ٥ /١١٠٤ | وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا | ٤ /٣ |
| | ٤٩ـ باب | |
| ٥ /١١٢٢ | وآتوا النساء صدقاتهن نحلة | ٤ /٤ |
| | ٨١ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٦٦ | قوا أنفسكم وأهليكم نارا | ٦٦/٦ |
| | ٩١ ـ باب | |
| ٥ /١٢١٢ | الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض | ٤ /٣٤ |
| | ٩٥ ـ باب | |
| ٥ /١٥٩٣ | وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً | ٤ /١٢٨ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ١٢٣ ـ باب | |
| ١٢/٤٥٠٩ | ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ | ٢٤/٣١ |
| | ١٢٤ ـ باب | |
| ١٢/٤٥٤٦ | والذين لم يبلغوا الحلم | ٢٤/٥٨ |


## ٦٨ ـ كتاب الطلاق


| | | |
|---|---|---|
| | ١ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٢٩ | يا أيها النبيّ إذا طلقتم النساء | ٦٥/١ |
| | ٤ ـ باب من أجاز طلاق الثلاث ، لقول الله تعالى : | |
| ٣ /٥٨٦ | الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان | ٢ /٢٢٩ |
| | ٥ ـ باب من خيّر نساءه ، وقول الله تعالى : | |
| ١٣/٤٨٤٥ | قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا | ٣٣/٢٨ |
| | ٨ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٥٢ | لم تحرّم ما أحل الله لك | ٦٦/١ |
| | ٩ ـ باب لا طلاق قبل النكاح وقول الله تعالى : | |
| ١٣/٤٨٨١ | يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن | ٣٣/٤٩ |
| | ١٢ ـ باب الخلع وكيف الطلاق فيه ، وقول الله تعالى : | |
| ٣ /٥٨٦ | ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا | ٢ /٢٢٩ |
| | ١٣ ـ باب الشقاق وهل يشير بالخلع عند الضرورة ، وقوله تعالى : | |
| ٥ /١٢٢٣ | وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله | ٤ /٣٥ |
| | ١٨ ـ باب | |
| ٣ /٥٥٨ | ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ | ٢ /٢٢١ |
| | ٢١ـ باب | |
| ٣ /٥٧٨ | للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر | ٢ /٢٢٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | ٢٣ ـ باب | |
| ١٦/٥٧٠٥ | قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها | ٥٨/١ |
| | ٢٤ ـ باب اللعان ، وقول الله تعالى : | |
| ١٢/٤٤٥٥ | والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم | ٢٤/٦ |
| | ٣٨ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٣٩ | واللائى يئسن من المحيض من نسائكم | ٦٥/٤ |
| | ٣٩ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٣٩ | وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن | ٦٥/٤ |
| | ٤٠ ـ باب | |
| ٣ /٥٨١ | والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء | ٢ /٢٢٨ |
| | ٤١ ـ باب | |
| ١٦/٥٨٢٩ | واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن | ٦٥/١ |
| | ٤٣ ـ باب | |
| ٣ /٥٨١ | ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن | ٢ /٢٢٨ |
| | ٤٤ ـ باب | |
| ٣ /٥٨١ | وبعولتهن أحق بردهن | ٢ /٢٢٨ |
| | ٥٠ ـ باب | |
| ٣ /٦١٢ | والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا | ٢ /٢٣٤ |
| ٣ /٦٣١ | » » » » | ٢ /٢٤٠ |
| | ٥٣ ـ باب المتعة التى لم يفرض لها لقوله تعالى : | |
| ٣ /٦١٨ | لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن | ٢ /٢٣٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **٦٩ ـ كتاب النفقات** | |
| | ١ ـ باب فضل النفقة على الأهل | |
| ٣ / ٥٥٠ | ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو | ٢ / ٢١٩ |
| | ٤ ـ باب | |
| ٣ / ٦٠٩ | والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة | ٢ / ٢٣٣ |
| | ١٤ ـ باب | |
| ٣ / ٦٠٩ | وعلى الوارث مثل ذلك | ٢ / ٢٣٣ |
| | **٧٠ ـ كتاب الأطعمة** | |
| | ١ ـ باب | |
| ٢ / ١٣١ | كلوا من طيبات مارزقناكم | ٢ / ٥٧ |
| ٣ / ٣٧٧ | » » » | ٢ / ١٧٢ |
| ٧ / ٢٨٨٥ | » » » | ٧ / ١٦٠ |
| ١١ / ٤١٩٨ | » » » | ٢٠ / ٨١ |
| ٣ / ٦٨٣ | أنفقوا من طيبات ما كسبتم | ٢ / ٢٦٧ |
| ١٢ / ٤٤٠٢ | كلوا من الطيبات واعملوا صالحا | ٢٣ / ٥١ |
| | ٧ ـ باب | |
| ١٥ / ٥٤١٤ | ليس على الأعمى حرج | ٤٨ / ١٧ |
| | ١٤ ـ باب الشواء ، وقول الله تعالى : | |
| ٩ / ٣٤٦٤ | فجاء بعجل حنيذ | ١١ / ٦٩ |
| | ٤١ ـ باب الرطب والتمر ، وقول الله تعالى : | |
| ١١ / ٤١٣٤ | وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا | ١٩ / ٢٥ |
| | ٥٩ ـ باب | |
| ١٣ / ٤٨٩١ | فإذا طعمتم فانتشروا | ٣٣ / ٥٣ |

رقم الجزء والصفحة | رقم السورة والآية

## ٧٣ ـ كتاب الذبائح والصيد

٦ /٢١٥٣ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد ٥ /٩٤
٦ /١٧٩١ أحلت لكم بهيمة الأنعام ٥ /١

باب إذا أكل الكلب

٦ /١٨٤٣ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ٥ /٤

**باب**

٦ /٢١٥٧ أحل لكم صيد البحر ٥ /٩٦

باب التسمية على الذبيحة

٦ /٢٤٨٢ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ٦ /١٢١

باب ذبائح أهل الكتاب

٦ /١٨٥٨ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ٥ /٥

باب أكل المضطر

٣ /٣٧٧ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ٢ /١٧٢
٦ /١٨١١ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم ٥ /٣
٦ /٢٤٧٨ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ٦ /١١٨
٦ /٢٥٣٣ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّما على طاعم يطعمه ٦ /١٤٥
١٠ /٣٨٧٠ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ١٦ /١١٤

## ٧٤ ـ كتاب الأشربة

٥ /٢١٤٢ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ٥ /٩٠

باب شرب اللبن

١٠ /٣٨٢٣ من بين فرث ودم لبنا خالصا ١٦ /٦٦

باب شراب الحلواء

٥ /١٨٥٨ أحل لكم الطيبات ٥ /٥

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|

## ٧٥ ـ كتاب المرضى

### باب ما جاء فى كفارة المرض

| | | |
|---|---|---|
| ٥/١٥٧٣ | من يعمل سوءًا يجز به | ٤/١٢٣ |

### باب

| | | |
|---|---|---|
| ١١/٤٢٩٧ | أنى مسنى الضرّ وأنت أرحم الراحمين | ٢١/٨٣ |

## ٧٦ ـ كتاب الطب

### باب الدواء بالعسل

| | | |
|---|---|---|
| ١٠/٣٨٢٦ | فيه شفاء للناس | ١٦/٦٩ |

### باب السحر

| | | |
|---|---|---|
| ٢/٢٠٧ | ولـكن الشياطين كفروا | ٢/١٠٢ |

## ٧٧ ـ كتاب اللباس

| | | |
|---|---|---|
| ٧/٢٦٧٠ | قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده | ٧/٣٢ |

### باب لبس القميص

| | | |
|---|---|---|
| ٩/٣٥٩٠ | اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى | ١٢/٩٣ |

## ٧٨ ـ كتاب الأدب

| | | |
|---|---|---|
| ١٣/٤٧٣٨ | ووصينا الإنسان بوالديه | ٢٩/٨ |
| ١٣/٤٧٩٧ | » » » | ٣١/٤ |
| ١٥/٥٣٤٧ | » » » | ٤٦/١٥ |

### باب الوصاة بالجار

| | | |
|---|---|---|
| ٥/١٢٢٦ | واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا | ٤/٣٩ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب | |
| ٥ /١٤١٩ | من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها | ٤ /٨٥ |
| | باب | |
| ١٥/٥٤٥٧ | يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم | ٤٩/١١ |
| | باب | |
| ١٥/٥٤٦٢ | ولا يغتب بعضكم بعضا | ٤٩/١٢ |
| | باب ما يكره من النميمة | |
| ١٦/٥٨٩٤ | هماز مشاء بنميم | ٦٨ /١١ |
| ١٧/٦٢٥٤ | ويل لكل همزة لمزة | ١٠٤/١ |
| | باب | |
| ١٢/٤٣٣٧ | واجتنبوا قول الزور | ٢٢ /٣٠ |
| | باب | |
| ١٠/٣٨٥٠ | إن الله يأمر بالعدل والإحسان | ١٦ /٩٠ |
| | باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر | |
| ١٧/٦٣٠٥ | ومن شر حاسد إذا حسد | ١١٣/٥ |
| | باب | |
| ١٥/٥٤٦٢ | يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن | ٤٩ /١٢ |
| | باب | |
| ٨ /٣٢٨٨ | يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين | ٩ /١١٩ |
| | باب الصبر على الأذى | |
| ١٤/٥١٣٢ | إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب | ٣٩ /١٠ |
| | باب الحذر من الغضب | |
| ١٤/٥٢٤٨ | وإذا ما غضبوا هم يغفرون | ٤٢ /٣٧ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب إكرام الضيف | |
| ١٥/٥٥٣٠ | ضيف إبراهيم المكرمين | ٥١/ ٢٤ |
| | باب ما يجوز من الشعر والرجز | |
| ١٣/٤٦٤٩ | والشعراء يتبعهم الغاوون | ٢٦/ ٢٢٤ |
| | باب علامة حب الله عز وجل | |
| ٤ /٨٢٨ | إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله | ٣/ ٣١ |
| | باب رفع البصر إلى السماء | |
| ١٧/٦١٣٩ | أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت | ٨٨/ ١٧ |
| | **٧٩ ـ كتاب الاستئذان** | |
| ١٣/٤٨٩١ | يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم | ٣٣/ ٥٣ |
| | باب السلام اسم من أسماء الله تعالى | |
| ٥ /١٤٢٣ | وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها | ٤/ ٨٦ |
| | باب آية الحجاب | |
| ١٣/٤٨٩١ | يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى | ٣٣/ ٥٣ |
| | باب | |
| ١٦/٥٧١٨ | إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس | ٥٨/ ١١ |
| | باب لا يتناجى اثنان | |
| ١٦/٥٧١٦ | يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم | ٥٨/ ٩ |
| | باب طول النجوى | |
| ١٠/٣٩٣٧ | وإذ هم نجوى | ١٧/ ٤٧ |
| | باب كل لهو باطل | |
| ١٣/٤٧٩٣ | ومن الناس من يشترى لهو الحديث | ٣١/ ٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | **٨٠ ـ كتاب الدعوات** | |
| ٥٤٧٦/١٤ | ادعونى أستجب لكم | ٦٠/٤٠ |
| ٥١٧٦/١٤ | إن الذين يستكبرون عن عبادتى | ٦٠/٤٠ |
| | باب أفضل الاستغفار | |
| ٥٩٣٤/١٦ | استغفروا ربكم إنه كان غفارا | ١٠/٧١ |
| ٤/ ٩٧٦ | والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم | ٣/ ١٣٥ |
| | باب التوبة | |
| ٥٨٦٧/١٦ | توبوا إلى الله توبة نصوحا | ٨/٦٦ |
| | باب | |
| ٨/ ٣٢٥١ | وصلّ عليهم | ٩/ ١٠٣ |
| | **٨١ ـ كتاب الرقاق** | |
| | باب مثل الدنيا فى الآخرة | |
| ٥٦٩٠/١٦ | اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة | ٢٠/٥٧ |
| | باب فى الأمل وطوله | |
| ٤/ ١٠٥٧ | فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز | ٣/ ١٨٥ |
| | باب من بلغ ستين سنة | |
| ٤٩٨٦/١٤ | أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر | ٣٧/٣٥ |
| | باب | |
| ٤٨٠٧/١٣ | إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا | ٣٣/٣١ |
| | باب ما يتقى من فتنة المال | |
| ٨/ ٢٩٨٠ | إنما أموالكم وأولادكم فتنة | ٨/ ٢٨ |
| ٥٨٢٥/١٦ | » » » » | ١٥/٦٤ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب | |
| ٨٠٤/٤ | زين للناس حب الشهوات | ١٤/ ٣ |
| | باب المكنزون هم المقلون | |
| ٣٤٢١/ ٩ | من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها | ١٥/١١ |
| | باب الغنى غنى النفس | |
| ٤٤٠٣/١٣ | أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين | ٥٥/٢٣ |
| | باب الرجاء مع الخوف | |
| ٢٠٨٥/ ٦ | لستم على شيء حتى تقيموا التوراة | ٦٨/ ٥ |
| | باب الصبر عن محارم الله | |
| ٥١٣٢/١٤ | إنما يوفى الصابرون أجرهم | ١٠/٣٩ |
| | باب | |
| ٥٨٣٧/١٦ | ومن يتوكل على الله فهو حسبه | ٣/٦٥ |
| | باب حفظ اللسان | |
| ٥٥٠٠/١٥ | ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد | ١٨/٥٠ |
| | باب | |
| ٣٨٤٠/١٠ | وما أمر الساعة إلا كلمح البصر | ٧٧/١٦ |
| | باب | |
| ٤٣٢١/١٢ | إن زلزلة الساعة شيء عظيم | ١/٢٢ |
| ٥٥٨٨/١٥ | أزفت الآزفة | ٥٧/٥٣ |
| ٥٥٩٢/١٥ | اقتربت الساعة | ١/٥٤ |
| | باب | |
| ٦٠٩٣/١٧ | ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون | ٤/٨٣ |
| | باب فى الحوض | |
| ٥٢٧٧/١٧ | إنا أعطيناك الكوثر | ١/١٠٨ |

رقم الجزء والصفحة — رقم السورة والآية

## ٨٢ — كتاب القدر

### باب جف القلم على علم الله


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٤/٥٣٢٤ | وأضله الله على علم | ٢٣/٤٥ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٣/٤٨٦٤ | وكان أمر الله قدرا مقدورا | ٣٨/٣٣ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١١/٤٣٠٩ | وحرام على قرية أهلكناها | ٩٥/٢١ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٠/٣٩٤٣ | وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس | ٦٠/١٧ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٧/٦٣٠٥ | قل أعوذ برب الفلق | ١/١١٣ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٨ /٣١٧٣ | قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا | ٩ /٥١ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٧ /٢٦٨٩ | وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله | ٧ /٤٣ |


## ٨٣ — كتاب الأيمان والنذور

### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٣ /٥٧٧ | لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم | ٢ /٢٢٥ |
| ٦ /٢١٣٤ | » » | ٥ /٨٩ |


### باب


| رقم الجزء والصفحة | الآية | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٦ /٢٤٦٥ | وأقسموا بالله جهد أيمانهم | ٦ /١٠٩ |
| ١٠/٣٨٠٩ | » » » » | ١٦/٣٨ |
| ١٢/٤٥٤٣ | » » » » | ٢٤/٥٣ |
| ١٤/٤٩٨٨ | » » » » | ٣٥/٤٢ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
| --- | --- | --- |
| | باب | |
| ٣/٥٧٧ | لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم | ٢/٢٥٥ |
| ٦/٢١٣٤ | » » » » | ٥/٨٩ |
| | باب | |
| ١٣/٤٨٢٢ | وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به | ٣٣/٥ |
| | باب اليمين الغموس | |
| ١٠/٣٨٥٤ | ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم | ١٦/٩٤ |
| | باب | |
| ٤/٨٦٩ | إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم | ٣/٧٧ |
| ٣/٥٧٤ | ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم | ٢/٢٢٤ |
| ١٠/٣٨٥٥ | ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا | ١٦/٩٥ |
| | باب إذا حرّم طعامه | |
| ١٦/٥٨٥٢ | يا أيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك | ٦٦/١ |
| | باب الوفاء بالنذر | |
| ١٧/٦٠١١ | يوفون بالنذر | ٧٦/٧ |
| | باب النذر فى الطاعة | |
| ٣/٦٨٥ | وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر | ٢/٢٧٠ |


## ٨٤ — كتاب كفارات الأيمان


| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
| --- | --- | --- |
| ٦/٢١٣٤ | فكفارته إطعام عشرة مساكين | ٥/٨٩ |
| | باب | |
| ١٦/٥٨٥٦ | قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم | ٦٦/٢ |
| | باب | |
| ٦/٢١٣٤ | أو تحرير رقبة | ٥/٨٩ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|

## ٨٥ — كتاب الفرائض

| | | |
|---|---|---|
| ٥ /١١٣٨ | يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين | ٤ /١١ |
| | باب | |
| ٥ /١٧٧٦ | يستفتونك قل الله يفتيكم | ٤ /١٧٦ |

## ٨٦ — كتاب الحدود

| | | |
|---|---|---|
| | باب | |
| ٦ /١٩٧٦ | والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما | ٥ /٣٨ |
| | باب | |
| ٦ /١٩٥٤ | إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله | ٥ /٣٣ |
| | باب إثم الزناة | |
| ١٢/٤٥٩٠ | ولا يزنون | ٢٥/٦٨ |
| ١٠/٣٩٢٥ | ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة | ١٧/٣٢ |
| | باب البكران يجلدان وينفيان | |
| ١٢/٤٤٢٦ | الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما | ٢٤/٢ |
| | باب | |
| ٥ /١١٩٤ | ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات | ٤ /٢٥ |
| | باب رمى المحصنات | |
| ١٢/٤٤٤٨ | والذين يرمون المحصنات | ٢٤/٤ |

## ٨٧ — كتاب الديات

| | | |
|---|---|---|
| ٥ /١٤٥١ | ومن يقتل مؤمنا متعمدا | ٤ /٩٣ |
| | باب | |
| ٦ /١٩٥١ | ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا | ٥ /٣٢ |

رقم الجزء والصفحة　　　　رقم السورة والآية

باب

٣ /٣٩٥ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص　　٢ /١٧٨

باب

٦ /٢٠٠٢ أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف　　٥ /٤٥

باب

٥ /١٤٤٢ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا　　٤ /٩٢

## ٨٨ — كتاب استتابة المرتدين

١٣/٤٧٩٧ إن الشرك لظلم عظيم　　٣١/١٣

١٤/٥١٤٨ لئن أشركت ليحبطن عملك　　٣٩/٦٥

باب حكم المرتد

٤ /٨٨٠ كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم　　٣/٨٦

باب قتل الخوارج

٨ /٣٢٨٣ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم　　٩ /١١٥

## ٨٩ — كتاب الإكراه

١٠/٣٨٦٢ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان　　١٦/١٠٦

١٠/٣٨٦٢ ولكن من شرح بالكفر صدرا　　١٦/١٠٦

٤ /٨٢٢ إلا أن تتقوا منهم تقاة　　٣ /٢٨

٥ /١٤٨٦ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم　　٤ /٩٧

## ٩١ — كتاب التعبير

باب رؤيا الصالحين

١٥/٥٤٢٦ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق　　٤٨/٢٧

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب رؤيا يوسف | |
| ٩ /٣٥٠٣ | إذ قال يوسف لأبيه ياأبت | ٤/١٢ |
| | باب رؤيا أهل السجون | |
| ٩ /٣٥٣٨ | ودخل معه السجنَ فتيان | ٣٦/١٢ |

## ٩٢ ـ كتاب الفتن

| | | |
|---|---|---|
| ٨ /٢٩٧٦ | واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة | ٢٥/ ٨ |

## ٩٣ ـ كتاب الأحكام

| | | |
|---|---|---|
| ٦ /٢١٤٥ | أطيعوا الله وأطيعوا الرسول | ٩٢/ ٥ |
| | باب أجر من قضى بالحكمة | |
| ٦ /٢٠١٤ | ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون | ٤٧/ ٥ |
| | باب من نكث بيعه | |
| ١٥/٥٤٠١ | إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله | ١٠/٤٨ |

## ٩٤ ـ كتاب التمنى

| | | |
|---|---|---|
| | باب مايكره من التمنى | |
| ٥ /١٢٠٩ | ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض | ٣٢/ ٤ |
| | باب مايجوز من اللَّوْ | |
| ٩ /٣٤٧٢ | لو أن لى بكم قوة | ٨٠/١١ |

## ٩٥ ـ كتاب أخبار الآحاد

| | | |
|---|---|---|
| ٨ /٣٢٩٨ | فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة | ١٢٢/ ٩ |
| | باب | |
| ١٣/٤٨٩١ | لا تدخلوا بيوت النبى إلّا أن يؤذن لكم | ٥٣/٣٣ |

## ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالسنة

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ | |
| ١٢/٤٥٩٩ | واجعلنا للمتقين إماما | ٢٥/٧٤ |
| | باب ما يكره من القيل والقال | |
| ٦/٢١٦٤ | لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم | ٥/١٠١ |
| | باب ما يكره من التعمق فى الدين | |
| ٦/٢١٠٦ | يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم | ٥/٧٧ |
| | باب ما يذكر من ذم الرأى وتكلف القياس | |
| ١٠/٣٩٢٨ | ولا تقف ما ليس لك به علم | ١٧/٣٦ |
| | باب | |
| ٥/١٥٣٠ | بما أراك الله | ٤/١٠٥ |
| | باب | |
| ٦/٣٢٥٥ | أو يلبسكم شيعا | ٦/٦٥ |
| | باب ما جاء فى اجتهاد القضاة | |
| ٦/١٩٩٥ | ومن لم يحكم بما أنزل الله | ٥/٤٤ |
| ٦/٢٠٠٢ | » » » » | ٥/٤٤ |
| ٦/٢٠١٤ | » » » » | ٥/٤٧ |
| | باب إثم من دعا إلى ضلالة | |
| ١٠/٣٧٩٤ | ومن أوزار الذين يضلونهم | ١٦/٢٥ |
| | باب | |
| ٤/٩٦٨ | ليس لك من الأمر شىء | ٣/١٢٨ |
| | باب | |
| ١١/٤٠٧٣ | وكان الإنسان أكثر شىء جدلا | ١٨/٥٤ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٣/٤٧٥٢ | ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن | ٢٩/٤٦ |
| | باب | |
| ٢/٢٨١ | وكذلك جعلناكم أمة وسطا | ٢/١٤٣ |
| | باب الأحكام التى تعرف بالدلائل | |
| ١٧/٦٢٣٣ | فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره | ٩٩/١١٧ |
| | باب | |
| ١٤/٥٢٤٨ | وأمرهم شورى بينهم | ٤٢/٣٨ |
| ٤/١٠٢٠ | وشاورهم فى الأمر | ٣/١٥٩ |
| ٤/١٠٢٠ | فإذا عزمت فتوكل على الله | ٣/١٥٩ |

## ٩٧ – كتاب التوحيد

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب | |
| ١٠/٤٠١١ | قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن | ١٧/١١٠ |
| | باب | |
| ١٥/٥٥٣٨ | إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين | ٥١/٥٨ |
| | باب | |
| ١٦/٥٩٥٣ | عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا | ٧٢/٢٦ |
| ١٣/٤٨٠٨ | إن الله عنده علم الساعة | ٣١/٣٤ |
| ٥/١٧٦٠ | أنزله بعلمه | ٤/١٦٦ |
| ١٤/٥٢١٤ | وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه | ٤١/٤٧ |
| ١٤/٥٢١٤ | إليه يرد علم الساعة | ٤١/٤٧ |
| | باب | |
| ١٦/٥٧٥٣ | السلام المؤمن | ٥٩/٢٣ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب | |
| ١٧/٦٣١١ | ملك الناس | ٢/١١٤ |
| | باب | |
| ١٠/٣٧٠٦ | وهو العزيز الحكيم | ٤/١٤ |
| ١٤/٥٠٧٢ | سبحان ربك رب العزة | ١٨٠/٣٧ |
| ١٦/٥٨١١ | ولله العزة ولرسوله | ٨/٦٣ |
| | باب | |
| ٦/٢٣٦٦ | وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق | ٧٣/ ٦ |
| | باب | |
| ٥ /١٦٠٣ | وكان الله سميعا بصيرا | ١٣٤/ ٤ |
| | باب | |
| ٦ /٢٣٥٥ | قل هو القادر | ٦٥/ ٦ |
| | باب مقلب القلوب | |
| ٦ /٢٤٦٩ | ونقلب أفئدتهم وأبصارهم | ١١٠/ ٦ |
| | باب | |
| ١٥/٥٦٢٠ | ذو الجلال | ٢٧/٥٥ |
| ١٥/٥٥٤٥ | البر الرحيم | ٢٨/٥٢ |
| | باب | |
| ٤ /٨٢٢ | ويحذركم الله نفسه | ٢٨/ ٣ |
| ٤ /٨٢٨ | » » » | ٣٠/ ٣ |
| ٦ /٢٢١٩ | تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك | ١١٦/ ٥ |
| | باب | |
| ١٣/٤٧٣٣ | كل شىء هالك إلا وجهه | ٨٨/٢٨ |
| | باب | |
| ١١/٤١٧٩ | ولتصنع على عينى | ٣٩/٢٠ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٥/٥٥٩٨ | تجرى بأعيننا | ٥٤/١٤ |
| | باب | |
| ١٦/٥٧٥٣ | هو الله الخالق البارئ المصور | ٥٩/٢٤ |
| | باب | |
| ١٤/٥١٢٢ | لما خلقت بيدىّ | ٣٨/٧٥ |
| | باب | |
| ٦ /٢٢٦٣ | قل أى شىء أكبر شهادة | ٦/ ١٩ |
| | باب | |
| ٩ /٣٤١١ | وكان عرشه على الماء | ١١/٧ |
| | باب | |
| ١٦/٥٩٢٥ | تعرج الملائكة والروح إليه | ٧٠/٤ |
| ١٤/٤٩٧٥ | إليه يصعد الكلم الطيب | ٣٥/١٠ |
| | باب | |
| ١٦/٥٩٩٥ | وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة | ٧٥/٢٢ |
| | باب | |
| ٧ /٢٧٥٥ | إن رحمة الله قريب من المحسنين | ٧ /٥٦ |
| | باب | |
| ١٤/٤٩٨٨ | إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا | ٣٥/٤١ |
| | باب | |
| ١٤/٥٠٧٠ | ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين | ٣٧/١٧١ |
| | باب | |
| ١٠/٣٨٤٠ | إنما قولنا لشىء | ١٦/٤٠ |
| | باب | |
| ١١/٤١٣٠ | لو كان البحر مدادا | ١٨/١٠٩ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| | باب | |
| ١٣/٤٧١٥ | إنك لاتهدى من أحببت | ٢٨/٥٦ |
| | باب | |
| ١٤/٤٩٥١ | ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له | ٣٤/٢٣ |
| ٣/٦٥٨ | من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه | ٢/٢٥٥ |
| | باب | |
| ١٣/٤٦٥٧ | وإنك لتلقى القرآن | ٢٧/٦ |
| | باب | |
| ٥/١٧٦٠ | أنزله بعلمه والملائـكة يشهدون | ٤/١٦٦ |
| | باب | |
| ١٥/٥٤١٢ | يريدون أن يبدلوا كلام الله | ٤٨/١٥ |
| ١٦/٦١٢٥ | إنه لقول فصل * وما هو بالهزل | ٨٦/١٣و١٤ |
| | باب | |
| ٥/١٧٢٣ | وكلم الله موسى تـكليما | ٤/١٦٤ |
| | باب | |
| ٢/٣١٠ | فاذكرونى أذكركم | ٢/١٥٢ |
| ٩/٣٣٨٠ | واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه | ١٠/٧١ |
| | باب | |
| ٢/٦٨ | فلا تجعلوا لله أندادا | ٢/٢٢ |
| ١٤/٥١٨٨ | وتجعلون له أندادا | ٤١/٩ |
| ١٢/٤٥٩٠ | والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر | ٢٥/٦٨ |
| ١٤/٥١٤٨ | ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك | ٣٩/٦٥ |
| ٩/٣٦٠٤ | وما يؤمن أكثر بالله إلا وهم مشركون | ١٢/١٠٦ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ١٣/٤٧٦٠ | ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله | ٢٩/٦١ |
| ١٤/٥٢٩٠ | ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله | ٤٣/٨٧ |
| ١٢/٤٥٦٣ | وخلق كل شيء فقدره تقديرا | ٢٥/٢ |
| ١٠/٣٧٤٨ | ما ننزل الملائكة إلا بالحق | ١٥/٨ |
| ١٣/٤٨٣٠ | ليسأل الصادقين عن صدقهم | ٣٣/٨ |
| ١٠/٣٧٤٨ | وإنا له لحافظون | ١٥/٩ |
| ١٤/٥١٤٠ | والذي جاء بالصدق وصدّق به | ٣٩/٣٣ |
| | باب | |
| ١٤/٥١٩٨ | وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم | ٤١/٢٢ |
| | باب | |
| ١٥/٥٦٢١ | كل يوم هو في شأن | ٥٥/٢٩ |
| ١١/٤٢٤٤ | ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث | ٢١/٢ |
| ١٣/٤٦٠٦ | » » » » » | ٢٦/٥ |
| ١٦/٥٨٢٩ | لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا | ٦٥/١ |
| ١٤/٥٢٢٤ | ليس كمثله شيء وهو السميع البصير | ٤٢/١١ |
| | باب | |
| ١٦/٥٩٩١ | لا تحرك به لسانك لتعجل به | ٧٥/١٦ |
| | باب | |
| ١٦/٥٨٨٣ | وأسروا قولكم أو اجهروا به | ٦٧/١٣ |
| ١٦/٥٨٨٤ | ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير | ٦٧/١٤ |
| | باب | |
| ٦/٢٠٦٧ | يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك | ٥/٦٧ |

| رقم الجزء والصفحة | | رقم السورة والآية |
|---|---|---|
| ٥٩٥٦/١٦ | ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم | ٢٨/٧٢ |
| ٢٧٦٣/ ٧ | أبلغكم رسالات ربى | ٦٢/ ٧ |
| | باب | |
| ٨٩١/ ٤ | قل فأتوا بالتوراة فاتلوها | ٩٣/ ٣ |
| | باب | |
| ٥٩٢٨/١٦ | إن الإنسان خلق هلوعا | ١٩/٧٠ |
| | باب | |
| ٥٩٦٣/١٦ | فاقرءوا ما تيسر من القرآن | ١٧/٥٤ |
| | باب | |
| ٥٥٩٩/١٥ | ولقد يسرنا القرآن للذكر | ١٧/٥٤ |
| ٥٦٠٠/١٥ | » » » » | ٢٢/٥٤ |
| ٥٦٠١/١٥ | » » » » | ٣٢/٥٤ |
| ٥٦٠٢/١٥ | » » » » | ٤٠/٥٤ |
| | باب | |
| ٦١١٨/١٧ | بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ | ٨٥/٢٢ و٢٣ |
| ٥٥٤١/١٥ | والطور * وكتاب مسطور | ٥٢/١ و٢ |
| | باب | |
| ٥٠٤٨/١٤ | والله خلقكم وما تعملون | ٩٦/٣٧ |
| ٥٦٠٦/١٥ | إنا كل شيء خلقناه بقدر | ٤٩/٥٤ |
| ٢٦٩٩/ ٧ | إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض | ٥٤/ ٧ |
| | باب | |
| ٤٢٧٧/١١ | ونضع الموازين بالقسط | ٤٧/٢١ |


تم فهرس الموضوعات

# فهرس هذا الفهرس


| الكتاب | رقم الصفحة |
| --- | --- |
| ١ ـ كتاب الوحى | ٦ |
| ٢ ـ كتاب الإيمان | ٦ |
| ٣ ـ كتاب العلم | ٩ |
| ٤ ـ كتاب الوضوء | ١٠ |
| ٥ ـ كتاب الغسل | — |
| ٦ ـ كتاب الحيض | — |
| ٧ ـ كتاب التيمم | ١١ |
| ٨ ـ كتاب الصلاة | — |
| ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة | ١٢ |
| ١٠ ـ كتاب الأذان | — |
| ١١ ـ كتاب الجمعة | — |
| ١٢ ـ كتاب صلاة الخوف | ١٣ |
| ١٣ ـ كتاب العيدين | — |
| ١٥ ـ كتاب الاستسقاء | — |
| ١٦ كتاب الكسوف | — |
| ١٧ ـ كتاب سجود القرآن | — |
| ١٩ ـ كتاب التهجد | ١٤ |
| ٢٣ ـ كتاب الجنائز | — |
| ٢٤ ـ كتاب الزكاة | — |
| ٢٥ ـ كتاب الحج | ١٥ |
| ٢٦ ـ كتاب العمرة | ١٦ |
| ٢٧ ـ كتاب المحصر | — |
| ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد | ١٧ |
| ٣٠ ـ كتاب الصوم | — |
| ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر | — |
| ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف | — |
| ٣٤ ـ كتاب البيوع | ١٨ |
| ٣٧ ـ كتاب الإجارة | ١٩ |
| ٣٩ ـ كتاب الكفالة | — |
| ٤١ ـ كتاب الحرث والمزارعة | — |
| ٤٢ ـ كتاب المساقاة | — |
| ٤٣ ـ كتاب الاستقراض وأداء الديون | — |
| ٤٦ ـ كتاب المظالم | ٢٠ |
| ٤٨ ـ كتاب الرهن | — |
| ٤٩ ـ كتاب العتق | — |
| ٥٠ ـ كتاب المكاتب | ٢١ |
| ٥١ ـ كتاب الهبة | — |
| ٥٢ ـ كتاب الشهادات | ٢٢ |
| ٥٣ ـ كتاب الصلح | — |
| ٥٥ ـ كتاب الوصايا | ٢٣ |

| رقم الصفحة | |
|---|---|
| ٢٣ | ٥٦ ـ كتاب الجهاد |
| ٢٥ | ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس |
| ٢٦ | ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة |
| — | ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق |
| ٢٩ | ٦٠ ـ كتاب الأنبياء |
| ٣٥ | ٦١ ـ كتاب المناقب |
| — | ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار |
| — | ٦٤ ـ كتاب المغازى |
| ٣٦ | ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن |
| ٣٧ | ٦٧ ـ كتاب النكاح |
| ٣٩ | ٦٨ ـ كتاب الطلاق |
| ٤١ | ٦٩ ـ كتاب النفقات |
| — | ٧٠ ـ كتاب الأطعمة |
| ٤٢ | ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد |
| — | ٧٤ ـ كتاب الأشربة |
| ٤٣ | ٧٥ ـ كتاب المرضى |
| — | ٧٦ ـ كتاب الطب |
| — | ٧٧ ـ كتاب اللباس |
| — | ٧٨ ـ كتاب الأدب |

| رقم الصفحة | |
|---|---|
| ٤٥ | ٧٩ ـ كتاب الاستئذان |
| ٤٦ | ٨٠ ـ كتاب الدعوات |
| — | ٨١ ـ كتاب الرِّقاق |
| ٤٨ | ٨٢ ـ كتاب القدر |
| — | ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور |
| ٤٩ | ٨٤ ـ كتاب كفارات الأيمان |
| ٥٠ | ٨٥ ـ كتاب الفرائض |
| — | ٨٦ ـ كتاب الحدود |
| — | ٨٧ ـ كتاب الديات |
| ٥١ | ٨٨ ـ كتاب استتابة المرتدين |
| — | ٨٩ ـ كتاب الإكراه |
| — | ٩١ ـ كتاب التعبير |
| ٥٢ | ٩٢ ـ كتاب الفتن |
| — | ٩٣ ـ كتاب الأحكام |
| — | ٩٤ ـ كتاب التمنى |
| — | ٩٥ ـ كتاب أخبار الآحاد |
| ٥٣ | ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالله |
| ٥٤ | ٩٧ ـ كتاب التوحيد |

# ٤ — فهرس أسماء المؤلفين


## باب الهمزة

الآلوسى المفسر
ابن أبى الحديد
ابن أبى الدنيا
ابن الأثير صاحب الكامل
ابن الأثير صاحب المثل السائر
ابن الأثير صاحب النهاية
ابن الأنبارى
ابن بطال
ابن تيمية
ابن التين
ابن جرير الطبرىّ (أبو جعفر)
ابن الجزرى
ابن جماعة
ابن جنّى
ابن الحاجب
ابن حجر العسقلانىّ
ابن حزم
ابن الحصار
ابن خرداد (ابن خُرْدَاذْبَهْ)
ابن خلدون
ابن دريد (أبو بكر)
ابن دقيق العيد
ابن رشد
ابن سعد
ابن السكيت
ابن السمعانى
ابن السيد
ابن سيدهْ
ابن الطلاع (صاحب الأحكام)
ابن عبد البرّ
ابن عبد السلام
ابن عربى
ابن العربى (القاضى)
ابن عرفة
ابن عطية
ابن قدامة
ابن كثير (الحافظ)
ابن مالك
ابن مفلح الحنبلى
ابن منده
ابن المنذر
ابن هشام
أبو إسحاق الشاطبىّ

أبو إسحق النحوىّ
أبو إسماعيل الأنصارىّ
أبو البقاء العكبرىّ
أبو بكر الباقلانىّ
أبو بكر الخلّال
أبو بكر بن فورك (صاحب التأويلات)
أبو بكر القاضى
أبو جعفر بن الزبير
أبو حاتم (صاحب المعمرين)
أبو الحسن بن القطان
أبو حيّان التوحيدىّ
أبو حيّان المفسر
أبو الخطاب عمر بن دحية
أبو سعد الحسن بن كرامة الجشمىّ اليمانىّ
أبو السعود
أبو شامة
أبو العباس أحمد بن زروق
أبو عبد الله الشريف الغرناطىّ
أبو عبيد
أبو على الجرجانىّ (صاحب النظم)
أبو على الفارسىّ
أبو الفضل الإيرانىّ
أبو القاسم بن سلامة
أبو مسعود
أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهانىّ
أبو منصور (صاحب التأويلات)
أبو نعيم الأصفهانىّ
أبو هاشم بن خضر
أبو يعلى القاضى
أبو يوسف (الإمام)
أحمد بن حنبل
أدوارسبوس
ارنست دى يونس
الأزهرىّ
الأسفراينىّ
إسماعيل القاضى والفاكهى
الإسنوىّ
الأشعرىّ (أبو الحسن)
إمام الحرمين
الأموىّ، صاحب المغازى

باب الباء

برهان الدين البقاعىّ
البزار
البغوىّ
البلقينىّ
البيضاوىّ (القاضى)
البيهقىّ

## باب التاء

التبريزىّ

التفتازانى

التوربشتى

## باب الثاء

الثعالبي

ثعلب

الثعلبيّ

## باب الجيم

الجاحظ

الجاربردىّ

الجرجانىّ ( السيد )

الجصاص

جمال الدين الخونسارى

الجوهرىّ

الجوينىّ

## باب الحاء

الحارث المحاسبىّ

الحاكم

الحرّالىّ

حسن چلبى ( العلامة )

## باب الخاء

الخازن

خالد ( الشيخ )

الخطابىّ

الخيالىّ

خير الدين الآلوسىّ

## باب الدال

الدانى

الديلمىّ

## باب الذال

الذهبيّ ( الحافظ )

## باب الراء

الرازىّ ( الفخر )

الراغب الأصفهانىّ

الرافعىّ

رحمة الله الهندىّ

الرضى النحوىّ

الرضى ( الشريف )

## باب الزاى

الزبيدىّ ( شارح القاموس )

الزركشيّ
الزمخشريّ
زين العابدين بير محمد دره

## باب السين

السبكيّ
السخاويّ
السعد
سعدى
السفارينيّ
السّكاكيّ
السمرقنديّ
السمين
السهرورديّ
سيبويه
السيلكوتى
السيوطيّ ( جمال الدين )

## باب الشين

الشافعيّ ( الإمام )
الشعرانيّ
شمس الدين ابن القيّم
الشهاب الخفاجيّ
الشهرستانيّ
الشوكانيّ
الشيرازيّ

## باب الصاد

الصاغانى
صديق خان

## باب الطاء

الطباطبائى
الطبرسيّ
الطوسي
الطيبي

## باب العين

عبد الله بن أحمد
عبد الله بك ( الشيخ )
عبد الله الهندى ( السيد )
عبد الجبار ( القاضى )
عبد الرزاق ( صاحب المصنف )
عبد العزيز بن يحي الكنانى
عبد القادر الجيلانى
عبد الكريم بن مالك الجزرى
عبد المؤمن الدمياطى
العتبي

عز الدين بن عبد السلام
العضد
العطار
علاء الدين الخازن
عياض ( القاضى )

## باب الغين

الغزالى

## باب الفاء

الفارسىّ
الفاسى ، على القاموس
الفاكهى وإسماعيل القاضى
الفرّاء
الفلّانى
الفنارى
الفيروزابادى

## باب القاف

القاشانى
القالى صاحب الأمالى
القتبى ( ابن قتيبة )
القراب
القرافى
القرطبى
قره على
القسطلانى
القفال

## باب الكاف

الكازرونى
الكرمانى
الكواشى

## باب الميم

ما رسيه
الماوردىّ ( الإمام )
المبرّد
المجد ( صاحب البصائر )
محمد بن إبراهيم الوزير
محمد بن إسحاق
محمد بن إسماعيل الأمير
محمد بن بحر الرهنىّ
محمد عبده المصرى ( الأستاذ الإمام )
محمد بن المرتضى اليمانى
محيي الدين بن عربى
محيي الدين النووى
المرتضى ( الشريف )
المرجانى

المزنى
المقريزى
مكىّ ( صاحب الكشف )
المنذرىّ
موفق الدين بن قدامة
المهايمىّ

## باب النون

الناصر
النسفى
النووىّ
النويرى

## باب الهاء

الهمدانىّ ( صاحب الإكليل )
الهمذانىّ

## باب الواو

الواحدىّ ( الإمام أبو الحسن )
الواقدىّ
ولىّ الدين البهلوىّ
ولىّ الدين التبريزىّ

## باب الياء

يحيي بن الحسن ( الإمام )

## ٥ — فهرس أسماء الكتب التى تناولها التفسير


الإبانة
الإبانة ، للباقلانىّ
إبراز الحكم ، فى شرح حديث رفع القلم
إبطال التأويل
الأبنية ، لابن القطاع
الإتقان
الأثر الجليل ، لقدماء وادى النيل
اجتماع الجيوش الإسلامية
الأحكام ، لابن الطلاع
الأحكام ، للجصاص
الأحكام ، للفاكهى وإسماعيل القاضى
إحكام النظر
إحياء علوم الدين
أدب الكاتب
الأذكار
أساس البلاغة
أسباب النزول ، للسيوطىّ
الاستعاذة
الاستيعاب
الإسلام والنصرانية
الأسماء والصفات، للبيهقىّ
الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز
أشهر مشاهير الإسلام
أصول التفسير
الأطراف لأبى مسعود
إظهار الحق
أعلام الموقعين
أعلام النبوة
إغاثة اللهفان
الاقتصاد فى الاعتقاد
أقسام القرآن
الإكليل ، للسيوطىّ
الإكليل للهمدانىّ
أمالى ابن الحاجب
أمالى السهيلىّ
أمالى القالى
الأنساب
الانتصار ، للقاضى أبى بكر
الانتصاف
إنجيل برنابا
إنجيل لوقا
إنجيل متّى
إنجيل يوحنا
الأنوار

إيثار الحق على الخلق
الإيجاز والإعجاز
الإيضاح
إيقاظ الهمم
الإيمان ، لابن تيمية
البحر
بدائع الفوائد
البدع والحوادث
البراهين الإنجيلية
ضد الأباطيل البابوية
البرهان
البسيط للواحدىّ
البصائر
البصائر ، للفيروزابادى
البيان والتحصيل ، فى شرح القتبية
التاج
تاريخ العتبىّ
تاريخ ابن عساكر
تاريخ الكنيسة
تأسيس التقديس
تأويل الأسماء الواقعة فى الكتب السالفة
التأويلات لابن فورك
التأويلات ، لأبى منصور
التبصرة
تحفة المتقين
تخجيل الأناجيل
تخريج أحاديث الرافعىّ
تخريج أحاديث الهداية
التدمرية
تذكرة الحفاظ
التصريح للشيخ خالد
التصفية
تفسير ابن كثير
تفسير أبى حيان
تفسير البقاعىّ
تفسير الرازىّ
تفسير الراغب
تفسير السمرقندىّ
تفسير سورة الإخلاص
تفسير سورة العصر
تفسير صديق خان
تفسير الطبرسىّ
تفسير الكازرونىّ
تفسير ابن كرامة الجشمىّ
تفسير الكواشىّ
تفسير المنار
تفسير المهايمىّ
التفكر والاعتبار

التقريب
التلخيص الحبير
التمهيد
التمهيد للأسنوىّ
التنوير فى مولد السراج المنير
تنوير الاقتباس
تنوير المقياس
التهذيب
التهذيب للتبريزىّ
التهذيب للنووىّ
التوراة
التوكل والاعتبار
الجامع الصغير
الجامع الكبير
جامع البيان
جامع بيان العلم
الجغرافية العمومية
جلاء الأفهام
جمال القرّاء
جواب أهل الإيمان
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
الجواب الفسيح
الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى
جواهر القرآن
الجواهر والدرر
حادى الأرواح
الحجة البالغة
الحسبة فى الإسلام
الحكمة فى خلق المخلوقات
حواشى البيضاوىّ
حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب
حواشى جامع البيان
حواشى شرح المواقف
الحيوان
الخراج
الخطط
الدرر البهية
الدرر والغرر
الدر المنثور
الدلائل للبيهقىّ
دلائل النبوة ، للأصفهانىّ
الذخيرة
ذخيرة الألباب
الذريعة
ذم التأويل
ذم الكلام وأهله
رحمة الأمة
الرد على الجهمية

الرد على المنطقيين
رسالة التوحيد
الرسالة ، للشافعىّ
رسالة بولس الثانية
الرسالة القبرصية
الرسالة المخرسة
الرسالة المدنية
رفع الملام عن الأئمة الأعلام
الروح لابن القيم
الروض الأنف
الروضة
الروضة لابن قدامة
الروضة الندية
ريحانة النفوس
زاد المستنقع
زاد المعاد
الزهد ، لابن حنبل
زهر الأكم
زوائد المشكاة
السنة ، لأبى بكر الخلال
سوسنة سليمان
السياسة الشرعية
السيرة
السيل الجرار
السيوف البتّارة
الشافى
شرح الإبانة
شرح أسماء الله الحسنى ، للغزالى
شرح التجريد
شرح حديث النزول
شرح ديوان المتنبّي لابن جنّى
شرح السنّة
شرح الشافية
شرح الشفا
شرح الفاسى ، على القاموس
شرح القاموس
شرح الكشاف
شرح مسلم
شرح المفصل
شرح المقاصد
شرح مقصورة حازم
شرح المنازل
شرح المهذب
شرح المواقف
شرح الموطأ
شرح نظم الفصيح
شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد
الشفا ، للقاضى عياض

الشُعَب
الصحابة ، لابن منده
الصحاح
صفوت الاعتبار
طبقات ابن سعد
طبقات السبكىّ
طبقات الشهداء المسيحيين
طريق الهجرتين
العباب
العِبَر لابن خلدون
عرائس الأفراح
عروس الأفراح
عقيدة السفارينىّ
العقيدة الواسطية
عقيدة المسلمين فى بعض المسائل القرآنية
علم اليقين
علوم الحديث
العلوّ ، للذهبىّ
العواصم
العناية
الغنية ، للجيلانى
غيث النفع
الفاصل بين الحق والباطل
فتح البارى
فتح البيان
فتح القدير
الفتح المبين
الفتوحات المكية
الفرائد
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
الفرقان بين الحق الباطل
الفصوص
فصول البدائع
الفصيح لثعلب
فضائل القرآن
فقه اللغة
الفلك الدائر
الفوز الكبير
فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة
القاموس
القواطع
قواعد التصوف
الكافية الشافية
الكامل ، للمبرّد
الكامل ، لابن الأثير
الكشّاف
كشف المغطى ، فى تبيين الصلاة الوسطى
الكشف ، لمكى

الكنز الثمين فى أخبار القديسين
الكنوز
اللباب
لباب التأويل
لباب النقول
لسان الصدق
لسان العرب
لطائف الأعلام
اللطائف ، للقسطلانى
اللطائف واليواقيت
متشابه الحديث ، لابن فورك
متشابه القرآن
المثل السائر
المحكم
المختصر ، للشافعى
مختصر المزنى
مدارج السالكين
المدارك
المدحة الكبرى
المدنية ، لابن تيمية
مرشد الطالبين
المسالك والممالك
المستصفى
المستوفى
مشكاة المصابيح
المشكل ، لابن قتيبة
المصباح
المصنف ، لعبد الرزاق
المضنون ، للغزالى
المعارف
المعتقد الصحيح ، فى صلب السيد المسيح
المعمرين ، لأبى حاتم
مغازى الأموى
المغنى ، لابن هشام
مفاتيح الأصول فى علم الأصول
المفتاح ، للسكاكى
مفتاح دار السعادة
المقابسات
المقاصد
مقدمة ابن خلدون
المقصد الأسنى
مقصورة ابن دريد
الملل والنحل ، لابن حزم
الملل والنحل ، للشهرستانى
مناهج الأدلة
المناسبات ، للبقاعى
منتخب كنز العمال
المنتقى

منهاج السنة
منهاج العابدين
منية الأذكياء ، فى قصص الأنبياء
المهذب
الموافقات
المواقف للعضد
المواهب اللدنية
الميزان ، للشعرانى
الناسخ والمنسوخ
النشر ، لابن الجزرى
النصرانية الحقة
النظام والإسلام
نقد المحصل
نقض عثمان بن سعيد
النهاية
نهج البلاغة
النهر
النهر ، لأبى حيّان
النهر المورود ، فى تفسير آية هود
نيل الأوطار
وبل الغمام
الوجيز ، للغزالى
الوسيلة ، لابن تيمية
وفية الأسلاف وتحبة الأخلاف
اليواقيت والجواهر